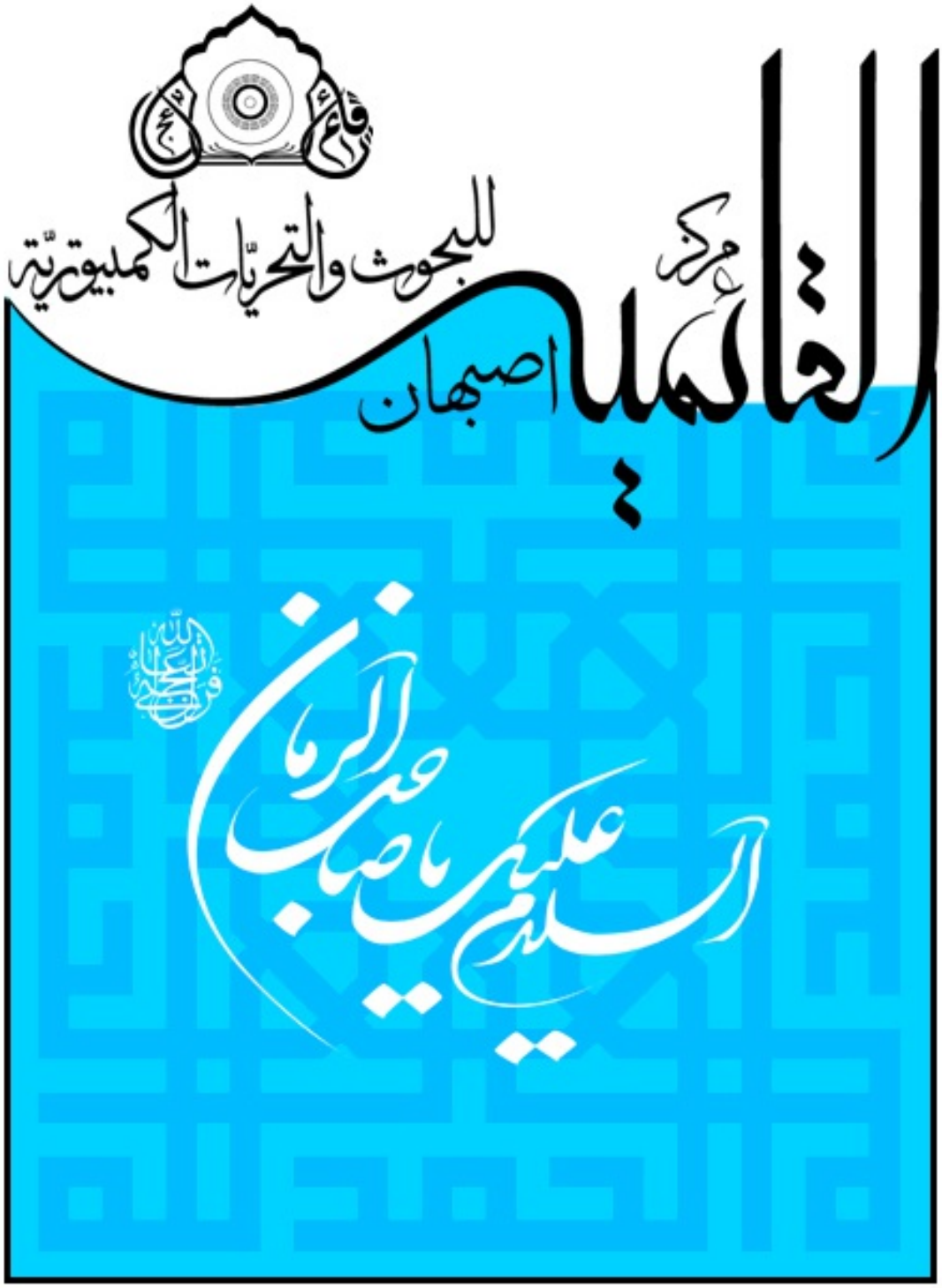

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

معالم في الطريق

نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين

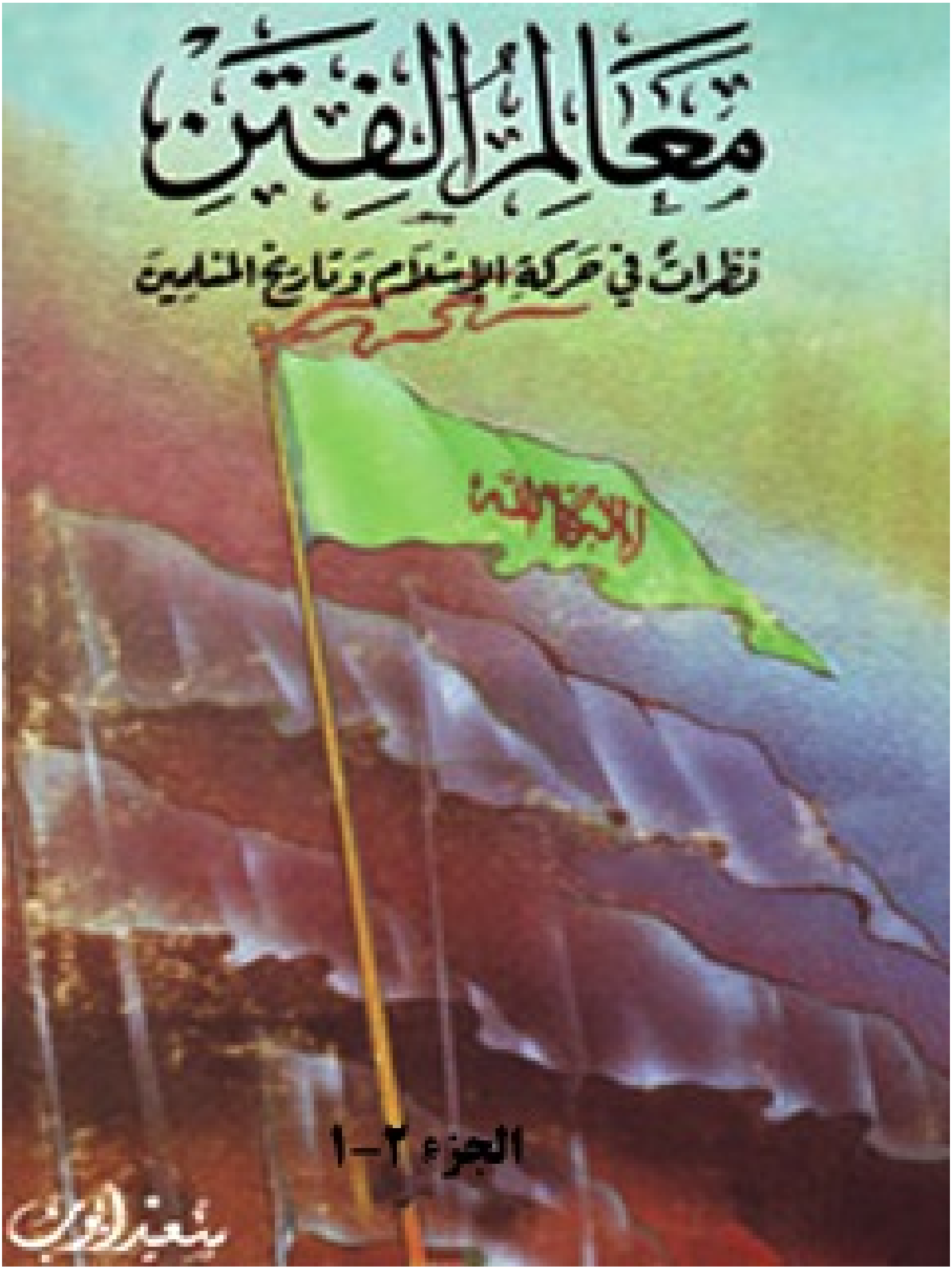

الجزء ٢-١

ينغيدا

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین

کاتب:

سعید ایوب

نشرت فی الطباعة:

مجمع احیاء الثقافه الاسلامیه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
معالم الفتن نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
المجلد۱ ----- ۱۴
فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۱) ----- ۱۴
تصدیر ----- ۱۸
الاهداء ----- ۱۹
المقدمة ----- ۱۹
النور الذی أضاء ----- ۲۱
نور فی أعماق الوجود ----- ۲۱
المنابع ----- ۲۱
نظرات علی طریق الابتلاء ----- ۲۳
برنامج الشیطان ----- ۲۴
قطع الطریق علی الأنبیاء والرسل ----- ۲۵
قطع الطریق علی الفطرة ----- ۲۷
قطع الطریق علی الدعوة ----- ۲۸
حصار برنامج الشیطان ----- ۳۱
النور والسحب الداکنة ----- ۳۳
من مداخل الدعوة الخاتمة ----- ۳۵
عواصف الصد عن سبیل الله ----- ۳۶
دائرة النجس ----- ۳۷
حصار دائرة النجس ----- ۳۹
دائرة الرجس ----- ۴۰

تیار الذین فی قلوبهم مرض ---- ۴۴
جهاز الرجس التخریبی ---- ۴۹
استهداف النبی ---- ۴۹
استهداف الدعوة ---- ۵۱
استهداف القوة العسکریة ---- ۵۲
جهاد الرسول لتیارات الصد الداخلیة ---- ۵۶
النور و حصار دائرة الرجس ---- ۵۹
من الذی یدعو و یختار ---- ۵۹
دائرة الطهر ---- ۶۳
من هم المطهرون ---- ۶۴
اعلان الناس بمن هم المطهرون ---- ۶۵
القرآن والمطهرون والحوض ---- ۶۹
من حقوق المطهرین ---- ۷۱
من مناقب أهل البیت ---- ۷۸
من مناقب علی بن أبی طالب ---- ۷۸
من مناقب فاطمة ---- ۷۸
من مناقب الحسن والحسین ---- ۷۹
النور والولایة ---- ۸۲
تعریف من هو الصحابی ---- ۸۵
ولایة الله عزوجل ---- ۸۸
ولایة رسول الله ---- ۹۰
ولایة علی بن أبی طالب ---- ۹۳
علی بن أبی طالب والعلم ---- ۹۳
اضواء علی اختیار الله لعلی ---- ۹۵

اضواء على قيادة على ----- ۹۷
حجة الوداع و إعلان الولاية ----- ۱۰۴
حجة الوداع ----- ۱۰۶
يوم غدير خم ----- ۱۰۸
الحجة على من لم يشهد الغدير ----- ۱۱۴
النور بين التحذير والتبشير ----- ۱۱۸
النبى يحذر من أصول الفتن ----- ۱۱۹
الرسول و نظرات على واقع بعيد ----- ۱۲۱
النبى يحذر من رموز الفتن ----- ۱۲۴
الرسول و إقامة الحجة على القريب والبعيد ----- ۱۳۱
خاتمة المطاف عند الحوض يوم القيامة ----- ۱۳۶
غروب الشمس والقمر ----- ۱۴۰
من معالم الغروب ----- ۱۴۲
ذعر على أعتاب الغروب ----- ۱۴۸
القرارات الأخيرة للنبى ----- ۱۵۲
الامر الواقى من الضلال ----- ۱۵۳
الامر العسكرى الأخير ----- ۱۵۷
الامر الطبى الأخير ----- ۱۵۸
الوصايا ----- ۱۵۹
الطريق إلى الفتن ----- ۱۶۱
الاختيار أضواء على سقيفة بنى ساعدة ----- ۱۶۱
الطريق إلى السقيفة ----- ۱۶۲
اضواء على الأنصار ----- ۱۶۵
صراع داخل السقيفة ----- ۱۶۶

صراع خارج السقيفة ----- ۱۶۹
هتاف الأنصار ----- ۱۷۰
الخلافة فی قریش ----- ۱۷۵
دائرة الرأی ----- ۱۷۹
من معالم الرأی ----- ۱۸۰
نظرات علی فدک ----- ۱۸۱
تساؤلات علی الطریق ----- ۱۸۶
التعتیم والظهور ----- ۱۸۷
التضیق علی روایة الحدیث الشریف ----- ۱۸۸
من آثار عدم روایة الحدیث ----- ۱۹۱
القص فی المساجد ----- ۱۹۱
الاقتحام بالشعر ----- ۱۹۶
الغاء سهم المؤلفة قلوبهم ----- ۲۰۰
نظرات علی الطریق ----- ۲۰۲
الامراء والفتن ----- ۲۰۵
امراء علی الطریق ----- ۲۰۶
الامراء والفتوحات ----- ۲۱۳
رحلة الخراج ----- ۲۱۵
نهایة الطریق ----- ۲۱۹
مشهود فی أول الطریق ----- ۲۲۱
و جاء بنو أمیة ----- ۲۲۴
یوم الشوری ----- ۲۲۵
ریاح بنی أمیة ----- ۲۲۹
ظهور النفاق ----- ۲۳۱

الاحتجاج السلمی ----- ۲۳۳
الرد علی الاحتجاج السلمی ----- ۲۳۷
البطانة السوء ----- ۲۴۰
العاصفة والبحث عن الذات ----- ۲۴۲
من الذی قتل عثمان ----- ۲۴۷
و ظهر القمر ----- ۲۵۵
من معالم الحکومة الدینیة ----- ۲۵۵
النداء الحق ----- ۲۵۹
الظهور ----- ۲۶۰
اصلاحات علویة ----- ۲۶۲
قرار عزل أمراء الفتن ----- ۲۶۲
قرار التسویة فی الأموال ----- ۲۶۳
قرارات قیادیة ----- ۲۶۷
قرار روایة العلم و منع القص ----- ۲۷۵
العالم العامل الزاهد ----- ۲۷۹
البغاة والقمر ----- ۲۸۲
ضجیج فی أعماق الحجة ----- ۲۸۵
الناکثون فی أعماق الحجة ----- ۲۸۸
لقاء فی مکة ----- ۲۹۱
نظرات علی طریق البغی ----- ۲۹۳
اصداء یوم غدیر خم ----- ۲۹۶
علی هامش أصداء یوم خم ----- ۲۹۹
المجلد۲ ----- ۳۰۲
فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۲) ----- ۳۰۲

معارک الإمام ----- ۳۰۵
یوم الجمل ----- ۳۰۵
الناکثون فی البصرة ----- ۳۰۶
مسیر الإمام علی ----- ۳۰۹
علی أعتاب الحرب ----- ۳۱۴
الحرب ----- ۳۱۷
ایام صفین ----- ۳۲۳
اقامة الحجة ----- ۳۲۵
معاویة و سیاسة التشکیک ----- ۳۲۷
الاعلام العلوی ----- ۳۳۴
الاصطفاف للقتال ----- ۳۴۱
القتال ----- ۳۴۴
مشاهد من میدان القتال ----- ۳۴۹
عندما اتخذوا المصاحف جدارا ----- ۳۵۸
التخاذل و غیاب القمر ----- ۳۶۳
خیمة التحکیم ----- ۳۶۴
قتال المارقین ----- ۳۶۸
اشاره ----- ۳۶۸
التخاذل ----- ۳۷۳
غارات معاویة ----- ۳۸۰
لیلة بکی فیها القمر ----- ۳۸۳
وغاب القمر ----- ۳۸۵
لهیب اللیل ----- ۳۸۹
جداول الدماء ----- ۳۹۵

عاصفة الأمطار الحمضية ----- ۳۹۵
بيعة الحسن بن على ----- ۳۹۵
القتال بالذهب والفضة ----- ۳۹۸
الغدر ----- ۴۰۱
وفاء و حقائق على الطريق ----- ۴۰۳
نظرات فى مقعد جديد ----- ۴۰۸
اتهام الأمين ----- ۴۰۹
ائتمان الخائن ----- ۴۱۶
دماء حول كهف النفاق ----- ۴۲۳
قلوب من نحاس ----- ۴۲۴
مقتل حجر بن عدى ----- ۴۲۵
هل رأيت آية النار ----- ۴۲۹
مقتل أبى عبدالله الحسين ----- ۴۳۲
و جاء وفد أغيلمة قريش ----- ۴۳۲
ابناؤنا خير من أبنائهم ----- ۴۳۴
النبى يبكى ----- ۴۳۸
على مفترق الطرق ----- ۴۴۳
الرسائل والحصار ----- ۴۴۶
العزيمة والإصرار ----- ۴۴۸
التخويف والإرهاب ----- ۴۵۰
صمود على الطريق ----- ۴۵۴
و جاء الطغاة ----- ۴۵۸
القتلة واللصوص ----- ۴۶۳
سلام عليک أبا عبدالله ----- ۴۶۷

صرخات الحسین ---- ۴۶۸
و الله إنه لیحزننی قتل الحسین ---- ۴۶۹
بکاء و أحداث ---- ۴۷۱
فی دار أم سلمة ---- ۴۷۱
فی دار عبدالله بن عباس ---- ۴۷۲
فی قصر الإمارة ---- ۴۷۲
فی قصر الخلافة ---- ۴۷۴
الظهور والتشویه ---- ۴۷۶
نظرات علی کربلاء ---- ۴۷۸
الاستعباد ---- ۴۷۹
یوم الحرة أو یوم الأنصار ---- ۴۷۹
الوحل ---- ۴۸۴
حرکة عبدالله بن عمر بن الخطاب ---- ۴۹۲
حرکة أنس بن مالک ---- ۴۹۴
ما أشبه اللیلة بالبارحة ---- ۵۰۰
ریاح الفرعونیة ---- ۵۰۰
تشابه القلوب ---- ۵۰۴
دائرة الرؤیة الفرعونیة ---- ۵۰۶
نظرات علی الأطلال ---- ۵۱۵
صدود وردود ---- ۵۱۵
افرازات فکریة ---- ۵۲۱
من مقدمات الإفرازات الفکریة ---- ۵۳۷
آراء و شهود ---- ۵۴۹
آراء ---- ۵۴۹

الشهود ----- ۵۶۰

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۵۶۸

معالم الفتن نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین

اشارة

سرشناسه : ایوب، سعید

Ayyub, Said

عنوان و نام پدیدآور : معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین/ سعید ایوب

مشخصات نشر : قم: مجمع احیاآ الثقافه الاسلامیه، ۱۴۱۶ق. = - ۱۳۷۴.

شابک : بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتابنامه

عنوان دیگر : نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین

موضوع : اسلام -- تاریخ

موضوع : جنبشهای اسلامی

رده بندی کنگره : BP۱۴/الف۹۵م۶

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۹۱۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۶-۵۶۱۴

المجلد۱

فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۱)

معالم الفتن (المجلد ۱)

تصدیر

الاهداء

المقدمة

النور الذی أضاء

نور فی أعماق الوجود

المنابع

نظرات علی طریق الابتلاء

برنامج الشیطان

قطع الطریق علی الأنبیاء والرسل

قطع الطریق علی الفطرة

قطع الطریق علی الدعوة

حصار برنامج الشیطان

النور والسحب الداکنة

من مداخل الدعوة الخاتمة

عواصف الصد عن سبیل الله

دائرة النجس

حصار دائرة النجس

دائرة الرجس

تیار الذین فی قلوبهم مرض

جهاز الرجس التخریبی

استهداف النبی

استهداف الدعوة

استهداف القوة العسکریة

جهاد الرسول لتیارات الصد الداخلیة

النور و حصار دائرة الرجس

من الذی یدعو و یختار

دائرة الطهر

من هم المطهرون

اعلان الناس بمن هم المطهرون

القرآن والمطهرون والحوض

من حقوق المطهرین

من مناقب أهل البیت

من مناقب علی بن أبی طالب

من مناقب فاطمة

من مناقب الحسن والحسین

النور والولایة

تعریف من هو الصحابی

ولایة الله عزوجل

ولایة رسول الله

ولایة علی بن أبی طالب

علی بن أبی طالب والعلم

اضواء علی اختیار الله لعلی

اضواء علی قیادة علی

حجة الوداع و إعلان الولایة

حجة الوداع

یوم غدیر خم

الحجة علی من لم یشهد الغدیر

النور بین التحذیر والتبشیر

النبی یحذر من أصول الفتن

الرسول و نظرات علی واقع بعید

النبی یحذر من رموز الفتن

الرسول و إقامة الحجة علی القریب والبعید

خاتمة المطاف عند الحوض یوم القیامة

غروب الشمس والقمر

من معالم الغروب

ذعر علی أعتاب الغروب

القرارات الأخیرة للنبی

الامر الواقی من الضلال

الامر العسکری الأخیر

الامر الطبی الأخیر

الوصایا

الطریق إلی الفتن

الاختیار أضواء علی سقیفة بنی ساعدة

الطریق إلی السقیفة

اضواء علی الأنصار

صراع داخل السقیفة

صراع خارج السقیفة

هتاف الأنصار

الخلافة فی قریش

دائرة الرأی

من معالم الرأی

نظرات علی فدک

تساؤلات علی الطریق

التعتیم والظهور

التضیق علی روایة الحدیث الشریف

من آثار عدم روایة الحدیث

القص فی المساجد

الاقتحام بالشعر

الغاء سهم المؤلفة قلوبهم

نظرات علی الطریق

الامراء والفتن

امراء علی الطریق

الامراء والفتوحات

رحلة الخراج

نهایة الطریق

مشهود فی أول الطریق

و جاء بنو أمیة

یوم الشوری

ریاح بنی أمیة

ظهور النفاق

الاحتجاج السلمی

الرد علی الاحتجاج السلمی

البطانة السوء

العاصفة والبحث عن الذات

من الذی قتل عثمان

و ظهر القمر

من معالم الحکومة الدینیة

النداء الحق

الظهور

اصلاحات علویة

قرار عزل أمراء الفتن

قرار التسویة فی الأموال

قرارات قیادیة

قرار روایة العلم و منع القص

العالم العامل الزاهد

البغاة والقمر

ضجیج فی أعماق الحجة

الناکثون فی أعماق الحجة

لقاء فی مکة

نظرات علی طریق البغی

اصداء یوم غدیر خم

على هامش أصداء يوم خم

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم الدكتور عاطف سلام الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الأطهار الطيبين، وصحابته المنتجبين. أما بعد فإن الكتاب الذى بين أيدينا يتناول تلك الحقبة التاريخية التى تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وامتدت بعد ذلك إلى عدة عقود، وعلى الرغم من الأهمية البالغة التى تتميز بها تلك الحقبة الحساسة، حيث قد تشكلت فيها الجذور السياسية والاجتماعية والثقافية للمسلمين إلا أنها لم تحظ بالاهتمام المرجو من قبل الباحثين والمفكرين، وأصبح الكثير من المثقفين لا يعرف سوى النزر اليسير عنها، وبالنسبة لبعض الدراسات القليلة المتناثرة التى دارت حولها فإن أساليب تناول تلك الحقبة قد تعددت واختلفت على نحو لا يروى ظمأ طلاب العلم والحقيقة، ولا يعينهم على استيعابها وإدراك أثارها، فهناك الاتجاه الأدبى الذى تناول تلك الحقبة بشكل ضيق محدود، وسار على منهج مميع لا يفضى إلى نتائج محددة أو مفاهيم واضحة عنها، وكان يفتقر إلى ميزان ثابت منبثق عن الدعوة الإسلامية ذاتها يمكن أن يقاس عليه وقائع تلك الحقبة، ولعل هذا الاتجاه كان

[صفحه ۶]

يرمى إلى الناحية الأدبية اللغوية فحسب بعيدا عن الرؤى العقائدية، وهناك الاتجاه الصامت المنغلق الذى يرى عدم تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة مطلقا، بل وصل الأمر إلى حد التحذير من محاولة فحص وقائعها وأحداثها بحجة أن ذلك قد يقود إلى إساءة الظن ببعض الشخصيات والتجمعات البارزة التى تنتمى إليها، وهناك الاتجاه المماليء المتملق الذى دأب على مجرد المدح والإطراء، ولم يدخر وسعا فى قلب الأمور رأسا على عقب وبتر الحقائق من أجل تصويب وقائع تلك الحقبة ومواقف أصحابها على نحو يصعب تصديقه أو التسليم به بالنسبة للقارئ العادى... إلى غير ذلك من الأساليب والاتجاهات التى كانت غالبا ما تقصر عن الوفاء بأمانة البحث العلمى المحض الذى يؤدى فى النهاية إلى توعية القارئ بطبيعة تلك الحقبة، وتوضيح الرؤية حولها، والخلوص بتقييم موضوعى لها، وتحديد علاقتها - ولو إجمالا - بالواقع الحالى. إن تناول تلك الحقبة بالبحث والدراسة يقودنا - لا محالة - إلى طرح التساؤل الآتى: هل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يفكر جديا بمستقبل الأمة من بعده، وما الإجراءات التى اتخذها فى هذه السبيل؟ إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يمثل القلب النابض والعقل المفكر لتلك الدولة الناهضة، فهل أعد منهجا واضحا لتشكيل القيادة من بعده، بحيث يكفل ذلك الاستمرارية والاستقرار على النحو الذى ينشده للمسيرة التى بدأها؟ وعلى فرض وجود منهج واضح حول القيادة قد حدده الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهل قام بتوعية الأمة به؟ وعلى فرض قيامه بذلك، فهل خرج هذا المنهج من بعده إلى حيز التنفيذ بشكل كامل، أم خرج بشكل جزئى، أم لم يخرج قط نتيجة الظروف والمتغيرات التى طرأت على واقع الأمة إبان وفاته؟ من ناحية أخرى فإن أهمية البحث فى تلك الجذور التاريخية وفحص وقائعها البارزة تمكن فى انعكاسها بشكل أو بآخر على الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى الذى امتد من خلالها عبر القرون التالية إلى اليوم.

[صفحه ۷]

إن الدعوة القائلة بأن نغض الطرف عن وقائع تلك الحقبة الهامة، وأن نجعل بيننا وبينها حجابا مستورا لا تخدم الحقيقة، بل لا تخدم الإسلام ذاته، حيث إن تراكمات الماضى وتداعياته لا يمكن أن تنفصل عن الواقع الحالى، إن لم تكن قد ساهمت فى صياغته إلى حد بعيد. إننا بحاجة ماسة إلى إلقاء الضوء على تلك الجذور التاريخية من أجل التوصل إلى فهم سليم وموضوعى مبنى على أساس علمى لها، واستخلاص العبر والدروس منها، وتحديد نقاط الضعف والقوة فيها بالقدر الذى يعيننا على فهم الحاضر المحيط بنا، ويجعلنا قادرين على رؤية المستقبل بوعى وواقعية، وتحديد ملامحه بعين باصرة غير قاصرة. إن الكتاب الذى بين أيدينا هو محاولة جادة من

المؤلف لتسليط الضوء على تلك الحقبة التاريخية الهامة، ملتزما بقواعد البحث العلمى المتفق عليها، ومتوخيا ذات المقاصد التى أومأنا إليها آنفا، والذى لفت نظرى فى منهجه أنه اعتمد فى دراسته على مصادر الحديث والتاريخ والتراجم المعتبرة التى تحظى بثقة أهل العلم والمعرفة قاطبة، كما أنه قام بالربط بين الأحاديث النبوية من جهة والأحداث التاريخية من جهة أخرى، بحيث يصدق بعضها بعضا، وكأن الكتاب قد جاء يحمل بين دفتيه تفسيرا نبويا للتاريخ، ولا جرم أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) قد تركنا على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها، والتى لا يضل عنها إلا هالك، وفى اعتقادى أن ذلك لا يتحقق بوجه كامل إلا من خلال الأحاديث التى تكشف المستقبل، وترصد حركته بعين الوحى فضلا عن الوعى. ومما يستلفت النظر - أيضا - قيام المؤلف بالفصل بين " تاريخ الإسلام " و " تاريخ المسلمين، " حيث يرى أن " تاريخ الإسلام " هو تاريخ الفطرة الأزلية التى تمثل إرادة الله فى الكون، وبالنسبة للبشر فقد بدأ مطلعه بقوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا..). وفوق الأرض قام بصنعه الأنبياء والمرسلون من لدن آدم إلى الخاتم،

[صفحه ۸]

والمقصود من ذلك هو أن " التاريخ الإسلامى " يقتصر على مجموعة الأقوال والأفعال والمواقف والأحداث التى يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته لكونها تمثل واقعه وحقيقته، ولا يقوم بصنعه سوى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو من ينوب عنه بتفويض مباشر عنه. أما بالنسبة ل " تاريخ المسلمين " فهو تدوين لمجموعة الأقوال والأفعال والمواقف والأحداث التى قام بصنعها أولئك الأفراد والتجمعات التى أعلنت انتماءها لهذا الدين تعبيرا عن أنفسهم وواقع حالهم فحسب، ولا يمكن أن تحسب على الإسلام ذاته كمقياس له. هذه رؤية المؤلف، وهى وجهة نظر جديرة بالبحث والملاحظة، وتدعونا إلى التأمل وإعادة النظر فى مدلول كلمة " التاريخ " الذى بين أيدينا، فهل هو " تاريخ إسلامى " يعبر عن واقع الإسلام وحقيقته وأهدافه، أم هو " تاريخ المسلمين " الذى يمثل نوازعهم الذاتية ومواقفهم وأهدافهم الخاصة بهم؟ هذا وبالله التوفيق. د. عاطف سلام

[صفحه ۹]

الاهداء

إلى مصابيح الهدى الذين يقودون الناس إلى صراط العزيز الحميد

إلى الذين صبروا صبر الأحرار وينتظرون يوم العدل على الظالم إلى هؤلاء أهدى هذا الكتاب.... أيوب

[صفحه ۱۱]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على النبى الأكرم المبعوث

بالشريعة الخاتمة وعلى آله ومن تبع هداه إلى يوم الدين وبعد: على امتداد المسيرة البشرية دار الصراع بين الخير الذى تمثله أعلام ومشاعل المثل الأعلى المرتفع وبين الشر الذى يمثله الدخان الكثيف للمثل الأعلى المنخفض. وعلى امتداد هذه المسيرة كانت أعلام الأنبياء والرسل عليهم السلام تقيم الحجة على الجميع، وتدون تاريخ الإسلام الذى لم يحمل هزيمة واحدة منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام. وكان هذه التاريخ زاد للفطرة فى كل زمان ومكان ففيه ترى العلم والهدى والرحمة والسعادة وبه تعبر الحياة الدنيا بسلام إلى الآخرة فتاريخ الإسلام هو تاريخ الحجة ودعوة الناس إلى صراط العزيز الحميد. وهذا التاريخ يمكن أن نرصد بدايته عندما أخذ الله الميثاق من ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم - (ألست بربكم قالوا بلى) - ويمكن أن نرى امتداده وشواهده من خلال مسيرة الأنبياء. وعلى امتداد المسيرة البشرية أيضا كان الناس يدونون تاريخهم، وهذا التاريخ يمكن أن ترى امتداده وشواهده من خلال حركة الناس

علی امتداد تاریخهم. فمن توافقت حرکته مع حرکة الوجود فهو عضو فی تاریخ الإسلام الذی تمثله أعلام المثل الأعلی المرتفع. أما من توافقت حرکته مع حرکة فقه الاغواء والتزیین والاحتناک والفحشاء والمنکر إلی آخر هذا الشوط الذی تأنف منه الفطرة فلا یمکن بحال أن یکون عضوا فی تاریخ الإسلام وإنما هو عضو فی تاریخ الناس

[صفحه ۱۲]

الذی یدثره هذا الدخان الکثیف للمثل الأعلی المنخفض. ولا یمکن بحال أن تری بصمات کفار قوم نوح وهود وصالح ولوط وأصحاب الأیکة علی تاریخ السلام وإنما تراها علی صفحات تاریخ الناس. ویمکن أن تری هذه البصمات بوضوح عندما یحدثک تاریخ الإسلام بما حدث لأتباع المثل الأعلی المنخفض علی امتداد تاریخهم الأسود وکیف ضربهم الطوفان والصیحة وکیف نالوا جزاءهم فی الدنیا تحت ضربات الماء والهواء والحجارة، ولعذاب الآخرة أشد. وعلی هذا فالحجة والدعوة أعلام ظاهرة فی تاریخ الإسلام، والتدمیر أثر ظاهر فی تاریخ الناس، وفی هذا وذاک زاد للفطرة علی امتداد المسیرة. فأصحاب الفطرة السلیمة إذا نظروا إلی حرکة المسیرة البشریة وشاهدوا علامات التاریخ المهزوم کانت هذه المشاهدة حجة بذاتها ودعوة فی الوقت نفسه إلی ترتیب الأوراق فی اتجاه تاریخ السلام الذی تظهر علیه معالم الطهر والنقاء، وهذه المعالم حجة بذاتها علی کل إنسان. وسیتبین کل إنسان حقیقة هذا عندما یقف عاری المشاعر وعاری التاریخ أمام الله الواحد الحق یوم القیامة. وعلی امتداد التاریخ الإنسانی عمل الشیطان من أجل أن یعلم الخلق أن تاریخ الإسلام وتاریخ الناس تاریخ واحد. لأنه تحت هذا القالب تختلط الأمور وعلی امتداده یحقق الشیطان أهداف خطته لإضلال أکثر الناس. وما فقه الاغواء والتزیین إلا خلط علی امتداده یکون الضلال والارتیاب والحیرة. وفی عصرنا الحدیث تعالت الأصوات التی ترفع إعلام " لا سیاسة فی الدین ولا دین فی السیاسة " وقامت أجهزة ومؤسسات الصد عن سبیل الله بترقیع التاریخ لیعطی فی النهایة صورة أن الناس أدری بمصالحهم. وهذا القول فی حد ذاته مصادرة لتاریخ الإسلام لحساب تاریخ الناس. وفی عصرنا الحدیث أیضا تعالت أصوات ناس من المسلمین وقالوا: إن الدین منفصل عن الدولة بالفعل علی امتداد التاریخ السلامی. وهنا خلط واضح وتحمیل تاریخ السلام ما لیس منه. وتعالیت أصواتهم أکثر فأکثر وقالوا: إن الخلافة علی امتداد التاریخ الإسلامی لم تکن أصلا إسلامیا.

[صفحه ۱۳]

وإنما مجرد اجتهاد وتطبیق ارتضاه المسلمون الأوائل. وهذا أیضا خلط یهدف إلی إعلاء کلمة المثل الأعلی المنخفض. والذی یدقق النظر فی تاریخ السلام عند اللبنة الأولی یری أن الخالفة أصل أصیل فی البناء الفطری، قال تعالی: - (وإذ قال ربک للملائکة إنی جاعل فی الأرض خلیفة) - [۱] .

وعلی امتداد تاریخ الإسلام خاطب الله تعالی أنبیاءه ورسله فقال لإبراهیم علیه السلام: - (إنی جاعلک للناس إماما) - [۲] .

بل إن نظام الخلافة یری أیضا علی المساحات الواسعة، یری علی وجه الماضی والحاضر. قال تعالی: - (واذکروا إ ذ جعلکم خلفاء من بعد قوم نوح) - [۳] .

وقال: - (وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذین کذبوا بآیاتنا) - [۴] .

وقال - (هو الذی جعلکم خلائف فی الأرض فمن کفر فعلیه کفره) - [۵] .

فالخلافة فی البناء الفطری تری عند القمة وعند القاعدة. وعلی هذا فإن القول بأن الخلافة لیست أصلا إسلامیا قول فیه نظر. وهذا القول روج له أعداء الفطرة فی عصرنا الحدیث عندما بدأت الروح الإسلامیة تدب وترج أجساد وعقول المسلمین وتدعوهم إلی أعلام المثل الأعلی المرتفع. وأشعل أعداء الفطرة النار فی کل طیب، وزینوا کل خبیث لیصدوا عن سبیل الله. وتوج الوغد الهندی سلمان رشدی وغیره هذه الأعمال بروایات وأقوال الهدف منها النیل من أعلام تاریخ الإسلام لحساب الأطروحة الغربیة التی تعمل من أجل توثیق الفطرة.

[صفحه ۱۴]

ونحن فى كتابنا هـذا سـنعرض أطروحات الإسـلام التى جاء بها النبى الخاتم صـلى الله عليه وسـلم فى ما يتعلق بمسـتقبل الأمـة ودورها الرسالى الـذى عهد به إليها وموقف الأمة من تلك الأطروحات النبوية. وسـنعرض تجربة الأمة بعد وفاة النبى صـلى الله عليه وسـلم وما تمخض عنها من نتائج امتدت عبر القرون إلى اليوم. وسـنبين مدى ملائمة ذلك مع أطروحات الرسول صـلى الله عليه وسـلم التى تمثل المنهج الإسـلامى الأصـيل. وسنقيم تلك التجربة التى تحرك فيها لا مسلمون بشكل موضوعى للخروج منا بالعبر والدروس التى تعيننا على تمييز الحق من الباطل والعودة تارة أخرى إلى ذات المنهج الإسـلامى الذى رسـمه النبى الخاتم صـلى الله عليه وسلم. ومنهجنا فى البحث يقوم على تحديـد المشـكلات واسـتبعاد الزائف منها بعد قراءة نقدية ومتفحصة وتقييمية. مع الوضع فى الاعتبار أن جانب كبير من التراث صـنعه أفراد، وهـذا الجانب تـداخل مع تاريـخ السـلام كما ذكرنا. وعلى هـذا فتاريـخ المسـلمين عنـدى قابل للنقـد كما أنه معرض أحيانا للرفض إذا تعارض مع القرآن والسـنة الصـحيحة. وقراءتى للأحداث كان الهدف منها تقديم تاريخ شامل. بمعنى تاريخ تجتمع فيه جميع الخيوط، وهـذه القراءة التى تمارس النقـد وفقا للكتاب والسـنة تنظر إلى التراث على أنه نقطـة بدايـة. فالبدايات دائما ترى عليه وجه النهايـات. وعلى هـذا فـإن الأـمور إذا اشـتبهت اعتبر بآخرها أولها. أى يقاس آخرها على أولها فحسب البـدايات تكون النهايات. هذا ولقد آثرت فى هذا البحث الطريقة السـردية التى تعتمد على آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والرواية التاريخية. هذا وبالله التوفيق.

[صفحه ۱۷]

[۱] سورة البقرة: الآية ۳۰.

[۲] سورة البقرة: الآية ۱۲۴.

[۳] سورة الأعراف: الآية ۶۹.

[۴] سورة يونس: الآية ۷۳.

[۵] سورة فاطر: الآية ۳۹.

النور الذى أضاء

نور فى أعماق الوجود

المنابع

إن جميع موجودات العالم ما نر وما لا نرى ما نعلم وما لا نعلم، تنتهى

فى وجودها وآثارها إلى الله الواحـد الأحـد عز وجل، ولأنها منها وإليه، فلا يمكن لأى موجود فى الوجود من الفراد من ملكه جل أنه، ولأن جميع الموجودات فى هـذا العالم حياتها وقـدرتها وعلمها متصل بالله تعالى، فلا يمكن لموجود مهما كان قـدره وعلمه من الفرار من الله الـذى يملك كل شـئ، فقد خلق سـبحان الخلق لهدف من ورائه حكمة، وأوجب سـبحانه على نفسه فتح الطريق لعبادة وهداية عباده إليه قبل أن يخطوا فيه خطوة واحـدة. فكما أن حبـة القمـح توضع فى الأرض فتنشق للنمو قاصدة فى نموها اتجاها واحدة لتكون شجرة كاملـة عليها سـنابلها، وكما أن نطفة الحيوان تعرف طريقها فتتوجه إلى اتجاه واحد ينتهى بها إلى إيجاد النوع، فكذلك الإنسان من أول بدايـة التكوين يتجه فى طريق نحو غايـة واحـدة على امتـدادها يكـدح حتى يلاقى ربه، والعبودية هى الغرض الإلهى من خلق الإنسـان، وحقيقـة العبـادة أن يضع الإنسان نفسه فى مقام الذلـة والعبوديـة، ويوجه وجهه إلى مقام ربه، طاهر النفس عن الكفر بمراتبه، وعن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر) [۱] .

وقوله تعالى: (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) [۲] .

[صفحه ۱۸]

والعبودية إذا تمكنت من نفس العبد رأى ما يقع عليه بصره وتبلغه بصيرته مملوكا لله، خاضعا لأمره، ووجد أن كل ما آتاه الله فهو من فضله سبحانه، وما منعه فإنما منعه عن حكمة، وعلم أن هناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم. وطريق العبودية فتحه الله وهدى عباده إليه، واللبنة الأولى فى هذا الطريق هى الفطرة، أودع فيها سبحانه ميثاق الربوبية الذى شهد به الإنسان عند العتبة الأولى فى طريق العبودية، قال تعالى: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) [۳] .

لقد أخذ جل شأنه الميثاق – ف موطن قبل الدنيا – من عباده فى عالم الذر (ألست بربكم؟) خطاب حقيقى وتكليم إلهى، (قالوا بلى شهدنا) إنهم يفهمون مما يشاهدون، إن الله سبحانه يريد منهم الاعتراف وإعطاء الموثق، فشهد كل إنسان على نفسه، ولم يعد لأحد منهم حجة على الله يوم القيامة، ليقول أنه كان غافلا- فى الدنيا عن ربوبيته تعالى، ولا- تكليف على غافل ولا مؤاخذة. وكما هدى الفطرة إلى معرفته تعالى، ألهم النفس الإنسانية التجنب عن الفجور والورع عن محارم الله، فجعل نهيه سبحانه عن فعل حجاب مضروب، فإذا اقترب الإنسان المنهى عنه يكون قد شق الستر المضروب وخرق الحجاب. قال تعالى: (ونفس وما سواها – فألهمها فجورها وتقواها – قد أفلح من زكاها – وقد خاب من دساها) [۴] .

إن النفس ملهمة كى تميز بين الفجور والتقوى. ووضع لبنة التقوى فيها. تزكية وإنماء وتزويد لها بما يمدها فى بقائها على طريق غايتها، قال تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا

[صفحه ۱۹]

أولى الألباب) [۵] .

وكما أقام سبحانه الحجة على الإنسان فى عجينته الداخلية أقام عليه الحجة فى عالم الحياة الدنيا، عالم المشاهدة المنظور، فجهز بدن الإنسان بما يبصر به، وما يستعين به على الكلام. فإذا نظر، أو تكلم واستقام نظره وكلامه مع المخزون الفطرى، ومخزون التقوى، تقدم فى طريق الخير. قال تعالى: (ألم نجعل له عينين – ولسانا وشفتين – وهديناه النجدين) [۶] .

والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر. أى علمناه طريق الخير وطريق الشر بإلهام منا. فهو يعرف الخير من الشر. والإنسان مخير فى أى الطريقين يسلك. قال تعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا – إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) [۷] .

لقد زود تعالى الإنسان داخليا وخارجيا بالوقود الذى يؤدى إلى الفوز. وأراه السبيل المؤدى إلى الغاية المطلوبة. وعلمه بواسطة الأنبياء والرسل عليهم السلام أن سلوك هذا السبيل ينتهى بالإنسان إلى سعادته فى الدنيا والآخرة. وأخيره أن الشكر لهذه الهداية الإلهية إنما يكون بوضع النعمة فى محلها، واستعمال هذه النعمة على أساس أنها من المنعم الحق. لقد أقام سبحانه الحجة على جميع خلقه، وقد قضى الله أن الإنسان راجع إليه. وسيسأل الإنسان عن عمله، أشكر النعمة أم كفر بها؟ والنعم تبدأ من الفطرة ولا تنتهى لأنها لا تحصى ولا تعد. وأمام الله قاصم الجبارين سيق الإنسان عاريا من كل شئ. عارى النفس، عارى المشاعر، عارى التاريخ (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى – وأن سعيه

[صفحه ۲۰]

سوف يرى) – [۸] وأمام الله قاصم المستكبرين سيقف الإنسان المحاصر بحجج الله، لتشهد كل حجة عليه، فلا يجد ملجأ يذهب إليه – (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) – [۹] .

إن ينبوع دين الله فطرة الإنسان نفسه. والفطرة تصرح أن الإنسان لم يكن له إلا- أن يخضع لله تعالى خضوع عبادة، خضوع الضعيف للقوى، ومطاوعة العاجز للقادر، وتسليم الصغير الحقير للعظيم الكبير الذى لا يماثله شئ فى وجوده، العزيز الذى لا يغلبه شئ وغيره

ذلیل.

[۱] سورة الزمر: الآیة ۷.

[۲] سورة التوبة: الآیة ۹۸.

[۳] سورة الأعراف: الآیة ۱۷۲.

[۴] سورة الشمس: الآیة ۷ - ۱۰.

[۵] سورة البقرة: الآیة ۱۹۷.

[۶] سورة البلد: الآیة ۸ - ۱۰.

[۷] سورة الإنسان: الآیة ۳ - ۴.

[۸] سورة النجم: الآیة ۳۹ و ۴۰.

[۹] سورة فصلت: الآیة ۲۱.

نظرات علی طریق الابتلاء

إن عبور الحیاة الدنیا إلی الآخرة تعلو جسوره مظلات الابتلاء والفتن.

فالامتحان ناموس إلهی علی امتداد هذه الجسور، وهذا الامتحان لا یستثنی منه المؤمن والکافر والمحسن والمسیء. وامتحان الله یکون لإظهار صلاحیة الإنسان الباطنیة من حیث استحقاق الثواب والعقاب. ویکشف به تعالی للمؤمنین حال المنافقین وهم یعبرون جسر الحیاة إلی الآخرة. کما إنه یقوی الإنسان المؤمن لاجتیاز هذا الجسر. وکما یمتحن الله الفرد یمتحن سبحانه الأمة قال تعالی (ولو شاء الله لجعلکم أمة واحدة ولکن لیبلوکم فی ما آتاکم) [۱] .

إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة لها شریعة واحدة. ولکنه تعالی جعل للناس شرائع مختلفة، لیمتحنهم فیما آتاه من النعم المختلفة التی لا تحصی ولا تعد. فاختلاف النعم یستدعی اختلاف الامتحان [۲] وعلی امتداد هذا الامتحان

الذی هو فی الوقت نفسه امتداد الحیاة الدنیا، یموت الفرد ویأتی الآخر، وتموت

[صفحه ۲۱]

الأمة وتأتی الأخری قال تعالی: (لکل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا یستأخرون ساعة ولا یستقدمون) [۳] .

إن الأجل فی هذه الآیة أضیف إلی الأمة، إلی الوجود المجموعی للناس، لا إلی هذا الفرد بالذات. إن هناک أجل آخر وموقات آخر للوجود الاجتماعی لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا ینشئ ما بین أفراده العلاقات والصلات القائمة علی أساس مجموعة من الأفکار والمبادئ. هذا المجتمع الذی یعبر عنه القرآن بالأمة له أجل، وله موت، له حیاة، له حرکة، وکما أن الفرد یتحرک فیکون حیا ثم یموت، کذلک الأمة تکون حیة ثم تموت. وکما أن موت الفرد یخضع لأجل ولقانون ولناموس کذلک الأمم أیضا، لها آجالها المضبوطة [۴] (وما أهلکنا من قریة إلا ولها کتاب معلوم - ما تسبق من أمة أجلها وما یستأخرون) [۵] .

إن الأمم تموت، وتأتی أمم أخری. أعلام تسقط وأعلام ترفع. وعلی امتداد الرحلة یکون فی السلف عبرة للخلف، ویکون فی الماضی زاد للحاضر یبصر به الطریق الواضح إلی المستقبل. والقرآن الکریم حث الإنسان کی ینظر إلی الخلف حیث ساحة الاعتبار. لیکون الاعتبار له زاد، قال تعالی: (ألم یروا کم أهلکنا من قبلهم من قرن مکناهم فی الأرض ما لم نمکن لکم وأرسلنا السماء علیهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجری من تحتهم فأهلکناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرین) - [۶] .

لقد أهلکوا وسبب الهلاک الذنوب، وفی هذا دلالة علی أن للسیئات والذنوب دخلا فی البلایا والمحن العامة، کما أن الحسنات والطاعات لها دخل فی إفاضة النعم ونزول البرکات. وقال تعالی: (وکم أهلکنا من قریة بطرت

[صفحه ۲۲]

معیشتها) - [۷] أی طغت فی معیشتها وقال تعالی: - (وما کنا مهلکی القری إلا وأهلها ظالمون) - [۸] .

إن الماضی حجة علی الحاضر والحاضر حجة علی المستقبل. ولا یسمع الصم الدعاء. إن الأمة تأتی لینظر إلیهم کیف یعملون. ورسل الله علیهم السلام حثوا أقوامهم وذکروهم بمن سبق کی یبصروا وقع أقدامهم وهم یعبرون الجسر إلی الآخرة. فهذا هود علیه السلام یقول لقومه: (واذکروا إذا جعلکم خلفاء من بعد قوم نوح) [۹] .

وهذا صالح علیه السلام یقول لقومه: (واذکروا إذا جعلکم خلفاء من بعد عاد) [۱۰] .

والنظر إلی الخلف لا- یعنی التغنی بوثنیة من سبقونا، إنما البحث فی عوامل انهیارهم کی یتجنب الحاضر ما وقع فیه الماضی. فلعل الماضی یکون قد أرکس فی فتنة. فإذ لم یتبین الحاضر خیوطها وسار علی منوالهم، کان فی حقیقة الأمر امتدادا للفتنة وإن لم یشارک فیها. وکما أن فی الماضی زادا للحاضر یعبر به جسور الحیاة. فإن الحاضر وهو تحت الامتحان عبرة للمستقبل. فهذا موسی علیه السلام یقول لقومه: (عسی ربکم أن یهلک عدوکم ویستخلفکم فی الأرض فینظر کیف تعملون) [۱۱] لقد ذهبت أمة، وجاءت أخری لیجری علیها الاختبار الذی یکون

زادا للمستقبل. وأمة محمد صلی الله علیه وسلم آخر الأمم. یخاطبها سبحانه فیقول: (ولقد أهلکنا القرون من قبلکم لما ظلموا وجاءت رسلهم بالبینات وما کانوا لیؤمنوا کذلک نجزی القوم المجرمین - ثم جعلناکم خلائف فی الأرض من

[صفحه ۲۳]

بعدهم لننظر کیف تعملون) [۱۲] .

إن المسیرة سائرة، تدثرها الحجة من کل مکان. وکل خطوة وکل همسة محسوبة ومکتوبة. یقول تعالی: (إنا نحن نحیی الموتی ونکتب ما قدموا وآثارهم وکل شئ أحصیناه فی إمام مبین) [۱۳] .

[۱] سورة المائدة: الآیة ۴۸.

[۲] المیزان: ۵:۳۵۳.

[۳] سورة یونس: الآیة ۴۹.

[۴] المدرسة القرآنیة / باقر الصدر: ۵۶.

[۵] سورة الحجر: الآیة ۴ - ۵.

[۶] سورة الأنعام: الآیة ۶.

[۷] سورة القصص: الآیة ۵۸.

[۸] سورة القصص: الآیة ۵۹.

[۹] سورة الأعراف: الآیة ۶۹.

[۱۰] سورة الأعراف: الآیة ۷۴.

[۱۱] سورة الأعراف: الآیة ۱۲۹.

[۱۲] سورة یونس: الآیة ۱۳ - ۱۴.

[۱۳] سورة یاسین: الآیة ۱۲.

برنامج الشیطان

ذکرنا أن الامتحان سنة إلهی. ولقد سمی الله تعالی هذا الامتحان فی کتابه:

بلاء وابتلاء وفتنة. فقال جل شأنه: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) [۱] ، وقال: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) [۲] ، وقال: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) [۳] ، وقال: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) [۴] إن الأرض مساحة للامتحان. والإنسان عليها يمتحن بكل جزء من

أجزاء العالم، وكل حالة من حالاته التى لها صلة به. والشيطان الرجيم، لما لعنه الله وطرده نظير معصيته. أخذ على عاتقه إغواء أكثر الناس، فتسلل بإغوائه إلى كل مجال يختبر فيه الإنسان من الله، فإذا كان سبحانه قد جعل ما على الأرض زينة، فإن الشيطان التف حول هذه الزينة بزينة أخرى كاذبة. وإذا كان الله تعالى قد ابتلى عباده بالشر والخير، فإن الشيطان التف حول الشر ليزينه، وحول الخير ليزهد الناس فيه، وإذا كان مجال الاختبار ليعلم سبحانه المجاهدين والصابرين، تسلل الشيطان إلى هذه المساحة، ليكون أكثر

[صفحه ۲۴]

الناس فى ضلال مبين. وهكذا تسلل الطريد إلى مائدة الامتحان. مهمته أن يدعو فقط إلى الضلال وقد زينه، وهو يدعو فقط لأنه لا يستطيع أن يجبر الناس على معصيته، ولما كانت حركة الشيطان على الأرض هكذا، فإن تسليط بعض من الضوء على البداية، قد يفيد لمعرفة منهجه فى الاغواء والتزيين. خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وأمر بالسجود له، فسجد الملائكة، وكان إبليس من الجن وداخل فيهم، فأبى أن يسجد فخاطبه تعالى: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين) [۵] فجاء الرد الذى تحتوى كلماته على منهج الشيطان الكامل (قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) [۶] ، لقد أكله الحسد وهو الذى شاهد المقدمة حيث التراب والطين والصلصال. وعندما عاين العلم والحركة والحياة كنتيجة للمقدمة، دفعه الحسد إلى المقدمة حيث الحمأ المسنون متعاميا عن النتيجة استكبارا عليها. إنه الصغار والجمود بعينه، ودعوة أولى لرفض النظر فى آيات الله. وفى اعتراض الشيطان تلويح، بأن الأمر الإلهى إنما يطاع إذا كان حقا والأمر بالسجود لآدم ليس حقا. والمتدبر فى آيات الله، يجد أن الشيطان قبل رفضه السجود لآدم، كانت حجة الله قد دثرته. وهذه الحجة أن الله تعالى أمره فيمن أمر بالسجود، فالأمر حجة بذاته. وخروج الشيطان عنه هو خروج باختيار وليس عن جبر. كما يجد المتدبر أيضا أن فى ردود الشيطان على الله تعالى، لم تكن ردودا جوفاء، وإنما تحمل منهجا كاملا فى الضلال وهذا المنهج له مهمة واحدة، هى الصد عن العبادة الحق. ومن أجل هذا اعتمد المنهج على عمود يفصل أنبياء الله ورسله عليهم السلام عن أبناء آدم فلا يصل إليهم الهدى. وعمود يعمل على الصراط المستقيم من أجل إعاقة الطريق أمام الفطرة حتى لا تصل إلى غايتها الحق. وعمود يعمل على إرساء قواعد الشذوذ ومهمته تصفية كل ما هو طاهر على امتداد المسيرة البشرية بعد رحيل

[صفحه ۲۵]

الأنبياء والرسل. ودق أوتاد الشذوذ واعتبار الخارج عنها خارج على القانون. باختصار يعتبر برنامج الشيطان قاعدة أساسية ينطلق منها قطاع الطرق على امتداد التاريخ.

[۱] سورة الكهف: الآية ۷.

[۲] سورة الأنبياء: الآية ۳۵.

[۳] سورة محمد: الآية ۳۱.

[۴] سورة آل عمران: الآية ۱۴۲.

[۵] سورة ص: الآية ۷۵.

[۶] سورة ص: الآية ۷۶.

قطع الطريق على الأنبياء والرسل

أخبر الله تعالى بأنه عندما أمر الملائكة بالسجود قال إبليس

(أنا خير منه) [۱] وقال (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال..) [۲] فالرفض يحمل فی أعماقه الحسد والكبر. وفی نفس الوقت يحتوی علی أطروحة كاملة لتحقير الجنس البشری. وهذا الرفض وهذه الأطروحة، شكلا فی الحقيقة فقها كاملا للشيطان نسميه " فقه التحقير " وهذا الفقه مارس عمله ضد الأنبياء والرسل من آدم إلی محمد عليهما السلام. وإذا كان مؤسس الفقه، رفض أمر الله بالسجود لآدم فی بداية الخلق، فإنه علی امتداد المسيرة البشرية وضع العقبات أمام أمر الله الذی يحمله الأنبياء والرسل للسجود لله تعالی. والعقبات التی وضعها الشيطان من أجل الوصول إلی هدفه، كان عمودها الفقری تحقير الأنبياء والرسل، علی اعتبار أنهم بشر وليسوا ملائكة. وإذا كان الشيطان فی البداية قد قال: (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال) [۳] فإن حملة فقهه علی امتداد التاريخ الإنسانی وقفوا من دعوة الأنبياء فی خنادق الحسد والكبر، رافعين راية التحقير للبشر الذی خلقه الله من طين، نسوا الله فأنساهم أنفسهم. - (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن علی من يشاء من عباده) - [۴] فماذا كان رد جحافل الظلام علی

امتداد التاريخ الإنسانی. يقول تعالی: - (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله علی بشر من شئ) - [۵] وقال تعالی: (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن

[صفحه ۲۶]

من شئ) - [۶] ، وقال تعالی: (فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنی الله والله غنی حميد) [۷] ، وقالوا: (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) [۸] ، ولأنهم يرفعون لافتة التحقير الشيطانية التی ينفذون بنودها بدون تعقل قالوا: (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) [۹] وقالوا: (لولا أنزل عليه ملك) [۱۰] ، لقد رفضوا

البشر الذی خلقه الله من طين. وكان هذا الرفض مقدمة كبری للصد عن سبيل الله، قال تعالی: - (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدی إلا أن قالوا ابعث الله بشرا رسولا) - [۱۱] وعلی هذا الرفض دق الشيطان وتدا شع ثقافة جاء عليها الفراعنة

والقياطرة والأباطرة، الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجری فی عروقهم. ووفقا لهذا الادعاء الذی سانده كهنة الاغواء والتزيين، هرول الناس إلی عبادتهم من دون الله، وعلی هذه العبادة شيدت الأصنام، وهتكت الأعراض، وجلدت الشعوب، ورفعت رايات الجبرية والطاغوت واعتبر الخارج عنها خارج علی القانون. ولم يقف فقه التحقير عند الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإنما مارس هذا الفقه عمله علی امتداد المسيرة بعد رحيل كل نبی وكل رسول. فلقد اعتمد الجبابرة علی حملات التشكيك والتشويش المنظم لوقف مسيرة الذين يأمرون بالقسط من الناس. فإذ لم تأت الحملات بالثمار المطلوبة، اعتمدوا لهم أسلوب اليد الغليظة بالحجر تارة وبالسيف تارة وبقطع الرؤوس والطواف بها تارة أخری.

[۱] سورة الأعراف: الآية ۱۲.

[۲] سورة الحجر: الآية ۳۳.

[۳] سورة الحجر: الآية ۳۳.

[۴] سورة إبراهيم: الآية ۱۱.

[۵] سورة الأنعام: ۹۱.

[۶] سورة يس: الآية ۱۵.

[۷] سورة التغابن: الآية ۶.

[۸] سورة المؤمنون: الآية ۳۴.

[۹] سورة فصلت: الآية ۱۴.

[۱۰] سورة الأنعام: الآية ۸.

[۱۱] سورة الإسراء: الآية ۹۴.

قطع الطريق على الفطرة

عندما قال الشيطان أنا خير منه، شمله عقاب الله تعالى: قال تعالى: - (فاهبط
منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) - [۱] لقد نزل إلى منزلة
[صفحه ۲۷]
الهبوط، ليكون من الصاغرين أهل الهوان. ولم يترك الشيطان منزلة الهبوط دون استغلالها فقال: - (رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون) [۲] لم يقل: رب انظرنى إلى يوم يموت آدم، بل ذكر آدم وبنيه. فقال له سبحانه: - (إنك من المنظرين) - [۳] وفى
هذا النص دلالة على أن هناك منظرين غيره، منهم ملائكة ومنهم بشر، أخبرت عنهم السنة النبوية الشريفة [۴] .
وفى منزلة الهبوط صاغ الشيطان فقه الاغواء والتزيين، الذى به يخترق الكيان الإنسانى وعليه تتعدد الأهواء - (قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين. - إلا عبادك منهم المخلصين) [۵] ، لقد اختار مساحة الزينة والزينة الحق جعلها الله لعباده كى يسوقهم التفكير فيها إلى العبادة الحق. قال تعالى: - (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) - [۶] ، فأقام الشيطان له خيمة فى اتجاه هذه الزينة، وهذه الخيمة بثت ثقافة ألوهية الكواكب والنجوم. تلك الألوهية التى اعترض عليها هد هد كان يحتفظ بفطرته التى فطره الله عليها. فعند ما ذهب هذا الطائر إلى مملكة سبأ، وجدهم يعبدون الشمس من دون الله، فعلم وهو الطائر أن هناك زينة أخرى غريبة، قد أدخلت على الزينة الحق التى تدعو إلى العبادة الحق. فقال سليمان عليه السلام وهو يتحدث عن ملكة سبأ - (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) [۷] لقد وقعوا على الزينة المحرمة، وهم المجهزون بالفطرة، والفطرة نعمة والاختيار الخطأ يترتب على امتداده كفران النعمة. والسنة الإلهية عند كفران النعمة، تسلب نعمة الهداية. وفى عالم اللاهداية تعشق الأسماع والأبصار
[صفحه ۲۸]
والقلوب كل زينة تنتهى بصاحبها إلى الهلاك. تعشق زينة الشهوات والأموال والبنين والمكر والصد عن السبيل. ومع هذا العشق تتحرك جحافل الليل أصحاب فقه الشيطان، ليدافعوا عن زينتهم أمام الذين يتعاملون مع الزينة الحق. على أنها للتفكر وللابتلاء فى عالم الإنسان. وفى الزينة الحق قال تعالى: - (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) - [۸] قال المفسرون: إن المال والبنين
وإن تعلقت بها القلوب، وتاقت إليها النفوس تتوقع منها الانتفاع وتحق بها الآمال. إلا أنها زينة سريعة الزوال، لا تنفع الإنسان فى كل ما أراده وما يأمله وما يتمناه منها. ولأنها كذلك فلا بد للتعامل معها وفقا لما شرعه الله تعالى، وإذا كانت هذه الزينة زائلة، فإن الأعمال الصالحة هى الباقية. وهى عند الله خيرا ثوابا، لأن الله يجازى الإنسان الذى جاء بها خير الجزاء، وخيرا أملا. لأن ما يؤمل بها من رحمة الله وكرامته ميسور للإنسان، فهى أصدق أملا من زينات الدنيا وزخارفها التى لا تفى للإنسان فى أكثر ما تعده. وكما أقام الشيطان له خيمة فى اتجاه زينة الكواكب، أقام خيمة فى اتجاه زينة الأموال والأولاد، وعلى هذه الزينة قسمت القلوب ووجه أصحابها سهامهم فى اتجاه طائفة الأعمال الصالحة التى تدعو إلى الخير والثواب. وجاء طابور طويل يصد بالمال عن سبيل الله كما فعل قارون - (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) - [۹] ، واستمر هذا الطابور يتدفق على صفحة الوجه الإنسانى آخذا صورا عديدة فى عالم الرشوة وبيوت المال للصد عن سبيل الله. وفى عالم زينة الأولاد قالوا فيما أخبر سبحانه - (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) - [۱۰] وعلى قاعدة الأبناء، جاء
الآباء بالأبناء ليركبوا على رقبة الشعوب، ليصبح بذلك المستقبل ابنا لشذوذ

[صفحه ۲۹]

الحاضر والحاضر ابنا لشذوذ الماضى، والجميع يحافظون على سنة الآباء القومية التى أقام الشيطان خيامها، ورفع عليها قانونه الخالد الشاذ الذى وقف حجر عثرة على امتداد دعوة الأنبياء والرسل. لقد قالوا كما أخبر الله تعالى: (قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) - [۱۱] ، و - (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) - [۱۲] ، و - (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) - [۱۳] ، وقالوا: - (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) - [۱۴] .

إن زينة المال والأولاد التى أضفى عليها الشيطان زخرفه ليتلقفه الغاوون، هذه الزينة المزخرفة أقامت جدرا من الأموال واللحوم للصد عن سبيل الله. وهذا الانحراف وغيره، ما زال حجر عثرة على طريق الدعوة الحق. فالفطرة التى تحمل كليات الدين، زخرف لصاحبها طريق الانجراف، وزين لهم الباطل والمعاصى، فنسوا الله. ومن ينسى الله ينسيه الله نفسه وتنتهى به خطاه إلى الهلاك. إن حامل الفطرة هداه الله إلى السبيل الحق، وعرفه طريق الحق وطريق الباطل، وله أن يختار. فمن اختار طريق الباطل، أضله الله. ومعنى إضلال الله له، إن الله يقطع عنه الرحمة لانحرافه فى الاختيار. ولا يدخل فى الرحمة إلا إذا أخذ الخطوة الأولى فى اتجاه الاختيار الحق. وجحافل فقه الشيطان، لا- ييأسوا من طرح ثقافات وعقائد من شأنها أن تفسد الدين الفطرى، لأنه على فساد الدين الفطرى يترتب عليه فساد القوة الحسية الداخلية للإنسان، ولا تتعادل فيما بينها. وعلى فساد القوى الحسية، يكون الإنسان مستعدا لتلقى أى إغواء أو تزيين، يشبع أى ملكة من ملكات النفس الجائعة. وعلى أعتاب الكثرة من الذئاب الآدمية، يأتى طغيان هذه الكثرة التى لا تتعظ بموقف، ولا تتفاعل مع وجدان. ويترتب على طغيانهم ضعف القوة المخالفة، لذلك كان طريق الدعوة طريقا شاقا على امتداد المسيرة البشرية.

[صفحه ۳۰]

[۱] سورة الأعراف: الآية ۱۳.

[۲] سورة الحجر: الآية ۳۶.

[۳] سورة الأعراف: الآية ۱۵.

[۴] أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم. بظهور المهدى ونزول عيسى عليهما السلام. وبخروج الدجال والسفيانى آخر الزمان ومن أراد المزيد فعليه ببحوثنا فى المسيح الدجال.

[۵] سورة الحجر: الآية ۳۹ - ۴۰.

[۶] سورة الصافات: الآية ۶.

[۷] سورة النمل: الآية ۲۴.

[۸] سورة الكهف: الآية ۴۶.

[۹] سورة القصص: الآية ۷۹.

[۱۰] سورة سبأ: الآية ۳۵.

[۱۱] سورة البقرة: الآية ۱۷۰.

[۱۲] سورة المائدة: الآية ۱۰۴.

[۱۳] سورة يونس: الآية ۷۸.

[۱۴] سورة الزخرف: الآية ۲۲.

قطع الطريق على الدعوة

بعد أن مارس قطاع الطرق عملهم للصد عن سبيل الله. انقطع الطريق على

الرسل والأنبياء والفطرة وفقا لمنهج الشيطان. نرى أن هذا المنهج قد قطع الطريق على الدعوة، بمعنى إنه استعمل أدوات يستطيع أن يعرقل بها الطريق أمام السائرين فى اتجاه العبادة الحق إلى يوم الوقت المعلوم. وأدوات الشيطان التى استعملها فى هذا المجال قام بها المنافقون والذين فى قلوبهم مرض وغيرهم من الذين يلبسون ملابس الأديان. أى أنه عمل على ضرب الدعوة من داخلها حتى تسير فى اتجاه غير اتجاه العبادة الحق. وهذا المخطط أخبرنا الله تعالى به، فبعد أن أنظره الله ليوم يبعثون قال لله جل شأنه - (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم - ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) - [۱] ، قال المفسرون: لما أنظر إبليس واستوثق بذلك أخذ فى المعاندة والتمرد. قال: لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا على طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدون ولا يوحدوك [۲] وقعود الشيطان على الصراط المستقيم، كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه. والجلوس على الصراط المستقيم لا يتحقق الغرض منه إلا برمز من رموز هذا الصراط، بمعنى أنه لكى يصد عن سبيل الله فلا بد من ثقافة يصيد بها الذين يسيرون على الصراط المستقيم. وهذه الثقافة لكى يتحقق الغرض منها لا بد أن يحملها طائفة من السائرين على الصراط المستقيم، فمعهم يكون الضلال أشد. ويسيرون فى الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، بينما هم فى الواقع يغوصون فى أوحال الذين من قبلهم من الذين غضب الله عليهم ولعنهم. إن قطع الطريق على الدعوة، يتحقق إذا حملها أصحاب اللا دعوة واللا هدف، بشرط أن يكون على أصحاب اللا دعوة

[صفحه ۳۱]

واللا هدف ملابس الدعوة والهدف. وبعد أن أعلن الشيطان الخط العريض، بأنه سيجلس على الصراط المستقيم. ذلك الصراط الذى يوصل الناس إلى ربهم الحق وينتهى بهم إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، أخبر سبحانه بأنه قال: - (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) - وفى هذا إيضاح للخط العريض. قال المفسرون: عن مجاهد قال - (من بين أيديهم) - يعنى من حيث يبصرون، وقيل: من بين أيديهم أى الدنيا [۳] وقيل: أى ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم،

من الأمور التى تهواها النفوس، وتستلذه الطباع. وكل ما يتعلق بالآمال والأمانى. فيأتيهم ليخوفهم من الفقر إذا هموا لينفقوا فى سبيل الله. أو يخوفهم من ذم الناس أو لومهم إذا أمروا بمعروف أو إذا سلكوا سبيل من سبل الخير وعلى هذا جاء فقه التقوقع والترقيع والانسحاب، غلافه غلاف الدين ومحتواه لا علاقة له بالدين. والمراد من خلفهم، قال المفسرون: أى أرغبهم فى دنياهم [۴] ، وقيل: أى آتيهم من ناحية الأولاد والأعقاب وذلك لأن الإنسان له فيمن يخلفه من أولاد، آمال وأمانى ومخاوف ومكاره. ويخيل للمرء أنه يبقى ببقاء أولاده، ويسره ما يسرهم ويسوؤه ما يسوؤهم، فيجمع لهم المال من حلاله وحرامه، ويفسح لهم الطريق إذا كان ذا جاه وملك ليكونوا امتدادا له بعد وفاته.. وعلى قاعدة الأبناء جاء فقه السلطة الذى يمدح المستقبل لأنه ينتمى إلى حاضر القاضى والجلاد ويمدح الحاضر لأنه ينتمى إلى ماضى القاضى والجلاد إنه عالم - (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) - [۵] ، عالم ينظر إلى المستقبل بعيون الماضى وإن كان آباؤهم فى الماضى لا يعقلون شيئا، إنه عالم غلاف فقهه غلاف دينى أما محتواه فهو أقرب إلى المحافظة على الشذوذ.

[صفحه ۳۲]

والمراد بعن أيمانهم وعن شمائلهم، قال المفسرون: عن أيمانهم: أى أشبه عليهم أمر دينهم [۶] وقيل: اليمين هو الجانب القوى الميمون من

الإنسان، أى الدين. وإتيانه من جانب الدين، أن يزين لهم المبالغة فى بعض الأمور الدينية والتكاليف بما لم يأمرهم الله.. وعلى هذا جاء فقه المبالغة والتنطع والمنفرين، الذين يدعون أنهم يعلمون كل شئ وهم لا يعلمون أى شئ. وعلى أكتافهم تتآكل الشرائع ويتراجع الدين، إن غلاف فقه المنفرين والمتنطعين والذين يتخذون الزهد والرهبنة طريقا ليأكلوا به أموال الناس بالباطل، غلاف يحمل ملامح دينية. أما محتواه فقد خطه أصحاب القضايا الرديئة، التى لا تصلح إلا لعالم اللا دعوة واللا هدف - (وعن شمائلهم)،

قال المفسرون: اشتهى لهم السيئات والمعاصى. وقيل: عن شمائلهم أى تأصيل الفحشاء والمنكر والدفاع عن اقتراف الذنوب بجعل الأهواء قانونا لهم.. وأمام هذا الفقه تقهقر اليمين وتقدم الشمال تحت لافتة تنادى بحقوق الإنسان، فالعنوان له ملامح طيبة " حقوق الإنسان " أما المحتوى فلا وجود فيه لإنسان الفطرة، إلا من رحم الله. والمنهج الشيطانى لم يكتف بمحاصرة الإنسان من جهاته الأربع، وإنما خطط من أجل أن يجمع أتباعه تحت ثقافة واحدة، هى ثقافة الأهواء رغم تفرق سبلهم، وهذه الثقافة يعزفها الشيطان الرجيم على الجميع. أخبر الله تعالى بأنه قال: - (أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) - [۷] قال المفسرون: يقال، حنك الدابة بحبلها، إذا جعل فى حنكها

الأسفل حبلا- يقودها به. والمعنى: أقسم لئن أخرتنى إلى يوم القيامة، وهو مدة مكث بنى آدم فى الأرض، لألجمن ذريته إلا قليلا، أتسلط عليهم تسلط راكب الدابة الملجم لها عليها، يطيعوننى فيما آمرهم، ويتوجهون إلى حيث أشير لهم، من غير أى عصيان وجماح. إن الاحتناك فقه لتلجيم العقول وتكميم الأفواه

[صفحه ۳۳]

وتعصيب العيون، عن كل حق أو حقيقة. إن الاحتناك قانون يضرب بسياطه الغوغاء والرعاع والديهماء. وفى عالم الاحتناك تتلقى الدواب أوامر الضلال والأمانى وتغيير خلق الله، بدون اعتراض وبلا أدنى تفكير. قال تعالى وهو يخبر فى كتابه عن خطة الشيطان - (وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا - ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) - [۸] قال المفسرون: - (ولأضلنهم) - أى

عن طريق الحق، - (ولأمنينهم) - أى أزين لهم ترك التوبة - (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) - يعنى بشق آذانها، - (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) - يعنى دين الله [۹] .

والمعنى: أى لأضلنهم بالاشتغال بعبادة غير الله، واقتراف المعاصى، ولأغرينهم بالأمانى التى تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم وما يهمهم من أمرهم، ولآمرنهم بشق آذان الأنعام وتحريم ما أحل الله، ولآمرنهم بتغيير خلق الله. وينطبق على مثل الإخصاء وأنواع المثلة واللواط والسحاق. وقيل: المراد بتغيير خلق الله، الخروج عن حكم الفطرة، وترك الدين الحنيف. قال تعالى: - (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) - [۱۰] والخروج على حكم الفطرة، غير تبديل الفطرة. فالفطرة لا تبدل

لأنها حجة بذاتها على الإنسان. وهكذا قطع البرنامج الشيطانى الطريق على الرسل والفطرة والدعوة، والله غالب على أمره. لقد طلب الشيطان الامهال إلى يوم الوقت المعلوم، فأعطاه الله ذلك، وتوعد ذرية آدم بالإغواء والتزيين والاحتناك وغير ذلك. ولأن برنامجه لا يقصده إلا- شر الدواب عنه الله، زاده الله فقال له تعالى: - (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا - واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان

[صفحه ۳۴]

إلا غرورا - إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) [۱۱] قال

المفسرون: أى استنهض للمعصية من استطعت أن تستنهضه من ذرية آدم بصوتك، وصح عليهم لتسوقهم إلى المعصية بأعوانك وجيوشك، فرسانهم ورجالتهم. وشاركهم فى الأموال فيجمعونها من خبيث وينفقونها فى حرام، وشاركهم فى الأولاد أى يمجسونهم ويهودونهم وينصرونهم ويصبغونهم غير صبغة الإسلام. (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أخبر سبحانه، بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال (وكفى بربك وكيلا) أى حافظا ومؤيدا ونصيرا [۱۲] .

إن برنامج الشيطان تنسفه العبادة الحق نسفا. فالشيطان لا يستطيع أن يجبر إنسان على معصية، إنه يزين ويغوى وينادى فقط، والذى يلبى نداءه يكون فى الحقيقة قد اختار، ومن اختار طريق الشيطان فهو بعيد عن الله، وبرنامج الشيطان يسير اتباعه عكس اتجاه الفطرة،

ولا يقصدوا إلا ما خلفوه وراء ظهورهم. والإنسان الذى يسير فى غير اتجاه الفطرة، كلما توجه إلى ما يراه خيرا لنفسه وصلاحا لدينه أو لدنياه، لم ينل إلا شرا أو فسادا، وكلما بالغ فى التقدم زاد فى التأخر، وليس بفالح أبدا. وذلك لأنه مطارد من الله ولا بقاء لشئ يطارده الله إن أتباع برنامج الشيطان لن يهديهم الله، ما داموا يتزودون من زاد برنامج الضلال. (والله لا يهدى القوم الظالمين) [۱۳] (والله لا يهدى القوم الفاسقين) [۱۴] (والله لا يهدى القوم الكافرين) [۱۵] (إن الله لا يهدى من يضل) [۱۶] (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) [۱۷] (إن الله لا يهدى من هو

[صفحه ۳۵]

كاذب كفار) - [۱۸] فهؤلاء جميعا دخلوا باختيارهم إلى دائرة مقفولة على الغاوون. فمن لم يأخذ بالأسباب وخرج من هذه الدائرة، هلك وخسر الدنيا والآخرة، إن العودة إلى سبيل الفطرة، لا يكون إلا بالاتجاه أولا نحو الفطرة، ثم السير على سبيلها وفقا لما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى الخطوة الأولى يأتى مدد الله العزيز الحكيم، قال تعالى: - (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) - [۱۹] .

[۱] سورة الأعراف: الآية ۱۶ - ۱۷.

[۲] تفسير ابن كثير: ۲۰۴:۲.

[۳] تفسير ابن كثير: ۲۰۴:۲.

[۴] تفسير ابن كثير: ۲۰۴:۲.

[۵] سورة الزخرف: الآية ۲۲.

[۶] تفسير ابن كثير: ۲۰۴:۲.

[۷] سورة الإسراء: الآية ۶۲.

[۸] سورة النساء: الآية ۱۱۸ - ۱۱۹.

[۹] تفسير ابن كثير: ۵۵۶:۱.

[۱۰] سورة الروم: الآية ۳۰.

[۱۱] سورة الإسراء: الآية ۶۳ - ۶۴ - ۶۵.

[۱۲] تفسير ابن كثير: ۵۰:۳.

[۱۳] سورة التوبة: الآية ۱۹.

[۱۴] سورة المائدة: الآية ۱۰۸.

[۱۵] سورة البقرة: الآية ۲۶۴.

[۱۶] سورة النحل: الآية ۳۷.

[۱۷] سورة غافر: الآية ۲۸.

[۱۸] سورة الزمر: الآية ۳.

[۱۹] سورة محمد: الآية ۷.

حصار برنامج الشيطان

لقد عمل الشيطان وقطاع الطرق على امتداد التاريخ الإنسانى، من أجل

التشكيك فى كل رسول ونبى، رافعين فى وجوههم أعلام الاستكبار والتحقير. وعلى امتداد التاريخ لم ينقل إلينا أن هناك نبيا أو

رسولا قد هزم وإنما نقل إلينا أن الاستكبار هزم فی كل مكان وكل زمان، هزم تحت طين الطوفان أيام نوح عليه السلام. وهزم تحت الرياح العاصفة أيام هود عليه السلام. وهزم تحت صاعقة من السماء أيام صالح عليه السلام وهزم تحت قصف الحجارة من السماء أيام لوط عليه السلام. وهزم تحت أمواج البحر المتلاطمة أيام موسى عليه السلام. وما زال يهزم حتى يومنا هذا تحت شهادة الدعوة الخاتمة التی جاء بها محمد صلی الله عليه وسلم. - (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فی الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) - [۱].

إن الباطل هو الذی يهزم وفی هزيمته آية لكل من له سمع وبصر وعبرة لمن أراد الاعتبار - (بل نقذف بالحق علی الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) - [۲].

ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الدعوة، ولكن هيهات،

[صفحه ۳۶]

منذ آدم عليه السلام وحتى محمد صلی الله عليه وسلم والتوحيد يسری فی الوجود. لقد ذهب الجبابرة وأبناء الجبابرة الذين ادعوا أن دماء الآلهة تجری فی عروقهم، ذهبوا، وذهب من بعدهم الجلادون الذين أرادوا أن تكون للشذوذ قداسة. ذهبوا وما زالوا يذهبون، ودعوة الحق راسخة فی النفوس رسوخ الجبال - (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون - هو الذی أرسل رسوله بالهدی ودين الحق ليظهره علی الدين كله ولو كره المشركون) - [۳].

ولقد عمل الشيطان وقطاع الطرق من أجل تدمير الفطرة. والفطرة التی استهدفوها يقدروا علی تبديلها وفی هذا انتكاس لهم. أما تغيير الطريق الفطری، فإن الشيطان لم يمكن من إجبار الناس علی المعاصی، هو يدعو إليها فقط. وهذا الباب أغلقته حجج الله علی عباده فی عالم الذر والخلق، وفی عالم المشاهدة المنظور. ولقد جاء رسل الله عليهم السلام بالدين الحق، وللدين طريقة خاصة فی الحياة، وبه يميز الناس أی الطرق يسلكون إلی حياة طيبة فی الدنيا والآخرة، والدين الصحيح لا يكون إلا بحفظ الصلة بالله تعالی وإخلاص العبادة له. فمن أخلص العبادة لله تكون له حياة طيبة والله تعالی يحيی فی الدنيا الذين آمنوا حياة غير الحياة التی يعطيها للآخرين، فحياة المؤمنين والمجرمين وموتهما لا يتساويان. قال تعالی: - (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) - [۴].

ومن أعظم الحجج علی الإنسان، أن الله ما ترك دعوة جاء بها رسول من رسله، إلا وأخبر فيها عن مكائد الشيطان، كی يحذر الجنس البشری من عمليات الاغواء والتزيين وغير ذلك. أليس فی هذا تعرية لبرنامج الشيطان، والرسالة الخاتمة التی جاء بها محمد صلی الله عليه وسلم، أفاض فيها سبحانه فی هذا الجانب، وكشف كل مكر يقوم به الشيطان وأتباعه حتی يوم الوقت المعلوم.

[صفحه ۳۷]

أليس فی هذا حجة إضافية علی ما عند الإنسان من حجج. إن الأخبار بما مضی حجة دامغة - (ألم أعهد إليكم يا بنی آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين - وأن اعبدونی هذا صراط مستقيم) - [۵].

لقد أخبر سبحانه عن أمره ونهيه تعالی فقال: - (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذی القربی وينهی عن الفحشاء والمنكر والبغی يعظكم لعلكم تذكرون) - [۶]، وبين سبحانه أن الشيطان سيعمل علی طريق ما نهی الله عنه، فقال إنه (يأمر بالفحشاء والمنكر) - [۷] ولأنه كذلك جاء التحذير من الحركة الشيطانية فقال سبحانه للنبی صلی الله عليه وسلم - (قل إنما حرم ربی الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغی بغير الحق) - [۸] وقال: - (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) - [۹] إنه الحصار المضروب علی برنامج الشيطان، حصار هدفه تحرير الإنسان ووضعه علی طريق الحياة الطيبة فی الدنيا والآخرة. والحياة الدنيا لا تساوی ساعة واحدة أمام الحياة الآخرة. وكما حاصر كتاب الله أعمدة البرنامج الشيطانی، الفحشاء والمنكر، حاصر قطاع الطرق الذين وجدوا فی الطاغوت ضالتهم. فقال تعالی: - (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) - [۱۰] وفی مقابل هذه الولاية قال سبحانه: - (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلی الله لهم البشری) - [۱۱].

وقال تعالی: - (إنا جعلنا الشیاطین أولیاء للذین لا یؤمنون) [۱۲] ، ثم حذر سبحانه فقال: - (ومن یتخذ الشیطان ولیا من دون الله فقد خسر خسرانا

[صفحه ۳۸]

مبینا) - [۱۳] ، وقال - (إنه لیس له سلطان علی الذین آمنوا وعلی ربهم یتوکلون) [۱۴] .

وآیات القرآن التی تحاصر الشیطان وحزبه، وتبشر المؤمنین بالفوز، آیات کثیرة. أما من ناحیة تمکین الشیطان کی یزین للناس المعاصی، فإن الله تعالی زین الإیمان فی قلوب الذین آمنوا. قال تعالی: - (ولکن الله حبب إلیکم الإیمان وزینه فی قلوبکم) - [۱۵] وجعل سبحانه لمن آمن نورا یمشی به فی الناس، قال تعالی: - (أو من کان میتا فأحییناه وجعلنا له نورا یمشی به فی الناس) [۱۶] وإذا کان الشیطان قد أمهل حتی یوم الوقت المعلوم، فإن الله أید الإنسان بتتابع الأنبیاء والرسل والأئمة المهدین والملائکة الباقین ببقاء الدنیا. وهکذا، زینة فی مواجهة زینة، وحیاة فی مواجهة حیاة، ومنهج فی مواجهة منهج. منهج الله حیث التوحید، وإعانة الله لعباده، والتسبیح، والتطهیر، والحریة، والحلال، والحکمة، والخشوع، والعبادة الحق، والشکر، والشهادة، والخلود. ومنهج الشیطان حیث الاختلاف، والأزلام، والاستبداد، والاستعباد، والتفاخر، والتکذیب، والجهل، والجریمة، والفحشاء والمنکر، والخرافات، والطاغوت، والضلال، والفسق، والظلم والکفر، والنار.

[صفحه ۳۹]

[۱] سورة غافر: الآیة ۵۱.

[۲] سورة الأنبیاء: الآیة ۱۸.

[۳] سورة الصف: الآیة ۸ - ۹.

[۴] سورة الجبائیة: الآیة ۲۱.

[۵] سورة یس: الآیة ۶۰ - ۶۱.

[۶] سورة النحل: الآیة ۹۰.

[۷] سورة النور: الآیة ۲۱.

[۸] سورة الأعراف: الآیة ۳۳.

[۹] سورة الأنعام: الآیة ۱۵۱.

[۱۰] سورة البقرة: الآیة ۲۵۷.

[۱۱] سورة الزمر: الآیة ۱۷.

[۱۲] سورة الأعراف: الآیة: ۲۷.

[۱۳] سورة النساء: الآیة ۱۱۹.

[۱۴] سورة النحل: الآیة ۹۹.

[۱۵] سورة الحجرات: الآیة ۷.

[۱۶] سورة الأنعام: الآیة ۱۲۲.

النور والسحب الداکنة

علی امتداد المسیرة الإنسانیة، أقام الله تعالی حجته علی خلقه بإرسال

الأنبیاء والرسل ومعهم الهدی. وعلی امتداد نفس المسیرة والشیطان وأولیاؤه یعملون من أجل الضلال والنار، وبعد رحیل النبی المؤید

بالوحی، ینشط الشیطان وتلامیذه فی العمل علی أرضیة الصدر الأول فی کل رسالة، وذلک لأن هذه التربة تعتبر مخزنا هاما تستمد منه الأجیال وقودها الذی تنطلق به إلی المستقبل، فالشیطان إذا دق شذوذا فی الأرضیة الأولی، ضمن لهذا الشذوذ قداسة علی امتداد المسیرة البشریة. ومن أجل هذا تنشط حرکته علی امتداد هذه المساحة، وبالرغم من أن هذه المساحة تکون مشبعة بالعلم، إلا أن الشیطان یواجه هذا العلم دائما بالبغی، وما یلبث الذین یفی قلوبهم مرض أن یهیمنوا ببغیهم الذی یغذیه الزخرف والتزیین والإغواء، فبهذه التغذیة یتراجع العلم ویعبر البغی إلی عالم الفتن. ولقد أخبرنا الله فی کتابه أن الاختلاف بعد الرسل ما جاء إلا بعد أن أقیمت علیهم الحجة بالعلم، وهذا الاختلاف ما ترعرع إلا علی تربة البغی التی یترتب علیها العقاب - (وما اختلف أوتوا الکتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغیا بینهم ومن یکفر بآیات الله فإن الله سریع الحساب) - [۱].

قال المفسرون: أی بغی بعضهم مع بعض، فاختلفوا فی الحق لتحاسدهم

[صفحه ۴۰]

وتباغضهم وتدابرهم. فحمل بعضهم بغض البعض الآخر، علی مخالفته فی جمیع أقواله وأفعاله وإن کانت حقا [۲] وقیل: اختلاف أهل الکتاب فی الدین

مع نزول الکتاب الإلهی علیهم، لم یکن عن جهل منهم بحقیقة الأمر، بل کانوا عالمین بذلک. وإنما حملهم علی ذلک بغیهم وظلمهم من غیر عذر، وذلک کفر منهم بآیات الله المبینة لهم حق الأمر وحقیقته. لا بالله، فإنهم یعترفون به، ومن یکفر بآیات الله فإن الله سریع الحساب، یحاسبه سریعا فی دنیاه وآخرته أما فی الدنیا فبالخزی وسلب سعادة الحیاة عنه. وأما فی الآخرة فبألیم عذاب النار، والدلیل علی عموم سرعة الحساب للدنیا والآخرة قوله تعالی بعد آیتین: (أولئک الذین حبطت أعمالهم فی الدنیا والآخرة وما لهم من ناصرین) [۳].

وإذا کان البغی قد أثمر شجرة الاختلاف. فإنه أثمر أیضا شجرة الافتراق، قال تعالی: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغیا بینهم) [۴] قال

المفسرون: أی وما تفرق الناس الذین شرعت لهم الشریعة باختلافهم وترکهم الاتفاق، إلا حال کون تفرقهم آخذا أو ناشئا من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بینهم [۵] وقال ابن کثیر: أی إنما کان مخالفتهم

للحق بعد بلوغه إلیهم وقیام الحجة علیهم. وما حملهم علی ذلک إلا البغی والعناد [۶].

إن الشیطان ینشط فی تربة العلم، حیث القافلة الأولی. فإن استطاع أن یدق له وتدا أو ینصب له خیمة، ضمن البغی والاختلاف والفرقة. ومن هذه الأشجار سیأکل کل قادم ملجم العقل من بنی الإنسان تحت لافتات عدة تزینها سنة الآباء الأوائل، التی یدافعون عنها حتی ولو خرجت منها رائحة الفواحش.

[صفحه ۴۱]

والنبی الخاتم صلی الله علیه وسلم، عندما بعث کانت سنة الآباء الضالین لها أعلام فی کل مکان من عالم الفرقة والاختلاف. لقد دعاهم إلی الحق، فواجهوه بالباطل (قالوا حسبنا ما وجدنا علیه آباءنا) [۷] (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا علیها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا یأمر بالفحشاء) [۸] جاء

الرسول الخاتم لیواجه شریحة من الکفار فی رسالته الخاتمة تحمل نفس الملامح التی حملها کفار قوم نوح علیه السلام فی صدر الإنسانیة، فقدیما شکا نوح علیه السلام قومه لله تعالی وقال: (وإنی کلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فی آذانهم واستغشوا ثیابهم وأصروا واستکبروا استکبارا) [۹] فی الرسالة الخاتمة قالوا لمحمد صلی الله علیه وسلم: (قلوبنا فی أکنة مما تدعونا إلیه وفی آذاننا وقر ومن بیننا وبینک حجاب فاعمل إننا عاملون) [۱۰] (وإذا قیل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا) [۱۱].

لقد جاء النبی الخاتم صلی الله علیه وسلم فی وقت کانت سیاسة الاغواء والتزیین والاحتناک قد وصلت بأصحابها إلی درکات هوة

عمیقة.

[۱] سورة آل عمران: الآیة ۱۹.

[۲] تفسیر ابن کثیر: ۱:۳۵۴.

[۳] تفسیر المیزان: ۳:۱۲۱.

[۴] سورة الشوری: الآیة ۱۴.

[۵] المیزان: ۱۸:۳۱.

[۶] تفسیر ابن کثیر: ۴:۱۰۹.

[۷] سورة المائدة: الآیة ۱۰۴.

[۸] سورة الأعراف: الآیة ۲۸.

[۹] سورة نوح: الآیة ۷.

[۱۰] سورة فصلت: الآیة ۵.

[۱۱] سورة الفرقان: الآیة ۶۰.

من مداخل الدعوة الخاتمة

إن الداعی إلی الله تعالی صلی الله علیه وسلم، جاء لیذکر ویغذی الإرادة.

ویعمق الإخلاص ویشیع الأخلاق الفاضلة، ویبشر بما عند الله للذین آمنوا فی الحیاة الدنیا والآخرة. ویحذر دوائر الانحراف والاختلاف والفرقة والضلال من عذاب یوم عظیم. وکانت أصول دعوته تستند إلی أهم الأمور الفطریة، ألا وهو لا إکراه فی الدین. فنوح علیه السلام قال فی صدر البشریة

[صفحه ۴۲]

لقومه (أرأیتم إن کنت علی بینة من ربی وآتانی رحمة من عنده فعمیت علیکم أنلزمکموها وأنتم لها کارهون) [۱] قال المفسرون: أی إذا کنت علی بینة من

ربی، علی یقین ونبوة صادقة، وخفیت علیکم فلم تهدوا إلیها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلی تکذیبها وردها (أنلزمکموها) أی: أنغصبکم بقبولها وأنتم لها کارهون [۲] وقال فی المیزان: معناه عندی ما یحتاج إلیه رسول الله فی رسالته،

وقد أوقفتکم علیه، لکنکم لا تؤمنون به طغیانا واستکبارا، ولیس علی أن أجبرکم علیها، إذ لا إجبار فی دین الله سبحانه. والآیة من جملة الآیات النافیة للإکراه فی الدین، وتدل علی أن ذلک من الأحکام الدینیة المشرعة فی أقدم الشرائع، وهی شریعة نوح علیه السلام. وهذا الحکم باق علی اعتباره حتی الیوم من غیر نسخ [۳] .

کان هذا فی شریعة صدر البشریة الأول، وفی عصر الرسالة الخاتمة. قال تعالی: (لا إکراه فی الدین قد تبین الرشد من الغی) [۴] قال المفسرون: نفی

الدین الإجباری.. فالاعتقاد والإیمان من الأمور القلبیة التی لا یحکم فیها الاکراه والإجبار. فإن الاکراه إنما یؤثر فی الأعمال الظاهریة والأفعال والحرکات البدنیة، أما الاعتقاد القلبی فله علل وأسباب أخری قلبیة [۵] .

فالدعوة تقف علی أرضیة لا إکراه فی الدین، والداعیة یقف علی أرضیة الخلق العظیم، قال تعالی لرسوله (وإنک لعلی خلق عظیم) [۶] ومحاورة صاحب الخلق العظیم لخصومه تشع بالحکمة والموعظة الحسنة قال تعالی: (ادع إلی سبیل ربک بالحکمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتی هی أحسن) [۷] .

[صفحه ۴۳]

ومن أرضیهٔ لا إکراه فی الدین حاور صاحب الخلق العظیم خصومه وأخبرهم بما أمر به الله. (قل إننی هدانی ربی إلی صراط مستقیم دینا قیما ملهٔ إبراهیم حنیفا وما کان من المشرکین) [۸] قال المفسرون: أمره تعالی أن یخبرهم بأن ربه

الذی یدعو إلیه، هداه بهدایهٔ إلهیهٔ إلی صراط مستقیم، وسبیل واضح لا تخلف فیه ولا اختلاف. دینا قائما علی مصالح الدنیا والآخرهٔ أحسن القیام. لکونه مبنیا علی الفطرهٔ ملهٔ إبراهیم حنیفا، مائلا عن التطرف بالشرک. إلی اعتدال التوحید [۹] ، وأمره الله تعالی أن یخبرهم بأن طریقه هو طریق العبادهٔ الحق. (قل إن صلاتی ونسکی ومحیای ومماتی لله رب العالمین - لا شریک له وبذلک أمرت وأنا أول المسلمین) [۱۰] قال المفسرون: أمره تعالی أن یخبرهم بأنه عامل بما

هداه الله إلیه، وسائر به. کما أنه مأمور بذلک، وأمره أن یقول لهم: إننی جعلت صلاتی ومطلق عبادتی ومحیای بجمیع ما له من الشؤون.. ومماتی بجمیع ما یعود إلی من أموره، جعلتها کلها لله رب العالمین. من غیر أن أشرک به فیها أحد، فأنا فی جمیع شئونی فی حیاتی ومماتی لله وحده. وجهت وجهی إلیه، لا أقصد شیئا ولا أترکه إلا له ولا أسیر فی سیر حیاتی ولا أرد مماتی إلا له. فإنه رب العالمین، یملک الکل ویدبر أمرهم، وقد أمرت بهذا النحو من العبودیهٔ، وأنا أول المسلمین لله فیما أراده من العبودیهٔ التامهٔ فی کل باب وجههٔ [۱۱] .

کان هذا مدخل من مداخل دعوهٔ الإسلام العظیم، ولکن جحافل اللیل وخفافیش الظلام خرجوا من عالم الاحتناک حیث خیام تلجیم العقول وتعصیب العیون للصد عن سبیل الله بفرسانهم ورجالاتهم وأموالهم.

[۱] سورهٔ هود: الآیهٔ ۲۸.

[۲] تفسیر ابن کثیر ۴۳:۲.

[۳] المیزان ۲۰۷:۱۰.

[۴] سورهٔ البقرهٔ: الآیهٔ ۲۵۶.

[۵] المیزان: ۳۴۵:۲.

[۶] سورهٔ القلم: الآیهٔ ۴.

[۷] سورهٔ النحل: الآیهٔ ۱۲۵.

[۸] سورهٔ الأنعام: الآیهٔ ۱۶۱.

[۹] المیزان: ۳۹۴:۷.

[۱۰] سورهٔ الأنعام: الآیهٔ ۱۶۲ - ۱۶۳.

[۱۱] المیزان: ۳۹۴:۷.

عواصف الصد عن سبیل الله

وقفت الدعوهٔ الإسلامیهٔ فی مواجههٔ أصحاب السبیل والاختلاف، رافعهٔ

[صفحه ۴۴]

هامتها. وقام النبی الأعظم صلی الله علیه وسلم بإنذار خصوم العبادهٔ الحق وإخبارهم أن عبادتهم اتباع للهوی، واتباع الهوی ینافی صفهٔ الاهتداء فی نفس الإنسان، ویمانع إشراق نور التوحید علی قلبه إشراقا ثابتا ینتفع به. (قل إنی نهیت أن أعبد الذین تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءکم) [۱] وذکرهم بما حرم الله علیهم ووصاهم به. ومما وصاهم به، أن لا یتبعوا السبل التی دون هذا الصراط المستقیم الذی لا یقبل التخلف والاختلاف، فإن اتباع السبل یفرقهم عن سبیل الله. فیتخلفون فیه فیخرجون من الصراط المستقیم. والصراط

المستقیم، لا- اختلاف بین أجزائه ولا- بین سالکیه. (وإن هذا صراطی مستقیما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بکم عن سبیله ذلک وصاکم به لعلکم تتقون) [۲] .

ووجد الساهرین علی برنامج الشیطان أن برنامجهم فی مهب الریح، فکان لا بد من توجیه ضربات إلی الداعی إلی الله وإلی منهج الدعوة وإلی الذین آمنوا. فهذه المحطات الثلاث اتخذها الشیطان هدفا له منذ أن طرده الله ولعنه، ودوائر الصد عن سبیل الله التی سنسلط علیها الضوء فی بحثنا هذا هی (دائرة النجس) و (دائرة الرجس) وبالإضافة إلی هاتین الدائرتین یوجد تیار کان من نسیج الذین آمنوا. لکنه نسیج عبئ علیهم، وهذا الصنف وضعته تحت عنوان (تیار الذین فی قلوبهم مرض).

[۱] سورة الأنعام: الآیة ۵۶.

[۲] سورة الأنعام: الآیة ۱۵۳.

دائرة النجس

وفی هذه الدائرة یجلس طابور الشرک کله، قال تعالی: (إنما المشرکون

نجس) [۱] قال فی المجمع: کل مستقذر نجس. یقال: رجل نجس وامرأة

[صفحه ۴۵]

نجس وقوم نجس لأنه مصدر. وأدخلت فی دائرة النجس الکفار نظرا لأنهم جمیعا حزمة واحدة لها هدف واحد حدده برنامج واحد. وإذا کان القرآن قد ضرب علی المشرکین بالنجس فإنه شبه الکفار بالأنعام لأنهم لم یکونوا أهلا لسماع الحق وتعقله. وأهل هذه الحزمة الواحدة استهدفوا الرسل فرموه بالسحر (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الکافرون هذا ساحر کذاب) [۲] ورموه بالجنون (وقالوا یا أیها الذی نزل علیه الذکر إنک لمجنون) [۳] ، ورفضوا بشریة الرسول فقالوا (لولا أنزل إلیه ملک فیکون معه نذیرا) [۴] .

ووفقا لبرنامج الشیطان استهدفوا الدعوة فقالوا عن القرآن الکریم: (وقالوا أساطیر الأولین اکتتبها فهی تملی علیه بکرة وأصیلا) [۵] وخرج الذین تقلبوا فی

نعیم الترف والزینة وتعلقت قلوبهم بحب الدنیا فرأوا السعادة فیها والعذاب فی فقدها. خرجوا لیجلدوا الذین آمنوا، علی اعتبار أنهم خرجوا عن سنة الآباء القومیة التی تحمل شذوذ المسیرة الإنسانیة من عهد نوح علیه السلام. وتحت السیاط واللهیب سارت الدعوة الحق تضرب بحججها وجوه الجاحدین والظالمین أعداء العبادة الحق. ولم یجد هؤلاء فی جعبتهم من الحجج إلا ما تلقیه الشیاطین علی عقولهم الفارغة. قال تعالی: (وجعلوا الملائکة الذین هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سنکتب شهادتهم ویسألون - وقالوا له شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلک من علم إن هم إلا یخرصون - أم آتیناهم کتابا من قبله فهم به مستمسکون - بل قالوا إنا وجدنا آباءنا علی أمة وإنا علی آثارهم مهتدون) [۶] إن سلتهم قد طفحت بأشواک زینت بلون الورود، لقد جاءهم

الشیطان من جهاتهم الأربعة ونصب خیامه علی دروب الآمال والأمانی وتغییر خلق الله، وزین لهم الفواحش، قال تعالی: (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا

[صفحه ۴۶]

علیها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا یأمر بالفحشاء أتقولون علی الله ما لا تعلمون) [۷] .

لقد عبدوا الملائکة، وساروا بلجام الاحتناک وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم. إنه فقه الصم البکم العمی، لأن عبادتهم للملائکة لو کانت بمشیئة الله وبرضاه، ما جاءهم رسول من الله یدعوهم إلی عبادة الله وحده وأن یوحدوه ولا یعبدوا الشرکاء. ثم إنهم لا حجة لهم علی عبادة الملائکة، لا- من طریق العقل ولا من طریق النقل فلم یأذن الله فیها. ولا دلیل لهم علی حقیة عبادتهم سوی أنهم متشبثون بتقلید آبائهم وفی درب آخر من دروبهم فعلوا الفواحش وقالوا وجدنا علیها الآباء والله أمرنا بها. وذلک افتراء علی الله وقول بغیر علم

لعدم انتهائه إلى وحى. إن الله تعالى أعدل من أن يجبر عبدا على فعل ثم يعذبه عليه، والله جل شأنه لو كان مجبرا لعبده على فعل ما برأ من أفعال المشركين قال سبحانه: (أن الله برئ من المشركين) [۸] فهو سبحانه لم يتبرأ من خلق أبدانهم وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم. قال تعالى: (فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون) [۹] ، وقال: (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون) [۱۰] .

إن طابور الشرك والكفر والاحتناك لا علم عنده، لأن المعارف الحقة والعلوم المفيدة لا تكون فى متناول البشر إلا عندما يصلح أخلاقه. والطريق الوحيد لإصلاح الأخلاق والحصول على الملكات الفاضلة هو التوحيد الحق فى العبادة الحق. وإذا كان للمشركين والكفار فى مكة عمود فى دائرة النجس. فإن للمشركين والكفار من أهل الكتاب عمود عتيق فى هذه الدائرة. لأنهم حملوا

[صفحه ۴۷]

برنامج الشيطان وصدوا به عن سبيل الله. ولكن على طريقتهم، فاستهدفوا الرسول والدعوة والذين آمنوا، قال تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) [۱۱] ، فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعدما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن. لم يكن إلا سؤالا جزافيا لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق ولا ينقاد للحقيقة. وإنما يلغوا ويهذوا بما قدمت له أيدى الأهواء من غير أن يتقيد أو يثبت على أساس [۱۲] إن هدفه الصد عن السبيل بالتشكيك فى الرسول، أما الدعوة فقد

استهدفوها من جذورها. فالنبى صلى الله عليه وسلم أعلن على أسماع الجميع أن دعوته مبنية على الفطرة ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، فقام المشركين من أهل الكتاب بالمتاجرة على حساب أنهم أولى الناس بإبراهيم. يريدون من وراء ذلك إبعاد الناس عن الدعوة، فنزل قول الله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) [۱۳] قال المفسرون: ضمت كل طائفة منهم إبراهيم إلى نفسها، فتدعى

اليهود أنه كان يهوديا، وتدعى النصارى أن كان نصرانيا. ومن المعلوم أن اليهودية والنصرانية، إنما نشأتا جميعا بعد نزول التوراة والإنجيل، وقد نزلا جميعا بعد إبراهيم عليه السلام. فكيف يمكن أن يكون عليه السلام يهوديا أو نصرانيا. فلو قيل فى إبراهيم شئ لوجب أن يقال: إنه كان على الحق حنيفا من الباطل إلى الحق مسلما لله سبحانه. والإسلام الذى وصف به إبراهيم، هو أصل التسليم لله سبحانه والخضوع لمقام ربوبيته (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين - إنه أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) [۱۴] .

وكما استهدفوا الرسول والدعوة استهدفوا أيضا القوة الإسلامية بعد

[صفحه ۴۸]

الهجرة، فقام اليهود بتغذية الساحة بالمكائد وإشعال الحرب وكان الغرض من هذه الحروب كسر شوكة المسلمين وتجريدهم من قوتهم لحساب المنافقين ولحساب أهل مكة ومن حولهم الذين أخبر تعالى أنهم لا يهتدون ويستوى عليهم الانذار أو عدم الانذار [۱۵] .

[۱] سورة التوبة: الآية ۲۸.

[۲] سورة ص: الآية ۴.

[۳] سورة الحجر: الآية ۶.

[۴] سورة الفرقان: الآية ۷.

[۵] سورة الفرقان: الآية ۵.

[۶] سورة الزخرف: الآية ۱۹ - ۲۲.

[۷] سورة الأعراف: الآیة ۲۸.

[۸] سورة التوبة: الآیة ۳.

[۹] سورة الشعراء: الآیة ۲۱۶.

[۱۰] سورة هود: الآیة ۵۴.

[۱۱] سورة النساء: الآیة ۱۵۳.

[۱۲] المیزان: ۵:۱۳۰.

[۱۳] سورة آل عمران: الآیة ۶۵.

[۱۴] سورة آل عمران: الآیة ۶۷ - ۶۸.

[۱۵] راجع سورة یاسین: الآیة ۱۰.

حصار دائرة النجس

لقد استهدف الکفار والمشرکین الداعی إلی الله صلی الله علیه وسلم
ودعوته والمؤمنین بها. فأما الداعی إلی الله فلم یصل کیدهم إلیه لأن الله ینصر رسله ولو کره الکافرون. وأما کتاب الدعوة وهو القرآن الکریم فقد تولی الله حفظه فقال جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذکر وإنا له حافظون) [۱] وأما أتباع
الدین فإن حفظهم یکون بمقدار اقترابهم من الداعی إلی الله صلی الله علیه وسلم وکتابه. فکلما کانوا أقرب عمهم الأمن والأمان ودخلوا فی رحاب النصر والحفظ وکلما ابتعدوا عمهم البغی والاختلاف والافتراق، ودخلوا فی خیام برنامج الشیطان. وآیات الکتاب الحکیم التی تحفظ أتباع الدین الحق، آیات کثیرة تحفظهم من وساوس الشیطان وخطواته وتحفظهم من حرکة أتباع منهج الشیطان ودسائسهم. لقد حثتهم آیات الله علی الاتحاد والأمانة والتقوی والجهاد والدعاء والذکر والصدقة والعلم والفکر والفهم. إلی غیر ذلک من الأمور التی تجعل منهم قوة لا- تنفذ إلیها سهام دائرة النجس. والأکثر من هذا أن آیات الکتاب الحکیم کشفت برنامج الکفار والمشرکین الذی یستمد قوته من برنامج الشیطان. وکشف هذا البرنامج للمؤمنین هو فی نفس الوقت حجة علیهم یوم القیامة. وأهم الأعمدة التی یقوم علیها برنامج المشرکین من أهل الکتاب قوله تعالی: (ولن ترضی عنک الیهود ولا النصاری حتی تتبع ملتهم قل إن هدی الله هو الهدی ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذی جاءک من العلم ما لک من الله من ولی ولا
[صفحه ۴۹]
نصیر) [۲] قال المفسرون: إن هؤلاء لیسوا براضین عنک، حتی تتبع ملتهم
التی ابتدعوها بأهوائهم، ونظموها بآرائهم. ثم أمره تعالی بالرد علیهم بقوله: قل إن هدی الله هو الهدی. أی إن الاتباع إنما هو لغرض الهدی. ولا- هدی إلا هدی الله. وهو الحق الذی یجب أن یتبع وغیره - وهو ملتکم - لیس بالهدی. فهی أهوائکم، ألبستموها لباس الدین. وسمیتموها باسم الملة. ففی قوله (قل إن هدی الله).. جعل الهدی کنایة عن القرآن، ثم أضیف إلی الله، فأفاد صحة الحصر فی قوله (إن هدی الله هو الهدی)، وأفاد ذلک خلو ملتهم عن الهدی. وأفاد ذلک کونها أهواءا لهم. واستلزم ذلک کون ما عند النبی علما، وکون ما عندهم جهلا. واتسع المکان لتعقیب الکلام بقوله: (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذی جاءک من العلم - ما لک من الله من ولی ولا نصیر) فانظر إلی ما فی هذا الکلام من أصول البرهان العریقة ووجود البلاغة علی إیجازه. وسلاسة البیان وصفائه [۳] .
إن الدخول فی مساحة هؤلاء یترتب علیها أمور علی رأسها (ما لک من الله من ولی ولا نصیر) إن مساحتهم بها الزخرف والإغواء والأهواء. والآخذ منهم شیئا لن یأخذه إلا إذا کان حذاؤه قد حمل غبار طریقهم وعقله قد حمل بصمة احتناکهم. وإذا کان القرآن الکریم قد حذر من هذه المساحة العریضة التی یتربع فیها المشرکین من أهل الکتاب. إلا أنه فی الوقت نفسه حذر من مساحة أخری

يتربع فيها المتخصصون من هؤلاء. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين - وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) [۴] إنه الفريق الناعم الذى يجيد الاختراق، ويمهد الطريق لمساحته

الواسعة كى تفرض سياسات التخويف والتجويع على الأمة، من أجل تنفيذ

[صفحه ۵۰]

برنامج النجس والعار. وكتاب الله وهو يكشف هذه الأهداف بين أن مخططات هؤلاء ستتحطم إذا اعتصمت الأمة بكتاب الله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) قال المفسرون: أمر سبحانه بالاعتصام بالحق والإنصات إلى آيات الله، والتدبر فيها وإرجاع ما خفى منها إلى الرسول وسنته. فالآيات وبخت طريق الكفر وسالكيه. وأثبتت أن الكتاب والسنة كافيان فى الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.. فقوله تعالى: (وفيكم رسوله) يشمل أيضا وفيكم سنته التى بين لكم ما خفى عنكم من تأويل آيات الكتاب. وكما حذر كتاب الله من المخططات الكبرى لأهل الكتاب، حث المؤمنين على حفظ ثقافتهم الإسلامية فى أى مكان تواجدوا فيه. فحذر من ثقافة الآباء والأقارب إن استحبوا الكفر. ونهى عن موادة من حاد الله ورسوله ولو قارن أى سبب من أسباب المودة كالأبوة والنبوة والأخوة وسائر أقسام القرابة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هو الظالمون) [۵] ، وقال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) [۶] إن حفظ الثقافة والعقيدة فى الدائرة

الأضيق مطلب إسلامى. كما أن حفظها فى الدائرة الأوسع فيه دفاع عن الفطرة أمام الشهوات والأهواء المتعددة. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) [۷] قال المفسرون: المراد هو النهى عن موادتهم

الموجبة لتجاذب الأرواح والنفوس. فإن ذلك يقلب حال المجتمع من السيرة الدينية المبنية على اتباع الحق. إلى سيرة الكفر المبنية على اتباع الهوى وعبادة

[صفحه ۵۱]

الشيطان، والخروج عن صراط الحياة الفطرة [۸] .

لقد أقام الله حجته على حركة المسلمين على امتداد التاريخ، وقام القرآن الكريم بإظهار الداء وتشخيص الدواء. كى لا تختلط الثقافات وتنتج فى النهاية صنفا لا علاقة له بالإسلام أو بأهل الكتاب. صنفا لا من هؤلاء ولا من هؤلاء مهمته الوحيدة الوقوف فى دائرة الاحتناك يقدم خدماته لمن يلقف رغيفا أو شهوة تافهة.

[۱] سورة الحجر: الآية ۹.

[۲] سورة البقرة: الآية ۱۲۰.

[۳] الميزان: ۲۶۵:۱.

[۴] سورة آل عمران: الآية ۱۰۰ - ۱۰۱.

[۵] سورة التوبة: الآية ۲۳.

[۶] سورة المجادلة: الآية ۲۲.

[۷] سورة المائدة: الآية ۵۱.

[۸] الميزان: ۳۷۳:۵.

دائرة الرجس

قال تعالی وهو یذم المنافقین (فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم
جهنم) [۱] ، وقال سبحانه: (وأما الذین فی قلوبهم مرض فزادهم رجسا إلی رجسهم وماتوا وهم کافرون) [۲] والرجس هو کل قذر وقد یعبر به عن الحرام
والفعل القبیح واللعنة والکفر. قال الزجاج: الرجس فی اللغة اسم لکل ما استقذر من عمل [۳] والقرآن الکریم اهتم بالمنافقین، فذکرهم نظرا لخطورة العمل الذی عزموا علیه. فذکر مساوئ أخلاقهم، وأکاذیبهم وخدائعهم ودسائسهم. والفتن التی أقاموها علی النبی صلی الله علیه وآله وسلم. وعلی المسلمین وقد تکرر ذکرهم فی السور القرآنیة کسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والعنکبوت والأحزاب والفتح والحدید والحشر والمنافقون والتحریم وقد وعدهم الله أشد الوعید. ففی الدنیا بالطبع علی قلوبهم وجعل الغشاوة علی سمعهم وعلی أبصارهم وإذهاب نورهم وترکهم فی ظلمات لا یبصرون. وفی الآخرة یجعلهم فی الدرک الأسفل من النار. ولیس ذلک إلا لشدة المصائب التی أصابت الإسلام والمسلمین من کیدهم ومکرهم وأنواع دسائسهم. فلم ینل المشرکون والیهود والنصاری من دین الله ما نالوه. ویکفیک
[صفحه ۵۲]

فیهم قول الله تعالی لنبیه صلی الله علیه وآله (هم العدو فاحذرهم) [۴] .
والنفاق له مدرسة علی مساحة أهل الکتاب قال تعالی عن المنافقین منهم: (وإذا لقوا الذین آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلی بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله علیکم لیحاجوکم به عند ربکم أفلا تعقلون) [۵] وقال
تعالی: (وإذا لقوکم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا علیکم الأنامل من الغیظ) [۶] .
فالنفاق تمتد عروقه إلی الماضی السحیق. وهو أول تیار سری علی صفحة الجنس البشری. عمل من أجل إعاقة الطریق أمام العبادة الحق لحساب الأهواء المتعددة، وهذا التیار یحتوی بین دفتیه علی جمیع الأنماط البشریة من الذین استذلهم الشیطان. یحتوی علی الرعاع والغوغاء والدهیماء. وفی نفس الوقت یضم أصحاب الملابس النظیفة والیاقات البیضاء، أصحاب الأموال والأولاد وفصاحة اللسان. یقول تعالی: (وإذا رأیتهم تعجبک أجسامهم وإن یقولوا تسمع لقولهم کأنهم خشب مسندة) [۷] فهم أصحاب أزیاء حسنة، وصباحة فی
المنظر، وتناسب فی الأعضاء. إذا رآهم الرائی أعجبته أجسامهم، وإذا سمع السامع کلامهم مال إلی الاصغاء إلی قولهم. لحلاوة ظاهره وحسن نظمه، ورغم کل هذا إلا أن الحقیقة، أن هؤلاء کالخشب المسندة. أشباح بلا أرواح، لا خیر فیها ولا فائدة، لأنهم لا یفقهون. وکیف یفقه من صد عن سبیل الله بکل ما یملک من الأموال وأولاد. قال تعالی: (فلا تعجبک أموالهم ولا أولادهم - إنما یرید الله لیعذبهم بها فی الحیاة الدنیا وتزهق أنفسهم وهم کافرون) [۸] أخبر
سبحانه بأن أموالهم وأولادهم لیس من النعمة التی تهتف لهم بالسعادة، بل من النقمة التی تجرهم إلی الشقاء. وأبواب الشقاء مفتوحة لجمیع من أعرض عن ذکر الله، قال تعالی: (ومن أعرض عن ذکری فإن له معیشة ضنکا ونحشره یوم
[صفحه ۵۳]

القیامة أعمی - قال رب لم حشرتنی أعمی وقد کنت بصیرا - قال کذلک آتتک آیاتنا فنسیتها وکذلک الیوم تنسی) [۹] .
والمنافقین هرولوا فی اتجاه الإسلام لإنجاز برنامج لا علاقة له بالإسلام. قال تعالی: (إذا جاءک المنافقون قالوا نشهد إنک لرسول الله والله یعلم إنک لرسوله والله یشهد إن المنافقین لکاذبون - اتخذوا أیمانهم جنة فصدوا عن سبیل الله إنهم ساء ما کانوا یعملون) [۱۰] لقد هرولوا إلی الإسلام وهم معرضین عن سبیل الله!! أظهروا الإیمان لیقتربوا من المؤمنین ویحضرون فی محاضرهم ومشاهدهم. فیسهل علیهم وضع العراقیل المناسبة فی طریق کل حرکة للدعوة. ولأن مساحة النفاق تحتوی علی الأصناف العدیدة من أصحاب

العقد النفسية الذين فسدت فطرتهم وعلى أصحاب المصالح والمطامع. فإن القرآن الكريم فضح هذه المساحة التى ظهر أصحابها فى صدر العهد النبوى. فمنهم من لا يعرفه إلا الله وحده، قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) [۱۱] قال المفسرون: وممن

فى حولكم، أو حول المدينة من الأعراب الساكنين فى البوادى. منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق. لا تعلمه أنت يا محمد نحن نعلمهم [۱۲] .

ومنهم من كان الله تعالى يكشفه للنبى، ومنهم من كان النبى لا يكشفه إلا لخاصة أصحابه. ومن الخاصة حذيفة وعمار رضى الله عنهما. وعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن فى أصحابى اثنى عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط [" ۱۳] وهؤلاء الاثنى

[صفحه ۵۴]

عشر ليسوا من العامة والغوغاء. فأمثال هؤلاء كان النبى يكشفهم للخاص والعام. أما حزمة الاثنى عشر الذين لا يدخلون الجنة، فهم من أصحاب برامج الخشب المسندة. برامج الأشباح التى بلا أرواح والتى لا خير فيها ولا فائدة. لذا يقول حذيفة ": وأشهد الله أن الاثنى عشر حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [" ۱۴] واثنى عشر فيهم كفاية لتدمير أمة. كما أن اثنى عشر

فيهم كفاية لنجاة الأمة [۱۵] ألم ترى أن بنى إسرائيل كان يكفيهم عشرة فقط من الأحبار يؤمنون برسالة النبى وعلى إيمانهم يدخلون دائرة الأمن. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود [" ۱۶] أما الذين

كشفهم النبى صلى الله عليه وسلم للخاصة والعامة. فعن جبير بن مطعم قال: أصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أى مال رأسه إلى - وقال ": إن فى أصحابى منافقين [" ۱۷] وعن إياس عن أبيه أنهم عادوا مريضا مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم وكان المريض مرتفع الحرارة. وعندما قالوا أمام النبى أن المريض أشد حرا، قال لهم ": ألا أخبركم بأشد حرا منه يوم القيامة - وأشار لرجلين من أصحابه مولين أقفيتهما منصرفين - هذينك الراكبين المقفيين [" ۱۸] قال النووى:

سماهما من أصحابه لإظهارهما الإسلام والصحبة. وأخرج البيهقى عن ابن مسعود قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس إن فيكم منافقين. فمن سميت فليقم، قم يا فلن، ثم يا فلان. حتى عد ستا وثلاثين [۱۹] وعن ابن عباس قال: قام رسول الله صلى الله

عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة، فقال ": أخرج يا فلان إنك منافق. وأخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج ناسا منهم فضحهم. فجاء عمر بن الخطاب وهم

[صفحه ۵۵]

يخرجون من المسجد. فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة فظن أن الناس قد انصرفوا. واختبئوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم... الحديث [۲۰] فكشف تيارات النفاق على امتداد العهد النبوى كان يخضع لوحى الله تعالى. فالوحى كان يخبر بالبعض، ويخبر بالبعض الآخر ضمن خط عريض وهو يتحدث عن النفاق، نظرا لأن الأمة ممتحنة ومبتلية شأنها كشأن الأمم السابقة ليعلم الله كيف تعمل وكيف تختار ويعلم سبحانه الصابرين. إن الله تعالى أخبر عباده عن الشيطان وأهدافه، وكثير من العباد لم يروا الشيطان، وأخبر سبحانه عن المنافقين وصفاتهم وبرامجهم وكثير من الناس لم يعرفوا أسماء المنافقين. والحجة ليست فى الملابس والأموال والأولاد. وإنما هى فى الحركة والبرامج التى بينها الله تعالى فى كتابه. يقول تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام - وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد - وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) [۲۱] وقد يقول قائل فيمن أنزلت هذه

الآية؟ والجواب عن ابن كثير يقول: إن الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامة بعد ذلك [۲۲] ومعنى الآية: إنه يتكلم بما يعجبك كلامه،

مما يشير به إلى رعايته

جانب الحق. والعناية بصلاح الخلق وتقدم الدين والأمة. وهو أشد الخصماء للحق خصومة (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها.. الآية) التولى هو القيادة والسلطان ويؤيد هذا قوله تعالى فى الآية التالية: (أخذته العزة بالإثم)... وهذا يدل على أن له عزة مكتسبة بالإثم الذى يأثم به قلبه غير الموافق للسانه. والسعى هو العمل والإسراع فى المشى، فالمعنى: وإذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل، وأوتى سلطانا وتولى أمر الناس. سعى فى الأرض ليفسد فيها - ويمكن أن يكون التولى - بمعنى الإعراض عن المخاطبة والمواجهة، أى: إذا خرج من عندك كانت غيبته مخالفة لحضوره. وتبدل ما كان يظهره من

[صفحه ۵۶]

طلب الصلاح والخير إلى السعى فى الأرض لأجل الفساد والإفساد [۲۳] .

فهذا الذى يخالف ظاهر قوله، باطن قلبه. إذا سعى فى الأرض بالفساد، فإنما يفسد بما ظاهره الاصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها، وتغيير حكم الله عما هو عليه، والتصرف فى التعاليم الدينية. بما يؤدى إلى فساد الأخلاق واختلاف الكلمة. وفى ذلك موت الدين وفساد الدنيا. وقد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولاية رجال وركوبهم أكتاف هذه الأمة الإسلامية. وتصرفهم فى أمر الدين والدنيا بما لم يستعقب للدين إلا وبالا. وللمسلمين إلا انحطاطا. وللأمة إلا اختلافا فلم يلبث الدين حتى صار لعبة لكل لاعب. ولا الإنسانية إلا خطفة لكل خاطف. وقيل: (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد..) السعى هنا هو القصد كما قال أخبارا عن فرعون (ثم أدبر يسعى فحشر فنادى أنا ربكم الأعلى).. فهذا المنافق ليس له همه إلا الفساد فى الأرض وإهلاك الحرث.. (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) أى إذا وعظ هذا الفاجر، وقيل له اتق الله، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا، قل أفأنبئكم بشر من ذلكم. النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير. " ولهذا قال فى هذه الآية: (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) أى هى كافيته عقوبة هى ذلك [۲۴] .

إن أطروحة النفاق ترى بوضوح إذا سقطت عليها أشعة منهج العبادة الحق. لأن المنافقين على امتداد التاريخ الإنسانى بعضهم من بعض، يحكم عليهم نوح من الوحدة النفسية. وهذه الوحدة تضعهم فى قالب ذى أوصاف واحدة. ومهمة هذه الطروحات على امتداد التاريخ وضع البشرية على أعتاب الكوارث، لأن بنيانها أسس من ماء الكذب ووضع على شفا جرف هار. لا خير فيه ولا فائدة.

[صفحه ۵۷]

[۱] سورة التوبة: الآية ۹۵.

[۲] سورة التوبة: الآية ۱۲۵.

[۳] لسان العرب: ۱۵۹:۱۸.

[۴] سورة المنافقون: الآية ۴.

[۵] سورة البقرة: الآية ۷۶.

[۶] سورة آل عمران: الآية ۱۱۹.

[۷] سورة المنافقون: الآية ۴.

[۸] سورة التوبة: الآية ۵۵.

[۹] سورة طه: الآية ۱۲۴ - ۱۲۵ - ۱۲۶.

[۱۰] سورة المنافقون: الآية ۱ - ۲.

[۱۱] سورة التوبة: الآية ۱۰۱.

[۱۲] المیزان ۳۷۶:۹.

[۱۳] رواه الإمامان أحمد ومسلم (کنز العمال ۱۶۹:۱).

[۱۴] رواه الإمام مسلم کتاب صفات المنافقین (صحیح مسلم: ۱۲۵:۱۷).

[۱۵] حدیث الاثنی عشر الذین من قریش سیأتی فی موضعه.

[۱۶] رواه الإمام البخاری کتاب الهجرة (صحیح البخاری: ۳۴۱:۲).

[۱۷] رواه الإمام أحمد (الفخ الربانی: ۲۳۲:۱۹).

[۱۸] رواه الإمام مسلم (صحیح مسلم: ۱۲۸:۱۷) کتاب صفات المنافقین.

[۱۹] السیوطی (الخصائص الکبری: ۱۷۴:۲).

[۲۰] أورده ابن کثیر عن السدی عن أبی مالک (التفسیر: ۳۸۴:۲).

[۲۱] سورة البقرة: الآیة ۲۰۴ – ۲۰۵ – ۲۰۶.

[۲۲] تفسیر ابن کثیر: ۲۴۶:۱.

[۲۳] المیزان: ۹۶:۲.

[۲۴] تفسیر ابن کثیر: ۲۴۷:۱.

تیار الذین فی قلوبهم مرض

لقد خلطوا بین هذا التیار وبین المنافقین. وقالوا إنهما نوع واحد من
الأنماط الإنسانیة. والحقیقة غیر هذا ولا تلائم سیاق بعض الآیات التی ذکر فیها الذین فی قلوبهم مرض. وذلک لأن المنافقین یشارکونهم فی آیات أخری، والعدید من المفسرین قالوا: المنافقون هم الذین آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم والذین فی قلوبهم مرض هم ضعاف الإیمان. ومرض القلب فی عرف القرآن، هو الشک والریب علی إدراک الإنسان، فیما یتعلق بالله وآیاته. وعدم تمکن القلب من العقد علی عقیدة دینیة، نظرا لخلط الإیمان بالشرک عند مرض القلوب. ومن الآیات التی ذکرت الذین فی قلوبهم مرض قوله تعالی: (إذ یقول المنافقون والذین فی قلوبهم مرض غر هؤلاء دینهم..) [۱] ولا معنی للقول
بأن الذین فی قلوبهم مرض فی هذه الآیة هم من المشرکین، لأن القرآن لم یطلق علی المشرکین اسم الذین فی قلوبهم مرض ولم یطلق علیهم اسم المنافقین. ولا معنی للقول بأنهم هم الکفار، لأن الکفر هو موت للقلب لا مرض فیه، قال تعالی: (أو من کان میتا فأحییناه وجعلنا له نورا یمشی به فی النس کمن مثله فی الظلمات لیس بخارج منها کذلک زین للکافرین ما کانوا یعملون) [۲].
والذی یستحق التسجیل هنا أن هذه الآیة نزلت فی غزوة بدر. وفیها دلیل علی حضور جمع من المنافقین وضعفاء الإیمان ببدر حین تلاقی الفئتین. وذکر أن ضعاف الإیمان کانوا فئة من قریش أسلموا بمکة، واحتبسهم آباؤهم. واضطروا إلی الخروج مع المشرکین إلی بدر، حتی إذا حضروها وشاهدوا ما علیه المسلمون من القلة قالوا: مساکین غر هؤلاء دینهم حین قدموا علی ما قدموا علیه من قلة عددهم وکثرة عدوهم [۳] فإذا کان تعریف المنافقین بأنهم الذین
أظهروا الإسلام وأبطنوا الکفر، فإن ذلک لا ینطبق علی الفئة التی اضطرت إلی
[صفحه ۵۸]
الخروج مع المشرکین. لأن هذه الفئة لم یظهروا الإسلام، لأنهم لو کانوا قد أظهروه ما کانوا خرجوا من مکة أصلا. ومن الدلیل علی أن المنافق غیر الذی فی قلبه مرض قوله تعالی فی موطن آخر من مواطن القتال: (هنالک ابتلی المؤمنون وزلزلوا زلزالا شدیدا – وإذ یقول المنافقون والذین فی قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) [۴] قال ابن کثیر: حین نزلت الأحزاب حول

المدينة والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم.. فحينئذ ظهر النفاق. وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى أنفسهم. (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض... الآية) أما المنافق فنجم نفاقه، والذى فى قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوساوس فى نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال [۵] وقال فى الميزان: الذين فى قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان من المؤمنين. وهم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر) [۶] وفى موطن آخر

يقول تعالى: (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) [۷] إن هذه الآية صريحة فى أن الذين أظهروا الرغبة فى نزولها هم

الذين آمنوا. ومن يقول إن المنافقين داخلون فيهم. فهو بقوله هذا يتساهل تساهل غير لائق بكلام الله عزول. فالآية فى مثل قوله تعالى فى فريق من مؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) [۸] فالمؤمنين هم الذين سألوا رسول الله: هلا أنزلت سورة. فإذا

أنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها. وأمروا فيها بالقتال. رأيت الضعفاء الإيمان

[صفحه ۵۹]

ينظرون إليك من شدة الخشية نظر المحتضر [۹] وقال ابن كثير فى تفسير الآية:

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين. إنهم تمنوا شرعية الجهاد. فلما فرضه الله عز وجل. وأمر به، نكل عنه كثير من الناس.. ولهذا قال: (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض... الآية) أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء العدو [۱۰] .

فالمنافق لا يمكن أن يطلب آية كى يقاتل ويقتل. وإنما الذى طلب هم المؤمنون. وعندما نزلت الآية ظهر ضعاف الإيمان منهم. ومن الدليل أيضا على أن تيار الذين فى قلوبهم مرض، تيار منفصل وإن كان يعمل بطريقته الخاصة لعرقلة الطريق سواء كان يدرى أو لا يدرى. قوله تعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا - ملعونين أينما ثقفوا..) [۱۱] .

فالآية الكريمة ذكرت فئات ثلاث. المنافقون، والذين فى قلوبهم مرض، والمرجفون. وعلى رؤوسهم لعنة من الله تعالى إذا استمروا على ما هم عليه. فالمنافق هو الذى أظهر الإيمان وأبطن الكفر، والذى فى قلبه مرض هو الضعيف الإيمان، والمرجفون هم الذين يعملون على إشاعة الباطل لإلقاء الاضطراب والمعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين فى قلوبهم مرض عن الافساد. والمرجفون الذين يشيعون الأخبار الكاذبة فى المدنية لإلقاء الاضطراب بين المسلمين، لنحرضنك عليهم، ثم لا يجاورونك فى المدنية. بسبب نفيهم عنها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل. ولن تجد لسنة الله تبديلا) [۱۲] فهذه العقوبة، من النفى أو القتل سنة الله التى جرت فى الماضين. فكلما بالغ قوم فى الافساد وإلقاء الاضطراب بين الناس، وتمادوا وطغوا فى ذلك، أخذهم الله كذلك. ولن تجد لسنة الله تبديلا، فتجرى فيكم كما جرت فى الأمم من

[صفحه ۶۰]

قبلكم [۱۳] .

وإذا سبقنا الأحداث فإننى أسجل هنا أن قرار النفى واللعن نفذه النبى صلى الله عليه وسلم وفقا لما جاء فى هذه الآية الكريمة، على الحكم بن العاص [۱۴] وظل الحكم فى المنفى حتى رده عثمان بن عفان وكانت عودته

عمود أصيل فيما جرى من أحداث سنبينها فى حينه. وتيار الذين فى قلوبهم مرض، نواته الأولى كانت بمكة قبل الهجرة. وجاء ذكرهم فى سورة المدثر وهى سورة مكية، تعالى: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد

الله بهذا مثلا..) [۱۵] فإذا کان النفاق قد

ظهر فی المدنیة وهو رأی الغالب الأعم من المفسرین. فإنه لا معنی للقول إن الذین فی قلوبهم مرض فی هذه الآیة هم المنافقون، وذلک لأن السورة مکیة. وقال المفسرون فی معنی الآیات: أی ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائکة، یقدرون علی ما أمروا به. فلیسوا من البشر حتی یرجوا المجرمون أن یقاوموهم، وما ذکرنا عددهم وهو قوله تعالی (علیها تسعة عشر) إلا فتنة للذین کفروا، لیوقن أهل الکتاب، بأن القرآن النازل علیک حق. حیث یجدون ما أخبرنا به من عدة أصحاب النار موافقا لما ذکر فیما عندهم من الکتاب، ویزداد الذین آمنوا إیمانا بسبب ما یجدون من تصدیق أهل الکتاب ذلک (ولیقول الذین فی قلوبهم مرض والکافرون. ماذا أراد الله بهذا مثلا) أی ما الذی یعنیه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر. فهذه العدة القلیلة، کیف تقوی علی تعذیب أکثر الثقلین من

[صفحه ۶۱]

الجن والإنس [۱۶] وقال ابن کثیر قولهم (ماذا أراد بهذا مثلا) أی یقولون ما

الحکمة فی ذکر هذا ههنا؟ قال تعالی: (کذلک یضل الله من یشاء ویهدی من یشاء) أی من مثل هذا - القول - وأشباهه یتأکد الإیمان فی قلوب أقوام ویتزلزل عند آخرین. وله الحکمة البالغة والحجة الدافعة، وقوله تعالی: (وما یعلم جنود ربک إلا هو) أی ما یعلم عددهم وکثرتهم إلا هو تعالی لئلا یتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط [۱۷] .

ومن المعروف أن أهل الکتاب قبل البعثة کانوا یضعون أعینهم علی مکة، لعلمهم من کتبهم أن النبی سیبعث من هناک. وبعد نزول الوحی فی مکة کان لصفات النبی صلی الله علیه وآله عند أهل الکتاب أثر کبیر عند المسلمین. وکذلک الإخبار بعدد ملائکة النار، وهذا الإخبار وإن کان زاد الذین آمنوا إیمانا. إلا أن حکمة الله البالغة کشفت من خلاله تیارا کان الارتیاب مادته فی مکة. والمتدبر فی حرکة الواقع المکی عند مبعث النبی صلی الله علیه وآله یجد أنه مجتمع إنسانی. والمجتمع الإنسانی لا یخلو من أصحاب المصالح، وقد یکون النفاق جلبابا مهما لهؤلاء. وحلل النفاق لا تنحصر فی المخافة والاتقاء، أو الطمع من خیر معجل، فإن من علله أیضا الطمع ولو فی نفع مؤجل. ومنها أیضا العصبیة والحمیة، ولا دلیل علی انتفاء جمیع هذه العلل عن أهل مکة أو عن الذین آمنوا بالدعوة قبل الهجرة. فما بین أیدینا من کتب التاریخ والتراجم یذکر فیها أن فیهم من آمن ثم رجع، أو ارتاب ثم صلح. ومن الممکن أن یکون هناک من یرتاب فی دینه فیرتد ویکتم ارتداده، کما فی قول الله تعالی: (ذلک بأنهم آمنوا ثم کفروا فطبع الله علی قلوبهم فهم لا یفقهون) [۱۸] فلا یبعد أن

یکون فی هؤلاء من آمن حقیقة ثم ارتد وکتم ارتداده، فطبع الله علی قلبه بحیث لا یقبل الحق ولا یتبعه ویتبع هواه وفقا لبرنامج الشیطان. ویکون بخاتم الطبع قد

[صفحه ۶۲]

دخل تحت الآیة الکریمة التی نزلت فی مکة وفی المدینة (إن الذین کفروا سواء علیهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا یؤمنون - ختم الله علی قلوبهم وعلی سمعهم وعلی أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظیم - ومن الناس من یقول آمنا بالله وبالیوم الآخر وما هم بمؤمنین - یخادعون الله والذین آمنوا وما یخدعون إلا أنفسهم وما یشعرون - فی قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب ألیم بما کانوا یکذبون) [۱۹] ومن الممکن أیضا أن یکون بعض من آمن فی مکة، قد آمن طمعا

فی بلوغ أمنیته التی قد تکون التقدم والاستعلاء. وخصوصا أن النبی صلی الله علیه وسلم کان یذکر فی دعوته لقومه أنهم لو آمنوا به واتبعوه کانوا قادة الأرض. وکان الرهبان یخبرون بذلک وفقا لما بین أیدیهم من أوصاف الدعوة الخاتمة، فوفقا لهذا الاعلان أن یکون هناک من آمن غیر عابئا بقوة المشرکین الطاحنة ویعیش علی خطر، رجاء أن یوفق یوما لإدارة رحی المجتمع والعلو فی الأرض. ومن الممکن أن یکون فی المجتمع بعض المغمورین الطموحین إلی سعة الصیت وجذب الأنظار إلیهم. فآمنوا بالدعوة التی وجدوا فیها اتجاها جدیدا یضیق الفوارق بین الطبقات یمکن لهم أن یعالجوا مشاعر النقص التی یعانونها ویحقق لهم البروز وسعة

الصيت والمكانة عن طريق تحدى مواقع النفوذ والسيطرة داخل المجتمع. ومن الممكن أن يكون هؤلاء المغمورين ضمن الذين لم يتعرضوا إلى أى أذى نتيجة معرفة قريش بهم فى جاهليتهم، وفهمها لنواياهم الحقيقية فى الانضمام للدعوة. بحيث أن الصدق والإخلاص والتفانى أمور مستبعدة بالنسبة لهؤلاء لذلك لم يتعرضوا لهم. وقد يكون ضعاف الإيمان قد هاجروا بعد ذلك من مكة إلى المدينة. ولكن الهجرة لها شروط، ومن أهم شروطها أن تكون فى سبيل الله وليس فى سبيل هدف آخر، قال تعالى: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم) [۲۰] وقال جل شأنه (والذين هاجروا فى

[صفحه ۶۳]

الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر) [۲۱] فالهجرة

الصحيحة هى ما عقد عليه القلب لقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه [" ۲۲] وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه قال ": إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه [" ۲۳] ، والقرآن الكريم لم يضع الذين هاجروا مع الأنبياء فى دائرة الحصانة، لأنهم بشر جاءوا ليختبرهم الله فى الحياة الدنيا من يومهم الأول إلى يومهم الأخير. ألم يهاجر السامرى من مصر مع موسى عليه السلام؟ ألم يكن على مقدمة موسى عند عبور البحر وأمامه ملك يرشدهم. فماذا فعل السامرى ذلك المهاجر؟ ألم يأخذ قبضة من أثر هذا الملك. وكانت هذه القبضة وبالا على بنى إسرائيل. لقد ساهم السامرى بهذه القبضة فى صناعة عجل من ذهب عبده المنحرفين من بنى إسرائيل وأشربوا فى قلوبهم حب هذا العجل. وكان هذا الحب وبالا فيما بعد على الجنس البشرى. إن السامرى هاجر وبعد الهجرة ظهر ما فى نفسه. قال تعالى لموسى عليه السلام عندما ذهب للقاء (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) [۲۴] ، والفتنة هى الامتحان والاختبار. وعندما عاد موسى عليه السلام وعلم بما حدث. أخبر عنه الله تعالى: (قال فما خطبك يا سامرى – قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى) [۲۵] .

أنظر إلى قوله (سولت لى نفسى) فالنفس طريق الإنسان إلى ربه. ولقد أقام الله على الإنسان الحجة فيها، فألهمه طريق الفجور وطريق التقوى. فمن انغمس فى

[صفحه ۶۴]

الشهوات غشى عمله على قوة النفس الهائلة، فيفتح العمل طريق الفجور على اتساعه. أما من التزم فى عمله بما أمر به الله وما نهى عنه، تكون نفسه حظا سعيدا ينتهى إلى ثواب الله، والإنسان لا يطأ موطأ فى سيره إلا بأعمال قلبية، هى الاعتقادات ونحوها. وأعمال جوارحية صالحة أو طالحة. وما أنتجه عمله يوما، كان هو زاده غدا. والسامرى سولت له نفسه، فما أغنت عنه هجرته (قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه..) [۲۶] .

إن الذى فى قلبه مرض، فى قلبه شهوة. فى سبيلها يركب الصعب كما ركب السامرى الصعب وأسس فى نهاية الأمر عقيدة شاذة. وكما ذكر القرآن قصة السامرى، لم يستبعد الفكر الحكيم أن يطمع الذى فى قلبه مرض فى أى أثر محرم عليه حتى ولو كان ضد الأثر زوجات النبى صلى الله عليه وسلم. على الرغم من أنه يعلم بنص القرآن إنهن أمهات المؤمنين، فمقتضى هذا النص لا يجوز لصاحب قلب سليم أن يقترب نحو مطمع فى أمهات المؤمنين. ولكن عالم مرضى القلوب، عالم متخصص فى نهش أى قبضة من أثر أى رسول. ليتاجر بها لحساب عالمه الخاص [۲۷] قال تعالى: (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن

اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا) [۲۸] ، قال المفسرون: نهاهن عن الخضوع فى القول وهو ترقيق الكلام مع الرجال. بحيث يدعو إلى الريبة. ويثير الشهوة فيطمع الذى فى قلبه مرض. وهو فقدانه قوة الإيمان التى تردعه عن الميل إلى الفحشاء [۲۹] ، وقال ابن كثير: فى قلبه مرض. أى دغل [۳۰] والدغل بالتحريك: الفساد. والدغل هو أيضا: دخل فى

[صفحه ۶۵]

الأمر مفسد. وأدغل فی الأمر أی: أدخل فیه ما یفسده ویخالفه، ورجل مدغل أی: مخاب مفسد [۳۱] .

وبالجملة نقول: إن الذی فی قلبه مرض، لا یدخل فی دائرة النفاق، لأنه محسوب علی دائرة الذین آمنوا. وکل منافق فی قلبه مرض، بمعنی فی قلبه هدف لا علاقة له بأی هدف من أهداف الذین آمنوا. لأن الإیمان لم یدخل قلبه بصورة من الصورة. وما فی قلبه فهو للصد عن سبیل الله ولا غیر ذلک، لذلک نقول والله تعالی أعلم إن حدیث الارتداد الذی رواه أصحاب الصحاح ینطبق علی من کان یجلس فی دائرة الذین آمنوا ثم ارتد عنها. ولا ینطبق علی المنافق الذی لم یؤمن أصلا حتی یرتد. وفی الحدیث عن أبی هریرة قال، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": یرد علی یوم القیامة، رهط من أصحابی، فیحولون عن الحوض. فأقول: یا رب أصحابی، فیقول: إنک لا علم لک بما أحدثوا بعدک إنهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری [" ۳۲] فالمنافق لم یؤمن حتی یرتد. إلا إذا کان قد آمن بعد ذلک ثم ارتد. ومن الدلیل علی بطلان قول من قولوا، إن الحدیث یختص بالمنافقین. الحدیث الذی رواه ابن عساکر وابن النجار عن أبی الدرداء أنه لما بلغه الحدیث قال: قلت یا رسول بلغنی أنک قلت لیکفرن أقوام بعد إیمانهم. قال: نعم ولست منهم [۳۳] وفی روایة عند البیهقی قال: فأتیت رسول الله فذکرت له ذلک فقال: إنک لست منهم [۳۴] .

إن دائرة النفاق وتیار الذین فی قلوبهم مرض. بذرتان فی تربة واحدة یسقیان من ماء واحد، ولکل شجرة منهما ثمار وأزهار، لا طعم فیهما ولا رائحة. أنبتهما الله من الأرض لحکمة ومن وراء الحکمة هدفا. (أحسب الناس أن یترکوا أن یقولوا آمنا وهم لا یفتنون – ولقد فتنا الذین من قبلهم – فلیعلمن

[صفحه ۶۶]

الله الذین صدقوا ولیعلمن الکاذبین – أم حسب الذین یعملون السیئات أن یسبقونا – ساء ما یحکمون) [۳۵] .

[۱] سورة الأنفال: الآیة ۴۹.

[۲] سورة الأنعام: الآیة ۱۲۲.

[۳] تفسیر ابن کثیر: ۳۱۹:۲.

[۴] سورة الأحزاب: الآیة ۱۱ – ۱۲.

[۵] تفسیر ابن کثیر: ۴۷۳:۳.

[۶] المیزان: ۲۸۶:۱۶.

[۷] سورة محمد: الآیة ۲۰.

[۸] سورة النساء: الآیة ۷۷.

[۹] المیزان: ۲۳۹:۱۸.

[۱۰] تفسیر ابن کثیر: ۱۷۸:۴.

[۱۱] سورة الأحزاب: الآیة ۶۰ – ۶۱.

[۱۲] سورة الأحزاب: الآیة ۶۲.

[۱۳] المیزان: ۳۴۰:۱۶.

[۱۴] ذکر ابن کثیر فی البدایة والنهایة ۱۸۲:۶ أن الحکم کان من ألد أعداء النبی صلی الله علیه وسلم.

[۱۵] سورة المدثر: الآیة ۳۱.

[۱۶] المیزان: ۹۰:۲۰.

[۱۷] المیزان: ۹۱:۲۰، ابن کثیر: ۴۴۴:۴.

[۱۸] سورة المنافقون: الآیة ۳.

[۱۹] سورة البقرة: الآیة ۶ – ۱۰، سورة یس: الآیة ۱۰.

[۲۰] سورة آل عمران: الآیة ۱۹۵.

[۲۱] سورة النحل: الآیة ۴۱.

[۲۲] رواه البخاری ومسلم وأبو داوود والترمذی والنسائی (الترغیب والترهیب: ۱۸۱:۲).

[۲۳] رواه أبو داوود والنسائی (الترغیب: ۱۸۱:۲).

[۲۴] سورة طه: الآیة ۸۵.

[۲۵] سورة طه: الآیة ۹۵ – ۹۶.

[۲۶] سورة طه: الآیة ۹۷.

[۲۷] کان بعضهم یرید هذا ویفهم من قوله تعالی: (ما کان لکم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنکحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلکم کان عند الله عظیما – إن تبدوا شیئا أو تخفوه فإن الله بکل شئ علیما). الأحزاب ۵۳ – ۵۴.

[۲۸] سورة الأحزاب: الآیة ۳۲.

[۲۹] المیزان: ۳۰۹:۱۶.

[۳۰] تفسیر ابن کثیر: ۴۸۲:۳.

[۳۱] لسان العرب.

[۳۲] رواه البخاری کتاب الدعوات (الصحیح: ۱۴۲:۴).

[۳۳] کنز العمال (۲۶۱:۱۱).

[۳۴] رواه البیهقی قاله ابن کثیر فی البدایة: ۲۰۸:۶.

[۳۵] سورة العنکبوت: الآیة ۲ – ۳ – ۴.

جهاز الرجس التخریبی

إذا کان الشیطان فی برنامجه قد استهدف أنبیاء الله ورسله والدعوة إلی الله والناس. وإذا کان الکفار والمشرکون والمنحرفون من أهل الکتاب قد استهدفوا ببرنامجهم النبی الخاتم صلی الله علیه وسلم ودعوته. فإن دائرة الرجس سارت فی نفس الاتجاه. فلقد استهدفوا الرسول فحاولوا اغتیاله مرات عدیدة واستهدفوا الدعوة بالتشکیک فیها وفی الداعی إلیها واستهدفوا القوة الإسلامیة المسلحة بتعریضها للهزیمة حتی تتآکل.

استهداف النبی

محاولات أصحاب برنامج الشیطان، استهدفوا النبی صلی الله علیه وسلم منذ بدایة الدعوة. لقد شککوا فیه واتهموه اتهامات شتی وتصدی لهم القرآن ورد کیدهم إلی نحورهم. ثم حاولوا استعمال سیاسة القبضة الغلیظة، فاستهدفوا الرسول بإلقاء حجارتهم علیه، ثم محاولة قتله أکثر من مرة فی مکة. وبعد هجرته صلی الله علیه وسلم تکررت محاولات قتله بواسطة الیهود ثم بالترکیز علیه أثناء المعارک الحربیة کی ینالوا منه صلی الله علیه وسلم ولکن رد الله کیدهم فی کل مرة. وبلغت الذروة عندما همت مجموعة تخریبیة من المنافقین بمحاولة اغتیاله فی أیامه الأخیرة. وهذه المحاولة لاغتیال الرسول صلی الله علیه وسلم، مدونة فی کتب التاریخ والتفسیر والصحاح والمسانید [۱] وطابور النفاق والذین فی قلوبهم مرض، هم الذین قاموا

بهذه المحاولة، وكانوا اثنى عشر رجلا [۲] وكانت خطتهم أن يقطعوا أتساع راحلته،

[صفحه ۶۷]

ثم يلقوا تحت أرجلها بالحجارة كى تقفز به، ثم ينخسوها لتندفع إلى الأمام نحو المنزلق فتلقى رسول صلى الله عليه وسلم من المرتفع إلى المنخفض. فيجهزوا عليه، واختاروا لجريمتهم وقتا قصيرا قبل الظلام. فإذا تمت الجريمة طواهم الليل ولا يراهم أحد. ثم يعودون ليتوضئوا وليصلوا صلاة المغرب ويصلون فيها على محمد وآل محمد، وروى أن عمار بن ياسر وحذيفة رضى الله عنهما كانا مع النبى أحدهما يقود الناقة والآخر يسوقها. وبينما كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى اتجاه العقبة، وهو المكان المخطط له أن تقع الجريمة فيه، أخبر جبرائيل عليه السلام النبى بما يدبر له. وفى المكان المحدد، ثم الهجوم وألقيت الحجارة تحت أرجل الناقة، ولكن الناقة لم تتحرك وثبتت على الأرض ثبوت الجبال. فقال النبى صلى الله عليه وسلم لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم. فلما نزل النبى من المرتفع، قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحدا، إن ظلمة الليل غشيتهم وهم متلثمون. فقال النبى: هل عرفت ما شأنهم وما يريدون؟ قال حذيفة: لا يا رسول الله. قال النبى: فإنهم فكروا أن يسيروا معى حتى إذا صرت فى العقبة طرحونى فيها. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال النبى: أكره أن يتحدث الناس ويقولون: إن محمدا يقتل أصحابه، وسماهم واحدا واحدا [۳] وهذه المجموعة التخريبية التى أقدمت على تنفيذ برنامجها الذى يستمد قوته من برنامج الشيطان أشار إليها الإمام مسلم فى صحيحه. فعن حذيفة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فى أصحابى اثنى عشر منافقا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط [" ۴] وروى أن حذيفة قال: أشهد أن الاثنى عشر حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [" ۵] وروى عن عمار بن ياسر قال: أشهد أن الاثنى عشر حربا لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم

[صفحه ۶۸]

الأشهاد [" ۶] إنها شهادة واحدة، لصحابى قاد الناقة وآخر ساقها. شهادة

مسطورة فى الصحاح والمسانيد. تقول إن من الصحابة من لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط. وإذا أردنا أن نعرف دوافع الجريمة عند المجموعة التخريبية، فلنقف عند العقوبة ونسلط عليها الضوء القرآنى. قال تعالى: - (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين) - [۷] .

إن المجموعة التخريبية كذبت بآيات الله، واستكبروا عنها، فضربتهم العقوبة التى شهد بها عمار وحذيفة رضى الله عنهما، فى كتب الصحاح. وهذه العقوبة ستصيب كل من كذب بآيات الله واستكبر عنها حتى يرث الله تعالى الأرض لقوله جل وعلا: - (وكذلك نجزى المجرمين) - إن التكذيب بآيات الله جريمة تخترق المستقبل من الماضى. - (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون) - [۸] ، والاستكبار جريمة ترى آثارها على امتداد الليل. والاستكبار والتكبر من الإنسان، أن يعد نفسه كبيرا ويضع نفسه موضع الكبر وليس به ولذلك يعد فى الرذائل. وفى لسان العرب: الاستكبار، الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرا [۹] .

[۱] الميزان: ۲۷۸:۹.

[۲] وفى رواية كانوا خمسة عشر. منهم ثلاثة لم يعرفوا بالخطة.

[۳] قصة تبوك فى صحيح مسلم كتاب المنافقين: ۸:۱۲۳، وسند أحمد ۵:۳۹۰.

[۴] رواه الإمام أحمد والإمام مسلم (كنز العمال: ۱۶۹:۱).

[۵] رواه الإمام مسلم فى صفات المنافقين (صحيح مسلم: ۱۲۵:۱۷).

[۶] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانى: ۲۰۲:۲۱).

[۷] سورة الأعراف: الآية ۴۰.

[۸] سورة الأنعام: الآية ۱۵۸.

[۹] لسان العرب: ص ۳۸۰۸.

استهداف الدعوة

استهدف كتاب الدعوة منذ يوم الانذار الأول، فقالوا أساطير الأولين.

وغير ذلك من أقوالهم التى تصدى لها القرآن ونسفها نسفا ورد كيدهم إلى نحورهم. وعندما لم يستطيعوا النيل من كتاب الله، استهدفوا الدعوة من خلال

[صفحه ۶۹]

حركتها وشعائرها بواسطة المنافقين، لضربها وضرب قوتها فى وقت واحد. كان الجهاز التخريبى يدخل للصلاة وهدفه لا يعرف طريق الاهتداء، وبلغت ذروة الاستهداف للدعوة فى آخر أيام النبى صلى الله عليه وسلم. وذلك عندما قاموا ببناء مسجد مهمته تخريب الصف الإسلامى وبث ثقافة معادية للدعوة، ووضع بذور بواسطتها تظهر الأحزاب والمذاهب بين المؤمنين.. فكل هذا تحت سقف مسجد يرفع عليه الآذان، وهذا العمل اشترك فيه جميع أتباع برنامج الشيطان، من مشركين وأهل كتاب وعلى رأس الجميع قيصر الروم. وقد كان مقدرا أن يعمل مسجدهم هذا فى الفترة الزمنية التى حدثت فيها غزوة تبوك. لقد فرغوا من البناء قبل الغزوة، ثم وجهوا الدعوة إلى النبى صلى الله عليه وسلم كى يفتتح المسجد بالصلاة فيه. لكن الله عصمه، وبعد العودة من تبوك حدثت محاولة الاغتيال. باختصار كانت هذه الفترة الزمنية، فترة عصيبة لا يرى حجم الخطورة فيها إلا بتجميع أحداثها. لقد أقاموا مسجدا، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: - (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) - [۱] فالإنفاق منهم لغو لا يترتب

عليه أثر. وهم فاسقون والله لا يقبل عمل الفاسقين، قال تعالى: - (إنما يتقبل الله من المتقين) [۲] ، والتقبل أبلغ من القبول. وقال فيهم أيضا: - (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) - [۳] وقال

تعالى: - (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) - [۴] لقد كانوا يحاربون معركة سرية غايتها أن ينالوا رضى المؤمنين،

وتحت هذه اللافتة يتم المخطط الإجرامى. ولكن آيات الله وقفت لهم بالمرصاد، وأخبرت أن الواجب على كل مؤمن أن يرضى الله ورسوله. ولا يحاد الله ورسوله، لأن فى هذا خزيا عظيما. وأخبر سبحانه أن حلفهم هذا كان من أجل

[صفحه ۷۰]

صرف المؤمنين عنهم ليأمنوا الذم، فأمر جل شأنه بالإعراض عنهم لأنهم رجس ولا ينبغى لنزاهة الإيمان وطهارته، أن يتعرض لرجس النفاق والكذب، وقذارة الكفر والفسق. وأخبر تعالى، إنكم إن رضيتم عنهم، فقد رضيتم عمن لم يرض الله عنه. أى رضيتم بخلاف رضا الله، ولا ينبغى لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه. فهؤلاء الذين لم يرض عنهم الله بنوا مسجدا لهدف، قال تعالى: - (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون) - [۵] .

قال المفسرون: بين الله تعالى أهداف هذه الطائفة من المنافقين فى اتخاذ هذا المسجد وهو: - الإضرار بغيرهم - والكفر - والتفريق بين المؤمنين - والإرصاد لمن حارب الله ورسوله. والقصة التى اتفق عليها أهل النقل: إن رجلا يقال له أبو عامر الراهب كان يعيش بالمدينة. وبعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة فارا إلى كفار مكة، يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك بعد غزوة بدر، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا يوم أحد. وقام أبو عامر بحفر حفر بين الصفين، وقع فى إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأصيب ذلك اليوم. فجرح وجهه الشريف. وشج رأسه صلى الله عليه وسلم. ولما فرغ

الناس من أحد، ولم ينل المجرمون من النبى ودعوته شيئا، ذهب أبو عامر إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبى صلى الله عليه وسلم. فوعده ومناه، فكتب إلى جماعة من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم إنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه ويرده عما هو فيه. وأمرهم أن يبنوا له معقلا- يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

[صفحه ۷۱]

تبوك. وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته. فعصم الله رسوله من الصلاة فيه فقال لهم " إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك نزل عليه جبريل يخبر بالمسجد الضرار [۶] كما أخبره بمحاولة الاغتيال. فأمر النبى بهدم المسجد وحرقه، وحرق الرمز كى يتدبر المتدبرون فى أحداثه ورماده ودخانه. ويبقى سؤال، هل انتهى المسجد؟ والإجابة فى كتاب الله. قال تعالى: - (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) - [۷] قال المفسرون: روى أن مكان المسجد

الضرار كانت توجد حفرة بها حجر يخرج منه دخان [۸] والمسجد اليوم مزبلة.

وقال ابن كثير فى تفسير الآية: - (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) - أى شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا فى قلوبهم. كما أشرب عابدو العجل حبه. وقوله - (إلا أن تقطع قلوبهم) - أى بموتهم [۹] .

وقال البيضاوى فى تفسير: رسخ ذلك فى قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه من قلوبهم. فأتباع السامرى قال فيهم تعالى: - (واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) - [۱۰] وأتباع المسجد الضرار قال فيهم الله - (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) - إن البصمة هنا وهناك على القلوب.

[۱] سورة التوبة: الآية ۵۳.

[۲] سورة المائدة: الآية ۲۷.

[۳] سورة التوبة: الآية ۹۶.

[۴] سورة التوبة: الآية ۶۲.

[۵] سورة التوبة: الآية ۱۰۷.

[۶] تفسير ابن كثير: ۳۸۷:۲.

[۷] سورة التوبة: الآية ۱۱۰.

[۸] تفسير ابن كثير: ۳۹۱:۲.

[۹] المصدر السابق: ۳۹۱:۲.

[۱۰] سورة البقرة: ۹۳.

استهداف القوة العسكرية

القتال فى الإسلام، عموده الفقرى الدفاع عن الفطرة. ولأنه على طريق

[صفحه ۷۲]

الفطرة فإنه يكره الاعتداء، قال تعالى: - (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) - [۱] وقال: - (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم

والعدوان) - [۲] القتال فى الإسلام له قانون، وهذا القانون للفطرة ومن أجلها.

ولقد دأب أعداء الفطرة فى وضع العراقيل أمام القوة الإسلامية حتى لا يشتد ساعدها. فى مكة استهدفوا الأجساد التى لم يكتب عليها القتال بعد، أرادوا لها أن تخاف وأن تتقوقع. وفى المدينة حشدوا الحشود وتعاونوا مع أعداء الدعوة فى كل مكان للقضاء على القوة العسكرية الناهضة، ورد الله كيدهم. وبدأ أصحاب برنامج الشيطان، يعتمدون على ورقة النفاق تلك الورقة التى اخترق أصحابها الصف الإسلامى. واستطاعوا أن يبثوا ثقافتهم بين المسلمين. وكان فى الصف الإسلامى سماعون لهم، وهؤلاء السماعون استطاعوا أن يجعلوا من القوة الواحدة فئتين فئة تعطى أصواتها للمنافقين والأخرى ترفض الانصات وتطالب بقتال المنافقين الذين انسحبوا من أرض المعركة. باختصار كان للمنافقين أثرا بالغا فى تعريض القوة المسلحة الإسلامية للعديد من الضربات. وبإلقاء نظرات على عمليات التخريب الكبرى التى قام بها المنافقون، نجد أنهم كانوا أسرع الناس فى التخلف والقعود عن الجهاد، واستئذان الجنود فى التخلف والقعود من غير عذر، جريمة فى حق الفطرة. يقول تعالى: - (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) - [۳] ، فالمؤمن يقف على أرضية العبادة الحق، التى تجعله على بصيرة من وجوب الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه. ولما كانت معارك الإسلام يتقدمها عمليات للاستطلاع وعليها يتم تقدير الموقف وعليه يتم تنظيم التعاون بين القوات المشتركة. فإن الاستئذان بعد هذه الإجراءات أو أثناء المعركة نفسها، يترتب عليه إعادة التنظيم وبهذا يكون ضياع الوقت فى صالح العدو. أو إتاحة

[صفحه ۷۳]

الفرصة للقوات المعادية للتقدم وإجراء عمليات الالتفاف والتطويق فى المناطق التى أخليت عن طريق الذين استأذنوا أو انسحبوا. وحركة النفاق كان الاستئذان والانسحاب أصل أصيل فيهم، قال تعالى: - (إنما تستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) - [۴] فالمنافق لعدم إيمانه

بالله واليوم الآخر يكون فاقدا لصفة التقوى، فخروجه مع المؤمنين يكون من باب النفاق. وعلى امتداد خروجه يتردد فى دائرة عريضة مادتها التذبذب والارتياب. فهو يريد مغنما ما، وفى نفس الوقت لا يريد أن يموت، ثم يأخذ القرار المناسب فى الوقت المناسب بما يحقق أمن الفرد وأمن الدائرة. وفى غزوة أحد، كان مؤسس المسجد الضرار يطوف على جابرة قريش فى مكة لتعبئتهم ضد النبى صلى الله عليه وسلم. وعندما تم حشد القوة الإسلامية وبدأ التوجه إلى أحد، انسحب المنافقون وكانت قواتهم تقدر بثلث الجيش [۵] ولم يؤثر فيهم أى موعظة وإلحاح. ويقول تعالى فى اعتذارهم يومئذ: - (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) - [۶] قال المفسرون: رجع

المنافقون أثناء توجه المسلمون إلى أرض المعركة فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة. فإن لم يكن فى سبيل الله فليدفعوا عن أولادهم وحريمهم وأنفسهم. فتعللوا قائلين: لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم. ولكن لا تقاتلون قتالا. وقولهم هذا جعلهم من الكفر الصريح أقرب [۷] وهذا العمل الذى يلتقى مع عمليات حشد مؤسسى المسجد الضرار

فى نقطة واحدة، كان أحد الأسباب العاملة لانهزام المسلمين يومئذ. وإذا كانت دائرة النجس قد نسقت بصورة أو بأخرى مع الأطراف فى مكة يوم أحد فإنهم نسقوا أيضا مع يهود بنى النضير بالمدينة. روى أن بنى النضير تآمروا على قتل

[صفحه ۷۴]

النبى صلى الله عليه وسلم. فأخبر الوحى النبى ما هم به يهود بنى النضير. فبعث إليهم النبى أن أخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها. فبدأوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم عبد الله بن أبى زعيم المنافقين، أن لا تخرجوا فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم ويموتون دونكم، وسينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان. ولم يتركهم حتى أقنعهم وأرضاهم فبعث اليهود إلى النبى صلى الله عليه سلم: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فكبر النبى صلى الله عليه وسلم وكبر أصحابه. وساروا إليهم وأحاطوا بديارهم [۸] قال تعالى ": ألم تر

إلى الـذين نـافقوا يقولون لإخوانهم الـذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحـدا أبـدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون) - [۹] .

لقـد ربط القرآن بينهم بأخوة واحـدة لاشتراكهم فى اعتقاد أو صداقـة. ولم يف المنافقون بما وعدوا به إخوانهم من أهل الكتاب، لقد سانـدوهم فقط بالقول نظرا لأن عـدوهما واحـد. وكل منهما وقف خلف جدار الآخر، كل طرف يتمنى أن يبادر صاحبه بإتمام المهمة التى عليه بصمات الشيطان. ولما كانت حركة النفاق مهمتها التخريب والتأليب وتعريض الصف الإسلامى القتالى للخطر. فإن الله تعالى زهـدهم فى الخروج، يقول تعالى: - (ولو أرادوا الخروج لأعـدوا له عـدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعـدوا مع القاعـدين) - [۱۰] قال المفسرون:

لو أرادوا الخروج لأعـدوا له العـدة. ومن الإعـداد الاعتقـاد الصـحيح والإيمـان الحق. ولأنـهم لم يعـدوا العـدة ولم يتـأهبوا لها، كره الله خروجهم فزهدهم فيه لئلا يفسدوا جمع المؤمنين [۱۱] .

لقد زهدهم الله فى الخروج لأن فى خروجهم كارثة، ولم يقتصر خروجهم

[صفحه ۷۵]

على الانسحاب والاستئذان. وإنما كانوا يلقون بالفتن ليفرقوا كلمة المسلمين. وذلك عن طريق الذين كانوا يسمعون لهم، قال تعالى: - (لـو خرجـوا فيكـم مـا زادوكم إلا خبالا ولأوضـعوا خلالكم يبغـونكم الفتنـة وفيكم سـماعون لهم والله عليم بالظـالمين) - [۱۲] قال المفسرون: وفيكم سماعون لهم: أى مطيعون لهم

ومسـتجيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصـحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم. فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير [۱۳] وقيل: - (وفيكم سماعون

لهم) - السماع: أى السريع الإجابة والقبول [۱۴] وإذا كان القرآن قد أشار إلى

جماعـة أو أفراد يسـمعون للمنافقين. فإنه فى موضع آخر يبين أن المؤمنين فى وقت ما انقسـموا إلى فئتين لكل فئـة رأى فى المنافقين، قال تعالى مخاطبا المؤمنين: - (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسـهم بما كسبوا تريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) - [۱۵] قال المفسرين: خرج

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه. فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين. فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. وهم المؤمنون فأنزل الله - (فما لكم فى المنافقين فئتين) - [۱۶] وقال

تعـالى منكرا على المؤمنين فى اختلافهم فى المنـافقين، أنه سـبحانه أركسـهم بسـبب عصـيانهم ومخـالفتهم الرسول واتبـاعهم الباطل. أتريـدون أن تهـدوا من لا طريق له إلى الهدى، وهم يودون لكم الضـلالة لتسـتووا أنتم وإياهم، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضـهم لكم [۱۷] .

فالمنافقون وضعوا العراقيل العديدة، ولكن الذين آمنوا استطاعوا بإيمانهم الراسخ أن يعبروا هذه العقبات نظرا لتمسكهم بتعليمات النبى صلى الله عليه

[صفحه ۷۶]

وسـلم. ولم يؤثر كيـد النفـاق، كما لو يؤثر كيـد المشـركين من قبل. ولقـد حاول النفاق أن يبث ثقافـة القعود عن الجهاد، بعـد أن نال المسـلمين من أعـدائهم كل نيل ولكن هـذه المحاولـة هى الأخرى باءت بالفشل. وبث ثقافة القعود وصـلت إلى ذروتها عند التحضـير لغزوة تبوك. تلـك الغزوة التى حاولوا فيها قتل النبى صـلى الله عليه وآله وانتهوا قبلها من تشـييد المسـجد الضـرار. ولقـد هـدد القرآن الكريم الـذين تثاقلوا عن الجهاد وقتئذ بالعذاب الأليم إذ لم ينفروا إلى الله. قال تعالى: - (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضـيتم بالحياة الـدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الـدنيا فى الآخرة إلا قليل - ألا تنفروا يعـذبكم عـذابا

أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) - [۱۸] .

قال المفسرون: هذا شروع فی عتاب من تخلف عن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم فی غزوة تبوک حین طابت الثمار والظلال فی شدة الحر [۱۹] ومعنی

الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم - لم يصرح باسمه صونا وتعظيما - اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم. كأنكم لا تريدون الخروج، أقنعتم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة. فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الآخرة إلا قليل [۲۰] ثم هددهم الله تعالى بالعذاب

والاستبدال. ولا يضروه شيئا بتوليهم عن الجهاد. وإذا كانت ملامح النفاق تبدو واضحة على طريق أحد وتبوک، فإن آخر جولاتهم كانت والنبی صلى الله عليه وسلم على فراش المرض. فلقد أمر عليه الصلاة والسلام بأن ينتظم الجيش تحت قيادة أسامة لإنجاز مهمة قتالية، ووضع النبی أكابر الصحابة تحت قيادة أسامة، وأمرهم بالخروج [۲۱] ولكن النفاق

مارس مهمته المعتادة يقول ابن حجر فی فتح البارى [۲۲] طعن المنافقون

[صفحه ۷۷]

فی إمارة أسامة. وعندما علم النبی صلى الله عليه وسلم بما قالوا، جلس على المنبر وقال ": إن تطعنوا فی إمارته فقد طعنتم فی إمارة أبيه فی قبل.. وحثهم على الخروج. ولم يخرج البعث إلا بعد وفاة النبی صلى الله عليه وسلم.

[۱] سورة البقرة: الآية ۱۹۰.

[۲] سورة المائدة: الآية ۲.

[۳] سورة التوبة: الآية ۴۴.

[۴] سورة التوبة: الآية ۴۵.

[۵] تفسير ابن كثير: ۵۳۲:۱.

[۶] سورة آل عمران: الآية ۱۶۷.

[۷] الميزان: ۶۰:۴.

[۸] الميزان: ۲۰۸:۱۹.

[۹] سورة الحشر: الآية ۱۱.

[۱۰] سورة التوبة: الآية ۴۶.

[۱۱] الميزان: ۲۹۰:۹.

[۱۲] سورة التوبة: الآية ۴۷.

[۱۳] تفسير ابن كثير: ۳۶۱:۲.

[۱۴] الميزان: ۲۹۰:۹.

[۱۵] سورة النساء: الآية ۸۸.

[۱۶] تفسير ابن كثير: ۵۳۲:۱.

[۱۷] تفسير ابن كثير: ۵۳۳:۱.

[۱۸] سورة التوبة: الآية ۳۸ - ۳۹.

[۱۹] تفسير ابن كثير: ۳۵۷:۲.

[۲۰] الميزان: ۲۷۸:۹.

[۲۱] بعث أسامة فى البخارى (۳۰۳:۲)، ومسند أحمد (الفتح الربانى: ۲۲۲:۲۱).

[۲۲] فتح البارى: ۱۳:۱۸۰.

جهاد الرسول لتيارات الصد الداخلية

بعد أن هرول أعداء الدعوة إلى أرض الدعوة، ينطقون بألسنتهم شعارات

الدعوة وتختزن قلوبهم أوجال الصد عن سبيل الله. بعد أن تدثروا بجلباب الإسلام سواء كان مصنوعا من قماش الخوف أو قماش المنفعة، بعد هذا أصبح التصدى لما يرتكبوه من جرائم غرض يتخذونه لتشويه الدعوة، تحت شعار أن محمدا يقتل أصحابه. فشعار مثل هذا وسط قبائل وعصبيات ودوائر عديدة للصد داخلية وخارجية، سيضع بلا أدنى شك عقبات أمام الدعوة يجد فيها برنامج الشيطان متسعا للانطلاق. ولهذه الأسباب وغيرها كان النبى صلى الله عليه وسلم يسير بالدعوة بين نفوس من صخر وبين نفوس نقية تقية. والدعوة فى الأساس أخروية الثواب، ويقف تحت سقفها كل من قبلها وأدى شعائرها. والدعوة تتحرك وفقا لوحى يحركها. وإذا نظرنا إلى حركة الدعوة فى مواجهة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وغيرهم. نجد أن القرآن الكريم قد حدد هذه الحركة بما يتلائم مع النفس الإنسانية عموما ليصل بها فى النهاية إلى المخزون الفطرى. قال تعالى: - (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) - [۱].

فالدعوة تحركت على محاور فيها الرحمة والعفو والاستغفار والمشورة التى تنتهى فى نهاية الأمر إلى قرار رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال فى الميزان: - (فبما رحمة من الله لنت لهم) -، أصل المعنى: فقد لان لكم رسولنا

[صفحه ۷۸]

برحمة منا. لذلك أمرناه أن يعفو عنكم ويستغفر لكم ويشاوركم فى الأمر. وأن يتوكل علينا إذا عزم [۲].

وعلى هذا الأساس شقت الدعوة طريقها وسط الصخور، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعفو عن بعض أفعالهم غير أن هذا العفو لا يشمل موارد الحدود الشرعية وما يناظرها وإلا لغى التشريع. وكان يشاورهم فى الأمر، قال ابن كثير: كان يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدث، تطيبا لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه [۳] ولقد شاورهم يوم بدر وفى مواطن كثيرة على امتداد سيرته صلى الله

عليه وسلم. ولا يجب أن يفهم من مشاورتهم فى الأمر أن هذه المشاورة فى أمور عقائدية أو أمور حسمها الوحى. وإنما المشاورة كما نصت الآية - (فى الأمر) - أى الأمر الذى يعزمون عليه. والذى يدخل فى إطار الأمور العامة التى تجوز فيها المشاورة. وبعد المشاورة إذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن من أحبه كان وليا وناصرا له غير خاذله. وكان صلى الله عليه وسلم يشعرهم على امتداد المسيرة، بأنه إنما يفعل ما يؤمر. والله سبحانه عن فعله راض، وهو متوكل على الله. وعليهم أن يتوكلوا عليه لأن الله يحب المتوكلين. وهكذا ضربت الدعوة وجهة الجحود بالرحمة، وحاصرت جميع الدوائر بالمشورة. وساقت الجميع إلى التوكل على الله. وأمام هذا العطاء كان أصحاب الرقاب الغليظة يعضون على أناملهم من الغيظ لأنهم عجزوا عن اختراق حاجز الرحمة وحاجز المشورة اللذين ينتهيان إلى الله قاصم الجبارين. كانت دوائر الصد تموج بأصحاب المخالب ويرتد فيها صدى قرقعة أنياب الحيتان. وأمام العوائق والمخالب أمر الله تعالى بجهادهم. قال تعالى: - (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم) - [۴] أما جهاد الكفار الذين تجاهروا

بالكفر وخرجوا للصد عن سبيل الله، ففى قتالهم آيات كثيرة ولهذه الآيات تفسير

[صفحه ۷۹]

يبين لماذا ومتى وكيف. فمن أراد فليراجعها فى مواضعها، أما قتال المنافقين الذين يرتدون جلباب الإسلام ويدخلون مساجده ويرتلون

کتابه، فله شأن آخر. قال ابن کثیر فی جهاد المنافقین: عن ابن مسعود قال: بیده فإن لم یستطع فلیکفهر فی وجهه. وعن ابن عباس قال: باللسان. وعن الحسن وقتادة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود علیهم [۵] وقال فی المیزان عن جهادهم:

المجاهدة بذل غایة الجهد فی مقاومتهم، والجهاد یکون باللسان وبالید حتی ینتهی إلی القتال. وشاع استعمال الجهاد فی القرآن فی قتال الکفار، لکونهم متجاهرین بالخلاف والشقاق. فأما المنافقون، فهم الذین لا یتظاهرون بکفر ولا یتجاهرون بخلاف. وإنما یبطنون الکفر ویقلبون الأمور کیدا ومکرا. ولا معنی للجهاد معهم بمعنی قتالهم ومحاربتهم.. والمراد بجهادهم - فی الآیة - مطلق ما تقتضیه المصلحة من بذل الجهد فی مقاومتهم. فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم یخالطوا ولم یعاشروا وإن اقتضت وعظوا باللسان. وإن اقتضت أخرجوا وشردوا أو قتلوا إذا أخذ علیهم الردة أو غیر ذلک. ویشهد لهذا المعنی عن کون المراد بالجهاد فی الآیة هو: مطلق بذل الجهد. تعقیب قوله تعالی: - (جاهد الکفار والمنافقین) - بقوله: - (واغلظ علیهم) - أی شدد علیهم وعاملهم بالخشونة [۶] .

وقد تعامل النبی صلی الله علیه وسلم علی امتداد مسیرته بین دوائر الصد فی الداخل، وفقا لمصلحة الدعوة. وقول الله تعالی لرسوله فی شأن المنافقین: - (لا تصلی علی أحد منهم مات أبدا) - [۷] یدل علی أنه صلی الله علیه وسلم کان یعرفهم بأعیانهم وأنه کان یتصرف التصرف الذی یمنع المنافقین من قطع الشوط الکبیر فی إفساد الأمر. فکان صلی الله علیه وسلم یخرج بعض المنافقین من المسجد علی سمع ومرأی من الجمیع تارة، وکان یسر بأسماء بعضهم إلی أصحابه تارة. وکان یسر بأسماء البعض الآخر إلی خاصة

[صفحه ۸۰]

الخاصة من أصحابه تارة أخری. کل ذلک وفقا لحرکة الدعوة وحرکة القبائل وثقافتها. وکان فی موضع آخر یقول فی بعضهم وقد جاءوا به - (دعه. لا یتحدث الناس أن محمدا یقتل أصحابه) - [۸] ویقول: - (معاذ الله. أتتسامع الأمم أن

محمدا یقتل أصحابه) - [۹] لقد کان صلی الله علیه وآله یصفح إذا اقتضت

المصلحة ذلک أو کما ذکر البخاری، کان یترک قتال المعارضین للتآلف وألا ینفر الناس عنه [۱۰] .

وإذا کانت الغلظة أی معاملتهم بخشونة تقتضیه مصلحة الدعوة فی صدرها الأول. فإنهم إذا أظهروا النفاق، بمعنی إذا حشدوا حشودهم للدفاع عن ثقافتهم التی یعبرون عنها بألسنتهم، ووقودها فی قلوبهم، فإذا کانت المصلحة فی قتالهم قوتلوا. ولکن، تحت رایة إمام حق، عالم بالتأویل. لأن قتال المسلمین یختلف عن قتال غیرهم، فالقتال أی قتال، فیه دماء، وسبی، وجرحی، وأرامل، إلی غیر ذلک. وهذا کله إذا دار تحت سقف واحد احتاج إلی فقه طویل عریض عال. یقول الإمام علی بن أبی طالب رضی الله عنه فیما ذکر ابن کثیر: بعث النبی صلی الله علیه وسلم بأربعة أسیاف. سیف للمشرکین - (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فقاتلوا المشرکین) - وسیف للکفار من أهل الکتاب - (قاتلوا الذین لا یؤمنون بالله ولا بالیوم الآخر ولا یحرمون ما حرم الله ورسوله ولا یدینون دین الحق من الذین أوتوا الکتاب حتی یعطوا الجزیة عن ید وهم صاغرون) -، وسیف للمنافقین - (جاهدوا الکفار والمنافقین) -، وسیف للبغاة - (فقاتلوا التی تبغی حتی تفیئ إلی أمر الله) -. قال ابن کثیر: وهذا یقتضی أنهم یجاهدون بالسیوف إذا أظهروا النفاق، قال بذلک ابن جریر [۱۱] وکما سارت حرکة الدعوة فی زمن

النبی صلی الله علیه وسلم بالرحمة والمشاورة فی الأمر، وجهاد المشرکین بما تقتضیه المصلحة ضرب الوحی سورا من الرحمة یحدد کیف یتعامل

[صفحه ۸۱]

المسلمون مع رسول الله صلی الله علیه وسلم وکیف یخاطبونه فلیس معنی أنه بینهم أو یشاورهم فی الأمر اختلاط الأمور وانصهار المکانة. فأرض الدعوة علیها من هو فی دائرة الإیمان والإسلام وغیر ذلک من دوائر الرجس والقلوب المریضة. وجمیع هؤلاء یتحدثون مع رسول الله صلی الله علیه وسلم. ولأن الحدیث مع الأنبیاء والرسل یترتب علیه إما الجنة وإما النار أقامت الدعوة جدارا من الرحمة، حتی لا تزل الأقدام وتحبط الأعمال. قال تعالی: - (یا أیها الذین آمنوا لا تقدموا بین یدی الله ورسوله واتقوا الله إن الله سمیع

علیم - یا أیها الذین آمنوا لا ترفعوا أصواتکم فوق صوت النبی ولا تجهروا له بالقول کجهر بعضکم لبعض أن تحبط أعمالکم وأنتم لا تشعرون - إن الذین یغضون أصواتهم عند رسول الله صلی أولئک الذین امتحن الله قلوبهم للتقوی لهم مغفرة وأجر عظیم) - [۱۲] .

قال ابن کثیر: أی لا تسرعوا فی الأشیاء بین یدیه، أی قبله. بل کونوا تبعا له فی جمیع الأمور.. وقال سفیان: لا تقدموا بقول ولا بفعل. وقال الضحاک: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دینکم. وقوله - (یا أیها الذین آمنوا لا ترفعوا أصواتکم فوق صوت النبی) - قال ابن کثیر: هذا أدب ثان أدب الله تعالی به المؤمنین أن لا یرفعوا أصواتهم بین النبی صلی الله علیه وسلم فوق صوته. وروی أنها نزلت فی الشیخین أبی بکر وعمر رضی الله عنهما، روی البخاری عن أبی ملیکة قال: کاد الخیران أن یهلکا أبو بکر وعمر رضی الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبی صلی الله علیه وسلم حین قدم رکب بنی تمیم. فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، أخی بنی مجاشع. وأشار الآخر برجل آخر. فقال أبو بکر لعمر: ما أردت إلا خلافی. وقال عمر: ما أردت خلافک. فارتفعت أصواتهما فی ذلک فأنزل الله تعالی: - (یا أیها الذین آمنوا لا ترفعوا أصواتکم... الآیة) - [۱۳] وقوله تعالی: - (أن تحبط أعمالکم وأنتم لا تشعرون) -

[صفحه ۸۲]

أی نهاکم عن رفع الصوت عنده خشیة أن یغضب من ذلک، فیغضب الله لغضبه فیحبط عمل من أغضبه وهو لا یدری. ثم ندب الله تعالی إلی خفض الصوت عنده وحث علی ذلک وأرشد إلیه ورغب فیه فقال: - (إن الذین یغضون أصواتهم عند رسول الله أولئک الذین امتحن الله قلوبهم للتقوی) - أی أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا [۱۴] وقال فی المیزان: - (لا تقدموا بین یدی الله ورسوله) - بین یدی

الشئ: أمامه. وهو استعمال شائع مجازی أو استعاری. وإضافته إلی الله ورسوله معا، لا إلی الرسول. دلیل علی أنه أمر مشترک بینه تعالی وبین رسوله. وهو مقام الحکم الذی یختص بالله سبحانه ورسوله بإذنه کما قال تعالی: - (إن الحکم إلا لله) - [۱۵] وقال: - (وما أرسلنا من رسول إلا لیطاع بإذن الله) - [۱۶] .

وقوله: - (لا تقدموا) - أی تقدیم شئ ما من الحکم. قبال حکم الله ورسوله. إما بالاستباق إلی قول قبل أن یأخذوا القول فیه من الله ورسوله. أو إلی فعل قبل أن یتلقوا الأمر من الله ورسوله.. والمعنی: أن لا تحکموا فیما لله ولرسول فیه حکم. إلا بعد حکم الله ورسوله، أی لا- تحکموا إلا- لحکم الله ورسوله. ولتکن علیکم سمة الاتباع والاقتفاء. وقوله لا ترفعوا أصواتکم ".. وذلک بأن تکون أصواتهم عند مخاطبته وتکلیمه صلی الله علیه وسلم أرفع من صوته وأجهر لأن فی ذلک کما قیل شیئین: إما نوع استخفاف به وهو الکفر. وإما إساءة الأدب بالنسبة إلی مقامه. وهو خلال التعظیم والتوقیر المأمور به. وقوله: - (ولا تجهروا له بالقول کجهر بعضکم لبعض) - فإن من التعظیم عند التخاطب أن یکون صوت المتکلم أخفض من صوت مخاطبه. فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنی التعظیم. فخطاب العظماء بالجهر فیه، کخطاب عامة الناس لا یخلو من إساءة الأدب وقوله - (أن تحبط أعمالکم..) - أی لئلا تحبط أو کراهة أن تحبط أعمالکم. فظاهر الآیة أن رفع الصوت فوق صوت النبی صلی الله علیه وسلم والجهر له بالقول معصیتان موجبتان للحبط. فیکون من المعاصی غیر

[صفحه ۸۳]

الکفر ما یوجب الحبط [۱۷] .

... والخلاصة: تعددت الدوائر، ولم تجد الدعوة غضاضة فی التعامل مع جمیع الخصوم الذین یقفوا تحت سقفها، کانت تحاور جمیع الأطراف دون أن تسمح لأی طرف من السیطرة علیها. وتعامل الدعوة مع القوی المختلفة ومع الأضداد، کان تعاملا یستخلص مصلحة الفطرة فی النهایة. وإذا کانت الدعوة قد أحاطت الجمیع بآیات تحدد کیفیة مخاطبة النبی وکیفیة دخول بیوته، فإنها حاصرت دائرة الرجس الحصار الذی یقوقع المنافقین ولا یجعل حرکتهم قابلة للتمدد علی المستوی الأفقی أو الرأسی. وذلک بفرض نظام یرفض اتخاذ بطانة من غیر الذین آمنوا. کما حددت الدعوة دائرة الطهر، وهذه الدائرة قضی الله وقضاؤه حق. إن عزة الإسلام مع هذه الدائرة

وإن فی هذه الدائرة طائفة لا یضرهم من ناوأهم أو من خذلهم أو من عاداهم حتی یأتی أمر الله.

[صفحه ۸۵]

[۱] سورة آل عمران: الآیة: ۱۵۹.

[۲] المیزان: ۵۶:۴.

[۳] تفسیر ابن کثیر: ۴۲۰:۱.

[۴] سورة التوبة: ۷۳.

[۵] ابن کثیر فی التفسیر: ۳۷۱:۲.

[۶] المیزان: ۳۲۹:۹.

[۷] سورة التوبة: الآیة ۸۴.

[۸] رواه البخاری ومسلم عن جابر (کنز العمال: ۲۰۰:۱۱).

[۹] رواه أحمد وحسنه الهیثمی (مجمع الزوائد: ۲۳۱:۶).

[۱۰] البخاری (الصحیح: ۳۱۲:۴).

[۱۱] ابن کثیر فی التفسیر: ۳۷۱:۲.

[۱۲] سورة الحجرات: الآیة ۱ - ۳.

[۱۳] رواه البخاری (الصحیح: ۱۹۰:۳) والترمذی وقال حسن غریب (الجامع: ۳۸۷:۵) وذکره ابن کثیر فی التفسیر: ۲۰۶:۴.

[۱۴] تفسیر ابن کثیر: ۲۰۷:۴.

[۱۵] سورة یوسف: الآیة ۴۰.

[۱۶] سورة النساء: الآیة ۶۴.

[۱۷] المیزان: ۳۰۸:۱۸.

النور و حصار دائرة الرجس

من الذی یدعو و یختار

لا جدال فی أن الشیطان ما زال یعمل منذ طرده الله من الجنة وأن مجال

عمله هم ذریة آدم وإن عمله مستمر بعد الرسالة الخاتمة وحتی یوم الوقت المعلوم. ولا جدال فی أنه استهدف فی برنامجه رسل الله علیهم السلام ودعوتهم قال تعالی: (وکذلک جعلنا لکل نبی عدوا شیاطین الإنس والجن) [۱] ولا جدال فی أن حزب الشیطان من المنافقین قد تدثروا فی رداء

الإسلام وحاولوا قتل النبی صلی الله علیه وسلم. وحاولوا بث ثقافة العدوان من تحت مئذنة مسجدهم الضرار. وساروا بین المؤمنین یبثون الفتن فی الوقت المناسب. ولا جدال فی أن الکتاب الذی یقرأه کل من یقف تحت سقف الدعوة الإسلامیة هو القرآن الکریم. ولا جدال فی هذا وغیره. فإذا کان الأمر علی هذه الصورة. فکیف حصنت برسالة خط القیادة فیها؟ بمعنی أنها لو ترکت الأمر لاختیار الأمة فإن بین صفوف الأمة من یقول فیهم الله جل شأنه: (وإذا رأیتهم تعجبک أجسامهم وإن یقولوا تسمع لقولهم کأنهم خشب مسندة یحسبون کل صیحة علیهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنی یؤفکون) [۲] بالله علیک إذا قام واحد من هؤلاء لترشیح نفسه للرئاسة فی أی مکان. ألا تراه

[صفحه ۸۶]

یستحوذ علی أغلب أصوات الناخبین. فهو فی صباحة من المنظر. وتناسب فی الأعضاء. وإذا سمعه السامع مال إلی الاصغاء إلی قوله: فماذا فعلت الدعوة الخاتمة لسد الطریق أمام أعداء الفطرة الذین یأکلون بأجسامهم وألسنتهم؟ وأیضا یعین صفوف الأمة أولئک الذین غمسوا فی الترف بما لدیهم من أموال وأولاد. یقول تعالی: (ولا تعجبک أموالهم وأولادهم إنما یرید الله أن یعذبهم بها فی الدنیا وتزهق أنفسهم وهم کافرون) [۳] فماذا فعلت الرسالة الخاتمة لسد الطریق

أمام التجار الکبار الذین احترفوا التجارة فی کل شئ. وأمام أبنائهم الذین ورثوا منهم الشذوذ والدنس والعار، أقول والله أعلم. إن القول بأن الدعوة لم تقم بتحصین هذا الجانب، هو قول فیه تساهل غیر لائق بکلام الله وسنة نبیه وحرکة التاریخ. ولو قلت أن الأمة تختار قیادتها وفقا لشروط دقیقة. فإن قولی هذا یصطدم بحقیقة لا تقبل الجدل تقول: إن سر المنافق فی قلبه. ومعنی هذا إن أی شروط فی حقیقة أمرها لله تتعدی الأمور الظاهرة، ولأن جسم هذا الأمر لا یبدأ إلا من القلب. فإن الاختیار لا یکون للأمة. وإنما یکون للذی یعلم ما تخفیه الصدور. إلی الله. إن المسیرة لم تأت لتأکل. إنها لم تأت لتحقق أهواء فرد ما أو قبیلة ما أو حزب ما. (إن یشأ یذهبکم أیها الناس ویأت بآخرین...) [۴] ، إن المسیرة جاءت لهدف ومن ورائه حکمة (إن یشأ یذهبکم ویستخلف من بعدکم ما یشاء) [۵] .

إنه صراع دائم بین الحق وبین الباطل. بین برنامج الشیطان وبین برنامج الفطرة، بین برنامج یقوض الصراط المستقیم وبین برنامج یحدد الصراط المستقیم. ویسوق الناس إلی ربهم. فإذا قرأنا قوله تعالی: (إهدنا الصراط المستقیم) [۶] فهذا إقرار منا بأن هدایة الطریق له وحده. وإذا قرأنا قوله تعالی

[صفحه ۸۷]

لرسوله: (إنک لمن المرسلین علی صراط مستقیم) [۷] علمنا أن الدعوة طریقها واضح مستقیم والطریق هو الذی یوصل عابریه إلی الله تعالی. أی إلی السعادة الإنسانیة التی فیها کمال العبودیة لله والقرب. وإذا قرأنا قوله تعالی لرسوله: (وإنک لتهدی إلی صراط مستقیم [۸] علمنا أن الذی یهدی إلیه النبی صلی الله علیه وسلم صراط مستقیم، وإن الذی یهدیه النبی من الناس. هو هدایة من الله سبحانه وتعالی. فهدایة النبی هدایة الله. وإذا قرأنا قوله تعالی لرسوله: (وإنک لتدعوهم إلی صراط مستقیم) [۹] علمنا أن النبی الذی یهدی بهدایة الله، هو الذی یدعوا إلی هدایة الله. إلی الطریق الواضح الذی لا یختلف ولا یتخلف فی حکمة. ویصل بسالکیه إلی الغایة المقصودة. وصفة الطریق هی نفسها صفة الحق. فإن الحق واحد لا یختلف أجزاؤه بالتناقض والتدافع. ولا یتخلف فی مطلوبه الذی یهدی إلیه. فالحق صراط مستقیم، فبعد هذا کله، أقول والله أعلم: إن الاختیار القیادة وسط هذا الطریق الذی احتوی علی جمیع الأنماط البشریة. لا یکون إلا لله ورسوله. لأن الاختیار إذا ترک للأمة فسیترتب علیه ما لم تحمد عقباه. ونحن بین أیدینا نصوصا عدیدة تحذر من الأخذ بالصورة، وتبین نهایة الطریق إذا ضرب بالتحذیر عرض الحائط ومنها حدیث ": إن الله لا ینظر إلی أجسامکم ولا إلی صورکم ولکن ینظر إلی قلوبکم [" ۱۰] ولا یخفی علی أحد أن طریق الشکل والصورة انتهی إلی کارثة. کان النبی صلی الله علیه وسلم قد أخبر بها بعد أن حذر منها، فعن حذیفة قال. قلت یا رسول الله: فهل بعد ذلک الخیر من شر؟ قال: نعم. دعاة علی أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فیها. قلت: یا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ویتکلمون بألسنتنا ["... ۱۱] .

إن الأمة تدعوا إلی عبادة الله. نعم. ولکن داخل سور الأمة من لا یرید

[صفحه ۸۸]

ذلک. فإذا اختارت الأمة فلا یستبعد أن یقع اختیارها علی إمام ضلالة من الأئمة الذین خاف النبی علی أمته منهم. فقد قال صلی الله علیه وسلم ": إنما أخاف علی أمتی الأئمة المضلین [" ۱۲] ، إن لفظ " إمام " فی الحدیث یدل أن شروطا عدة قد انطبقت علیه فی قبیلة أو حزب أو غیر ذلک... أو یقع اختیارها علی منافق علیم خاف النبی علی أمته منه، قال صلی الله علیه وسلم ": أخوف ما أخاف علی أمتی کل منافق علیم اللسان [" ۱۳] وتحذیرات النبی هذه جاءت بعد أن بین

صلی الله علیه وسلم جانب الصواب أولا. ولعلمه بأن الاختلاف واقع کما أخبره ربه. حذر من هذه الجوانب وکأنه یدعو إلی الالتزام بما بین - کما سیأتی. إن الأمة تدعوا إلی صراط الله المستقیم. نعم. ولکن والله أعلم أن أقرب الطرق إلی غایات الصراط المستقیم. لا یکون فیمن تزکیه الأمة. بل فیمن یزکیه الله. قال تعالی: (فلا تزکوا أنفسکم هو أعلم بمن اتقی) [۱۴] ، فهو سبحانه أعلم بعباده وهم أجنة فی بطون أمهاتهم، ویعلم ما هی حقیقة عباده وما هم علیه وما فی سرهم وإلی ماذا ینتهی أمرهم. فإذا کان الله أعلم من أول أمر. فلا یحق أن یزکی أحد نفسه فینسبها إلی الطهارة. فالله وحده أعلم بمن اتقی. ولا یخفی أن تجارة التزکیة وجمع المناقب. فی کثیر منها مدخل للشیطان، فعلی بعض التزکیات والمناقب زین الشیطان لکثیر من الناس حرکة أصحاب هذه المناقب فعبدوهم، والدلیل علی ذلک ما قاله الیهود فی عزیر وما قاله النصاری فی عیسی ابن مریم علیه السلام وغیر ذلک من الأمثلة لأجل ذلک سدت الرسالة الخاتمة هذا الباب. فلا تزکیة إلا لمن زکاه الله ورسوله. إن الأمة مدعوة من الله ورسوله إلی الصراط المستقیم، فإذا دعت نفسها

[صفحه ۸۹]

فیجب أن یکون فی الحسبان، إن طاعة النبی وتقدیمه علی الأنفس هو العمل الذی لا یبور. وغیره یجعله الله هباءا منثورا. والذی یدعو نفسه ویعین قافلته التی تقوده. ربما یتعثر فی فهم العمود الفقری الذی تقوم علیه الدعوة. إلا- وهو القرآن الکریم. والقرآن الکریم به آیة ربما تکون والله تعالی أعلم. آیة التعجیز لمن رأی أن یختار الطریق لنفسه. قال تعالی: (هو الذی أنزل علیک الکتاب منه آیات محکمات هن أم الکتاب وأخر متشابهات، فأما الذین فی قلوبهم زیغ فیتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأویله وما یعلم تأویله إلا الله والراسخون فی العلم یقولون آمنا به کل من عند ربنا) [۱۵] .

فهذه دائرة أخری [الذین فی قلوبهم زیغ] والزیغ. المیل عن الاستقامة. والآیة تکشف حال الناس بالنسبة إلی تلقی القرآن بمحکمه ومتشابهه. وإن منهم من هو زائغ القلب یتبع المتشابه لهدف هو ابتغاء الفتنة والتأویل. ومنهم من هو راسخ العلم مستقر القلب. یأخذ المحکم ویؤمن بالمتشابه. واشتمال القرآن الکریم علی المتشابه هو تمحیص القلوب فی التصدیق به. والکتاب کما یشتمل علی المتشابهات. کذلک یشتمل علی المحکمات التی تبین المتشابهات بالرجوع إلیها. وقال ابن کثیر فی معنی الآیة: فأما الذین فی قلوبهم زیغ أی ضلال وخروج عن الحق إلی الباطل إنما یأخذون منه المتشابه الذی یمکنهم أن یحرفوه إلی مقاصدهم الفاسدة. ابتغاء الفتنة أی الاضلال وابتغاء تأویله أی تحریفه علی ما یریدونه [۱۶] وقال صاحب المیزان: ومعنی الآیة. یریدون باتباع المتشابه إضلال الناس فی آیات الله. وهو الحصول والوقوف علی تأویل القرآن. ومآخذ أحکام الحلال والحرام. حتی یستغنوا عن اتباع محکمات الدین. فینتسخ بذلک دین الله من أصله [۱۷] .

وکما ذکرنا أن هذه الآیة عمودا فقریا یتحطم علیه کل رأی اختار طریقه

[صفحه ۹۰]

بنفسه. فکتاب الدعوة لا یمسه أی عقل. فبما أنه کتاب الله. فلا بد أن یختار الله العقل الذی یمسه لینال منه العلم النافع. فالقرآن الکریم حجة الله علی خلقه. وهو یحتوی علی برنامج الفطرة والثواب والعقاب فی الدنیا والآخرة. فیه بیان لکل شئ. وجمیع الحقائق الموجودة فیه تستند إلی التوحید. وبما أنه لا یأتیه الباطل ولا یجد إلیه طریقا. وبما أنه لا بد أن ینتهی إلیه کل رأی دینی. فلا بد أن یکون له عالما یسوق الناس به إلی ربهم. فهو سبحانه مصدر جمیع السلطان. وإلیه تنتهی جمیع القرارات. وهو مصدر الخلق والتکوین وواهب الحیاة ومقوماتها. فکما أن له سبحانه الخلق ولا بداع. کذلک له الأمر والنهی. وعالم الزیغ هو نفسه عالم الرأی. أو ابنا شرعیا للذین اختاروا أن یکون الکشاف الذی یکشفون به الطریق من صنعهم وبأیدیهم. وأنت إذا تتبعت البدع والأهواء والمذاهب الفاسدة. التی انحرف فیها الفرق الإسلامیة، عن الحق القویم بعد زمن النبی صلی الله علیه وآله. سواء کان فی المعارف أو فی الأحکام. وجدت أکثر مواردها من اتباع المتشابه والتأویل فی الآیات. بما لا یرتضیه الله سبحانه. ففرقة تتمسک من القرآن بآیات التجسیم. وأخری للجبر. وأخری للتفویض. وأخری لعترة الأنبیاء. وأخری للتنزیه المحصن بنفی الصفات، وأخری للتشبیه الخالص وزیادة الصفات، إلی غیر

ذلك، كل ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه. وعلى فروع المتشابه أيضا تسلق المتصوفة وعلماء الكلام. فطائفة ذكرت أن الأحكام الدينية إنما شرعت لتكون طريقا إلى الوصول. فلو كان هناك طريق أقرب منها. كان سلوكه متعينا لمن ركبه. لأن المطلوب هو الوصول بأى طريقة تيسرت. وأخرى قالت: إن التكاليف إنما هى لبلوغ الكمال. ولا معنى لبقائها بعد الكمال بتحقق الوصول. فلا تكليف لكامل [۱۸] وهكذا وغير ذلك كثير. إن الله تعالى الذى أنزل الكتاب هو وحده الذى يحدد من الذى يتعامل مع هذا الكتاب.

[صفحه ۹۱]

ولقد كانت الأحكام والفرائض والحدود والسياسات الإسلامية قائمة ومقامة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم لا يشذ منها شاذ. ثم لم تزل بعد ارتحاله صلى الله عليه وسلم تنقص وتسقط حكما حكما - كما سنبين - يوما فيوم بيد الحكومات الإسلامية. ولم يبطل حكم واحد. إلا واعتذروا قائلين: إن الدين إنما شرع لصلاح الدنيا وإصلاح الناس، وما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر إلى أن يقال: إن الغرض الوحيد من شرائع الدين. إصلاح الدنيا. والدنيا اليوم لا تقبل السياسة الدينية ولا تهضمها. بل تستدعى وضع قوانين ترتضيها مدنية اليوم. وإذا تأملت فى هذه وأمثالها. وهى لا تحصى كثرة. وتدبرت فى قوله تعالى: (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) لم تشك فى صحة ما ذكرنا. وقضية بأن هذه الفتن والمحن التى سقطت على المسلمين لم يستقر قرارها إلا من طريق اتباع المتشابه وابتغاء تأويل القرآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": أكثر ما أتخوف على أمتى من بعدى رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره [" ۱۹] .

إن الذى تخوف منه الرسول ما جاء إلا على أكتاف الذين ساروا فى موضع غير الموضع. ورأوا أنهم أحق بتحديد العلامات على طريق طويل. ومن العجيب أن الذى يقف فى أول الطريق لا يرى ما هى نتيجة مقدمته فى نهاية الطريق. أما الذى يقف فى نهاية الطريق. عند النتيجة. فإنه يرى المقدمة بمنتهى الوضوح. إن الأمة إذا كانت هى الأولى بتحديد قافلتها التى تقودها إلى الصراط المستقيم، لا بد أولا أن تكون على علم بمن يقفون تحت سقفها. ولا بد ثانيا أن تعلم كتابها بالعلم الذى يستقيم معه. ومن آيات الله وأحاديث رسول الله الصحيحة تبين أن داخل الأمة دوائر متعددة لمؤسسات الصد عن سبيل الله.

[صفحه ۹۲]

وداخل هذه المؤسسات اثنى عشر رجلا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط. وشهد حذيفة وعمار رضى الله عنهما... أنهم حزب الله ورسوله فى الحياة الدنيا. ومعنى فى الحياة الدنيا يفيد أن لكل منهم ثقافة لا تصيب الذين ظلموا خاصة. بل تتعداهم إلى غيرهم إذا تعاموا عن فحص المقدمات. فإذا كانت الأمة أولى بالاختيار فما هى الضمانات التى لا تجعل واحد من هؤلاء أو من غيرهم من أى دائرة كان أن ينفذ لإحداث الفتنة والتأويل. ثم ما هى الضمانات التى تضمن عدم بغى الأمة واختلافها وافتراقها عن كتاب الله - إن دائرة الرجس لا بد أن يقابلها دائرة طهر. بهذا تقضى الفطرة ويقضى العقل. لقد حاصر كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله برنامج الشيطان وبرامج المشركين والمنحرفين من أهل الكتاب. وكما حاصر هؤلاء حاصر دائرة الرجس.

[۱] سورة الأنعام: الآية ۱۱۲.

[۲] سورة المنافقون: الآية ۴.

[۳] سورة التوبة: الآية ۸۵.

[۴] سورة النساء: الآية ۱۳۳.

[۵] سورة الأنعام: الآية ۱۳۳.

[۶] سورة الفاتحة: الآية ۶.

[۷] سورة يس: الآية ۳ - ۴.

[۸] سورة الشوری: الآیة ۵۲.

[۹] سورة المؤمنون: الآیة ۷۳.

[۱۰] رواه مسلم وابن ماجة (کشف الخفاء ۲۸۲:۱).

[۱۱] البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک بدء الخلق ب علامات النبوة.

[۱۲] رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذی وابن ماجة وقال الترمذی حسن صحیح (الفتح الربانی ۲۳:۲۱).

[۱۳] رواه ابن عدی (کشف الخفاء ۱۶:۱).

[۱۴] سورة النجم: الآیة ۳۲.

[۱۵] سورة آل عمران: الآیة ۷.

[۱۶] تفسیر ابن کثیر ۳۴۵:۱.

[۱۷] المیزان ۲۳:۳.

[۱۸] المیزان ۴۱:۳.

[۱۹] رواه الطبرانی فی الأوسط (کنزل العمال ۲۰۰:۱۰).

دائرة الطهر

إن المعارف الحقة والعلوم المفیدة التی تحقق سعادة الدنیا والآخرة. لا تکون فی متناول الإنسان إلا إذا صلحت أخلاقه. وعن أصول الأخلاق: العفة والشجاعة والحکمة والعدالة. ولکل واحدة فروع ناشئة منها وراجعة بحسب التحلیل إلیها. والأخلاق علی امتداد المسیرة الإنسانیة. لا یمکن بحال أن تسیر بمفردها. بل لا بد من عامل یحرسها ویحفظ دوامها وثباتها. وأن یکون هذا العامل مرتبطا ارتباطا وثیقا بالقرآن الکریم. بمعنی أن العامل إذا دار لا یدور إلا مع القرآن. ویظل فی حرکته وسکونه مع القرآن حتی یوم القیامة. وعندما یقف القرآن مع رسول الله صلی الله علیه وسلم عند الحوض یکون هذا العامل مع القرآن علی الحوض. فالنفس واحدة والحرکة واحدة من الابتداء إلی الانتهاء. إن حرکة مثل هذه نطلق علیها هنا [دائرة الطهر]. ولکی نبحث عن هذه الدائرة وعن أصحابها یجب أن تکون البدایة من القرآن الکریم ومن الحدیث الشریف الصحیح الذی یفسر الآیة ویرشد علی العامل الذی نبحث عنه. ولتکن البدایة من قوله تعالی: (إنه لقرآن کریم - فی

[صفحه ۹۳]

کتاب مکنون - لا یمسه إلا المطهرون) [۱] إن المس المذکور فی الآیة الکریمة

أوسع من أن یقال لا بد أن یکون من یمسه علی طهارة من الخبث أو الحدث. فلو اقتصر التعریف علی هذا. لاحتج به علینا الکفار والمشرکین. الذین یشترون المصاحف فی کل مکان لأسباب عدیدة. بل إن المصاحف تطبع فی العدید من البلاد غیر الإسلامیة وتتناقلها الأیدی من هنا وهناک. کما أن النبی صلی الله علیه وسلم أخبر أنه فی زمن من الأزمنة سیقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر [۲] فالمنافق کافر به. والفاجر یتأکل منه. والمؤمن یؤمن به [۳] ، نعم الطهارة مطلوبة ولکن المس الأوسع هو مس العقول له لنیل الفهم والعلم. وفی معنی (لا یمسه إلا المطهرون) قال أبو العالیة: لیس أنتم. أنتم أصحاب الذنوب [۴] والمطهرون هم الذین طهر الله تعالی نفوسهم من أرجاس المعاصی وقاذورات الذنوب. أو مما هو أعظم من ذلک وأدق. وهو تطهیر قلوبهم من التعلق بغیره تعالی، وقال فی المیزان: وهذا المعنی من التطهیر هو المناسب للمس الذی هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث. فالمطهرون هم الذین أکرمهم الله تعالی بتطهیر نفوسهم کالملائکة الکرام والذین طهرهم الله من البشر. قال تعالی: (إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیرا) [۵] ولا وجه لتخصیص المطهرین بالملائکة کما ذکر بعض المفسرین لکونه تقییدا من غیر مقید

[۶] .

والله جل شأنه ذکر أصنافا من عباده. وخص کل صنف بنوع من العلم والمعرفة. لا توجد فی الصنف الآخر. کالموقنین، وخص بهم مشاهدة ملکوت

[صفحه ۹۴]

السماوات والأرض، " قال تعالی: (وکذلک نری إبراهیم ملکوت السماوات والأرض ولیکون من الموقنین) [۷] وکالمنیبین وخص بهم التذکر قال تعالی: (وما یتذکر إلا من ینیب) [۸] ، وکالعالمین بهم الذی یعقل أمثال القرآن، قال تعالی: (وتلک الأمثال نضربها للناس وما یعقلها إلا العالمون) [۹] ، کالأولیاء وهم أهل المحبة الذین لا یلتفتون إلی شئ إلا له سبحانه ولذلک لا یخافون شیئا ولا یحزنون بشئ. قال تعالی: (ألا- إن أولیاء الله لا- خوف علیهم ولا- هم یحزنون) [۱۰] وکالمقربین. والمجتبین والصالحین والمؤمنین. ولکل منهم خواص من العلم والإدراک یختصون بها. ونظیر هذه المقامات الحسنة. مقامات سوء فی مقابلها. ولها خواص ردیئة فی باب العلم والمعرفة. ولها أصحاب کالکافرین والمنافقین والفاسقین وغیرهم. وهؤلاء لهم نصیب من سوء الفهم ورداءة الادراک لآیات الله ومعارفه الحقة. وعلاقة المطهرین بالقرآن هی علاقة الفاهم للقرآن. أی العالم بمتشابه القرآن ورده إلی محکمه. ودائرة الطهر تقابل الذین قال تعالی فیهم: (أفلا- یتدبرون القرآن أم علی قلوب أقفالها) [۱۱] ، وقوله: (أفلا- یتدبرون القرآن ولو کان من عند غیر الله لوجدوا فیه اختلافا کثیرا) [۱۲] ، فالمطهرین خصهم الله بعلم تأویل الکتاب. لینطلق طریق العلم فی مواجهة أصحاب المقامات السوء والخواص الردیئة. ویجب أن یفهم. إن الطریق إلی فهم القرآن غیر مسدود. فهو حجة علی الناس بذاته. ولکن إذا کان للقرآن الدلالة علی معانیه والکشف عن المعارف الإلهیة فإن للمطهرین الدلالة علی الطریق وهدایة الناس إلی أغراض القرآن ومقاصده. فبهذا یحافظ العامل علی المسیرة وعلی أخلاقها. بعیدا عن

[صفحه ۹۵]

الأفهام التی امتنع علیها التأویل لأن أفهامها غیر مطهرة.

[۱] سورة الواقعة: الآیة ۷۷ - ۷۹.

[۲] رواه أحمد، وقال الهیثمی رجاله ثقات مجمع الزوائد ۶:۲۳۱) ورواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۴:۵۰۷) وابن حبان والبیهقی (کنزل العمال ۱۱:۱۹۵).

[۳] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۴:۵۰۷).

[۴] تفسیر ابن کثیر ۴:۲۹۸.

[۵] سورة الأحزاب: الآیة ۳۳.

[۶] المیزان ۱۹:۱۳۷.

[۷] سورة الأنعام: الآیة ۷۵.

[۸] سورة المؤمن: الآیة ۱۳.

[۹] سورة العنکبوت: الآیة ۴۳.

[۱۰] سورة یونس: الآیة ۶۲.

[۱۱] سورة محمد: الآیة ۲۴.

[۱۲] سورة النساء: الآیة ۸۲.

من هم المطهرون

هل هم نساء النبی؟ أم بنی هاشم کافة؟ أم أنهم جمیع الأمة؟ إن الذی

حدد دوائر الصد عن سبیل الله هو سبحانه الذی یحدد دائرة الطهر. قال تعالی: (إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیرا) [۱] لقد قال

تعالی فی المنافقین: (فأعرضوا عنهم إنهم رجس) [۲] ، وقال تعالی (وأما الذین فی قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلی رجسهم) [۳] والرجس کل ما استقذر

من عمل. ثم قال تعالی فی أهل هذه الآیة: (لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیر)، وهکذا دائرة أمام دائرة. وإذهاب الرجس. إزالة کل هیئة خبیثة فی النفس. وقوله تعالی: (ویطهرکم تطهیر) أی تجهیزهم بإدراک الحق فی الاعتقاد والعمل. أما من هم الذین أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا. فلقد روی الإمام مسلم عن أم المؤمنین عائشة قالت: خرج النبی صلی الله علیه وآله وسلم غداة وعلیه مرط مرحل من شعر أسود. فجاء الحسن بن علی فأدخله ثم جاء الحسین فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علی فأدخله. ثم قال ": إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیرا [" ۴] .

وفی أسباب النزول. أن الآیة نزلت فی النبی صلی الله علیه وسلم وعلی وفاطمة والحسنین رضی الله عنهم خاصة لا یشارکهم فیها غیرهم. ولیعلم طالب العلم أن هذا الحدیث ثابت فی کتب الأمة بجمیع دروبها ومذاهبها. والروایات کثیرة تزید علی سبعین حدیثا یربو ما ورد منها من طرق أهل السنة

[صفحه ۹۶]

علی ما ورد من طرق الشیعة. فقد رواها أهل السنة بطرق کثیرة [۵] عن أم سلمة وعائشة وأبی سعید الخدری وسعد وواثلة بن الأسقع وأبی الحمراء وابن عباس وثوبان وعبد الله بن جعفر وعلی والحسن بن علی رضی الله عنهم فی قریب من أربعین طریقا.

[۱] سورة الأحزاب: الآیة ۳۳.

[۲] سورة التوبة: الآیة ۹۵.

[۳] سورة التوبة: الآیة ۱۲۵.

[۴] صحیح مسلم ک فضائل الصحابة ب فضائل الحسن والحسین (۱۹۴:۱۵) ورواه الحاکم وقال هذا حدیث صحیح علی شرطهما (المستدرک ۱۴۷:۷).

[۵] ابن کثیر فی التفسیر ۳۸۴:۳، البغوی فی تفسیره ۵۴۶:۶، ابن جریر فی تفسیره ۵:۲۰ وغیرهم.

اعلان الناس بمن هم المطهرون

علمنا من السیرة النبویة أنه صلی الله علیه وسلم کان یکرر جوابه علی من

یسأله أکثر من مرة وربما یکرر الجواب ثلاث [۱] أو سبع مرات [۲] وکان

یتحدث بالحدیث الواحد فی أکثر من موطن. وکل ذلک لیحقق الاستماع والإنصات والفهم لمن حوله کی یبینوا لمن لم یر أو یسمع. وإعلانه صلی الله علیه وسلم بأن هؤلاء أهل بیته المطهرون تم فی أکثر من موضع لیعلم الناس أن هؤلاء فی عرف القرآن هم أهل البیت. وآیة التطهیر نزلت فی بیت أم سلمة: وإنما أوردنا حدیث عائشة فی أول حدیثنا عنهم لکونه ورد فی صحیح مسلم. ومن بیت أم سلمة روی الحدیث أم سلمة وعمر بن أبی سلمة [۳] وزینب بنت أبی سلمة [۴] فعن أم سلمة قالت ": دعا النبی صلی الله علیه وسلم فاطمة وحسنا وحسینا وعلی خلف ظهره فجللهم بکساء ثم قال " اللهم هؤلاء هم أهل بیتی فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا" فقالت أم سلمة: وأنا معهم یا نبی الله؟ قال ": أنت علی مکانک

[صفحه ۹۷]

وأنت على خير [" ۵] ، وفى روايـة عند أبى حاتم. فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال ": تنحى فإنك على خير [" ۶] ، وفى رواية عند الإمام أحمد. فرفعت الكساء لأدخل معهم. فجذبه من يدى وقال: إنك على خير [" ۷] .

وبعـد بيت أم سـلمة تكرر المشـهد فى أماكن أخرى، روى الإمام أحمد، عن شداد بن أبى عمار أنه قال: أتيت فاطمة أسألها عن على. قالت: توجه إلى رسول الله صلى الله على وسلم. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حسن وحسين. أخذ كل واحـد منهما بيده. حتى دخل فأتى عليا وفاطمة فأجلسـهما بين يديه، وأجلس حسـنا وحسـينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه ثم تلا هذه الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس...) الآية، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى وأهل بيتى أحق [" ۸] .

وعن إسـماعيل بن عبد الله قال: لما نظر رسول الله صـلى الله عليه وسـلم إلى الرحمة هابطة قال: ادعوا لى ادعوا لى فقالت صـفية: من يا رسول الله؟ قال: أهل بيتى عليا وفاطمـة والحسن والحسـين. فجئ بهم. فألقى النبى صـلى الله عليه وسـلم كساء، ثم رفع يـده وقال: اللهم هؤلاء آل محمد فصلى على محمد وآل محمد [۹] .

وعن أنس بن مالـك أن النبى صـلى الله عليه وسـلم. كـان يمر على بيت فاطمـة سـتة أشـهر إذا خرج إلى الفجر فيقول: الصـلاة يا أهل البيت " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم

[صفحه ۹۸]

تطهيرا [" ۱۰] ، وقال فى الفتـح الربانى. قال جماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة أن أهل البيت هم على وفاطمة والحسن والحسـين. وتمسـكوا بحـديث الكسـاء وحـديث أنس أن النبى كان يمر بباب فاطمـة سـتة أشـهر [۱۱] وقـال فى تحفـة الأـحوازى: قال أبو سـعيد الخـدرى ومجاهـد وقتـادة والكلبى أن أهـل البيت المـذكورين فى الآيـة هم: على وفاطمـة والحسن والحسـين. والخطاب فى الآيـة بما يصـلح للـذكور لاـ للإنـاث وهو قوله " عنكم " و " ليطهركم " ولو كان للنساء. لقال " عنكن " و " ليطهركن [" ۱۲] ، وقال فى أسد الغابة أن هذا الحديث. رواه الأوزعى. ولم يرو فى الفضائل حديثا غير هذا. وكذلك الزهرى. لم يرو فيها إلا حديثا واحدا. كانا يخافان بنى أمية [۱۳] .

فـإذا كـان الحـديث قـد تكرر أكثر من مرة فى أكثر من مكـان فى زمن رسول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم، كى يتـذكر من أراد أن يتـذكر. وإذا كان قـد روى فى عالم الخوف. أيام بنى أمية. فإنه روى أيضا فى أشد الأوقات حديث كانت الدماء تنزف فى كل مكان. فلقد روى أن الحسن بن على رضى الله عنهما عندما طالبه القوم بإبرام الصلح مع معاوية خطب فى الناس وقال ": أيها الناس. إنما نحن أمراؤكم وضـيفانكم. ونحن أهل بيت نبيكم الذى أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وكرر ذلك. حتى ما بقى فى المجلس إلا من بكى حتى سمع نشيجه [" ۱۴] وإذا كان الحسن رضى الله عنه قد ذكرهم يوما. فإن على بن

الحسين رضى الله عنهم قد ذكر أهل زمانه أيضا. من أبى الديلم قال. قال

[صفحه ۹۹]

على بن الحسـين رضـى الله عنهمـا لرجـل من أهـل الشـام. أمـا قرأت فى الأـحزاب (إنمـا يريـد الله ليـذهب عنكم الرجس أهـل الـبيت ويطهركم تطهيرا) قال: نعم ولأنتم هم؟ قال: نعم [۱۵] .

فهؤلاـء أهـل البيت. الـذى أذهب الله عنهم الرجس: أى عمـل الشـيطان وما ليس لله فيه رضا. كما قال ابن عباس [۱۶] الذين قال فيهم النبى ": اللهم هؤلاـء أهـل بيتى وأهل بيتى أحق [" ۱۷] ، وقـال فيهم ": اللهم أرض عنهم كمـا أنـا عنهم راض [" ۱۸] ، وقـال لهم": رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد [" ۱۹] ، وقال ": اللهم هؤلاء آهل فصل على محمد وآل محمد [" ۲۰] .

هؤلاء قوم نزلت الطهارة فى قلوبهم. ولم ينزلها إلا الله سبحانه. فإنه تعالى ذكرها منسوبـة إلى نفسه " إنما يريد الله "... وليست الطهارة إلاـ زوال الرجس من القلب. وليس القلب من الإنسـان إلاـ مـا يـدرك به ويريـد به، فطهـارة القلب طهـارة نفس الإنسـان فى اعتقـادها وإرادتها وزوال الرجس عن هاتين الجهتين. ويرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقـده من المعارف الحقـة من غير ميلان إلى الشك. وثباته

على لوازم ما علمه من الحق من غير تماثل إلى اتباع الهوى ونقض ميثاق العلم. وهذا هو الرسوخ فى العلم. فإن الله تعالى ما وصف الراسخين فى العلم إلا بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا. غير زائغة قلوبهم إلى ابتغاء الفتنة. إن دائرة الذين فى قلوبهم زيغ. ما دخلوا دائرتهم إلا بعد أن ضلوا عن

[صفحه ۱۰۰]

سبيل الله حيث نسوا هناك يوم الحساب قال تعالى: (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) [۲۱] ، أما الراسخون فى العلم فإنهم فى شوق إلى يوم الحساب. اليوم الذى يقف فيه التابع والمتبوع أمام جلال الله وعزته. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. إن الراسخين فى العلم يعشقون يوم الحساب ويقولون (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) [۲۲] .

وعلى امتداد الدعوة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم. كانت تجرى أحداث يترتب عليها غرس مفهوم من هم أهل البيت فى ذاكرة الذين عاصروا النبى على اعتبار أنهم الجيل الذى سيفتح الأبواب من بعده ووفقا لحركة هذا الجيل ستسير الحركة على امتداد المسيرة. ومن هذه الأحداث التى غرست مفهوم من هم أهل البيت. أحداث يوم المباهلة وملخص القصة التى وردت فى كتب التفسير والحديث والتاريخ. إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: إلى ما تدعوا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وأنى رسول الله. قالوا: وماذا تقول فى عيسى: قال: إن عيسى عبدا مخلوقا. يأكل ويشرب ويحدث. قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. قل لهم: ما تقولون فى آدم، أكان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبى. فقالوا: نعم. فقال لهم: فمن أبوه؟ فبهتوا. فأنزل الله: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب... الآية). وقوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين) [۲۳] فقال رسول الله: فباهلونى فإن كنت صادقا أنزلت اللعنة عليهم. وإن كنت كاذبا أنزلت على. فقالوا: أنصفت

[صفحه ۱۰۱]

فتواعدوا للمباهلة. فهذا الحدث. لم يكن ليتم فى الخفاء، ولأن هذا الاجتماع سيترتب عليه نتيجة حاسمة. فلا بد أن يشهده كل من سمع بموعده سواء أكان من المكذبين أو من المؤمنين أو غيرهم. وبين هؤلاء يوجد الحبشى والفارسى والرومى والنجرانى إلى غير ذلك من الأجناس. باختصار كانت العالمية ممثلة بصورة أو بأخرى لمشاهدة هذا الحدث. ويروى أصحاب التفسير بالمأثور. إن رؤساء النصارى قالوا لبعضهم بعد أن اتفقوا على موعد المباهلة: إن باهلنا بقومه باهلناه. فإنه ليس نبيا. وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله. فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو صادق. فمن هم الذين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ روى الإمام مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص قال: لما نزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندع أبناء وأبناءكم) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا. فقال ": اللهم هؤلاء أهلى [" ۲۴] .

فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أهل بيته. قال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم: هذا ابن عمه. وهذه ابنته فاطمة وهذان ابناه الحسن والحسين. ففرقوا. فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نعطيك الرضا. فاعفنا من المباهلة فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وانصرفوا. قال صاحب تحفة الأحوذى: دعا عليا فنزله منزلة نفسه. وفاطمة لأنها أخص النساء. وحسنا وحسينا فمنزلتهما بمنزلة ابنيه صلى الله عليه وسلم [۲۵] ، وسئل يحيى ابن معمر. هل كان الحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم. وإذا كانت الإجابة. نعم. فكيف والنبى لم يعقب. وإنما العقب

[صفحه ۱۰۲]

للذكر لا للأنثى. والحسين ولد البنت: قال: قال تعالى: (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى

المحسنین وزکریا ویحیی وعیسی والیاس) فأخبر عز وجل أن عیسی من ذریة آدم بأمه. والحسن بن علی من ذریة محمد بأمه [۲۶] .

إن حدیث المباهلة روی من أحد وخمسین طریقا. وأثبتها أرباب الجوامع فی جوامعهم. وأثبتها المفسرون فی تفاسیرهم من غیر اعتراض أو ارتیاب. کالطبری وابن کثیر والسیوطی وغیرهم، وروی القصة أبو نعیم فی الحلیة والبیهقی فی الدلائل وابن إسحاق وابن هشام فی السیرة. وغیرهم. وعلی هذا نقول بأن مفهوم من هم أهل البیت قد غرس غرسا فی ذاکرة العدید علی زمن النبی صلی الله علیه وآله. وعلم الجمیع أن قوله تعالی: (أبناءنا) تعنی الحسن والحسین. وإن قوله تعالی: (وأنفسنا) تعنی کما فی حدیث جابر ": رسول الله صلی الله علیه وسلم وعلی بن أبی طالب [" ۲۷] ، وإن قوله تعالی: (ونساءنا " یعنی. فاطمة.

[۱] کنز العمال ۴۴۵:۴.

[۲] سنن أبو داوود.

[۳] روی الترمذی حدیثه (الجامع ۳۵۱:۵).

[۴] روی ابن عساکر حدیثها (کنز العمال ۶۴۳:۱۳).

[۵] رواه الترمذی (الجامع ۳۵۱:۵) وأحمد (الفتح الربانی ۲۳۷:۱۸) وأبی یعلی والطبرانی بإسنادین. وذکره ابن تیمیة فی منهاج السنة (منهاج ۲۵۰:۳) وذکره أیضا فی الفتاوی الکبری ۲۳۰:۱، ورواه ابن عبد البر فی الإستیعاب ۲۷:۱.

[۶] تفسیر ابن کثیر ۴۸۴:۳.

[۷] الفتح الربانی ۳۳۸:۱۸.

[۸] رواه الإمام أحمد، وقال فی الفتح الربانی قال الهنثی، رواه أحمد وأبو یعلی (الفتح ۱۰۳:۲۲).

[۹] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح الإسناد (المستدرک ۱۴۸:۳).

[۱۰] أخرجه الإمام أحمد وقال فی الفتح الربانی: أورده ابن کثیر وعزاه للإمام أحمد وأورده الطیالسی فی مسنده (الفتح ۱۰۳:۲۲)، ورواه الترمذی الجامع الصحیح ۳۵۲:۵) وقال فی تحفة الأحوازی: أخرجه أحمد وابن أبی شیبة وابن جریر وابن المنذر والطبرانی والحاکم وصححه ابن مردویه (تحفة الأحوازی ۶۸:۹) ورواه الحکم وصححه (المستدرک ۱۵۸:۳) ورواه صاحب الغابة (أسد الغابة ۲۲۳:۷).

[۱۱] الفتح الربانی ۲۳۸:۱۸.

[۱۲] تحفة الأحوازی ۶۷:۹.

[۱۳] أسد الغابة ۲۱:۲.

[۱۴] ابن الأثیر ۲۰۴:۳، تفسیر ابن کثیر ۴۸۶:۳.

[۱۵] تفسیر ابن کثیر ۴۸۶:۳.

[۱۶] الفتح الربانی ۲۳۸:۱۸.

[۱۷] رواه أحمد وأبو یعلی (الفتح الربانی ۱۰۳:۲۲).

[۱۸] قال الهیثمی رواه الطبرانی فی الأوسط ورجاله رجال الصحیح غیر عبید بن الطفیل وهو ثقة (معجم الزوائد ۹:۱۶۹ -.

[۱۹] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۴۳:۱۳).

[۲۰] رواه الحاکم وقال صحیح الإسناد (المستدرک ۱۴۸:۳)، ورواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۰۳:۲۲).

[۲۱] سورة ص: الآیة ۲۶.

[۲۲] سورة آل عمران: الآیة ۹.

[۲۳] سورة آل عمران: الآیة ۶۱.

[۲۴] صحیح مسلم ک، فضائل الصحابة ب، فضل علی، وأصل المباهلة فی صحیح البخاری ۳:۸۰. ورواه الترمذی عن سعد بن أبی وقاص، وقال حدیث حسن ورواه الحاکم وقال هذا حدیث صحیح علی شرط الشیخان (المستدرک ۳:۱۵۰).

[۲۵] تحفة الأحوذی ۸:۳۵۰.

[۲۶] الحاکم (المستدرک ۳:۱۶۲).

[۲۷] تفسیر ابن کثیر ۱:۳۷۱.

القرآن والمطهرون والحوض

وبعد تحدید من هم أهل البیت. ربط النبی بینهم وبین القرآن الکریم برباط

وثیق. وهذا الرباط غرس غرسا فی ذاکرة العدید فی زمن النبی صلی الله علیه وسلم. روی الإمام مسلم عن زید بن أرقم رضی الله عنه قال: قام رسول الله صلی الله علیه وسلم فینا خطیبا بماء یدعی خما بین مکة والمدینة. فحمد الله وأثنی علیه. ووعظ وذکر ثم قال أما بعد: ألا- أیها الناس. فإنما إنا بشر یوشک أن یأتی رسول ربی فأجیب. وأنا تارک فیکم ثقلین أولهما کتاب الله. فیه الهدی والنور. فخذوا بکتاب الله واستمسکوا به. فحث علی کتاب الله ورغب فیه. ثم قال: وأهل بیتی أذکرکم الله فی أهل بیتی. أذکرکم الله فی أهل بیتی. أذکرکم الله فی

[صفحه ۱۰۳]

أهل بیتی [۱] .

قال النووی: سمی ثقلین لعظمهما وکبیر شأنهما. وقیل لثقل العمل بهما [۲] وهذا الحدیث تحدث به النبی صلی الله علیه وسلم بعد حجة

الوداع. عند غدیر خم. مما یفید بأن جمع کبیر من صحابة النبی قد سمعوه. وسنبین ذلک فی حینه. وروی أیضا أن النبی صلی الله علیه وسلم أخبر بأن أهل بیته والقرآن لن یفترقا حتی یردا علی حوضه یوم القیامة وهذا یفید بأن أهل بیته علی الصراط المستقیم. یسیرون بالطهر إلی غایة عظمی. فمن أراد الوصول فعلیه بالسبیل الذی لا یقیضه شیطان. لأنه سبیل القرآن الذی لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه. وسبیل أهل البیت الذین أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا. فلا- یستطیع الشیطان أن یأتیهم من بین أیدیهم أو من خلفهم. وهو الذی أخذ علی عاتقه أن یأتی الناس من بین أیدیهم ومن خلفهم. إلا- من عصم الله. وأحادیث أهل البیت والقرآن والحوض. رواها أصحاب السنن وأثبتها المفسرون فی تفاسیرهم. فعن أبی سعید الخدری. قال: قال صلی الله علیه وسلم: إنی تارک فیکم الثقلین. أحدهما أکبر من الآخر. کتاب الله حبل ممدود من السماء إلی الأرض وعترتی أهل بیتی وإنهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض [۳] ، وفی روایة عن زید بن ثابت قال

[صفحه ۱۰۴]

صلی الله علیه وسلم ": إنی تارک فیکم خلیفتین. کتاب الله حبل ممدود ما بین السماء والأرض وعترتی أهل بیتی وإنهما لا یتفرقان حتی یردوا علی الحوض [۴] .

وهکذا حبل من السماء إلی الأرض. سبیل واحد. له مقدمة ونتیجة. وفی روایة عن حبیب بن أبی ثابت وزید بن أرقم معا قالا. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: إنی تارک فیکم ما أن تمسکتم به لن تضلوا بعدی. أحدهما أعظم من الآخر، کتاب الله حبل ممدود من السماء إلی الأرض. وعترتی أهل بیتی ولن یفترقا حتی یردا علی الحوض فانظروا کیف تخلفونی فیهما [۵] .

لقد أعلن الرسول هذا علی الملأ فی حجة الوداع وفی غدیر خم وفی أکثر من موطن. إنه تارک فی أمته من بعده. ثقلین أو خلیفتین. من یتمسک بهما لن یضل ومن سار معهما وصل إلی الحوض سالما ولن یکون مع الذین سیقال فیهم إنهم ارتدوا علی أعقابهم فیقول

الرسول: سحقا سحقا. كما ورد فی صحیح البخاری ومسلم. وفی تفسیر الحدیث قال صاحب تحفة الأحوازی: (كتاب الله حبل ممدود) أی هو حبل ممدود من السماء إلی الأرض. یوصل العبد إلی ربه ویتوسل به إلی قربه. (وعترتی أهل بیتی) بیان لعترته. فقوله: إنی تارك فیكم. إشارة إلی أنهما بمنزلة التوأمین الخلیفتین عن رسول الله صلی الله علیه وسلم. وأنه یوصی الأمة بحسن المخالفة معهما. وإیثار حقهما علی أنفسهم، كما یوصی الأب المشفق الناس فی حق أولاده. (ولن یفترقا) أی الكتاب والعترة فی مواقف القیامة (حتی یردا علی الحوض) یعنی فیشكرانكم صنیعكم عندی (فانظروا كیف تخلفوننی) أی كیف تكونون بعدی خلفاء. أی، عاملین متمسكین بهما. ولعل السر فی هذه التوصیة. واقتران العترة بالقرآن. إن إیجاب محبتهم لائح فی معنی قوله تعالی: (قل لا أسألكم علیه أجرا إلا المودة فی القربی) فإنه تعالی جعل شكر أنعامه

[صفحه ۱۰۵]

وإحسانه بالقرآن منوطا بمحبتهم علی سبیل الحصر، فكأنه صلی الله علیه وسلم یوصی الأمة بقیام الشكر... فمن أقام بالوصیة وشكر تلك الصنیعة بحسن الخلافة فیهما. فلن یفارقهما یوم القیامة... ومن أضاع الوصیة وكفر النعمة فحكمة علی العكس. فقوله ": فانظروا كیف تخلفونی فیهما " النظر بمعنی التأمل والتفكر. أی تأملوا واستعملوا الرویة فی استخلافی إیاكم. هل تكونون خلف صدق أو خلف سوء [" ۶] ، وقال صاحب الفتح الربانی فی شرح الحدیث: إن إئتمرتم بأوامر كتابه وانتهیتم بنواهیه واهتدیتم بهدی عترته واقتدیتم بسیرته. اهتدیتم فلم تضلوا [۷] ، وقال الزرقانی فی شرح المواهب فی شرح الحدیث: أما الكتاب. فلأنه معد من العلوم الدینیة والأسرار والحكم الشرعیة. وكنوز الحقائق وخفایا الدقائق. وأما العترة. فلأن العنصر إذا طاب. أعان علی فهم الدین. فطیب العنصر یؤدی إلی حسن الأخلاق ومحاسنها یؤدی إلی صفاء القلب ونزاهته وطهارته. لهذا أكد رسول الله صلی الله علیه وسلم فی عدة مواطن علی لزوم اتباع أهل بیته. وإنهم أولی الناس برعایة شؤون الأمة. ولهذا جعل مثلهم كمثل سفینة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق [۸] ، وقال صاحب التاج الجامع للأصول فی شرح الحدیث: یقول النبی صلی الله علیه وسلم أحسنوا خلافتی فیهما باحترامهما والعمل بكتاب الله. وما یراه أهل العلم من آل البیت أكثر من غیرهم [۹] .

إن مقدمة هذا كله الاعلان الهام " یا أیها الناس إنی قد تركت فیكم ما أن أخذتم به فلن تضلوا بعدی. كتاب الله وعترتی [" ۱۰] وفی معنی العترة، قال فی

[صفحه ۱۰۶]

لسان العرب: عترة الرجل أخص أقاربه. قال ابن الأعرابی: العترة ولد الرجل وذریته وعقبه من صلبه. وعترة النبی صلی الله علیه وسلم ولد فاطمة البتول علیها السلام [۱۱] ، وقال فی مختار الصحاح: العترة ولد الرجل وذریته وعقبه من صلبه ولا یعرف العرف من العترة غیر هذا، وقال فی الفتح الربانی: عترة النبی هم أصحاب الكساء الذین أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا [۱۲] وما ذكره أصحاب اللغة. ذكرناه فیما سبق من أن عیسی من ذریة آدم بأمه. وأولاد فاطمة من ذریة محمد بأمهم. وعلاوة علی أنهم رضی الله عنهم عترة النبی فإنه أیضا ولیهم وعصبتهم، فعن فاطمة رضی الله عنها قالت: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": كل بنی آدم ینتمون إلی عصبة إلا ولد فاطمة فأنا ولیهم وأنا عصبتهم [" ۱۳] ، وعن جابر رضی الله عنه قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم إن لكل بنی أب عصبة ینتمون إلیها إلا ولد فاطمة. فأنا ولیهم وأنا عصبتهم وهم عترتی خلقوا من طینتی. ویل للمكذبین بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله [۱۴] .

[۱] صحیح مسلم ك، فضائل الصحابة ۱۷۹:۱۵، وفی روایة: قلنا: من أهل بیته نساؤه؟ قال: لا وأیم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم یطلقها فترجع إلی أبیها وقومها. أهل بیته أصله وعصبته الذین حرموا الصدقة بعده، صحیح مسلم ۱۸۱:۱۵. وقال النووی فی روایة لمسلم ": نساؤه من أهل المدینة " أی الذین یساكنونه ویعلو لهم والمعروف فی معظم الروایات فی غیر مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بیته (النووی شرح مسلم ۱۸۱:۱۵).۴.

[۲] النووی شرح مسلم ۱۷۹:۱۵ ک فضائل الصحابة ب فضائل علی.

[۳] رواه الإمام أحمد والترمذی وقال حدیث حسن. والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱۸۶:۱) ورواه ابن أبی عاصم (۶۴۴:۲ کتاب السنة) ورواه ابن أبی شیبة وابن سعد وأبو یعلی. وفیه: وإن اللطیف الخبیر أخبرنی أنهم لن یفترقا حتی یردا علی الحوض فانظروا کیف تخلفونی فیهما (کنز العمال ۱۸۶:۱).

[۴] رواه الإمام أحمد وقال الهیثمی إسناده جید (مجمع الزوائد ۱۹۳:۹) (الفتح الربانی ۱۰۵:۲۲) ورواه الطبرانی وسعید بن منصور (کنز العمال ۱۸۶:۱۰).

[۵] رواه الترمذی وقال حدیث حسن (الجامع الصحیح ۶۶۳:۵) وقال فی تحفة الأحوذی، رواه مسلم من وجه آخر (التحفة ۱۰:۲۹۰).

[۶] تحفة الأحوزی فی شرح جامع الترمذی (۱۰:۲۹۰).

[۷] الفتح الربانی فی ترتیب مسند أحمد (۱۰۴:۲۲).

[۸] شرح المواهب ۲:۸.

[۹] التاج الجامع للأصول ۴۸:۱.

[۱۰] رواه أحمد والطبرانی وسعید بن منصور وابن أبی عاصم عن زید بن ثابت (کنز العمال ۱۷۲:۱، ۱۸۶:۱۰) (کتاب السنة ۲:۳۵۱)، ورواه الترمذی والنسائی والحاکم عن زید بن أرقم (کنز العمال ۱۷۳:۱)، (البدایة والنهایة چ ۲۱:۵)، ورواه أحمد وأبو یعلی وابن أبی عاصم عن أبی سعید الخدری (الفتح الربانی ۱۱۵:۲۲)، و (کتاب السنة ۶۴۴:۲)، ورواه الترمذی والنسائی وابن أبی شیبة والخطیب عن جابر (کنز العمال ۱۷۲، ۱۸۷:۱) ورواه الطبرانی وأبو نعیم عن حذیفة ن أسید (کنز العمال ۴۳۵:۱۴).

[۱۱] لسان العرب ص ۲۷۹۶.

[۱۲] الفتح الربانی ۱۰۴:۲۲.

[۱۳] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۱۶:۱۲).

[۱۴] رواه الحاکم وابن عساکر (کنز العمال ۹۸:۱۲).

من حقوق المطهرین

من الحقوق قوله تعالی: (قل لا أسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی) [۱] ، لقد ذهبوا فی هذه الآیة کل مذهب. فقال البعض. إن الخطاب لقریش. والأجر المسؤول هو مودتهم للنبی لقرابته منهم، وذلک لأنهم کانوا

[صفحه ۱۰۷]

یکذبونه. فأمر الله تعالی رسوله. أن یسألهم. إن لم یؤمنوا به فلیودوه!! فکیف تعطی قریش الأجر وهم مکذبین له؟ إنهم لم یأخذوا من القرآن شیئا - فالنص (لا- أسألکم علیه) أی القرآن فإذا کانوا لم یأخذوا فیکف یعطوا؟ إن الأجر إنما یتم إذا قوبل به عمل یمتلکه معطی الأجر. فسؤال الأجر من قریش وهم کانوا مکذبین له کافرین بدعوته. إنما یصح علی تقدیر إیمانهم به. وقیل أیضا: المعنی. لا أسألکم علی دعائی أجرا إلا أن تودوا أقرباءکم. فکیف یکون هذا؟ ومودة الأقرباء علی إطلاقهم لیست مما یندب إلیه فی الإسلام. قال تعالی: (لا تجد قوما یؤمنون بالله والیوم الآخر یوادون من حاد الله ورسوله ولو کانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشیرتهم) [۲] ، وإن الذی یندب إلیه الإسلام هو الحب فی الله من غیر أن تکون للقرابة خصوصیة فی ذلک. نعم هناک اهتمام شدید بأمر القرابة والرحم. لکنه بعنوان صلة الرحم وإیتاء المال علی حبه ذوی القربی. لا بعنوان مودة القربی، فلا حب إلا لله عز وجل. وروی أن المراد بالمودة فی القربی. مودة قرابة النبی صلی الله علیه وسلم. وهم عترته. فعن ابن عباس رضی الله عنهما. فی قوله (لا أسألکم علیه أجرا)

قال. قالوا: یا رسول الله. من هؤلاء الذین أمر الله بمودتهم؟ قال ": علی وفاطمة وابناهما [" ۳] ، وروی ابن جریر عن أبی الدیلم قال: لما جئ بعلی بن الحسین رضی الله عنه أسیرا فأقیم علی درج دمشق. قام رجل من أهل الشام. فقال: الحمد لله الذی قتلکم واستأصلکم وقطع قرن الفتنة، فقال له علی بن الحسن رضی الله عنهما ": أقرأت القرآن، "؟ قال: نعم، قال ": أقرأت آل حم "؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: (قل لا أسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی) قال: وإنکم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروی الإمام أحمد

[صفحه ۱۰۸]

عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله صلی الله علیه وسلم ": لا أسألکم علی ما أتیتکم من البینات والهدی أجرا إلا أن توادوا الله تعالی وأن تقربوا إلیه بطاعته [۴] وقال ابن کثیر: کأنه یقول. إن تعملوا بالطاعة التی تقربکم عند الله زلفی. وفی روایة لسعید بن جبیر معناه: إن تودونی فی قرابتی أی تحسنوا إلیهم وتبروهم [۵] .

وقال البعض. إن آیة: (إلا المودة فی القربی) منسوخة!!؟ ورد الحسن بن الفضل علی الذین قالوا بذلک. فقال: القول بنسخ هذه الآیة غیر مرضی. لأن مودة النبی وکف الأذی عنه. ومودة أقاربه من فرائض الدین. وهو قول السلف. فلا یجوز القول بنسخ هذه الآیة [۶] .

وحث النبی صلی الله علیه وسلم أمته وساقها نحو الصراط المستقیم فی أکثر من موضع. فعن ابن عباس. قال: قال النبی صلی الله علیه وسلم: أحبوا الله لما یغذیکم (أی یرزقکم به) من نعمه. وأحبونی بحب الله. وأحبوا أهل بیتی لحبی [" ۷] ، وقال ": النجوم أمان لأهل السماء وأهل بیتی أمان لأمتی [" ۸] ، وقال ": مثل أهل بیتی مثل سفینة نوح من رکبها نجا ومن تخلف عنها غرق [" ۹] .

وبعد أن فرض مودتهم ومحبتهم وبین أنهم أمان للأمة من الظلام ومن الغرق. أمر بالصلاة علیهم. لیستقیم البدء مع الختام. فقد أمر الله تعالی بالصلاة علی

[صفحه ۱۰۹]

رسوله فی قوله: (إن الله وملائکته یصلون علی النبی یا أیها الذین آمنوا صلوا علیه وسلموا تسلیما - إن الذین یؤذون الله ورسوله لعنهم الله فی الدنیا والآخرة وأعد لهم عذابا مهینا) [۱۰] .

فصلاته تعالی. انعطافا علیه بالرحمة انعطافا مطلقا. لم یقید فی الآیة بشئ دون شئ. وکذلک صلاة الملائکة علیه انعطافا علیه بالتزکیة والاستغفار. وقد ذکر تعالی صلاته وصلاة ملائکته علیه. قبل أن یقول: (یا أیها الذین آمنوا صلوا علیه) دلالة علی أن فی صلاة المؤمنین له. اتباعا لله سبحانه وملائکته. وقد استفاضت الروایات أن طریق صلاة المؤمنین. أن یسألوا الله تعالی أن یصلی علیه وآله. کما سیأتی. وقوله تعالی: (إن الذین یؤذون الله ورسوله لعنهم الله فی الدنیا والآخرة وأعد لهم عذابا مهینا)، من المعلوم أن الله تعالی منزه من أن یناله الأذی وکل ما فیه وصمة النقص والهوان. فذکره مع الرسول وتشریکه فی إیذائه. تشریف للرسول. وإشارة إلی أن من قصد رسوله بسوء. فقد قصده أیضا بالسوء. فقد أوعدهم باللعن فی الدنیا والآخرة. واللعن هو الإبعاد من الرحمة. والرحمة الخاصة بالمؤمنین هی الهدایة إلی الاعتقاد الحق وحقیقة الإیمان. ویتبعه العمل الصالح. فالإبعاد من الرحمة فی الدنیا. تحریمه علیه جزاء لعمله فیرجع إلی طبع القلوب کما فی قوله تعالی: (ولکن لعنهم الله بکفرهم فلا یؤمنون إلا قلیلا) [۱۱] ، وقوله: (أولئک الذین لعنهم الله فأصمهم وأعمی أبصارهم) [۱۲] ، وأما اللعن فی الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب. وقد قال تعالی: (کلا إنهم عن ربهم یومئذ لمحجوبون) [۱۳] ثم أوعدهم بأنه أعد لهم -

أی فی الآخرة - عذابا مهینا ووصف العذاب بالمهین. لأنهم یقصدون باستکبارهم فی الدنیا إهانة الله ورسوله. فقوبلوا فی الآخرة بعذاب یهینهم [۱۴] .

[صفحه ۱۱۰]

إن طریق الصلاة علی النبی وآله. غیر طریق إیذاء الله ورسوله وآله. وقد أورد السیوطی فی الدر المنثور ما یقرب من عشرین حدیثا تدل علی تشریک آل النبی معه فی الصلاة. وروی مسلم عن بشیر بن سعد. قال: أمرنا الله أن نصلی علیک یا رسول الله. فکیف نصلی

علیک؟. فسکت رسول الله صلی الله علیه وسلم. ثم قال صلی الله علیه وسلم ": قولوا اللهم صلی علی محمد وعلی آل محمد کما صلیت علی آل إبراهیم. وبارک علی محمد وعلی آل محمد کما بارکت علی آل إبراهیم فی العالمین إنک حمید مجید [۱۵] ولما کان النبی صلی الله علیه

وسلم قد حدد من هم أهل البیت. فإن البخاری روی حدیثا یأمر فیه النبی بالصلاة علی أهل البیت. کی لا یظن الناس أن الآل والأهل کل منهم فی طریق. وإنما هم واحد. فعن أبی لیلی قال: لقینی کعب بن عجرة. فقال: ألا أهدی لک هدیة سمعتها من النبی صلی الله علیه وآله. قال: قلت بلی فإهدها لی. فقال: سألنا رسول الله. فقلنا یا رسول الله کیف الصلاة علیکم أهل البیت. فإن الله قد علمنا کیف نسلم. قال ": قولوا اللهم صل علی محمد وعلی آل محمد کما صلیت علی إبراهیم وعلی آل إبراهیم إنک حمید مجید. اللهم بارک علی محمد وعلی آل محمد کما بارکت علی إبراهیم وعلی آل إبراهیم إنک حمید مجید [۱۶] .

وروی الحاکم هذا الحدیث. قال: وقد روی هذا الحدیث بإسناده وألفاظه حرفا بعد حرف الإمام محمد بن إسماعیل البخاری عن موسی بن إسماعیل فی الجامع الصحیح. وإنما أخرجته لیعلم المستفید أن أهل البیت والآل جمیعا هم [۱۷] وروی الدیلمی عن واثلة أن رسول الله صلی الله علیه وسلم جمع فاطمة وعلیا والحسن والحسین تحت ثوبه وقال ": اللهم قد جعلت صلواتک ورحمتک ومغفرتک ورضوانک علی إبراهیم وعلی آل إبراهیم، اللهم إن هؤلاء

[صفحه ۱۱۱]

منی وأنا منهم فاجعل صلواتک ورحمتک ومغفرتک ورضوانک علی وعلیهم [۱۸] ، وروی ابن عساکر وأبو یعلی عن أم سلمة. إن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال لفاطمة: اتینی بزوجک وابنیک. فجاءت بهم. ثم رفع یده فقال: اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتک وبرکاتک علی آل محمد کما جعلتها علی آل إبراهیم إنک حمید مجید [۱۹] .

وقال فی فتح الباری: قال أحد الهاشمیین - من غیر أهل البیت - للنبی صلی الله علیه وسلم: اتقصدنی وأنت تصلی علی فی کل صلاة فی قولک اللهم صلی علی محمد وعلی آل محمد. فقال: إنی أرید الطیبین الطاهرین ولست منهم [۲۰] .

لقد استقام البدء مع الختام. والتقی عصر إبراهیم علیه السلام مع عصر محمد صلی الله علیه وسلم فی صلاة المؤمنین. وکما جرت ید إبراهیم علی أولاده إسماعیل وإسحاق علیهم السلام وهو یدعو لهما کذلک جرت ید محمد صلی الله علیه وسلم علی الحسن والحسین وهو یعوذهما بمعوذة إبراهیم. روی البخاری عن ابن عباس. قال: کان النبی صلی الله علیه وسلم یعوذ الحسن والحسین. ویقول: إن أباکما إبراهیم کان یعوذ بهما إسماعیل وإسحاق ": أعوذ بکلمات الله التامة من کل شیطان وهامة ومن کل عین لامة" [۲۱] ، إن المعوذة التی جرت علی الشجرة الإسرائیلیة من القدیم هی نفسها التی جرت علی الشجرة الإسماعیلیة من قدیم حتی استقرت فی الرسالة عن الحسن والحسین. ویمکن علی هذا الضوء أن نفهم معنی قول النبی صلی الله علیه وسلم ": حسین منی وأنا من حسین. أحب الله من أحب حسینا. حسین سبط من

[صفحه ۱۱۲]

الأسباط [" ۲۲] .

قال فی تحفة الأحوذی ": أحب الله من أحب حسینا " لأن محبته محبة الرسول ومحبة الرسول محبة الله. وقوله ": حسین سبط من الأسباط " أی أمة من الأمم فی الخیر والأسباط فی أولاد إسحاق بن إبراهیم بمنزلة القبائل فی ولد إسماعیل. وأحدهم سبط. فهو واقع علی الأمة. والأمة واقعة علیه [۲۳] وإذا کنا قد فهمنا مغزی المعوذة، ومغزی السبط. فإننا یمکن أن نفهم أیضا معنی الخلفاء فیما رواه أبو هریرة. قال: قال رسول الله صلی الله علیه: إن بنی إسرائیل کانت تسوسهم الأنبیاء. کلما هلک نبی خلف نبی. وإنه لا نبی بعدی. إنه سیکون خلفاء. فتکثر. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببیعة الأول فالأول. واعطوهم حقهم الذی جعل الله لهم. فإن الله سائلهم عما استرعاهم [۲۴] إن قوله ": أعطوهم حقهم الذی جعل الله لهم " فیه إن الله جعل الخلفاء الحق حقا. وإن هذا الحق عنوان علی امتداد الصراط

المستقيم. ولا يجوز أن يسقط هذا الحق على خلفاء الجور والملك العضوض. لأن هؤلاء ليس لهم عند الله حقا، فالحق يكون للأنبياء والرسل. ولأولى الناس بالأنبياء والرسل. وأولى الناس بهم. أعلمهم بما جاءوا به. وبعد هؤلاء للمؤمنين الذين اتبعوا الخط الرسالى للأنبياء والرسل. ثم لمن صالحوا أو عاهدوا إلى غير ذلك، فعلى هذا الطريق تكون الحقوق. أما على غيره فترتع الأهواء وتعوى الذئاب ويسير اللصوص بالليل والنهار فيزينون ويغوون ويحتنكون بنى الإنسان من أجل سرقة حقوقهم التى جعلها الله لهم كى يعيشوا الحياة السعيدة. وبعد أن أعلن التطهير، وبعد أن أعلن أن المطهرين مع القرآن الطاهر على

[صفحه ۱۱۳]

صراط واحد حتى يردا على الحوض. وبعد أن حث الأمة على مودتهم وفيه دليل على أن عبادتهم حتى قيام الساعة هى عبادة الحق لأن الله لم يفرض مودتهم إلا وقد علم أنهم لا يرتدون عن الدين أبدا ولا يرجعون إلى ضلال أبدا. وبعد أن أمر تعالى بالصلاة عليهم. لتستقيم الصلاة عليهم مع المودة على طريق واحد وبالصلاة والمودة تغرس فى النفوس تعظيم شأنهم. بعد كل هذا طهرهم الله من الصدقة وفرض لهم فى الأموال فرضا. لتكون دائرة الطهر بذلك دائرة كاملة ناصعة فى بياضها قوية فى محبتها. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس [" ۲۵] وعن أبى هريرة قال: أخذ الحسين بن على من تمر الصدقة فجعلها فى فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": كخ كخ إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة " رواه مسلم [۲۶] ، وقال النووى: معنى أوساخ الناس إنها تطهير لأموالهم ونفوسهم. كما قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فهى كغسالة الأوساخ [۲۷] .

لقد حرم الله تعالى الصدقة على النبى وآله " إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة " رواه مسلم [۲۸] وعوضه سبحانه سهما من الخمس عوضا بما حرم

عليه. وضرب لآله معه سهما عوضا مما حرم عليهم. قال تعالى فى صدر سورة الأنفال: (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) [۲۹] .

والأنفال جمع نفل. وهو الزيادة على الشئ. ولذا يطلق النفل على التطوع

[صفحه ۱۱۴]

لزيادته على الفريضة. وتطلق على ما يسمى فيئا وهى الأشياء من الأموال التى لا مالك لها من الناس. كرؤوس الجبال وبطون الأودية والديار الخربة والقرى التى باد أهلها. وتركة من لا وارث له. وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد. وهى لله ولرسوله. وتطلق على غنائم الحرب. كأنها زيادة على ما قصد منها. فإن المقصود بالحرب والغزو. الظفر على الأعداء. فإذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المطلوب والأموال التى غنمها المقاتلون زيادة على أصل الغرض. فقوله: (يسألونك عن الأنفال) يفيد أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن حكم غنائم الحرب. بعدما زعموا أنهم يملكون الغنيمة واختلفوا فيمن يملكها أو فى كيفية ملكها وقسمتها بينهم أو فيهما معا. وتخاصموا فى ذلك. وقوله: (قل الأنفال لله والرسول) جواب على مسألتهم. وفيه بيان أنهم لا يملكونها وإنما هى أنفال يملكها الله ورسوله فتوضع حيثما أراد الله ورسوله. وذكروا فى تفسير الآية: أى يسألك أصحابك يا محمد عن هذه الغنائم التى غنمتها. وما حكمها وكيف تقسم فقل لهم. هى لله وللرسول يحكم فيها الله عز وجل بحكمه. ويقسمها الرسول صلى الله عليه وسلم على حسب تشريع الله عز وجل. فاتقوا الله ولا تختلفوا ولا تنازعوا فى شأنها لأن ذلك يوجب سخط الله وغضبه عليكم [۳۰] وبعد أن حدد الشرع الحنيف حكم الأنفال. قال تعالى: (واعلموا إنما غنمتم من شئ فإن الله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله...) [۳۱] .

والغنم والغنيمة: إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب. وفى الآية ينطبق على غنيمة الحرب. وذو القربى، قرابة النبى أو خصوص أشخاص منهم على ما تفسره الآثار القطعية. ومعنى الآية والله أعلم: واعلموا أن خمس ما غنمتم أى شئ كان. هو لله ولرسوله

ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن

[صفحه ۱۱۵]

السبيل. فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر. وهو أن الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله. لا يشارك الله ورسوله فيها أحد. وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها. فالذى أباح لكم التصرف فيها. ويأمركم أن تؤدوا خمسها إلى أهله. والنبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر من يأتيه مسلما أن يؤدى خمس ما غنم. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس ": آمركم أن تؤدوا خمس ما غنمتم [" ۳۲] ، وروى الشيخان عن ابن عباس: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس لما أمرهم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله وحده. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا- إله إلا- الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس، " ومعنى هذا أن الخمس حق شرعى لأربابه المذكورين فى الآية يجب صرفه إليهم. وقد أجمع أهل القبلة كافة. على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يختص بسهم من الخمس ويخص أقاربه بسهم آخر منه. وإنه لم يعهد بتغيير ذلك إلى أحد حتى دعاه الله إليه. واختاره إلى الرفيق الأعلى [۳۳] .

وسهم ذى القربى كان رباطا وثيقا لهم على امتداد الصراط المستقيم. فالله تعالى كما حصنهم الطهر. جعل سهمهم امتدادا لحصن الطهر. فالمال على مختلف العصور فتنة سقط فيها الأحبار والرهبان من قبل. وعندما سقطوا فسدت قيادتهم. قال تعالى: (إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس

[صفحه ۱۱۶]

بالباطل [" ۳۴] قال المفسرون: إن أهم ما يقوم به المجتمع الإنسانى على أساسه. هو

الجهة المالية التى جعل الله لهم قياما. فجميع المآثم والمساوئ والجنايات والتعديات والمظالم تنتهى بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس فى الكيل والوزن والغصب وسائر التعديات المالية. وإما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإترف والإسراف فى المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك وينتهى إلى الاسترسال فى الشهوات وهتك الحرمات وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم. وتنتهى جميع هذه المفاسد التى ذكرناها. بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم فى حيازة الأموال واقتناء الثروة والأحكام المشرعة لتعديل الجهات المملكة المميزة لأخذ المال بالحق من أكله بالباطل فإذا اختل ذلك، وأذعنت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال. فشى الفساد وشاع الانحطاط الأخلاقى فى المجتمع وانقلب المحيط الإنسانى إلى محيط حيوانى لا هم له إلا بطنه وما دونها. ولا يملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية. ولا تفقه فيه محكمة ولا إصغاء إلى موعظة. والأحبار والرهبان الذين تعود إليهم تربية الأمة وإصلاح المجتمع. كان أكثرهم يأكل أموال الناس بالباطل. لتظاهرهم بالزهد والتنسك. وعلى ظلام الباطن وزخرف الظاهر توغلوا فى سبيل الباطل ومنعوا الناس عن سبيل الله. وسدوا الطريق على الحكومة الدينية العادلة التى غرضها إصلاح الناس. وتكوين مجتمع حى فعال يليق بالإنسان الفطرى المتوجه إلى سعادته الفطرية. ولسد الطريق أمام هذه العقبة التى نفذ منها الشيطان. فرض الله تعالى لرسوله وأهل بيته المال الحق الطاهر، ليواجه خط المال الباطل الدنس للذين يصدون عن سبيل الله، ودائرة القربى الخاصة بسهم ذى القربى. دائرة واسعة بعض الشئ. فهى تشمل القيادة ومن حولها من بنى هاشم ومن بنى المطلب الذين كانوا

[صفحه ۱۱۷]

ينصرون منهج الفطرة كتفا بكتف مع بنى هاشم. وهذه الدائرة التى تحدد الخط الأول فيها ثم الخط الثانى لم يقم بتعيين من فيها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد رفض النبى أن يدخل فيها عثمان بن عفان أو غيره ممن لا- ينطبق على شروطها. روى الإمام البخارى عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلنا يا رسول الله. أعطيت بنى المطلب وتركتنا

ونحن وهم منک بمنزلة واحدة. فقال: إنما بنو المطلب وبنو هاشم واحد [۳۵] ، وروى أبو داود عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خبير وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهم القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب. وترک بنى نوفل وبنى عبد شمس. فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبى صلى الله عليه وسلم. فقلنا: يا رسول الله. هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذى وضعک الله به منهم. فما بال إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة. فقال صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفترق فى جاهلية ولا إسلام وإنا نحن وهم شئ واحد وشبک بين أصابعه [۳۶] قال ابن قدامة فى المغنى: شارک بنى

المطلب بنى هاشم بالنصرة [۳۷] .

إنه حكم الله وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": إنما أنا قاسم وخازن الله يعطى [" ۳۸] ، وكان يقول ": ما أعطيكم ولا أمنعكم. أنا قاسم أضع حيث أمرت [" ۳۹] ، ولأن الطريق طريق حق يواجهه طريق باطل. ولأن هناک من يعمل لمنع الناس عن سبيل الله ويأكل أموالهم بالباطل. حذر النبى صلى الله عليه وسلم من عثرات الطريق وقال ": إن رجالا يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة [" ۴۰] .

[صفحه ۱۱۸]

إن الدعوة التى يستمد رجالها المال من الناس لا تدوم. وإنما تدوم الدعوة التى يعطيها الله ويقسم لها رسول الله. والدعوة التى تستمد وقودها من الناس الذين تعصف بهم الأهواء كثيرا ما يحتنک الشيطان قيادتها. أما الدعوة التى يفرض فيها الله على أتباعها فروضا يترتب عليها إما ثواب وإما عقاب. هى دعوة يصل من أخذ بحبلها وسار على صراطها إلى حوض الذى قسم ما أمر الله به صلى الله عليه وسلم، لهذا لم يكن المال فى الإسلام وجاهه وإنما هو من أجل رسالة. لم يكن المال فى الإسلام وقودا يوضع فى بيت المال. لينال منه هذا ليشعل النار على ذاک ولم يكن زادا يتزود به كل راشى وكل مرتشى فى الحكم. إنما المال فى الإسلام سدا لطريق الفتن. لهذا وضع فى أيدى أمينة حرمت عليها الصدقة. لتفتح طريقا للفطرة فى عالم مملوء بالرجس والبخس.

[۱] سورة الشورى: الآية ۲۳، السورة مكية والآية مدينة.

[۲] سورة المجادلة: الآية ۲۲.

[۳] رواه الطبرانى وقال الهيثمى فى موضع رواه الطبرانى وثقوا جميعا وفى بعضهم ضعف (مجمع الزوائد ۱۰۳:۷) وقال فى موضع آخر رواه الطبرانى وفيه جماعة ضعفاء وقد وثقوا (الزوائد ۱۶۸:۹)، وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه (تحفة الأحوازى ۱۲۷:۹) (الفتح الربانى ۲۷۵:۱۸).

[۴] تفسير ابن كثير ۱۱۲:۴، البغوى فى تفسيره ۳۶۴:۷.

[۵] تفسير ابن كثير ۱۱۲:۴.

[۶] تحفة الأحوازى ۱۲۷:۹.

[۷] رواه الترمذى وحسنه (الجامع الصحيح ۶۶۴:۵)، والحاكم وأقره الذهبى (المستدرک ۱۵۰:۳.

[۸] رواه الطبرانى وأبو يعلى وابن عساكر وابن أبى شيبة ومسدد عن سلمة بن الأكوع (كنز العمال ۹۶، ۱۰۲:۱۲)، ورواه أبو يعلى والبزار والحاكم عن أبى ذر (الخصائص الكبرى للسيوطى ۴۶۶:۲).

[۹] رواه البزار عن ابن عباس والزبير (كنز العمال ۹۵:۱۲)، ورواه الحاكم وابن جرير والبزار والطبرانى عن أبى ذر، وهذا الطريق فيه من قالوا فيه – متروک. رواه.

[۱۰] سورة الأحزاب: الآية ۵۶ – ۵۷.

[۱۱] سورة النساء: الآية ۴۶.

[۱۲] سورة محمد: الآية ۲۳.

[۱۳] سورة المطففین: الآیة ۱۵.

[۱۴] المیزان ۱۶:۳۳۸.

[۱۵] تفسیر ابن کثیر تفسیر سورة الأحزاب.

[۱۶] البخاری ک، بدء الخلق ب یزفون النسلان ۲:۲۳۹.

[۱۷] المستدرک (۳:۱۴۸).

[۱۸] رواه الدیلمی والطبرانی (کنز العمال ۱۳:۶۰۳، ۱۲:۱۰۱).

[۱۹] رواه أبو یعلی وابن عساکر (کنز ۱۳:۱۴۵).

[۲۰] فتح الباری:ابن حجر ۱۱:۱۶۰.

[۲۱] البخاری ک بدء الخلق (الصحیح ۲:۲۳۹)، ورواه الحاکم (المستدرک ۳:۱۶۷).

[۲۲] رواه الترمذی وقال حدیث حسن (الجامع ۵:۶۵۸) وقال فی تحفة الأحوازی أخرجه البخاری فی الأدب المفرد وابن ماجة والحاکم ورواه أحمد (التحفة ۱۰:۲۸۰)، (الفتح الربانی ۲۳:۱۷۹)، وقال ابن کثیر رواه أحمد والطبرانی والترمذی عن یعلی بن مرة (البدایة ۸:۲۰۶)، ورواه الحاکم وقال صحیح الإسناد (المستدرک ۳:۱۷۷).

[۲۳] تحفة الأحوازی ۱۰:۲۸۰.

[۲۴] رواه الإمام أحمد وإسناده صحیح وقال فی الفتح رواه الإمام مسلم (الفتح ۲۳:۵۲).

[۲۵] شرح النووی ۷:۱۷۹ مسلم باب تحریم الزکاة.

[۲۶] صحیح مسلم ۵، ۷:۱ باب تحریم الزکاة.

[۲۷] النووی شرح مسلم ۷:۱۷۹.

[۲۸] قال فی کشف الخفاء رواه أحمد وابن حبان وأبو داود والحاکم (کشف ۱:۲۳۹) ورواه مسلم بلفظ " إنا لا تحل لنا الصدقة،" (صحیح مسلم ۷:۱۷۶).

[۲۹] سورة الأنفال: الآیة ۱.

[۳۰] تفسیر آیات الأحکام:الصابونی ص ۱:۵۸۹.

[۳۱] سورة الأنفال: الآیة ۴۱.

[۳۲] رواه الترمذی وقال: حدیث حسن صحیح (الجامع ۴:۱۵۳).

[۳۳] الرسول وسهم ذی القربی فی تفسیر القرطبی ۱۰:۸، تفسیر الطبری ۴:۱۰، الکشاف للزمخشری ۲:۱۵۸، تفسیر المنار ۱۰:۱۵، الأموال أبی عبید ۳۲۵، أحکام القرآن للجصاص ۳:۶۰، فتح القدیر للشوکانی ۲:۲۹۵، سنن النسائی الفئ ۷:۱۲۰، ۱۲۲، شرح مسلم النووی باب حکم الفئ ۱۲:۸۲.

[۳۴] سورة التوبة: الآیة ۳۴.

[۳۵] صحیح البخاری (۲:۱۹۶) ک الجهاد والسیر.

[۳۶] أبو داوود حدیث رقم ۲۹۸۰.

[۳۷] المغنی ۲:۶۵۷.

[۳۸] رواه البخاری (الصحیح ۲:۱۹۰) ک الجهاد والسیر.

[۳۹] رواه البخاری (الصحیح ۲:۱۹۲) ک الجهاد والسیر.

[۴۰] رواه البخاری (الصحیح ۲:۱۹۲) ک الجهاد والسیر.

من مناقب أهل البيت

لما كان أهل البيت هم ذروة الأمة الخاتمة. فإن الله تعالى وضعهم فى
دائرة خاصة بهم. لهم فيها ما ليس لغيرهم ليكون فى ذلك لفتا لأنظار الأمة إليهم. ونحن سنقتبس من نورهم بعضا من مناقبهم التى يحتاجها هذا الموضع.

من مناقب على بن أبى طالب

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أول من صلى مع النبى بعد خديجة
على بن أبى طالب [۱] ، وعن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم على [۲] ، وعن سلمان قال: أول هذه الأمة ورودا على نبيها. أولها إسلاما على بن أبى
[صفحه ۱۱۹]
طالب [۳] ، وعن على قال: كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى وإذا سكت - أى عن السؤال ابتدأنى [۴] ، وعن عبد الله بن جعفر قال: قال صلى الله عليه وسلم ": على أصلى وجعفر فرعى [" ۵] ، وعن عمر بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم. آخى بين الناس وترك عليا حتى بقى آخرهم لا يرى له أخا. فقال يا رسول الله: آخيت بين الناس وتركتنى. قال: ولم ترانى تركتك. تركتك لنفسى أنت أخى وأنا أخوك. فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيها بعد إلا كذاب [۶] عن ابن عمر
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى ": أنت أخى فى الدنيا والآخرة [۷] ، وقال ابن كثير فى هذا الحديث. كان المشايخ يعجبهم هذا الحديث لكونه من رواية أهل الشام [۸] .

[۱] رواه أحمد. وقال فى الفتح الربانى: أورده الطيالسى فى سنده والهيثمى عن على وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حية العرض وقد وثق (الفتح ۱۲۲:۲۳)، ورواه الترمذى وقال حديث غريب (تحفة الأحوازى ۲۳۹:۱۰).

[۲] رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح (الجامع ۶۴۲:۵) ورواه أحمد بسند صحيح (الفتح الربانى ۱۲۲:۲۳) ورواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۱۳۶:۳).

[۳] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله ثقات (مجمع الزوائد ۱۰۲:۹)، ورواه ابن أبى شيبة (كنز العمال ۱۴۴:۳)، ورواه الحاكم والخطيب (كنز العمال ۶۱۶:۱۱).

[۴] رواه الترمذى وقال: حديث حسن غريب (الجامع ۶۳۷:۵) وقال فى تحفة الأحوازى رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم ورواه أبو نعيم فى الحلية وسعيد بن منصور (تحفة الأحوازى ۲۲۵:۱۰) (كنز العمال ۱۲۰:۱۳).

[۵] رواه الطبرانى فى الكبير. ورواه الضياء بسند صحيح (كنز العمال ۶۰۲:۱۳).

[۶] أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلى عن على (كنز العمال ۱۴۰:۱۳) (تحفة الأحوازى ۱۲۲:۱۰).

[۷] رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب (الجامع ۶۳۶:۵).

[۸] البداية والنهاية ۳۳۶:۷.

من مناقب فاطمة

خطب أبو بكر وعمر فاطمة. فقال النبى صلى الله عليه وسلم " هى لك يا على [" ۱] ، وقال صلى الله عليه وسلم ": إن الله أمرنى أن

أزوج فاطمة من على [" ۲] ، وروى الإمام مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين. أو سيدة نساء هذه

[صفحه ۱۲۰]

الأمة [۳] ، وعن أنس قال. قال النبى صلى الله عليه وسلم: حسبك من نساء العالمين - مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون [۴] ، وروى الإمام مسلم عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ": إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها [" ۵] ، وروى البخارى ": فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى [" ۶] ، وروى الحاكم ": فاطمة شجنة منى يبسطنى ما يبسطها ويقبضنى ما يقبضها [" ۷] .

فإذا كان الذى يؤذى فاطمة يؤذى رسول الله. وإذا كان ما يغضبها يغضبه. وإذا كان ما يقبضها يقبضه. فعلى ذلك يمكن أن نفهم قول الله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة [" ۸] ، فمن المعلوم أن الله لا- يناله الأذى ولكنه شارك الرسول فى إيذائه تشريفا للرسول. وإشارة إلى أن من قصد رسول الله بسوء. فقد قصده أيضا بالسوء. لهذا قال لفاطمة ما قال. وقال لعلى بن أبى طالب ": إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك [" ۹] ، وقال ": يا على من فارقنى فارق الله ومن فارقك يا على فارقنى [" ۱۰] ، وقال ": من آذى عليا

[صفحه ۱۲۱]

فقد آذانى [" ۱۱] ، وقال للحسن والحسين ": من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى [۱۲] .

إنه خط واحد، لا مجاملة فيه لأحد. فالذين يؤذون الرسول يؤذون الله. والرسول قام بتحديد دائرة. فمن تقدم إليه بأذى. فإنه يكون فى حقيقة الأمر قد خالف الطريق كله. وحمل الفطرة على ما لا يجب أن تحمله.

[۱] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۹:۲۰۴).

[۲] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۹:۲۰۴).

[۳] صحيح مسلم فى فضل فاطمة (۶:۱۶)، ورواه البخارى بلفظ " أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين (الصحيح ۲:۲۸۴)، ورواه الحاكم بلفظ مسلم بزيادة " ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين " وقال هذا إسناد صحيح ووافقه الذهبى (المستدرك ۳:۱۵۶).

[۴] رواه الترمذى وقال حديث صحيح (الجامع ۵:۷۰۳) ورواه الحاكم وقال هذا الحديث فى المسند لأبى عبد الله أحمد بن حنبل (المستدرك ۳:۱۵۷).

[۵] صحيح مسلم ۱۶:۳، باب فضل فاطمة.

[۶] صحيح البخارى ك بدء الخلق ب مناقب قرابة النبى ۲:۳۰۲.

[۷] الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۳:۱۵۴).

[۸] سورة الأحزاب: الآية ۵۷.

[۹] رواه الطبرانى وقال الهيثمى إسناده حسن (الزوائد ۹:۲۰۳).

[۱۰] رواه البزار (كشف الأستار ۳:۲۰۱) وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۳۵)، ورواه الحاكم وصححه (المستدرك ۳:۱۲۱).

[۱۱] رواه أحمد وقال الهيثمى رجال أحمد ثقات ورواه ابن حبان فى صحيحه (الزوائد ۹:۱۲۹).

[۱۲] رواه ابن ماجة وقال البوصيرى فى الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات (۳:۱۴۰۶) (كنز العمال ۱۲:۱۱۶) ورواه الحاكم وأقره الذهبى (۳:۱۶۶ المستدرك) وقال الهيثمى رواه أحمد والبزار (الزوائد ۹:۱۷۹).

من مناقب الحسن والحسين

عن ابن عمر قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ": هما ريحانتاى من الدنيا [" ۱] ، وعن أسامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هـذان ابنـاى وابنا ابنتى. اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما [" ۲] ، وفى هـذا الحديث أطلق عليهما لفظ البنوة التى أطلقها القرآن فى قوله تعـالى: (تعـالوا نـدع أبناءنـا وأبنـاءكم)، وعن أبى سـعيد الخـدرى قال: قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ": الحسـن والحسين سيدا شباب أهل الجنة [" ۳] ، وعن حذيفة: قال النبى

[صفحه ۱۲۲]

صلى الله عليه ": جاءنى جبريل بشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة [" ۴] ، وبما أنهما فى الجنة فلا يمكن أن يكون من قتلهما فى الجنة أيضا. لأن الجنة لا يدخلها القاتل الذى ساعد وساهم فى تقييض الصـراط المستقيم. بدليل أن الشيطان الذى أخذ على عاتقه تقييض الصـراط المستقيم. لعنه الله وأخرجه من الجنة. سابعا - تحذيرات: بعد اكتمال الدائرة التى ستقف فى مواجهة دوائر الصد عن سبيل الله. وبعـد أن بين الله تعالى العترة الطاهرة الـذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وأن ذروة ذى القربى هم من حرم الله تعالى على محمد صـلى الله عليه وسـلم نكاحه. وبعد أن فرض مودتهم من البداية إلى النهاية. ولم يفرض الله مودتهم إلا لعلمه المطلق بأنهم لا يرتـدون عن الـدين أبـدا ولا يرجعون إلى ضـلال أبـدا. ومودتهم لا يأتى بها أحـد مؤمنا مخلصا إلا اسـتوجب الجنـة لقوله عز وجل: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) [۵] .

وبعد أن فرض سبحانه الصلاة على رسوله والحق رسوله آله به. وفى بعض الروايات أن قوله تعالى: (يس والقرآن الحكيم) [۶] ، روى أن يس اسم من أسماء النبى [۷] وروى فى قوله تعالى: (سلام على آل

[صفحه ۱۲۳]

يس) [۸] ، أن آل يس هم آل محمد صـلى الله عليه وآله وسـلم [۹] ، وقيـل: إن الله تعالى لم يقل سـلام على آل نوح ولم يقل سـلام على آل إبراهيم ولا قال سـلام على آل موسـى وهارون وقال ": سـلام على إل ياسـين " يعنى أل محمد لأنهم حراس العقيدة الخاتمة التى ترتبط بالقرآن وتلتقى معه عند حوض النبى يوم القيامة. وقيل أيضا إن الله تعالى ذكر الرجوع إليهم فيما خفى على الناس فى قوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) [۱۰] إن القول بأهل الذكر فى

هـذه الآيـة ليس اليهود والنصـارى كمـا يزعم البعض. لأن هـذا القول أن يـدعونا إلى دينهم للاحتكام إليه، وإن المعنى: إن الـذكر هو رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم وذلك مبين فى كتاب الله عز وجل. قال تعالى: (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا - رسولا- يتلوا عليكم آيـات الله مبينات) [۱۱] ، وقال البعض: المراد بالـذكر بالـذى أنزله هو الرسول. سـمى به لأنه وسـيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق. وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول. بعثه من عالم الغيب. وإظهاره لهم رسولا من عنده. بعدما لم يكونوا يحتسبون كما فى قوله تعالى: (وأنزلنا الحديد) [۱۲] وقال البعض: يحتمل أن

يكون " رسولا " منصوبا بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولا يتلو عليكم، " ويكون المراد بالذكر المنزل إليهم القرآن، وقال البعض: إن " رسولا " هو جبريل. ولكن ظاهر قوله " يتلو عليكم "... يخالف ذلك. والخلاصـة: إن الروايات التى فسـرت الآية بينت أن الذكر رسول الله وإن عـترته أهله. وروى فى قوله عز وجـل: (وأمر أهلـك بالصـلاة واصـطبر عليهـا) [۱۳] ، إن الآيـة مكيـة وعلى هذا فالمراد بقوله ": أهلك " بحسب وقت النزول خديجة زوج

[صفحه ۱۲۴]

النبى صـلى الله عليه وسـلم وعلى بن أبى طالب، وكان من أهله وفى بيته أو هما وبعض بنات النبى صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا فإن القول بأن أهله جميع متبعيه من أمته غير سديد. وروى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ظل يأمر أهله بالصلاة فى مكة والمدينة حتى

فارق الدنيا. وفى الدر المنثور أخرج الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شده أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا (وأمر أهلك بالصلاة) وروى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجئ إلى باب على وفاطمة ثمانية أشهر، وفى رواية تسعة أشهر ويقول ": الصلاة رحمكم الله. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا [" ۱۴] .

وبعد أن فرض سبحانه لذى القربى نصيبهم من المال. فقرن سهمهم مع سهمه وسهم رسوله. فجعلهم بذلك فى خير. وجعل الناس فى خير دون ذلك. ورضى لهم ما رضى لنفسه. واصطفاهم فيه فبدأ بنفسه ثم ثنى برسوله ثم بذى القربى. (واعلموا إنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى). [۱۵] فهذا النصيب من الفئ والغنيمة حقا لهم إلى يوم القيامة فى كتاب الله الناطق. بخلاف اليتامى والمساكين الذين ورد ذكرهم فى الآية. فإن اليتيم إذا انقطع يتمه خرج من الغنائم ولم يكن له فيها نصيب. وكذلك المسكين إذا انقطعت مسكنته لم يكن له نصيب من المغنم ولا يحل له أخذه. ولكن سهم ذى القربى إلى يوم القيامة. قائم فيهم للغنى والفقير منهم. لأنه لا أحد أغنى من الله عز وجل. فجعل لنفسه منها سهما ولرسوله سهما. فما رضيه لنفسه ولرسوله رضيه لهم. وكذلك الغنى ما رضيه منه لنفسه ولرسوله صلى الله عليه وآله رضيه لذى القربى. وكذلك الصدقة. فكما نزه سبحانه نفسه ونزه رسوله. نزه أهل بيت النبى عنها. فقال: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من

[صفحه ۱۲۵]

الله) [۱۶] ، فلا يوجد فى شئ من ذلك أنه عز وجل سمى لنفسه أو لرسوله أو لذى القربى. لأنه لما نزه نفسه من الصدقة ونزه رسوله نزه أهل بيته. بل حرمها عليهم لأن الصدقة محرمة على محمد وآله. وهى أوساخ أيدى الناس. لا تحل لهم. لأنهم طهروا من كل دنس ووسخ. فلما طهرهم الله عز وجل. رضى لهم ما رضى لنفسه وكره لهم ما كره لنفسه. بعد كل هذا التطهير. وبعد رباط القرآن الذى لا ينفك عنهم حتى يوم القيامة. بعد كل هذا حذر ثم حذر وحذر. فقال ": سبعة لعنتهم ولعنهم الله " ومنهم ": المتسلط على أمتى كالجبروت ليذل من أعز الله، ويعز من أذل الله عز وجل. والمستحل من عترتى ما حرم الله عز وجل [" ۱۷] ، وعن زيد بن أرقم. أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى وفاطمة والحسن والحسين. أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [۱۸] .

قال فى تحفة الأحوذى: أى أنا محارب لمن حاربتم. جعل النبى صلى الله عليه وسلم نفسه نفس الحرب مبالغة كرجل عدل [۱۹] ، وعن أبى

[صفحه ۱۲۶]

سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار [" ۲۰] .

وعلى ذلك تكون الحجة قد أقيمت. فالله سبحانه هو الذى حذر من خطوات الشيطان. وهو سبحانه الذى بين أهداف المشركين فى دائرة البخس. وهو سبحانه الذى بين أهداف المنافقين فى دائرة الرجس. كما بين أهداف تيار الذين فى قلوبهم مرض. وتيار الذين فى قلوبهم زيغ. ولما كانت الأمة ستجد مشاكل على الطريق يضعها أناس من جلدتهم يتكلمون بألسنتهم ويدعون إلى النار من أجابهم قذفوه فيها. ولما كان عدم وجود دليل للأمة يرشدها مع كتاب الله إلى الطريق الحق. يعتبر حجة لهم يوم القيامة. أقام الله حجته حتى لا يكون للناس عليه حجة يوم القيامة، ولا إكراه فى الدين. فالحق حق وإن تركه الناس. والباطل باطل وإن التزموا به.

[صفحه ۱۲۷]

[۱] رواه البخارى ك بدء الخلق ب مناقب الحسن والحسين (۳۰۶:۲) وأحمد والترمذى عن ابن عمر. وابن عساكر وابن عدى عن أبى بكرة. والنسائى عن أنس (كنز العمال ۱۱۳، ۱۱۴:۱۲) ورواه البزار عن سعد وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الزوائد ۱۸۱:۹).

[۲] رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب (الجامع ۶۵۶:۵)، وقال فى تحفة الأحوازى رواه الحاكم وصححه وابن حبان فى صحيحه

(التحفة ۲۷۴:۱۰) ورواه البخاری ک بدء الخلق ب مناقب المهاجرین ۳۰۶:۲ الصحیح.

[۳] رواه الترمذی وقال حدیث حسن صحیح (الجامع ۶۵۶:۵) وقال فی کشف الخفاء أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاکم (کشف الخفاء ۴۲۹:۱) وقال فی تحفة الأحوازی هذا الحدیث مروی عن عدة من الصحابة من طرق کثیرة ولذا عده السیوطی من المتواترات (تحفة ۲۷۲:۳) وقال الهیثمی رواه أحمد وأبو یعلی ورجالها رجال الصحیح (الزوائد ۲۰۱:۹).

[۴] رواه البخاری والضیاء فی المختارة بسند صحیح (کنز ۱۲۰:۱۲) وابن سعد والحاکم (کنز ۱۱۳:۱۲) وأحمد والترمذی وقال حدیث حسن والنسائی وابن حبان فی صحیحه (کنز ۱۱۳:۱۲).

[۵] سورة الشوری: الآیة ۲۲ – ۲۳.

[۶] سورة یس: الآیة ۱.

[۷] جلاء الأفهام:ابن القیم ط دار الکتب العلمیة بیروت.

[۸] سورة الصافات: الآیة ۱۳۰.

[۹] تفسیر ابن کثیر ۲۰:۴، البغوی فی تفسیره معالم التنزیل ۱۶۴:۷ ط المنار ۱۳۴۷ ه.

[۱۰] سورة النحل: الآیة ۴۳.

[۱۱] سورة الطلاق: الآیة ۱۰ – ۱۱.

[۱۲] سورة الحدید: الآیة ۲۵.

[۱۳] سورة طه: الآیة ۱۳۲.

[۱۴] أخرجه ابن مردویه وابن عساکر وابن النجار عن أبی سعید الخدری.

[۱۵] سورة الأنفال: الآیة ۴۱.

[۱۶] سورة التوبة: الآیة ۶۰.

[۱۷] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی له طریق عن عائشة إسناده حسن (کتاب السنة ۲۴:۱).

[۱۸] رواه الترمذی وقال حدیث غریب. وقال فی تحفة الأحوذی. قول الترمذی صبیح مولی أم سلمة لیس عوف ذکره ابن حبان فی الثقات. ورواه أحمد والطبرانی عن أبی هریرة وفیه تلید بن سلیمان وفیه خلاف (التحفة ۳۷۲:۱۰) (الفتح الربانی ۱۰۶:۲۲) (کنز العمال ۹۶، ۹۷:۱۲)، (مجمع الزوائد ۱۶۹:۹)، ورواه الحاکم وقال هذا حدیث حسن من أحادیث أبی عبد الله أحمد بن حنبل، ورواه الحاکم أیضا عن طریق زید بن أرقم (المستدرک ۱۴۹:۳)، وقال فی کنزل العمال، رواه الترمذی وابن ماجة والحاکم عن زید بن أرقم وأحمد والطبرانی والحاکم عن أبی هریرة (کنز العمال ۹۶:۹۷:۱۲)، ورواه الضیاء بسند صحیح عن زید بن أرقم، ورواه عنه ابن أبی شیبة وابن حبان فی صحیحه (کنز العمال (۶۴۰:۱۳)، وذکره ابن کثیر فی البدایة، وقال رواه أحمد (البدایة ۳۸:۵).

[۱۹] تحفة الأحوذی ۳۷۲:۱۰.

[۲۰] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجاه (المستدرک ۱۵۰:۳).

النور والولایة

بعد تحدید دائرة الطهر. هل کان لهذه الدائرة ذروة بعد الرسول صلی الله علیه وآله سلم؟ بمعنی هل کان فیها الرجل الذی یبلغ عن الرسول من بعده أم أن الدائرة وجدت لیتبارک بها الناس فیحمل أحدهم الحسن ویقبل الآخر الحسین ویبتسم الجمیع فی وجه فاطمة وعلی رضی الله عنهما؟ فإذا کانت الإجابة. أن الدائرة برکة. ولا یوجد ما یسمی بالخلافة. ولم یقوم الرسول بتعیین من یبلغ من بعده. فإن من خالف یقول: فهل من المعقول أن یجعل النبی صلی الله علیه وسلم

أصحابه دون استثناء قدوة للبشر وفى أصحابه دائرة المنافقين وتيار الذين فى قلوبهم مرض؟ كيف وقد أظهرت حركة التاريخ أن الصحابة اختلقوا فى الرواية والقيادة والسيرة والأخلاق، وفى طريق الهداية والإرشاد وفى كل شئ. وسبب هذا الاختلاف أن المحتاج إلى التعليم والإرشاد. أصبح قرينا للقرآن الذى لا يستغنى عن المفسر العالم به. ولو كان القرآن لا يحتاج إلى تأويل لأجمع الناس على مدلوله ولم تفترق الأمة. وإذا كانت الخلافة ليست أصلا إسلاميا. ولم يأمر الرسول بها. فلماذا قامت بعده؟ بمعنى لماذا أوصى الذين جاءوا من بعده وحتى يومنا هذا بمن يخلفهم. هل كان معاوية بن أبى سفيان أحرص على الدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها لابنه من بعده وسار بها بعد ذلك لتستقر فى إناء الكسروية والقيصرية؟ لماذا حرصوا على الخلافة ولم يتركوا الأمر اقتداءا بسنة رسول الله إذا اعتبرنا أنه ترك أمته كهباء ضائع فى خلاء. وحاشاه أن

[صفحه ۱۲۸]

يفعل ذلك فإذا قيل: إن الخلافة مجرد اجتهاد وتطبيق ارتضاه المسلمون الأوائل. وإنها تقوم على الاجماع أو الانتخاب. فإن من خالف يقول: إذا كانت الخلافة بالإجماع فما معنى عقد أبى بكر لعمر رضى الله عنهما. وما معنى وصية عمر وجعلها شورى، وما معنى جعل الخلفاء إياها كسروية. إن كل حلقة تختلف عن الأخرى. وانتهت الحلقات إلى الجبرية حيث الاجماع الذى على رأسه السيف. وكل حلقة لم تحقق الاجماع الكامل ويوم السقيفة شاهد بخروج سعد بن عبادة ومن معه على هذا الاجماع وعلى امتداد التاريخ تشهد الأحداث أن الاجماع لم يتحقق يوما وأن المعارك بين المسلمين وبين أنفسهم كان عمودها الفقرى الخروج على الحكم وطلب الكرسى. فأين الاجماع فى هذه الأحداث؟ وإذا كانت الخلافة بالانتخاب. فمن المعلوم أن الأمة ليست متفقة فى الرأى وأن لكل فرد فيها رأى يخالف الباقين. فأى انتخاب؟ وهل المرشح الذى تخرج دنانيره من بيت المال لتلمع فى عيون الناخبين. هل يكو هذا مرشحا، مهمته السير بالدعوة الحق على الصراط الحق. هل اللائحة التى تحافظ على الأهواء وتزين وتغوى الناخبين بأحقية حزب ما أو قبيلة ما. وما يقابلها من لوائح تزين وتغوى بالأموال والقرب والجاه. هل هذه اللوائح. لوائح حق تسير بالدعوة الحق على الصراط الحق. أن الخليفة بحكم العقل والنقل مطلوب منه المحافظة على كيان الإسلام. وإزاحة الشبهات وقطع دابر الكفار والمنافقين ونشر الأحكام الإلهية. فهل يا ترى يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بهذه الصفات المذكورة وهل فى وسعهم الاتجاه والاتفاق على اختياره. مع الوضع فى الاعتبار أن فى الأمة دوائر عديدة هدفها الصد عن سبيل الله. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن فى أمته أئمة مضلون ومنافق عليم اللسان إلى غير ذلك. فهل يمكن للناس تفادى كل هذا؟ فإن قيل: إن الخلافة فى عصورها المتأخرة تختلف عنها فى عصورها الأولى حيث كان الصحابة يتحرون الدقة. وهم بالإجماع أهل عدل وصلاح. وبموت الرسول صلى الله عليه وسلم. لم يعد هناك منافقون ولم يعد لتيار الذين فى قلوبهم مرض وجود. فإن المخالف يقول: إذا كانوا جميعا عدو. فبمن

[صفحه ۱۲۹]

نقتدى. بأبى بكر رضى الله عنه. أم بالصحابة الذين تخلفوا عنه وعلى رأسهم سعد بن عبادة الذى قال يوم السقيفة ": لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى [" ۱] ، وكان سعد لا يصلى معهم [۲] ألم يكن سعد يعلم أن من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية؟. هل نقتدى بسعد بن عبادة أم بعمر بن الخطاب رضى الله عنهما. وعمر أمر يوم السقيفة بقتل سعد وقال ": اقتلوه اقتلوه. ثم قام على رأسه وقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك [۳] ، وعندما تكاتفوا على سعد. قال قائل فيما روى البخارى ": قتلتم سعد بن عبادة. فقال عمر: قتله الله [۴] ، وبعد ذلك قال سعد لعمر فى خلافته بعد وفاة أبو بكر " والله لقد كرهت جوارك [" ۵] ، وخرج سعد مهاجرا إلى الشام ولم يلبث إلا قليلا. حتى قتل. وقيل: إن الجن هم الذين قتلوه!! [۶] .

وبمن نقتدى بخلافة أبى بكر رضى الله عنه. أم بقول على بن أبى طالب له ": أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقا [" ۷] ، وفى رواية عند البخارى قال ": ولكنك استبدت علينا بالأمر. وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبا [" ۸] ، أم بوصف عمر فيما بعد لخلافة أبى بكر بأنها فلتة ومن عاد إليها فيجب قتله [۹] ، وبمن نقتدى يوم جعلها عمر بعد إصابته شورى بين ستة

روی أنهم من أهل الجنة. فقد قال ": إن خالف اثنان لأربعة فاقتلوا الاثنین. وإن خالف ثلاثة ثلاثة فاقتلوا الثلاثة الذین لیس فیهم [صفحه ۱۳۰]

عبد الرحمن بن عوف [۱۰] بمن نقتدی بمن یأمر بقتل أهل الجنة أم بمن بقی من

أهل الجنة. وما رأی المسلمین لو سمع رسول الله صلی الله علیه وسلم عمر یقول: اقتلوا أهل الشوری الذین روی بأنهم من أهل الجنة. فأی رضا وأی إجماع فی الشوری، وکیف یکون مختارا من تهدد بالقتل؟ وبمن نقتدی بعثمان بن عفان أم بالذین خرجوا علیه وهم صحابة. وفیهم من ألب علیه. وفیهم من قال ": اقتلوا نعثلا فقد کفر "وفیهم من کان یلعنه کما سنبین ذلک فی حینه... بمن نقتدی بأم المؤمنین عائشة رضی الله عنها أم بالناکثین وفیهم صحابة. أم بالقاسطین وفیهم صحابة. أم بالمارقین وفیهم صحابة. أم بعلی بن أبی طالب ومن معه وهم صحابة. بمن نقتدی. بمعاویة ابن أبی سفیان أم بعمرو بن العاص وهما من الصحابة؟ من المسؤول عن الدماء التی أریقت بعد وفاة الرسول صلی الله علیه وسلم بمدة قلیلة. والذین کانوا فی صدر المسؤولیة جمیعا من الصحابة، ویبقی السؤال قائما. هل أوصی الرسول الأکرم لأحد أصحابه بأن یبلغ من بعده. أم ترک الأمة کهباء ضائع فی خلاء بعد جهاد طویل فی عالم الحرب والسیاسة والنفس. هل ترکها لتستقر بعد ذلک عند أقدام یزید بن معاویة ومن علی شاکلته. حیث تقطع رؤوس الذین آمنوا وتجلد ظهورهم بکل قسوة وبلا أدنی رحمة. وینتهی الأمر بأن تدخل الأمة فی دوائر الذین سبقوها وتتبع سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع؟ إن الذی یقول بذلک. یکون قد تساهل تساهلا کبیرا فی حق الله وحق کتابه وحق رسوله. نحن لا نقلل من شأن الصحابة رضی الله عنهم. ولکن هناک حقیقة لا یجب أن نتعامی عنها: هی إن النبی صلی الله علیه وسلم أوجب محبة أصحابه لطاعتهم لله. فإذا عصوا الله وترکوا ما أوجب محبتهم. فإن النبی لا یجامل أحدا. لقد قیل. أنه صلی الله علیه وسلم أشاد بالصحابة وأنهم کالنجوم وعلی الهدی. ولیس معنی ذلک أن أهل الشام علی هدی. وإنهم بهداهم حاربوا علی بن أبی طالب وأن قاتل عمار بن یاسر علی هدی، والصحیح

[صفحه ۱۳۱]

فی عمار أن الفئة الباغیة تقتله. وقال القرآن: (فقاتلوا التی تبغی حتی تفئ إلی أمر الله [۱۱] ، وهذا یدل علی أنها ما دامت موصوفة بالمقام علی البغی. فهی مفارقة لأمر الله. ومن فارق أمر الله لا یکون مهتدیا. فکیف یکون کل واحد من الصحابة علی هدی ولا یخطئون والله تعالی یقول لرسوله: (قل إنی أخاف إن عصیت ربی عذاب یوم عظیم) [۱۲] ، وقال: (ولقد أوحی إلیک وإلی الذین من قبلک لئن أشرکت لیحبطن عملک ولتکونن من الخاسرین) [۱۳] ، فکیف یقول الرسول هذا ونحن نقول الصحابة لا یخطؤن؟! إن خیر القرون التی جاء ذکرها فی الحدیث. تصدرها القرن الذی دارت أحداثه بعد وفاة الرسول صلی الله علیه وسلم. وهذه الأحداث هی شر الأحداث. ففی هذا القرن قتل الحسین. واجتاحت خیول یزید المدینة. وحوصرت مکة. وشرب الخلفاء الخمور وارتکبوا الفجور وأریقت الدماء. وقتل المسلمون وسبی الحریم. واستبعد أبناء المهاجرین والأنصار. وما کان هذا إلا بسیاسة من بعض الصحابة وما جری إلا تحت أعینهم. ولکی لا تختلط الأمور فنحن نعرف هنا ما هی الصحبة.

[۱] الطبری ۳:۲۱۰.

[۲] الطبری ۳:۲۱۰.

[۳] الطبری ۳:۲۱۰.

[۴] البخاری (الصحیح ۲:۲۹۱) لبدء الخلق.

[۵] ابن سعد فی الطبقات (کنز العمال ۵:۶۲۸).

[۶] راجع ابن کثیر وابن الأثیر فی أحداث السقیفة.

[۷] مروج الذهب:المسعودی (۱:۴۱۴).

[۸] البخاری (الصحیح ۳:۵۶) ک المغازی.

[۹] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانى ۵۹:۲۳) وابن أبى شيبة (كنز العمال ۶۴۹:۵)، الطبرى (۲۰۰:۳).

[۱۰] قصة الشورى الطبرى (۳۳:۵).

[۱۱] سورة الحجرات: من الآية ۵۱.

[۱۲] سورة الزمر: الآية ۱۳.

[۱۳] سورة الزمر: الآية ۶۵.

تعريف من هو الصحابى

الصحبة لغة. هى المعاشرة، وتطلق على المعاشرة فى الزمن القليل

والكثير. ولذلك يقال صحبت فلانا حولا وشهرا ويوما وساعة. وتقع الصحبة بين المؤمن والكافر. كما تقع بين المؤمن والمؤمن. قال تعالى فى محاورة بين مؤمن وكافر: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت الذى خلقك) [۱] ، وقال تعالى لكفار المشركين (ما ضل صاحبكم وما غوى - وما ينطق عن الهوى) [۲] ، وقال سبحانه لهم: (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير

[صفحه ۱۳۲]

لكم) [۳] ، واسم الصحبة يطلب أيضا بين العاقل وبين البهيمة. فالعرب سموا الحمار صاحبا فقالوا:

إن الحمار مع الحمار مطية++

فإذا خلوت به فبئس الصاحب

وسموا الجماد مع الحى صاحبا فقالوا فى السيف:

زرت هندا وذاك غير اختيان++

ومعى صاحب كتوم اللسان

وأطلقت كلمة الصحابى على كل من أسلم فى حياة النبى ولقيه مسلما. ومن هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون الذين كانوا يعملون على إحداث الاضطراب فى المدينة. ومنهم الذين قال فيهم تعالى: (ومنهم الذين يؤذون النبى) [۴] ، وقوله: (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) [۵] ، وقوله: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) [۶] فإذا كان فى الصحابة من يبطن

الكفر ويظهر الإيمان بنص الكتاب. فكيف يجوز الاقتداء بكل فرد منهم دون أن يوثق بإيمانه ويعرف صحة إسلامه ورسوخ عقيدته. لقد قال تعالى فى صحابة النبى صلى الله عليه وسلم: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) إلى قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيما) [۷] ، فقوله تعالى ": منهم " أى لو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين والذين فى قلوبهم مرض. أو منهم الذى آمن أولا ثم أشرك وكفر كما فى قوله تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى) إلى قوله تعالى: (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم

[صفحه ۱۳۳]

بسيماهم) [۸] ، أو منهم الذى آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك. ومن أهل الإفك من هو صحابى بدرى. وقد قال تعالى: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) [۹] ، فأمثال هؤلاء لا يشملهم وعد المغفرة والأجر العظيم الذى وعد الله به فى صدر الآية. وقال تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) [۱۰] ، فمن ينكث لا- معنى للقول بأن له عند الله أجرا عظيما. ولقد دلت الحوادث أن هناك من نكث بيعته. وبالجملة الصحابة ناس كغيرهم - مع فضل الصحبة - فيهم العدول الثقاة والقادة الهداة. وشهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم

كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام مالك. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشهداء أحد ": هؤلاء أشهد عليهم " فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: ألسنا يا رسول الله إخوانهم. أسلمنا كما أسلموا. وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بلى ولكن لا أدرى ما تحدثون بعدى " فبكى أبو بكر ثم بكى ثم قال: ائنا لكائنون بعدك! [۱۱] .

لقد كان فى الصحابة أعظم الرجال فى تاريخ البعثة إذ لم يكن فى تاريخ الإنسانية منهم عبيدة بن الحارث. وعمير بن أبى وقاص. وعاقل بن أبى البكير. ومهجع مولى عمر بن الخطاب. وصفوان بن بيضاء. ومبشر بن عبد المنذر. وسعد بن خيثمة. وحارثة بن سراقة. وعمير بن الحمام بن الجموع. ورافع بن المعلى. ويزيد بن الحارث. وغير هؤلاء من أبطال بدر. وحمزة بن عبد المطلب. وعبد الله بن جحش. ومصعب بن عمير. وشماس بن عمر. والحارث بن أنس وعمر بن معاذ. وعمارة بن زياد بن السكين، وعمرو بن

[صفحه ۱۳۴]

الجموح، وخلاد بن عمر بن الجموح، وعتبة بن الربيع، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى. وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر. وأويس بن ثابت، وغير هؤلاء من شهداء أحد. وأبو ذر الغفارى. وعمار بن ياسر. وأبو أيوب الأنصارى. وخزيمة بن ثابت. وسلمان الفارسى. وأبو سعيد الخدرى. وزيد بن أرقم، وبريدة الأسلمى، وأبى بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، والمقداد وأبو الهيثم التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، والبراء بن عازب. وزيد بن صوحان، وحذيفة بن اليمان، وعمران بن حصين، وأبو رافع مولى رسول الله. وغير هؤلاء من الصحابة العظام، وفى الصحابة من نكث ومن مرق ومن بغى. وفيهم من لعبت به الأهواء، وفيهم من خرج عن الحق، وفيهم من رجع إليه. والنفاق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. لم ينتهى بموته. ولم ينقطع بمجرد انقطاع الوحى. ومن قال بأن النفاق قد انتهى بعد موت الرسول. فعليه أن يقول لنا. هل كانت حياة الرسول سببا فى نفاق المنافقين. وموته سببا فى إيمانهم وعدالتهم، وحتى صاروا أفضل الخلائق بعد الأنبياء. كيف انقلبت دوائرهم وحقائقهم بعد وفاته. وأصبحوا ثقلا مع القرآن كما قال البعض. إن فى الكتاب العزيز وسنة النبى المطهرة ما يثبت بقاء المنافقين على نفاقهم بشهادة حذيفة رضى الله عنه وسنبين ذلك فى موضعه. لقد كان النبى وهو بين أصحابه يود أن يلقى إخوانه كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": وددت أنى رأيت إخوانى - قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابى وإخوانى الذين لم يأتوا بعد [" ۱۲] ، وفى رواية ": وإخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى أنا إليهم بالأشواق [" ۱۳] ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول ": مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم

[صفحه ۱۳۵]

آخره [" ۱۴] ، إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحصر الخبر فى جهة. لقد أقام الحجة وبلغ عن ربه وهو فى شوق إلى إخوانه وربما يكون عندهم الخير كما كان فى عهده صلى الله عليه وسلم. فالمقياس الحقيقى لا يكون أبدا بالمتاجرة بالشعارات. وإنما باقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم. فهنا وهنا فقط يكون الخير. ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة. قال: قيل للنبى صلى الله عليه وسلم: أى الناس خير؟ قال: أنا ومن معى. فقيل له: ثم من؟ قال: الذى على الأثر. قيل له: ثم من يا رسول الله؟ قال أبو هريرة: فرفضهم رسول الله [۱۵] .

إن الذين مع النبى هم الذين لن يقال لهم عند الحوض سحقا سحقا. لأنهم بدلوا وغيروا وارتدوا بعده كما فى الأحاديث الصحيحة. روى البخارى ومسلم ": أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى. ثم يحال بينى وبينهم [" ۱۶] ، وفى رواية " ليردن على الحوض رجال ممن صحبنى ورآنى فأقول أى رب أصحابى أصحابى. فليقالن إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك [" ۱۷] ، وفى رواية ": فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا [" ۱۸] .

وقوله صلى الله عليه وسلم ": سحقا " أى بعد بعدا ومكان سحيق

[صفحه ۱۳۶]

بعيد. فيه دليل على أنهم ليسوا عصاة. لأن العصاة يشفع لهم. وفى هؤلاء وغيرهم قال النبى صلى الله عليه وسلم ": مثلى كمثل رجل استوقد نارا. فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى يقمن فى النار يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها. فذلك مثلى ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار. هلم عن النار! هلم عن النار! فتغلبونى فتقتحمون فيها [۱۹] .

إن الدعوة الخاتمة جاءت لتقيم حجتها وتذكر الناس بمخزون الفطرة وتدعوهم للتفكر فى الآيات من حولهم وتسوقهم إلى الصراط المستقيم كى يتفادوا العقبات التى وضعها الشيطان ومؤسساته على الأرض وفى الأهواء. إن الشيطان دق أوتاد خيمة مهمتها عبادة السلف الصالح. ولقد سقط العديد داخل هذه الخيمة منذ فجر التاريخ وعلى هذه العبادة نشأت عبادة الأوثان. وعبادة السلف كانت سببا أساسيا فى منع الباحثين والدارسين عن سلوك طريق العلم. لقد وجد الباحثون أن السلف كان ينتقد بعضه بعضا. بل يقتل من خالفه فى الرأى من معاصريه. فلما جاء الخلف رفع راية تحرم النقد ولو كان للنقد جذور فى كتاب الله. وعندئذ أغلق الباحثون والدارسون على أنفسهم الأبواب. وطويت صفحات العلم والمعرفة. وجرت الفتنة فلم تصب الذين ظلموا خاصة. بل تعدتهم إلى الحاضر والمستقبل. تلقى بالتعصب الذميم وتهلك ضحاياها فى كل عصر. وتشد فى كل وادى آلهة جدد. وما زال السؤال يجرى: هل أوصى النبى صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه بأن يبلغ من بعده ويسوق الناس إلى صراط الله المستقيم. هل صرح الرسول باسم الخليفة من بعده؟ أم كانت هناك رموز وإيماء وكناية وتعريض. وكان للرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك عذر لا نعلمه نحن. خشية من فساد الأمر أو إرجاف المنافقين. أم أن الرسول لم يوص ولم يصرح ولم تكن هناك رموز وإيماء. وترك أمته كى يسوقها معاوية وعمر بن العاص وبسر بن

[صفحه ۱۳۷]

أرطأة وأبو الأعور السلمى ومروان بن الحكم والجماح بن يوسف؟ وإذا كانت الإجابة: نعم تركها لهؤلاء الصحابة العدول الذين إذا أصابوا لهم أجران وإذا أخطأوا فلهم أجرا واحد. فنقول: وهل تستقيم مقدمات بدر وأحد مع هذه النتيجة؟ أى تفسير هذا الذى سيقدمه ابن أبى سفيان وهو يتحدث عن آيات القتال فى بدر وفى أحد؟ وأى تفسير سيقدمه للمسجد الضرار ومحاولة اغتيال الرسول. إن الحقيقة مرة. والمقدمات لا- تستقيم مع النتائج. ويبدو أمام الباحث أن أمورا قد جرت. وللحقيقة نقول: إن الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها وأسبابها ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولابسها. وللحقيقة أيضا نقول إن الأمور إذا اشتبهت. اعتبر آخرها أولها. أى يقاس آخرها على أولها. فحسب البدايات تكون النهايات. والقرآن الكريم يهدى العقول إلى استعمال ما فطرت على استعماله. وسلوك ما تألفه وتعرفه بحسب طبعها. وهو ترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات. والذى فطرت العقول عليه هو. أن تستعمل مقدمات حقيقية يقينية لاستنتاج المعلومات التصديقية الواقعية. وهو البرهان. إننا إذا وضعنا أيدينا على الحقيقة الأولى عند المقدمة. ظهر لنا سلوك الحقيقة عند الخاتمة. وعلى السلوك نعرف الزائف والمزخرف الذى تاجر بالحقيقة ولم يسلك سلوكها. ويتم استبعاده. وإذا كان قد قيل: بأن العاقل هو الذى يضع الشئ فى موضعه. فإن القرآن الكريم اشترط التقوى فى التفكر والتذكر والتعقل. وقارن العلم العمل للحصول على استقامة الفكر وإصابة العلم وخلوصه من شوائب الأوهام الحيوانية والإلقاءات الشيطانية، ونحن فى بحثنا هذا لا ندعى كمال البحث ولا ندعى أننا حسمنا موقفا. إن الذى أقدمنا عليه هنا. يخضع فى المقام الأول. للبحث العلمى المجرد الذى يتناول الأفكار والمبادئ. ولا شأن له بالمناسبات التى صدر فيها هذا الحكم أو ذاك، نحن هنا نقوم بالقراءة المنصتة للمصادر. قراءة نقدية متفحصة تقييمية تعتمد على الطريقة السردية التى تقوم على القرآن والحديث والرواية التاريخية. وتمنح القراء خيطا يقودهم إلى البحث عن الحقيقة. ونحن وراء قراءتنا هذه مصممون على تقديم تاريخ يجتمع فيه جميع الخيوط سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية. وبناءا على

[صفحه ۱۳۸]

هذا فإن البحث عن الرجل الذى قدر له أن يقود الأمة بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم. يجعلنا فى البداية أن نجمع مواد البناء

أولاـ على أن تكون مواد البنـاء لا خلاف على صـحتها عنـد أهل القبلـة. والتقاط مواد البناء هـذه من وسط ركام طويل عريض مارس أصـحابه سـياسات التعتيم والتشـهير والقتل. ليس بالأمر السـهل. ورغم صعوبته إلا أن اليسر فى خاتمته. وذلك أن مواد البناء لن تكون فى حاجة إلى الخطوة التالية التى هى عملية البناء. لأن المواد فى حد ذاتها بناء. ولتكن البداية من عند ولاية الله.

[۱] سورة الكهف: الآية ۳۷.

[۲] سورة النجم: الآية ۲ – ۳.

[۳] سورة سبأ: الآية ۴۶.

[۴] سورة التوبة: الآية ۶۱.

[۵] سورة التوبة: الآية ۵۸.

[۶] سورة التوبة: الآية ۶۴.

[۷] سورة الفتح: الآية ۲۹.

[۸] سورة محمد: الآية ۳۰.

[۹] سورة النور: الآية ۲۳.

[۱۰] سورة الفتح: الآية ۱۰.

[۱۱] موطأ مالك كتاب الجهاد ص ۳۷۱.

[۱۲] رواه مسلم (الخصائص الكبرى للسيوطى ۲:۲۶۰).

[۱۳] رواه أبو يعلى وأبو الشيخ عن أنس. وابن عساكر عن البراء (كنز العمال ۱۲:۱۸۴) رواه أحمد بلفظ " وددت أنى لقيت إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى (كنز العمال (۱۲:۱۶۴).

[۱۴] رواه الإمام أحمد عن أنس ورواه الترمذى وقال: حسن غرير. وقال فى كشف الخفاء: رواه الترمذى وأبو يعلى والدارقطنى والخطيب وابن حبان فى صحيحه وقال ابن حجر: حديث حسن له طرق (الفتح الربانى ۲۳:۲۰۳، كشف الخفاء ۲:۲۵۸).

[۱۵] رواه أحمد وقال فى الفتح الربانى الحديث صحيح الإسناد (الفتح ۲۳:۲۱۹) وقال فى الفتح رواه مسلم بإسنادين.

[۱۶] البخارى (الصحيح ك. الدعوات باب الصراط ۴:۱۴۱) مسلم (الصحيح ۱۵:۵۳) له الفضائل ب حوض نبينا صلى الله عليه وآله.

[۱۷] رواه أحمد (۱:۱۹۵ الفتح الربانى) ومسلم (الصحيح ۱۵:۶۵) ك الفضائل ب حوض نبينا صلى الله عليه وآله.

[۱۸] رواه مسلم (الصحيح ۱۵:۵۶ ك الفضائل ب حوض نبينا صلى الله عليه وآله).

[۱۹] رواه البخارى كتاب الدعوات (الصحيح ۴:۱۲۷) وأحمد والبيهقى والترمذى عن أبى هريرة. واللفظ لأحمد (الفتح الربانى ۲۱:۲۸۴، وكنز العمال ۱:۱۷۷).

ولاية الله عزوجل

لقد أقام الله تعالى حجته على الخلق فى عالم الغيب بميثاق الفطرة

المغروس فى داخل الكيان الإنسانى بأنه تعالى رب كل شئ. وأقام حجته فى عالم الاحساس الإنسانى بأن زود الإنسان بما يهديه إلى طريق التقوى ويبتعد به عن طريق الفجور. وزوده فى عالم المشاهدة المنظور بما يقربه إليه حيث الوجود كله من حوله يهتف بأنه لا إله إلا الله. وفى النهاية جعله مختارا. له أن يختار أى طريق يسلك. وعلى سلوكه سيترتب الثواب والعقاب يوم القيامة. فالفائز هو فقط من احترم المخزون الفطرى وما زوده الله به واتبع الهدى الذى جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام، فهذا الهدى الذى جاء به الأنبياء يرشده ويسوقه إلى الصراط المستقيم الذى يتفنن الشيطان فى كل عصر ومكان فى وضع العراقيل عليه. فالهدى يتعامل مع كل حالة

وفقا للزمان والمكان. ولهذا تتابع الرسل عليهم السلام فی كل زمان ومكان من أجل أن يسدوا منافذ الشيطان الذی أمهله الله حتی يوم الوقت المعلوم. ومن أجل هذا تحتم علی من أراد الفوز بالنجاة والثواب أن يقف تحت ولاية الله ورسوله. لأنها الولاية الوحيدة التی فی ظاهرها وباطنها الرحمة وتقود من استظل بها إلی ساحة القرب يوم القيامة، ومن فضله سبحانه علی خلقه أنه حذر من اتخاذ الشيطان وليا. ونهی عن مودة اليهود والنصاری - يعنی نهی المحبة والاتحاد معهم - لأن هذا الطريق بكل ما عليه من رموز يصب فی النهاية فی ساحة الخاسرين.

[صفحه ۱۳۹]

والقرآن الكريم أخبر بولاية الله وأن الأمر كله إليه سبحانه فی أكثر من موضع منه قوله تعالی: (أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولی وهو يحيی الموتی وهو علی كل شئ قدير - وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلی الله ذلكم الله ربی عليه توكلت وإليه أنيب - فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزوجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) [۱] ، قال المفسرون: إنه تعالی ولی تنحصر فيه الولاية. فمن الواجب علی من يتخذه وليا. أن لا يتعداه إلی غيره. إذ لا ولی غيره. وقوله: (وهو يحيی ويميت) حجة علی وجوب اتخاذه تعالی وحده وليا. لأن الغرض من اتخاذ الولی والتدين له. هو التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة. ولما كان ذلك كذلك فإن المثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله. فهو وحده الذی يحيی الموتی فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم. وعلی هذا فهو الذی يجب أن يتخذ وليا. وأن لا يلتفت الناس إلی أولياء من دونه لأنهم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون. وقوله تعالی: (وهو علی كل شئ قدير) حجة أخری، علی وجوب اتخاذه تعالی وليا دون غيره، لأنه من الواجب فی باب الولاية. أن يكون للولی قدرة علی ما يتولاه من شؤون من يتولاه وأموره. والله تعالی علی كل شئ قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه. فهو المالك والقادر علی ما ملكه وأقدره عليه. فهو سبحانه الولی لا ولی غيره تعالی، وقوله سبحانه: (وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلی الله)، حجة أخری علی كونه تعالی وليا لا ولی غيره، فالاختلاف ربما كان فی عقيدة فی أن الإله واحد أو كثير، أو كان فی نبوة أو إمامة. وربما كان فی عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف فی أمور المعيشة. أمور المعيشة. فاختلافات الناس فی عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعی لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون.

[صفحه ۱۴۰]

والله تعالی هو المالك لكل شئ. لا مالك سواه. فكل شئ بوجوده وآثار وجوده قائما به تعال. فله سبحانه الحكم والقضاء بالحق قال تعالی: (كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) [۲] ، وقال (والله يحكم ما يريد) [۳] ، فالولی الذی يعبد يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه، مصلحا لما فسد من شؤون مجتمعهم، سائقا لهم إلی سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين. والحكم فی ذلك كله إلی الله عز وجل. فهو الولی الذی يجب أن يتخذ وليا لا غير. وبعد أن أقام الله الحجج فی الآية أمر النبی أن يقول لهم: (ذلكم الله ربی عليه توكلت وإليه أنيب) إعلاما لهم بأنه تعالی هو الولی معترفا له بالربوبية التی هی ملك التدبير راجع إلی حكمه فی كل واقعة تستقبل الإنسان فی مسير حياته ففی هذا كله تكمن الإنابة وتظهر (عليه توكلت وإليه أنيب أنيب) أی أرجع فی جميع أموری إليه. تكوينا وتشريعا. (فاطر السماوات والأرض. جعل لكم من أنفسكم أزواجا...)، أی أنه تعالی موجب الأشياء وفاطرها من كتم العدم إلی الوجود. وقد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها. وهذا خلق وتدبير. وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج، وبصير لما يعمله خلقه من الأعمال. وهو الذی يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض! وهو الذی يرزق المرزوقين فيوسع فی رزقهم ويضيق ممن علم منه بذلك. وهذا كله من التدبير. فهو الرب المدبر للأمور ليس مثله شئ. إن الله هو الولی. (ما لكم من دونه من ولی ولا شفيع أفلا تتذكرون) [۴] ، إن الله هو الولی: (الله ولی الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلی النور) [۵] ، إن الله هو الولی: (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولی

[صفحه ۱۴۱]

المتقین) [۶] ، (ومن یضلل فلن تجد له ولیا مرشدا) [۷] ، إنه سبحانه مصدر جمیع السلطات وإلیه تنتهی جمیع القرارات. وهو مصدر الخلق والتکوین وواهب الحیاة ومقوماتها فکما أن له سبحانه الخلق والإبداع، کذلک له الأمر والنهی.

[۱] سورة الشوری: الآیة ۹ - ۱۱.

[۲] سورة القصص: الآیة ۸۸.

[۳] سورة المائدة: الآیة ۱.

[۴] سورة السجدة: الآیة ۴.

[۵] سورة البقرة: الآیة ۲۵۷.

[۶] سورة الجاثیة: الآیة ۱۹.

[۷] سورة الکهف: الآیة ۱۷.

ولایة رسول الله

لقد شرع الله ولایة رسول الله صلی الله علیه وسلم وجعل ولایة الرسول

علی المؤمنین شرط فی الإیمان بالله. قال تعالی: (قل إن کنتم تحبون الله فاتبعونی یحببکم الله) [۱] ، فالإخلاص لله فی دینه خطوته الأولی لا تکون إلا بحبه تعالی. ومن أراد أن یخلص فی عبودیته علی الحب فعلیه أن یتبع هذه الشریعة التی هی مبنیة علی الحب، ولا حب حقیقی إلا فی اتباع سبیل رسول الله صلی الله علیه وسلم وبالأخذ عنه والتأسی به. فمقدمة ولایة الرسول هی الحب الذی هو فی الحقیقة الوسیلة الوحیدة لارتباط کل طالب بمطلوبه وکل مرید بمراده. فالواجب علی من یدعی ولایة الله بحبه. أن یتبع الرسول حتی ینتهی ذلک إلی ولایة الله له بحبه. والآیة ذکرت حب الله دون ولایته. لأنه الأساس الذی تبنی علیه الولایة. وإنما ذکر حب الله تعالی فحسب لأن ولایة النبی والمؤمنین تؤول بالحقیقة إلی ولایة الله. وباب الحب هنا إعجاز بغلق الباب أمام المتاجرین فی دوائر الرجس والبخس ویبشرهم بالعذاب الألیم إذ لم تخضع قلوبهم وتخشع وولایة الرسول صلی الله علیه وسلم إذا کان خیطها الأول یبدأ من القلوب. فإن هذا الخیط یمر فی عالم المشاهدة حیث العلم وبیان المعارف الإلهیة التی أنزلها الله للناس. لتدخل الولایة من باب الحجة. قال تعالی: (وأنزلنا إلیک الذکر لتبین للناس ما

[صفحه ۱۴۲]

نزل إلیهم ولعلهم یتفکرون) [۲] ، قال المفسرون: إن القصد بنزول هذا الذکر إلی عامة البشر. وإنک والناس فی سواء. ولقد اخترناک من بین الناس لتوجیه الخطاب وإلقاء القول. ولا نحملک بهذا قدرة غیبیة أو إرادة تکوینیة إلهیة. بل لأمرین: أحدهما: أن تبین للناس ما نزل تدریجیا إلیهم. لأن المعارف الإلهیة لا ینالها الناس بلا واسطة فلا بد من بعث واحد منهم للتبیین والتعلیم. وهذا هو غرض الرسالة. ینزل الوحی فیحمله الرسول. ثم یؤمر بتبلیغه وتعلیمه وتبیینه. والثانی: رجاء أن یتفکروا فیک فیتبصروا إن ما جئت به حق من عند الله. فالأوضاع المحیطة بک والحوادث والأحوال الواردة علیک علی مدی حیاتک من الیتم وخمود الذکر والحرمان من التعلم والکتابة، وغیر ذلک کانت جمیعا أسباب قاطعة أن لا تذوق من عین الکمال قطرة. لکن الله أنزل إلیک ذکرا تتحدی به علی الجن والإنس. مهیمنا علی سائر الکتب السماویة. والتفکر فیک نعم الدلیل الهادی. علی أنه لیس لک فیما جئت به صنع، ولا لک من الأمر شئ. وإن الله أنزله بعلمه وأیدک لذلک بقدرته. فالرسول الله صلی الله علیه وسلم له الولایة فی أن یبین للناس ویربی الأمة ویحکم فیهم ویقضی فی أمرهم. لأن الله الذی أنزل الکتاب. علمه أحکامه وشرائعه. والرسول بهذه الولایة یبث الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة لتکتمل البشریة ویستقیم حالهم فی دنیاهم وأخراهم. فیعیشون سعداء ویموتون سعداء. ولأنه صلی الله علیه وسلم کذلک أوجب الله الأخذ عنه والتأسی به وفرض طاعته طاعة مطلقة. لأن طاعته طاعة لله. قال تعالی: (أطیعوا الله وأطیعوا الرسول) [۳] ، ومن

اتخذ الرسول مولى له. له يصل إلى الكمال فى الحب والطاعة إلا إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه قال تعالى: (النبى أولى بالمؤمنين من

[صفحه ۱۴۳]

أنفسهم) [۴] ، روى البخارى عن أبى هريرة. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم " النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم [" ۵] ، وقال المفسرون: إنه أولى بهم منهم. ومعنى الأولوية. هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أدنى منه. فالمحصل: إن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة. فالنبى أولى بذلك من نفسه. ولو دار الأمر بين النبى وبين نفسه فى شئ من ذلك. كان جانب النبى أرجح من جانب نفسه. وعلى هذا فإذا توجه شئ من المخاطر إلى نفس النبى. فليلقه المؤمن بنفسه ويفده نفسه. وليكن النبى أحب إليه من نفسه. وأكرم عنده من نفسه. ولو دعته نفسه إلى شئ والنبى إلى خلافه. أو أرادت نفسه منه شيئا وأراد النبى خلافه. كان المتعين استجابة النبى صلى الله عليه وسلم وطاعته وتقديمه على نفسه. فمن قدم نفسه على النبى فهو فى الحقيقة غير مؤمن حتى يقدم النبى على نفسه ويحسب إيمانه فقط من وقت تأخره وتقدم النبى. وعمر بن الخطاب رضى الله عنه خاض هذه التجربة. فيما رواه البخارى عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر. فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسى. فقال النبى: لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إلى من نفسى، فقال النبى ": الآن يا عمر [" ۶] ، فتقديم النبى على النفس والولد والوالد والقبيلة والحزب وأى مصلحة هو مفتاح الإيمان الحقيقى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين [" ۷] ، ولأن النبى جعل نفسه هى نفس على ابن أبى طالب رضى عنه فى قوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا

[صفحه ۱۴۴]

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) [۸] ، روى عن جابر قال ": أنفسنا وأنفسكم " رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب [۹] تقديم خط دائرة الطهر أى أصحاب الكساء والمباهلة الذين فرض الله مودتهم والصلاة عليهم وجعل لهم سهما مع سهمه وسهم رسوله فى مال الله، فتقديم هؤلاء، هو فى حقيقة الأمر تقديم للرسول. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهلى أحب إليه من أهله. وعترتى أحب إليه من عترته وذريتى أحب إليه من ذريته [" ۱۰] .

وولاية الله ورسوله. إذا كانت فى أعمال المؤمنين. لا يحق للمؤمنين أن يعتبروا أنفسهم أصحاب الاختيار. وكيف يكون المؤمن صاحب اختيار فى دائرة وليها الله ورسوله. إن الله ولى عبده المؤمن. لأنه يلى أمره ويدبر شأنه. فيهديه إلى صراطه المستقيم. ويأمره وينهاه فيما ينبغى له أو لا ينبغى. وينصره فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. المؤمن فى دائرة ولاية الله ورسوله. لا يرى لغير الله استقلالا فى التأثير. ويقصر الملك والحكم فيه تعالى. فلا يخاف إلا إياه أو ما يحب الله ويريد أن يحذر منه أو يحزن عليه... قال تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) [۱۱] .

والخلاصة: ذكر سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم من الولاية التى تخصه الولاية التشريعية. وهى القيام بالتشريع والدعوة وتربية الأمة والحكم فيهم والقضاء فى أمرهم، قال تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) [۱۲] ، وقال تعالى: (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) [۱۳] .

[صفحه ۱۴۵]

وللنبى صلى الله عليه وسلم الولاية على الأمة فى سوقهم إلى الله والحكم فيهم والقضاء عليهم فى جميع شؤونهم وله عليهم الإطاعة المطلقة. فترجع ولايته إلى ولاية الله سبحانه بالولاية التشريعية. ونعنى بذلك أن له صلى الله عليه وسلم التقدم عليهم. بافتراض الطاعة. لأن طاعته طاعة لله. فولايته ولاية لله كما يدل عليه بعض الآيات السابقة كقوله... (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)، الآية. وقوله: (وما كان

لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) الآية. وهذا المعنى من الولاية لله ورسوله هو الذى تذكره الآية للذين آمنوا بعطفه على الله ورسوله فى قوله تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) [۱۴] ، فالولاية فى هذه الآية واحدة. هى لله سبحانه بالأصالة. ولرسوله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا بالتبع وبإذن منه تعالى. ولما كان الذين آمنوا لهم الولاية بالتبع لرسول الله وبإذن من الله. فإن للذين آمنوا الذين يحملون الولاية شروط أهمها أن يكون فيه نص إن الرجس لا يعرف له طريقا وإن الطهارة له رداء إلا أنه سيتعامل مع كتاب الله الذى لا يمسه إلا المطهرون والذى يكون فيه نصوص بأنه على علم بأحكام القرآن وشرائعه. ولأنه بعلمه سيرفع الاختلاف بين الناس. وأن يكون هذا العلم قد أخذ من رسول الله، فعن على بن أبى طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به. ثم تلى قوله تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى) [۱۵] ، وقال صلى الله عليه وسلم ": إن للقرآن منارا كمنار الطريق فما عرفتم فخذوه وما أنكرتم فردوه إلى عالمه" [۱۶] ، وأن تكون فيه نصوص تثبت بأن يتمتع بقوة العفة والشجاعة والحكمة. لأن من يمتلك هذا تكون لديه ملكة العدالة.

[صفحه ۱۴۶]

ومن أهم الشروط أيضا أن تكون حرمته جزءا لا يتجزء من الدعوة. بمعنى أن أخطر أعداء الدعوة هم المنافقون. فيجب أن يكون على علم بحركتهم. ولا يتحقق هذا العلم إلا بنص قاطع بأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. فالإخبار بأن المنافق يبغضه فيه أن النص من عند الله العليم بذات الصدور. وفيه أن سياسته تحت ضوئها ستظهر جحافل النفاق. فإذا قطع الطريق على سياسته فحدث ولا حرج. لأن النفاق عاجلا أو آجلا سيشق طريقه إلى سنن الأولين. فيأخذ بذيلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع. فالإخبار بأن حبه رداء على المؤمن حجة على المنافق فى نهاية الطريق. وإن عذاب الله أليم شديد. باختصار يجب أن تكون فيه نصوص صريحة صحيحة متفق عليها عند أهل القبلة. تبين أن الله اختاره فى مواطن وأن الرسول أعطاه الولاية. وأن تكون حركته تسير مع أخبار الرسول بالغيب عن ربه سيرا واحدا. بمعنى أن الرسول قد أخبر بأن أمته ستفترق وأنها ستتبع سنن اليهود والنصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع. وأمة اليهود وضعت أول بذور الافتراق يوم اتخذوا العجل وكادوا أن يقتلوا نبى الله هارون. وظل خط العجل يعمل من بعد موسى وهارون عليهما السلام. فإذا كان هذا الشذوذ سينتقل إلى الأمة بصورة أو بأخرى. فلا بد أن تكون هناك نصوص قاطعة. بأن حركة ولى رسول الله فى أول الطريق هى نفسها حركة هارون فى أول الطريق. وعلى هذا يتم التطابق بين أمم استخلفها الله لينظر كيف يعملون. يتم التطابق بين فعل ولى الله وهارون وبين حركة أمة فتية أخبر رسولها بالغيب عن ربه أنها على أثر الماضين سائرة إلا من رحم الله. وعلى هذا النص إذا وقفنا فى آخر الطريق. ونظرنا إلى أول الطريق. سنعلم أن النص حق وسنرى شعاع النور رغم السحب الداكنة.

[۱] سورة آل عمران: الآية ۳۱.

[۲] سورة النحل: الآية ۴۴.

[۳] سورة النساء: الآية ۵۹.

[۴] سورة الأحزاب: الآية ۶.

[۵] تفسير ابن كثير ۴۶۸:۴.

[۶] البخارى ك الإيمان والنذور (الصحيح ۱۴۹:۴) وتفسير ابن كثير ۴۶۷:۴.

[۷] رواه أحمد والنسائى وابن ماجة عن أنس (كنز العمال ۳۷:۱).

[۸] سورة آل عمران: الآية ۶۱.

[۹] تفسير ابن كثير ۳۷۱:۱.

[۱۰] رواه الطبرانى والبيهقى عن عبد الرحمن بن أبى يعلى عن أبيه (كنز ۴۱:۱).

[۱۱] سورة الأحزاب: الآية ۳۶.

[۱۲] سورة النساء: الآیة ۱۰۵.

[۱۳] سورة الشوری: الآیة ۵۲.

[۱۴] سورة المائدة: الآیة ۵۵.

[۱۵] اللالکائی (کنز العمال ۱:۳۷۹).

[۱۶] رواه الطبرانی (مجمع الزوائد ۱:۱۸۷).

ولایة علی بن أبی طالب

هذا العنوان وضعته عندما لم أجد أحدا غیر علی بن أبی طالب ینطبق علیه
ما ذکرت سابقا. فعلی رضی الله عنه فیه نصوص قاطعة. قرآن یفسره حدیث. وحدیث یشهد للحدیث الذی فسر القرآن. وحرکة تاریخ تشهد للحدیث وللنص
[صفحه ۱۴۷]
القرآنی. وأمام القرآن والحدیث والتاریخ والواقع لم یجد الباحث إلا أن یکتب هذه الحقیقة. وما وجدناه من نصوص سنقدمه علی امتداد هذا البحث. کل فی موضعه.

علی بن أبی طالب والعلم

قدمنا فیما مضی کیف أنه من أهل الکساء. ومن الذین باهل بهم النبی
صلی الله علیه وسلم نصاری نجران وأنه کنفس النبی وأول من أسلم وأول من صلی معه صلی الله علیه وسلم. أما ما ورد فی علمه فإن البدایة عندنا من قوله تعالی: (إنا لما طغی الماء حملناکم فی الجاریة - لنجعلها لکم تذکرة وتعیها أذن واعیة) [۱] ، فهذه الآیة إشارة إلی طوفان نوح. والجاریة هی السفینة. والمحمول فی الحقیقة أسلاف الدین فی السفینة. لکون الجمیع نوعا واحدا ینسب حال البعض منه إلی الکل. وضمیر (لنجعلها) للحمل باعتبار أنه فعله. والمعنی: أی فعلنا بکم تلک الفعلة لنجعلها لکم أمرا تتذکرون به. وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها: وقوله تعالی: (وتعیها أذن واعیة) المراد بوعی الأذن لها. تقریرها فی النفس وحفظها فیها. لتترتب علیها فائدتها وهی التذکر والاتعاظ. وفی الآیة إشارة إلی الهدایة الربوبیة. وروی الضیاء بسند صحیح وابن مردویه وأبو نعیم عن علی بن أبی طالب [۲] ، وفی الدر المنثور أخرج سعید بن منصور وابن جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم عن مکحول قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: سألت ربی أن یجعلها أذن علی. قال مکحول: فکان علی یقول: ما سمعت عن رسول الله شیئا فنسیته [۳] .
وانظروا الدر المنثور أخرج ابن جریر وابن أبی حاتم والواحدی وابن مردویه وابن عساکر وابن النجار عن بردة قال: قال رسول الله صلی الله علیه
[صفحه ۱۴۸]
وسلم لعلی: إن الله أمرنی أن أدنیک ولا أقصیک وأن أعلمک. وأن تعی وحق لک أن تعی. فنزلت هذه الآیة: (وتعیها إذن واعیة). وأخرج أبو نعیم فی الحلیة عن علی. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم. یا علی. إن الله أمرنی أن أدنیک وأعلمک لتعی. فأنزلت هذه الآیة: (وتعیها أذن واعیة) فأنت أذن واعیة لعلمی. وهذا الحدیث روی من عدة طرق. بلغت ستة عشر حدیثا. فإذا کانت البدایة مع آیة تدل علی أن ما سمعه من النبی صلی الله علیه وسلم لا ینساه. فإن دخوله علی النبی لأخذ العلم أمر لا جدال فیه، روی الإمام النسائی عن علی بن أبی طالب. قال: کان لی من رسول الله صلی الله علیه وسلم ساعة آتیة فیها، فإذا أتیته استأذنت إن وجدته یصلی فتنحنح دخلت. وإن وجدته فارغا أذن لی... وفی روایة - کان لی من رسول الله صلی الله علیه وسلم مدخلان مدخل باللیل ومدخل بالنهار [۴]

.

وعلی رضی الله عنه، تربی فی بیت النبوة. فالذی سهر علی تربیته هو النبی صلی الله علیه وسلم. وأصح ما ورد من الأخبار. إن النبی أخذ علیا من أبیه وهو صغیر. وأخذ العباس طالبا. لیخففا عن أبی طالب ثقلهم. ومن بیت النبوة شق علی بن أبی طالب طریق العلم حتی قیل فیه فی روایة صحیحة " أفضلنا علی [" ۵] ، وشهد أکثر من واحد أن علیا کان أدری الناس بعد رسول الله بالقرآن. عن أبی الطفیل قال: قال علی ": سلونی عن کتاب الله فإنه لیس فیه آیة إلا وقد عرفت بلیل نزلت أم بنهار فی سهل أم فی جبل [" ۶] ، وعن سلیمان الأحمسی.

[صفحه ۱۴۹]

قال علی ": إن ربی وهب لی قلبا عقولا ـ ولسانا صادقا [" ۷] ، وفی روایة ": والله ما ترکت آیة إلا وقد علمت فیم نزلت وأین نزلت وعلی من نزلت إن ربی وهب لی قلبا عقولا ولسانا صادقا [" ۸] ، وفی خلافته کان رضی الله عنه یقول ": اسألونی قبل أن تفتقدونی" [۹] قال ابن أبی الحدید فی شرح النهج: قد أجمع الناس

کلهم أنه لم یقل أحد من الصحابة ولا أحد من العلماء هذا غیر علی بن أبی طالب علیه السلام. وشهادة النبی لعلی بأنه أکثر أمته علما وردت فی أحادیث کثیرة ومنها حدیث " أنا مدینة العلم وعلی بابها فمن أراد العلم فلیأت الباب، " الذی رواه ابن عدی عن ابن عباس وابن عساکر عن جابر، والذی تعددت طرقه، فإن القوم ضعفوه ولهم أسبابهم فی تضعیف الأحادیث الواردة فی علی بن أبی طالب، وکذلک حدیث " أنا دار الحکمة وعلی بابها " الذی رواه الترمذی عن علی ورواه بعضهم عن ابن عباس. فلقد قالوا فیه ما قالوا [۱۰] ونحن هنا نقدم حدیثا لا

خلاف علیه یشهد لعلی بالعلم والحلم وهذا الحدیث. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: وجدت فی کتاب أبی بخط یده هذا الحدیث: عن معقل بن یسار. قال النبی صلی الله علیه وسلم لفاطمة رضی الله عنها ": أوما ترضین أنی زوجتک أقدم أمتی سلما وأکثرهم علما وأعظمهم حلما [" ۱۱] ، فهذا الحدیث أثبت سبقه إلی الإسلام. وأثبت له العلم والحلم. وکفی بهما لإثبات ملکة العدالة.

[صفحه ۱۵۰]

[۱] سورة الحاقة: الآیة ۱۲.

[۲] (کنز العمال ۱۷۷:۱۳).

[۳] تفسیر ابن کثیر ۴۱۳:۴.

[۴] النسائی باب السهو ۲:۱۲.

[۵] قال فی کشف الخفاء رواه البخاری فی التفسیر وأبو نعیم عن ابن عباس. والحاکم عن ابن مسعود: ورواه البغوی فی شرح السنة عن أنس، ورواه عبد الله بن أحمد بن حنجل عن ابن عباس وعبد الرزاق عن قتادة، وروی البخاری، وأبو نعیم عن عباس قال عمر: علی أقضانا (کشف الخفاء ۱۸۴:۱).

[۶] الطبقات الکبری ۳۳۸:۲.

[۷] الطبقات الکبری ۳۳۸:۲.

[۸] تاریخ الخلفاء، السیوطی ۱۷۳.

[۹] راجع ابن کثیر فی البدایة والنهایة ۳۵۸:۷.

[۱۰] الحاکم (المستدرک ۴۶۶:۲)، ابن حجر فی الإصابة (۵۰۹:۲)، فالسیوطی فی تاریخ الخلفاء ص ۱۲۴.

[۱۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۱۳۳:۲۳) (مجمع الزوائد ۱۰۱:۹) ورواه ابن جریر عن علی بسند صحیح (۱۱۴:۱۳ کنز العمال)، ورواه الخطیب فی المتفق عن بریدة (کنز العمال ۱۳۵:۱۳).

اضواء على اختيار الله لعلى

لقد كان للصحابة مناقب، ولكن مناقب على بن أبى طالب فاقت جميع

المناقب. لأن طرفها الآخر كان الله ورسوله. وكان وراء المناقب هدف من ورائه حكمة سنتركها لفطنة القارئ. روى الطبرانى عن جابر. لما سأل أهل قباء النبى صلى الله عليه وسلم أن يبنى لهم مسجدا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ليقم بعضكم فيركب فحركها فلم تنبعث. فرجع فقعد. فقام على. فلما وضع رجله فى غرز الركاب وثبت به. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا على ارخ زمامها وأبنوا على مدارها فإنها مأمورة [۱] .

والذى نشير إليه فى هذا الحديث أن الناقة مأمورة. وأن الذى أمرها هو خالقها. وعن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أبواب شارعة فى المسجد. فقال يوما: سدوا هذه الأبواب إلا باب على. فتكلم فى ذلك الناس. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنى أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب على. وقال فيه قائلكم وأنى والله ما سددت شيئا ولا فتحته. ولكنى أمرت بشئ فاتبعته [۲] .

وفى رواية عن ابن عباس قال صلى الله عليه وسلم ": ما أخرجتكم من قبل نفسى. ولا أنا تركته. ولكن الله أخرجكم وتركه إنما أنا عبد مأمور. ما أمرت به فعلت. إن اتبع إلا ما يوحى إلى [" ۳] .

[صفحه ۱۵۱]

وهذا الحديث رواه تسعة من الصحابة [۴] ، ورغم صحته حكم عليه ابن الجوزى بأنه لا يصح لأنه يعارض حديث ورد فى أبى بكر. ولقد تصدى غير واحد من الأئمة لابن الجوزى لتساهله والحكم على الأحاديث الصحيحة بالوضع. وقال ابن كثير: هذا الحديث لا ينافى ما ثبت فى البخارى فى حق أبو بكر [۵] .

والذى نحب أن نشير إليه فى هذا الحديث إن الله هو الذى سعى وهو الذى فتح، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان قوم عند النبى. فجاء على. فلما دخل على بن أبى طالب خرجوا. فلما خرجوا تلاوموا، فقال بعضهم لبعض: والله ما أخرجنا فارجعوا. فلما رجعوا قال النبى صلى الله عليه وسلم ": والله ما أدخلته وأخرجتكم ولكن الله أدخله وأخرجكم [" ۶] .

فى هذا الحديث. الله هو الذى أخرج وأدخل. وعن جابر قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا يوم الطائف، فانتجاه. فقال الناس: لقد طالت نجواه مع ابن عمه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما انتجيته ولكن الله انتجاه [" ۷] ، قال فى تحفة الأحوذى: ناجاه سارة وخصه بمناجاته. وقوله ": ما انتجيته " أى ما خصصته بالنجوى. ولكن الله انتجاه: أى. إنى بلغت عن الله ما أمرنى أن أبلغه إياه. على سبيل النجوى. فحينئذ انتجاه الله ولا انتجيته، وقال الطيبى: كان ذلك أسرار إلهية وأمور غيبية جعله من

[صفحه ۱۵۲]

خزانها [۸] ، وفى رواية عند الطبرانى أن الذى قال: طالت نجواه مع ابن عمه. أبو بكر رضى الله عنه. فعن جندب بن ناجية. قال أبو بكر: يا رسول الله. قد طالت مناجاتك عليا منذ اليوم. فقال رسول الله: ما انتجيته ولكن الله انتجاه [" ۹] .

وفى هذا الحديث أيضا الله هو الذى انتجاه، وعن أبى هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه. قال عمر بن الخطاب ما أحببت الإمارة إلا يومئذ. قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها. فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف ولم يلتفت. فصرخ. يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإن فعلوا ذلك. فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم لا يحقها على الله [۱۰] وروى ابن جرير بسند صحيح

والضياء عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن على. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر فسار بالناس فانهزم حتى رجع إليه. وبعث عمر فانهزم بالناس حتى رجع إليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله له ليس

بفرار الحديث [۱۱] ، وروى ابن كثير فى البداية ": بعث النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر فلم يكن فتح. ثم بعث عمر فلم يكن فتح... الحديث، " وقال رواه ابن إسحاق والبيهقى [۱۲] ، ومن بعض الروايات يستفاد أنه بعد هزيمة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. وعندما سمعا قول الرسول

[صفحه ۱۵۳]

صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ": لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، " أراد أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أن ينال كل واحد منهما هذه المرتبة، وهذا أمر طبيعى فالجميع يريدون إرضاء ربهم ونيل رضاه، ولكن الرسول أعطاها لعلى. ورغم هذا فإن فضل الذين لم يأخذوا الراية لا يستطيع أن ينكره أحد. ومن الروايات التى تثبت أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قد كررا المحاولة لأخذ الراية ما ثبت فى إصحاح كما ذكر ابن كثير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر ": لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله بفرار يفتح الله على يديه، " فبات الناس يدركون أيهم يعطاها حتى قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ. فلما أصبح أعطاها عليا ففتح الله على يديه [۱۳] فهذه الرواية تثبت أن عمر قد أراد أن يقوم بالمحاولة مرة أخرى. بعد

المحاولة الأولى التى وردت فى الصحاح عن بريدة بن الحصيب قال: حاصرنا خيبر. فأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له. ثم أخذه من الغد عمر فخرج ولم يفتح له. وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ": إنى دافع اللواء غدا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله. لا يرجع حتى يفتح له "... الحديث [۱۴] .

فالحديث يبشر بأمرين: الأول: إن الراية غدا سيأخذها رجل يحبه الله ورسوله. ولهذا ود كل فرد أن يكون هذا الرجل. حتى أنهم تسارعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ورد عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الراية فهزها. ثم قال ": من يأخذها بحقها. فجاء فلان!! فقال: أنا، فقال النبى: امض. ثم جاء رجل آخر! فقال: أنا. فقال: امض. ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم: والذى كرم وجه محمد لأعطينها رجلا لا يقر. فجاء

[صفحه ۱۵۴]

على فانطلق حتى فتح الله عليه [۱۵] .

والثانى: فإن الحديث بشر بالنصر وكان لهذا التبشير أثره على الصحابة، فعن أبى بريدة بن الخطيب قال: فبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غدا [۱۶] ، فالبشارة الأولى والثانية كانت لهدف من ورائه حكمة وفيهما إعجاز حيث أخبر النبى بفتح كان ما زال فى عالم الغيب. وعلى الرغم من أن الحديث الماضى يخبر صراحة أن الله تعالى يحب عليا. إلا أن بعض علماء الحديث ضعف حديث الطير، فعن أنس قال: أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طائر. فقال النبى: اللهم ائتنى بأحب الخلق إليك وإلى يأكل معى من هذا الطير. فدخل على بن أبى طالب. فقال: اللهم والى [۱۷] فهذا الحديث كما قال ابن كثير: صنف الناس فيه وله طرق

متعددة. ورواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفسا. وقد جمع الناس فى هذا الحديث مصنفات منهم أبو بكر بن مردويه والحافظ أبو الطاهر محمد بن أحمد ورأيت فيه مجلدا فى جميع طرقه وألفاظه لابن جرير الطبرى [۱۸] ، فعلى الرغم من كل هذا وضعه ابن الجوزى فى الموضوعات ورفضه ابن كثير. لسبب واحد يكمن فى القلب ولا يستند على أى أساس علمى قال ابن كثير فى هذا السبب: وبالجملة ففى القلب من صحة هذا الحديث وإن كثرت طرقه [۱۹] ، وفى هذا الحديث قال

[صفحه ۱۵۵]

صاحب تحفة الأحوذى: الحديث له طرق كثيرة كلها ضعيفة. وقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات. وأما الحاكم فأخرجه فى المستدرك وصححه، وحديث الطير له طرق كثيرة جدا أفردتها بمصنف ومجموعها يوجب أن يكون للحديث أهل [۲۰] .

[۱] رواه الطبرانى فى الكبير (كنز العمال ۱۳:۱۳۹).

[۲] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانى ۲۳:۱۱۸)، وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۱۴) ورواه الضياء فى المختارة بسند صحيح

(کنز العمال ۵۹۸:۱۱) ورواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۲۵:۳).

[۳] رواه الطبرانی (کنز العمال ۶۰۰:۱۱).

[۴] نظم المتواتر فی الحدیث المتواتر / الکتانی ص ۱۹۲.

[۵] قال فی تحفة الأحوذی. حکم ابن الجوزی علی هذا الحدیث بالوضع. لأنه یعارض حدیث أن النبی أمر بسد الأبواب إلا باب أبی بکر. ورد ابن حجر علیه وقال: لحدیث علی طرق کثیرة بلغت بعضها حد الصحة وبعضها مرتبة الحسن (التحفة ۲۳۷:۱۰) وعاب علی ابن الجوزی لتساهله فی وصم بعض الأحادیث بالوضع الشیخ ابن الصلاح وقال: لا یعبأ بما قاله ابن الجوزی. کما عقب علیه الحافظ السیوطی بکتاب أسماه النکت البدیعات فی الرد علی الموضوعات. (البدایة والنهایة ۳۴۲:۷).

[۶] رواه البزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۱۵:۹).

[۷] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۹:۵) وأورده ابن کثیر فی البدایة (البدایة ۳۵۷:۷).

[۸] تحفة الأحوازی (۲۳۱:۱).

[۹] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۳۹:۱۳).

[۱۰] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۳۲:۲۳) ورواه الإمام مسلم بلفظ " رجل یحب الله ورسوله ویحبه الله ورسوله (الصحیح ۱۷۶:۱۵)، ورواه الترمذی مختصرا عن سعد وحسنه (تحفة الأحوازی ۲۲۹:۱۰).

[۱۱] ابن جریر والضیاء بسند صحیح ورواه ابن أبی شیبة وأحمد وابن ماجة والبزار والطبرانی فی الأوسط والحاکم والبیهقی فی الدلائل (کنز العمال ۱۱۲:۳) (البدایة والنهایة ۳۳۷:۷).

[۱۲] البدایة والنهایة ۱۸۶:۴.

[۱۳] أخرجه مسلم (البدایة والنهایة ۳۳۷:۷).

[۱۴] أخرجه أحمد والنسائی (البدایة والنهایة ۳۳۸:۷).

[۱۵] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۵۱:۶)، وقال ابن کثیر رواه أحمد وأبو یعلی (البدایة ۳۳۹:۷).

[۱۶] رواه أحمد (البدایة ۲۳۸:۷).

[۱۷] رواه الترمذی وقال حدیث غریب وقال: وقد روی من غیر وجه عن أنس وعیسی بن معمر والسدی إسماعیل بن عبد الرحمن وسمع عن أنس بن مالک، ورأی الحسین بن علی. وثقه شعبة وسفیان الثوری وزائده ووثقه یحیی بن سعید القطان (الجامع ۶۳۶:۵) وقال الهیثمی رواه البزار والطبرانی ورجال الطبرانی رجال الصحیح غیر فطر بن خلیفة وهو ثقة (الزوائد ۱۲۶:۹) ورواه ابن عساکر عن ابن عباس وعن أنس بطرق مختلفة ورواه ابن النجار (کنز العمال ۱۶۷:۱۳).

[۱۸] البدایة والنهایة ۳۵۱:۷.

[۱۹] البدایة والنهایة ۳۵۱:۷.

[۲۰] تحفة الأحوذی ۱۲۴:۱۰.

اضواء علی قیادة علی

مما سبق علمنا أن اختیار الله تعالی لشخص علی بن أبی طالب قد حدث

فی أماکن عدیدة علی امتداد الرسالة المحمدیة. ففی المسجد سد النبی جمیع الأبواب إلا باب علی. وعند بناء قباء لم تسر الناقة إلا بعلی. وفی میدان من میدان الحرب ناجی رسول الله علیا. وفی منزل الرسول أخرج الله أناس وأدخل علیا. وفی خیبر أخذ الرایة علیا. فهذه الأحداث تدل حرکتها علی أن هناک ضوءا محددا علی شخص محدد وهذا الضوء یبتغی ثقافة محددة للناس. وعلی امتداد هذا

الطريق كان هناك طريق آخر يسير بجانبه. هدفه أيضا الوصول إلى هذه بثقافة التى ينبغى فى النهاية تكوين رأى عام. ومن أحاديث هذا الطريق. الحديث الصحيح عن على قال: لما نزلت هذه الآية: (وأنذر عشيرتك الأقربين) [۱] ، جمع النبى عشيرته. فاجتمع ثلاثون. فأكلوا وشربوا. فقال لهم النبى: من يضمن عنى دينى ومواعيدى ويكون معى فى الجنة، ويكون خليفتى فى أهلى. فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحرا. من يقوم بهذا. فعرض الرسول هذا عليهم واحدا واحدا. فقال على: أنا [۲] ، وفى رواية: أيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى. فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت أصغر

[صفحه ۱۵۶]

القوم [۳] ، وفى رواية ": قال النبى: من يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووليكم من بعدى. فمددت وقلت: أنا أبايعك. وأنا يومئذ أصغر القوم. فبايعنى على ذلك [۴] ، وفى رواية عند ابن إسحاق وابن جرير وابن حاتم وابن مردويه وأبو نعيم أن النبى قال عندما بايعه على ": إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن نسمع ونطيع لعلى [" ۵] .

فالآية تصرح إنذار العشيرة الأقربين. ولم تصرح بإنذار قريش. والعشيرة الأقربين إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم، وفى مجمع البيان" عشيرة الرجل. قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه، " وخص عشيرته وقرابته الأقربين بالذكر. تنبيها على أنه لا استثناء فى الدعوة الدينية. ولا مهادنة ولا مساهلة. فلا فرق فى تعلق الانذار بين النبى وأمته. ولا بين الأقارب والأجانب. فالجميع عبيد الله والله مولاهم. وإنذار العشيرة الأقربين. كان هو المقدمة الأولى لإلقاء الضوء على على بن أبى طالب - ضوء فى مركز الدائرة التى قدر لها أن تتسع شيئا فشيئا. اتساع يواكب حركة الدعوة ويضع فى اعتباره النفس القبائلية العشائرية التى ترفض فرض أى قيادة عليها وفقا للتصور الجاهلى. وإذا كان على بن أبى طالب قد أصبح بعد مبايعته الرسول رأس القوم رغم صغر سنه [۶] فإنه بنص آية أخرى ارتقى إلى مرتبة أعلى، قال تعالى لرسوله: (إنما أنت منذر ولكل قوم

[صفحه ۱۵۷]

هاد) [۷] ، قال المفسرون: إنما أنا وأنت يا محمد هاد تهديهم من طريق الانذار. وقد جرت سنة الله فى عباده أن يبعث فى كل قوم هاديا يهديهم. والآية تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدى الناس إلى الحق. إما نبى منذر وإما هاد غيره يهدى بأمر الله. وفى الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة والديلمى وابن عساكر وابن النجار. قال: لما نزلت: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال: أنا المنذر. وأومأ بيده إلى منكب على فقال ": أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى [" ۸] ، وروى الحاكم عن بريدة الأسلمى قال ": دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهور وعنده على بن أبى طالب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد على بعدما تطهر. فألصقها بصدره ثم قال ": إنما أنت تنذر " ويعنى نفسه. ثم ردها إلى صدر على ثم قال ": ولكل قوم هاد " ثم قال له: أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء وأشهد على ذلك إنك كذلك. وفى تفسير ابن كثير عن على قال ": ولكل قوم هاد " الهادى رجل من بنى هاشم. قال الجنيد: هو على بن أبى طالب رضى الله عنه [۹] .

لقد كان الضوء يتسع شيئا فشيئا. اتسع بيوم المباهلة ويوم الكساء ويوم سد الأبواب إلا باب على. ويوم إن دعا الكتاب إلى مودة ذو القربى وسهم ذى القربى. إلى غير ذلك. حتى جاء اليوم الذى وضع فيه حول على منقبه من أعظم المناقب لأن عليها تدور الحركة الواسعة للدعوة الإسلامية. روى الإمام مسلم عن على قال ": والذى فلق الحبة وبرأ النسمة أنه لعهد النبى الأمى إلى. أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق [" ۱۰] ، وعن أم سلمة قال: كان رسول الله

[صفحه ۱۵۸]

صلى الله عليه وسلم يقول ": لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن [" ۱۱] ، وعن أبى سعيد الخدرى قال ": إنا كنا نعرف المنافقين نحن

معشر الأنصار ببغضهم على بن أبى طالب [" ۱۲] ، فهذه المنقبة هى عين المواجهة بين الدعوة وبين دائرة الرجس التى تسترت بجلباب الدين وما هى من الدين. وبدأت دائرة الضوء تتسع. حتى كان يوم تبوك. اليوم الذى عزم فيه التيار التخريبى لدائرة الرجس ودائرة البخس على اغتيال الرسول. وافتتاح المسجد الضرار. وفتح الأبواب لاستقبال الغزو الخارجى الذى تحمل أعلامه جيوش قيصر [۱۳] وما بين أيدينا من روايات. يؤكد أن المنافقين ما كانوا يريدون

على بن أبى طالب فى المدينة. لقد استعملوا أسلوب الحرب النفسية ضد على عندما علموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيخلفه على المدينة. ولكن النبى قطع عليهم حبل تفكيرهم ووضع حول على منقبة ارتبطت بمنقبة لا يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن برباط وثيق. قال له النبى كما وردت فى صحيح مسلم " أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى [" ۱۴] ، وفى رواية عن ابن عباس ": أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست منى أنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى ["۱۵] ، وفى رواية ": إنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى فى كل مؤمن بعدى [" ۱۶] .

لقد أشاعوا أن النبى ترك عليا بين النساء والصبيان كما ورد فى أحاديث

[صفحه ۱۵۹]

صحيحة وأشاعوا غير ذلك كما ورد فى تاريخ الطبرى، قال على للنبى ": زعم المنافقون إنك إنما خلفتنى إنك استثقلتنى وتخففت منى، " فقال له النبى: كذبوا... أما ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى [" ۱۷] لقد كان عليا مقياسا لما يجرى على طريق تبوك. به يظهر النفاق

ويشع. ووجوده فى المدينة فى غياب الرسول صلى الله عليه وسلم يحدد الخنادق بدقة. فأى ثقافة تخرج من المسجد الضرار لا يرضى عنها على فهى ثقافة نفاق. وأى حشد فى اتجاه المدينة لا يرضى عنه على فهو حشد نفاق. وأى معارض يعارض أمرا لعلى فهو فى دائرة النفاق. كما ذكر أبو سعيد الخدرى " كنا نعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم على بن أبى طالب [" ۱۸] .

"حديث المنزلة رواه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم. وقال ابن عساكر. وقد روى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس وغيرهم. وقد تقصى ابن عساكر هذا الحديث فى ترجمة على فى تاريخه فأجاد وأفاد وبرز مع النظراء والأشباه والأنداد [۱۹] .

ولقد ناقش العديد من الأفاضل هذا الحديث على خلفية أن هارون (ع) مات قبل موسى (ع) وتركوا لفظ " منزلة " وهو الذى يدور عليه الحديث. ومنزلة هارون ينبغى أن تناقش فى ضوء الآيات القرآنية وليس فى ضوء التواريخ الإسرائيلية. فقد قال تعالى: (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده) [۲۰] ، فالآية تخبر أن موسى عليه السلام جاءهم بالبينات. واتخاذهم العجل من بعده، استمرارا لفعلهم. فهم فى الحقيقة اتخذوا العجل فى حياة موسى. وهارون عليه السلام كان عليه شعاع من الضوء فى حياة موسى عليه السلام.

[صفحه ۱۶۰]

فقبل ذهاب موسى لميقات ربه قال لأخيه كما أخبر تعالى: (قال موسى لأخيه هارون أخلفنى فى قومى وأصلح) [۲۱] ، فهارون عليه السلام نبى وخليفة (اخلفنى فى قومى) والشعاع الذى حول على بن أبى طالب يطول منزلة الخلافة التى تقلدها هارون بنص الحديث الذى رواه الشيخان ولا يطول منزلة النبوة حيث لا نبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحاب المسجد الضرار فى بنى إسرائيل نصبوا العجل فى دائرته. ولما حاول هارون الاصلاح استضعفوه. قال هارون عليه السلام كما أخبر تعالى: (إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) [۲۲] ، ولأن القاعدة الأساسية فى دين الفطرة أنه لا إكراه فى الدين، وأن الله غنى عن العالمين. فإن هارون بعد أن أقام عليهم الحجة اعتزل هو ومن آمن معه. وبعد عودة موسى عليه السلام قال لأخيه كما أخبر تعالى: (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا - ألا تتبعن أفعصيت أمرى - قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم

ترقب قولی) [۲۳] ، لقد عمل هارون من أجل المحافظة علی الرمز والشعار الإسلامی وکفی به فی عالم المعابد الضرار. أما موسی علیه السلام. فلقد کان له رأی فیهم بعد أن خرجوا عن خط الخلافة الذی حدده. قال لهم فیما أخبر الله: (قال بئسما خلفتمونی من بعدی) [۲۴] ثم دعا موسی ربه: (قال رب اغفر لی ولأخی وأدخلنا فی رحمتک

وأنت أرحم الراحمین) [۲۵] أما الذین اتخذوا العجل فضربهم الجزاء العادل بعد

أن أشربوا فی قلوبهم حب العجل، قال تعالی: (إن الذین اتخذوا العجل سینالهم غضب من ربهم وذلة فی الحیاة الدنیا وکذلک نجزی المفترین) [۲۶] .

[صفحه ۱۶۱]

فهذه منزلة هارون أخو موسی علیهما السلام وعلی هذا یجب أن تقاس منزلة علی بن أبی طالب أخی رسول الله - کما جاء فی الحدیث الصحیح قول النبی صلی الله علیه وسلم لعلی ": أنت أخی وأنا أخوک فإن ذکرک أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسول الله لا یدعیها بعد إلا کذاب [" ۲۷] .

فموسی علیه السلام فی أول الأیام یتلقی کلمات ربه جل وعلا وخلف أخاه هارون بعده علی قومه. ومحمد صلی الله علیه وسلم فی البعثة الخاتمة ذهب لیضرب من أجل. کلمة ربه. وخلف أخاه علیا بعده علی قومه. وبعد عودة موسی علیه السلام أبلغه هارون بالأحداث فحرق العجل ونسفه فی الیم نسفا. وبعد عودة محمد صلی الله علیه وسلم حرق المسجد الضرار. وبعد موسی جری حب العجل فی الدماء، وبعد محمد صلی الله علیه وسلم جرت الریبة فی قلوب الذین اتخذوا المسجد الضرار. ولله فی خلقه شؤون. ومناقب علی بن أبی طالب ومنزلته لم تقف عند تدمیر المسجد الضرار. فالأحادیث الصحیحة تبین أن دائرة النور حول علی بدأت تتسع علی شکل لم یسبق له مثیل بعد تبوک. ویبدو والله أعلم أن هناک أحداثا جرت بعد فشل عملیة اغتیال الرسول وثقافة المسجد الضرار، فمجموعة التخریب التی تتکون من اثنی عشر رجلا- والتی حملت علی عاتقها عملیة قتل الرسول. کان من بینهم رجال من قریش. والأحداث بعد ذلک تقول أن الأمور حول مکة لم تکن تجری علی الوضع الطبیعی. ومن المعروف أن فتح مکة کان فی العام الثامن الهجری. وفی هذا العام دخل الإسلام مجموعة تسترت برداء الإسلام وکان لها الأثر البالغ فی إیجاد الانحرافات التی حفرت فی الجسد الإسلامی حفر نازفة سنتعرض لها فی حینه، وبعد فتح مکة وفی العام التاسع کانت فورة النفاق. حیث دبرت حادثة اغتیال

[صفحه ۱۶۲]

الرسول وبناء المسجد الضرار. وعلی إثر هذه التطورات کان للدعوة موقفها الجازم من خدمة النفاق والشرک. فقبل نزول سورة براءة کانت سیرة الرسول. أن لا- یقاتل إلا- من قاتله ولا- یحارب إلا من حاربه وأراده. وقد کان أنزل علیه فی ذلک: (فإن اعتزلوکم فلم یقاتلوکم وألقوا إلیکم السلم فما جعل الله لکم علیهم سبیلا)، فکان رسول الله صلی الله علیه وآله لا یقاتل أحدا قد تنحی عنه واعتزله. حتی نزلت علیه سورة براءة وأمره بقتل المشرکین. من اعتزله ومن لم یعتزله إلا الذین قد عاهدهم رسول الله صلی الله علیه وسلم یوم فتح مکة إلی مدة. ومنهم: صفوان بن أمیة وسهیل بن عمرو. فقال تعالی: (براءة من الله ورسوله إلی الذین عاهدتم من المشرکین - فسیحوا فی الأرض أربعة أشهر) [۲۸] ، لقد جعلهم فی مأمن من هذه البرهة من الزمان. وترکهم بحیث لا- یتعرض لهم بشر حتی یختاروا ما یرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء. وأخبرهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرک فإذا انتهت المدة ولم یستقروا علی الأصلح. فالفناء (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشرکین حیث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم کل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزکاة فخلوا سبیلهم) [۲۹] ، فالبراءة بعد العهد لا بد أن یکون سببها التعدی من جانب المخلوق. وسورة براءة نزلت بعد عودة النبی صلی الله علیه وسلم من غزوة تبوک سنة تسع من الهجرة. وکان الصحابة یسمونها السورة الفاضحة. نظرا لأنها کشفت المخططات ووضعت الجهاز التخریبی فی مأزق کما یستفاد من روایة ابن عباس فی صحیح مسلم. فعن سعید بن جبیر قال. قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: التوبة!! بل هی الفاضحة!! ما زالت تنزل. ومنهم ومنهم حتی ظنوا أن لا یبقی منا أحدا إلا ذکر فیها

[۳۰].

فما هى الأحداث التى أدت إلى نزول الوحى بقوله تعالى: (كيف يكون

[صفحه ۱۶۳]

للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلى قوله تعالى - قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم...) [۳۱]، ومن المعلوم أن أبا عامر مؤسس المسجد الضرار كان على علاقة وطيدة بمشركى المغرب والمنافقين فى كل مكان. ولقد اتفق مع الجميع على أن يتوجه إلى قيصر الروم ويحثه على غزو المدينة، وعلى امتداد هذه المساحة تمت محاولة اغتيال الرسول وبناء المسجد الضرار ويبدو أن هناك مؤامرة اتفق عليها الحاقدون على الإسلام فى مكة بعد فتحها وطائفة المشركين وتيارات النفاق - والدليل على ذلك فورة الصد عن سبيل الله التى تحدث القرآن والسنة عنها بعد فتحة مكة. تلك الفورة التى اختفت وراء جدار يرتدى ثياب الإسلام. ومن الدليل أيضا أن هذه الفورة استهدفت على بن أبى طالب أيضا. وذلك حينما أشاعوا يوم أن تركه النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة يوم ذهابه إلى تبوك. إن النبى تركه مع النساء والصبيان وأنه قد استثقله وتخفف منه. وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر مشركى مكة بعد صلح الحديبية. أن لهم يوما من على بن أبى طالب حيث سيقاتلهم على تأويل القرآن كما قاتلهم على تنزيله. وسنتحدث عن هذه الأخبار فى حينه. فدائرة الحقد على الإسلام كانت تختزن فى ذاكرتها ما تخبئه لهم الأيام. وظل اتباع هذه الدائرة يكيدون للدعوة فى حياة الرسول وبعد مماته صلى الله عليه وسلم على هذا الأساس فضلا على كراهيتهم الأصيلة للدعوة. ومن الواضح أن دائرة الرجس ودائرة الدنس. اتفقتا على ثقافة يقتحمون بشذوذها المجتمع الإسلامى. ويتبين هذا من الحكم الذى بعث به النبى صلى الله عليه وسلم مع على بن أبى طالب إلى المشركين. حيث قال ": لا يطوفن بالبيت عريان، " وكانت سنة العرب فى الجاهلية عندما يقصدون البيت الحرام. إن من دخل مكة وطاف البيت فى ثيابه. لم يحل له إمساكها. وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف. فكان من جاء إلى مكة يستعير ثوبا ويطوف فيه ثم يرده. ومن لم يجد من يعيره ولم يكن إلا ثوابا واحدا. طاف بالبيت عريانا.

[صفحه ۱۶۴]

والأحاديث الصحيحة تخبر بأن الفترة الأخيرة - بعد تبوك - إن امرأة طافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس. فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها. وقالت شعرا:

اليوم يبدو بعضه أو كله++

فما بدا منه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف هرول إليها جماعة من الناس. ومن هذا يظهر والله أعلم أن فروع التآمر كانت كثيرة، وعندما نزلت السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بها مع أبى بكر إلى المشركين. فلما خرج أبو بكر نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد لا يؤدى عنك إلا رجل منك. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فى طلب أبى بكر. فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات - وفى رواية - قال أبو بكر يا رسول الله نزل فى شئ؟ قال: لا ولكن جبريل جاءنى فقال: لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك [۳۲]، وفى الدر المنثور أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل وأبو الشيخ وابن مردويه عن على قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبى صلى الله عليه وسلم. دعا أبا بكر رضى الله عنه ليقرأها على أهل مكة. ثم دعا لى فقال لى: أدرك أبا بكر فحينما لقيته فخذ الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبى فقال: يا رسول الله نزل فى شئ؟ قال: لا ولكن جبريل جاءنى فقال: لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك [۳۳].

وفى الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر رضى الله عنه ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث

[صفحه ۱۶۵]

عليا رضى الله عنه على أثره. فأخذها منه. فكان أبا بكر وجد فى نفسه فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر إنه لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى. وفى الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبى رافع قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله ببراءة إلى الموسم. فأتى جبريل عليه السلام. فقال: إنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك، فبعث عليا رضى الله عنه على أثره. حتى لحقه بين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس فى الموسم. فذهاب على بن أبى طالب، علاوة على أنه لا يؤدى عن النبى إلا هو كما ورد فى الحديث الصحيح عن حبشى بن جنادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": على منى وأنا من على ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على" [۳۴] ، إلا أنه يستقيم مع الأحداث حيث فورة النفاق، وحيث إخبار النبى لقريش يوم الحديبية بأن لهم من على بن أبى طالب يوما فعن ربعى بن على، أن النبى قال لهم يومئذ: يا معشر قريش لتنتهين أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين. قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله؟ قال: هو خاصف النعل. وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها [۳۵] .

لهذا نقول أن بعث على بن أبى طالب بسورة براءة له أبعاد متعددة. فأبو بكر لم يثبت أن له قتيل فى الإسلام. ولم يكن رضى الله عنه مشهورا بالشجاعة ولقاء الحروب. وأيضا لم يكن جبانا ولا خوارا. وإنما كان رجلا عاقلا ذا رأى وحسن تدبير، والآيات تحمل منهجا لا مهادنة فيه ولا مساهلة. فإعطاؤها لأبى بكر أولا ثم إعطاؤها لعلى بعد ذلك فيه تلويح بالعصا الغليظة. وحول هذا الحديث أدلى كل منهم بدلوه، فقال البعض: إن النبى بعث عليا بالسورة لأن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس منهم. إلا هو أو

[صفحه ۱۶۶]

المتقدم من رهطه. فإذا كان كذلك. فهل يجوز أن يجرى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى سنته وأحكامه على عادات الجاهلية؟ ثم لو كانت سنة عربية جاهلية فما وزنها فى الإسلام وما هى قيمتها عند النبى، وقد كان ينسج كل يوم سنة جاهلية وينقض كل حين عادة قومية. ثم إذا كانت سنة عربية ومعروفة للنبى قبل بعثه أبا بكر بسورة براءة. فما باله لم يعتمدها فى الابتداء، ويبعث إليهم بمن يجوز أن يحل عقده من قومه؟ هل نسيها النبى حين سلم الآيات إلى أبى بكر. وعندما خرج أبو بكر ذكر النبى ما نسيه. هل يجوز ذلك وهو صلى الله عليه وآله وسلم المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق واعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم وحسن التدبير. ثم إذا كانت سنة عربية فلماذا لم يذكر النبى ذلك عندما رجع إليه أبو بكر ليسأله. وقال له: إنه أوحى إلى أن لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى. " إن كلمة" أوحى إلى " أو " أخبرنى جبريل " فى الحديث. هى المحك فى الحدث. والذى يمكن أن يقال عند الجمع بين الروايات. أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سلم إلى أبى بكر السورة. بإذن الله. إلا أنه لم يأمر بأدائها ولا كلف بقراءتها على أهل الموسم. سلمت إليه وأمر بالتوجه إلى أن يأذن الله فيها. وقد قال البعض: إن الفائدة فى ذلك ظهور فضل على بن أبى طالب ومرتبته. ولكنى أميل أن ظهور الفضل فى مساحة الأحداث كلها علاوة على المناقب التى وضعت حول على على امتداد الرحلة أوقع من ظهوره فى هذه المساحة الضيقة. فعلى لم يذهب ليبلغ براءة فقط وإنما ليبلغ أحكاما أيضا. فهو يبلغ كلمة الوحى وكلمة الرسول عن الوحى. فعن زيد بن يثيع قال سألنا عليا بأى شئ بعثت فى الحجة. قال: بعثت بأربع أن لا يطوف بالبيت عريان. ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر. ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا [۳۶] .

[صفحه ۱۶۷]

من هذا نعلم أن على بن أبى طالب كان يتحرك فى ساحة واسعة تجرى عليها أحداث متعاقبة فى العام التاسع الهجرى، ترى ماذا يقول أصحاب الرأى القائل أن من عادة العرب أن لا يحل ما عقده الرئيس إلا المتقدم من رهطه. إذا قلنا لهم. إذا كان على بن أبى طالب هو الذى أناب عن الرسول فى حل عقدة من قومه. باعتبار أنه المتقدم فى رهطه والذى يؤدى عنه. فمن غير على بن أبى طالب بعد وفاة الرسول يحسم ما أعلنه على على القوم فى حياة الرسول. والسنة العربية تقول أن التفاوض لا يكون إلا مع الرئيس أو المتقدم من

رهطه. وخصوصا أن الآیات التی رفعت الأمان فی سورة براءة عن المشرکین لم تهمل أی طریق یرجی فیه الوصول إلی الهدایة. قال تعالی: (وإن أحد من المشرکین استجارک فأجره حتی یسمع کلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلک بأنهم قوم لا یعلمون) [۳۷] ، قال ابن کثیرة: وإن أحد من المشرکین الذین أمرتک بقتالهم وأحللت لک استباحة نفوسهم وأموالهم استأمنک فأجبه إلی طلبه حتی یسمع القرآن فقرؤه علیه وتذکر له شیئا من أمر الدین تقیم به علیه حجة الله. ثم اعطه الأمان حتی یرجع إلی بلاده وداره. وإنما شرعنا أمان مثل هؤلاء لیعلموا دین الله وتنتشر دعوة الله، وکان رسول الله صلی الله علیه وسلم یعطی الأمان لمن جاء مسترشدا [۳۸] .

إذا فهناک عقود أمان. فإذا کان علی بن أبی طالب حل عقد رسول الله من قومه - فحسب عادة العرب - من الذی ینظر فی عقود الأمان الجدیدة. فیتمها إلی مدتها أو یحلها؟ لهذا نقول أن القول بأن بعث علی بن أبی طالب بسورة براءة خرجت شجرته من عادات العرب. قول لا یلتفت إلیه لما سیترتب علیه من إشکال.

[صفحه ۱۶۸]

[۱] سورة الشعراء: الآیة ۲۱۴.

[۲] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۲۲:۲۳) وقال الهیثمی رواه أحمد ورجاله رجال الصحیح غیر حبة العرفی وقد وثقه. ورواه ابن جریر وصححه والضیاء وصححه، ورواه الطحاوی (کنز العمال ۱۲۹:۱۳) وذکره ابن کثیر فی التفسیر (۳۵۰:۳).

[۳] رواه أحمد وابن جریر والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۷۴:۱۳) (الفتح الربانی وقال إسناده (۲۲۴:۲۰).

[۴] رواه أحمد وابن جریر والضیاء بسند صحیح (کنز ۱۷۵:۱۳) وذکره ابن کثیر فی التفسیر (۳۵۰:۳).

[۵] (کنز العمال ۱۳۳:۱۳) تفسیر ابن کثیر (۳۵۰:۳).

[۶] من العجیب أن هناک العدید یرفضون کون علیا رغم صغر سنه هو رأس القوم. فی حین أن هؤلاء الرافضین یخضعون لفقه یجیز ولایة الفاسق. بل وعلی امتداد التاریخ الإسلامی کانوا یبایعون لابن الخلیفة وهو فی بطن أمه.

[۷] سورة الرعد: الآیة: الآیة ۷.

[۸] راجع تفسیر ابن کثیر ۵۰۲:۲.

[۹] تفسیر ابن کثیر ۵۰۲:۲.

[۱۰] رواه مسلم ک الإیمان ب حب علی بن الإیمان (الصحیح ۶۴:۲)، وأحمد (الفتح الربانی ۱۲۲:۲۳) وابن أبی شیبة والنسائی وابن ماجة وابن حبان وابن أبی عاصم (کنز العمال ۲۰:۱۲) (کنز ۵۹۸:۱۱).

[۱۱] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۵:۵) ورواه أحمد (الفتح الربانی ۱۲۱:۲۳).

[۱۲] رواه الترمذی وقال حدیث غریب (الجامع ۶۳۵:۵). ورواه الخطیب عن أبی ذر بلفظ. ما کنا نعرف المنافقین علی عهد رسول الله صلی الله علیه وآله إلا بثلاث: بتکذیبهم الله ورسوله. والتخلف عن الصلاة. وببغضهم علی بن أبی طالب (کنز العمال ۱۰۶:۱۳).

[۱۳] ذکرنا ذلک فیما سبق عند الحدیث عن دائرة الرجس.

[۱۴] رواه مسلم (الصحیح ۱۷۴:۱۵).

[۱۵] رواه الإمام أحمد (الفتح ۲۰۴:۲۱) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۳:۳).

[۱۶] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده حسن ورجاله ثقات (کتاب السنة ۵۶۵:۲).

[۱۷] تاریخ الأمم والملوک ۱۴۴:۳.

[۱۸] سبق التخریج.

[۱۹] البدایة والنهایة ۳۴۲:۷.

[۲۰] سورة البقرة: الآیة ۹۲.

[۲۱] سورة الأعراف: الآیة ۱۴۲.

[۲۲] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۰.

[۲۳] سورة طه: الآیة ۹۲ – ۹۴.

[۲۴] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۰.

[۲۵] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۱.

[۲۶] سورة الأعراف: الآیة ۱۵۲.

[۲۷] رواه الترمذی وقال حدیث حسن بلفظ " أنت أخی فی الدنیا والآخرة (" الجامع ۶۳۶:۵) ورواه أحمد عن عمر بن عبد الله عن أبیه عن جده (۲۲۲:۱۰ تحفة الأحوازی) ورواه أبو یعلی عن علی (کنز العمال ۱۴۰:۱۳) ورواه الحاکم عن ابن عمر (۵۹۸:۱۱ کنز).

[۲۸] سورة التوبة: الآیة ۱.

[۲۹] سورة التوبة: الآیة ۵.

[۳۰] رواه مسلم (کنز العمال ۴۲۰:۲).

[۳۱] سورة التوبة: الآیة ۷ – ۱۴.

[۳۲] رواه الإمام أحمد (البدایة والنهایة ۳۵۸:۷، فی تفسیر ابن کثیر ۳۳۱:۲)، ورواه بلفظ آخر الترمذی وحسنه، (الجامع ۲۷۵:۵)، وقال فی الفتح الربانی، الحدیث سنده صحیح وله شواهد کثیرة تعضده منها عند البخاری والإمام أحمد أیضا من حدیث أبا هریرة ومنها حدیث أنس عند الترمذی وحدیث ابن عباس عنده أیضا (الفتح الربانی ۱۵۷:۱۸).

[۳۳] الفتح الربانی، وقال: وقال الهیثمی رجاله ثقات. وأورده ابن کثیر فی التفسیر والحافظ السیوطی فی الدر المنثور وروی نحوه الترمذی وحسنه (۱۵۸:۷).

[۳۴] سبق التخریج.

[۳۵] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۶۳۴:۵) وابن جریر وصححه والضیاء (کنز العمال ۱۷۳:۱۳).

[۳۶] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۲۷۶:۵) وأحمد وابن جریر بسند صحیح (الفتح الربانی ۱۵۹:۱۸).

[۳۷] سورة التوبة: الآیة ۶.

[۳۸] تفسیر ابن کثیر ۳۳۷:۲.

حجة الوداع و إعلان الولایة

فی العام التاسع الهجری کانت فورة التفاور والشرک. فمن تحت جلباب

الإسلام تحرکت دائرة الرجس لتکید للإسلام. ومن تحت لافتة المعاهدات تحرکت دائرة البخس لتعرقل المسیرة. ولکن الله رد کیدهم فی نحورهم بإنزال سورة براءة التی جعلت جمیع دوائر الصد عن سبیل الله تقف لتحکم المخزون الفطری عند کل إنسان فیهم. وإلا فالسیف، ولا یتصور عاقل أن دوائر الصد بعد سورة براءة. قد ألقوا بسلاحهم وهرولوا فی اتجاه الإسلام تائبین عابدین. فقد یکون هناک من أسلم وحسن إسلامه. وقد یکون هناک من أسلم إلی حین تأتیه الفرصة. أو أسلم ثم ارتد وکتم ارتداده أو لم یسلم أصلا، وهرب حتی یشتد عوده. فهؤلاء وغیرهم لم ینتهوا بنزول سورة براءة أو برحیل النبی صلی الله علیه وسلم. لأن جذورهم فی الأرض منذ أن طرد إبلیس اللعین. وفی کل جیل تخرج الفروع وأوراق الفتنة من الجذور، ثم یستأصلها الله من عنده أو بأیدی الذین آمنوا، ثم تخرج لتستأصل لیکون استئصالها عنوانا لهزیمة الباطل علی امتداد التاریخ الإنسانی. وسورة براءة أشارت إلی أعلام هؤلاء، قال تعالی: (فقاتلوا أئمة الکفر إنهم لا إیمان لهم) [۱]، وکان حذیفة بعد وفاة الرسول یقول ": ما قوتل أهل هذه الآیة بعد [" ۲]، وقوله تعالی:

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) [۳] ، وكما أن جذور هؤلاء ممتدة فى طين الشذوذ. فكذلك جذور البغى. فالبغاة لم يقاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم. لأن جذورهم فى عهدهم لم تكن قد أخرجت فروعها العتية بعد. والقرآن أخبر بهم فقال تعالى: (فقاتلوا التى تبغى حتى تفيئ إلى أمر الله) [۴] ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم بمقتضى هذه الآية. إنه سيكون بغى. ولذا أخبر عن

[صفحه ۱۶۹]

أعلامه. وأقام الحجة على كل من له عينين ولسانا وشفتين. ودثرت حجته التاريخ كله. كما أخبر عن ربه بكيفية قتال المشركين كافة. وحذر من اتباع سننهم التى تقود من ركبها إلى الوحل. فإذا كان امتداد المسيرة أمام الرسول فى عالم الغيب. امتدادا مكشوفا. وعلى امتداده يرى الرسول العوائق والسحب الداكنة. إذا كان هذا ثابتا فكيف يسوغ لمتوهم أن الدين لا يحتاج إلى حافظ يحفظه حق الحفظ. الدين الذى يحتوى على جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية والأصول الخلقية والأحكام الفرعية العامة بجميع حركات الإنسان وسكناته. ليس فى حاجة إلى حفظ من الذين أخبر الله عنهم أنهم يقاتلون الإسلام كافة؟ هذا الدين ليس فى حاجة إلى قيادة تأمر المسلمين كافة بقتال من يقاتلونهم كافة. هل الأمة الإسلامية والمجتمع الدينى مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية ومستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يدبرها ومجر يجريها... إن الحشرات فطرت على أمير. وفى عالم النحل والنمل وفى عالم الطيور والوحوش ألف ألف دليل. وبأى غرر يمكن أن يعتذر إلى الباحث فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم. حيث يرى أنه كان إذا خرج إلى غزوة. خلف مكانه رجلا يدير رحى المجتمع. ألم تر أنه خلف عليا مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك؟ ويؤمر رجالا على السرايا والجيوش التى يبعثها إلى الأطراف. لقد كان فى حياته يفعل ذلك. وأى فرق بين زمان حياته وما بعد مماته فى حين أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. يفيد بأن تعيين حارس للدين بعد موته أشد والضرورة إليه أمس ثم أمس. والنبى صلى الله عليه وسلم هو القائل ": الإسلام والسلطان أخوان توأمان. لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس [۵] والسلطان حارث. وما لا أس له يهدم وما لا حارث له ضائع [" ۶] ، قد يقال: لقد كان الحفظ فى أيدى أهل الحل والعقد. فنقول: ونحن لا نقلل من وزن أهل الحل والعقد ولا من هيبتهم. ولكن الأحاديث الصحيحة أشارت إلى وجود أئمة مضلين فى بطن الزمان يتكلمون بألسنتنا ويدعون إلى النار. ونحن

[صفحه ۱۷۰]

ليست لدينا القدرة على تمييز الصالح من الطالح. إنما القادر هو الله. والناظر فى التاريخ والمتدبر فى الأحداث بعد رحلة النبى صلى الله عليه وسلم يرى كم من دائرة إسلامية اجتمع فيها أهل الحل والعقد من المسلمين على ما اجتمعوا عليه. ثم سلكوا طريقا يهديهم إلى رأيهم. فلم يزيدوا إلا ضلالا. ولم يزد اسعادهم المسلمين إلا شقاء. ولم يمكث الاجتماع الدينى بعد النبى صلى الله عليه وسلم. دون أن عاد إلى إمبراطورية ظالمة. إن التاريخ أمامنا والأحاديث التى تخبر بما فى بطن التاريخ إذا انحرفت الأمة بين أيدينا. والقرآن شاهد على الحديث وعلى حركة التاريخ. فليبحث الناقد فى الفتن الناشئة منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما استتبعته من دماء مسفوكة. وأعراض مهتوكة وأموال منهوبة. وأحكام عطلت. وحدود أبطلت. ثم ليبحث الناقد فى منشئها وأصولها وأعراقها... وسيرى أن الأسباب العاملة فيها تنتهى إلى ما رآه أهل الحل والعقد من الأمة. ثم حملوا ما رأوه على أكتاف الناس. وقد يقال: إذا كان الطالح له أثر فإن هذا لا يعنى أن الصالح فى أهل الحل، والعقد ليس له أثر. ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشاورهم فى الأمر فى قوله تعالى: (وشاورهم فى الأمر. فإذا عزمت فتوكل على الله) [۷] ، فنقول: لقد كان فى الصحابة عظماء أفذاذ قاتلوا وقتلوا فى سبيل الله ومنهم من انتظر دوره ليفدى الدين بما عاهد الله عليه. ولكن من الذى كان يشاورهم؟ إنه الرسول الأعظم الذى لا ينطق عن الهوى. ويخطئ من يظن أن مشاورته كانت عن قلة فى علم ما. فمعاذ الله أن يكون هذا فى من وضع الله على عاتقه تعليم البشرية. لقد كانت المشاورة أحيانا فيما يتعلق بحركة الدعوة بين القبائل. وأحيانا لإرساء قاعدة التآلف بين القلوب. وفى الآية الكريمة. أشركهم الله بالنبى

فى المشاورة " وشاورهم فى الأمر " ثم وحده فى العزم " فإذا عزمت فتوكل على الله. " إن المشاورة حق فطرى. والذى يسوق الناس إلى الصراط المستقيم أمر فطرى. ودائرة العزم لا يجلس فيها إلا من كان على علم بكتاب الله. وإلا فالطريق إلى

[صفحه ۱۷۱]

اختلاف الأمة إلى أكثر من سبعين شعبة. طريق مفتوح. لهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه، " فإذا كان للطالح أثرا على امتداد التاريخ. فإن هذا يؤيد وجود الصالح. ولا شك فى هذا. لأن وجود الصالح حجة على وجود الصالح. والصالح فى دائرة العزم لا بد أن يشير إليه نص. فكم من إنسان، فرادى ومجتمعين. ظنوا أنهم يحسنون صنعا. وبصنيعهم تربعوا فى دائرة الصلاح. وفى الحقيقة إنهم فى دائرة الأخسرين أعمالا. والسبب أنهم ضلوا. والضلال لا يستقيم مع الصلاح. ولأن الله تعالى يقول: (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) [۸] ، فإنه تعالى أولى بتحديد من يسوق الناس إلى صراط الله بعد رحيل رسوله. وخاصة أن الدوائر فى حياة رسوله قد تكاتفت على عرقلة المسيرة التى يختبر الله تعالى الناس فيها لينظر كيف يعملون. فالذى يختبر لا بد أن يحدد الطرق ويقيم الحجج. حتى لا يكون للناس على الله حجة. أما أن نقول إن الأمر كله فى أيدى أهل الحقل والعقد. فإن هذا القول فيه تساهل كبير. ونحن هنا سنتتبع مكان القمة فى موضعين: فى حجة الوداع. وفى غدير خم. لنرى بماذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[۱] سورة التوبة: الآية ۱۲.

[۲] أخرجه ابن أبى شيبة (كنز العمال ۴۲۶:۱) وسيأتى الكلام عنه فى موضعه.

[۳] سورة التوبة: الآية ۳۶.

[۴] سورة الحجرات: الآية ۹.

[۵] أس:أى أصل البناء.

[۶] رواه الديلمى (كنز العمال ۱۰:۶).

[۷] سورة آل عمران: آية ۱۵۹.

[۸] سورة القلم: الآية ۷.

حجة الوداع

فى العام التاسع الهجرى، كانت فورة الشرك والنفاق. وكان على بن أبى

طالب فى المدينة وكان من الرسول بمنزلة هارون من موسى عدا النبوة. وفى هذا العام نزلت سورة براءة وقرأها على بن أبى طالب وما معها من أحكام على أهل مكة وما حولها. وجاء العام العاشر الهجرى وفيه بعث النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع وفى هذا العام نزلت سورة المائدة فكانت آخر ما نزل من القرآن. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما خرج إلى حجة الوداع من المدينة. خرج إليها على بن أبى طالب من اليمن وقال: لبيك يا هلالا كإهلال

[صفحه ۱۷۲]

النبى [۱] ، وحضر الحج فى هذا العام نحو أربعين ألفا من المسلمين [۲] ، وروى أن عليا أتى من اليمن بهدى بلغ مجموعها مع ما أتى مع النبى صلى الله عليه وسلم مائة. فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين. ثم أعطى عليا فنحر ما تبقى. وأشركه فى هديه. ثم أمر من كل بدنة ببضعة (قطعة من اللحم) فجعل فى قدر. فأكل هو وعلى من لحمها وشربا من مرقها [۳] ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما هم بذبح الهدى قال: إدع لى أبا حسن. فدعى له على. فقال: خذ بأسفل الحربة. وأخذ رسول الله بأعلاها ثم طعنا بها البدن. فلما فرغ ركب بغلته وأردف عليا [۴] ، وعندما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس. كان على بن أبى طالب

يعبر عنه (أى يبلغ حديثه) - عليهم السلام -، قال القارئ: وقف على حيث يبلغه صوت النبى صلى الله عليه وسلم فيفهمه فيبلغه للناس ويفهمهم من غير زيادة ولا نقصان. كان على بن أبى طالب يبلغ عنه والناس بين قائم وقاعد. والناس شاهدوا الرسول وعلى منذ بداية الشعائر ينحر معه، وتباركة فى الهدى ويأكل معه. ويعبر عنه، ومن قبل سمعوا بقصة تبليغ براءة وبمنزلة هارون من موسى. وبغض المنافقين لعلى. وقبل ذلك سمعوا يوم خيبر أن عليا يحبه الله ورسوله. وشاهدوا يوم أن ناجاه رسول الله وطالت نجواه. وعاينوا يوم أن سد النبى جميع الأبواب إلا باب على. وعلموا وشاهدوا حديث الكساء وحديث المباهلة. وتأكدوا أن عليا أقدمهم سلما وأكثرهم علما وأوسعهم حلما. وأن سيفه لا تخشى فى الله لومة لائم. كل هذا وغيره علموه وشاهدوه. فأى إشارة من النبى إلى على يجب أن تفهم على بساط الفطرة. لأنها لن تفهم على طريق الحفائر والارتياب والجدل العقيم. فإذا وقف النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وقال فيما رواه

[صفحه ۱۷۳]

جابر بن عبد الله. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول ": يا أيها الناس إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتى أهل بيتى [" ۵] ، إن هذا الاعلان لا يحتاج إلى جدل طويل على بساط الفطرة. حيث أن الساحة عليها دائرة رجس لا بد أن تجابهها دائرة تطهير. وإذا علمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع فيما روى عن يحيى بن آدم السلولى، وكان قد شهد يوم حجة الوداع. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": على منى وأنا منه ولا يودى عنى إلا- أنا أو على [" ۶] ، فهذا الاعلان أيضا لا يحتاج إلى جدل طويل. لأنه من قماشة واحدة بدأت عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، لقد كانت البداية من هنا. ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم منذ البداية لعشيرته كما ورد فى الحديث الصحيح " أيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى [" ۷] ، فلم يقم إليه أحد وقام على بن أبى طالب وبايعه على ذلك. وليس هذا من قماشه حديث ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى، " وذلك بعد أن اتسعت دائرة الضوء وفقا لحركة الدعوة. ثم ألا- يتفق ذلك مع قماشة يوم تبليغ سورة براءة حيث قال النبى ": جاءنى جبريل فقال، لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك " فما الغرابة إذن فى فهم الموقف يوم حجة الوداع. حيث قال النبى ": على منى وأنا منه ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على،" وجميع ذلك من نسيج قوله تعالى يوم المباهلة. (وأنفسنا وأنفسكم). فإذا كان هذا البلاغ قد تم فى حجة الوداع. وإذا كان فى نفس الحجة قد نزل عشية يوم عرفة [۸] ، قوله تعالى: (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا

[صفحه ۱۷۴]

تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [۹] ، علمنا أن الكفار قد يأسوا فى اليوم الذى أكمل الله فيه الدين وأتم فيه نعمته. فماذا كان يريد الكفار قبل أن يضربهم اليأس؟ لقد كان الدين هو المبغوض عند دوائر الصد من سبيل الله. فالشيطان منذ اليوم الأول وضع فى برنامجه عرقلة الصراط المستقيم. وعلى امتداد التاريخ سارت جحافل الليل نحو هذه الغاية. فحاولوا فى الرسالة الخاتمة هدم البنيان الرفيع من أسر بتفنين المؤمنين. وبث النفاق فى جماعتهم وإلقاء الخرافات بينهم لإفساد دينهم. فى بداية الأمر صدوا بالمال والجاه والجلد بالسياط والطرد من الأوطان. ثم طوروا الصد إلى محاولة قتل النبى. لقد كانوا يرون أنه ملك فى صورة النبوة. وسلطنة فى لباس الدعوة والرسالة. ولقد كان موته آخر ما يرجونه فى زوال الدين وموت الدعوة. وذلك لأنه لا عقب له. ومن لا عقب له فى قانونهم إذا مات أو قتل انقطع أثره ومات ذكره وذكر دينه. على ما هو المشهود عادة من حال السلاطين والجبابرة. فهؤلاء مما بلغ أمرهم. فإن ذكرهم يموت بموتهم وقوانينهم تدفن معهم فى قبورهم. ولذلك كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ": دعوه، فإنه رجل أبتر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى: (إن شانئك هو الأبتر) [۱۰] .

فإذا كانت ثقافة الكفر تنطلق من هذا المفهوم. فكيف يكون الحال إذا بلغهم قول النبى " على منى وأنا منه ولا يؤدى عنى إلا أنا أو

علی، " أو تحدید النبی لدائرة الطهر التی لا تفارق القرآن ولا یفارقها. ألا یکون الیأس لهم عنوانا علی امتداد التاریخ الإنسانی. وذلک لأن الصراط المستقیم أصبح له من یسوق الناس إلیه بعد وفاة الرسول. ثم أولیس إغلاق الباب فی وجوههم إکمالا للدین وإتماما للنعمة وإقامة للحجة. لینظر الله کیف تعمل الأمة الخاتمة تحت قانون سنة الابتلاء الجاریة. فقوله تعالی: (فلا تخشوهم واخشون)، یفید هذا

[صفحه ۱۷۵]

المعنی. قال المفسرون: أی لا موجب للخشیة بعد یأس الذین کنتم فی معرض الخطر من قبلهم. فأنتم فی مأمن من ناحیة الکفار. ولا ینبغی لکم مع ذلک الخشیة منهم علی دینکم. فلا تخشوهم واخشونی. فالدین مصون من الخطر المتوجه من قبلهم. وإنه لا یتسرب إلیه شئ من طوارق الفساد والهلاک إلا من قبل المسلمین أنفسهم. وإن ذلک إنما یکون بکفرهم بهذه النعمة التامة. ورفضهم هذا الدین الکامل المرضی. ویومئذ یسلبهم الله نعمته ویغیرها إلی النقمة ویذیقهم لباس الجوع والخوف. ومن أراد الوقوف علی مبلغ صدق هذه الآیة من قوله: (فلا تخشوهم واخشون)، فعلیه أن یتأمل فیما استقر علیه حال العالم الإسلامی الیوم. ثم یرجع القهقری بتحلیل الحوادث التاریخیة حتی یحصل علی أصول القضایا وأعراقها. لقد یأس الکفار عندما أیقنوا أن الدین بعد النبی صلی الله علیه وسلم خرج عن مرحلة القیام بالحامل الشخصی. إلی مرحلة القیام بالحامل النوعی. والحامل الشخصی عمود فقری للحامل النوعی. ولقد ضربهم الیأس عندما علموا أن الدین خرج من صفة الظهور والحدوث. إلی صفة البقاء والدوام. وصفة الظهور والحدوث رحی تدور علیها صفة البقاء والدوام. وفی عالم الیأس قرقعت أنیاب الحیتان. وسری صوتها لیلا فی الوادی الواسع العریض.

[۱] رواه ابن حبان فی صحیحه (البدایة والنهایة ۵:۱۳۰).

[۲] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۵:۱۳۷) (تفسیر ابن کثیر ۲:۷۷).

[۳] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۱۱:۸۱)، ورواه ابن حبان (البدایة ۵:۱۱۸).

[۴] رواه أبو داود (البدایة ۵:۱۸۹).

[۵] رواه أبو داود والنسائی أحمد (البدایة والنهایة ۱۹۸، ۵:۱۹۹).

[۶] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۵:۶۶۲) والنسائی (کنز العمال ۱:۱۷۲).

[۷] أخرجه أحمد (الفتح الربانی ۲۳:۱۲۱) والترمذی وقال حدیث حسن (الجامع ۲:۲۹۹) وأورده ابن کثیر فی البدایة والنهایة ۵:۳۵۷.

[۸] رواه أحمد وابن جریر والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۳:۱۷۴) وقال فی الفتح الربانی رواه أحمد وإسناده ص (الفتح ۲۳:۲۲۴).

[۹] سورة المائدة الآیة ۳، نزول الآیة یوم عرفة رواه أحمد والشیخان والترمذی (الفتح الربانی ۱۸:۱۲۶).

[۱۰] سورة الکوثر: آیة ۳.

یوم غدیر خم

بعد حجة الوداع عاد النبی صلی الله علیه وسلم إلی المدینة هو ومن

معه. وکان قد أحث یوم الحج علی التمسک بالکتاب والعترة وحذر الأمة من الاختلاف والافتراق وقتل بعضهم بعضا. وفی هذا الحج أخذ الناس عنه صلی الله علیه وسلم مناسکهم. وما أعلنه الرسول وما حث الناس علیه، کان علی مستوی المساحة الواسعة للأمة. وهذه المساحة تختلف عن المساحة الأم. بمعنی أن الأمور التی تتعلق بالقیادة لا تعلن إلا فی دائرة مساحة القیادة. لذا نراه صلی الله علیه وسلم فی بدایة الدعوة عندما نزل قوله تعالی: (وأنذر عشیرتک الأقربین) لم یأت بأفراد المساحة الواسعة وإنما تحدث أمام ناس

[صفحه ۱۷۶]

بأعینهم. وقال کما فی الحدیث الصحیح ": أیکم یبایعنی علی أن یکون أخی وصاحبی ووارثی، " کما مر من قبل. والأمور التی تتعلق

بالقيادة بعد حجة الوداع تقام الحجة فيها على ساحة القيادة أولا. وهذه المساحة هى رؤوس قريش بالمدينة. وذلك لأن قريشا هى النواة التى تدور حولها المساحة الواسعة، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم [" ۱] ، وفى رواية ": صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم [" ۲] ، فقريش بذور منها شجر. وقال النبى صلى الله عليه وسلم ": المرء مع من أحب [" ۳] .

والنبى فى طريقه من حجة الوداع. كان على علم تام من ربه. مما سيحدث لأمته من بعده. كان يعلم أن فى أمته من سيستمتع كما استمتع الذين من قبلهم وسيخوض كما خاضوا. وسيترتب على ذلك الحبط والخسران والبغى والافتراق، وكان يعلم أن مقدمة هذا كله ستكون من دائرة قريش وليس من الدائرة الواسعة، لذا نراه صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وجه إشاعات من الضوء على سبيل الخير ليهرع الناس إليه، فأوصى بالكتاب والعترة، وأعلن أن عليا منه وهو منه ولا يؤدى عنه إلا هو أو على. وهذا الاعلان. هو نفس الاعلان يوم سورة براءة فى العام التاسع الهجرى. وبعد أن سلط الضوء على سبيل الخير. سلطه على الجانب الآخر كى يحذر الناس من مقدمات الوقوع قبل الوقوع. ثم بين كيفية النهوض بعد الوقوع. كما سنبين فيما بعد. ومن أشعة الضوء على الجانب الآخر من قريش. عن أبى مطير قال: أخبرنى من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وهو يعظ الناس ويأمرهم وينهاهم فقال: أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء. فإذا

[صفحه ۱۷۷]

تجاحفت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه [" ۴] ، فهو فى حجة الوداع كان يعلم أن قريشا ستدفع لتشترى الدين من الناس. أليس هذا فى حاجة إلى إقامة حجة دافعة عليها؟ وفى رواية ": خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه. ولا أراكم تفعلون. يحملكم على ذلك الفقر والحاجة. ألا إن رحى بنى مرج قد دارت. وإن رحى الإسلام دائرة. وإن الكتاب والسلطان سيفترقان. فدوروا مع الكتاب حيث دار. وستكون عليكم أئمة أن أطعتموهم أضلوكم. وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال. كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير. موت فى طاعة. خير من حياة فى معصية [۵] ، قال صاحب عون المعبود فى شرح سنن أبو داوود: معنى حديث ترك أخذ العطاء. إذا رأيت قريش تخاصموا على الملك. وتقاتلوا عليه. وقال كل واحد منهم: أنا أحق بالملك أو الخلافة منك. وتنازعوا فى ذلك وأصبح هذا العطاء عن دين أحدكم، أى يعطوه لكم عوضا عن دينكم. فاتركوا أخذه [" ۶] .

باختصار الحديث عن القيادة لا يكون تفصيله إلا على أرضية قريش. فإذا كان على ولى كل مؤمن بعد رسول الله. فلا بد أن يعلن هذا أولا عند الأعقاب التى ستتصارع على الملك ليكون فى ذلك حجة عليها. ومن أراد أن يفهم هذا المعنى عليه أولا أن يسلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى قوم من البشر وليسوا من الملائكة. وهذا القوم كان النبى يتعامل معه وفقا لمصلحة الإسلام وكان لا يخاف إلا على الدعوة. ومن الدليل على ذلك. أن زيد بن حارثة كان عبدا للنبى صلى الله عليه وسلم. ثم حرره واتخذه ابنا له. وكان تحته زينب بنت جحش بنت عمة النبى. وكان النبى يعلم من ربه أن زينب ستكون من أزواجه. فجاء زيد إليه واستشاره فى طلاقها. فنهاه النبى عن

[صفحه ۱۷۸]

الطلاق. ثم طلقها زيد بعد ذلك وتزوجها النبى. يقول تعالى: (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) [۷] ، أى: لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ إن النبى قال هذا خوفا من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض. ولقد أخفى فى نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره. عابه الناس وطعن فيه تيار الذين فى قلوبهم مرض. فيؤثر ذلك أثرا سيئا فى إيمان العامة وحركة الدعوة. والنبى صلى الله عليه وسلم لم تكن خشيته للناس خشية على نفسه. بل كانت خشية فى الله. وهذا الخوف ليس خوفا مذموما لأن الخوف فى الله هو فى

الحقیقة خوف من الله تعالی. ومن المعلوم أن الله تعالی. فرض للنبی أن یتزوج زینب زوج زید. لیرتفع بذلک الحرج من المؤمنین فی التزویج بأزواج الأدعیاء. ألم یکن هذا الخوف علی أرضیة الصحابة؟ نعم کان علی أرضیتهم لأن کل من سمع من النبی أو رآه فهو صحابی. فالنبی خاف من بعضهم علی الدعوة. فإذا کان قد خاف منهم فی موقف کهذا. فکیف بموقف یترتب علیه قیادة هم من صاحبها فی غلیان؟ لقد بعث النبی صلی الله علیه وسلم فی بشر فیهم الصالح والطالح والمحسن والمسیء. والنبی صلی الله علیه وسلم کان ینتظر الوقت المناسب الذی یعلن فیه ولایة علی بن أبی طالب أمام قریش ومن حولهم فی المقام الأول لأنهم خمیرة الاختلاف وطلب الملک.. وفی أثناء ذلک نزل قوله تعالی: (یا أیها الرسول بلغ ما أنزل إلیک من ربک وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله یعصمک من الناس إن الله لا یهدی القوم الکافرین) [۸] .

فالآیة تکشف عن أمر قد أنزل علی النبی. وکان النبی یخاف الناس من تبلیغه ویؤخره إلی حین یناسبه. ولولا مخافته. لم یحتاج إلی تهدیده بقوله ": وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، " النبی کان یخاف ولکن لم تکن مخافته علی

[صفحه ۱۷۹]

نفسه. وکیف یخاف علی نفسه وهو الذی بلغ عن ربه. (الذین یبلغون رسالات الله ویخشونه ولا یخشون أحدا إلا لله) [۹] ، کیف وهو الذی بلغ قوله تعالی: (فلا تخافوهم وخافون إن کنتم مؤمنین) [۱۰] ، کیف؟ وهو الذی تلی قوله تعالی: (الذین قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لکم فاخشوهم فزادهم إیمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوکیل) [۱۱] ، إن النبی لم یخف علی نفسه. وإنما یخاف أن یتهموا الدعوة اتهاما یفسدها ویترتب علی ذلک اختلافها واخترامها، وقد علم من ربه أن هذا سیحدث. ولذا فهو صلی الله علیه وسلم یأخذ بأسباب النجاة لیقیم الحجة. فهو یخاف علی الدعوة وعلی الذین قدر لهم أن یعیشوا فی زمانه، یری فیه الإنسان الخیر والشر فلا یدری أیهما یرکب. ولله فی عباده شؤون. قال المفسرون: قوله ": وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " تفید التهدید بظاهرها. وإعلامه صلی الله علیه وسلم وإعلام غیره ما لهذا الحکم من الأهمیة. فالکلام فی صورة التهدید. لبیان أهمیة الحکم. بحیث أن هذا الحکم لو لم یصل إلی الناس. ولم یرع حقه. کان کأن لم یرع حق شیء من أجزاء الدین. والتهدید کما فی ظاهر الآیة. لا یعنی أن القرآن یذکر فی حق النبی احتمال أن یبلغ الحکم أو لا یبلغ. حاشا ساحة النبی صلی الله علیه وآله من ذلک. فالله تعالی یقول: (الله أعلم حیث یجعل رسالته) [۱۲] .

فإذا کانت سورة المائدة آخر سور القرآن نزولا علی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم. فما هو هذا الحکم النازل؟ إذا کان یختص بالوضوء والصلاة. فالناس قد توضأوا وصلوا. وإذا کان یختص بصیام رمضان وإیتاء الزکاة. فالناس صاموا من قبل وزکوا. وإذا کان یختص بتعلیم الناس مناسک الحج. فالرسول قد فرغ من حجة الوداع وأخذ الناس عنه مناسکهم والجمیع تحت مظلة لا إله إلا الله

[صفحه ۱۸۰]

محمد رسول الله. فما هو هذا الحکم الذی وأکبه تهدید من الله تعالی إذا لم یبلغ؟ قال المفسرون: لم یصرح القرآن باسم هذا الشیء الذی أنزل علی النبی من ربه. وعبر عنه بالعنت وإنه شیء أنزل إلیه. إشعارا بتعظیمه ودلالة علی أنه أمر لیس فیه لرسول الله صنع ولا له من أمره شیء. لیکون هذا البرهان علی عدم اختیار من النبی فی کتمانه وتأخیر تبلیغه. ویکون له عذر فی إظهاره علی الناس. وتلویحا إلی أنه مصیب فی ما تفرس منهم وتخوف علیه. وإیحاء إلی أنه مما یحب أن یظهر من ناحیته صلی الله علیه وآله وبلسانه وبیانه. هذا عن الحکم. أما قوله تعالی: (والله یعصمک من الناس) [۱۳] ، قال المفسرون: أخذ لفظ الناس. اعتبارا بسواد الأفراد. الذی فیه المؤمن والمنافق والذی فی قلبه مرض. وقد اختلطوا من دون تمایز، فإذا خیف خیف من عامتهم. والعصمة فی الآیة. بمعنی الحفظ والوقایة من شر الناس المتوجهة إلی النبی أو مقاصده الدینیة أو نجاح تبلیغه. والذی یجب أن تذکر به إن طریق تبوک فی العام التاسع الهجری. أنتج جماعة من اثنی عشر رجلا، أخبر الحدیث الصحیح أنهم لن یدخلوا الجنة حتی یلج الجمل فی سم الخیاط وإنهم حرب علی الله وعلی رسوله فی الحیاة الدنیا [۱۴] ، وأن الطریق من حجة الوداع إلی المدینة وزمنه ومکانه ضمن الحیاة الدنیا... وآیة سورة المائدة

التى نحن بصددها. ذهب فى أسباب نزلها إلى كل مذهب. فهناك من قال إنها مكية. وهذا القول لا يلتفت إليه. لأن الآية بتمامها لا تنطبق على الأحداث التى ذكروها. فلم يكن من شأن اليهود ولا النصارى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم. أن يتوجه إليه من ناحيتهم خطر يجعله يمسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حين. ولم يكن من شأن كفار قريش ومشركى مكة أن يفعل النبى ذلك أيضا. وهم أغلظ جانبا وأشد بطشا وأسفك للدماء

[صفحه ۱۸۱]

وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب. فهؤلاء لم يمسك النبى صلى الله عليه وسلم عن تبليغهم أو أخره. وإنما تعامل معهم على امتداد الرحلة بالذى تظهره كتب التفسير والحديث والتاريخ. وهؤلاء قد يأتى منهم خطر. ولكن هذا الخطر لا يأتى إلا بعد أن يتآكل الأساس. وتآكل الأساس مهمة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض - فى المقام الأول - لقد رد ابن كثير على القول بأن الآية مكية فقال فى تفسيره: إن هذه الآية مدينة. بل هى من أواخر ما نزل بها [۱۵] .

وقول ابن كثير بأن الآية أخر ما نزل. قد يفتح الأبواب على سؤال هو، ما هو الحكم الذى أنزل الله فى آخر آية نزلت على رسوله وقال له: (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) إن القول بأن هذا الحكم يتعلق بالطهارة والغسل والتكفين. قول لا يلتفت إليه. وعلى أى حال. فهناك نبذة من الأخبار تدل على نزول هذه الآية فى حق على بن أبى طالب يوم غدير خم. وقبل أن نقدم أحداث يوم الغدير. حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه أئمة الحفاظ عن جمع من الصحابة " من كنت مولاه فعلى مولاه " نلقى الضوء على الحديث ورواته. قال ابن كثير فى البداية: لما تفرغ النبى من بيان المناسك ورجع إلى المدينة. خطب خطبة عظيمة الشأن فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة. بغدير خم تحت شجرة هناك. فبين فيها أشياء. وذكر فى فضل على بن أبى طالب وأمانته وعدله وقربه إليه. وأزاح به ما كان فى نفوس كثير من الناس منه. وقد اعتنى بأمر حديث غدير خم أبو جعفر الطبرى فجمع فيه مجلدين وأورد فيها طرقه وألفاظه. وكذلك الحفاظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة فى هذه الخطبة [۱۶] .

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حديث من كنت مولاه. سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثون صحابيا. شهدوا به لعلى بن أبى طالب عندما

[صفحه ۱۸۲]

نوزع أيام خلافته. وصرح بتواتر هذا الحديث العديد من العلماء... وقال ابن حجر: حديث من كنت مولاه، كثير الطرق جدا، وقد استوعبها ابن عقدة فى مؤلف مفرد وأكثر أسانيدها صحيح وحسن [۱۷] ، وقال الألبانى فى كتاب السنة: حديث من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه حديث صحيح جاء من طرق جماعة من الصحابة. خرجت أحاديث سبعة منهم. ولبعضهم أكثر من طريق واحد. وقد خرجتها كلها وتكلمت على أسانيدها فى سلسلة الأحاديث الصحيحة [۱۸] .

وحديث الغدير رواه جمع من الصحابة منهم: زيد بن أرقم، ومالك بن الحويرث، وعلى بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدرى، وأبو أيوب الأنصارى. وجرير. وجندب الأنصارى، وطلحة وغيرهم، وسجل هذا الحديث فى كتبهم العديد من الأئمة والحفاظ منهم: أحمد بن حنبل والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان والحاكم والضياء وابن أبى شيبة. وابن جرير. وابن عساكر وأبو نعيم وسموية والخطيب والبزار وأبو يعلى والطبرانى وابن رهوية. وابن أبى عاصم والمحاملى وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد فى سبع صفحات. وذكر الفخر الرازى عند تفسيره الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، قال: نزلت هذه الآية فى فضل على بن أبى طالب. فلما نزلت أخذ النبى بيده وقال ": من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعادى من عاداه، " فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ": هنيئا لك يا ابن أبى طالب، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة، " وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن على [۱۹] وروى الواحدى فى كتابه أسباب النزول عن أبى سعيد الخدرى قال: نزلت هذه الآية: (يا أيها الرسول بلغ...)، يوم غدير خم فى

[صفحه ۱۸۳]

على بن أبى طالب. وغدير خم يقع على الطريق بين مكة والمدينة. وهو على بعد ثلاثة أميال من الجحفة. وهناك حكمة بالغة فى اختيار هذا الموقع لإقامة الحجة على قريش ومن حولهم. فالمنطقة صحراوية إلا من بعض الشجر. وقيل، كان هناك غيطة الغدير مضاف إليها، فالمكان معد لاستقبال من أراد الراحة من عناء سفر طويل. واختيار هذا المكان لإبلاغ الحكم النازل. كى يكون المكان فريدا لإعلان حكم فريد. بمعنى. لو أعلن الحكم فى حجة الوداع مثلا. وسئل الناس بعد ربع قرن على سبيل المثال. ماذا قال الرسول فى حجة الوداع: سيقولون. قال كذا عند الحلق والتقصير وذبح الهدى ورمى الجمار وأوصى بكذا وكذا، وأما إذا كان المكان قد خصص لحكم واحد كغدير خم. فلو قيل: ماذا قال الرسول فى الغدير؟ فلن تكون هناك إلا إجابة واحدة على سؤال محدد. وهذا ما فعله على بن أبى طالب أيام خلافته فكان لا يقول إلا " نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام [".. ۲۰] ، فإفراد المكان بحكم. لهدف ومن وراء الهدف حكمة. وأما حديث الغدير فإننا نسوق منه ما رواه الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضى الله عنه. قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد ألاـ أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله. فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى [۲۱] .

هذه رواية مسلم وفيها الخطوط العريضة. ومنها نعلم أن النبى يودع ويخبر

[صفحه ۱۸۴]

بأنه أوشك على الرحيل من هذه الحياة الدنيا. ولهذا أوصى بالطريق الذى يسوق الناس إلى الصراط الذى يوصلهم إلى ربهم حيث السعادة الحقيقية، وروى الإمام النسائى رواية بزيادة ": إنى قد تركت فيكم الثقلين. كتاب الله وعترتى أهل بيتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما. فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض. ثم قال: الله مولاى وأنا ولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد على فقال: من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [۲۲] ، وعن عمرو ذى مر وزيد بن أرقم معا. روى الطبرانى ": من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأعن من أعانه [" ۲۳] ، وروى ابن جرير عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس. إنه قد نبأنى اللطيف الخبير. إنه لم يعمر نبى إلا مثل نصف عمر النبى الذى قبله. وإنى لأظن إنى موشك، وإن أدعى فأجيب. وإنى مسؤول، وإنكم مسؤولون. فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت ونصحت فجزاك الله خيرا. قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن جنته حق وناره حق وإن الموت حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها. وإن الله يبعث من فى القبور. قالوا: نشهد بذلك وقال: اللهم فاشهد. ثم قال: أيها الناس إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين. وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فمن كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. أيها الناس. إنى فرطكم وأنتم واردون على الحوض. حوض عرضه ما بين بصرى وصنعاء. فيه عدد النجوم قدحان من فضة. وإنى سائلكم حين تردون على عن الثقلين. فانظروا كيف تخلفونى فيهما.

[صفحه ۱۸۵]

الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم. فتمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا. وعترتى أهل بيتى. وإنه قد نبأنى اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض [۲۴] .

ولقد وردت روايات تفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ البيعة لعلى. كان يذكر كل من يدخل عليه خيمته أو من يراه فى منطقة الغدير. عن جابر بن عبد الله قال: كنا بالجحفة بغدير خم. وثم ناس كثير من جهينة ومزينة وخفار. فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خباء أو فسطاط. فأشار بيده ثلاثا. فأخذ بيد على. فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه [۲۵] وعن البراء بن عازب أن

عمر بن الخطاب لقی بن أبی طالب بعد ذلک فقال: هنیئا لک یا ابن أبی طالب أصبحت وأمسیت مولی کل مؤمن ومؤمنة [۲۶] .

باختصار. شهد الغدیر إعلان الحکم. وسمعته قریش ومن ناصرهم. وانفرد المکان بهذا الحکم لتکون الحجة دامغة، وشاء الله أن تتفق الأمة علی صحة هذا الحدیث. وإذا کانت مقدمة الطریق مکة. حیث کانت حجة الوداع. فإن مقدمة الطریق شاهد من فیها وسمع البلاغ الذی یستقیم مع المساحة الواسعة. وشاء الله أن یشهد غدیر خم ما أعلنه الرسول فی مکة أمام هذه المساحة مضافا إلیه ما أعلنه أمام قریش، أوائل الناس فی الخیر والشر کما ورد فی الحدیث. قال ابن کثیر: قال الذهبی: وجدت نسخة مکتوبة عن ابن جریر

[صفحه ۱۸۶]

عن عائشة بنت سعد سمعت أباها یقول: سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول یوم الجحفة. وقد أخذ بید علی فخطب یوم قال": أیها الناس إنی ولیکم. قالوا: صدقت. فرفع ید علی فقال: هذا ولیی والمؤدی عنی. وإن الله مولی من والاه ومعادی من عاداه [۲۷] ، لقد استقام البدء مع الختام. ففی حجة الوداع قال صلی الله علیه وسلم ": لا یؤدی عنی إلا أنا أو علی [" ۲۸] ، وفی غدیر خم قال کما مر ": هذا ولیی والمؤدی عنی، " لقد استقبلت مساحة القیادة الاعلان التام للبدء والختام. ودارت الرحی.

[۱] رواه البخاری عن ابن عمر ک بدء الخلق ب، مناقب قریش (الصحیح ۲۶۴:۲) وابن أبی عاصم عن أبی هریرة (کتاب السنة ۵۳۴:۲).

[۲] رواه أحمد عن علی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۲۶:۲۴).

[۳] رواه البخاری ک الآداب (الصحیح ۷۷:۴) وصححه الترمذی (الجامع ۵۹۶:۴).

[۴] رواه أبو داود حدیث ۲۹۵۸.

[۵] رواه الطبرانی عن معاذ، وابن عساکر عن ابن مسعود (کنز العمال ۲۱۶:۱).

[۶] عون المعبود ۱۷۳:۸.

[۷] سورة الأحزاب: الآیة ۳۷.

[۸] سورة المائدة: الآیة ۶۷.

[۹] سورة الأحزاب: الآیة ۳۹.

[۱۰] سورة آل عمران: الآیة ۱۷۵.

[۱۱] سورة آل عمران: الآیة ۱۷۳.

[۱۲] سورة الأنعام: الآیة ۱۲۴.

[۱۳] سورة الأنعام: الآیة ۱۲۴.

[۱۴] سورة الأنعام: الآیة ۱۲۴.

[۱۵] تفسیر ابن کثیر ۷۹:۲.

[۱۶] البدایة والنهایة ۴۰۸:۵.

[۱۷] نظم المتناثر من الحدیث المتواتر / الکنانی ص ۱۹۴.

[۱۸] کتاب السنة / ابن أبی عاصم تحقیق نصر الدین الألبانی ۵۶۶:۲.

[۱۹] الفخر الرازی ص ۴۸، ۴۹:۱۲.

[۲۰] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (مجمع الزوائد ۱۰۴:۹).

[۲۱] رواه مسلم ب فضائل علی (الصحیح ۱۷۹:۱۵) وأحمد (الفتح الربانی ۱۸۵:۱) وابن أبی عاصم (کتاب السنة ۶۴۴:۲).

[۲۲] قال ابن کثیر رواه النسائی وقال الذهبی وهذا حدیث صحیح (البدایة والنهایة ۲۰۹:۵) ورواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی

شرط الشیخین ولم یخرجاه بطوله (المستدرک ۱۰۹:۳) ورواه الطبرانی عن ابن عمر وابن أبی شیبة عن أبی هریرة وأحمد والطبرانی وسعید بن منصور عن أبی أیوب. والحاکم عن علی وأبو نعیم عن سعد (کنز العمال ۶۱۰:۱۱)، وقال ابن کثیر رواه أحمد وهذا إسناده جید رجاله ثقات (البدایة ۲۱۲:۵).

[۲۳] رواه الطبرانی (الزوائد ۱۰۴:۹) والخطیب فی الإفراد عن علی (کنز ۱۳۱:۱۳) والبزار وابن جریر وقال الهیثمی رجال إسناده ثقات (کنز العمال ۱۵۸:۱۳).

[۲۴] رواه ابن جریر الطبری (کنز العمال ۲۹۰:۵) والطبرانی (کنز العمال ۱۸۹:۱) وابن أبی عاصم عن علی باختصار (کتاب السنة ۶۰۵:۲) وقال فی کنز العمال رواه ابن راهویه وابن جریر وابن أبی عاصم والمحاملی فی أمالیه عن علی وإسناده صحیح (کنز العمال ۱۴۰:۱۳) ورواه ابن عساکر (البدایة والنهایة ۲۴۹:۵).

[۲۵] رواه البزار (کنز ۱۳۷:۱۳) وقال ابن کثیر قال الذهبی إسناده حسن (البدایة والنهایة ۲۱۳:۵).

[۲۶] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۱۳۴:۱۳) ورواه أبو یعلی (البدایة والنهایة ۲۱۰:۵)، وقال ابن کثیر رواه ابن ماجة عن البراء وقد روی هذا الحدیث عن سعد وطلحة وجابر وأبی سعید الخدری وجریر وعمر وأبی هریرة (البدایة ۳۵۰:۵).

[۲۷] قال ابن کثیر رواه ابن جریر وقال شیخنا الذهبی وهذا حدیث حسن (البداة ۲۱۳:۵).

[۲۸] تم تخرجه من قبل.

الحجة علی من لم یشهد الغدیر

لم یکن إعلان النبی فی غدیر خم فی خطبة واحدة. وإنما بعد خطاب

رسول الله صلی الله علیه وسلم انتقل صلی الله علیه وسلم من قبیلة إلی قبیلة علی امتداد الغدیر وجاءوا إلیه من هنا وهناک وهو فی خیمته. وذکرهم وأخذ البیعة لعلی کما یستفاد من الأحادیث الواردة. وبعد وصول رکب النبی إلی المدینة بأیام. وصل أفراد سریة الیمن. التی بعثها النبی إلی هناک تحت قیادة علی بن أبی طالب وخالد بن الولید. وکان علی قد فارقهم لحضور حجة الوداع وعاد مع الرسول صلی الله علیه وسلم حتی شهد یوم الغدیر. ویوم أن بعث رسول الله صلی الله علیه وسلم علیا إلی الیمن. روی عن أبی رافع أنه قال: لما مضی علی قال النبی صلی الله علیه وسلم ": یا أبا رافع الحقه ولا تدعه من خلفه. ولیقف ولا یلتفت حتی أجیئه " فآتاه. فأوصاه بأشیاء فقال: یا علی لأن یهدی الله علی یدیک رجلا خیر لک مما طلعت علیه الشمس [" ۱] ولقد کان لهذا الدعاء أثرا بالغا فیما بعد. فلقد کان مع علی فی

هذه الرحلة من یبغضه أشد البغض. وعندما عادت القافلة وأراد بعضهم أن یشکو علیا لرسول الله. خرجوا من عند النبی وحب علی یجری فی عروقهم مجری

[صفحه ۱۸۷]

الدم. وسجل التاریخ لهؤلاء أعظم الأثر علی امتداد الرحلة بعد وفاة النبی الأکرم صلی الله علیه وسلم. ومن هؤلاء بریدة الأسلمی والبراء بن عازب وعمران بن حصین وغیرهم، وروی أن خالد بن الولید کان علی رأس المبغضین لعلی والمحرضین علیه [۲] ، فعن البراء قال: بعث النبی صلی الله علیه وسلم جیشین فأمر علی أحدهما علی بن أبی طالب، ومع الآخر خالد بن الولید. وقال: إذا کان القتال فعلی [۳] فافتتح علی حصنا فأخذ منه جاریة. فکتب معی خالد کتابا

إلی النبی یشی به. فقدمت علی النبی فقرأ الکتاب. فتغیر لونه. ثم قال ": ما تری فی رجل یحب الله ورسوله ویحبه الله ورسوله " قلت: أعوذ بالله من غضب الله وغضب الرسول. وإنما أنا رسول، فسکت النبی [۴] ، وبعد هذه المقابلة کان البراء من المخلصین لعلی. وعن عبد الله بن بریدة عن أبیه بریدة قال: أبغضت علیا بغضا لم یبغضه أحد قط، وأحببت رجلا من قریش لم أحبه إلا علی بغضه علی – هو

خالد - [۵] ، فبعث هذا الرجل على خيل فصحبته ما أصحبه إلا على بغض عليا. فأصبنا سبيا. فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابعث إلينا من يخمسه. فبعث عليا، فأخذ منه جارية. فكتب الرجل - خالد - إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: ابعثنى فبعثنى مصدقا. فجعلت أقرأ الكتاب. وأقول: صدق. فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم يدى والكتاب. وقال: أتبغض عليا؟ قلت: نعم، قال: لا- تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حبا، فوالذى نفسى بيده. لنصيب آل على فى الخمس أفضل من وصيفة. قال فما كان من الناس أحد بعد قول النبى صلى الله عليه وسلم أحب إلى من على.

[صفحه ۱۸۸]

قال عبد الله بن بريدة: فوالذى لا إله غيره ما بينى وبين النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث غير أبى بريدة [۶] ، وعن بريدة قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: يا بريدة. ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلى مولاه [۷] - وفى لفظ - من كنت وليه فعلى وليه [۸] ، وفى رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا تقع فى على فإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى. وإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى [" ۹] .

وعن عمرو بن شاس الأسلمى قال: خرجت مع على إلى اليمن. فجافانى فى سفرى ذلك. حتى وجدت فى نفسى عليه. فلما قدمت أظهرت شكايته فى المسجد. حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخلت المسجد ذات غدوة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه. فلما رآنى أبدى عينيه (أى: حدد إلى النظر) حتى إذا جلست قال: يا عمرو والله لقد آذيتنى! قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. قال: بلى من آذى عليا

[صفحه ۱۸۹]

فقد آذانى [۱۰] .

وروى الحافظ البيهقى: أن سعد بن مالك كان فيمن خرج مع على إلى اليمن وأصابه من على بن أبى طالب بعض الغلظة والتضييق. وذلك منعهم من استخدام إبل الصدقة. فاستخدموها فذمهم ولامهم. يقول سعد: فلما جاء - على - عرف فى إبل الصدقة أنها ركبت. فذم الذى أمره ولامه فقلت: أما إن لله على أن قدمت المدينة وغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذكرن لرسول الله ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق. فلما قدمنا المدينة. لقيت أبا بكر خارجا من عند رسول الله. فلما رآنى وقف معى. ورحب بى وساءلنى وساءلته. وقال: متى قدمت؟ قلت: قدمت البارحة. فرجع معى إلى رسول الله!! وقال أبو بكر: هذا سعد بن مالك بن الشهيد. فقال النبى: ائذن له. فدخلت. فحييت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيانى. وسلمت عليه وسألنى عن نفسى وأهلى. فأخفى المسألة. فقلت: يا رسول الله. لقينا من على بن أبى طالب ما لقينا منه! حتى إذا كنت وسط كلامى. ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وكنت منه قريبا. وقال: سعد بن مالك بن الشهيد!! مه بغض قومك لأخيك على. فوالله لقد علمت أنه جيش فى سبيل الله. قال سعد: فقلت فى نفسى: ثكلتك أمك سعد بن مالك. ألا أرانى كنت فيما يكره منذ اليوم. وما أدرى لا جرم. والله لا أذكره بسوء أبدا سرا ولا علانية [۱۱] .

وعن عمران بن حصين. قال: بعث رسول الله سرية وأمر عليها على بن أبى طالب. فأحدث شيئا فى سفره فتعاقد أربعة من أصحاب محمد أن يذكروا أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمران: وكنا إذا قدمنا من

[صفحه ۱۹۰]

سفر بدأنا برسول الله فسلمنا عليه. قال: فدخلوا عليه. فقام رجل منهم. فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الثانى فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الثالث فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا. فأعرض عنه. ثم قام الرابع فقال: يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا قال: فأقبل رسول الله على الرابع وقد تغير وجهه. وقال: دعوا عليا - دعوا عليا - دعوا عليا. إن عليا منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى [" ۱۲] .

وهكذا أقيمت الحجة على سرية اليمن. التى قال النبى فيها لعلى عند بداية رحلته " يا على لأن يهدى الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس " ولقد صدق رسول الله وانتقل رجال من دائرة البغض إلى دائرة الحب. وظل النبى يحيط قيادة على بن أبى طالب بالرعاية وتسليط الضوء عليها ليقيم الحجة الدامغة. ولم تكن الحجج من نصيب سرية اليمن وحدها بعد غدير خم وإنما شملت آخرين فعن سعد بن أبى وقاص قال: كنت جالسا فى المسجد أنا ورجلين معى. فنلنا من على بن أبى طالب. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله غضبان. يعرف فى وجهه الغضب. فتعوذت بالله من غضبه. فقال: ما لكم وما لى!! من آذى عليا فقد آذانى [۱۳] ، وعن أبى سعيد الخدرى قال: اشتكى عليا الناس. فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا خطيبا فسمعته يقول: أيها الناس لا تشكوا عليا!! فوالله إنه لأخشن فى ذات الله. أو فى سبيل الله [۱۴] .

وعن وهب ابن حمزة قال: سافرت مع على بن أبى طالب من المدينة إلى مكة. فرأيت منه جفوة. فقلت: لئن رجعت فلقيت رسول الله صلى الله عليه

[صفحه ۱۹۱]

وسلم. لأنالن منه قال: فرجعت فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عليا فقلت عنه. فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم": لا تقولن هذا لعلى. فإن عليا وليكم بعدى [" ۱۵] .

ولكى يكتمل تصور (هو وليكم بعدى) ويرسخ فى الأذهان. تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم آية من سورة المائدة آخر سور القرآن نزولا. وكانت الآية فى على بن أبى طالب. قال تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون – ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) [۱۶] .

قال المفسرون: اشتمل قوله تعالى من السياق. على ما يدل على وحدة ما فى معنى الولاية المذكورة فيه. حيث تضمن العد فى قوله: (الله ورسوله والذين آمنوا)، وأسند الجميع إلى قوله " وليكم " وظاهره كون الولاية فى الجميع بمعنى واحد. ويؤيد ذلك أيضا قوله فى الآية التالية: (فإن حزب الله هم الغالبون)، حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعا حزبا لله. لكونهم تحت ولايته. فولاية الرسول والذين آمنوا. إنما هى من سنخ ولاية الله.. ولو كانت الولاية المنسوبة إلى الله فى الآية. غير المنسوبة إلى الذين آمنوا. كان الأنسب أن تفرد ولاية أخرى للمؤمنين بالذكر. رفعا للالتباس. كما وقع فى نظيرها قال تعالى: (.. قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) [۱۷] ، فكرر لفظ الإيمان. لما كان فى كل من الموضعين. لمعنى غير الآخر. على أن لفظ (وليكم) أتى به مفردا وقد نسب إلى الذين آمنوا وهو جمع. وقد وجهه المفسرون بكونه الولاية. ذات معنى واحد، هو لله سبحانه على الإصابة ولغيره بالتبع... والروايات تدل على أن الآيتين نازلتان فى على بن أبى طالب. فقوله تعالى: (والذين آمنوا)، إطلاق للجمع وإرادة للواحد. وقد كثر

[صفحه ۱۹۲]

فى القرآن الحكم أو الوعد والوعيد للجماعة. والحقيقة حسب أسباب النزول للمفرد كقوله تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) [۱۸] ، وقوله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) [۱۹] ، وقوله تعالى: (الذين يظاهرون – من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) [۲۰] ، وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) [۲۱] ، وقد صح فى أسباب النزول أن المراد به حاطب بن أبى بلتعة فى مكاتبته قريش. وقوله تعالى: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) [۲۲] ، وقد صح أن القائل عبد الله بن أبى سلول. وقوله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) [۲۳] ، وقد ورد أنها نزلت فى على بن أبى طالب، وقوله تعالى: (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى) [۲۴] ، والقائل هو عبد الله بن أبى، وهذه الآية واقعة بين الآيات المبحوث عنها نفسها إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى وردت بلفظ الجمع ومصداقها حسب أسباب النزول مفرد. أما الحديث الذى يشهد بأن الآية نزلت فى على بن أبى طالب. فقد اتفق على نقله من غير رد أئمة التفسير بالمأثور. واتفق عليه أحمد والنسائى والطبرانى والطبرى وعبد بن حميد وغيرهم من الحفاظ وأئمة الحديث. فعن ابن عباس قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يصلون

بین راکع وساجد وقائم وقاعد. وإذا مسکین یسأل. فدخل رسول الله صلی الله علیه وسلم. فقال: أعطاک أحد شیئا؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: ذلک الرجل القائم، قال:

[صفحه ۱۹۳]

علی أی حال أعطاکه؟ قال: وهو راکع، قال: وذلک علی بن أبی طالب. قال: فکبر رسول الله صلی الله علیه وسلم وهو یقول: (ومن یتولی الله ورسوله والذین آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) [۲۵] .

وقال ابن کثیر، قال ابن جریر. الآیة نزلت فی علی بن طالب تصدق وهو راکع [۲۶] ، وروی الطبرانی: بطریق إلی عیسی بن عبد الله بن عبید الله بن عمر بن علی بن أبی طالب قال: حدثنی أبی عن أبیه عن جده عن علی قال ": نزلت هذه الآیة علی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم: (إنما ولیکم الله ورسوله والذین آمنوا...) الآیة، فخرج رسول الله فدخل المسجد والناس یصلون بین راکع وقائم وإذا سائل. فقال: یا سائل هل أعطاک أحد شیئا. فقال: لا إلا ها ذاک الراکع - لعلی - أعطانی خاتمه [۲۷] .

إنها المنقبة التی جمعت أحداث الغدیر. منقبة تفرد بها علی فتصدق وهو راکع. لیستقیم هذا التفرد. مع تفرد الغدیر بحدیث واحد وحدث واحد. فإذا قیل: ماذا قال النبی فی الغدیر؟ تردد صدی الإجابة مع إجابة سؤال: من الذی تصدق وهو راکع؟ إنه موقف التفرد وسط مواقف کثیرة، فلقد روی عن ابن عباس قال ": نزلت علی ثلاثمائة آیة [" ۲۸] وعنه. قال ": کان لعلی ثمانی عشر

منقبة ما کانت لأحد من هذه الأمة [" ۲۹] ، وإذا لا خلاف علی أن منقبة علی بن أبی طالب فی هذه الآیة واحدة من هذه المناقب التی لم یتمتع بها غیره. إن ظلال ولایة الله ورسوله والذین آمنوا، یلتقی مع ظلال وأطیعوا الله وأطیعوا الرسول وأولی الأمر منکم. وتحت هذا الظلال ینتهی الطریق إلی سعادة الدنیا والآخرة. ولقد قامت الحجة فی أول الطریق وشاع حدیث الکساء

[صفحه ۱۹۴]

والمباهلة والمنزلة والولایة بین الناس. والماضی زاد للحاضر. والقرآن حث علی النظر إلی الماضی کی یتبین الإنسان فی الحاضر خطأه. لأن الماضی لا یعمل فیه برنامج واحد ولم یکن ملکا لدائرة واحدة. فالنظر والتدبر فریضة حتی لا یلد الحاضر مستقبلا کسیحا. نکون نحن بالنسبة إلیه ماضیا وحتما فی عالم الکساح لن یکتب للذین لم یتدبروا الخلود.

[صفحه ۱۹۵]

[۱] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۰۷:۱۳).

[۲] قتل علی یوم بدر أخوه قیس بن الولید ثلاثة من أبناء أعمامه.

[۳] أی إذا کان قتال فالقیادة لعلی.

[۴] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۸:۵) وابن أبی شیبة (کنز ۱۳۴:۱۳).

[۵] صرح باسمه فی روایة أخری عند الإمام أحمد (الفتح الربانی ۵۵:۱۷)، وأیضا (کنز العمال ۱۳۵:۱۳).

[۶] رواه أحمد (الفتح ۵۶:۱۷) والبخاری فی مختصرا (الصحیح ۷۳:۳) وأبو نعیم (کنز العمال ۱۳۵:۱۳) وقال فی الفتح أقسم ابن بریدة أنه تلقی هذا الحدیث من والده بریدة مباشرة. وهو یفید أن والده تلقاه من النبی مباشرة بغیر واسطة یشیر بذلک إلی علو السنن (الفتح ۲۱۴:۲۲).

[۷] رواه أحمد وقال فی الفتح قال الهیثمی رجال أحمد ثقات. وقال فی موضع آخر رجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۲۱۳:۲۱) ورواه ابن حبان وسمویة والحاکم (کنز العمال ۶۰۹:۱۱).

[۸] رواه أحمد وقال فی الفتح رواه أحمد والنسائی والحاکم وقال الهیثمی فی موضع رجاله موثقون وفی موضع رجاله ثقات، وفی آخر رجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۲۱۳:۲۱)، ورواه ابن أبی شیبة وابن جریر وأبو نعیم (کنز ۱۳۴:۱۳)، ورواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجاه (المستدرک ۱۱:۳).

[۹] رواه أحمد وأورده الهیثمی وقال رواه الترمذی باختصار ورواه أحمد والبزتر باختصار وفیه الأجلح الکندی وثقه ابن معین وبقیة رجاله أحمد رجال الصحیح. وقال فی الفتح أقسم ابن بریدة أنه تلقی هذا الحدیث من والده (الفتح الربانی ۲۱۴:۲۱).

[۱۰] رواه أحمد (الفتح ۱۲۰:۲۳) وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی باختصار والبزار أحضر منه ورجال أحمد ثقات ورواه ابن حبان فی صحیحه (الزوائد ۱۲۹:۹)، ورواه الحاکم وقال حدیث صحیح الإسناد ولم یخرجاه (المستدرک ۱۲۲:۳)، ورواه ابن أبی شیبة وابن سعد والبخاری فی تاریخه والطبرانی (کنز العمال ۱۴۲:۱۳) وقال ابن کثیر رواه غیر واحد. (البدایة والنهایة ۳۴۷:۷).

[۱۱] رواه البیهقی (البدایة والنهایة) ۳۴۶:۷.

[۱۲] رواه الترمذی وحسنه، والنسائی وأبو یعلی (البدایة ۳۴۵:۷).

[۱۳] قال الهیثمی رواه أبو یعلی والبزار باختصار، ورجال أبی یعلی رجال الصحیح غیر محمود بن خداش وقنان وهما ثقتان (الزوائد ۱۲۹:۹)، وذکره ابن کثیر وقال رواه أبو یعلی (البدایة ۳۴۷:۷).

[۱۴] رواه أحمد (الفتح ۲۰:۲۳) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۴:۳) وأبو نعیم فی الحلیة (کنز ۶۲۰:۱۱) وقال ابن کثیر تفرد به أحمد (البدایة ۳۴۶:۵).

[۱۵] رواه أبو یعلی (البدایة ۳۴۶:۷).

[۱۶] سورة المائدة: الآیة ۵۶.

[۱۷] سورة التوبة: الآیة ۶۱.

[۱۸] سورة البقرة: الآیة ۲۱۹.

[۱۹] سورة آل عمران: الآیة ۱۸۱، والقائل یهودی اسمه قحاص (تفسیر ابن کثیر ۴۳۴:۱).

[۲۰] سورة المجادلة: الآیة ۲ و ۳، والذی ظاهر هو أوس وکان تحته ابنة عم یقال لها خولة (تفسیر ابن کثیر ۳۲۰:۴).

[۲۱] سورة الممتحنة: الآیة ۱، نزلت فی حاطب بن أبی بلتعة (تفسیر ابن کثیر ۳۴۵:۴).

[۲۲] سورة المنافقون: الآیة ۸، والقائل عبد الله بن سلول (تفسیر ابن کثیر ۳۷۱:۴).

[۲۳] سورة البقرة: الآیة ۲۷۴، نزلت فی علی بن أبی طالب (تفسیر ابن کثیر ۳۲۶:۱).

[۲۴] سورة المائدة: الآیة ۵۲، نزلت فی عبد الله بن أبی (تفسیر ابن کثیر ۶۸:۲).

[۲۵] رواه ابن مردویه (تفسیر ابن کثیر ۷۱:۲).

[۲۶] تفسیر ابن کثیر ۷۱:۲.

[۲۷] رواه الطبرانی (البدایة والنهایة ۳۵۸:۵).

[۲۸] تاریخ الخلفاء / السیوطی ص ۱۶۱.

[۲۹] تاریخ الخلفاء ص ۱۶۱.

النور بین التحذیر والتبشیر

فی بدایة الطریق غرس الله تعالی فی الإنسان ما یهدیه سلوک الصراط المستقیم. وبعث سبحانه الأنبیاء والرسل کی یسوقوا الناس نحو ربهم بعیدا علی الأشواک وخیام الشذوذ التی أقامها الشیطان وأولیاؤه. فالدین الذی یأتی به رسل الله علیهم السلام هو الطریقة الوحیدة التی تؤمن صلاح الدنیا بما یوافق الکمال الأخروی والحیاة الدائمة الحقیقیة. ومن رفض الدین فقد أعرض عن الذکر والعبادة التی من أجلها خلق الله الإنسان. وعلی هذا یدخل بأقدامه فی دائرة الضنک حیث ضیق المعیشة فی الدنیا ثم فی دائرة العمی یوم القیامة. والله تعالی لا یظلم الناس. والعذاب الذی یرونه فی الدنیا وسیرونه فی

الآخرة هو نتيجة طبيعية لأعمالهم.. ومنذ فجر التاريخ تأتى الأمم وتجرى عليها سنة الابتلاء والامتحان. تلك السنة الإلهية التى لا يستثنى منها المؤمن والكافر والمحسن والمسىء. وتحت هذه السنة يمتحن الله تعالى البشر. بكل جزء من أجزاء العالم وكل حالة من حالاته التى لها صلة بالإنسان ليعلم سبحانه كيف وإلى أين سيوجه الإنسان إرادته واختياره. ومن هو المحسن ومن هو المسىء، ومن الصابر ومن القانط إلى غير ذلك، وما من امتحان يفتح إلا وفيه حجة من الله ترشد إلى طريق الحق لأن الله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه. وبنى إسرائيل أمة من الأمم التى اختبرها الله تعالى وفى البداية قال لهم موسى عليه السلام كما أخبر تعالى: (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم

[صفحه ۱۹۶]

ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) [۱] .

وأقام عليهم موسى وهارون الحجة تلو الحجة، وجاء من بعدهما أنبياء لبنى إسرائيل فكذبوا من كذبوا وقتلوا من قتلوا. فى نهاية المطاف فاز من بنى إسرائيل من فاز ولعن من لعن. والحجة على رأس الجميع يوم القيامة. والأمة الخاتمة، يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزى القوم المجرمين - ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) [۲] .

ولما كان الاستخلاف يخضع لسنة الامتحان الإلهى، فما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من شئ إلا وحدد جانب الهدى فيه، وهو يخبر عن ربه جل وعلا فإذا كان الله هو الذى يجرى الامتحان على عباده، فهو الذى يبين النجاة من كل شئ إلى عباده. قال تعالى لرسوله: (ليس لك من الأمر شئ) [۳] .

فالضعف والقوة والإخزاء والإغاظة وغير ذلك ليس للنبى فيه ضلع، والأمر فيه لله. وقال تعالى لرسوله: (واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) [۴] .

ومن العجيب أن يقول القوم أن الأمر لهم فى تنصيب ما يشاؤون، ومع اختيارهم، ولأن الأمر لهم ركب على أعناق الأمة أغيلمة قريش الذين مهدوا للسفهاء وأولاد الزنا أصحاب أطروحات الاغواء والتزيين والاحتناك. ومن الأعجب، إن الله تعالى يقول لرسوله: (استقم كما أمرت)، وهم لا

[صفحه ۱۹۷]

يطيقون أن يقال لهم اتقوا الله. وجمعوا فريقا من الناس وقالوا: هؤلاء رمزا للاستقامة والعدالة، وإذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران، وإذا قتل فهو والقتيل تحت عنوان: سيدنا قتل سيدنا من أجل سيدنا رضى الله عنهم أجمعين. وهذا الخلط أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقيم الحجة بعد أن أقام القرآن حجته على أن الجميع - سيدنا وغير سيدنا - يخضع للسنة الإلهية للابتلاء والامتحان، وتحت هذه السنة لا ينبغى للناس أن يزكوا أنفسهم لأن الله أعلم بالمتقين.

[۱] سورة الأعراف: الآية ۱۲۹.

[۲] سورة يونس: الآية ۱۳ و ۱۴.

[۳] سورة آل عمران: الآية ۱۲۸.

[۴] سورة الشورى: الآية ۱۵.

النبى يحذر من أصول الفتن

فى غدير خم وعلى امتداد الرحلة أقام النبى صلى الله عليه وسلم

الحجة على قريش ومن والاهم وعلى سكان العاصمة الإسلامية أن القيادة محصورة فى دائرة لا تأكل الصدقة. ولهذه الدائرة ذروة كما

لكل شئ ذروة، وعندما يحث النبى على شئ ويبالغ فى الحث عليه إشارة إلى أن المحذر منه سيقع. والنبى كان يعلم من ربه أن الأمة مختلفة من بعده ولأن الاختلاف واقع لا محالة فبث الحجة بطرق مختلفة ضرورة والله لا يظلم الناس. فى البداية خلق سبحانه آدم للخلافة فى الأرض، وقبل أن يخلقه قال لملائكته: (إنى جاعل فى الأرض خليفة) [۱] .

لم يقل فى الجنة وإنما فى الأرض، وبعد خلق آدم نهاه الله عن شجرة وحذره من شيطان. وانطلق آدم وزوجه عليهما السلام فى الجنة باختيارهما. لم يدفعا للهبوط إلى الأرض لممارسة واجب الخلافة. لأن الله لا يظلم أحدا. وهو سبحانه قادر على خلقهما ودفعهما نحو الأرض. ولكن لكل شئ هدف ومن وراء الهدف حكمة. فلو حدث هذا ما ظهر النفاق الشيطانى وبرنامجه، وما ظهرت دائرة العزم والاختيار عند الإنسان. وآدم وزوجه عليهما السلام كانا منذ

[صفحه ۱۹۸]

البداية من المخلصين الذين لا يقدر عليهم الشيطان بشرك أو نحوه. ولم يجد الشيطان منفذا يؤكد من التزيين لهما سوى أن يقسم بالله أنه لهما من الناصحين (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) [۲] .

وما كان آدم يظن أن هناك من يقسم بالله كذبا فى هذا العالم الطاهر التقى. وحدث ما حدث. وخرجا من الجنة وفقا لعزمهما واختيارهما ليمارسا واجب الخلافة فى الأرض التى من أجلها خلقا. والله تعالى قبل خلق آدم علم بعلمه المطلق أن خلقه سيسلكون هنا ويتركون هناك، ولو شاء سبحانه ما فعلوا هذا أو ذاك. لأن كل شئ تحت سلطانه ولا يستطيع أحد من خلقه أن يلفظ من قول إلا بإذنه، وعلى الأرض تاب الله على آدم وزوجه واصطفاه وبعث إلى ذريته الأنبياء والرسل. وفى بحور البشرية لبس القسم ألف وجه. وكان مادة أساسية لعرقلة الطريق أمام الذين عطلوا ملكة البصيرة والتفكر فى ملك الله الواسع العريض. والأمة الخاتمة جزء من المسيرة البشرية. عرضة لعواصف القسم والدجل. لهذا بث النبى الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة. واختلاف الأمة ورد فى آيات كثيرة من القرآن وروى عن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": آتانى جبريل فقال: يا محمد إن أمتك مختلفة من بعدك [۳]" .

ودائرة الاختلاف لن تكون على مائدة طعام وإنما على الرأس. لأن من ملك الرأس وضع يده على كل بساط. فعن خالد بن عرفطة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنكم ستبتلون فى أهل بيتى من بعدى [۴] " .

فالاختبار هنا وليس فى مكان غير هذا. والاختبار هنا لأن الكتاب هنا. والله لا يختبر إلا فيما أمر ونهى. وما ربك بظلام للعبيد. ولما كان على بن أبى طالب هو رأس أهل البيت فإنه ضمن المادة التى تختبر الأمة فيها. فعنه أنه قال:

[صفحه ۱۹۹]

إن مما عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن الأمة ستغدر بك بعدى [۵] " .

والنبى الأكرم صلى الله عليه وسلم، سأل ربه أن لا يفرق أمته، وأن لا يجعل بأسهم فيما بينهم. ولكن الله الذى يعلم ما تحتويه طينة كل إنسان من خلقه أبى عليه. روى عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": سألت ربى ثلاثا، فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة. سألت ربى أن لا يهلك أمتى بسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرور فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها – وفى رواية – وسألته أن لا يلبسهم شيئا فأبى على [۶] " .

فالباب الذى منعه الله غمرته الحجج من كل مكان، والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى تحذر من الاختلاف والافتراق والبغى والاستكبار والإنكار وغير ذلك وتحث على الطاعة والوحدة والأخلاق والاستقامة وغير ذلك لا يخلو منها مصدر إسلامى. ونحن هنا لا نسلط ضوء الحجة إلا على دائرة الجيل الأول فى القرن الهجرى الأول. لأن على حركة هذا الجيل دارت العجلة آخذة من ورائها فى كل زمان الماضى والحاضر وهى تتقدم نحو المستقبل. ولأن الجيل الأول هو العجينة التى سيأكل من خبزها الجميع ما ترك النبى بابا إلا وتكلم فيه، عن أبو زيد قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم

صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا

[صفحه ۲۰۰]

أحفظنا [" ۷] .

كان النبى يعلم من ربه أن الفتنة إذا انطلقت فلن تنطلق إلا من عند الذين سمعوا منه وشاهدوه. وإنها ستسير بوقودهم على امتداد التاريخ، ولهذا كان يشير ويحذر. فعن أسامة قال: أشرف النبى صلى الله عليه وسلم على أطم [۸] من أطام المدينة ثم قال: هل ترون ما أرى؟ إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر [" ۹] .

والتشبيه بمواقع القطر أى أنها كثيرة وتعم الناس. وقال النووى: وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم... وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم [۱۰] لأن ما أخبر به وقع. وإذا كان النبى قد أشار إلى مواقع الفتن على ساحة المدينة الواسعة فإنه صلى الله عليه وسلم أشار إليها فى ساحة أضيق. فعن أم سلمة قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول: لا إله إلا الله ما فتح الليلة من الخزائن؟ لا إلا إلا الله ما أنزل الليلة من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجر، يريد به أزواجه... يا رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة" [۱۱] .

وقيل فى المعنى: كاسية من نعم الله، عارية من الشكر الذى تظهر ثمرته فى الآخرة [۱۲] ، ومن ساحة بيوت النبى حيث المساحة الضيقة، أشار عليه الصلاة والسلام إلى ساحة أضيق، روى البخارى عن عبد الله قال: قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فأشار نحو مسكن عائشة فقال: ها هنا الفتنة، ها هنا

[صفحه ۲۰۱]

الفتنة، ها هنا الفتنة. من حيث يطلع قرن الشيطان [" ۱۳] .

[۱] سورة البقرة: الآية ۳۰.

[۲] سورة الأعراف: الآية ۲۱.

[۳] رواه أحمد (الفتح الربانى ۱۸۶:۱).

[۴] رواه الطبرانى (كنز العمال ۱۲۴:۱۱).

[۵] رواه البيهقى وقال ابن كثير ابن كثير سنده صحيح (البداية ۲۱۸:۶) ورواه البزار بسند صحيح والحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرك ۱۴۰:۳).

[۶] رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ۱۴:۱۸) وأحمد (الفتح ۲۱۵:۲۳) وأحمد وابن ماجة بسند صحيح (كنز ۱۲۱:۱۱) والترمذى والنسائى وابن حبان والضياء عن خباب (كنز ۱۲۲:۱۱).

[۷] رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ۱۶:۱۸) وأحمد (الفتح ۲۷۲:۲۱).

[۸] الأطم / القصر أو الحصن.

[۹] رواه البخارى ك الحج (الصحيح ۳۲۲:۱)، ومسلم (الصحيح ۷:۱۸).

[۱۰] شرح مسلم ۷:۱۸.

[۱۱] البخارى ك اللباس (الصحيح ۳۳:۴) والترمذى وصححه (الجامع ۴۸۸:۴) وأحمد الفتح ۳۴:۲۳).

[۱۲] فتح البارى ۲۳:۶۰.

[۱۳] رواه البخارى (فتح البارى شرح صحيح البخارى حديث رقم ۳۱۰۴ ص ۲۴۳:۶ ط دار الريان).

الرسول و نظرات على واقع بعيد

لم يكن النبى يحذر من الفتن فقط، وإنما كان يبين لمن حوله أن الفتنة إذا

هبت انطلق دخانها فى سماء العصور والدهور. وعلى امتداد هذه المسيرة يدون لها ثقافات وقوانين لا تخدم إلا أنصار الشذوذ الذين لا هم لهم إلا التعتيم على نور الفطرة والصد عن السبيل. وفى نهاية المطاف يستخدم المسيح الدجال هذه الأوراق لصالحه. والدجال أعظم فتنة منذ ذرأ الله ذرية آدم وما من نبى إلا وحذر قومه الدجال، ولقد حذر نوح قومه منه ليس على أساس أنه خارج فيهم. لأن نوح كان يعلم من ربه أنه يخرج فى الأمة الخاتمة. وإنما حذرهم من نسيج الشذوذ. لأن كل نسيج من هذا يتلقفه الشيطان ويلقيه على رأس البشرية من جيل إلى جيل، حتى يستقر عند الدجال آخر الزمان، والنبى حذر أصحابه على هذا النحو، لأن الدجال خارج فى الأمة الخاتمة لا محالة. فعن حذيفة قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لأنا لفتنة بعضكم بعضا أخوف عندى من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها، وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال [" ۱] .

فالشذوذ حلقات، وحلقات الشذوذ يصنعها أصحاب القسم الزائف، أى الأئمة المضلين، فعن أبى ذر قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": غير الدجال أخوف على أمتى. "؟) قلت: يا رسول الله أى شئ أخوف على أمتك من الدجال؟

[صفحه ۲۰۲]

قال ": الأئمة المضلين [" ۲] .

فهؤلاء الباب الذى يدون عنده القانون ذو الغلاف المزخرف، الخارج عنه فى عرفهم خارج عن الدين، ولأن الدين غلافه فى عالمهم. يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر. والنبى صلى الله عليه وسلم حدد ثلاث فتن: الأولى فيها موت والثانية فيها قتل والثالثة فيها الدجال، ومن نجا عند الباب نجا عند الدجال. عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة من نجا منها فقد نجا. من نجا عند موتى فقد نجا، ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطى الحق من نفسه فقد نجا. ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا [" ۳] .

فعند موته صلى الله عليه وسلم تحدث أحداث من نجا منها فقد نجا، فهذه الأحداث باب وهذا الباب يوصل إلى الحلقة الثانية. حيث الخليفة المظلوم. فمن وقف فى دائرة المظلوم الذى يعطى الحق ثم يأتيه القتل وهو مظلوم فقد نجا، وكم من خليفة قتل على امتداد التاريخ الإسلامى. وكل حزب وكل قبيلة تقسم أن خليفتها قتل مظلوما. ولكى لا تضيع الحقيقة لصالح الدجال فلا بد لتحديد الخليفة أن يقال: خليفة من؟ فإن قيل: خليفة لله، قلنا: ما البرهان؟ إذا نسب أى شئ إلى الله لا بد أن يكون عليه دليل. ألم تر أن المشركين كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا أن الله أمرهم بهذا. ألم تر أنهم عبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر وقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولم يكن معهم دليل على هذا وذاك. ألم ترى أن عبادة الأصنام دخلت من باب التقرب إلى الله والله برئ من المشركين.

[صفحه ۲۰۳]

ألم تر أن دأب القرآن التمييز بين الحق والباطل والعلم والجهل والجهاد والقعود وغير هذا حتى يكون لكل شئ معالمه ولا تختلط الأوراق. حتى النبوة لا بد أن يكون عليها من الله برهان، والإمامة قال تعالى فيها لإبراهيم عليه السلام: (لا ينال عهدى الظالمين) [۴] وعلى هذا لا بد أن يحدد للناس من

العادل ويكون عدله حجة بذاتها على الظالمين. وكذلك الخلافة. فالخلافة عنه تعالى منزلة. وما دامت عنه تعالى فهو سبحانه الذى يحدد دائرتها. فكم من دائرة إنسانية مهمتها الصد عن السبيل وكل دائرة لها أسماؤها الرنانة. وإذا كان الشيطان قد زخرف قاموس الأسماء وخرج من أتباعه من يدعى الألوهية والنبوة ومراتب الصلاح فلا بد أن يقابل هذا الدوائر الحق التى تشير للناس نحو دوائر الزيف وتسوقهم إلى الصراط المستقيم. والقرآن أشار إلى دائرة الخلافة وكيف نسبها الله إلى نفسه. فداوود عليه السلام كان رسولا. وبمنزلة الرسالة كان يحق له أن يدخل أى دائرة من دوائر الهدى ولكنه لم يدخل إلا بإذنه، قال تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة

فی الأرض فاحکم بین الناس بالحق) [۵] .

فالخلافة لیست وجاهة، لا بد للخلیفة أن یتخلق بأخلاق الله. ویرید ویفعل ما یریده الله. ویحکم ویقضی بما یقضی به الله. والله یقضی بالحق وأن یسلک سبیل الله ویسوق الناس إلیه ولا یتعداه. ولا یتبع فی قضائه الهوی هوی النفس لأنه یضل عن الحق. ولهذا وصف النبی الخلیفة المظلوم الذی یقتل فقال ": خلیفة یقتل مظلوما وهو مصطبر یعطی الحق من نفسه. " ودائرة الخلافة لا یجب أن تفترق عن القرآن ولهذا قال النبی صلی الله علیه وسلم ": إنی تارک فیکم خلیفتین کتاب الله حبل ممدود ما بین السماء والأرض وعترتی أهل بیتی وإنهما لن یتفرقا حتی یردا علی

[صفحه ۲۰۴]

الحوض [" ۶] .

والدائرة الثانیة فی الحدیث دائرة الخلیفة الذی یقتل مظلوما، تمهد للدائرة الثالثة التی یتربع فیها الدجال. والطریق بین الدائرتین یجلس فیه القاتل. أی قاتل الخلیفة المظلوم. فمن تبین هذه الحقیقة بعد قتل الخلیفة. فقد نجا مثل الذین نصروا الخلیفة المظلوم فی حیاته. فعن عبد الله بن مسعود. قال جاء رجل إلی النبی صلی الله علیه وسلم فقال: یا رسول الله. کیف تقول فی الرجل أحب قوما ولم یلحق بهم؟ فقال النبی: المرء مع من أحب [۷] ، أما من وضع علی عینیه الغمامة ومر علی الخطیئة مر الکرام. فیجیبه أبو العرس بن عمیرة. قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم: إذا عملت الخطیئة فی الأرض کان من شهدها فکرهها کمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضیها کان کمن شهدها [۸] ، فمن غاب عنها ورضی وشارک الذی شهدها ورضی وإن بعدت المسافة وبعد الزمان بینهما. والفتنة فی کل حلقة لا بد من أن تترک أثرا لها علی القلوب. فمن أنکر لا یتعکر قلبه. ومن رضی تعکر قلبه ودخل علی فتنة الدجال وهو یهلل للدجال مغدیا له بالروح والدم والمال. وعن أثر الفتن علی القلوب. یقول حذیفة: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": تعرض الفتن علی القلوب. فأی قلب أنکرها. نکتت فی قلبه نکتة بیضاء. وأی قلب لم ینکرها نکتت فی قلبه نکتة سوداء. حتی یصیر القلب أبیض مثل الصفا. لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مربدا کالکوز مجفیا. لا یعرف معروفا ولا ینکر منکرا. إلا ما شرب من هواه [" ۹] ، ومن أجل هذا لا بد من البحث عن الحقیقة. لأن الحلقة القادمة هی حلقة الدجال. ومن دخل علیها وهو عارف بحقیقتها فقد

[صفحه ۲۰۵]

نجا. أما الذی یدخلها لیبحث عن الحقیقة بداخلها، فلن ینفعه إیمانه لأن لله آیات لا ینفع فیها إیمان نفس لم تکن آمنت من قبل. قال تعالی: (یوم یأتی بعض آیات ربک لا ینفع نفسا أیمانها لم تکن آمنت من قبل أو کسبت فی إیمانها خیرا قل انتظروا إنا منتظرون) [۱۰] ، وهذه الآیات حددها البنی صلی الله علیه وسلم فقال ": ثلاث إذا خرجن لا ینفع نفسا أیمانها لم تکن آمنت من قبل أو کسبت فی أیمانها خیرا. الدجال والدابة. وطلوع الشمس من المغرب، " رواه الترمذی وغیره [۱۱] .

فالنبی صلی الله علیه وسلم حذر من أصول الفتن وهو یشیر إلی بیوت أصحابه. وحذر من فتنة قومه وفتنة قتل الخلیفة القائم بالحق. وبین أن الفتن کبیرها وصغیرها یقود إلی الدجال. کان یحذر وفی التحذیر حجة کی لا یفتح فاتح الباب.

[۱] رواه أحمد والبزار وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۲] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی إسناده حسن (الفتح ۲۶:۲۳).

[۳] رواه الطبرانی والخطیب وأحمد والضیاء بسند صحیح عن عبد الله بن حوالة (کنز ۱۸۰:۱۱) والحاکم وصححه (المستدرک ۱۰۱:۳).

[۴] سورة البقرة: الآیة ۱۲۴.

[۵] سورة ص: الآیة ۲۶.

[۶] رواه أحمد وقال الهيثمى إسناده جيد (الزوائد ۱۹۳:۹).

[۷] رواه البخارى ك الآداب (الصحيح ۷۷:۴).

[۸] رواه أبو داود حديث ۴۳۴۵.

[۹] رواه أحمد (كنز العمال ۱۱۹:۱۱) والحاكم وصححه (المستدرك ۴۶۸:۴).

[۱۰] سورة الأنعام: الآية ۱۵۸.

[۱۱] راجع كتابنا عقيدة المسيح الدجال.

النبى يحذر من رموز الفتن

بعد أن بين النبى المكان والزمان الذى تهب منه الفتن، وبعد أن بين إلى أين

تتجه الفتن. خوفهم من رموز الفتن. كى ترعد أيديهم إذا حاولوا فتح الباب. وأخبرهم بأنهم (بعده) سيختلفون بعد أن جاءهم العلم وإنهم سيحرصون على الإمارة [۱] ، وإن حرصهم عليها سيقودهم إلى سنن الذين من قبلهم. وإن الطريق سينتهى بهم إلى حيث لا قيادة وإن كانت هناك قيادة. فلن يدرى القاتل فى أى شئ قتل. ولن يدرى المقتول فى أى شئ قتل [۲] ونحن هنا سنقدم نخبة من الأحاديث

التى فيها كلمة (بعدى) فلعلها تفيد الباحث عن الحقيقة. وقبل ذلك نقدم هذه النخبة لتكون فاتحة عن عمران بن حصين قال: قال النبى صلى الله عليه

[صفحه ۲۰۶]

وسلم ": أكثر ما أتخوف على أمتى من بعدى رجل يتأول القرآن. يضعه على غير مواضعه. ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره" [۳] ، ومن العجيب أنهم يقولون. أن الرسول ترك الأمر هكذا فى الرياح. كيف وهو كان يخاف أن يأتى من يرى أن أحق بهذا الأمر من غيره؟ هل يترك القرآن ليتلعب به الناس؟ هل يترك الأمر حتى يناله سفهاء قريش ويتسموا بأمراء المؤمنين وهم فى بطون أمهاتهم؟ كيف؟ وهو الذى بلغ الرسالة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء نهارها وليلها سواء. وإذا كان الأمر هكذا فكيف يترك النبى هؤلاء يزحفون إلى النار وهو المبعوث رحمة للعالمين. لا بد أن يقيم عليهم الحجة أولا ثم ليزحفوا وقتما شاؤوا. ويوم القيامة لا يفيد الندم ولا يكون لهم على الله حجة. وهذه الحقيقة ترى فى حديث أبى هريرة. قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: يوشك رجل أن يتمنى أنه خر من الثرايا ولم يل من أمر الناس شيئا [" ۴] ، ومن دائرة الرجل ينتقل التحذير إلى دائرة أوسع. فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ليتمنين أقوام ولوا هذا لأمر أنهم خروا من الثرايا وأنهم لم يولوا شيئا [" ۵] ، وينتقل التحذير إلى دائرة المرتزقة الذين يجيدون الأكل والهتاف على موائد الرجال وأقوامهم. فعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للأمناء. ليتمنين أقوام يوم القيامة. أن نواصيهم معلقة بالثريا فيجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لن يلوا عملا [" ۶] .

وإذا كان النبى يحذر الناس من القيادة ويحذر الأمراء والعرفاء والأمناء. فهل المقصود من هذا أن الدولة لا تعرف النظام. وأن الدولة ينبغى أن تكون بلا

[صفحه ۲۰۷]

رأس. كيف، وهل أمة بلا رأس تكون جديرة بقيادة العالم. كيف وكان النبى يبعث الأمراء والأمناء والعرفاء فى أعمال الدولة. أن العديد فهم من الحديث إنه دعوة للتورع. وكثير منهم تورع حتى لا يتمنى يوما أن يتجلجل بين السماء والأرض وأنه لم يلى عملا. والحديث له أهداف أوسع. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يذهب أهل الجيل الأول فى أمر ليس من حقهم. وحذر من حذى

حذوهم. فعن المقدام بن معد يكرب. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب على منكبه. ثم قال له ": أفلحت يا قديم إن مت ولم تكن أميرا ولا كاتبا ولا عريفا [" ۷] ، فإذا كان الصحابة كلهم عدول ثقات. فمن أولى منهم بالقيادة، ولماذا يحذرهم النبى ومما كان يخاف عليهم؟ لقد كان النبى يحث أصحابه على أن لا ينازعوا الأمر أهله. فعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ". عليك بالسمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك. وأثره عليك. وأن لا تنازع الأمر أهله [" ۸] ، فإذا كنا قد علمنا أن الأمر كله لله. فعلينا أن نعلم أن أهل الأمر لا يحددهم غير الله. ولذلك كان أبو أيوب الأنصارى يبكى أيام بنى أمية. وكان رضى الله عنه قد شهد المشاهد مع على بن أبى طالب. وعندما سئل عن بكائه. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبكوا على الذين إذا وليه أهله. ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله [" ۹] ، ثم إذا كان أحد أحياء قريش من الذين لم يشر إليهم النبى بولاية الأمر. هم أهل الدين. فلماذا طالب النبى الأمة باعتزالهم. روى الشيخان عن أبى هريرة قال النبى صلى الله عليه وآله ": يهلك أمتى هذا الحى من قريش، " قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم [" ۱۰] ، لو

[صفحه ۲۰۸]

كانوا أهل الدين فهل يجوز اعتزال الدين؟ إن النبى كان يخوفهم من فتح الباب. لأن الله أبى عليه أن لا يلبسهم شيعا ويذيقهم بأس بعضهم بعضا. وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أن الحق سيكون غريبا، فعن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا قيس عسى إن مد بك الدهر. أن يليك بعدى ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم [" ۱۱] ، وعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا. فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله. حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله. حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره، " وقوله ": ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله. حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره [" ۱۲] ، وقوله: "ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل، " لا بد أن يكون عليه دليل على أنه من الله. ومهمته يجب أن تكون محصورة فى إقامة مؤسسات القسط والعدل بدلا من مؤسسات الظلم والجور. وقد ورد هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم. بأن القادم. هو المهدى. من عترته. من ولد فاطمة رضى الله عنها ومهمته يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا [۱۳] ، وأوصافه فى كتب الحديث فمن أرادها فليراجعها [۱۴] ، هناك فدائرة الظلم زوالها على يدى المهدى الذى من عترة الرسول. والمهدى سيقاتل الدجال آخر الزمان. وزاد المهدى من زاد على بن أبى طالب. فمن تزود نجا من فتنة الدجال. وبعد أن بين النبى لأصحابه أن الجور لا يلبث بعده إلا قليلا وكلما طلع برأسه. توارى العدل إلى الظلال. أخبرهم بدائهم العضال فعن أبى هريرة قال.

[صفحه ۲۰۹]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنكم ستحرضون على الإمارة. وستكون ندامة يوم القيامة. فنعم المرضعة وبئست الفاطمة [" ۱۵] ، قال بعضهم: نعم المرضعة. لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذة الحسية. وبئست الفاطمة. عند الانفصال عنها وما يترتب عليها من التبعات فى الآخرة [۱۶] ، والحرص على الإمارة سيجعل للحريص أنياب ومخالب. فيزرع الجلادين فى كل مكان. وسيأتى بالفقهاء علماء اللسان فيفصلون له الفتوى التى تحقق له الأمن والقداسة. ولهذا كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأصحابه فيما رواه مسلم ": يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهداى ولا يستنون بسنتى. وسيقوم فيها رجال قلوبهم قلوب شياطين فى جثمان أنس [" ۱۷] ، هؤلاء الرجال. من أى دائرة جاءوا؟ على أى حال ما دامت قلوبهم قلوب شياطين فلا علاقة لهم بالذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وعن حذيفة قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": سيكون بعدى عليكم أمراء يأمرونكم بما لا يفعلون. فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولن يرد على الحوض [" ۱۸] ، من صدقهم وأعانهم لن يرد على الحوض. فإذا سألنا. من الذى يرد على الحوض؟ فإن الإجابة تكشف لك حقيقة هؤلاء الأمراء الكذبة. وعن كعب بن عجرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اسمعوا. هل سمعتم؟ أنه سيكون بعدى أمراء. فعن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم

على ظلمهم فليس منى ولست منه وليس بوارد على الحوض. ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه. وهو وارد على الحوض [" ۱۹] ، إسمعوا، إسمعوا. من الذى يرد على

[صفحه ۲۱۰]

الحوض، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إنى تارك فيكم خليفتين - وفى رواية ثقلين - أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض [" ۲۰] .

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنه سيلى أمركم من بعدى رجال يطفئون السنة ويحدثون بدعة. ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، " قال ابن مسعود: كيف بى إذا أدركتهم؟ قال: يا ابن أم عبد. لا طاعة لمن عصى الله (قالها ثلاث مرات) [۲۱] ، يطفئون السنة، والإطفاء إما عدم تدوينها. أو تدوينها وعدم معرفة مراميها أو ترجيح الرأى عليها. فعلى كل هذا وغيره يترتب الاطفاء. وإذا كان هذا الحديث قد أخبر عن أمراء يؤخرون الصلاة فعند البخارى حديث لضياع الصلاة فى عهد بنى أمية، أحد عهود القرن الأول [۲۲] وإذا كان النبى قد

قال عند تأخير الصلاة لا طاعة لمن عصى الله. فإنه صلى الله عليه وسلم قد قال فى عهد ضياع الصلاة. اعتزلوهم. ولكل مرحلة فقه وعلم. وأخيرا نأتى إلى حديث حذيفة. كان يسأل النبى عن الشر مخافة الوقوع فيه. قال للنبى فيما رواه البخارى وغيره ": يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر. فجاء الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم [۲۳] ، فهذا الحديث سجل وقوع الشر، حلقة وراء حلقة. ويسأل حنيفة عن هذا الشر. ما هو؟ قال النبى: فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا. تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر لا تدرون أيا من أى [" ۲۴] ، فهل يصح أن يترك الرسول أمته دون أن

[صفحه ۲۱۱]

يبين لهم النجاة من هذه الفتن التى تعصف أول ما تعصف بحبل الصحابة. والله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه، (ما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) [۲۵] ، وحذيفة لم يسأل النبى عن الشر مرة واحدة. وإنما كان يحب أن يسأل عنه على فترات كما تدل رواياته. وفى هذه الروايات يقول النبى عن دعاة الشر " دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها " فيقول حذيفة: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال ": هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا [" ۲۶] ، ويسأل حذيفة: وما العصمة من ذلك؟ قال: السيف. فقلت يا رسول الله: ثم ماذا يكون؟ قال: إن كان لله خليفة فى الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه. وإلا فمت وأنت عاص بجذل شجرة. قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال النبى: ثم يخرج الدجال [۲۷] ، فهذه الرواية. قال له ": إن كان لله خليفة فى الأرض " وفيه أن البحث فريضة. فقد يكون خليفة الله كهارون فى عالم السامرى. " فعالم السامرى كان عالم واسع عريض. ولا يضر هارون أنه يقف على الأرضية الأضيق فى أعين الناس. والأرضية الضيقة لها علم وفقه. وقد يكون الصمت فيها دواء. وقد يكون آخر الدواء الكى وهذا أمر يحدده خليفة الله. إن لكى شئ علم. ألم تر أن الله رفع نبيه عيسى عليه السلام. وكان فى الإمكان خسف الأرض. بمن أرادوا قتله. ولكن هذا تم لهدف ومن وراء الهدف حكمة. منها امتحان الذين آمنوا بعيسى عليه السلام. فعيسى أخبر وصيه وتلاميذه بأنه سيرفع وأخبر القاعدة العريضة أيضا بذلك وقال لهم: إنه حيث يكون فلن يستطيعوا الوصول إليه. ومن المعلوم أن أعداءه لا يستطيعون الوصول إلى السماء. وبعد الرفع جاء الامتحان. كانت الحجة كلمة وصرخة تلميذ. أن الذى على الصليب ليس عيسى. فمن استمع نجا، ومن صدق ما يشاهده هلك. وهنا تبرز قيمة الوصية والأوصياء. وكلمة الوصى أصدق مما تراه العيون. ولكن الجماهير تركت الوصى والتلاميذ. وانساقوا وراء من يظنون أنه المسيح. ولم

[صفحه ۲۱۲]

يلبث الجور بعد المسيح إلا قليلا. فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله. حتى ولد فى الجور من لا يعرف غيره. وشاء الله أن يجتمع عيسى بن مريم والمهدى المنتظر فى عصر واحد. ليخوضا ملاحم الدجال [۲۸] .

لقد أمر النبى حذيفة أن يبحث عن الإمام الحق ثم قال ": وإلا- فمت وأنت عاص بجذل شجرة. قال: ثم ماذا؟ قال النبى: ثم يخرج الدجال، " فهل بشجرة هنا رمزا لمبايعة حق وخصوصا أن الدجال على الأبواب. ولكن أى شجرة هذه التى يتم مبايعتها وما الناس والكلام إلا شجر. وورد عند البخارى بعد أن قال النبى لحذيفة بأن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قال حذيفة: فإن لم يكن لهم جماعة ولا- إمام. قال النبى. فاعتزل تلك الفرق كلها. ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك [" ۲۹] ، وعدم وجود الجماعة والإمام وارد. فنحن فى زماننا نرى ما نرى. فكل شئ غائب عنا. وغدا يأتى الله بأمره فهل هذه الرواية تختص بزماننا هذا. وكما ذكرنا أن أسئلة حذيفة للنبى كانت بين الحين والحين ولم تكن واحدة. إن الفرق كلها أمر النبى باعتزالها. ولكن الاعتزال والوقوف فى العراء يكون قريبا من دائرة الموتة الجاهلية لحديث البخارى وغيره " من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية [" ۳۰] ، فما بالك بعدم وجود جماعة أصلا والحديث أشار بهذا والنبى لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يدفع إنسان إلى العراء أو يجعله قريبا من الموتة الجاهلية. لذا نجده فى حديث حذيفة يقول بعد أن أمر باعتزال الفرق ": ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " فعند الشجرة يمكن أن يأتى الموت ولكن ليس موتا جاهليا. وعلى هذا والله أعلم أن الشجرة رمزا للجماعة، من فارقها فى العصر الذى يقصده الحديث تكون ميتته ميتة الجاهلية. وبين الإمام والجماعة فى الحديث خط مستقيم يصل إلى الشجرة. والبحث فى أصول الشجرة، يقتضى منا

[صفحه ۲۱۳]

أن نضع هنا قول النبى صلى الله عليه وسلم " على أصلى ["... ۳۱] ، وقوله ": إن الناس اليوم كشجرة ذات جنى. ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات أشواك [" ۳۲] ، وكل إنسان يبحث عن شجرة. وكما علمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حذر من أصول الفتن. فأخبر أن الفتن من بعده ستكون كثيرة وستنتهى إلى الدجال وأن السلطة ستكون كخيمة على بركة من الدماء. الجميع يتصارع من أجل الوصول إليه. ولذا حذر صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى لا ينازعوا الأمر أهله. لأن المنازعة ستفتح الأبواب لما هو أشد وافتك. إذا كنا قد علمنا ذلك. فيجب أن نعلم هنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حدد تيارا بعينه وهو تيار بنى أمية. وحذر منه أشد التحذير. وأخبر أن هذا التيار سيصل إلى السلطة. والوصول إلى السلطة لا يأتى فى يوم وليلة. فإذا كان سيصل مثلا فى مرحلة منتصف الطريق. فلا بد أن تكون مرحلة أول الطريق قد مهدت له ووضعت له الركائز التى يرتكز عليها دينيا. ثم يقوم هو بدوره فيضع الركائز ويمهد لمن يأتى فى نهاية الطريق. وتحذير النبى لأصحابه من الفتن حتى لا يفتحوا الباب لهذا التيار. تعدى مرحلة التحذير بالقول إلى مرحلة التحذير بالفعل حيث قام النبى صلى الله عليه وسلم بنفى الحكم بن العاص الذى تعتبر ذريته آخر حكام بنى أمية وظل الحكم بن العاص فى المنفى. حتى رده عثمان بن عفان سليل بنى أمية فى خلافته. ونفى النبى للحكم كان من باب الأخذ بالأسباب وإقامة الحجة، وبمعنى أن النبى علم من ربه أن الحكم باب من أبواب الفتن وأن فى صلبه من سيركب على رقبة الأمة. وأن الأمة ستكون لأبنائه شيعة. فأخذ النبى بالأسباب وأزال أصل العقبة من البداية وهو يعلم أن الأمة ستأتى به وستقيم عليه فسطاطا. وإذا كان الحكم بن العاص حلقة أخيرة فى الفتنة. فإن النبى لم يكتف بالتحذير من الحلقة الأخيرة فقط. وإنما حذر من الحلقة الأولى لبنى أمية التى عليها سيأتى

[صفحه ۲۱۴]

أبناء الحكم. باختصار حذر من الشجرة الأموية كلها. وقد أراه الله تعالى من أخبار هذه الشجرة الشئ الكثير الأمر الذى جعله صلى الله عليه وسلم لم ير ضاحكا حتى مات صلى الله عليه وسلم. ففى سورة الإسراء. وبعد أن تحدث سبحانه عن الآيات التى يرسلها إلى عباده. وعن ناقة ثمود التى قتلها الجاحدون وبعد أن أخبر سبحانه أنه يرسل بالآيات للتخويف والإنذار. قال تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) [۳۳] .

ولا ندرى ما هذه الشجرة الملعونة فى القرآن التى جعلها فتنة للناس. ولا يوجد فى القرآن شجرة يذكرها الله ثم يلعنها. قالوا: إنها شجرة

الزقوم! التی جاء ذکرها فی قوله تعالی: (أم الشجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمین) [۳۴] ، فالشجرة فی الآیة وصفت بأنها فتنة. أی عقاب للظالمین. فکیف یقال أن العقاب ملعون والله تعالی لم یلعن الشجرة فلو کانت الشجرة ملعونة لکونها تخرج فی أصل الجحیم وسببا من أسباب عذاب الظالمین. لکانت النار، وکل ما أعد الله فیها للعذاب ملعونة، وهذا لا یصح لأن الله أعد لها ملائکة للعذاب فقال تعالی: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائکة) [۳۵] ، وقد أثنی الله تعالی علی ملائکة النار، فقال تعالی: (علیها ملائکة غلاظ شداد لا یعصون الله ما أمرهم ویفعلون ما یؤمرون) [۳۶] .

وبما أن الشجرة جاء ذکرها بین الآیات التی یخوف بها الله عباده. ومنها آیة الناقة. فإن الرؤیا والشجرة المشار إلیهما فی الآیة أمران سیظهران علی الناس. أو هما ظاهران. یفتتن بهما الناس فیشیع بهما فیهم الفساد. ویتعرف فیهم الطغیان والاستکبار. وذیل الآیة: (ونخوفهم مما یزیدهم إلا طغیانا کبیرا)،

[صفحه ۲۱۵]

یشیر إلی ذلک ویؤیده. بل وصدر الآیة أیضا یؤیده قال تعالی: (وإذ قلنا لک إن ربک أحاط بالناس وما جعلنا الرؤیا...)، والمعنی: واذکر التثبت فیما ذکرنا لک فی هذه الآیات أن شیمة الناس والاستمرار فی الفساد والفسوق. واقتداء أخلافهم بأسلافهم فی الإعراض عن ذکر الله وعدم الاعتناء بآیات الله. وقد قلنا لک أن ربک أحاط بالناس علما. وعلم أن هذه السنة ستجری بینهم کما کانت تجری ولم نجعل الشجرة الملعونة فی القرآن التی تعرفها بتعریفنا. وما أریناک فی المنام من أمرهم. إلا فتنة للناس، وقد أحطنا بالناس. (ونخوفهم فما یزیدهم إلا- طغیانا کبیرا)، أی تخوف الناس فما یزیدهم التخویف إلا طغیانا ولا أی طغیان کان. بل طغیانا کبیرا. أی إنهم لا- یخافون من تخویفنا حتی ینتهوا عما هم علیه بل یجیبوننا بالطغیان الکبیر. فهم یبالغون فی طغیانهم ویفرطون فی عنادهم مع الحق. وذکر غیر واحد من المفسرین أن الله تعالی فی هذه الآیة یعزی نبیه صلی الله علیه وسلم. بأن الذی أراه من الأمر وعرفه من الفتن. قد جرت علیه سنة الله فهو سبحانه یمتحن عباده بالمحن والفتن. ویؤید هذا ما ورد من أحادیث بأن المراد بالرؤیا فی الآیة. هی رؤیا رآها النبی صلی الله علیه وسلم فی بنی أمیة. والشجرة شجرتهم. أما القول بأن الشجرة الملعونة هی شجرة الزقوم. فلا معنی له. لأنه لا ذنب للشجرة. وهل وجودها فی أصل الجحیم عقابا للظالمین یستحق اللعن. کیف؟ والذی سیسوق الظالمین إلیها ملائکة لا یعصون الله. ویفعلون ما أمرهم به الله. أما الرؤیا التی أراها الله لرسوله فعن الحسن قال: فرأی رسول الله صلی الله علیه وسلم بنی أمیة یخطبون علی منبره رجلا- رجلا- فساءه ذلک ["... ۳۷] ، وروی أبو بکر ابن خیثمة عن سعید بن المسیب فی قوله ": وما جعلنا الرؤیا التی أریناک إلا فتنة للناس، " قال:

[صفحه ۲۱۶]

رأی ناسا من بنی أمیة علی المنابر فساءه ذلک [۳۸] .

هذا عن مقدمة بنی أمیة. أما خاتمتهم الحکم بن العاص. فقد روی أبو یعلی. رأی رسول الله صلی الله علیه وسلم فی منامه کان بنی الحکم ینزون علی منبره وینزلون فأصبح کالمتغیظ. فقال: ما لی رأیت بنی الحکم ینزون علی منبری نزو القردة. فما رؤی رسول الله صلی الله علیه وسلم مستجمعا ضاحکا بعد ذلک حتی مات [" ۳۹] ، وعن أبی هریرة قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم": أریت فی منامی کأن بنی الحکم بن أبی العاص ینزون علی منبری کما ینزو القردة [" ۴۰] .

أما کون الشجرة شجرتهم ما رواه مطعم قال. کنا مع النبی فمر الحکم بن العاص فقال النبی: ویل لأمتی مما فی صلب هذا [۴۱] ، وعن ضمرة ابن حبیب قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": ویل لأمتی من هذا وولد هذا [" ۴۲] ، وعن ابن عمر قال رسول الله صلی الله علیه وسلم للحکم ": إن هذا سیخالف کتاب الله وسنة نبیه وسیخرج من صلبه فتن یبلغ دخانها السماء وبعضکم یومئذ شیعته [" ۴۳] .

أما کون هذه الشجرة ملعونة. ما روی عن عبد الله. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ونحن عنده. لیدخلن علیکم رجل لعین فوالله ما زلت وجلا- أتشوف خارجا وداخلا حتی دخل فلان - یعنی الحکم - وروی الإمام أحمد ": لعن رسول الله صلی الله علیه وسلم فلانا

وما ولد من صلبه، " وفی

[صفحه ۲۱۷]

روایـة للبزار ": لعن الله الحکم ومـا ولـد علی لسان نبیه صـلی الله علیه وسـلم [" ۴۴] ، وروی الـبزار أن عبـد الرحمن بن أبی بکر قـال لمروان ابن الحکم ": إن رسول الله صـلی الله علیه وسـلم لعن أبـاک [" ۴۵] ، وروی أن عبـد الله بن الزبیر قـال وهو یطوف بالکعبـة" ورب هـذا البیت الحرام والبلد الحرام أن الحکم بن أبی العاص وولده ملعونین علی لسان محمد صـلی الله علیه وسـلم [" ۴۶] ، وروی أن الحسن قال لمروان بن الحکم ": لقـد لعنک الله علی لسان رسول الله صـلی الله علیه وسـلم وأنت فی صـلب أبیک) [۴۷] وفی الدر المنثور أخرج ابن مردویه عن عائشة أنها

قالت لمروان: سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول لأبیک وجدک أنکم الشجرة الملعونة فی القرآن. وباختصار: روی أصحاب التفاسیر کالطبری وغیره عن سـهل بن ساعد وعبد الله بن عمر ویعلی بن مرة والحسین بن علی وسعید بن المسیب أن هؤلاء هم الذین أنزل فیهم قـوله تعـالی: (ومـا جعلنـا الرؤیـا) إلی قـوله: (والشـجرة الملعونـة فی القرآن). أمـا کون النبـی صـلی الله علیه وسـلم قـد أخذ بالأسباب ونفاه. وذلک بعد أن ارتکب الحکم بن أبی العاص الجریمة التی یستحق علیها هذه العقوبة. وکما نعلم أن الله لا یظلم الناس شیئـا. فلقـد خلق الإنسـان لیمارس واجب الخلافـة فی الأرض. ولم یخرج أحـدا من الجنـة إلا عنـدما ارتکب آدم وزوجه الخطأ الـذی استحقا علیه الاخراج من الجنـة. وعنـدما ارتکب الشـیطان الجریمـة التی اسـتحق علیها الطرد واللعن. وهناک فرق بین الاخراج والطرد واللعن. والحکم بن أبی العاص ارتکب الجریمة التی استحق علیها النفی واللعن. وما

[صفحه ۲۱۸]

کانت الجریمة إلا لهدف ومن وراء الهدف حکمة. وروی عن حماد بن سـلمة. إن أصحاب النبی دخلوا علیه وهو یلعن الحکم بن أبی العاص فقالوا: یا رسول الله ما له. قال: دخل علی شق الجدار وأنا مع زوجتی فکلح فی وجهی. فقالوا: أفلا نلعنه نحن؟ قال: لا فإنی أنظر إلی بنیه یصعدون منبری وینزلونه. فقالوا: یا رسول الله ألا نأخذهم؟ قال: لا ونفاه [۴۸] ، وروی أن سبب نفیه غیر ذلک. وهو أن الحکم کـان من المرجفین فی المدینـة ویبلغ فیهـا أسـرار رسول الله صـلی الله علیه وآله، وقـد نفـاه النبی عنـدما أمره الله بنفی من کـانت هـذه أعماله. وقـد وردت هـذه الجرائم وعقوباتها فی سورة الأحزاب [۴۹] ، وقـد أخبر النبی بأن من الأمة من سـیتعهد بنی أمیة وبنی الحکم حتی یبلغوا ثلاثین رجلا وفی روایة أربعین. ثم یکون الحدیث انطلاقهم عن أبی سعید الخدری قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله: "إذا بلغ بنو أبی فلاـن ثلاثین رجلا اتخـذوا مال الله دولا [۵۰] ودین الله دخلا [۵۱] ، وعباد الله خولا [۵۲] [۵۳] وفی روایة إذا بلغ بنو العـاص ثلاثین ["... ۵۴] ، وفی روایـة إذا بلـغ بنـو الحکم ثلاـثین ["... ۵۵] ، ویبـدو والله أعلم أن هـذا العـدد یتعلق بعـدد رجالهم فی المناصب القیادیة فی الدولة. بمعنی إذا فتح لهم الباب وتولی " ثلاثون " أو أربعون منهم المناصب فعلوا هذه الأشیاء. وحرکة التاریخ تؤید هذا الرأی کما سیأتی فی حینه.

[۱] رواه البخاری ک الفتن (الصحیح ۴:۲۳۵).

[۲] رواه مسلم ک الفتن (الصحیح ۱۸:۳۴).

[۳] رواه الطبرانی فی الأوسط (کنز ۱۰:۲۰۰).

[۴] رواه الحاکم وأقره الذهبی (کنز العمال ۶:۱۷).

[۵] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۳:۲۹).

[۶] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۳:۲۳).

[۷] رواه أبو داود الحدیث ۲۹۳۳.

[۸] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده حسن ورجال ثقات (کتاب السنة ۲:۴۹۳).

[۹] رواه أحمد (الفتح ۳۲:۲۳) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۱۵:۴)، والطبرانی (الزوائد ۲۴۵:۵).

[۱۰] رواه البخاری ک بدء الخلقة (الصحیح ۲۸۰:۲) ومسلم ک الفتن (الصحیح ۴۱:۱۸) وأحمد (الفتح ۳۹:۲۳).

[۱۱] رواه الطبرانی عن قیس بن خوشة (کنز العمال ۱۹۰:۱۱).

[۱۲] رواه أحمد (الفتح ۳۲:۲۳) وقال الهیثی فیه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وبقیة رجاله ثقات (الزوائد ۱۹۶:۵).

[۱۳] أبو داود ۱۱۷:۴، وابن ماجة ۲:۱۳۶۸، الحاکم ۴:۵۵۷.

[۱۴] راجع کتابنا عقیدة المسیح الدجال.

[۱۵] البخاری ک الأحکام (الصحیح ۲۲۵:۴).

[۱۶] فتح الباری (۲۲:۳۲).

[۱۷] مسلم (الصحیح ۶:۲۰) ط إسطنبول.

[۱۸] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والبزار وفیه إبراهیم بن قیس وثقه ابن حبان وبقیة رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۴۷:۵).

[۱۹] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵۲۵:۴) ورواه أحمد عن خباب (الفتح الربانی ۳۰:۲۳) وابن أبی عاصم وقال الألبانی رجاله ثقات وأخرجه أحمد وابن حبان (کتاب السنة ۳۵۲:۲).

[۲۰] تم تخریج الحدیث فیما سبق ورواه أحمد والترمذی وحسنه والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱۸۶:۱).

[۲۱] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی حدیث صحیح (الفتح ۲۹:۲۳).

[۲۲] سیأتی الحدیث عنه فی حینه.

[۲۳] البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک بدء الخلق ب علامات النبوة.

[۲۴] رواه أحمد (الفتح الربانی ۳۸:۲۳).

[۲۵] سورة التوبة: الآیة ۱۱۵.

[۲۶] رواه البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک بدء الخلق.

[۲۷] رواه أبو داود حدیث ۴۲۴۴.

[۲۸] راجع کتابنا عقیدة المسیح الدجال.

[۲۹] رواه البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک بدء الخلق.

[۳۰] رواه البخاری (الصحیح ۲۲۲:۴) ک الفتن.

[۳۱] رواه الطبرانی والضیاء بسند صحیح (کنز ۶۰۲:۱۱).

[۳۲] رواه ابن عساکر وفیه ضعف (کنز ۱۴۹:۱۱).

[۳۳] سورة الإسراء: الآیة ۶۰.

[۳۴] سورة الصافات: الآیة ۶۲ – ۶۳.

[۳۵] سورة المدثر: الآیة ۳۱.

[۳۶] سورة التحریم: الآیة ۶.

[۳۷] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۷۱:۳) وقال ابن کثیر رواه الترمذی عن القاسم بن الفضل وقد وثقه یحیی بن سعید وغیره، ورواه ابن جریر والحاکم والبیهقی (البدایة ۲۴۳:۶).

[۳۸] أبو بکر بن خیثمة (البدایة والنهایة ۵۰:۱۰).

[۳۹] رواه أبو یعلی ورجاله رجال الصحیح غیر مصعب بن عبد الله وهو ثقة – قاله الهیثمی (الزوائد ۲۴۴:۵) والحاکم وصححه

(المستدرک ۴:۴۸۰).

[۴۰] والبیهقی وابن عساکر وأبو یعلی (کنز العمال ۳۵۸:۱۱) والحاکم (کنز ۱۱۷:۱۱) وقال ابن کثیر رواه یعقوب بن سفیان (البدایة ۵۰:۱۰، ۲۴۳:۶).

[۴۱] رواه ابن عساکر (کنز ۱۶۷:۱۱).

[۴۲] ابن عساکر (کنز ۱۶۷:۱۱). (الإصابة ۲۹:۲).

[۴۳] رواه الدارقطنی (کنز ۱۶۶:۱۱) وابن عساکر (۳۶۰:۱۱)، والطبرانی (کنز ۱۶۷:۱۱).

[۴۴] قال الهیثمی رواه أحمد والبزار والطبرانی بنحو روایة البزار وعنده روایة کروایة أحمد ورجال أحمد الصحیح (الزوائد ۵:۲۴۱).

[۴۵] قال الهیثمی رواه البزار وإسناده حسن (الزوائد ۵:۲۴۱).

[۴۶] رواه ابن عساکر (کنز ۳۵۸:۱۱) والحاکم وصححه (المستدرک ۴:۴۸۱).

[۴۷] رواه أبو یعلی (الزوائد ۵:۲۴۰) وابن سعد وابن عساکر (کنز ۳۵۷:۱۱) وذکره ابن کثیر فی البدایة (۸:۲۸۰).

[۴۸] الإصابة ۲۸:۲).

[۴۹] سورة الأحزاب: الآیة ۶۰.

[۵۰] أی یکون المال لقوم دون قوم.

[۵۱] أی یدخلوا فی دین الله أمور لم ترد فی کتاب الله وسنة رسوله.

[۵۲] أی یستخدمون الناس ویستعبدوهم.

[۵۳] رواه أحمد (الفتح ۳۲:۲۳). (۷).

[۵۴] رواه أحمد وأبو یعلی والطبرانی (کنز ۱۶۵:۱۱).

[۵۵] رواه الطبرانی والبیهقی (کنز ۱۶۵:۱۱) (البدایة ۲۵۸:۸).

الرسول و إقامة الحجة علی القریب والبعید

إذا کانت المسیرة بعد النبی وبنص الأحادیث الصحیحة. ستبدأ بفتن تنطلق

[صفحه ۲۱۹]

من بیوت الصحابة. وإذا کانت الأحداث ستأتی علی رقاب العباد برجال قلوبهم قلوب الشیاطین فی جثمان أنس کما فی صحیح مسلم. وبدعاة علی أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فیها کما ورد فی صحیح البخاری. ثم تنتهی الأحداث بقذف الأمة نحو سنن الأولین فنسیر علیها شبرا بشبر وذراعا بذراع. وفی النهایة یکونون غثاءا کغثاء السیل لا قیمة لهم ولا وزن. القاتل فیهم لا یدری فیما قتل والمقتول فیهم لا یدری فیما قتل. إذا کان هذا کله قد دخل من تحت لافتة القیادة فکیف یقال أن الشریعة قد تکلمت فی کل شئ عدا القیادة. وکیف یستقیم قول کهذا مع ما رواه أبو الدرداء عن النبی صلی الله علیه وآله ": وأیم الله، لقد ترکتم علی مثل البیضاء لیلها ونهارها سواء [" ۱] .

قال البعض: إن الناس أدری بشؤون دنیاهم. وإن اختیارهم للقیادة ینضوی تحت قوله تعالی: (وأمرهم شوری بینهم) [۲] ، وقول البعض بهذا. لا یحقق أی دفع لدائرة الرجس. فتحت سقف شؤون دنیاهم یجلس أیضا المنافقین والذین فی قلوبهم مرض. وشؤون دنیاهم لا تنسی أنها قابلة للاختراق من جهة الشیطان بفقه التزیین والإغواء. باختصار ستکون المسیرة غیر محمودة العواقب. ولهذا لا بد من مرشد لها حدده الله الذی أخذ علی نفسه فتح طریق العبادة وهدایة الناس إلیه. ثم إن القول بأن الأمر کان شوری فی اختیار الخلیفة. أمر لا یمکن إثباته. وذلک لأن اختیار الخلیفة علی امتداد المسیرة لم یکن له وجد واحد ولم تتوفر الشوری فیه إلا فیما ندر. وعلی

سبیل المثال. فإن یوم السقیفة لم یشهده رجل من بنی هاشم بل لم یشهده من المهاجرین عدد لا یتعدی خمسة أفراد علی أکثر الروایات وأصحها. ویوم السقیفة کان بحق یوم عمر بن الخطاب رضی الله عنه. حیث توعد سعد بن عبادة مرشح الأنصار وهتف کما جاء فی الصحیح " اقتلوا

[صفحه ۲۲۰]

سعدا، " فأی شوری تری هنا؟ وقد اعترف عمر فیما بعد وفاة أبی بکر رضی الله عنه بأن بیعة أبی بکر کانت فلتة وقال من عاد إلی مثلها فاقتلوه کما جاء فی الصحیح، فإذا کانت البیعة أن عادت علی نفس الصورة فجزاء من یقدم علیها القتل. فما القول فی هذا؟ وأبو بکر رضی الله عنه وهو علی فراش الموت أوصی لعمر بن الخطاب من بعده ولم یشاور المهاجرین والأنصار عند اتخاذه هذا القرار. وعمر بن الخطاب وهو علی فراش الموت جعلها شوری فی ستة من أهل الجنة کما ورد فی الحدیث، ووضع نظاما للاختیار وأمر رضی الله عنه بقتل من عارض اختیار الأغلبیة. فمن هذا وذاک لا تری ما تعارف علیه من الشوری. وفی أیام معاویة وبنی أمیة. عندما أراد البیعة لولده یزید. روی أنه جاء بأفصح فقهائه. وجمع رؤوس القبائل. ووقف الفقیه المحنک وأشار إلی معاویة وقال: أنت أمیر المؤمنین. فإن مت فیزید. فمن أبی هذا وأشار إلی السیف. وعلی هذا جاء أولاد الحکم بن أبی العاص فی القرن الأول الهجری. وعلی هذا أفتی المحنکون بولایة الفاسق فهل الفاسق یسوق الناس إلی رب العالمین؟ إذا کانت الإجابة نعم، فما معنی قوله تعالی: (والله لا یهدی القوم الفاسقین) [۳] ، وکیف یسوق الفاسق الناس إلی رب العالمین؟ إذا کانت الإجابة نعم، قال تعالی: (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئک هم الفاسقون) [۴] ، ولا یرض عنهم: (فإن الله لا یرض عن القوم الفاسقین) [۵] ، وکیف یتم وضعهم علی رقبة الأمة. والله قد حذر من المنافقین وما الفاسقین إلا عمال فی دائرة الرجس قال تعالی: (نسوا الله فنسیهم إن المنافقین هم الفاسقون) [۶] ، کیف تستأمنه الأمة والله تعالی لم یستأمن الفاسق علی نبأ قال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا إن جاءکم فساق بنبأ فتبینوا) [۷] ، لقد جعل المحنکون من الشذوذ قاعدة استرضاءا منهم لخط نصب

[صفحه ۲۲۱]

خیمته ومن داخلها اتخاذ مال الله دولا. ودین الله دخلا وعباد الله خولا. وجمیع ذلک تحت شعار الشوری. والحقیقة أن ولایة الفاسق التی أقرها المحنکون فیها تساهل طویل وعریض. لأن الذی أدلی دلوه کی یخرج لنا فیه فاسقا. کان علیه أولا أن یبحث عن بئر نظیف لیخرج لنا بآخر وقد قال تعالی: (أفمن کان مؤمنا کمن کان فاسقا لا یستوون) [۸] ، نعم قد یکون الفاسق فی الذروة ولکن وفقا للقاعدة النبویة حیث قال صلی الله علیه وسلم فی قریش ": الناس تبع لقریش فی هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وکافرهم تبع لکافرهم [" ۹] ، وقال ": صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم [" ۱۰] ، فالناس لا بد لهم من شجرة یستظلون بظلها. وهناک شجرتان، وللفاسق شجرة وذروته، أما قوله تعالی: (وأمرهم شوری بینهم)، قال المفسرون: أی أن الأمر الذی یعزمون علیه فیما بینهم یتشاورون فیه لاستخراج صواب الرأی بمراجعة العقول. وصواب الرأی تمتصه العقول من قوله تعالی: (الذین یستمعون القول فیتبعون أحسنه) [۱۱] ، فهذه دائرة أصحاب الشوری، والقرآن الکریم کما سلط الضوء علی الذین أمرهم شوری بینهم. سلطة أیضا علی الذین فرقوا أمرهم بینهم ووضعهم فی دائرة مغلقة علیهم قال تعالی فی الصنف الذی رفض الأمة الواحدة والدعوة الواحدة للسبیل الحق (فتقطعوا أمرهم بینهم زبرا کل حزب بما لدیهم فرحون)، ولأن لهذا الحزب سائر علی امتداد السیرة لا یکل ولا یمل. قال تعالی لرسوله: (فذرهم فی غمرتهم حتی حین - أیحسبون إنما نمدهم به من مال وبنین - نسارع لهم فی الخیرات بل لا یشعرون) [۱۲] ، فأصحاب هذه الآیة قطعوا أمرهم. وجعلوا کل قطعة منه کتابا. ثم التقط کل حزب قطعته وانطلق فرحا یقرأ فی قطعته کتابه.

[صفحه ۲۲۲]

وفی عالم الزخرف والزینة والإغواء یرقصون طربا لما عندهم من مال وبنین. وهم فی الحقیقة لا یشعرون ماذا ینتظرهم فی نهایة الطریق. إنهم قد یرون بدایة الطریق أو وسطه. أما نهایة الطریق فلا تری إلا بعد أن تجیئ. وإذا کان القرآن قد سلط الأضواء علی الذین

أمرهم شورى بينهم والـذين قطعوا أمرهم بينهم، فإن الله تعالى أمر دائرة الإيمان وفيها الـذين أمرهم شورى بينهم. أمرهم أمرا واحدا لا اختيار فيه حتى يوازنوا بينه وبين أمرهم فقال جل وعلا: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضـى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) [۱۳] فكيف يكون هناك اختيار والله

ورسوله قـد اختار. وفى هـذا الاختيار قمـة الحريـة الحقيقيـة التى توفر للإنسان إنسانيته الحقة. حتى نعود إلى من حيث بدأنا ونقول: إن علم النبى صـلى الله عليه وسـلم بما سـيحدث فى النهايـة يقتضـى أن يقيم عليه الحجة فى البداية. وإقامة الحجة سـنة إلهية يترتب عليها الثواب والعقـاب. ألم ترى أن الله أقـام الحجـة على خلقه وهم فى عـالم الـذر. أقامها عنـد أول أعتاب خلق البشـرية. لعلمه أن المسـيرة ستنتـج المؤمن والكـافر والمحسن والمسـئ، قـال تعـالى: (وإذا أخـذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشـهدهم على أنفسـهم ألست بربكم قـالوا بلى شـهدنا أن تقولوا يوم القيامـة إنـا كنا عن هـذا غافلين) [۱۴] ، فإذا كان سـبحانه قـد أقامها فى البدايـة فى عالم الغيب. فـإنه تعـالى قـد أقامهـا على امتـداد العصور. وإن كانت الحجـة قـد سـدت الأبواب فى وجوه البعض. فإنها فتحتها أمام آخرين. والنبى ما سـد شـيئا ولا فتحه. ولكنه أمر بشـئ فاتبعه وهو فى هذا عبدا مأمورا. ما أمر به فعله. إن يتبع إلا ما يوحى إليه. والنبى ما أدخل أحدا وما أخرج أحدا. ولكن الله هو الذى أدخل هذا وأخرج هؤلاء. وذلك لأن المسـتقبل به أصحاب شجرة خبيثة. والشجرة الخبيثة لا بد أن يقابلها شجرة طيبة، والمستقبل فيه دائرة رجس لا بد أن يقابلها دائرة

[صفحه ۲۲۳]

طهر. والمسـتقبل به الـذين فى قلـوبهم زيغ الـذين يريـدون الفتنـة المتشـابه. ولاـ بـد أن يقـابلهم الراسـخون فى العلم فبعـد أن أشـارت الأحاديث التى بها كلمة (بعدى) إلى مواقع الفتن. إلى مقدماتها ونتائجها وبداياتها ونهاياتها. أشارت أحاديث أخرى إلى مواقع الأمان. لتقوم الحجة ويظهر التبشير والتحذير على صفحات التاريخ. وعن هذه الأحاديث عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى: "أنت وليى فى كل مؤمن بعـدى [" ۱۵] ، وعن عمران بن حصـين قال: قال النبى صـلى الله عليه وسـلم ": على منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن من بعدى [" ۱۶] ، وعن بريدة الأسلمى قال: قال النبى صلى الله عليه وآله فى على: فإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى. وإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى [۱۷] ، وعن بريدة أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": يا بريدة إن عليا وليكم بعدى. فأحب عليا فـإن يفعل ما يؤمر [" ۱۸] ، وعن أنس قـال، قال النبى صـلى الله عليه وسـلم ": يا على أنت تبين لأمتى ما اختلفوا فيه من بعـدى [" ۱۹] وعن وهب بن حمزة قال: قال

[صفحه ۲۲۴]

رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا تقولن هذا لعلى فإن عليا وليكم بعدى [" ۲۰] ، وعن ابن عباس قال قال النبى صلى الله عليه وسلم: "أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست نبيا. إنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى فى كل مؤمن من بعدى [" ۲۱] .

والمعروف أن أظهر منـازل هـارون بعـد موسـى. وزارته له. وخلافته عنه. واشتراكه فى الأمر معه. قال سـبحانه حاكيا عن نبيه موسـى: (فاجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)، إلى قوله تعالى: (قد أوتيت سؤلك يا موسى) [۲۲] ، وقال تعـالى: (وقـال موسـى لأـخيه هـارون أخلفنى فى قومى وأصـلح) [۲۳] ، والنـبى صـلى الله عليه وسـلم عنـدما نزل قـوله تعـالى: (وأنـذر عشـيرتك الأـقربين)، قال لهم كما ذكرنا من قبل فى روايـة صـحيحة ": إن هـذا أخى ووصـيى وخليفتى فيكم واسـمعوا له وأطيعوا،" وعندما اتسعت الدائرة كما ذكرنا قال ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى، " ثم اتسعت الدائرة فبعثه بسورة براءة وقال كما ذكرنا فى رواية صـحيحة ": ولا يؤدى عنى إلا أنا أو على، " وعندما اتسعت قال ": من كنت مولاه فعلى مولاه، " وعلى بحكم نص منزلة هارون من موسـى. خليفـة الرسول فى النواة التى تـدور حولها القرى والقبائل. ولعلى ابن أبى طالب على الأمـة جمعاء فرص الطاعـة كما كان لهـارون بالنسـبة إلى أمـة موسـى. ومن وحيث طـاعته لا يكون مأمورا، وها نحن قـد أوردنا نخبـة من الأحاديث الصـحيحة التى توجب الطاعة. فأى حجة بعد ذلك. ولقد قام النبى بتحصين هذه الطاعة فعن عبيد الله بن عباس قال: نظر النبى صـلى الله عليه وسـلم إلى على

فقال: یا علی أنت سید فی الدنیا سید فی الآخرة. حبیبک حبیبی. وحبیبی حبیب الله. وعدوک عدوی وعدوی عدو الله.

[صفحه ۲۲۵]

والویل لمن أبغضک بعدی [۲۴] ، وعن أم سلمة قالت: أشهد أنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: من أحب علیا فقد أحبنی. ومن أحبنی فقد أحب الله. ومن أبغض علیا فقد أبغضنی. ومن أبغضنی فقد أبغض الله [۲۵] ، وعن أبی ذر قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": یا علی من فارقنی فارق الله ومن فارقک یا علی فارقنی [۲۶] ، وعن علی قال. قال لی النبی صلی الله علیه وسلم: "إن الله یغضب لغضبک ویرضی لرضاک [۲۷] ، ألیس فی هذا کله سوق للناس نحو الطاعة؟ وعن عمرو بن شاس الأسلمی أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال له: یا عمرو والله لقد آذیتنی. قلت: أعوذ بالله أن أوذیک یا رسول الله. قال: بلی من آذی علیا فقد آذانی [۲۸] ، وعن سعد بن أبی وقاص أن النبی صلی الله علیه وسلم قال لمن نالوا من علی ": ما لکم وما لی. من آذی علیا فقد آذانی" [۲۹] ، ألیس فی هذا تحصین للخلیفة وسوق للناس إلی صراط المستقیم؟ ألم تجمع الأمة علی حدیث من کنت مولاه فعلی مولاه؟ فما جزاء من أهان ولی الله وسلطانه؟ قال النبی صلی الله علیه وسلم ": من أهان لی ولیا

[صفحه ۲۲۶]

فقد بارزنی بالعداوة ["... ۳۰] ، وقال ": من أهان سلطان الله فی الأرض أهانه الله [" ۳۱] ، وقال ": أول فرقة تسیر إلی السلطان فی الأرض لتذله یذلهم الله قبل یوم القیامة [" ۳۲] وقال صاحب تحفة الأحوذی: من أهان من أعز الله وألبسه

خلعة السلطنة أهانه الله. وسلطان الله فی قوله: (إنا جعلناک خلیفة فی الأرض) [۳۳] فالله هو الذی جعل. وإضافة السلطان إلی الله أضافت تشریف کبیت الله وناقة الله [۳۴] ولأنه سلطان الله. فمن خرج من السلطان شبرا مات میتة جاهلیة کما ورد فی صحیح البخاری [۳۵] ولأنه هذا السلطان فی مرکز النواة. فهو

العمود الفقری للجماعة ومن فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات میتة جاهلیة، کما ورد أیضا فی البخاری [۳۶] ، وعن حذیفة من فارق الجماعة شبرا خلع ربقة الإسلام من عنقه [۳۷] ، فإذا لم یکن هذا کله تحصینا للخلیفة وحثا للناس کی یکونوا یدا واحدة وسوقا لهم نحو الصراط المستقیم. فأی کلام بعد ذلک یجدی "؟ من کنت مولاه فعلی مولاه، " ألا یستشف عن هذا النص إمارة أی إمارة. فإذا کانت فیه. فکیف نفهم ما رواه البخاری عن أبی هریرة قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: من أطاعنی فقد أطاع الله ومن عصانی فقد عصی الله.

[صفحه ۲۲۷]

ومن أطاع أمیری فقد أطاعنی. ومن عصی أمیری فقد عصانی [" ۳۸] ، ألا ینطبق هذا النص علی أی شئ مما ذکرناه فی علی بن أبی طالب؟ والخلاصة: لقد حذر الله تعالی من دائرة البخس التی یعمل بداخلها حکومة دینیة تتخذ الدین ستارا. وهدف هذه الحکومة رد الذین آمنوا بالله عن دینهم ووضعهم علی أرضیة لا علاقة لها بالصراط المستقیم. وحذر تعالی من دائرة الرجس التی یعم بداخلها طابور خامس تلتقی أهواؤه فی الخطوط العریضة مع أهواء حکومة الأحبار وعباقرة الأوثان. ولما کانت الحکومة التی تواجهها إلی حکومة. فقد أمر تعالی بأن یکون المؤمنین کلهم یدا واحدة. ولما کان لکل شئ ذروة أعلن النبی ولایة علی بن أبی طالب علی رأس الحکومة الدینیة. فإذا نظرت ولم تجد الرأس. فلا تسأل فی خاتمة الطریق کیف اتبعت الأمة سنن الأولین التی صممها أحبار الحکومة الدینیة وأشرف علی تنفیذها جمیع الخدم والعبید.

[۱] رواه ابن ماجة (کنز ۱۱:۳۷۰) وابن أبی عاصم، وقال الألبانی له متابع قوی عند الإمام أحمد (کتاب السنة ۱:۲۷).

[۲] سورة الشوری: الآیة ۳۸.

[۳] سورة التوبة: الآیة ۸۰.

[۴] سورة النور: الآیة ۴.

[۵] سورة التوبة: الآیة ۹۶.

[۶] سورة التوبة: الآیة ۶۷.

[۷] سوره الحجرات: الآیة ۶.

[۸] سورة السجدة: الآیة ۱۸.

[۹] رواه البخاری (الصحیح ۲۶۴:۲) وسبق تخریجه.

[۱۰] رواه أحمد ورجال ثقات (الفتح ۲۲۶:۲۴) سبق تخریجه.

[۱۱] سورة الزمر: الآیة ۱۸.

[۱۲] سورة المؤمنون: الآیة ۵۴ – ۵۵ – ۵۶.

[۱۳] سورة الأحزاب: الآیة ۳۶.

[۱۴] سورة الأعراف: الآیة ۱۷۲.

[۱۵] رواه أحمد ورجاله ثقات غیر أبی بلج وهو ثقة وطیه لین (الفتح ۱۱۶:۲۳) وقال ابن کثیر رواه أبو داود الطیالیسی (البدایة ۳۴۶:۷) ورواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی صحیح (کتاب السنة ۲۶۳:۵).

[۱۶] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی: إسناده صحیح ورجاله ثقات علی شرط مسلم والحدیث أخرجه الترمذی وابن حبان والحاکم وأحمد من طرق أخری. وقال الترمذی حدیث حسن غریب وقال الحاکم صحیح علی شرط مسلم وأقره الذهبی (کتاب السنة ۵۶۵:۲)، ورواه ابن جریر بسند صحیح (کنز العمال ۱۴۲:۱۳) وابن أبی شیبة بسند صحیح (کنز العمال ۶۰۸:۱۱)، والطبرانی وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی فی الأوسط وباختصار فی الکبیر ورجال أحمد رجال الصحیح (الزوائد ۱۰۹:۹).

[۱۷] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی. رواه الطبرانی فی الکبیر والأوسط وأسانید الکبیر رجاله رجال الصحیح ورجال أحمد ثقات (الفتح ۱۱۷:۲۳)، ورواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۶۰۸:۱۱).

[۱۸] رواه الدیلمی (کنز العمال ۶۱۲:۱۱).

[۱۹] رواه الدیلمی (کنز العمال ۶۱۵:۱۱).

[۲۰] رواه ابن کثیر فی البدایة (۳۴۶:۷).

[۲۱] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده حسن ورجاله ثقات (کتاب السنة ۵۶۵:۲).

[۲۲] سورة طه: الآیة ۳۶.

[۲۳] سورة الأعراف: الآیة ۱۴۲.

[۲۴] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط الشیخین. وأبو الأزهر بإجماعهم ثقة. وإذا تفرد الثقة بحدیث فهو علی أصلهم صحیح. والحدیث سمعه یحیی بن معین بن أبو الأزهر فصدقه واعتذر إلیه إن کان قد رماه بالکذب (المستدرک ۱۲۸:۳) وأورده ابن کثیر فی البدایة ۳۵۶:۷.

[۲۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۳۲:۹).

[۲۶] رواه البزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۵:۹).

[۲۷] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۲۰۳:۹).

[۲۸] رواه أحمد (الفتح ۱۲۰:۲۳) وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی باختصار والبزار أصغر منه. ورجال أحمد ثقات، ورواه ابن حبان (الزوائد ۱۲۹:۹)، ورواه ابن أبی شیبة وابن سعد وأحمد والبخاری فی تاریخه والطبرانی والحاکم (المستدرک ۱۲۲:۳) (کنز العمال ۱۴۲:۱۳).

[۲۹] رواه أبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹) ومر سابقا.

[۳۰] رواه الطبرانی وأبو نعیم فی الطب عن أبی أمامة. ورواه ابن عساکر عن أنس بلفظ " من أخاف لی ولیا فقد بارزنی بالمحاربة (کنز ۲۲۹:۱)، ورواه أحمد وأبو یعلی والطبرانی والبیهقی وأبو نعیم عن عائشة بلفظ " من آذی لی ولیا فقد استحل محاربتی (" کنز ۲۳۰:۱) ورواه الطبرانی عن ابن عباس بلفظ " من عادی لی ولیا فقد ناصبنی بالمحاربة (کنز ۲۳۱:۱).

[۳۱] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبای حدیث صحیح (کتاب السنة ۲۸۹:۲) ورواه الترمذی من أبی بکرة (کنز ۱۸۲:۱).

[۳۲] رواه الدیلمی عن حذیفة (کنز ۲۱۵:۱).

[۳۳] سورة ص: الآیة ۲۶.

[۳۴] تحفة الأحوذی ۴۷۶:۶.

[۳۵] البخاری (الصحیح ۲۲۲:۴) ک. الفتن.

[۳۶] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۲۲:۴).

[۳۷] ابن أبی شیبة (کنز ۳۸۴:۱).

[۳۸] رواه البخاری ک الأحکام (الصحیح ۲۳۳:۴) وأحمد بسند صحیح (الفتح ۴۰:۲۳) وابن أبی عاصم بسند صحیح (کتاب السنة ۵۰۷:۲).

خاتمة المطاف عند الحوض یوم القیامة

بعد أن أخبر النبی صلی الله علیه وسلم عن الفتن وکیفیة النجاة منها.

وبعد أن قام قبل ذلک بإغلاق الباب الذی تهب منه أعاصیر الفتن آخذا بأسباب النجاة مع علمه بأن الأمة مختلفة بعده. فلیس معنی أن الموت قد کتب علی الإنسان. أن یجلس الإنسان فی انتظاره. ولکن علیه أن یأخذ بأسباب الحیاة الکریمة التی تحقق له الحیاة السعیدة فی الآخرة. والنبی قدم کل سبب یؤدی للنجاة من یوم یجد المرء فیه ما قدمت یداه. والذی أخذ بسبب فی الدنیا سیتسلقه حتی یرد علی الحوض یوم القیامة. وعند الحوض سنری وجوه الجمیع ولن ینجو إلا الذی أخذ بالکتاب والعترة، کما أخبر النبی، ومن یشفع له صلی الله علیه وسلم. وذکر ابن ماجة فی باب الخطبة یوم النحر

[صفحه ۲۲۸]

ص ۶۲۹:۳۲ أن حدیث الحوض کان فی حجة الوداع، أی ذکره النبی یوم أن أمر الأمة أن تأخذ بالکتاب والعترة. ومن العجیب أن بعض الأحادیث قد أشارت إلی رجل یظهر عند الحوض یخبر النبی بما حدث بعده. وفی أحادیث أخری کشف النقاب عن هذا الرجل لنتبین أنه علی بن أبی طالب الذی زوده الله بخاصیة أنه لا یحبه إلا مؤمن ولا یبغضه إلا منافق کما ورد فی مسلم وغیره، ولنتتبع الأحادیث حتی نصل إلی ما ذکرنا. روی الشیخان عن سهل. قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": أنا فرطکم علی الحوض من ورد وشرب ومن شرب لم یظمأ أبدا، ولیردن علی أقوام أعرفهم ویعرفوننی ثم یحال بینی وبینهم [۱] ، وفی روایة عن عبد الله ": أقول یا رب أصحابی أصحابی. فیقال إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک [۲] ، وفی روایة عن أبو هریرة، فیقول "، إنک لا علم لک بما أحدثوا بعدک إنهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری [۳] ، وفی روایة عن أسماء " فیقال: هل شعرت ما عملوا والله ما برحوا بعدک یرجعون علی أعقابهم [" ۴] ، وفی روایة عن ابن عباس ": فیقال: إن هؤلاء لم یزالوا مرتدین علی أعقابهم منذ فارقتهم [" ۵] .

فهذه الروایات هی صلب هذا الحدث الخطیر. وفی روایات أخری ظهرت الإشارة إلی الرجل. روی البخاری عن أبی هریرة قال. قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم، بینما أنا قائم، إذا زمرة، حتی إذا عرفتهم. خرج رجل من بینی وبینهم. فقال: هلم. قلت: أین؟ قال: إلی النار والله. وقلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدک علی أدبارهم القهقری. ثم إذا زمرة، حتی إذا عرفتهم.

[صفحه ۲۲۹]

خرج رجل من بينى وبينهم. فقال: هلم. قلت: أين؟ قال: إلى النار والله. قلت: ما شأنهم. قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى. فلا أراه يخلص منهم ألا مثل همل النعم. [۶] ففى هذه الروايهٔ ظهر رجل شاهد عليهم.

وكلما ذهبت زمرهٔ وجاءت أخرى فالرجل شاهد ولا يغادر موقعه. وفى روايهٔ أخرى أشير إلى الرجل بصورهٔ أخرى فعن أم سلمهٔ " فصرخ صارخ فقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول سحقا سحقا [" ۷] ، وفى روايهٔ حدد زمن هذا الرجل، بأنه بعد النبى صلى الله عليه وسلم. فعن أم سلمهٔ رضى الله عنها. قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس بينما أنا على الحوض. جئ بكم زمرا (أى جماعات) فتفرقت بكم الطرق. فناديتكم: ألا هلموا إلى الطريق (أى اقبلوا) فنادانى مناد من بعدى فقال: إنهم قد بدلوا من بعدك. فقلت: ألا سحقا سحقا [۸] – وفى روايهٔ – فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدى (أى بعدا بعدا. أو مكانا سحيقا أو بعيدا) [۹] .

وبنظرهٔ سريعهٔ على بعض الأصناف التى تدخل تحت بند سحق يمكن أن نحدد طبيعهٔ من هو الرجل أو الصارخ أو المنادى الذى ورد ذكره فى الأحاديث. بمعنى أن المكان الذى به الجانى حتما سنجد فيه ما يشير إلى المجنى عليه أو إلى الشاهد. فلينظر فى الأصول مرهٔ أخرى. هذا هو حديث الثقلين يوم غدير خم ورواه غير واحدهٔ وفيه " إنى تارك فيكم خليفتين، " وفى روايهٔ " ثقلين – " أحدهما أكبر من الآخر – كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا – حتى يردا على الحوض [۱۰] – وفى روايهٔ – وإن اللطيف الخبير خبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى

[صفحه ۲۳۰]

فيهما [" ۱۱] – وفى روايهٔ: وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله. ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى [۱۲] – وفى روايهٔ – إنى تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتى أهل بيتى، فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض. إن الله مولاى. وأنا ولى كل مؤمن. من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم والى من والاه وعاد من عاداه [۱۳] .

من هذا نعلم أن الأقدام الثابتهٔ عند الحوض يوم القيامهٔ هى الكتاب والعترهٔ وعلى رأس أهل البيت على بن أبى طالب. فالشاهد أو المجنى عليه فى هذه الدائرهٔ. ثم لننظر نظرهٔ سريعهٔ أيضا فى أصناف الذين سيقال لهم سحقا لنعرف من أى دائرهٔ هم – عن خباب قال: إنا لقعود على باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ننتظره أن يخرج لصلاهٔ الظهر إن خرج علينا. فقال ": اسمعوا " فقلنا: سمعنا. ثم قال ": اسمعوا " فقلنا: سمعنا. فقال ": إنه سيلى عليكم أمراء فلا تعينوهم على ظلمهم. فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد على الحوض " [۱۴] – وفى روايهٔ – اسمعوا. هل سمعتم؟ إنه سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم [۱۵] فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه وليس بوارد على الحوض [" ۱۶] – وفى روايهٔ – سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم

[صفحه ۲۳۱]

بكذبهم وأعانهم على فجورهم فليس منى ولست منه ولا يرد على حوضى [" ۱۷] .

من هذه الأحاديث نرى أن هناك رؤوس وقواعد طواغيت ورعاع. مادتهم الكذب وهدفهم الفجور وبين هذا وذاك (رحماء) وغوغاء، وهؤلاء لا علاقهٔ لهم بالكتاب. لأن الكتاب له هدف. ولا علاقهٔ لهم بالعترهٔ لأن العترهٔ طاهرهٔ وهؤلاء خرجوا من بحيرات الفجور والدنس. فطردهم من على الحوض شئ طبيعى. لأنهم بغضوا الطهر والنقاء. بغضوا حكم الكتاب وحركهٔ العترهٔ. ومن كان شأنه هذا كانت النار مثواه، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ": لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار [" ۱۸] ، وعن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وآله ": لا يبغضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا دبر يوم القيامهٔ عن الحوض [" ۱۹] ، وعن أنس قال صلى الله عليه وآله ": لا يشربه أحد أخفر ذمتى ولا قتل أهل بيتى [" ۲۰] ، ألم تقرأ من قبل الحديث الذى ذكرناه عن زيد بن أرقم قال النبى صلى الله عليه وآله لعلى وفاطمهٔ والحسن والحسين ": أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [" ۲۱] ، فلا عجب أن

يطردوا عند الحوض. لأن الحجة قامت عليهم فى الدنيا فضربوا بها عرض الحائط. ثم نعود مرة أخرى لنعرف من هو الرجل، أو المنادى، أو الصارخ الذى

[صفحه ۲۳۲]

جاء ذكره عند البخارى وأحمد وغيرهما. ولنبدأ من عند طرد الإبل الغريبة من على حوض النبى. روى مسلم عن أبى هريرة قال، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لأذودن عن حوضى رجالا كما تذاد الغريبة من الإبل [" ۲۲] ، ومعناه: كما يذود ساقى الناقة الغريبة عن إبله إذا أرادت الشرب مع إبله [۲۳] ، وهذا الحديث من جنس الحديث الذى رواه أحمد عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن الله غافر إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله [" ۲۴] وبالجملة، بعد النظر فى الروايات الواردة فى الحوض ونحن نبحث عن الصارخ. وجدنا أنه على بن أبى طالب عليه السلام. روى الطبرانى قال النبى صلى الله عليه وسلم: يا على معك يوم القيامة عصا من عصى الجنة تذود بها المنافقين عن حوضى [۲۵] وعن على قال: أنا

أذود عن حوض النبى صلى الله عليه وآله بيدى هاتين القصيرتين. الكفار والمنافقين. كما تذود السقاة غريبة الإبل عن حياضهم" [۲۶] ، وعن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سألت ربى أن تسقى أمتى من حوضى فأعطانى [" ۲۷] .

وروى، إن معاوية بن خديج كان يسب على بن أبى طالب. يوم أن كان السب ثقافة أمر بها معاوية ابن أبى سفيان. فلقيه الحسن بن على فقال له: أنت الساب لعلى! أما والله لتردن على الحوض. وما أراك أن ترده. فتجده مشمر الإزار على ساق يذود عنه. لا يأتى المنافقون ذود (كذا) غريبة الإبل. قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وقد خاب من افترى [۲۸] .

[صفحه ۲۳۳]

فالرجل والصارخ والمنادى الذى جاء ذكره فى الروايات عند البخارى ومسلم وأحمد. وهو على بن أبى طالب وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه ": لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا [" ۲۹] ، وذهب صلى الله عليه وسلم يوما إلى القبور. فقال فيما رواه الحسن: السلام عليكم يا أهل القبور. لو تعلمون ما نجاكم منه مما هو كائن بعدكم. ثم قال لأصحابه: هؤلاء خير منكم. إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئا. وخرجوا وأنا الشهيد عليهم. وإنكم قد أكلتم من أجوركم ولا أدرى ما تحدثون من بعدى [۳۰] ، وروى الإمام مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشهداء أحد: هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر الصديق: ألسنا يا رسول الله إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا وجاهدنا كما جاهدوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى، ولكن لا أدرى ما تحدثون بعد. فبكى أبو بكر ثم بكى. ثم قال: ائنا لكائنون بعدك [۳۱] .

إن الطريق إلى الحوض. هو نفسه الصراط المستقيم... الذى يكافح الشيطان وأعوانه من أجل أن يعرقلوا المسيرة البشرية التى خلقها الله لتسير إليه بعبادته سبحانه، والذين ارتدوا على أدبارهم القهقرى هم فى الحقيقة الذى سقطوا فى شباك الشيطان. قال تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) [۳۲] ، فالارتداد على الأدبار. الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال. وهو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ. وتسويل الشيطان لهم. أى زين لهم ما تحرص النفس عليه. وصور القبيح لهم

[صفحه ۲۳۴]

فى صورة الحسن. والطرد من على الحوض عقوبة شديدة يتذوقها الذين ارتدوا على أدبارهم قبل أن يذوقوا عذاب النار. قال تعالى: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) [۳۳] فقد بين تعالى جزاء عمل هذا النمط البشرى وعاقبة

أمرهم بقوله تعالى: (أولئك لهم اللعنة وسوء الدار " واللعن: الإبعاد من الرحمة والطرد من كل كرامة. وليس ذلك إلا لانكبابهم على الباطل ورفض الحق النازل من الله، وليس للباطل إلا البوار. إن للمؤمنين سبيل فمن سلكه شرب ونال الثواب العظيم. ومن ارتد القهقرى فله الجهة التى ارتد إليها، قال تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى

ونصله جهنم وساءت مصيرا) [۳۴] ، وقيل: المراد بمشاقة الرسول بعد تبين الهدى. فخالفته وعدم إطاعته. وعلى هذا فقوله ": ويتبع غير سبيل المؤمنين " بيان آخر لمشاقة الرسول. والمراد بسبيل المؤمنين. إطاعة الرسول. فإن طاعته طاعة لله. قال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [۳۵] .

[صفحه ۲۳۵]

[۱] البخارى ک: الدعوات (الصحيح ۱۴۱:۴). مسلم ک الفضائل ب الحوض (الصحيح ۵۳:۱۵) وأحمد (الفتح ۱۹۲:۱).

[۲] البخارى ک الدعوات (الصحيح ۱۴۱:۴) مسلم ک الفضائل ب الحوض (الصحيح ۵۹:۱۵) وأحمد والبيهقى عن ابن سعود (کنز ۴۱۸:۱۴).

[۳] البخارى ک الدعوات (الصحيح ۱۴۲:۴) ب الصراط.

[۴] رواه مسلم عن أسماء وأحمد ومسلم عن عائشة (کنز العمال ۴۱۹:۱۴).

[۵] البخارى فى تفسير سورة الأنبياء (الصحيح ۱۶۰:۳) مسلم (۱۹۴:۱۷).

[۶] البخارى (الصحيح ۱۴۲:۴) ک الدعوات ب الصراط.

[۷] رواه أحمد بسند صحيح والطبرانى (کنز العمال ۴۳۶:۱۴).

[۸] رواه أحمد وقال فى الفتح إسناد جيد (الفتح الربانى ۱۹۷:۱).

[۹] فيه إشارة إنهم غير عصاة لأن العاص يشفع له النبى. وهؤلاء أبعدهم.

[۱۰] رواه أحمد والترمذى وقال حديث حسن والطبرانى عن أبى سعيد، وقال المناوى رجاله موثقون (الفتح الربانى ۱۸۶:۱).

[۱۱] رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبى شيبة وابن سعد عن أبى سعيد (کنز ۱۸۶:۱).

[۱۲] رواه مسلم والصحيح ۱۷۹:۱۵) ک فضل الصحابة.

[۱۳] رواه الطبرانى والحاکم عن زيد بن أرقم (کنز ۱۸۷:۱).

[۱۴] رواه أحمد (الفتح الربانى ۳۰:۲۷) وابن أبى عاصم وقال الألبانى رجاله ثقات أخرجه أحمد وابن حبان (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۱۵] قال فى تحفة الأحوازى (فمن دخل عليهم) أى العلماء وغيرهم، (وأعانهم على ظلمهم) أى الافتاء ونحوه (فليس منى ولست منه) أى بينى وبينهم براءة ونقص ذمة (التحفة ۵۳۷:۶).

[۱۶] رواه الترمذى عن کعب بن عجرة وصححه (۵۲۵:۴) وقال فى تحفة الأحوازى أخرجه النسائى وأحمد (التحفة ۵۳۷:۶).

[۱۷] رواه ابن أبى عاصم بن کعب بن عجرة وقال الألبانى حديث صحيح (کتاب السنة ۳۵۳:۲).

[۱۸] رواه الحاکم عن أبى سعيد وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ۱۵۰:۳).

[۱۹] رواه الطقرانى (کنز العمال ۱۰۴:۱۲).

[۲۰] رواه ابن مردويه (کنز ۴۲۶:۱۲) وابن عدى (کنز ۴۳۵:۱۴).

[۲۱] تم تخريجه سابقا، رواه الترمذى عن زيد بن أرقم، والترمذى وابن ماجة والحاکم عن زيد أيضا. وأحمد والطبرانى والحاکم عن أبى هريرة. ورواه الضياء بسند صحيح وابن حبان وابن أبى شيبة (الجامع الصحيح ۶۹۹:۵) (تحفة الأحوازى ۳۷۲:۱۰) (المستدرک ۱۴۹:۳) (کنز العمال ۹۶، ۹۷:۱۲، ۶۴۰:۱۳)، (الفتح الربانى ۱۰۶:۲۲)، (البداية والنهاية ۳۸:۵).

[۲۲] رواه مسلم (الصحيح ۶۴:۱۵) ک الفضائل ب الحوض.

[۲۳] مسلم شرح النووى ۶۴:۱۵.

[۲۴] رواه أحمد والحاکم والضياء بسند صحيح (کنز العمال ۱۲:۱۶).

[۲۵] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رواته ثقات (الزوائد ۱۳۵:۹).

[۲۶] روایة الطبرانی فی الأوسط (الزوائد ۱۳۵:۹) (کنز العمال ۱۵۷:۱۳).

[۲۷] رواه شاذان وقال السیوطی لهذا الحدیث شاهد (کنز ۱۵۲:۱۳).

[۲۸] رواه ابن أبی عاصم. واختلف أحد رواة الحدیث وهو علی بن أبی طلحة. وقال الألبانی: إن علی بن أبی طلحة سالم مولی بنی العباس، وأخرج له مسلم وأصحاب السنن إلا الترمذی. وهو لیس مولی بنی أمیة کما وقع فی الإسناد واتفق علیه الإمامان أحمد بن حنبل وأبو حاتم (کتاب السنة ۲۶۱:۲).

[۲۹] رواه مسلم (کنز ۴۰۸:۱۱).

[۳۰] رواه ابن المبارک عن الحسن مرسلا (کنز ۱۷۹:۱۱).

[۳۱] موطأ مالک. کتاب الجهاد ص ۳۷۱.

[۳۲] سورة محمد: الآیة ۲۵.

[۳۳] سورة الرعد: الآیة ۲۵.

[۳۴] سورة النساء: الآیة ۱۱۵.

[۳۵] سورة النساء: الآیة ۸۰.

غروب الشمس والقمر

مما سبق علمنا منزلة علی بن أبی طالب. فهو من بنی هاشم کالقمر فی کبد السماء. وفی الحدیث الصحیح قال النبی صلی الله علیه وسلم لبنی هاشم ": إن هذا أخی ووصیی وخلیفتی فیکم فاسمعوا له وأطیعوا [" ۱] ، ومن بنی هاشم اخترق هذا التکلیف والأمر جدار القبیلة. إلی دار الأمة فقال النبی صلی الله علیه وسلم مخاطبا أمته " علی منی وأنا منه ولا یؤدی عنی إلا أنا أو علی [" ۲] ، وقال ": من کنت مولاه فعلی مولاه [" ۳] ، وقال لعلی ": أنت منی بمنزلة هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی [" ۴] ، إلی غیر هذا من الأحادیث التی تلقتها الأمة بالقبول وصححها علماء الحدیث. فعلی بن أبی طالب له مکانه الواضح الظاهر فی منطقة المرکز. ثم فی جمیع مناطق الاتساع التی تنشأ نتیجة لحرکة الدعوة. وهذا المکان تم تأمینه بوضع علامات تحذیریة من حوله. کی یعلم کل من یریده بسوء أن الأمر لن یکون سهلا عندما یقف التابع والمتبوع أمام الله تعالی یوم القیامة. ویکفی من

[صفحه ۲۳۶]

علامات التحذیر قوله صلی الله علیه وسلم لعلی وفاطمة والحسن والحسین ": أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [" ۵] ، وخطابه صلی الله علیه وسلم أمته قائلا ": أذکرکم الله فی أهل بیتی. أذکرکم الله فی أهل بیتی. أذکرکم الله فی أهل بیتی [" ۶] .

ولما کان من مهام الإنسان خلافة الله فی الأرض - فإن هذه المهمة فی جوهرها مادة للابتلاء. وعلی امتداد التاریخ الإنسانی. رفضت أقوام الأنبیاء والرسل. وکان العمود الفقری للرفض أنه من بین هذه الأقوام من کان یزعم أنه الأجدر والأحق بقیادة المسیرة. وهذا فی حد ذاته خروج عن واجب الخلافة. وترتب علی هذا الزعم أن انحرفت قوافل الضلال وتاهت فی أودیة عبادة المادة بجمیع أشکالها - وظهر فی الوجود آلهة من الأصنام والأوثان والبشر. ومن ینظر بتدبر تحت أقدام هذه الآلهة المتعددة. یجد أن السبب الرئیسی لوجودها هو رفض خلیفة الله فی الأرض. وإذا عدنا بالذاکرة إلی الخلف لنلتقط مشهد وحرکة من أعماق الوجود لندلل به علی ذلک. فلنقف أمام قصة آدم علیه السلام وموقف الشیطان الرجیم منه فآدم علیه السلام خلیفة. والشیطان خارج علی هذه الخلافة. ولکل منهما منهاج له مقدمة وعلیها نتیجة. والأمة الخاتمة بین لها رسولها صلی الله علیه وسلم المقاعد الأولی فیها. وذلک کما بینا من قبل. ولما کان التشریع مبنیا علی أساس أنه لا إجبار فی دین الله. وإنه لا إجبار فی الأفعال. وإن التکالیف مجعولة علی رفق مصالح العباد فی معاشهم

ومعادهم أولا، وهى متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون فى الفعل والترك ثانيا. والمكلفون إنما يثابون أو يعاقبون بما كسبت أيديهم من خير أو شر اختيارا. فإنه لا معنى للقول بأن التكليف أهمل مصالح العباد فى تعيين الخليفة الذى يسوق الناس إلى الله تعالى، ويعبر بهم الحياة الدنيا

[صفحه ۲۳۷]

بما يوافق الكمال الأخروى الحياة الدائمة الحقيقية. وكيف يهمل التكليف هذا. وفى الاهمال إلغاء لآدم وبرنامج آدم، وفى الالغاء ضياع للسعادة الحقيقية التى لا يصل الإنسان إليها. إلا عندما يكون مؤمنا بالله وكافرا بالطاغوت. وبضياع السعادة الحقيقية يفسد دين الإنسان الفطرى ولا تتعادل قواه الحسية الداخلية. وعندما يفسد الدين الفطرى يميل الإنسان إلى قوة من القوى ويتبعها. ويؤدى هذا الميل إلى طغيان تلك القوة. ويعلو هبل بل ألف ألف هبل. ولا معنى أيضا للقول بأن الإنسان خلقه الله تعالى كحصاة فى الطريق تلهو بها كل قدم. وإن على عباقرة القبائل فى كل عصر أن يستخدموه فى أى عمل شاءوا كيف؟ وهل جاءت الأصنام والأوثان إلا من طريق الفراعنة والقياصرة والأكاسرة. أصحاب المقاعد الأولى التى زخرف الشيطان حولها. إن التسليم لفقه الحصى الذى تلهو به كل قدم. يعنى إبطال معرفة الحسن من القبيح. ويعطل الثواب والعقاب. وكيف يكون هذا والتكاليف متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون فى الفعل والترك. ويثاب المكلفون أو يعاقبون بما كسبت أيديهم من خير أو شر اختيارا. والقرآن الكريم أخبر بأن الكفار والمشركين سيعترفون يوم القيامة بأنهم إنما أشركوا واقترفوا المعاصى بسوء اختيارهم واغترارهم بالحياة الدنيا، إن فقه الحصى وضعه علماء الشذوذ والترفيع ليخدم سياسة الاحتناك لأن من أبوابه دخل الجلادون ليمارسوا واجب الاستكبار الذى دور أوتاده الشيطان. وفقه الحصى والحجارة مهمته تبرير أعمال المنافقين والفساق والمشركين والكفار. ونسى عباقرة هذا الفقه أن الله تعالى عندما تبرأ من المشركين لم يتبرأ سبحانه من خلق ذواتهم أو ألوان بشرتهم. وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم. وتحت سقف التبرير دخل علماء الحجارة من باب القضاء والقدر. ومن هذا الباب قتلوا المقاومة والتصدى للشر عند أكثر الناس: بحجة أن الله أجبر العباد على أفعالهم. أو أن الأنبياء والرسل عليهم السلام قد يريدون لذويهم أن يكونوا على المقاعد الأولى فى أممهم. ولكن الله تعالى يريد غير ذلك لأن الناس سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب. ولهذا سبق القضاء وجاء الفراعنة والقياصرة. لقد كان هذا الباب من فقه الحصى والحجارة. من أخطر الأبواب

[صفحه ۲۳۸]

على المسيرة البشرية. وكيف يجلس الفراعنة فى دائرة الفحشاء والمنكر ثم يقال بعد هذا إن الله أمر بذلك؟ إن البرنامج الذى يأمر بالسوء والفحشاء حذر الله تعالى الجنس البشرى منه. وما قال أتباع هذا البرنامج ذلك إلا ليحتموا وراء جدار من الزينة ليغووا الناس ويدعونهم إليه. أما القول الحق فى هذه المسائل ما روى عن الإمام الصادق. وقد قيل له: هل فوض الله الأمر للعباد؟ فقال: إن الله أكرم من أن يفوض إليهم. فقيل له: فأجبر الله العباد على أفعالهم؟ قال: الله أعدل من أن يجبر عبدا على فعل ثم يعذبه عليه. وروى عنه أنه قال: إن الله عز وجل أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله أعز من أن يريد أمرا فلا يكون. وعنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله. ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه. وبيان هذا كله فيما روى عن الإمام الرضا. قال: إن الله عز وجل لم يطع بإكراه. ولم يعص بغلبة ولم يهمل عبادة فى ملكه هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم عليه فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله منها صادا ولا منها مانعا. وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذاك فعل، وإن لم يحل فعلوه فليس هو الذى أدخلهم فيه. ثم قال الإمام الرضا: من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه – أى من جادله. لقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أين المركز من الدائرة. وأحاط أمته علما بأن اختيار الأمة سيكون حول هذا المركز. ونهى عن إيذاء أهل المركز أو حربهم وأمر بالالتفات حولهم. واختبار الناس بالناس سنة إلهية جارية. قال تعالى: (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) [۷] ، وقال تعالى:

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا

[صفحه ۲۳۹]

وليعلمن الكاذبين) [۸] ، ففى الآيات مرتكزات ودوائر. وحول هذا وذاك يجرى الامتحان الذى سيترتب عليه الثواب أو العقاب. قال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) [۹] ، وبما أن الأمة الخاتمة من الناس وعليها يجرى الاختبار. وبما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر بما هو كائن وما سيكون. وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها حتى لا يكون للناس على الله حجة. فإننا سنلقى الضوء هنا على معالم العقبات التى لم تمكن أهل البيت من القيام بواجب الخلافة. وفى البداية إذا سألنا: ما هى العوامل التى أدت إلى ابتعاد أهل البيت عن القيادة، رغم ما أحيط حولهم من مناقب وتبشير وتحذير؟ فإن الإجابة لا بد لها من مقدمة. نقول فيها: إن الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها وأسبابها. ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولابسها. وكما قال ابن أبى الحديد: بل لعل الحاضرين المشاهدين لها. لا يعلمون باطن الأمر فيها... ولأن الأمر كذلك. فنحن هنا نقوم بترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات ونستعمل مقدمات حقيقية يقينية لاستنتاج معلومات تصديقية واقعية. وفى مجال البحث عن الحقيقة نعلم أن الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها أولها أى يقاس آخرها على أولها فحسب البدايات تكون النهايات، وعمودنا الفقرى فى البحث هنا الحديث الشريف، وفيه نسلط الضوء على التاريخ وحركته وتحت الضوء تظهر المعلومات وبحديث آخر ترتب هذه المعلومات، وفى النهاية نحصل على مقدمة حقيقية يقينية على ضوئها يفتح التاريخ أبوابه لنستنتج المعلومات التصديقية الواقعية. والمقدمات الحقيقية التى يمكن أن يستند عليها لاستنتاج الأسباب التى أدت إلى إبعاد أهل البيت عن ممارسة واجب الخلافة مقدمات كثيرة. ولكننا سنسلط الضوء على وجه المجتمع أولا فعلى الوجه ترى ما نريده من مقدمات.

[صفحه ۲۴۰]

[۱] حديث قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) رواه أحمد وابن جرير وصححه والطحاوى والضياء بسند صحيح، وتم تخريجه من قبل راجع (كنز العمال ۱۲۹ – ۱۳۳، ۱۷۴، ۱۷۵:۱۳) (الفتح الربانى ۱۲۲:۲۳) (المستدرك ۳۵:۳).

[۲] تم تخريجه والحديث صحيح راجع (جامع الترمذى ۶۳۵، ۶۳۶:۵) (كنز العمال ۵۹۹، ۶۳۶:۵).

[۳] تم تخريجه والحديث صحيح راجع (الفتح الربانى ۲۱۳:۲۱) (كنز العمال ۶۰۹:۱۱، ۱۳۴:۱۳) (المستدرك ۱۱۰:۳) (الزوائد ۱۰۴:۹).

[۴] رواه مسلم وغيره وتم تخريجه من قبل راجع (صحيح مسلم ۱۷۴:۱۵).

[۵] رواه أحمد وتم تخريجه من قبل راجع (المسند ۲:۲۴۲) (المستدرك ۱۴۹:۳) والحديث صحيح.

[۶] رواه مسلم وتم تخريجه من قبل. راجع (صحيح مسلم ۱۷۹:۱۵).

[۷] سورة الأنعام: الآية ۵۳.

[۸] سورة العنكبوت: الآية ۲ – ۳.

[۹] سورة آل عمران: الآية ۱۴۲.

من معالم الغروب

بينا فيما سبق أن الصحابة قوم من الناس. لهم ما للناس وعليهم ما

عليهم. ليس لهم على غيرهم من المسلمين كبير فضل إلا بمشاهدة الرسول ومعاصرته لا غير. بل وربما كانت ذنوبهم أفحش من ذنوب غيرهم. لأنهم شاهدوا الأعلام والمعجزات. ويكفى أن فيهم اثنى عشر رجلا حربا لله ولرسوله فى الحياة الدنيا. وإن فيهم أصحاب المسجد الضرار. وفيهم من قال فيهم عمر بن الخطاب عندما استأذنه الزبير فى الغزو: ها أنا ممسك بباب هذا الشعب أن

يتفرق أصحاب محمد فى الناس فيضلوهم. وسنذكر بعض الآيات الكريمة. التى تبين حاله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كيف كانت. وقد بينا ذلك ونحن نتحدث عن دائرة الرجس والذين فى قلوبهم مرض لأن هؤلاء هم أصحاب المصلحة فى عرقلة الطريق وإضلال الناس. وهؤلاء كان لهم موقف ثابت من الرسول ودعوته على امتداد الزمان. وبما أن على بن أبى طالب أقرب الناس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ القسط الأكبر من العداء ووضع العراقيل أمام خطاه. ونحن لن نعرف حجم هذه العراقيل. إلا إذا وضعنا أيدينا على طبيعة القوم فى عهد النبوة. فتخاذلهم وحبهم للدنيا والرسول فى وسطهم. يفسح الطريق لفهم تخاذلهم وحبهم للدنيا عندما جاء دور على بن أبى طالب. وآيات تخاذلهم فى الحروب كثيرة فى كتاب الله. فالقرآن يشهد بأنهم التووا عليه صلى الله عليه وسلم يوم بدر وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم وذلك قبل أن تتراءى الفئتان. قال تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون - يجادلونك فى الحق بعدما تبين لهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) [۱] ، قال المفسرون: المعنى: إن الله تعالى حكم فى أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه. كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجا يصاحب الحق. والحال أن فريقا من المؤمنين لكارهون لذلك ينازعونك فى الحق بعدما تبين لهم إجمالا. والحال إنهم يشبهون جماعة يساقون إلى

[صفحه ۲۴۱]

الموت. وهم ينظرون إلى ما أعد لهم من أسبابه وأدواته... ومن هذا نعلم أن المجتمع كان فيه من يجادل فى الحق. وعلى هذا لا يكون من العسير أن يجادل هؤلاء على بن أبى طالب أو غيره إذا كانوا قد جادلوا الرسول. ويوم أحد شهد القرآن أنهم عصوا أمره صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم، حيث أقامهم على الشعب فى الجبل. وهو الموضع الذى خاف أن تكر عليه منه خيل العدو من ورائه. وهم أصحاب عبد الله بن جبير. فإنهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدم به إليهم. وروى أصحاب التفاسير أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم": إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم " ولكنهم رغبوا فى الغنيمة عندما شاهدوا النساء يشتدون على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن [۲] ففارقوا مركزهم، حتى دخل الوهن على

المسلمين بطريقهم. لأن خالد بن الوليد كر فى عصابة من الخيل فدخل من الشعب الذى كانوا يحرسونه فما أحس المسلمون بهم إلا وقد غشوهم بالسيوف من خلفهم فكانت الهزيمة. وذلك قوله تعالى: (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) [۳] ، وعن ابن مسعود قال: ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا. حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد [۴] .

والذين يحبون الدنيا لا يمكن بحال أن يلتقوا مع على بن أبى طالب على خط واحد له هدف واحد. والذين يحبون الدنيا لم تنته حياتهم. بموت الرسول صلى الله عليه وآله. بل استمر عطاؤهم على خنادق الصد حربا لله ولرسوله فى الحياة الدنيا. ولم تكن المعصية يوم أحد فقط. وإنما كانت أيضا فى غزوة تبوك. فبعد أن أكد عليهم النبى صلى الله عليه وسلم الأوامر. خذلوه وتركوه. كما بينا من قبل أساليبهم فى ضرب القوة العسكرية للدعوة. وهذا

[صفحه ۲۴۲]

النمط البشرى نزل فيه قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) [۵] ، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين. وفيها أوضح دليل على أن أصحابه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ويخالفون أمره وهذا النمط المتخاذل عاتبهم الله ووبخهم بقوله تعالى: (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) [۶] .

كان هذا فى ميادين القتال، وفى داخل المسجد لم يختلف الأمر كثيرا. فالذين أحبوا الدنيا فى المعركة أحبوها أيضا والرسول صلى الله

عليه وسلم قائم يخطبهم يوم الجمعة. وهذا إن دل على شئ. فإنما يدل على الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية. ويكشف أنهم لم يقدروها حق قدرها ولا نزلوها منزلتها. ولقد اتفقت الروايات على أنه ورد المدينة عير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبى صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فضرب أصحاب التجارة بالطبل والدف لإعلام الناس. فانفض أهل المسجد إليهم وتركوا النبى قائما يخطب وذلك فى قوله تعالى: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) [۷] ، أيستبعد على هذا النمط بعد ذلك أن يصادر الحكمة والبلاغة وأن يترك من هو دون الرسول إذا قام فيهم أو ساقهم إلى ما فيه سعادتهم الحقيقية. ومن دائرة حب الدنيا ننتقل إلى دائرة تفسير النصوص وفيها نرى أن العديد منهم كان يفتح أبواب الرأى والنبى فى وسطهم. ولقد حذرهم النبى من هذا. لأن هذا الباب إذا فتح فسيدخل منه أمور لم يرد لها ذكر فى الكتاب والسنة. روى الإمام مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع أصوات رجلين اختلفا فى آية. فخرج يعرف فى وجهه الغضب وقال ": إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى

[صفحه ۲۴۳]

الكتاب [" ۸] ، وفى رواية عند الإمام أحمد قال النبى لبعض أصحابه ": ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض. بهذا أهلك من كان قبلكم [" ۹] ، وروى الإمام مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ": أيتلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم [" ۱۰] ، وروى ابن أبى عاصم أنه قال لهم ": ألهذا خلقتم؟ أم بهذا أمرتم. لا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض. انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه ["۱۱] ، وروى الدارقطنى: إن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من باب البيت وهو يريد الحجرة. فسمع قوما يتراجعون بينهم فى القرآن. يقولون: ألم يقل الله فى آية كذا وكذا. فقال لهم: أبهذا أمرتم. أبهذا عنيتم إنما هلك من قبلكم بأشباه هذا ضربوا كتاب الله بعضه بعضا أمركم الله بأمر فاتبعوه ونهاكم عن شئ فانتهوا [۱۲] .

فهل انتهوا؟ إن التاريخ يقول إن المسيرة شهدت للرأى أعلاما. واتفق على أن الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. أطبقوا إطباقا واحدا على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة فى ذلك. كإسقاطهم سهم ذوى القربى وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم. وهذان الأمران يدخلان فى باب الدين وفيهما نصوص صريحة. وقد عملوا بآرائهم أمورا لم يكن لها ذكر فى الكتاب والسنة. وعملوا بمقتضى ما يغلب فى ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص، حتى استحالت الشريعة وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة. وأكثر ما يعملون بآرائهم فيما يجرى مجرى الولايات والتأمير والتدبير وتقرير قواعد الدولة. وما كانوا ليقفوا مع نصوص الرسول صلى الله عليه وسلم وتدبيراته

[صفحه ۲۴۴]

إذا رأوا المصلحة فى خلافها. كأنهم كانوا يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظا، وكأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله. وتقدير ذلك القيد " افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة [" ۱۳] ، وهكذا حذر النبى من تأول غير الراسخين فى العلم. لأن تأولهم يفتح الأبواب للذين فى قلوبهم زيغ. فيدقون أوتاد الفتن ويقيمون خيام الهلاك التى أقيمت من قبل للأمم السابقة. وكما حذر النبى من الرأى والتأويل الذى لا يستند على كتاب الله وسنة رسوله. حذر أيضا من السلوك فى طريق الخشوع الزائف. لأن هذا النوع من الخشوع من فضيلة ضرب كتاب الله بعضه ببعض. فأصحاب الخشوع الزائف شربوا من إناء الذين فى قلوبهم زيغ. ولأن حركة أصحاب الخشوع الزائف تضيق الطريق أمام أصحاب الخشوع الحق. بتلبيس الأمور على الناس فإن النبى صلى الله عليه وآله عاتب أصحاب هذا الخشوع ووبخهم وذمهم فى أكثر من موضع. روى الإمام البخارى أن النبى صلى الله عليه وآله رخص فى أمر فتنزه عنه ناس من الناس فبلغ ذلك النبى فغضب ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه. فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية [۱۴] ، وروى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة فصام حتى بلغ كراع الغميم [۱۵] وصام الناس معه فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام وإن الناس ينظرون فيما فعلت. فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه. فأفطر بعضهم وصام بعضهم. فبلغه أن ناسا صاموا فقال: أولئك العصاة [۱۶] ، وروى الإمام أحمد: إن النبى صلى الله عليه وسلم وعظ الناس. فرفع رجل صوته

بالبكاء. فقال النبى: من هـذا الـذى لبس علينا إن كان صادقا شـهر نفسه وإن كان كاذبا محقه الله [" ۱۷] ، وروى أحمـد أيضا عن ابن الأدرع قال: انطلقت مع

[صفحه ۲۴۵]

رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فمررنا على رجل يصلى مجهرا بالقرآن. فقال النبى: عسى أن يكون مرائيا. قلت: يصلى يجهر بالقرآن!! [۱۸] ، فترك النبى صلى الله عليه وسلم يدى ثم قال: إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة [۱۹] .

وروى الإمام مسـلم أن النبى صـلى الله عليه وآله أعتم ذات ليلـة العشاء حتى رقد الناس واستيقظوا. فجاء عمر بن الخطاب وأنذر الناس بالصلاة وصاح: الصلاة. وفى رواية: قال عمر: نام النساء والصبيان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ما كان لكم أن تنذروا رسول الله صـلى الله عليه وسلم على الصلاة، " وذلك حين صاح عمر [۲۰] ومن الطريف قول بعضـهم: أن صياح عمر كان لغيرته على الدين وذلك عنـدما وجد أن النبى لم يخرج للصـلاة وأن النساء والصبيان قد ناموا. وروى الإمام البخارى ومسـلم أن رجلا اشـتكى للنبى أن يتأخر عن الصلاة من أجل فلان [۲۱] الذى يطيل بهم فى الصلاة. فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال: أيها الناس إن منكم منفرين. فأيكم ما صـلى بالناس فليوجز فإن فيهم الكبير والضـعيف وذا الحاجـة [" ۲۲] ، من هـذا نعلم أن النبى صـلى الله عليه وسـلم واجه كل صور الخشوع الزائف أو المبالغ فيه أو الذى لا يستمد وقوده من النبى صلى الله عليه وسلم. وذلك لأن تحت هذه المظلة تنتعش تزكية النفوس. وتزكية النفوس بغير حق واضح. سـلاح فعال يسـتخدم فى أعمال الصد عن سبيل الله. فأصـحاب دائرة الذين فى قلوبهم مرض أو زيغ إذا ضـربوا كتاب الله بعضـهم ببعض. احتمى تلاعبهم بالنصوص بملابس الخشوع الزائف. وهنا تكمن الخطورة. وذروة التحذير من هذا النمط البشرى. كانت فيما رواه أبو سعيد

[صفحه ۲۴۶]

الخدرى. أن أبا بكر رضى الله عنه. جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: يا رسول الله: إنى مررت بوادى كذا وكذا، فإذا رجل تخشع حسن الهيئـة يصـلى. فقـال له النبى: اذهب إليه فـاقتله. فـذهب إليه أبو بكر. فلمـا رآه على تلـك الحال كره أن يقتله. فرجع إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وقال: يا رسول الله رأيته يصـلى متخشـعا فكرهت أن أقتله. فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر: اذهب فـاقتله. فـذهب عمر فرآه على تلـك الحـال التى رآه أبو بكر فكره أن يقتله فرجع فقال: يا رسول الله رأيته يصـلى متخشـعا فكرهت أن أقتله فقال النبى: يا على اذهب فاقتله فذهب فلم يره فرجع على فقال: يا رسول الله إنى لم أره، فقال النبى صـلى الله عليه وسـلم: إن هذا وأصـحابه يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السـهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم فى فوقه فاقتلوهم هم شر البرية [۲۳] .

وهذا الرجل المتخشع الحسن الهيئة هو ذو الثدية. وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله. وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد رأى هذا المارق من قبل فى المسجد كما فى حديث أنس عند أبى يعلى. ويومئذ أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله ولكن خشوعه غر الشيخين أبو بكر وعمر. كـان هـذا فى المرة الأولى. ثم جاءت الثانيـة عنـدما رآه أبو بكر يصـلى فى بعض الأوديـة. فأخبر النبى فأمره فورا بقتله. وفى هـذا دليـل على أن الخـاشع محكوم عليه من قبل. ولكن رياء هـذا المارق بتخشـعه فى صـلاته غر بشـيخين مرة أخرى فكرها قتله وآثرا اسـتحياءه. والنبى صـلى الله عليه وسلم كان يعلم من ربه أن هذا الخاشع المارق سيكون له فقه خاص به مهمته الصد عن الإسلام بالإسلام وعن الكتاب بالكتاب. ولما كان الأمر متعلقا بالإسلام وكتابه فإن الله تعالى أخبر رسوله أن نهاية هذا المارق ستكون بيد أعلم الناس بالأعلام وكتابه على بن أبى طالب. ولقـد قاتله على بن أبى طالب فيما بعـد وهو بين أتباعه. وعندما قتله أعلن على قواته الحقيقة الكبرى ومفادها أن هذا الرجل لم يكن إلا شيطان من

[صفحه ۲۴۷]

الشـياطين. وذلك فيما ذكره ابن كثير أن سعد بن أبى وقاص قال بعد موقعة النهروان " قتل على بن أبى طالب شيطان الردهة [" ۲۴] ،

وقال على بعد الموقعة ": أخبرنى خليلى صلى الله عليه وآله وسلم أنهم ثلاثة أخوة من الجن هذا أكبرهم [" ۲۵] ، وظهور الشياطين على هذه الصورة أمر غير مستغرب. فلقد روى الإمام مسلم " إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى القوم فيحدثهم بالحديث" [۲۶] .

وروى مسلم أيضا ": إن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا [" ۲۷] ، ولما كان ظهور الشياطين حقيقة. ولما كانوا سيحدثون الناس بأحاديث يكذبون فيها على رسول الله. ويقرأون عليهم قرآنا ليشتعل الجدال ويأتى الاختلاف والافتراق. كما فى قوله تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) [۲۸] ، ولما كانوا سيظهرون بلباس الخشوع ويصلون وسوف يغتر بخشوعهم الكثير. كان من عدل الله تعالى أنه قطع الطريق عليهم بتحديده تعالى دائرة الطهر التى يجلس فيها الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وأهل هذه الدائرة لا يكذبون كما أنهم أعلم الناس بكتاب الله. ولقد فرض الله مودتهم. وأهل هذه الدائرة يتعاملون مع الدنيا على أنها قنطرة إلى الآخرة. ولا يأكلون فى الدنيا إلا ما فرضه الله لهم من سهم ذى القربى كما أنهم دخلوا دائرة الأمان وذلك لإخبارهم أنهم سيكونون مع النبى صلى الله عليه وآله عند الحوض، وسيكونون معه فى مكان واحد فى الجنة. من هذا كله يمكن القول بأنه يستحيل عليهم أن يكذبوا فأى غنيمة ينالوها إذا كذبوا. أما الشياطين وأتباعهم فالكذب نقطة ارتكاز فى نفوسهم. لأنهم

[صفحه ۲۴۸]

يريدون وإذا أعطوا لا يشبعون فالنبى أمر بقتل المارق يوم إن كان متخشعا فى صلاته. وكان يعلم من ربه أن هذا المارق له يوم مؤجل وما فعل النبى هذا إلا من باب الأخذ بالأسباب. بعد أن علم أن الأمة ستختلف وتفترق من بعده. ولقد أخذ صلى الله عليه وسلم بالأسباب فحذر الناس من الإمارة لأنه علم أن الأمة ستسند الأمر إلى غير أهله. وحذر من بنى أمية ونفى الحكم بن أبى العاص لما علم من ربه ما يضمروه للدعوة. وبعد أن شاهدهم ينزون على منبره نزو القردة. ويوم فتح مكة. أهدر النبى دم عبد الله بن أبى السرح وأمر بقتله ولو وجد متعلقا بأستار الكعبة. وذلك عندما علم من ربه أن ابن أبى السرح ستجرى على يديه فتن تقود إلى فتن حالكة الظلام. فماذا فعلوا مع ابن أبى السرح. لقد فر هذا الرجل إلى أخيه من الرضاعة عثمان بن عفان. وغيبه عثمان عنده حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما اطمئن أهل مكة. فاستأمنه له فصمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طويلا. ثم قال: نعم فلما انصرف عثمان قال النبى لمن حوله: ما صمتت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأت إلى يا رسول الله. فقال النبى: إن النبى لا ينبغى أن يكون له خائنة أعين [۲۹] ، وبعد وفاة النبى توارى ذو الثدية وابن أبى السرح وبنى أمية وبنى الحكم وراء أشجار الزينة. يدونون فقههم بعد أن محيت آثار التحذير منهم وذلك عندما منع الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه رواية الحديث. وألغى سهم المؤلفة قلوبهم الذى ضربه الله على ضعاف الإيمان المنافقين وأشباههم ليعرفوا به. لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب رغم علمه بأن الذى يطلب من الله دفعه عن الأمة. واقع لا محالة لأن الله أعلم بالقلوب وأعلم بالطريق الذى ستختاره كل نفس من النفوس. والأخذ بالأسباب رغم هذا العلم. هو فى حقيقته تعلق بالله. لأن الله نسب الهداية فى كل مكان إلى نفسه

[صفحه ۲۴۹]

بصورة مطلقة. وأمر النبى صلى الله عليه وسلم، بإراقة دماء واحد من الناس بالإضافة إلى أنه أخذ بالأسباب. إلا أنه أيضا يدب الحياة فى جسد التحذير بمعنى أن الناس عندما يعلمون أن فلانا قد استباح النبى صلى الله عليه وسلم دمه أو نفاه. فإن التحذير يكون إعلاما على رأس المحذر منه فيتعامل معه الناس بحرص ولا يملكوه أعناقهم. فالأخذ بالأسباب من ناحية الرسول هو تحذير وحجة فى نفس الوقت. مما سبق يمكن للباحث أن يرى صفحة المجتمع الذى بعث فيه النبى صلى الله عليه وسلم – وعلى هذه الرؤية يمكن القول بأن الصحابة قوم من الناس لهم ما للناس وعليهم ما عليهم. فيهم من يحب الدنيا ويعمل لها. وفيهم من يحب الآخرة ويعمل لها. وفيهم من كان يتلعب بالنصوص ويضرب كتاب الله بعضه ببعض. وفيهم أصحاب الخشوع الخيالى الزائف. ومن هؤلاء شيطان من الشياطين تلون

وتشكل وزين وزخرف ثم جاءته ضربة فيما بعد من سيف العمود الرئيسى لدائرة الطهر فأردته قتيلا. ومن هذا كله يمكن أن نلقى بالقبول أن على بن أبى طالب قد واجه صعوبات جمة وأن طريقه قد وضع عليه العديد من العقبات. ولم تكن العقبات تأتيه من جانب هؤلاء فقط. وإنما جاءته أيضا من الأعراب اتباع كل ناعق. الذين لا يعرفون من دينهم شيئا. وهؤلاء جاء ذكرهم فيما رواه البخارى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم وقال ": ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا [" ۳۰] ، وروى الترمذى والإمام أحمد أنهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم عندما مروا بسدرة: يا نبى الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها. فقال النبى ": الله أكبر. هذا كما قلت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. إنكم تركبون سنن من قبلكم [۳۱] ، وقولهم هذا كان فى العام الثامن

[صفحه ۲۵۰]

الهجرى. أى قبل وفاة النبى بسنتين ونصف تقريبا. فهؤلاء الذين لا يعرفون من الدين شيئا. والذين يريدون ذات أنواط. هؤلاء أنماط بشرية لا يمكن تجاهل وجودها عند قراءة صفحة المجتمع بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم.

[۱] سورة الأنفال: الآية ۵ – ۶.

[۲] تفسير ابن كثير ۴۱۴:۱.

[۳] سورة آل عمران: الآية ۱۵۲.

[۴] تفسير ابن كثير ۴۱۳:۲.

[۵] سورة التوبة: الآية ۳۸.

[۶] سورة التوبة: الآية ۴۲.

[۷] البخارى ك البيوع (الصحيح ۲:۲) ابن كثير فى التفسير ۳۶۷:۴.

[۸] مسلم ك العلم (الصحيح ۲۱۸:۱۶).

[۹] أحمد عن ابن عمر (كنز العمال ۱۹۳:۱).

[۱۰] مسلم (الصحيح ۱۷۵:۱).

[۱۱] ابن أبى عاصم. وقال الألبانى إسناده حسن وأخرجه أحمد وابن ماجة (كتاب السنة ۱۷۷:۱).

[۱۲] الدارقطنى وابن عساكر (كنز العمال ۳۸۳:۱).

[۱۳] ابن أبى الحديد ۸۰۷:۳.

[۱۴] البخارى ك الآداب (الصحيح ۶۶:۴) مسلم (الصحيح ۹۰:۵).

[۱۵] موضع بين مكة والمدينة.

[۱۶] الترمذى وصححه (الجامع ۸۰:۳).

[۱۷] أحمد فى كتاب الورع ص ۷۹.

[۱۸] أى إنه رجل صالح.

[۱۹] رواه أبو يعلى وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الزوائد ۶۳۲:۶).

[۲۰] مسلم عن عائشة وابن عمر كتاب المساجد. وقت العشاء (۱۳۷ – ۱۳۸:۵ الصحيح).

[۲۱] فى رواية أنه معاذ بن جبل.

[۲۲] رواه البخارى ككك الأحكام (الصحيح ۲۳۶:۴).

[۲۳] رواه أحمد وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۲۲۷:۶) وابن كثير فى البداية (۲۹۹:۷).

[۲۴] ابن كثير فى البداية (۲۹۸:۷).

[۲۵] رواه أحمد وقال فى فتح البارى سنده جيد وله شاهد من حديث جابر عند أبى يعلى ورجاله ثقات (فتح البارى ۲۹۹:۱۲)، وأخرجه الحاكم (المستدرك ۵۳۳:۴).

[۲۶] رواه مسلم (الصحيح ۹:۱ ط إسطنبول).

[۲۷] رواه مسلم (الصحيح ۱۰:۱ ط استانبول).

[۲۸] سورة الأنعام: الآية ۱۲۱.

[۲۹] راجع ترجمة ابن أبى السرح (الإستيعاب ۳۷۸:۲، الإصابة ۳۰۹:۲، أسد الغابة ۱۷۳:۳).

[۳۰] البخارى (الصحيح ۶۱:۴) ك الآداب ب، يكون من الظن.

[۳۱] رواه الترمذى وصححه (الجامع ۴۷۵ (۴) وأحمد وابن جرير وابن أبى حاتم (تفسير ابن كثير ۲۴۳:۲) وابن أبى عاصم وقال الألبانى حديث صحيح (كتاب السنة ۳۸:۱) والشافعى والبيهقى (كنز العمال ۱۷۰:۱۱).

ذعر على أعتاب الغروب

على صفحة المجتمع قدمنا حقيقة يقينية، حملتها إلينا أحاديث صحيحة.

وهذه المقدمات شهدت لها حركة التاريخ بعد ذلك بأنها صحيحة. وذلك لأن النتيجة فى النهاية استقامت مع المقدمات فى البداية. ولا نقصد بحركة التاريخ هنا ما دونه المؤرخون فقط. وإنما حركة التاريخ عندنا هى التى يرشد إليها حديث صحيح أخبر فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالغيب عن ربه. فنحن نمسك بأحاديث الإخبار عن الغيب ونمر بها على حركة التاريخ. ولا تعتمد فى بحثنا أن الأحداث التى انطبق عليها الحديث الصحيح. وكما قدمنا مقدمات جرت على صفحه المجتمع أيام الرسول صلى الله عليه وسلم. فإننا نقدم هنا أيضا حدثا لا يمكن تجاهله ونحن نبحث عن العراقيل التى وضعت أمام على بن أبى طالب. وهذا الحدث يحمل معالم الذعر من على بن أبى طالب. ومما سبق علمنا أن دائرة الرجس وأصحاب المسجد الضرار عندما عزم النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى تبوك وترك عليا فى المدينة، أشاع أصحاب دائرة الرجس أن النبى استثقله وخلفه بين النساء والصبيان. وكان هدفهم من وراء هذا أن يخرج على بن أبى طالب مع النبى حتى تخلوا المدينة أمام مخططات ملك الروم ومشركى العرب وأصحاب المسجد الضرار. ولكن النبى رد كيدهم فى نحورهم وقال لعلى ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى "... الحديث. وعند عودة النبى من تبوك حدثت محاولة اغتياله بواسطة اثنى عشر رجلا هم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا. ومعنى أنهم حرب أى أنهم أصحاب مخططات يتعاملون مع الأحداث وفقا للزمان والمكان. ولا يمكن بحال أن يكون على بن أبى طالب بعيدا عن مخططاتهم فى حياة الرسول وبعد مماته. لأن الحديث الصحيح أفاد بأنهم حرب على امتداد الحياة الدنيا. والمعروف أن

[صفحه ۲۵۱]

أصحاب المخططات الحربية. يجيدون تحديد أعدائهم بدقة وبسرعة وبتركيز. وسبب ذلك أن الله جعلهم فى ذعر دائم. وقد وصفهم الله فى كتابه فقال: (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون) [۱] فهم فى جزع وفزع وهلع وفى انزعاج دائم من ضرر متوقع. وإنهم لدفع هذا الضرر لو يجدون حصنا يتحصنون به وحرزا يتحرزون به أو مغارات فى الجبال أو نفق فى الأرض لأسرعوا فى ذلك لا يصرفهم عنه شئ. فهذا النمط البشرى فى فزع من المستقبل ولهذا فهم فى حرب مع كل مستقبل. والذين فى قلوبهم مرض أو زيغ كانوا يعلمون أن السماء لن تضربهم بعقاب ما دام النبى صلى الله عليه وسلم فيهم لقوله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) [۲] ، فالعذاب لا يضربهم ما دام الرسول فيهم. ولا يضربهم العذاب إذا استغفروا لذنوبهم وتابوا وعادوا إلى الرحاب الآمن. فإذا قبض الله تعالى رسوله إليه. فإنهم سيقفون تحت قانون هذه الآية: (فإما نذهبن

بك فإنا منهم منتقمون...) [۳] ، ويبقى الاستغفار لمن أراد أن يستقيم. لقد علموا ذلك فى العهد النبوى. علموا أنه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. وسيكون العقاب منهم أقرب. ولكن على يد من سيكون هذا العقاب؟ لقد كان فى ذاكرتهم حدث وحديث. يمكن عليهما رصد حامل العقاب الذى يدخره المستقبل لهم. روى ربعى بن حراش الذى قال فيه الإمام الترمذى: سمعت الجارود يقول: سمعت وكيعا يقول. لم يكذب ربعى بن حراش فى الإسلام كذبة [۴] ، روى ربعى عن على أنه قال: لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو وأناس من رؤساء المشركين. فقالوا: يا رسول الله. خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا وليس لهم فقه فى الدين. وإنما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا. فأردهم

[صفحه ۲۵۲]

إلينا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن لم يكن لهم فقه فى الدين سنفقههم، يا معشر قريش لتنتهين أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين. قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله. قال: هو خاصف النعل - وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها [۵] ، وفى رواية بسند صحيح أيضا. قالوا: يا محمد إنا جيرانك وحلفاؤك. وإن ناسا من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة فى الدين ولا رغبة فى الفقه. إنما فروا من ضياعنا وأموالنا فأرددهم إلينا. فقال النبى لأبى بكر: ما تقول؟ قال: صدقوا إنهم لجيرانك وأحلافك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال لعمر: ما تقول؟ قال: صدقوا أنهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر قريش والله ليبعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان. فيضربكم على الدين، أو يضرب بعضكم. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. قال: لا. قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا ولكنه الذى يخصف النعل - وكان أعطى عليا نعلا يخصفها [۶] .

فالذاكرة عند القوم تحمل حدث وحديث. والقرآن أخبرهم أنه بعد وفاة الرسول سيكون هناك انتقام لا محالة. وكما تحسسوا رقابهم عندما علموا يوم الحديبية. إن لهم يوما من على بن أبى طالب. تحسسوها أيضا عندما علموا بتفسير قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإنا منهم منتقمون)، قال السيوطى فى الدر المنثور. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: (فإما تذهبن بك فإنا منهم منتقمون) قال: نزلت فى على بن أبى طالب أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدى، وروى على وحذيفة فى قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان

[صفحه ۲۵۳]

لهم) [۷] ، ما قوتل أهل هذه الآية بعد [۸] ، وهذه الآية فى سورة براءة التى نزلت بعد غزوة تبوك آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم [۹] ، فإذا كان هناك قتال يدخره الغيب بعد آخر غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم. فلا جدال أن أصحاب دائرة الرجس سيبحثون كثيرا عن حصون يتحصنون بها أو حرزا يتحرزون به أو مغارات فى الجبال أو نفقا فى الأرض لدفع هذا الضرر عنهم. ولا يمكن للباحث المنصف أن يستبعد عامل الذعر هذا عند البحث عن العوائق التى وضعت فى طريق على بن أبى طالب. ويضاف إلى هذا عامل آخر. فالقوم كان فيهم من حذر النبى صلى الله عليه وسلم منه. وفيهم من دعا النبى عليه ولعنه وفيهم من نفاه وفيهم من أحل دمه. روى الإمام مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف اللهم العن لحيان ورعلا وذكوان وعصية [" ۱۰] ، وفى رواية عند أبى نعيم ": والعن أبا الأعور السلمى [" ۱۱] ، وفيما سبق بينا أنه لعن الحكم بن أبى العاص ونفاه وأحل دم عبد الله بن أبى السرح وذو الثدية. فهذا الطابور كله كانت لهم ثقافة يشقون بها طريقا فى اتجاه السلطة لإعادة مجدهم الزائل الذى أطاحت به الدعوة الإسلامية. فكان لا بد من وضع عقبات يكون من نتائجها التعتيم على هذه الروايات حتى تندثر فى عالم النسيان. وكان الطريق إلى ذلك لا يمر إلا بتخطى على بن أبى طالب ثم الكذب بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت هذه الأنماط البشرية تعمل من أجل رسم طريق حذر النبى صلى الله عليه وسلم منه. وهذا الطريق الذى اختاروه من على موائد الخوف والذعر والحسد والبغض. يستند علاوة على ما

[صفحه ۲۵۴]

ذكرنا على عداوة قديمة بين عبد شمس وبين بنى هاشم. فقديما كانت هناك عداوات بين حرب بن أمية وبين عبد المطلب بن هاشم. وفى عهد النبوة قدمت الدعوة رداء الأرحام كى تدخل تحته قريش لا فرق بين هذا وذاك. ولكن أبو سفيان لم ينصت لصوت الرحمة وحسد محمد صلى الله عليه وسلم وحاربه وبعد فتح مكة ظل الطريقان متباغضان وإن وقفوا على أرض واحدة. ولقد اتفق أن على بن أبى طالب قتل جماعة كثيرة من بنى عبد شمس فى حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأكد هذا بغضهم لعلى وسنرى فيما بعد أن الأحداث تقر بذلك. باختصار: كان هناك خوف وذعر وطلب ثأر. وكان هناك من استحدث سن على بن أبى طالب. وكان هناك من خاف من شدة وطأته وشدته فى دين الله. وكان هناك من يبغضه فقط لقربه من رسول الله. وكان هناك من كره اجتماع النبوة والخلافة فى بيت واحد، وكان خلاص هؤلاء. أن تتداول الخلافة بين قبائل العرب وأن لا تقتصر على بيت مخصوص. فتكون لكل قبيلة وفقا لهذا التصور بابا مفتوحا يصل بهم إلى كرسى الخلافة. وهذا الطريق يقف فى النهاية تحت مظلة يكون فيها مال الله دولا ودينه دخلا وعباده خولا. وهو الطريق الذى حذر منه النبى صلى الله عليه وسلم. من هذا كله لا يمكن القول أن مجموعة الحرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا. تتحرك بدون خطة تمهد لها ثقافة، ولأن هذه الثقافة لا بد أن تنتشر بين عامة المسلمين. كان لا بد إما الكذب على رسول الله أو التلعب بكتاب الله وضرب بعضه ببعض. والنبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن الكذب عليه واقع لا محالة. ولقد صرح فى أكثر من مكان فى حجة الوداع وقال ": من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار [" ۱۲] ، بل وكان يعلم من ربه بالخطة التى تضعها مجموعة الحرب لله ولرسوله. قال تعالى: (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية

[صفحه ۲۵۵]

الرسول) [۱۳] ، لقد أخبر تعالى عن ثلاثة جرائم: الإثم والعدوان ومعصية الرسول. والإثم هو: العمل الذى له أثر سئ. والعدوان هو: العمل الذى فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون. والإثم والعدوان يدخلان تحت عنوان معصية الرسول. ولكنه تعالى أفرد معصية الرسول لتشمل مخالفته فيما أمر به أو نهى عنه. مما له من ولاية أمورهم لأنه صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم. لقد نهوا عن النجوى وإن لم تشتمل على معصية. ولكنهم خالفوا. وكان هؤلاء من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وقيل: إن اليهود كانوا طرفا فى هذه النجوى. وشمول اليهود فى الآية فيه خفاء. وقد بين سبحانه أن التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. تنتهى إلى الشيطان، قال تعالى: (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا...) [۱۴] ، وروى فى تفسير هذه الآيات أن خط الحرب كان هدفهم القضاء على الدعوة، وكان لهذا الهدف ثقافة عرفت باسم " العقدة " أو " الصحيفة " ويمكن أن يرى الباحث هذا العقد إذا تدبر الحوار بين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله، وإذا نقب فى الأحداث بعد ذلك على امتداد العهد الأموى. ويمكن القول بأن قوافل الذعر والحسد والذين كرهوا أن تجتمع الخلافة والنبوة فى بيت واحد. تعاقدوا فيما بينهم على ورقة ثقافية يبثوها على العامة الذين يحبون الدنيا والذين طلبوا أن يكون لهم ذات أنواط والذين لا يعلمون من دينهم شيئا والذين يبحثون عن أمجاد الآباء وغير ذلك مما أوردنا عند البحث عن صفحة المجتمع. وأن العمود الفقرى لهذه الثقافة هو: إن الله بعث محمدا رسولا إلى الناس كافة. ومحمد لم يستخلف أحدا من بعده. وما قاله فى على بن أبى طالب له تأويلات كثيرة عند العرب. والنبى جعل الاختيار إلى المسلمين يختارون لأنفسهم من وثقوا برأيه. والرسول لم يستخلف

[صفحه ۲۵۶]

أحدا. لئلا يجرى ذلك فى أهل بيت واحد فيكون إرثا دون سائر المسلمين ولئلا يكون دولة بين الأغنياء منهم. ولئلا يقول المستخلف أن هذا الأمر باق فى عقبه من ولد إلى ولد إلى يوم القيامة. والذى يجب على المسلمين عند مضى خليفة من الخلفاء. أن يجتمع ذوى الرأى والصلاح يتشاوروا فى أمورهم. فمن رأوه مستحقا لها ولوه أمورهم وجعلوه القيم عليهم. فإنه لا يخفى على أهل كل زمان من

یصلح منهم للخلافة. فإن ادعی مدع من الناس جمیعا. إن رسول الله استخلف رجلا بعینه نصبه للناس ونص علیه بإسمه ونسبه. فقد أبطل فی قوله. وأتی بما لا یعرفه أصحاب رسوله الله وخالف جماعة المسلمین. وإن ادع مدع أن الخلافة لا تصلح إلا لرجل واحد من بین الناس وأنها مقصورة فیه. ولا تنبغی لغیره لأنها تتلو النبوة. فقد کذب. لأن النبی قال ": أصحابی کالنجوم بأیهم اقتدیتم اهتدیتم" وإن ادع مدع أنه یستحق الإمامة بقربه من رسول الله. ثم هی مقصورة علیه وعلی عقبه ولا تصلح لغیرهم. فلیس له ولا لولده وإن دنا من النبی نسبه. لأن الله یقول: (إن أکرمکم عند الله أتقاکم)، وقال رسول الله ": إن ذمة المسلمین واحدة یسعی بها أدناهم وکلهم ید علی من سواهم. فمن آمن بما جاء فی کتاب الله وأقر بما قال به رسول الله فقد استقام وأناب وأخذ بالصواب. ومن کره. فقد خالف الحق والکتاب وفارق جماعة المسلمین فاقتلوه. فإن فی قتله صلاحا للأمة. " وقد قال النبی ": من جاء إلی أمتی وهم جمیع ففرقهم فاقتلوه. إن هذه الثقافة یری وجهها بوضوح فی عهد بنی أمیة. یوم أن حافظوا علی الکرسی بقتال أمیر المؤمنین علی، ویوم قتل الحسین، ویوم ضرب المدینة بعد أن خرج أهلها علی یزید بن معاویة. ولم تخرج قوات یزید من المدینة یوم الحرة إلا بعد أن بالت الخیل بین الروضة والمنبر وبعد أن بایع أهل المدینة لیزید علی أساس أنهم عبید له الحق أن یبیع فیهم ویشتری. وتری هذه الورقة أیضا علی امتداد زمن أولاد مروان بن الحکم طرید رسول الله. وکان بعض الصحابة یعرفون الخطوط الرئیسیة لما اتفق علیه القوم وما سمی بالعقدة. ومنهم حذیفة وأبی بن کعب. وروی أبو بکر أحمد بن عبد

[صفحه ۲۵۷]

العزیز [۱۵] فی کتابه السقیفة عن البراء بن عازب. إنه کان فی جماعة منهم المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وسلمان الفارسی وأبو ذر وحذیفة والهیثم بن التیهان وذلک بعد وفاة الرسول الله صلی الله علیه وسلم. وإذا حذیفة یقول لهم: والله لیکونن ما أخبرتکم به والله ما کذبت ولا کذبت. وإذا القوم یریدون أن یعیدوا الأمر شوری بین المهاجرین. ثم قال: ائتوا أبی بن کعب. فقد علم کما علمت، قال: فانطلقنا إلی أبی. فضربنا علیه بابه حتی صار خلف الباب. فقال: من أنتم؟ فکلمه المقداد فقال: ما حاجتکم؟ فقال له: افتح علیک بابک، فإن الأمر أعظم من أن یجری من وراء حجاب. قال: ما أنا بفاتح بابی وقد عرفت ما جئتم له. کأنکم أردتم النظر فی هذا العقد. فقلنا: نعم فقال: أفیکم حذیفة؟ فقلنا: نعم، قال: فالقول ما قال. وبالله ما أفتح عنی بابی حتی تجری علی ما هی جاریة ولما یکون بعدها شر منها وإلی الله المشتکی [۱۶] .

کان هذا بعد وفاة الرسول صلی الله علیه وسلم مباشرة. وفی عهد عمر بن الخطاب علی أصح الروایات عزم أبی أن یتکلم فی الذی لم یتکلم فیه بعد وفاة الرسول. وکان یقول: هلک أهل العقدة ورب الکعبة ألا لا علیهم آسی ولکن آسی علی من یهلکون من المسلمین [۱۷] ، وفی روایة قال: لأقولن قولا لا أبالی استحییتمونی علیه أو قتلتمونی [" ۱۸] ، ووعد أن یکشف الحقائق أمام الناس یوم الجمعة. وجاء یوم الأربعاء والجمیع ینتظرون موعد أبی. ولکن یوم الأربعاء جاء بخبر ألیم. قال قیس بن عباد: رأیت الناس یموجون. فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: مات سید المسلمین أبی بن کعب. فقلت: ستر الله علی المسلمین حیث لم یقم الشیخ ذلک المقام [۱۹] ومات أبی فی خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضی الله عنه علی أصح

[صفحه ۲۵۸]

الروایات [۲۰] وقیل مات فی خلافة عثمان [۲۱] .

وکان هناک العدید من الصحابة یخافون من روایة بعض الأحادیث عن رسول الله صلی الله علیه وآله. من هؤلاء أبو هریرة. قال فیما رواه البخاری " حفظت من رسول الله صلی الله علیه وسلم وعاءین فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم [" ۲۲] ، وقال ": إنی لأحدث أحادیث لو تکلمت بها فی زمان عمر أو عند عمر لشج رأسی [" ۲۳] ، وکان حذیفة یقول ": لو کنت علی شاطئ نهر وقد مددت یدی لاغترف فحدثتکم بکل ما أعلم ما وصلت یدی إلی فمی حتی أقتل [" ۲۴] .

ولقد وجدنا فی المقدمة نمطا بشریا یحب الدنیا ویضرب کتاب الله بعضه ببعض ویترک رسول الله قائما وینقض من حوله. ورأینا قبل

ذلک دوائر عدیـدة مهمتها الصـد عن سبیل الله. بملابس الخشوع الزائف ثم وجدنا أنماطا بشـریة برامجها حرب لله ولرسوله فی الحیاة الدنیا. وأنماطا تنطلق من أرض القبائلیة والعصبیة هدفها إعادة مجد زائل وأنماطا بشـریة تختزن فی ذاکرتها معرکة فی المسـتقبل تطیح برقـابهم فعملوا بکـل مـا لـدیهم من قوة وفکر من أجـل الاحتماء وراء الجـدر ومن وراء الجـدر بثوا ثقافـة تمهـد لمجیئهم. کانت هـذه مقدمات حقیقة. ترتب علیها نتائج أقرها الحدیث الصحیح وحرکة التاریخ. واستقامت هذه النتائج من هذه المقدمات علی خط واحد.

[۱] سورة التوبة: الآیة ۵۷.

[۲] سورة الأنفال: الآیة ۳۳.

[۳] سورة الزخرف: الآیة ۴۱.

[۴] الإمام الترمذی (الجامع ۶۳۴:۵).

[۵] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۶۳۴:۵) والخطیب وابن جریر وصححه والضیاء سند صحیح (کنز العمال ۱۱۵، ۱۷۳:۱۳).

[۶] رواه أحمد وابن جریر وصححه والضیاء بسند صحیح وسعید بن منصور (کنز ۱۲۷، ۱۷۳:۱۳).

[۷] سورة التوبة: الآیة ۱۲.

[۸] أخرجه ابن أبی شیبة وابن أبی حاتم عن علی وحذیفة (کنز ۴۲۶:۱۱) (الدر المنثور ۲۱۴:۳) (البدایة والنهایة ۳۳۹:۲).

[۹] البدایة والنهایة ۳۵:۵.

[۱۰] رواه مسلم.

[۱۱] رواه أبو نعیم (کنز ۸۲:۸).

[۱۲] رواه البخاری وغیره (الصحیح ۹۳:۱).

[۱۳] سورة المجادلة: الآیة ۸.

[۱۴] سورة المجادلة: الآیة ۱۰.

[۱۵] أبو بکر أحمد بن عبد العزیز الجوهری.

[۱۶] ابن أبی الحدید نقلا من کتاب السقیفة ۳۱۲:۱، کتاب سلیم بن قیس ص ۷۴.

[۱۷] رواه أبو نعیم فی الحلیة فی الإمام أحمد.

[۱۸] ابن سعد (الطبقات الکبری ۵۰۱:۳) والحاکم باختصار (المستدرک ۲۲۹:۲، ۳۰۳:۳).

[۱۹] ابن جریر فی المسترشد ص ۲۸.

[۲۰] وهو قول ابن حبان وابن عبد البر (الإصابة ۱۶:۱).

[۲۱] وهو قول ابن سعد (الطبقات ۲۰۲:۳).

[۲۲] البخاری ک العلم (الصحیح ۳۴:۱).

[۲۳] ابن کثیر فی البدایة ۱۰۷:۸.

[۲۴] ابن عساکر (کنز العمال ۳۴۵:۱۳).

القرارات الأخیرة للنبی

مما سبق علمنا أن النبی صلی الله علیه وسلم سأل ربه ": أن لا یلبس

[صفحه ۲۵۹]

أمته شیعا، " وفی روایة ": أن لا یجعل بأسهم بینهم " فأبی علیه، وفی روایة " فمنعنیها [" ۱] ، وعلم من ربه أن الأمة ستختلف وتفترق

من بعده وستركب سنن الأولين شبرا بشبر وذراعا بذراع. ووفقا لهذا الإخبار كان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب ويلح على ربه جل وعلا. وفى كل هذا تعلق بالله الذى بيده مصير الأمور. وخلال الأيام الأخيرة للنبى صلى الله عليه وسلم. اتخذ قرارات وكان القوم يعرفون أنه ملاقى الله تعالى لا محالة فى العام الحادى عشر الهجرى. وذلك لأنهم سمعوا مقالته لهم فى حجة الوداع " لعلى لا ألقاكم بعد عامكم هذا " وسمعوه يوم غدير خم يقول ": إننى أوشك أن أدعى فأجيب " وعندما نزل قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": نعيت إلى نفسى " فقال ابن عباس ": فإنه مقبوض فى تلك السنة [" ۲] فلا ريب أن الجميع كانوا يعلمون أن النبى صلى الله عليه وآله مفارق الدنيا. ولا جدال أن الأفراد والجماعات يحب كل منهم أن يفارقه النبى وهو عنهم راض. فينفذون أوامره بدقة ولا يتخاذلوا بأى صورة من الصور. ونحن هنا سنسلط الضوء على قرارات ثلاثة أصدرها النبى صلى الله عليه وسلم وأيامه الأخيرة لنرى كيف كانت الصورة التى سنعتبرها مقدمة حقيقية يقينية ليستنتج منها طالب العلم معلومات تصديقية واقعية.

[۱] رواه مسلم كتاب الفتن (۱۴:۱۸ الصحيح) وأحمد (الفتح الربانى ۲۱۵:۲۳) والترمذى (الجامع ۴۷۲:۴).

[۲] قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد (التفسير ۵۶۲:۴).

الامر الواقى من الضلال

لقد علم النبى من ربه أن الاختلاف والافتراق واقع. وعلى فراش المرض

أخذ النبى بالأسباب. وطلب من الحاضرين وكان فيهم عمر بن الخطاب. أن يأتوه بدواة وكتف ليكتب لهم كتابا لا يضلون بعده. فهذا أمر صريح مقدمته تستقيم مع نتيجته. فهو صلى الله عليه وسلم يريد أن يكتب حتى لا يضلوا. فماذا حدث؟ عن جابر بن عبد الله قال: إن النبى صلى الله عليه وسلم دعا

[صفحه ۲۶۰]

عند موته بصحيفة ليكتب فيها كتابا لا يضلون بعده. فخالف عليها عمر بن الخطاب حتى رفضها [۱] فهذا الحديث حدد الزمن " عند موته " وحدد الطلب " صحيفة ليكتب فيها كتابا " وحدد هدف الكتاب " لا تضلون بعده " وحدد الذى خالف " فخالف عليها عمر بن الخطاب. " وفى رواية عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": هلم أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده. فقال عمر: إن النبى قد غلبه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا. منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبى صلى الله عليه وسلم كتابا لن تضلوه بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبى صلى الله عليه وسلم قال النبى ": قوموا (!!) " فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم [۲] ، وفى رواية: قال عمر: إن النبى غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وأكثروا اللغط فقال النبى ": قوموا عنى. ولا ينبغى عندى التنازع، " فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه [۳] .

وفى رواية لابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس [۴] ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء ثم قال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس فقال: ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا.

[صفحه ۲۶۱]

فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع فقالوا: هجر رسول الله، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه [" ۵] .

وقال فى لسان العرب فى معنى هجر: إذا جعلت إخبارا " هجر " فيكون المعنى أما من الفحش أو الهذيان. أما إذا كان على سبيل

الاستفهام كقولهم " أهجر " يكون المعنى: هل تغير كلامه واختلط. وقال ابن الأثير: والقائل كان عمر بن الخطاب. والذى يليق بعمر أن يكون قد استفهم [۶] وبالنظر فيما ورد

نجد أن المسلمين الذى حضروا سماع الأمر افترقوا فى الدار. لقد وقع الاختلاف بين قولين. قول النبى وقول عمر! وحيل المسلمون بينهما فرجح قوم هذا. إن المهم هنا أن القوم سووا بين النبى وبين عمر وجعلوا القولين مسألة خلاف ذهب كل فريق إلى نصرة واحد منهما. ولقد اعتذر العديد لعمر بن الخطاب. فقال النووى فى شرح مسلم: إن قول عمر حسبنا كتاب الله من قوة فقهه ودقيق نظره لأنه خشى أن تكتب أمور ربما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة! ولكن السندى فى شرح البخارى كان له قول آخر قال: إن الأمر الصادر يفيد أنه أمن من الضلال فالكتاب الذى يريد الرسول أن يكتبه سبب للأمن من الضلال ودوام الهداية. فكيف يخطر على باب إنسان أنه سيترتب عليه عقوبة أو فتنة أو عجز. أما قوله ": حسبنا كتاب الله " لأنه تعالى قال: (ما فرطنا فى الكتاب من شئ)، ويقول: (اليوم أكملت لكم دينكم)، فكل من الآيتين لا يفيد الأمن من الضلال ودوام الهداية للناس، ولو كان كذلك لما وقع الضلال ولكن الضلال والتفريق فى الأمة قد وقع بحيث لا يرجى رفعه كما أن النبى لم يقل لهم: إن مراده أن يكتب لهم الأحكام حتى يقال على ذلك: إنه يكفى فهمها من كتاب الله. ولو فرض أن مراد

[صفحه ۲۶۲]

النبى كان كتابة بعض الأحكام، فلعل النص على تلك الأحكام منه صلى الله عليه وآله وسلم سبب للأمن من الضلالة. وعلى هذا فلا وجه لقولهم " حسبنا كتاب الله " بل لو لم يكن فائدة النص ليس إلا الأمن من الضلال لكان مطلوبا جدا ولا يصح تركه للاعتماد على أن الكتاب جامع لكل شئ كيف والناس محتاجون إلى السنة أشد احتياج مع كون الكتاب جامعا وذلك لأن الكتاب وإن كان جامعا إلا أنه لا يقدر كل أحد على الاستخراج منه، وما يمكن لهم استخراجه منه لا يقدر كل أحد على استخراجه منه على وجه الصواب. ولهذا فوض الله لرسوله البيان مع كون الكتاب جامعا فقال تعالى لنبيه: (لتبين للناس ما أنزل إليهم)، ولا شك أن استخراجه صلى الله عليه وآله من الكتاب على وجه الصواب يكفى ويغنى فى كونه نصا مطلوبا لنا لا سيما إذا أمرنا به. ولا سيما إذا وعد على ذلك الأمن من الضلال. فما معنى قول حسبنا كتاب الله بعد ذلك [۷] ، ويبدو أن السندى كان يرد على النووى فيما ادعاه. أدلى العديد من الباحثين بدلوهم. فقال بعضهم: إذا تأملت قول النبى صلى الله عليه وآله ": أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، " وقوله ": إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: أحدهم أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى " [۸] ، تعلم أن المرمى فى الحديث واحد. وقال البعض: من ألم بأطراف حديث " هجر رسول الله " يقطع بأنهم كانوا عالمين أنه إنما يريد أمر يكرهونه ولذا فاجاؤوه بهذه الكلمة وأكثروا عنده اللغو واللغط كما لا يخفى. وكان هناك إصرارا حتى لا يكتب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما أراد أن يكتبه الأمر الذى جعل بعض نساء النبى يتحدثن من وراء حجاب [۹] ، وقالوا كما فى الحديث ": ائتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنكن صواحبه إذا مرض عصرتن

[صفحه ۲۶۳]

أعينكم وإذا صح أخذتن بعنقه. فقال النبى: هن خير منكم [" ۱۰] .

وبقى سؤال: لماذا لم يصر النبى على كتابة الصحيفة. والإجابة: لأنهم جردوه من العصمة من الضلال بقولهم ": هجر " لقد أراد أن يكتب لهم كتابا يكونوا به فى مأمن الضلالة، فقالوا: الكلمة التى بها يصبح الكتاب مصدر ضلالة فلو كتب الكتاب بعد هذه الكلمة لشككك الذين فى قلوبهم مرض فى كل مكتوب بعد ذلك حتى كتاب الله. ولهذا قال لهم فيما رواه ابن عباس بعد أن قالوا أن نبى الله ليهجر: فقيل له ألا نأتيك بما طلبت، فقال صلى الله عليه وسلم: أو بعد ماذا؟!! [۱۱] ، وهناك سبب آخر. وهو أنه صلى الله عليه وآله قد علم من ربه أن الاختلاف واقع لا محالة. ولقد رآهم النبى يختلفون فى أمر أصدره داخل حجرته. فرجحوا بين قوله وبين قول عمر وكثر اللغط. والله تعالى أعلم ماذا كان سيحدث لو أصر النبى على كتابة الصحيفة أثناء هذا اللغو واللغط. ولقد اكتفى صلى الله عليه

وسلم بما أمر به وحذر منه على امتدار رسالته. ودعنا نفترض أن الرسول قد كتب ما يريده. فهل تمنع الكتابة هذه الأنماط البشرية التى يعلمها الله من الكف عن مخططاتها. كلا! لقد كانوا سيعملون فى وجود الصحيفة نفس علمهم فى عدم وجودها. والقرآن الكريم كشف عن أنماط بشرية إذا جاءهم الرسول بآية ظاهرة. قالوا فى ظهورها ما كانوا سيقولونه فى عدم ظهورها يقول تعالى: (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون - كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) [۱۲] ، بل إن القرآن كشف عن نمط بشرى أرادوا أن يبدلوا كلام الله ليكون وفقا لما يريدون قال تعالى: (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) [۱۳] ، إن النبى أخذ بالأسباب وهو يعلم أنه لن يمكن من كتابة

[صفحه ۲۶۴]

الصحيفة. كما أمر من قبل يقتل ذو الثدية وهو يعلم أن هذا المارق لن يقتله الشيخان أبو بكر وعمر. وإن له يوما فى بطن الغيب وأخبر النبى بهذا اليوم. وأمر بقتل ابن أبى السرح وهو يعلم أن أحدا لن يقتله وأن عثمان بن عفان سيخفيه فى داره وهى نفس الدار التى حاصرها الذين ظلمهم بن أبى السرح. ونفى الحكم بن أبى العاص، وعندما طلب بعض الصحابة أن يقتلوه، رفض وأخبرهم أن فى صلبه ذرية الويل لأمته منهم واكتفى بنفيه حتى أعاده عثمان فى عهده. إن الأحداث تجرى بمشيئة الله. وما فعل النبى أمرا إلا بإذن من الله. وكل حدث يجرى كان من ورائه هدف ومن وراء الهدف حكمة. وعالم الفتن عالم عميق. وأعظم الفتن هى التى تأتى من مكان يستبعد الناس أن تأتى منه الفتن. وما فعله النبى من طرد الحكم وأمره بقتل ذى الثدية وغير ذلك يكون اختبارا لمن عاصر الحدث وتحذيرا لهم ولمن بعدهم. وعليه تأتى أحداث يترتب عليها امتحان. وهذا من حكمة الوجود. ألم تر أن الله تعالى قبل أن يخلق آدم أخبر سبحانه ملائكته أن آدم مخلوق ليمارس واجب الخلافة فى الأرض. ولكن آدم لم يهبطه الله إلى الأرض عقب خلقه مباشرة. وإنما كان بين الخلق وبين الهبوط أوامر ونواهى وأحداث ترتب عليها أن آدم هبط إلى الأرض باختياره وليس قهرا. والرسول حذر وأمر ونهى وفى علم الله أن الهبوط والاختلاف والافتراق واقع لا محالة. لأنه سبحانه العليم المطلق بطبائع الناس. والله لا يظلم مثقال ذرة. وما من طريق إلا ودل على موطن الهداية فيه. وما ترك الشيطان طريقا للهداية إلا دق عليه أوتادا. ألم تر أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يبنى البيت الحرام وبعد فترة من الزمان أوحى الشيطان إلى أتباعه بزرع الأصنام حول الكعبة. فأصبح الناظر فى المكان يرى هذا وذاك فأصحاب الفطرة السوية يعرفون طريق الصواب وأصحاب النفوس المريضة يعكفون على كل صنم. إن النبى الأعظم أمر أن يأتوه بصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده. وكان هذا لهدف من ورائه حكمة. وكان أيضا مادة يختبر بها من عاصر الحادثة وشعاعا يهدى إلى الحق لكل باحث عن الحقيقة، وكم كنا نتمنى أن تكتب هذه

[صفحه ۲۶۵]

الصحيفة. نعم لقد كان العديد من الجيل الأول سوف يشكك فيها وربما شكك فيها عشرة أجيال أو أكثر. ولكن الشئ الأكيد أن هذا التشكيك ما كان ليكتب له الخلود وعلى أى حال لم تصلنا هذه الصحيفة لأنها لم تكتب. فدعونا نبحث ودعونا نبكى مع ابن عباس رضى الله عنهما. إن الرسول إذا أمر لا ينبغى أن نناقش ماذا وراء هذا الأمر. لأن المخالفة لا تصب إلا فى وقت الفتن والعذاب قال تعالى: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [۱۴] ، قال المفسرون: دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ودعوته ليشاورهم فى أمر جامع ودعوته إلى الصلاة جامعة وأمرهم بشئ فى أمر دنياهم أو أخراهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه صلى الله عليه وآله وسلم. ويشهد بهذا المعنى قوله ": قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا، " وما يتلوه من تهديد فخالفى أمره صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا المعنى يناسب سياق الآية السابقة وهى قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله فإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله..) فهذه الآية تمدح الذين يلبون

دعوته ويحضرون عنه ولا يفارقونه حتى يستأذنوه. أما هذه الآية فهى تذم وتهدد الذى يدعوهم فيتسللون عنه لواذا غير مهتمين بدعائه ولا معتنين وقوله ": فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصبهم فتنة أو يصبهم عذاب أليم، " تحذير لمخالفى أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته. من أن تصيبهم فتنة وهى البلية أو يصيبهم عذاب أليم. والقرآن الكريم كما حذر الذين يخالفون أوامر الرسول. حذر أيضا الذين لا يستجيبون إلى الله، فالرسول إذا دعاهم لما يحييهم ويجعلهم فى مأمن من الضلال. أن تصيبهم فتنة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون

[صفحه ۲۶۶]

واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة واعلم أن الله شديد العقاب) [۱۵] ، قال المفسرون: لقد أحس سبحانه بالاستجابة لما يحيى الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار. وأخبر أنه سبحانه المالك لكل القلوب. وهو أقرب إلى الناس من كل شئ. حتى يعلم المنافقين أنه أعلم بما فى قلوبهم منهم فيرتدعوا. وأحاط الجميع علما بأنهم إليه سيحشرون يوم القيامة، ويومئذ تظهر حقيقة ملكه لهم وسلطانه عليهم. ويومئذ له يغنى عنهم منه شئ. ثم حذرهم من فتنة. تختص بجماعة منهم. لكن السئ من أثرها يعم الجميع. وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة. ولم يعرفها بكمال اسمها ورسمها. غير أن قوله تعالى فيما بعد: (لا تصبين الذين ظلموا منكم خاصة)، وقوله: (واعلموا إن الله شديد العقاب)، يوضحها بعض الإيضاح. وهو إنها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها فى أمر يعلم جميعهم وجه الحق فيه. فيجمع البعض عن قبول الحق. ويشق طريقه بالظلم وهذا الظلم هو الذى أمر سبحانه باتقائه. لأنه يرى سوء أثره إلى كافة المؤمنين وعامة الأمة. وقد تفطن بعض المفسرين بأن الآية تحذر الأمة وتهددهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرق جمعهم وتشتت شملهم. وهذه الفتنة حدثت أيام الصحابة وليس فى أيام غيرهم. هم وحدهم المسؤولون عنها. فعن الزبير بن العوام قال: لقد خوفنا الله بقوله: (واتقوا فتنة...) الآية نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة [۱۶] وعنه أيضا قال: لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها [۱۷] ، وقال السدى: نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا [۱۸] ، ويوم الجمل ما جاء فجأة. ولكن كانت له مقدمات. وإتقاء هذه الفتنة يكون بالبحث عن المقدمات الحقيقية اليقينية لاستنتاج معلومات تصديقية واقعية. فإذا تشابهت الأمور اعتبر آخرها أولها

[صفحه ۲۶۷]

فحسب البدايات تكون النهايات. وفى رأينا أن هذا الأسلوب هو الأمثل للكشف عن فتنة ترتدى ثياب القداسة والخشوع وأول باب للبحث لاتقاء هذه الفتنة يجب أن يبدأ من قوله تعالى: (لا تصيبن الذين ظلموا) وليكون السؤال: الذين ظلموا! ظلموا من؟ ثم يتم البحث عن المقياس الذى عليه يظهر الظلم وحجمه وحركة الظالم والمظلوم.

[۱] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانى ۲۲۵:۲۲) وابن سعد (الطبقات ۲۴۳:۲) والطبرى (تاريخ الأمم ۱۹۳:۴).

[۲] رواه البخارى ك المرض (الصحيح ۷:۴) ومسلم ط استنبول (الصحيح ۷۶:۵)، وأحمد (الفتح ۱۹۱:۲۲) وابن سعد بلفظ: وغموا رسول الله. فقال: قوموا عنى (الطبقات ۲۴۴:۲).

[۳] رواه البخارى (الصحيح ۳۲:۲).

[۴] كان اشتداد المرض يوم الخميس وكانت الوفاة يوم الاثنين.

[۵] رواه البخارى له الوصايا (الصحيح ۱۷۸:۲) ومسلم (الصحيح ۷۶:۵)، وأحمد (الفتح الربانى ۲۲۴:۲۱).

[۶] لسان العرب ص ۴۶۱۹ وقال أبو حامد الغزالى فى كتابه سر العالمين أن القائل كان عمر، وقال هذا أيضا سبط ابن الجوزى فى تذكرة الخواص ص ۶۲.

[۷] السندى شرح البخارى (۳۳:۱) بتصرف.

[۸] رواه الترمذى وحسنه (الجامع ۶۶۳:۵).

[۹] القائلة هی أم المؤمنین زینب کما جاء فی روایة عند ابن سعد (الطبقات ۲:۲۴۲).

[۱۰] رواه الطبرانی فی الأوسط (کنز ۵:۶۴۴) وابن سعد (الطبقات ۲:۲۴۴).

[۱۱] رواه ابن سعد (الطبقات ۲:۲۴۲).

[۱۲] سورة الروم: الآیة ۵۸، ۵۹.

[۱۳] سورة الفتح: الآیة ۱۵.

[۱۴] سورة النور: الآیة ۶۳.

[۱۵] سورة الأنفال: الآیة ۲۵.

[۱۶] رواه ابن جریر (تفسیر ابن کثیر ۲:۲۹۹).

[۱۷] ابن کثیر فی التفسیر ۲:۲۹۹.

[۱۸] ابن کثیر فی التفسیر ۲:۲۹۹.

الامر العسکری الأخیر

ذکرنا أن النبی فی حجة الوداع أعلن علی الناس وفاته وذلک فی قوله:

"لعلی لا ألقاکم بعد عامکم هذا، " کما قال مثل ذلک فی غدیر خم. ویمکن أن تکون المساحة الزمنیة بین هذا الإعلام وبین حدوث الوفاة زاخرة بالاجتماعات وترتیب الأوراق بالنسبة لجمیع الأطراف. وشاء الله عز وجل أن یکون هناک حدث یستدعی تجهیز جیش لیصدر النبی قرارا ببعث هذا الجیش إلی مهمة خارج الدولة، ویکون هذا الجیش بقیادة أسامة بن زید وینتظم تحت هذه القیادة جمیع الأطراف وکبار الصحابة باستثناء علی بن أبی طالب. وکان وجود علی فی المدینة لهدف کما کان لوجوده فیها یوم تبوک هدف. وروی أصحاب التواریخ والسیر أن هذا الجیش أمره الرسول أن یسیر إلی مؤتة (وادی فی فلسطین) وروی البلاذری فی تاریخه وهو معروف بالثقة والضبط أن أبا بکر وعمر معا کانا فی جیش أسامة [۱] ، وذکر الواقدی فی کتاب المغازی أن أبا بکر لم یکن فی جیش أسامة وإنما کان عمر وأبو عبیدة وسعد بن أبی وقاص وسعید بن زید بن عمرو وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم. وقال الواقدی إن أبا بکر استأذن رسول الله فأذن له فذهب إلی داره بالسنح وکان بها منزله حین تزوج ابنة خارجة. وبالجملة: اتفق جمیع المؤرخین علی أن عمر کان بالبعث وروی البلاذری وهو ثقة أن أبا بکر کان أیضا ضمن الجیش وقال غیره غیر ذلک.

[صفحه ۲۶۸]

وأمر الرسول صلی الله علیه وسلم بخروج الجیش. فلما أصبح یوم التاسع والعشرین من صفر ووجدهم متثاقلین خرج إلیهم فحضهم علی السیر وعقد اللواء لأسامة بیده تحریکا لحمیتهم، ثم قال: أغز باسم الله وفی سبیل الله وقاتل من کفر بالله [۲] ، فخرج أسامة بلوائه معقودا فدفعه إلی بریدة وعسکر بالجرف ثم تثاقلوا هناک وطعن قوم منهم فی تأمیر أسامة فبلغ ذلک رسول الله صلی الله علیه وسلم. وکان ذلک یوم السبت قبل وفاته بیومین. وبعد أن قالوا ": هجر " بیومین. فصعد المنبر فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: أیها الناس. ما مقالة بلغنی عن بعضکم فی تأمیری أسامة ولئن طعنتم فی تأمیری أسامة لقد طعنتم فی تأمیری أباه من قبل [۳] ، وحضهم علی المبادرة إلی السیر، وروی الشهرستانی أن النبی قال ": جهزوا جیش أسامة لعن الله من تخلف عنه... [۴] فلحق الذین تثاقلوا من قبل بالجیش. ثم نقل إلیهم أن النبی قد ثقل علیه المرض فبدءوا فی التثاقل وعندما نقل إلیهم خبر الوفاة رجعوا إلی المدینة التی کانت ترجف بأهلها. إن حروب النبی صلی الله علیه وسلم لم تکن لدنیا وإنما لدین. وکان للدین فیها أقوی تعلق لما یعود علی الإسلام وأهله بعلو کلمة. وحروب النبی صلی الله علیه وسلم کانت بأمر من الله عز وجل. وکان الملائکة یشارکون فی معظمها لتثبیت الذین آمنوا ونصرة الفطرة. وتخاذل الناس فی الحروب حدث علی امتداد الرسالات السماویة فی أقوام الأنبیاء الذین أمروا بالقتال مع رسلهم. ولقد حدث

تخاذل من البعض فی المعارک التی خاضها الرسول صلی الله علیه وسلم. حدث هذا یوم أحد ویوم حنین ویوم تبوک. أما التخاذل عن بعث أسامة فقد حمل ملامح إضافیة وهی أنهم طعنوا فی تأمیر أسامة علیهم. وهذا

[صفحه ۲۶۹]

الطعن فی حقیقة الأمر موجه إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم لا إلی أسامة لأن الذی أمر أسامة هو الرسول. ولهذا خطب النبی ولعن من تخلف عن البعث. وطعنهم فی تأمیر أسامة أجمع علیه أهل السیر والأخبار وأرسلوا ذلک فی کتبهم إرسال المسلمات ورواه الإمام أحمد والبخاری وغیرهما. وتأمیر أسامة والأمر بخروج الجیش ربما والله أعلم یکون من باب الأخذ بالأسباب. فالرسول قال لعلی کما فی الحدیث الصحیح أن الأمة ستغدر به. وإن لهذا الغدر أسباب منها أنهم سیتذرعون بصغر سنه. لذا أمر أسامة علی عظماء قریش وشیوخها. وکان أسامة غلاما لم یبلغ ثمانی عشرة سنة وقتئذ. کی یبین لهم ولغیرهم بأن المؤمن یجب علیه أن یسمع ویطیع ولو وجد فی نفسه حرجا مما قضی النبی ویسلم تسلیما وتأمیر أسامة علیهم إرغام لهم علی السمع له لیکون سمعهم لأسامة مدخلا تتقبله نفوسهم بعد ذلک إذا وجدوا من هو أصغر منهم سنا علی رأس الخرقة. ولکن القوم فطنوا إلی ذلک فقالوا القول الذی لا یبقی للقیادة أی مزیة أو فضل وإلا فما معنی الطعن فی إمارة من أمره رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم. لقد أخلی النبی صلی الله علیه وسلم المدینة قبل وفاته بتعبئة شیوخ قریش تحت إمرة أسامة وإخلاء المدینة من هذه القوة فی هذا الوقت بالذات. فیه أنه علم من ربه أن المدینة لن تهاجم من قبل الروم أو الفرس. فی هذه الفترة. لذا أمر علیه الصلاة والسلام بالبعث لعل البعث یکون فیه شفاء. قال تعالی: (الیوم یئس الذین کفروا من دینکم فلا تخشوهم واخشون الیوم أکملت لکم دینکم وأتممت علیکم نعمتی ورضیت لکم الإسلام دینا) [۵] ، قال المفسرون: تؤذن بأن دین المسلمین فی أمن من جهة الکفار مصون من الخطر المتوجه من قبلهم وأنه لا یتسرب إلیه شئ من طوارق الفساد والهلاک إلا من قبل المسلمین أنفسهم وإن ذلک إنما یکون بکفرهم بهذه النعمة التامة ورفضهم هذا الدین الکامل المرضی ویومئذ یسلبهم الله نعمته ویغیرها إلی النقمة ویذیقهم لباس

[صفحه ۲۷۰]

الجوع والخوف، ومن أراد الوقوف علی مبلغ صدق هذه الآیة فی ملحمتها المستفادة من قوله: (فلا تخشوهم واخشون) فعلیه أن یتأمل فیما استقر علیه حال العالم الإسلامی الیوم. حیث انهدام الوحدة الدینیة وظهور الفرقة ونفاذ القوة وذهاب الشوکة. ثم یرجع القهقری بتحلیل الحوادث التاریخیة حتی یحصل علی أصول القضایا وأعراقها.

[۱] راجع (الطبقات الکبری (۲:۱۹۰، ۶۶، ۴:۶۶) والکامل ۲:۳۱۷ فی أنساب الأشراف ۱:۴۷۴، الیعقوبی ۲:۹۳، کنز العمال ۵:۳۱۲، تاریخ ابن عساکر ۲:۳۹۱، الفتح الربانی ۲۱:۲۲۲.

[۲] السیرة الحلبیة ۳:۲۳۴.

[۳] رواه البخاری ب مناقب المهاجرین (الصحیح ۲:۳۰۳) وأحمد (الفتح الربانی ۲۱:۲۲۲) الطبری (تاریخ الأمم ۳:۳۱۲)، ابن سعد (الطبقات ۲:۱۹۰).

[۴] الملل والنحل / الشهرستانی ۱:۲۳.

[۵] سورة المائدة: الآیة ۳.

الامر الطبی الأخیر

بعد أمره صلی الله علیه وآله وسلم بأن یکتب لهم کتابا لا یضلون من

بعده. وأمر بأن یخرجوا فی بعث أسامة. ومن علی فراش المرض. أمرهم أن لا یلدوه مهما شاهدوا علیه من علامات المرض، ومعنی اللد أن یجعلوا الدماء فی إحدی جانبی فیه. وکانوا یستعملون العود الهندی فی ذلک. فماذا حدث بعد هذا الأمر الصریح؟ روی

البخاری عن عائشة قالت: لددنا رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم فی مرضه فجعل یشیر لنا أن لا تلدونی، فقلنا: کراهیة المریض للدواء. فلما أفاق قال صلی الله علیه وآله وسلم: ألم أنهاکم أن تلدونی، قلنا: کراهیة المریض للدواء، فقال: لا یبقی أحد فی البیت إلا لد. إلا العباس فإنه لم یشهد [۱] ، وفی روایة للإمام أحمد قالت: ثم سری عن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم وأفاق وعرف قد لد ووجد أثر اللدود فقال: ظننتم أن الله عز وجل سلطها علی - یعنی ذات الجنب - ما کان الله یسلطها علی، ثم قال: لا یبقی أحد فی البیت إلا لد إلا العباس فإنه لم یشهد [۲] ، وفی روایة عند ابن سعد قال رسول الله صلی الله علیه وآله: کنتم ترون أن الله یسلط علی ذات الجنب ما کان الله لیجعل لها علی سلطانا والذی نفسی بیده لا یبقی فی البیت أحد لا لد "... الحدیث [۳] ، وقال السندی فی شرح البخاری: معنی قوله ": لا یبقی فی

[صفحه ۲۷۱]

البیت أحد إلا لد، " عقوبة لهم بترکهم امتثال نهیه عن ذلک [۴] ، وبقراءة متدبرة لهذا الحدث. نجد أن من فی البیت ظنوا أن النبی قد غلبه الوجع! لقد حکموا بما یرون ولم یمتثلوا لما قال. وبعد أن وقعوا فی المحذور أخبرهم بأن الله لم یجعل لهذا المرض سلطانا علی رسول الله. ثم أخبرهم بعقوبة تستقیم مع ما فعلوه. ومعنی أنه صلی الله علیه وسلم یخبرهم بالعقوبة أنه لا ینطق عن الهوی. وأنه کان یتلقی من ربه ویخبر بالغیب حتی النفس الأخیر. لقد تعاملوا معه علی أنه قد غلبه الوجع، أو أنه رفض الدواء کراهیة المریض للدواء، فضربتهم العقوبة. تری هل یستحق الفریق الذین قالوا یوم الخمیس أن النبی قد غلبه الوجع عقوبة علی ما قالوا بعد أن تبین هنا أن الله لا یسلط علی رسوله المرض الذی یجعله یهذی أو یهجر؟

[۱] رواه البخاری (الصحیح ۹۵:۳) ک کتاب المغازی ب مرض النبی.

[۲] رواه أحمد بسند جید (الفتح الربانی ۲۳۹:۲۱) والطبرانی والحاکم (کنز العمال ۴۶۹:۱۱).

[۳] ابن سعد (الطبقات ۲۳۵:۳).

[۴] البخاری شرح السندی (۹۵:۳).

الوصایا

إذا سألنا: بماذا أوصی النبی صلی الله علیه وسلم قبل الموت؟

فستکون الإجابة علی هذا السؤال غیر تامة فی جمیع الأحوال. ولقد روی أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال ": ما من حق امرئ مسلم له شئ یوصی فیه یبیت لیلتین إلا ووصیته مکتوبة عنده [" ۱] ، ولقد روی فیما بعد أن أزواج رسول الله صلی الله علیه وسلم بعثوا عثمان بن عفان إلی أبی بکر یسأل لهن میراثهن من رسول الله صلی الله علیه وسلم. فکانت المفاجأة عندما أخبرهم أبو بکر رضی الله عنه أن الرسول قال: لا نورث [" ۲] فمن

هذا یمکن القول أن النبی لم یکتب وصیته ویقول فیها هذا. وعلی أقل تقدیر لم یخبر أهل بیته بذلک. فإذا ترکنا الوصیة فیما یتعلق بمیراث أزواج النبی صلی الله علیه وسلم وأهل بیته ونظرنا إلی الوصیة بالأمة. نجد روایات تحتاج إلی إیضاحات. وعلی سبیل المثال روی الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبی

[صفحه ۲۷۲]

صلی الله علیه وسلم أوصی بثلاث وقال: اخرجوا المشرکین من جزیرة العرب وأجیزا الوفد بنحو ما کنت أجیزهم، " إلی هنا انتهت الوصایا. وأنت کما تری من الوصایا ثلاث لکن الراوی أخبرنا بإثنین. وعندما جاء الدور علی الوصیة الثالثة قال الراوی: وسکت سعید عن الثالثة. فلا أدری أسکت عنها عمدا أو قال مرة أو نسیتها [" ۳] ، وهکذا حرمنا من الوصیة الثالثة کما حرمنا من کتابة الصحیفة. أین الوصیة بخلافة راشدة متکفلة بصلاح النفوس والأموال والأحکام والأخلاق والصالح العام. هل یجوز أن یخشی معاویة بن أبی

سفیان أن یترک أمة محمد بعده بلا راعی لها ولا یخشی محمد ذلک؟ أیکون سلاطین الإسلام الذین ورثوا الخلافة من والد إلی ولد أحرص علی مصلحة الأمة من بنی الرحمة؟ إن هذه التساؤلات لیست جدیدة. فلقد طرحت من قبل وبعد وفاة الرسول بزمن یسیر. روی البخاری: سئل بن أبی أوفی: هل کان النبی صلی الله علیه وسلم أوصی؟ فقال: لا. فقیل: کیف کتب علی الناس الوصیة أو أمر بالوصیة. قال: أوصی بکتاب الله [۴] ، وفی روایة الترمذی: فقیل: کیف کتبت الوصیة وکیف أمر الناس ["... ۵] ، وقال فی تحفة الأحوذی: أی کیف یؤمر المسلمون بشئ ولا یفعله النبی. وبذلک یتم الاعتراض [۶] .

وبعد هذا التساؤل من الناس جاء التساؤل الأهم روی البخاری عن الأسود قال: ذکروا عن عائشة أن علیا کان وصیا. فقالت: متی أوصی إلیه؟ وقد کنت مسندته إلی صدری - أو حجری - فدعا بالطست - وفی روایة: فبال فیها - فلقد أثخنت فی حجری فما شعرت أنه قد مات فمتی أوصی؟ [۷] ، والجدیر بالتسجیل

[صفحه ۲۷۳]

هنا أن وصیة النبی صلی الله علیه وآله لعلی کانت متداولة أیام الصحابة. ألم تسمع قولهم فی محضر أم المؤمنین: إن علیا کان وصیا. وعلی أی حال فإن حدیث الناس بالوصیة لعلی لا خلاف علیه کما فی هذا الحدیث. وإنما الخلاف فی رد أم المؤمنین علی الذین قالوا بذلک. فلقد أخبرتهم أن النبی صلی الله علیه وآله وسلم مات علی صدرها وإنها آخر الناس عهدا به. وهذا القول تعارضه أحادیث صحیحة أخری منها ما رواه الإمام أحمد عن أم المؤمنین أم سلمة، قالت: والذی أحلف به إن کان علی بن أبی طالب لأقرب الناس عهدا برسول الله صلی الله علیه وآله وسلم قالت: عدنا رسول الله صلی الله علیه وآله غداة بعد غداة والنبی یقول: جاء علی، جاء علی - وفی روایة قالت فاطمة: کأنه بعثة فی حاجة - فجاء علی، قالت أم سلمة: فظننت أن له إلیه حاجة. فخرجنا من البیت فقعدنا وکنت أدناهم إلی الباب فأکب علیه علی [۸] فجعل یساره ویناجیه [۹] ، ثم قبض صلی الله علیه وآله من یومه ذلک. وکان علی أقرب الناس به عهدا [" ۱۰] .

وروی ابن سعد عن أبی الغطفان قال سألت ابن عباس: یا ابن عباس أرأیت رسول الله صلی الله علیه وآله توفی ورأسه فی حجر أحد؟ قال ابن عباس: توفی وهو لمستند إلی صدر علی بن أبی طالب. قلت: فإن عروة حدثنی عن عائشة أنها قالت: توفی رسول الله صلی الله علیه وآله بین سحری ونحری. فقال ابن عباس: أتعقل!! والله لتوفی رسول الله وإنه لمستند إلی صدر علی وهو الذی غسله [۱۱] ، وسئل عمر بن الخطاب: ما کان ما تکلم به رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم فقال: سل علیا، فقیل له: من غسله؟ قال: سل

[صفحه ۲۷۴]

علیا [۱۲] ، وعن حذیفة بن الیمان قال: دخلت علی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم فی مرضه الذی قبض فیه فرأیته یستند إلی علی بن أبی طالب. فأردت أن أنحیه وأجلس مکانه فقلت: یا أبا الحسن ما أراک إلا تعبت فی لیلتک هذه فلو تنحیت فأعنتک. فقال النبی صلی الله علیه وآله: دعه فهو أحق بمکانه منک [" ۱۳] .

وکما ذکرنا لقد تحدث الناس فی عصر الصحابة عن وصیة النبی لعلی. ولکن الوصایا وصلت إلینا مبتورة. وصحیح أن أم المؤمنین عائشة ذکرت أن النبی لم یوص لعلی. وصحیح أیضا أن علیا کان آخر الناس عهدا برسول الله صلی الله علیه وآله. وفی الحدیث أنه مال برأسه علی النبی وأن النبی حدثه سرا. وفی الحدیث الصحیح. أن علیا قال: إن مما عهد إلی رسول الله صلی الله علیه وآله أن الأمة ستغدر بک بعدی [" ۱۴] .

ورحل النبی الأعظم صلی الله علیه وآله، رحل النبی الأمی العربی القرشی الهاشمی المکی المدنی ونشهد أنه أدی الرسالة ونصح الأمة وکشف الغمة وجاهد فی سبیل الله حتی آتاه الیقین فجزاه الله خیر الجزاء ونسأله سبحانه أن یحشرنا تحت لوائه یوم القیامة والمؤمنین أجمعین وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمین.

[صفحه ۲۷۷]

[۱] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۴:۴۳۲).

[۲] سنبین ذلک فی حینه.

[۳] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۱:۲۲۴) وقال فی الفتح رواه الشیخان.

[۴] رواه البخاری ک الوصایا (الصحیح ۲:۱۲۵) ومسلم (الصحیح ۵:۷۴ ط إسطنبول).

[۵] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۴:۴۳۲).

[۶] تحفة الأحوذی (۶:۳۰۹).

[۷] رواه البخاری ک الوصایا ۲:۱۲۵، کتاب المغازی ۳:۹۵، ابن سعد (الطبقات ۲:۲۶۱).

[۸] أی مال برأسه علیه.

[۹] أی یحدثه سرا.

[۱۰] رواه أحمد وأبو یعلی والطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح غیر أم موسی وهی ثقة (الزوائد ۹:۱۱۲)، ورواه الحاکم وصححه وأقره الذهبی (المستدرک ۳:۱۳۹)، وأورده ابن کثیر فی البدایة ۷:۳۶۰.

[۱۱] ابن سعد (الطبقات ۲:۲۶۳).

[۱۲] ابن سعد (الطبقات ۲:۲۶۳).

[۱۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۶:۲۲۸.

[۱۴] رواه البیهقی بسند صحیح (کنز العمال ۱۱:۲۹۷) ابن کثیر فی البدایة (۶:۲۱۸).

الطریق إلی الفتن

الاختیار أضواء علی سقیفة بنی ساعدة

بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم أرجفت المدینة بأهلها. ونزل إلیها
الذین کانوا فی بعث أسامة. وتوجه عمر بن الخطاب رضی الله عنه إلی دار النبی وأعلن البیان الأول وجاء فیه " أن النبی لم یمت وإنه ذهب إلی ربه کما ذهب موسی فغاب عن قومه أربعین لیلة ثم رجع بعد أن قیل قد مات والله لیرجعن رسول الله صلی الله علیه وسلم فلیقطعن أیدی رجال وأرجلهم یزعمون أن رسول الله مات [" ۱] ، وفی روایة البخاری عن عائشة قالت قال عمر: والله ما مات رسول الله [" ۲] ، والبیان بهذه الصورة فی حاجة إلی دقة. فکان یکفی الفاروق أن ینظر فی بیت النبی أو یسأل أم المؤمنین حفصة عن الحقیقة. ثم یلقی البیان علی خلفیة من الدقة. ولقد فصل الفاروق رضی الله عنه الأسباب التی دعته إلی القول بهذا، فقال فیما رواه البخاری: والله ما کان یقع فی نفسی إلا ذاک ولیبعثنه الله فلیقطعن أیدی رجال وأرجلهم [" ۳] ، وفی تاریخ الطبری قال: والله إن حملنی علی ذلک إلا أننی کنت أقرأ هذه الآیة: (وکذلک جعلناکم أمة وسطا لتکونوا شهداء علی الناس ویکون الرسول علیکم شهیدا)، فوالله إنی کنت لأظن
[صفحه ۲۷۸]
أن رسول الله سیبقی فی أمته حتی یشهد علیها بآخر أعمالها فإنه للذی حملنی علی أن قلت ما قلت [" ۴] ، إن من أعجب الأشیاء أن یقول الفاروق رضی الله عنه ذلک. کیف، وهو القائل یوم الخمیس: حسبنا کتاب الله! والله تعالی یقول لرسوله: (إنک میت وإنهم میتون) [۵] ، والرسول نفسه أعلن علی الملأ أنه أوشک أن یدعی فیجیب والناس علموا وتناقلوا فیما بینهم أن آخر حج للنبی کان حجة الوداع، روی البخاری عن ابن عمر قال: هذا یوم الحج الأکبر فطفق النبی صلی الله علیه وآله یقول اللهم أشهد وودع الناس

فقالوا: هذه حجة الوداع [۶] .

إن ما نسب إلى الفاروق فى تأويل هذه الآيات لا تستريح النفس إليه، فعمر كان أجل قدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه فى هذه الواقعة. لكنه لما علم بالوفاة خاف من وقوع فتنة فى الإمامة وخاف حدوث ردة. فاقتضت المصلحة تسكين الناس بأن أظهر ما أظهره من كون أن النبى لم يمت. حتى يأتى أبو بكر وكبار الصحابة ويقرروا ماذا سيفعلون لمصلحة الأمة... وجاء أبو بكر وكان بالسنح وكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما علم بالحقيقة قال لعمر الذى كان يحلف بالله أن النبى لم يمت: أيها الحالف على رسلك [۷] ، ثم أعلن البيان الثانى وقال: ألا من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، وقال: (وإنك ميت وإنهم ميتون)، وقال: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) [۸] ، وروى ابن سعد بن عمر عندما سمع الآية قال لأبى بكر ": هذا فى كتاب الله؟! قال: نعم، فقال: أيها الناس هذا أبو

[صفحه ۲۷۹]

بكر وذو شيبة المسلمين فبايعون [" ۹] ، وكانت هذه أول صيحة من المهاجرين تنادى بأبى بكر.

[۱] الطبرى (۱۹۷:۳).

[۲] البخارى ك بدء الخلق (الصحيح ۲۹۱:۲).

[۳] البخارى (الصحيح ۲۹۱:۲) ك بدء الخلق.

[۴] الطبرى (۲۰۴:۳).

[۵] سورة الزمر: الآية ۳۰.

[۶] البخارى (الصحيح ۳۰۰:۱) ك الحج.

[۷] البخارى ك بدء الخلق (الصحيح ۲۹۱:۲).

[۸] البخارى ك بدء الخلق (الصحيح ۲۹۱:۲).

[۹] الطبقات الكبرى ۲۶۷:۲.

الطريق إلى السقيفة

إن دعوة الفاروق لمبايعة أبى بكر يمكن أن تفهم على أرضية الرأى وليس

على أرضية النص. والصحابة على أرضية الرأى لهم أصول عديدة. ولقد أطبقت الصحابة اطباقا واحدا على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة فى ذلك. كإسقاطهم سم ذوى القربى وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم. وفيهما نصوصا واضحة وصريحة بكتاب الله، وكان ذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وفى حياته أمرهم بالخروج فى بعث أسامة لكنهم رأوا أن عدم الخروج مصلحة للدولة وللملة وحفظ للبيضة ودفعا للفتنة. والأمثلة فى ذلك كثيرة. ولما كانت الحركة بعد وفاة النبى تدور بساعد الفاروق رضى الله عنه. فإننا نسجل هنا أن الفاروق كانت له اجتهادات وآراء واعتراضات فى زمن الرسول. إذا نظرنا فيها لا يمكن أن ننكر منه أنه يبايع لأبى بكر لمصلحة رآها ويعدل عن النص. ومن الثابت أنه أنكر مرارا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمورا اعتمدها. منها إنكاره صلاة رسول الله على عبد الله بن أبى. وذلك فيما رواه الإمام البخارى أن عمر قال للنبى ": تصلى عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر له [" ۱] ، وفى رواية عند الترمذى " فلما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى جذبه عمر وقال: أليس قد نهى الله أن تصلى على المنافقين [" ۲] ، وفى رواية عنده أيضا قال له النبى ": أخر عنى يا عمر إنى خيرت فاخترت [" ۳] .

واعترض على قسمة قسمها النبى، روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت: والله يا رسول الله لغير

[صفحه ۲۸۰]

هؤلاء كان أحق به منهم فقال النبى: إنهم خيرونى أن يسألونى بالفحش أو يبخلون فلست بباخل [" ۴] ، أى: الجأونى إلى السؤال بالفحش أو نسبتى إلى البخل. واعترض على صلح الحديبية وقال للنبى بكل صراحة: ألست نبى الله حقا؟ ولم يعترض عليه النبى. روى البخارى قال عمر: فأتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: إنى رسول الله! ولست أعصيه وهو ناصرى، قلت: أو ليست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. ثم قال عمر فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا!!؟، قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل، قال: بلى، قلت: فلنعطى الدنية فى ديننا إذا. فقال أبو بكر: أيها الرجل! إنه لرسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه!! فوالله إنه على الحق [۵] .

وفى روايات عديدة أن عمر بن الخطاب عندما تحدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. رجع متغيظا رغم ردود النبى عليه. وذلك من قوة فقهه وعظيم بصيرته رضى الله عنه، روى البخارى ": قال رسول الله يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا. فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق "... الحديث [۶] .

وأرضية الرأى وقف عليها كثير من الصحابة. وبعد الرسول عملوا بمقتضى ما يغلب فى ظنونهم من المصلحة. ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النص. والذى يمكن أن نقوله وفقا لقراءتنا للأحداث. أن العديد من كبار الصحابة تبينوا أن عليا لن تجتمع

[صفحه ۲۸۱]

عليه العرب إما لأنه وترها وسفك دماءها وإما للحسد أو البغض وإما لاستحداثهم سنة أو للخوف من شدة وطأته وشدته فى دين الله أو لدفع ضرر يخبئه لهم الغيب. وإما كراهة اجتماع النبوة والخلافة فى بيت واحد. ولقد تبينوا خطورة الموقف بعد غزوة تبوك وهى الغزوة التى شهدت محاولة اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم. ووفقا لهذه القراءة للأحداث كان كبار الصحابة أمام خيارين: الأول: أن يعملوا بالنص وينصبوا عليا، ثم تجرى بحور الدماء على أيدى الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون بجميع دوائرهم وتياراتهم، ويترتب على ذلك تقدم الجاهلية والارتداد عن الإسلام. الثانى: أن يرجحوا المصلحة وينصبوا لشيخا مجربا للأمور لا يحسده أحد ولا يحقد عليه أحد ولا يبغضه أحد. فأيهما أصلح للدين؟ الوقوف مع النص الذى يؤدى إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية. أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين وإن كان فيه مخالفة النص؟ قد يقول قائل: إن نفسى لا تسامحنى أن أنسب إلى الصحابة عصيان النبى ودفع النص. وهذا شعور طيب. ولكن هناك نصوص صريحة ثم مصادرتها وهى فى كتاب الله ومن ذلك سهم المؤلفة قلوبهم وسهم ذى القربى وسيأتى الحديث عنهما فى حينه. ثم أن نفسى أيضا لا تسامحنى أن أنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم إهمال أمر الإمامة وأن يترك الناس فى فوضى وهو صلى الله عليه وسلم ما كان يغيب عن المدينة إلا ويؤمر عليها أميرا وهو حى ليس بالبعيد عنها فكيف لا يؤمر وهو ميت لا يقدر على استدراك ما يحدث؟ والخلاصة أقر كبار الصحابة هذا الرأى لحقن الدماء ولسير الدعوة. وحقن الدماء يدخل تحت ظلها على بن أبى طالب وأهل بيته. ولهذا لم يتعرض إليه أحد بمكروه وكان هو وأولاده على امتداد عصور الخلفاء الثلاثة يعامل بكل تقدير واحترام. ووفقا لما ذكرنا بايع عمر لأبى بكر رضى الله عنه... وأبو بكر

[صفحه ۲۸۲]

ما كان يريد قيادة وإنما كان يخاف الفتنة وسنذكر أقواله فى حينها. وكان من قبيلة لا تزاحم غيرها من القبائل على طلب رأس قريش. ولم يكن فى نسبه ما يشمخ به على الناس [۷] وكان منطقة توازن يميل إليه الكثير من الصحابة ولا

يفرق بين هذا وذاك حتى أبو سفيان كان أبو بكر يكن له كل تقدير. ومعاملة كهذه تشهد بأنه كان ماهرا فى قيادة السفينة. روى

الإمام مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وهيب وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره. فقال النبى: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك. فآتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخى [٨] أنها أرضية من الحب. لم يتكبر على الضعفاء وإنما ذهب إليهم وطيب خاطرهم، قال النووى فى الحديث: هذه فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء [٩] ، ولم يختلف الفاروق رضى الله عنه عن أبى بكر فهو من قبيلة لا تصارع قريشا على متاع ولم يكن عندها ما تشمخ به على القبائل كان منزله بالعوالى فى بنى أمية [١٠] ، وكان يقدر أبا سفيان وأولاده، ذكر معاوية يوما عنده فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها [١١] ، فهذا كله يحفظ التوازن لتسير الدولة وفقا لمصلحة الأمة. قد يقول قال: ما هو الدليل على أن كبار الصحابة أخذوا بمصلحة الأمة فى أمر الخلافة ودفعهم النص؟ نقول: أما النصوص الخاصة بالولاية فقد قدمناها على امتداد هذا الكتاب وأما أخذهم بمصلحة الأمة فلقد روى ابن خزيمة فى صحيحه والإمام أحمد بسند صحيح عن أبى رافع قال: لما استخلف الناس

[صفحه ۲۸۳]

أبا بكر. قلت: صاحبى الذى أمرنى أن لا أتأمر على رجلين. فارتحلت فانتهيت إلى المدينة فتعرضت لأبى بكر فقلت له: يا أبا بكر أتعرفنى؟ قال: نعم، قلت: أتذكر شيئا قلته لى. أن لا أتأمر على رجلين وقد وليت أمر الأمة، فقال: إن رسول الله قبض والناس حديث عهد كفر فخفت عليهم أن يرتدوا وأن يختلفوا فدخلت فيها وأنا كاره ولم يزل بى أصحابى. فلم يزل يعتذر حتى عذرته [١٢] ، وفى رواية الإمام أحمد قال: فبايعونى لذلك وقبلتها منهم وتخوفت أن تكون فتنة يكون بعدها ردة [١٣] .

وروى الطبرى أن عمر قال لابن عباس: أتدرى ما منع قومكم منهم بعد محمد؟ قال ابن عباس فكرهت أن أجيبه فقلت: إن لم أكن أدرى فأمير المؤمنين يدرينى فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحا بجحا فاختارت قريش لنفسها فأصابت [١٤] ، وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز فى كتابه السقيفة أن عمر قال لابن عباس: ما أظن صاحبك إلا مظلوما. قال ابن عباس فقلت فى نفسى: والله لا يسبقنى بها فقلت: يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظلامته. فانتزع يده من يدى ثم مر يهمهم ساعة ثم وقف فلحقته فقال لى: يا ابن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه. قال ابن عباس فقلت فى نفسى: هذه شر من الأولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبى بكر [١٥] وروى أحمد بن

أبى الطاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد فى كتابه مسندا عن ابن عباس قال: قال لى عمر [١٦] من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد. قال: كيف خلفت ابن عمك؟ فظننته يعنى عبد الله بن جعفر. قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلفته يمتح

[صفحه ۲۸۴]

بالغرب [١٧] على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن قال: يا عبد الله، عليك دماء البدن إن كتمتنيها! هل بقى فى نفسه شئ من أمر الخلافة. قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص عليه؟ قلت: نعم وأزيدك. سألت أبى عما يدعيه فقال: صدق. فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أمره ذرو [١٨] من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عذرا. ولقد كان يربع فى أمره وقتا ما. ولقد أراد فى مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقا وحيطة على الإسلام، لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش أبدا. ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها. فعلم رسول الله إنى علمت ما فى نفسه. فأمسك وأبى الله إلا إمضاء ما ختم [١٩] .

ونعود إلى حيث بدأنا. فعندما أعلن عن وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. وهتف عمر بمبايعة أبى بكر علمت الأنصار بما عزم عليه المهاجرون. فأتوا بسعد بن عبادة ليبايعوه. ويقتضى هذا أن نلقى الضوء على الأنصار.

[١] رواه البخارى فى تفسير سورة براءة (الصحيح ١٣٧:٣) ومسلم (الصحيح ١٦٧:١٥).

[۲] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵:۲۸۰).

[۳] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵:۲۷۹).

[۴] رواه مسلم (الصحیح ۴:۱۴۶).

[۵] رواه البخاری کتاب الشروط باب الجهاد والمصالحة (الصحیح ۲:۱۲۲).

[۶] رواه البخاری تفسیر سورة الفتح (۳:۱۹۰).

[۷] الإسلام لا یقیم وزنا للقبائل من حیث نسبها. ولکننا طرحنا النسب هنا نظرا للقبائلیة التی توهجت بعد رسول الله وبقیت زمنا طویلا.

[۸] رواه مسلم (الصحیح ۱۶:۶۶ فی فضل سلمان وبلال وصهیب).

[۹] مسلم شرح النووی (۱۶:۶۶).

[۱۰] الترمذی (الجامع ۵:۴۲۰).

[۱۱] رواه الدیلمی (کنز العمال ۱۳:۵۸۷) وابن کثیر فی البدایة (۸:۱۲۴).

[۱۲] رواه ابن خزیمة فی صحیحه والبغوی وابن رهویة (کنز ۵:۵۸۶).

[۱۳] رواه أحمد بسند صحیح (الفتح الربانی ۲۳:۶۱).

[۱۴] الطبری (تاریخ الأمم ۵:۳۱).

[۱۵] ابن أبی الحدید ۲:۲۹۰.

[۱۶] کان لقاء عمر بابن عباس فی أوائل خلافة عمر بالمسجد.

[۱۷] الغرب / الدلو.

[۱۸] ذرو / طرف.

[۱۹] ابن أبی الحدید ۳:۷۶۵.

اضواء علی الأنصار

الأنصار هم القوة الضاربة فی جیش الرسول الأعظم صلی الله علیه وسلم وأطاحت سیوفهم برقاب العدید من أهل مکة. وکان الطلقاء من أهل مکة یحملون أحقادا للأنصار. وهذه الأحقاد بلغت ذروتها یوم الحرة عندما اجتاحت خیول یزید بن معاویة المدینة وبایعه أهل المدینة علی أنهم عبید له. والنبی صلی الله علیه وسلم وضع الأنصار مع علی بن أبی طالب علی أرضیة واحدة هی أرضیة الإیمان. روی مسلم عن علی أنه قال: إنه لعهد النبی الأمی صلی الله علیه وسلم أن لا یحبنی إلا مؤمن ولا یبغضنی إلا منافق [۱] ، وفی الأنصار روی مسلم عن البراء قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم فی الأنصار

[صفحه ۲۸۵]

لا یحبهم إلا مؤمن ولا یبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله [۲] ، وروی مسلم عن أبی هریرة قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم: لا یبغض الأنصار جل یؤمن بالله والیوم الآخر [۳] ، وروی مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلی الله علیه وآله ": حب الأنصار آیة الإیمان وبغضهم آیة النفاق [" ۴] .

ولأن علیا والأنصار علی أرضیة واحدة کان أبو سعید الخدری یقول ": إنا کنا لنعرف المنافقین نحن معشر الأنصار ببغضهم علی بن أبی طالب [" ۵] ، وقال النووی فی شرح مسلم: إن من عرف مرتبة الأنصار وما کان منهم فی نصرة دین الله والسعی فی إظهاره. وعرف من علی بن أبی طالب قربه من رسول الله وحب النبی له، وما کان منه فی نصرة الإسلام، ثم أحب الأنصار وعلیا کان ذلک من

دلائل صحة إيمانه، ومن أبغضهم كان ضد ذلك واستدل به على نفاقه وفساد سريرته [۶] .

والنظر إلى الأنصار لا ينبغى أن يحمل على أن جميع الأنصار فى دائرة الإيمان. لأن كل قاعدة بها وتد للنفاق، قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) [۷] ، والمعنى وممن حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين فى البوادى منافقون مرقوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم - لذا فدائرة الإيمان على أرضية الأنصار لا ترى إلا على طريق على بن أبى طالب. فعلى إنسان فطرى رباه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وغرس فيه القيادة كما غرس صلى الله عليه وآله فى

[صفحه ۲۸۶]

الأنصار الجندية. ولهذا ترى الجندية الحقة على صفحة القيادة الحقة. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يرتب الأنصار على درجات، روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال ": خير دور الأنصار دور بنى النجار ثم دور بنى الأشهل ثم بنى الحرث بن الخزرج ثم بنى ساعدة وفى كل دور الأنصار خير [" ۸] ، وعندما علم سعد بن عبادة بهذا الترتيب حيث بنى ساعدة التى اشتهرت بسقيفتها رابع أربع قال: خلفنا رسول الله فكنا آخر الأربع. اسرجوا لى حمارى أتى صلى الله عليه وسلم فقال له ابن أخيه: أتذهب لترد على رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم. أوليس حسبك أن تكون رابع أربع فرجع وقال: الله ورسوله أعلم [۹] .

ومن الغريب أن فى صحيح البخارى حديثا يتهم سعد بن عبادة بالنفاق. والحديث روته أم المؤمنين عائشة فى قصة الإفك، وفيه ": إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى. فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى. فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقال سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا!! ولكن احتملته الحمية فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد ابن الحضير فقال: كذبت لعمر الله والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت [" ۱۰] فسعد بن عبادة الذى زاحم المهاجرين فى البيعة وطلبها للأنصار كما طلبها

[صفحه ۲۸۷]

المهاجرين لأنفسهم متهم فى صحيح البخارى بالنفاق وبالدفاع عن المنافقين بعد أن كان رجلا صالحا. وحدث هذا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[۱] رواه مسلم (۱:۶۱ ط التحرير).

[۲] رواه مسلم (۱:۶۰ ط التحرير).

[۳] رواه مسلم (۱:۶۰ ط التحرير).

[۴] رواه مسلم (۱:۶۰ ط التحرير).

[۵] رواه الترمذى (الجامع ۵:۶۳۵) ورواه الخطيب عن أبى ذر بلفظ آخر (كنز ۱۳:۱۰۶).

[۶] مسلم شرح النووى (۲:۶۴).

[۷] سورة التوبة: الآية ۱۰۱.

[۸] رواه مسلم فى الصحيح (۱۶:۷۰) والترمذى (الجامع ۵:۷۲۰) البخارى (الصحيح ۴:۳۱۱).

[۹] رواه مسلم (الصحيح ۶:۱۷۵).

[۱۰] رواه البخارى باب حديث الإفك من كتاب الشهادات (الصحيح ۲:۱۰۴).

صراع داخل السقيفة

كان على بن أبى طالب يغسل النبى الأكرم صلى الله عليه وسلم.

وكان المهاجرون يتناقشون فى الخلافة، وعندما علم الأنصار بأن قريشا عازمة على إبعاد على بن أبى طالب وليس بالضرورة أن يكون هذا العلم قد جاء بعد وفاة الرسول لأن الرسول أخبر بما هو كائن بعده. علاوة على أن الأنصار يعرفون من يحبهم. اجتمع الأنصار وأرادوا إبرام الأمر فيما بينهم على أن يكون الخليفة منهم اعتقادا منهم بأن الإسلام قام بحد سيوفهم وأن المهاجرين عيال عليهم. وحملوا سعد بن عبادة وكان مريضا إلى سقيفة بنى ساعدة. فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه. ثم تكلموا فيما بينهم فقالوا: فإن أبى المهاجرون وقالوا: نحن أولياؤه! فقال قوم من الأنصار نقول: منا أمير ومنكم أمير فقال سعد: هذا أول الوهن. وكان للمهاجرين عيون على الأنصار فانطلق عويم بن ساعدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد آخا بين عويم وبين عمر [۱] ، وجاء إلى عمر ومعه معن بن عدى وأخبراه بما حدث من الأنصار. فأرسل عمر إلى أبى بكر أن أخرج فقد حدث أمر لا بد أن تحضره. فخرج فأعلمه بالخبر، فمضينا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة. وكان عمر على امتداد الطريق يبحث عن إجابات مقنعة يقنع بها الأنصار. فقد كان يخشى ردة فعل الأنصار وكان يخشى أن لا يوافقوا على إبعاد على بن أبى طالب نظرا للصالح العام. وعندما وصلوا إلى السقيفة. روى البخارى أن عمر أراد أن يتكلم. فأسكته أبو بكر. وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا إنى قد هيأت كلاما قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر [۲] ، أى أنه جهز كلاما وهو فى الطريق خشى أن لا يقول أبو بكر مثله. فتكلم أبو بكر

[صفحه ۲۸۸]

وقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر: لا- والله لا- نفعل منا أمير ومنهم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء [۳] .

وارتفعت الأصوات وكثر اللغط، وتكلم عمر وقال: والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم [۴] ، فرد عليه الحباب فقال: يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر. فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور. فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين. أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة. فقال عمر: إذا يقتلك الله، قال الحباب: بل إياك يقتل [۵] ، وقال أبو بكر: إنى قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر أو أبو عبيدة [۶] ، وانتهى الأمر بأن قال عمر: أبسط يدك يا أبا بكر فلا بايعك. فقال أبو بكر: بل أنت يا عمر فأنت أقوى لها منى ففتح عمر يد أبى بكر وقال: إن لك قوتى مع قوتك [۷] ، إلى هذا الحد كان الأنصار يصرن على موقفهم حتى قام بشير بن سعيد الخزرجى وكان حاسدا لسعد وقال: يا معشر الأنصار. إلا أن محمدا من قريش وقومه أولى به. وبايع، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد عققت عقاق ما أحوجك إلى ما صنعت أنفست على ابن عمك الإمارة [۸] ، فلما رأت الأوس ما صنع بشير. قام أسيد بن الحضير - قال صاحب الإصابة: كان أبو بكر لا يقدم عليه أحد من الأنصار. ولما مات أسيد وفى عمر دينه [۹] - وقال: قوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، فأنكس على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما

[صفحه ۲۸۹]

كانوا أجمعوا له من أمرهم [۱۰] .

وحدث هرج وكادوا يطؤن سعد بن عبادة. فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعد لا تطؤه. فقال عمر: اقتلوه قتله الله [۱۱] ثم قام على رأسه وقال: لقد

هممت أن أطأك حتى تندر عضوك. فأخذ سعد بلحية عمر، فقال عمر: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفى فيك واضحة [۱۲] ، فقال سعد لعمر: أما والله لو أن بى قوة ما أقوى على النهوض - وكان مريضا - لسمعت منى فى أقطارها وسككها زئيرا يحجزك

وأصحابک. أما والله إذا لألحقتک بقوم کنت فیهم تابعا غیر متبوع. ثم قال: احملونی من هذا المکان. فحملوه فأدخلوه داره. وترک أیاما. ثم بعث إلیه أن أقبل فبایع. فقال: أما والله حتی أرمیکم بما فی کنانتی من نبلی. وأخضب سنان رمحی وأضربکم بسیفی ما ملکته یدی وأقاتلکم بأهل بیتی ومن أطاعنی من قومی. فلا أفعل وأیم الله. لو أن الجن اجتمعت لکم مع الإنس ما بایعتکم حتی أعرض علی ربی وأعلم ما حسابی. فلما أتی أبو بکر ذلک. قال له عمر: لا تدعه حتی یبایع فقال له بشیر بن سعد: أنه قد لج وأبی. ولیس بمبایعکم حتی یقتل. ولیس بمقتول حتی یقتل معه ولده وأهل بیته وطائفة من عشیرته فاترکوه فلیس ترکه بضارکم. إنما هو رجل واحد. فترکوه وقبلوا مشورة بشیر بن سعد. وکان سعد لا یصلی بصلاتهم ولا یجمع معهم ولا یحج ولا یفیض معهم بإفاضتهم [۱۳]، فلم یزل کذلک حتی خلافة عمر بن الخطاب. فقال لعمر: کان صاحبک أحب إلینا وقد أصبحت والله کارها لجوارک. وأنا متحول إلی جوار من هو خیر منک. وخرج سعد مهاجرا إلی الشام. وفی حوران قتل سعد [۱۴] وقالوا لناس یومئذ: لقد قتله الجن.

[صفحه ۲۹۰]

وبعد أکان یرضی رسول الله صلی الله علیه وسلم هذا الصراع والتهدید بإجلاء هؤلاء وقتل هؤلاء؟ إن ما ذکرناه اتفق علیه أصحاب الحدیث والتراجم والسیر واعتبروه من المسلمات. فهل یجوز علی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم أن یترک أمته لیکون الحال کما رأینا وهو الذی قال إنی ترکتکم علی المحجة البیضاء لیلها کنهارها سواء. لقد وقف کل طرف یسأل الإمارة. ولقد روی الإمام مسلم أن رجلین دخلا علی رسول الله صلی الله علیه وسلم. فقال أحدهما: یا رسول الله أمرنا علی بعض ما ولاک الله عز وجل. وقال الآخر مثل ذلک. فقال النبی: أنا والله لا تولی هذا العمل أحدا سأله ولا أحدا أحرص علیه [۱۵]، لقد طلب کل منهما بعض ما ولاه الله. ولکن هیهات. إن الأمر لله ورسوله والرسول قد یشاور أصحابه فی أمر ما ولکن فی النهایة فإن العزم له وحده فإذا عزم فاعلم أن العزم لهدف ومن وراء الهدف حکمة. وقد یعکف البعض علی أرضیة المشاورة ویعتقدون أنه ما دام الرسول کان یشاورهم فإن لکلمتهم الخلود. وفاتهم أن الخلود یمکن فی دائرة العزم وحدها ومن تعدی هذه الدائرة فلا یؤمن علیه من الفتن قال تعالی: (وشاورهم فی الأمر فإذا عزمت فتوکل علی الله)، فهکذا أشرکهم سبحانه فی المشاورة ووحد رسوله فی العزم. ولقد عزم الرسول أن لا یولی هذا العمل أحد سأله ولا أحد أحرص علیه.

[۱] الإصابة ۴۵:۵.

[۲] البخاری باب فضائل أصحاب النبی (الصحیح ۲۹۱:۲).

[۳] البخاری (الصحیح ۲۹۱:۲) ک بدء الخلق.

[۴] الطبری (تاریخ الأمم ۲۰۹:۳).

[۵] الطبری (۲۰۹:۳).

[۶] البخاری کتاب بدء الخلق باب فضل أصحاب النبی (۲۹۱:۲) الطبری (۲۰۹:۳).

[۷] الطبری (۱۹۹:۳).

[۸] الطبری (۲۰۹:۳).

[۹] الإصابة (۴۸:۱).

[۱۰] الطبری (۲۰۹:۳).

[۱۱] الطبری (۲۱۰:۳) البخاری فی الصحیح (۲۹۱:۲).

[۱۲] الطبری (۲۱۰:۳).

[۱۳] الطبری (۲۱۰:۳).

[۱۴] ابن سعد (الطبقات ۶۲۸:۵).

[۱۵] رواه مسلم باب الإمارة (الصحیح ۶:۶).

صراع خارج السقیفة

روی الزبیر بن بکار فی کتابه ": الموفقیات والزبیر - " قال فیه الذهبی: إمام
ثقة من أوعیة العلم [۱] - لما بویع أبو بکر أقبلت الجماعة التی بایعته تزفه زفا إلی مسجد رسول الله صلی الله علیه وسلم [۲] ، وروی الإمام البخاری عن أنس أنه بعد بیعة أبو بکر سمع عمر یقول لأبی بکر یومئذ اصعد المنبر فلم یزل به حتی صعد المنبر فبایعه الناس عامة وکان قبل ذلک قد بایعته طائفة من
[صفحه ۲۹۱]
السقیفة [۳] ، وروی الزبیر بن بکار أنه لما کان من الغد قام أبو بکر فخطب الناس وقال: أیها الناس إنی ولیت أمرکم ولست بخیرکم فإذا أحسنت فأعینونی وإذا أسأت فقومونی إن لی شیطانا یعترینی فإیاکم وإیای إذا غضبت ["... ۴] .
وقال الزبیر بن بکار: وکان عامة المهاجرین وجل الأنصار لا یشکون أن علیا هو صاحب الأمر بعد رسول الله صلی الله علیه وسلم. وأن الفضل بن العباس قال: یا معشر قریش وخصوصا یا بنی تیم إنکم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونکم ولو طلبنا هذا الأمر الذی نحن أهله لکانت کراهة الناس لنا أعظم من کراهتهم لغیرنا حسدا منهم لنا وحقدا علینا وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهدا هو ینتهی إلیه [۵] ، وقد ذکر الإمام علی [۶] إنه کان معهود إلیه أن لا ینازع فی الأمر ولا یثیر فتنة بل یطلبه برفق فإن حصل له وإلا أمسک وذلک لأن الحجة قد قامت والامتحان قد بدأ ولا إکراه فی الدین. وروی أبو بکر أحمد بن عبد العزیز الجوهری فی کتاب السقیفة: بعد بیعة أبو بکر ذهب عمر بن الخطاب ومعه عصابة إلی بیت فاطمة منهم أسید بن حضیر فقال لهم: انطلقوا فبایعوا فأبوا علیه وروی الطبری أن عمر قال: والله لأحرقن علیکم أو لتخرجن إلی البیعة. فخرج علیه الزبیر بسیفه [۷] فقال عمر: علیکم الکلب، فوثب علیه سلمة بن أسلم وأخذ السیف من یده فضرب به الجدار، ثم انطلقوا بن وبعلی ومعهما بنو هاشم وعلی یقول: أنا عبد الله! وأخو رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم!. وروی صاحب کتاب السقیفة: وعندما انتهوا بعلی إلی أبی بکر فقیل له: بایع فقال: أنا أحق بهذا الأمر منکم لا أبایعکم وأنتم أولی بالبیعة لی. أخذتم
[صفحه ۲۹۲]
هذا الأمر من الأنصار واحتججتم علیهم بالقرابة من رسول الله فأعطوکم المقادة وسلموا إلیکم بالإمارة. وأنا أحتج علیکم بمثل ما احتججتم به علی الأنصار فانصفونا إن کنتم تخافون الله من أنفسکم واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لکم وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون. فقال عمر: إنک لست متروکا حتی تبایع، فقال له علی: احلب یا عمر حلبا لک شطره! اشدد له الیوم أمره لیرد علیک غدا!! ألا والله لا أقبل قولک ولا أبایعه، فقال له أبو بکر: فإن لم تبایعنی لم أکرهک، وقال أبو عبیدة: یا أبا الحسن أنک لحدیث السن وهؤلاء مشیخة قریش قومک لیس لک مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور. ولا أری أبا بکر إلا أقوی علی هذا الأمر وأشد احتمالا له واضطلاعا به فسلم له هذا الأمر وأرض. فإنک إن تعش ویصل عمرک فأنت لهذا الأمر خلیق وبه حقیق فی فضلک وقرابتک وسابقتک وجهادک. فقال علی: یا معشر المهاجرین الله الله. لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبیته إلی بیوتکم ودورکم ولا تدفعوا أهله عن مقامه فی الناس وحقه. فوالله یا معشر المهاجرین لنحن - أهل البیت - أحق بهذا الأمر منکم. أما کان منا القارئ لکتاب الله الفقیه فی دین الله العالم بالسنة المضطلع بأمر الرعیة والله إنه لفینا فلا تتبعوا الهوی فتزدادوا من الحق بعدا وانصرف علی إلی منزله ولم یبایع [۸] .
الملاحظ هنا وخلال أحداث هذه الفترة فیما وصل إلینا أن الإمام علیا لم یحتج علی قریش بالنص. ویمکن فهم السبب بخلفیة أن النبی صلی الله علیه وآله وسلم أراد خلال الأیام القلیلة السابقة لهذه الأحداث أن یکتب لهم نصا ولکنهم حالوا بینه وبین ذلک. إشفاقا علیه

وإشفاقا على أنفسهم من أن يكتب لهم ما يعجزون عنه فتكون العقوبة أشد لكون الأمر مكتوب. فإذا كان القوم قد صادروا النص المكتوب لأن عقوبته أشد فإنه لا يستبعد أن يصادروا النص المسموع. والإمام لوح بالنص فی مواطن عديدة. فقوله لهم ": لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم، " فتح دائرة حق من أراد أن يناقشها ناقشه والحق لا يخفى ثم قوله:

[صفحه ۲۹۳]

"والله إنه لفينا فلا- تتبعوا الهوس " كشف دائرة الهوى وهی أيضا مفتوحة للمناقشة. وروى البيهقی بسند صحيح أن أبا بكر حين استخلف قعد فی بيته حزينا فدخل عليه عمر بن الخطاب فأقبل أبو بكر عليه يلومه وقال: أنت كلفتنی هذا الأمر! وشكا إليه الحكم بين الناس. فقال عمر: أو ما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الوالی إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد. فكأنه سهل على أبی بكر. [۹] .

[۱] ميزان الاعتدال ۶۶:۲.

[۲] ابن أبی الحديد عن كتاب الموفقيات ۲۷۲:۲.

[۳] البخاری (الصحيح ۲۴۸:۴) ك الأحكام.

[۴] ابن أبی الحديد ۲۷۳:۲.

[۵] ابن أبی الحديد ۲۷۳:۲.

[۶] سنبين ذلك فی حينه.

[۷] الطبری ۱۹۸:۳.

[۸] ابن أبی الحديد ۲۶۶:۲.

[۹] رواه البيهقی وابن رهوية وخيثمة (كنز العمال ۶۳۰:۵).

هتاف الأنصار

بعد أن تزعم سعد بن عبادة جماعة من الأنصار ودعا إلى نفسه. قال

الزبير بن بكار: أفسد حاله رجلان من الأنصار وهما عويم بن ساعدة ومعن بن عدی [۱] وهما عيون المهاجرين على الأنصار. وذكر المدائنی والواقدی: كان معن بن عدی يسوق أبا بكر وعمر سوقا عنيفا إلى السقيفة مبادرة إلى الأمر قبل فواته [۲] وانتهى الأمر إلى مبايعة أبی بكر وأول من بايعه عمر ثم بشير بن سعد

ثم أسيد بن حضير ثم أبو عبيدة بن الجراح ثم سالم مولى أبی حذيفة. والذين أنكروا بيعة أبی بكر: خالد بن سعيد بن العاص. وسلمان وأبو ذر والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وبريدة الأسلمی وأبو الهيثم بن التيهان وسهل وعثمان ابنا حنيف وخزيمة بن ثابت وأبی بن كعب وأبو أيوب الأنصاری. وروى الزبير بن بكار وقال الذهبی الزبير بن بكار إمام ثقة من أوعية العلم – عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: لما بويع أبو بكر واستقر أمره. ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته ولام بعضهم بعضا وذكروا عليا وهتفوا بإسمه وإنه فی داره لم يخرج إليهم وجزع لذلك المهاجرون وكثر فی

[صفحه ۲۹۴]

ذلك الكلام وكان أشد قريش على الأنصار نفر فيهم وهم: سهل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبی جهل. وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبی ثم دخلوا فی الإسلام وكلهم موتور قد وتره الأنصار. فلما اعتزلت الأنصار. تجمع هؤلاء. فقام سهيل بن عمرو فقال: يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار. وأثنى عليهم القرآن فلهم بذلك حظ عظيم وشأن غالب. وقد دعوا إلى أنفسهم وإلى علی بن أبی طالب. وعلی فی بيته لو شاء لردهم! فادعوه إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته فإن أجابوكم وإلا

فاقتلوهم. فوالله أنى لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم. وقال الحارث: فإنه قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه. فإنهم قد خرجوا مما وسموا به وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف... وقال عكرمة: إن الذى هم فيه من فلتات الأمور ونزغات الشيطان. وما لا يبلغه المنى ولا يحمله الأمل اعذروا إلى القوم فإن أبوا فقاتلوهم. الملاحظ أن مقدمة القوم هنا هو سهل بن عمرو. وهو بالذات يحفظ فى ذاكرته قول النبى يوم الحديبية والذى أنذرهم فيه بمعركة يدخرها الغيب لهم عقوبة على ما فى قلوبهم، ففى الحديث الصحيح عن ربعى عن على قال: لما كان يوم الحديبية خرج ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو - إلى أن قال - فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر قريش لتنتهين أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ وقال أبو بكر: من هو يا رسول الله. وقال عمر: من هو يا رسول الله قال: هو خاصف النعل - وكان قد أعطى عليا نعله يخصفها. لهذا لا يستغرب خوف سهيل بن هتاف الأنصار بعلى. وقوله ": وعلى فى بيته لو شاء لردهم " يبين مدى جزعه. ولا يستغرب منه أن يطالب بتحديد دعوة الأنصار لأبى بكر فإن أجابوا فهو الأمان. وإلا فقتلهم أولى. وعلى ضوء هذا كله يمكن أن نفهم لماذا لم يخرج على بن أبى طالب بأى وسيلة مطالبا بالأمر. فالسكوت كان لقلة الأتباع وظهور سهيل بن عمرو وطابوره. وهم الذين أخرجوا

[صفحه ۲۹۵]

الرسول من قبل فكيف بعلى! ثم علينا أن نأخذ عدة خطوات للإمام ونقول. ماذا حدث عندما أظهر الإمام نفسه وبويع بالخلافة؟ لقد اشتعل التراب نارا مع العلم إن هذا الاشتعال كان بعد وفاة النبى بربع قرن تقريبا فما بالك لو كان هذا الاشتعال بعد وفاة النبى بيوم واحد. ذكر الزبير بن بكار أن عمرو بن العاص قدم من سفر كان فيه. وعندما علم بالأحداث وما كان من يوم السقيفة وما تلى ذلك أدلى بدلوه وقال: لقد قاتلنا الأنصار بالأمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة، فلما بلغ الأنصار مقالته قال شاعر الأنصار النعمان بن العجلان فيه شعرا [۳] ، فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منهم. وفى هذا الوقت قدم خالد بن سعيد العاص من اليمن. وكان له ولأخيه أثر قديم عظيم فى الإسلام. ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار وشتم عمرو ابن العاص وقال: يا معشر قريش إن عمرا دخل فى الإسلام حين لم يجد بدا من الدخول فيه. فلما لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار، والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا. لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا وما بذلنا دماءنا لله فيهم وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم وآثرونا على الفقر وحرمناهم على الغنى ولقد وصى رسول الله بهم وعزاهم عن جفوة السلطان فأعوذ بالله أن أكون وإياكم الخلف المضيع والسلطان الجانى [۴] .

وخالد بن سعيد بن العاص هو الذى امتنع عن بيعة أبى بكر وقال: لا أبايع إلا عليا. وروى الزبير بن بكار: أن رجالا من سفهاء قريش ومثيرى الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له: إنك لسان قريش ورجلها فى الجاهلية والإسلام فلا تدع الأنصار، وما قالت. فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم فتكلم وقال: إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها. وأيم الله لوددت

[صفحه ۲۹۶]

أن الله خلى عنا وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب. ولنحن الذين أفسدنا على أنفسنا أحرزناهم عن كل مكروه وقدمناهم إلى كل محبوب حتى آمنوا المخوف فلما جاز لهم ذلك صغروا حقنا ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم... فقال له الفضل بن العباس بن عبد المطلب: يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك. وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة إلا أن يأمرنا فنفعل. ثم رجع الفضل إلى على فحدثه فغضب وشتم عمرا وقال: آذى الله ورسوله. ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلم مغضبا فقال: يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق. وقد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم (!)، واذكروا أن الله تعالى رغب لنبيكم عن مكة فنقله إلى المدينة. وكره له قريشا فنقله إلى الأنصار. ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال وكفونا العمل فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقير ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نعم فقال: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو

کان بهم خصاصة ومن یوق شح نفسه فأولئک هم المفلحون) [۵] ، ألا ـ وإن عمرو بن العاص قد قام مقاما (آذی فیه المیت والحی. ساء به الواتر وسر به الموتور فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت. وأنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار. فلیکفف عمرو عنا نفسه. قال الزبیر بن بکار: فمشت قریش عند ذلک إلی عمرو بن العاص فقالوا: أیها الرجل أما إذا غضبت علی فأکفف وقال علی للفضل: یا فضل أنصر الأنصار بلسانک ویدک فإنهم منک وإنک منهم. فقال الفضل:

قلت یا عمرو مقالا فاحشا++

إن تعد یا عمرو والله فلک

إنما الأنصار سیف قاطع++

من تصبه ظبة السیف هلک

وسیوف قاطع مضربها++

وسهام الله فی یوم الحلک

نصروا الدین وآووا أهله++

منزل رحب ورزق مشترک

[صفحه ۲۹۷]

وإذا الحرب تلظت نارها++

برکوا فیها إذا الموت برک

ودخل الفضل علی علی بن أبی طالب فأسمعه شعره ففرح به. وأمره أن یظهر شعره ویبعث به إلی الأنصار. فلما بلغ ذلک الأنصار بعثوا إلی حسان بن ثابت فعرضوا علیه شعر الفضل. فقال: کیف أصنع بجوابه إن لم أتحر قوافیه فضحنی فرویدا حتی أقفو أثره فی القوافی. فقال له خزیمة بن ثابت ذو الشهادتین: اذکر علیا وآله یکفک عن کل شئ. فقال:

جزی الله عنا والجزاء بکفه++

أبا حسن عنا ومن کأبی حسن

سبقت قریش بالذی أنت أهله++

فصدرک مشروح. وقلبک ممتحن

تمنت رجال من قریش أغرة++

مکانک. هیهات الهزال من السمن

وأنت من الإسلام فی کل موطن++

بمنزلة الدلو البطین من الرسن

غضبت لنا إذ قام عمرو بخطیة++

أمات بها التقوی وأحیا بها الإحن

فکنت المرجی من لؤی بن غالب++

لما کان منهم. والذی کان لم یکن

حفظت رسول الله فینا وعهده++

إلیک. ومن أولی به منک من ومن

ألست أخاه فی الهدی ووصیه++

وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن

فحقك ما دمت بنجد وشيجة++

عظيم علينا ثم بعد على اليمن [۶] .

فى هذا الشعر صرحت الأنصار بوصية النبى لعلى:

ألست أخاه فى الهدى ووصيه++

وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن

ولقد قالوا هذا الشعر وهتفوا باسم على. وهذا الأمر يقتضى من الباحث أن يلتمس للأنصار الأعذار وأن ينظر إلى حركتهم من البدء إلى الانتهاء بمنظور الفطرة والرسول الأكرم هو الذى أرشدنا إلى التماس الأعذار لهم. كان صلى الله عليه وسلم يقول لهم ": اللهم أنتم من أحب الناس إلى [" ۷] ، وقال النبى الأكرم ": أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحد أو ينفعه فليتقبل من محسنهم ويتجاوز

[صفحه ۲۹۸]

عن مسيئهم [" ۸] ، فمن هذا الشعر وهذا الهتاف الذى رواه الزبير بن بكار الإمام الثقة. يمكن القول أن الأنصار علموا بعد وفاة الرسول أن صفحة جديدة ستفتح لهم. قال لهم النبى ": إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى وموعدكم الحوض [" ۹] ، وكما علمنا من قبل أن الكتاب والعترة لا يفترقان حتى يردا على الحوض وإن عليا سيدفع المنافقين عنه. ولما كان الأنصار قد اشتركوا مع على فى أرضية واحدة حيث " لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق " فإن دعوة الرسول لهم أن يصبروا حتى يلقوه وموعدهم الحوض. تعنى أنه يحثهم على التمسك بالأرضية التى وقفوا مع على بن أبى طالب ولا يفارقوه. لأن هذه الأرضية بمثابة المقدمة لنتيجة ستظهر آثارها يوم القيامة. لقد علم الأنصار أن هناك تحولات ستحدث. وأن أى مواجهة عسكرية ستكون خسارة فادحة للفائز فيها فضلا على أنها ستحدث فى الإسلام فجوات الله وحده أعلم بها. لهذا فضل أغلب الأنصار الاعتزال وعلى رأسهم أبى بن كعب. أما سعد بن عبادة ومن معه فقد حسبوها بطريقة أخرى. لقد أرادوا أن يواجهوا الأثرة التى ستحدث لهم بعد وفاة الرسول بالاحتماء فى السلطة وذلك بمزاحمة المهاجرين فيها. لعلمهم أن المهاجرين يطالبون بما ليس لهم. بمعنى أن المهاجرين زاحموا على شئ هم ليسوا من أهله فلا مانع أن يزاحمهم الأنصار. وأى اتفاق مهما كان حجمه فسيدخل الأنصار به دائرة الأمان حتى يحدث الله بعد عسر يسرا. ولذا نجدهم فى أول الأمر طالبوا بالقيادة لسعد بن عبادة. ثم تشاوروا فيما بينهم ونزلوا درجة وقالوا منا أمير ومنكم أمير. واعتقد أنه لو تأخر النعمان بن بشير وأسيد بن حضير عن المبايعة برهة من الزمن لتوصل الأنصار إلى الحصول على موطئ قدم يحقق لهم الحماية ويدخلهم فى عملية التوازنات التى تشارك فيه أطراف عديدة. والذى يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حركة سعد بن عبادة كان هدفها حقن دماء

[صفحه ۲۹۹]

الأنصار ولكن بالمناورة على السلطة أن شعراء المهاجرين إذا هاجموا سعد بن عبادة. حزن الأنصار كلهم فى الوقت الذى يهتفون فيه باسم على بن أبى طالب! وخروج على بن أبى طالب وشتمه عمرو بن العاص سببه يرجع فى الابتداء إلى شعر قاله عمرو فى سعد والأنصار. من هذا قول عمرو كما روى الزبير بن بكار:

عجبت لسعد وأصحابه++

ولو لم يهيجوه لم يهج

رجا الخزرج رجاء السراب++

وقد يخلف المرء ما يرتجى

فکان کمنح علی کفه++

بکف یقطعها أهوج

قال الزبیر: فلما بلغ الأنصار مقالته بعثوا إلیه لسانهم وشاعرهم النعمان بن عجلان... وتحدث إلیه النعمان [۱۰] ثم قال فیه شعرا جاء فیه:

وقلتم حرام نصب سعد ونصبکم++

عتیق بن عثمان حلال أبا بکر

وأهل أبو بکر لها خیر قائم++

وإن علیا کان أخلق بالأمر

وکان هوانا فی علی وإنه++

لأهل لها یا عمرو من حیث لا تدری

فذاک بعون الله یدعو إلی الهدی++

وینهی عن الفحشاء والبغی والنکر

وصی النبی المصطفی وابن عمه++

وقاتل فرسان الضلالة والکفر [۱۱].

فکما تری شعر من عمرو بن العاص فی سعد. انتهی إلی حیث انتهی. وبعد السقیفة وقف الأنصار ومن حولهم أمثال سهیل بن عمرو وعکرمة ابن أبی جهل وعمرو بن العاص. وانتظم معهم فی الطابور الولید بن عقبة الذی قال عنه الزبیر بن بکار: کان یبغض الأنصار لأنهم أسروا أباه یوم بدر وضربوا عنقه بین یدی رسول الله. وقال الولید فی الأنصار شعرا شتم فیه الأنصار [۱۲]، ودخل الأنصار دائرة الصبر. یقول الزبیر: وأقبل حسان بن ثابت مغضبا من کلام الولید بن عقبة وشعره. فدخل المسجد وقال: یا معشر قریش إن أعظم ذنبنا [صفحه ۳۰۰]

إلیکم قتلنا کفارکم وحمایتنا رسول الله صلی الله علیه وسلم وإن کنتم تنقمون منا حنة کانت بالأمس فقد کفی الله شرها. فما لنا وما لکم. والله ما یمنعنا من قتالکم الجبن. ولا من جوابکم العیی. إنا لحی فعال ومقال. ولکنا قلنا: إنها حرب أولها عار وآخرها ذل فأغضینا علیها عیوننا. وسحبنا ذیولنا حتی نری وتروا فإن قلتم قلنا وإن سکتم سکتنا. فلم یجبه أحد من قریش. ثم سکت کل من الفریقین عن صاحبه [۱۳]، وظل الأنصار تحت حدیث رسول الله صلی الله علیه وسلم الذی قال لهم فیه ": إنکم ستلقون بعدی آثرة فاصبروا" [۱۴]، والذی قال النووی فی شرحه: أی یستأثر علیکم ویفضل علیکم غیرکم بغیر حق، ظلوا علی أرضیة الصبر حتی کان زمن علی بن أبی طالب فبایعوه کلهم وحاربوا تحت رایته. وبعد وفاة علی وفی عصر یزید بن معاویة جاء یوم الحرة وهو الیوم الذی بایعوا فیه لیزید علی أنهم عبید.

[۱] ابن أبی الحدید ۲:۲۷۵.

[۲] قدمنا الحدیث بطوله فیما سبق ورواه الترمذی وصححه وابن جریر وصححه والضیاء بسند صحیح (کنز ۱۱۵، ۱۳:۱۷۳) (جامع الترمذی ۵:۶۳۴).

[۳] من أراد أن یقف علی الشعر فلیراجع ابن أبی الحدید ۲:۲۸۰.

[۴] ابن أبی الحدید ۲:۲۸۱.

[۵] سورة الحشر: الآیة ۹.

[۶] ابن أبی الحدید نقلا عن الزبیر بن بکار ۲:۲۸۳.

[۷] البخاری (الصحیح ۲:۳۱۰) ک بدء الخلق ب مناقب الأنصار.

[۸] البخاری (الصحیح ۳۱۲:۲).

[۹] البخاری (الصحیح ۳۱۱:۲) ورواه مسلم (الصحیح ۱۵۲:۷).

[۱۰] راجع الحدیث فی المطولات.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۲۸۰:۲.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۲۸۴:۲.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۲۸۵:۲.

[۱۴] رواه البخاری (الصحیح ۳۱۱:۴) مسلم (الصحیح ۱۵۲:۷).

الخلافة فی قریش

فی سقیفة بنی ساعدة لم یذکر فیها نص عن رسول الله صلی الله علیه وآله

وسلم بأن الأئمة من قریش والروایات الواردة فی الجدل الذی دار بین المهاجرین وبین الأنصار لیس فیها إلا إلی أبی بکر وعمر بأن قریشا أهل النبی صلی الله علیه وسلم وعشیرته وأن العرب لا تطیع غیر قریش. وقول أبی بکر لهم: إن هذا الأمر لا یصلح إلا لهذا الحی من قریش. لیس نصا مرویا عن رسول الله صلی الله علیه وسلم، وقد یکون أبو بکر قد ذکر هذا بناءا علی نص سمعه من رسول الله فنقل لهم معناه. وفی أثناء المواجهة بین المهاجرین وبین الأنصار برز علی بسطح القول ": بأن الأئمة من قریش، " وکان أول من قال به عکرمة بن أبی جهل ثم أکده عمرو بن العاص عندما عاد من سفره ثم رواه بعد

[صفحه ۳۰۱]

ذلک معاویة بن أبی سفیان وغیره، وروی عن ابن عمر أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": لا یزال هذا الأمر فی قریش ما بقی منهم اثنان [" ۱] وحدیث

الأئمة من قریش لا جدال فی أنه حدیث صحیح ولکن الکثیر اختلف فی تحدید معناه ومبناه. قال البعض: إن النسب لیس بشرط وأن الإمامة تصلح فی القرشی وغیر القرشی إذا کان سیجمعنا للشرائط المعتبرة. وقال البعض: إن القرشیة شرط إذا وجد فی قریش من یصلح للإمامة فإن لم یکن فیها من یصلح فلیست القرشیة شرط فیها. وقال البعض: إن النسب شرط فیها وأنها لا تصلح إلا فی العرب خاصة ومن العرب فقریش خاصة. وقال فی فتح الباری: وقال البعض لا تجوز إلا فی بنی أمیة وعن بعضهم لا یجوز إلا فی ولد عمر. وقال ابن حزم ولا حجة لأحد من هؤلاء الفرق. وبالغ ضرار بن عمرو فقال: تولیة غیر القرشی أولی لأنه یکون أقل عشیرة فإذا عصی أمکن خلعه [۲] وقال البعض إنها فی العباس وولده من بطون قریش کلها. وقال البعض الآخر: إنها فی الفاطمیین. وقال آخرون: تجوز فی غیر الفاطمیین من ولد علی بن أبی طالب وهناک من جعلها فی محمد بن الحنفیة وولده، ومنهم من نقلها منه إلی ولد غیره. قال البعض: إنها ساریة فی ولد الحسین فی أشخاص مخصوصین. وهذا الاختلاف لیس معناه أن النبی صلی الله علیه وسلم قد ترک أمته ولم یبین لهم وجه الصواب فی هذه المسألة. لقد بین وساق الناس إلی الصراط المستقیم. ولکن السیاسة کان لها أقوال وأفعال وإلیها یعود کل اختلافات الأمة. وعلی أی حال فکل فریق وکل طائفة لدیه أصوله وحججه. ولأننا نبحث هنا فی المواجهة بین المهاجرین وبین الأنصار یحتم علینا البحث أن نلقی الضوء علی عنوان " الأئمة من قریش. " ونحن أمام هذا العنوان یجوز لنا أن نسأل إذا کان الأئمة من قریش فما معنی قول عمر بن الخطاب: لو کان سالم مولی أبی حذیفة حیا

[صفحه ۳۰۲]

لاستخلفته [۳] ، وما جعلتها شوری [۴] ، وسالم لم یکن قرشیا وإنما کان من المؤیدین الأوائل للمهاجرین یوم السقیفة. وإذا کان الأئمة من قریش فأی قریش یعنیها الحدیث؟ ومن المعروف من عبد مناف خرجت شجرة بنی هاشم وشجرة بنی عبد شمس حیث بنی أمیة

وبنى العاص وقال ابن حجر فى فتح البارى: وقد وردت أحاديث فى لعن الحكم والد مروان وما ولد أخرجها الطبرانى وغيره وبعضها جيد [۵] فما معنى أن يكون على رقبة الأئمة أئمة ملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذى ينظر فى التاريخ نظرة المتدبر تجد معالم الفتن التى غرست فى هذه العهود وإن كان يعلوها البريق والزخرف وكل أدوات التزيين. وهذه الفتن ما ترتب عليها من حركة تؤكد صحة هذه الأحاديث. فأى قريش التى تدخل تحت سقف " الأئمة من قريش " مع العلم أن قريشا كما ذكر المسعودى خمسة وعشرون بطنا [۶] ، قد يقال: يدخل تحت هذا السقف من كان مستجمعا للشرائط المعتبرة. نقول: كيف؟ والأمة بها العديد من الدوائر التى هدفها الصد عن سبيل الله. وفيها أصحاب الخشوع الزائف والمنافق عليم اللسان والأئمة المضلين وجميع هؤلاء ورد فيهم أحاديث صحيحة. وغير هذا. هل يمكن للناس الوصول إلى من يتصف بالصفات الحميدة. وهل فى وسعهم الاتحاد والاتفاق على اختياره وانتخابه؟ فإذا كانت الإجابة بنعم. فما معنى اختلاف الأمة فى الإصابة. وهل القرشية شرط أو أن النسب ليس بشرط. وهذا إن دل على شئ إنما يدل على أن الأمة ليست متفقة فى الرأى وإن لكل فرد أو قبيلة رأى يخالف الباقين. ومن المعلوم أن أى اختلاف وأى افتراق لا بد وأن تدثره حجة من الله. حتى إذا اختلفوا لم يكن لهم على الله حجة. بمعنى إن الله تعالى يرشدهم إلى الحق ويحيطهم علما بذلك. فإذا بغوا كان بغيهم بعد العلم وبهذا لا يكون لهم على الله حجة.

[صفحه ۳۰۳]

إن سقف الأئمة من قريش سقف واسع ولا يمكن تحديد من كان مستجمعا للشروط المعتبرة وفقا لمقاييس القلوب إلا بإرشاد من رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما الاستجماع للشروط وفقا للصور والثياب واللون وبلاغة اللسان فهذه أمور أخرى. وليس معنى أن الأئمة من قريش أن القرشى يستحق الإمامة. كما أنه ليس المعنى إن الله كرم الإنسان إن كل إنسان سيدخل الجنة وينال رضا ربه جل وعلا. ومن الدليل أن القول بإمامة قريش قول واسع لا بد له من تحديده وخوف النبى صلى الله عليه وسلم على أمته من قريش نفسها فقال ": يهلك أمتى هذا الحى من قريش [" ۷] ، وقال ": إن هلاك أمتى على يدى غلمة من قريش [" ۸] ، وطالب باعتزالهم فقال": لو أن الناس اعتزلوهم [" ۹] ، إن التعريف الواسع يدفع إلى الفتن روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنى لا أخشى على قريش إلا نفسها قلت: وما هو؟ قال: أشحة سمرة أن طال بك عمر رأيتهم يفتنون الناس حتى يرى الناس بينهم كالغنم بين الحوضين مرة إلى هذا ومرة إلى هذا [" ۱۰] ، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم": ولتحملنكم قريش على سنة فارس والروم ولتؤمنن عليكم اليهود والنصارى والمجوس [" ۱۱] .

إن هذه حقائق. وعندما ترعرع الزرع فى عهد بنى أمية قال أبو برزة " إنى أصبحت ساخطا على أحياء قريش [" ۱۲] ، فأى قريش؟ هل يمكن تفادى ما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه سيحدث بأن يختار الناس لأنفسهم؟ وما ذكره

[صفحه ۳۰۴]

النبى الأعظم صلى الله عليه وآله فى قريش قال مثله فى مضر فعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ": إن هذا الحى من مضر لا تدع لله فى الأرض عبدا صالحا إلا افتتنته وأهلكته [" ۱۳] ، وفى رواية ": إلا فتنوه أو قتلوه [" ۱۴] مما سبق علمنا أن عنوان الأئمة من قريش عنوان واسع، ولكى نحدد المكان الخاص تحت السقف العام. فلا بد أن نحدد أولا: أين جانب الفخر فى قريش؟ هل هو فى قريش أم فى عبد مناف أم فى أولاده. أم أن جانب الفخر فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ روى أن عبد الله بن الزبير تفاخر يوما أمام ابن عباس، بأن أبيه حوارى رسول الله وأسماء بنت أبى بكر أمه وعمته خديجة سيدة نساء العالمين وأن عائشة أم المؤمنين خالته وأن صفية عمة رسول الله جدته. فقال ابن عباس: لقد ذكرت شرفا رفيعا. وإنك لم تذكر فخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأنا أولى بالفخر منك، لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله ": ما افترقت فرقتان إلا كنت فى خيرهما، " وقد فارقناك يا ابن الزبير من بعد قصى بن كلاب. أفنحن فى فرقة الخير أم لا؟ إن قلت نعم خصمت وإن قلت لا. كفرت.. فالرسول صلى الله عليه وآله هو جانب الفخر فى قريش وعنده يكون الشموخ وفيه بكون الطهر. ومكانة الرسول صلى الله عليه وآله منذ نور الله ذرية

آدم مکانة رفیعة فلقد جعله الله فی خیر الفرق وخیر القبائل وخیر البیوت وخیر النفوس. فعن وائلة قال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله: إن الله اصطفی من ولد إبراهیم إسماعیل واصطفی من ولد إسماعیل بنی کنانة واصطفی من کنانة قریشا واصطفی من قریش بنی هاشم واصطفانی من بنی هاشم [" ۱۵] ، لقد سار الفخر علی امتداد التاریخ حتی استقر فی المکان الذی یقف فیه رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم. فمن أراد الفخر فلا یبحث فی محطة قریش وإنما یبحث فی المکان الذی استقر عنده.

[صفحه ۳۰۵]

وبما أن بنی هاشم بیوت وللرسول بیتا فیهم، تم تحدید دائرة فی بنی هاشم وفی هذه الدائرة یوجد الفخر. قال النبی صلی الله علیه وسلم ": إن الله خل الخلق فجعلنی فی خیرهم فرقة. ثم جعلهم بیوتا فجعلنی فی خیرهم بیتا وخیرهم نفسا [" ۱۶] فالدائرة التی نقصدها هی دائرة النفس. أی

الدائرة التی ترتبط بالروح أکثر من ارتباطها بالأرض. وترتبط بالهدف أکثر من ارتباطها بالقبائل. ومقام النفس له معالم وامتداد. وإذا أردنا أنا نضع أیدینا علیه. فلنقرأ قوله تعالی: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءکم ونساءنا ونساءکم وأنفسنا وأنفسکم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله علی الکاذبین) [۱۷] ففی هذه الآیة وردت أحادیث تلقتها الأمة بالقبول. وقال فیها العلماء قولا واحدا هو: إن معنی (أنفسنا وأنفسکم)، رسول الله صلی الله علیه وسلم وعلی بن أبی طالب (وأبناءنا) الحسن والحسین (ونساءنا) فاطمة [۱۸] فالفخر بعد رسول الله تری معالمه فی دائرة النفس والمتدبر فی قول النبی لعلی لاـ یحبک إلا مؤمن ولا یبغضک إلا منافق یتبین ذلک بسهولة ویسر. ولقد قدمنا فیما سبق الأحادیث الصحیحة التی أخبر فیها النبی صلی الله علیه وسلم بأن علیا أصل شجرة الرسول. وإن أولاده هم عترة الرسول. وروی أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": کل بنی آدم ینتمون إلی عصبة إلا ولد فاطمة فأنا ولیهم وأنا عصبتهم [" ۱۹] ، وفی روایة ": إن لکل بنی أب عصبة ینتمون إلیها إلا ولد فاطمة فأنا ولیهم وأنا عصبتهم وهم عترتی خلقوا من طینتی ویل للمکذبین بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله [" ۲۰] ، واستمراریة دائرة النفس وتفضیلها علی غیرها جاء فی حدیث النبی صلی الله علیه وسلم ": نحن خیر من أبنائنا وبنونا خیر من أبنائهم وأبناء بنینا خیر من أبناء

[صفحه ۳۰۶]

أبنائهم [" ۲۱] ، وقوله ": نحن أهل البیت لا یقاس بنا أحد [" ۲۲] .

ومهمة دائرة النفس هی سوق الناس إلی ربهم. ومن صفات أصحاب هذه الدائرة أنهم یقفون علی أرضیة الرسول. أرضیة العبد الکریم. قال رسول الله صلی الله علیه وآله ": إن الله جعلنی عبدا کریما ولم یجعلنی جبارا عنیدا [" ۲۳] ، وقال ": إنا بعثت رحمة ولم أبعث عذابا [" ۲۴] .

ووفقا لما تقدم نقول: إن النبی صلی الله علیه وآله إذا ذم قریشا أو أمر باعتزالها. فإن المقصود بقریش. قریش التی لا یوجد فیها. وإذا أمر بالالتفاف حول قریش فلیس معنی هذا أن نبحث عن نسل عبد مناف ونجری وراء أبناء عبد شمس حدیث أمیة وحرب وأبو سفیان وحیث العاص والحکم ومروان وامتداد طابورهما الطویل. أو نبحث فی أصول العباس التی تنتهی عند الخلیفة المستعصم وإنما علینا أن نبحث أین رسول الله صلی الله علیه وآله. وکما ذم النبی صلی الله علیه وآله قریشا ذم أیضا مضر. کما قدمنا وفی مقابل ذلک قال ": إذا اختلف الناس فالحق فی مضر [" ۲۵] ، ولماذا یکون الحق فی مضر؟ الإجابة: لأن للنبی قدم فی مضر قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم ": إن جبریل أخبرنی أنی رجل من مضر [" ۲۶] ، وإذا کان للرسول امتداد إلی مضر فإن هذا الامتداد ینتهی أیضا إلی أهل البیت. وفروع مضر کان یعلمها الأوائل وهم المخاطبون بهذا الحدیث. والحکمة من وراء هذا جمع القبائل عند نقطة واحدة. وبیان أن الانتساب إلی القبائلیة والشعوبیة فی الماضی الغابر لا جدوی من ورائه. فالإنسان لا قیمة له إلا الحق والالتفاف حول الحق. وبعد ذلک کله یمکن أن نفهم حدیث النبی صلی الله علیه وسلم ": الناس تبع لقریش صالحهم تبع لصالحهم

[صفحه ۳۰۷]

وشرارهم تبع لشرارهم [" ۲۷] ، ويمكن أن تفهم قوله ": يـا أيهـا الناس لا تعلموا قريشا وتعلموا منها فإنهم أعلم منكم [" ۲۸] ، ألم تر فيما قدمنا إنهم كانوا يضـربون كتاب الله بعضه ببعض ويتأولونه فى غير موضـعه. فمن منهم الأعلم والراسخ فى العلم؟ ويمكن أيضا أن نعلم موضع الإمامة فى حديث مسـلم الذى رواه جابر بن سمرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضـى فيهم اثنا عشـر خليفة - " وفى لفظ - لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا - وفى لفظ - لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثنى عشـر خليفة - وفى لفظ - لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثنى عشر خليفة، " ثم قال جابر بن سمرة بعد أن سمع ذلك من رسول الله: "ثم تكلم النبى بكلام خفى على - " وفى لفـظ - ثم قـال كلمـة لم أفهمها - وفى لفظ - ثم تكلم بشـئ لم أفهمه قال جابر ": فقلت لأبى: ما قال؟ فقال: كلهم من قريش [" ۲۹] .

والخلاصـة أن الإمامـة تصـيب الـذين يعلمون الـذين يهدون إلى الحق، قال تعالى: (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى) [۳۰] ، وإن القول بالأئمـة من قريش قول فضـفاض أريـد به إخراج آل محمد من الإمامة. ثم إن هذا القول لم يظهر فى السـقيفة وإنما ظهر بعدها أثناء المواجهة بين المهاجرين وبين الأنصار. ومن العجيب أن الذى روج له فى بداية الأمر عكرمة بن أبى جهل وسـهيل بن عمرو ثم جاء من بعدهما عمرو بن العاص ومعاوية وغيرهما. ومن الأعجب أن الواحدى فى كتابه المسمى بأسباب النزول ذكر فى قوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر)، إنها نزلت فى سـهيل بن عمرو وعكرمة وأبى سفيان، وروى عن الإمام على وحذيفة: أن أهل هذه الآية لم يقاتلوا بعد. وكما علمنا أن

[صفحه ۳۰۸]

هؤلاء كانوا يعلمون من يوم الحديبيـة أن لهم يوما سـيواجه طابورهم فيه خاصف النعل وعلى هذا وذاك لا نسـتبعد أن يكون الحديث على هذه الصورة وكان عن عمير.

[صفحه ۳۰۹]

ثانيا - دائرة الرأى بعد السـقيفة فتحت أولى صـفحات دائرة الرأى. وهى دائرة تقوم على الشهادتين وعلى احترام شعائر الدين. لكنها لا تعرف السـلطة الدينيـة ولا تعترف بها ولا تحبـذ الالتزام بالمثاليات الدينيـة والنواحى الإداريـة والسياسـية وكان همها الأكبر قوة الـدولة واسـتقرارها... وذلك لأن الحكم فى دائرة الرأى أساسه رضا الناس واختيارهم فالأمـة عنـده هى الأصل. وكما بينا من قبل أن أحـداث السـقيفة - فى رأينا - جاءت بعد أن تبين كبار الصـحابة ما يحيط بالدعوة من مكائد وإن العرب لا تطيع عليا. ومن السـقيفة خرج نظام الخلافة. والخلافة ليست نظاما إلهيا نبويا. فهى جاءت على قاعدة اختيار الصحابة. والاختيار ليس دينا بأى حال. ونحن إذا أخذنا خطوة إلى الإمام واسـتبقنا الأحداث نجد أن الخلافة تحولت فيما بعد إلى ملك وجبرية فإذا بحثنا عن الأسباب وجدنا أن كبار الصحابة الذى خافوا على الإسـلام من أعدائه يوم السـقيفة. أقاموا حصونهم على حدود من الرمال الناعمة. فلم تتمكن الحصون من التغلب على طبيعة الموروث العشـائرى عنـد العرب ولا عن الموروث الكيـدى عنـد كفـار أهل الكتاب وغيرهم. فبعـد فترة تعاون الموروث العشائرى مع الموروث الكيـدى فى مقاومـة نظـام الخلافـة. قامت دوائر النفاق بالنخر فى الجـدار ثم بالإغارة عليه وفى النهايـة تركاه صـريعا تسـفعه الرياح بعد أن انزلقت حصونه المشيدة على حافة الرمال - وفى أعماق الشقوق رفعت أعلام

[صفحه ۳۱۰]

الملك والجبرية وحولها وقف علماؤهم لإرساء قواعد الاسـتبداد. فقالوا بفصل الدين عن السـياسة بحجة أن العمل السياسى ليس عملا دينيا لكنه فعل بشـرى يحتمل الخطأ والصواب ويمكن نقضه أو نقده أو العدول عنه. وتحت هذه الحجة ارتكبت أفظع الجرائم فى حق المسـلمين ولم يسـتطع أحد أن ينقض أو ينقد لأن الفعل البشـرى تحت قبة الجبروت لا يمكن نقده أو العدول عنه. ونتيجة لهذا برزت مشكلة أساسية ألا وهى اجتراء المسلمين على السلطة وخروجهم عليها باسم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تارة. وطمعا فى الحكم تارة أخرى. لقد كانت البداية حصون على الرمال. وكانت الخاتمة شقوق ودهاليز تحت سطح الأرض. وبين هذا وذاك ترى الأحداث

التی أدت إلی الخسف.

[۱] رواه البخاری فی مناقب قریش (الصحیح ۲۶۵ / /).

[۲] فتح الباری ۱۱۸:۱۳.

[۳] الطبری ۳۴:۵.

[۴] الإستبصار فی معرفة الأنصار ص ۲۹۶.

[۵] فتح الباری ۱۱:۱۳ کتاب الفتن.

[۶] مروج الذهب / المسعودی ۲۷۶:۲.

[۷] رواه البخاری ک بدء الخلق ب علامات النبوة (الصحیح ۲۸۰:۲) مسلم ک الفتن (الصحیح ۴۱:۱۸) أحمد (الفتح الربانی ۳۹:۲۳).

[۸] رواه البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک بدء الخلق ب علامات النبوة.

[۹] البخاری (۲۸۰:۲) مسلم کتاب الفتن (۴۱:۱۸) أحمد (الفتح ۳۹:۲۳).

[۱۰] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۲۴۸:۵).

[۱۱] رواه الطبرانی (الزوائد ۲۳۶:۷).

[۱۲] البخاری لا الأحکام (الصحیح ۲۳۰:۴) وأحمد والنسائی وابن ماجة والطبرانی (الفتح الربانی ۱۸۹:۲۳).

[۱۳] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والبزار وأحد أسانید أحمد وأحد أسانید البزار رجاله رجال الصحیح (الفتح ۲۴۰:۲۳).

[۱۴] رواه أحمد (الفتاح ۲۴۰:۲۳).

[۱۵] رواه مسلم ک الفضائل (الصحیح ۳۶:۱۵) والترمذی وصححه (الجامع ۵۸۳:۵).

[۱۶] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵۸۴:۵) وأحمد (الفتح الربانی ۲۶۶:۲۱).

[۱۷] سورة آل عمران: الآیة ۶۱.

[۱۸] تفسیر ابن کثیر ۳۵۱:۱.

[۱۹] رواه الطبرانی عن فاطمة (کنز العمال ۱۱۶:۱۲).

[۲۰] رواه ابن عساکر والحاکم عن جابر (کنز ۹۸:۱۲).

[۲۱] رواه الطبرانی عن معاذ (کنز ۱۰۴:۱۲).

[۲۲] رواه الدیلمی (کنز ۱۰۴:۱۲).

[۲۳] رواه الترمذی (کنز ۴۲۶:۱۱).

[۲۴] رواه البخاری فی التاریخ (کنز ۴۲۶:۱۱).

[۲۵] رواه ابن أبی شیبة والطبرانی (کنز ۵۹:۱۲).

[۲۶] ابن سعد (الطبقات ۵۹:۲).

[۲۷] رواه أحمد وقال فی الفتح، قال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۲۶:۲۴) ورواه البخاری بلفظ آخر (الصحیح ۲۶۴:۲)، ومسلم (الصحیح ۲:۶ ط کتاب التحریر).

[۲۸] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۶۳۶:۲) وقال فی فتح الباری: أخرجه البیهقی والطبرانی والشافعی (فتح الباری ۱۱۸:۱۳).

[۲۹] رواه مسلم کتاب الإمارة (الصحیح ۳:۶ ط کتاب التحریر).

[۳۰] سورة یونس: الآیة ۳۵.

من معالم الرأی

إذا أردنا أن ننسب الرأی إلی أصوله فسنجد أن أهم أصوله عمر بن الخطاب. فقد کانت شخصیته من أبرز شخصیات الصحابة فی هذا الباب یقول الدکتور عبد الحمیدة متولی: لم یقتصر عمر فحسب علی الاجتهاد أو استعمال الرأی حیث لا نص من کتاب أو سنة إنما ذهب إلی مدی أبعد من ذلک. إذ کان یعمد إلی الاجتهاد أو بعبارة أخری. استعمال الرأی لیبحث عن وجهة العدالة أو المصلحة حتی رغم وجود نص من الکتاب أو السنة. فکان لذلک لا یفسر النص طبقا لحرفیته. وإنما یفسره طبقا لحکمته ولو أدی هذا التفسیر إلی عدم تطبیق النص [۱] ، فمثلا- قال تعالی: (إنما الصدقات للفقراء والمساکین والعاملین علیها والمؤلفة قلوبهم)، لقد رأی عمر أن الحکمة التی أدت إلی تقریب ذلک الحکم الشرعی قد زالت. والأمثلة فی هذا الباب کثیرة [۲] ، وکثیر من الصحابة کما ذکر الإمام محمد عبده " کانوا إذا رأوا المصلحة فی شئ یحکمون به وإن خالف

[صفحه ۳۱۱]

السنة. کأنهم یرون أن الأصل هو الأخذ بما فیه المصلحة لا بجزئیات الأحکام وفروعها [۳] ، ویقول الشیخ عبد الوهاب خلاف: وکانوا إذا لم یجدوا نصا فی القرآن والسنة یدل علی حکم ما عرض لهم من الوقائع استنبطوا حکمه. وکانوا فی اجتهادهم یعتمدون علی ملکتهم التشریعیة التی تکونت لهم من مشافهة الرسول، ووقوفهم علی أسرار التشریع ومبادئه العامة. فتارة کانوا یقیسون ما لا نص فیه علی ما فیه نص. وتارة کانوا یشرعون ما تقضی به المصلحة أو دفع المفسدة. ولم یتقیدوا بقیود فی المصلحة الواجب مراعاتها. وبهذا کان اجتهادهم فیما لا نص فیه فسیحا مجاله وفیه متسع لحاجات الناس ومصالحهم [۴] .

کانت هذه بدایة الرأی. فما هی محطة النهایة؟ یقول الشیخ عبد الوهاب خلاف: فی عهد الصحابة لما تعدد رجال التشریع منهم وقع بینهم اختلاف فی بعض الأحکام وصدرت عنهم فی الواقعة الواحدة فتاوی مختلفة وإن هذا الاختلاف کان لا بد أن یقع بینهم لأن فهم المراد من النصوص یختلف باختلاف العقول ووجهات النظر ولأن السنة لم یکن علمهم بها وحفظهم لها علی السواء وربما وقف بعضهم منها علی ما لا یقف علیه الآخر لأن المصالح التی تستنبط لأجلها الأحکام یختلف تقدیرها باختلاف البیئات التی یعیش فیها رجال التشریع. فلهذه الأسباب اختلفت فتاویهم وأحکامهم فی بعض الوقائع والأقضیة... ولما آلت السلطة التشریعیة فی القرن الثانی الهجری إلی طبقة الأئمة المجتهدین اتسعت مسافة الخلاف بین رجال التشریع ولم تقف أسباب اختلافهم عند الأسباب الثلاثة التی بنی علیها اختلاف الصحابة بل جاوزتها إلی أسباب تتصل بمصادر التشریع وبالنزعة التشریعیة وبالمبادئ اللغویة التی تطبق فی فهم النصوص. وبهذا لم یکن اختلافهم فی الفتاوی والفروع فقط بل کان اختلاف أیضا فی أسس التشریع وخططه وصار لکل فریق منهم مذهب خاص یتکون من أحکام فرعیة استنبطت بخطة تشریعیة

[صفحه ۳۱۲]

خاصة [۵] ثم جاء عهد التقلید الذی بدأ من منتصف القرن الرابع الهجری بالتقریب. حین طرأت علی المسلمین عدة عوامل سیاسیة وعقلیة وخلقیة واجتماعیة أثرت فی کل مظهر من مظاهر نهوضهم وأحالت نشاطهم التشریعی إلی فتور ووقفت حرکة الاجتهاد والتقنین وأماتت فی العلماء روح الاستقلال الفکری فلم یردوا المعین الذی لا ینضب ماؤه وهو القرآن والسنة بل راضوا أنفسهم علی التقلید ورضوا أن یکونوا عالة علی فقه الأئمة السابقین أبی حنیفة ومالک والشافعی وأحمد وأقرانهم. وحصروا عقولهم فی دوائر محدودة من فروع مذاهب هؤلاء الأئمة وأصولها وحرموا علی أنفسهم أن یخرجوا عن حدودها وبذلوا جهودهم فی ألفاظ أئمتهم وعباراتهم لا- فی نصوص الشارع ومبادئه العامة. وبلغ من کونهم إلی أقوال أئمتهم أن قال أبو الحسن الکرخی من علماء الحنفیة: ککل آیة أو حدیث یخالف ما علیه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ، " ثم یقول

الشیخ خلاف عن أسباب وقوف حرکة الاجتهاد: أهم العوامل التی أدت إلی هذا الوقوف والتزام تقلید السابقین أربعة: أولا - انقسام الدولة الإسلامیة إلی عدة ممالک یتناحر ملوکها وولاتها وأفرادها. فهذا الانقسام شغل ولاة الأمور بالحروب والفتن واتقاء المکاید وتدابیر وسائل القهر والغلبة وشغل الناس معهم فدب الانحلال العام وکان لهذا الانحلال أثره فی وقوف حرکة التشریع. ثانیا - أنه لما انقسم الأئمة المجتهدون فی العهد الثالث إلی أحزاب وصار لکل حزب مدرسة تشریعیة بها نزعتها وخطتها. عنی تلامیذ کل مدرسة أو أعضاء کل حزب بالانتصار لمذهبهم وتأیید أصوله وفروعه بکل الوسائل والإشادة بزعمائهم ورؤسائهم. فانشغل علماء المذاهب بهذه الأمور وانصرفوا عن الأساس التشریعی الأول وهو القرآن والسنة. وبهذا فنیت شخصیة العالم فی حزبیته. وصار الخاصة کالعامة أتباعا مقلدین.

[صفحه ۳۱۳]

ثالثا - أنه لما أهمل المسلمون تنظیم السلطة التشریعیة ولم یضعوا نظاما کفیلا- بأن لا- یجترئ علی الاجتهاد إلا من هو أهل دبت الفوضی فی التشریع والاجتهاد وادعی الاجتهاد من لیس أهلا له وتصدی لإفتاء المسلمین جهال عبثوا بنصوص الشریعة وبحقوق الناس ومصالحهم. وبهذا تعددت الفتاوی وتباینت وتبع هذا تعدد الأحکام فی الأقضیة حتی کان القضاء یختلف فی الحادث الواحد فی البلد الواحد فتستحل دماء وأموال فی ناحیة من نواحی المدینة وتستباح فی ناحیة أخری منها وکل ذلک نافذ فی المسلمین وکله یعتبر من أحکام الشریعة. فلما فزع من هؤلاء العلماء حکموا فی أواخر القرن الرابع بسد باب الاجتهاد وتقید المفتین والقضاة بأحکام الأئمة السابقین فعالجوا الفوضی بالجمود. رابعا - إن العلماء فشت فیهم أمراض خلقیة حالت بینهم وبین السمو إلی مرتبة الاجتهاد فلقد فشا بینهم التحاسد والأنانیة... فماتت روح النبوغ. وضعفت ثقة العلماء بأنفسهم وثقة الناس بهم فولوا وجههم مذاهب الأئمة السابقین [۶] .

لقد کانت البدایة البحث عن المصلحة. فجاء الخلاف وانقسام الدولة الإسلامیة وتناحر ملوکها وولاتها. ثم تجرأ علی الفتوی اتباع الدوائر المختلفة الذین عبثوا بنصوص الشریعة وبحقوق الناس ومصالحهم وضرب التحاسد والأنانیة وجوه العدید من العلماء. وعندما جف الوقود الذی یدفع بأصحابه نحو المستقبل ولوا وجوههم نحو الخلف حیث مذاهب السابقین. وإذا کان الأوائل قد اختلفوا فی الفتوی نظرا لاختلاف البیئة. فإن الاختلاف من بعدهم أوسع لأن البیئة الواحدة تمزقت إلی ألف بیئة ومعطیات العصر ألقت بآلاف المسائل، فبماذا یجدی النظر إلی الخلف لحل مشکلات الحاضر؟ ألا یفتح ذلک الباب للدخول فی سنین الأولین. وخصوصا أن عندهم من المصالح ما لا یخفی علی أحد وما یغری العامة والخاصة علی تقلیدهم واتباعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع.

[صفحه ۳۱۴]

والخلاصة: أن البحث عن المصلحة مطلب فطری. ولکن کلما کان الباحث عن المصلحة لا مصلحة له فیما یبحث - بمعنی أن یکون لا مطمع له فی مال أو جاه أو غیر ذلک نظیر فتواه - أصابت فتواه دائرة الفطرة. وأیضا کلما کان الباحث عن المصلحة عالما بالکتاب الذی لا یمسه إلا المطهرون وبالسنة التی یشهد لها الکتاب. ساقت فتواه الناس إلی صراط الله الذی لا اختلاف فیه. فإذا لم یتوفر الطهر والعلم والعدل فی الباحث عن مصالح الناس. کان الناس من سنن الأولین أقرب.

[۱] أزمة الفکر السیاسی الإسلامی / د عبد الحمید متولی، تقدیم الدکتور عبد الحلیم محمود شیخ الأزهر ص ۱۲۱.

[۲] سیأتی ذکر ذلک فی موضعه.

[۳] المنار / محمد رشید رضا ۴:۳۱۰.

[۴] خلاصة تاریخ التشریع الإسلامی / خلاف ص ۴۰.

[۵] المصدر السابق ۷۲.

[۶] المصدر السابق ص ۹۶ - ۹۹.

نظرات علی فدک

فدک قرية تبع عن المدينة مسافة يومين أو ثلاثة. أرضها زراعية خصبة.

فيها عين فوارة ونخيل كثيرة [۱] يقدر نخيلها بنخيل الكوفة فى القرن السادس الهجرى [۲] ، وكان جماعة من اليهود يسكنون فدک ويستثمرونها حتى السنة السابعة للهجرة. فلما حارب النبى صلى الله عليه وآله وسلم يهود خيبر لنقضهم العهد بينهم وبين رسول الله وفتح حصونهم وبقى حصنان أو ثلاثة منها لم تفتح حاصرهم الرسول صلى الله عليه وآله. فلما اشتد بهم الحصار راسل أهلها رسول الله على أن يؤمنهم على حياتهم وينزلوا له عن حصونهم وأرضهم. فقبل النبى صلى الله عليه وآله بعرضهم هذا. وما حدث يوم خيبر أرعب أهل فدک. ولكن اتفاقية أهل الحصون المحاصرة مع النبى صلى الله عليه وآله فتحت أمام أهل فدک بابا للأمل. فلما جاءهم رسول النبى صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم إلى الإسلام أبوا أن يسلموا ولكنهم استعدوا أن يقدموا نصف أرضهم للنبى مع الاحتفاظ لأنفسهم بالنصف الآخر على أن يعملوا فى أرضهم وأرض رسول الله. ومتى شاء النبى أن يجليهم عن أرضهم فعل شريطة أن يعوضهم عن أتعابهم وأرضهم فصارت فدک ملكا لرسول الله بنص القرآن الكريم

[صفحه ۳۱۵]

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير) [۳] ، قال المفسرون: كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا- إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا- ركاب. أى لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله صلى الله عليه وآله. فأفاءه الله على رسوله. أى خصه به وملكه وحده إياه يتصرف فيه كما يشاء. فلما نزل قوله تعالى: (وآت ذا القربى حقه) [۴] ، أعطى النبى صلى الله عليه وآله فدكا لفاطمة. روى أبو سعيد الخدرى أنه لما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وآله أعطى فاطمة فدكا وسلمه إليها [۵] وبقى الأمر هكذا حتى توفى النبى صلى الله عليه وسلم. وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وضعت الدولة اليد على فدک وانتزعتها من يد الزهراء، ومن هنا بدأ نزاع فاطمة رضى الله عنها وبين أبى بكر، روى البخارى عن عائشة أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أن يقسم لها ميراثها مما ترک رسول الله مما أفاء الله عليه. فقال لها أبو بكر: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال، لا- نورث ما تركناه صدقة. فغضبت فاطمة فهجرت أبا بكر فلم نزل مهاجرته حتى توفيت. وعاشت بعد رسول الله ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترک رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر وفدک وصدقته بالمدينة فأبى أبو بكر عليها ذلک.... وروى أن عليا عندما سمع قول أبى بكر بأن الرسول قال: لا نورث وما

[صفحه ۳۱۶]

تركناه صدقة، قال على: ورث سليمان داوود وقال زكريا: (يرثنى ويرث من آل يعقوب...) هذا كتاب الله ينطق. وروى أن فاطمة نازعت فى سهم ذى القربى الذى نص القرآن عليه. وكانت الدولة قد وضعت يدها عليه. روى الإمام أحمد لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت فاطمة إلى أبى بكر: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أهله؟ فقال: لا- بل أهله، قالت: فأين سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، فقال: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ": إن الله عز وجل إذا أطعم نبيا طعمة ثم قبضه الله جعله للذى يقوم من بعده فرأيت أن أرده على المسلمين [" ۶] ، وفى رواية عند ابن سعد قالت: فسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جعله لنا وصافيتنا التى بيدک، فقال: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: إنما هى طعمة أطعمنيها الله فإذا مت كانت بيد المسلمين [" ۷] ، وإذا كان من العجيب أن يترک النبى صلى الله عليه وسلم عترته دون أن يبين لهم حقيقة ميراثه فإن الأعجب أنه لم يبين لنسائه أيضا. روى البخارى عن عائشة قالت: أرسل أزواج النبى صلى الله عليه وآله عثمان إلى أبى بكر يسألنه ثمنهن مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم. قالت عائشة: فكنت أنا أردهن فقلت لهن: ألا تتقين الله. ألم تعلمن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": لا نورث وما تركناه صدقة فانتهين أزواج النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما أخبرتهن [" ۸] .

مما سبق نرى أن الزهراء طالبت بنحلتها وبالإرث وبسهم ذى القربى - ولكن أبا بكر أبى عليها وتوفيت رضى الله عنها بعد وفاة النبى بستة أشهر. وفى عهد عمر بن الخطاب. ذهب على والعباس ينازعان فى الميراث وكان فى مجلس عمر يومئذ عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد. فقال لهم عمر: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ": لا نورث ما تركناه صدقة، "

[صفحه ۳۱۷]

قالوا: نعم، قال عمر: إن الله جل وعز كان خص رسوله بخاصة لم يخصص بها أحدا غيره قال ": ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول، " فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بنى النضير فوالله ما استأثر عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقى هذا المال فكان رسول الله يأخذ منه نفقة سنة ثم يجعل ما بقى أسوة المال. أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم نشد عباسا وعليا بمثل ما نشد به القوم. أتعلمان ذلك؟ قالا: نعم، قال: فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو بكر: أنا ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجئت تطلب ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها. فقال أبو بكر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نورث ما تركناه صدقة. فرأيتماه كاذبا آثما غادرا خائنا والله يعلم أنه لصادق بار راشد تابع للحق. ثم توفى أبو بكر. وأنا ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبى بكر فرأيتمانى كاذب آثما غادرا خائنا. والله يعلم أنى لصادق بار راشد تابع للحق فوليتها، ثم جئتنى أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فقلتما ادفعها إلينا [۹] .

ولنا تعليق على هذه الروايات وفى البداية نقول: إن حديث " لا نورث " لم يرويه إلا أبو بكر وحده. ذكر ذلك أعظم المحدثين حتى أن الفقهاء فى أصول الفقه أطبقوا على ذلك فى احتجاجهم فى الخبر برواية الصحابى الواحد. وفى الحديث السابق استشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعدا فقالوا: سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأين كانت هذه الروايات أيام أبى بكر. ما نقل أن أحدا من هؤلاء يوم خصومة الزهراء وأبى بكر روى من هذا شيئا. وفى الحديث السابق أيضا جاء على والعباس إلى عمر يطلبان الميراث. وقد كان أبو بكر قد حسم هذا كله فى عهد وقرر أمام أزواج النبى وأمام على والعباس وفاطمة وعمر حيث كان من المساعدين له. أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يورث. فكيف يعود العباس وعلى بعد وفاة أبى بكر يحاولان أمرا قد

[صفحه ۳۱۸]

فرغ منه. اللهم إلا أن يكونا ظنا أن عمر ينقض قضاء أبو بكر فى هذه المسألة. وهذا بعيد لأن عليا والعباس كانا فى هذه المسألة يتهمان عمر بممالاة أبى بكر على ذلك. ألا تراه يصرح بأنهما نسباه إلى الكذب والغدر والخيانة فكيف يظنان أنه ينقض قضاء أبى بكر؟! ثم إن قول عمر لعلى والعباس عن أبى بكر: فرأيتماه كاذبا آثما غادرا خائنا. ثم قال لما ذكر نفسه: فرأيتمانى كاذبا آثما غادرا خائنا. فإذا كانا يزعمان ذلك. فكيف يزعم هذا الزعم مع كونهما يعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ": لا- أورث " قال ابن أبى الحديد: إن هذا لمن أعجب العجائب ولولا أن هذا الحديث مذكور فى الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه. إذ لو كان غير مذكور فى الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن فى صحته. وإنما الحديث فى الصحاح لا ريب فى ذلك. وورد أيضا أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلوا عثمان إلى أبى بكر يسألنه ثمنهن. ولقد ذكرنا الرواية فى ذلك.. ثم وجدنا عثمان فى مجلس عمر بعد ذلك وعمر يقول: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نورث ما تركناه صدقة. قالوا: نعم، ومن جملة الذين أجابوا عثمان. فكيف يعلم بذلك فيكون مترسلا لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسأله أن يعطيهن الميراث. وروى أيضا أن عمر قال لعلى والعباس: أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العباس وفاطمة إلى أبى بكر يطلبان الميراث على ما ذكر. وهل يجوز أن يقال: كان العباس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الذى لا يستحقه؟ وهل يجوز أن يقال: أن عليا كان يعلم ذلك ويمكن زوجته أن تطلب ما لا تستحقه. خرجت من دارها إلى المسجد ونازعت أبا بكر وكلمته بما كلمته إلا بقوله وإذنه ورأيه [۱۰] .

وإذا تم التسليم بأن النبى لا يورث. فكيف نسلم بأن النبى صلى الله عليه

[صفحه ۳۱۹]

وسلم وهو الذى أنزل عليه قوله تعالى: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين) [۱۱] ، وقوله: (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)، إلى قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم - ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) [۱۲] ، والآيات هنا عامة يدخل فيها النبى صلى الله عليه وسلم وغيره. بدليل أن الآية لم تستثن أحدا. كيف نسلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكتب وصيته ويقول فيها ": لا نورث. " وكيف يبين النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحكم لغير الأقربين ويكتمه عن الأقربين وهم ورثته. وكيف يظل على والعباس وفاطمة على كلمة واحدة يكذبون رواية نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ويقولون أنها مختلفة. بينما يزعم عمرو وأبو بكر أن عليا والعباس فى قصة الميراث زعما هما كاذبين ظالمين فاجرين. وما رأينا عليا والعباس اعتذرا ولا تنصلا ولا رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكروا عليه ما حكاه عمر عنهما ونسبه إليهما [۱۳] إن هذا التضارب فتح الأبواب

للقيل والقال. ومما قيل: قيل لرجل من قرية تسمى الحلة بين الكوفة والبصرة: ما تظن قصد أبى بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟ ما قصدا؟ قال: أرادا ألا يظهرا لعلى - بعد السقيفة - رقة ولينا وخذلانا ولا يرى عندهما خورا. فأتبعاه القرح بالقرح. وقيل لآخر من بلدة تسمى بليدة فى سواد الكوفة: وهل كانت فدك إلا نخيلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير؟ فقال: ليس الأمر كذلك بل كانت جليلة جدا وكان فيها من النخل ما بالكوفة الآن من النخل. وما قصد أبو بكر وعمر

[صفحه ۳۲۰]

بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوى على بن أبى طالب بحاصلها وغلتها على المنازعة فى الخلافة. ولهذا اتبعا ذلك بمنع فاطمة وسائر بنى هاشم وبنى المطلب حقهم فى الخمس. فإن الفقير الذى لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه. ويكون مشغولا بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرياسة. وهكذا ضاعت فدك. وضاع سهم ذى القربى الذى نص عليه كتاب الله روى أبو داوود أن نجدة الحرورى حين حج فى أيام ابن الزبير. أرسل إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذى القربى ويقول لمن تراه؟ قال ابن عباس: لقربى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليه وأبينا أن نقلبه [۱۴] .

وترتب على ذلك فيما بعد اختلاف العلماء فى الغنائم وكيف توزع [۱۵] ، واختلفوا فى الفئ والخمس [۱۶] إلى غير ذلك وجميع هذه الاختلافات أصلها مصادرة الدولة لنحلة الرسول وإرثة وسهم ذى القربى، وهذه الاختلافات ولدت فيما بعد الاختلاف الأعظم فى معرفة أهل البيت. وخصوصا عندما أمر عمر بن الخطاب بعدم رواية الحديث. فعندئذ اختلف عامة المسلمين فى أهل البيت. فمن عاكف عليهم هائم بهم ومن معرض عنهم لا يعبأ بأمرهم ومكانتهم من علم القرآن. أو مبغض شانئ لهم. وقد وصاهم النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يرتاب فى صحته ودلالته مسلم أن يتعلموا منهم ولا يعلموهم وهم أعلم منهم بكتاب الله. وذكر لهم أنهم لن يغلطوا فى تفسيره ولن يخطئوا فى فهمه - ولكن الوصايا لم تذاع وفقا للمصلحة العامة. حيث كان العديد من الدوائر يتربص بالإسلام والمسلمين. وإن أردت العجب فلك أن تعجب إذا علمت أن مصير فدك بعد سنوات قليلة من منعها عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء - قد

[صفحه ۳۲۱]

أصبح فى جعبة مروان بن الحكم الذى لعن الرسول أباه وهو فى صلبه. قال فى الفتح الربانى: فلما كان عهد عثمان. تصرف فى فدك بحسب ما رأى فأقطعها لمروان. لأنه تأول أن الذى يختص به النبى صلى الله عليه وسلم يكون للخليفة بعده فوصل بها بعض أقاربه [۱۷] ، إنها التركة التى لغير وارث ومن العجيب أن الحكام فيما بعد كانوا يعتبرون التركة من غير وارث ليستولوا عليها. روى أنه فى القرن الثالث الهجرى أنشئ ديوان خاص يسمى ديوان المواريث وذلك فى عهد الخليفة المعتمد (۲۵۶ - ۲۷۹ ه)، وكان هذا الديوان مجالا واسعا لظلم الناس والإعنات فى مواريثهم وأخذ ما لم تجز به السنة [۱۸] يقول ابن المعتز قرب

أواخر القرن الثالث يشكو ما يجرى على أصحاب المواريث.

وويل لمن مات أبوه موسرا++

أليس هذا محكما شهرا

وطال فى دار البلاء سجنه++

وقيل من يدرى بأنك ابنه

فقال: جيرانى ومن يعرفنى++

فنتفوا سباله حتى فنى

واسرفوا فى لكمه ودفعه++

وانطلقت أكفهم فى صفعه

ولم يزل فى ضيق الحبوس++

حتى رمى لهم بالكيس [۱۹].

وكان سيف الدولة يأخذ المواريث أخذا رسميا ففى عام (۳۳۳ ه) عين ابن عبد الملك الرقى قاضيا على حلب فكان هذا القاضى يصادر التركات ويقول: التركة لسيف الدولة. وليس لى إلا أخذ الجعالة وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارث ليستولوا عليها [۲۰]، ونعود إلى حيث ابتدأنا فنقول: إن فاطمة الزهراء كانت مصيبة فيما ادعته. ولم تكن فاطمة فى حاجة إلى شهادة وبينة. لأنها بنص الآية: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، معصومة. والآية تناولت جماعة منهم فاطمة بما تواترت الأخبار فى ذلك. وهى أيضا بنص الحديث " فاطمة بضعة منى من آذاها فقد

[صفحه ۳۲۲]

آذانى ومن آذانى فقد آذى الله عز وجل " معصومة. لأنها لو كانت ممن تقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذيا له على كل حال. بل إن إقامة الحد عليها إن كان صدر منها فعل يقتضى ذلك أيكون سارا له ومطيعا. ولأنها بعيدة عن كل هذا كان من آذاها فقد آذاه ولا خلاف بين المسلمين فى صدقها فيما ادعته. لأن أحدا لا يشك أنها تدعى ما ادعته كاذبة، وليس بعد: لا تكون كاذبة إلا أن تكون صادقة. ولقد قال البعض عن الفعل الأصح الذى كان يجب أن يكون: قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرم مما ارتكبا منها فضلا عن الدين وقال ابن أبى الحديد فى تعليقه على هذا القول المفيد: وهذا الكلام لا جواب عنه. ولقد كان التكرم ورعاية حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظ عهده يقتضى أن تعوض ابنته بشئ يرضيها. إن لم يستنزل المسلمون عن فدك وتسلم إليها تطييبا لقلبها. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه. وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

[۱] معجم البلدان للحموى مادة فدك.

[۲] ابن أبى الحديد ۱۶:۲۳۶ – ط الحلبى.

[۳] سورة الحشر: الآية ۶.

[۴] سورة الإسراء: الآية ۲۶ والآيات ۲۶، ۳۲، ۳۳، ۵۷، ومن الآية ۷۳، إلى الآية ۸۱ مدنية.

[۵] رواه البزار وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد (الدر المنثور ۴:۱۷۷) (الزوائد ۷:۴۹) (كنز العمال) وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس (الدر المنثور ۴:۱۷۷).

[۶] رواه أحمد وإسناده صحيح (الفتح ۲۳:۶۳).

[۷] الطبقات الكبرى (۲:۳۱۴).

[۸] البخاری ک المغازی ب حدیث ابن النضیر (۱۷:۳) ومسلم (۱۵۳:۵) ط دار التحریر.

[۹] مسلم (۱۵۲:۵) ط دار التحریر فی البخاری (۱۷:۳).

[۱۰] سورة البقرة: الآیة ۱۸۰.

[۱۱] قال فی تحفة الأحوازی: وحتی الاستشکال أن أصل القصة صریح فی أن العباس وعلیا قد علما بأنه صلی الله علیه وآله قال: لا نورث. فإن کان سمعاه من النبی فکیف یطلبانه من أبی بکر أو فی زمنه فکیف یطلبانه بعد ذلک من عمر (تحفة الأحوازی ۲۳۵:۵).

[۱۲] سورة النساء ۱۱ - ۱۴.

[۱۳] قال السندی فی شرح البخاری: کی یجئ منهما تکذیب أبی بکر فیما روی عن النبی أنه صدیق هذه الأمة (البخاری شرح السندی ۱۶:۳).

[۱۴] سنن أبو داوود، حدیث رقم ۲۹۸۲.

[۱۵] تحفة الأحوازی ۲۲۳:۵.

[۱۶] تحفة الأحوازی ۳۸۳:۵.

[۱۷] الفتح الربانی ۲۶۳:۲۱.

[۱۸] الحضارة الإسلامیة / آدم متز ۲۱۷:۱.

[۱۹] المصدر السابق ۲۱۷:۱.

[۲۰] المصدر السابق ۲۱۸:۱.

تساؤلات علی الطریق

إذا تحدثنا عن الزهراء نجد أنفسنا أمام أسئلة حائرة تبحث لها عن أجوبة.

من هذه الأسئلة: هل بایعت فاطمة الزهراء أبا بکر؟ والإجابة التی نجدها فی البخاری وغیره من حدیث عائشة عندما أبی أبو بکر أن یعطی فاطمة ما سألت: أن فاطمة غضبت وهجرت أبا بکر فلم تول مهاجرته حتی توفیت. وعند البخاری: أن علیا دفنها ولم یخبر أبو بکر بموتها [۱] وعلی هذه الإجابة نقول:

کیف یستقیم موقف الزهراء مع الحدیث الصحیح ": من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات میتة جاهلیة [" ۲] ، وحدیث ": من خرج من السلطان شبرا مات

[صفحه ۳۲۳]

میتة جاهلیة [" ۳] ، هل کانت الزهراء مفارقة للجماعة؟ کیف؟ وبخصوص علی بن أبی طالب. فلقد روی البخاری ومسلم " کان لعلی بن الناس وجهه حیاة فاطمة. فلما توفیت استنکر علی وجوه الناس فالتمس مصالحة أبی بکر ومبایعته ولم یکن بایع تلک الأشهر فأرسل إلی أبی بکر أن ائتنا ولا یأتنا معک أحد کراهیة محضر عمر بن الخطاب. فقال عمر لأبی بکر: والله لا تدخل علیهم وحدک! فقال أبو بکر، وما عساهم أن یفعلوا بی وإنی والله لآتینهم فدخل علیهم أبو بکر [" ۴] ، قال المفسرون: إنه کان لعلی من الناس وجه حیاة فاطمة. أی وجه وإقبال فی مدة حیاتها. وقیل: وجه من الناس حیاة فاطمة أی جاه وعز فقدهما بعدها. وبعد وفاة فاطمة استنکر علی وجوه الناس أی لم یعجبه نظرهم إلیه. فأرسل إلی أبی بکر أن ائتنا ولا یأتنا معک أحد قال المفسرون: أی لئلا یحضر معه من یکره حضوره وهو عمر بن الخطاب لما علم من شدته وصدعه بما یظهر له فخاف هو ومن معه ممن تخلف عن البیعة أن ینتصر عمر لأبی بکر فیصدر عنه ما یوحش صدورهم علی أبی بکر بعد أن طابت وانشرحت له. أما قول عمر: لا تدخل علیهم وحدک فمن خوفه أن یغلظوا علی أبی بکر فی العتاب ویحملهم علی الاکثار من ذلک. لین عریکة أبی بکر وصبره عن الجواب. وبین استنکار وجوه

الناس وبين الخوف من غلظة عمر كما قال المفسرون روى البخارى ومسلم ": فقال على لأبى بكر موعدك العشية للبيعة [" ۵] ، ويبقى السؤال: هل يوجد دليل واحد يقول بأن عليا يستمد الجاه والعز من وجوه الناس وهو الذى أطاح برقاب الجبابرة على امتداد حياته. وعاش مظلوما ومات مظلوما. وما هو وزن بيعة مدخلها إرضاء الناس. ثم إذا كان الناس قد انفضوا من حول على فلماذا خاف عمر على أبى بكر أن يدخل عليهم وحده. وأى عتاب

[صفحه ۳۲۴]

هذا الذى كان الفاروق يخشاه على أبى بكر؟ ثم نعود إلى حديث من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية فنقول. ألم يعلم على بهذا الحديث؟ فإذا كان قد بايع بعد وفاة الزهراء. فهل كان على يعلم أنه سيعيش إلى ما بعد أبى بكر فتأخر عن بيعته تلك الشهور الستة، ولقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم والمسوفون الذين يقولون سوف أعمل غدا كذا وكذا ثم يأتيهم الموت على شر ولم يعملوا شيئا. إن هذه أسئلة. ولقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ولا نعلم حقيقة ما كان وإلى الله ترجع الأمور.

[صفحه ۳۲۵]

[۱] البخارى (الصحيح ۵۶:۳) ك المغازى.

[۲] صحيح البخارى (الصحيح ۲۲۲:۴) ك الفتن.

[۳] صحيح البخارى (الصحيح ۲۲۲:۴) ك الفتن.

[۴] صحيح مسلم (۱۵۴:۵ باب قول النبى لا نورث)، البخارى (الصحيح ۵۵:۳) ك المغازى.

[۵] صحيح مسلم (۱۵۴:۵ ط دار التحرير)، البخارى (الصحيح ۵۵:۳) ك المغازى.

التعتيم والظهور

لا جدال فى أن الفاروق رضى الله عنه هو الذى وضع الأعمدة الأساسية

للمجتمع المدنى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب هو صاحب أروع منهج لفهم النصوص الدينية فهما يساير الواقع ويحقق مصلحة المسلمين العامة. وما قدمه الفاروق بجميع المقاييس عملا جريئا للغاية لا يقدر عليه سوى رجل من طراز عمر وقليل ما تجد. ونحن هنا سنسلط الأضواء على بعض هذه الأعمال الأساسية. ولكن فى البداية نلقى نظرة على كيفية تولية عمر بن الخطاب الخلافة: روى الطبرى: دعا أبو بكر عثمان خاليا فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين. أما بعد: ثم أغمى عليه. فذهب عنه فكتب عثمان. أما بعد: فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيرا. ثم أفاق أبو بكر. فقال: إقرأ على فقرأ عليه. فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى عشيتى. قال: نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله. وأقرها رضى الله عنه من هذا

[صفحه ۳۲۶]

الموضع [۱] .

وفى رواية: إن أبا بكر أخذ رأى عثمان وعبد الرحمن بن عوف فى عمر وكان رأيه من رأيهما أن عمرا خير من يصلح لهذا الأمر. وفى رواية: أن أبا بكر بعد أن استقر على عمر أعلن للناس أن يسمعوا له ويطيعوا. وقبل أن يعلن أبو بكر اسم الخليفة من بعده، روى الطبرى عن قيس قال: رأيت عمر بن الخطاب وهو يجلس والناس معه وبيده جريدة وهو يقول: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال قيس: ومعه مولى لأبى بكر يقال له شديد معه الصحيفة التى فيها استخلاف عمر [۲] ، ويا ليت الفاروق قال ذلك يوم أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتوه بصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده أبدا. ورحل أبو بكر رضى الله عنه وجاء عمر وكان قبل الخلافة على القضاء أيام خلافة أبى بكر كلها [۳] ، وعلى امتداد هذه المسيرة والشئ الذى يدعو للدهشة أن

ظروف المجتمع التی حتمت إلغاء سهم ذی القربی علی مراحل. ضیقت فی الوقت نفسه علی روایة الحدیث لیتم إلغائها أیضا علی مراحل. ومما یدعو للإعجاب بشکل مساو للدهشة أن سهم المؤلفة قلوبهم الذی جعله الله تعالی علامة یتمیز بها ضعاف الإیمان والذین فی قلوبهم مرض. ثم تخفیف القبضة عنه لیتم إلغائه أیضا علی مراحل. والشئ الذی یدعو للدهشة والإعجاب معا أن هذه الأمور سارت جنبا إلی جنب. الجمیع نالوا جرعة واحدة لم یتمیز طریق علی طریق. وفی النهایة خرجت شجرة کل فرع فیها یداعبه النسیم لیخرج صوتا موسیقیا وفی النهایة تستمع إلی سمفونیة یسری صداها فی عالم الفتن.

[۱] الطبری ۵۲:۴.

[۲] رواه أحمد ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۸۴:۵) ورواه الطبری (۵۲:۴).

[۳] الطبری ۳۷۷:۳.

التضیق علی روایة الحدیث الشریف

لا غنی للکتاب عن السنة. فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن. والقرآن

[صفحه ۳۲۷]

الکریم یتعرض بمنطقة فی سنته المشروعة لجمیع شؤون الحیاة الإنسانیة من غیر أن یتقید بقید أو یشترط بشرط، ما یحکم علی الإنسان منفردا أو مجتمعا، صغیرا أو کبیرا، ذکرا أو أنثی، علی الأبیض والأسود، والعربی والعجمی، والحاضر والبادی، والعالم والجاهل، والشاهد والغائب، فی أی زمان کان وفی أی مکان کان، ویداخل کل شأن من شؤونه من اعتقاد أو خلق أو عمل من غیر شک. فللقرآن اصطکاک من جمیع العلوم والصناعات المتعلقة بأطراف الحیاة الإنسانیة، ومن الواضح اللائح من خلال آیاته النادبة إلی التدبر والتفکر والتذکر والتعقل أنه یحث حثا بالغا علی تعاطی العلم ورفض الجهل فی جمیع ما یتعلق بالسماویات والأرضیات والنبات والحیوان والإنسان من أجزاء عالمنا وما وراءه من الملائکة والشیاطین واللوح والقلم وغیر ذلک لیکون ذریعة إلی معرفة الله سبحانه، وما یتعلق نحوا من التعلق بسعادة الحیاة الإنسانیة الاجتماعیة من الأخلاق والشرائع والحقوق وأحکام الاجتماع. والقرآن اعتبر فی بیان مقاصده السنة النبویة. وعین للمسلمین الأسوة فی رسول الله صلی الله علیه وسلم. فکان المسلمون یحفظون عنه ویقلدون مشیته العلمیة تقلید المتعلم معلمه فی السلوک العلمی [۱] .

فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن ولا اکتشفنا الکثیر من أسراره وغوامضه. هذا بالإضافة إلی الکثیر من الحوادث التی لم ینص علیها القرآن باسمها ووصفها وترکها للرسول صلی الله علیه وسلم الذی ائتمنه علی وحیه وحمله مسؤولیة الأداء والتبلیغ والتفسیر وبیان ما اشتبه حکمه وخفی علی المسلمین وجهه فقال تعالی: (وأنزلنا إلیک الذکر لتبین للناس ما نزل إلیهم) [۲] ، وقال: (وما أنزلنا علیک الکتاب إلا لتبین لهم الذی اختلفوا فیه) [۳] ، وأوجب القرآن علی المسلمین النزول علی حکمه صلی الله علیه وسلم

[صفحه ۳۲۸]

فی کل خلاف یحدث بینهم قال تعالی: (فلا وربک لا یؤمنون حتی یحکموک فیما شجر بینهم ثم لا یجدوا فی أنفسهم حرجا مما قضیت ویسلموا تسلیما) [۴] ، وأکد علیهم أن یرجعوا إلی النبی فی أمور دینهم وحثهم علی الاستجابة لما یدعوهم فقال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا استجیبوا لله وللرسول إذا دعاکم لما یحییکم). فمما سبق نعلم أنه لا غنی للکتاب عن السنة ولا وجه للسنة إلا الکتاب. وکان النبی صلی الله علیه وسلم یحث علی تبلیغ حدیثه ویحذر من الکذب علیه. قال صلی الله علیه وسلم ": لیبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسی أن یبلغ من هو أوعی له منه [" ۵] ، قال النووی: فیه تصریح بوجوب نقل العلم وإشاعة السنن والأحکام. وقال المهلب: فیه أنه سیأتی فی آخر الزمان من یکون له من الفهم فی العلم ما لیس لمن تقدم، وقال ابن سیرین: وقد کان ذلک. قد کان بعض من بلغه أوعی له من بعض من سمعه [۶] ، والعلم ما بلغ أهله وأصحابه إلا من بعد عصر التدوین. أما قبل ذلک فکان للناس مع الحدیث

شؤون. ولقد أخبر النبی صلی الله علیه وسلم عن هذه الفترة من الزمان وهو یخبر بالغیب عن ربه فقال ": ألا أنی أوتیت القرآن ومثله معه ألا یوشک رجل شبعان علی أریکته یقول: علیکم بهذا القرآن. فما وجدتم فیه من حلال فأحلوه وما وجدتم فیه من حرام فحرموه ."[۷]

والرجل الشبعان علی أریکته الذی جاء ذکره فی الحدیث هو من استوی قاعدا علی وطاء متمکنا. وقال رسول الله صلی الله علیه وسلم لأصحابه ": لألفین

[صفحه ۳۲۹]

أحدکم متکئا علی أریکته یأتیه الأمر من أمری مما أمرت به أو نهیت عنه فیقول: لا أدری ما وجدناه فی کتاب الله اتبعناه [۸] ، وقال لهم ": یوشک أحدکم أن یکذبنی وهو متکئ علی أریکته. یحدث بحدیث من حدیثی فیقول. بیننا وبینکم کتاب الله. فما وجدنا فیه من حلال استحللناه وما وجدنا فیه من حرام حرمناه ألا وإن ما حرم رسول الله صلی الله علیه وسلم مثل ما حرم الله [۹] .

وفی مرحلة من مراحل الدعوة کان بعض الصحابة یحرصون علی حفظ الحدیث ونقله. وهذا الحرص منعهم عن تمحیصه والتدبر فی معناه وخاصة فی عرضه علی کتاب الله وهو الأصل الذی تبنی علیه بنیة الدین وتستمد منه فروعه. فأمر النبی صلی الله علیه وسلم بعدم الروایة عنه والرجوع إلیه فی أمور دینهم وفی حجة الوداع وبعد أن اکتمل البناء بحمل أهل البیت لسنته صلی الله علیه وسلم. أمر علیه الصلاة والسلام بأن یروی الناس عنه. وأشار إلی أن یتعلم المسلمون من أهل البیت ولا یعلموهم لأنهم أعلم منهم بکتاب الله وذکر أنهم لن یغلطوا فی تفسیره ولن یخطئوا فی فهمه وإنهم والکتاب لن یفترقا حتی یردا علی الحوض. وبعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم وجد أبو بکر رضی الله عنه أن العدید من الصحابة یبالغ فی روایة الحدیث فضیق الحلقة علی الروایة. وعندما تولی عمر رضی الله عنه الخلافة روی مالک: أن عمر أراد أن یکتب الأحادیث. أو کتبها. ثم قال: لا کتاب مع کتاب الله [۱۰] ، ثم ضیق علی الروایة فعن قرظة بن کعب قال، قال عمر: أقلوا الروایة عن رسول الله صلی الله علیه وسلم وأنا

[صفحه ۳۳۰]

شریککم [۱۱] ، وقال ابن کثیر: إن عمر کان یقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن کلام الله ولهذا لما بعث أبا موسی إلی العراق قال له: إنک تأتی قوما لهم فی مساجدهم دوی بالقرآن کدوی النحل فدعهم علی ما هم علیه ولا تشغلهم بالأحادیث. وأنا شریککک فی ذلک. وقال ابن کثیر: هذا معروف عن عمر رضی الله عنه [۱۲] .

ثم بدأ عمر یضیق الدائرة حتی أنه کان یحبس من یروی. فعن سعد بن إبراهیم عن أبیه أن عمر بن الخطاب قال لابن مسعود ولأبی الدرداء ولأبی ذر ما هذا الحدیث عن رسول الله صلی الله علیه وسلم. وأحسبه حبسهم حتی أصیب [۱۳] ، وعن السائب بن یزید قال: سمعت عمر یقول لأبی هریرة: لتترکن الحدیث عن رسول الله صلی الله علیه وسلم أو لألحقنک بأرض دوس [۱۴] ، وروی عن عبد الرحمن بن عوف قال: والله ما مات عمر حتی بعث إلی أصحاب محمد صلی الله علیه وآله فجمعهم من الآفاق: عبد الله بن حذافة، وأبا الدرداء، وأبا ذر، وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحادیث التی أفشیتم عن رسول الله صلی الله علیه وسلم فی الآفاق: قالوا: أتنهانا. قال: لا. أقیموا عندی. لا والله لا تفارقونی ما عشت [۱۵] ، وروی ابن عبد البر: کتب عمر فی الأمصار من کان عنده شئ من ذلک فلیمحه .[۱۶]

[صفحه ۳۳۱]

وترتب علی ما سبق خوف الصحابة من الروایة کان أبو هریرة یقول: إنی لأحدث أحادیث لو تکلمت بها فی زمان عمر أو عند عمر لشج رأسی [۱۷] ، وقال: أفکنت محدثکم بهذه الأحادیث وعمر حی. أما والله إذا لأیقنت أن المحفظة ستباشر ظهری [۱۸] ، وقال ": ما کنا نستطیع أن نقول قال رسول الله صلی الله علیه وسلم حتی قبض عمر [۱۹] .

وقیل إن عدم الروایة کان حفظا للقرآن وخوفا من أن یتداخل الحدیث مع القرآن، ولا یخفی ما فی هذا القول من تساهل کبیر. لأن

القرآن إعجاز لو اجتمعت الإنس والجن کی یضعوا فیه ما لیس منه ما استطاعوا. ولا یصدق عاقل أن یقرأ إنسان نصف آیة ثم یکملها بحدیث أو نصف حدیث. ویقول هذا من کتاب الله. فقول مثل هذا لا یلتفت إلیه. لقد وضع عمر مبدأ عدم الروایة. ولکن نشأ عنه آثار جانبیة مثل التی تنشأ عن الدواء الذی یستخدم فی علاج داء معین ومن جملة تلک الآثار الجانبیة تمسک بعض من الصحابة بمبدأ عمر فی وقت کانت الروایة فیه بمثابة عودة الروح للجسد، ومن الأمثلة علی ذلک. عن محمود بن لبید قال: سمعت عثمان بن عفان علی المنبر یقول: لا یحل لأحد یروی حدیثا لم یسمع به فی عهد أبی بکر ولا عهد عمر [۲۰] ، ثم جاء معاویة بن أبی سفیان فقال: أیها الناس أقلوا الروایة عن رسول الله صلی الله علیه وآله وإن کنتم تحدثون فحدثوا بما کان یتحدث به فی عهد عمر [۲۱] ، ثم جاء عمر بن العاص لیشهد ویقسم. فقال: أشهد لسمعت رسول الله صلی الله علیه وآله یقول: ما أقرأکم عمر فاقرؤا وما أمرکم به فائتمروا [۲۲] ، ولا یخفی أن المسافة من عثمان إلی معاویة کنت فی حاجة إلی أحادیث وأحادیث.

[صفحه ۳۳۲]

ومن الآثار الجانبیة لمبدأ عدم الروایة. أن هناک أنماطا بشریة لعنهم رسول الله وحذر منهم وطرد بعضهم فهؤلاء ضاع من علیهم التحذیر. ومع مرور الأیام نسی الناس ما روی فیهم. فتقلدوا مراکز الصدارة فی فترة من الفترات. ولقد حاول هؤلاء التعتیم علی الروایة فی العهد النبوی ولکن الرسول أمر بالروایة ورد کیدهم فی نحورهم، فعن عبد الله بن عمرو قال: قالت لی قریش تکتب عن رسول الله صلی الله علیه وآله!! وإنما هو بشر یغضب کما یغضب البشر. فأتیت رسول الله صلی الله علیه وآله فقلت: إن قریشا تقول تکتب عن رسول الله وإنما هو بشر یغضب کما یغضب البشر. قال: فأومأ لی النبی صلی الله علیه وآله وسلم شفتیه. وقال: والذی نفسی بیده ما یخرج ما بینهما إلا حق فاکتب [" ۲۳] ، وقولهم: یغضب کما یغضب البشر فیه أنهم کانوا یعنون أحادیث بعینها. وعلی هذا لا یستغرب أن یصر عثمان ومعاویة وعمرو علی روایة أحادیث خضعت لفقه عدم الروایة. ومن الآثار الجانبیة أن عدم الروایة أدی إلی نسیان الصحابة وترکهم روایة الحدیث، فعن ابن أبی أوفی قال: کنا إذا آتینا زید بن أرقم فنقول حدثنا عن رسول الله صلی الله علیه وآله قال: کبرنا ونسینا [۲۴] ، وروی عن ابن عباس قال: کنا نحدث عن رسول الله صلی الله علیه وآله إذا لم یکذب علیه فلما رکب الناس الصعب والذلول ترکنا الحدیث عنه [۲۵] .

ومن آثاره إفساح المجال للقص فی المساجد ثم دخول الأحادیث الموضوعة بعد ذلک. ومن آثاره التعتیم علی أهل البیت فی مرحلة. وقتلهم فی مرحلة وتشویههم فی مرحلة. وفیما نظن أن الفاروق لو کان یعلم أن مبدأه

[صفحه ۳۳۳]

سیترتب علیه آثار جانبیة. لعدل عنه وجمع العدید من الصحابة العدول الثقاة وأمرهم بکتابة الأحادیث الصحیحة لتکون منارا لمن یأتی بعدهم ولقطع بذلک الطریق علی الوضاعین والذین فرقوا الأمة شیعا وأحزابا. ولسد المنافذ علی الذین التمسوا لمبدأه الأعذار وقالوا: إن منع الروایة کان من أجل أن لا یزاحم الحدیث القرآن لأن فی هذا القول من التشکیک ما لا یخفی.

[۱] المیزان ۵:۲۷۱.

[۲] سورة النحل: الآیة ۴۴.

[۳] سورة النحل: الآیة ۶۴.

[۴] سورة النساء: الآیة ۶۵.

[۵] رواه البخاری کتاب العلم (الصحیح ۱:۲۳) وأحمد ورجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۱:۲۷۶) وقال النبی هذا فی حجة الوداع.

[۶] (الفتح الربانی ۱۱:۲۷۶).

[۷] رواه أحمد وإسناده جید وقال فی نیل الأوطار حدیث صحیح ورواه أبو داود عن المقدام بن معد یکرب (الفتح الربانی ۱:۱۹۱) (کنز العمال ۱:۱۷۴) أبو داود حدیث رقم ۴۶۰۴.

[۸] رواه أحمد والترمذی وأبی داود وابن ماجة والحاکم عن أبی رافع وقال الترمذی حدیث صحیح (الجامع ۳۷:۵)، (کنز العمال ۱۷۴:۱).

[۹] رواه أحمد والترمذی وحسنه والحاکم (الجامع ۳۸:۵) (الفتح الربانی ۱۹۱:۱).

[۱۰] ابن عبد البر (کنز العمال ۲۹۲:۱۰).

[۱۱] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح (المستدرک ۱۰۲:۱) الطبری ۱۹:۵.

[۱۲] ابن کثیر فی البدایة والنهایة ۱۰۷:۸، وقال بن حبان فی المجروحین رواه ابن ماجة والحاکم وله طرق (المجروحین ۳۶:۱).

[۱۳] رواه الحاکم وقال صحیح علی شرط الشیخین وإنکار عمر علی الصحابة کثرة الروایة فیه سنة ولم یخرجاه (المستدرک ۱۱۰:۱) ورواه ابن سعد فی الطبقات (۳۳۶:۲) وابن حبان فی کتابه المجروحین (۳۵:۱).

[۱۴] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۱:۱۰).

[۱۵] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۳:۱۰) وابن حبان فی کتابه المجروحین (۳۵:۱).

[۱۶] رواه ابن عبد البر وأبو خیثمة معا فی العلم (کنز العمال ۲۹۲:۱۰).

[۱۷] ابن کثیر فی البدایة (۱۰۷:۸).

[۱۸] ابن کثیر فی البدایة (۱۰۷:۸).

[۱۹] ابن کثیر فی البدایة (۱۰۷:۸).

[۲۰] ابن سعد (الطبقات ۳۳۶:۲) ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۵:۱۰).

[۲۱] ابن عساکر (کنز العمال ۲۹۱:۱۰).

[۲۲] ابن عساکر (کنز ۵۹۳:۱۲).

[۲۳] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح الإسناد أصل فی نسخ الحدیث عن رسول الله ولم یخرجاه (المستدرک ۱۰۵:۱) ورواه أبو داود حدیث ۳۶۴۶.

[۲۴] ابن عساکر (کنز العمال ۱۹۴:۱۰).

[۲۵] رواه ابن حبان فی کتابه المجروحین (۳۸:۱).

من آثار عدم روایة الحدیث

کان عدد من أهل الکتاب قد دخلوا فی الإسلام وأخذ عنهم المحدثون فیما بعد شیئا کثیرا من أخبار کتبهم وقصص أنبیائهم وأممهم فخلطوها بما کان عندهم من الأحادیث المحفوظة عن النبی صلی الله علیه وسلم، وأخذ الوضع والدس یدوران فی الأحادیث. ویوجد الیوم فی الأحادیث المقطوعة المنقولة من الصحابة ورواتهم فی الصدر الأول شیء کثیر من ذلک یدفعه القرآن بظاهر لفظه: وإذا أردنا أن نضع أیدینا علی البدایة. فلا بد من البحث فی مساحة عدم الروایة لنری أین الوتر الذی تعود إلیه وإلی طابوره الأحادیث الموضوعة فی صفات الله وأسمائه وأفعاله والزلات المنسوبة إلی الأنبیاء الکرام والمساوئ المشوهة المنسوبة إلی النبی صلی الله علیه وسلم والخرافات فی الخلق والإیجاد وقصص الأمم الماضیة. والوتد الأساسی الذی نعتقد أنه الأساس فی هذا البلاء هو القص وعلیه نسلط الضوء.

القص فی المساجد

القاص أو القصاص (والجمع قصاص) هو الرجل الذی کان یجمع الناس

حوله فى الطرقات أو فى المساجد. فيعظهم حينا بذكر الأحاديث والأخبار ويسليهم بالقصص والحكايات حينا آخر. وهؤلاء كانوا مقربين من الخلفاء وكانوا يقومون مقام الصحف فى أيامنا هذه لذا كان الإمام على بن أبى طالب يقول

[صفحه ۳۳۴]

للقاص: أنت أبو اعرفونى [۱] .

وأقدم خبر للقص فى صدر الإسلام ما رواه البخارى أن سعيد بن جبير قال لابن عباس: بالكوفة رجل قاص يقال له نوف البكالى يزعم أن موسى الذى اجتمع مع العبد الصالح بمجمع البحرين ليس بموسى بنى إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله [۲] .

وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وتضييق الرواية كانت الساحة مستعدة لاستقبال هؤلاء ليقوموا بالواجب الذى تقوم به صحافة أيامنا هذه. وروى الإمام أحمد: كان أول من قص تميم الدارى استأذن عمر بن الخطاب أن يقص على الناس قائما فأذن له [" ۳] ، وعن السائب بن يزيد قال: إنه لم يكن يقص على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر وكان أول من قص تميم الدارى استأذن عمر أن يقص فأذن له [" ۴] ، وتميم كان راهبا نصرانيا وأسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم. ولم يعترض أحدا على القص أو لم يجتمعوا لترتيب أوراقهم بعد أن حذرهم النبى من أن القص علامة على طريق طويل. وذلك فيما رواه الطبرانى ": إن بنى إسرائيل لما هلكوا قصوا [" ۵] ، ولكن الساحة رضيت بهذه الظاهرة التى يتثقف بها العامة. ثم جاءت نقطة التحول بدخول كعب الأحبار ساحة القص. وكعب كان على دين اليهود فأسلم فى عهد عمر بن الخطاب وكان من المقربين إليه. قال ابن حبان مات كعب سنة أربع وثلاثين وقد بلغ مائة سنة وأربع سنين [۶] .

وكان أستاذ كعب الأحبار قد أسلم فى عهد أبى بكر. وكان يدعى

[صفحه ۳۳۵]

المسؤول فكناه أبو بكر أبا مسلم وروى عن معاوية [۷] وكعب الأحبار نفسه

عمل مستشارا لمعاوية وهو أمير على الشام. وذلك بعد أن ترك المدينة وتوجه إلى الشام وسكن حمص. وكعب هو الذى ألقى حب الخلافة فى قلب معاوية فى أثناء الثورة على عثمان بن عفان [۸] وكان معاوية يقول: إن كعب الأحبار أحد

العلماء [۹] ، وبدخول كعب إلى الساحة ظهر طابور طويل لم يكن قصدهم الدين بل تسلية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم. وتشويه القصص الدينية ووضعها فى مربع الخرافات. وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم، وقد عملوا على نشرها. وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم. لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم. وبدأ كعب الأحبار يمارس عمل كعمل الصحافة فى أيامنا هذه. وعلى سبيل المثال عن محمد بن سيرين أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هل ترى فى منامك شيئا؟! فانتهره. فقال: إنا نجد رجلا يرى أمر الأمة فى منامه [" ۱۰] ، وعن شداد بن أوس قال. قال كعب الأحبار ": كان فى بنى إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر وإذا ذكرنا عمر ذكرناه [" ۱۱] ، وعن سالم بن عبد الله أن كعب الأحبار قال لعمر: إنا لنجد ويل لملك من ملك السماء فقال عمر: إلا من حاسب نفسه فقال كعب: والذى نفسى بيده إنها فى التوراة لتابعتها [۱۲] .

ويبدو أن الساحة فى هذه الآونة كانت على خلاف فى تعريف من هو الخليفة ومن هو الملك. وكان هذا الأمر يشغل الفاروق، فعن سفيان بن أبى العوجاء قال: قال عمر: والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك؟!، فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم. فقال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا. قال: ما هو؟ قال:

[صفحه ۳۳۶]

الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا فى حق. فأنت بحمد الله كذلك. والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا. فسكت عمر [۱۳] ، ويبدو أن سكون الفاروق يعبر على أن الإجابة ليست كاملة. لهذا سأل سلمان الفارسى: أملك أنا أم خليفة؟ فقال سلمان: إن

أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر. ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة [۱۴] ، ويبدو أن هذه الإجابة تشير إلى الفئ وتقسيمه من طرف خفى. ثم طرح السؤال بعد ذلك على كعب الأحبار الذى نعتبره الجريدة الرسمية فى هذه الآونة. فسأل عمر كعبا: أنشدك الله أتجدنى خليفة أم ملك؟ قال: بل خليفة. فاستحلفه عمر. فقال: خليفة والله من خير الخلفاء وزمانك خير زمان [۱۵] .

وروى أن بعد فتح بيت المقدس كان كعب يرافق عمر. وعندما أراد عمر الصلاة قال لكعب: أين ترى أن أصلى؟ قال: إن أخذت عنى! صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يدك [۱۶] ، لقد كان كعب يريد من وراء ذلك أن تزاحم قبلة اليهود قبلة المسلمين. ولكن عمر تنبه إلى هذا فيما رواه الهيثم بن عمار قال: قال عمر لكعب حين أراد أن يبنى المسجد: أين ترى أن نجعل المسجد؟ قال: اجعله خلف الصخرة فتجمع بين القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد. فقال عمر، ضاهيت اليهودية والله يا أبا إسحاق. خير المساجد مقدمها فبناه فى مقدم المسجد [۱۷] .

وفى ساحة حظرت الرواية لا يستغرب أن يسأل عمر كعب الأحبار: أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مولده [" ۱۸] ، وقوله: حدثنى

[صفحه ۳۳۷]

يا كعب عن جنات عدن [۱۹] ، إن فتح الباب أمام كعب ليدخل إلى السيرة النبوية وإلى الغيبيات يترتب عليه أمور وأمور. ومن فضل الله تعالى أنه جعل فى الساحة من يتصدى لكعب. فعن عوف بن مالك أنه دخل المسجد يتوكأ على ذى الكلاع وكعب يقص على الناس فقال عوف لذى الكلاع: ألا تنهى ابن أخيك هذا عما يفعل [۲۰] ، وبلغ حذيفة أن كعبا يقول: إن السماء تدور على قطر كالرحا فقال: كذب كعب [۲۱] .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحب البحث عن نفسه فى كتب أهل الكتاب. فعن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثنى عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له: هل تجدنى فى الكتاب؟! قال: نعم، قال: كيف تجدنى؟ قال: أجدك قرنا. فرفع عمر عليه الدرة وقال: قرن مه؟ قال الأسقف: قرن حديد أمين شديد [۲۲] ، وروى أن عبد الله بن سلام - كان يهوديا. أسلم فى عهد النبوة - وكان عمر قد ذهب إليه ليسأله فى معنى قفل جهنم. أن قال: يا أمير المؤمنين أخبرنى أبى عن آبائه عن موسى بن عمران عن جبريل أنه قال: يكون فى أمة محمد رجل يقال له عمر بن الخطاب. أحسن الناس دينا وأحسنهم يقينا ما دام بينهم الدين عال والدين فاش فجهنم مقفلة... إلخ [" ۲۳] .

وإذا أردنا أن تزن ما سبق ونسأل هل أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأحداث التى تعصف بالساحة؟ نقول: ربما تكون هناك إشارة فى حديث رواه ابن عباس، قال: إن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ": أمتهوكون [۲۴] فيها يا ابن الخطاب. والذى نفسى بيده لقد جئتكم

[صفحه ۳۳۸]

بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شئ فيخبرونكم بحق فتكذبونه وبباطل فتصدقونه. والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى [" ۲۵] ، إن دخول معترك أهل الكتاب يكون بمعرفة مادتهم أولا- ثم وزنها بميزان الإسلام ثم طرحها عليهم لتدمغهم الحجة. ولذلك نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم. أمر زيد بن ثابت بأن يتعلم له كتب اليهود أولا ليكتب له ويقرأ له إذا كتب إليه. وغضب النبى صلى الله عليه وسلم عندما جاء عمر بكتاب أهل الكتاب. فيه إشارة خاصة ليتذكرها الذهن وتقوم بها الحجة. ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أن هذا سيقع لا- محالة قال ": لتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى. لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى [" ۲۶] .

ومعالم التهوك يمكن أن يرصدها الباحث بسهولة، فالقصص يعتبر أكبر عقبة فى سبيل التقدم. لأنه يصرف الناس عن الاشتغال بالعلوم

الدينية وما يحقق سعادتهم فى الدنيا والآخرة. وذلك لما له من تأثير قوى فى الجماهير. وفى عصر بنى أمية راج القص. فمعاوية أمر كعب الأحبار بأن يقص بالشام [۲۷] وبعد كعب جاء وهب بن منبه. قال الذهبى عنه: أبو عبد الله اليمانى صاحب القصص... ولد فى آخر خلافة عثمان... كثير النقل من كتب الإسرائيليات. كان يقول: قرأت بضعة وسبعين كتابا من كتب الأنبياء [۲۸] ، ولوهب أيضا تلاميذ. وظل يتجول فى بلاد المسلمين يبث فيها خرافاته وأساطيره إلى السنة التى مات فيها وهى سنة ۱۱۴ ه على أصح الأقوال [۲۹] والحزب الأموى اعتنى بالقص

كى يرفعهم القصاصون فى عيون المسلمين نظرا لعدم وجود فضل لهم يرفعهم

[صفحه ۳۳۹]

على عهد النبى صلى الله عليه وسلم. وفى عهد بنى أمية كان القصاصون يذكرون عليا وولده بما يطفئ نورهم ويكتم فضلهم. وذلك كله لحساب الحزب الحاكم. وروى عن غضيف بن الحرث قال: بعث إلى عبد الملك بن مروان فقال: قد جمعنا الناس على أمرين. قلت: وما هما؟ قال: رفع الأيدى على المنابر يوم الجمعة والقص بعد الصبح والعصر [۳۰] .

وعلى هذا الدرب اخترعت أحاديث. وتم الخلط بين الحقيقة والخيال. روى ابن عساكر عن يزيد بن هارون قال: سمعت شعبة يقول: أبو هريرة كان يدلس. أى يروى ما سمعه من كعب وما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يميز هذا من هذا [۳۱] ، ولم يقف الأمر عند أبى هريرة. بل تعداه إلى من سمع منه، روى الإمام مسلم عن بشر بن سعيد أنه قال: لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقول. فاسمع بعضه من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب وحديث كعب عن رسول الله – وفى رواية – يجعل ما قاله كعب. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب [۳۲] وسواء كان التدليس من

أبى هريرة أم من الذين سمعوا منه. فإن كعب الأحبار هو محور الارتكاز. إن طريق التهوك بعد أن فتح الباب أمام النص واضح ولا غبار عليه. ولقد ذم غير واحد من العلماء أثر القص على الحديث. قال ابن الجوزى: إن بعض البلاء يجرى من القصاصين. قيل لواحد منهم: من أين حفظت هذه الأحاديث؟ قال: والله ما حفظتها ولا أعرفها بل فى وقتى قلتها [۳۳] وقال أبو حاتم: كان القصاصون يضعون الحديث فى قصصهم ويرونها عن الثقات [۳۴] ، ولم يقف الأمر

[صفحه ۳۴۰]

عند الحديث والتفسير بل انتهى القص إلى مرحلة أخرى يدمر فيها الأخلاق. فلقد أخذت مواد القصص الغرامية تتكاثر وتتزايد بإطراد فى أواخر العصر الأموى. حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية تعتمد على أغانى الغزل المشهورة من ناحية. كما تشتبك بمختلف البواعث النابعة من آداب الأمم عامة من ناحية أخرى، ورواها العرب دون تحرى مصادرها وإن سموا بعض الأشخاص من أبطال الغرام والعشق الذين لم يكونوا إلا من أبناء الخيال [۳۵] ، وهذا الباب ترتب عليه ثقافة وهذه الثقافة فتحت الطريق لأبواب أخرى تجد على أبوابها دعاة الصوفية والانعزالية. وتجد الذين يستدرون عطف الحكام. وتجد الذين يطبخون علوم الكلام لترى على الموائد أصنافا عديدة. من أقوال مرجئة إلى أقوال قدرية إلى علوم يونانية. وكل هذا أملاه الواقع الجديد الذى بناه القص. قد يتبادر إلى الذهن سؤال: أين كان علماء أهل البيت من هذا؟ نقول: كانوا يعيشون عيش العلماء وقد زهدوا فى الناس وما فى أيدى الناس. كانوا يقيمون الحجة ولا يتدخلوا فى اختيار الناس. فالإمام على، واجه القصاصين ونسبهم إلى النسب الصحيح فقال: أنتم أبو اعرفونى. أما الحسن بن على رضى الله عنه فلقد روى أنه مر يوما. وقاص يقص على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الحسن: ما أنت؟ قال: أنا قاص يا ابن رسول الله، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وسلم القاص. قال تعالى: (فاقصص القصص)، قال الرجل: فأنا مذكر، قال: كذبت! محمد صلى الله عليه وآله وسلم المذكر، قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر)، قال الرجل: فما أنا؟ قال له الحسن: المتكلف من الرجال [۳۶] .

والخلاصة لقد قدمنا هنا أن البداية كانت عندما فتح عمر باب القص، وشهد بذلك حديث صحيح، وإن هذا القص زيف الحقائق وشهد بذلك حديث

[صفحه ۳۴۱]

عند البخارى [۳۷] ، كما أحدث القص خلط الأمور وشهد بذلك حديث عند مسلم [۳۸] ، وانتهى المطاف بالأمة إلى الاختلاف والافتراق على طريق التهوك وكل حزب من الأحزاب فى جعبته حزمة من الأحاديث وقد شهد بذلك القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وحركة التاريخ.

[۱] رواه الدارمى والبيهقى والعسكرى (كنز العمال ۷۷۵:۱۲).

[۲] رواه البخارى ك التفسير (الصحيح ۱۵۵:۳).

[۳] أحمد (الفتح الربانى ۱۴۵:۲۰).

[۴] العسكرى (كنز العمال ۲۸۰:۱۰).

[۵] الفتح الربانى (۱۹۴:۱).

[۶] راجع ترجمته بالإصابة ۳۱۵، ۳۱۶، ۳۱۷:۳، الطبقات الكبرى ۴۴۵:۷.

[۷] الجرح والتعديل / الرازى ۴۳۶:۹.

[۸] راجع البداية والنهاية ۸۲۷:۸، الكامل ۷۹:۳ وسيأتى ذلك فى حينه.

[۹] الإصابة ۳۱۶:۳.

[۱۰] ابن المبارك وابن عساكر (كنز العمال ۵۶۲:۱۲).

[۱۱] سدد وإسناده صحيح (كنز العمال ۲۸۲:۱).

[۱۲] الدارمى والبيهقى والعسكرى (كنز العمال ۷۷۵:۱۲).

[۱۳] ابن سعد (كنز العمال ۵۶۷:۱۲).

[۱۴] ابن سعد (كنز العمال ۵۶۷:۱۲)، الطبرى (تاريخ الأمم ۳۴:۵).

[۱۵] نعيم ابن حماد فى الفتن (كنز العمال ۵۷۴:۱۲).

[۱۶] أحمد والضياء بسند صحيح (كنز العمال ۱۴۳:۱۴).

[۱۷] ابن عساكر (كنز العمال ۱۴۸:۱۴).

[۱۸] ابن عساكر (كنز العمال ۳۶۴:۱۲).

[۱۹] ابن المبارك وأبو ذر الهوارى فى الجامع (كنز ۵۶۱:۱۲).

[۲۰] الإصابة / ابن حجر (۳۱۵:۳).

[۲۱] الإصابة (۳۱۶:۳).

[۲۲] أبو داوود حديث رقم ۴۶۵۶، ابن أبى شيبة ونعيم ابن حماد (كنز العمال ۵۵۹:۳).

[۲۳] ابن عساكر (كنز العمال ۵۸۶:۱۲).

[۲۴] أى: أمتحيرون أنتم فى الإسلام. وقيل: أترددون ساقطون لسان العرب ص ۴۷۲۲.

[۲۵] رواه أحمد وابن ماجة (كنز ۲۰۰:۱) وابن أبى عاصم وحسنه الألبانى وقال له طرق (كتاب السنة ۲۷:۱).

[۲۶] رواه ابن حبان فى صحيحه (كنز العمال ۲۰۱:۱۱).

[۲۷] رواه الطبرانى (الإصابة ۳۱۶:۳).

[۲۸] ميزان الاعتدال ۳۵۲:۴.

[۲۹] تاريخ الأدب العربى / بروكلمان ۲۵۱:۱.

[۳۰] رواه أحمد والبزار والطبرانى وقال فى الفتح الربانى إسناده جيد (الفتح ۱۹۴:۱).

[۳۱] ابن عساكر (البداية والنهاية ۴۰۹:۸).

[۳۲] مسلم (البداية والنهاية ۱۰۹:۸).

[۳۳] الموضوعات / ابن الجوزى ۴۴:۱.

[۳۴] المجروحين / ابن حبان (۸۵:۱).

[۳۵] تاريخ الأدب العربى ۱۹۹:۱.

[۳۶] تاريخ اليعقوبى ۲۷۰:۲.

[۳۷] نقض الحديث الذى يخص القاص نوف البكالى.

[۳۸] نقصد حديث النقل عن أبى هريرة.

الاقتحام بالشعر

كان الشعر سلاحا فعالا على ساحة ضاقت فيها دائرة الرواية. ولا نقصد بذلك عموم الشعر. وإنما نقصد الشعر الذى يصد عن سبيل الله ويضرب الأخلاق فى جذورها. ولأن الطريق إلى المجون يبدأ دائما من دائرة البخس. فلقد حذر تعالى من الاقتراب من هذا الطريق، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) [۱] ، وقال: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) [۲] ، وقال: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا) [۳] ، وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) [۴] ، إلى غير ذلك من الآيات وقد تكلمنا عنها فيما سبق. وفى الوقت الذى أمر فيه تعالى بهذه الأوامر لحفظ دينه على امتداد الأرض. أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتحصين مركز القيادة وإشعاع الثقافة الإسلامية فى حديث رواه الشيخان وغيرهما. وذلك عند وفاته صلى الله عليه وآله وسلم فقال ": اخرجوا المشركين من جزيرة العرب " وحدد قبائل بعينها وصفهم بأنهم شر القبائل فقال ": شر قبيلتين فى العرب نجران وبنى تغلب [" ۵] ، وكانت هذه القبائل مركزا خصبا للنصرانية. وروى عن ابن عباس أنه قال ": لا

[صفحه ۳۴۲]

تؤكل ذبائح نصارى بنى تغلب ولا تنكح نساؤهم. ليسوا منا ولا من أهل الكتاب [" ۶] وكان الإمام على بن أبى طالب يقول فى خلافته ": لئن تفرغت لبنى تغلب ليكونن لى فيهم رأى. لأقتلن مقاتلهم ولأسبين ذريتهم [" ۷] ، ولكنه رضى الله عنه لم يعط الفرصة لالتقاط أنفاسه. فهل خرج المشركون من جزيرة العرب؟ من الثابت أنهم لم يخرجوا إلا قليلا منهم، أما الكثرة فرضيت الدولة منهم بدفع الجزية. روى الطبرى وغيره أن الجزيرة افتتحها عمر بن الخطاب فى السنة السابعة عشرة هجرية [۸] وعندما أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى بنى تغلب فروا إلى أرض الروم. فقال النعمان بن زرعة لعمر: أنشدك الله فى بنى تغلب فإنهم قوم من العرب يغضبون من ذكر الجزاء وهم قوم شديدة نكايتهم، فصالح عمر بنى تغلب بعدما قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم. على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الإسلام. فأعطى بعضهم ذلك وأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزية [۹] ، ثم نقض بنو تغلب عهدهم مع عمر ونصروا أولادهم. فضاعف عمر عليهم الجزية فقالوا: إنا نرضى ونحفظ ديننا [۱۰] ، واستمر الحال على ذلك. وفى عهد عثمان بن عفان. أراد عثمان أن لا يقبل من بنى تغلب فى الجزية إلا الذهب والفضة. فجاءه الثبت أن عمرا أخذ منهم ضعف

الصدقة فرجع عن ذلك [۱۱] .

مما سبق نعلم أن الدولة اجتهدت فى وصية النبى صلى الله عليه وسلم فبدلا من إخراجهم قبلوا منهم الجزية لما رأوا أن المصلحة فى ذلك. بل لم تقف الدولة عند هذا الحد بل جاءت بسبى النصارى إلى الجزيرة. ذكر البلاذرى: لما ولى عمر بن الخطاب معاوية الشام حاصر قيسارية حتى فتحها فوجد بها من

[صفحه ۳۴۳]

المرتزقة سبعمائة ألف ومن السامرة ثلاثين ألف ومن اليهود مائتى ألف، ووجد بها ثلاثمائة سوق قائمة كلها. وقد بلغ سبى قيسارية أربعة آلاف. فلما بعث به معاوية إلى عمر بن الخطاب. قسمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم فى الكتاب والأعمال للمسلمين [۱۲] وكان أبو بكر أخدم بنات أبى أمامة خادمين من

سبى عين التمر فماتا فأعطاهن عمر مكانهما من سبى قيسارية [۱۳] ، ولا يخفى ما يترتب على عمل كهذا فى ساحة لا رواية فيها. ونحن سنلقى بعض الضوء على الأرضية النصرانية بالجزيرة لنمسك بأول الخيط الذى نقف اليوم فى نهايته. روى أن الوليد بن عقبة كان على رأس القوة التى افتتحت الجزيرة ودخلت إلى ديار بنى تغلب. وفى بنى تغلب التقى الوليد بن عقبة بأبى زبيد الشاعر. فأما الوليد قال فيه صاحب كتاب الإستيعاب: لا خلاف بين أهل العلم أن قوله الله عز وجل: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) [۱۴] ، نزلت فى الوليد بن عقبة [۱۵] وعن ابن عباس فى قوله تعالى:

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) [۱۶] ، قال: نزلت فى على بن أبى طالب والوليد بن عقبة، وذكر قصة فى ذلك [۱۷] ، أما أبو زبيد قال فيه صاحب الإصابة: كان فى الجاهلية مقيما عند أخواله بنى تغلب بالجزيرة. وكان فى الإسلام منقطعا إلى الوليد بن عقبة فى ولايته للجزيرة ثم للكوفة [۱۸] ، وقال ابن قتيبة: لم يسلم أبو زبيد ومات على نصرانيته. وقال المرزبانى: كان نصرانيا وهو أحد المعمرين. يقال عاش مائة وخمسين سنة وأدرك الإسلام فلم يسلم [۱۹] .

[صفحه ۳۴۴]

وبقى أبو زبيد إلى أيام معاوية [۲۰] .

وبالرغم من أن الوليد بنص الحديث فاسق بما يوافق القرآن. وبالرغم من أن أبا زبيد على أكثر الآراء نصرانيا. فإن الفاروق رضى الله عنه رأى أن من المصلحة العامة أن يكون الوليد واليا على الجزيرة. أما فيما يتعلق بأبى زبيد قال ابن حجر فى الإصابة ": استعمله عمر على صدقات قومه ولم يستعمل نصرانيا غيره [" ۲۱] ، وفى هذه الفترة أصدر عمر بن الخطاب قرارا. روى ابن شهاب أن عمرا كتب إلى أبى موسى الأشعرى ": أن مر من قبلك بتعلم العربية فإنها تدل على صواب الكلام ومرهم برواية الشعر فإنه يدل على معالم الأخلاق [" ۲۲] ، ورواية الشعر كانت سنة عربية لم يهتم بأمرها الإسلام. ولم يمدح الكتاب الشعر والشعراء بكلمة ولا السنة بالغت فى أمره. وروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ": والذى بعثنى بالحق لتكونن بعدى فترة فى أمتى يبتغى فيها المال من غير حله وتسفك فيها الدماء. ويستبدل فيها الشعر بالقرآن [" ۲۳] ، نحن إذا أمام دعوة لرواية الشعر وأمام إخبار بالغيب يقيم الحجة على فترة يستبدل فيها الشعر بالقرآن. وتحت ظلال دعوة رواية الشعر. تقف قبيلة تغلب التى ذمها رسول الله صلى الله عليه وآله. ونصارى الحيرة الذين بقوا على نصرانيتهم حتى العصر العباسى. وقوافل قيسارية التى بعث بهم معاوية إلى عاصمة الخلافة. وباقى دوائر الصد عن سبيل الله. وفى عهد عثمان اتسعت الدائرة عندما أزيلت بعض الحواجز. وذلك عندما تولى الوليد بن عقبة ولاية الكوفة. ففى عهده تم الاتصال بنصارى الحيرة وبدأت قوافلهم تجوب المنطقة وراج شعر الأديرة الذى كان له نصيب من التأثير الخفى فى الثقافة العقلية. ثم بدأ شعر الخمر يلقى بظلاله ومنه الذى يدعو لنبذ الإسلام

[صفحه ۳۴۵]

صراحة. ولقد قدمنا بعضه فى كتابنا " الانحرافات الكبرى [" ۲۴] ، فمن أراد أن يقف عليه وعلى أصول هذه الفترة فليراجعه هناك.

وتحت ظلال شعر الأديرة والخمر. كان الأمير الوليد والشاعر أبو زبيد يضربان بالأخلاق عرض الحائط. قال صاحب الإستيعاب: أخبار الوليد فی شرب الخمر ومنادمته أبا زبيد مشهورة كثيرة [۲۵] ، وخبر صلاته بالمسلمين وهو سكران وقوله لهم: أزيدكم بعد أن صلى الصبح أربعا مشهورة من رواية الثقات من نقل أهل الحديث وأهل الأخبار [۲۶] ، وترتب على ذلك حدوث أول انتفاضة ضد حكم عثمان بن عفان. ضحى أمامها بعزل الوليد. ولكن الشعر بقى وازداد اتساعا. وتطور إلى شعر الغزل ثم إلى شعر المجون. وفی عهد معاوية راج الأدب العربی غاية رواجه وظهر الشعر الذی يحتضن سياسة الحزب الحاكم ومنازعات القبائل ومظاهر العصبية العربية. وكان الأمويون يبالغون فی ترويج الشعر. وربما كانوا يبذلون بإزاء بيت من الشعر أو نكتة أدبية المئات والألوف من الدنانير. وانكب الناس على الشعر وروايته وأخبار العرب وأيامهم وكانوا يكتسبون بذلك الأموال الكثيرة. وبلغ من نفوذ الشعر والأدب فی المجتمع العلمی أنك ترى كثيرا من العلماء يتمثلون بشعر شاعر أو مثل فی مسائل عقلية. وبدأ شعر الصد يتسلل فی ليل الفتن. وبدأ الشعراء يزحفون نحو مركز القيادة ومن هؤلاء: الأخطل، الذی ولد بالحيرة وكان من بنی تغلب. دان بالنصرانية كأكثر قبيلته. ولما ولی يزيد بن معاوية الخلافة. دعا الأخطل إليه وأكرمه. وكذلك أكرمه خلفاء يزيد بن بعده وأسبغوا عليه نعمتهم ولا سيما عبد الملك الذی فضله على سائر الشعراء وأجزل له عطاياه [۲۷] ، ومنهم: أعشى بنی تغلب كان نصرانيا يقدم شعره فی كل مكان ينزل به [۲۸] ، وبدأت ثقافة الفتنة

[صفحه ۳۴۶]

تتسع حتى أصبح النصارى فی عهد بنی أمية لا يستغنی عنهم فی تدبير السياسة كما كان عدد من نصارى الروم قائمين على تدبير الخراج. وكان لكثير منهم جاه عند الخلفاء [۲۹] ، ومن عباءة ثقافة الفتنة التی زحفت بالشعر والخمر والمجون نحو أرضية اللارواية. خرجت الآراء التی جاء بها الزنادقة. والنصرانية هی الأصل التی أتت منه جميع هذه الآراء [۳۰] ، وخرجت آراء المرجئة على أيدی يحيى الدمشقی وكان أبوه صاحب عبد الملك بن مروان. وقد صنف يحيى كتابا فی فضائل النصرانية. ولم يكن عرضا أن ظهرت عند المرجئة والقدرية فی الشام آراء يحيى الدمشقی. وفی هذا الطوفان عادت إلى الظهور الأوضاع القديمة لعالم قديم. وأصبحت فيها للمال قوة عظيمة حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى. وكل شئ صار يعرض من أجل المال وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة. وفی نهاية المطاف ظهر فريق من الشعراء يحتقرون كل ما هو دينی ويجرءون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظيرا فی عصر من العصور. فكان أبو العلاء المعری الشاعر بالشام (ولد ۳۶۳ ه) وتوفی عام (۴۴۹ ه) يهاجم كل ما هو دينی مستندا فی ذلك إلى وجهة نظر عقلية ومن شعره:

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما++

ديانتكم مكر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا++

وبادوا وماتت سنة اللؤماء

وقال:

قد ترامت إلى الفساد البرايا++

واستوت فی الضلالة الأديان [۳۱] .

ثم جاء ابن الراوندی (المتوفی ۲۹۳ ه) ليقول: إنا نجد فی كلام أكثم بن صيفی ما هو أحسن من القرآن [۳۲] ، ويروى عن أبی العلاء المعری أنه عارض

[صفحه ۳۴۷]

القرآن بكتاب عنوانه " بالفصول والغايات فی محاذاة السور والآيات، " وقد قيل لأبی العلاء ": ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة

القرآن. فقال: حتی تصقله الألسن فی المحاریب أربعمائة سنة وعند ذلک انظروا کیف یکون [" ۳۳] وهکذا تحقق الإخبار بالغیب. تحقق برکوبه الشعر أولا- حیث فتح الولید الأسوار ودخل نصاری الحیرة لیعانقوا نصاری تغلب. وشاع شعر الأدیرة ثم شعر الخمور ثم شعر المجون. ثم تم التسلل نحو الکرسی الأکبر برکوبة شعر القبائل وأیام العرب وفضائل بنی أمیة. وعلی ساحة اللاروایة نشأ التصوف تحت ضغط المشاکل السیاسیة. وفی مواجهة التصوف ظهرت الزندقة وتعالیم المرجئة وغیرهما وخلال هذا التطاحن کان النصاری یشرفون علی جمع الخراج. ومن أراد الوزارة کان علیه أن یتقرب إلیهم [۳۴] ، وتحت شجرة الشوک تکالب الجمیع علی المال وأعلن شعراء الانحلال والصد الحرب علی الدین والقرآن بصورة لم یسبق لها مثیل. وإذا کان الإمام علی بن أبی طالب قد توعد بنی تغلب إن تفرغ لهم فإن له فیهم رأیا وقال: لأقتلن مقاتلهم ولأسبین ذریتهم [۳۵] ، وذلک لتنفیذ وصیة النبی صلی الله علیه وسلم والخاصة بإخراج المشرکین من جزیرة العرب [۳۶] .

فإنه رضی الله عنه کان له رأی فی الشعر والشعراء، یقول صاحب تاریخ الأدب العربی: اشتهر الفرزدق بالشعر وهو شاب. فعرضه أبوه علی علی بن أبی طالب بعد یوم الجمل قائلا- إنه شاعر مضر، فأوصاه أمیر المؤمنین أن یقرأ القرآن خیرا له من الشعر. ویروی أن الفرزدق وضع رجلیه فی القید وأقسم لا یفکهما إلا بعد أن یحفظ القرآن [۳۷] .

[صفحه ۳۴۸]

وأخیرا لقد أدی عدم الروایة إلی القص وروایة الشعر وکلاهما سنة عربیة قدیمة وإحیاء هذه السنة أدی إلی عودة أوضاع قدیمة لعالم قدیم وکان ینقص هذا العالم لکی یکتمل خطوة أو خطوتین.

[۱] سورة المائدة: الآیة ۵۱.

[۲] سورة آل عمران: الآیة ۶۹.

[۳] سورة البقرة: الآیة ۱۰۹.

[۴] سورة الممتحنة: الآیة ۱.

[۵] رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۷۱:۱۰).

[۶] فتوح البلدان / البلاذری ص ۱۸۶.

[۷] فتوح البلدان ص ۱۸۷.

[۸] الطبری ۱۹۸:۴.

[۹] الطبری ۱۹۸:۴، فتوح البلدان ص ۱۸۶.

[۱۰] فتوح البلدان ص ۱۸۶.

[۱۱] فتوح البلدان ص ۱۸۷.

[۱۲] أول سبی دخل إلی المدینة من أبناء العجم کان فی عهد أبی بکر (تاریخ الطبری ۲۶:۴).

[۱۳] فتوح البلدان ۴۷.

[۱۴] سورة الحجرات: الآیة ۶.

[۱۵] الإستیعاب ۶۳۲:۳.

[۱۶] سورة السجدة: الآیة ۱۸.

[۱۷] الإستیعاب ۶۳۳:۳.

[۱۸] الإصابة ۸۰:۴.

[۱۹] الإصابة ۸۰:۴.

[۲۰] الإصابة ۴:۸۰.

[۲۱] الإصابة ۴:۸۰.

[۲۲] ابن الأنباری (کنز العمال ۱۰:۳۰۰).

[۲۳] رواه الدیلمی (کنز العمال ۱۱:۱۸۷).

[۲۴] الانحرافات الکبری / للمؤلف ط دار الهادی بیروت.

[۲۵] الإستیعاب ۳:۶۳۳.

[۲۶] الإستیعاب ۳:۶۳۴.

[۲۷] تاریخ الأدب العربی ۱:۲۰۵.

[۲۸] المصدر السابق ۱:۲۳۸.

[۲۹] المصدر السابق ۱:۲۵۶.

[۳۰] الحضارة الإسلامیة ۲:۶۵.

[۳۱] المصدر السابق ۲:۱۳۷.

[۳۲] المصدر السابق ۲:۱۳۹.

[۳۳] المصدر السابق ۲:۱۴۰.

[۳۴] المصدر السابق ۱:۱۲۷.

[۳۵] فتوح البلدان ص ۱۸۷.

[۳۶] البخاری (الصحیح ۲:۲۰۲).

[۳۷] تاریخ الأدب العربی ۱:۲۰۹، تاریخ الطبری ۲:۹۴ – ۱۰۸.

الغاء سهم المؤلفة قلوبهم

قال تعالی: (إنما الصدقات للفقراء والمساکین والعاملین علیها والمؤلفة

قلوبهم وفی الرقاب والغارمین وفی سبیل الله وابن السبیل)، وقد روی زیاد بن الحارث الصدائی قال: أتیت النبی صلی الله علیه وسلم فبایعته. فآتاه رجل فقال: أعطنی من الصدقة. فقال له رسول الله صلی الله علیه وسلم ": إن الله لم یرض بحکم نبی ولا غیره من الصدقات حتی حم فیها فجزأها ثمانیة أجزاء، فإن کنت من تلک الأجزاء أعطیتک حقک، " رواه أبو داود [۱] ، وسهم المؤلفة قلوبهم قیل: کان النبی صلی الله علیه وسلم یعطیه لجماعة منهم الذین یراد تألیف قلوبهم لیسلموا کسادات العرب وزعمائهم ومنهم للذین أسلموا ونیاتهم ضعیفة فتؤلف قلوبهم بإجزال العطاء. ومنهم من یترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم من رجالات العرب. ولقد ثبت أن النبی صلی الله علیه وسلم أعطی هذا السهم لأبی سفیان بن حرب وابنه معاویة [۲] ، والأقرع بن حابس وعیینة بن حصین، وعباس بن مرداس. وصفوان بن أمیة، وکان النبی صلی الله علیه وسلم یعطی المؤلفة قلوبهم منذ نزلت الآیة حتی لحق صلی الله علیه وسلم بالرفیق الأعلی ولم یعهد إلی أحد من بعده بإسقاط هذا السهم إجماعا من الأمة المسلمة کافة وقولا واحدا. وبعد وفاة النبی الأعظم صلی الله علیه وسلم. جاء عیینة بن حصین والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس. وطلبوا من أبی بکر نصیبهم فکتب لهم

[صفحه ۳۴۹]

به. وجاءوا إلی عمر بن الخطاب، وأعطوه الخط، فأبی ومزقه. وقال: هذا شئ کان النبی صلی الله علیه وسلم یعطیکموه. تألیفا لکم علی الإسلام. وأغنی عنکم. فإن ثبتم علی الإسلام. وإلا فبیننا وبینکم السیف فرجعوا إلی أبی بکر فقالوا: الخلیفة أنت أم عمر؟ بذلت لنا

الخط فمزقه عمر، فقال: هو إن شاء. وأمضى ما فعله عمر [۳] .

يقول ابن قدامة: ولنا كتاب الله وسنة رسوله. فإن الله تعالى سمى المؤلفة فى الأصناف الذين سمى الصدقة لهم والنبى صلى الله عليه وسلم قال ": إن الله تعالى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء، " وكان النبى صلى الله عليه وآله يعطى المؤلفة كثيرا فى أخبار مشهورة. ولم يزل كذلك حتى مات، ولا يجوز ترك كتاب الله وسنة رسوله إلا بنسخ. والنسخ لا يثبت بالاحتمال. ثم إن النسخ إنما يكون فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم لأن النسخ إنما يكون بنص. ولا يكون النص بعد موت النبى صلى الله عليه وآله وانقراض زمن الوحى. ثم إن القرآن لا ينسخ إلا القرآن وليس فى القرآن نسخ كذلك ولا فى السنة. فكيف يترك الكتاب والسنة بمجرد الآراء والتحكم فكيف يتركون به الكتاب والسنة؟ [۴] .

واعتذروا عما فعله عمر وقالوا: إن الله سبحانه فرض فى أول الإسلام عندما كان المسلمون ضعافا عطاءا يعطى لبعض من يخشى شرهم ويرجى خيرهم تألفا لقلوبهم. غير أن الإسلام لما اشتد ساعده وتوطد سلطانه رأى عمر بن الخطاب حرمان المؤلفة قلوبهم من هذا العطاء المفروض لهم بنصوص القرآن!! نقول: لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة يوم إن كان الوحى يدافع عنه أى: كان يعطيهم من موقع القوة. لفتح الطريق بتحطيم الأصنام داخل نفوسهم. ويصل النور إلى عقولهم فتحتضنه الفطرة. وتحطيم الأصنام له وجوه.

[صفحه ۳۵۰]

فمن قبل حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام ليصل النور إليهم ويقيم عليهم الحجة. فكيف يقال والوحى مع رسول الله أن النبى كان يعطى نظرا لضعف المسلمين. وأنهم منعوا لأن معهم آراءهم. ولوقوفهم على أرضية العز وتوطيد السلطان. ثم من الذى قطع بأن السلطان دائم؟ ألم يخبر النبى صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والافتراق من بعده وقال ": إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ"... [۵] ، قال النووى: إن الإسلام بدأ فى أحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا فى آحاد وقلة أيضا كما بدأ [۶] .

وهب أننا سلمنا وقلنا بما قالوا بأن السهم كان يعطى لضعف المسلمين. أليس بين أيدينا نص يقول بأن هذا الضعف سيعود. وعلى هذا فلا بد أن يكون إعطاء السهم ممتد. والخلاصة: أن النص فى إعطائهم مطلق وإطلاقه واضح فى كتاب الله، وهذا مما لا خلاف ولا شبهة فيه. وليس لنا أن نعتبر إعطاءهم معللا بظروف زمنية مؤقتة هى تألفهم حينما كان الإسلام ضعيفا دون غيره من الأزمنة. لقد افترضوا فى المقدمة أن السلطان دائم وقوى. وها نحن عند النتيجة نرتجف خوفا - حتى قال صاحب المنار: إننا نجد دول الاستعمار الطامعة فى استعباد جميع المسلمين وفى ردهم عن دينهم يخصصون من أموال دولهم سهما للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فمنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من حظيرة الإسلام. ومنهم من يؤلفونه لأجل الدخول فى حمايتهم ومشاقة الدول الإسلامية الوحدة الإسلامية. أفليس المسلمون أولى بهذا منهم!؟! [۷] ، إننا عند النتيجة نخاف من عالم المعونات والمنح والقروض الأجنبية، لأن كل هذا يصب فى النهاية فى مربع المؤلفة قلوبهم ولكن لصالح دوائر الصد عن سبيل الله.

[صفحه ۳۵۱]

[۱] المغنى / ابن قدامة ۶۶۵:۲.

[۲] إعطائه أبو سفيان راجع مسلم ۱۵۶:۷ وإعطائه أبو سفيان ومعاوية راجع البداية والنهاية (۳۵۹، ۴:۳۶۰).

[۳] فقه السنة ۴۲۵:۱، تفسير المنار ۴۹۶:۱۰، الدر المنثور ۲۵۲:۲.

[۴] المغنى / ابن قدامة ۶۶۶:۲.

[۵] رواه مسلم وابن ماجة عن أبى هريرة وابن ماجة عن ابن مسعود وأنس والطبرانى فى الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس. ورواه الترمذى (صحيح مسلم ۱۷۷:۲) (كنز العمال ۲۳۸:۱) (جامع الترمذى ۱۸:۵).

[۶] مسلم بشرح النووی ۱۷۷:۲.

[۷] فقه السنة ۱۷۷:۲.

نظرات علی الطریق

إن سهم المؤلفة قلوبهم دلیل علی إمامة أهل البیت، وبدون قیادتهم لا یمکن للسهم أن یصرف بما یخدم الدعوة. فمن المعلوم أن الاقتراب فی الدین أو الحیاة الدینیة من الذین ظلموا بنوع من الاعتماد أو الاتکاء یخرج الدین أو الحیاة الدینیة عن الاستقلال فی التأثیر ویغیرهما عن الوجهة الخالصة. ولهذا نهی الله تعالی النبی وأمته من الرکون إلی من اتسم بسمة الظلم بأن یمیلوا إلیهم ویعتمدوا علی ظلمهم فی أمر دینهم أو حیاتهم الدینیة. قال تعالی: - (ولا ترکنوا إلی الذین ظلموا فتمسکم النار) - [۱] ، وتحدید الذین ظلموا یحتاج إلی صاحب فقه عال فإن قیل أن الأمة قادرة علی هذا التحدید. قلنا وعلی رأس هؤلاء یکون من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا. وفی هذا نصوص. لأن الله ما طهرهم لا للدین والحیاة الدینیة فهم الأولی بتحدید أی عقبة علی طریق الدین. ومن المعلوم أیضا أن الأمة بها العدید من الدوائر التی هدفها الصد عن سبیل الله. ومنهم الذین أرادوا اغتیال الرسول صلی الله علیه وآله عند عودته من تبوک ووصفهم النبی بأنهم حرب لله ولرسوله فی الحیاة الدنیا وذلک فی حدیث صحیح. فالتعامل مع هذه الدوائر تحتاج إلی سیاسة خاصة تتألفهم فی الوقت الذی تجعلهم فیه بعید عن المناصب التی لا یطلعون فیه علی الأسرار المهمة، قال تعالی: - (یا أیها الذین آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونکم لا یألونکم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفی صدورهم أکبر) - [۲] ، أخرج ابن جریر وابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: هم المنافقون [۳] ، وقال ابن کثیر: نهی الله تعالی عباده المؤمنین عن اتخاذ المنافقین بطانة [۴] ، فإن قیل أن الأمة تعرف المنافقین. قلنا: لا نسلم بهذا وإنما نسلم بمن جاء فیه نص.

[صفحه ۳۵۲]

فالذی لا یحبه إلا مؤمن ولا یبغضه إلا منافق هو القادر علی القیادة وتحدید الذین سیتعامل معهم. ومن هو الذی سیکون قریبا من دائرة القرار ومن هو الذی ینبغی أن یکون فی موقع بعید عن الأسرار المهمة للدولة. إن سهم المؤلفة قلوبهم لم یکن یعطی کی یعتنق البعض الإسلام. فهذا المنطق فی دیار التبشیر حیث ینطلق المبشرون بالخبز والدواء فی کل مکان کی یعتنق الناس النصرانیة. أما الإسلام فلا لأن الآیة حددت القلب کدائرة عمل قال تعالی: - (والمؤلفة قلوبهم) -، فالرسول صلی الله علیه وآله یهیئ قلوبهم ویجهزها کی تستقبل منه. ومعنی یهیئ قلوبهم أن یحدد المرض الذی علی الطریق إلی القلب ثم یجهز له الدواء المناسب. فهناک من کان النبی یتألفه بوضعه علی رأس سریة من السرایا. حتی إن عمرو بن العاص عندما قیل له عند موته: قد کان رسول الله یدینک ویستعملک قال: أما والله ما أدری أحبا کان ذلک أم تألفا یتألفنی [۵] ، ومنهم من کان یتألفهم بمشاورتهم فی بعض الأمور. ومنهم من کان یتألفه بالمال عن صفوان بن أمیة قال: أعطانی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم وإنه لأبغض الخلف إلی فما زال یعطینی حتی أنه لأحب الخلق إلی [۶] .

إن الرسول صلی الله علیه وآله یحدد الداء الذی فی الصدر وعلیه یعطی الدواء لکی یقیم الحجة علی أفراد بعینهم. أنه صلی الله علیه وآله یحطم الأصنام التی تحت الجلود کی یجعل أصحابها أحرارا فی اتخاذ القرار. کما حطم إبراهیم علیه السلام الأصنام من قبل کی یرجع القوم إلی أنفسهم ویکونوا أحرارا فی اختیارهم " قال بل فعله کبیرهم هذا فاسألوهم إن کان ینطقون. - (فرجعوا إلی أنفسهم فقالوا إنکم أنتم

[صفحه ۳۵۳]

الظالمون) - [۷] ، فالإسلام لم یأت بأجولة من الدنانیر والدراهم کی یعتنقه الناس. وإنما جاء بالکلمة والحرکة التی تذکر الإنسان

بمخزون الفطرة وتجعله يقرأ الوجود من حوله من منطلق التوحيد. وإذا كان الإسلام قد فرض سهما للمؤلفة قلوبهم لحكمة فإنه طالب أتباعه بأن يجاهدوا فی سبيل الله بالمال والولد. فهو يعطی لهدف ويأخذ لهدف والله غنی عن العالمين. وروی أنه يوم حنين أعطی النبی قريشا ولم يعط الأنصار. فحزن بعض الأنصار لذلك فقال لهم رسول الله صلی الله عليه وسلم ": إننی أعطی رجالا حديثی عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلی رحالكم برسول الله. فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا: بلی يا رسول الله قد رضينا فقال لهم: إنكم سترون بعدی آثرة شديدة فاصبروا حتی تلقوا الله ورسوله علی الحوض. قال أنس وهو الراوی للحديث: فلم نصبر [۸] فالذين أخذوا المال كان المال لهم دواء من أجل أن ينتصروا علی فی أنفسهم. وهناك من كان يطلب من النبی أن يعطيه. وعندما رأی أنه انتصر داخل نفسه لم يسأل مالا وتركه ليكون سبيلا إلی آخر. فعن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله صلی الله عليه وسلم فأعطانی. ثم سألته فأعطانی ثم قال لی: يا حكيم إن هذا المال خضر حلو. فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك فيه وكان كالذی يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلی. قال حكيم فقلت: يا رسول الله والذی بعثك بالحق لا أرزأ أحد بعدك شيئا حتی أفارق الدنيا. وهناك صنف كان النبی صلی الله عليه وسلم يعطيهم وهو يعلم أن الله ختم علی قلوبهم فهم لا يؤمنون. وهؤلاء الذين قال فيهم الله تعالی: - (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) - [۹] ، وهناك أيضا الذين قال فيهم

[صفحه ۳۵۴]

تعالی: - (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هو بمؤمنين) - [۱۰] ، والرسول صلی الله عليه وآله كان يعطی هؤلاء يكون سهم المؤلفة عليهم علامة. يكون كالسك وعلی هذا يكونوا معروفين للأمة فتحذرهم وتتعامل معهم بفقه عال فلا توليهم المناصب العليا فی الدولة حتی لا يصلوا إلی موقع القرار. ولله تعالی علی بعض عباده علامات. قال سبحانه فی كفار أهل الكتاب: - (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) - [۱۱] ، ضربت كضرب السكة علی المعدن أو كضرب الخيمة علی الإنسان، وسهم المؤلفة علی الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين كالسك علی المعدن. وليس كل من رآه المسلمين مؤمنا أن يكون بالضرورة مؤمنا فيولونه أمورهم. روی الإمام مسلم أن النبی صلی الله عليه وآله وسلم أعطی قوما كان سعد يجلس فيهم. فترك النبی منهم من لم يعطه. وكان سعد يعجبه بعض الذين لم يعطهم النبی فقال سعد: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إنی لأراه مؤمنا. فقال النبی صلی الله عليه وآله وسلم: أو مسلما. ثم تكرار هذا الموقف أكثر من مرة وسعد يقول ما قال والنبی يقول: أو مسلما. ثم قال النبی: إنی لأعطی الرجل وغيره أحب إلی منه خشية أن يكب فی النار [۱۲] ، وفی هذا الحديث أن سعدا كان يحكم علی طرف بأنه مؤمنا وذلك وفقا لما يراه. أما الرسول صلی الله عليه وآله كان يحكم بما لا يراه سعد. وهذا المقياس له بعد النبوة امتداد. لأن الذين يقولون آمنا وهم لا يؤمنون باقون وأيضا سهم المؤلفة باقی لأنه لم ينسخ بقرآن. وعلی هذه الخلفية يمكن أن نفهم قول النبی صلی الله عليه وآله بن أبی طالب ": ألا ترضی أن تكون منی بمنزلة هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی [" ۱۳] ، ويضاف قوله لعلی ": لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق [" ۱۴] ، فهذا الامتداد يحفظ الدعوة من

[صفحه ۳۵۵]

الذين ظلموا ويمنع تسلل بطانة السوء إلی المقاعد الأولی. لأن الاقتراب فی الدين أو الحياة الدينية من هذه الدوائر بنوع من الاعتماد والاتكاء يخرج الدين أو الحياة الدينية عن الاستقلال فی التأثير. وبعد وفاة النبی صلی الله عليه وسلم لم يتحقق الامتداد لمصلحة رآها بعض الصحابة يحفظون بها الحياة الدينية. فأمسكوا سهم المؤلفة الذی كان يعطيه النبی صلی الله عليه وسلم للبعض من قريش وغيرهم فقد روی أنه صلی الله عليه وسلم كان يبعث بالمال إلی أبی سفيان ليفرقه فی قريش ليتألفهم [۱۵] ، ولكن رأی الصحابة نشأ عنه آثار جانبية مثل التی تنشأ عن الدواء الذی يستخدم فی علاج داء معين ومن جملة هذه الآثار أن أبا سفيان دخل علی عثمان بن عفان بعد أن كف بصره فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا، فقال: يا عثمان إن الأمر أمر عاليه والملك ملك جاهلية فاجعل أوتاد الأرض بنی أمية

[۱۶] ، وفی روایـة قال: یا معشـر بنی أمیة إن الخلافة صارت فی تیم وعدی حتی طمعت فیها. وقد صارت إلیکم فتلقفوها بینکم تلقف الصبی للکرة [۱۷] ، وفی مروج الذهب عنه أنه قال: یا بنی أمیة تلقفوها تلقف الکرة فوالذی یحلف به أبو سـفیان ما زلت أرجوها لکم ولتصـرن إلی صبیانکم وراثة [۱۸] ، وروی أنه مر بقبر حمزة بن عبـد المطلب فضـربه برجله وقـال: یا أبا عمارة إن الأمر الـذی اجتلـدنا علیه بالسـیف أمس صار فی ید غلماننا الیوم یتلعبون به. ومن جملة ذلک أیضا أن معاویة الذی ضاع من علی یدیه سـکة سهم المؤلفة بعـد التضـییق علی الروایـة نازع علی الخلافـة. وجلس فی المقعـد الأول یقود الحیاة الدینیـة للأمـة!! ومن جملـة هـذا ظهور المزید من المنافقین الـذین یقرأون القرآن یریـدون به ما عند الناس. روی أن الفاروق عمر بن الخطاب خطب الناس فقال: أیها الناس ألا إنما کنا نعرفکم إذ بین ظهرانینا النبی صلی الله علیه

[صفحه ۳۵۶]

وآله وسـلم. وإذ ینزل الوحی... وإذ ینبأنا الله من أخبارکم ألا وإن النبی صـلی الله علیه وآله قـد انطلق وانقطع الوحی وإنما نعرفکم بما نقول لکم من أظهر منکم خیرا ظننا به خیرا وأحببناه علیه. ومن أظهر لنا شـرا ظننا به شرا وأبغضناه علیه. سرائرکم بینکم وبین ربکم ألا أنه قـد أتی علی حین وأنا أحسب أن من قرأ القرآن یریـد الله وما عنـده فقـد خیل إلی بآخره ألا أن رجالا قـد قرأوه یریدون به ما عند الناس فأریدوا الله بقراءتکم وأریدوه بأعمالکم [۱۹] .

فی هـذا الخطاب أمضـی الفاروق بأن الطریق الذی بدأه بقول ": حسـبنا کتاب الله " قد أنتج فی عهده. من یقرأ القرآن یرید به ما عند الناس. وفی الخطاب یأس من معرفـة المنافقین. وفیه أن العمود الفقری الذی تدور علیه السـیاسة " وإنما نعرفکم بما نقول لکم، " وقد أمر رضی الله عنه بما کان یراه لمصلحة المسلمین. ولکن الإشکال فی قوله ": من أظهر لنا شرا ظننا به شرا، " لأن المنافق لا یظهر شرا!! وعلی هـذا تسـلل أغیلمة قریش إلی الکراسـی الأولی. وأمروا الناس بقتل الحسـین واسـتباحة المدینة. وقتل من بقی من الأنصار وحرق الکعبة وجلد المسـلمین. وکانوا یعرفون الناس بما یقولون لهم فمن أظهر لهم شـرا أطاحوا برقبته وطافوا برأسه. حتی انتهی الأمر إلی ما أخبر به رسول الله صـلی الله علیه وآله وسـلم فی أمراء السور وبطانتهم. وأغلب الظن أن الصـحابة فی المجتمع المدنی بعد رحیل النبی صلی الله علیه وآله تبینوا أن وجود سهم المؤلفة یحتم وجود طرف آخر تحت ضوئه یظهر النفاق، ونظرا لأن ظروفا ما حتمت إبعاد هذا الطرف سیصـبح سـهم المؤلفة إرثا للذین کان النبی صلی الله علیه وآله وسلم یعطیهم أو أن قاعدته ستتسع لتشمل البعض من الذین لم یقطع بنفاقهم أو سیصـبح نهیا ویوظف لاتجاهات أخری الصـحابة أجل من أن یخوضوا فیها، وعلی هـذا فضـلوا الإطاحة بالسـهم وهذا العمل وفقا لأعمدة المجتمع المدنی عمل لا غبار علیه ویمکن فهمه.

[صفحه ۳۵۷]

[۱] سورة هود ۱۱۳.

[۲] سورة آل عمران: الآیة ۱۱۸.

[۳] الدر المنثور ۶۶:۲.

[۴] تفسیر ابن کثیر ۳۹۸:۱.

[۵] أخرجه الإمام أحمـد وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصـحیح وله طرق أخری (الفتح ۳۱۰:۲۲)، ورواه ابن سعد (الطبقات الکبری ۲۶۳:۱) وابن أبی شیبة (کنز العمال ۵۴۹:۱۱) وراجع مجمع الزوائد (۳۵۳:۹).

[۶] رواه مسلم، ورواه الترمذی (جامع الترمذی ۴۴:۳.

[۷] سورة الأنبیاء: الآیة ۶۴.

[۸] البخاری ک الجهاد (۱۹۹:۲) مسلم (۱۵۱:۷) أحمد (الفتح الربانی ۸۹:۱۴).

[۹] سورة یس: الآیة ۶.

[۱۰] سورة البقرة: الآیة ۸.

[۱۱] سورة البقرة: الآیة ۶۱.

[۱۲] رواه مسلم وغیره (صحیح مسلم ۱۸۲:۲).

[۱۳] رواه البخاری وغیره (الصحیح ۸۶:۳) وسبق تخریجه.

[۱۴] رواه مسلم وغیره وسبق تخریجه.

[۱۵] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۷۶:۹).

[۱۶] الأغانی ۶:۳۵۵، تهذیب ابن عساکر ۴۰۷:۶.

[۱۷] الأغانی ۳۵۵:۶، الإستیعاب ۶۹۰:۲.

[۱۸] الأغانی ۳۵۵:۶، الإستیعاب ۶۹۰:۲.

[۱۹] رواه أحمد وقال فی الفتح إسناده حسن وأخرج البخاری الطرف الأول منه (الفتح الربانی ۸۷:۲۳) ورواه ابن خزیمة والبیهقی والحاکم وابن سعود وابن عساکر وسعید بن منصور (کنز العمال ۱۶۳:۱۶).

الامراء والفتن

کانت سیرة النبی صلی الله علیه وآله فی أمرائه الذین یبعثهم لإنجاز مهمة ما أن یحذرهم بأن معصیته هی معصیة لله. وکانوا یعلمون أن الوحی یرصدهم تحت جلودهم. وکان صلی الله علیه وآله یحذرهم من اتخاذ أی قرار لم یمضه حتی لا تسیل قطرة دم بغیر حق. عن معاذ بن جبل قال بعثنی رسول الله صلی الله علیه وآله إلی الیمن فلما سرت أرسل فی أثری. فرددت فقال: أتدری لم بعثت إلیک؟ لا تصیبن شیئا بغیر إذنی فإنه غلول ومن یغلل یأت بما غل یوم القیامة، لهذا دعوتک فامض لعملک [۱] ، وکان صلی الله علیه وآله وسلم یبرأ إلی الله من أی أمیر لا یتقید بأوامره أو یجتهد فی أمر اجتهاد لیس للإسلام فیه نصیب. روی أنه صلی الله علیه وآله بعث خالد بن الولید فی بعث إلی بنی خزیمة فدعاهم إلی الإسلام فلم یحسنوا أن یقولوا أسلمنا " قالوا صبأنا صبأنا. فجعل خالد یقتل منهم ویأسر. وعندما علم النبی صلی الله علیه وآله وسلم بالخبر رفع یده وقال: اللهم إنی أبرأ إلیک مما صنع خالد - مرتین - [۲] ، وکان صلی الله علیه وآله وسلم یأمر الجنود بأن یطیعوا أمراءهم إذا کان الأمر فی حدود المهمة التی أرسلوا إلیها وأن یطیعوه إذا اجتهد اجتهادا لا یتعارض مع الإسلام. روی أن النبی صلی الله علیه وآله بعث سریة و أمر

[صفحه ۳۵۸]

من فیها بأن یطیعوا أمیرهم. وعند تنفیذ المهمة غضب الأمیر. فقال لمن معه: ألیس أمرکم النبی صلی الله علیه وسلم أن تطیعونی. قالوا: بلی، قال: فاجمعوا لی حطبا فجمعوا فقال: أوقدوا نارا. فأوقدوها. فقال: إدخلوها فهموا. وجعل بعضهم یمسک بعضا ویقولون: فررنا إلی النبی من النار [۳] ، فما زالوا حتی خمدت النار. فسکن غضب الأمیر فبلغ النبی صلی الله علیه وسلم فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلی یوم القیامة والطاعة فی المعروف [۴] ، وروی أن عمران بن حصین بعد وفاة النبی کان یذکر بهذا الحدیث الأمراء الذین کانوا یتسعملهم زیاد [۵] .

[۱] ورواه الترمذی. وقال فی تحفة الأحوازی أخرجه أبو داود والبیهقی وابن حمید وابن عدی (التحفة ۵۶۵:۴).

[۲] رواه البخاری کتاب المغازی ب بعث النبی خالد (الصحیح ۷۱:۳).

[۳] أی آمنا خوفا من النار یوم القیامة ونحن الآن نأمر بالدخول فیها.

[۴] رواه البخاری ک المغازی (الصحیح ۷۱:۳) وأحمد بإسناد صحیح (الفتح ۴۲:۲۳).

[۵] رواه أحمد وفيه " لا طاعة لمخلوق فی معصية الخالق " وقال الهيثمی رجاله رجال الصحيح (الفتح ۴۲:۲۳).

امراء علی الطريق

وكما ذكرنا من قبل أن النبی صلی الله عليه وسلم كان يستعمل البعض
علی رأس السرايا تألفا منهم عمرو بن العاص وقد ولاه أميرا علی أبی بكر وعمر وأبی عبيدة بن الجراح فی غزوة ذات السلاسل [۱] ، وكان النبی قد وجهه إلی أخوال أبيه العاص يستألفهم بذلك و يدعوهم إلی الإسلام [۲] ، فلما وصل ابن العاص إلی أرض السلاسل بعث إلی النبی صلی الله عليه وسلم يستمده بجيش فأمده بمأتين فيهم شيوخ المهاجرين [۳] ، لقد كانت هذه سيرته صلی الله عليه وسلم فی تحديد الأمراء وتعيين أهداف الدعوة. وبعد وفاة النبی صلی الله عليه وسلم. كانت هناك مقاييس أخری لهذه العملية. فعلی سبيل
[صفحه ۳۵۹]
المثال خالد بن الوليد الذی تبرأ من صنعة النبی صلی الله عليه وسلم نجده فی عهد أبو بكر يرتكب مخالفات ليست أقل خطورة مما ارتكب من قبل ولكن فعله توارى وراء تعريف " تأول فأخطأ وله أجر واحد، " وكان الشخص الذی يرتكب مخالفة للكتاب أو السنة بعد وفاة الرسول صلی الله عليه وسلم ويراد الاعتذار عنه أو يصحح عمله يقال له ": تأول " وتطور الاعتذار إلی حد صار إلی كل جريمة ترتكب ومن أمثلة ذلك اعتذار ابن حزم عن أبی الغادية قاتل عمار بن ياسر من أنه متأول مجتهد فأخطأ فله أجر واحد هذا مع ما تواتر من قول النبی صلی الله عليه وسلم فی عمار أنه تقتله الفئة الباغية. ومخالفة خالد عندما قتل مالك بن نويرة ثم تزوج امرأته التی وصفها ابن كثير بأنها كانت جميلة [۴] ، قصة معروفة عند من تأمل كتب السير والنقل. فمالك بن نويرة كان علی صدقات قومه بنی يربوع واليا من قبل رسول الله صلی الله عليه وسلم. ولما بلغه وفاة الرسول صلی الله عليه وسلم أمسك عن أخذ الصدقة من قومه حتی يقوم قائم بعد النبی صلی الله عليه وسلم. وروی أهل النقل. إن أبا بكر وصی الجيش الذی بعثه ليقاتل مانعی الزكاة. بأن يؤذنوا ويقيموا فإن أذن القوم كأذانهم وإقامتهم كفوا عنهم. وإن لم يفعلوا أغاروا عليهم [۵] وعندما تقدم خالد نحو بنی يربوع وكان معه أبو قتادة
بن سراباه وأمر جنوده أن يدعوا القوم وأن يأتوه بكل من لم يجب. فجاءته الخيل بمالك بن نويرة الذی انتهی الأمر بقتله وتزوج خالد زوجته أم تميم بنت المنهال. وكان أب قتادة الحارث بن ربعی ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا و صلوا. وحلف أبو قتادة ألا يسير تحت لواء خالد فی جيش أبدا [۶] وركب أبو قتادة فرسه
واتجه إلی أبی بكر فأخبره الخبر وقال له: إنی نهيت خالدا عن قتله فلم يقبل قولی. وعندما سمع عمر بن الخطاب الخبر قال: إن القصاص قد وجب علی
[صفحه ۳۶۰]
خالد. وعندما جاء خالد قام إليه عمر فنزع الأسهم عن رأسه فحطمها ثم قال له: يا عدو نفسه أعدوت علی امرئ مسلم فقتلته ثم نزوت علی امرأته والله لنرجمنك بأحجارك. وخالد لا يكلمه. ولا يظن إلا أن رأی أبی بكر مثل رأيه. حتی دخل إلی أبی بكر واعتذر إليه بعذره وتجاوز عنه. فخرج خالد وعمر جالس فی المسجد فقال: هلم إلی يا ابن أم شملة. فعرف عمر أن أبا بكر قد رضی عنه [۷] وروی أن أبا بكر قال ": ما كنت لأرجمه فإنه تأول فأخطأ " وفی رواية:
"هبه يا عمر تأول فأخطأ " فارفع لسانك عن خالد [۸] .
لقد كانت هذه بداية جاء عليها طوفان من الأمراء فيما بعد. فی البداية قام الأمراء بالقتل علی الرغم من أن الخليفة وضع شرطا لهذا القتال، وهو الآذان والإقامة. ونحن لا نناقش هنا الأساس الفقهی الذی استند إليه أبو بكر فی قتال مانعی الزكاة. وقد علمنا أن النبی

صلی الله علیه وآله لم یقبل زکاة ثعلبة بن حاطب وقصته مذکورة فی سورة التوبة. ونحن لا نناقش الأساس الفقهی فی ذلک وقد رأینا عمر نفسه قد اعترض علی قتال مانعی الزکاة منذ البدایة واعترض علی مخالفات خالد. ولا ندری کیف یقتل مالک علی الزکاة وهو یصلی. فهل معنی ذلک أن یقتل الذی لا یصلی حتی إذا أخرج الزکاة. وذلک لأن الصلاة والزکاة حزمة واحدة ومعها الشهادتین وحج البیت. ولکننا نناقش هنا الأرضیة التی جاء علیها الأمراء. لأن منها خرجت فتن وصل دخانها عنان السماء. لقد علمنا أنه فی عهد النبوة کانت هناک دوائر عدیدة هدفها الصد عن سبیل الله. وکان الرسول یدعو علی بعضهم ویطرد بعضهم ویخبر أصحابه بأسماء البعض الآخر. وکان عبد الله بن عمرو یکتب بعض أحادیث النبی صلی الله علیه وآله وسلم فی صحیفة خاصة به. فلما علمت جهات الصد عن السبیل بذلک. حاولوا أن یحولوا بین عبد الله وبین ما یکتب نظرا لاحتمال ذکرهم فیما یکتب.

[صفحه ۳۶۱]

روی عن عبد الله أنه قال: کنت أکتب کل شئ أسمعه من رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم أرید حفظه فنهتنی قریش. وقالوا: أتکتب کل شئ تسمعه ورسول الله صلی الله علیه وآله بشر یتکلم فی الغضب والرضا. فأمسکت عن الکتابة. فذکرت ذلک لرسول الله صلی الله علیه وآله فأومئ لی شفتیه وقال: والذی نفسی بیده ما یخرج مما بینهما إلا حق فاکتب [" ۹] .

لقد کان التدوین عقبة أمامهم. فلما جاء عهد الفاروق وهدد من یروی بالضرب والحبس وذلک لمصلحة للمسلمین لا نستطیع الوقوف علیها. ضاع ذکر القوم. وعندما أقدم الفاروق رضی الله عنه علی إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم. تجرد القوم من علامة بارزة تدل علی تألفهم لضعف إیمانهم. ومع نسیان أخبارهم وضیاع علامتهم انخرطوا فی نسیج واحد مع الأمة دون اتخاذ الأمة لأی نوع من أنواع الحذر والحیطة تجاههم. ولکی تکتمل المأساة کذبوا علی رسول الله صلی الله علیه وآله. نظرا لاحتمال تسرب حدیث من الأحادیث التی ذمهم فیها النبی. وعلی سبیل المثال لقد وصفوا النبی لابن عمرو عندما کان یکتب. بأن النبی بشر یتکلم فی الغضب والرضا. ونجدهم یقولون علی لسان الرسول فیما بعد ": اللهم إنما محمد بشر یغضب کما یغضب البشر. وإنی اتخذت عندک عهدا لن تخلفه. فأیما مؤمن آذیته أو سببته أو جلدته فاجعلها کفارة وقربة تقربه بها إلیک یوم القیامة [" ۱۰] ، وهکذا جعلوا النبی مؤذیا سبابا جلادا حتی یفلتوا مما ورد فیهم. ورووا عنه أیضا أنه قال ": اللهم فأیما مؤمن سببته أو لعنته فاجعل ذلک له قربة إلیک یوم القیامة [" ۱۱] ، هکذا جعلوه سبابا ولعانا " هذه الأحادیث یعارضها قوله الله تعالی: - (وإنک لعلی خلق عظیم) - [۱۲] ، وقوله تعالی: - (وما

[صفحه ۳۶۲]

ینطق عن الهوی) - [۱۳] ، وقوله تعالی: - (ولو کنت فظا غلیظ القلب لانفضوا من حولک) - [۱۴] ، إلی غیر ذلک من الآیات. ویعارضه حدیث " لم یکن النبی سبابا ولا فحاشا [" ۱۵] ، وإذا کان النبی قد لعن أحدا فإن هذا اللعن بأمر من الله قال تعالی: - (إن الذین یکتمون ما أنزلنا من البینات والهدی من بعد ما بیناه للناس فی الکتاب أولئک یلعنهم الله ویلعنهم اللاعنون) - [۱۶] ، وقد أمر الله رسوله یوم مباهلة نصاری نجران بأن یأتی بعلی وفاطمة والحسن والحسین وأن یقول للنصاری: - (ثم نبتهل فنجعل لعنة الله علی الکاذبین) - [۱۷] ، فالرسول لا ینطق إلا بوحی ولکن أجهزة ومؤسسات الصد جعلته یغضب کما یغضب البشر لأسباب یفهمها کل باحث عن الحقیقة. وبعد أن انخرطوا مع الأمة فی نسیج واحد ضاع ذکرهم بعد أن أغلقت الأبواب علی الأحادیث التی حذرت منهم. کما ضاع ذکر أهل البیت بعد أن أغلقت نفس الأبواب علی الأحادیث التی رغبت فیهم. ورغم ذلک کان فی الساحة طائفة موالیة لأهل البیت ولکن فی عالم الظلال... وتحت الأضواء کان هناک من یسیر بین الأمة وهدف الأمة. کان یود لو أمسک بقائمة کرسی أمام باب من الأبواب یتسلق علیها إلی کرسی آخر حتی یخرج الحیاة الدینیة عن مسارها وتتحول فیما بعد إلی اتجاه یدفع إلی فتن حذر النبی صلی الله علیه وآله من مقدماتها. ونحن هنا سنلقی بعض الضوء علی بعض الأمراء الذین کانت بدایة ظهورهم فی عهد أبی بکر ثم تدفقت بهم الدولة بعد ذلک علی امتداد تاریخها. أما الذین کانوا علی عهد أبی بکر فمنهم رجل یدعی الفجأة. قدم إلی أبی بکر وزعم أنه مسلم وسأله أن یجهز معه جیشا یقاتل به أهل الردة. فجهز معه جیشا فلما سار جعل لا یمر بمسلم أو مرتد إلا قتله وأخذ

ماله. وعندما علم أبو بكر

[صفحه ۳۶۳]

بهذه الأحداث رده ثم أحرقه فى النار [۱۸] ، ومن قبل رأينا خالد بن الوليد الذى وصفته الأحاديث الصحيحة أنه كان من المبغضين لعلى بن أبى طالب كيف ركب على رأس جيش وقتل مالك وأخذ ماله وتزوج زوجته. وتحت شعار حروب الردة برز عمرو بن العاص. وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبى بكر حين شيع عمرو بن العاص: أو تزيد الناس نارا. ألا ترى ما يصنع هذا بالناس! فقال: دعه فإنما ولاه علينا رسول الله لعلمه بالحرب [۱۹] ، وغير هؤلاء كثير شربوا لبن الإمارة صغارا ثم قاتلوا من أجلها كبارا ثم جاء عهد عمر بن الخطاب فاتسعت الرقعة. ولقد كانت الرقعة فى عهد أبى بكر على مسرحها تدور الكثير من حروب الردة وبعض الفتوحات، أما فى عهد عمر فعلى مسرحها دارت الفتوحات الكثيرة الواسعة. وبحجم الفتوحات كان حجم الأمراء. ومن هؤلاء الأمراء. معاوية بن أبى سفيان، الذى أسلم هو وأبيه وأمه يوم الفتح [۲۰] ، وقال البعض: إنه أسلم بعد الحديبية وكتم إسلامه وهذا يعارضه ما ثبت فى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص أنه قال فى العمرة فى أشهر الحج. فعلناها وهذا يومئذ كافر [۲۱] ، كان الفاروق لا يخفى إعجابه بمعاوية، روى أنه ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها أنه لمن يضحك فى الغضب ولا ينال منه إلا على الرضا ومن يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه [۲۲] ، وكان يقول للناس: تذكرون كسرى وعندكم معاوية [۲۳] ، ومعاوية بدأ يحبو فى اتجاه الكرسى بعد وفاة أخيه يزيد بن أبى سفيان الذى كان له كرسى فى عهد أبى بكر وعمر عندما مات يزيد. كتب عمر بولاية معاوية مكان أخيه. وعندما ذهب عمر ليعزى أبى سفيان

[صفحه ۳۶۴]

فى ابنه يزيد قال له أبو سفيان: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية، فقال أبو سفيان: وصلت رحما يا أمير المؤمنين – وفى رواية – قال أبو سفيان: فمن بعثت على عمله؟ قال عمر: معاوية أخاه! إبنان مصلحان وإنه لا يحل لنا أن ننزع مصلحا [۲۴] .

وبعد أن ركب معاوية على الكرسى جاءته رسالة من أبيه وأخرى من أمه. قال له أبوه: يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخيرنا فصاروا قادة وسادة. وصرنا أتباعا وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم فإنك تجرى إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقلك!! وقالت له أمه فى رسالتها: والله يا بنى إنه قل أن تلد حرة مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت [۲۵] .

ولقد أخذ معاوية بالنصيحة. روى لما قدم عمر إلى الشام تلقاه معاوية فى موكب عظيم. فلما دنا من عمر قال له: أنت صاحب الموكب. قال: نعم، فقال: هذا حالك مع ما بلغنى من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك لم تفعل ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون عز الإسلام وأهله ويرهبون به فإن أمرتنى فعلت وإن نهيتنى انتهيت. فقال عمر: يا معاوية ما سألتك عن شئ إلا تركتنى فى مثل رواجب الفرس لئن كان ما قلت حقا إنه لرأى رأيت ولئن كان باطلا- إنه لخديعة أديت، قال معاوية: فمرنى يا أمير المؤمنين بما شئت، فقال: لا آمرك ولا أنهاك!! [۲۶] وروى ابن المبارك عن أسلم مولى عمر قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض الناس وأجملهم فخرج إلى الحج مع عمر فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه. ثم يضع إصبعه على متن معاوية ثم يرفعها ويقول: بخ بخ. نحن إذن خير الناس إن جمع لنا خير الدنيا والآخرة فقال معاوية: يا أمير المؤمنين سأحدثك أنا

[صفحه ۳۶۵]

بأرض الحمامات والريف والشهوات. قال عمر: ما بك إلا ألطافك نفسك بأطيب الطعام وذوى الحاجات وراء الباب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين علمنى أمتثل. فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها فوجد عمر فيها ريحا كأنه ريح طيب فقال، يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما. فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل

بهما على عشيرتى وقومى... فالله إنى قد عرفت الحياء فيه. ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه الذين أحرم فيهما [۲۷] ، لقد كان الفاروق يسأل فى كل مرة عن ذى الحاجات ولكم ذكراهم كانت تغيب فى ردود معاوية. والخلاصة أن معاوية كانت فى ذاكرته رسائل والديه ففى كل مرة قال: مرنى أمتثل! علمنى أمتثل. وعلاقة معاوية بالكرسى علاقة وطيدة. قال فى الإصابة: عاش ابن هند عشرين سنة أميرا وعشرين سنة خليفة [۲۸] ، وقال صاحب الإستيعاب: هو أول من أقام المهرجان. وأول من قتل مسلما صبرا حجرا وأصحابه. وأول من أقام على رأسه حرسا. وأول من قيدت بين يديه النجائب، وأول من اتخذ الخصيان فى الإسلام، وأول من بلغ درجات المنبر خمس عشر مرقاة – ليكون منبره أعلا من منبر رسول الله، وقال: أنا أول الملوك [۲۹] وأقول هو أول من دق وتد الوراثة

فى الحكم. وأول من قال بعدالة الصحابة ليدخل تحت هذه العدالة ولا ينتقده أحد، وأول من رعى القبائلية حتى أثمرت فى النهاية ثمرة القومية العربية. والإسلام ينظر للإنسان كإنسان ولا فرق عنده بين عربى وبين أعجمى إلا بالتقوى. وقال الحسن البصرى: أربع خصال كن فى معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف واستخلافه من بعده ابنه يزيد السكير الذى يلبس الحرير وادعاؤه زيادا والنبى قال ": الولد للفراش

[صفحه ۳۶۶]

وللعاهر الحجر، " وقتله حجر بن عدى وأصحابه. فيا ويل له من حجر، يا ويل له من حجر، يا ويل له من حجر وأصحاب حجر [" ۳۰] ، وحجر كان من شيعة على بن أبى طالب. وهكذا كانت البداية والنهاية فى مشهد وحركة. والتفاصيل تأتى فى موضعها.. ومنهم (عمرو بن العاص) ولقد كان الفاروق يلوم أبا بكر فى توليته عمرو ويقول ": أو تزيد الناس نارا؟ " ولكن بعد أن أجاد عمرو التسلق. كان عمر بن الخطاب إذا نظر إليه يقول ": ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرا [۳۱] ، ولاه عمر فلسطين والأردن ثم أمره بفتح مصر فلم يزل واليا عليها حتى مات عمر بن الخطاب. وأقره عثمان عليها ثم عزله عنها، فجعل يطعن على عثمان، ولما قتل عثمان سار إلى معاوية وخاض معه معاركه ضد الإمام على بن أبى طالب مقابل أن يعطيه مصر طعمة. وولاه معاوية مصر فلم يزل عليها إلى أن مات بها [۳۲] ، والذى يتأمل فى سيرة ابن العاص يجد أن حرصه على الإمارة كان محور الارتكاز لحركته.. ومنهم (الوليد بن عقبة) ولاه عمر صدقات بنى تغلب. وكان يتخذ أبا زبيد الشاعر نديما له. وعلى مائدة اللهو شربا الخمر ودقا قواعد شعر الخمريات. وصلاة الوليد بالمسلمين وهو سكران رواها أكثر من واحد [۳۳] ، ومنهم (عبد الله بن أبى السرح) الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله حتى ولو كان متعلقا بأستار الكعبة. ولاه عمر بعض أعماله وكان من المقربين إليه [۳۴] ، وكان لعبد الله فى عهد عثمان عيونه على بيت المال ومن أجل المال فرض الضرائب على أهل مصر وجلد ظهورهم فجاءوا يشكونه إلى عثمان. وكان

[صفحه ۳۶۷]

ما كان حتى قتل عثمان. ومنهم (المغيرة بن شعبة) قال: أنا أول من رشا فى الإسلام. أعطيت حاجب عمر بن الخطاب عمامة فكان يأنس بى ويأذن لى أن أجلس داخل باب عمر. فيمر الناس فيقولون: إن للمغيرة عند عمر منزلة إنه ليدخل عليه فى ساعة لا يدخل فيها أحد [۳۵] ، واستعمله عمر على البحرين فكرهوه وشكوا منه فعزله ثم ولاه البصرة. فاتهموه بالزنا فعزله، ثم ولاه الكوفة بعد ذلك [۳۶] ، وهكذا من كرسى إلى كرسى. والمغيرة أول من وضع فى حفرة بنى أمية الحكم بالوراثة. وسبب ذلك أن معاوية عزم على عزله من منصبه فأشار إليه بتنصيب ابنه يزيد من بعده. وهو يضمن له أصوات الشيوخ فى ولايته. فثبته معاوية وساقوا الشيوخ وتمت الوراثة. وكان جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة. فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من بابها إلا بمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها [۳۷] ، وعن الشعبى قال: دهاة العرب أربعة: معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد. فأما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللكبير والصغير [۳۸] .

. ومنهم (أبو الأعور السلمى) أدرك الجاهلية وشهد حنينا مشركا [۳۹] ، لعنه النبى صلى الله عليه وسلم [۴۰] وكان أمير المؤمنين على يدعو عليه [۴۱] ، وعن محمد ابن حبيب قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الآفاق أن يبعثوا إليه من كل عمل رجلا من صالحيها

فبعثوا إليه أربعة من البصرة والكوفة والشام ومصر. فاتفق أن الأربعة من بنى سليم وهو الحجاج بن علاط وزيد بن الأخنس ومجاشع بن مسعود وأبو الأعور. فجعل عمر السلمى على مقدمة

[صفحه ۳۶۸]

جيش [۴۲] ، وظل هكذا حتى عهد معاوية، وكان من أشد المبغضين لعلى بن أبى طالب.. ومنهم (يعلى ابن منبه) استعمله أبو بكر على بلاد حلوان فى الردة وعمل لعمر على بعض بلاد اليمن [۴۳] وكان عظيم الشأن عند عثمان. وهو الذى أعان الزبير بأربعمائة ألف واشترى لعائشة جمل يقال له عسكر وجهز سبعين رجلا من قريش [۴۴] ، وكل هذا لملاقاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب يوم الجمل. وكان يقول: من خرج يطلب يوم بدم عثمان فعلى جهازه [۴۵] .

. ومنهم (بسر بن أرطأة) كان أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمرو بن العاص فى فتح مصر. كان الكرسى هدفه، ومن أجله ارتكب أبشع الجرائم فى الإسلام فيما نقله أهل الأخبار وأهل الحديث. منها ذبحه ابنى عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب وهما صغيران بين يدى أمهما. وإغارته على همدان، وسبى نساء المسلمين فكن أول نساء سبين فى السلام، وقتله أحياء من بنى سعد [۴۶] .

لقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من أمراء ومن طريق تكون الإمارة فيه ندامة يوم القيامة. والأمراء الذين ذكرناهم لم يأتوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقرن من الزمان. وإنما جاءوا سريعا وشقوا طريقهم لأن السياسة لم تكتشفهم ولأن الاجتهاد مهد لهم – ولم يكن هؤلاء فقط فى بستان الصدر الأول وإنما كان هناك آخرون دخلوا عن عنوان أعلنه عمر بن الخطاب قال فيه: نستعين بقوة المنافق وإثمه عليه [۴۷] ، وقال ابن حجر فى فتح البارى: والذى

[صفحه ۳۶۹]

يظهر من سيرة عمر فى أمرائه الذين كان يؤمرهم فى البلاد أنه كان لا يراعى الأفضل فى الدين فقط بل يضم إليه الذى عنده مزيد من المعرفة بالسياسة فلأجل ذلك استخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل منهم فى أمر الدين والعلم [۴۸] .

لقد كان الطريق مفتوحا. فدخل منه رجال بكل هدوء ويسر منهم (إياس بن صبيح) قال صاحب الإصابة: كان من أصحاب مسيلمة الكذاب ثم أسلم وولاه عمر القضاء فى البصرة [۴۹] ، ومنهم (طليحة بن خويلد) الذى ادعى النبوة بعد النبى صلى الله عليه وآله. أعجب عمر لكلامه ورضى عنه وكتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يشاور [۵۰] ، وفى رواية: كتب عمر إلى النعمان بن مقرن استشر واستعن فى حربك بطلحة وعمرو بن معد يكرب ولا تولهما [۵۱] ، ومنهم (ابن عدى الكلبى) قال لعمر: أنا امرؤ نصرانى. قال عمر: فما تريد. قال: أريد الإسلام. فعرضه عليه فقبله. ثم دعا له برمح فعقد له على أمن أسلم. قال عوف بن خارجة: ما رأيت رجلا لم يصل صلاة أمر على جماعة من المسلمين قبله [۵۲] ، ومنهم (أبو زبيد الشاعر) كان عند أخواله من بنى تغلب بالجزيرة، وبعد أن فتحها الوليد بن عقبة فى خلافة عمر استعمل عمر أبا زبيد على صدقات قومه ولم يستعمل نصرانيا غيره [۵۳] ، ومنهم (كعب الأحبار) تولى عملية القص فى المساجد ثم انتقل إلى الشام فجعل للقص أوتاد اتخذها القوم سنة فيما بعد [۵۴] .

ولقد كانت هناك اعتراضات على عمر بن الخطاب فى توليته بعض الناس. روى أنه لما ولى معاوية الشام قال الناس: ولى معاوية فقال لهم: لا تذكروا

[صفحه ۳۷۰]

معاوية إلا بخير فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم أهده [۵۵] .

ومن المعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو لأمته كلها بالهداية. ومن العجيب أن حديث " اللهم أهده " حديث ضعيف إلا أن ابن كثير دافع عنه والتمس لا الأعذار. وهذا الموقف لا نجده إذا كان يتعلق بحديث صحيح لمعسكر غير معسكر معاوية. ومن الذين اعترضوا على عملية التوظيف هذه حذيفة رضى الله عنه. قال لعمر: إنك تستعين بالرجل الفاجر. فقال عمر: إنى لأستعمله

لأستعين بقوته ثم أكون على قفائه [۵۶] ، وكما ذكرنا من قبل إن الله نهى عن اتخاذ بطانة ينتهى طريقها بخروج الحياة الدينية ودخول حياة أخرى تحت أى اسم آخر. والنبى صلى الله عليه وسلم كان إذا استعمل أحدا وصاه وكان يتبرأ من أى عمل لا يصيب فى وعاء الدين والحياة الدينية، وكان وراء ذلك كله الوحى. وبعد رحيل النبى صلى الله عليه وسلم كانت للحياة الدينية سياسة وهذه السياسة يمكن للباحث أن يكتشفها بسهولة فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب. فلقد قيل له أن يبقى على الأمراء فى أول عهده حتى يستتب له الأمر. لكنه أبى إلا أن يعزلهم. لأنه علم من النبى صلى الله عليه وسلم نهاية الطريق الذى يركبه هؤلاء الأمراء. وما دام الطريق لا يصب فى المصب الصحيح فلا بديل لخلعهم. ما هى الفائدة التى ستعود على الدعوة من دهاء معاوية وعمرو والمغيرة؟ وما هى الفائدة التى ستعود على الدعوة من عضلات أبو الأعور وبسر بن أرطأة؟ وما هى الفائدة التى ستعود على الدعوة من وراء كعب الأحبار وأبى زبيد وتلميذ مسيلمة الكذاب وطلحة بن خويلد؟ قلت الدعوة ولم أقل ما هى الفائدة التى ستعود على المسلمين. ثم ما هى النتيجة ليس بعد ألف عام. ولكن فى القرن الأول فقط. ولقد اتسعت الدائرة بعد ذلك فى عهد عثمان بن عفان فمن الذين ذكرناهم

[صفحه ۳۷۱]

ممن اتسع نفوذهم عما كان عليه فى عهد أبى بكر وعمر وزاد عثمان القائمة بآخرين منهم:. (الحكم بن أبى العاص) كان من مسلمة الفتح وأخرجه رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة وطرده منها ولعنه وورد فى لعنه أحاديث صحيحة. أعاد عثمان فى خلافته. وكان من الأسباب التى نقمها الناس على عثمان. ومنهم (مروان بن الحكم) قيل: كان مع أبيه عندما طرده رسول الله صلى الله عليه وآله. وقيل: أن مروان ولد بالطائف فلم يزل مع أبيه بالطائف إلى أن ولى عثمان. روى أن عائشة قالت لمروان: أما أنت يا مروان فاشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أباك وأنت فى صلبه [۵۷] ، وكان مروان من أسباب قتل عثمان [۵۸] ، وقال الذهبى وابن عبد البر وغيرهما: مروان أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة [۵۹] ، وهذا الذى لعنه النبى صلى الله عليه وآله وسلم وشق عصا المسلمين. تولى الخلافة وأخذ لقب " أمير المؤمنين. " وهكذا وكما ترى فلقد كان الكرسى هو مركز الصراع. هناك من يخاف عليه. وهناك من يعمل كى يمتلكه. وهذا الإشكال لا يذيبه إلا نص. فتحت النص يكون لا خلاف ولا اختلاف ولا افتراق ولا صراع. لأن الله تعالى كتب على هداية الناس وفتح الطريق أمامهم. فإن ضلوا الطريق لا تكون لهم على الله حجة يوم القيامة. وكتب الله تعالى على نفسه أن من يختار لنفسه معجزة فلا يستطيع أن يتعدى عائق من العوائق حتى يعود إليه. ومن العوائق من يرتدى الحرير ويتحلى بالذهب والفضة. ولكن حقيقة البريق ترى بعد زمان ليس بطويل. فعندئذ تسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية. ولا يكون هناك ملجأ من الله إلا إليه. إن عالم الفتن. عالم يضرب بقفاز من حرير الذين نسوا ما ذكروا به

[صفحه ۳۷۲]

ويستدرج هؤلاء وهؤلاء إلى طريق ليس فيه إلا طعام وشراب اليأس وهناك يموتون كما تموت الحيتان.

[۱] رواه الطبرانى ورجاله ثقات (الزوائد ۳۵۲:۹) وسعيد بن منصور (كنز العمال ۷۸۲:۵) وابن حجر فى الإصابة (۲:۳) والاستيعاب (۵۱۰:۲).

[۲] الإستيعاب (۵۱۰:۲).

[۳] الإستيعاب (۵۱۰:۲).

[۴] البداية والنهاية ۳۲۲:۶.

[۵] الطبرى ۲۴۲:۳.

[۶] الطبرى ۲۴۳:۳.

[۷] الطبرى ۲۴۳:۳.

[۸] الطبرى ۲۴۲:۳.

[۹] رواه الحاکم وقال صحیح الإسناد أصل فی کتابه الحدیث عن رسول الله ولم یخرجاه (المستدرک ۱۰۵:۱) ورواه أبو داود حدیث رقم ۳۶۴۶.

[۱۰] رواه مسلم (الصحیح ۱۵۳:۱۶) ک البرب من لعنه النبی.

[۱۱] سورة القلم: الآیة ۴.

[۱۲] سورة النجم: الآیة ۳.

[۱۳] سورة.

[۱۴] سورة آل عمران: الآیة ۱۵۹.

[۱۵] رواه البخاری کتاب الآداب (الصحیح ۵۵:۴).

[۱۶] سورة البقرة: الآیة ۱۵۹.

[۱۷] سورة آل عمران: الآیة ۶۱.

[۱۸] البدایة والنهایة ۳۱۹:۶.

[۱۹] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۳۵۲:۹).

[۲۰] البدایة والنهایة ۲۱:۸، والاستیعاب ۳۹۵:۳.

[۲۱] الإصابة ۱۱۳:۶.

[۲۲] رواه الدیلمی فی سند الفردوس (کنز العمال ۵۸۷:۱۳)، البدایة والنهایة ۱۲۵:۸، الإستیعاب ۳۹۷:۸.

[۲۳] الطبری ۱۸۴:۶، الإستیعاب ۳۹۶:۳.

[۲۴] ابن سعد اللالکائی فی السنة (کنز العمال ۶۰۶:۱۳)، البدایة والنهایة ۱۱۸:۸، الطبری ۶۹:۵، الإستیعاب ۵۹۶:۳.

[۲۵] البدایة والنهایة ۱۱۸:۸.

[۲۶] الطبری ۱۸۴:۶، البدایة والنهایة ۱۲۵:۸.

[۲۷] البدایة والنهایة ۱۲۵:۸.

[۲۸] الإصابة ۱۱۳:۶، الإستیعاب ۳۹۸:۳.

[۲۹] الإستیعاب ۴۰۰:۳.

[۳۰] الطبری ۱۵۷:۶، ابن الأثیر ۱۹۳:۳، ابن أبی الحدید ۴۵۶:۱.

[۳۱] الإصابة ۳:۵.

[۳۲] الإستیعاب ۵۱۱:۲.

[۳۳] الإستیعاب ۶۳۳:۳.

[۳۴] الطبری ۵۹:۵، البدایة والنهایة ۲۱۴:۸.

[۳۵] الإصابة ۴۵۳:۳.

[۳۶] البدایة والنهایة ۴۸:۸.

[۳۷] البدایة والنهایة ۴۹:۸، الإصابة ۴۵۲:۳.

[۳۸] ابن عساکر (تاریخ الخلفاء ص ۱۹۰)، الإستیعاب ۳۸۹:۳.

[۳۹] الإصابة ۵۴۰:۲، أسد الغابة ۱۶:۶.

[۴۰] أبو نعیم (کنز العمال ۸۲:۸).

[۴۱] ابن أبى شعبة (كنز العمال ۸۲:۸).

[۴۲] الإصابة ۵۴۱:۲.

[۴۳] الإستيعاب ۶۶۲:۳.

[۴۴] الإستيعاب ۶۶۴:۳.

[۴۵] الإستيعاب ۶۶۳:۳.

[۴۶] الإستيعاب ۱۵۵، ۱۵۷:۱.

[۴۷] رواه ابن أبى شيبة والبيهقى (كنز العمال ۶۱۴:۴).

[۴۸] فتح البارى كتاب الأحكام ۱۹۸:۱۳.

[۴۹] الإصابة ۱۲۰:۱.

[۵۰] البداية والنهاية ۱۳۰:۷.

[۵۱] الإستيعاب ۲۳۸:۲.

[۵۲] الإصابة ۱۱۶:۱.

[۵۳] الإستيعاب ۸۰:۴.

[۵۴] الإصابة ۳۱۶:۳.

[۵۵] البداية والنهاية ۱۲۲:۸.

[۵۶] قفائه: مؤخر العنق والحديث رواه أبو عبيد (كنز العمال ۷۷۱:۵).

[۵۷] الإستيعاب ۳۱۸:۱.

[۵۸] الإصابة ۱۵۷:۲.

[۵۹] شذرات الذهب / ابن العماد ۶۹:۱.

الامراء والفتوحات

إن الجندية فى الإسلام لها هدف فربما يؤيد الله المسلمين بالرجل الفاجر

بمعنى أن يساعدهم بقوته فى القتال أو غير ذلك من أمور الحرب، أما أن يؤيد الله الدين بالرجل الفاجر فلا معنى لذلك، لأن الدين سلوك. وطرقة خاصة فى الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق بكمال الأخروى. والدين كطريق لا ينجو الإنسان من السلوك فيه إلا باستقامة، وعدم الاستقامة توجب السقوط والهلاك. وهذا لا يتفق مع الفاجر والفاسق والمنافق. كما أن السعادة الحقيقية يصل إليها الإنسان، أو يعمل فى الوصول إليها عندما يكون مؤمنا بالله. وكافرا بالطاغوت. وهذا لا يتفق أيضا مع أصحاب المصالح والأهواء والقتال فى الإسلام به قوانين وربما يقاتل إنسان ما تحت شعار الإسلام ولكن لا ينفعه الشعار إذا قتل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": من قتل تحت راية عمية ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية [" ۱] وزاد فى رواية ": ومن خرج على أمتى

يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى لمؤمنها ولا يفى لذى عهدها فليس منى ولست منه [" ۲] وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله الرجل

يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله [۳].

ومعارك الإسلام تحددها الدعوة ولا يحددها طلاب المال أو الغنائم. فالله تعالى هو الذى كتب القتال والدعوة التى كتب فيها القتال

هى التى تحدد موضع

[صفحه ۳۷۳]

كل قطرة دم، ومعارك الإسلام فى المقام الأول هى معارك لله وفى الله وبالله. قال تعالى: (سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم - وهو الذى أخرج الذين كفوا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) [۴] فبقوة الله وسلطانه أجرى سبحانه ما أراده بأيدى أعدائه، حيث

خربوا بيوتهم بأيدهم من الرعب وأيدى المؤمنين الذين أمرهم بذلك ووفقهم لامتثال أمره وإنفاذ إرادته. وكما حدد الله تعالى موضع كل قطرة دم فى معارك الإسلام حدد سبحانه موضع كل مال من غنائم الحرب. فقال تعالى: (واعلموا إنما غنمتم من شئ فإن الله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) [۵] ، وقال: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) [۶] ، فالله تعالى فى الآية الأولى بين موضع الخمس ويفهم من الآية أن أربعة أخماسها للغانمين [۷] وفى

الآية الثانية أفاء سبحانه الفئ وأرجعه إلى النبى صلى الله عليه وآله ودله على موارد صرفها التى يتصرف فيها كيف يشاء. وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قسم فئ بنى النضير على المهاجرين وأعطى بعض الأنصار. وعلى امتداد العهد النبوى كانت الدعوة تستعمل أدوات الفطرة وهى تشق طريقها إلى الفطرة، ومن الثابت أن الحكم الإسلامى عند وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يشمل إلا شبه الجزيرة العربية، وكانت الدعوة حريصة على إزالة العقبات التى تهدد الفطرة فى هذه المنطقة بعد أن رفض رؤوس الكفر

[صفحه ۳۷۴]

من أهل الكتاب الإيمان الحق. وعندما أخبر الله تعالى رسوله بأن هذه الأنماط البشرية لن تؤمن وأنهم يسعون فى الأرض فسادا ويسارعون فيه، كانت عملية إجلائهم عملية تستقيم تماما مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها. وعملية الإجلاء نسبها الله تعالى إلى نفسه فقال: (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب...)، فالله سبحانه هو الذى أخرج بنى النضير من ديارهم فى أول إخراجهم من جزيرة العرب، وأى إخراج لهم فى العهد النبوى يقف تحت هذا العنوان. إن الدعوة لم تضاعف عليهم الجزية وإنما أخرجتهم لأن فى الإخراج انتصارا للفطرة، وتأمينا للعاصمة من مخاطر الاختراق والدسائس التى يجيدها الذين يسعون فى الأرض فسادا. والدعوة التى حصنت نفسها بالتطهير من الداخل، عملت من أجل إيجاد المسلم الرسالى الذى إذا وضع قدميه على أرض جديدة فى الجزيرة العربية أو خارجها. عمل من أجل نشر مفاهيم الدعوة، وكلما جد جديد خرجت الطوائف الرسالية إلى العاصمة ليتحققوا الفقه والفهم فى الدين فيعملوا به لأنفسهم وينشروه بين الأقوام إذا رجعوا إليهم. وعلى ذلك كان تقسيم الأراضى على الغانمين هو فى الحقيقة موطئ قدم لداعية. وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كانت الذاكرة عند المسلمين تحتوى على وصايا منها إخراج المشركين من جزيرة العرب، ولكن الدولة نظرا لظروف خارجة عن إرادتها، ونظرا للمصلحة العامة ضاعفت الجزية على نصارى بنى تغلب، كما سمحت بدخول سبى العجم إلى المدينة، وكان أول سبى دخلها فى عهد أبى بكر ثم بعث معاوية أبى عمر فى عهده بعدة ألوف من سبى قيسارية. وكان عمر نفسه ضحية من ضحايا السبى، حيث إن الذى طعنه كان غلاما مجوسيا. ومع حركة الفتوحات هبت رياح تحمل آثارا وبصمات كان يعتقد أنها ذهبت بلا رجعة.

[۱] رواه مسلم (كنز العمال ۵۰۹:۳).

[۲] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانى ۵۲:۲۳).

[۳] رواه البخارى (الصحيح ۳۶:۱) ومسلم (الصحيح ۴۹:۱۳) وأحمد (الفتح ۲۰:۱۳) والترمذى (الجامع ۱۷۹:۴).

[۴] سورة الحشر: الآية ۱ – ۲.

[۵] سورة الأنفال: الآية ۴۱.

[۶] سورة الحشر: الآية ۷.

[۷] المغنى / ابن قدامة ۷۱۸:۲.

رحلة الخراج

مع الفتوحات جاء حرص الدولة على تدبير المال اللازم لحماية الحدود،

[صفحه ۳۷۵]

فضلا عن تدبير مصدر للإيرادات تستطيع منه سداد رواتب العاملين وغير ذلك من النفقات الملقاة على عاتقها. وإذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن سهم ذى القربى وسهم المؤلفة قلوبهم بأن الدولة تصرفت فيهما وفقا للمصلحة العامة، فإننا سنتحدث هنا عن الأخماس الأربعة التى فرضها الله للغانمين، وقد رأت الدولة التصرف فيها وفقا للمصلحة العامة أيضا. فلقد رأى عمر بن الخطاب أن المصلحة تقتضى عدم تقسيم الأرض على الغانمين وإبقائها فى أيدى أهلها، وفرض شئ عليها يؤدى سنويا إلى بيت المال. وما أن اتخذ عمر قراره حتى انقسم المسلمون إلى فريقين فريق ينادى بقسمة الأرض بين الفاتحين، وفريق آخر يقول بقول عمر. وكان عمر يرد على المعارضين بقوله ": هذا رأيى [" ۱] ، وروى أن بلال بن رباح وذويه قال لعمر فى الأرض التى افتتحوها عنوة: اقسمها بيننا وخذ خمسها، فقال عمر: لا هنا عين المال ولكنى أحبسه فيئا يجرى عليهم وعلى المسلمين. قال بلال وأصحابه: اقسمها بيننا. فقال عمر: اللهم اكفنى بلالا ـ وذويه. قيل: فما حال الحول ومنهم عين تطرف [۲] وعدم تقسيم عمر الأرض على الفاتحين مشهور، يقول ابن قدامة: إن عمر لم يقسم الأرض التى افتتحها. وتركها لتكون مادة لأخبار المسلمين... وقد نقلنا بعض ذلك وهو مشهور تغنى شهرته عن نقله" [۳] ، وما قاله الفقهاء فى إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم قالوه هنا أيضا. قالوا: إن قسمة النبى صلى الله عليه وآله وسلم خيبر كانت فى بدء الإسلام وشدة الحاجة! فكانت المصلحة فيه. وقد تعينت المصلحة فيما بعد ذلك فى وقف الأرض فكان ذلك هو الواجب [۴] .

والذى رآه عمر رضى الله عنه من الامتناع عن قسمة الأرض على من افتتحها من

[صفحه ۳۷۶]

الغزاة عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك!! توفيقا من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة للمسلمين [۵] .

وفتح بيت المال لاستقبال الخراج، وانطلق الأمراء الذين وقع اختيار أبى بكر وعمر عليهم من أجل أن يفتحوا البلاد. ولم تمض سنتان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله حتى اتسعت الفتوحات بسرعة هائلة، فاستولى المسلمون على أراضى كلدة والحيرة التى سميت فيما بعد بالعراق. ثم جاءت موقعة اليرموك لتفتح أبواب الشام، ويفتح المسلمون دمشق وأنطاكية وبيت المقدس. ثم تحولوا إلى الشرق فقضوا على الدولة الساسانية وحكموا إيران، ثم استولوا على أفغانستان ووصلوا إلى حدود نهر السند. ثم تحولوا إلى المغرب، وفتحوا مصر وعموم شمال إفريقيا، ووصل المسلمون إلى سواحل المحيط الأطلسى. ثم حملوا عن طريق ميناء طنجة على إسبانيا واستولوا على طليطلة. وبالجملة: أصبحت الدولة الإسلامية تمتد من شواطئ المحيط الأطلسى فى الغرب إلى نهر السند فى الشرق، ومن بحر مازندران فى الشمال إلى منابع النيل فى الجنوب. ونشر الدعوة عمل فطرى، ومن الثابت أن المخلصين لم تخل منهم ساحة على امتداد الفتوحات. فكما كان فى الصفوف طلاب المال والجاه كان فيها أيضا دعاة الحق وابتغاء مرضاة الله ولكن التيار العام لم يكن مع هذا الصنف الرسالى فى معظم الأحيان. ولهذا نجد أن النبى صلى الله عليه وآله كان يحذر من التيار العام وذلك لشدته وسرعته فقال: إذا فتحت عليكم فارس والروم أى قوم أنتم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: نكون كما أمرنا الله، قال النبى: أو غير ذلك تتنافسون ثم

تتحاسد ثم تتدابرون ثم تتباغضون [۶] .

والتنافس إلى الشئ المسابقة إليه وكراهة أخذ غيرك إياه. وهو أول درجات الحسد. وأما الحسد فهو تمنى زوال النعمة عن صاحبها. وأما التدابر

[صفحه ۳۷۷]

فهو التقاطع. وأما التباغض فهو بعد التدابر [۷] وهذا الطوفان من الكراهية

مفتاحه إذا فتحت عليهم فارس والروم!!، وقال صلى الله عليه وآله لأصحابه: كيف أنتم بعدى إذا شبعتم من خبز البر والزبيب وأكلتم ألوان الطعام ولبستم ألوان الثياب، فأنتم اليوم خير أم ذاك؟ قالوا: ذاك، فقال: بل أنتم اليوم خير [۸] وقال صلى الله عليه وآله: فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكن

أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم [۹] .

فهل وقع الذى أخبر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإذا كان قد وقع فما هى الأسباب وعلى أيدى من جرت؟ إن الذى جرى كان أمراء السوء مفتاحه وفقهاء السوء أقلامه. ولا يستطيع باحث أن ينكر أن معاوية بن أبى سفيان قد استغل الخراج إلى أبعد مدى لشراء الذمم وسفك دماء المسلمين، وإن عمرو بن العاص ساند معاوية لهدف واحد هو كطعمة بعد أن ذاق خراجها فى عهد الفاروق، وأن يعلى بن منية استعمل الخراج فى تقوية عائشة والزبير لخوض معركتهم مع على بن أبى طالب. وغير ذلك وعلى امتداد التاريخ كان الخراج مادة الأمراء فى تثوير الناس، كان الخراج رشوة تحمل شعارا إسلاميا الإسلام منه برئ. والنبى صلى الله عليه وآله حذر من هذه الرشوة التى علم من ربه أنها كائنة على طريق أمراء السوء، فقال فى خطبة الوداع: يا أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا تجاحفت قريش على الملك وكان عن دين أحدكم فدعوه [۱۰] وفى رواية ": خذوا العطاء ما دام

عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه، ولا أراكم تفعلون يحملكم على ذلك الفقر والحاجة، ألا إن رحى بنى مرج قد دارت وإن رحى الإسلام دائرة وإن

[صفحه ۳۷۸]

الكتاب والسلطان سيفترقان فدوروا مع الكتاب حيث دار، وستكون عليكم أئمة إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: كونوا كأصحاب عيسى نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير، موت فى طاعة خير من حياة فى معصية [۱۱] .

قال فى عون المعبود: خذوا العطاء ما كان محلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه، فإذا (تجاحفت) أى تنازعت قريش على الملك، أى تخاصموا وتقاتلوا عليه، وقال كل واحد منهم أنا أحق بالملك أو بالخلافة منك وتنازعوا فى ذلك فاتركوا أخذه [۱۲] وفيما سبق علمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم حذر من

تيار يدق أوتاد التنافس والتحاسد والتدابر والتباغض، وكان يعلم أن هذا واقع على الأمة لا محالة لسوء اختيارها، وأن نهاية الطريق بعد فتح فارس والروم ستصب فى محطة البغى، فقال صلى الله عليه وسلم ": سيصيب أمتى داء الأمم الأشر والبطر والتكاثر والتشاحن فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغى [" ۱۳] وتحديد محطة البغى لا ينبغى أن تحددها الأهواء. ولهذا عين النبى

صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر وقال له فى حديث أجمعت الأمة على صحته ": تقتلك الفئة الباغية " فمحطة عمار هى المحطة الأم لمن أراد أن يفهم الحديث السابق. أما تحديد محطات أخرى صغيرة بمعرفة هذا أو ذلك فأمر لا يلتفت إليه. لقد كانت الفتوحات مطلب فطرى، ولكن أمراء السوء حولوها إلى مطلب تجارى. ولقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيادة تركب أعناق الأمة فقال ": كأنكم براكب قد أتاكم فنزل فقال: الأرض أرضنا والفئ فيؤنا وإنما أنتم عبيدنا فحال بين الأرامل واليتامى وما أفاء الله

[صفحه ۳۷۹]

علیهم [۱۴] ، صلی الله علیک یا رسول الله! فکم من راکب قد جاء. منهم معاویة بن أبی سفیان الذی وضع أمیرا فی الحبس لأنه طالب بتوزیع الغنائم علی کتاب الله. روی أن الحکم بن عمرو قام بغزو جبل الأشل فغنم شیئا کثیرا فجاءه کتاب علی لسان معاویة فیه: أن یصطفی لمعاویة ما فی الغنیمة من الذهب والفضة لبیت ماله فرد الأمیر: إن کتاب الله قبل کتاب أمیر المؤمنین، أولم یسمع قول النبی صلی الله علیه وسلم لا طاعة لمخلوق فی معصیة الله. ثم قسم الأمیر فی الناس غنائمهم. فحبسه معاویة وروی أنه مات فی الحبس [۱۵] ، ومنهم: مروان بن الحکم طرید رسول الله صلی الله علیه وسلم. قیل لمروان فی زمن معاویة: الفئ مال الله وقد وضعه عمر بن الخطاب مواضعه. فقال: الفئ مال أمیر المؤمنین معاویة یقسمه فیمن شاء [۱۶] وردد مقولة مروان من

بعده عشرات الألوف فی عالم التحاسد والتدابر والتباغض. وکل ذلک من أجل العجل الذی فی بیت المال قال النبی صلی الله علیه وسلم ": لکل أمة عجل یعبدونه وعجل أمتی الدرهم والدینار [" ۱۷] ، وقال ": إن لکل أمة فتنة وفتنة أمتی فی المال [" ۱۸] ، وقال": إن هذا الدینار والدرهم أهلکا من قبلکم وهما مهلکاکم [" ۱۹] .

وعن رحلة الخراج یقول الدکتور محمود لاشین: ظلت الدولة تقوم بدورها فی تحصیل الخراج... وذلک حتی منتصف القرن الخامس الهجری حیث حدث تطور خطیر کان له أکبر الأثر فی إضعاف الدولة، وذلک أنها تخلت عن دورها فی جبایة وتحصیل الخراج وتلی ذلک تخلیها عن تحصیل کثیر من الإیرادات العامة، وترکت ذلک للجنود وقادتهم وکل من له حق قبل الدولة کراتب أو غیر

[صفحه ۳۸۰]

ذلک لیتولی تحصیل هذه الإرادات مباشرة من الممولین ویستولی علیها سدادا لراتبه أو حقه أو غیر ذلک، وظهر علی ذلک ما عرف بإقطاع الاستغلال... وقد ترتب علی ذلک حدوث اضطرابات داخلیة نتیجة للظلم والتعسف فی جمع هذه الأموال [۲۰] ویقول الحافظ أبی بکر بن محمد: آل الحال إلی أن استأثر کثیر من

الناس بأموال بیت المال من غیر قیام بمصلحة ولا اتصاف بصفة استحقاق [۲۱] .

وقد رأی نظام الملک (عام ۴۸۶ ه) أن یفرق الإقطاعات علی الجند ولم یکن هذا من عادة الخلفاء من لدن عمر بن الخطاب، وأراد نظام الملک بذلک أن کل من أقطع قریة یعتنی بعمارتها وتوفیر غلتها. ثم تغیرت الأحوال واختل النظام. وصارت الولاة وأتباعهم من الأجناد یجاهدون فی الرعایا من المسلمین وغیرهم بسلب أموالهم وتعذیبهم، ومن وقف أمام ظلمهم رموه بالعصیان أو وسموه بالبغی والعدوان واستباحوا قتاله واغتنام ماله. وأصل هذا الفساد بل کل فساد فی الدین من ولاة الجور وقضاة الرشا وفقهاء السوء وصوفیة الرجس، کما قال عبد الله بن المبارک: أو هل أفسد الدین إلا الملوک وأحباء السوء ورهبانها، فإن الولاة لما فسدوا وامتدت أطماعهم إلی أن أخذوا أموال الناس، واستأثروا بأموال الصالح واعتقدوها مملوکة لهم، تعدی الفساد إلی القضاة والفقهاء وأرباب المناصب بل إلی الکافة، وتقلد الأمانات الخونة فباعوا الدین بالدنیا، وعلم الأتباع منهم أنهم قد خانوا الله. وقالوا: ما لنا لا نخون، وقد روی ابن عبد ربه أن مروان بن الحکم أرسل وکیلا إلی قریة له فی الغوطة ثم حضر إلیه فی بعض الأیام فقال له مروان: یا هذا أظن أنک تخوننی فی ضیعتی. فقال له: أو تظن ذلک ولم تستیقنه؟ والله إنی أخونک وأنت تخون أمیر المؤمنین وأمیر المؤمنین یخون الله، فلعن الله أشر الثلاثة [۲۲] ثم زاد الفساد

[صفحه ۳۸۱]

بتصرف الأجناد وغیرهم فی الإقطاعات تصرف الملاک بالبیع والشراء، وأمضی لهم الولاة ذلک، واشترک فی هذا الأمر الخاص والعام، ومن یصلح للجهاد ومن لم یصلح، ومن یستحق فی بیت المال ومن لا یستحق. ثم اشتد حرص الولاة وأرکان الدولة علی جمع الأموال وأخذ الرشا، ورخصوا فی الأمور فاغتنم الجهال ذلک منهم وأرضوهم بسخط الله، ووثب کل فریق. واستأثر بما تصل إلیه قدرته من أموال بیت المال وغیرها، وکثر التنازع والتنافس فی ذلک حتی آل الحال إلی أن حولوا کثیرا من الجهات المختصة ببیت

المال إلى الملك والوقف والرزق المؤبد، وجعلوا ذلك وسيلة إلى حوز الدنيا لهم ولذراريهم من بعدهم، واستنبطوا فى ذلك أنواعا من الحيل يخدعون بها الخلق [۲۳] ، كانت هذه شهادة لمؤرخ يصف فيها ما حدث فى عصره وغير عصره. ويقول مؤرخ آخر وهو يتحدث عما شاهده فى دولة المماليك بمصر [۲۴] فى زماننا فسد الحال... وصارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال من خراج الأرضين والجزية وزكاة المواشى والمعادن والعشر وغير ذلك، ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها وعمت البلوى والله المستعان فى الأمور كلها [۲۵] .

ويقول مؤرخ آخر يصف حال زمانه [۲۶] إن أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا، فيختص السلطان فيها بأربعة قراريط (أى يحصل السلطان على سدس مساحة الأرض الزراعية فى مصر)، ويختص الأجناد بعشرة قراريط (ما يعادل ۷، ۴۱. /. من خراج أرض مصر، ويختص الأمراء بعشرة قراريط. وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شئ، ويصير ذلك الاقطاع فى دواوين الأمراء ويحتمى بها قطاع الطرق وتثور بها الفتن، ويمنع منها

[صفحه ۳۸۲]

الحقوق والمقررات الديوانية وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهم ومضرة على أهل البلاد [۲۷] .

وظل إقطاع الاستغلال الابن البكر لبيت المال يعمل به حتى نهاية دولة المماليك ۹۳۲ ه، حتى دخلت مصر تحت السيطرة العثمانية، فقاموا بإلغاء قطاع الاستغلال وحل محله نظام الالتزام، كما تم إحلال مصطلح الأموال الأميرية محل الخراج، ولم يترك العثمانيون أى نشاط سواء كان تجاريا أو صناعيا حتى أصحاب المهن والحرف دون أن يفرض عليهم ضرائب محددة يلتزم بتحصيلها أشخاص معنيون [۲۸] لقد أمروا فى البداية أن يعطوا الناس كى تشق الدعوة

طريقها برفق. ولكن الأمر سار على غير ذلك وفقا لمصلحة زمان، وترتب على ذلك أنهم أخذوا من الناس وفقا لمصلحة زمان آخر. ترى هل كانت قسمة النبى صلى الله عليه وآله وسلم خيبر فى بدء الإسلام من أجل شدة الحاجة؟ أم أن القسمة كانت دعوة لا يقوم العدل إلا بها؟ إن الفتوحات أمر عظيم له شروط يمكن فيها النجاة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة [" ۲۹] ، وروى أن أعرابيا قال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم فالرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله [۳۰] .

[۱] الخراج / أبو يوسف ص ۲۴.

[۲] المغنى / ابن قدامة ۷۱۶:۲.

[۳] المغنى / ۷۲۲:۲.

[۴] المغنى ۷۱۸:۲.

[۵] الخراج / ابن يوسف ص ۲۷.

[۶] رواه مسلم (الصحيح ۹۶:۱۸) ك الزهد.

[۷] النووى شرح مسلم (۹۷:۱۸).

[۸] رواه البيهقى وابن عساكر (كنز العمال ۲۱۶:۳).

[۹] رواه مسلم (الصحيح ۹۵:۱۸) كتاب الزهد.

[۱۰] رواه أبو داود حديث رقم ۲۹۵۸.

[۱۱] رواه ابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ۲۱۶:۱)، الطبرانى عن معاذ (كنز ۲۱۱:۱).

[۱۲] عدن المعبود ۱۷۳:۸.

[۱۳] رواه الحاكم (كنز العمال ۵۲۶:۳).

[۱۴] رواه ابن النجار عن حذیفة (کنز العمال ۱۹۵:۱۱).

[۱۵] البدایة والنهایة ۵۱:۸.

[۱۶] الإصابة ۳۰۲:۱.

[۱۷] رواه الدیلمی عن حذیفة (کنز ۲۲۳:۳).

[۱۸] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵۶۹:۴).

[۱۹] رواه أبو داود والطبرانی والبیهقی (کنز ۱۹۱:۳).

[۲۰] الفاروق عمر والخراج ص ۳۲، ۴۰.

[۲۱] تحریر المقال فیما یحل ویحرم من بیت المال / الحافظ أبی بکر بن محمد البلاطلسی ص ۸۹.

[۲۲] العقد الفرید / ابن عبد ربة ۳۷:۱.

[۲۳] تحریر المقال / الحافظ أبی بکر البلاطلسی ص ۱۰۵.

[۲۴] هو القلقشندی.

[۲۵] صبح الأعشی / القلقشندی ۱۱۷:۱۳.

[۲۶] هو المقریزی.

[۲۷] الخطط / المقریزی ۸۸:۱.

[۲۸] عمر والخراج ص ۴۲، ۱۵۸.

[۲۹] رواه أحمد وفیه شفیق بن حبان ذکره ابن حبان فی الثقات وقال ابن حجر حسن الإسناد (الفتح الربانی ۲۵:۲۳).

[۳۰] رواه البخاری (الصحیح ۱۱۳۶) ومسلم (الصحیح ۴۹:۱۳).

نهایة الطریق

أن بدایة النهایة من هنا قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": لم یزل

[صفحه ۳۸۳]

أمر بنی إسرائیل معتدلا حتی نشأ فیهم المولدون وأبناء سبایا الأمم التی کانت بنو إسرائیل تسبیها، فقالوا بالرأی فضلوا وأضلوا [" ۱] ولقد علمت متی دخلت السبایا

ومتی قالوا بالرأی. وأول نقص دخل کان من باب التخاذل قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم: إن أول ما دخل النقص علی بنی إسرائیل کان الرجل یلقی الرجل فیقول: یا هذا إتق الله ودع ما تصنع فإنه لا عمل لک، ثم یلقاه من الغد فلا یمنعه ذلک أن یکون أکیله وشریبه وقعیده، فلما فعلوا ذلک ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم تلی رسول الله قوله تعالی: (لعن الذین کفروا من بنی إسرائیل علی لسان داوود وعیسی بن مریم)، إلی قوله: (فاسقون) ثم قال ": کلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن من المنکر، ولتأخذون علی ید ی الظالم ولتأطرنه علی الحق أطرا [۲] ولتقصرنه علی الحق قصرا، أو لیضربن الله بقلوب بعضکم علی بعض ثم لیلعنکم کما لعنهم [" ۳] .

فهذا أول النقص. فإذا لم یدفع منذ البدایة. فلا جدوی من فعل أی شئ بعد ذلک لأن الشبل أصبح أسدا. قالوا: یا رسول الله متی ندع الائتمار بالمعروف والنهی عن المنکر؟ قال ": إذا ظهر فیکم ما ظهر فی بنی إسرائیل، إذا کانت الفاحشة فی کبارکم والملک فی صغارکم والعلم فی رذالکم [" ۴] لهذا قال النبی

فی روایات کثیرة وهو یتحدث عن أمراء السوء " لا أن الناس اعتزلوهم " فهذا الدواء خاص بالداء فی أول الطریق. أما استفحال الداء

بعد ذلك فله فقه آخر. ومما لا شك فيه أن الفتوحات قذفت على الأمة بالسبايا وبالرأى وبأمراض أول الطريق التى لم يشعر بها أكثر الناس نظرا للبريق الذى حولها وحولهم.

[صفحه ۳۸۴]

فالفتوحات أيقظت غريزة العرب الجاهلية من الغرور والنخوة، بعدما كانت فى سكن بالتربية النبوية. فكانت تتسرب فيهم روح الأمم المستعلية وتتمكن منهم رويدا. ويشهد بذلك شيوع تقسيم الأمة المسلمة يومئذ إلى العرب والموالى، وسيرة معاوية وهو والى الشام يومذاك بين المسلمين بسيرة ملوكية قيصرية، حتى قال عمر بن الخطاب: أتذكرون كسرى وعندكم معاوية، وأمور أخرى كثيرة ذكرها التاريخ. وتحت ظل الفتوحات راج الحديث رواجا بينا فى عصر معاوية، وكان عدد من أهل الكتاب قد دخلوا فى الإسلام، وأخذ عنهم المحدثون شيئا كثيرا من أخبار كتبهم وقصص أنبيائهم وأممهم فخلطوها بما كان عندهم من الأحاديث المحفوظة عن النبى صلى الله عليه وسلم، وأخذ الوضع والدس يدوران فى الأحاديث. وتحت ظل الفتوحات اتسع نطاق المباحث الكلامية، لأن الفتوحات الواسعة أفضت بالطبع إلى اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم وأرباب الملل والنحل وفيهم العلماء والأحبار والأساقفة والبطاركة الباحثون فى الأديان والمذاهب، فارتفع منار الكلام فى عهد عمر، ثم اتسع فى عهد عثمان وعلى امتداد حكم بنى أمية. وتحت ظل الفتوحات نقلت علوم الأوائل من المنطق والرياضيات والطبيعيات والإلهيات والطب والحكمة العملية إلى العربية، نقل شطر منها فى عهد الأمويين، ثم أكمل فى أوائل عهد العباسيين. فقد ترجموا مئات الكتب من اليونانية والرومية والهندية والفارسية والسريانية إلى العربية، وأقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم، ولم يلبثوا كثيرا حتى استقلوا بالنظر وصنفوا فيها كتبا ووسائل. وفى ظل الفتوحات ظهرت قوافل التصوف التى ترفض ما وصل إليه الحال. ثم ظهرت قوافل أخرى يتكلمون بأمور تناقض الدين وحكم العقل، وغير ذلك كثير. وما كان هذا ليحدث لو طاب أعلى الوعاء، قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": إنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء، إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله [" ۵] .

ولقد سقطت السياسة المالية يوم اتخذ الفيئ دولا، ففى حديث النبى

[صفحه ۳۸۵]

صلى الله عليه وسلم قال ": إذا اتخذ الفئ دولا ـ والأمانة مغنما والزكاة مغرما وتعلم لغير دين الله... فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع. " وفى رواية ": إذا فعلت أمتى خمس عشر خصلة حل بها البلاء، " منها ": إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما [" ۶] إن النظام الاقتصادى فى المقدمة، فإذا انحرف ظهر أمراء السوء وفقهاء السوء وعادت نخوة الجاهلية، وراجت الأحاديث التى يكذبون فيها على رسول الله، ودخلت المباحث الكلامية عالم البريق والزخرف. وروى الشعر وراج القصص وكل هذا من أجل المال الذى فى بيت المال ويغترف منه الأمراء والأجناد. وعالم مثل هذا لا بد أن تجرى عليه الزلزلة فتتباعد أركانه، أو تنهدم ويجرى عليه الخسف فيتوارى تحت التراب وتخسف هامته. ومن الثابت أن الدولة الواسعة الأطراف لم تستطع البقاء تحت حكم إدارة مركزية واحدة، فكما توسعت بسرعة نراها تجزأت بسرعة أيضا، وأول من قام بتجزئتها أحد أفراد أسرة الأمويين فى إسبانيا وهو عبد الرحمن الداخل، حيث أسس دولة مستقلة سنة ۱۳۹ ه، ورفع يد الحاكم العباسى عن ذلك الجزء من الدولة الإسلامية. ثم انفصل الأدارسة وأسسوا الدولة العلوية فى مراكش. ثم انفصل الأغالبة واستولوا على بقية مناطق إفريقيا سنة ۱۸۴ ه، وأسسوا دولة الأغالبة، وبعد قرن أى فى سنة ۲۴۶ ه ظهر ابن طولون فى مصر ففصلها عن الدولة الإسلامية. أما فى المشرق فتم تأسيس الدولة الطاهرية بخراسان (۲۰۴ ه)، ثم ظهرت دويلات صغيرة بعد ذلك فى شرق إيران كالصفاريين والسامانيين والغزنويين. وفى منتصف القرن الرابع الهجرى سيطر على جهاز الدولة العباسية القواد والأمراء والحجاب والمماليك والأتراك. وخلال هذه الفترة قامت الدولة البويهية فى الجزء المتبقى لهم فى إيران. ثم انقرضت الدولة العباسية على يد المغول سنة ۶۵۶ ه. ولقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بهذه النهايات قال ": منعت

[صفحه ۳۸۶]

العراق درهمها وقفیزها، ومنعت الشام مدیها ودینارها، ومنعت مصر أرد بها ودینارها، وعدتم من حیث بدأتم وعدتم من حیث بدأتم [" ۷] قال النووی: القفیز مکیال معروف لأهل العراق، والمدی مکیال

معروف لأهل الشام، والأردب مکیال معروف لأهل مصر، والأشهر فی معنی الحدیث: إن العجم والروم یستولون علی البلاد فیمنعون حصول ذلک للمسلمین، وقد روی مسلم عن جابر قال: یوشک أن لا یجئ إلیهم قفیز ولا درهم. قلنا: من أین ذلک؟ قال: من قبل العجم یمنعون ذلک. وذکر فی منع الروم ذلک بالشام مثله [۸] لقد ذهب الخراج الذی فتح له بیت المال أبوابه،

لأن فیه الأمن والأمان لحدود الدولهٔ. ولم یأت الخراج بالأمن لأن السبی أصبح لهم موطئ قدم فی الدولهٔ، وتجول نصاری الحیرهٔ وبنی تغلب فی الطرقات. قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": یوشک أن یملأ الأرض عز وجل أیدیکم من العجم ثم یکونون أسدا لا یفرون فیقتلون مقاتلتکم ویأکلون فیأکم [" ۹] ، وعلی موائد الفئ لا ترى العجم وحدهم وإنما ترى کل وجوه الأمم. قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم ": یوشک أن تداعی علیکم الأمم من کل أفق کما تداعی الأکلهٔ إلی قصعتها. قیل: یا رسول الله فمن قلهٔ بما یومئذ؟ قال: لا ولکنکم غثاء کغثاء السیل، یجعل الوهن فی قلوبکم وینزع الرعب من قلوب عدوکم لحبکم الدنیا وکراهتکم الموت [۱۰] .

غثاء السیل: أی کالذی یحمله السیل من زبد ووسخ [۱۱] .

[صفحه ۳۸۷]

[۱] رواه الطبرانی فی الکبیر (کنز العمال ۱۸۱:۱۱).

[۲] أی لترد به إلی الحق.

[۳] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجال رجال الصحیح (الزوائد ۲۶۹:۷).

[۴] رواه أحمد وابن ماجهٔ وقال البوصیری فی الزوائد ابن ماجهٔ إسناده صحیح ورجاله ثقات (الفتح الربانی ۱۷۷:۱۹)، وقال فی فتح الباری أخرجه ابن أبی خیثمهٔ (فتح الباری ۳۰۱:۱۳).

[۵] رواه الرامهرمزی فی الأمثال.

[۶] رواه الترمذی علی أبو هریرهٔ وعن علی (الجامع ۴۹۴، ۴۹۵:۴).

[۷] رواه مسلم کتاب الفتن (الصحیح ۲۰:۱۸) وأحمد (الفتح الربانی ۳۷:۲۴) وأبو داود حدیث ۳۰۳۵.

[۸] النووی شرح مسلم (۲۰:۱۸).

[۹] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۵۵:۲۴)، ورواه البزار والحاکم (کنز ۱۸۸:۱۱).

[۱۰] رواه أحمد وقال الهیثمی إسناده جید (الزوائد ۲۸۷:۷) وقال فی الفتح الربانی رواه أبو داود والبخاری فی تاریخه (الفتح ۳۲:۲۴).

[۱۱] عون المعبود ۴۰۵:۱۱.

مشهود فی أول الطریق

توجد معالم فی عهد الفاروق لا یمکن إهمالها ونحن نلقی الضوء علی

بدایات فی عصره کانت لها نهایات فی عصرنا، ومن هذه المعالم مدینهٔ البصرهٔ. ویذکر أن العرب لما فتحوا " الحیرهٔ " سنهٔ ۱۴ ه، أمر عمر بن الخطاب عتبهٔ بن غزوان بتأسیس البصرهٔ سنهٔ ۱۵ ه، فصارت حاضرهٔ العراق. وأوطنت فیها قبائل عربیهٔ مختلفهٔ الأصول والأنساب، تشابکت فی علاقات مع سکان البلاد الأصلیین من الفرس والنبط والآرامیین. ومما لا شک فیه أن القبائل العربیهٔ قد نالها بعضا من غبار ثقافهٔ أهل تلک البلاد. ولذا فقد حذر النبی صلی الله علیه وآله من البصرهٔ من قبل أن تنشأ، ومن قبل أن یخرج اسمها

إلى الوجود، وبين أن العدل سيموت على أعتابها. قال صلى الله عليه وسلم لأنس: يا أنس أن الناس يمصرون أمصارا وأن مصرا منها يقال لها: البصرة أو البصرة، فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها [۱] ، وكلاءها [۲] ، وسوقها [۳] ، وباب أمرائها [۴] ، وعليك بضواحيها [۵] ، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف وقوم يبيتون فيصبحون قردة وخنازير [۶] وفى رواية فإن أنت وردتها فإياك ومقصعها وسوقها

وباب سلطانها، فإنه سيكون بها خسف ومسخ وقذف، آية ذلك أن يموت العدل ويفشوا فيها الجور، ويكثر فيها الزنا وتفشوا فيها شهادة الزور [۷] ، وروى أن

[صفحه ۳۸۸]

أنسا اتخذ بيتا بعيدا عن البصرة [۸] .

إن الاعتراض ليس على بناء المدينة، وإنما على تولية أمراء المدينة الذين ذابوا مع نصارى الحيرة على موائد الشراب، وذلك أمر أقره علماء الحديث والتاريخ. فمن فوق هذه الموائد راج الشعر والقصص وكثر الزنا حتى قال الفاروق: إن الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل آية الرجم [۹] وزاد فى رواية: فرجم رسول الله ورجم أبو بكر ورجمت، ولولا أنى

أكره أن أزيد فى كتاب الله لكتبته فى المصحف، فإنى خشيت أن تجئ أقوام فلا يجدونه من كتاب الله فيكفرون [۱۰] ، ومما يذكر أن الفاروق نهى عن نكاح المتعة، وهو عند بعض الفقهاء دواء يسد باب الزنا فى مهمة كمهمة الفتوحات وغيرها. فعن جابر أنه قال: كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر حتى نهى عنه عمر [۱۱] ، وروى أن عليا كان يقول: لولا نهى عمر عن المتعة ما زنى إلا شقى. وتمصير الأمصار كان يتم على قاعدة لا رواية فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عمر لا يهتم إلا بقراءة القرآن فى الأمصار، لكنه علم فى آخر عهده أن القرآن وحده لا يعبر الطريق إلى الفرس والنبط والآراميين، ولا بد له من مفتاح يمهد له الطريق. وهذا المفتاح هو السنة الشريفة. ففى بداية الطريق يقول ابن كثير: فإن عمر كان يقول اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله، ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: إنك تأتى قوما لهم فى مساجدهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فدعهم على ما هم عليه ولا تشغلهم بالأحاديث، وأنا شريككك فى ذلك. هذا معروف عن عمر رضى الله عنه [۱۲] أما فى نهاية الطريق

[صفحه ۳۸۹]

فيروى ابن عساكر أن عمر بن الخطاب قال لابن عباس: أرى القرآن قد ظهر فى الناس. فقال له: ما أحب ذاك يا أمير المؤمنين قال عمر: لم؟ فقال: لأنهم متى يقرأوا ينقروا ومتى ينقروا يختلفوا ومتى يختلفوا يضرب بعضهم رقاب بعض. قال عمر: إن كنت لأكتمها الناس [۱۳] ، ثم روى أن أبا موسى قد بعث إليه بأن عدد القراء قد ازداد، فقال عمر: إن بنى إسرائيل إنما هلكت حين كثر قراؤهم" [۱۴] وهكذا فطن الفاروق للنهاية التى ما بعدها نهاية. لقد أراد أن تنتج

الساحة قراء وأمراء من أصحاب السواعد القوية، ولكن فى هذا إشكال لقول النبى صلى الله عليه وسلم ": أكثر منافقى أمتى قراؤها" [۱۵] ، وقال ": بكتاب الله يضلون وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم [" ۱۶] إن القراءة فقط هى

بذرة الخوارج التى عليها نبتت شجرتهم. والذى يستحق التسجيل هنا أن الفاروق أطلق صيحة مبكرة عندما علم أن أهل العراق قد نقروا واختلفوا. لقد قال ": يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم [" ۱۷] ، ونحن لا ندرى لماذا اختار الفاروق أهل الشام فى هذا الوقت المبكر ليتجهزوا لأهل العراق. إننا لا نعلم الأسباب التى وراء هذا القرار لأنه غابت عنا أحداث لا يعلمها إلا من لابسها. إن البصرة بداية ضربها الذم من قبل أن يمصرها الناس، وذلك لما لها من أثر بالغ على اللغة والدين بعد أن اختلطت بها الشعوب وتجول على أرضها أمراء السوء، ولهذا لا نعجب عندما نستمع إلى حذيفة وهو يقول للفاروق ": إنك تستعين بالرجل الفاجر [" ۱۸] ولا نعجب عندما نسمع من يقول لعمر:

الله يا عمر تستعمل من يخون وتقول ليس عليك شئ وعاملك يفعل كذا

[صفحه ۳۹۰]

وكذا [" ۱۹] فأى علم هذا وأى دعوة هذه التى يشرف عليها الفاجر والخائن من

الأمراء؟ والنبى صلى الله عليه وسلم يقول ": لا إيمان لمن لا أمان له ولا دين لمن لا عهد له [" ۲۰] ، والقرآن قد نهى عن اتخاذ بطانة من دون المؤمنين. وإذا كانت البصرة قد أدينت من قبل أن تمصر، فإن أمراء عمر بن الخطاب قد أدينوا من قبل أن يظهروا على مسرح الأحداث. وذلك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بأنه سيظهر من بعد وفاته رجلا يقال له أويس، وأن هذا الرجل كريم عند ربه، وإنه خير التابعين [۲۱] ، وأمر أصحابه إن لقوه فليطلبوا منه أن يستغفر لهم، وخص النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال: إن استطعت أن يستغفر لك فافعل [۲۲] وظهر أويس فى عهد عمر بن الخطاب،

ولهذا قصة طويلة، وطلب عمر أن يستغفر له ففعل. وحرص عمل على أن يبقى أويس معه ولا يفارقه ولكنه أملس منه (أى تملس من الأمر. تخلص وأفلت) [۲۳] ، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة! فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصى بك؟ قال: لا!! أكون فى غبراء الناس أحب إلى [۲۴] لقد

رفض أويس الأمراء، وعندما ذهب إلى الكوفة سأله رجل: كيف الزمان؟ فقال أويس: إن قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقا، والله إنا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذوننا أعداء، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعوانا، حتى والله لقد يقذفوننا بالعظائم. والله لا يمنعنى ذلك أن أقول الحق [۲۵] .

وقال أويس لهرم بن حبان: إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأحياء، إن

[صفحه ۳۹۱]

المؤمنين يعرف بعضهم بعضا، ويتحدثون بروح الله وإن لم يلتقوا وأن لم يتكلموا، ويتعارفوا وإن نأت بهم الديار وتفرقت بهم المنازل. فقال له هرم: حدثنى عن رسول الله بحديث أحفظه عنك؟ قال: إنى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لى معه صحبة، ولقد رأيت رجالا رأوه وقد بلغنى من حديثه كما بلغكم ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى [۲۶] ، ولقد قاتل أويس بعد ذلك تحت راية على بن أبى طالب واستشهد بين يديه. وسيأتى ذلك عند حديثنا عن معارك أمير المؤمنين. هذا ما كان من أمر أويس الذى ادخره الله ليأتى فى زمان لله حكمة فيه. وعندما جاء رفضه حتى توصية الأمراء به. وهذا ما كان من أمر البصرة التى أخبر عنها رسول الله من قبل أن يتخذها الناس مصرا من الأمصار، وإخبار فيه إدانة لحياتها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية. ثم إن طلب عمر بن الخطاب وهو الخليفة الراشد أن يستغفر له أويس وهو الذى لم ير النبى ولم يسمع منه فيه أن الإسلام دين لا يدعو إلى التعتم أمام الأشخاص. ويدعو أن يكون الشغل فى الله والهمة به والفرار إليه، والشاهد الأخير هنا على أن الناس فى عهد الفاروق كثير منهم تطاولت أعناقهم فى طلب الدنيا. ما رواه مسلم عن عبد الله بن الحارث قال: كنت واقفا مع أبى بن كعب فقال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم فى طلب الدنيا. قلت: أجل "... الحديث [۲۷] ، وأبى بن كعب مات فى خلافة عمر على أصح الروايات [۲۸] ، وطلب الدنيا ينتهى دوما إلى زوال. أخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا شبعت ماتت. وكذلك ابن آدم إذا امتلأ من الدنيا أخذه الله عند ذلك ثم تلى ": فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ

[صفحه ۳۹۲]

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. "

[صفحه ۳۹۳]

[۱] موضع يعلوه الملوحة.

[۲] موضع تربط فيه السفن.

[۳] لفساد العقول فيها.

[۴] لكثرة ظلمهم.

[۵] أى الجبال.

[۶] أى تحل بهم صفات لا يتصف بها إنسان سوى فيكونوا مقلدين كالقردة باحثين عن المادة كالخنازير.

[۷] رواه أبو داوود حديث ۴۲۸۵ والطبرانى (عون المعبود ۴۲۱:۱۱).

[۸] رواه البخارى ك الأحكام ب ما ذكر النبى وحض عليه (الصحيح ۲۶۵:۴).

[۹] رواه الترمذى وصححه (الجامع ۳۸:۴).

[۱۰] رواه مسلم (الصحيح ۱۳۱:۴).

[۱۱] البداية والنهاية ۱۰۷:۸.

[۱۲] رواه ابن عساكر (كنز العمال ۲۶۷:۱۰).

[۱۳] رواه ستة (كنز العمال ۲۶۸:۱۰).

[۱۴] الإستيعاب ۷۲:۱.

[۱۵] رواه أحمد وقال الهيثمى رواة ثقات (الزوائد ۲۲۹:۶).

[۱۶] رواه ابن أبى عاصم وفى إسناده ضعف (كتاب السنة ۱۳۲:۱).

[۱۷] ابن سعد فى الدلائل (كنز العمال ۳۵۴:۱۲).

[۱۸] (كنز العمال ۷۷۱:۵).

[۱۹] الطبرى فى تاريخه ۳۱:۵.

[۲۰] رواه أحمد وأبو يعلى وفيه أبو هلال وثقه ابن معين (الزوائد ۹۶:۱).

[۲۱] مسلم فى فضائل أويس (الصحيح ۹۵:۱۶).

[۲۲] أسد الغابة ۱۸۰:۱ ورواه مسلم.

[۲۳] (كنز العمال ۴:۱۴).

[۲۴] رواه مسلم وابن سعد وأبو نعيم والبيهقى (كنز ۴:۱۴) مسلم فى فضائل أويس (الصحيح ۹۶:۱۶).

[۲۵] الحاكم (المستدرك ۴۰۶:۷).

[۲۶] الحاكم (المستدرك ۴۰۷:۳).

[۲۷] مسلم (الصحيح ۱۹:۱۸) كتاب الفتن.

[۲۸] الإصابة ۱۹:۱، الإستيعاب ۴۹:۱.

و جاء بنو أمية

فى عالم الفتوحات حل الإسلام فى قلوب البعض حين جاءت الغنائم والأموال وكثرت المكاسب، فهناك من ذاق طعم الحياة وعرف لذة الدنيا عندما لبسوا الناعم وأكلوا الطيب، وتمتعوا بنساء الروم وملكوا خزائن كسرى. بعد أن كانوا يعيشون فى دائرة العيش الخشن، وأكل الضباب والقنافذ واليرابيع ولبس الصوف. فهذا الصنف حلا الإسلام فى قلبه عندما وقع ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر. فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله وأكلوا الغلوزجات ولبسوا الحرير والديباج. وأصبحوا أمراء فى الأمصار استدلوا بما فتح الله عليهم على صحة الدعوة

فعظموها بجلوها، وتمسكوا بالدين لأنه زادهم طريقا إلى نيل الدنيا، ومجمل القول: لولا الفتوح والنصر والظفر والخراج لانقرض دين الإسلام بصورة من الصور، ولولا غلظة عمر التى جبله الله عليها ولا حيلة له فيها، وهى غلظة لا يقصد بها سوءا ولا يريد بها ذما، فعمر أجل قدرا من أن يعتقد فيه أن غلظته هدفها الذم والتخطئة، نقول لولا غلظته فى التعامل مع بعض رؤوس القوم، لوجد أعداء الدولة لهم ثغرات يعملون فيها على انقراض الإسلام بصورة من الصورة. ولكن عمر وهو المشهور بالتصدى لهم، وعلى سبيل المثال فعمر هو القائل فى سعد بن عبادة وهو رئيس الأنصار وسيدها، اقتلوا سعدا قتل الله سعدا، وعمر هو الذى شتم أبو هريرة، وعمر هو الذى خون عمرو بن العاص ونسب إليه سرقة مال الفئ، وعمر شتم خالد بن الوليد وطعن فى دينه وحكم بفسقه وبوجوب قتله. فسرعة

[صفحه ۳۹۴]

عمر إلى محاسبة البعض جعلت البعض الآخر يعيش يومه. وموقف عمر هذا وإن كان فيه خدمة للدولة إلا أنه لم يكن فى صالح عمر، فلقد أبغضه بعض الصحابة وملوه رغم كثرة الفتوح لأنه لم يسمح لهم بالخروج إلى الأمصار. يقول الشعبى: لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد حصرهم بالمدينة، وقال: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد. فلما ولى عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع الناس إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة ليس إلا ذلك [۱] .

فالذى حافظ على التماسك من ضربات الأعداء، أموال الفتوحات وقبضة عمر - الذى كان عصره بحق أفضل بكثير من عصور الملوك والسلاطين الذين ركبوا على أعناق الأمة على امتداد التاريخ. وإذا كان تاريخ المسلمين ملئ بالسلبيات والغيوم، فإن الحق يحتم علينا أن نقول بأن أعظم دولة للمسلمين هى التى كان على رأسها أبو بكر وعمر بن الخطاب، فهذا العصر كان عصر البذور والبذور لا يختلف أحد على أوراقها وثمارها لأنها لم تأت بعد: وهذه الفترة من التاريخ انتهت نهاية أليمة، وذلك عندما طعن غلام مجوسى الفاروق عمر رضى الله عنه. وروى أنه كان يفسر لعمر أحلامه. وقد أخبره عمر بحلم من الأحلام ففسره كعب بأنه سيقتل بسلاح له مواصفات خاصة، وعندما طعن عمر جاء كعب يبكى ويقول: والله لو أن أمير المؤمنين أقسم على الله أن يؤخره لأخره [۲] ، ومن الأعجب أن كعبا اشتغل بعد ذلك مستشارا لمعاوية يوم أن كان أميرا على الشام، وعندما حدثت الانتفاضة على عثمان كان كعب أول من ألقى فى قلب معاوية حب الخلافة! وعلى أى حال بعد عملية طعن الفاروق وهذا الاسم أطلقه عليه أهل الكتاب تعبيرا منهم لعدله ونظرا لأنهم لم يشعروا بغربة فى عهده، وأظلتهم مظلة التسامح الإسلامية فى كل مكان على أرض الدولة. حتى

[صفحه ۳۹۵]

إن عمر كان له مملوكا نصرانيا [۳] ومن قبل عمر أخرج مالك وابن أبى شيبة

وابن جرير والبيهقى عن عمرة بنت عبد الرحمن أن أبا بكر دخل على عائشة وهى تشتكى ويهودية ترقيها فقال أبو بكر ارقيها بكتاب الله عز وجل. فمظلة التسامح كانت تظلهم ولم يشعروا بالكرامة الحقيقية على امتداد تاريخهم إلا تحت هذه المظلة وخير شاهد أنهم أطلقوا على عمر اسم الفاروق، قال ابن شهاب: بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر الفاروق وكان المسلمون يأثرون ذلك من قومهم، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر من ذلك شيئا [" ۴] وبعد أن طعن الغلام المجوسى الفاروق فتحت صفحة جديدة بدأت

بما سمى فى التاريخ بالشورى.

[۱] ابن عساكر (كنز العمال ۷۶:۱۴).

[۲] ابن سعد (كنز العمال ۶۸۷:۱۲).

[۳] أنظر ترجمة ناسق اليهودى.

[۴] الطبرى ۱۵:۵، ابن كثير فى البداية باختصار ۱۳۳:۷.

يوم الشورى

من الثابت أن عمر بن الخطاب قال: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا
استخلفته. ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته [۱] ، وفى رواية عند الإمام أحمد: لو أدركنى أحد الرجلين ثم جعلت الأمر إليه لوثقت به. سالم مولى أبى حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح [۲] ثم اختار عمر ستة من الصحابة
وصفهم بأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وهو راض عنهم وهم: عثمان بن عفان. عبد الرحمن بن عوف. سعد بن أبى وقاص. الزبير بن العوام. طلحة وعلى بن أبى طالب. وأمر عمر صهيب أن يصلى بالناس ثلاثة أيام، وأن يدخل هؤلاء الرهط بيتا ويقوم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد، على صهيب أن يطيح رأسه بالسيف. وإن اتفق أربعة وأبى اثنان يضرب رؤوسهما وإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فعليه أن يكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن
[صفحه ۳۹۶]

عوف ويقتل الباقين [۳] ومن العجيب أن عمر بن الخطاب كان يخاف أن يطلق الصحابة فى الأمصار، ونهاهم عن مخالطة الناس لأنه رأى فى ذلك أسى الفساد فى الأرض. ثم نراه قد أطلقهم على دائرة الإمارة والخلافة، الأمر الذى أدى بعد ذلك إلى التنافس بعد أن رسخت فى نفوس البعض من أهل الشورى حب الخلافة. ومن الصعب أن تأتى بجندى وترشحه للخلافة ثم تقول له بعد ذلك زاحم فى الصفوف الأخيرة للجنود. ومن العجيب أيضا أن يقول عمر لأهل الشورى: إن هذا الأمر لا يصلح للطلقاء ولا لأبناء الطلقاء [۴] ، خوفا منه لئلا يطمع الطلقاء فى الملك، فى الوقت الذى لم يخف حين جعلها فى ستة متساوين فى الشورى مرشحين للخلافة [۵] ومن الأعجب أن يشهد عمر بأنه أهل الشورى مات النبى وهو عنهم
راض، ثم يأمر بضرب أعناقهم إن تأخروا فى البيعة أكثر من ثلاثة أيام، ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقون القتل لأنهم كلفوا أن يجتهدوا فى اختيار الإمام، وربما يطول زمن الاجتهاد وربما قصر. وعلى هذا فأى معنى للقتل، إذا تجاوز الأيام الثلاثة؟ ثم إنه أمر بقتل من يخالف العدد الذى فيه عبد الرحمن، وهذا أيضا لا يستحق القتل. ثم أى إجماع وأى شورى وأى اختيار لمن يجلس والسيف على رأسه ويتهدد بالقتل؟ ثم كيف يقتل من ورد فيهم أحاديث بأنهم من أهل الجنة؟ وما هو رأى المسلمين لو سمع النبى صلى الله عليه وسلم عمر يقول اقتلوا أهل الشورى؟ ونحن لا ندرى ما الذى حمل عمر على الوقوع فى هذا الارتباك وقد كان قادرا على أن يستخلف أصلح القوم وهو يعرفهم واحد واحد! وروى أن أمراء الأجناد كانوا مع عمر بن الخطاب عند أدائه مناسك الحج
[صفحه ۳۹۷]

وقدموا معه إلى المدينة وهم: معاوية بن أبى سفيان أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، والمغيرة ابن شعبة أمير الكوفة، وأبو موسى الأشعرى أمير البصرة، وعمرو بن العاص أمير مصر [۶] ، فهذه الحزمة الواحدة كانت موجودة يوم الشورى، وروى أن عبد الرحمن بن عوف خرج ليشاور الناس ودار ليالية يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان [۷] وروى أن عليا عندما علم
بما يفعله عبد الرحمن لقى سعد بن أبى وقاص وقال له: اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيبا. أسألك برجم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم عمى حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على فإنى أولى بما لا يدلى به عثمان [۸] ، وذكر البخارى أن عبد الرحمن بن عوف كان يخشى من على بن أبى طالب شيئا [۹] ولكنه لم يفصح عن هذا الشئ. وكان عمار بن ياسر ميزانا للساحة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالذى يبغض عليا فعليه بعمار بن ياسر ليرشده إلى طريق الحق الذى لن يجد فيه إلا على بن أبى طالب. روى البخارى أن عمارا أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم [۱۰] وعمار قال فيه النبى: ابن سمية ما
عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما [۱۱] ، ويوم الشورى قال عبد الرحمن بن عوف: إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل

الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم [۱۲] فقام عمار بن ياسر وقال: إن أردت أن لا يختلف

[صفحه ۳۹۸]

المسلمون فبايع عليا [۱۳] وفی روایهٔ قال: یا معشر قریش أما إذا صرفتم هذا

الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة، فما أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه فی غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فی غير أهله [۱۴] ، فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار إن بايع عبد الرحمن عليا قلنا سمعنا وأطعنا. فقال عبد الله بن أبی السرح - وكان النبی قد أحل دمه واختفی عند عثمان - يا عبد الرحمن إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان. فقال عبد الله بن أبی ربيعهٔ: صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا. فشتم عمار بن ياسر بن أبی السرح وقال: متی كنت تنصح المسلمين؟ ثم قال: أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنی تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم. فقال له رجل من بنی مخزوم [۱۵] لقد عدوت طورك يا ابن سميهٔ وما أنت وتأمير قريش لأنفسها [۱۶] وكل ذلك كان يجری وأمراء الأمصار فی المدينهٔ يراقبون.

وكان علی بن أبی طالب فی هذا الوقت يقف فی دائرهٔ إقامهٔ الحجهٔ وليس له أن ينازع فی أمر طريق الاختيار فيه مفتوح، وعلی الاختيار يأتی إما الأمن وإما الخوف والاستدراج. لقد أقام الحجهٔ علی سعد بن أبی وقاص عندما قال له: لا تكن مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا علی. وأقام الحجهٔ عليهم جميعا فيما رواه أبو الطفيل قال: كنت علی الباب يوم الشورى، فارتفعت الأصوات بينهم فسمعت عليا يقول: بايع الناس لأبی بكر وأنا والله أولی بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافهٔ أن يرجع الناس كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم بايع الناس عمر وأنا والله أولی بالأمر منه وأحق به منه فسمعت وأطعت مخافهٔ أن يرجع الناس كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم

[صفحه ۳۹۹]

أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان إذا أسمع وأطيع. إن عمر جعلنی فی خمسهٔ نفر أنا سادسهم لا يعرف لی فضلا عليهم فی الصلاح ولا يعرفونه لی، كلنا فيه شرع سواء، وأيم الله لو أشاء أن أتكلم ثم لا يستطيع عربيهم ولا عجميهم ولا المعاهد منهم ولا المشرك رد خصلهٔ منها لفعلت. ثم قال: نشدتكم الله أيها النفر جميعا أفيكم أحد آخی رسول الله صلی الله عليه وسلم غيری؟ قالوا: اللهم لا [۱۷] .

وفی الصواعق المحرقهٔ روى الدارقطنی أن عليا قال لهم: أنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلی الله عليه وسلم يا علی أنت قسيم الجنهٔ والنار يوم القيامهٔ غيری؟ قالوا: اللهم لا [۱۸] ، وروى ابن أبی الحديد أنه قال لهم: أنشدكم الله هل فيكم أحد قال فيه النبی صلی الله عليه وسلم من كنت مولاه فهذا مولاه غيری؟ قالوا: لا قال: أفيكم أحد قال له رسول الله صلی الله عليه وآله وسلم أنت منی بمنزلهٔ هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی غيری؟ قالوا: لا، قال: أفيكم من أؤتمن علی سورهٔ براءهٔ وقال له رسول الله أنه لا يؤدی عنی إلا أنا أو رجل منی غيری؟ قالوا: لا [۱۹] .

كان علی بن أبی طالب يقيم الحجهٔ فقط، وكان يعلم أن طريقه إلی الخلافهٔ غير ممهد، واختيار عمر بن الخطاب لأصحاب الشورى أول دليل علی ذلك. فبعد تحديد الأسماء، قال علی للعباس: عدلت عنا. فقال له: وما علمك؟ قال: قرن بی عثمان وقال كونوا مع الأكثر، فإن رضی رجلان رجلا، ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف. فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان. لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معی لم ينفعا فی [۲۰] قال له العباس: لا تدخل معهم. قال: أكره

[صفحه ۴۰۰]

الخلاف [۲۱] فالإمام كان يعلم بالنتيجهٔ، وكان يراقب من بالمدينهٔ وكان يكره

الخلاف وكان يقيم الحجهٔ ولا إكراه فی دين الله. وروى أن عبد الرحمن بن عوف قال لعلی بن أبی طالب هل أنت مبايعی علی كتاب الله وسنهٔ نبيه وسنهٔ الماضين من قبل؟ وفی روايهٔ: وسيرهٔ أبی بكر وعمر؟ وفی روايهٔ: وفعل أبی بكر وعمر؟ فقال علی: أرجو أن أفعل

وأعمل بمبلغ علمی وطاقتی، فقال عثمان: أنا یا أبا محمد أبایعک علی ذلک [۲۲] فقام
عبد الرحمن ودخل المسجد وأرسل إلی من کان حاضرا من المهاجرین والأنصار وأرسل إلی أمراء الأجناد ثم قال: یا علی إنی قد نظرت فی أمر الناس فلم أراهم یعدلون بعثمان [۲۳] فقال علی: حبوته حبو دهر. لیس هذا أول یوم تظاهرتم فیه
علینا فصبر جمیل والله المستعان علی ما تصفون. ثم خرج وهو یقول: سیبلغ الکتاب أجله. فقال المقداد: یا عبد الرحمن أما والله لقد ترکته وإنه من الذین یقضون بالحق وبه یعدلون. فقال: یا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمین. فقال المقداد: ما رأیت مثل ما أوتی إلی أهل هذا البیت بعد نبیهم. إنی لأعجب من قریش إنهم ترکوا رجلا ما أقول أن أحدا أعلم ولا أقضی منه بالعدل. أما الله لو أجد علیه أعوانا. قال عبد الرحمن: یا مقداد اتق الله فإنی خائف علیک الفتنة. فقال رجل للمقداد [۲۴] رحمک الله من أهل هذا البیت ومن هذا الرجل [۲۵] فقال المقداد: أهل البیت بنو عبد المطلب والرجل علی بن أبی طالب [۲۶] .
لقد وضع عبد الرحمن شرطا یعلم أن علیا لن یقبله. بل یعلم أن علیا لو وجه النقد لهذا الشرط لکان فی هذا کفایة لسیل الدماء فضلا عن ابتعاد الخلافة
[صفحه ۴۰۱]
عن علی. وهذا الشرط أن یبایعه علی سیرة أو فعل أبی بکر وعمر. وفی المدینة أمراء عمر معاویة وعمرو والمغیرة وغیرهم، کأمثال ابن أبی السرح وأبی سفیان وبنی مخزوم وهؤلاء انتعشوا بالفتوحات والخراج. والإمام ما کان له أن یقبل هذا الشرط وذلک أن أبا بکر وعمر اختلفا فی سیرة کل منهما للآخر. وعلی سبیل المثال أبو بکر نص علی خلافة عمر، بینما عمر جعلها شوری فی ستة نفر، وأبو بکر رأی أن یقاتل الذین امتنعوا عن دفع الزکاة، وعمر کان له رأی غیر هذا. وأبو بکر کان یری أن خالد بن الولید متأول فی قتل مالک بن نویرة، وعمر کان یری غیر ذلک. وأبو بکر کتب لنفر من المؤلفة قلوبهم بحقوقهم، وعمر مزق کتاب أبی بکر لأن له رأیا آخر. فهذا وغیره یستقیم مع قول الإمام " أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمی وطاقتی " ولکن التیارات الموجودة بالمدینة حینئذ کانت تعلم أن زهد علی لن یدفع بالخراج إلی أیدیهم، وکانوا یعلمون أن عمر کان مجتهدا یعمل بالقیاس والاستحسان والمصالح المرسلة، ویری تخصیص عمومیات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضی خلاف ما یقتضیه عموم النصوص، وکانوا یعلمون أن عمر قد عارک السیاسة وکاد خصمه وأمراء الأمراء بالکید والحیلة وکان یؤدب بالدرة والسوط من یتغلب علی ظنه أنه یستوجب ذلک، ویصفح عن آخرین قد اقترفوا ما یستحقون به التأدیب. کل ذلک بقوة اجتهاده وما یؤدیه إلیه نظره. أما علی بن أبی طالب فهو علی خلاف ذلک - کان یقف مع النصوص والظواهر ولا یتعداها إلی الاجتهاد والأقیسة ویطبق أمور الدنیا علی أمور الدین، ویسوق الکل سیاقا واحدا ولا یضع ولا یرفع إلا بالکتاب والنص. لقد عرفوا هذا من علی بن أبی طالب علی الرغم من أنه لم یجلس علی کرسی یأمرهم به وینهاهم. کانوا یعلمون أن عمر شدید الغلظة والسیاسة، ویعلمون أن علیا کثیر الحلم والصفح والتجاوز، ولکن المصلحة کانت فی سیاسة عمر، والخوف کان من حلم علی، لأن دائرة الذهن عند جمیع تیارات الصد تخاف من یوم، وهذا الیوم لیس من دائرة الغلظة والشدة، وإنما من دائرة خاصف النعل حیث الحلم والصفح والتجاوز والضرب فی الله. وعلی هذا یمکن
[صفحه ۴۰۲]
أن نفهم قول البخاری: إن عبد الرحمن بن عوف کان یخشی من علی بن أبی طالب شیئا.
[۱] الطبری ۳۴:۵، تارخ الخلفاء ص ۱۲۷.
[۲] الإمام أحمد (الفتح الربانی ۹۱:۲۳).
[۳] هذا الخبر أجمعت علیه الأمة وأرسله علماء الحدیث والتاریخ إرسال المسلمات. (راجع الکامل ۳۶:۳)، (کنز العمال ۷۴۳:۵).
[۴] ابن سعد (کنز العمال ۷۳۵:۵).
[۵] فتح الباری کتاب الأحکام (۱۹۷:۱۳).

[۶] الطبری ۳۶:۵.

[۷] الطبری ۳۶:۵.

[۸] الطبری ۳۶:۵.

[۹] البخاری کتاب الأحکام (الصحیح ۲۴۶:۴).

[۱۰] البخاری فی مناقب عمار (الصحیح ۳۰۵:۲).

[۱۱] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۳۳۰:۲۲) والترمذی وصححه (الجامع ۶۶۸:۵) والحاکم، وقال حدیث صحیح علی شرط الشیخین (المستدرک ۳۸۸:۳).

[۱۲] الطبری ۳۷:۵.

[۱۳] الطبری ۳۷:۵.

[۱۴] مروج الذهب / المسعودی ۳۲۲:۲.

[۱۵] بنی مخزوم ضمن القبائل التی ذمها رسول الله صلی الله علیه وآله وأمر بجهادهم فی الإسلام. رواه ابن جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم وابن مردویه (کنز العمال ۴۸۰:۲).

[۱۶] الطبری ۳۷:۵.

[۱۷] (کنز العمال ۷۲۵:۵).

[۱۸] الصواعق المحرفة / ابن حجر الهیثمی ص ۲۴.

[۱۹] ابن أبی الحدید ۶۱:۲.

[۲۰] الطبری ۳۵:۵.

[۲۱] الطبری ۳۴:۵.

[۲۲] فتح الباری ۱۹۸:۱۳.

[۲۳] البخاری (الصحیح ۲۴۶:۴) ک الأحکام ب کیف یبایع الإمام الناس.

[۲۴] فیه إشارة أن عدم روایة الحدیث جعلت الکثیر لا یعرفون شیئا عن أهل البیت.

[۲۵] المقداد بن الأسود ورد فیه حدیث (إن الله أمرنی بحب أربعة وأخبرنی أنه یحبهم: علی وأبو ذر والمقداد وسلمان) رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۶:۵).

[۲۶] الطبری ۳۸:۵، الکامل ۳۷:۳.

ریاح بنی أمیة

کانت أشرف خصال قریش فی الجاهلیة: اللواء والندوة والسقایة والرفادة

وزمزم والحجابة، وهذه الخصال مقسومة فی الجاهلیة إلی: بنی هاشم وعبد الدار وعبد العزی دون بنی عبد شمس. علی أن معظم ذلک صار فی الإسلام إلی بنی هاشم، لأن النبی صلی الله علیه وسلم لما فتح مکة صار مفتاح الکعبة بیده، فدفعه إلی عثمان بن طلحة، فالشرف راجع إلی من ملک المفتاح لا إلی من دفع إلیه [۱] وکان بنو عبد شمس فی الجاهلیة من ألد أعداء

بنی هاشم، وازداد هذا العداء حدة بعد بعثة النبی صلی الله علیه وسلم حیث قاد أبو سفیان ابن حرب بن أمیة بن عبد شمس الحرب ضد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلی الله علیه وسلم. وهذه الحرب لها جذور قدیمة لم یقض علیها الإسلام فضلا علی أسباب تتعلق بالإسلام ودعوته، ولهذا یمکن أن نفهم وصیة أبی سفیان وهو یأمر معاویة بأن یطیع عمر فیقول له: فلا تخالفهم فإنک

تجرى إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقبك [۲] وقوله فى عهد عثمان

كما جاء فى مروج الذهب: يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة. ثم وقوفه على قبر حمزة وقوله: يا أبا عمارة إن الأمر الذى اجتدلنا عليه أمس صار فى يد غلماننا اليوم يتلعبون به [۳] وذلك بعد أن تجول أمراء بنى أمية فى الأمصار وراء

الخراج. فأبو سفيان لم يكن يريد لعقة وإنما كان يريد الاستمرارية على مدى الأيام والدهور، وهذا من الكبر وبطر الحق ويظهر شدة الخصومة، ولذا نجد

[صفحه ۴۰۳]

النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": إن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم [" ۴] وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أرى بنى أمية على منبره

فساءه ذلك [" ۵] وقال صلى الله عليه وسلم ": ويل لنبى أمية " ثلاث مرات [۶] ، ومعنى أن يكون عثمان بن عفان على رأس الخلافة، أن الطريق أمام بنى أمية أصبح ممهدا بصورة من الصور. فبنى أمية هدفهم الحكم وهم فى سبيله يركبون الصعب، ولو كان الملك من وراء الجبال ليثبوا عليه حتى يصلوا كما روى عن الإمام على [۷] فإذا كان كرسى الخلافة لا ينجو منهم إذا كان من وراء الجبال

فكيف به إذا كان أمامهم والجالس عليه من وسطهم. ونحن نقول إن عثمان باب لهم لأنه من نسيجهم، والرسول صلى الله عليه وسلم عندما أعطى سهم ذى القربى ترك بنى نوفل وبنى عبد شمس، ولم يعط عثمان على الرغم من أن عثمان كان فى موقف السائل، روى البخارى وأبو داود عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خيبر وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب وترك بنى نوفل وبنى عبد شمس، فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذى وضعك الله به منهم. فما بال إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفترق فى جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شئ واحد، وشبك بين أصابعه [۸] .

فالطريق الفطرى واضح فى الجاهلية والإسلام. وليست المسألة مسألة قرابة، فالنبى عندما أعطى أعطى على النصرة، وبنو عبد شمس يلتقون فى

[صفحه ۴۰۴]

قرابتهم مع بنى هاشم فى عبد مناف، ولكن ما قيمة قرابة لا نصرة فيها لفطرة أو لدعوة، وكما قال ابن قدامة: إن بنى المطلب شاركوا بنى هاشم بالنصرة والقرابة [۹] .

ومن الدليل على أن خلافة عثمان كانت بابا لبنى أمية، أن النبى صلى الله عليه وسلم أدخل مدة حكم عثمان فى المدة الإجمالية لبنى أمية وهى ألف شهر. روى عن الحسن قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فساءه ذلك فنزلت (إنا أعطيناك الكوثر) نهر فى الجنة ونزلت: (إنا أنزلناه فى ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) تملكها بنو أمية، فحسبنا ذلك فإذا هو لا يزيد ولا ينقص [۱۰] .

وهذا الحديث رواه الحاكم وقال هذا إسناد صحيح، وقال الذهبى: وروى عن يوسف بن نوح بن قيس أيضا، وما علمت أن أحدا تكلم فيه والقاسم وثقوه رواه عنه أبو داود والتبوكى [۱۱] وقال فى الدر المنثور أخرجه الخطيب عن ابن

المسيب وروى أيضا مثله عن الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس. وأيضا ما فى معناه عن الترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن الحسن بن على. وقال ابن كثير فى البداية والنهاية رواه الترمذى عن القاسم بن الفضل وقد وثقه يحيى بن سعيد وغيره ورواه ابن جرير والحاكم والبيهقى [۱۲] ورغم أن

الحديث صحيح إلا أن منهم من لم يقبله قلبه. فترتب على ذلك مشكلة حتى أن الذهبى قال: وما أدرى آفته من أين [۱۳] ، ولقد

حاول ابن کثیر فی التفسیر أن یظهر نقطة ضعف واحدة فلم یجد واکتفی بالقول إن الحدیث منکر، وظهرت حیرة ابن کثیر فی البدایة والنهایة بعد أن أنکر الحدیث فی تفسیره، فقال: سألت

[صفحه ۴۰۵]

شیخنا الحافظ أبا الحجاج المزی عن هذا الحدیث، فماذا قال الحافظ لابن کثیر؟ إن ما قاله کان هو حجر الزاویة الذی علیه أنکروا حدیث صحیح. قال الحافظ: إن القول بأنه حسب دولة بنی أمیة فوجدها ألف شهر لا تزید یوما ولا تنقص فهو غریب جدا. وذلک لأنه لا یمکن إدخال دولة عثمان فی هذه المدة، وذلک أنها ممدوحة ولأنه أحد الخلفاء الراشدین والأئمة المهدیین الذین قضوا بالحق وبه یعدلون، وهذا الحدیث إنما سبق لذم دولتهم [۱۴] .

وتحدید المدة بدقة هو من شأن علماء التواریخ والسیر الأقدمین فی بدایة العصر العباسی. وما بین أیدینا الیوم من تواریخ یؤید ما ذهب إلیه الحدیث ولا یستثنی دولة عثمان. وفی محاولة قدیمة أسقط من المدة أیام ابن الزبیر فقارب من قام بهذه الصحة فی الحساب. وعلی أی حال فإن التاریخ خیر شاهد، فعثمان أقام خیمة وهذه الخیمة دخلها معاویة فلم یشعر فیها بغربة، وبعد أن جعلها معاویة وراثة انطلق الورثة من داخل الخیمة وقتلوا الأنصار والحسین والذین یأمرون بالقسط من الناس، وکل ذلک تحت هتاف واحد یقول ": یوم بیوم قتل عثمان، " وساروا وراء الخراج وجلسوا أمام بیوت المال ومعهم أختام لیست غریبة عن عهد عثمان.

[۱] ابن أبی الحدید ۶۱۱:۴.

[۲] البدایة والنهایة ۸۱۸:۸.

[۳] ابن أبی الحدید ۴:۵۱، الإمتاع والمؤانسة ۷۵:۲.

[۴] رواه الحاکم وأبو نعیم (کنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۵] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۴۴۴:۵).

[۶] رواه ابن منده وأبو نعیم عن حمران عن جابر، وابن قانع عن سالم الحضرمی (کنز ۱۶۵:۱۱).

[۷] رواه ابن عساکر (۳۶۴:۱۱ کنز).

[۸] رواه البخاری (الصحیح ۱۹۶:۲) وأبو داود حدیث ۲۹۸۰ واللفظ له.

[۹] المغنی ۶۵۷:۲.

[۱۰] الحاکم (المستدرک ۱۷۱:۳).

[۱۱] المستدرک (۱۷۱:۳).

[۱۲] البدایة والنهایة (۲۴۳:۶).

[۱۳] المستدرک (۱۷۱:۳).

[۱۴] البدایة والنهایة (۲۴۴:۶).

ظهور النفاق

ومن الدلیل القاطع علی أن دولة عثمان رتع فیها النفاق حتی بلغ الذروة،

تلک الأحادیث التی رویت عن حذیفة صاحب سر رسول الله [۱] فحذیفة کان

یعلم أسماء المنافقین الکبار الذین أرادوا اغتیال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم عند رجوعه من تبوک کما ذکرنا. والثابت والقاطع أن حذیفة مات بعد

[صفحه ۴۰۶]

مقتل عثمان بأربعين يوما [۲] ، وقبل وفاته بايع عليا وأوصى الناس بطاعة أمير المؤمنين على [۳] ، وأمر أولاده بالقتال تحت رايته فقتلا بصفين [۴] .

والثابت أيضا أن حذيفة كان مريضا قبل قتل عثمان وكان يلزم بيته [۵] ، وعلى ما سبق فإن رواياته التى سنوردها هنا لا بد وأن تكون قد وقعت فى خلافة أبى بكر وعمر، وأما فى خلافة عثمان. وهى روايات تجسد واقع المجتمع الذى رآه وسمعه حذيفة ومن هذه الروايات: قال ": لا يغرنك ما ترى، فإن هؤلاء يوشكون أن ينفرجوا عن دينهم كما تنفرج المرأة عن قبلها [" ۶] وقال ": والله ما أدرى أنسى أصحابى أم تناسوا؟ [۷] والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قائد فتنة [۸] إلى أن تنقضى الدنيا بلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم [۹] قبيلته [" ۱۰] إن حذيفة هنا يشير إلى أن النبى

ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ولأن الصحابة نسوا ما ذكروا به جرت الفتن. وقال حذيفة فى معالمها ": إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون [" ۱۱] .

ثم قال صاحب السر الذى لا يعلمه أحد غيره ": إنما كان النفاق على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم. فأما اليوم فإنما هو الكفر

[صفحه ۴۰۷]

بعد الإيمان [" ۱۲] .

ثم يقول صاحب السر الشاهد على عصر الصحابة بعد وفاة النبى الأعظم صلى الله عليه وسلم ": إن الرجل كان يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقا. وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات. وفى رواية: عشر مرات [۱۳] إنها ثقافة وتربية مجتمع الرأى

والمصلحة، وإلا كيف انتشرت هذه الثقافة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم بزمن يسير؟ ثم يفجر حذيفة أكبر حقيقة ترتبت على ذلك كله فيقول: قال صلى الله عليه وسلم: اكتبوا إلى من تلفظ بالإسلام من الناس. فكتبنا له ألف وخمسمائة رجل، فقلنا: تخاف ونحن ألف وخمسمائة. ثم يقول حذيفة: فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف [۱۴] وفى رواية عند مسلم،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا. قال حذيفة: فابتلينا حتى جعل الرجل لا يصلى إلا سرا [۱۵] .

إن الصلاة سرا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بأقل من ربع قرن انتهت فى زمان بنى أمية إلى ما رواه البخارى عن أنس، دخل عليه الزهرى فوجده يبكى. فقال ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت [۱۶] إن الأحاديث التى رواها حذيفة والأقوال التى قال

بها حدثت إما فى زمن أبى بكر، و إما فى عهد عمر الذى اعترف صراحة بتعيين المنافقين، وإما فى عهد عثمان، ونحن نرجح العهد الأخير لأنه باب لأسرة ذمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديث صحيحة. والنبى صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر بظهور النفاق فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا، يظهر النفاق، وترفع الأمانة، وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين،

[صفحه ۴۰۸]

ويؤتمن غير الأمين [" ۱۷] صلى عليك يا رسول الله فلقد ظهر هذا بعد وفاتك

بزمن قليل ثم بدأ يتسع حتى تاه الجميع فى سنن الأولين إلا من رحم الله. وكان لظهور النفاق علامات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة (أى اغتصاب) وغنيمتهم غلول (أى سرقة) [۱۸] وصلى الله عليك يا رسول الله.

[۱] وصف فى الصحيحين أنه صاحب السر الذى لا يعلمه غيره (البخارى ۳۰۵:۲) (الإصابة ۳۳۲:۲).

[۲] الإصابة ۳۳۲:۲، الحاكم (المستدرك ۳۸۰:۳)، (البخارى فى التاريخ الصغير ۸۰:۱).

[۳] الحاكم (المستدرك ۳۸۰:۳) والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ۲۳۶:۷) وأبو نعيم (كنز العمال ۶۱۲:۱۱) والطبرانى ورجاله ثقات

(الزوائد ۲۴۳:۷) ومروج الذهب ۳۹۴:۲، فتح البارى ۴۰:۱۳.

[۴] الکامل ۱۴۷:۳.

[۵] مروج الذهب ۳۹۴:۲.

[۶] رواه ابن أبی شیبهٔ وأبو نعیم (کنز العمال ۲۱۶:۱۱).

[۷] أم تناسوا: أی أظهروا النسیان لمصلحهٔ من غیر نسیان؟!.

[۸] قائد فتنهٔ: أی داعی ضلالهٔ وباعث بدعهٔ یأمر الناس بها.

[۹] باسمه واسم أبیه: یعنی وصفا واضحا مفصلا لا مبهما.

[۱۰] رواه أبو داود حدیث ۴۲۴۳، فی عون المعبود حدیث ۴۲۲۲.

[۱۱] البخاری (الصحیح ۲۳۰:۴)، ک الفتن باب إذا قال عند قوم شیئا ثم خرج.

[۱۲] البخاری (الصحیح ۲۳۰:۴) ک الفتن باب إذا قال عند قوم شیئا ثم خرجه.

[۱۳] رواه أحمد وإسناده جید (الفتح الربانی ۱۷۳، ۲۳۱:۱۹).

[۱۴] البخاری (الصحیح ۱۸۰:۲) ک الجماد والسیر باب کتابهٔ الإمام الذی.

[۱۵] مسلم (الصحیح ۱۷۹:۲) وأحمد (الفتح الربانی ۴۰:۲۴).

[۱۶] البخاری (الصحیح ۱۳:۱).

[۱۷] رواه الحاکم (کنز العمال ۱۲۷:۱۱) ورواه الطبرانی والبیهقی بلفظ مشابه (کنز ۱۲۸:۱۱).

[۱۸] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۳۲:۱۹).

الاحتجاج السلمی

بدأ عثمان خطاه فقال ": لا یحل لأحد یروی حدیثا لم یسمع به فی عهد

أبی بکر ولا عهد عمر [" ۱] وکانت بدایهٔ حکمه لا تختلف عمن سبقه، ولکن ما لبث بعد أن قام بنو أمیهٔ بترتیب أوراقهم أن تحول الحکم لصالح بنی أمیهٔ، وصالح الأرستقراطیهٔ القرشیهٔ. وکما ذکرنا من قبل أن السیاسهٔ التی اتبعها عمر بن الخطاب کانت عدم توزیعه الأرض علی المسلمین المقاتلین، وحولها إلی أرض خراج تملک الدولهٔ رقبتها، وصار بیت المال یدفع للمقاتلهٔ أعطیات من الثابت أن عمر بن الخطاب فضل بعض الناس علی بعض. ففضل السابقین علی غیرهم وفضل المهاجرین من قریش علی غیرهم من المهاجرین، وفضل المهاجرین کافهٔ علی الأنصار کافهٔ، وفضل العرب علی العجم [۲] وکان من نتیجهٔ ذلک ظهور

طبقهٔ من الأرستقراطیهٔ القرشیهٔ، ولکن بحجم محدود ما لبث أن اتسع بعد ذلک. وفی عهد عمر روی الإمام أحمد أن أبا عبیدهٔ بن الجراح بکی وعندما قیل له ما یبکیک قال: إن النبی صلی الله علیه وسلم قال له: یا أبا عبیدهٔ یکفیک من الخدم ثلاث، خادم یخدمک، وخادم یسافر معک، وخادم یخدم أهلک. وحسبک من الدواب ثلاث، دابهٔ لرحلک، ودابهٔ لثقلک، ودابهٔ لغلامک. ثم ها أنذا أنظر

[صفحه ۴۰۹]

إلی بیتی قد امتلأ رقیقا، وانظر إلی مرابطی قد امتلأت دوابا، فکیف ألقی رسول الله صلی الله علیه وسلم بعد هذا وقد أوصانا رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم أن أحبکم إلی وأقربکم منی من لقینی علی مثل الحال الذی فارقنی علیها [۳] وبعد ذلک اتسعت الطبقهٔ فی عهد عثمان بعد أن بسط نبلاء بنی أمیهٔ

وغیرهم أیدیهم علی کثیر من الضیاع. وبعد أن توسع الناس فی أمور الدنیا واستعملوا النفیس من الملبس والمسکن والمطعم واقتنوا

الأثاث الفاخر. وبنظرة سريعة على ثروة بعض الأفراد خلال هذه المدة نجد أنه كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير [۴] وكانت قيمة ما ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير،

وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس، كما ترك ذهبا قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدى الرجال منه [۵] .

وكان لطلحة بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءته غلته كل سنة بعشرة آلاف. وروى أنه ترك ألفى ألف درهم ومائتى ألف درهم، ومائتى ألف دينار، وإن قيمة ما ترك من العقار ثلاثين ألف ألف، وترك مائة بهار، فى كل بهار ثلاثة قناطير ذهب والبهار جلد ثور [۶] ، وكانت قيمة ما ترك الزبير إحدى وخمسين ألف ألف، وكان له بمصر خطط، وبالإسكندرية، وبالكوفة خطط، وبالبصرة دور، وكان له أربع نسوة أصابت كل امرأة ألف ألف ومائة ألف [۷] وفى تاريخ ابن عساكر أن عمرو بن العاص كان

يلقح كروم بستان له بالطائف بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم، وكانت له دور كثيرة بمصر ودمشق وحرون والجابية. وكان لسعد بن أبى وقاص دارا بناها بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضائها وجعل على أعلاها شرفات.

[صفحه ۴۱۰]

فالبذرة التى وضعها عمر تحت عنوان الخراج، جعلت العيون تتطلع إلى أموال الدولة حيث كانت وكل فرد يأخذ منها حجم الخدمة التى يؤديها للنظام. فمنهم من يأخذ دراهم، ومنهم من يأخذ دارا أو خادما، ومنهم من يأخذ أرضا أو ضياعا. ووفقا لثروة الدولة نتيجة للفتوحات، كان الفاروق يختار الأمراء وقادة الجند من قبائل مختلفة، فإذا وجد المال والأمير المخلص ضمنت الدولة عدم حدوث أى تمرد من أى قبيلة، لهذا لا نستغرب تعيين المنافقين فى الدولة العمرية، ولا نستغرب تعيين أبى زبيد النصرانى لأنه مدخل إلى بنى تغلب، ولا إياس بن صبيح الذى كان من أصحاب مسيلمة لأنه مدخل إلى بنى حنيفة رافعة لواء التمرد، ولا طلحة بن خويلد الذى ادعى النبوة لأنه مدخل إلى قبيلته حتى لا تثور، إلى غير ذلك من قبائل العرب، فبيت المال هو فى حقيقة الأمر الحافظ للنظام، ولكنه فى عهد عثمان كان فى حقيقة الأمر المدمر للنظام. وذلك لأن الأغلبية العظمى من الأمراء الذين اختارهم عمر لم يكونوا من الطامعين فى الخلافة، أما الأغلبية العظمى التى استعملها عثمان كانت تطمع فى الخلافة، والغالبية العظمى فى قريش كانت قد ملت عمر لأنه لم يسمح لهم بالخروج. وفى عهد عثمان انطلقوا فخالطوا الناس وجرى فى أيديهم الذهب، وحببوا للناس الإمارة كما أحبوا الملك والرئاسة. واتسعت الطبقة الأرستقراطية القرشية وازدادت قائمة النبلاء، وأمام هذا الاتساع ظهرت الحركات المضادة التى تئن تحت العمامة الأموية. وعندئذ يقف عثمان ويقول: يا أيها الناس إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان فى هذا المال ظلف أنفسهما وذوى أرحامهما، وإنى تأولت فيه صلة رحمى [" ۸] ولكى يضع عثمان على قراره عباءة القداسة نراه يقول لأصحاب

النبى صلى الله عليه وسلم ": نشدتكم الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشا على سائر الناس ويؤثر بنى هاشم على سائر قريش. فسكت القوم. فقال: لو أن يبدى مفاتيح الجنة لأعطيتها بنى أمية حتى

[صفحه ۴۱۱]

يدخلوا [" ۹] ولا ندرى لماذا لم يسلك عثمان مسلك رسول الله الذى فضل بنى

هاشم على سائر قريش، ورضى أن يفضل بنى أمية فى الدنيا بل وطمع أيضا فى الآخرة. لقد كان لتدفق المال قصص وحكايات، وكان على هذا المال تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا التحذير حمله أبو ذر الغفارى، وشاء الله أن يحمله أبو ذر دون خلق الله حتى لا يتهم بأنه من بنى هاشم فلا يسمع له. لقد خرج أبو ذر على طائفة النبلاء فى أول طريقهم، حتى لا تحدث كارثة فى نهاية الطريق تتعداهم إلى غيرهم حتى قيام الساعة. وكان أبو ذر يحمل منقبة الصدق التى وضعها النبى صلى الله عليه وسلم على لسانه لتكون المنقبة حجة بذاتها على الصحابة فى هذا الوقت. فعن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قلت الغبراء

ولا أظلت الخضراء عن رجل أصدق من أبى ذر [۱۰] وفى روايهٔ: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى لهجهٔ أصدق ولاـ أوفى من أبى ذر شبيه عيسى بن مريم. فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله أنعرف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه [۱۱].

قال أبو جعفر فى مشكل الأثر: والمراد بالحديث التأكيد والمبالغهٔ فى صدقه، وتأملنا هذا الحديث لنقف على المعنى الذى أريد به، ما هو؟ فكان ذلك عندنا والله أعلم على أنه كان رضى الله عنه فى أعلى مراتب الصدق [۱۲]، ونحن نقول: إن لكل شئ توقيتا، فأبو ذر كان فى أعلى مراتب الصدق من يوم أن

[صفحه ۴۱۲]

قال له النبى صلى الله عليه وسلم ذلك. ولكن هذا الصدق لا بد وأن يشع عند هدفه ليكون على الناس حجهٔ، لأن ما من شئ إلا من أجل هدف ومن وراء هذا الهدف حكمهٔ. وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر أبا ذر فقال له ": ويحك بعدى إذا رأيت البناء قد علا سلعا، فالحق بالمغرب أرض قضاعهٔ، فإنه سيأتى عليكم يوم قاب قوسين، أو رمح أو رمحين من كذا وكذا [۱۳] وذكر لأبى ذر أحداث وأحداث وقال له ": يا أبا ذر كيف أنت عند ولاه - وفى روايهٔ: كيف أنت وأئمهٔ من بعدى!! - يستأثرون عليك بهذا الفئ؟ قال أبو ذر: والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى فأضرب به حتى ألحقك: قال: أفلا أدلك على خير لك من ذلك تصبر حتى تلقانى [۱۴].

وأمر النبى صلى الله عليه وآله بالصبر هو من نسيج أمره لأمير المؤمنين على بأن لا ينازع، لأن المقام مقام إقامهٔ الحجهٔ. وروى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم جعل يقرأ هذه الآيهٔ: - (ومن يتق الله يجعل له مخرجا...) - حتى فرغ من الآيهٔ ثم قال: يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينهٔ؟ قال قلت: إلى السعهٔ والدعهٔ أنطلق حتى أكون من حمام مكهٔ. قال: كيف تصنع إن أخرجت من مكهٔ؟ قال قلت: إلى السعهٔ والدعهٔ إلى الشام والأرض المقدسهٔ. فقال: وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟ قال قلت: إذا والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى. قال: أو خير من ذلك قال قلت: أو خير من ذلك. قال: تسمع وتطيع وإن كان عبدا حبشيا [۱۵] - وفى روايهٔ - ألاـ أدلك على خير من ذلك تنقاد لهم حيث قادوك وتنساق لهم حيث ساقوك حتى تلقانى وأنت على ذلك [۱۶] وليس معنى أن يسمع ويطيع أن يجاريهم فى سياستهم، لأن خروجه

لن يكون عندئذ له معنى وستكون علامهٔ الصدق معطلهٔ فى حالهٔ سمعه وطاعته

[صفحه ۴۱۳]

لنبلاء قريش. وإنما المعنى أن يسمع ويطيع لهم عند قرارهم بنفيه وتسييره كى تنتقل الحجهٔ من مكان إلى مكان دون عوائق يضعها أمام نفسه. وعندما بلغ سلعا، وهى العلامهٔ التى سينطلق عندها أبو ذر بدأت المحن. فلقد قام أبو ذر بإنذار الذين يكنزون الذهب والفضهٔ. وبدأت القيادهٔ فى المدينهٔ المنورهٔ تضيق على عثمان. فعن الأحنف بن قيس قال: كنت بالمدينهٔ فإذا برجل يفر الناس منه حين يرونه. قلت: من أنت؟ قال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: ما يفر الناس؟ قال: إنى أنهاهم عن الكنوز بالذى كان ينهاهم عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم [۱۷].

أبو ذر لمن حضر: أحدثكم إنى سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تتهمونني. ما كنت أظن أنى أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم [۱۸] وعندما وجدت الدولهٔ أن أبا ذر بدأ يضرب فى

الاتجاه الآخر، وأنه سيبعث روايهٔ الأحاديث من جديد وستظهر الحقائق، زادت من أعطيهٔ الناس حتى تغطى هذه الزيادهٔ على عنوان " مال الله دولا " الذى ورد فى الحديث. ولكن أبا ذر مضى فى طريقه يحذر من نبلاء قريش، فقال له رجل: إن أعطياتنا قد ارتفعت اليوم وبلغت، هل تخاف علينا شيئا؟ قال: أما اليوم فلا. ولكنها توشك أن تكون أثمان دينكم فدعوها وإياكم [۱۹].

وانتهى الأمر بإخراج أبى ذر إلى الربذهٔ واستقبل أبو ذر هذا القرار بالرضا التام، لأنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول: ليموتن رجل

منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين [" ۲۰] وبينما أبو ذر يستعد للخروج قال له

رجل: أنت أبو ذر؟ قال: نعم، قال: لولا أنك رجل سوء ما أخرجت من

[صفحه ۴۱۴]

المدينة، فقال: بين يدى عقبة كؤود إن نجوت منها لا يضرنى ما قلت، وأن أقع فيها فأنا شر مما تقول [۲۱] وعند خروج أبى ذر ودعه الإمام على بن أبى طالب

وقال له: يا أبا ذر إنك غضبت لله فأرج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غدا والأكثر حسدا، ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا، ولا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك [۲۲] وتوفى أبو ذر بالربذة، وروى البلاذرى أنه لما بلغ عثمان موت أبى ذر قال: رحمه الله، فقال عمار: نعم فرحمه الله من كل أنفسنا، فقال عثمان: يا عاص أبر أبيه أترانى ندمت على تسييره، وأمر فدفع قفاه وعندما تدخل المهاجرون تركه [۲۳] وهكذا أقيمت الحجة على أصحاب الخواتم الذهبية

والضياع الفاخرة والأراضى الواسعة لعلهم أن يرتبوا أوراقهم من جديد على طريق الدعوة. وإذا كان أبو ذر قد لفت الأنظار إلى أمراء بنى أمية الذين يسلكون طريقا يتخذون فيه دين الله دخلا، فإن عبادة بن الصامت أعلن احتجاجه هو أيضا على أصحاب هذه الدائرة ويعلن لا طاعة لمن عصى الله. وكان عبادة يومئذ بالشام، وروى أن معاوية كتب إلى عثمان أن عبادة بن الصامت قد أفسد على الشام وأهله فإما أم تكفف عنى عبادة، وإما أن أخلى بينه وبين الشام، فكتب إليه عثمان: أن رحل عبادة حتى ترجعه إلى داره بالمدينة، فبعث بعبادة حتى قدم إلى المدينة، فدخل على عثمان فى الدار فالتفت إليه فقال: يا عبادة بن الصامت ما لنا وما لك، فقام عبادة بين ظهرانى الناس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سيلى أموركم بعدى رجال يعرفونكم ما تنكرون،

[صفحه ۴۱۵]

وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى الله [۲۴] وعلى عثمان كان أيضا

اعتراض المقداد بن الأسود، روى مسلم أن رجلا جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلا ضخما يحثوا فى وجهه الحصباء فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب [۲۵].

وهناك اعتراض آخر لجمع من الصحابة قالوا لأسامة بن زيد: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟. فقال: أترون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم، والله لقد كلمته فيما بينى وبينه [۲۶] قال النووى: والمعنى أتظنون أنى لا أكلمه إلا وأنتم

تسمعون.. وفى الحديث وعظ الأمراء سرا وتبليغهم ما يقول الناس فيهم ليكفوا عنه. وهذا كله إذا أمكن ذلك فإن لم يمكن الوعظ سرا والإنكار فليفعله علانية لئلا يضيع أصل الحق [۲۷] ولقد قام زيد بن صوحان بوعظ عثمان أبلغ موعظة

قبل الطوفان فقال له: يا أمير المؤمنين ملت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك - ثلاث مرات [۲۸].

[۱] الطبقات الكبرى ۳۳۶:۲، وابن عساكر (كنز العمال ۲۹۵:۱۰).

[۲] ابن أبى الحديد ۴:۳.

[۳] الإمام أحمد (الفتح الربانى ۱۰۷:۱۹).

[۴] الطبقات الكبرى ۷۶:۳.

[۵] الطبقات الكبرى ۱۳۶:۳.

[۶] الطبقات الكبرى ۲۲۲:۳.

[۷] الطبقات الکبری ۳:۱۱۰.

[۸] الطبقات الکبری ۳:۶۴، کنز العمال ۵:۶۲۷.

[۹] رواه أحمد وقال الهیثمی رواته ثقات (الفتح ۲۲:۳۳۲).

[۱۰] رواه أحمد بسند جید (الفتح الربانی ۲۲:۳۷۰) وابن ماجة والطبرانی بسند جید (کشف الخفاء ۲:۲۳۱) والترمذی وحسنه (الجامع ۵:۶۷۹) وابن سعد (کنز العمال ۴:۲۲۸) وابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۶۶۷).

[۱۱] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۵:۶۷۰).

[۱۲] مشکل الأثر ۱:۲۲۴.

[۱۳] ابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۱۸۸) والطبری فی التاریخ (تاریخ الأمم ۵:۶۶).

[۱۴] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۳:۳۷)، وابن سعد ولکن بلفظ کیف أنت إذا کان علیک أمراء الطبقات ۴:۲۲۶).

[۱۵] رواه أحمد وإسناده جید (الفتح الربانی ۲۳:۳۶).

[۱۶] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۳:۱۰۸).

[۱۷] رواه الإمام أحمد (الفتح الربانی ۲۲:۳۷۱).

[۱۸] مروج الذهب ۲:۲۷۶، ابن أبی الحدید ۵:۵۴۱.

[۱۹] الحاکم (المستدرک ۴:۵۲۲).

[۲۰] رواه ابن حبان فی صحیحه والضیاء وأحمد وابن سعد (کنز العمال ۱۱:۶۶۸).

[۲۱] الإمتاع والمؤانسة ۲:۱۲۸.

[۲۲] ابن أبی الحدید ۳:۹۰، مروج الذهب ۲:۳۷۷.

[۲۳] البلاذری ۵:۵۴، الیعقوبی ۲:۱۵۰.

[۲۴] رواه أحمد والطبرانی ورجالهما ثقات (الزوائد ۵:۲۲۷).

[۲۵] رواه مسلم باب النهی عن الافراط فی المدح (الصحیح ۱۸:۱۲۸).

[۲۶] رواه مسلم (الصحیح ۱۸:۱۱۸) ک الزهد باب عقوبة من یأمر بالمعروف.

[۲۷] مسلم شرح النووی ۱۸:۱۱۸.

[۲۸] الطبقات الکبری ۶:۱۲۴.

الرد علی الاحتجاج السلمی

لقد خرج أبو ذر وعبادة والمقداد باعتراضهم عام ۳۰ ه، وفی عام ۳۳ ه

کان الحال کما هو علیه فالولید بن عقبة ونـدیمه النصرانی أبو زبید کانا یشربان الخمر، ویدخل علیهما نصاری بنی تغلب ونصاری الحیرة فی دار الإمارة حیث کان الولید یومئذ أمیر عثمان علی الکوفة. وروی أن الولید عندما ذهب لیجلس علی کرسی الإمارة قال له سعد بن أبی وقاص: والله ما أری أکسبت بعدنا أم

[صفحه ۴۱۶]

حمقنا بعدک، فقال الولید: لا تجزعن أبا إسحاق فإنما هو الملک یتغذاه قوم ویتعشاه آخرون، قال سعد: أراکم والله ستجعلونها ملکا [۱] ، والولید هو أخو عثمان لأمه [۲] ، ولا خلاف بین أهل العلم أن قوله تعالی: - (إن جاءکم فاسق...) - نزلت فی الولید [۳] ، وقصة صلاته بالناس الصبح أربعا وهو سکران مشهورة مخرجة، وقصة عزله بعد أن ثبت علیه شرب الخمر مشهورة أیضا مخرجة، فی

الصحيحين [۴] ونتيجة لما فعله الوليد احتج وجوه أهل الكوفة

وتوجهوا إلى عثمان وطالبوا بعزل الوليد ولكن عثمان ماطل. وروى البلاذرى: أن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطا، فأتوا عليا فشكوا إليه، فأتى عثمان وقال: عطلت الحدود وضربت قوما شهود على أخيك فقلبت الحكم. وأخرج البلاذرى أيضا: وأتى بعض الشهود عائشة فأخبروها بما جرى بينهم وبين عثمان، وأن عثمان زبرهم فنادت عائشة: إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود. وأخرج صاحب الأغانى: إن عثمان قال: أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة، فسمعت فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل. فتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد فمن قائل: أحسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال. ولم يجد عثمان مفرا أمام هذه الانتفاضة سوى أن يجمع بين الوليد وبين خصمائه ورأى أن ينفذ عليه الحد. وروى أن سعيد بن العاص جلس على كرسى الإمارة بعد الوليد، وما صعد منبر الكوفة حتى أمر به أن يغسل: فناشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معه من بنى أمية وقالوا: إن هذا قبيح والله لو أراد هذا غيرك لكان حقا أن تذب عنه يلزمه عار هذا أبدا، ولكن سعيدا أبى إلا أن يفعل فغسله [۵] وإذا كان سعيد قد

[صفحه ۴۱۷]

طهر المنبر نجد أنه عندما اختار من أهل الكوفة من يدخل عليه ويسمر عنده، قد فجر مشكلة فتحت بابا واسعا للاحتجاج. روى أنه تفاخر بالخراج وقال ": إنما هذا السواد بستان لقريش. " فهذه المقولة كانت بداية وقف الأشتر عندها. وقال له: أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا. وتكلم القوم مع الأشتر، وعندئذ قال قائد شرطة سعيد: أتردون على الأمير مقالته وأغلظ لهم... فقال سعيد: والله لا يسمر عندى أحد أبدا. ثم كتب سعيد إلى عثمان: إن رهطا من أهل الكوفة يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبى والطعن فى ديننا وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا [۶] .

وعلى هذه الرسالة بدأ عثمان ينتهج سياسة جديدة هى سياسة التسيير أى إبعاد الناس عن ديارهم إلى مكان آخر يمتاز بغلظة اليد. وكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى معاوية وكان معاوية يومئذ على الشام فسيرهم وهم تسعة نفر إلى معاوية [۷] منهم: زيد بن صوحان وجندب بن كعب وفيهما ورد حديث يدين عهد عثمان. روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": جندب وما جندب وزيد الخير وما زيد الخير، أما أحدهما فيضرب ضربة يفرق بين الحق والباطل، وأما الآخر فيسبقه عضو من أعضائه إلى الجنة ثم يتبعه سائر جسده [۸] وقال:

"من سره أن ينظر إلى رجل سبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان [" ۹] .

فأما جندب فواجه الوليد بن عقبة [۱۰] وحكم عليه عثمان بالتسيير. وأما زيد

[صفحه ۴۱۸]

فهو الذى قال لعثمان: ملت فمالت أمتك اعتدل تعتدل أمتك [۱۱] ثم بايع بعد

ذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقتل تحت رايته. ومنهم: كميل بن زياد قال صاحب الإصابة: أدرك من الحياة النبوية ثمان عشرة سنة، شهد صفين مع على، وكان شريفا مطاعا ثقة [۱۲] ومنهم: جندب بن زهير. قال فى الإصابة:

أتى النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من قومه. قال للنبى صلى الله عليه وسلم: إنى لأرجع من عندك، فلم تقر عينى بمال ولا ولد حتى أرجع فأنظر إليك. وقيل كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق ارتاح لذلك، فنزلت قوله تعالى: - (من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) -. ومنهم: عمرو بن الحمق، قال فى الإصابة: روى عن ابن إسحاق ما يقتضى أن عمرو بن الحمق شهد بدرا، وشهد مع على حروبه كلها [۱۳] ومنهم: عروة بن الجعد وهو الذى

أرسله النبى صلى الله عليه وسلم ليشترى الشاة بدينار فاشترى به شاتين، والحديث مشهور فى البخارى [۱۴] ومنهم: صعصعة بن صوحان قال فى

الإصابة: كان مسلما فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره. شهد صفين مع على وكان خطيبا فصيحا. وقال الشعبى: كنت أتعلم منه الخطب [۱۵].

ومنهم: مالك بن عامر الأشتر، الذى شهد الصلاة على أبى ذر حين مات بالربذة، وكان النبى قد أخبر أنه يشهد الصلاة عليه عصابة من المؤمنين. وكان الأشتر قلب هجوم على بن أبى طالب فى صفين. فهؤلاء الصحابة الأجلاء [۱۶] فيهم من شهد بدرا، وفيهم من كانت رؤية

النبى أغلى من ماله وولده، وفيهم من أجمع العلماء على أنه ثقة ومأمون

[صفحه ۴۱۹]

وخطيب، هؤلاء طردهم عثمان لأنهم تصدوا لمن هم من أمثال الوليد وسعيد ومعاوية إلى غير ذلك من نبلاء بنى أمية. لقد سيرهم إلى الشام وهناك بدأ معاوية يعرفهم بتاريخ آبائه بعد أن قطعت المسيرة شوطا كبيرا على طريق اللارواية. فقال لهم:... وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه صلى الله عليه وآله... وإنى لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما [۱۷] وفى سباق الأحداث يبدو أن معاوية كان يمهد الأمر لنفسه بهذه

المقولة وكان يطمع فى نشرها كما سيظهر فيما بعد. ولكن أحد المبعدين وهو صعصعة قال: قد ولدهم خير من أبى سفيان من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه [۱۸] وفى الليلة التالية جمعهم معاوية وقال لهم: أيها القوم ردوا على خيرا

أو اسكتوا، وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم وينفع عشائركم وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم [۱۹] وهنا لوح معاوية بالمال ولكن

صعصعة قال: لست بأهل ذلك ولا كرامة لك إن تطاع فى معصية الله. فأخبره معاوية بأنه يأمر بتقوى الله وطاعته وطاعة رسوله. فقال صعصعة: فأما نأمرك أن تعتزل عملك فإن فى المسلمين من هو أحق به منك. قال معاوية: من هو؟ فقال: من كان أبوه أحسن قدما من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدما منك فى الإسلام، قال معاوية: إن لى فى الإسلام قدما، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك، فلو كان غيرى أقوى منى لم يكن لى عند عمر هوادة، فقالوا: لست لذلك أهلا [۲۰].

كتب معاوية إلى عثمان: فإنك بعثت إلى أقواما يتكلمون بألسنة الشياطين، وما يملون عليهم ويأتون الناس زعموا من قبل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون وإنما يريدون فرقة، فقد أفسدوا كثيرا من الناس من أهل الكوفة، ولست آمن إن قاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم

[صفحه ۴۲۰]

وفجورهم فارددهم إلى مصرهم. فكتب إليه عثمان يأمره أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه [۲۱] وعندما تحدثوا بالقرآن خاف سعيد أن يغروا

الناس بسحرهم كما خاف معاوية من قبل فكتب إلى عثمان يضج منهم فكتب عثمان إليه أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أمير حمص [۲۲].

لقد كانت البداية اعتراض على مقولة ": السواد بستان لقريش " تلك المقولة الظالمة التى عند نتيجتها أولى خرج أبو ذر الغفارى وغيره. ولكن الدولة تعامت عن حركة الغليان فى الجانب الآخر، وعلى كؤوس الوليد وشعر أبى زبيد والأقيشر وشعراء الأديرة والخمور خرج جندب ليضرب الشعوذة والدجل والسحر ويقاضى الوليد بل والنظام كله. ولكن النظام عاد ليقول ": السواد بستان لقريش " ولم يضع فى حساباته أن الخروج السلمى لأبى ذر وعبادة والمقداد قد طرح ثقافة تحذر من بنى أمية إذا بلغوا ثلاثين رجلا، ولهذا لم يكن غريبا أن نسمع وفد المبعدين وهم يطالبون باعتزال معاوية.

[۱] الإستيعاب ۶۳۳:۳.

[۲] الإستیعاب ۳:۶۳۱.

[۳] الإستیعاب ۳:۶۳۲، الإصابة ۳:۶۳۷.

[۴] الإصابة ۳:۶۳۸.

[۵] الطبری ۵:۸۸.

[۶] الطبری ۵:۸۸.

[۷] الطبری ۵:۸۸، البدایة ۷:۱۶۵.

[۸] رواه ابن عساکر وابن مندة وابن السکن (کنز العمال ۱۱:۶۶۹).

[۹] رواه أبو یعلی وابن عدی والخطیب وابن عساکر (کنز ۱۱:۶۸۵)، وقال ابن کثیر رواه البیهقی (البدایة ۶:۲۱۴).

[۱۰] هو الذی أخبر ابن مسعود وغیره بشرب الولید للخمر وقاد المعارضة ضده (الطبری ۲:۱۷).

[۱۱] الطبقات الکبری ۶:۱۲۴.

[۱۲] الإصابة ۵:۳۲۵.

[۱۳] الإصابة ۴:۲۹۴.

[۱۴] الإصابة ۴:۲۳۶.

[۱۵] الإصابة ۳:۲۵۹.

[۱۶] راجع أسماءهم فی الطبری ۵:۹۰.

[۱۷] الطبری ۵:۸۹، البدایة والنهایة ۷:۱۶۵.

[۱۸] الطبری ۵:۸۹، البدایة ۷:۱۶۵.

[۱۹] الطبری ۵:۸۹.

[۲۰] الطبری ۵:۸۹.

[۲۱] الطبری ۵:۹۰.

[۲۲] الطبری ۵:۹۰.

البطانة السوء

جاءت سیاسة التسییر بمزید من الصعوبات أمام دولة عثمان فبعد أن انقضی

عام ۳۳ ه - ۳۴ ه بدأت الأمصار تضج من ظلم الولاة، فمصر تحت قیادة عبد الله بن أبی السرح أخو عثمان من الرضاعة. وکان عبد الله یکتب الوحی للنبی، ثم ارتد مشرکا، ویوم فتح مکة أمر النبی بقتله، ولو وجد تحت أستار الکعبة، ولکن عبد الله اختفی عند عثمان. وبعد أن هدأت الأمور فی مکة جاء به عثمان لیستأمن له، ولکن النبی صمت طویلا، ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمان قال النبی صلی الله علیه وسلم لمن حوله: ما صمت إلا لیقوم إلیه بعضکم فیضرب عنقه فقال رجل: فهلا أومأت إلی یا رسول الله، فقال: إن النبی لا

[صفحه ۴۲۱]

ینبغی أن تکون له خائنة الأعین [۱] وفی عهد عمر بن الخطاب ولاه عمر علی

صعید مصر وفی عهد عثمان ضمت إلیه مصر کلها بعد أن عزل عمرو بن العاص عنها. وأمره عثمان أن یغزو بلاد إفریقیا، فإن فتحها فله خمس الخمس من الغنیمة، فسار إلیها فی عشرة آلاف فافتتحها وقتل خلقا کثیرا من أهلها [۲] .

وعلی الرغم من أن خمس الخمس قد دخل جیبه إلا أنه فرض الضرائب علی مصر حتی اشتکی أهلها. أما فی الکوفة فقد اجتمع الناس

وتذاكروا أعمال عثمان وما صنع، واجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه، فأرسلوا إليه عامر بن قيس. فلما دخل عليه قال: إن ناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركبت أمورا عظاما، فاتق الله عز وجل وتب إليه. فقال عثمان: أنظر إلى هذا!! تكلمنى فى المحقرات، فوالله ما تدرى أين الله. فقال عامر: بلى والله إنى لأدرى إن الله بالمرصاد لك [۳] وعقب هذا اللقاء أرسل عثمان إلى

معاوية بن أبى سفيان وإلى عبد الله بن أبى السرح وإلى سعيد بن العباس وإلى عمرو بن العاص وإلى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم. فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على [۴] .

فماذا قال الذين تطالب الشعوب بعزلهم؟ قال عبد الله بن عامر: رأيى لك أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا لك، فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه... [۵] فهذا الرأى جعل الجهاد سقفا له، وفى

الميدان إما بقتل. وإما التصفية الجسدية، وأما الابقاء فى ثغور العدو، أو

[صفحه ۴۲۲]

الحبس فى أرض العدو. وهذه أمور نهى عنها الشرع [۶] أما سعيد بن العاص

فقال: إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر. فقال عثمان: إن هذا الرأى! لولا ما فيه [۷] أما معاوية فقال: الرأى أن تأمر أمراء أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام [۸] لقد أراد معاوية أن

تجرى فى الأمصار بحور الدماء، ولم لا وهم فى أيديهم المال والسلاح والجند. أما عبد الله ابن أبى السرح فقال: إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم [۹] وهذا الرأى يعنى التلويح بالرغيف والزخرف لشراء

الدين والنفوس. أما عمرو بن العاص فقال: إنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعتدل، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزما وامضى قدما. فقال عثمان: ما لك قمل فروك. أهذا الجد منك. فسكت عمرو. وعندما تفرق القوم قال: يا أمير المؤمنين قد علمت أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيرا أو أدفع عنك شرا [۱۰] .

إن هذا الاجتماع الذى رواه غير واحد من أصحاب التاريخ. هو المقدمة الأولى التى قامت على عثمان فقرارات غرفة المشورة هذه أشعلت النيران لحسابها الخاص، وذلك بعد أن تمكن المال من نفوسهم، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لا تزال أمتى على الفطرة ما لم يتخذوا الأمانة مغنما والزكاة مغرما [" ۱۱] فأصحاب المشورة الذين شاورهم عثمان هم المقدمة الأولى لقيادة

فاسدة الفطرة، لأن المال والجاه والترف هو رأس الزاوية لتحركاتهم. وروى أن عثمان بعد هذا الاجتماع قرر أن يضيق الأمراء على من قبلهم، وأن يجمروا الناس فى البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا

[صفحه ۴۲۳]

إليه [۱۲] ولم يمض عام ۳۴ ه حتى كتب أصحاب النبى صلى الله عليه وآله

وسلم بعضهم إلى بعض: أن اقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد [۱۳] وأمام هذه التحولات

خطب عثمان فى الناس: فقد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه، فدنتم له ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفى ولقفت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على، أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأمن إن قلت هلم أتى إلى، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا- وكشرت لكم عن نابى، فكفوا عليكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا إلا فما تفقدون من حقكم والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى، ومن لم تكونوا تختلفون عليه [۱۴] .

فأمام الزحف الساخط على الأمراء، كشر عثمان عن نابه وأمر بالكف عن الطعن على الولاة، وأخبر أن عمر بن الخطاب كان يطؤهم برجله ويضربهم بيده ويقرعهم بلسانه، وعثمان لا يختلف عن عمر لأن عثمان يمسك بذيل عمر فى كيفية تولية الأمراء وتوزيع المال. وإذا كانت الثورة قد جاءت لأن عثمان قد لان لهم وكف يده عنهم، فلا، لأنه أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا. فهذا مجمل خطاب عثمان أثناء العاصفة. وترتب على ذلك أن أهل الكوفة خرجوا على أميرهم سعيد بن العاص بالسلاح وردوه إلى عثمان وقالوا: لا والله لا يلى علينا حكما ما حملنا سيوفنا [۱۵] ولم تجدى أنياب الدولة أمام هذا الموقف شيئا،

وبعث عثمان بأبى موسى أميرا عليهم فأقروه [۱۶] .

[صفحه ۴۲۴]

[۱] راجع أبو داود حديث ۲۶۶۶، أسد الغابة ۲۵۹:۳، البداية والنهاية ۱۵۲:۷، الإصابة ۳۱۷:۲، الإستيعاب ۳۷۶:۲.

[۲] البداية والنهاية ۱۵۲:۷.

[۳] الطبرى ۹۴:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۴] الطبرى ۹۴:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۵] الطبرى ۹۴:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۶] لسان العرب مادة حجر.

[۷] الطبرى ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۸] الطبرى ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۹] الطبرى ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۱۰] الطبرى ۹۴، ۹۵:۵، مروج الذهب ۳۷۲:۲.

[۱۱] رواه الضياء (كنز العمال ۶۲:۳).

[۱۲] الطبرى ۹۵:۵.

[۱۳] الطبرى ۹۶:۵.

[۱۴] الطبرى ۹۷:۵، البداية والنهاية ۱۶۹:۷.

[۱۵] الطبرى ۹۵، ۹۶:۵.

[۱۶] الطبرى ۹۵، ۹۶:۵.

العاصفة والبحث عن الذات

وجاء عام ۳۵ ه، وهو العام الذى سقط فى سلته ما ترتب على قرارات

صدرت خلال ما يقرب من ربع قرن بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. وأقصد بذلك قرار إبعاد على بن أبى طالب عن مركز القيادة، وقرار التضييق على رواية الحديث ثم منعها بعد ذلك، وقرار القص فى المساجد، وقرار إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم، وقرار إنشاء الخراج الذى استفاد منه طبقة على حساب الذين فتحوا الأرض عنوة، وقرار تعيين المنافقين. وجميع هذه القرارات وردت فيها أحاديث صحيحة، ورواها أصحاب التاريخ وتقبلها العلماء وأرسلوها إرسال المسلمات، ولا يمكن الطعن فيها بأى حال من الأحوال. وذلك لأن الحديث وحركة التاريخ فضلا عن آيات القرآن الكريم، جميع ذلك لا يلتفت إلى أى اعتراض لأنه سيكون اعتراض قوائمه فى ديار الأهواء، والذى دفعنى لكى أقول ذلك أنه خلال عام ۳۵ ه ظهر عند بعض أصحاب التواريخ شخصية اعتبروا أنها السبب الرئيسى فى البلاء الذى حط على رحلة المسلمين، وهذه الشخصية هى " عبد الله بن سبأ " أو " ابن السوداء، " وأغلب الظن أن الذين اخترعوا

هذه الشخصية أرادوا بها قطع طريق البحث العلمى حتى لا يصل إلى الأسباب الحقيقية التى دفعت بالأمة إلى عالم الاختلاف والافتراق واتباع سنن الذين من قبلهم. والذى ساعد على دق عمود هذه الشخصية فى تاريخ المسلمين هو القص الذى اتبع سياسة بث الإسرائيليات والخرافات، فى وقت كان العديد يتقبل هذه الإذاعات بالتسليم التام، نظرا لعدم وجود سياسة لرواية الحديث عن رسول الله. ومن العجيب أن القاص، وهو يعرض شخصية عبد الله بن سبأ، أخبر بأنه لم يستطع أن يمزق وحدة المسلمين فى الشام!! ولازم ذلك أن الشام عليها أمير فقيه فى دين الله مهتم بأمة محمد ووحدتها. ومن الثابت والذى لا خلاف عليه أن القص كان وجبة أساسية على امتداد العهد الأموى، وتحت ظلاله سبوا أمير المؤمنين على. فى البيوت والحارات والبارات وفى المساجد. وعدم اختراق ابن سبأ للشام جاء عند الطبرى على النحو التالى: كان عبد الله بن سبأ يهوديا من

[صفحه ۴۲۵]

أهل صنعاء أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم الكوفة ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم [۱] .

ولا ندرى إذا كان ابن سبأ معروف لأهل الشام حتى أنهم أخرجوه. فلماذا لم يقتله معاوية وهو الذى قتل حجر بن عدى بعد ذلك تحت دعوى أنه خطر على النظام. أو لماذا لم يسيره إلى عثمان وهو الذى كتب إليه من قبل أن أهل الكوفة يتحدثون بألسنة الشياطين وأنه غير أمن إن قاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم؟! وإذا فرضنا أنه لم يستطع القبض عليه لهروبه، فلماذا لم يقبض عليه أى أمير من أمراء الدولة، وهم أصحاب العيون المفتوحة على كل ما يهدد أمنهم؟ ولماذا لم يظهر ابن سبأ يوم قتل عثمان ضمن المجموعة التى اغتالته. وإذا كان كارها لعثمان لماذا لم نسمع له اسما فى معارك على بن أبى طالب كلها. ثم لماذا لم يبحث عنه معاوية يوم أن جلس على رقبة الأمة، وهو الذى كان يبحث عن المعارضين تحت كل حجر، وأتى بعمرو بن الحمق وقطع رأسه وأهداها إلى زوجة عمرو، فكان أول رأس أهدى فى الإسلام؟ ونحن إذا نظرنا فى العمود الفقرى للدعوة التى قام بها عبد الله بن سبأ نرى العجب، جاء فى تاريخ الطبرى: قال ابن سبأ لهم: إنه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى، وكان على وصى محمد. وقال: محمد خاتم النبيين، وعلى خاتم الأوصياء. وقال: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووثب على وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتناول أمر الأمة. وقال: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وأبدوا الطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [" ۲] هذه دعوة الشخصية الخرافية المنبوذة جعلوها على لسانه لتكون

دعوة خرافية منبوذة، أو فى عالمهم وعصرهم أوهموا الناس وقفا لسياسة

[صفحه ۴۲۶]

النص. أن ابن سبأ شخصية حقيقية، ثم على لسانه وضعوا ما يعتبرونه شذوذا كى يرفضه الناس، وفى صلب الدعوة نجد أنهم وضعوا وتدا مهما هو أن الطعن على الأمراء جريمة من فعلها يكون قد اقتفى أثر ابن سبأ اليهودى، وليس من الصدقة أن نرى هذا الكم من الأحاديث الموضوعة التى تحض على طاعة الأمراء. ثم نجد وتدا لا يستحق النقاش هو أنهم جعلوا موقع على بن أبى طالب من الرسول صلى الله عليه وسلم فى دائرة الشذوذ، ليفسحوا الطريق أمام أمرائهم. ويكفى فى هذا المقام أن نقول بأن الله خيب سعيهم، لأن وضع الحقيقة فى دائرة الخرافة على عهدهم دليل على أن لله طائفة لا يضرهم من خالفهم أو ناوأهم أو خذلهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك [" ۳] .

وفى رواية ": لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس [" ۴]

وفى رواية ": لا تزال

طائفة من أمتى ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى ابن مريم [" ۵] وعلى ذلك فإنهم ما وضعوا

الحقیقة فی دائرة الخرافة إلا

عندما أحسوا بوقع أقدام هذه الطائفة فأرادوا أن یعزلوها عن الناس بفعلهم هذا. إن طائفة الحق ظاهرة فی عالم اللاروایة، ولن یعتم علیها القص، لأن الله قضی ذلک، وطائفة الحق ظاهرة مهما کانت قوة من ناوأهم أو خذلهم أو خالفهم. قد تکون الطائفة علی الأرض تحت الظلال وقد یکون من ناوأهم فوق السحاب وتحت الشمس، ولکن الظهور لها لأن الله أراد ذلک. ولیس معنی أن الطائفة لیس لها مکان علی الأرض إنها غیر موجودة. فعیسی بن مریم لم یمتلک شبرا واحدا من الأرض ولکن وجوده علی الأرض أظهر، وهکذا شاء الله. والخلاصة: أن ابن سبأ شخصیة یسأل عنها القائمین علی سیاسة القص، فهو شخصیة خرافیة، جعلوا علی لسانه حقائق وخرافات أراد إعلام النبلاء أن یبثها علی

[صفحه ۴۲۷]

الأسماع، رغبة منه فی إیجاد رأی عام یؤید ما تراه السیاسة حقیقة أو خرافة. ولقد قال غیر واحد من الباحثین إن شخصیة ابن سبأ لا وجود لها فی التاریخ [۶] ولم یذکر ابن سبأ فی العدید من الکتب التی سبقت تاریخ الطبری

ومنها کتاب مروج الذهب للمسعودی. ومما سبق نعلم أن الساحة کان بها أکثر من تیار ضد عثمان. فتیار کان یعمل من أجل تغییر الأمراء فی الأمصار، وتیار کان یری أن عثمان مسؤول مسؤولیة مباشرة عن سیاسة الأمراء، ونقموا منها أشیاء منها: إرجاعه للحکم بن أبی العاص الذی لعنه رسول الله ونفاه وغیر ذلک، وهذا التیار کان یرید خلع عثمان لیتولی السلطة أحد غیره. وکان هناک تیار یرید أن یعود إلی الأمر الأول الذی فی دائرته علی بن أبی طالب، وذلک بعد أن فشلت أطروحة الاجتهاد والرأی فی قیادة الأمة، وخلفت وراءها أمراء النفاق والفتن وطبقات من النبلاء، وأخری من المحرومین، ومدونات من الشعر والقص. وهذا التیار حکمنا بوجوده وفقا لأطروحة ابن سبأ فلو لم یکن له وجود ما اخترعوا له شخصیة ابن سبأ، وبالأخص أننا لم نقرأ نصا واحدا ینادی بعلی بن أبی طالب حول بیت عثمان یوم حصاره. والذی قرأناه أن هناک من کان ینادی بطلحة، ولیس معنی عدم وجود أصوات لعلی ومؤیدین له یصرخون ویولولون حول بیت عثمان أن علیا کان وحده، ویکفی علی أن یکون معه عمار، وأبو أیوب الأنصاری، وحذیفة، وأبو قتادة، وبریدة، وزید بن أرقم، وعمران بن حصین، والبراء بن عازب، وزید بن صوحان، وغیر هؤلاء رضی الله عنهم أجمعین، وروی أن الصحابة أشاروا علی عثمان بأن یرسل من یثور به إلی الأمصار کی یتبین حقیقة الأمور، فأخذ عثمان بهذه المشورة وبعث برجال إلی الأمصار کی یقفوا علی حقیقة الإذاعة ضده وموقف الأمراء من الرعیة. وعندما عادوا أخبروه بعدم وجود إذاعة ضده إلا أن الأمراء یظلمون الناس، فبعث عثمان إلی عمال الأمصار، معاویة، وابن عامر، وابن أبی السرح، وأدخل معهم فی المشورة سعیدا،

[صفحه ۴۲۸]

وعمرا، وعندما قدموا علیه قال: ویحکم ما هذه الشکایة وما هذه الإذاعة، إنی والله لخائف أن تکونوا مصدوقا علیکم وما یعصب هذا إلا بی [۷] .

ومن العجیب أنهم أصروا علی وجود إذاعة ضده، علی الرغم من أن الذین بعث بهم عثمان إلی الأمصار نفوا ذلک. وعندما أخبرهم عثمان بما انتهی إلیه قالوا: لا والله ما صدقوا ولا بروا، وإن ما نقل إلیک لا یحل الأخذ به ولا الانتهاء إلیه، ثم أکدوا الإذاعة ضده. فقال سعید بن العاص: هذا أمر مصنوع یصنع فی السر فیلقی به غیر ذی معرفة، فیخبر به فیتحدث به فی مجالسهم. قال عثمان: فما دواء ذلک؟ قال: طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذین یخرجه هذا من عندهم [۸] لقد أراد أن یلقی بمزید من الزیت علی النار، وأشار کل واحد

منهم بمشورة لا تستقیم مع کون الأمة أمة واحدة، وقال عثمان: کل ما أشرتم به علی قد سمعت ولکل أمر باب یؤتی منه [۹] وبعد هذا اللقاء حدث أمر هام

یلقی بظلاله علی المسیرة بعد ذلک، فلقد روی أن عثمان بعد هذا اللقاء خرج وکان یسیر خلفه کعب الأحبار، ولا ندری ما هو دور

کعب فی هـذا اللقاء الـذی کان قریبا منه، ولکن الـذی نعلمه أن کعبا کان بعـد فتـح بیت المقدس یقیم بالشام عند معاویهٔ، وکان کثیر الانتقال بین الشام وبین المدینـهٔ، وأن معاویـهٔ أمره بالقص فی المساجد بالشام، ثم اتخذه مسـتشارا له وکان یعده من العلماء، روی بعد خروج عثمان رجز الحادی:

قد علمت ضوامر المطی++

وضمرات عوج القسی

أن الأمیر بعده علی++

وفی الزبیر خلف رضی

فقال کعب وهو یسیر خلف عثمان. الأمیر والله بعـده صاحب البلغـهٔ وأشار إلی معاویهٔ، وروی أن کعبا قال عندما سـمع الشـعر: کذبت صاحب الشهباء بعده - یعنی معاویهٔ - وعندما أخبر معاویهٔ بما قاله کعب سأله، فقال کعب: نعم

[صفحه ۴۲۹]

أنت الأمیر بعـده، ولکنها لا تصل إلیک حتی تکـذب بحـدیثی هذا، فوقعت فی نفس معاویهٔ. وفی روایهٔ: ما زال معاویهٔ یطمع فیها بعد مقدمهٔ علی عثمان حین جمعهم ثم ارتحل فحدا به الراجز:

أیها الأمیر بعده علی++

وفی الزبیر خلف رضی [۱۰] .

ماذا یسـتفاد من ذلک؟ لقـد قال کعب لعمر من قبل أن أوصافه مـذکورهٔ فی التوراهٔ، فهل أخبر معاویهٔ بأن له أوصاف ظاهرهٔ فی کتب الأولین؟ وأن أهم هـذه الأوصاف أنه سـیلی أمر هذه الأمهٔ، ولن یلی هذا الأمر حتی یکذب بهذا الخبر، نظرا لتواضـعه وحیاؤه وملکات نفسه التی شبعت من غذاء الروح، فهی لا تجوع أبدا ولا تطلب شبعا من قیادهٔ أو غیرها! وهل أراد کعب أن یخرج معاویهٔ بأقصی سرعهٔ من دائرهٔ التکـذیب بحـدیثه إلی دائرهٔ الاصـرار إلی نیـل الخلافهٔ؟ لقـد قـال معاویـهٔ للوفـد الـذی سبره عثمان إلیه حین طالبوه باعتزال السـلطهٔ: والله إن لی فی الإسـلام قـدما، ولغیری کان أحسن قدما منی، ولکنه لیس فی زمانی أحد أقوی علی ما أنا فیه منی [۱۱] أ لیس فی هذا ما أراد کعب؟ ففی فترهٔ ما کان معاویهٔ أن

یعتقـد أن هناک من أحسن منه، وهـذا الاعتقاد جعله لا یسـرع فی الأمر لأنه لو أسـرع لکـذبته نفسه فی بلوغ الهدف، ثم جاءت مرحلهٔ الاصـرار حیث لیس فی زمامه أحـد أقوی علی ما هو فیه منه. ثم یحق للباحث أن یتساءل، لقد کان کعب الأحبار قریبا من عمر. وروی أن عمر قال لأصـحاب الشوری: إن اختلفتم دخل علیکم معاویهٔ بن أبی سفیان من الشام [۱۲] فهل کان فی هذا إغراء لمعاویهٔ بالخلافهٔ یکون مدخلا لما قاله

کعب بعـد ذلک؟ ثم لقد روی أن عمر قال ": یا أهل الشام اسـتعدوا لأهل العراق [" ۱۳] فهل فی هذا إغراء آخر ازداد بریقه فی عهد عثمان حیث کانت

[صفحه ۴۳۰]

المعارضهٔ فی العراق قد بلغت الذروهٔ؟ والباحث یمکن أن یری بسـهولهٔ أن الاغراء قد تمکن من نفس معاویهٔ، وذلک من خلال أقواله وأفعاله بعد أن أخبره کعب الأحبار بأن الأمر إلیه بعد عثمان، فقبل أن یتوجه معاویهٔ إلی الشام، خرج من عند عثمان وعلیه ثیاب السـفر متقلـدا سـیفه متنکبـا قوسه، فإذا هن بنفر من المهاجرین فیهم طلحـهٔ والزبیر وعلی، وهم الـذین جاء ذکرهم فی رجز الحادی بخصوص الخلافهٔ بعد عثمان، فقام معاویهٔ علیهم فتوکأ علی قوسه بعدما سـلم علیهم ثم قال: إنکم قد علمتم أن هذا الأمر کان إذا الناس یتغالبون إلی رجـال، فلم یکن منکم أحـد إلاـ وفی فصـیلته من یرأسه ویسـتبد علیه ویقطع الأمر دونه ولا یشـهده ولا یؤامره، حتی بعث الله نبیه، فکانوا یرأسون من جاء من بعـده وأمرهم شوری بینهم یتفاضـلون بالسابقهٔ والقدمهٔ والاجتهاد. فإن أخذوا بذلک وقاموا علیه کان الأمر

أمرهم والناس تبع لهم، وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى ما كان يرأسهم، وإلا فليحذروا الغير فإن الله على البدل قادر وله المشيئة فى ملكه وأمره، إنى خلفت فيكم شيخا فاستوصوا به خيرا وكانفوه تكونوا أسعد منه حالا. " ثم ودعهم فقال على: ما كنت أرى فى هذا خيرا [۱۴] .

أهم أعمدة هذا الخطاب أراد معاوية أن يذكرهم بأنه قبل الإسلام كانت القيادة فى قريش إلى رجال [۱۵] ، وأنهم كانوا يرجعون أمورهم إلى هؤلاء الرجال الذين كانوا يستبدون عليهم ويقطعون الأمور، دون أن يشاوروا غيرهم. وعندما جاء الإسلام جعل الأمر شورى والتفاضل بالسابقة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك كان الأمر لهم والناس تبع لهم، وأن أبوا خلاف ذلك رد الله القيادة إلى من كان يرأسهم قبل الإسلام. ثم حذرهم الغير هذا، لأن الله على البدل قادر، فالبدل إذا جاء جاء بأمر الله، فسبحانه له المشيئة فى ملكه وأمره. ولم ينس معاوية أن يضع بينه وبينهم شيخا، ثم أوصاهم به، لأن هذا الشيخ ربما يكون طريقا إلى البدل إذا حدث له أى مكروه.

[صفحه ۴۳۱]

هكذا تحدث معاوية بعد إذاعة كعب، ولذا قال الإمام على: ما كنت أرى أن فى هذا خيرا. وروى أن معاوية قال لعثمان: انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا [۱۶] ومعنى

هذا أن يكون اسم الخلافة بالشام فتكون من معاوية ومعاوية منها. ولكن عثمان لم يوافق على ذلك فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغرين [۱۷] .

وانطلق معاوية إلى الشام وهو يبحث عن ذاته وسط العاصفة، مسترجعا وصية أمه له حين ولاه عمر.

[۱] الطبرى ۵:۹۸.

[۲] الطبرى ۵:۹۸.

[۳] رواه الإمام مسلم (الصحيح ۱۳:۶۵) ك الجهاد.

[۴] رواه مسلم (الصحيح ۱۳:۶۷) ك الجهاد.

[۵] رواه أحمد والحاكم وأبو داوود (الفتح الربانى ۲۳:۲۱۰).

[۶] راجع كتاب عبد الله ابن سبأ / للعلامة مرتضى العسكرى.

[۷] الطبرى ۵:۹۹.

[۸] الطبرى ۵:۹۹.

[۹] الطبرى ۵:۱۰۰.

[۱۰] الطبرى ۵:۱۰۰.

[۱۱] الطبرى ۵:۱۰۹.

[۱۲] الطبقات الكبرى ۵:۷۳۵.

[۱۳] ابن سعد فى الدلائل (كنز العمال ۱۲:۳۵۴).

[۱۴] الطبرى ۵:۱۰۱.

[۱۵] ومنهم أبو سفيان وكان معاوية قد قال للوفد الذى سيره إليه عثمان، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها (الطبرى ۵:۸۹).

[۱۶] الطبرى ۵:۱۰۱، البداية والنهاية ۵:۱۶۹.

[۱۷] الطبرى ۵:۱۰۱، البداية والنهاية ۵:۱۶۹.

من الذی قتل عثمان

إن عثمان قتل فی نهایه طریق. کانت بدایته ربما بلا عواصف وغالبا لا

یری الإنسان إلا بدایـه الطریق أو وسـطه أما نهایه الطریق فلا تری إلا بعد أن یجیء. وفی نهایه الطریق کانت هناک عواصف عاتیه. لقد فتحت الدولـه أبوابها للمنافقین أصـحاب السواعد القویه. ومن نفس الباب جاء عثمان بعبد الله بن أبی السرح الذی أهدر النبی صلی الله علیه وسـلم دمه. لیجعله والیا علی مصر بعـد أن جعله عمر أمیرا علی الصـعید. کما جاء عثمان بالولید بن عقبه وجعله والیا علی الکوفه بعد أن جعله عمر أمیرا علی بنی تغلب. ثم أحضر الحکم بن أبی العاص طرید رسول الله وأعطاه من غنائم المسلمین. واتخذ مروان ابنه مسـتشارا له ومروان فی البدایه هو مفتاح قتل عثمان وفی النهایه هو الذی شق عصا المسـلمین بلا شـبهه. ولم یکتف عثمان بذلک قبل فتـح أبواب بیت المال لنبلاء بنی أمیـه والطبقه المیزه من قریش. وعندما قامت علیه الثوره وجد أمامه وحده کل هذه الأخطاء وطالبوه وحده بالتوبه، وروی الطبری أن المصـریین عندما قدموا علیه قالوا له: أدع بالمصـحف؟ فدعا بالمصحف فقالوا له: إفتح السوره السابعه وکانوا یسمون سوره یونس السابعه. ثم أمروه أن یقرأ. حتی أتی علی

[صفحه ۴۳۲]

قوله تعـالی: (قـل أرأیتم مـا أنزل الله لکم من رزق فجعلتم منه حرامـا وحلالاـ قـل الله أذن لکم أم علی الله تفترون) [۱] فقالوا له: قف. أرأیت مـا حمیت من الحمی الله أذن لـک أم علی الله تفتری؟ قـال: وأمـا الحمی فإن عمر حمی الحمی قبلی لا بل الصدقـه. فلما ولیت زادت إبـل الصدقـه فزدت فی الحمی لمـا ناد فی إبل الصدقـه... ثم أخـذوه بأشـیاء لم یکن عنـده منها مخرج فعرفها فقال: أسـتغفر الله وأتوب إلیه ما تریدون؟ قالوا: نرید ألا یأخذ أهل المدینه عطاء. فإنما هذا المال لمن قاتل علیه ولهؤلاء الشـیوخ من أصحاب رسول الله صلی الله علیه وسلم. فرضی عثمان بذلک وأخذ علیهم ألا یشقوا عصا ولا یفرقوا جماعه ما قام لهم بشروطهم [۲] .

ویا لیت الأمر سار علی هـذا. ولکن بنی أمیـه مکروا مکرهم روی الطبری: لما قـدمت إبل الصدقـه علی عثمان بعد ذلک وهبها لبعض بنی الحکم بن أبی العاص. فبلغ ذلک عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها فی الناس وعثمان فی الدار [۳] .

والأـکبر من ذلـک أن المصـریین عنـدما تصـالحوا مع عثمان علی أن لا یشـقوا عصا ما قام بشـروطهم. فوجئوا فی طریقهم بأبی الأعور السـلمی الـذی لعنه رسول الله یحمـل رسالـه إلی ابن أبی السـرح الـذی أهـدر النبی دمه. وفیهـا یـأمره عثمان بصـلبهم أو قتلهم أو قطع أیـدیهم وأرجلهم من خلاف. وعلی الرسالـه خاتم عثمان: ولقد أنکر عثمان ذلک ومن سیر الأحداث تبین أن الذی وراء هذه الرسالـه هو مروان بن الحکم بن أبی العاص الذی لعنه النبی صـلی الله علیه وسـلم وهو فی صـلب أبیه. إن الذی قتل عثمان سیاسه سهرت علیها بطانه سوء من أمثال معاویه وعمرو مروان وابن أبی السرح وغیرهم، وما تصدی لعثمان إلا الصحابه وأبناء الصحابه، ولیس من الحقیقه فی شیء أن یقال: إن الذین ألبوا وساعدوا وقتلوا

[صفحه ۴۳۳]

عثمان هم مجموعه من أتباع عبد الله بن سبأ أشهر شخصیه خرافیه فی تاریخ المسلمین، أو إنهم مجموعه من الرعاع والدهماء والعامه، فالـذین قاموا بهـذا مجموعـه من الصـحابه منهم علی سبیل المثال:. معاویـه بن أبی سـفیان: لقـد کان له حلمه الخاص. وعندما واجهت عثمان المخاطر. کتب إلی معاویـه: أما بعـد، فإن أهل المدینـه قـد کفروا وأخلفوا الطاعـه ونکثوا البیعه فابعث إلی من قبلک من مقاتله أهل الشام علی کل صعب وذلول. وعندما جاء معاویه الکتاب وعلم اجتماع الصحابه علی عثمان! تباطئ [۴] ، وعندما علم عثمان إبطاء معاویه. تعداه وکتب إلی أهل الشام یستنفرهم ویعظم حقه علیهم. وقال لهم: فإن کان عندکم غیاث فالعجل العجل فإن القوم معاجلی. فلما قرئ کتابه علیهم قام یزید بن أسد القسـری وحضهم علی نصره وأمرهم بالمسیر إلیه حتی إذا کانوا بوادی القری بلغهم قتل عثمان فرجعوا [۵] ولقد جری کل هذا ومعاویه بعید کل البعد ولا یشـغله إلا ما أخبره به کعب.. ومنهم السیدهٔ عائشهٔ أم المؤمنین. لقد کانت

رضى الله عنها أول من كفر عثمان. وذلك حين علمت أن الوقت ليس فى صالحه وأن الثورات التى تتوالى عليه ستهلكه لا محالة. روى أنها قالت عندما عطل عثمان الحد عن الوليد بن عقبة وضرب الشهود الذين شهدوا عليه بأنه ينادم أبا زبيد ويشرب معه الخمر قالت ": اقتلوا نعثلا فقد كفر [" ۶] ، قال فى لسان العرب: النعثل الشيخ الأحمق وكان أعداء عثمان يسمونه نعثلا. وفى حديث عائشة: "اقتلوا نعثلا- قتل الله نعثلا- "... تعنى عثمان وكان هذا منها لما غاضبته وذهبت إلى مكة [۷] أى: قولها الذى ذكره صاحب لسان العرب كان عند الثورة الأخيرة عليه. وما

[صفحه ۴۳۴]

ذكرناه نحن كان فى الثورة الأولى عليه يوم الوليد بن عقبة. وروى أن مروان بن الحكم وزيد بن ثابت قدما إلى أم المؤمنين وهى تريد الحج وعثمان محصور فقالا لها: يا أم المؤمنين. لو أقمت فإن أمير المؤمنين على ما ترين محصور ومقامك مما يدفع الله به عنه. فقالت: قد حلبت ظهرى وعريت غرائزى ولست أقدر على المقام فقال مروان:

وحرق قيس على البلاد++

حتى إذا استعرت أجذاما

فقالت: أيها المتمثل على بالأشعار. وددت والله أنك وصاحبك هذا الذى يعنيك أمره. فى رجل كل واحد منكما رحا وإنكما فى البحر. وخرجت أم المؤمنين إلى مكة [۸] .

. ومنهم: طلحة بن عبيد الله. روى الإمام أحمد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: شهدت عثمان يوم حوصر. فرأيت عثمان أشرق من الخوخة فقال: أيها الناس أفيكم طلحة. فسكتوا - فكررها ثلاثا - فقام طلحة. فقال له عثمان: ألا أراك هنا، ما كنت أرى أن تكون فى جماعة تسمع ندائى آخر ثلاث مرات ثم لا تجيبنى [۹] ، وفى رواية: قال طلحة: نعم؟ فقال عثمان: فإنا لله وإنا إليه راجعون، أسلم على قوم أنت فيهم فلا تردن. فقال: قد رددت قال: ما هكذا الرد أسمعك ولا تسمعنى يا طلحة [۱۰] وكان عثمان يقول: اللهم اكفنى طلحة فإنه حمل على هؤلاء [۱۱] وروى ابن أبى الحديث: أن طلحة كان يوم قتل عثمان

مقنعا بثوب استتر به عن أعين الناس وكان يرمى الدار بالسهام [۱۲] وروى

الطبرى: أنهم عندما قتلوا عثمان خرج سودان بن حمران يقول: أين طلحة بن

[صفحه ۴۳۵]

عبيد الله قد قتلنا ابن عفان [۱۳] ومن العجب العجاب أن أم المؤمنين عائشة

وطلحة ومن معهما خرجوا على إمام المتقين على بن أبى طالب يطالبون بالثأر لعثمان. وروى الحاكم عن علقمة بن وقاص قال: رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت له: يا أبا محمد إنى أراك وأحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على زورك إن كنت تكره هذا الأمر فدعه. فليس يكرهك عليه أحد فقال: يا علقمة بن وقاس. لا تلمنى كنا أمس يدا واحدة على من سوانا فأصبحنا اليوم جبلين من حديد يزحف أحدنا على صاحبه ولكنه كان منى فى أمر عثمان ما لا أرى كفارته إلا أن يسفك دمى فى طلبه [" ۱۴] ، وكان بنو أمية يعلمون أن طلحة له نصيب كبير فى قتل عثمان. لذا نجد مروان يجد فى قتل طلحة يوم الجمل. وعندما ظفر به وقتله قال: والله لا أطلب قاتل عثمان بعدك [۱۵] وكان عبد الملك بن مروان يقول: أخبرنى أمير المؤمنين مروان أنه هو الذى قتل طلحة. ولولا ذلك ما تركت من ولد طلحة أحدا إلا قتلته بعثمان [۱۶] .

. ومنهم عمرو بن العاص. كان مستشارا لعثمان وعندما عزله عثمان عن مصر انقلب على عثمان. وظلت مصر هى شاغلة الأول والأخير على امتداد حياته. قال فى أسد الغابة: لما استعمل عثمان عبد الله بن أبى السرح على مصر وعزل عنها عمرو بن العاص. جعل عمرو يطعن على عثمان ويؤلب عليه ويسعى فى إفساد أمره [۱۷] وانتقل عمرو إلى المدينة وفى نفسه من عثمان أمر عظيم وشر كبير فكلمه فيما كان من أمره. وتقاولا- فى ذلك وافتخر عمرو بأبيه على عثمان وأنه كان أعز منه، وجعل عمرو يؤلب الناس على عثمان [۱۸] ،

وروى الطبرى: لما قدم عمرو المدينة جعل يطعن على عثمان. فأرسل إليه عثمان وقال له: يا ابن

[صفحه ۴۳۶]

النابغة ما أسرع ما قمل جربان جبتك إنما عهدك بالعمل عاما أول. أتطعن على وتأتينى بوجه وتذهب عنى بآخر والله لولا أكلة ما فعلت ذلك... لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك. فقال عمرو: قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راض [۱۹] ، وعندما اجتمع الناس على عثمان ناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد: اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت نهابيرا وركبناها معك فتب إلى الله نتب. فناداه عثمان: وإنك هناك يا ابن النابغة تملت جبتك منذ تركتك من العمل. فناداه الناس من ناحية أخرى: يا عثمان تب إلى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك [۲۰] وروى الطبرى: أن عمروا كان يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان [۲۱] ، وعندما خرج عمرو إلى منزله بفلسطين مر به راكب فناداه عمرو وقال: ما فعل الرجل؟ يعنى عثمان. قال: قتل، فقال عمرو: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأنها إن كنت لأحرصن عليه حتى أنى لأحرصن عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل [۲۲] ، ومن العجب العجاب أن ابن النابغة بعد ذلك يهرول فى اتجاه معاوية ويبكى عثمان المظلوم ويشارك معاوية فى قتال إمام المتقين على بن أبى طالب نظير أن يعطيه معاوية مصر طعمة.. ومنهم مروان بن الحكم. طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم. لقد كانت مهمة مروان تصعيد العنف على عثمان، وعندما قتل عثمان تاجر مروان بدم عثمان شأنه فى ذلك كشأن جميع أصحاب المصالح من النبلاء وتجار الأديان. روى أن عثمان عندما تصالح من الثوار أول مرة ورجع الثوار إلى مصرهم. خرج وخطب فى الناس فرق الناس له يومئذ وبكى من بكى. وعندما عاد إلى منزله وجد مروان وسعيد بن العاص ونفرا من بنى أمية فقال مروان: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا. فإن خطبتك تسير فى البلاد قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم فيأتيك من

[صفحه ۴۳۷]

لا تستطيع دفعه. ولم يزل به مروان حتى خرج وقال بما أشار به مروان [۲۳] .

فهاج الناس عليه. وعندما تدخل على بن أبى طالب لتهدئة الناس استمع الناس إليه. ليتكرر المشهد مرة أخرى مع ثوار آخرين. وعندما اجتمع الناس على باب عثمان قال عثمان لمروان: اخرج إليهم فكلمهم. فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضا فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب. شاهت الوجوه كل إنسان أخذ بأذن صاحبه إلا من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا. أخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا. غب رأيكم ارجعوا إلى منازكم فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما فى أيدينا، وعندما سمعت نائلة امرأة عثمان ذلك قالت لعثمان: إنك إن أطعت مروان قتلك [۲۴] وعندما توجه وجوه الناس إلى دار عثمان لتهدئة الخواطر خرج

مروان وقال: شاهت الوجوه إلا من أريد. ارجعوا إلى منازلكم فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه. وإلا قر فى بيته [۲۵] وسمع على بما قاله مروان وعندما جاءه رسول عثمان يبلغه أن يأتى عثمان. قال على بصوت مرتفع عال مغضب: قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائذ [۲۶] وكان على يقول لعثمان

قبل ذلك: إنى قد كنت كلمتك مرة بعد مرة. فكل ذلك نخرج فتكلم ونقول وتقول. وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية. أطعتهم وعصيتنى [۲۷] ، لقد كان الإمام يعلم إلى أين ستنتهى الأحداث وفقا لما أخبره به النبى صلى الله عليه وسلم فكان يحذر ويراقب من بعيد ليقيم الحجة على من شهد أنه ما قتل وما أمر بقتل. وكان صوته بعيدا عن دائرة القاتل. وكان صوته حجة فى دائرة المقتول. كان يفعل ذلك لعلمه بأنهم سيخلطون بين الدائرتين من أجل إنتاج دائرة جديدة يكونون فيها أصحاب جور.

[صفحه ۴۳۸]

وفى دائرة الإمام كان يقف معه الحسن والحسين. فالحسنان كانا يدفعان العدوان عن عثمان. لكى يفهم أصحاب العقول أن الذى

یدافع عن شئ لا یمکن أن یهجم علیه. وکم فی عالم الحجة من حکمة بالغة. فهؤلاء الذین ذکرنا کانوا من المحرضین والمساعدین علی قتل عثمان ثم تاجروا بدمه بعد ذلک. ویبقی قسم آخر وقفوا فی دائرة الثوار فأغلظوا لعثمان ورفضوا الوقوف بجانبه من هؤلاء:.

عمار بن یاسر: الذی قال عنه النبی صلی الله علیه وسلم ": من عادی عمارا عاداه الله ومن أبغض عمارا أبغضه الله [" ۲۸] وقال عن عمار ": ما

خیر بین أمرین إلا اختار أرشدهما [" ۲۹] ، وقال ": إذا اختلف الناس کان ابن سمیة مع الحق [" ۳۰] ، إلی غیر ذلک من الأحادیث التی تبین مناقبه التی أودعها الله فیه لحکمة بالغة. ولقد ذکر ابن کثیر أن عثمان ضرب عمار بن یاسر [۳۱] ولکن اختلفوا فی سبب ضربه وذکر المسعودی: أن القبائل اعترضت علی ضرب عمار بن یاسر وعبد الله بن مسعود [۳۲] ، وروی ابن کثیر والطبری: أن القوم طلبوا من عمار أن یرد الثوار فقال عمار: والله لا أردهم عنه أبدا [۳۳] ، وقال ابن کثیر: کان عمار یحرض الناس علی عثمان ولم یقلع ولم یرجع ولم ینزع [۳۴] ، وکان عمار له موقف ثابت من بنی أمیة. کما أنه کان یعلم أسماء المنافقین الاثنی عشر الذین أرادوا قتل النبی صلی الله علیه وسلم عند عودته من تبوک.

[صفحه ۴۳۹]

. ومنهم زید بن صوحان. زید وما زید! ولقد تحدثنا عنه من قبل. وهو الذی سیره عثمان من الکوفة إلی الشام، ثم من الکوفة إلی حمص. وقد خرج ثوار الکوفة إلی المدینة فی أربع رایات، کان بینهم زید ومالک الأشتر، وقال فی الإصابة: کان زید فاضلا دینا سیدا فی قومه [۳۵] وقال: کان زید یحب سلمان الفارسی ومن شدة حبه له اکتنی أبا سلمان [۳۶] .

. ومنهم: عبد الرحمن بن عدیس. خرج ثوار مصر إلی المدینة فی أربع رایات کان عبد الرحمن فیهم ومعه کنانة بن بشر اللیثی فأما ابن عدیس فکان ممن بایع تحت الشجرة [۳۷] وأما کنانة فکان من الصحابة الذین أدرکوا النبوة [۳۸] .

. ومنهم: جبلة بن عمر الساعدی. قال فی الإستبصار: کان من فضلاء الصحابة [۳۹] شهد أحدا [۴۰] قال ابن کثیر والطبری: مر عثمان علی قوم فیهم جبلة. فسلم فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون علیه. ثم أقبل علی عثمان فقال: والله لأطرحن هذه الجامعة. وکانت فی یده جامعة - أو لتترکن بطانتک هذه. قال عثمان: أی بطانة فوالله لأتخیر الناس. فقال جبلة: مروان تخیرته! ومعاویة تخیرته! وعبد الله بن عامر تخیرته! وابن السرح تخیرته! منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله صلی الله علیه وسلم دمه [۴۱] ، وروی أن عثمان مر بجبلة وهو بفناء داره فقال: یا نعثل والله لأقتلنک ولأحملنک علی قلوص جرباء ولأخرجنک إلی حرة النار. ثم جاء جبلة مرة أخری وعثمان علی المنبر فأنزل عنه [۴۲] .

[صفحه ۴۴۰]

. ومنهم: جهجاه الغفاری قال فی الإصابة: شهد بیعة الرضوان روی له الشیخان [۴۳] وقال الطبری: کان عثمان یخطب علی عصا النبی صلی الله علیه وسلم التی کان یخطب علیها وأبو بکر وعمر. فقال له جهجاه: قم یا نعثل فانزل عن هذا المنبر وأخذ العصا فکسرها [۴۴] .

. ومنهم: أعین بن ضبیعة. روی الإمام أحمد أن عثمان قال: إنا والله قد صحبنا رسول الله. وکان یعود مرضانا ویغدوا معنا ویواسینا بالقلیل والکثیر. وإن ناسا یعلمونی به عسی أن لا یکون أحدهم قد رآه قط، فقال له أعین بن امرأة الفرزدق: یا نعثل إنک قد بدلت [۴۵] .

. ومنهم جرول بن مالک وعمرو بن بدیل وعمرو بن حزم الأنصاری وهؤلاء جمیعا من الصحابة. وکان منهم أبناء الصحابة من أمثال محمد بن أبی بکر ومحمد بن أبی حذیفة، ولقد اعترضنا علی عثمان لمخالفاته الکثیرة وعابا علیه استعماله بدین أبی السرح لأنه ارتد وکفر بالقرآن وأباح الرسول صلی الله علیه وسلم دمه [۴۶] وعندما اقتحم الثوار دار عثمان قال له محمد بن أبی بکر: ما أغنی عنک معاویة! ما أغنی عنک ابن عامر [۴۷] وبالجملة کانت الثورة

ثورة الصحابة يقول الطبرى: لما أرى الناس ما صنع عثمان. كتب من بالمدينة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى من بالآفاق منهم. وكانوا تفرقوا فى الثغور وإنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا فى سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد صلى الله عليه وسلم. فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك. فهلموا فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم فأقبلوا من كل أفق

[صفحه ۴۴۱]

حتى قتلوه [۴۸] .

فكما ترى جميعهم من الصحابة وليسوا من الدهماء والرعاع كما قال البعض. ولم يكن بينهم عبد الله بن سبأ كما قال البعض الآخر من الذين أرادوا أن يقطعوا طريق البحث العلمى من قديم الزمان حتى لا يدينهم التاريخ وحتى لا تضع الأمة أيديها على موطن الداء ومركز الفتن. لم يكن هناك ابن سبأ. وكان هناك كعب الأحبار الذى كان يؤخذ برأيه فى زمن عثمان فى توزيع المال كما روى ابن أبى الحديد. وكان هناك أبو سفيان الذى سمعه عمار بن ياسر وهو يقول ": تلقفوها تلقف الكرة " وانطلق عمار إلى الصحابة ينقل إليهم الخبر كما ذكر المسعودى [۴۹] ، وكان هناك الفاسق الذى يعرف عند من اشتغل بعلوم السيرة والتاريخ. وبنظرة أخيرة على أحداث الثورة نقول: إن مشكلة عثمان كانت فى وضع بنى أمية على رقبة الناس الأمر الذى جعل من أكلة القنافذ والضباب أصحاب خزائن كبرى مليئة بالذهب والفضة يصدون بها عن سبيل الله. وانتماء عثمان إلى قومه والعمل من أجلهم واضح وضوح الشمس. فالرسول صلى الله عليه وسلم كلما أهدر دم أحد منهم أو نفاه كان عثمان هو الملجأ. وخير دليل ما ورد فى معاوية بن المغيرة بن العاص. كان النبى قد أسره بعد غزوة حمراء الأسد عند رجوعه إلى المدينة فلجأ إلى عثمان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله إن وجد بعد ثلاثة أيام. وعندما توارى بعيدا عن أعين الرسول بعث الرسول إليه بعمار بن ياسر وزيد بن حارثة وأخبرهما بمكانه وعندما وجداه قتلاه [۵۰] وأيضا

ما ورد فى عبد الله بن أبى السرح والحكم بن أبى العاص الذى جاء به عثمان من منفاه. وضرب بمشاعر المسلمين عرض الحائط يوم أن أقام على قبره فسطاطا. وكأنه أراد أن يكون وجود الحكم شاخصا حيا أو ميتا على أرض الدولة بعد نفى

[صفحه ۴۴۲]

الرسول صلى الله عليه وسلم له. وعندما عاتبه الصحابة قال: إن عمر بن الخطاب أقام من قبل فسطاطا على قبر زينب بنت جحش [۵۱] . فإذا كان هذا حال عثمان مع المطرودين فكيف يكون الحال مع غيرهم. وإذا لم تكن بطانة عثمان التى اعترض عليها الثوار بطانة سوء. فما هى البطانة السوء التى حذر منها النبى وأخبر أنها أوشكت أن تركب بعد وفاته. هل ما زالت فى بطن الغيب أم أنها جاءت وزالت بعد أن تركت جذورا وشذوذا وفتنا. لقد كان عثمان منحازا إلى بطانته وكان فى إمكانه أن يتفادى الثورة عليه لو سار مع الناس بسيرة أبى بكر وعمر ولم يقم بتوسيع الدوائر التى خلفوها وراء ظهورهم. فالدوائر كلما كانت ضيقة تكون العواصف أهدأ. ولكن عثمان لم يفعل ذلك بل لقد استعان بخبراء فى توسيع الدوائر وحفرها - لقد كان عمر بن الخطاب يستمع إلى الخصم ويحقق فيما ادعاه. ولكن الأمر اختلف عند عثمان. روى أنه بعد أن تصالح مع أهل مصر عند مجيئهم الأول ذكر له ابن عديس ما صنع ابن أبى السرح بمصر وذكر تحاملا منه على المسلمين وأهل الذمة وذكر استئثارا منه فى غنائم المسلمين. وقال ابن عديس: فإذا قيل له فى ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إلى [۵۲] ، أى أنه يخبرهم أنه ما يفعل شيئا إلا بإذن عثمان. فماذا فعل عثمان؟ لقد أمر عليهم محمد بن أبى بكر وبينما هم فى طريق العودة شاهدوا رسول عثمان ومعه كتابه وخاتمه إلى عبد الله بن أبى السرح يأمره فيه بجلد ظهورهم وغير ذلك. وعندما واجهوا عثمان اكتفى بقول: والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت. فقيل له: فمن كتبه؟ قال: لا أدرى، فقالوا: أفيجترأ عليك فيبعث غلامك وجمل من صدقات المسلمين وينقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم؟ قال: نعم. قالوا: فالكتاب كتاب كاتبك - أى مروان [۵۳] - قال: أجل ولكنه كتبه بغير أمرى. قالوا:

[صفحه ۴۴۳]

والرسول الذى وجدنا معه الكتاب غلامك؟ قال: أجل ولكنه خرج بغير إذنى. قالوا: والجمل جملك، قال: أجل ولكنه أخذ بغير علمى، قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب. فإن كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها، وإن كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث بطانتك. لأنه لا ينبغى لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل الأمر دونه. لضعفه وغفلته [۵۴] ، وجميع هذا قد حدث ومروان بن الحكم فى مأمن تام لم يوجه إليه أى اعتراض. وذلك لعلمهم أن فى ظهره ذرية من خلفاء بنى أمية. ومعاوية نفسه كان يتحدث بذلك [۵۵] فمن أجل الحفاظ على فتنة ففتح بنو أمية أبوابا لفتنة أخرى. وحاصر الثوار دار الخلافة. واستمر الحصار أربعين يوما وكان عثمان يصلى بالناس ثلاثين يوما ثم منعوه [۵۶] وكان على بن أبى طالب يقدم الماء إلى عثمان فى هذا الوقت وكان الحسن والحسين يقومان على حراسته. أولا: لأن ما يجرى لا يستقيم مع المحاكمة العادلة. وثانيا: لأن ما يجرى سيتم المتاجرة به وسيتهم على فيه فكان التواجد حجة فى ذاته. وكان على بن أبى طالب يعلم ما ستجرى عليه الأحداث وفقا لإخبار النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالغيب عن ربه جل وعلا. وإذا كان عثمان قد دفع بالأحداث كى تصل إلى ما وصلت إليه وذلك لحفاظه على أسرته وأهل شورته. فإن التاريخ قد سجل أيضا أن الدماء التى جرت حول دار عثمان وداخلها. كانت بدايتها حفاظ عثمان أيضا على أهل شورته. فعلى الرغم من الحصار إلا أنه كانت تجرى محاولات لتهدئة الخواطر. ولكن هذه المحاولات انتهت بسفك الدماء. روى الطبرى: لما مضت أيام التشريق أطافوا بدار عثمان. وأبى إلا الإقامة على أمره وأرسل إلى حشمه وخاصته فجمعهم. فقام رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله يقال له: نيار بن عياص. وكان شيخا كبيرا. فنادى: يا

[صفحه ۴۴۴]

عثمان. فأشرف عليه عثمان من أعلى داره. فذكره الشيخ لما اعتزلهم. فبينما هو يراجعه الكلام إذ رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم. وقيل إن الذى رماه كثير بن الصلت الكندى. فقالوا لعثمان عند ذلك: إدفع إلينا قاتل نيار بن عياص فلنقتله به. فقال لهم: لم أكن لأقتل رجلا نصرتى وأنتم تريدون قتلى. فلما رأوا ذلك ثاروا إلى بابه فأحرقوه وخرج عليهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس كل منهم فى عصابة فاقتتلوا قتالا شديدا. وكان الذى حداهم على القتال أنه بلغهم أنه مددا من أهل البصرة وأن أهل الشام قد توجهوا مقبلين [۵۷] ولم يكن هذا قد حدث لأن معاوية كان فى شغل.

وعلى هذا نقول: إن الخدعة فى البداية كانت من عند بنى أمية يوم أن بعثوا برسالتهم إلى ابن أبى السرح ليقتل المصريين. وإن أول قطرة دم فى الأحداث كانت على أيدى بنى أمية يوم أن قتلوا نيار بن عياص. قال فى الإصابة: كان نيار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممن كلم عثمان فى حصره وناشده الله. وقتله بعض أتباع عثمان. وقالوا: وهذا أول مقتول فى ذلك الوقت [۵۸] ونحن قد ذكرنا فى بداية حديثنا عند بنى أمية حديث

الألف شهر وهو حديث صحيح ولكن بعض العلماء قد حكم بأنه منكر وذلك لكون مدة حكم عثمان داخلة فى مدة حكم بنى أمية. وسبب إنكارهم أنهم قالوا إن هذا لا يجوز لأن عثمان خليفة راشد كانت الملائكة تستحى منه. وقد سئل الحافظ السخاوى عن المواطن التى استحيت فيها الملائكة من عثمان فقال: لم أقف عليها فى حديث يعتمد [۵۹] ومن الأحداث التى دارت ومن الفتن التى خلفتها من ورائها يمكن القول بارتياح شديد إن الحديث المروى عن النبى حديث صحيح سندا ومتنا ومعنى. وقتل عثمان. وروى الطبرى وغيره: أن عثمان نبذ ثلاثة أيام لا يدفن. وقد

[صفحه ۴۴۵]

كلم الناس عليا فى ذلك فتدخل وأذن لأهله أن يدفنوه. فلما سمع الناس ذلك قعدوا له فى الطريق بالحجارة. وعندما شاهد الناس السرير الذى يحمل عثمان رجموا السرير وهموا بطرحه. فبلغ ذلك عليا فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عنه ففعلوا. وانطلق به أهله. وأرادوا أن يصلوا عليه فى موضع الجنازات فأبت الأنصار. وأرادوا أن يدفنوه بالبقيع فمنعوا أيضا من ذلك. وقالوا: لا يدفن فى مقابر المسلمين. فدفنوه فى حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم. فلما ظهر معاوية بن أبى سفيان. أدخل هذا الحش فى البقيع فهو

الیوم مقبرة بنی أمیة [۶۰].

وفی الختام. إن الجیل الأول هو الـذی حکم بفشل تجربـة الرأی التی انطلقت من دائرة المصـلحة العامة. الجیل الأول هو الذی اعترض علی بطانة السوء التی دخلت من باب إلغاء سـهم المؤلفة وتأمیر المنافقین. والجیل الأول هو الذی اعترض علی توزیع الفیء الذی دخل من باب الخراجـة. باختصار اعترض الجیل الأول علی قوائم النظام الاقتصادیـة والإداریة والتربویة. التی عبر عنها الولید بن عقبة. فکیف حدث هذا بعد مضـی ربع قرن تقریبا من وفاة النبی صلی الله علیه وسلم؟ هل خرج الناس علی ما وضعه النبی أم أنهم خرجوا علی شیء حـذر منه النبی؟ ثم إذا کانوا قـد خرجوا علی ما حـذر منه النبی فکیف دخل إلیهم المحظور ولماذا؟ أخشـی أن یقال إن الـذی حدث کـان قصورا فی التطبیق. لأن الـذین قاموا بالتطبیق صـحابة عـدول ثقات ولن یأتی علی مر الزمان خیر منهم. فإذا کان هؤلاء لم یصـیبوا التطبیق الصـحیح فکیف بمن دونهم. إن الذی یمکن أن یقال فی هذا الموضع وإنهم أخطأوا التأویل الصـحیح. لأن التأویل الصحیح له رجال یمکن أن یقاتلوا علی تأویل القرآن کما قاتل النبی صلی الله علیه وسلم علی تنزیله.

[صفحه ۴۴۹]

[۱] سورة یونس: الآیة ۵۹.

[۲] الطبری ۱۰۷:۵.

[۳] الطبری ۱۱۴:۵.

[۴] الطبری ۱۱۵:۵.

[۵] الطبری ۱۱۶:۵.

[۶] النهایة لابن الأثیر ۵:۸۰، تاریخ أعثم ص ۱۵۵، شرح النهج ۷۷:۴.

[۷] لسان العرب مادة نعثل ص ۴۴۷۰.

[۸] الطبقات الکبری ۳۷:۵.

[۹] رواه أحمد وروی النسائی بعضه (الفتح ۱۱۲:۲۳).

[۱۰] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح ۱۱۲:۲۳).

[۱۱] الطبری ۱۲۲:۵.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۴۰۴:۲.

[۱۳] الطبری ۱۲۳:۵.

[۱۴] الحاکم (المستدرک ۱۱۸، ۳۷۲:۳).

[۱۵] الطبقات الکبری ۲۲۳:۳، أسد الغابة ۸۸:۳.

[۱۶] الطبقات الکبری ۲۲۳:۳.

[۱۷] أسد الغابة ۲۶۰:۳.

[۱۸] الطبری ۱۰۸:۵، البدایة والنهایة ۱۷۰:۸.

[۱۹] الطبری ۱۰۸:۵.

[۲۰] الطبری ۱۱۱:۵.

[۲۱] الطبری ۱۰۸:۵.

[۲۲] الطبری ۱۰۹:۵، الکامل ۸۲:۳.

[۲۳] الطبری ۱۱۰:۵.

[۲۴] الطبری ۱۱۲:۵، البدایة والنهایة ۱۷۳:۷.

[۲۵] الطبری ۱۱۲:۵، البدایة والنهایة ۱۷۲:۷.

[۲۶] الطبری ۱۱۳:۵، البدایة والنهایة ۱۷۳:۷.

[۲۷] الطبری ۱۰۹:۵.

[۲۸] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۹۳:۹) (الفتح ۳۲۹:۲۲).

[۲۹] رواه الحاکم وأقره الذهبی ورواه أحمد (الفتح الربانی ۳۳۰:۲۲)، (المستدرک ۳۸۸:۳) ورواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۶۸:۵).

[۳۰] رواه الطبرانی (کنز العمال ۷۲۱:۱۱).

[۳۱] البدایة والنهایة ۱۷۱:۷.

[۳۲] مروج الذهب ۳۷۳:۲.

[۳۳] الطبری ۱۱۰:۵، البدایة ۱۷۱:۷.

[۳۴] البدایة ۱۷۱:۷.

[۳۵] الإصابة ۴۵:۳.

[۳۶] الإصابة ۴۶:۳.

[۳۷] الإصابة ۱۷۱:۴.

[۳۸] الإصابة ۳۲۵:۵.

[۳۹] الإستبصار ۱۳۶.

[۴۰] الإصابة ۲۳۳:۱.

[۴۱] البدایة ۱۳۶:۷، الطبری ۱۱۴:۵.

[۴۲] البدایة ۱۷۶:۷، الطبری ۱۱۴:۵.

[۴۳] الإصابة ۲۶۵:۱.

[۴۴] الطبری ۵۱۴:۵.

[۴۵] رواه أحمد ورواته ثقات (الزوائد ۲۲۸:۷).

[۴۶] البدایة والنهایة ۱۵۸:۷.

[۴۷] الطبری ۱۱۸:۵.

[۴۸] الطبری ۱۱۵:۵.

[۴۹] الطبری ۱۱۵:۵.

[۵۰] السیرة الحلبیة ص ۵۹۱، حیاة الحیوان / الجاحظ ۱۶۱:۴.

[۵۱] الإصابة ۲۹:۲.

[۵۲] الطبری ۱۱۹:۵.

[۵۳] کان محمد بن سلمة یقول: هذا من عمل مروان، الطبری ۱۱۹:۵.

[۵۴] الطبری ۱۲۰:۵.

[۵۵] سیأتی فی موضعه.

[۵۶] الطبری ۱۰۷:۵.

[۵۷] الطبری ۱۲۴:۵.

[۵۸] الإصابة ۲۵۹:۵.

[۵۹] التراتیب الإداریة ۳۸۴:۲.

[۶۰] الطبری ۱۴۴:۱۴۳:۵.

و ظهر القمر

من معالم الحکومة الدینیة

بعد ربع قرن من وفاة النبی صلی الله علیه وسلم ظهر النفاق. ویشهد بذلک حدیث حذیفة " إن المنافقین الیوم شر منهم علی عهد النبی صلی الله علیه وسلم کانوا یومئذ یسرون والیوم یجهرون [" ۱] ، بل إن النفاق رکب مرحلة أخری یقول فیها حذیفة ": إنما کان النفاق علی عهد النبی صلی الله علیه وسلم فأما الیوم فإنما هو الکفر بعد الإیمان [" ۲] ، ویشهد بظهور النفاق استعمال عمر بن الخطاب للمنافقین وإلغائه لسهم المؤلفة قلوبهم. وبعد وفاة الرسول بربع قرن قامت السیاسة علی أعمدة منها عمود عدم الروایة عن رسول الله صلی الله علیه وسلم وتهدید من یروی بالضرب أو النفی وهذا أیضا ثابت فی أحادیث صحیحة رویت عن عمر بن الخطاب وبینت سیرته بشأن الروایة. وترتب علی ذلک ظهور القص والشعر بإذن من عمر وبعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم بربع قرن رتع بنو أمیة فی أموال المسلمین وذلک عندما تربعوا علی الخراج الذی أنشأه عمر بن الخطاب. حتی أن مروان بن طرید رسول الله وضع یده علی فدک بأمر من عثمان وفدک هذه لم تأخذها ریحانة رسول الله یوم أن نازعت فیها أبا بکر. فالذی لم تأخذه ریحانة الرسول أخذه فی نهایة الطریق ریحانة طرید رسول الله. ولم یقف الأمر عند مروان بل التهم ابن أبی السرح الذی أهدر النبی

[صفحه ۴۵۰]

دمه النصیب الأکبر من غنائم إفریقیا بأمر من عثمان الذی کان یستفتی کعب الأحبار فیما یجوز للخلیفة أن یأخذه من بیت المال. وروی أن کعبا عندما أفتاه قال أبو ذر لکعب: یا بن الیهودیین أتعلمنا دیننا. وعندئذ قال له عثمان: یا أبا ذر قد کثر أذاک لی وتولعک بأصحابی [۳] .

ومن نتائج هذا کله بهتت مناقب أهل البیت، وإذا کانت المناقب تشع فی أذهان البعض. فإنها أخذت عند البعض الآخر تأویلا آخر فوضعوهم فی دائرة (البرکة والمشایخ) أی الدائرة التی لا علاقة لها بالقیادة. وحتی هذه الدائرة لم تدم لأهل البیت فیوم الشوری الذی جعل عمر الخلافة فیه فی ستة نفر، کانت دائرة الشیوخ لا یوجد فیها بنی هاشم وحدهم فلقد دخلها أبناء عبد شمس وغیرهم. ومن المعروف أن أبناء عبد شمس - وبنو أمیة هم أشهر فروعهم - لم یکن لهم نصیب فی أشرف خصال قریش فی الجاهلیة وهی: اللواء والندوة والسقایة والرفادة وزمزم والحجابة. وبعد الشوری استحوذ بنو أمیة علی کل مال علی الرغم من أن النبی صلی الله علیه وسلم قد حذر منهم إذا رکبوا الأمة. ولکن هذا التحذیر لم یکن له وجود واسع بعد وفاة النبی صلی الله علیه وآله وسلم. ورکب بنو أمیة رقبة الأمة یوم الشوری وعملوا من أجل أن یکون الملک فیهم تعویضا لإبعادهم فی الجاهلیة والإسلام. وعلی امتداد حکم عثمان کانت هناک ثقافات أمویة یشرف علیها أمراء عثمان ومنهم معاویة الذی قال فی الشام وهو یخاطب الذین سیرهم عثمان " قد عرفت قریش أن أبا سفیان کان أکرمها وابن أکرمها... وأن أبا سفیان لو ولد الناس لم یلد إلا حازما. " یستفاد من هذا کله أن هناک فتنة فی المقدمة، وهذه الفتنة حذر القرآن منها والنبی صلی الله علیه وسلم لم یفارق الدنیا إلا وبین کل شئ. وهذه الفتنة یشهد کل قارئ للتاریخ أن نتائجها کانت بجمیع المقاییس کارثة فالأمة الواحدة اختلفت وافترقت وذهب ریحها. والجمیع فی کل دروب الاختلاف

والافتراق يقرأون كتاب الله وكل منهم يدعى أن الحق معه وغيره الباطل. ومرجع ذلك فى

[صفحه ۴۵۱]

رأينا أن كل فريق انتقى من على أرضية الصحابة وأبناء الصحابة قدوة له فأخذ منهم دون تمحيص وانطلق فى أثره. وقد تكون القاطرة تسير على قضبان الفتنة فيركب فيها الراكبون وهم لا يعلمون أنهم بركوبهم هذا يكونون قد شاركوا فى الفتنة التى لم يشهدوها. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها [" ۴] ، فهو مشارك فى الإثم وإن بعدت المسافة بينهما [۵] ودواء هذا الداء لا يكون بتلجيم العقل والسير على طريق الاحتناك

الذى ترفرف عليه أعلام الزينة والزخرف والإغواء. وإنما يكمن العلاج فى العلم يقول النبى صلى الله عليه وسلم " إن الفتنة تجيئ فتنسف العبادة نسفا وينجو العالم منها بعلمه [" ۶] .

فالفتنة إذا كانت فى المقدمة يقع فيها الذين شاركوا فيها والذين جاءوا من بعدهم. بمعنى أن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وإنما تصيب الذين ركبوا القاطرة التى تسير على قضبان هذه الفتنة، أما العالم فإنها لا تصيبه عند المقدمة لأن عند المقدمة شهود. فشاهد عليه علامة تقول ": تقتله الفئة الباغية " وشاهد عليه علامة " تنبحها كلاب الحوأب " وشاهد عليه علامة " بأنه أصدق لهجة، " وآخر عليه علامة زيد وما زيد... وكثير كثير. والعالم لا تصيبه الفتنة عند النتيجة لأنه ينجو منها بعلمه بأحداثها وموطن الحق فيها. وفتنة المقدمة ما وقعت إلا بعد أن اختار الناس لأنفسهم فى جو من الأحداث لا نعلم عنه إلا القليل. فهناك من أبى أن تكون الخلافة والنبوة فى بيت واحد. لأن هذا يعنى أن بنى عبد شمس من دون خلق الله جميعا لن يكون لهم ركوبة فى جاهلية أو إسلام. لقد كانت الأبواب مغلقة بمفاتيح الدعوة ولكنها فتحت بمفاتيح الفتنة. ومن عدل الله تعالى أنه أقام الحجة على الجيل الأول فى

[صفحه ۴۵۲]

كل حركاته بعد وفاة الرسول، وها نحن قد رأينا أحداث أبى ذر وغيره من الذين وضع عليهم النبى صلى الله عليه وسلم هالات من التبشير والتحذير. لقد حاصرت حجج الله جيل الصحابة لأنهم مقدمة على أرضية دين الله. والشيطان إذا دق وتدا له فى هذا الجيل ضمن ثغرة له فى الجدار يدخل منها بالزينة والإغواء فيضل بذلك كثيرا من الناس. وإذا كانت الحجة قد قامت يوم غدير خم. وأن التحذير قد تم على لسان بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من بعد وفاته. فإن إقامة الحجة بعد النبى بلغت الذروة فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه. وهذه الحجة لا تنفصل عن حجة غدير خم بأى حال من الأحوال. ولكنها جاءت لتخاطب زماما قد تغير ومكانا أوشك على أن يتبعثر. وعندما جاء على بن أبى طالب لم يأت ليخاطب المتقين بل جاء ليفتح أبواب التوبة أمام المنافقين الذين كثروا فى الساحة كما شهد حديث حذيفة وغيره. جاء ليوقف تدفق الفتنة وليفتح صفحات التاريخ لتدون الأحداث التى يقف عندها أصحاب العقول والأفهام لينجو العالم بعلمه. ولقد علمنا أن التعامل مع النفاق يخضع لفقه خاص لا يلم به كثير من الناس. والفقيه فى هذا المجال لا يقوم بتعيينه سلطان أو أمير لأن هؤلاء لا يعلمون خفايا الأمور وإنما الفقيه هنا لا بد أن يحدده نص. وليس معنى هذا أن الفقيه بهذا التحديد يكون قد علم ما تخفيه الصدور، فالقول بهذا قول سقيم لتفكير غير مستقيم. وإنما الفقيه هنا هو الذى يضع سياسته على قوائم الإسلام. أى يقيم سياسته على القرآن ونصوص الدين بشكل شامل ويتعامل مع المستجدات بالبحث عن الجوهر فيها ثم يطابقه على الجوهر الأزلى فى الإسلام. ولا يقوم بذلك إلا فقيه راسخ فى العلم. ولما كان المنافق فى الأساس كارها للإسلام ونظامه. فإنه يشع بعمله تحت عين الفقيه الراسخ فى العلم والذى عليه نص بأن لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. لهذا كان التعامل مع النفاق يحتاج إلى فقه خاص. وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان النبى يتعامل مع المنافقين وفقا لحركة الدعوة وكان يجاهدهم وفقا لمطالبها. وكان يفتح لهم أبواب التوبة وفقا لشروط خاصة. وبعد وفاته صلى الله عليه وآله

[صفحه ۴۵۳]

وسلم. کانت حجة الله علی المنافقین یرفعها علی بن أبی طالب الذی رفضوه فی أول الأمر. ولنتدبر هذه الآیات الکریمة التی أمرت وحذرت وفتحت الأبواب أمام النفاق فی عهد الرسول ومن بعده فی أیام علی بن أبی طالب لأنه علیه نص بأنه یقاتل علی التأویل وأن علی صفحته یکشف النفاق. قال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا لا تتخذوا الکافرین أولیاء من دون المؤمنین أتریدون أن تجعلوا لله علیکم سلطانا مبینا - إن المنافقین فی الدرک الأسفل من النار ولن تجد لهم نصیرا - إلا الذین تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دینهم لله فأولئک مع المؤمنین وسوف یؤت الله المؤمنین أجرا عظیما) [۷] .

قال ابن کثیر: ینهی الله تعالی عباده المؤمنین عن اتخاذ الکافرین أولیاء من دون المؤمنین. یعنی: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إلیهم وإفشاء أحوال المؤمنین الباطنة إلیهم قال تعالی: (لا یتخذ المؤمنون الکافرین أولیاء من دون المؤمنین ومن یفعل ذلک فلیس من الله فی شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة ویحذرکم الله نفسه) [۸] ، أی یحذرکم عقوبته فی ارتکابکم نهیه ولهذا قال ههنا (أتریدون أن تجعلوا لله علیکم سلطانا مبینا) أی حجة علیکم فی عقوبته إیاکم [۹] ، وبعد هذه المقدمة أخبر تعالی عن المنافقین فقال سبحانه: (إن المنافقین فی الدرک الأسفل من النار ولن تجد لهم نصیرا) أی یسکنهم فی أسفل درک من النار ویقطع بینهم وبین کل نصیر ینصرهم وشفیع یشفع لهم. وهذا یتفق مع حدیث الورود علی الحوض. الذی یقال فیه لبعض الصحابة: سحقا سحقا أی مکانا بعیدا لیس فیه ناصر ولا شفیع. ولقد بینا فی هذا البحث أن علی بن أبی طالب سیکون مع النبی عند الحوض وهو الذی سیقول: إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک. وبعد أن أخبرت الآیات عن مکان المنافقین یوم القیامة استثنت الذین تابوا منهم وبینت أن طریق التوبة الخاص بهم له علامات وهو قوله تعالی:

[صفحه ۴۵۴]

(إلا الذین تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دینهم فأولئک مع المؤمنین) فالطریق یبدأ من الخروج من جماعة المنافقین واللحوق بصف المؤمنین. وهذا الخروج لا- یتم إلا- بالتوبة وهی الرجوع إلی الله. ولا ینفع الرجوع والتوبة حتی یصلحوا کل ما فسد منهم من نفس وعمل. ولا- ینفع الاصلاح إلا أن یعتصموا بالله أی یتبعوا کتابه وسنة نبیه صلی الله علیه وآله ولا ینفع الاعتصام إلا إذا أخلصوا دینهم لله وطهروا أنفسهم من بصمات الشرک والظلم قال تعالی: (الذین آمنوا ولم یلبسوا إیمانهم بظلم أولئک لهم الأمن وهم مهتدون) [۱۰] .

فإذا سلکوا هذا الطریق حتی نهایته کانوا مع المؤمنین قال تعالی: (فأولئک مع المؤمنین) ولم یقل: فأولئک من المؤمنین. لأنهم یلحقون بالمؤمنین ما داموا علی طریق التوبة ولن یکونوا منهم حتی تستمر فیهم الأوصاف علی استقرارها. وطریق التوبة فی الجیل الأول لا بد له من سیاسة تظهر الاصلاح وعلی هذا یظهر المؤید والمعارض لسیاسة الاصلاح. وتنادی بالاعتصام بالله وعلی هذا یظهر دعاة القبائلیة والحزبیة وتعمل من أجل إخلاص الدین وعلی هذا یظهر النبلاء الذین کان الدین مصدرا لثروتهم. وبالجملة: لا بد من سیاسة تظهر عورات التأویل الذی وضع فی غیر موضعه. ولما کان هذا التأویل یستند إلی کتاب الله ویقوم به جیل الصحابة فإن هذا یعنی أن هذا التأویل سیکون له امتداد نظرا لأن الذین قالوا به من الذین سمعوا وشاهدوا النبی وهنا یکمن الخطر علی المستقبل. وینتهی الأمر بالاختلاف والافتراق إلی أکثر من سبعین شعبة وإلی التسکع فی طرقات أصحاب أعلام الأدیان السابقة واتباعهم شبرا بشیر وذراعا بذراع. وقبل أن یحدث هذا کانت حجة الله علی جیل الصحابة فی بدایته وفی نهایته لیدون التاریخ ویعلم اللاحق أین موضع السابق. وشاء الله أن یکون الفصل بین الحق والباطل فی هذه الأحداث علی صهیل الخیول وضربات السیوف کی تنطبع الأحداث فی ذاکرة کل منتسب إلی الأمة وتشده شدا إلی البحث عن الحقیقة. ومعارک التأویل

[صفحه ۴۵۵]

خاضها الإمام علی بن أبی طالب الذی شاء الله أن یجعله فی المقدمة بعد وفاة الرسول الأعظم لیری الله کیف یعملون وفقا لدائرة اختیارهم. ولعلمه سبحانه بأن الاختلاف واقع لا محالة أحاط سبحانه النبی بالعلم وبین له مواطن الاختلاف والفتن من بعده. وکان فوق

کل موطن من المواطن حجة کأبی ذر والمقداد وسلمان وعمار وأویس وجندب وزید وغیرهم. وآخر هؤلاء جاء الفقیه الزاهد العالم إمام المتقین علی بن أبی طالب لیواجه دائرة النبلاء التی أخذت شرعیتها من تأویل وضع فی غیر موضعه. وکان هذا لطفا من الله کی یشع الماضی أمام الحاضر لینتقل إلی المستقبل. لقد جاء علی فی خاتمة عصر الصحابة القادة. لیفتح أبواب التوبة کی یتنفس المستقبل الأمان ولا یحدث الاختلاف ولا تخرج الفرق التی تستمد وقودها من عهود قبل معارک التأویل أو من عهود ما بعد معارک التأویل. جاء علی لیدخلهم تحت رایة واحدة لتشق الدعوة طریقها وتسوق الناس إلی صراط العزیز الحمید. ولیجد المستقبل أن ماضیه لا خلاف فیه. جاء لیفتح أبواب الشکر والإیمان فی عالم اکتناز الذهب والفضة وکأنه یتلوا قوله تعالی: (ما یفعل الله بعذابکم إن شکرتم وآمنتم وکان الله شاکرا علیما) [۱۱] ولکننا سنری

ماذا ترتب علی فتح هذه الأبواب. وهل المعارک التی دارت کانت من أجل قمیص عثمان. أم أن هذا القمیص کان کقمیص یوسف الذی حمله أبناء یعقوب إلی أبیهم لیخفوا به مقاصدهم التی بدأوها بالحسد وانتهوا بجریمة تغیب یوسف فی أعماق الجب لیخلو لهم مرکز الصدارة عند أبیهم؟ أم أن هذه المعارک خاضها طرف من أجل الدفاع عن تأویل حق بینما خاضها أطراف أخری لوقف التأویل الحق نظرا لأن وجوده سیکشف ما ضاع من روایة وسیطیح بنبالة قریش؟ وعلی أی حال فإن ما بین أیدینا من حدیث یثبت أن المعارک التی دارت کانت من أجل التأویل وهذا یعری حملة القمصان ویثبت أن القمیص ما کان إلا شعارا أجوفا حملته الوصول إلی أهداف أخری، روی الإمام أحمد عن النبی صلی الله علیه

[صفحه ۴۵۶]

وسلم أنه قال: فیکم من یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت علی تنزیله [" ۱۲] ، قالوا: من؟ قال: خاصف النعل وکان أعطی علیا نعا یخصفها [۱۳] ، وعن علی قال ": عهد إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم فی قتال الناکثین والقاسطین والمارقین [" ۱۴] ، قال فی لسان العرب: ومنه حدیث علی ": أمرت بقتال الناکثین والقاسطین والمارقین " الناکثون أهل الجمل والنکث نقض العهد. وأهل الجمل کانوا قد بایعوه ثم نقضوا بیعته وقاتلوه. والقاسطون أهل صفین لأنهم جاروا فی الحکم وبغوا علیه. والمارقون الخوارج لأنهم مرقوا من الدین لغلوهم فیه [۱۵] ، والآن هل رأیت للقمیص مکانا فی نصوص رسول الله؟ أم أنک رأیت نقضا للعهد وجورا فی الحکم وبغیا علی الحجة ومروقا من الدین؟ وجمیع ذلک مرجعه إلی تأویل وضع فی غیر موضعه وأهواء وآراء تصب فی وعاء المطامع ومن أجل هذا کان ظهور الحجة فی نهایة عصر الصحابة القادة له حکمة ومن وراء الحکمة هدف.

[۱] البخاری (الصحیح ۴:۲۳۰).

[۲] البخاری (الصحیح ۴:۲۳۰).

[۳] ابن أبی الحدید ۱:۲۴۰.

[۴] رواه أبو داود حدیث رقم ۴۳۲۳.

[۵] عون المعبود ۱۱:۵۰۱.

[۶] رواه أبو داوود وأبو نعیم والرافعی (کنز العمال ۱۵۰، ۱۰:۱۷۸).

[۷] سورة النساء: الآیة ۱۴۴ – ۱۴۶.

[۸] سورة آل عمران: الآیة ۲۸.

[۹] تفسیر ابن کثیر ۱:۵۷۰.

[۱۰] سورة الأنعام: الآیة ۸۲.

[۱۱] سورة النساء: الآیة ۱۴۷.

[۱۲] رواه أحمد وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۶:۲۴۴) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۳:۱۲۳).

[۱۳] رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، قال الهيثمى (الزوائد ۱۸۶:۵).

[۱۴] رواه البزار وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۸:۷).

[۱۵] لسان العرب مادة نكث ص ۴۵۳۶، ومادة قسط ص ۳۶۲۷، ومادة مرق ۴۱۸۵.

النداء الحق

بعد دفن عثمان تحرك الناس فى اتجاه على بن أبى طالب ليبايعوه [۱] منهم من رأى فيه الزهد فيما بين يدى الناس وسوف يتعامل مع الذهب والفضة تعامل العابد الزاهد العادل. ومنهم من وجد فيه الأمانة فى النصح لعثمان ومعارضيه على امتداد عصر الأزمات. ومنهم من تذكر الأيام الأولى وعلم أنه لا سبيل إلى الاصلاح إلا بالعودة إلى الأمر الأول. ومنهم من كان يعلم حقيقة الأحداث ولم ينسها يوما وعندما جاء أوان الظهور لم يكن فى حاجة إلى بيعة لأنه كان قد بايع

[صفحه ۴۵۷]

بقلبه من قبل. والذى يستحق التسجيل هنا. أنه قبل أن تتم مبايعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب هرول الناس إلى أكابر الصحابة يسألونهم بماذا ينصحون؟ وعلى سبيل المثال قال عبد الله بن بديل لأم المؤمنين عائشة عندما خرجت الثورة على عثمان: ما تأمرنى؟ فقالت: الزم عليا!! [۲] ، ولقد ذكرها ابن بديل بهذا الحديث بعد هزيمتها يوم الجمل فسكتت. ولم تكن أم المؤمنين وحدها التى نصحت بذلك. فكثير من الناس كانوا يتدافعون على حذيفة صاحب سر رسول الله ليعرفوا رأيه فى الأحداث لأن حذيفة كان يقول: والله إنى لأعلم الناس بكل فتنة هى كائنة فيما بينى وبين الساعة [۳] ، وقال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندى من فتنة الدجال. ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال [" ۴] ، أى أن البداية لا تصيب إلا فى نهايتها فالشر فى الشر والخير فى الخير. وروى بسند صحيح " لما قتل عثمان قالوا لحذيفة: يا أبا عبد الله قتل هذا الرجل وقد اختلف الناس فما تقول؟ قال: سندونى. فسندوه إلى ظهر رجل فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أبو اليقظان على الفطرة لا يدعها حتى يموت [۵] وفى رواية: آمركم أن تلزموا عمارا قالوا: إن عمارا لا يفارق عليا!! قال: إن الحسد هو أهلك الجسد وإنما ينفركم من عمار قربه من على فوالله لعلى أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب وإن عمارا لمن الأحباب. وهو يعلم أنهم إن لزموا عمارا كانوا مع على [" ۶] من

الواضح هنا أن سياسة اللاروايه كانت قد بلغت منتهاها. فهؤلاء القوم لم يكن

[صفحه ۴۵۸]

فى ذاكرتهم أى منقبة لأهل البيت وربما كان فى ذاكرتهم تشويش على أهل البيت ويظهر هذا فى قولهم إن عمارا لا يفارق عليا. وحذيفة قد فطن لهذا الأمر برده الجامع الشامل. ولم يكن هؤلاء فقط الذين ذهبوا إلى حذيفة ولكن هناك آخرين ذهبوا إلى حذيفة فقال لهم: انظروا إلى الفرقة التى تدعو إلى أمر على فالزموها فإنها على الهدى [۷] ومما يذكر أن حذيفة كان بالكوفة عند مبايعة الناس لعلى،

وعندما علم بمبايعة الناس قال: أخرجونى وادعوا الصلاة جامعة. فوضع على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى وآله ثم قال: أيها الناس. إن الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليا ووازروه فوالله إنه لعلى الحق آخرا وأولا وإنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقى إلى يوم القيامة – ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد أنى قد بايعت عليا. الحمد الله الذى أبقانى إلى هذا اليوم. ثم قال لابنيه صفوان وسعيد احملانى وكونا معه فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس. فاجتهدوا أن تستشهدا معه فإنه والله على الحق ومن خالفه على باطل. ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام [۸] وقال صاحب فتح البارى: بايع حذيفة لعلى وكان حريصا على المبايعة له والقيام فى نصره [۹] وقال ابن الأثير: قتل ابناه صفوان وسعيد مع على بصفين بوصية أبيهما [۱۰] .

ولم يكتف حذيفة رضى الله عنه بندائه وهو مريض. وإنما أطلقه أيضا عند الموت، فعن بلال بن يحيى قال: لما حضر حذيفة الموت قال لنا: أوصيكم بتقوى الله والطاعة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب [۱۱] ، وأغمض حذيفة عينيه فى هدوء وصعدت روحه إلى بارئها. ولقد ترك لنا رواياته فى الفتن وغيرها والتى بدونها ما كان الباحث أن يصل إلى الحقيقة بسهولة ويسر. فجزاه الله عنا خير الجزاء. وبعد رحيل حذيفة لم يقف النداء. فكما سمعه أهل العراق سمعه

[صفحه ۴۵۹]

أيضا أهل المدينة وما حولها. لقد كان أبو سعيد الخدرى يقول. قال النبى صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الموفون الطيبون إن الله يحب الخفى التقى. ومر على بن أبى طالب فقال النبى: الحق مع ذا الحق مع ذا [" ۱۲] ، وكان أبو ليلى الغفارى يقول قال النبى صلى الله عليه وسلم: سيكون بعدى فتنة فإذا كان فالزموا على بن أبى طالب فإنه الفاروق بين الحق والباطل [۱۳] ، وزاد فى رواية ": وهو يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين [۱۴] ، وكان كعب بن عجرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يكون بين الناس فرقة واختلاف فيكون هذا وأصحابه على الحق - يعنى عليا [۱۵] وهكذا أقيمت الحجة بالنداء.

[۱] رواه الحاكم.

[۲] أخرجه ابن أبى شيبة بسند جيد (فتح البارى ۵۷:۱۳).

[۳] رواه مسلم (الصحيح ۱۵:۱۸) ك الفتن.

[۴] رواه أحمد والبزار ورجال رجال الصحيح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۵] رواه البزار والطبرانى فى الأوسط باختصار ورجالهما ثقات (الزوائد ۲۹۵:۹).

[۶] رواه الطبرانى ورجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۷] رواه البزار ورجاله ثقات (الزوائد ۲۳۶:۷)، وفتح البارى ۵۵:۱۳.

[۸] مروج الذهب / المسعودى ۳۹۴:۲.

[۹] فتح البارى / ابن حجر ۴۰:۱۳.

[۱۰] الكامل ۱۴۷:۳، مروج الذهب ۴۲۵:۲.

[۱۱] رواه الحاكم (المستدرك ۳۸۰:۳).

[۱۲] رواه أبو يعلى ورجاله ثقات (الزوائد ۲۳۵:۷).

[۱۳] رواه أبو نعيم (كنز العمال ۶۱۲:۱۱).

[۱۴] الإصابة ۱۶۷:۷.

[۱۵] رواه الطبرانى (كنز العمال ۶۲۱:۱۱).

الظهور

عندما جاء الناس إلى على بن أبى طالب ليبايعوه. كان على يعلم أن من

أمامه أياما عصيبة. فالنبى عهد إليه بقتال الناكثين أولا. وهذا يعنى أن بين الذين سيبايعونه من سينقض البيعة ويقاتله. ومن جهة أخرى فإنه أكثر الذين سيبايعونه لا يعلمون شيئا عن مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يخوض بهم المعارك وهو لم يسهر على تربيتهم وتدريبهم فى وقت تطفح فيه خزائن الذهب والفضة عند ألد أعداء الدعوة. لقد كان هذا كله شاخصا أمام الإمام على وهم يعرضون عليه أن يبايعوه. وكان عليه أن يبين لهم حقيقة ما يعلمه ولا يعلمونه. ويخبرهم أنه إن أجابهم لما يريدون فإنه مثله لن يتراجع عما عهد إليه من النبى صلى الله عليه وسلم وفى هذه الحالة لن يلتفت إلى قول القائل منهم، ثم يخبرهم. إما أن يقبلوا بهذا أو

أن يتركوه ويبحثوا عن غيره. وهذا المعنى كان فيما روى عنه رضى الله عنه أنه قال لهم ": دعونى والتمسوا غيرى

[صفحه ۴۶۰]

فإنا ستقبلون أمرا له وجوه وألوان. لا تقوم له القلوب ولا ثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت. واعلموا إنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزير خير لكم منى أمير [" ۱] .

لقد أخبرهم بأن الأيام فى بطونها كثير فى وقت بهتت فيه الحقيقة ودثرها الغمام فى عالم اللارواية ثم خيرهم إما أن يجيبهم ويركب بهم ما يعلم وإما أن يتركوه. وهو ما قال هذا إلا لأمرين: أولهما: أن الناس أعداء ما جهلوا [۲] فأراد أن يبين لهم الخطوط الرئيسية حتى يكونوا على علم بما جهلوا. وثانيهما: أنه أخبرهم بخطة عمله كما أخبر من قبل فى يوم الشورى على عهد عمر. ليكونوا على بينة من أمرهم ويضعهم فى دائرة الاختيار كما وضع غيرهم من قبل. وهذا شأن الحجة فى كل زمان ومكان فالحجة تفتح الأبواب ولا إكراه فى الدين. وهذا فى حد ذاته أسمى معانى الحرية. وقبلت أعداد غفيرة أن يبايعوه على ذلك فقال فيما رواه الطبرى: ففى المسجد فإن بيعتى لا- تكون خفيا ولا- تكون إلا عن رضا المسلمين. فلما دخل المسجد دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ثم بايعه الناس [۳] ، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع [۴] ، وروى كان أول من بايعه طلحة ثم الزبير [۵] وروى ابن حجر فى فتح البارى: عن الأشتر قال: رأيت طلحة والزبير بايعا عليا طائعين غير مكرهين [۶] .

[صفحه ۴۶۱]

وروى أن الناس عندما بايعوا عليا تربص سبعة نفر فلم يبايعوه منهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن وقش وأسامة بن زيد [۷] ، وروى أن عمار بن ياسر قال: يا أمير المؤمنين قد بايعك الناس كافة إلا هؤلاء النفر فلو دعوتهم إلى البيعة كى لا يتخلفوا فى ذلك عن المهاجرين والأنصار. فقال: يا عمار لا حاجة لنا فى من لا يرغب فينا. وعندما قال الأشتر بمثل قول عمار قال الإمام: يا مالك إنى لأعرف بالناس منك دع هؤلاء يعملون برأيهم. وذكر ابن أبى الحديد أن هؤلاء لم يتخلفوا عن البيعة وإنما تخلفوا عن الحرب [۸] ، وروى أن مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة حضروا عند على. فقال الوليد وكان لسان القوم: يا هذا إنك قد وترتنا جميعا. أما أنا فقد قتلت أبى صبرا يوم بدر. وأما سعيد فقد قتلت أباه يوم بدر وكان أبوه ثور قريش. وأما مروان فقد شتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه. وإنا نبايعك على أن تضع عنا ما أصابنا. وتعفى لنا عما فى أيدينا وتقتل قتلة صاحبنا. فغضب على وقال: أما ما ذكرت من وترى إياكم فالحق وتركم وأما وضعى عنكم عما فى أيديكم مما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم، وأما قتلى قتلة عثمان فلو لزمنى قتلهم اليوم لزمنى قتالهم غدا. ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. فمن ضاق الحق عليه فالباطل عليه أضيق. وإن شئتم فإلحقوا بملاحقكم [۹] ، وروى الطبرى: هرب سعيد والوليد إلى مكة وتبعهم مروان [۱۰] وهرب قوم إلى الشام [۱۱] .

وهكذا تمت البيعة التى لم يكن فيها إكراه. وروى أن الإمام على اشترط

[صفحه ۴۶۲]

أن يكون مفتاح بيت المال معه وأخبرهم بأنه لن يأخذ منه درهما وليس له أمر دونهم. ثم قال: رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم ثم بايعهم على ذلك [۱۲] ، وروى عنه أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدى الأمانة. فإذا فعل فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا [۱۳] ، وروى عندما بويع الإمام على بن أبى طالب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خزيمة بن ثابت وهو واقف بين يدى المنبر:

فإذا نحن بايعنا عليا فحسبنا++

أبو حسن مما نخاف من الفتن

ووجدناه أولی الناس بالناس إنه++

أطب قریشا بالکتاب وبالسنن

وإن قریشا ما تشق غباره++

إذا ما جزی یوما علی الضمر البدن

وفیه الذین فیهم من الخیر کله++

وما فیهم کل الذی فیه من حسن [۱۴] .

[۱] ابن أبی الحدید ۵۹۷:۲، الطبری باختصار ۱۵۶:۵.

[۲] هذا القول للإمام علی.

[۳] الطبری ۱۵۲:۵.

[۴] الطبری ۱۵۵:۵، البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۵] البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۶] فتح الباری ۵۴:۱۳.

[۷] الطبری ۱۵۵:۵.

[۸] ابن أبی الحدید ۷۴۶:۱.

[۹] تاریخ الیعقوبی ۱۲۵:۲.

[۱۰] الطبری ۱۵۶:۵، البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۱۱] الطبری ۱۵۴:۵، البدایة والنهایة ۲۲۷:۷.

[۱۲] الطبری ۱۵۲:۵.

[۱۳] رواه ابن جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم (کنز العمال ۷۶۴:۵).

[۱۴] الحاکم (المستدرک ۱۱۴:۳).

اصلاحات علویة

بدأ أمیر المؤمنین عملیة الاصلاح عقب مبایعته. ولم تکن عملیة الاصلاح

فی محیط الغصون أو الثمار وإنما بدأت من عند الجذور حیث توجد سیاسة تعیین المنافقین وسیاسة عدم الروایة والتصریح بالقص والشعر وإغماض الطرف عن صناعة الخمور وسیاسة الخراج وتأویل الآیات ووضعها فی غیر موضعها واکتناز الذهب والفضة إلی غیر ذلک من سیاسات، ولم تکن عملیة الاصلاح والتغییر عملیة سهلة فلقد برزت العقبات وجاءت موقعة الجمل بسرعة ومن بعدها هبت ریاح هدفها تحطیم کل شئ. ونحن هنا سنلقی الضوء علی بعض التغییرات والإصلاحات ولیتدبر الباحث فی جوهرها.

قرار عزل أمراء الفتن

عندما قتل عثمان خرج النعمان بن بشیر ومعه قمیص عثمان مضمخ

[صفحه ۴۶۳]

بدمه [۱] فورد به علی معاویة فوضعه معاویة علی المنبر لیراه الناس. وندب

الناس إلی الأخذ بهذا الثأر، فتباکی الناس حول المنبر. وأصدر معاویة قرارا بأنه لا یقرب الرجال النساء حتی یأخذوا بثأر عثمان [۲]

وذكر ابن كثير: أن الناس تباكوا حول القميص سنة واعتزلوا النساء فى هذا العام [۳] وما فعله معاوية يدل على أنه قد أصر على البقاء ولن يرضخ لأى محاولة لعزله. وكان على قد بعث على الشام سهيل بن حنيف بدل معاوية. فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية فقالوا: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أى شئ، قال: على الشام، قالوا: إن كان عثمان بعثك فهلا بك وإن كان غيره فارجع. فقال: أوما سمعتم الذى كان - أى هل وصلكم أخبار ما حدث؟! قالوا: بلى، فرجع إلى على [۴] ، وعندما جاء ابن عباس وكان يؤدى مناسك الحج دخل على أمير المؤمنين وقال له: يا أمير المؤمنين أنا أشير عليك بأن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله. فقال الإمام: لا والله لا أعطيه إلا السيف. ثم تمثل بهذا البيت:

ما ميتة إن متها غير عاجز++

بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع... أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحرب خدعة. قال الإمام: بلى يا ابن عباس لست من هنيآتك وهنيآت معاوية فى شئ. تشير على وأرى. فإذا عصيتك فأطعنى فقال: أفعل إن أيسر ما لك عند الطاعة [۵] ، وكان المغيرة بن شعبة قد قال له قبل ذلك: إنى لك ناصح وإنى أشير عليك برد عمال عثمان عامك هذا فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم. فإذا بايعوا لك واطمأن الأمر لك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت فقال الإمام: والله لا أدهن فى دينى ولا أعطى الدنى فى أمرى. قال المغيرة: فإن كنت قد أبيت على فانزع من شئت واترك معاوية

[صفحه ۴۶۴]

فإن لمعاوية جرأة وهو فى أهل الشام يسمع منه. ولك حجة فى إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها. فقال أمير المؤمنين: لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا [۶] - وفى رواية - إذا كان عمر قد مكن له فأنا لن أمكن له أبدا. ولم تكن عملية عزل جميع الولاة عملية سهلة. فعندما فرق أمير المؤمنين عماله على الأمصار على امتداد عام ۳۶ ه كان منهم من يتسلم عمله بهدوء ولكن على أرضية افتراق الناس. فرقة مع تيار بنى أمية وفرقة مع جماعة المسلمين. حدث هذا فى البصرة وفى مصر [۷] ، أما أهل الكوفة فإن الغالبية العظمى تمسكوا بأميرهم وأعلنوا بأنهم لا يريدون بأميرهم بدلا وكتب أبو موسى إلى أمير المؤمنين بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم وبين الكاره منهم للذى كان والراضى بالذى كان [۸] ، وأبو موسى نفسه كان فى مستقر النفس وهو يكتب هذا لأمير المؤمنين - وسوف نرى بعد ذلك. كيف كان يضع العقبات فى طريق أمير المؤمنين ورأى أمير المؤمنين وعمار فيه. وكانت بقية الأمصار فى طاعة أمير المؤمنين ولكن هذه الطاعة تقف على أرضية الخوف من الماضى وطمعا فيما عنده من كنوز. لأنها لا تعرف الحاضر وما حوله من توبة.

[۱] روى ابن أم حبيبة أرسلت القميص مع النعمان إلى معاوية (مروج الذهب ۳۷۹:۲).

[۲] مروج الذهب.

[۳] البداية والنهاية ۲۲۸:۷.

[۴] البداية والنهاية ۲۳۰:۷، الطبرى ۱۶۱:۵.

[۵] الطبرى ۱۶۱:۵.

[۶] الطبرى ۱۶۰:۵.

[۷] الطبرى ۱۶۱:۵.

[۸] الطبرى ۱۶۲:۵.

قرار التسوية فى الأموال

عن ابن عباس قال: إن عليا خطب فی اليوم الثانی من بيعته بالمدينة فقال:

ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان. وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود فی بيت المال. فإن الحق القديم لا يبطله شیء. ولو وجدته قد تزوج به النساء. وفرق فی البلدان لرددته إلى حاله فإن فی العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق. قال ابن أبی الحديد: وتفسير هذا الكلام أن الوالی إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره فی العدل. فهی فی الجور أضيق عليه. لأن الجائر فی مظنة أن

[صفحه ۴۶۵]

يمنع ويصد عن جوره [۱] .

وروى أن عليا أمر بكل سلاح وجد لعثمان فی داره مما تقوى به على المسلمين. فقبض. وأمر بقبض نجائب كانت فی داره من إبل الصدقة. فقبضت. وأمر بقبض سيفه ودرعه. وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين وبالكف عن جميع أمواله التی وجدت فی داره وفی غير داره. وأمر أن ترتجع الأموال التی أجاز عثمان حيث أصيب أو أصيب أصحابها. فلما بلغ عمرو بن العاص ذلك. وكان بأيلة من أرض الشام. كتب إلى معاوية: ما كنت صانعا فاصنع. إذ قشرك ابن أبی طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لجاها. وقال الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لأمه وصاحب أبی زبيد النصرانی وهو يذكر قبض على بن أبی طالب نجائب عثمان وسيفه وسلاحه:

بنی هاشم ردوا سلاح ابن أختكم++

ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

بنی هاشم كيف الهوادة بيننا++

وعند على درعه ونجائبه

بنی هاشم كيف التودد منكم++

وبز ابن أروى فيكم وحرائبه

بنی هاشم إلا تردوا فإننا++

سواء علينا قاتلاه وسالبه

بنی هاشم إنا وما كان منكم++

كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه

قتلتم أخی كيما تكونوا مكانه++

كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأجابه عبد الله بن أبی سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة من جملتها:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم++

أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه

وشبهته كسرى وقد كان مثله++

شبيها بكسرى هديه وضرائبه

وكان المنصور إذا أنشد هذا الشعر يقول: لعن الله الوليد. هو الذی فرق بين عبد مناف بهذا الشعر [۲] ، وهكذا بدأ الإمام على تحركه. وهكذا بدأ عمرو بن العاص والوليد تحركهما الأول يريد إشعال النار والثانی يريد أموال

[صفحه ۴۶۶]

كسرى وكرسی كسرى. ولكن الإمام لم يبال بهذا ولا بذاك وبدأ فی إصلاح السياسة الحالية للخراج. فعندما قدم عليه عبد الله بن

زمعة وهو من شيعته وطلب منه مالا فقال له الإمام على: إن هذا المال ليس لى ولا لك وإنما هو فئ المسلمين. وجلب أسيافهم فإن شركتهم فى حربهم.. كان لك مثل حظهم. وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم [۳] فهنا عادت الحقوق للمقاتلة ولم يعد.

السواد بستانا لقريش. كما عاد التسوية فى العطاء. وعندما عوتب الإمام على التسوية فى العطاء. وعندما عوتب الإمام على التسوية فى العطاء. وتصييره الناس أسوة فى العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف على غيرهم. كما كان يحدث من قبل [۴] قال الإمام على: أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير [۵] وما أم نجم فى السماء

نجما [۶] ولو كان المال لى لسويت بينهم.. فكيف وإنما المال مال الله. ثم

قال الإمام: ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ويضعه فى الآخرة. ويكرمه فى الناس. ويهينه عند الله. وكم يضع امرؤ ماله فى غير حقه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم. وكان لغيره ودهم. فإن زلت به الفعل يوما فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل. وألام خدين [۷] أى: لو

احتاج إليهم يوما عند عثرة يعثرها لم يجدهم [۸] .

وكان أمير المؤمنين يراقب عماله فى الأمصار من ناحية تصرفهم فى الأموال: روى أنه كتب إلى زياد وكان خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة وكان عبد الله عامل أمير المؤمنين عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها: وإنى أقسم بالله قسما صادقا. لئن بلغنى أنك خنت من فئ

[صفحه ۴۶۷]

المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا. لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر [۹] ثقيل

الظهر [۱۰] ، ضئيل الأمر [۱۱] ، والسلام [۱۲] ، وروى أنه رضى الله عنه كتب إلى بعض عماله: أما بعد. فقد بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك. وعصيت إمامك. وأخزيت أمانتك [۱۳] بلغنى أنك جردت الأرض [۱۴] وأخذت ما

تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك. فارفع إلى حسابك. واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس. والسلام [۱۵] وكتب إلى عامله على أردشير: بلغنى عنك أمر. إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك.. أنك تقسم فئ المسلمين فيمن أعتامك من أعراب قومك. فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة. لئن كان ذلك حقا. لتجدن لك على هوانا. ولتخفن عندى ميزانا. فلا تستهن بحق ربك. ولا تصلح دنياك بمحق دينك. فتكون من الأخسرين أعمالا. ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين فى قسمة هذا الفئ سواء. يردون عندى عليه ويصدرون [۱۶] والمعنى: أنه نهى عن أن يقسم الفئ على أعراب قومه الذين اتخذوه سيدا ورئيسا. ويحرم المسلمين الذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم. وكتب إلى عامله على آذربيجان: وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه فى عنقك أمانة. وأنت سترعى لمن فوقك. ليس لك أن تقتات فى رعية. ولا تخاطر إلا بوثيقة. وفى يدك مال من مال الله عز وجل. وأنت من خزانه حتى تسلمه إلى [" ۱۷] .

[صفحه ۴۶۸]

كان هذا ضوءا على قرارات الإمام على بخصوص الفئ ومنها علمنا أن الذين شاركوا فى الحروب لا تكون حقوقهم لغيرهم. كما علمنا أن الإمام كان يسوى بين الناس فى العطاء. وكان يتعامل مع المال على أنه مال الله. وبنظرة سريعة أيضا على أموال الصدقة نجد أنه كان يتعامل مع هذا المال بدقة شديدة فعامله على الصدقة يتحرك وفقا لأوامر عمودها الفقرى يقوم على الرحمة وعندما تصل الصدقات إلى الإمام فإنه يعطيها لمن أوجبها الله لهم. ومن وصية كان رضى الله عنه يكتبها لمن يستعمله على الصدقات سترى كيف كان يقيم عماد الحق فى صغير الأمور وكبيرها. يقول الإمام فى وصيته: انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له. ولا تروعن [۱۸] مسلما. ولا تجتازن عليه كارها [۱۹] ولا

تأخذ منه أكثر من حق الله فى ماله. فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم [۲۰] ثم امض إليهم بالسكينة والوقار

حتی تقوم بینهم فتسلم

علیهم. ولا تخدج بالتحیة لهم ثم تقول: عباد الله. أرسلنی إلیکم ولی الله وخلیفتکم لآخذ منکم حق الله فی أموالکم. فهل لله فی أموالکم من حق فتؤدوه إلی ولیه؟ فإن قال قائل: لا. فلا تراجعه. وإن أنعم لک منعم [۲۱] فانطلق معه من غیر أن تخیفه أو توعده، أو تعسفه (ذ) أو ترهقه [۲۲] فخذ ما أعطاک من ذهب أو

فضة. فإن کان له ماشیة أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه. فإن أکثرها له. فإذا أتیتها فلا تدخل علیها دخول متسلط علیه ولا عنیف به. ولا تنفرن بهمة ولا تفز عنها. ولا تسوءن صاحبها فیها [۲۳] واصدع المال صدعین ثم خیره [۲۴] فإذا اختار فلا

[صفحه ۴۶۹]

تعرضن لما اختاره. ثم اصدع الباقی صدعین. ثم خیره. فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره. فلا تزال کذلک حتی یبقی ما فیه وفاء لحق الله فی ماله. فاقبض حق الله منه. فإن استقالک فأقله. ثم اصنع مثل الذی صنعت أولا حتی تأخذ حق الله فی ماله. ولا تأخذن عودا [۲۵] ولا هرمة [۲۶] ولا مکسورة [۲۷] ولا مهلوسة [۲۸] ولا ذات عوار ولا تأمنن علیها إلا من تثق بدینه. رافقا بمال المسلمین حتی یوصله إلی ولیهم فیقسمه بینهم. ولا توکل بها إلا ناصحا شفیقا وأمینا حفیظا. غیر معنف [۲۹] ولا مجحف [۳۰] ولا ملعب [۳۱] ولا متعب. ثم احدر إلینا ما اجتمع عندک. نصیره حیث أمر الله. فإذا أخذها أمینک فأوعز إلیه ألا یحول بین ناقة وبین فصیلها. ولا یمصر لبنها [۳۲] فیضر ذلک بولدها. ولا یجهدنها رکوبا. ولیعدل بین صواحباتها فی ذلک وبینها ولیرفه علی اللاغب. ولیستان بالنقب والظالع [۳۳] ولیوردها ما تمر به من الغدر [۳۴] ولا یعدل بها

عن نبت الأرض إلی جواد الطرق. ولیروحها فی الساعات. ولیمهلها عند النطاف [۳۵] والأعشاب. حتی تأتینا بإذن الله بدنا [۳۶] منقبات [۳۷] غیر متعبات ولا

مجهودات لنقسمها علی کتاب الله وسنة نبیه صلی الله علیه وآله وسلم. فإن ذلک

[صفحه ۴۷۰]

أعظم لأجرک وأقرب لرشدک إن شاء الله [" ۳۸] .

وتقسیم الصدقات علی کتاب الله وسنة نبیه صلی الله علیه وسلم یعنی أن سهم المؤلفة قلوبهم قد وجد له طریقا فی عهد الإمام. والإمام وحده أدری الناس بطبیعة من حوله.

[۱] ابن أبی الحدید ۱:۲۲۰.

[۲] ابن أبی الحدید ۱:۲۲۰.

[۳] ابن أبی الحدید ۴:۷۲.

[۴] راجع کتاب سیرة عمر لابن الجوزی، ابن أبی الحدید ۳:۴.

[۵] أی ما أقام الدهر وما بقی.

[۶] أی قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.

[۷] الخدین / الصدیق.

[۸] ابن أبی الحدید ۳:۳.

[۹] أی أفقرک بأخذ ما احتجت من بیت مال المسلمین.

[۱۰] أی مسکین لا تقدر علی مؤونة عیالک.

[۱۱] أی حقیر لأنک إذا افتقرت صغرت عند الناس.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۴:۵۶۸.

[۱۳] أی أذللتها وأهنتها.

[۱۴] أی قشرتها.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۷۹۲:۴.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۸۰۱:۴.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۳۰۹:۴.

[۱۸] أی لا تفر عن.

[۱۹] أی لا تمرن ببیوت أحد من المسلمین یکره مرورک.

[۲۰] وذلک لأن الغریب یحمد منه الانقباض.

[۲۱] أی قال لک نعم.

[۲۲] أی لا تکلفه العسر والمشقة.

[۲۳] أی لا تغموه ولا تحزنوه.

[۲۴] أی شقه نصفین ثم خیره.

[۲۵] العود / المسن من الإبل.

[۲۶] المسنة أیضا.

[۲۷] التی إحدی قوائمها مکسورة.

[۲۸] المریضة.

[۲۹] المعنف / ضد الرفق.

[۳۰] الذی یسوق المال سوقا عنیفا فیهلکه.

[۳۱] متعب.

[۳۲] حلب ما فی الضرع جمیعا.

[۳۳] أی الذی غمز فی مشیه.

[۳۴] جمع غدیر الماء.

[۳۵] الماء الصافی القلیل.

[۳۶] أی السمان.

[۳۷] أی ذوات شحم ولحم.

[۳۸] ابن أبی الحدید ۵۷۸:۴.

قرارات قیادیة

لم تکن مهمة الإمام محصورة فی بیت المال لأنه حجة والحجة لها دعوة

ونحن سنسلط ضوءا علی بعض رسائله إلی عماله لنرتشف رحیق الدعوة من خلالها. کتب إلی عامله صاحب جند حلوان: أما بعد. فإن الوالی إذا اختلف هواه منعه ذلک کثیرا من العدل. فلیکن أمر الناس عندک فی الحق سواء. فإنه لیس فی الجور عوض من العدل. فاجتنب ما تنکر أمثاله. وابتذل نفسک فیما افترض الله علیک. راجیا ثوابه. ومتخوفا عقابه. واعلم أن الدنیا دار بلیة لم یفرغ صاحبها فیها قط ساعة إلا کانت فرغته علیه حسرة یوم القیامة وإنه لن یغنیک عن الحق شئ أبدا. ومن الحق علیک حفظ نفسک. والاحتساب علی

الرعية بجهدك. فإن الذى يصل إليك من ذلك أفضل من الذى يصل بك. والسلام [۱] .

لقد بين له أنه إذا اختلف هوى الوالى منعه كثيرا من الحق. لأنه متى لم يكن الخصمان عند الوالى سواء فى الحق جار وظلم. وفى النهاية ذكره بالآخرة، ومن كتاب له رضى الله عنه إلى الحارث الهمدانى وكان أحد الفقهاء قال: تمسك بحبل القرآن واستنصحه وأحل حلاله. وحرم حرامه. وصدق بما سلف من الحق. واعتبر بما مضى من الدنيا لما بقى منها. فإن بعضها يشبه بعضا. وآخرها لاحق بأولها. وكلها حائل مفارق. وعظم اسم الله أن تذكره إلا على حق. وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت ولا تتمن الموت إلا بشرط وثيق. واحذر كل عمل

[صفحه ۴۷۱]

يرضاه صاحبه لنفسه. ويكرهه لعامة المسلمين. واحذر كل عمل يعمل به فى السر. ويستحى منه فى العلانية. واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه. ولا تجعل عرضك غرضا لنبال القوم. ولا تحدث الناس بكل ما سمعت به. فكفى بذلك كذبا. ولا ترد على الناس كل ما حدثوك به. فكفى بذلك جهلا. واكظم الغيظ واحلم عند الغضب. وتجاوز عند المقدرة. واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة. واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك. ولا تضيعن نعمة من نعم الله عندك. ولير عليك أثر ما أنعم الله به عليك [۲] ، ومن كتابا له إلى عامله على مكة [۳] قال: أما بعد. فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله. واجلس لهم العصرين. فأفت المستفتى وعلم الجاهل. وذكر العالم. ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك. ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها. فإنها إذا ذيدت عن أبوابك فى أول وردها. لم تحمد فيما بعد على قضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوى العيال والمجاعة. مصيبا به مواضع المفاقر والخلات. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا. ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجرا. فإن الله سبحانه يقول: (سواء العاكف فيه والباد) فالعاكف: المقيم به. والبادى: الذى يحج إليه من غير أهله. وفقنا الله وإياكم لمحابه والسلام [" ۴] .

ولما كنا قد سلطنا الضوء هنا على بعض وصايا الأيام على لعماله فإننا نرى أنه لا ينبغى لنا أن ننهى هذا الضوء إلا بعد أن نسلطه على كتاب الإمام إلى مالك الأشتر لما ولاه مصر. وهذا الكتاب وضع موضع العناية منذ أقدم العصور إلى يوم الناس هذا عند الكثير من رجال العلم. وأعلام الأدب. وأساتذة القانون. فلقد تناولوه درسا وبحثا. وأوسعوه شرحا وتعليقا. وأفردوا فيه المؤلفات، وترجموه إلى بعض اللغات [۵] وكتاب أمير المؤمنين إلى مالك

[صفحه ۴۷۲]

الأشتر يعتبر عهدا جامعا شاملا وهو أطول عهد. ولطوله سنورد فقرات منه ومن أراد أن يقف على الخطاب بطوله فعليه بالمطولات. قال الإمام بعد أن أمر بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه:... وأشعر قلبك الرحمة [۶] للرعية. والمحبة لهم. واللطف بهم. ولا تكن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك فى الدين. وإما نظير لك فى الخلق [۷] يفرط منهم الزلل. وتعرض لهم العلل. ويؤتى على أيديهم فى العمد

والخطأ. فاعطهم من عفوك وصفحك. مثل الذى تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. فإنك فوقهم. ووالى الأمر عليك فوقك. والله فوق من ولاك. وقد استكفاك أمرهم. وابتلاك بهم. ولا تنصبن نفسك لحرب الله [۸] .

فإنه لا يدى لك بنقمته. ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمن على عفو. ولا يتبجحن بعقوبة. ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة. ولا تقولن إنى مؤمر آمر فأطاع [۹] فإن ذاك إدغال [۱۰] فى القلب. ومنهكة للدين [۱۱] وتقرب

من الغير. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة. فانظر إلى عظم ملك الله فوقك. وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك. فإن ذلك يطامن إليك طماحك. ويكف عنك من غربك [۱۲] ويفئ إليك بما عزب عنك

من عقلك. إياك ومساماة الله فى عظمته [۱۳] والتشبه به فى جبروته. فإن الله يذل

كل جبار ويهين كل مختال. أنصف الله [۱۴] وأنصف الناس من نفسك. ومن

[صفحه ۴۷۳]

خاصة أهلك. ومن لك هوى فيه من رعيتك. فإنك إلا تفعل تظلم. ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. ومن خاصمه الله أدحض حجته. وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب. وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم. فإن الله يسمع دعوة المضطهدين. وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق. وأعمها فى العدل. وأجمعها لرضا الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة. وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. قال ابن أبى الحديد: قال له: أنصف الناس من نفسك ومن ولدك وخاصة أهلك ومن تحبه وتميل إليه من رعيتك فحتى لم تفعل ذلك كنت ظالما. ثم قال الإمام: وليكن أبعد رعيتك منك. وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس. فإن فى الناس عيوبا الوالى أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها. فإنما عليك تطهير ما ظهر لك. والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعت. يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد. واقطع عنك سبب كل وتر. وتغاب عن كل ما لا يضح لك. ولا تعجلن إلى تصديق ساع. فإن الساعى غاش وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل. ويعدك الفقر. ولا جبانا يضعفك عن الأمور. ولا حريصا يزين لك الشره بالجور. فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله. إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا. ومن شركهم فى الآثام فلا يكن لك بطانة. فإنهم أعوان الأئمة. وإخوان الظلمة. وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم. ممن لم يعاون ظالما على ظلمه. ولا آثما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة. وأحنى عليك عطفا. وأقل لغيرك إلفا. فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك. ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك. وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه. واقعا ذلك من هواك

[صفحه ۴۷۴]

حيث وقع. قال ابن أبى الحديد: نهاه رضى الله عنه أن يتخذ بطانة قد كانوا من قبل بطانة للظلمة. وذلك لأن الظلم وتحسينه قد صار ملكة ثابتة فى أنفسهم. فبعيد أن يمكنهم الخلو منها إذ قد صارت كالخلق الغريزى اللازم لتكرارها وصيرورتها عادة. فقد جاءت النصوص فى الكتاب والسنة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم وتحريم الاستعانة بهم. فإن من استعان بهم كان معينا لهم قال تعالى: (وما كنت متخذ المضلين عضدا) [۱۵] ، وقال: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) [۱۶] ، ثم يقول الإمام فى كتابه ": والصق بأهل الورع والصدق. ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله. فإن كثرة الاطراء تحدث الزهو. وتدنى من العزة. ولا يكونن المحسن والمسئ عندك بمنزلة سواء. فإن فى ذلك تزهيدا لأهل الاحسان فى الاحسان. وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة. وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه. واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن وال برعيته من إحسانه إليهم. وتخفيفه المؤونات عليهم. وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك. فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا. وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده... واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض. ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله. ومنها كتاب العامة والخاصة. ومنها قضاة العدل. ومنها عمال الإنصاف والرفق. ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس. ومنها التجار وأهل الصناعات. ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجات والمسكنة. وكل قد سمى الله له سهمه. ووضع على حده وفريضته فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهدا منه عندنا محفوظا. فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن.

[صفحه ۴۷۵]

وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم. ويعتمدون عليه فيما يصلحهم. ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاء والعمال والكتاب، لما يحكمون من

المعاقد. ويجمعون من المنافع. ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوى الصناعات. فيما يجتمعون عليه من مرافقتهم. ويقيمونه من أسواقهم. ويكفونهم من الترفق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة. الذين يحق رفدهم ومعونتهم. وفى الله لكل سعة. ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه. وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك. إلا بالاهتمام والاستعانة بالله. وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل. فول من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولإمامك. وأطهرهم جنبا. وأفضلهم حلما. ممن يبطئ عن الغضب. ويستريح إلى العذر. ويرأف بالضعفاء [۱۷].

وينبو على الأقوياء [۱۸] وممن لا يثيره العنف [۱۹] ولا يقعد به الضعف [۲۰] ثم

الصق بذوى المروءات والأحساب. وأهل البيوتات الصالحة. والسوابق الحسنة. ثم أهل النجدة والشجاعة. والسخاء والسماحة. فإنهم جماع من الكرم. وشعب من العرف. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما. ولا يتفاقمن فى نفسك شئ قويتهم به. ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل. فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك. وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها. فإن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به. وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه. وليكن أثر رؤوس جندك عندك من واساهم فى معونته. وأفضل عليهم من جدته. بما يسعهم ويسمع من وراءهم من خلوف

[صفحه ۴۷۶]

أهليهم [۲۱] حتى يكون همهم هما واحدا فى جهاد العدو. فإن عطفك عليهم

يعطف قلوبهم عليك. ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم. وقلة استثقال دولهم [۲۲] وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فافسح فى آمالهم. وواصل من

حسن الثناء عليهم. وتعديد من أبلى ذوى البلاء منهم. فإن كثرة الذكر لحسن فعالهم تهز الشجاع. وتحرض الناكل. إن شاء الله. ثم عرف لكل امرئ منهم ما أبلى. ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره [۲۳] ولا تقصرن به دون غاية بلائه. ولا

يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا. ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما. واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب. ويشتبه عليك من الأمور. فقد قال تعالى لقوم أحب إرشادهم: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول)، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه. والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة. ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك. ممن لا تضيق به الأمور. ولا تمحكه الخصوم [۲۴] ولا يتمادى فى الزلة [۲۵] ولا يحرص من

الفئ إلى الحق إذا عرفه [۲۶] ولا تشرف نفسه على طمع [۲۷] ولا يكتفى بأدنى

منهم دون أقصاه [۲۸] وأوقفهم فى الشبهات. وآخذهم بالحجج. وأقلهم تبرما

[صفحه ۴۷۷]

بمراجعة الخصم [۲۹] وأصبرهم على كشف الأمور. وأصرمهم [۳۰] عند إيضاح

الحكم. ممن لا يزدهيه إطراء. ولا يستميله إغراء. وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه. وأفسح له فى البذل ما يزيح علته. وتقل معه حاجته إلى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك. ليأمن بذلك اغتياب الرجال له عندك. فانظر فى ذلك نظرا بليغا. فإن هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى أشرار [۳۱] يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا. ثم انظر فى أمور عمالك.

فاستعملهم اختبارا. ولا تولهم محاباة وأثرة. فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة. والقدم فى الإسلام المتقدمة. فإنهم أكرم أخلاقا. وأصح أعراضا. وأقل فى المطامع إشرافا. وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا. ثم أسبغ عليهم الأرزاق. فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم. وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم. وحجة عليهم إن خالفوا أمرك.

أو ثلموا أمانتك. ثم تفقد أعمالهم. وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم. فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة. والرفق بالرعية. وتحفظ من الأعوان. فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتملت بها عليه عندك أخبار عيونك. اكتفيت بذلك شاهدا. فبسطت عليه العقوبة فى بدنه. وأخذته بما أصاب من عمله. ثم نصبته بمقام الذلة. ووسمته بالخيانة. وقلدته عار التهمة. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله. فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد. وأهلك العباد... ولم يستقم أمره إلا قليلا. فإن شكوا

[صفحه ۴۷۸]

ثقلا [۳۲] أو علة [۳۳] أو انقطاع شرب [۳۴] ، أو بالة [۳۵] أو إحالة أرض اغتمرها

غرق [۳۶] أو أجحف بها عطش [۳۷] خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم.

ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم. فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك. وتزيين ولايتك. مع استجلابك حسن ثنائهم. وتبجحك باستفاضة العدل فيهم. معتمدا فضل قوتهم. بما ذخرت عندهم من إجماعك لهم. والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه. طيبة أنفسهم به. فإن العمران محتمل ما حملته. وإنما يؤتى خراب الأرض عن أعواز أهلها. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع. وسوء ظنهم بالبقاء. وقلة انتفاعهم بالعبر، ثم انظر فى حال كتابك. فول على أمورك خيرهم. واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة. فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ. ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك. وإصدار جواباتها على الصواب عنك. وفيما يأخذ لك ويعطى منك. ولا يضعف عقدا اعتقده لك. ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك. ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور. فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك. فإن الرجال يتعرضون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن حديثهم. وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شئ. ولكن اختبرهم بما ولوا الصالحين قبلك. فأعمد لأحسنهم كان فى العامة أثرا. وأعرفهم بالأمانة وجها. فإن ذلك دليل على نصيحتك الله. ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم، لا

[صفحه ۴۷۹]

يقهره كبيرها. ولا يتشتت عليه كثيرها. ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته. ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات. وأوصى بهم خيرا. المقيم منهم والمضطرب بماله. والمترفق ببدنه. فإنهم مواد المنافع. وأسباب المرافق. وجلابها من المباعد والمطارح [۳۸] فى برك وبحرك. وسهلك وجبلك. وحيث

لا يلتئم الناس لمواضعها. ولا يجترئون عليها. فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك. وفى حواشى بلادك. واعلم - مع ذلك - أن فى كثير منهم ضيقا فاحشا. وشحا قبيحا. واحتكارا للمنافع. وتحكما فى البياعات. وذلك باب مضرة للعامة. وعيب على الولاة. فامنع من الاحتكار. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه. وليكن البيع سمحا بموازين عدل. وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به. وعاقبه من غير إسراف. ثم الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم. من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى [۳۹] فإن فى هذه الطبقة قانعا [۴۰] ومعترا [۴۱] .

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم. واجعل لهم قسما من بيت مالك. وقسما من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد. فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى وكل قد استرعيت حقه [۴۲] ولا يشغلنك عنهم بطر. فإنك لا تعذر بتضييع التافه [۴۳] .

لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا خدك لهم. وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم. ممن تقتحمه العيون [۴۴] وتحقره الرجال. ففرغ

[صفحه ۴۸۰]

لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع. فليرفع إليك أمورهم. ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله [۴۵] سبحانه يوم تلقاه. فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكل فأعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم، وذوى الرقة فى السن. ممن لا حيلة له. ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاة ثقيل. والحق كله ثقيل. وقد تخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم. ووثقوا بصدق موعود الله لهم. واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك. وتجلس لهم مجلسا عاما. فتتواضع فيه لله الذى خلقك. وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع [۴۶] فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى غير موطن: لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع " ثم احتمل الخرق [۴۷] منهم والعى [۴۸] ونح

عنهم الضيق والأنف. يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته. ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئا. وامنع فى إجمال واعتذار ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرته. منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك. ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك. وامض لكل يوم عمله. فإن لكل يوم ما فيه. واجعل لنفسك فيها بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت. واجزل تلك الأقسام. وإن كانت كلها لله. إذا صلحت فيها النية. وسلمت فيها الرعية. وليكن فى خاصة ما تخلص لله به إقامة فرائضه التى هى له خاصة. فأعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك. ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مكلوم ولا منقوص. بالغا من بدنك ما بلغ. وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكن منفرا ولا مضيفا. فإن فى الناس من به علة. وله الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهنى إلى اليمن.

[صفحه ۴۸۱]

كيف أصلى بهم؟ فقال ": صل بهم كصلاة أضعفهم. وكن بالمؤمنين رحيما. " وأما بعد هذا. فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية. شعبة من الضيق. وقلة علم بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه. فيصغر عندهم الكبير. ويعظم الصغير، ويقبح الحسن. ويحسن القبيح. ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالى بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور. وليست على الحق سمات لا تعرف بها ضروب الصدق من الكذب. وإنما أنت أحد رجلين: أما أمرؤ سخت نفسك بالبذل فى الحق. ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه. أو فعل كريم تسديه أو مبتلى بالمنع. فما أسرع كف الناس عن مسألتك. إذا أيسوا من ذلك! مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك. من شكاية مظلمة. أو طلب إنصاف فى معاملة. ثم إن للوالى خاصة وبطانة. فيهم استئثار وتطاول. وقلة إنصاف فى معاملة. فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة. ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك. يحملون مؤونته على غيرهم. فيكون مهنأ ذلك لهم دونك. وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد. وكن فى ذلك صابرا محتسبا. واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع. وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه. فإن مغبة ذلك محمودة. وإن ظننت الرعية بك جيفا. فأصحر لهم بعذرك. وأعدل عنك ظنونهم بإصحارك. فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك. ورفقا برعيتك. وإعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق. قال ابن أبى الحديد: نهاه عن أن يحمل أقاربه وحاشيته وخواصه على رقاب الناس. وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتطاول والإذلال. ونهاه عن أن يقطع أحدا منهم قطيعة. أو يملكه ضيعة تضر بمن يجاورها فى شرب يتغلبون على الماء منه. أو ضياع يضيفونها إلى ما ملكهم إياه. وإعفاء لهم من مؤنة. أو حفر وغيره. فيعفيهم الولاة منه مراقبة لهم. فتكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم. وحمل ثقلها على غيرهم. ثم قال الإمام: لأن منفعة ذلك فى

[صفحه ۴۸۲]

الدنيا تكون لهم دونك. والوزر فى الآخرة عليك. والعيب والذم فى الدنيا أيضا لا حقان بك. ثم قال له: إن اتهمتك الرعية بحيف

عليهم. أو ظنت بك جورا. فاذكر لهم عذرك فى ذلك. وما عندك ظاهر غير مستور. فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحق. ثم قال الإمام ": وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة. أو ألبسته منك ذمة. فحط عهدك بالوفاء. وارع ذمتك بالأمانة... إياك والدماء وسفكها بغير حلها. فإنه ليس شئ أدعى لنقمة. ولا أعظم لتبعة. ولا أحرى بزوال نعمة. وانقطاع مدة. من سفك الدماء بغير حقها... ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد. لأن فيه قود البدن... وإياك والإعجاب بنفسك. والثقة بما يعجبك منها. وحب الاطراء. فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه. يمحق ما يكون من إحسان المحسنين. وإياك والمن على رعيتك بإحسانك. أو التزيد فيما كان من فعلك. أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك. فإن المن يبطل الاحسان. والتزيد يذهب بنور الحق. والخلف يوجب المقت عند الله والناس... وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها. أو التساقط فيها عند إمكانها. أو اللجاجة فيها إذا تنكرت. أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه. وأوقع كل عمل موقعه. وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة. والتغابى عما تعنى به مما قد وضح للعيون. فإنه مأخوذ منك لغيرك.. وعما قليل تنكشف عن أغطية الأمور. وينتصف منك للمظلوم. أملك حمية أنفك. وسورة حدك. وسطوة يدك. وغرب لسانك. واحترس من كل ذلك بكف البادرة. وتأخير السطوة. حتى يسكن غضبك. فتملك الاختيار. ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك... وأنا أسأل الله بسعة رحمته. وعظيم قدرته على أعطاء كل رغبة. أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه. من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه. ومن حسن الثناء فى العباد. وجميل الأثر فى البلاء. وتمام النعمة. وتضعيف الكرامة. وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة. إنا إلى الله راغبون. والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين

[صفحه ۴۸۳]

الطاهرين [۴۹] .

ومن هذا العهد نرى أن الإمام كان يختار الولاة وفقا لقاعدة لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق ثم يزوده بالتعليمات التى تسوق الناس إلى صراط الله المستقيم. ويراقبه بعيون ليس لها مصلحة إلا ابتغاء مرضاة الله. فإن أخطأ الوالى شهد عليه من لا شبهة فيه عند الإمام وعند الناس. ومن هذا كله علمنا أن الإمارة لم تكن فى عهد الإمام وجاهة ونبالة وقتلا من أجل مزيد من الخراج. ولكنها كانت مهمة ترفق بالإنسان لتكون فطرته مهيأة لاستقبال النور. ولقد رأينا من قبل كيف كان الإمام يوصى عماله على الصدقة بالرحمة بالحيوان وأن لا- يحول بين ناقة وبين فصيلها. ولا- يجهدنها ركوبا وليعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها. إلى غير ذلك، فالرحمة كانت عنوانا أصيلا يقف الإنسان تحت ظله شامخا بإنسانيته. وروى عن الإمام أنه قال ": من كانت له إلى فيكم حاجة. فليرفعها فى كتاب. لأصون وجوهكم من المسألة [۵۰] وبهذا تعبر المشاعر

الإنسانية جسورا بزاد الرضى وهى تسلك طريقها إلى ربها.

[۱] ابن أبى الحديد ۱۰۵:۵.

[۲] ابن أبى الحديد ۲۲۶:۵.

[۳] هو قثم ابن العباس.

[۴] ابن أبى الحديد ۲۲۹:۵.

[۵] راجع مصادر نهج البلاغة / السيد الحسينى الخطيب ۴۲۶:۳.

[۶] أى إجعلها كالشعار له.

[۷] فالرعية إما أخوك فى الدين أو إنسان مثلك تقتضى رقة الجنسية وطبع البشرية الرحمة له.

[۸] أى لا تبارزه بالمعاصى.

[۹] أى لا تقل: إنى أمير ووال آمر بالشئ فأطاع.

[۱۰] الإدغال / الإفساد.

[۱۱] ومنهكة للدين: ضعف وسقم.

[۱۲] الغرب: حد السيد.

[۱۳] أی مباراته فی السمو، وهو العلو.

[۱۴] أی قم له بما فرض علیك من العبادات.

[۱۵] سورة الكهف: الآية ۵۱.

[۱۶] سورة المجادلة: الآية ۲۲.

[۱۷] أی: الذی یقبل أدنی عذر ویستریح له ویسكن عنده. ویرفق بالضعفاء ویرحمهم.

[۱۸] أی یتجافی عنهم ویبعد. أی لا یمكنهم من الظلم والتعدی علی الضعفاء.

[۱۹] أی لا یهیج غضبه عنف وقسوة.

[۲۰] أی لیس عاجزا.

[۲۱] أی ممن یخلفونه من أولادهم وأهلیهم.

[۲۲] أی لا تصح نصیحة الجند لك إلا إذا أحبوا أمراءهم ثم لم یستثقلوا دولهم. ولم یتمنوا زوالها.

[۲۳] أی اذكر كل من أبلی منهم مفردا غیر ضموم ذكر بلائه إلی غیره. كی لا یكون مغمورا فی جنب ذكر غیره.

[۲۴] أی تجعله ماحكا. أی لجوجا.

[۲۵] أی إن زل رجع وأناب.

[۲۶] نفس المعنی السابق.

[۲۷] أی لا تشفق.

[۲۸] أی لا یكون قانعا بما یخطر له بادئ الرأی من أمر الخصوم بل یبحث أشد البحث.

[۲۹] أی تضجرا.

[۳۰] أی: اقطعهم وأمضاهم.

[۳۱] هذه إشارة إلی قضاة عثمان وحكامه وإنهم لم یكونوا یقضون بالحق عنده. بل بالهوی لطلب الدنیا.

[۳۲] أی ثقل الخراج المضروب علیهم.

[۳۳] أو علة / أی نحو ما یصیب الغلة آفة كالجراد والبرد.

[۳۴] أی ینقص الماء.

[۳۵] بالة / یعنی المطر.

[۳۶] أی أن الأرض غمرها الغرق وأفسدها.

[۳۷] أی أتلفها.

[۳۸] الأماكن البعیدة.

[۳۹] أی البؤس وأولو الزمانة.

[۴۰] القانع / السائل.

[۴۱] المعتر، الذی یعرض لك ولا یسألك.

[۴۲] أی كل فقراء المسلمین سواء فی سهامهم لیس فیهم أقصی وأدنی.

[۴۳] التافه / الحقیر.

[۴۴] أی تزدریه وتحتقره.

[۴۵] أی فی تأدیة حقه والقیام بفرائضه.

[۴۶] أی غیر مزعج ولا مقلق.

[۴۷] الخرق / الجهل.

[۴۸] أی / الجهل أیضا.

[۴۹] ابن أبی الحدید ۲۳:۵.

[۵۰] العقد الفرید ۲۷۶:۱.

قرار روایة العلم و منع القص

لم یأت قرار روایة العلم إلا بعد أن وقف الإمام علی علی باب مدینة

العلم. روی أنه فی أول خلافته خطب فأرشد الناس إلی کتاب الله وقال ": إن الله تعالی سبحانه أنزل کتابا هادیا بین فیه الخیر والشر. فخذوا نهج الخیر تهتدوا. واصرفوا عن سمت الشر [۱] تقصدوا [۲] الفرائض الفرائض. أدوها إلی الله

تودکم إلی الجنة. إن الله حرم حراما غیر مجهول. وأحل حلالا غیر مدخول. وفضل حرمة المسلم علی الحرم کلها. وشد بالإخلاص والتوحید حقوق

[صفحه ۴۸۴]

المسلمین فی معاقدها [۳] فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ویده إلا

بالحق. ولا یحل أذی المسلم إلا بما یجب [۴] بادروا أمر العامة وخاصة

أحدکم وهو الموت. فإن الناس أمامکم [۵] وإن الساعة تحدوکم من خلفکم. تخففوا تلحقوا. فإنما ینتظر بأولکم أخرکم [۶] اتقوا الله فی عباده وبلاده. فإنکم

مسؤولون حتی عن البقاع والبهائم. وأطیعوا الله ولا تعصوه. وإذا رأیتم الخیر فخذوا به. وإذا رأیتم الشر فأعرضوا عنه [۷] .

فالإمام فی أول خطاب له أمر بأخذ الخیر وترک الشر. وأمر بأداء الفرائض وبین أن الله حرم حراما وأحل حلالا ـ وهذه الأمور لها أبواب. وکما علمنا أن سیاسة القص وعدم الروایة ترکت لها بصمات علی أمور وبطانة السوء ترکت لها بصمات علی أمور أخری. ودخل المنافقون فی عصور الفتوحات بأحادیثهم التی تخدم مصالحهم. ونحن فی هذا المقام سنترک تقسیم رواة هذا العصر لأمیر المؤمنین علی. وبعد أن یحددهم لنا سنری ما هو الباب الذی فتحه أمیر المؤمنین فی أول خطاب له لاغتراف العلم. سئل الإمام عن أحادیث البدع. وعما فی أیدی الناس من اختلاف الخبر. فقال: إن فی أیدی الناس حقا وباطلا. وصدقا وکذبا. وناسخا ومنسوخا. وعاما وخاصا. ومحکما ومتشابها. وحفظا ووهما. ولقد کذب علی رسول الله صلی الله علیه وسلم علی عهده حتی قام خطیبا. فقال: من کذب علی متعمدا فلیتبوأ مقعده من النار، وإنما أتاک الحدیث أربعة رجال. لیس لهم خامس:

[صفحه ۴۸۵]

رجل منافق مظهر لإیمان، متصنع بالإسلام، لا یتأثم ولا یتحرج. یکذب علی رسول الله صلی الله علیه وسلم متعمدا. فلو علم الناس أنه منافق کاذب لم یقبلوا منه. ولم یصدقوا قوله. ولکنهم قالوا: صاحب رسول الله رآه وسمع منه، ولقف عنه. فیأخذون بقوله. وقد أخبرک الله عن المنافقین بما أخبرک. ووصفهم بما وصفهم به لک. ثم بقوا بعده. فتقربوا إلی أئمة الضلالة. والدعاة إلی النار بالزور والبهتان. فولوهم الأعمال. وجعلوهم حکاما علی رقاب الناس فأکلوا بهم الدنیا. وإنما الناس مع الملوک والدنیا. إلا من عصم الله. فهذا أحد

الأربعة. ويفهم من كلام الإمام رضى الله عنه أن الخلفاء بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا المنافقين لأن المنافق يسير بما فى قلبه ويعامله الناس بظاهره. وعندما فتحت البلاد وكثرت الغنائم اختلط المنافقون بالأمراء فى الأمصار فولوهم الأعمال والخلفاء لو كانوا يعرفون المنافقين بأعيانهم ما استطاع الأمراء وضعهم على رقاب الناس. ثم يقول الإمام رضى الله عنه عن الصنف الثانى: ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذبا. فهو فى يديه. ويرويه ويعمل به. ويقول: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه. ولو علم هو أنه كذلك لرفضه. ثم يقول الإمام عن الصنف الثالث: ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا يأمر به ثم إنه نهى عنه وهو لا يعلم أو سمعه ينهى عن شئ ثم أمر به وهو لا يعلم فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه. ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه. ثم يقول الإمام فى الصنف الأخير: وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله. مبغض للكذب خوفا من الله. وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهم بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه. فهو حفظ الناسخ فعمل به. وحفظ المنسوخ فجنب عنه

[صفحه ۴۸۶]

وعرف الخاص والعام. والمحكم والمتشابه. فوضع كل شئ موضعه. وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام له وجهان: فكلام خاص، وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمله السامع. ويوجهه على غير معرفة بمعناه. وما قصد به وما خرج به أجله. وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه. حتى إن كانوا يحبون أن يجئ الأعرابى والطارئ فيسأله عليه الصلاة والسلام حتى يسمعوا. وكان لا يمر بى من ذلك شئ إلا سألته عنه وحفظته. فهذه وجوه ما عليه الناس فى اختلافهم وعللهم فى رواياتهم [۸] .

وقول الإمام إنه كان لا يمر به شئ من ذلك إلا سأل النبى عنه وحفظه له شواهد كثيرة. فعلاوة على أنه كان لا يفارق النبى فى مواطن كثيرة. فإنه كان له من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخلان مدخل بالليل ومدخل بالنهار [۹] يقول له فيهما ما غاب عنه ويفسر له فيهما ما استفسر عنه. وحفظ على رضى الله عنه لجميع ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فى حديث صحيح وذلك فى قوله تعالى: (وتعيها أذن واعية) فعن على قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألت الله أن يجعلها أذنك يا على. فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسيته [" ۱۰] ، ولذا كان على يقول ": إن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا ناطقا [" ۱۱] ، وقال": سلونى عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار فى سهل أم فى جبل [" ۱۲] ، وهذا كله كان لحكمة من ورائها هدف. وهذا الهدف يشع فى أحاديث رواها أئمة الحديث عند قوله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)

[صفحه ۴۸۷]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الهادى هو على بن أبى طالب [" ۱۳] .

وبعد أن بين الإمام مصادر الرواية بين ما ترتب على ذلك من اختلاف: ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام. فيحكم فيها برأيه. ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره. فيحكم فيها بخلاف قوله. ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم. فيصوب آراءهم جميعا وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد. أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه. أم نهاهم عنه فعصوا. أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه. والله تعالى يقول: (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) [۱۴] ، وفيه تبيان كل شئ. وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنا لا اختلاف فيه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [۱۵] ، وأن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق. لا تفنى عجائبه. ولا تنقضى غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به [" ۱۶] .

وبعد أن بين الإمام اختلاف الرواة وما ترتب عليه من اختلاف الفتوى. فتح أبواب البحث: أيها الناس إنه من استنصح الله وفق. ومن اتخذ قوله دليلا هدى للتى هى أقوم. فإن جار الله آمن. وعدوه خائف. وإنه لا ينبغى لمن عرف عظمة الله أن يتعظم. فإن رفعة الذين

یعلمون ما عظمته أن یتواضعوا له. وسلامة الذین یعلمون ما قدرته أن یستسلموا له. فلا تنفروا من الحق نفار الصحیح من الأجرب. والبارى من ذی السقم. واعلموا أنکم لن تعرفوا الرشد حتی تعرفوا الذی ترکه. ولن تأخذوا بمیثاق الکتاب حتی تعرفوا الذی نقضه. ولن تمسکوا به حتی تعرفوا الذی نبذه. فالتمسوا ذلک عند أهله. فإنهم عیش العلم. وموت الجهل، هم الذین یخبرکم حکمهم عن علمهم. وصمتهم عن منطقهم. وظاهرهم عن باطنهم، لا یخالفون الدین ولا یختلفون فیه. فهو بینهم شاهد

[صفحه ۴۸۸]

صادق. وصامت ناطق [" ۱۷] .

ومما سبق علمنا أن الإمام علی أمر بأخذ الخیر وترک الشر. ثم بین ما فی أیدی الناس من اختلاف الخبر. وما ترتب علی ذلک من الاختلاف فی الفتوی لتعدد الآراء. ثم فتح الإمام طریق البحث للوقوف علی أسباب ذلک وقال ": واعلموا أنکم لن تعرفوا الرشد حتی تعرفوا الذی ترکه " ثم ساق الباحث إلی کتاب الله لیقف عند الذی نقضه. ثم اختصر المسافة للتیسیر علی الباحث فبین أن المعرفة والأخذ بمیثاق الکتاب والتمسک به جمیع ذلک فی دائرة " أهله " وهو قوله ": فالتمسوا ذلک عند أهله " وروی أنه قال فی أول خطبة خطبها فی خلافته: ألا إن أبرار عترتی وأطایب أرومتی. أحکم الناس صغارا. وأعلم الناس کبارا. ألا وإنا أهل بیت من علم الله علمنا. وبحکم الله حکمنا. ومن قول صادق سمعنا. فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا [" ۱۸] ، وقال ": نحن الشعار والأصحاب. والخزنة والأبواب. لا تؤتی البیوت إلا من أبوابها فمن آتاها من غیر أبوابها سمی سارقا [" ۱۹] ، وقال فی أهل البیت ": هم عیش العلم. وموت الجهل، یخبرکم حلمهم عن علمهم. وظاهرهم عن باطنهم. وصمتهم عن حکمة منطقهم. لا یخالفون الحق ولا یختلفون علیه. وهم دعائم الإسلام. وولائج الاعتصام [" ۲۰] .

ومن الطبیعی أن النص وروایة شعر المجون لا مجال لهما فی هذه المساحة الزمنیة والمکانیة. ومن الطبیعی أن توجیه الدعوة للبحث یقتضی عودة الروایة عن رسول الله صلی الله علیه وسلم. ولقد حث الإمام علی تدارس الحدیث وقال ": تزاوروا وتدارسوا الحدیث ولا تترکوه یدرس (أی اقرأوه

[صفحه ۴۸۹]

وتعهدوه لئلا تنسوه) [۲۱] ، وحذر الإمام من خلط الحدیث بما کان یجری بالساحة من فعل وخلافة. فقال ": تعلموا العلم. فإذا علمتموه فاکظموا علیه. ولا تخالطوه بضحک وباطل فتمحه القلوب [۲۲] وزیادة فی الاحتیاط رد کل علم إلی عالمه حتی لا تخترق الروایة فقال: " إذا قرأت العلم علی العالم فلا بأس أن ترویه عنه [" ۲۳] ، ثم بشر الذین یروون الحدیث فقال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": اللهم ارحم خلفائی (ثلاث مرات) قیل یا رسول الله: ومن خلفاؤک؟ قال: الذین یأتون من بعدی ویروون أحادیثی ویعلمونها للناس [" ۲۴] .

أما بخصوص انسحاب القص روی عن أبی البحتری: قال: دخل علی بن أبی طالب المسجد، فإذا رجل یخوف. فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل یذکر الناس. فقال: لیس برجل یذکر الناس. ولکنه یقول: أنا فلان بن فلان اعرفونی. فأرسل إلیه. فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، فقال أمیر المؤمنین: فاخرج من مسجدنا ولا تذکر فیه [۲۵] .

وروی مسدد بسند صحیح عن سعید بن هند. أن علیا مر بقاص فقال: ما یقول؟ قالوا: یقص، قال: لا ولکن یقول اعرفونی [۲۶] ، وعن أبی یحیی قال: مر علی وأنا أقص فقال: هل عرفت الناسخ من المنسوخ؟ قلت: لا، قال: أنت أبو اعرفونی [" ۲۷] .

والسیاسة الإعلامیة (إعرفونی) هی التی تقدم الناس إلی العامة بعد أن تنسج حولهم خیوطا براقة کما ساعدت علی إیجاد شخصیات خرافیة وقصص خرافیة تخدم مصالح معینة. وکما انسحب القص انسحب شعر الجاهلیة والأدیرة

[صفحه ۴۹۰]

والخمور، وروی ابن أبی الحدید. أن علیا کان یأمر بمحاربة شعراء أهل الشام الذین یروجون شعر الأدیرة، وروی أن کعب بن جعیل

عندما شرب الخمر وأقام على بن أبى طالب عليه الحد. غضب ولحق بمعاويهٔ وهجا عليا [" ۲۸] ، ولما كانت الخمور زادا للشعراء والقصاصين فإن أمير المؤمنين حرق مركز صناعتها وذلك فيما رواه ربيعهٔ بن زكار قال: نظر على بن أبى طالب إلى قريهٔ. فقال: ما هذه القريهٔ؟ قالوا: قريهٔ تدعى زرارهٔ يلحن فيها ويباع فيها الخمر. فأتاها بالنيران وقال: إضرموها: فإن الخبيث يأكل بعضه بعضا. فاحترقت [۲۹] ، وكان على رضى الله عنه يوصى الشعراء بتعلم القرآن. وإذا كانت الإصلاحات العلوية قد شملت عزل الأمراء والتسوية فى الأموال والرحمهٔ بالإنسان والحيوان والعودهٔ إلى روايهٔ العلم كما كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه الإصلاحات فتحت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب أبوابا دخلت منها أصناف من الصدود. فنبلاء قريش وطبقتها العليا منهم من وجد أن عليا ساوى بينه وبين الطبقهٔ السفلى فتحركت فيهم مشاعر لا تختلف كثيرا عن مشاعر الذين شعروا بالضجر يوم أن ساوى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وبين بلال وخباب وعمار وغيرهم. وهؤلاء إما فروا إلى معاويهٔ فى الشام وإما تفرغوا للكيد داخل القوات الإسلامية العلوية. ومنهم من وجد أن عودهٔ الروايهٔ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستظهر فضل على بن أبى طالب لا محالهٔ وستدين أطرافا أخرى بصورهٔ من الصور فوجدوا أن السبيل لقطع هذا الطريق هو تشكيك الناس فى على بن أبى طالب بأنه ليس وحده من أهل البيت وأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من أهل البيت أيضا ولهن ماله وعليهن ما عليه وأن خروجه على إحداهن هو شق لصف أهل البيت. والذين ذهبوا إلى هذا المسلك استندوا على عمق مساحهٔ اللاروايهٔ وما ترتب عليها من نسيان أو تناس للروايهٔ فضلا على وجود جيل كامل فى الأمصار

[صفحه ۴۹۱]

لم يسمع من النبى ولم يره وكثير منهم استمد علومه من فقهاء الأمراء وهى علوم لن تنصف على بن أبى طالب فى أكثر الأحوال. ومنهم أيضا من كان يطمع فى الكرسى بعد أن مهد يوم الشورى الطريق له كى يحلم بهذه الأحلام. ومن الأصناف الذين وجدوا فى الاصلاح العلوى عقبهٔ فى طريقهم. صنف عمل على امتداد تاريخه فى الجاهلية والإسلام من أجل الملك وحده. وذلك بعد استحواذ بنى هاشم على مفاخر قريش فى الجاهليهٔ واختيار الله لهم فى الإسلام. فهذه الأمور أصابت أطرافا أخرى بعقدهٔ النقص. ولو ردوا كل شئ إلى الله ما أصابتهم هذه العقد. ونرى قبل تسليط الضوء على هذه الأمور أن نلقى نظرهٔ سريعهٔ على القيادهٔ التى قامت بهذه الإصلاحات لنرى هل القيادهٔ كانت تعمل من أجل الكرسى. أم أن المال مطلبها. أم أنها كانت قيادهٔ الحجهٔ. قيادهٔ الزهد رداؤها وسيفها هو سيف الزهد ابتغاء وجه الله.

[۱] أى أعرضوا عن طريقه.

[۲] تقصدوا: أى تعدلوا. والقصد: العدل.

[۳] لأن الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظهٔ على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

[۴] أى إلا بحق.

[۵] أى سبقوكم.

[۶] أى إنما ينتظر ببعث الموتى المتقدمين أن يموت الأواخر أيضا. فيبعث الكل جميعا فى وقت واحد.

[۷] ابن أبى الحديد ۳:۳۳۷.

[۸] ابن أبى الحديد ۳:۵۹۱.

[۹] رواه النسائى ۱۲:۲.

[۱۰] رواه الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم (كنز العمال ۱۳:۱۷۷.

[۱۱] الطبقات الكبرى ۲:۳۳۸.

[۱۲] الطبقات ۲:۳۳۸.

[۱۳] رواه ابن جریر (الفتح الربانی ۱۸۵:۱۸).

[۱۴] سورة الأنعام: الآیة ۳۸.

[۱۵] سورة النساء: الآیة ۸۲.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۲۳۳:۱.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۲۰۳:۳.

[۱۸] ابن أبی الحدید.

[۱۹] ابن أبی الحدید ۲۴۷:۳.

[۲۰] ابن أبی الحدید ۲۸۷:۴.

[۲۱] الخطیب (کنز العمال ۳۰۴:۱۰).

[۲۲] عبد الله بن الإمام أحمد والخطیب (کنز العمال ۳۰۴:۱۰).

[۲۳] المرهبی (کنز العمال ۲۹۴:۱۰).

[۲۴] الطبرانی والخطیب والدیلمی وابن النجار (کنز العمال ۲۹۵:۱۰).

[۲۵] العسکری والمرزوی (کنز العمال ۲۸۱:۱۰).

[۲۶] مسدد (کنز العمال ۲۸۲:۱۰).

[۲۷] المرزوی (کنز العمال ۲۸۱:۱۰).

[۲۸] ابن أبی الحدید ۷۹۹:۱.

[۲۹] أبو عبید (کنز العمال ۵۰۴:۵).

العالم العامل الزاهد

یقول الإمام الزاهد علی بن أبی طالب رضی الله عنه ": إنی متکلم بعدة الله

وحجته. قال الله تعالی: (إن الذین قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل علیهم الملائکة. أن لا تخافوا ولا تحزنوا...)، وقد قلتم ": ربنا الله" فاستقیموا علی کتابه. وعلی منهاج أمره. وعلی الطریقة الصالحة من عبادته. ثم لا تمرقوا منها. ولا تبتدعوا فیها [۱] ولا تخالفوا عنها. فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله یوم

القیامة [" ۲] ، وقال ": فالله الله معشر العباد. وأنتم سالمون فی الصحة قبل السقم. وفی الفسحة قبل الضیق. فاسعوا فکاک رقابکم. من قبل أن تغلق رهائنها. اسهروا عیونکم. وأضمروا بطونکم. واستعملوا أقدامکم. وأنفقوا أموالکم. وخذوا من أجسادکم فجودوا بها علی أنفسکم. ولا تبخلوا بها عنها. فقال قال

[صفحه ۴۹۲]

الله سبحانه: (إن تنصروا الله ینصرکم ویثبت أقدامکم) [۳] ، وقال تعالی: (من ذا الذی یقرض الله قرضا حسنا فیضاعفه له وله أجر کریم) [۴] ، فلم یستنصرکم من ذل. ولم یستقرضکم من قل. استنصرکم وله جنود السماوات والأرض وهو العزیز الحکیم. واستقرضکم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغنی الحمید. وإنما أراد أن یبلوکم أیکم أحسن عملا. فبادروا بأعمالکم تکونوا مع جیران الله فی داره. رافق بهم رسله. وأزارهم ملائکته. وأکرم أسماعهم أن تسمع حسیس نار أبدا. وصان أجسادهم أن تلقی لغوبا ونصبا ": ذلک فضل الله یؤتیه من یشاء والله ذو الفضل العظیم [" ۵] .

مما سبق یتبین أن المتکلم حجة. همته بالله وشغله فیه وفراره إلیه. وکان الإمام یقول مخاطبا ساحة عریضة اکتنز فیها الذهب والفضة"

لطلب المال والثروة أسرع من خراب دين الرجل من ذئبين ضاريين باتا فى حظيرة غنم. ما زالا فيها حتى أصبحا [۶] ، وقال ": الزهد كله بين كلمتين من القرآن. " قال الله سبحانه: - (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) [۷] ، ومن لم يأس على الماضى ولم يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه [" ۸] ، وقال ": فلا تنافسوا فى عز الدنيا وفخرها. ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها. ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها. فإن عزها وفخرها إلى انقطاع. وزينتها ونعيمها إلى زوال. وضراءها وبؤسها إلى نفاد. وكل مدة فيها إلى انتهاء. وكل حى فيها إلى فناء. أوليس لكم فى آثار الأولين مزدجر. وفى آبائكم الأولين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون. أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون. وإلى الخلف الباقين لا يبقون. أو لستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى: فميت يبكى. وآخر به يعزى

[صفحه ۴۹۳]

وصريع مبتلى. وعائد يعود وآخر بنفسه يجود. وطالب للدنيا الموت يطلبه. وغافل وليس بمغفول عنه [".. ۹] ، وقال ": أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ضرب الأمثال، ووقت لكم الآجال. وألبسكم الرياش [۱۰] وأرفغ لكم

المعاش [۱۱] وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد [۱۲] لكم الجزاء. وآثركم بالنعم

السوابغ، والرفد الروافغ [۱۳] وأنذركم بالحجج البوالغ [۱۴] فأحصاكم عددا.

ووظف لكم مددا. وفى قرارة خبرة. ودار عبرة. وأنتم مختبرون فيها. ومحاسبون عليها [" ۱۵] .

فهكذا كان أمير المؤمنين يخاطب رقعة واسعة عليها العديد من النبلاء. وكان أمير المؤمنين خير قدوة لسياسة الدنيا والآخرة. يقول الشعبى: دخلت الكوفة وأنا غلام. فإذا أنا بعلى بن أبى طالب قائما على صبرتين [۱۶] من ذهب وفضة. ومعه محفظة. وهو يطرد الناس بمحفظته. ثم يرجع إلى المال فيقسمه. بين الناس. حتى لم يبق منه شيئا. ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا. فرجعت إلى أبى فقلت له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحمق الناس. قال: من هو يا بنى؟ قلت: على بن أبى طالب أمير المؤمنين. رأيته يصنع كذا. فقصصت عليه، فبكى أبى وقال: يا بنى بل رأيت خير الناس [۱۷] ، وروى ابن كثير عن ابن عنترة عن أبيه قال: دخلت على على بن أبى طالب وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد. فقلت: يا أمير المؤمنين. إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيبا فى هذا المال وأنت ترعد من البرد. فقال: إنى والله لا أرزأ من مالكم شيئا. وهذه

[صفحه ۴۹۴]

القطيفة هى التى خرجت بها من بيتى - أو قال - من المدينة [۱۸] ، وروى أن عليا قال: أيها الناس والله الذى لا إله إلا هو ما رزأت من مالكم قليلا ولا كثيرا إلا هذه. وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب وقال: أهداها إلى داهقان [۱۹] وروى أنه كان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير الذى يأكل منه. ويقول: لا أحب أن يدخل بطنى إلا ما أعلم [۲۰] ، وروى أنه لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وكان يأتى بحبوبة من المدينة فى جراب ليأكل منها [۲۱] وروى أنه كان يكنس بيت المال كل جمعة ويصلى فيه ركعتين ويقول: ليشهد لى يوم القيامة [۲۲] .

والإمام على بن أبى طالب لم يطالب بفدك وهى حقه. ليس لأن الزمان كان زمان ثورة على المال والذهب والفضة ومطالبته بها سيفتح عليه أبوابا. وإنما لأن فدك كانت ابتلاء لعصر. وإذا كان الإمام لم يأخذ حقه ومفتاح بيت المال فى يده. فهو أيضا لم يطالب بفدك وهو على رأس السلطة. وذلك لأنه كان يتعامل مع الأحداث من باب إقامة الحجة ووفقا لمتطلبات الدعوة أما عن أمواله روى أنه قال ": بلى كانت فى أيدينا فدك. من كل ما أظلته السماء. فشحت عليها نفوس قوم. وسخت عنها نفوس أخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك [" ۲۳] ، وشرح ابن أبى الحديد كلام الإمام فقال: أبى لا مال لى. ولا اقتنيت فيما مضى مالا. وإنما كانت فى أيدينا فدك. فشحت عليها نفوس قوم (أى نحلت) وسخت عنها نفوس آخرين. (أى سامحت واغضت)، ثم بين الإمام بعد ذلك. أن تقلله واقتصاره من المطعم والملبس على الجشب والخشن رياضة لنفسه. وأنه يعمل ذلك خوفا من الله. فالرياضة هنا هى

ریاضة فی الحقیقة

[صفحه ۴۹۵]

بالتقوی لا بنفس التقلل والتقشف. لتأتی نفسه آمنة یوم الفزع الأکبر وتثبت فی مداحض الزلق [۲۴] .

وهکذا ترک الإمام الذی له. وعلی مقربة منه جاء قوم لیأخذوا ما لیس لهم. لیکون الذی للإمام حجة علیهم ولقد رأینا مما سبق بعض معالم الحکومة الدینیة التی تفتح أبواب التوبة فترسی قواعد حریة الإنسان مما یتوافق مع فطرته التی فطره الله علیها. ولقد رأینا أن الإمام لم یفرض نفسه ولم یهدد معارضیه. ونشر العلم ولم یتصد للقصاصین وغیرهم بقوة السلاح وإنما بقوة الحجة. ولم یبعث العمال علی الأمصار لهدف جمع الأموال وإنما لیکونوا دعاة رحمة یستظل بها الإنسان والحیوان. وکان الإمام أمام هذه المساحة الطویلة والعریضة قدوة ومثل أعلی للعامة والخاصة.

[صفحه ۴۹۷]

[۱] أی لا تحدثوا ما لم یأت به الکتاب والسنة.

[۲] ابن أبی الحدید ۳۸۵:۳.

[۳] سورة محمد: الآیة ۷.

[۴] سورة الحدید: الآیة ۱۱.

[۵] ابن أبی الحدید ۴۵۴:۳.

[۶] رواه العسکری فی المواعظ (کنز العمال ۷۱۸:۳).

[۷] سورة الحدید: الآیة ۲۳.

[۸] ابن أبی الحدید ۷۹۵:۳.

[۹] ابن أبی الحدید ۶۳۲:۲.

[۱۰] الریاش / اللباس.

[۱۱] أرفغ / أی واسعا خصبا.

[۱۲] أرصد / أی أعد.

[۱۳] الرفد الروافغ / الواسعة.

[۱۴] أی الظاهرة المبنیة.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۴۲۹:۲.

[۱۶] أی ما جمع بلا کیل ولا وزن.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۴۱۴ / ۱.

[۱۸] البدایة والنهایة ۳:۸.

[۱۹] رواه مسدد والحاکم (کنز العمال ۱۶۸:۱۳).

[۲۰] الکامل ۲۰۱:۳.

[۲۱] الکامل ۲۰۱:۳.

[۲۲] الإمام أحمد فی الزهد (کنز العمال ۱۸۲:۱۳).

[۲۳] ابن أبی الحدید ۸۲۳:۴.

[۲۴] ابن أبی الحدید ۸۲۴:۴.

البغاة والقمر

بعد مقتل عثمان انطلق النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية. وفى الشام بدأ إعلام معاوية يعبأ الناس حول القميص. وعندما اطمئن معاوية لنتيجة سياسته الإعلامية. روى ابن كثير أنه بعث رجلا فدخل على على بن أبى طالب. وعندما قال له على: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود. كلهم موتور. تركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو على منبر دمشق. فقال على: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان [۱] .

لقد كانت هذه رسالة مبكرة من معاوية بعد أن أراد أمير المؤمنين عزله من على الشام. وبدأ إعلام بنى أمية يبث فى الأمصار أن عثمان قتل مظلوما وأن عليا اشترك فى دمه. وعندما علم أمير المؤمنين بهذا قال ": أولم ينه بنى أمية علمها عن قرفى؟ أو ما وزع الجهال سابقتى عن تهمتى؟ ولما وعظمهم الله به أبلغ من لسانى. أنا حجيج المارقين. وخصيم الناكثين المرتابين. وعلى كتاب الله تعرض الأمثال. وبما فى الصدور نجازى العباد قال ابن أبى الحديد ومعناه: أما كان فى علم بنى أمية بحالى ما ينهاها عن قرفى بدم عثمان. وذكر أن علمهم بها يقتضى ألا يقرفوه بذلك. وحاله التى يعلمها بنو أمية. هى منزلته فى الدين التى لا منزلة

[صفحه ۴۹۸]

أعلى منها. وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته فى قوله ": إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " وأيضا قول النبى صلى الله عليه وسلم ": أنت منى بمنزلة هارون من موسى " وذلك يقتضى عصمته عن الدم الحرام كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك... فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين. مع علمهم بمنزلته العالية فى الدين التى لم يصل إليها أحد من المسلمين. أن يطلقوا ألسنتهم فيه وينسبوه إلى قتل عثمان أو الممالأة عليه. لا سيما وقد ثبت عندهم أنه كان من أنصاره لا من المجلبين عليه. ثم قال: إن الذى وعظهم الله تعالى به فى القرآن. من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظى لهم. لأنه لا عظة أبلغ من عظة القرآن. ثم قال: أنا حجيج المارقين وخصيم المرتابين يوم القيامة وروى عنه أنه قال: أنا أول من يجثوا للحكومة بين يدى الله تعالى، " ثم أشار إلى ذلك بقوله: على كتاب الله تعرض الأمثال. يريد بذلك قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) [۲] ، ثم قال: إن كنت قتلت عثمان أو مالأت عليه. فإن الله سبحانه سيجازينى بذلك. وإلا فسوف يجازى بالعقوبة والعذاب من اتهمنى به ونسبنى إليه [۳] .

لقد أرادوا باتهام أمير المؤمنين فى دم عثمان أمورا منها: إخراجه من دائرة التطهير التى ستظهرها رواية الحديث فى عهده، وهم يريدون إخراجه من هذه الدائرة ليسهل عليهم مواجهته وتعبئة العامة من حولهم على اعتبار أنهم أولياء عثمان والأحق به. أى يجردونه من الرداء الذى وضعه عليه الله ورسوله. بينما يكون على أبدان بنى أمية رداء تأويل قوله تعالى: (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل) [۴] ، فيكونون هم فى دائرة الدين. ويكون أمير المؤمنين واحدا من الناس حرص على الحكم ليجعله فى أعقابه.

[صفحه ۴۹۹]

ولقد بلغ الإعلام الأموى مداه حتى أن الأمر قد التبس عند العديد من الصحابة فهذا زيد من أرقم يقول لأمير المؤمنين على، أنشدك الله، أنت قتلت عثمان؟ فأطرق الإمام ساعة ثم قال: والذى فلق الحبة. وبرأ النسمة ما قتلت ولا أمرت بقتله [۵] وأمام طوفان الإعلام الأموى خطب الإمام على فى الناس فقال:

لو أمرت به لكنت قاتلا. أو نهيت عنه لكنت ناصرا. غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه. ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير منى. وأنا جامع لكم أمره. استأثر فأساء الأثرة. وجزعتم فأسأتم الجزع. ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع [۶] وخلاصة هذا الكلام: أنه فعل ما لا

يجوز وفعلتم ما لا يجوز. أما هو فاستأثر فأساء الأثرة. أى استبد بالأمور فأساء فى الاستبداد. وأما أنتم فجزعتم مما فعل. أى حزنتم فأسأتم الجزع. لأنكم قتلتموه. وقد كان الواجب عليه أن يرجع عن استئثاره. وكان الواجب عليكم ألا تجعلوا جراءه عما أذنب القتل. بل الخلع والحبس وترتيب غيره فى الإمامة. ثم قال: ولله حكم سيحكم به فيه وفيكم [۷] .

وأما هذه الأحداث طلب منه قوم من أصحابه أن يعاقب من أجلب على عثمان. ولكن من هؤلاء الذين سيعاقبهم الإمام؟ وهناك من مهد ومن أفتى ومن ناصر القتلة ومن خذل المقتول ومن قتل. ولهذا قال الإمام لأصحابه: يا إخوتاه، إنى لست أجهل ما تعلمون. ولكن كيف لى بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم!! دهاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفت إليهم أعرابكم [۸] (لاحظ أن المجلبين هنا ليسوا فى جيش الإمام) وهم خلالكم [۹] يسومونكم [۱۰] ما شاؤوا. وهل ترون موضعا لقدرة على شئ تريدونه؟

[صفحه ۵۰۰]

إن هذا الأمر أمر جاهلية. وإن لهؤلاء القوم مادة. إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون. وفرقة ترى ما لا ترون. وفرقة لا ترى هذا ولا هذا. فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها. وتؤخذ الحقوق مسمحة. فأهدأوا عنى [۱۱] ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى. ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة [۱۲] وتسقط منه [۱۳] وتورث وهنا [۱۴] وذلة. وسأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى [۱۵] قال ابن أبى الحديد: واعلم أن

هذا الكلام يدل على أنه كان فى نفسه عقاب الذين حصروا عثمان والاقتصاص ممن قتله. ولهذا قال: إنى لست أجهل ما تعلمون. فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك. واعتذر بعدم التمكن كما ينبغى. وصدق فى ذلك. فإن أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه... ولا يأمن لو شرع فى عقوبة الناس والقبض عليهم. من تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم. فكان الأصوب فى التدبير. والذى يوجبه الشرع والعقل. الامساك إلى حين سكون الفتنة... وكان يأمل أن يطيعه معاوية وغيره وأن يحضر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم. ويعينون قوما بأعيانهم. بعضهم للقتل. وبعضهم للحصار. وبعضهم للتشور. كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضى. فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى. ولكن الأمر لم يقع على هذا النحو. وعصى معاوية وأهل الشام. والتجأ ورثة عثمان إليه. وفارقوا أمير المؤمنين. ولم يطلبوا القصاص طلبا شرعيا. وإنما طلبوه مغالبة. وجعلها معاوية عصبية جاهلية. ولم يأت أحد منهم الأمر من بابه. وقد قال أمير المؤمنين لمعاوية فيما بعد: (فأما طلبك قتلة عثمان فادخل فى الطاعة. وحاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله وسنة رسوله... وهذا عين الحق. ومحض الصواب لأنه يجب دخول الناس فى طاعة الإمام ثم تقع المحاكمة

[صفحه ۵۰۱]

إليه [۱۶] ولكن بنى أمية ما كانوا يريدون حقا لأن الحق وضعهم ورفع غيرهم.

وجوهر الأمر لم يكن قتلة عثمان وإنما الملك وكان الإمام على يعلم هذا ولهذا قال ": وسأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى " أى: أمسك نفسى عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكننى وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم. واجتهد فى ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب. فإذا لم أجد بدا من الحرب. فآخر الدواء الكى. أى الحرب. لأنها الغاية التى ينتهى أمر العصاة إليها. لقد كان الإمام يعلم أن هؤلاء هدفهم الحكم وليس قميص عثمان إلا رمزا وشعارا، ولهذا قال: لو أعلم أن بنى أمية يذهب ما فى نفوسها. لحلفت لهم خمسين يمينا مردودة بين الركن والمقام. أنى لم أقتل عثمان. ولم أمال على قتله [۱۷] وقال ": أما بنو أمية هيهات هيهات أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لو كان الملك من وراء الجبال. ليثبوا عليه حتى يصلوا [" ۱۸] ، والإمام قال ذلك لأنه سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا. فعن ثروان قال: كنا جلوسا فى المسجد. فمر علينا عمار بن ياسر. فقلنا له: حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفتنة. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يكون بعدى قوم يأخذون الملك. يقتل عليه بعضهم بعضا. قلنا له: لو حدثنا غيرك ما صدقناه قال: فإنه سيكون [۱۹] فالملك لو

كـان من وراء الجبـال لوثب عليه بنو أميـة. ولا يقتلون عليه من خالفهم إن كان من غيرهم فقط. وإنما يقتلون أيضا بعضـهم بعضا عليه. وفى نص سابق علمنا أن الإمام عليا أخذ على نفسه أن يراسل القوم

[صفحه ۵۰۲]

وينـذرهم ويجتهـد فى ردهم إلى الطاعـة. وقد فعل رضـى الله عنه ذلك ليقيم على الظالمين الحجة أمام الله جل وعلا. وروى أنه كتب إلى معاويـة ": أما بعد. فقد علمت إعذارى فيكم. وإعراضـى عنكم. حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له. والحديث طويل. والكلام كثير. وقـد أدبر ما أدبر. وأقبل ما أقبل. فبايع من قبلك. وأقبل إلى فى وفـد من أصـحابك [" ۲۰] ، لقـد أقام الحجـة وهو يعلم أن معاوية له يبايع. وكيف يبايع وعينه طامحة إلى الملك والرئاسة منذ أمره عمر على الشام. ومن خلفه وصية أمه وأبيه. وكيف يطيع عليا وبين على بن أبى طالب وبين النبى صـلى الله عليه وسـلم مساحـة واسـعة من اللاروايـة ومساحة أوسع من القص وعليها من المحرضـين على على أكثر من عدد الحصى ويكفى الوليد بن عقبة الذى بعث إلى معاوية يقول:

فوالله ما هند بأمك إن مضى++

النهار ولم يثأر بعثمان ثائر

أيقتل عبد القوم سيد أهله++

ولم تقتلوه ليت أمك عاقر

يقول ابن أبى الحديد: وتالله لو سـمع هذا التحريض أجبن الناس وأضعفهم نفسا وأنقصهم همه لحركه وشحذ من عزمه فكيف معاوية. وقد أيقظ الوليد بشعره من لا ينام [۲۱] ولم يكتف أمير المؤمنين برسالـة واحـدة إلى معاوية. وإنما بعث إليه بأكثر من رسالة بعد بيعته بخصوص دم عثمان. وفى رسالة قال له: ولعمرى يا معاوية. لئن نظرت بعقلك دون هواك. لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان. ولتعلمن أنى كنت فى عزله عنه. إلا أن تتجنى. فتجن ما بدا لك. والسلام [۲۲] .

ولم يكف الإعلام الأموى عن الباطل بل بعث إلى مكـة وبقيـة الأمصار بمن يحملون إذاعته ويعملون من أجل شق صف الأمـة. وفى هذا الوقت استأذن طلحة والزبير عليا فى العمرة فأذن لهما فلحقا

[صفحه ۵۰۳]

بمكة [۲۳] وبدأ أهل المدينة يحومون حول أمير المؤمنين، ليعرفوا رأيه فى معاوية، وقتال أهل القبلة. أيجسر عليه أم ينكل عنه. ووجد أهل المدينـة فى زياد بن حنظلـة التميمى ضالتهم المنشودة. فـدسوا زيادا إلى على وكان من الـذين يـدخلون عليه. وذات يوم قال أمير المؤمنين لزياد: يا زياد تيسـر. فقال: لأى شـئ. فقال الإمام: تغزو الشام فخرج زياد على الناس والناس ينتظرونه. فقالوا: ما وراءك؟ قال: السـيف يا قوم [۲۴] وبـدأ الإمـام على يجهز قواته ليضـرب الفرقـة وطلاـب الملـك عنـد المهـد وقبل أن يسـتفحل الأمر. وخطب أهل المدينـة. فـدعاهم إلى النهوض فى قتال أهل الفرقـة. وقال: إن الله عز وجل بعث رسولا هاديا مهـديا بكتاب ناطق. وأمر قائم واضح. لا يهلك عنه إلا هالك. وإن المبتدعات والشـبهات هن المهلكات. إلا من حفظ الله. وإن فى سـلطان الله عصـمة أمركم. فاعطوه طاعتكم غير ملتويـة. ولا مسـتكره بها. والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سـلطان الإسـلام. ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأرز الأمر إليها. إنهضوا إلى هؤلاء القوم الـذين يريـدون يفرقون جماعتكم لعل الله يصـلح بكم ما أفسـد أهل الآفاق وتقضون الذى عليكم [۲۵] ، وبينمـا كان أمير المؤمنين يحشـد القوة لمواجهة أهل الشام [۲۶] جاءه الخبر أن مكـة قـد هاجت وأن أم المؤمنين عائشـة وطلحة والزبير لهم رأى آخر، واشتد على أهل المدينة الأمر!!

[۱] البداية والنهاية ۷:۲۳۰.

[۲] سورة الحج: الآية ۱۹.

[۳] ابن أبى الحديد ۲:۳۷۹.

[۴] سورة الإسراء: الآیة ۳۳.

[۵] رواه الحاکم (المستدرک ۳:۱۰۶).

[۶] ابن أبی الحدید ۱:۳۶۳.

[۷] ابن أبی الحدید ۱:۳۶۵.

[۸] أی انضمت واختلطت بهم.

[۹] أی بینکم.

[۱۰] أی یکلفونکم.

[۱۱] أی فاسکتوا.

[۱۲] أی تضعف وتهد.

[۱۳] منة / القوة.

[۱۴] وهن / ضعف.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۱:۳۳۹، الطبری حوادث عام ۳۵.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۳:۳۴۰.

[۱۷] اللالکائی (کنز العمال ۱۳:۹۱).

[۱۸] ابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۳۶۴).

[۱۹] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۳:۲۴) وقال الهیثمی رواه أحمد والطبرانی وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۷:۲۹۲).

[۲۰] ابن أبی الحدید ۵:۲۴۷.

[۲۱] ابن أبی الحدید ۵:۲۴۸.

[۲۲] ابن أبی الحدید ۴:۳۱۱.

[۲۳] ابن أبی الحدید ۱۶۳.

[۲۴] الطبری ۵:۱۶۳.

[۲۵] الطبری ۵:۱۶۴.

[۲۶] الطبری ۵:۱۶۹.

ضجیج فی أعماق الحجة

کانت مکة منطلقا للأحداث بین أم المؤمنین عائشة وبین أمیر المؤمنین

علی، وبالنظر فی خطب أمیر المؤمنین بعد نکث طلحة والزبیر وخروج أم المؤمنین عائشة. تری أن جمیع الخطب تدور علی محور واحد هو... ": فإنه لما قبض الله نبیه صلی الله علیه وسلم. قلنا: نحن أهله وورثته وعترته.

[صفحه ۵۰۴]

وأولیاؤه من دون الناس. لا ینازعنا سلطانه أحد ولا یطمع فی حقنا طامع. إذ انبری لنا قومنا فغصبونا سلطان نبینا. فصارت الإمرة لغیرنا. وصرنا سوقة. یطمع فینا الضعیف. ویتعزز علینا الذلیل ["..... ۱] ، وفی جمیع هذه الخطب یبین الإمام مبایعة الناس له بعد مقتل عثمان وأن من بین الذین بایعوه طلحة والزبیر. وقد نکثا وغدرا ونهضا إلی البصرة بعائشة لیفرقا الجماعة. والباحث لا یعلم حقیقة الأحداث التی دعت أمیر المؤمنین أن یطرح قضیة الخلافة فی ساحة تواجهه فیها السیدة عائشة. وقبل هذه الأحداث کانت خطب أمیر المؤمنین

تدور حول الاصلاح وفى قليل منها كان يشيد بأهل البيت. والذى يمكن أن يؤكده البحث العلمى هو أن علاقة السيدة عائشة بأمير المؤمنين لم تكن على المستوى المطلوب وهذه العلاقة كان النبى صلى الله عليه وسلم يقيم عليها الحجة فى عهده لما سيترتب عليها. من ذلك ما رواه ابن حجر عن معاذة الغفارية قالت: كنت أخرج مع رسول الله فى الأسفار. أقوم على المرضى، وأداوى الجرحى. فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت عائشة وعلى خارج من عندها. فسمعته يقول لعائشة: إن هذا أحب الرجال إلى وأكرمهم على فاعرفى له حقه وأكرمى مثواه [" ۲] ، وعن رافع مولى عائشة قالت: كنت غلاما أخدمها إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها. وإنه قال ": عادى الله من عادى عليا [" ۳] وكانت السيدة عائشة تعلم علم اليقين موضع

على وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعن النعمان قال: استأذن أبو بكر صلى الله عليه وسلم. فسمع صوت عائشة عاليا وهى تقول: والله لقد عرفت أن عليا وفاطمة أحب إليك منى ومن أبى - مرتين أو ثلاثا - فاستأذن أبو بكر فأهوى إليها فقال ": يا بنت فلانة لا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم [" ۴] .

[صفحه ۵۰۵]

فالنبى صلى الله عليه وسلم أقام الحجة فى هذا الأمر. والسيدة عائشة عرفت بهذه الحجة وأقرت. والملاحظ أن العلاقة بين السيدة عائشة وبين أمير المؤمنين على لم تتقدم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعندما ذكر عندها: هل أوصى النبى صلى الله عليه وسلم إلى على؟ قالت: ما قاله؟ [۵] ، ثم أخبرت بأن الرسول توفى بين سحرها ونحرها وقال: فمتى أوصى؟ ولقد بينا من قبل أن هناك طائفة من الأحاديث الصحيحة أيضا تقول بأن النبى صلى الله عليه وسلم توفى وهو مستند إلى صدر على وهو الذى غسله. وبعيدا عندما يتعلق بقضية الخلافة. نرى أن السيدة عائشة وهى تصف ذهاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيتها عند مرضه تقول: فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه فى الأرض. بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. الأمر الذى جعل ابن عباس يقول: هل تدرى من الرجل الآخر الذى لم تسم عائشة: هو على [" ۶] ، ومن الدليل على أن العلاقة لم يحدث فيها تقدم على المستوى المطلوب قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى: إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله! قال: نعم [۷] .

ولما كانت الدعوة لا تجامل أحدا. فإن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بأن الفتن الكبرى ستكون على أيديهم. وقال ": إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم [" ۸] ، ولم يستثن أزواجه من هذا وإنما قال ": لا إله إلا الله ما فتح الليلة من الخزائن. لا إله إلا الله ما أنزل من الفتن. من يوقظ صواحب الحجرات رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة " قال البخارى ": يريد به

[صفحه ۵۰۶]

أزواجه [" ۹] ، لقد أقام النبى صلى الله عليه وسلم الحجة على منطقة الاختيار فى الإنسان. وفى علم الله المطلق أن كثيرا من الصحابة لن يلتفتوا إلى هذه الحجة وهذا التحذير، ولكن العلم المطلق يقابله تحذير مطلق. وهذه سنة إلهية جارية منذ أن بعث الله تعالى رسله حتى لا يكون للناس على الله حجة. والنبى صلى الله عليه وسلم عندما قال لعلى ": سيكون بينك وبين عائشة أمر. بين صلى الله عليه وسلم طريق هذا الأمر لتأخذ السيدة عائشة حذرها إذا سلكت هذا الطريق فقال لنسائه: ليت شعرى. أيتكن صاحبة الجمل الأدبب. تخرج فتنبحها كلاب الحوأب. يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثير [" ۱۰] .

وفى رواية قال لعائشة: إياك يا حميراء [۱۱] وكان عند حذيفة خبر هذه الرحلة. لأنها فى علم الله المطلق واقعة لا محالة ووقوعها لا ينفى ولا يقلل من وجود الحجة على بداية الطريق. قال حذيفة لرجل: ما فعلت أمك؟ قال: قد ماتت. فقال: أما إنك ستقاتلها. فعجب الرجل من ذلك حتى خرجت عائشة [۱۲] ونظرا لاتساع وعمق مساحة اللارواية وما نتج عنها. كان حذيفة

يقول: لو حدثتكم أن أمكم تغزوكم أتصدقونى؟ قالوا: أو حق ذلك! قال: حق [۱۳] وكان حذيفة يقول فى مساحة اللارواية: لو حدثتكم ما أعلم لافترقتم

على ثلاث فرق. فرقة تقاتلنى، وفرقة لا تنصرنى، وفرقة تكذبنى [۱۴] ولهذا

اختصر حذيفة الطريق وأوصى الناس بأن يلزموا عمارا لأنه علم أن عمارا لا يفارق عليا. فإن لزموا عمارا لزموا عليا.

[صفحه ۵۰۷]

وعلى الرغم من أن مساحة اللاروايـة قد عتمت على تحذيرات كثيرة وتبشيرات أكثر، إلا أن الحجة كانت قائمة حتى فى هذه العتمة. وكان العديد من الصحابة يعلمون أن لهم يوما يبتلون فيه وأن الجمل سيكون علامة ناصعة فى هذا اليوم. فعن عمير بن سعيد قال: كنا جلوسا مع ابن مسعود وأبو موسى عنده. فأخذ الوالى رجلا فضربه وحمله على جمل، فجعل الناس يقولون: الجمل الجمل. فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن هذا الجمل الذى كنا نسمع؟ قال: فأين البارقة [۱۵] .

فمن هذا كله نستطيع القول بأن الحجة على الأحداث قد قامت على الجيل الأول وذلك فى إخبار النبى صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه جل وعلا. ويمكن أن نقول. إن الضجيج الذى حدث فى مكة وإن كان مظهره يحمل قميص عثمان. إلا أن جوهره بخلاف ذلك. فالذين نكثوا البيعة أرادوا شق الأمة بوضع السيدة عائشة فى أعلى مربع أهل البيت ليقطعوا الطريق على على بن أبى طالب. والدليل على ذلك ما حدث أثناء الهياج عندما هب الناس للبحث عن الحقيقة. فلقد ذهبوا إلى أكابر الصحابة وقتئذ ليعرفوا من هم أهل البيت. روى الإمام مسلم أن يزيد بن حبان وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم. ذهبوا إلى زيد بن أرقم فقال له حصين: من أهل بيته يا زيد. أليس نساؤه من أهل بيته. فقال زيد: لا – وفى رواية – نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده [" ۱۶] ، قال النووى: نساؤه لا يدخلن فيمن حرم الصدقة [۱۷] وسيأتى متابعة حرمة الناس فى

هذا الوقت فى حينه. ومن الدليل أيضا على أن المقصود من حركة الناكثين الإطاحة بعلى من دائرة أهل البيت. أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بأن هذا الالتباس سيحدث. وأوصى بعلى. وذلك فيما رواه حذيفة قال: كيف أنتم وقد خرج أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم فرقتين. يضرب بعضهم وجوه بعض. قالوا:

[صفحه ۵۰۸]

يا أبا عبد الله. وإن هذا لكائن! وقال بعض أصحابه: فكيف نصنع إن أدركنا ذلك الزمان؟ قال: انظروا الفرقة التى تدعوا إلى أمر على فإلزموها فإنها على الهدى [۱۸] .

وعلى هذا وذاك يمكن القول بأن الناكثين خلطوا الأمور أمام السيدة عائشة. فخرجت للإصلاح ولكنهم ساروا بها فى طريق شق الصف. وعندما نبحت عليها كلاب الحوأب. أرادت الرجوع ولكنهم قالوا لها: تقدمى ويراك الناس ويصلح الله عزو جل ذات بينهم [۱۹] وتقدمت السيدة عائشة. ومن ورائها

تحذير يخوفها من الشيطان. روى البخارى عن عبد الله قال قال النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فأشار نحو مسكن عائشة فقال ": ها هنا الفتنة – ثلاث مرات – من حيث يطلع قرن الشيطان [" ۲۰] ، لقد كانت الأهواء تحيط بمسكن أم المؤمنين. ويريد أصحابها شق الصف أولا: ليبحث كل صاحب هوى عن كرسى له ثانيا: يركب به على أعناق الأمة. ولم تتبين أم المؤمنين هذه الأهواء فى وقتها. ولكنها علمت حقيقتها بعد ذلك. فلم تجد رضى الله عنها إلا الدمع تعبر به عن ندم طويل [۲۱] وسنذكر ذلك بتفاصيله فى حينه.

[۱] راجع هذه الخطب فى ابن أبى الحديد ۲۴۸:۱ وما بعدها.

[۲] الإصابة ۱۸۳:۸.

[۳] أخرجه ابن منده بسند صحيح (الإصابة ۱۹۱:۲).

[۴] رواه الإمام أحمد وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الفتح الربانى ۴:۲۷۵) (الزوائد ۲۰۱:۹).

[۵] رواه البخارى (الصحيح ۹۵:۳) ك المغازى باب مرض النبى.

[۶] البخارى ك المغازى، ب مرض النبى (الصحيح ۹۳:۳) ومسلم (الصحيح ۱۳۹:۴).

[۷] رواه الإمام أحمد (المسند ۶:۳۹۳) والبزار (كشف الأستار ۴:۹۴) وقال الهيثمى ورجاله ثقات (الزوائد ۲۳۴:۷).

[۸] رواه البخاری (الصحیح ۳۲۲:۱)، ومسلم (الصحیح ۷:۱۸).

[۹] رواه أحمد والبخاری والترمذی (الفتح الربانی ۳۴:۲۳) (صحیح البخاری ک اللباس ۳۳، ۸۴:۴)، (جامع الترمذی ۴۸۸:۴).

[۱۰] رواه البزار (کشف الأستار ۴:۹۴) وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۷:۲۳۴).

[۱۱] رواه أبو نعیم بسند صحیح (کنز العمال ۳۳۴:۱۱).

[۱۲] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۳۳۳:۱۱).

[۱۳] رواه أبو نعیم وابن عساکر (کنز العمال ۲۱۸، ۳۳۳:۱۱).

[۱۴] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۲۲۷:۱۱).

[۱۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۳۷:۷).

[۱۶] رواه مسلم (الصحیح ۱۷۹:۱۵) فی فضل علی ما.

[۱۷] النووی شرح مسلم (۱۸۰:۱۵).

[۱۸] رواه البزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۶:۷).

[۱۹] رواه الحاکم (المستدرک ۱۲۰:۳).

[۲۰] رواه البخاری (فتح الباری حدیث رقم ۳۱۰۴، ص ۲۴۳:۶ ط الربان)، ومسلم (الصحیح ۳۱:۱۸)، والإمام أحمد والترمذی (الفتح الربانی ۱۸:۲۴).

[۲۱] ندم السیدة عائشة رواه الطبرانی (الزوائد ۲۳۸:۷) وابن سعد (الطبقات ۷۴:۸) والحاکم (المستدرک ۶:۴).

الناکثون فی أعماق الحجة

کان الإمام علی یعلم إلی أین ستنتهی الأحداث. أولا: لأن هناک نصا أنه

سیقاتل الناکثین والقاسطین والمارقین. ومن کان هذا شأنه فلا بد أن یعرف البدایات التی ستنتهی إلی میدان القتال. وثانیا: لأنه کان قد تعلم رؤوس الفتن ورؤوس النفاق، روی أنه قال ": ما من ثلاثمائة تخرج إلا ولو شئت سمیت

[صفحه ۵۰۹]

سائقها وناعقها إلی یوم القیامة [" ۱] ، وعن حذیفة قال... ": والله ما ترک رسول الله صلی الله علیه وسلم من قائد فتنة إلی أن تنقضی الدنیا یبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبیه واسم قبیلته [" ۲] ولأن الإمام

یعلم الرجال ومقاصدهم. کانت حرکته کلها حجة علیهم. روی أنه بعد قتل عثمان جاء علی بن أبی طالب فقال لطلحة: أبسط یدک یا طلحة لأبایعک. فقال طلحة: أنت أحق وأنت أمیر المؤمنین فابسط یدک فبسط علی یده فبایعه [۳] .

وطلحة کان یطمع فی الخلافة. وکان لا یشک أن الأمر بعد عثمان سیکون له لوجوه منها: سابقته. ومنها أنه ابن عم لأبی بکر. وکان لأبی بکر فی نفوس أهل ذلک العصر منزلة عظیمة، ومنها أنه کان سمحا جوادا. وقد کان نازع عمر فی حیاة أبی بکر. وأحب أن یفوض أبو بکر الأمر إلیه من بعده [۴] وقال لأبی

بکر: ما تقول لربک وقد ولیت علینا فظا غلیظا. وکان له فی أیام عمر قوم یجلسون إلیه. ویحادثونه سرا فی معنی الخلافة. ویقولون له: لو مات لبایعناک بغتة. وعندما بلغ ذلک عمر. خطب الناس بالکلام المشهور: إن قوما یقولون: إن بیعة أبی بکر کانت فلتة. وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا ["... ۵] وعندما جعلها عمر شوری لم یجد طلحة لنفسه مخرجا للفوز بالخلافة. حیث إن الشوری ما کانت لتصب إلا فی إناء بنی أمیة لأن عثمان و عبد الرحمن وسعدا حزمة واحدة. بالإضافة إلی أن وجود عبد الرحمن فی فریق یرجح هذا الفریق علی الفریق الآخر کما نصت لائحة الشوری. ورضی طلحة بالأمر الواقع حتی جاءت الأحداث التی أطاحت بعثمان. وکما رأینا

أنه كـان من المؤلبين عليه واسـتولى على مفتـاح بيت المـال أثنـاء هـذه الثورة. لأنه كان لا يشك فى أن الأمر سـيصب فى سـلته. ومن العجيب أن أم المؤمنين عائشة كانت على علم بهذه

[صفحه ۵۱۰]

الأحـداث وهى فى مكـة. روى أن ابن عباس مر بها فى الصـلصل. فقالت: يا ابن عباس أنشدك الله. فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا [۶] أن تخذل عن هذا الرجل -

يعنى عثمان - وأن تشككك فيه الناس. فقد بانت لهم بصائرهم. وأنهجت ورفعت لهم المنار. وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله. قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح. فإن يل يسـر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه. فقال ابن عباس: يا أمه لو حـدث بالرجل حـدث. ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا - يعنى عليا - فقالت: إيها عنك. إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك ["۷] وعندما بلغها قتل عثمان قالت: أحق الناس بهذا الأمر لذى

الإصـبع - تعنى طلحـة - فلما جاءت الأخبار ببيعـة على قالت: تعسوا تعسوا لا يردون الأمر فى تيم أبـدا [" ۸] فهذا الطريق الطويل أقام الإمام على عليه الحجة

فى أوله عنـدما قال لطلحة: أبسط يدك يا طلحة لأبايعك. وذلك ليقطع طريق الهوى [۹] وهو يعلم أن طريق الهوى سيصب فى ميدان القتال حيث يكون قتاله

مع النـاكثين. وليس معنى قتـال النـاكثين أن الحجـة لم تقم عليهم فى أول الطريق. وإنمـا قـامت لأـن الطريق سـيكون عليه دماء. وهـذه الـدماء لهـا قـانون. وهـذا القـانون تنيره حجـة ظـاهرة ناصـعة. وروى أن طلحـة والزبير سألا على بن أبى طالب أن يؤمرهما على الكوفة والبصـرة. وكانا لهما أتباع فيهما. فقال على ": تكونان عنـدى. فأتحمل بكما، فإنى وحش لفراقكما [" ۱۰] وروى ابن قتيبة. أنهما قالا: ولكنا بايعناك على أنا

شريكان فى الأمر. فقال على لا. ولكنكما شريكان فى القوة والاستقامة والعون

[صفحه ۵۱۱]

على العجز والأود [" ۱۱] ، وبقى طلحة والزبير فى المدينة أربعة أشهر يراقبان عليا من قريب [۱۲] .

لقـد كان طلحـة يعلم أنه لن يكون له فى ظل عهـد أمير المؤمنين إلا ما يسـتحقه. ولـذلك قال بعـد أن بايع الناس عليا " ما لنا من هذا الأـمر إلا كلحسـة أنف الكلب [" ۱۳] ، وفى هـذا اليـأس جـاءته رسالـة من معاويـة وفيها: أما بعـد. فإنك أقل قريش وترا. مع صـباحة وجهك. وسـماحة كفك. وفصاحـة لسانك. فأنت بإزاء من تقـدمك فى السابقـة. وخامس المبشـرين بالجنـة. ولك يوم أحد وشـرفه وفضـله. فسـارع رحمـك الله إلى مـا تقلـدك الرعيـة من أمرهـا ممـا لاـ يسـعك التخلف عنه. ولاـ يرضـى الله منك إلا بالقيام به. فقد أحكمت لك الأمر قبلى. والزبير متقـدم عليك بفضل. وأيكما قـدم صاحبه فالمقـدم الإمام. والأمر من بعده للمقدم له. سـلك الله بك قصد المهتدين. ووهب لك رشد الموفقين. والسلام [" ۱۴] .

ولم يكن طلحـة وحـده الـذى أرسـل إليه معاويـة الرسالـة الفـخ. وإنمـا أرسل إلى الزبير أيضا. وفيها:... واعلم يا أبا عبـد الله. أن الرعية أصـبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعى. فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولم الشـعث. وجمع الكلمة. وصـلاح ذات البين. قبل تفاقم الأمر وانتشار الأمة. فقد أصـبح الناس على شفا جرف هار وعما قليل ينهار إن لم يرأب. فشمر لتأليف الأمة. وابتغ إلى ربك سبيلا. فقد أحكمت الأـمر على من قبلى لـك ولصاحبـك. على أن الأمر للمقـدم. ثم لصاحبه من بعـده. جعلك الله من أئمـة الهـدى. وبغاة الخير والتقوى والسلام [" ۱۵] .

وبينما لوح لطلحة والزبير بالخلافة. نجده فى رسائله إلى مروان بن الحكم وسـعيد بن العاص و عبد الله بن عامر والوليد بن عقبة ويعلى بن منبه. يطالب

[صفحه ۵۱۲]

بالحذر والسهر حتی لا یفلت الأمر من أیدی بنی أمیة. فهو یقول لمروان: فإذا قرأت کتابی هذا فکن کالفهد لا یصطاد إلا غیلة. ولا یتشازر إلا عن حیلة. وکالثعلب لا یفلت إلا روغانا. واخف نفسک منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأکف. وامتهن نفسک إمتهان من ییأس القوم من نصره وانتصاره وابحث عن أمورهم بحث الدجاجة عن حب الدخن عند فقسها. وأنغل [۱۶] الحجاز فإنی منغل الشام والسلام [" ۱۷] .

وکتب إلی یعلی بن منبه،... فأما الشام فقد کفیتک أهلها. وأحکمت أمرها. وقد کتبت إلی طلحة بن عبید الله. أن یلقاک بمکة. حتی یجتمع رأیکما علی إظهار الدعوة والطلب بدم عثمان أمیر المؤمنین المظلوم. وکتبت إلی عبد الله بن عامر یمهد لکم العراق. ویسهل لکم حزونة عقابها [۱۸] واعلم یا ابن

أمیة أن القوم قاصدوک بادئ بدء لاستنطاف ما حوته یداک من المال فاعلم ذلک واعمل علی حسبه إن شاء الله [" ۱۹] .

وکتب إلی سعید بن العاص:... إن أمیر المؤمنین عتب علیه فیکم. وقتل فی سبیلکم. ففیم القعود عن نصرته والطلب بدمه. وأنتم بنو أبیه. ذوو رحمه وأقربوه. وطلاب ثأره... فإذا قرأت کتابی هذا فدب دبیب البرء فی الجسد النحیف. وسر سیر النجوم تحت الغمام... فقد أیدتکم بأسد وتیم [" ۲۰] .

وکتب إلی عبد الله بن عامر: ساور الأمر مساورة الذئب الأطلس کسیرة القطیع. ونازل الرأی. وانصب الشرک. وارم عن تمکن. وضع الهناء [۲۱] مواضع النقب [۲۲] واجعل أکبر عدتک الحذر. وأحد سلاحک التحریض... وقم قبل أن

[صفحه ۵۱۳]

یقام لک. واعلم أنک غیر متروک ولا مهمل. فإنی لکم ناصح أمین ["... ۲۳] ، ودخل طلحة والزبیر فی فخاخ بنی أمیة بعد أن علم معاویة موطن الداء فیهما، وبدأ کل من طلحة والزبیر یعد العدة للذهاب إل مکة حیث توجد السیدة عائشة وأذرع بنی أمیة التی ترتدی قفازات من حریر غمست فی السم أیاما طویلة. وعن أم راشد قالت: سمعت طلحة والزبیر یقول أحدهما لصاحبه: بایعته أیدینا ولم تبایعه قلوبنا. فقلت لعلی بن أبی طالب فقال ": من نکث فإنما ینکث علی نفسه ومن أوفی بما عاهد الله علیه فسیؤتیه أجرا عظیما" [۲۴] ، وجاء طلحة والزبیر. فاستأذناه فی الخروج إلی مکة للعمرة. فأذن لهما. بعد أن أحلفهما ألا ینقضا بیعته. ولا یغدرا به. ولا یشقا عصا المسلمین ولا یوقعا الفرقة بینهم وأن یعودا بعد العمرة إلی بیوتهما بالمدینة. فحلفا علی ذلک کله ثم خرجا [" ۲۵] .

وروی أنه لما خرج طلحة والزبیر إلی مکة وأوهما الناس أنهما خرجا للعمرة.. قال علی لأصحابه: والله ما یریدان العمرة وإنما یریدان الغدرة " ومن نکث فإنما ینکث علی نفسه [" ۲۶] ، وهکذا قامت الحجة فی البدایة وفی النهایة.

[۱] رواه نعیم بن حماد بإسناد صحیح (کنز العمال ۲۷۱:۱۱).

[۲] رواه أبو داوود حدیث ۴۲۲۲.

[۳] الطبری ۱۵۶:۵.

[۴] ابن أبی الحدید ۱۴۶:۳.

[۵] الطبری ۲۰۰:۳.

[۶] ابن أبی الحدید.

[۷] الطبری ۱۴۰:۵، البلاذری ۲۱۷:۲.

[۸] ابن أبی الحدید ۴۰۹:۲.

[۹] روی أن طلحة والزبیر قالا بعد أن قال لهما علی ذلک: عرفنا أنه لم یکن لیبایعنا (الطبری ۱۵۳:۵).

[۱۰] الطبری ۱۵۳:۵.

[۱۱] الإمامة والسياسة ۵۱:۱.

[۱۲] تاريخ اليعقوبى ۱۲۷:۲، ابن أبى الحديد ۵۷۷:۳، الطبرى ۱۵۳:۵.

[۱۳] الطبرى ۱۵۳:۵.

[۱۴] ابن أبى الحديد ۵۳۳:۳.

[۱۵] ابن أبى الحديد ۵۳۳:۳.

[۱۶] أنغلهم / أجملهم على الضعن.

[۱۷] ابن أبى الحديد ۵۳۳:۳.

[۱۸] العقاب / المرقى الصعب من الجبال.

[۱۹] ابن أبى الحديد ۵۳۶:۳.

[۲۰] ابن أبى الحديد ۵۳۴:۳.

[۲۱] هنأ البعير / طلاء بالقطران.

[۲۲] النقب / هو أول ما يبدو من الجرب.

[۲۳] ابن أبى الحديد ۵۳۴:۳.

[۲۴] رواه ابن أبى شيبة (كنز العمال ۲۳۵:۱۱).

[۲۵] ابن أبى الحديد ۵۷۶:۳، الطبرى ۱۶۳:۵.

[۲۶] ابن أبى الحديد ۵۷۶:۳.

لقاء فی مکة

لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة. وبينما هى فى طريقها من مكة إلى

المدينة لقيها رجل يقال له عبد الله بن أبى سلمة. يعرف بأمه أم كلاب. فقال لها: لا تدرى. قتل عثمان. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على بيعة على. فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ردونى ردونى. فانصرفت إلى مكة وهى تقول: قتل والله عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه. فقيل

[صفحه ۵۱۴]

لها: ولم والله إن من أول من أمال حرفه لأنت. ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا. وقولى الأخير خير من قولى الأول فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير++

ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الإمام++

وقلت لنا أنه قد كفر

فهبنا أطعناك فى قتله++

وقاتله عندنا من أمر [۱].

وروى من طرق مختلفة أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان. وهى أول من سمى عثمان نعثلا. وكانت لا تشك فى أن طلحة هو صاحب الأمر بعد عثمان. وروى أن عائشة نزلت على باب المسجد. وقصدت للحجر فسترت فيه. واجتمع الناس إليها فقالت: يا أيها

الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة. اجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب. واستعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أسنانهم قبله. ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم. وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها. فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم. فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا. خلجوا وبادءوا بالعدوان. ونبا فعلهم عن قولهم. فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام. والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم. حتى ينكل بهم غيرهم. ويشرد من بعدهم. ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا. لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه [" ۲] وروى ابن أبى الحديد أن طلحة والزبير كتبا إلى عائشة

وهى بمكة كتابا: أن خذلى الناس عن بيعة على. وأظهرى الطلب بدم عثمان. وحملا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير [" ۳] .

وبدأت إذاعة المعارضين تعمل من أجل إيجاد رأى عام. واجتمع القوم فى

[صفحه ۵۱۵]

بيت أم المؤمنين عائشة، وقالوا: نسير إلى على بن أبى طالب فنقاتله. فقال البعض: ليس لكم طاقة بأهل المدينة. ولكنا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة ولطلحة بالكوفة شيعة وهوى. وللزبير بالبصرة هوى ومعونة. فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة [۴] وأعلنت عائشة الاتفاق فقالت: أيها الناس إن هذا

حدث عظيم وأمر منكر. فانهضوا فيه إلى إخوانكم. من أهل البصرة وأنكروه. فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم - يعنى معاوية - لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم [" ۵] ، ورفع بنو أمية رؤوسهم. وقام سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بنى أمية. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية - وينسب إلى أمه منبه - من اليمن [۶] وجاء طلحة والزبير من

المدينة. وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب قد استحلفهما أن لا يوقعا الفرقة بين المسلمين. فحلفا على ذلك وغيره. وعندما التقت بهما عائشة قالت لهما: ما وراءكما؟ قالا: فارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا [" ۷] .

وبدأ الإعداد للغزو وقال يعلى بن أمية: معى ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها. وقال عبد الله بن عامر معى كذا وكذا فتجهزوا به [۸] ونادى المنادى:

إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة. فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين. والطلب بثأر عثمان. ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذه جهازه وهذه نفقته [" ۹] ، وكان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة وقتئذ. وانطلق القوم إلى أم المؤمنين حفصة يسألونها رأيها فى الأحداث فقالت: رأيى يتبع لرأى عائشة، وأرادت حفصة الخروج. فأتاها عبد الله بن عمر وطلب منها أن تقعد. فبعثت إلى عائشة أن عبد الله حال بينى وبين الخروج

[صفحه ۵۱۶]

فقالت عائشة: يغفر الله لعبد الله [" ۱۰] .

وبدأ التحرك. وذكر الطبرى: أن مروان بن الحكم أذن للصلاة حين خرجوا من مكة. ثم جاء إلى طلحة والزبير وقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير: على أبى عبد الله. وقال محمد بن طلحة: على أبى محمد. فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت: ما لك أتريد أن تفرق أمرنا. ليصل ابن أختى!! فكان يصلى بهم عبد الله بن الزبير حتى قدم إلى البصرة [۱۱] .

وبينما الركب فى الطريق. شاهدوا رجلا معه جمل. فقالوا: يا صاحب الجمل تبيع جملك؟ قال: نعم. قيل له: بكم؟ قال: بألف درهم.. قيل: لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا. قال: ولمن تريده، فقيل له: لأمك. قال: تركت أمى فى بيتها قاعدة. قيل: إنما نريده لأم المؤمنين عائشة، قال: فهو لك فخذه بغير ثمن. قيل له: لا ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم. وبعد أن أعطوه، قالوا له: يا أخا عرينة هل لك دلالة بالطريق. قال: نعم: أنا من أدرك الناس. قالوا: فسر معنا. فسار معهم وكان لا يمر على واد ولا ماء إلا سألوه عنه. حتى طرقوا ماء الحوأب فنبحتهم كلابها. قالوا: أى ماء هذا. قال: ماء الحوأب. فصرخت عائشة. ثم قالت: أنا والله

صاحبة كلاب الحوأب. طروقا ردونى [۱۲] فقالوا لها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله
عزو جل ذات بينهم، قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها ذات يوم: كيف بإحداكن تنبح عليه كلاب الحوأب وانطلقت أم المؤمنين نحو البصرة، فى الركب الذى أقيمت عليه الحجة.
[صفحه ۵۱۷]

[۱] الكامل / ابن الأثير ۱۰۶:۳، الطبرى ۱۷۲:۵.

[۲] الطبرى ۱۶۵:۳، الكامل ۱۰۶:۳.

[۳] ابن أبى الحديد ۴۰۹:۲.

[۴] الطبرى ۱۶۸:۵.

[۵] الطبرى ۱۶۷:۵.

[۶] الطبرى ۱۶۶:۵.

[۷] الطبرى ۱۶۶:۵.

[۸] الطبرى ۱۶۶:۵.

[۹] الطبرى ۱۶۷:۵، البداية والنهاية ۲۳۱:۷.

[۱۰] الطبرى ۱۶۷:۵.

[۱۱] الطبرى ۱۶۹:۵، الكامل ۱۰۷:۳.

[۱۲] رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ونعيم بن حماد وقال ابن كثير إسناده صحيح، وقال الهيثمى رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورواه الحاكم وذكر أن القائل: تقدمى هو الزبير (الفتح الربانى ۱۳۷:۲۳) (البداية والنهاية ۲۱۱:۶)، (المستدرك ۱۲۰:۳)، الطبرى ۱۷۸:۵.

نظرات على طريق البغى

عندما بلغ أمير المؤمنين عليا ما استقر عليه طلحة والزبير. قال: والله ما
أنكروا منكرا. ولا جعلوا بينى وبينهم نصفا [۱] وإنهم ليطلبون حقا هم تركوه. ودماهم سفكوه. فإن كنت شريكهم فيه. فإن لهم نصيبهم منه. وإن كانوا ولوه دونى فما المطالبة إلا قبلهم. وإن أول عدلهم للحكم على أنفسهم. وإن معى لبصيرتى. ما لبست ولا لبس على. وإنها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة [۲] والشبهة المغدقة [۳] وإن الأمر
لواضح. وقد زاح الباطل عن نصابه [۴] وانقطع لسانه عن شغبه [۵] وأيم الله
لأفرطن لهم حوضا أنا ماتحه [۶] لا يصدرون عنه برى، ولا يعبون [۷] بعده
من حسى [" ۸] .

قال ابن أبى الحديد: والمعنى: والله ما أنكروا على أمرا هو منكر فى الحقيقة. وإنما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم. وحملهم على ذلك الحسد وحب الاستئثار بالدنيا. وقال: ولا جعلوا بينى وبينهم نصعا أى وسيطا يحكم وينصف. بل خرجوا عن الطاعة بغتة. وإنهم ليطلبون حقا تركوه. أى يظهرون أنهم يطلبون حقا بخروجهم إلى البصرة. وقد تركوا الحق بالمدينة. وقال: إن هؤلاء خرجوا ونقضوا البيعة. وقالوا: إنما خرجنا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإظهار العدل وإحياء الحق. وإماتة الباطل. وأول العدل أن يحكموا على أنفسهم. فإنه يجب على الإنسان أن يقضى على نفسه ثم على غيره. وإذا
[صفحه ۵۱۸]

كان دم عثمان قبلهم. فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم. وقال: إن معى لبصيرتى. أى عقلى أى أوضح النبى صلى الله عليه وآله وسلم لى كل شئ وعرفنيه. وإنها للفئة الباغية. أى الفئة التى وعدت بخروجها على ثم ذكر بعض العلامات. وقال: إن الأمر لواضح. وقوله هذا يؤكد به عند نفسه وعند غيره. أن هذه الجماعة هى تلك الفئة الموعود بخروجها. ثم أخبر: وقد ذهب الباطل وزاح. وخرس لسانه. ثم أقسم: ليملأن لهم حوضا هو ماتحه - يسقيهم من فوقه - وهذه كناية عن الحرب والهجاء وما يتعقبهما من القتل والهلاك [۹] .

وبعد أن كشف الإمام النقاب عن بداية حرب البغاة التى تحمل أسماء مختلفة وتدور رحاها فى ميادين مختلفة. بين أن البغاة يسيرون نحو هدف واحد يقتلون عليه بعضهم بعضا ويبذلون فى سبيله كل نفيس. وهذا الهدف هو الحكم. قال الإمام بعد نكث طلحة والزبير: "كل واحد منهم يرجو الإمام له. ويعطفه عليه دون صاحبه ولا يمتان [۱۰] إلى الله بحبل ولا يمدان إليه بسبب. كل واحد منهما حامل ضب [۱۱] لصاحبه. وعما قليل يكشف قناعه به. والله لئن أصابوا الذى يريدون لينتزعن هذا نفس هذا. وليأتين هذا على هذا. قد قامت الفئة الباغية فأين المحتسبون [۱۲] قد سنت لهم السنن. وقدم لهم الخير. ولكل

ضال علة. ولكل ناكث شبهة. والله لا أكون كمستمع اللدم [۱۳] يسمع الناعى

ويحضر الباكى. ثم لا يعتبر [" ۱۴] .

فطريق البغى لا يتمسك بحبل الله وأصحاب الرؤوس الكبيرة من صفاتهم أن كل واحد منهم يريد الأمر لنفسه. ولأن هذه هى الحقيقة فإن تحت راياتهم لا

[صفحه ۵۱۹]

يدرى المقتول فى أى شئ قتل. ولا يرى القاتل إلا طعاما له بريق. والقاتل والمقتول لا يدريان شيئا عن الحقيقة. لأن الراية عمية ومرفوعة فى ساحات العصبية. وقد يكون قتال الرجل فى هذه الساحات لينصر عصبته. ولكن الحقيقة أن هذا الغضب والقتال والنصر سيصب فى نهاية المطاف داخل سلة رؤوس البغاة. ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": لو أن الناس اعتزلوهم " لأن فى الاعتزال نجاة من الموتة الجاهلية يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات فميتته جاهلية [" ۱۵] ، وقال ": من قتل تحت راية عمية ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية [" ۱۶] وفى عصر

الإمام على قال الإمام: قد قامت الفئة الباغية. فأين المحتسبون. أى أين طلاب الأجر؟ ثم قال: لكل ضال علة. ولكل ناكث شبهة. كأنه يقول: إذا كانوا قد خرجوا فلا بد أن يكون لهم تأويل فى خروجهم. وكل ناكث لا بد له من شبهة يستند إليها. ولأن الإمام خبير فى معرفة الرجال. ولأنه يقاتل على التأويل كما قاتل النبى صلى الله عليه وسلم على التنزيل. قال: والله لا أكون كمستمع اللدم. أى: لن يكون كالضبع. تسمع وقع الحجر بباب حجرها من يد الصائد. فتنخذل وتكف جوارحها إليها حتى يدخل عليه فيربطها. ولن يكون مقرا بالضيم راعنا، يسمع المخبر عن القتلى فلا يكون عنده شئ من التغيير والإنكار. ومن رحمة الله تعالى أنه سبحانه جعل فى عصر الصحابة من يرشدهم إلى طريق الصواب. على الرغم من سياسة اللارواية. فأبو ذر كان رواية متحركة فى عهد ما وهذه الرواية ينطق بها صمت أبو ذر ويسمعها من أراد الله أن يقيم الحجة عليه. فالرواية المتحركة لها إيقاع خاص ومذاق خاص عند نمط خاص. وكان أبو ذر يبشر الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاو من نار. وفى عصر الإمام على كان عمار رواية متحركة، حجة بذاتها على نوع خاص يدعوهم إلى الجنة

[صفحه ۵۲۰]

ويدعونه إلى النار. باختصار كان عمار حجة على البغاة. حجة على أول طريقهم وحجة على نهاية طريقهم. وليس معنى أنه قتل فى آخر الطريق أنه لم يكن له وجود فى أول الطريق. لأن عمارا بمثابة مشعل على طريق طويل. وهذا المشعل وقوده عند على بن أبى طالب. قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمار ": يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا. وسلك الناس واديا غيره. فاسلك مع على ودع

الناس. إنه لن يدلك على ردى ولن يخرجك من الهدى [" ۱۷] ، لهذا كان حذيفة يقول بعد مقتل عثمان ": آمركم أن تلزموا عمارا. قالوا: إن عمارا لا يفارق عليا. قال: إن الحسد هو أهلك الجسد. وإنما ينفركم من عمار قربه من على. فوالله لعلى أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب. وإن عمارا لمن الأحباب [" ۱۸] ، وإذا كان طريق على بن أبى طالب واضحا وضوح الشمس فى كبد السماء فإن طريق عمار واضح أيضا فهو ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما [۱۹] وهو على الفطرة [۲۰] ، وأجاره الله من الشيطان على لسان نبيه [۲۱] ، ومن عاداه عاداه الله ومن أبغضه أبغضه الله [۲۲] باختصار كان عمار يحمل

مؤهلات طريق على بن أبى طالب. وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال لعلى ": يا على ستقاتلك الفئة الباغية وأنت على الحق فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى [" ۲۳] ، فإنه قال لعمار الذى يحمل معالم الجندية على طريق على ": ستقتلك الفئة الباغية وأنت على الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى [" ۲۴] .

وطريق على بن أبى طالب يبدأ من أول خطوة رفع فيها على سيفه.

[صفحه ۵۲۱]

ولخطورة ضربات سيف على وما سيترتب عليها حمل عمار أقوى تحذير على الاطلاق ": تقتله الفئة الباغية. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " وهذا فى حد ذاته دعوة للتفكير. فأى قوات ستجابه جيشا فيه عمار. لا يمكن أن تقطع بأن عمارا سيخرج من المعركة سالما وأنه لن يصيبه ما يؤدى إلى قتله. وعلى هذا فمن الواجب أن تعيد هذه القوات ترتيب أوراقها فى اتجاه التوبة. وإذا كان هذا التحذير يحيط بعمار. فإن هناك تحذيرا آخر حملته الصحابة منهم أبو رافع. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": يا أبا رافع سيكون بعدى قوم يقاتلون عليا. حق على الله جهادهم. فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه. ومن لم يستطع بلسانه فبقلبه. ليس وراء ذلك شئ ["۲۵] ، وذلك حتى لا يدق فى أرضية الصحابة أوتاد يأتى عليها الشارد والوارد والسابق واللاحق. وما هى إلا أوتاد فتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تتعداهم إلى غيرهم. ولقد فطن عبد الله بن عباس للتحذير الذى حول عمار. فأراد أن يسمعه الناس بعد بيعة على بن أبى طالب. حتى يكونوا على بينة من أمرهم قبل أن يفتح طريق البغى. فعن عكرمة أن ابن عباس قال له ولابنه على: انطلقا إلى أبى سعيد الخدرى فاسمعا من حديثه. قال: فانطلقنا فإذا هو فى حائط له. فلما رآنا أخذ رداءه فجاءنا. فقعد. فأنشأ يحدثنا. حتى أتى على ذكر بناء المسجد قال: كنا نحمل لبنة وعمار بن ياسر يحمل لبنتين. فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ينفض التراب عنه ويقول: يا عمار ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك. قال: إنى أريد الأجر من الله. فجعل ينفض التراب عنه ويقول: ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار [" ۲۶] ، والدعوة إلى النار لها أصول تحدث عنها حذيفة من قبل وذلك عندما قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ": فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة إلى أبواب جهنم من

[صفحه ۵۲۲]

أجابهم قذفوه فيها. قال: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا [" ۲۷] ، فاختيار ابن عباس لأبى سعيد الخدرى من أجل أن يسمع منه عكرمة وابنه على. هذا الحديث فى عمار كان لحكمة ومن وراء الحكمة هدف.

[۱] النصف / الأنصاف.

[۲] الحمأ / الطين الأسود، حمة العقرب / سمها.

[۳] الشبهة المغدقة / أى الخفية.

[۴] أى بعد وذهب عن مركزه ومقره.

[۵] الشغب / تهييج الشر.

[۶] لأفرطن لهم حوضا / أى لأملأن، الماتح / المستفى من فوق.

[۷] العب / الشرب بلا مص كما تشرب الدابة.

[۸] الحس / ماء کامن فی رمل یحفر عنه.

[۹] ابن أبی الحدید ۱۵۱:۳.

[۱۰] یمتان / یتوسلان.

[۱۱] انصب / الحقد.

[۱۲] المحتسبون / طالبو الأجر.

[۱۳] مستمع اللدم / کنایة عن الضبع حین تسمع وقع الحجر فتستسلم للصائد.

[۱۴] ابن أبی الحدید ۲۰۶:۳.

[۱۵] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۵۲:۲۳).

[۱۶] رواه مسلم وابن ماجة (کنز العمال ۵۰۹:۳).

[۱۷] رواه الدیلمی (کنز العمال ۶۱۴:۱۱).

[۱۸] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۱۹] رواه أحمد (الفتح ۳۳۰:۲۲) والحاکم وصححه (المستدرک ۳۸۸:۳)، والترمذی وصححه (الجامع ۶۶۸:۵).

[۲۰] رواه البزار والطبرانی ورجالهما ثقات (الزوائد ۲۹۵:۹).

[۲۱] رواه البخاری فی مناقب عمار (الصحیح ۳۰۵:۲).

[۲۲] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۹۳:۹).

[۲۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۱۳:۱۱).

[۲۴] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۳۵۱:۱۱).

[۲۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی فیه یحیی ابن الحسین لم أعرفه وبقیة رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۴:۹).

[۲۶] رواه أحمد والبخاری (الفتح الربانی ۳۳۱:۲۲).

[۲۷] رواه أحمد (الفتح الربانی ۳۱:۲۳) والبخاری (الصحیح ۲۸۰:۲).

اصداء یوم غدیر خم

کان لتحرک أم المؤمنین عائشة أثر عظیم علی العدید من الأمصار. وذلک

لأن العامة یعلمون أن السیدة عائشة عندما تتکلم فإنها تقف علی أرضیة لیست بعیدة عن النبی کما أنها قریبة من أرضیة الخلافة بعد النبی، والخلفاء یعرف الناس عنهم الکثیر، بینما لا یعرفون شیئا عن علی بن أبی طالب. الذی تتحرک مناقبه تحرک النجوم وراء السحب بعد عودة الروایة. وکان لإذاعة أم المؤمنین الأثر الأعظم. وذلک لوفرة المال الذی حمله یعلی بن أمیة وعبد الله بن عامر من الیمن والبصرة فضلا عن الدعم القوی من الشام. وکما قال الإمام علی: الناس أعداء ما جهلوا.... فلأن الناس کانوا یجهلون حقیقة الأمور فإن الأرضیة التی وقفت علیها أم المؤمنین کانت تکسب کل یوم جدیدا. فمکة لم یخرج منها احتجاج واحد. وفی الکوفة یقف فی موسی فی مربع السیدة عائشة فضلا علی أن الکوفة فیها شیعة لطلحة والبصرة لها هوی فی الزبیر. ومعاویة یراقب من الشام وعمرو بن العاص یتابع من فلسطین... فکل ذلک کان له تأثیر علی من فی المدینة وأصبحت عملیة حشد القوات عملیة تواجهها صعوبات. والحشد بالمال لیس من سیاسة أمیر المؤمنین. فهو حجة ویعرف أنه مقتول فی نهایة الطریق والحجة المقتول لا وقود له یحرکه إلا الدین فالإمام کان یرید الجندی الرسالی الذی ینطلق من الدین وینتهی إلی الدین. لذا سنراه یبکی فی آخر الرحلة وهو یتذکر أصحابه الذین قتلوا فی المعارک. والجندی الرسالی لا بد له من نصوص لتأتی به إلی دائرة أمیر المؤمنین. وبما أن الإمام إذا تحدث عن نفسه

[صفحه ۵۲۳]

هذا الوقت ربما شکک أعداؤه فیما تفاخر به. وبالذات بعد خروج السیدهٔ عائشهٔ. فهذا الخروج أوجد التباسا شدیدا فی تحدید من هم أهل البیت. وهذا التحدید وإن کان عتم علیه فی عالم اللاروایهٔ. إلا أنه بعد خروج السیدهٔ عائشهٔ زاد التعتم وأضیف إلیه الالتباس. فإذا ادعی علی أنه من أهل البیت. جاءه صوت من دائرهٔ الجمل یقول إنه لیس وحده من أهل البیت. بل إنه إذا کان من أهل البیت فإن یده ملطخهٔ بدم عثمان ومن کان کذلک سقطت عنه دعوی أن الله أذهب عنه الرجس وطهره تطهیرا. ومن دخل فی هذه الدائرهٔ فلیس له حق فی قیادهٔ المسلمین. وللمسلمین أن یختاروا وأصحاب السوابق کثیر. منهم طلحهٔ والزبیر ومعاویهٔ الذی یراقب وغیر هؤلاء کثیر.. لهذا کله کان الحدیث عن المناقب علی لسان أمیر المؤمنین تواجهه عقبات ستدخل المسلمین فی جدل طویل. وهناک من یضع البصرهٔ کهدف هجوم لعملیاته الحربیهٔ. وکان لا بد أن تأتی المناقب من روایات الساحهٔ لیشهد الإمام لها ویشهد الناس علیها. ولقد رأینا فیما سبق کیف أن ابن عباس جاء بالتحذیر الذی حول عمار من داخل الساحهٔ ولم یتحدث هو به. ربما لقربه من الإمام. وشاء الله تعالی أن تکون البدایهٔ من داخل الساحهٔ کی تقام الحجهٔ بلا شبههٔ. لقد جاءت الروایهٔ لیقف أمیر المؤمنین منها موقف الذی یستفسر أولا ثم یقیم الحجهٔ ثانیا. عن ریاح بن الحرث قال: جاء رهط إلی علی بالرحبهٔ [۱] .

فقالوا: السلام علیک یا مولانا. قال: کیف أکون مولاکم وأنتم قوم عرب، فقالوا: سمعنا رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول یوم غدیر خم ": من کنت مولاه فإن هذا مولاه " قال ریاح: فلما مضوا تبعتهم فسألت من هؤلاء، قالوا: نفر من الأنصار فیهم أبو أیوب الأنصاری [۲"] .

[صفحه ۵۲۴]

ومن عالم الغربهٔ الذی استفسر فیه الإمام علی عن شئ یعرفه انتقل الحدیث عن هذا إلی مکان أوسع. فعن عبد الرحمن بن أبی لیلی قال: شهدت علیا فی الرحبهٔ ینشد الناس: أنشد الله من سمع رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم یقول یوم غدیر خم: من کنت مولاه لما قام فشهد. قال عبد الرحمن: فقام اثنا عشر بدریا کأنی أنظر إلی أحدهم علیه سراویل. فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول یوم غدیر خم: ألست أولی بالمؤمنین من أنفسهم. وأزواجی أمهاتهم [۳] فقلنا: بلی یا رسول الله. قال: فمن کنت مولاه فعلی مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [" ۴] ، وفی روایهٔ عن زید بن یثیع قال: ألیس الله أولی بالمؤمنین. قالوا: بلی، قال: اللهم من کنت مولاه فعلی مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [۵] ، وعن أبی الطفیل قال: جمع علی الناس فی الرحبهٔ، ثم قال لهم: أنشد الله کل امرئ مسلم سمع رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول یوم غدیر خم ما قال لما قام [۶] ، فقام إلیه ثلاثون من الناس. وقال أبو نعیم: فقام إلیه ناس کثیر فشهدوا حین أخذ بیده وقال: أتعلمون أنی أولی بالمؤمنین من أنفسهم. قالوا: بلی یا رسول الله. قال: من کنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال أبو نعیم: فخرجت کأن فی نفسی شیئا. فلقیت زید بن أرقم فقلت له: إنی سمعت علیا یقول کذا وکذا. قال زید: فما تنکر؟ قد سمعت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم یقول ذلک [" ۷] .

[صفحه ۵۲۵]

وعن عمرو ذی مر وسعید بن وهب وزید بن یثیع قالوا: سمعنا علیا یقول: نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول یوم غدیر خم ما قال لما قام. فقام ثلاثهٔ عشر رجلا. فشهدوا أن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم قال: ألست أولی بالمؤمنین من أنفسهم؟ قالوا: بلی یا رسول الله. فأخذ بید علی وقال: من کنت مولاه فعلی مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره وأخذل من خذله [" ۸] وفی روایهٔ عن عبد الرحمن بن أبی لیلی قال: فقام بضعهٔ عشر رجلا فشهدوا. وکتم قوم فما فنوا من الدنیا إلا عموا وبرصوا [" ۹] ، وأحادیث الرحبهٔ رواها غیر واحد [۱۰] ، وبعد أن أخذ علی من الناس شهادتهم قال: إن النبی صلی الله علیه وآله وسلم حضر الشجرهٔ بخم ثم خرج آخذا بیدی فقال ": أیها الناس ألستم تشهدون أن الله ربکم؟ قالوا: بلی، قال: ألستم تشهدون أن الله ورسوله أولی بکم من أنفسکم وأن الله ورسوله مولاکم، قالوا: بلی، قال: فمن کان الله

ورسوله مولاه فإن هذا مولاه. وقد ترکت فیکم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، کتاب الله سببه بیده وسببه بأیدیکم أهل بیتی [" ۱۱] . وکان تعریف أهل البیت فیه التباس شدید فمن هم أهل البیت؟ وهل أزواج النبی منهم أم أنهم یساکنونه ویعولهم ولهم احترامهم وإکرامهم؟ وهذا

[صفحه ۵۲۶]

الالتباس کان سببا فی ذهاب بعض الناس إلی زید بن أرقم للوقوف علی حقیقهٔ هذا الأمر. وقد یکون ذهابهم إلی زید قبل خروج أم المؤمنین عائشهٔ وقد یکون بعد ذلک، ولکن الأمر المؤکد أن خروج أم المؤمنین هو الذی أوجد السؤال. روی الإمام مسلم عن زید بن حیان قال: انطلقت أنا وحصین بن سبرهٔ وعمر بن مسلم إلی زید بن أرقم، فلما جلسنا إلیه قال له حصین: لقد لقیت یا زید خیرا کثیرا. رأیت رسول الله وسمعت حدیثه وغزوت معه وصلیت خلفه. لقد لقیت یا زید خیرا کثیرا. حدثنا یا زید ما سمعت من رسول الله صلی الله علیه وسلم. فقال زید: یا ابن أخی والله لقد کبر سنی وقدم عهدی ونسیت بعض الذی کنت أعی من رسول الله صلی الله علیه وسلم. فما حدثتکم فأقبلوا. وما لا- فلا- تکلفونیه. ثم قال: قام رسول الله صلی الله علیه وسلم فینا خطیبا بماء یدعی خما بین مکهٔ والمدینهٔ. فحمد الله وأثنی علیه ووعظ وذکر. ثم قال: أما بعد ألا أیها الناس. فإنما أنا بشر یوشک أن یأتی رسول فأجیب. وأنا تارک فیکم الثقلین. أولهما کتاب الله فیه الهدی والنور. فخذوا بکتاب الله واستمسکوا به فحث علی کتاب الله ورغب فیه. ثم قال: وأهل بیتی. أذکرکم الله فی أهل بیتی. أذکرکم الله أهل بیتی. أذکرکم الله فی أهل بیتی. فقال له حصین: ومن أهل بیته یا زید. ألیس نساؤه من أهل بیته؟ قال: نساؤه من أهل بیته!! ولکن أهل بیته من حرم الصدقهٔ بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علی وآل عقیل وآل جعفر وآل عباس، قال: کل هؤلاء حرم الصدقهٔ؟ قال: نعم [" ۱۲] ، نقول: وهذه الروایهٔ توسعت فی تحدید من هم أهل البیت. وقد روی أن" لکل شئ ذروهٔ، " وآل علی فی حدیث مسلم فی المقدمهٔ. وفی روایهٔ عند مسلم أیضا عندما سألوا زیدا: ألیس نساؤه من أهل بیته؟ قال: لا. وأیم الله إن المرأهٔ تکون مع الرجل العصر من الدهر. ثم یطلقها فترجع إلی أبیها وقومها. أهل بیته أصله وعصبته الذین حرموا الصدقهٔ بعده [" ۱۳] ، فإذا کان أهل بیته أصله فإنه فی حدیث

[صفحه ۵۲۷]

صحیح یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": علی أصلی ["... ۱۴] ، ویقول النووی فی شرحه لحدیث مسلم: والمعروف فی معظم الروایات فی غیر مسلم أنه قال: نساؤه لسن من أهل بیته [" ۱۵] .

کانت هذه روایهٔ مسلم وظهر فیها سؤال یبدو أنه شغل الجمیع فی وقته. ولقد رأینا إجابات زید بن أرقم. وفی روایات أخری لم ینقطع العدید من الناس عن سؤال زید. ولقد سئل أن یحدثهم عن رسول الله صلی الله علیه وسلم فقال: لما رجع رسول الله صلی الله علیه وسلم من حجهٔ الوداع فنزل غدیر خم أمر بدوحات فقممن، ثم قام فقال: کأنی قد دعیت فأجبت. إنی قد ترکت فیکم الثقلین أحدهما أکبر من الآخر کتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض. وعترتی أهل بیتی. فانظروا کیف تخلفونی فیهما. فإنهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض. ثم قال: إن الله مولای وأنا مولی کل مؤمن. ثم أخذ بید علی فقال: من کنت مولاه فعلی ولیه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فقیل لزید: أنت سمعته من رسول الله صلی الله علیه وسلم!! فقال: ما کان فی الدوحات أحد إلا قد رآه بعینه وسمعه بأذنه" .[۱۶]

لقد شهد زید علی عهد عاد رجاله مع النبی صلی الله علیه وسلم من حجهٔ الوداع. وکما شهد زید شهد أبو هریرهٔ. روی أنه دخل المسجد فاجتمع إلیه الناس فقام إلیه شاب فقال: أنشدک بالله سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: من کنت مولاه فعلی مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، فقال: إنی أشهد أنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: من کنت مولاه فعلی مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه [" ۱۷] وإذا کان الصحابهٔ قد

[صفحه ۵۲۸]

شهدوا أمام الأجيال بحديث الولاية. فإنهم أيضا شهدوا بحديث المنزلة. روى الإمام مسلم عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى. قال سعيد بن المسيب: فأحببت أن أشافه بها سعدا. فلقيت سعدا فحدثته بما حدثنى عامر. فقال سعد: أنا سمعته فقلت: أنت سمعته! فوضع أصبعيه على أذنه وقال: نعم وإلا فأسكتا (أى صمتا ["] ۱۸] ، وإذا كان الصحابة قد شهدوا على حديث المنزلة. فإن أم المساور كانت لها شهادة أخرى. فعن المساور الحميرى عن أمه قالت: دخلت على أم المؤمنين أم سلمة فسمعتها تقول: كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول: لا- يحب عليا منافق ولا يبغضه مؤمن [" ۱۹] ، وهكذا اكتملت الدائرة وجاءت المناقب كالنجوم عندما تظهر من وراء السحاب ليلتقى ضوؤها مع ضوء القمر. وكفى بالمناقب الثلاث لتقوم الحجة على أجيال الجمل وصفين والنهروان. وأجيال أخرى عاشت عصورا حق لها أن تبكى بلا احتجاز.

[۱] الرحبة / فضاء وفسحة ورحبة المسجد ساحته.

[۲] أخرجه أحمد وقال الهيثمى رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات (الفتح الربانى ۱۲۶:۲۳)، (مجمع الزوائد ۱۰۴:۹) وقال الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة رجاله ثقات وأورده ابن كثير فى البداية (البداية ۵۱۲:۵).

[۳] تحريم زوجات النبى فى هذا المقام يعادل تحريم الولاية على غير أصحابها.

[۴] رواه أحمد وقال فى الفتح أورده الهيثمى وقال: رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا (الفتح الربانى ۱۲۶:۲۳).

[۵] رواه عبد الله بن أحمد والبزار وقال الهيثمى إسنادهما حسن (الفتح الربانى ۱۲۷:۲۳) وأورده ابن كثير فى البداية (۲۱۱:۵)، ورواه البزار (كشف الأستار ۳:۱۹۰) والطبرانى (المعجم الكبير ۵:۱۷۵).

[۶] يلاحظ أن الإمام لم يقل متن الحديث وإنما استشهدهم أن يقولوا بما سمعوا. إمعانا فى الحجة.

[۷] قال الهيثمى رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة (الزوائد ۱۰۴:۹) وقال ابن كثير رواه النسائى إسناده جيد (البداية ۲۱۰:۵).

[۸] رواه البرار وابن جرير وقال الهيثمى رجال إسناده ثقات (كنز العمال ۱۵۸:۱۳) وقال الألبانى إسناده جيد (الصحيحة ۳۴۳:۵).

[۹] رواه الخطيب فى الأفراد (كنز العمال ۱۳۱:۱۳) وابن كثير فى البداية (البداية ۲۱۱:۵).

[۱۰] رماه البزار ورجاله رجال الصحيح وأبو يعلى ورجاله وثقوا و عبد الله بن أحمد (الزوائد ۱۰۵:۹)، وقال ابن كثير فى أحاديث الرحبة، روى من طرف متعددة عن على بن أبى طالب وله طرق متعددة عن زيد بن أرقم وقال سعيد بن جبير: وأنا سمعته من ابن عباس (البداية ۳۴۹:۷).

[۱۱] رواه ابن جرير وابن أبى عاصم وابن راهويه والمحاملى بسند صحيح (كنز العمال ۱۴۰:۱۳).

[۱۲] رواه مسلم فى فضائل على (الصحيح ۱۷۹:۱۵) وأحمد والحاكم (الفتح الربانى ۱۰۴:۲۲).

[۱۳] رواه مسلم (الصحيح ۱۸۱:۱۵) فى فضائل على.

[۱۴] رواه الطبرانى فى الكبير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ۶۰۲:۱۳).

[۱۵] مسلم شرح النووى ۱۸۱:۱۵.

[۱۶] رواه ابن جرير عن زيد وعن أبى سعيد (كنز العمال ۱۰۴:۱۳۱).

[۱۷] رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى ورجال أبى يعلى والطبرانى ثقات (الزوائد ۱۰۶:۹). وذكر ابن كثير فى البداية (۲۱۳:۵).

[۱۸] رواه مسلم (الصحيح ۱۷۴:۱۵) فى فضائل على.

[۱۹] رواه الترمذى وحسنه (الجامع ۶۳۵:۵) ورواه أحمد (الفتح الربانى ۱۲۱:۲۳).

على هامش أصداء يوم خم

لقد ذکرنا فیما سبق بعض الأحادیث الواردة فی حق أمیر المؤمنین. ولقد
وجدت أن ذکر بعضها هنا مرة أخری یلقی الضوء علی الأحداث فیمکن فهمها بسهولة. فأمیر المؤمنین بعد أن ضجت الساحة بالأحداث. وبعد أن واجه الصحابة بیوم خم. لم تقف المعارضة له موقف المستسلم. ولقد واجهت المعارضة جمیع رسل الله علیهم السلام فی وقت کانت الحجج الدامغة فوق رؤوسهم. وأمام صد المعارضة بدأ الإمام علی یکشف عن نفسه وفقا لما یقتضیه الموقف.
ومن المعلوم أن أمیر المؤمنین کان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله علیهم بخلوات کان یخلو بها مع رسول الله صلی الله علیه
[صفحه ۵۲۹]

وآله وسلم. لا یطلع أحد من الناس علی ما یدور بینهما، وکان کثیر السؤال للنبی صلی الله علیه وآله عن معانی القرآن وعن معانی کلامه صلی الله علیه وسلم. وإذا لم یسأل ابتدأه النبی صلی الله علیه وسلم بالتعلیم والتثقیف. ولم یکن أحد من الصحابة کذلک. بل کانوا أقساما: فمنهم من یهابه أن یسأل، وهم الذین یحبون أن یجئ الأعرابی أو الطارق فیسأله وهم یسمعون. ومنهم من کان بعید الفهم قلیل الهمة فی النظر والبحث. ومنهم من کان مشغولا عن طلب العلم وفهم المعانی. إما بعبادة أو دنیا. ومنهم المقلد الذی یری أن فرضه هو السکوت وترک السؤال. ومنهم المبغض الشانئ الذی لیس للدین عنده من الموقع ما یضیع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه. أما علی رضی الله عنه یضاف إلی الأمر الخاص به ذکاؤه وفطنته. وطهارة طینته. وإشراق نفسه وضوؤها... فلذلک کان علی کما قال الحسن البصری ربانی هذه الأمة وذا فضلها [" ۱] ، وقیل للحسن البصری: ما تقول فی علی بن أبی طالب؟ فاحمرت وجنتا الحسن وقال: رحم الله علیا. إن علیا کان سهما صائبا فی أعدائه. وکان فی محلة العلم أشرقها وأقربها إلی رسول الله صلی الله علیه وآله. وکان رهبانی هذه الأمة. لم یکن لمال الله بالسروقة. ولا فی أمر الله بالنومة. أعطی القرآن عزائمه وعمله وعلمه. فکان منه فی ریاض مونقة وأعلام بینة) [۲] .
وعندما بدأ أمیر المؤمنین یکشف عن نفسه فی عالم الروایة بعد اندثار عالم اللاروایة روی عنه أنه قال ": اللهم لا أعرف أن عبدا لک من هذه الأمة عبدک قبلی غیر نبیک - قالها ثلاث مرات - لقد صلیت قبل أن یصلی الناس سبعا [" ۳] ، وقال ": أنا أول من صلی مع رسول الله [" ۴] ، وقال ": کنت إذا سألت الله
[صفحه ۵۳۰]

صلی الله علیه وسلم أعطانی وإذا سکت ابتدأنی [" ۵] ، وقال ": کان لی من رسول الله صلی الله علیه وسلم مدخلان. مدخل باللیل ومدخل بالنهار [" ۶] ، وقال: لما نزلت هذه الآیة (" وأنذر عشیرتک الأقربین) جمع رسول الله صلی الله علیه وسلم أهل بیته وقال: من یبایعنی علی أن یکون أخی وصاحبی ووولیکم من بعدی، فمددت. وقلت: أنا أبایعک وأنا یومئذ أصغر القوم فبایعنی علی ذلک [" ۷] ، وقال ": إنه دخل علی النبی صلی الله علیه وسلم وقد بسط شملة (کساء یتغطی ویتلفف به) فجلس علیها هو وعلی وفاطمة والحسن والحسین. ثم أخذ البنی صلی الله علیه وسلم بمجامعه فعقد علیهم ثم قال: اللهم ارض عنهم کما أنا عنهم راض [۸] - وفی روایة - ثم تلا هذه الآیة: (إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم تطهیرا)، وقال: إن النبی صلی الله علیه وسلم قال له ": إن الله یغضب لغضبک ویرضی لرضاک [" ۹] ، وقال ": والذی فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبی الأمی صلی الله علیه وآله إلی، أن لا یحبنی إلا مؤمن ولا یبغضنی إلا منافق [" ۱۰] ، وقال ": جاء النبی صلی الله علیه وسلم أناس من قریش. فقالوا: یا محمد. إنا جیرانک وحلفاؤک. وإن ناسا من عبیدنا قد أتوک. لیس بهم رغبة فی الدین ولا رغبة فی الفقه. إنما فروا من ضیاعنا وأموالنا. فأردهم إلینا. فقال لأبی بکر: ما تقول. قال: صدقوا إنهم لجیرانک وأحلافک. فتغیر وجه
[صفحه ۵۳۱]

رسول الله صلی الله علیه وسلم ثم قال لعمر: ما تقول، قال: صدقوا إنهم لجیرانک وحلفاؤک. فتغیر وجه رسول الله صلی الله علیه وسلم

فقال: يا معشر قريش والله ليبعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان، فيضربكم على الدين!! أو يضرب بعضكم!! فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، قال: لا، قال عمر: أنا يا رسول الله. قال: لا. ولكنه الـذى يخصف النعل - وكان أعطى عليا نعلا يخصـفها [" ۱۱] ، وفى روايـة قـال راوى الحـديث عن على: ثم التفت إلينـا على فقال: إن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قال: من كـذب على متعمـدا فليتبوأ مقعده من النار [" ۱۲] .

وقال على: والله ما قوتل أهل هـذه الآيـة منـذ نزلت: (وإن نكثوا إيمانهم من بعـد عهـدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمـة الكفر إنهم لا إيمان لهم) [۱۳] ، وقال ": عهد إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فى قتال الناكثين والقاسـطين والمارقين [" ۱۴] ، وقال: ولقد علم المسـتحفظون من أصـحاب محمد صـلى الله عليه وسلم أنى لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط. ولقد واسيته بنفسى من المواطن التى تنكص فيها الأبطال وتتأخر الأقـدام. نجـدة أكرمنى الله بها. ولقـد قبض رسول الله صـلى الله عليه وسـلم. وإن رأسه لعلى صـدرى. ولقد سألت نفسه فى كفى. فأمررتها على وجهى، ولقد وليت غسله صلى الله

[صفحه ۵۳۲]

عليه وسـلم والملائكة أعوانى. فضـجت الدار والأفنية: ملا يهبط، وملأ يعرج. وما فارقت سـمعى هينمة منهم. يصلون عليه، حتى وارياه فى ضـريحه. فمن ذا أحق به منى حيا وميتا. فانفـذوا على بصائركم. ولتصـدق نياتكم فى جهاد عدوكم. فوالذى لا إله إلا هو إنى لعلى جادة الحق. وإنهم لعلى مزلة الباطل. أقول ما تسمعون وأستغفر الله لى ولكم [" ۱۵] .

لقـد أخبرهم أن العلماء والأمناء من الصـحابة يعلمون أنه لم يرد على الله ورسوله ساعـة قط. ويعلمون أنه ثبت معه يوم أحد وفر الناس. وثبت معه يوم حنين وفر النـاس. وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحهـا. وكـل ذلك نجـدة من الله أكرمه بها. وأخبرهم بحقيقـة الأمر يوم وفاة النبى صـلى الله عليه وسـلم. والحقيقة أن النبى صـلى الله عليه وسـلم قبض و إن رأسه لعلى صدر على وليست على صدر أحد غيره. وأخبرهم أن الملائكة النازلين فى الدار ارتفع ضـجيجهم. وأنه سمع ذلك ولم يسمعه غيره من أهل الدار، وقال ابن أبى الحديد: حـديث سـماع الصوت رواه خلق كثير عن على. وروى أن عليـا عصب عينى الفضـل بن العبـاس حين صب عليه المـاء. وأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أوصاه بذلك. وقال: إنه لا يبصر عورتى أحد غيرك إلا عمى [" ۱۶] ، ثم قال الإمام بعد ذلك: أى شخص أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حال حياته وحال وفاته منى. قال ابن أبى الحديد: ومراده من هذا الكلام. أنه أحق بالخلافة بعده. وأحق الناس بالمنزلـة منه. حيث كان بتلك المنزلـة منه فى الدنيا [۱۷] ، ثم أمرهم فقال: فانفـذوا إلى بصائركم. أى أسـرعوا إلى الجهاد على عقائـدكم التى أنتم عليها. ولا يدخلن الشك والريب فى قلوبكم. ثم بشـرهم فقال: إنى لعلى جادة الحق. وإنهم لعلى منزلة الباطل، قال ابن أبى الحديد: كلام عجيب على قاعدة الصناعة المعنوية لأنه لا يحسن أن يقول: وإنهم لعلى

[صفحه ۵۳۳]

جادة الباطل. لأن الباطل لا يوصف بالجادة [" ۱۸] .

وهكـذا دارت الأحـداث بعد مقتل عثمان. فلقد بايع الناس الإمام عليا وعقب المبايعة بدأت الإصـلاحات العلوية التى بدأت بقرار عزل الأمراء ثم بدأت حركة الاصلاح تتسع فقام الإمام بالتسوية بين الناس فى الأموال وتعديل نظام الخراج فأعاد الحقوق للمقاتلة ثم بدأت الرواية عن النبى صـلى الله عليه وسـلم تتسع وبدأ القص والقصاصون فى ركوب دوابهم للاتجاه نحو عالم النسيان، وبينما كانت حركة الاصـطلاح تسير قطع الناكثون الفارون من بنى أميـة والمرتزقة عليها الطريق. وكانت حركة المعارضة عليها تحذير من النبى صـلى الله عليه وسـلم لعلهم يرجعون ولكن الكلاب نبحت وما رجعوا. وكانت حركة الاصـلاح عليها تبشـير من النبى صـلى الله عليه وسـلم وفيها علامـات واضـحة. وكان حتما أن يواجه الناكثون خاصف النعل فى ميـدان القتال. وكانت المعارك أيضا عليها علامات من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[۱] ابن أبى الحديد ۵۹۸:۳.

[۲] البدایة والنهایة ۵:۸.

[۳] رواه أحمد وقال فی الفتح: وقال الهیثمی: رواه أحمد وأبو یعلی والبزار والطبرانی وإسناده حسن (الفتح الربانی ۳۶:۲۳)، (کنز العمال ۱۲۶:۱۳)، (تحفة الأحوازی ۲۳۴:۱۰).

[۴] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۰۳:۹) ورواه الطبرانی وابن أبی شیبة وابن سعد (کنز العمال ۱۲۴:۱۳).

[۵] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۷:۵)، (تحفة الأحوازی ۲۲۵:۱۰) رواه النسائی وابن خزیمة فی صحیحه، والحاکم وأبو نعیم وسعید بن منصور (کنز العمال ۱۲۰:۱۳).

[۶] رواه النسائی ۲:۱۲.

[۷] رواه أحمد وابن حریر والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۲۹، ۱۳۳، ۱۷۵:۱۳)، (الفتح الربانی ۱۲۲:۲۳).

[۸] رواه الطبرانی فی الأوسط وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۶۹:۹) وحدیث الکساء روی عن عدد من الصحابة وقد خرجناه من قبل.

[۹] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۲۰۳:۹).

[۱۰] رواه مسلم (الصحیح ۲۱۶۴)،، حب علی من الإیمان.

[۱۱] رواه أحمد وابن جریر وصححه وسعید بن منصور والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۲۷، ۱۷۳:۱۳).

[۱۲] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۳۴:۵) والخطیب وابن جریر والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۱۵، ۱۹۳:۱۳).

[۱۳] رواه ابن مردویه (کنز العمال ۴۲۵:۲)، (الدر المنثور ۲۱۵:۳)، وروی أیضا عن ابن عباس وحذیفة وأخرجه ابن أبی شیبة وابن أبی حاتم عن ابن عمر (کنز العمال ۴۱۷، ۴۲۶ : ۱)، وروی أن حذیفة قال: ما بقی من أصحاب هذه الآیة إلا ثلاثة ولا من المنافقین إلا أربعة. وأخرجه ابن أبی شیبة والبخاری فی تاریخه وابن مردویه (الدر المنثور ۲۱۴:۳).

[۱۴] رواه ابن عساکر وابن عدی والطبرانی (کنز العمال ۲۹۲:۱۱)، وقال ابن کثیر روی من طرق عدیدة (البدایة ۳۳۴:۷).

[۱۵] ابن أبی الحدید ۴۹۳:۳.

[۱۶] المصدر السابق، ۴۹۷:۳.

[۱۷] المصدر السابق، ۴۹۸:۳.

[۱۸] المصدر السابق ۴۹۸:۳.

المجلد۲

فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۲)

معالم الفتن (المجلد ۲)

معارک الإمام

یوم الجمل

الناکثون فی البصرة

مسیر الإمام علی

علی أعتاب الحرب

الحرب

ایام صفین

اقامة الحجة

معاویة و سیاسة التشکیک

الاعلام العلوی

الاصطفاف للقتال

القتال

مشاهد من میدان القتال

عندما اتخذوا المصاحف جدارا

التخاذل و غیاب القمر

خیمة التحکیم

قتال المارقین

التخاذل

غارات معاویة

لیلة بکی فیها القمر

وغاب القمر

لهیب اللیل

جداول الدماء

عاصفة الأمطار الحمضیة

بیعة الحسن بن علی

القتال بالذهب والفضة

الغدر

وفاء و حقائق علی الطریق

نظرات فی مقعد جدید

اتهام الأمین

ائتمان الخائن

دماء حول کهف النفاق

قلوب من نحاس

مقتل حجر بن عدی

هل رأیت آیة النار

مقتل أبی عبدالله الحسین

و جاء وفد أغیلمة قریش

ابناؤنا خیر من أبنائهم

النبی یبکی

على مفترق الطرق

الرسائل والحصار

العزيمة والإصرار

التخويف والإرهاب

صمود على الطريق

و جاء الطغاة

القتلة واللصوص

سلام عليك أبا عبدالله

صرخات الحسين

و الله إنه ليحزننى قتل الحسين

بكاء و أحداث

فى دار أم سلمة

فى دار عبدالله بن عباس

فى قصر الإمارة

فى قصر الخلافة

الظهور والتشويه

نظرات على كربلاء

الاستعباد

يوم الحرة أو يوم الأنصار

الوحل

حركة عبدالله بن عمر بن الخطاب

حركة أنس بن مالك

ما أشبه الليلة بالبارحة

رياح الفرعونية

تشابه القلوب

دائرة الرؤية الفرعونية

نظرات على الأطلال

صدود وردود

افرازات فكرية

من مقدمات الإفرازات الفكرية

آراء و شهود

آراء

الشهود

معارک الإمام

يوم الجمل

تحرکت أم المؤمنين عائشة ومن معها نحو البصرة. وروى أن أمير المؤمنين على خرج على رأس قوة وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج. نظرا لما سيترتب على خروجهم. وبينما هو يستعد للخروج لقيه عبد الله بن سلام. فقال ": يا أمير المؤمنين لا تخرج منها - أى من المدينة - فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها. ولا يعود سلطان المسلمين أبدا [" ۱] ، وابن سلام لا يقول هذا من فراغ. ولكنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عندما اعترض عليه أصحاب أمير المؤمنين. قال لهم الإمام: دعوا الرجل فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم [" ۲] ، ثم قال: "وأيم الله لقد أخبرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم [" ۳] ، لقد عرف ابن سلام أن أمير المؤمنين باتجاهه نحو الناكثين يكون قد بدأ طريقا طويلا ينتهى بقتله. ولقد رأى أن الخطوة الأولى فى اتجاه يوم الجمل تلتقى مع الخطوة الأخيرة يوم النهروان. فالأحداث ذات نسيج واحد وإن اختلفت الأعلام

[صفحه ۶]

والأسماء. لذلك قال ابن سلام فى الحديث الصحيح للإمام ": لا تقدم العراق فإنى أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف فقال: وأيم الله لقد أخبرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام: فما رأيت كاليوم قط محاربا يخبر بذا عن نفسه - وفى رواية - ما رأيت كاليوم رجلا محاربا يحدث الناس بمثل هذا [" ۴] ، أى ما رأيت محاربا يحدث الناس بأنه سيقتل على هذا الطريق، وقتله واقع لا محالة. وبينما كان الإمام يتجهز لرد الناكثين جاء رجل من أهل الكوفة فقال ": ما هذا؟ فقالوا: أمير المؤمنين. قال: ما له، قالوا: غلبه طلحة والزبير فخرج يعترض لهما ليردهما. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. آتى عليا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه إن هذا لشديد [" ۵] ، وكانت هذه أول صفحة على طريق الجمل وفيها التباس الأمور عند الناس. وروى أن الحسن بن على رضى الله عنه كان قد أشار على والده فى أمور منها ": أنه قال له أخرج من المدينة يوم حصار عثمان. ولكن الإمام عصاه فى ذلك وقال له: أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان. فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به [" ۶] ، ويبقى سؤال: من الذى أحاط بأهل البيت وبعثمان فى وقت واحد؟ لقد كان هناك حصار منظور وحصار غير منظور ولكن الإمام الخبير بالرجال يعلمه جيدا. إن الإجابة على هذا السؤال يتعذر الوقوف على علمها. ولا يعلم حقائقها إلا من شاهدها ولابسها. بل لعل الحاضرين المشاهدين لها لا يعلم الكثير منهم باطن الأمر، وروى أن الحسن بن على كان له رأى فى خروج طلحة والزبير ومن معهما. وهو أن يجلس الإمام فى بيته ثم يراقب الأحداث. فقال الإمام: وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان

[صفحه ۷]

وهنا على أهل الإسلام. ووالله ما زلت مقهورا مذ وليت. منقوصا لا أصل إلى شئ مما ينبغى وأما قولك: اجلس فى بيتك. فكيف لى بما قد لزمنى أو من يريدنى. أريد أن أكون مثل الضبع الذى يحاط بها ويقال دباب دباب ليست ههنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج. وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعنينى. فمن ينظر فيه، فكف عنك أى بنى [" ۷] .

لقد كان الإمام يتصرف تصرف الحجة. فهو لم يؤمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يرفع سيفا ما دام الناس لم يلتفوا حوله باختيارهم. فإذا التفوا حوله فقد لزمه أن يسوقهم إلى ما يعرف وإلا تعطل الدين. وهذا هو شأن الحجة على امتداد التاريخ الإنسانى إن تركه الناس بعد دعوته إياهم. إما أن يعتزل بمن آمن معه. وإما أن يهاجر. فإن وقع على أتباعه ما يستأصلهم من حوله فهنا يدخل فقه الدفاع والقتال ولا قتال إلا بنص. وفى جميع الحالات فإن الحجة لا يهمل من لزمه أو من يريده. وروى أن أمير المؤمنين عندما كان يتجهز لرد الناكثين كان فريق أم المؤمنين قد خطا خطوات واسعة نحو الحرب الشاملة.

[۱] الطبری ۵:۱۷۰، البدایه والنهایه ۷:۲۳۴.

[۲] الطبری ۵:۱۷۰.

[۳] رواه أبو یعلی والبزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۳۸)، ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۳:۱۴۰).

[۴] رواه أبو یعلی والبزار ورجاله ثقات والحاکم وصححه والحمیدی وابن حبان فی صحیحه (الزوائد ۹:۱۳۸)، (المستدرک ۳:۱۴۰)، (الخصائص الکبری للسیوطی ۲:۲۳۵).

[۵] الطبری ۵:۱۷۰.

[۶] الطبری ۵:۱۷۰.

[۷] الطبری ۵:۱۷۰، الکامل ۳:۱۱۴.

الناکثون فی البصرهٔ

دخلت أم المؤمنین فناء البصرهٔ. فلقیها عمیر بن عامر التمیمی فأوصاها أن

تراسل وجوه البصرهٔ قبل اقتحامها [۱] وکان علی البصرهٔ عثمان بن حنیف عاملا

لأمیر المؤمنین. فقالت أم المؤمنین لابن عامر: جئتنی بالرأی وأنت امرؤ صالح. وکتبت السیدهٔ عائشهٔ إلی رجال من أهل البصرهٔ منهم الأحنف بن قیس. ثم تحرکت بقواتها لتحسین أوضاعها حتی إذا کانت بالحفیر انتظرت الجواب [۲] .

وروی البیهقی عن الحسن البصری أن الأحنف بن قیس قال لأم المؤمنین: یا أم المؤمنین. هل عهد إلیک رسول الله هذا المسیر؟ قالت: اللهم لا، قال: فهل

[صفحه ۸]

وجدته فی شئ من کتاب الله جل ذکره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرأون. فقال: فهل رأیت رسول الله صلی الله علیه وسلم استعان بشئ من نسائه إذا کان فی قلهٔ والمشرکین فی کثرهٔ؟ قالت: اللهم لا. فقال الأحنف: فإذن ما هو ذنبنا [" ۳] .

وروی أن عثمان بن حنیف عندما علم برسائل السیدهٔ عائشهٔ إلی وجوه أهل البصرهٔ دعا عمران بن حصین وأبا الأسود الدؤلی وقال: انطلقا إلی هذه المرأهٔ، فاعلما علمها وعلم من معها، فخرجا، ودخلا علی عائشهٔ بعد أن استأذنا وأذنت وقالا: إن أمیرنا بعثنا إلیک نسألک عن مسیرک. فهل أنت مخبرتنا. فقالت: أطالب بدم عثمان، فقال أبو الأسود: إنه لیس فی البصرهٔ من قتلهٔ عثمان أحد. قالت: صدقت، ولکنهم مع علی بن أبی طالب فی المدینهٔ. وجئت أستنهض أهل البصرهٔ لقتاله. أنغضب لکم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سیوفکم؟ فقال: ما أنت من السوط والسیف إنما أنت حبیس رسول الله صلی الله علیه وسلم. أمرک أن تقری فی بیتک وتتلی کتاب ربک، ولیس علی النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء، وإن أمیر المؤمنین لأولی بعثمان منک وأحسن رحما، فإنهما أبناء عبد مناف. قالت: لست بمنصرفهٔ حتی أمضی لما قدمت إلیه. أفتظن یا أبا الأسود أن أحدا یقدم علی قتالی. فقال: أما والله لنقاتلنک قتالا أهونه لشدید. ورجعا إلی عثمان بن حنیف وقال أبو الأسود إنها الحرب فتأهب لها [" ۴] .

ومما سبق یضاف إلی أسباب خروج السیدهٔ عائشهٔ. أن القوم ظنوا أن أحدا لن یجرؤ علی قتالها. ویترتب علی ذلک أن یقف أمیر المؤمنین علی وحده فی العراء ومعه قلهٔ لا- تغنی عنه أمام الکثرهٔ شیئا. وبدأ عثمان بن حنیف یتجهز لصد العدوان. وکان یعلم أن للناکثین أعوانا بالبصرهٔ [۵] وأقبلت قوات أم المؤمنین،

[صفحه ۹]

حتی إذا انتهوا إلی المربد ودخلوا من أعلاه. أمسکوا ووقفوا حتی خرج ابن حنیف فیمن معه. وخرج إلی السیدهٔ عائشهٔ من أهل البصرهٔ من أراد أن یخرج إلیها ویکون معها [۶] واصطف الفریقان. وتحدث طلحهٔ فذکر عثمان بن عفان.

ودعا إلى الطلب بدمه. وقال: إن فى ذلك إعزاز دين الله عز وجل. وتكلم الزبير بمثل ذلك. وبعد حديثهما انقسم الناس. فقال البعض: صدقا وبرا، وقال البعض الآخر: فجرا وغدرا، وقالا الباطل وأمرا به. قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان [" ۷] ، وكان من نتيجة هذا الانقسام أن تحاتى الناس وتحاصبوا وأرهجوا [۸] وعندئذ تكلمت أم المؤمنين. وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة

كأن صوت امرأة جليلة [۹] ، فقالت: كان الناس يتجنون على عثمان بن عفان ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيرونا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسنا من كلامنا فى صلاح بينهم. ثم قالت: ألا إن مما ينبغى لا ينبغى لكم غيره. أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله عز وجل [" ۱۰] ، وترتب على بيان السيدة عائشة. افتراق أصحاب عثمان بن حنيف أمير على فرقتين. فرقة قالت: صدقت والله وجاءت والله بالمعروف. وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما تقولون، فتحاتوا وتحاصبوا وأرهجوا [۱۱] ومال بعضهم إلى عائشة وبقى بعضهم مع

عثمان. وبينما يضرب الناس بعضهم بعضا بالحجارة. أقبل جارية بن قدامة السعدى وقال: يا أم المؤمنين. والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح. إنه كان لك من الله ستر وحرمة. فهتكت سترك وأبحت حرمتك. إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك. إن كنت أتيتنا

[صفحه ۱۰]

طائعة فارجعى إلى منزلك. وإن كنت أتيتنا مستكرهة. فاستعينى بالناس [" ۱۲] ، ولكن فوات أم المؤمنين قامت بتنفيذ أمر القتال الأول الذى سمعه أبو الأسود الدؤلى حين بعثه ابن حنيف إلى السيدة عائشة. وهذا الأمر " لست بمنصرفة حتى أمضى لما قدمت إليه [۱۳] ، ودار قتال شديد وكثر عدد القتلى فى أصحاب ابن حنيف [۱۴] ، وتدخلت أطراف لإنهاء هذا النزاع ولكن الأمور كانت تجرى بسرعة نحو يوم الجمل. ففى نهاية المطاف تم الاستيلاء على البصرة. وأخرجوا عثمان بن حنيف، من قصره. وروى الطبرى: أنهم أرسلوا إلى عائشة يستشيرونها فى أمر ابن حنيف فقالت: إقتلوه. فقالت لها امرأة: نشدتك بالله يا أم المؤمنين فى عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشة: احبسوه ولا تقتلوه [" ۱۵] .

وأمر مجاشع بن مسعود وكان أحد جنود أم المؤمنين بضرب عثمان ونتف شعر لحيته: فضربوه أربعين سوطا ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه [۱۶] وخطبت أم المؤمنين: أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل به دمه. مصتموه كما يماص الثوب الرخيص. ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه وبايعتم ابن أبى طالب بغير مشورة من الجماعة ابتزازا وغصبا أترونى أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه. ولا أغضب لعثمان من سيوفكم. ألا إن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قتلته. فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم. ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. ولا يدخل فيهم من شرك فى دم عثمان [" ۱۷] .

وهكذا خرج على بن أبى طالب من الخلافة عند أول خطوة داخل البصرة

[صفحه ۱۱]

لأنه عندهم من الذين اشتركوا فى دم عثمان. وروى اليعقوبى أنهم بعد استيلائهم على البصرة. انتهبوا بيت المال وأخذوا ما فيه. فلما حضر وقت الصلاة تنازع طلحة والزبير وجذب كل منهما صاحبه حتى فات وقت الصلاة. وصاح الناس: الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد، فقالت أم المؤمنين رضى الله عنها: يصلى محمد بن طلحة يوما وعبد الله بن الزبير يوما. وروى ابن الأثير: لما بايع أهل البصرة طلحة والزبير قال الزبير: أريد ألف فارس أسير بهم إلى على بن أبى طالب أقتله بياتا أو صباحا قبل أن يصل إلينا. فلم يجبه أحد. فقال: إن هذه للفتنة التى كنا نحدث عنها. فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟ قال: ويلك إنا نبصر ولا تبصر. ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمى فيه. غير هذا الأمر. فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر [" " ۱۸] ، وعندما لم يجب الزبير أحد. قال طلحة والزبير: إن قدم علينا على ونحن على هذا الحال من القلة والضعف ليأخذن بأعناقنا. فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب، فبايعهم. على

ذلک الأزد وضبة وقیس غیلان. وبعث طلحة والزبیر إلی أهل الشام بما صنعوا وصاروا إلیه وقالا ": وإنا نناشدکم الله فی أنفسکم. ألا نهضتم بمثل ما نهضنا به [" ۱۹] ، وکتبت أم المؤمنین إلی أهل الکوفة بما کان منهم وأمرتهم أن یثبطوا الناس عن علی بن أبی طالب وتحثهم علی طلب قتلة عثمان وکتبت إلی أهل الیمامة وإلی أهل المدینة بما کان منهم أیضا وسیرت الکتب [۲۰] وروی ابن الأثیر أن أم المؤمنین بعثت إلی أبی موسی الأشعری بکتاب تأمره فیه بملازمة بیته أو نصرتها [۲۱] وکانت سیرة أبی

موسی بعد ذلک هی نصره أم المؤمنین علی امتداد الطریق. وکتبت عائشة إلی زید بن صوحان [۲۲] تقول له ": من عائشة ابنة أبی [صفحه ۱۲]

بکر أم المؤمنین حبیبة رسول الله صلی الله علیه وسلم، إلی ابنها الخالص زید بن صوحان. أما بعد: فإذا أتاک کتابی هذا. فأقدم فانصرنا علی أمرنا هذا. فإن لم تفعل فخذل الناس عن علی بن أبی طالب [" ۲۳] ، فکتب إلیها. من زید بن صوحان إلی عائشة ابنة أبی بکر حبیبة رسول الله صلی الله علیه وسلم، أما بعد. فأنا ابنک الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلی بیتک. وإلا فأنا أول من نابذک، وقال زید رضی الله عنه ": رحم الله أم المؤمنین أمرت أن تلزم بیتها. وأمرنا أن نقاتل فترکت ما أمرت به وأمرتنا به. وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه [" ۲۴] .

وروی ابن کثیر أن أبا موسی وهو یثبط الناس عن علی. قام زید بن صوحان وقال للناس: أیها الناس سیروا إلی أمیر المؤمنین وسید المسلمین. سیروا إلیه أجمعین [" ۲۵] ، وإذا سبقنا الأحداث بخطوتین سنجد زیدا علی أرض معرکة الجمل شهیدا. وروی عنه أنه قال: لا تنزعوا عنی ثوبا ولا تغسلوا عنی دما فإنی رجل مخاصم [" ۲۶] .

[۱] الطبری ۵:۱۷۳.

[۲] الطبری ۵:۱۷۳.

[۳] المحاسن والمساوئ:البیهقی ۱:۳۵.

[۴] العقد الفرید ۲:۲۷۸، الإمامة والسیاسة:ابن قتیبة ۱:۵۷.

[۵] الطبری ۵:۱۷۵.

[۶] الطبری ۵:۱۷۵.

[۷] الطبری ۵:۱۷۵.

[۸] الطبری ۵:۱۷۵.

[۹] الطبری ۵:۱۷۵ البدایة والنهایة ۷:۳۳۳.

[۱۰] الطبری ۵:۱۷۵ البدایة والنهایة ۷:۳۳۳.

[۱۱] الطبری ۵:۱۷۵ البدایة والنهایة ۷:۳۳۳.

[۱۲] الطبری ۵:۱۷۶، البدایة والنهایة ۷:۲۳۳، الکامل ۳:۱۰۹.

[۱۳] العقد الفرید ۲:۲۷۸، الإمام والسیاسة ۱:۵۷.

[۱۴] الطبری ۵:۱۷۷، البدایة ۷:۳۳۳.

[۱۵] الطبری ۵:۱۷۸، البدایة والنهایة ۷:۲۳۳.

[۱۶] الطبری ۵:۱۷۸، البدایة والنهایة ۷:۲۳۳.

[۱۷] الإمامة والسیاسة ۶۴، ۱:۶۵، ابن أبی الحدید ۳:۳۵۷.

[۱۸] الکامل ۳:۱۱۳، الطبری ۵:۱۸۳.

[۱۹] الطبری ۵:۱۸۱، الکامل ۳:۱۱۲.

[۲۰] الكامل ۱۱۲:۳.

[۲۱] الكامل ۱۱۷:۳.

[۲۲] كان من الذين سيرهم عثمان وقال النبى فيه: زيد وما زيد وأخبر بأنه فى الجنة.

[۲۳] الطبرى ۱۸۴:۵، البداية والنهاية ۲۳۴:۷، الإمامة والسياسة ۱:۶۰.

[۲۴] الطبرى ۱۸۴:۵، البداية والنهاية ۲۳۴:۷، الإمامة والسياسة ۱:۶۰.

[۲۵] البداية والنهاية ۲۳۷:۷.

[۲۶] رواه البخارى ويعقوب بن سفيان فى تاريخهما (الإصابة ۵۸۳:۱)، (الإستيعاب ۵۶۰:۱).

مسير الإمام على

لم يترك الإمام طريقا إلا أقام فيه حجة على القوم، فلقد بعث إليهم
بالرسائل وبأصحابه وطالب بالتحكيم بينه وبينهم بواسطة أطراف تخلفت عنه وعنهم. ولكن القوم أبوا إلا المضى فى طريقهم الذى خرجوا من أجله. فعندما علم الإمام بهياج المعارضين من مكة وجاءته رسالة من أم المؤمنين أم سلمة وفيها: أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياعهم. أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة ومعهم عبد الله بن عامر. يذكرون أن عثمان قتل مظلوما والله كافيهم
[صفحه ۱۳]
بحوله وقوته. ولولا ما نهانا الله عن الخروج وأنت لم ترض به. لم أدع الخروج إليك والنصرة لك. ولكنى باعثة إليك بابنى وهو عدل نفسى عمر بن سلمة، يشهد شاهدك فاستوص به يا أمير المؤمنين خيرا [" ۱] وكانت عائشة قد كتبت إلى أم
المؤمنين أم سلمة تريد. منها الخروج للطلب بدم عثمان. ولكن أم سلمة وعظتها موعظة بليغة رواها ابن قتيبة فى كتابه غريب الحديث فقالت: إن عمود الإسلام لا يثأب بالنساء. ولا يرأب بهن إن صدع... ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك فى بعض هذه الفلوات... والله لو سرت سيرك هذا ثم قيل لى ادخلى الفردوس. لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا ضربه على."
وروى أن الإمام خطب يومئذ فقال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله. فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم. فقام أبو قتادة الأنصارى وقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلدنى هذا السيف وقد أغمدته زمانا. وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا [" ۲] ، وتحرك الإمام من المدينة إلى الربذة فأقام فيها أياما بمن معه من قوات. وفى أثناء مسيره بعث إلى أهل الكوفة وغيرهم. للإصلاح فقال ": أما بعد فإنى خرجت من حيى هذا إما ظالما وإما مظلوما وإما باغيا وإما مبغيا عليه. وإنى أذكر الله من بلغه كتابى هذا. لما نفر إلى. فإن كنت محسنا أعاننى وإن كنت مسيئا استعتبنى [" ۳] إنه صوت الحجة – فالإمام يخاطب الحاضر وفقا لما يعلم عن المستقبل الذى كشف عنه النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه عز وجل. والإمام يخبر الحاضر قبل أن يأتى المستقبل وهذا عين العدل فى الشريعة الغراء وروى أنه كتب إلى الأمصار لما قدم إلى الربذة؟ كونوا لدين الله أعوانا وأنصارا وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة
[صفحه ۱۴]
إخوانا. ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمضه، " وقال ": لقد أصيب هذا الرجل.. يعنى عثمان – بأيدى هؤلاء القوم. الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة. ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن، " ثم قال ": إنه لا بد مما هو كائن أن يكون. ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة. وشرها فرقة تنتحلنى ولا تعمل بعملى. فقد أدركتم ورأيتم. فالزموا دينكم واهدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم. واتبعوا سنته. واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن. فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردوه. وارضوا بالله جل وعز ربا وبالإسلام دينا وبمحمد

صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن حكما وإماما [" ۴] - فالإمام كان يتحرك تحرك الدعوة، يخاطب الحاضر بزاد الماضى الطاهر المطهر. ليعبر الحاضر إلى المستقبل فى أمان، وفى علم الله المطلق أن كل حاضر فيه غثاء لا يسمع ولا يبصر - وهذا الغثاء يسير بزاد الآباء والأهواء، لذا فهو عدو لكل حاضر ولكل مستقبل فيه من الله برهان، وهنا كانت الحجة مهمة يقوم بها الهداة إلى الله حتى لا يكون للغثاء على الله حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون. وروى أن الإمام عندما بعث إلى الأمصار للإصلاح. كتب أيضا إلى طلحة والزبير وأرسل كتابه مع عمران بن حصين وفيه: أما بعد: فقد علمتما وإن كتمتما أنى لم أرد الناس حتى أرادونى. ولم أبايعهم حتى بايعونى. وإنكما ممن أرادنى وبايعنى، وإن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب. ولا لحرص حاضر. فإن كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب. وإن كنتما بايعتمانى كارهين. فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية. ولعمرى ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان، وإن دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه. كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به. وقد زعمتما أنى قتلت عثمان. فبينى وبينكما من تخلف عنى وعنكما من أهل

[صفحه ۱۵]

المدينة. ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل. فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما. فإن الآن أعظم أمركما بالعار. من قبل أن يجتمع العار والنار. والسلام [" ۵] .

وبينما الإمام يبعث برسائله، علم وهو فى الربذة بما حدث لعامله عثمان بن حنيفة فى البصرة وبالقتلى الذين قتلوا ظلما وعدوانا [۶] ، كما علم أن أبا موسى الأشعرى يثبط الناس عنه بالكوفة. وتحرك الإمام إلى ذى قار، يقول ابن عباس عندما دخل عليه: فأتيته فوجدته يخصف نعلا [۷] فقلت له: نحن

إلى أن تصلح من أمورنا أحوج منا إلى ما تصنع. فلم يكلمنى حتى فرغ من نعله. ثم ضمها إلى صاحبتها وقال لى: قومهما. فقلت: ليس لهما قيمة، قال: ذاك! قلت: كسر درهمه، قال: والله أيهما أحب إلى من أمركم هذا إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. ثم خرج فخطب الناس فقال: إن الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وليس أحد من العرب يقرأ كتابا، ولا يدعى نبوة. فساق الناس حتى بوأهم محلتهم [۸] وبلغهم منجاتهم. فاستقامت قناتهم [۹] واطمأنت صفاتهم [۱۰] أما والله إن كنت لفى

ساقتها. حتى تولت بحذافيرها. ما عجزت ولا جبنت وإن مسيرى هذا لمثلها. فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه. ما لى ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإنى لصاحبهم بالأمس. كما أنا صاحبهم اليوم والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم. فأدخلناهم فى حيزنا [" ۱۱] .

فالإمام فى كلامه. كأنه جعل الباطل كشئ قد اشتمل على الحق. واحتوى عليه. وصار الحق فى طيه. كالشئ الكامن المستتر فيه. فأقسم لينقبن ذلك.

[صفحه ۱۶]

الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبه. ثم قال: ما لى ولقريش، ولم يقل: ما لى وطلحة والزبير. وذلك لأن الإمام ينظر إلى مساحة طويلة وعريضة. بصفته خبير بمعرفة الرجال، ثم أخبر عن هذه المساحة الطويلة العريضة فقال: لقد قاتلتهم كافرين. ثم قال خاصف النعل الأول. أى نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولأقاتلنهم مفتونين. يقول ابن أبى الحديد: لأن الباقى على الإمام مفتون فاسق [۱۲] ثم ربط الإمام بين ماضى المساحة وحاضرها برباط واحد،

فقال: وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم، ثم اختصر أسباب النزاع كله فقال: والله ما تنتقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم. فأدخلناهم فى حيزنا. هكذا تحدث الإمام بعد إن خصف نعله. وروى أن الإمام على بعث إلى أبى موسى بعد أن علم خبره. أنه اختار الكوفة للنزول بين أظهرهم. وإنه اختارهم على الأمصار. لأنهم أشد الناس حبا له. فلما دخل مبعوثا على قال أبو موسى: أما والله إن بيعة عثمان بن عفان فى عنقى وعنق صاحبكما الذى أرسلكما. إن أردنا أن تقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل

حيث كان [" ۱۳] ، فانطلق المبعوثان إلى على بن أبى طالب بـذى قار وأخبراه الخبر [۱۴] ، فأرسل الإمام على مبعوثا آخر هو عبـد الله بن عباس ومعه الأشتر [۱۵] ، وعندما لم تفلح هذه المحاولة أيضا مع أبى موسـى. بعث الإمام بالحسن بن على وعمار بن ياسـر، وروى ابن الأـثير. أن عبـد الخير الحيوانى قال: يا أبا موسـى. هل بايع طلحـة والزبير؟ قال: نعم، قال: هل أحـدث على بن أبى طالب ما يحل به نقض بيعته. قال: لا أدرى، فقال: لا دريت، نحن نتركك حتى تـدرى، هل تعلم أحدا خارجا من هذه الفتنة، إنما الناس أربع فرق، على بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة. ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتل بها عدو، قال أبو موسى: أولئك خير

[صفحه ۱۷]

الناس وهى فتنة. فقال عبد الخير: غلب عليك غشك يا أبا موسى [" ۱۶] .

وعندما قدم الحسن بن على وعمار بن ياسـر إلى الكوفة. صـعدا المنبر فكان الحسن فوق المنبر فى أعلاه وقام عمار أسـفل من الحسـن [۱۷] ، قال فى فتـح البارى: فقال الحسن: إن عليا يقول: إنى أذكركم الله رجلا رعى لله حقا إلا نفر فإن كنت مظلوما أعاننى، وإن كنت ظالما خـذلنى. والله إن طلحـة والزبير لأول من بايعنى ثم نكثا. ولم أسـتأثر بمال. ولا بـدلت حكما [" ۱۸] ، والبخارى لم يرو شـيئا من كلمـة الحسن. علمـا بـأنه ذكر أن الحسن كان فى أعلى المنبر. وروى البخارى ما قاله عمار. فقال: قال عمار: إن عائشـة قـد سارت إلى البصـرة ووالله إنهـا لزوجـة نبيكم فى الـدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هى [" ۱۹] ، وقال فى فتح البارى: قال بعض الشراح: الضمير فى إياه. لعلى بن أبى طالب، والظاهر خلافه وإنه لله تعالى [۲۰] ، وأقول: إن الكتاب وأهل البيت فى حبل واحـد كما روى مسـلم وغيره. وروى أن أبا موسـى قال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت فيمن عدا على عثمان أمير المؤمنين فأحللت نفسـك مع الفجار. فقال عمار: لم أفعل ولم يسوءنى [۲۱] ، قال الحسن،: يا أبا موسـى لم تثبط الناس عنا. فوالله ما أردنا إلا الاصـلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شـئ. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقـائم خير من الماشـى والماشـى خير من الراكب فقال عمار: يا أيها الناس. إنما قال له خاصـة: أنت فيها قاعـدا خير منك قائما. فقام رجل فقال لعمار: اسكت أيها العبد أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا. وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار

[صفحه ۱۸]

الناس [" ۲۲] .

ثم ألقى زيـد بالمفاجـأة. جاء ومعه كتابان من عائشـة إلى أهل الكوفـة كتاب للخاصـة وآخر للعامـة وفيهما: أما بعـد فثبطوا أيها الناس واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان. فلما فرغ زيد من قراءة الكتاب فى المسـجد قال: أمرت بأمر وأمرنا بأمر. أمرت أن تقر فى بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة. فأمرتنا بما أمرت به. وركبت ما أمرنا به [۲۳] وبعد أن فرغ زيد من كلامه. انقسم

الناس. فريق هنا وفريق هناك. وقام الحسن بن على فقال: أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم. فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأـن يليه أولو النهى. أمثل فى العاجلـة وخير فى العاقبـة. فأجيبوا دعوتنا. وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم [۲۴] ، وقام حجر بن عـدى فقـال: أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين. وانفروا خفافا وثقالا. وأنا أولكم [۲۵] ، وقام زيـد بن صوحان وقال: أيها الناس. سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين. سيروا إليه أجمعين [" ۲۶] .

ثم جاءت المفاجأة الأخرى على يد عمار بن ياسر، قال عمار: يا أبا موسى أنشدك الله. ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وأنا سائلك عن حديث. فإن صدقت وإلا بعثت عليك من أصـحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم من يقررك به. أنشدك الله. أليس إنما عناك رسول الله أنت نفسك فقال: إنها ستكون فتنة بين أمتى أنت يا أبا موسى فيه نائما خير منك قاعـدا. وقاعـدا خير منك قائما. وقائما خير منك ماشـيا. فخصك رسول الله ولم يعم الناس. فخرج أبو موسـى ولم يرد عليه شيئا [" ۲۷] ، وعن أبى نجاء قال: كنت جالسا مع عمار، فجاء أبو موسى

[صفحه ۱۹]

قال: ما لى وما لك، ألست أخاك. فقال عمار: ما أدرى ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل!!؟ قال أبو موسى: قد استغفر لى. فقال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار [۲۸] ، وإذا أخذنا خطوتين إلى الإمام نحو الأحداث. نجد أن الإمام عليا كان يرفض اشتراك أبى موسى فى التحكيم بعد صفين [۲۹] ولكن القوم أصروا على اشتراكه. فقال الإمام: إنه ليس لى بثقة قد فارقنى. وخذل الناس عنى ثم هرب منى [۳۰] وعندما أصروا قال

الإمام: لقد كنت بالأمس أميرا. فأصبحت اليوم مأمورا. وكنت بالأمس ناهيا فأصبحت اليوم منهيا. وسيأتى هذا فى موضعه. وروى أن أبا موسى لم يكف عن تثبيط الناس. فبعث الإمام على قرظة بن كعب الأنصارى أميرا على الكوفة. وكتب معه إلى أبى موسى: إنى قد بعثت الحسن وعمارا يستنفران الناس. وبعثت قرظة بن كعب واليا على الكوفة. فاعتزل عملنا مذموما مدحورا. وإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن ينابذك. فإن نابذته فظفر بك يقطعك إربا إربا [۳۱] ثم بعث الأشتر فجاء وكان لا يمر بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم ويقول: اتبعونى إلى القصر. فانتهى إلى القصر فى جماعة من الناس فدخله. وأخرج الأشتر غلمان أبى موسى من القصر. فخرجوا ينادون: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر. فضربنا وأخرجنا. فنزل أبو موسى فدخل القصر. فصاح به الأشتر: أخرج لا أم لك. أخرج الله نفسك. فقال: أجلنى هذه العشية، فقال: هى لك [۳۲] فلما قدم الكتاب على أبى موسى اعتزل [۳۳] واستجاب

[صفحه ۲۰]

الناس للنفير [۳۴] .

وروى عن زيد بن على عن ابن عباس قال: لما نزلنا مع على ذى قار، قلت: يا أمير المؤمنين ما أقل من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظن. فقال: والله ليأتينى منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا. لا يزيدون ولا ينقصون. قال ابن عباس: فدخلنى والله من ذلك شك شديد فى قوله. وقلت فى نفسى: والله إن قدموا لأعدنهم. وروى ابن إسحاق عن عمه بن يسار قال: نفر إلى على إلى ذى قار من الكوفة فى البحر والبر ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا حتى سمع صهيل الخيل وشحيح البغال حوله - فلما سار بهم منقلة [۳۵] قال ابن عباس: والله لأعدنهم فإن كانوا كما قال: وإلا أتممتهم من غيرهم. فإن الناس قد كانوا سمعوا قوله: قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلا ولا ينقصون رجلا. فقلت: الله أكبر. صدق الله ورسوله. ثم سرنا [۳۶] ، وقبل أن يأخذ الإمام على الخطوة التالية بعث عبد الله بن عباس وزيد بن صوحان إلى عائشة وقال لهما: إذهبا إلى عائشة وقولا لها إن الله أمرك أن تقرى فى بيتك وألا تخرجنى منه. وإنك لتعلمين ذلك، غير أن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك. فوقع الناس لاتفاقك معهم فى البلاء والعناء. وخير لك أن تعودى إلى بيتك. ولا تحومى حول الخصام والقتال. وإن لم تعودى ولم تطفئى هذه النائرة فإنها سوف يعقب القتال. ويقتل فيها خلق كثير. فاتقى الله يا عائشة وتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو. وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر تعقبه النار. فجاءا إلى عائشة وبلغا رسالة على إليها. فقالت: إنى لا أرد على بن أبى طالب بالكلام لأنى لا أبلغه فى الحجاج. فرجعا إليه وأخبراه بما قالت [۳۷] ، ثم بعث عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب ليستفيئه إلى

[صفحه ۲۱]

طاعته [۳۸] وقال له ": لا تلقين طلحة. فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصا قرنه [۳۹] .

يركب الصعب [۴۰] ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة [۴۱] فقل له: يقول لك ابن خالك. عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق. فما عدا مما بدا [" ۴۲] .

ورجع رسل الإمام يؤذونه بالحرب، فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله ثم قال: أيها الناس إنى راقبت هؤلاء القوم كى يرعووا أن يرجعوا ووبختهم بنكثهم. وعرفتهم بغيهم فلم يستجيبوا. وقد بعثوا إلى أن أبرز للطعان. وأصبر للجلاد. وإنما تمنيك نفسك أمانى الباطل. وتعدك الغرور. ألا هبلتهم. الهبول. لقد كنت وما أهدد بالحرب. ولا أرهب بالضرب. ولقد أنصف القارة من رماها فليرعدوا وليبرقوا. فقد رأونى قديما. وعرفوا نكايتى. فكيف رأونى. أنا أبو الحسن. الذى فللت حد المشركين. وفرقت جماعتهم.

وبـذلك القلب ألقى عـدوى اليوم. وإنى لعلى ما وعـدنى ربى من النصـر والتأييد. وعلى يقين من أمرى. وفى غير شـبهة من دينى أيها النـاس. إن الموت لا ـ يفوته المقيم. ولا يعجزه الهارب. ليس عن الموت محيـد ولا محيص. من لم يقتل. مات، إن أفضل الموت القتل. والذى نفس على بيده لألف ضـربة بالسـيف أهون من موتة واحدة على الفراش. الله إن طلحة نكث بيعتى وألب على عثمان حتى قتله. ثم عضهنى [۴۳] به ورمانى. اللهم فلا تمهله. اللهم إن الزبير قطع رحمى ونكث بيعتى، وظاهر على عدوى. فاكفينه اليوم بما شئت... ثم نزل [۴۴] .

[صفحه ۲۲]

[۱] الطبرى ۵:۱۶۷، الكامل ۳:۱۱۳، الحاكم (المستدرك ۳:۱۱۹) ابن أبى الحديد ۲:۴۱۱.

[۲] الكامل ۳:۱۱۳، الطبرى ۵:۱۶۷.

[۳] ابن أبى الحديد.

[۴] الطبرى ۵:۱۸۵، الكامل ۳:۱۱۵.

[۵] ابن أبى الحديد ۵:۹۵.

[۶] الطبرى ۵:۱۸۶.

[۷] يخصف بغله:أى يخرزها.

[۸] أى أسكنهم منزلهم، أى ضرب الناس على الإسلام حتى أوصلهم إليه.

[۹] أى كانت قناتهم معوجة فاستقامت.

[۱۰] أى كانت تزلزله فاستقرت.

[۱۱] ابن أبى الحديد ۱:۴۰۴.

[۱۲] ابن أبى الحديد ۱:۴۰۵.

[۱۳] الطبرى ۵:۱۸۴.

[۱۴] الطبرى ۱:۱۸۷.

[۱۵] الطبرى ۵:۱۸۷.

[۱۶] الكامل ۳:۱۱۷، الطبرى ۵:۱۹۰.

[۱۷] البخارى (الصحيح ۴:۲۲۹) أحمد (الفتح الربانى ۲۳:۱۴۰).

[۱۸] رواه أبو يعلى (فتح البارى ۱۳:۵۸).

[۱۹] البخارى ك الفتن (الصحيح ۴:۲۲۹) أحمد (الفتح الربانى ۲۳:۱۴۰).

[۲۰] فتح البارى:ابن حجر ۱۳:۵۸.

[۲۱] الطبرى ۵:۱۸۷، البداية والنهاية ۷:۲۳۶.

[۲۲] الطبرى ۵:۱۸۸.

[۲۳] الطبرى ۵:۱۸۸.

[۲۴] الطبرى ۵:۱۸۹، الكامل ۳:۱۱۸.

[۲۵] الطبرى ۵:۱۸۹، البداية والنهاية ۷:۲۳۷.

[۲۶] البداية والنهاية ۷:۲۳۷.

[۲۷] رواه ابن عساكر (كنز العمال ۱۱:۲۷۴)، وأبو يعلى (كنز ۷:۲۴۶) وحـديث الفتنة التى يكون فيها القاعـد خير من القائم رواه أبو

داوود حدیث ۴۲۶۲ ولکنه لم یخص فیه أبو موسی.

[۲۸] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۰۸:۱۳).

[۲۹] الطبری ۲۸:۶، مروج الذهب ۴۰۶:۲.

[۳۰] الطبری ۲۸:۶.

[۳۱] الکامل ۱۳۳:۳.

[۳۲] الکامل ۱۱۸:۳، البدایة ۲۳۷:۷.

[۳۳] الکامل ۱۳۳:۳.

[۳۴] البدایة والنهایة ۲۳۷:۷.

[۳۵] مرحلة السفر.

[۳۶] ابن أبی الحدید ۴۰۶:۱، البدایة والنهایة وقال ابن کثیر رواه الطبرانی ۲۱۲:۶.

[۳۷] تاریخ ابن أعثم ص ۱۷۵.

[۳۸] لیستفیئه:أی یسترجعه.

[۳۹] عاقصا قرنه:أی قد التوی قرناه علی أذنیه.

[۴۰] یرکب الصعب:أی یستهین بالمستصعب من الأمور.

[۴۱] العریکة:أی الطبیعة.

[۴۲] ابن أبی الحدید ۳۸۸:۱.

[۴۳] عضهه:قال فیه ما لم یکن.

[۴۴] ابن أبی الحدید ۲۴۷:۱.

علی أعتاب الحرب

واجه الإمام علی صعوبات کثیرة علی طریق الحرب وکان تفادی هذه الصعوبات لیس بالأمر الیسیر. فهی ستدور بین أهل القبلة وفی کل طرف من الأطراف یوجد رجال من أهل بدر. وعلی رأس هذه الأطراف أعلام لا یمکن تجاهلها. والحرب ستدور بعد أن غاب عن ذهن الغالب الأعم أحادیث کثیرة کان النبی صلی الله علیه وسلم یحذر فیها من أمور ویسمی فیها رؤوس الفتن بأسمائهم وأسماء آبائهم کما فی حدیث حذیفة وغیره. وعندما أمر الإمام بروایة الحدیث لم یعط الوقت الکافی لغربلة هذه الأحادیث وبیان مقاصد الصحیح منها. فعندما أصبحت الحرب علی الأبواب ظهرت أحادیث الاعتزال والتماس سیوف من خشب والقاتل والمقتول فی النار. وأحادیث فی أعماقها سلب مهمة الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر کی تصبح الأمة بلا مهمة وتمهد الطریق لأغیلمة قریش، وکان الإمام علی وسط هذه الأمواج المتلاطمة حجة بذاته ومن حوله نجوم ساطعة کعمار وزید وحذیفة وغیرهم، وفی هؤلاء نصوص من النبی صلی الله علیه وسلم تدعو للالتفاف حول علی. وعلی الرغم من هذا فإن الإنسان هو الإنسان. فالإنسان الذی ارتدی ثیاب النفاق بینما کان الوحی ینزل علی رسول الله صلی الله علیه وسلم وکان من السهل علیه أن یشق طریقه فی عهود ما بعد النبی وإن کان فی هذه العهود من هو خبیر بمعرفة الرجال، ولأن الساحة بها الحق والباطل وبها باطل ابتلع الحق فی بطنه لیتکلم علی لسانه. کان الإمام علی یحشد الناس من حوله متفادیا لکل جدل عقیم یکون فی صالح التیارات المعادیة. کان یسأل فیجب إجابة الخبیر، وکان یعرض عن کل إنسان لا یرید أن ینتظم فی جیشه. وذلک لأنه یعرف نتیجة الحرب مقدما وفقا لما کان النبی صلی الله علیه وسلم یخبره. ومن کان هذا شأنه فهو فی دائرة الحجة ولیس فی دائرة الحشد من

أجل الأموال والغنائم. ونحن هنا سنلقى ضوءا على بعض ما كان يجرى على أعتاب الحرب، لنرى حجم الصعوبات التى كان الإمام يواجهها وهو يأخذ بالأسباب ليصل إلى نتيجة وهو يعرفها مقدما. وكان يسير فى اتجاهها على الرغم من معرفته أنه مقتول فى نهاية طريقها. لأنه كان

[صفحه ۲۳]

يعلم أن الاختبار سنة إلهية جارية، وأن جيله يختبر بأحداث يمثل الإمام نفسه الحق فيها، وأن نتائج هذه الأحداث سوف تمتد إلى أجيال قادمة. وأول ضوء نلقيه هنا سيكون على ما برز من طروحات فكرية فى هذه الآونة، روى أن الحارث الليثى دخل على أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين. أى فتنة أعظم من هذه، إن أصحاب بدر يمشون بعضهم إلى بعض بالسيف، فقال الإمام: ويحك أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها. والذى بعث محمدا بالحق وكرم وجهه. ما كذبت ولا كذبت. ولا ضللت ولا ضل بى. ولا زللت ولا زل بى. وإنى لعلى بينة من ربى. بينها الله لرسوله. وبينها رسوله لى. وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لى. ولو كان لى ذنب لكفر عنى ذنوبى ما أنا فيه من قتالهم [" ۱] .

وروى أن الإمام خطب الناس فقال عن الفتن: إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع. وأحكام تبتدع. يخالف فيها كتاب الله. ويتولى عليها رجال رجالا ["... ۲] ، وذكر ابن أبى الحديد: إن الإمام تكلم عن الفتنة. فقال ": عليكم بكتاب الله " أى إذا وقع الأمر واختلط الناس. فعليكم بكتاب الله. وقد قام إليه من سأله عن الفتنة فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد روى كثير من المحدثين عن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين. كما كتب على جهاد المشركين. فقال على: يا رسول الله. ما هذه الفتنة التى كتب على فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله. وهم مخالفون للسنة. فقلت: يا رسول الله، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الإحداث فى الدين. ومخالفة الأمر. فقلت: يا رسول الله. إنك كنت وعدتنى الشهادة. فأسأل أن يجعلها لى بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين

[صفحه ۲۴]

والقاسطين والمارقين. أما إنى وعدتك الشهادة وتستشهد. تضرب على هذه. يعنى رأسك. فتخضب هذه - يعنى لحيتك. فكيف صبرك إذن؟ قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبر. هذا موطن شكر. قال: أجل. فأعد للخصومة فإنك مخاصم. فقلت: يا رسول الله. لو بينت لى قليلا- فقال: إن أمتى ستفتتن من بعدى. فتتأول القرآن وتعمل بالرأى. وتستحل الخمر بالنبيذ. والسحت بالهدية. والربا بالبيع... فكن جليس بيتك حتى تقلدها. فإذا قلدتها جاشت عليك الصدور. وقلبت لك الأمور. تقاتل حينئذ على تأويل القرآن. كما قاتلت على تنزيله... فقلت يا رسول الله: فبأى المنازل أنزل هؤلاء المفتونين من بعدك أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردة؟ فقال: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل. فقلت: يا رسول الله. أيدركهم العدل منا أم من غيرنا؟ قال: بل منا. بنا فتح الله وبنا يختم. وبنا ألف الله القلوب بعد الشرك. وبنا يؤلف بين القلوب بعد الفتنة [" ۳] .

وقتال المفتونين وشدته وضع فى دائرة الذهن. وكان أبو ذر رضى الله عنه يحدث به. قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "، والذى نفسى بيده. إن فيكم لرجلا يقاتل الناس من بعدى على تأويل القرآن كما قاتلت المشركين على تنزيله. وهم يشهدون أن لا إله إلا الله. فيكبر قتلهم على الناس. حتى يطعنون على ولى الله ويسخطون عمله كما سخط موسى أمر السفينة والغلام والجدار. فكان ذلك كله رضى الله تعالى [" ۴] ، ورغم أن أبا ذر كان يحدث بقتال المفتونين قبل أن يأتى زمانه. إلا أن زمانه عندما جاء، قال من قال: يا أمير المؤمنين أى فتنة أعظم من هذه. ولقد رأينا كيف أجاب الإمام على هذا. ولم تكن هذه العقبة الوحيدة التى أزاحها الإمام. وإنما كانت هناك عقبات وعقبات أوجدتها ثقافات متعددة، وروى أن الحارث بن حوط الليثى دخل على أمير المؤمنين. فقال: يا أمير المؤمنين ما أرى طلحة والزبير وعائشة: أضحوا إلا

[صفحه ۲۵]

على الحق، والحارث ما قال ذلك إلا من بريق العناوين التى يحملها هؤلاء. ولكن الإمام فى إجابته أخذ الحارث بعيدا عن البريق والزخرف. فقال: يا حارث. إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس. ولكن اعرف الحق باتباع من اتبعه. والباطل باجتناب من اجتنبه [۵] .

وعلق الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال على هذا القول فقال: العاقل من يقتدى بسيد العقلاء على كرم الله وجهه حيث قال ": لا يعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله. " وإذا كانت هناك عقبات فكرية قد واجهت الإمام. فلقد رأينا كيف تعامل الإمام مع أصحاب هذا الفكر بالمنطق وإقامة الحجة. وبنفس المنطق واجه الإمام العقبات التى واجهته عند التعبئة العامة قبل الحرب، وكما ذكرنا أن بعض الأحاديث قد ظهرت على السطح ويكمن فيها الاعتزال فى غير موضعه. ومن هذه الأحاديث ما روى عن الأحنف أنه قال: خرجت وأنا أريد نصر ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أبو بكرة فقال: يا أحنف ارجع فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. فقلت: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه قد أراد قتل صاحبه [" ۶] ، يقول سعيد حوى وهو يعقب على هذا الحديث: إن القتال مع على بن أبى طالب كان حقا وصوابا. ولكن أبو بكرة حمل حديثا ورد فى غير الحالة التى قاتل فيها على. على حالة قتال على للباغين. وهو فهم من أبى بكرة. ولكنه فهم فى غير محله. ومن هذه الروايات ندرك أن عقبات متعددة واجهت عليا فى معركته مع الآخرين. منها أمثال هذه الفتوى التى هى أثر من الورع أكثر منها أثر عند فتوى تصيب محلها [" ۷] .

وورد عن الإمام على قد حث الناس أن يعقلوا الخبر فقال ": إعقلوا الخبر

[صفحه ۲۶]

إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية. فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل [" ۸] .

وقال ": ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة [" ۹] ، وروى أنه لما بلغه حديث أبو بكرة قال: القاتل والمقتول منهم... ونحن إذا نظرنا فى جانب آخر. نجد أن أبا بكرة كان يرجح أن أهل الجمل لن يفلحوا. ووفقا على ترجيحه هذا حدد خطوات نفسه. ولم يحدد خطواته على حديث القاتل والمقتول فى النار. روى البخارى عنه أنه قال ": لقد نفعنى الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال ": لن يفلح قوم ولوا. أمرهم امرأة [" ۱۰] ، وقال فى فتح البارى: زاد الإسماعيلى عن طريق عوف " قال أبو بكرة: فعرفت أن أصحاب الجمل لن يفلحوا، " ونقل ابن بطال عن المهلب أن ظاهر حديث أبى بكرة يوهم توهين رأى عائشة فيما فعلت [۱۱] ، وروى الترمذى أن أبا بكرة بعد أن ساق الحديث قال ": فلما قدمت عائشة ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصمنى الله [" ۱۲] .

مما سبق نعلم أن أبا بكرة كان يرجح أن الهزيمة ستصب على أهل الجمل. لكنه قال لمن أراد أن يلتحق بجيش على " القاتل والمقتول فى النار " وهذا من خوفه على الأحنف من شدة القتال. وترتب على هذا اعتزال الأحنف بأتباعه وكان معه زهاء ستة آلاف مقاتل [۱۳] وفى موقف آخر التبست فيها الأمور

عند عملية حشد القوات. روى أن الإمام على ذهب إلى لاهيان بن صيفى. وكان له صحبة. فقام الإمام على باب حجرته وقال له: كيف أنت يا أبا مسلم. قال: بخير. فقال الإمام: ألا تخرج معى إلى هؤلاء القوم فتعيننى. قال: إن خليلى عليه الصلاة والسلام وابن عمك. عهد إلى إذا كانت فتنة بين المسلمين أن اتخذ

[صفحه ۲۷]

سيفا من خشب، فهذا سيفى فإن شئت خرجت به معك، فقال الإمام: لا حاجة لنا فيك ولا فى سيفك. ورجع من باب الحجرة ولم يدخل [" ۱۴] .

لقد رجع الإمام دون أن يوجه أى اتهام إلى أن أحد. فكما ذكرنا أن المقام مقام حجة، والاختيار مفتوح. وهو يأخذ بالأسباب ويكدح

من أجل نهایـة سـیقتل عندها. والله یفعل ما یرید. لیبتلی الحاضـرین وینظر کیف یعملون ویبتلی الذین من بعدهم فی مواقفهم من هذه الأحـداث. والإمـام قبـل اتخـاذه قرار الحرب فی جمیع معـارکه. کـان یشاور ثم یضع الجمیع أمام قراره وفی قراره لا تجـد إلا مصـلحة الدعوة فعن طارق بن شهاب قال: رأیت علیا علیه رحل رث بالربذة وهو یقول للحسن والحسین: ما لکما تحنان حنین الجاریة. والله لقد ضربت هـذا الأمر ظهرا لبطن. فما وجدت بدا من قتال القوم أو الکفر بما أنزل علی محمد [" ۱۵] ، إن الإمام إذا رفض القتال فلا معنی لعهد النبی له بقتال الناکثین والفاسـقین والمارقین. لذا فهو یخوض الصـعب. ولا یخوض الصـعب أحد سواه. وعلی طریق الصعب کان یخفف عن اتبـاعه فیخبرهم قبـل کـل معرکـة خاضـها بنتیجتهـا وأهم معالمهـا. قـال ذلک یوم الجمل وأیام صـفین وفی قتال الخوارج. وروی عن ابن عبـاس قـال: لما بلغ أصـحاب علی حین ساروا إلی البصـرة. أن أهل البصـرة ولیقتلن طلحـة والزبیر. ولیخرجن إلیکم من الکوفة ستة آلاف وخمسـمائة رجلا ["... ۱۶] ، ولقـد تحـدثنا من قبـل أن ابن عباس وجـد أن العـدد کما ذکر الإمام وذلک لما کان رسول الله صـلی الله علیه وسـلم یخبره. والخلاصـة: أن مجمل الصـعوبات التی واجهت الإمام کانت نتیجـة لعدم الروایة بعد رسول الله. فهنـاک أحـادیث تحـذیر فیهـا أسـماء رؤوس الفتن کل ذلک علی امتـداد ربع قرن کان قـد ضاع من ذاکرة البعض أو تناسوه کما فی حدیث حذیفة. ومن الأسباب أیضا تعدد مصادر الفتوی ومنها من لا یصل بالإنسان إلی حقیقة.

[صفحه ۲۸]

[۱] ابن أبی الحدید.

[۲] ابن أبی الحدید ۶۶۷:۱.

[۳] ابن أبی الحدید ۲۷۷:۳، ورواه وکیع (کنز المال ۱۸۳:۱۶).

[۴] رواه الدیلمی (کنزل العمال ۶۰۶:۱۱).

[۵] البیان والتبین:الجاحظ ۱۱۲:۲، تاریخ الیعقوبی ۱۵۲:۲.

[۶] رواه مسلم (الصحیح ۱۱:۱۸).

[۷] الأساس فی السنة ۱۷۱۱:۴.

[۸] ابن أبی الحدید ۳۷۴:۵.

[۹] ابن أبی الحدید ۴۴۹:۵.

[۱۰] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۲۸:۴).

[۱۱] فتح الباری ۵۶:۱۳.

[۱۲] الترمذی وصححه (الجامع ۵۲۸:۴)، والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۱۹:۳).

[۱۳] الکامل ۱۲۲:۳، الطبری ۱۹۸:۵).

[۱۴] رواه أحمـد والترمـذی وحسـنه وابـن ماجـة ونعیم ابن حمـاد وأورده ابن حجر فی الإصابـة وابن کـثیر فی البدایـة (الفتـح الربـانی ۱۳۸:۲۳)، (جامع الترمذی ۴۹۰:۴).

[۱۵] رواه الحاکم (المستدرک ۱۱۵:۳)، (کنز العمال ۳۴۹:۱۱).

[۱۶] رواه الطبرانی، وابن کثیر فی البدایة (البدایة ۲۱۲:۶).

الحرب

فشلت جمیع محاولات أمیر المؤمنین لتجنب القتال وأبی الناکثون إلا

المواجهة. وکان الأحنف بن قیس عندما سـمع ومن معه فتوی أبی بکرة قد اعتزل القتال. وأعلن هذا أمام معسـکر أمیر المؤمنین. وعلی

الرغم من هذا إلا أن وجد أن الأحنف كان مع على. فأرسل إليه. إن شئت أتيتك وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف. وكان على قد علم أن الأحنف قد أعلن الاعتزال أمام المعسكر الآخر. وفى هذا الوقت العصيب لم يقل له الإمام: تعال إلى وأعنى. وإنما قال له: كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال، فقال الأحنف: إن من الوفاء الله عز وجل قتالهم. لقد كان للفتوى أثر سئ. لأنه قد ترتب عليها عهود، والإمام يحترم عهود الناس حتى فى أحلك الأوقات. ولذا قال له: كف من قدرت على كفه [" ۱] ، وفى ميدان القتال وقف الإمام على فى مواجهة الناكثين على أول طريق البغى الطويل. كان الإمام يركب بغلة النبى صلى الله عليه وسلم [۲] .

وروى البلاذرى أنها بقيت إلى زمن معاوية [۳] وكان محمد بن الحنفية

يرفع راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب. وروى أن أم المؤمنين عائشة كانت على جمل يدعى عسكر اشتراه لها يعلى بن أمية. وكان الجمل لواء القوم [۴] وألبسوا هودج أم المؤمنين الأدرع [۵] ووضعوا عليه جلود البقر [۶] ، وفى لحظات السكون قبل بدء المعركة خرج طلحة والزبير. فخرج إليها الإمام على،

[صفحه ۲۹]

حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال الإمام: لعمرى قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا. فهلا أعددتما عذرا يوم القيامة فاتقيا الله. ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. ألم أكن حاكما فى دمكما. تحرمان دمى وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكم ذمى؟ قال طلحة: ألبت الناس على عثمان. فقال الإمام: يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق. يا طلحة، تطلب بدم عثمان! فلعن الله قاتل عثمان! يا طلحة أجئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك فى البيت، أما بايعتنى؟ قال: بايعتك والسيف على عنقى!! ثم قال الإمام: يا زبير ما أخرجك؟ قال: أنت! ولا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به منى!!؟ فقال الإمام: ألست له أهلا بعد عثمان. قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا [" ۷] .

لقد كان الزبير أكثر صراحة. فعندما سأله الإمام عن سبب الخروج. حدثه عن الحكم والكرسى. وبعد هذا الحديث عادت الخيول إلى مواقعها. ثم وقف الإمام على بين الصفين ودعا الزبير وقال: أنت آمن. تعالى حتى أعلمك. فأتاه. فقال له الإمام: أنشدك الله؟ أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم؟ قال: نعم ولم أذكر ذاك إلا فى مقامى هذا. ثم انصرف [۸] وفى رواية: لتقاتلنه وأنت له ظالم ثم لينصرن عليك. قال: قد

سمعت لا جرم. لا أقاتلك [۹] وعندما انصرف قال له ابنه: ما لك؟ فقال: ذكرنى على حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول: لتقاتلنه وأنت له ظالم. فقال عبد الله ابنه: وللقتال جئت! إنما جئت تصلح بين الناس. ويصلح الله هذا الأمر. قال: لقد حلفت أن لا أقاتله فقال: فاعتق غلامك وقف.

[صفحه ۳۰]

فأعتق غلامه ووقف [۱۰] وفى بداية القتال انطلق الزبير بفرسه وخرج من أرض المعركة. فنزل بوادى السباع وقام يصلى فأتاه ابن جرموز فقتله [۱۱] .

وبعد أن أقام الإمام الحجة على طلحة والزبير مرة وعلى الزبير وحده مرة. بعث إلى طلحة. أن القنى. فلقيه فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه. قال: نعم، فقال: فلم تقاتلنى!! [۱۲] وانطلق طلحة للقتال ولم يفعل ما فعل الزبير. ولم يبق غير أم المؤمنين لم تسمع من أمير المؤمنين كما سمع طلحة والزبير. وشاء الله أن تخاطب أم المؤمنين على بن أبى طالب وعمار بن ياسر قبل المعركة، روى أن عمارا دنا من موضع أم المؤمنين وقال: ماذا تدعين؟ قالت: الطلب بدم عثمان. فقال: قاتل الله فى هذا اليوم الباغى والطالب بغير الحق. ثم قال: أيها الناس إنكم لتعلمون أينا الممالئ فى قتل عثمان [۱۳] وما أن انتهى

عمار حتى جاء فى اتجاه أم المؤمنين فوارس أربعة. فهتفت: فيهم رجل عرفته. ابن أبى طالب ورب الكعبة. سلوه ما يريد فقال لها أمير

المؤمنين: أنشدك بالله الذى أنزل الكتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك. أتعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلنى وصيا على أهله وفى أهله، قالت: اللهم نعم. قال: فما لكِ؟ قالت: أطلب بدم أمير المؤمنين عثمان قال: أرينى قتلة عثمان، ثم انصرف [۱۴] .

مما سبق علمنا أن عمارا ذكر أم المؤمنين بقتال البغاة وذلك فى قوله ": قاتل الله فى هذا اليوم الباغى " أما أمير المؤمنين لقد تحدث على فى أمر لا نعلم باطنه. لقد كشف أنه وصى على أهل النبى صلى الله عليه وسلم وفيهم.

[صفحه ۳۱]

ومن المعروف أن لقب أمهات المؤمنين لا ينزع عنهن بوفاة الرسول، وإنما هو لقب ملاصق لهن حتى قيام الساعة. ولحاملة اللقب حقوق وواجبات حددها الشرع الحكيم. وهذا الامتداد لا بد له من عين تحرسه. ولقد ورد أنه لا يؤدى عن النبى فى حياته إلا على وبما أن اسم النبى تحمله أمهات المؤمنين ولا ينزع بوفاة النبى فإن الذى يسهر على مصلحة أمهات المؤمنين حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض أو أصحاب المخططات، لا يكون غير رأس الدولة. وهذا على أى حال تفسير لقول الإمام بأن النبى جعله وصيا على أهله وفى أهله. فالسؤال طرح أثناء معركة. وعندما وافقت أم المؤمنين على قول أمير المؤمنين قال: فما لكِ؟ والله أعلم بمراده. ولقد روى أن أم المؤمنين صفية قالت للنبى لما حضر: فإن حدث حدث فإلى من؟ قال: إلى على بن أبى طالب [" ۱۵] ، وبعد أن بين الإمام وصايته. سألها عن قتلة عثمان فقال: أرينى قتلة عثمان. فإذا كانت قد جاءت بالقوات من أجل هذا. فعليها إن كانت تعرفهم أن تدل الإمام عليهم كى تجرى محاكمتهم وتحقن دماء المقاتلين، وإن كانت لا تعرفهم فما فائدة الحشد - فلقد كان من الواجب أن تعطى للإمام فرصة ليجمع أطراف القضية. وبعد أن قال الإمام هذا انصرف. وصدر أمر القتال. قال الإمام: عباد الله، اتقوا الله، وغضوا الأبصار. واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطئوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة والمبارزة والمناضلة والمبادلة والمعانقة والمكادمة والملازمة فاثبتوا. واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. واصبروا إن الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر [۱۶] ، ثم نادى مناديه: لا يتبع مدبر. ولا يذفف على جريح، ولا يقتل أسير ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن [۱۷] ، ثم نادى المنادى: لا تبدأوا القوم

[صفحه ۳۲]

بالقتال وكلموهم بألطف الكلام. فإن هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة. فنادى معسكر عائشة: يا ثأرات عثمان. فقال الإمام: ما يقولون؟ فقال محمد بن الحنفية: يقولون يا ثأرات عثمان فرفع الإمام يديه وقال: اللهم كب اليوم قتلة عثمان لوجوههم [۱۸] اللهم خذ أيديهم وأقدامهم [۱۹] ، ثم قال الإمام لأصحابه: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف. فإن قطع يده أخذه بيده الأخرى. فقال له فتى شاب: أنا، قال: اعرض عليهم هذا، وقل هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره. والله الله فى دمائنا ودمائكم. فلما جاءهم الفتى حملوا عليه حتى قتل. فقال الإمام: قد طاب لكم الضراب فقاتلوهم [۲۰] .

وما إن بدأت المعركة حتى لاحت هزيمة أصحاب الجمل، يقول ابن كثير. تقدم على بالراية. وقتل خلق كثير وجم غفير ولم تر واقعة أكثر من قطع الأيدى والأرجل فيها من هذه الواقعة [۲۱] وقال عبد الله الكاهلى: لما كان يوم الجمل

ترامينا بالنبل حتى فنيت وتطاعنا الرماح حتى تكسرت. وتشبكت صدورنا وصدورهم حتى لو سيرت الخيل عليها لسارت. وعلم أهل المدينة بالواقعة يوم الحرب قبل أن تغرب الشمس من نسر مر بماء حول المدينة ومعه شئ معلق فسقط معه. فإذا أكف فيه خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب وعلم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة بما نقل إليهم النسور من الأيدى والأقدام [۲۲] ، وكان هدف قوات أم المؤمنين الحفاظ على الجمل. فكان لا يأخذ بالراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف [۲۳] ، ومن حرص الرجال على الجمل وحبهم له. روى أن رجالا من الأزد كانوا يأخذون بعر الجمل فيفتتونه ويشمونه ويقولون بعر جمل

[صفحه ۳۳]

أما ريحه مسك [۲۴] وكان معسكر على يقولون: لا تزال الحرب قائمة ما دام

هذا الجمل واقفا. وذلك لأن معسكر عائشة يدافعون عنه ويعملون على رفع رأسه وكلما قتل منهم أحد سارع الآخر ليمسك بزمام الجمل. وعندما فنى بنو ضبة. أخذ الخطام سبعون رجلا من قريش. وكل واحد يقتل بعد صاحبه. وكان محمد بن طلحة منهم قال لعائشة: مرينى بأمرك يا أمه، فقالت: أمرك أن تكون كخير ابنى آدم. فثبت فى مكانه يقول: حم لا ينصرون. فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه [۲۵] .

وأمر الإمام بقتل الجمل [۲۶] ، ولما سقط البعير على الأرض انهزم من حوله من الناس. وحمل هودج عائشة، وإنه كالقنفذ من السهام. ونادى منادى على فى الناس: أنه لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح [۲۷] ، وبعد أن هدأ غبار المعركة. ظهر على أرض القتال عشرة آلاف قتيل [۲۸] أما الجرحى فلا يحصون [۲۹] .

وكان من بين القتلى طلحة بن عبيد الله. قتله مروان بن الحكم وكان معه فى معسكر واحد وتحت قيادة واحدة. ولكن مروان كانت له مهمة تختلف عن مهمة طلحة. وهى قتل طلحة [۳۰] ولم تعلم أم المؤمنين بقتل طلحة والزبير إلا

عندما علمت بهزيمة قواتها. فلقد علمت رضى الله عنها بالأمور الثلاثة فى وقت واحد. كما علمت فى نفس الوقت بمقتل زيد بن صوحان الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ": من سره أن ينظر إلى من يسبقه بعض أعضائه إلى

[صفحه ۳۴]

الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان [" ۳۱] روى أن عائشة قالت يوم الجمل

لخالد بن الواشمة: أنشدك الله أصادقى أنت إن سألتك. قال: نعم، قالت: ما فعل طلحة؟ قال، قتل! فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قالت: ما فعل الزبير؟ قال: قتل! قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال لها: بل نحن لله ونحن إليه راجعون. على زيد وأصحاب زيد قالت: زيد بن صوحان، فقال: نعم، قالت: خيرا، فقال لها: والله لا يجمع الله بينه وبينهما فى الجنة أبدا. قالت: لا تقل ذاك فإن رحمته واسعة وهو على كل شئ قدير [" ۳۲] .

وروى عن زيد من وجوه أنه قال ": شدوا على ثيابى ولا تنزعوا عنى ثوبا. ولا تغسلوا عنى دما. فإنى رجل مخاصم - أو قال - فإنا قوم مخاصمون [" ۳۳] .

وانتهت حرب الجمل وهرب رؤوس بنى أمية الذين وقفوا بالأموال والعتاد وراء طلحة والزبير [۳۴] وروى أن الإمام على وقف عند عائشة فضرب الهودج بقضيب

وقال: يا حميراء رسول الله أمرك بهذا. ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك. والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذا صانوا عقائلهم وأبرزوك. وأمر أخاها محمد فأنزلها فى دار صفية بنت الحارث [۳۵] ، وروى أن عمارا قال لعائشة لما فرغوا من الجمل ": ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليكم - يشير إلى قوله تعالى ": وقرن فى بيوتكن - فقالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت، والله إنك ما علمت لقوال بالحق، قال: الحمد لله الذى قضى لى على لسانك [" ۳۶] .

وروى عن أبى البحترى أنه قال: لما انهزم أهل الجمل قال على: لا يطلبن عبد خارج المعسكر وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم. وليس لكم أم ولد:

[صفحه ۳۵]

والمواريث على فرائض الله. وأى امرأة قتل زوجها. فلتعتد أربعة أشهر وعشرا. قالوا: يا أمير المؤمنين تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم. فقال: كذلك السيرة فى أهل القبلة. فخاصموه. فقال: فهاتوا سهامكم واقرعوا على عائشة. فهى رأس الأمر وقائدهم. قال: ففرقوا وقالوا: نستغفر الله فخصمهم أمير المؤمنين [" ۳۷] .

وانتقلت أم المؤمنين إلى دار صفية زوجة عبد الله بن خلف الذى قتله الإمام يوم الجمل. وروى أن أمير المؤمنين أقبل إلى منزل عائشة.

فإذا عائشة جالسة حولها نسوة من نساء أهل البصرة. وهى تبكى وهن يبكين معها. فنظرت صفية بنت الحارث فرأت عليا. فصاحت هى ومن كان معها هناك من النسوة وقلن: يا قاتل الأحبة. يا مفرق بين الجميع، أيتم الله بنيك كما أيتمت ولد عبد الله بن خلف. فنظر إليها على فعرفها فقال: أما إنى لا ألومك أن تبغضينى. وقد قتلت جدك يوم بدر. وقتلت عمك يوم أحد. وقتلت زوجك الآن. ولو كنت قاتل الأحبة كما تقولين. لقتلت من فى هذا البيت ومن فى هذه الدار. ثم أقبل على عائشة فقال: ألا تنحين كلابك هؤلاء عنى. أما إنى قد هممت أن أفتح باب هذا البيت فأقتل من فيه. ولولا حبى للعافية. لأخرجتهم الساعة فضربت أعناقهم صبرا. فسكتت عائشة وسكتت النسوة فلم تنطق واحدة منهن [۳۸] وروى

أن الأبواب التى هدد على بفتحها كان من ورائها أناس من الجرحى قد لجأوا إلى عائشة [۳۹] وتغافل عنهم على لأن مذهبه كان لا يقتل مدبرا ولا يذفف على

جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا [۴۰] .

وروى أن ابن عباس دخل على عائشة فى دار صفية بغير إذنها. واجتذب

[صفحه ۳۶]

وسادة فجلس عليها. فقالت: يا ابن عباس أخطأت السنة المأمور بها. ودخلت إلينا بغير إذننا. وجلست على رحلنا بغير أمرنا. فقال: لو كنت فى البيت الذى خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما دخلت إلا بإذنك. وما جلسنا على رحلك إلا بأمرك. وإن أمير المؤمنين على بن أبى طالب يأمرك بسرعة الأوبة والتأهب للخروج إلى المدينة [" ۴۱] ، وعندما كانت أم المؤمنين تستعد للذهاب إلى المدينة. كان قد سبقها بعض الذين يبحثون عن الحقيقة. روى عن ثابت مولى أبى ذر أنه قال: كنت مع على يوم الجمل. فلما رأيت عائشة واقفة دخلنى بعض ما يدخل الناس [۴۲] ، فكشف الله عنى ذلك عند صلاة الظهر. فقاتلت مع أمير المؤمنين. فلما فرغ ذهبت إلى المدينة. فأتيت أم سلمة. فقلت: إنى والله ما جئت أسأل طعاما ولا شرابا، ولكنى مولى لأبى ذر. فقالت مرحبا، فقصصت عليها قصتى. فقالت: أين كنت حين طارت القلوب سطائرها. قلت: إلى حيث كشف الله عنى عند زوال الشمس. قالت: أحسنت. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: على مع القرآن والقرآن مع على. لن يتفرقا حتى يردا على الحوض [" ۴۳] وعن حرى بن سمرة قال: لما كان من أهل البصرة ما كان بينهم وبين على بن أبى طالب انطلقت حتى أتيت المدينة، فأتيت ميمونة بنت الحارث فقالت: ما جاء بك، قال: كان بين على وطلحة الذى كان فأقبلت فبايعت عليا. قالت: فالحق به فوالله ما ضل ولا ضل – قالتها ثلاث مرات [" ۴۴] .

كان هذا فى المدينة أما فى البصرة، فلقد روى أن الإمام عندما دخلها منتصرا خطب فى الناس خطبة طويلة جاء فيها ": يا أهل السبخة [۴۵] يا أهل المؤتفكة. أئتفكت بأهلك من الدهر ثلاثا. وعلى الله تمام الرابعة يا جند المرأة.

[صفحه ۳۷]

يا أتباع البهيمة. رغا فأجبتم، وعقر فانهزمتم، أخلاقكم رقاق. وأعمالكم نفاق. ودينكم زيغ وشقاق، وماؤكم أجاج وزعاق [" ۴۶] .

وقوله رضى الله عنه ": يا أهل السبخة " إشارة إلى حديث النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": إن الناس يمصرون أمصارا وإن مصرا منها يقال لها البصرة. فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها وكلاءها وسوقها وباب أمرائها وعليك بضواحيها. فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف وقوم يبيتون فيصبحون قردة وخنازير [" ۴۷] ، فلقد وصفها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بفساد العقول وكثرة الظلم الواقع بها، والبصرة كما ذكرنا من قبل أن يمصرها مصرها عمر بن الخطاب وسكنتها أجناس مختلفة كان لهم تأثير بالغ على ثقافتها. وأبرز معالم هذه الثقافة هى القردية والخنزيرة. أى تلجيم العقل كل تافه ورخيص والسير فى طريق المادة لاتهام غذاء الدنس والعار. وروى أن رجلا قال للإمام بعد الفراغ من يوم الجمل: يا أمير المؤمنين. وددت أن أخى فلانا كان شاهدنا. ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال الإمام: أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم، فقال: فقد شهدنا. ولقد شهدنا فى عسكرنا هذا، أقوام فى أصلاب الرجال

وأرحام النساء. سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان [" ۴۸] ، وفى كلام الإمام إشارة إلى قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم": المرء مع من أحب [" ۴۹] ، وقوله ": إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها. كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن

[صفحه ۳۸]

شهدها [" ۵۰] .

وانتهى يوم الذى نادى الإمام فى بداية طريقه بالمصالحة. ولكن أحدا لم يتقدم ليصلح بين الطائفتين. ولم ينصت أصحاب الجمل إلى رسائل الإمام ورسله إليهم. ولو قام الذين اعتزلوا القتال وغيرهم بالوساطة من أجل المصالحة. لعلمنا بكل يسر من هم البغاة. ولكنهم لم يفعلوا ذلك. وترتب على هذا أن البحث عن الحقيقة كان لا بد أن يتم على طريق شاق نظرا لوجود رايات متعددة الأسماء.

[صفحه ۳۹]

[۱] الكامل ۱۲۲:۳، الطبرى ۱۹۹:۵.

[۲] البداية والنهاية ۲۴۲:۷، مروج الذهب ۳۹۰:۲.

[۳] أنساب الأشراف ۵۱۱:۱.

[۴] ابن أبى الحديد ۴۱۶:۲.

[۵] الطبرى ۲۰۳:۵.

[۶] مروج الذهب ۴۰۰:۲.

[۷] الكامل ۱۲۲:۳، البداية والنهاية ۲۴۱، ۲۶۳:۷.

[۸] رواه أبو يعلى والبيهقى وابن عساكر (كنز العمال ۳۴۰:۱۱) والبداية والنهاية ۲۴۱:۷، أسد الغابة ۲۵۲:۲، الكامل ۱۲۲:۳، مروج الذهب ۴۰۱:۲، الطبرى ۲۰۰:۵، ابن أبى الحديد ۲۰۷:۳.

[۹] فتح البارى ۵۵:۱۳.

[۱۰] الكامل ۱۲۲:۳، البيهقى وابن عساكر (كنز العمال ۳۳۰:۱۱).

[۱۱] أسد الغابة ۲۵۲:۵۲، الطبرى ۲۱۹:۵.

[۱۲] رواه الحاكم (المستدرك ۳۷۱:۳)، وابن عساكر (كنز العمال ۳۳۳:۱۱) مروج الذهب ۴۰۳:۲، الطبرى ۳۰۴:۵.

[۱۳] مروج الذهب ۳۷۱:۲.

[۱۴] رواه الطبرانى (كنز العمال ۲۳۸:۷)، (الزوائد ۲۳۸:۷).

[۱۵] رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ۱۱۲:۹).

[۱۶] الطبرى ۶:۶.

[۱۷] رواه ابن أبى شيبة والبيهقى (كنز العمال ۳۳۵:۱۱).

[۱۸] رواه البيهقى (كنز العمال ۳۳۸:۱۱).

[۱۹] البداية والنهاية ۷:۸.

[۲۰] الطبرى ۳۰۴، ۳۰۵:۵، مروج الذهب ۳۹۹:۲، ابن أبى الحديد ۲۰۸:۳، كنز العمال ۳۳۸:۱۱، الكامل ۱۳۳:۳.

[۲۱] البداية ۲۴۳:۷.

[۲۲] الكامل ۱۳۳:۳، البداية ۲۴۷:۷، الطبرى ۲۱۸:۵.

[۲۳] البداية ۲۴۴:۷.

[۲۴] الطبری ۵:۲۶۳.

[۲۵] البدایة ۷:۲۴۴، الطبری ۵:۲۱۴.

[۲۶] البدایة ۷:۲۶۶، الطبری ۵:۲۱۰.

[۲۷] البدایة ۷:۲۴۵، الطبری ۵:۲۰۸.

[۲۸] الکامل ۳:۱۳۱، البدایة ۷:۲۴۷، الطبری ۵:۲۲۲، وقیل قتل فیها من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفا ومن أصحاب علی خمسة آلاف (مروج الذهب ۲:۳۸۷).

[۲۹] البدایة ۷:۲۴۷.

[۳۰] لا خلاف بین أهل العلم علی أن مروان بن الحکم هو الذی قتل طلحة راجع (البدایة والنهایة ۸:۲۷۸)، (أسد الغابة ۳:۸۸).

[۳۱] رواه أبو یعلی وابن مندة (الإصابة ۱:۵۸۲)، والبیهقی (۶:۲۱۴).

[۳۲] رواه ابن منده والبیهقی (الإستیعاب ۱:۵۶۰).

[۳۳] رواه البخاری ویعقوب بن سفیان فی تاریخهما. وابن منده (الإصابة ۱:۵۸۳)، (الإستیعاب ۱:۵۶۰).

[۳۴] الطبری ۵:۲۲۰.

[۳۵] مروج الذهب ۲:۳۱۷۶.

[۳۶] الطبرانی بسند صحیح (فتح الباری ۱۳:۵۸)، الکامل ۳:۱۳۳، الطبری ۵:۲۲۵.

[۳۷] ابن أبی شیبة (کنز ۱۱:۳۳۶).

[۳۸] فتوح ابن أعثم (۲:۳۳۹، الطبری ۵:۲۲۴، الکامل ۳:۱۳۱. واللغط لابن أعثم، مروج الذهب ۲:۴۰۸.

[۳۹] الطبری ۵:۲۲۲، الکامل ۳:۱۳۱.

[۴۰] الکامل ۳:۱۳۱.

[۴۱] مروج الذهب ۲:۳۷۷.

[۴۲] أی أنه استصعب قتالها.

[۴۳] رواه الحاکم وصححه وأقره الذهبی (المستدرک ۳:۱۲۴).

[۴۴] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۳۵)، والحاکم وصححه (المستدرک ۳:۱۴۱).

[۴۵] موضع یعلوه الملوحة.

[۴۶] مروج الذهب ۲:۴۰۷.

[۴۷] رواه أبو داود حدیث رقم ۴۲۸۵، والطبرانی (عون المعبود ۱۱:۴۲۰)، وقال السیوطی: هذا الحدیث أورده ابن الجوزی فی الموضوعات من غیر الطریق الذی أخرجه منها المصنف، وغفل عن هذا الطریق. وقد تعقبته فیما کتبت علی کتابه (عون المعبود ۱۱:۴۲۰).

[۴۸] ابن أبی الحدید.

[۴۹] البخاری (الصحیح ۴:۷۷).

[۵۰] رواه أبو داوود حدیث ۴۳۴۵.

ایام صفین

فی سنة ست وثلاثین قامت موقعة الجمل وانتهت. وقیل: إنه کان بین

خلافة على إلى وقعة الجمل خمسة أشهر وإحدى وعشرون يوما. وقتل فى هذه الوقعة ما يقرب من عشرين ألفا منهم خمسة آلاف من قوات أمير المؤمنين. وبينما الدماء لم تجف بعد، وإذا بمعاوية بن أبى سفيان يخرج على رأس أهل الشام فى خمس وثمانين ألف مقاتل، ليقابل جيش أمير المؤمنين بعد فراغه من يوم الجمل بحوالى أربعة أشهر. وبقراءة سريعة لخلفية معاوية نجد أن عمر بن الخطاب ولاه الشام بعد موت أخيه يزيد. وكانت وصية هند لولدها معاوية " إن هذا الرجل استنهضك فى هذا الأمر. فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت [" ۱] ، ووصاه والده أبو سفيان ": وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم. فإنك تجرى إلى أمد. فنافس فإن بلغته أورثته عقبك [" ۲] ، وكان معاوية يقول لعمر ": مرنى يا أمير المؤمنين بما شئت. فيقول له: لا آمرك ولا أنهاك [" ۳] ، وكان عمر لا يذكر معاوية إلا بخير. كان يقول للناس ": تذكرون كسرى وعندكم

[صفحه ۴۰]

معاوية [" ۴] ، ويقول ": دعوا فتى قريش وابن سيدها [" ۵] ، وكان يدخر قوات الشام للحفاظ على حدود الدولة ولذا أطلق عمر صيحة ": يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق. فإن الشيطان قد باض فيهم [" ۶] ، وفى عهد عثمان كان معاوية يتفاخر بأبيه ويقول ": قد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... ولا أظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما [" ۷] ، وفى نفس العهد بدأ كعب الأحبار يلقى فى نفس معاوية طلب الخلافة. فقال له: أنت الأمير بعد عثمان [۸] وعندما استنجد عثمان بقوات الشام أثناء محنته تباطأ معاوية [۹] .

كانت هذه خلفية معاوية وقد بينا هذا فى موضعه من الأحداث فيما ذكرنا. وهناك شخصية أخرى وهو عمرو بن العاص سنلقى ضوءا على خليفته نظرا لأهمية دوره فى أحداث صفين. وعمرو استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخدام الرسول لأنماط عديدة من الناس يخضع فى المقام الأول لحركة الدعوة وهذه الحركة كانت تقتفى التأليف بين القلوب. وكان جميع العاملين على طريقها. يخضعون لكشف سرائرهم بواسطة الوحى فتحت الوحى يعلم النبى صلى الله عليه وسلم حقائقهم، ولهذا كان استخدام الرسول الإنسان ما يختلف عن استخدام غيره لهذا الإنسان. ففى عهد عمر بن الخطاب لمع نجم عمرو بن العاص حتى أن عمر كان يقول: ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرا [" ۱۰] ، وولاه فلسطين والأردن ثم مصر. فلم يزل واليا عليها حتى مات عمر. وأقره عثمان عليها أربع سنين أو نحوها ثم عزله عنها وولاها عبد الله بن أبى السرح. وعندما عزله عثمان جعل يطعن عليه ويسعى فى إفساد

[صفحه ۴۱]

أمره. فلما بلغه قتل عثمان وكان معتزلا بفلسطين قال: إنى إذا أنكأت قرحة أدميتها [" ۱۱] .

وروى الطبرى وغيره: عندما قتل عثمان وعلم بمبايعة الناس لعلى وما وقع لأهل الجمل. ارتحل يبكى كما تبكى المرأة ويقول: وا عثماناه، أنعى الحياء والدين حتى قدم دمشق [۱۲] ، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم [۱۳] وقال

معاوية لعمرو: بايعنى فقال: لا والله لا أعطيك من دينى حتى أنال من دنياك قال: سل، فقال: مصر طعمة. فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتابا [۱۴] وكانت

مصر فى نفس عمرو بن العاص. لأنه هو الذى فتحها. ويقول الجاحظ: فكان لعظمها فى نفسه وجلالتها فى صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمنا من دينه [۱۵] وروى أنه عندما خرج عمرو من عند

معاوية. قال له ابناه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر طعمة. قالا: وما مصر فى ملك العرب! فقال: لا أشبع الله بطونكما إن لم تشبعكما مصر [" ۱۶] .

فوفقا لخليفة هذا وذاك نرى أن الأول هدفه الخلافة. والثانى هدفه الإمارة وبالتحديد أن تكون له مصر ما بقى حيا، وهذه الأهداف تسير فى طريق البغاة وعليها قميص عثمان. ذلك الشعار البراق الذى يلتف من حوله العامة. وهذه الفئة على طريق البغاة تعرف باسم "

القاسطین " ولیس معنی القاسط: أنه المطالب بدم عثمان، وإنما معناه ": الجائر عن الحق الناکب عنه " فاللفظ والمعنی یتحدثان عن حقیقة الهدف ولیس عن بریق الشعار. وقول أمیر المؤمنین " أمرنی رسول الله

[صفحه ۴۲]

صلی الله علیه وسلم بقتال الناکثین والقاسطین والمارقین " یعنی أن هذا القتال لا علاقة له بالشعارات المرفوعة. وإنما علاقته بالأهداف الحقیقیة التی تخفیها الجلود الآدمیة. ولقد عبر الإمام علی عن مبایعة عمرو لمعاویة بأنها مبایعة مبتورة ومشلولة وفقا لمیزان الحقیقة الذی یقر الزیف. فقال: قد بلغنی أن عمرو بن العاص الأبتر بن الأبتر [۱۷] بایع معاویة علی الطلب بدم عثمان وحضهم علیه. فالعضد والله الشلاء عمرو ونصرته [" ۱۸] .

[۱] البدایة والنهایة ۱۱۸:۸.

[۲] البدایة والنهایة ۱۱۸:۵.

[۳] البدایة والنهایة ۱۲۵:۸، الطبری ۱۸۴:۶.

[۴] الطبری ۱۸۴:۶.

[۵] البدایة والنهایة ۱۲۴:۸، الدیلمی (کنز العمال ۵۸۷:۱۳).

[۶] ابن سعد (کنز العمال ۳۵۴:۱۲).

[۷] الطبری ۸۹:۵.

[۸] الطبری ۱۰۰:۵، البدایة والنهایة ۸۵:۵.

[۹] الطبری ۱۱۵:۵.

[۱۰] الإصابة ۱۱۳:۶ ترجمة عمرو.

[۱۱] الإستیعاب ۳۷۶:۲.

[۱۲] الطبری ۲۳۳:۵، الکامل ۱۴۰:۳.

[۱۳] الطبری ۲۳۴:۵، الکامل ۱۴۱:۳.

[۱۴] مروج الذهب ۳۹۰:۲، الکامل ۱۷۹:۳ الطبری ۵۶:۶.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۳۲۱:۱.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۳۲۲:۱.

[۱۷] روی ابن کثیر أن قوله تعالی: (إن شانئک هو الأبتر) نزلت فی العاص بن وائل (تفسیر ابن کثیر ۵۵۹:۴).

[۱۸] الطبقات الکبری ۲۵۴:۴.

اقامة الحجة

بعد مقتل عثمان بدأ الإمام علی یجری تغییرات تستقیم مع سیاسته. ولکن

معاویة رفض هذه التغییرات والتی کان من بینها عزله عن الشام. وبینما کان الإمام یستعد للذهاب إلی الشام لإزالة هذه العقبة التی علی أرض الدولة. خرج علیه أصحاب الجمل. وما أن فرغ من أهل الجمل حتی بلغه أن أهل الشام یتجهزون للقتال. وأن عمرو بن العاص یذیع علیهم " أن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوکتهم وفلوا حدهم. وأن أهل البصرة مخالفون لعلی بعد أن وترهم وقتلهم. وقد تفانت صنادیدهم وصنادید أهل الکوفة یوم الجمل. وأن علیا قد سار فی شرذمة قلیلة منهم وقد قتل خلیفتکم. فالله الله فی حقکم أن تضیعوه وفی دمکم أن تبطلوه [" ۱] ، وعمرو فی بیانه لم یهمل موقف خصمه القتالی. وإنما أخبرهم بأن الصنادید قد قتلوا إشارة

إلى أن المهملة لن تكون عسيرة بعد أن نضجت الثمرة. وبينما أهل الشام يشقون طريقهم بمراكب الدهاء والكيد. كان الإمام على يشق طريقه إليهم بمراكب الحجة. حتى لا تكون لهم حجة فى يوم لا يغنى فيه الندم. فبعث إليهم جرير بن عبد الله البجلى يدعوه إلى البيعة. ولكن معاوية ركب الصعب. ثم بعث إليه الإمام برسالة جاء فيها: إن الله

[صفحه ۴۳]

سبحانه جعل الدنيا لما بعدها. وابتلى فيها أهلها. ليعلم أيهم أحسن عملا. ولسنا للدنيا خلقنا. ولا بالسعى فيها أمرنا. وإنما وضعنا فيها لنبتلى بها. وقد ابتلانى الله بك وابتلاك بى. فجعل أحدنا حجة على الآخر. فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن. وطلبتنى بما لم تجن يدى ولا لسانى. وعصبته أنت وأهل الشام بى. وألب عالمكم جاهلكم. وقائمكم قاعدكم. فاتق الله فى نفسك. ونازع الشيطان قيادك. واصرف إلى الآخرة وجهك. فهى طريقنا وطريقك. واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمس الأصل. وتقطع الدابر. فإنى أولى لك بالله أليه غير فاجرة. لئن جمعتنى وإياك جوامع الأقدار لا أزال بباحتك " حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين" .[۲]

لقد أخبره أن الله جعل الدنيا طريقا إلى الآخرة. وابتلى فيها أهلها أى اختبرهم ليعلم أيهم أحسن عملا، وأخبره بأن الإنسان لم يؤمر بالسعى فى الدنيا لها. بل أمر بالسعى فيها لغيرها. وكشف له الحقيقة التى يدثرها شعار قميص عثمان فقال ": فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن " أى تعديت وظلمت ومن هذا الظلم قولك ": أنا ولى عثمان. " وعلى طريق الظلم ألزمتنى بما لم تجن يدى ولا لسانى. وحرضتم الناس على هذا. ولم يلتفت معاوية إلى الحجة. وظل يتاجر بقميص عثمان فأرسل إليه الإمام رسالة قال فيها: فسبحان الله. ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة. مع تضييع الحقائق واطراح الوثائق: التى هى لله تعالى طلبة. وعلى عباده حجة. فأما إكثارك الحجاج على عثمان وقتلته. فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك. وخذلته حيث كان النصر له، والسلام [" ۳] . ولقد رأينا كيف تثاقل معاوية عن نصرة عثمان، وفى هذا التخاذل والتثاقل يقول البلاذرى وهو المعروف بالثقة والضبط " وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل

[صفحه ۴۴]

عثمان فيدعوا إلى نفسه [" ۴] ، ولم يكتف الإمام بإرسال الرسائل. وإنما بعث إليه بالصحابة ليقيموا عليه الحجة على امتداد الطريق إلى صفين. روى أن الإمام بعث إليه عدى بن حاتم... فقال عدى لمعاوية: إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ونصلح ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها فى الإسلام أثرا. وقد استجمع له الناس. ولم يبق أحد غيرك وغير من معك. فاحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهددا لم تأت مصلحا. هيهات يا عدى. كلا والله إنى لابن حرب لا يقعقع له بالسنان. وإنك والله من المجلبين على عثمان وإنك من قتلته وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به. فقال شبث وزياد بن خصفة: يا معاوية. جوابا واحدا، أتيناك فيما يصلحنا وإياك. فأقبلت تضرب لنا الأمثال. دع ما لا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه. وقال له يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك. ونؤدى عنك ما سمعنا منك. ولن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما يكون به الحجة عليك ويرجع إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله ولا يخفى عليك. فاتق الله يا معاوية ولا تخالف. فإنا والله ما رأينا فى الناس رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه. فقال لهم معاوية: إنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة. فأما الجماعة التى دعوتم إليها فمعنا هى. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها [" ۵] وبعد بعث عدى بن حاتم ثم بعث إليه إليه أبا عمر وبشير بن عمرو بن. محصن وسعيد بن قيس... وعندما دخلوا عليه قال بشير: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة. وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإنى أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها. فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبو عمر: إن صاحبى ليس مثلك. إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى

[صفحه ۴۵]

الإسلام والقرابهٔ بالرسول صلی الله علیه وسلم قال معاویهٔ: فماذا یقول؟ فقال أبو عمر: یأمرک بتقوی الله وأن تجیب ابن عمک إلی ما یدعوک إلیه من الحق. فإنه أسلم لک فی دنیاک وخیر لک فی عاقبهٔ أمرک. قال: ونترک دم ابن عفان لا والله لا أفعل ذلک أبدا. فبادره شبث بن ربعی وقال: یا معاویهٔ إنک لم تجد شیئا تستغوی به الناس وتستمیل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولک: (قتل إمامکم مظلوما فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لک سفهاء طغام. وقد علمنا أنک أبطأت عنه بالنصر. وأحببت له القتل لهذه المنزلهٔ التی أصبحت تطلب. ورب متمن أمر وطالبه یحول الله دونه. وبما أوتی المتمنی أمنیته وفوق أمنیته. ووالله ما لک فی واحدهٔ منهما خیر. والله إن أخطأت ما ترجو إنک لشر العرب حالا. ولئن أحببت ما تتمناه لا تصیبه حتی تستحق من ربک صلی النار. فاتق الله یا معاویهٔ. ودع ما أنت علیه. ولا تنازع الأمر أهله فقال له معاویهٔ: لقد کذبت ولؤمت أیها الأعرابی الجلف الجافی فی کل ما ذکرت ووصفت. انصرفوا من عندی ولیس بینی وبینکم إلا السیف [" ۶] .

لم ینصت معاویهٔ لصوت الحجهٔ. لأن وصیهٔ أمه وأبیه وفتوی کعب الأحبار. کل ذلک کان قد استولی علیه. وما استولی علیه هذا إلا لأنه یوافق هواه الذی تحت جلده.

[۱] البدایهٔ والنهایهٔ ۲۵۵:۷، الطبری ۲۳۶:۵.

[۲] ابن أبی الحدید ۹۸:۵.

[۳] ابن أبی الحدید ۷۸۴:۴.

[۴] ابن أبی الحدید ۷۸۵:۴.

[۵] الکامل ۱۴۸:۳، الطبری ۲:۶.

[۶] الکامل ۱۴۶:۳، الطبری ۲۴۳:۵.

معاویهٔ و سیاسهٔ التشکیک

سارت سیاسهٔ تعبئهٔ الناس تحت لافتهٔ " قمیص عثمان " جنبا إلی جنب مع

سیاسهٔ التشکیک فی الأحادیث التی رویت فی فضل أهل البیت ومناقب علی بن أبی طالب فمعاویهٔ کان یدرک خطورهٔ هذه الأحادیث وغیرها من الأحادیث التی حذر فیها النبی صلی الله علیه وسلم من الفتن. ولعن فیها قبائل وبیوتا نظرا لخطورتها علی الدعوهٔ. لهذا رفع معاویهٔ أمام هذه الأحادیث لافتهٔ " أساطیر الأولین " ولم یکتف معاویهٔ بهذه اللافتهٔ وإنما تاجر بقتل طلحهٔ والزبیر وهزیمهٔ

[صفحه ۴۶]

عائشهٔ. وحاول أن یجذب علی بن أبی طالب إلی معرکهٔ کلامیهٔ. حول الخلافهٔ بعد رسول الله صلی الله علیه وسلم لأن دخول الإمام فی هذه الدائرهٔ سیجعله من وجهٔ نظر معاویهٔ یفقد أصوات العامهٔ فی الأمصار مما یسهل علی معاویهٔ اختراق الساحهٔ بعد ذلک. وبالجملهٔ: لم یترک معاویهٔ طریقا فیه هواه إلا وطرقه ووضع فیه العوائق. وسیاسهٔ شکیک فی الروایات عن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ظهرت معالمها فی رسالهٔ أرسلها معاویهٔ إلی أمیر المؤمنین علی یقول له فیها: أما بعد. فدعنی من أساطیرک. واکفف عنی من أحادیث. وأقصر عن تقولک علی رسول الله صلی الله علیه وسلم وافترائک من الکذب ما لم یقل. وغرور من معک والخداع لهم. فقد استغویتهم. ویوشک أمرک أن ینکشف لهم فیعتزلوک. ویعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل. والسلام [" ۱] .

فکتب إلیه أمیر المؤمنین: أما بعد. فطالما دعوت أنت وأولیاؤک أولیاء الشیطان الرجیم الحق أساطیر الأولین ونبذتموه وراء ظهورکم. وجهدتم بإطفاء نورا الله بأیدیکم وأفواهکم. والله متم نوره ولو کره الکافرون. ولعمری لیتمن النور علی کرهک. ولینفذن العلم بصغارک. ولتجازین بعملک. فعث فی دنیاک المنقطعهٔ عنک ما طاب لک. فکأنک بباطلک وقد انقضی. وبعملک وقد هوی. ثم

تصير إلى لظى. لم يظلمك الله شيئا. وما ربك بظلام للعبيد. ولم تكتف الحملة الإعلامية للقاسطين على رفع لافتة " أساطير الأولين " وإنما قامت بتغذية الساحة بمادة إعلامية هدفها التقليل من شأن أمير المؤمنين فى أول الطريق ليتمكنوا من سبه فى نهاية الطريق. يقول معاوية فى رسالة له إلى أمير المؤمنين: أما بعد فما أعظم الدين على قلبك. والغطاء على بصرك. الشره من شيمتك. والحسد من خليقتك. فشمر للحرب واصبر إلى الضرب. فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت. والعاقبة للمتقين ["!!... ٢] .

[صفحه ۴۷]

يقول ابن أبى الحديد: وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمة - أن يفضى أمر على كرم لله وجهه إلى أن يصير معاوية ندا له ونظيرا مماثلا- يتعارضان الكتاب والجواب. ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه. ولا يقول له على كرم الله وجهه كلمة إلا قال مثلها. وأخشن مسا منها. فليت محمد صلى الله عليه وسلم كان شاهد ذلك ليرى عيانا لا خبرا أن الدعوة التى قام بها. وقاسى أعظم المشاق فى تحملها. وكابد الأهوال فى الذب عنها. وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها. وشيد أركانها. وملأ الآفاق بها. خلصت صفوا عفوا لا- عدائه الذين كذبوه لما دعا إليها. وأخرجه عن أوطانه لما حصن عليها. وأدموا وجهه وقتلوا عمه وأهله. فكأنه كان يسعى لهم ويدأب لراحتهم، كما قال أبو سفيان فى أيام عثمان. وقد مر بقبر حمزة. وضربه برجله وقال: يا أبا عمارة: إن الأمر الذى اختلفنا عليه بالسيف أمسى فى يد غلماننا اليوم يتلعبون به ثم آل الأمر أن يفاخر معاوية عليا. كما يتفاخر الأكفاء والنظراء! ثم أقول ثانيا لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه ليت شعرى. لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية؟ وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك فهلا اقتصر فى الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرض للمفاخرة [٣] والمنافرة. وإذا كان لا بد منهما. فهلا اكتفى بهما من غير تعرض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله. وبأشد منه (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) [۴] ، وهلا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفيه الأحمق. هذا مع أنه القائل: من واجه الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون. أى افتروا عليه

[صفحه ۴۸]

وقالوا فيه الباطل [" ۵] .

وأقول: شاء الله أن يرد الإمام ردا يوجب المقابلة والمعارضة. وشاء الله أن نجد هذه الرسائل فى أكثر من مصدر لتعلم منها أصول الحقيقة الغائبة. والإمام لا يضره سباب ألف سفيه أحمق. لأن هؤلاء لا يكتب لسبابهم وعروشهم الخلود. فانظر إلى الوراء منذ عهد آدم عليه السلام كم من كلاب نبحت على قافلة الأنبياء. لقد ذهب النباح كهباء ضائع فى خلاء يصلى أصحابه لظى. وكتب الخلود لدعوة الرسل والأنبياء. وكذلك ترى سيرة الأئمة والهداة لقد رصدتهم ألسنة أصحاب السوء وشوهتهم الأقلام المأجورة. وفى النهاية ذهب أهل السوء والباطل ولم يكتب لأقوالهم الخلود ولم يبق إلا السائرون على طريق الفطرة. وبعد التكذيب بالحديث بدأ إعلام معاوية يتاجر بمقتل طلحة والزبير وهزيمة عائشة. روى أن عمرو بن العاص قال لعائشة: لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ فقال: تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر التشنيع على على بن أبى طالب [" ۶] ، ومن هذا نعلم أن المتاجرة بأهل الجمل لها جذور وأصول. وفى رسالة من معاوية إلى أمير المؤمنين على يقول: معاوية:... دعوت الناس إلى نفسك. وأكرهت أعيان المسلمين على بيعتك. ثم كان منك بعدما كان من قتلك شيخى المسلمين أبا محمد طلحة وأبا عبد الله الزبير. وهما من الموعودين بالجنة. والمبشر قاتل أحدهما بالنار فى الآخرة هذا إلى تشريدك بأم المؤمنين عائشة. وإحلالها محل الهون. مبتذلة بين أيدى الأعراب وفسقة أهل الكوفة. فمن بين مشهر لها، وبين شامت بها. وبين ساخر منها. ترى ابن عمك كان بهذا لو رآه راضيا. أم يكون عليك ساخطة. ولك عنه زاجرا. أن تؤذى أهله وتشرد بحليلته. وتسفك دماء أهل ملته. ثم تركك دار الهجرة التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ": إن المدينة لتنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد " فلعمرى قد صح وعده وصدق قوله.

[صفحه ۴۹]

ولقد نفت خبثها. وطردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها. فأقمت بين المصرين. وبعدت عن بركة الحرمين. ورضيت بالكوفة بدلا من المدينة. وبمجاورة الخورنق والحيرة. عوضا عن مجاورة خاتم النبوة ["... ۷] .

ورد أمير المؤمنين عليه فى رسالة طويلة منها:... فرق بيننا وبينكم أمس أنا آمنا وكفرتم. واليوم أنا استقمنا وفتنتم. وما أسلم مسلمكم إلا كرها. وبعد أن كان أنف الإسلام كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم حربا. وذكرت أنى قتلت طلحة والزبير. وشردت بعائشة. ونزلت بين المصرين. وذلك أمر غبت عنه - فلا عليك. ولا العذر فيه إليك ["... ۸] .

وقال ابن أبى الحديد: فأما الجواب المفصل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما. ولو استقاما على الطريقة لسلما ومن قتله الحق فدمه هدر... وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمين على ما صنعا. وكذلك نقول نحن... فهما من أهل الجنة لتوبتهما. ولولا توبتهما لكانا هالكين كما هلك غيرهما. فإن الله تعالى لا يحابى أحدا فى الطاعة والتقوى. (ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة) [۹] ، وأما الوعد لهما بالجنة فمشروط بسلامة العاقبة. والكلام فى سلامتهما. وإذا ثبتت توبتهما فقد صح الوعد لهما وتحقق... أما أم المؤمنين عائشة فقد صحت توبتها. والأخبار الواردة فى توبتها أكثر من الأخبار الواردة فى توبة طلحة والزبير. لأنها عاشت زمانا طويلا. وهما لم يبقيا. والذى جرى لها كان خطأ منها. فأى ذنب لأمير المؤمنين كرم الله وجهه فى ذلك؟ ولو أقامت فى منزلها لم تبتذل بين الأعراب وأهل الكوفة، على أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أكرمها وصانها وعظم من شأنها... ولو كانت فعلت بعمر بن الخطاب ما فعلت به. وشقت عصا الأمة عليه. ثم ظفر بها. لقتلها وفرقها إربا إربا. ولكن عليا كان حليما كريما.

[صفحه ۵۰]

وأما قوله ": لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبربك هل كان يرضى لك أن تؤذى حليلته. " فلعلى كرم الله وجهه أن يقلب الكلام عليه. فيقول ": افتراه لو عاش. أكان يرضى لحليلته أن تؤذى أخاه ووصيه. وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لك يا ابن أبى سفيان أن تنازع عليا الخلافة، وتفرق جماعة هذه الأمة. وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا. ثم ينكثا لا لسبب. بل قالا: جئنا تطلب الدراهم. فقد قيل لنا: إن بالبصرة أموالا كثيرة هذا الكلام يقوله لمثلهما. فأما قوله ": تركت دار الهجرة " فلا عيب عليه إذا انتقضت عليه أطراف الإسلام بالبغى والفساد أن يخرج من المدينة إليها، ويهذب أهلها، وليس كل من خرج من المدينة كان خبثا. فقد خرج عنها عمر مرارا إلى الشام. ثم لعلى كرم الله وجهه أن يقلب عليه الكلام فيقول له: وأنت يا معاوية قد نفتك المدينة أيضا عنها. فأنت إذن خبث. وكذلك طلحة والزبير وعائشة الذين تتعصب لهم وتحتج على الناس بهم، وقد خرج من المدينة الصالحون. كابن مسعود وأبى ذر وغيرهما وماتوا فى بلاد نائية عنها. وأما قوله ": بعدت عن حرمة الحرمين، ومجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، " فكلام إقناعى ضعيف، والواجب على الإمام أن يقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام. وتقديم قتال أهل البغى على المقام بين الحرمين أولى... [۱۰] .

إن خطاب معاوية ليس فيه علم يرى. وهو خطاب إعلامى فى المقام الأول يخاطب به غوغاء الشام ومن على شاكلتهم على الرغم من أن الرسالة موجهة إلى أمير المؤمنين على: وعلى هذا المنوال بعث معاوية برسالة أخرى إلى أمير المؤمنين على يقول له فيها: أما بعد، يقول الله تعالى فى محكم كتابه (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من

[صفحه ۵۱]

الخاسرين) [۱۱] ، وإنى أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها. فاتق الله واذكر موقف القيامة. وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض فى دماء المسلمين. وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ": لو تمالا أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين. لأكبهم الله على مناخرهم فى النار " فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين. بل ما طحنت رحا حربه من أهل القرآن. وذى العبادة والإيمان. من شيخ كبير. وشاب غرير. كلهم بالله تعالى مؤمن. وله مخلص وبرسوله مقر عارف. فإن كنت أبا الحسن أنما تحارب على الإمرة والخلافة. فلعمرى لو صحت خلافتك لكنت قريبا من أن

تعذر فی حرب المسلمین. ولکنها ما صحت لک. أنی بصحتها وأهل الشام لم یدخلوا فیها. ولم یرتضوا بها؟ وخف الله وسطوته. واتق بأسه ونکاله. وأغمد سیفک عن الناس. فقد والله أکلتهم الحرب ["... ۱۲] .

وهذا أیضا خطاب إعلامی کتبه معاویة لتبدأ إذاعته فی بثه بمجرد أن یتحرک حامل الرسالة فی اتجاه أمیر المؤمنین. ولقد رد أمیر المؤمنین علی علی هذه الرسالة وغیرها من باب إقامة الحجة. فقال: أما بعد. فقد أتتنی منک موعظة موصلة. ورسالة محبرة. فمقتها بضلالک. وأمضیتها بسوء رأیک. وکتاب امرئ لیس له بصر یهدیه. ولا قائد یرشده. دعاه الهوی فأجابه. وقاده الضلال فاتبعه. فهجر لا غطا. وضل خابطا. فأما أمرک لی بالتقوی فأرجو أن أکون من أهلها، واستعیذ بالله من أن أکون من الذین إذا أمروا بها أخذتهم العزة بالإثم. وأما تحذیرک إیای أن یحیط عملی وسابقتی فی الإسلام. فلعمری لو کنت الباغی علیک. لکان لک أن تحذرنی ذلک. ولکنی وجدت الله تعالی یقول: (فقاتلوا التی تبغی حتی تفئ إلی أمر

[صفحه ۵۲]

الله) [۱۳] ، فنظرنا إلی الفئتین. أما الفئة الباغیة فوجدناها الفئة التی أنت فیها. لأن بیعتی بالمدینة لزمتک وأنت بالشام. کما لزمتک بیعة عثمان بالمدینة. وأنت أمیر لعمر علی الشام. وکما لزمت یزید أخاک بیعة عمر وهو أمیر لأبی بکر علی الشام. وأما شق عصا هذه الأمة. فأنا أحق أن أنهاک عنه. فأما تخویفک لی من قتال أهل البغی. فإن رسول الله صلی الله علیه وسلم أمرنی بقتالهم وقتلهم. وقال لأصحابه ": إن فیکم من یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت علی تنزیله، " وأشار إلی وأنا أولی من اتبع أمره. وأما قولک: إن بیعتی لم تصح لأن أهل الشام لم یدخلوا فیها. کیف وإنما هی بیعة واحدة. تلزم الحاضر والغائب. لا یثنی فیها النظر. ولا یستأنف فیها الخیار. الخارج منها طاعن. والمروی فیها مداهن. فأربع علی ظلعک، وانزع سربال غیک... [۱۴] .

لقد خاطبه، وفقا لثقافته وما سارت علیه الأمور بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم لیحاکمه بما ارتضوه واتفقوا علیه وهو أن الاختیار طریق الخلافة. فبین له أن الخلافة لیس بعد عقدها خیار لمن عقدها ولا لغیرهم. لأنها تلزم غیر العاقدین کما تلزم العاقدین. فیسقط الخیار فیها. ووفقا لهذا التعریف فقد لزمت أمراء الشام من قبل. وعلیه فهی تلزم معاویة. کان هذا بعضا من سیاسة التشکیک فی الحدیث حتی یتم التعتیم مرة أخری علی مناقب أمیر المؤمنین، وسارت سیاسة التقلیل من شأن أمیر المؤمنین جنبا إلی جنب مع سیاسة التشکیک فی الحدیث. ووصف بأن یفرق الکلمة ویقتل المتقین ویفارق المدینة. وکان هذا لهدف لا یخفی علی الباحث عن الحقیقة. وفی حیاة أمیر المؤمنین عتموا علی مناقبه مرة، ثم أرادوا أن یعتموا علیها ویشوهوه مرة... وبعد وفاته سبوه علی المنابر. وکما زج معاویة بأصحاب الجمل فی حربه الإعلامیة. زج أیضا بقضیة الخلافة بعد رسول الله صلی الله علیه وسلم. ولقد کان یرید من وراء هذا أن یقول أمیر المؤمنین فی أبی بکر.

[صفحه ۵۳]

وعمر، بما لا یرضی الرأی العام لأن الغالب الأعم فی الأمصار کانوا یعتقدون إمامة الشیخین إلا القلیل... من خواص أمیر المؤمنین، کان معاویة یرید أن یسجل علیه قوله أنهما غصباه حقه. فیجعل ذلک حجة علیه عند أهل الشام ویضیفه إلی ما وضعه فی عقولهم من انتقاص علی کما زعم. کان یرید أن وینسبهما إلی الظلم ومخالفة الرسول فی أمر الخلافة. فالحصول علی تسجیل مثل هذا کفیل بأن یفسد علیه أهل العراق أیضا وهم جنده وبطانته وأنصاره. لأن الغالب الأعم فیهم کانوا یعتقدون إمامة الشیخین. لهذا لم یدخر معاویة جهدا من أجل فتح هذا الباب. فأرسل کتابا مع أبی مسلم الخولانی قصد أن یغضب علیا ویجرحه إذا قرأ ذکر أبی بکر وأنه أفضل المسلمین إلی أن یخلط خطة فی الجواب بکلمة تقتضی طعنا فی أبی بکر. فجاءه الرد من علی غیر واضح غیر بین. لیس فیه تصریح بالتظلم لهما وتارة یترحم علیهما. وتارة یقول: أخذا حقی وقد ترکته لهما. فأشار عمرو به العاص مع معاویة أن یکتب کتابا ثانیا للکتاب الأول لیستفزا فیه علیا. ویحمله الغضب أن یکتب کلاما یتعلقان به فی تقبیح حاله. فکتب معاویة إلی أمیر المؤمنین کتابا أنفذه مع أبی أمامة الباهلی ومما جاء فیه ": لقد حسدت أبا بکر والتویت علیه. ورمت إفساد أمره. وقعدت فی بیتک واستغویت عصابة من

الناس حتى تأخروا عن بيعته. ثم كرهت خلافة عمر. وحسدته واستطلت مدته. وسررت لقتله. وأظهرت الشماتة بمصابه. حتى أنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتل أبيه. ثم لم تكن أشد منك حسدا لابن عمك عثمان نشرت مقابحه. وطعنت فى فقهه. ثم فى دينه. ثم فى سيرته ثم فى عقله. وأغريت به السفهاء من أصحابك وشيعتك. حتى قتلوه بمحضر منك " وجاء فيها ": فدع اللجاج، والعبث جانبا، وادفع إلينا قتلة عثمان، وأعد الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على من هو لله رضا. فلا بيعة لك فى أعناقنا. ولا طاعة لك علينا ولا عتبى لك عندنا. وليس لك ولأصحابك عندى إلا السيف، " وجاء فيها ": فأما ما لا تزال تمن به من سابقتك وجهادك. فإنى وجدت الله سبحانه يقول ": يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم

[صفحه ۵۴]

صادقين) [۱۵] ، ولو نظرت فى حال نفسك لوجدتها أشد الأنفس امتنانا على الله بعملها، وإذا كان الامتنان على السائل يبطل أجر الصدقة. فالامتنان على الله يبطل أمر الجهاد، ويجعله (كمثل صفوان عليه تراب...) الآية [۱۶] ، فهكذا نسج معاوية وابن العاص شباك الصيد التى تخدم أهواءهما كى يركبا على أعناق الأمة. ورد أمير المؤمنين وكان رده من محاسن الكتب. وجاء فيه ": أما بعد فقد أتانى كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه. وتأييده إياه لمن أيده من الصحابة. فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا. ونعمته علينا فى نبينا. فكنت فى ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعى مسدده إلى النضال. والمعنى ": فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا " موضع التعجب أن معاوية يخبر عليا كرم الله وجهه باصطفاء الله تعالى محمدا وتشريفه له. وتأييده له. وهذا ظريف لأنه يجرى كإخبار زيد عمرا عن حال عمرو. إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم وعلى كرم الله وجهه كالشئ الواحد وقوله ": فكنت فى ذلك كناقل التمر إلى هجر " وهجر اسم مدينة. وهى بلدة كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى غيرها [۱۷] ثم قال الإمام فى خطابه ": وزعمت أن أفضل الناس فى الإسلام فلان

وفلان، فذكرت أمرا إن تم اعتزلك كله. وإن نقص لم يلحقك ثلمه. وما أنت والفاضل والمفضول. والسائس والمسوس، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم. هيهات لقد جن قدح ليس منها [۱۸] .

وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها [۱۹] ألا تربع أيها الإنسان على ظلعك [۲۰] .

[صفحه ۵۵]

وتعرف قصور ذرعك. وتتأخر حيث أخرك القدر [۲۱] فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر [۲۲] فإنك لذهاب فى التيه. رواغ عن القصد [" ۲۳] ، ثم كشف له أمير المؤمنين عن أمور يعرفونها فقال ": ومنا النبى ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار. ومناخير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب، فى كثير مما لنا وعليكم. فإسلامنا ما قد سمع. وجاهليتنا لا تدفع. وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا. وهو قوله سبحانه وتعالى: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) [۲۴] ، وقوله تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) [۲۵] فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أخرى أولى بالطاعة، ولما احتج

المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا عليهم - فإن يكن الفلج به. فالحق لنا دونكم. وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم. وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت. فإن يكن ذلك كذلك. فليست الجناية عليك. فيكون العذر إليك. وقلت: إنى كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت. وأن تفضح فافتضحت. وما على المسلم من غضاضة فى أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكا فى دينه. ولا مرتابا بيقينه. وهذه حجتى إلى غيرك قصدا. ولكنى أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها. ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه. فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه، أمن استنصره فتراخى عنه وبث

[صفحه ۵۶]

المنون إليه حتى أتى قدره عليه ["... ۲۶] .

لقد فتح معاوية بابا فيه من الحجج الكثير. وكان الإمام لا يريد لهذا الباب أن يفتح على مصراعيه. لأنه كان فی حاجة لحقن الدماء بالدخول تحت بيعته. وعندما أصر معاوية قال الإمام فی رسالته ": ألا ترى غير مخير لك. ولكن بنعمة الله أحدث " أی لست عندی أهلا لأن أخبرك بذلك. فإنك تعلمه. ومن يعلم الشئ لا يجوز أن يخبر به. ولكن أذكر ذلك. لأنه تحدث بنعمة الله علينا. وقد أمرنا بأن نتحدث بنعمته سبحانه [۲۷] .

ويبدو أن حديث معاوية فی هذا الباب الذی يعلمه. دفع بآخرين كی يذكروه إن كان قد نسی رغبة منهم فی حقن الدماء. ومن هؤلاء محمد بن أبی بكر. فلقد بعث برسالة إلى معاوية ومما جاء فيها " إن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقا بلا عبث ولا ضعف فی قوة: لا حاجة به إلى خلقهم. ولكنه خلقهم عبيدا وجعل منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا. ثم اختارهم على علمه. فاصطفى منهم محمدا صلى الله عليه وسلم. فاختصه برسالته. واختاره لوحيه. وائتمنه على أمره. وبعثه رسولا مصدقا لما بين يديه من الكتب. ودليلا على الشرائع. فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة. فكان أول من أجاب وأناب، وصدق ووافق فأسلم وسلم. أخوه وابن عمه على بن أبی طالب. فصدقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم - ووقاه كل هول، وواساه بنفسه فی كل خوف. فحارب حربه، وسالم سلمه [" ۲۸] ، وقال محمد بن أبی بكر فی رسالته ": وقد رأيتك تسامیه وأنت أنت.. وهو هو السابق المبرز فی كل خير... وأنت اللعين ابن اللعين. لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل وتجتهدان على إطفاء نور الله. وتجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال. وتحالفان فی ذلك القبائل. على هذا مات أبوك. وعلى ذلك

[صفحه ۵۷]

خلفته. والشاهد عليك بذلك من يأوی ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والشاهد لعلی مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى فی القرآن. ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار. فهم معه كتائب وعصائب. يجالدون حوله بأسيافهم ويهرقون دماءهم دونه. يرون الفضل فی اتباعه والشقاق والعصيان فی خلافه. فكيف يا لك الويل تعدل نفسك بعلی. وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعا وآخرهم به عهدا بخبره بسره ويشركه فی أمره. وأنت عدوه وابن عدوه. فتمتع ما استطعت بباطلك وليمددك ابن العاص فی غوايتك. فكأن أجلك قد انقضی وكيدك قد وهی. وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا. واعلم أنك إنما تكابد ربك الذی قد أمنت كيده وأيست من روحه وهو لك بالمرصاد. وأنت منه فی غرور بالله. وبالله وأهل رسوله عنك الغناء. والسلام على من اتبع الهدى [" ۲۹] .

لقد أراد محمد بن أبی بكر أن يذكر معاوية لعله يعقل الأمور. وإذا كانت لهجة الخطاب بها قوة فإن هذه القوة دعوة ليتخطى معاوية حواجز النفس الأمارة بالسوء. وينتصر على نفسه فيدخل فيما دخل فيه الناس. لتحقن دماء المسلمين ويفوز برضا رب العالمين. فماذا كان جواب معاوية؟ لقد كتب إلى محمد بن أبی بكر: من معاوية بن أبی سفيان إلى الزارى على أبيه محمد بن أبی بكر. سلام عل أهل طاعة الله. أما بعد. فقد أتانی كتابك تذكر فيه ما الله أهله فی قدرته وسلطانه. وما اصطفى به نبيه. مع كلام ألفته ووضعته. لرأيك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف. ذكرت حق ابن أبی طالب وقديم سابقته وقرابته من نبی الله ونصرته له ومواساته إياه فی كل خوف وهول. واحتجاجك على وفخرك يفضل غيرك لا بفضلك.. فأحمد إلها صرف ذاك الفضل عنك. وجعله لغيرك. فقد كنا وأبوك معنا فی حياة نبينا نرى حق ابن أبی طالب لازما لنا وفضله مبرزا علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته. وأفلج

[صفحه ۵۸]

حجته [۳۰] قبضه الله إليه فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه. على ذلك

اتفقا واتسقا. ثم دعواه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما. فهما به الهجوم وأرادا به العظيم - فبايعهما وسلم لهما. لا يشركانه فی أمرهما. ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضا وانقضی أمرهما. ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان. يهتدی بهديهما ويسير بسيرتهما.

فعبته أنت وصاحبک حتی طمع فیه الأقاصی من أهل المعاصی. وبطنتما له وظهرتما وکشفتما له عداوتکما وغلکما حتی بلغتما منه مناکما. فخذ حذرک یا ابن أبی بکر فستری وبال أمرک. وقس شبرک بفترک کقصر عن أن تساوی أن توازی من یزن الجبال بحلمه. ولا تلین علی قسر قناته. ولا یدرک ذو مدی أناته. أبوک مهد له مهاده وبنی ملکه وشاده. فإن یکن ما نحن فیه صوابا فأبوک أولی. وإن یکن جورا فأبوک أسه ونحن شرکاؤه. فبهدیه أخذنا وبفعله اقتدینا ورأینا أباک فعل ما فعل فاحتذینا مثاله واقتدینا بفعاله. فعتب أباک بما بدا لک. أو دع. والسلام علی من أناب ورجع من غوایته وناب [" ۳۱] .

إن سیاسة معاویة التی اعتمدها لیشکک بها فی مناقب أمیر المؤمنین علی. لم تقف عند التشکیک والمتاجرة بحرب الجمل وإنما اندفعت نحو الخلافة لتسجل علی أمیر المؤمنین أی اعتراض یخدم القاسطین فی بلوغ أهدافهم. وعندما أدلی محمد بن أبی بکر بدلوه رغبة منه فی الاصلاح. کانت رسالة معاویة التهدیدیة إلیه. فمعنی الرسالة: أنک إذا تکلمت مس جذورک ما تقول. وما تقوله لن یبطل دم عثمان وستهتف الجماهیر بالقصاص تکلمت أو صمت، ولن تجد الجماهیر بدیلا عن اختیار المسلمین لأنفسهم. ولکن محمد بن أبی بکر تکلم بدلیل أن خطابه وخطاب معاویة إلیه بین أیدینا فی أکثر من مصدر. ولقد ظهرت فی الساحة قبل وبعد صفین أحادیث وأسئله حائرة. جاءت نتیجة لسیاسة معاویة الإعلامیة فی هذا الباب. وما کان لهذه الأسئلة أن تطرح فی هذا الوقت العصیب الذی یبحث فیه الإمام عن وحدة

[صفحه ۵۹]

الأمة. لولا أن معاویة فتح لها الباب بغیة أن تصب نتائجها المرجوة فی سلته. ولکن الریاح جاءت بما لا تشتهی السفن. صحیح أن هناک من هاجر إلی معاویة وکان الدافع إلی هجرتهم الحصول علی الأموال. ولیس الاقتناع بما یقول، ولکن الأهم أن أهل البصائر فارقوه بعد أن عرفوه. یقول أمیر المؤمنین له فی رسالة أثناء تلک الحملة الإعلامیة: وأردیت [۳۲] جیلا من الناس کثیرا [۳۳] .

خدعتهم بغیک [۳۴] وألقیتهم فی موج بحرک تغشاهم الظلمات. وتتلاطم بهم

الشبهات. فجاروا [۳۵] عن وجهتهم [۳۶] ونکصوا علی أعقابهم. وتولوا علی

أدبارهم. وعولوا علی أحسابهم [۳۷] إلا من فاء من أهل البصائر. فإنهم فارقوک

بعد معرفتک. وهربوا إلی الله من موازرتک. إذ حملتهم علی الصعب. وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله یا معاویة فی نفسک. وجاذب الشیطان قیادک. فإن الدنیا منقطعة عنک. والآخرة قریبة منک [" ۳۸] .

[۱] ابن أبی الحدید ۴:۷۶۹.

[۲] المصدر السابق ۴:۷۶۹.

[۳] المصدر السابق ۴:۷۶۹.

[۴] کان الإمام قد تفاخر فی رسالة وقال: إن کنت صادقا فیما تسطر.. فدع الناس جانبا. وتیسر لما دعوتنی إلیه من الحرب... واعف الفریقین من القتال. لیعلم أینا المرین علی قلبه. المغطی علی بصره، فأنا أبو الحسن، قاتل جدک وأخیک وخالک. (ابن أبی الحدید ۴:۷۷۰).

[۵] سورة الأنعام: الآیة ۱۰۸.

[۶] ابن أبی الحدید ۴:۷۷۰.

[۷] الکامل:للمبرد ط لیدن ص ۱:۱۵۱.

[۸] ابن أبی الحدید ۵:۱۷۸.

[۹] ابن أبی الحدید ۵:۱۷۷.

[۱۰] سورة الأنفال: الآیة ۴۲.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۵:۱۸۰.

[۱۲] سورة الزمر: الآیة ۶۵.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۴:۳۱۶.

[۱۴] سورة الحجرات: الآیة ۹.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۴:۳۱۶.

[۱۶] سورة الحجرات: الآیة ۱۷.

[۱۷] سورة البقرة: الآیة ۲۶۴.

[۱۸] ابن أبی الحدید ۴:۶۰۵.

[۱۹] هذا مثل یضرب لمن یدخل نفسه بین قوم لیس له أن یدخل بینهم.

[۲۰] أی وطفق یحکم فی هذه القصة أو فی القضیة من یجب أن یکون الحکم لها علیه لا له فیها.

[۲۱] أی ألا ترفق بنفسک وتکف ولا تحمل علیها ما لا تطیقه.

[۲۲] مثل قولک: ضع نفسک حیث وضعها الله.

[۲۳] أی ما الذی أدخلک بینی وبین أبی بکر وعمر وأنت من بنی أمیة لست هاشمیا ولا تیمیا ولا عدویا، ولست مهاجرا.

[۲۴] أی تترک ما یلزمک فعله وتتحدث عن الصحابة وما جری بعد موت النبی. ونحن إلی الکلام فی غیر هذا أحوج منا إلی الکلام فی البیعة وحقن الدماء والدخول تحت طاعة الإمام.

[۲۵] سورة الأنفال: الآیة ۷۵.

[۲۶] سورة آل عمران: الآیة ۶۸.

[۲۷] ابن أبی الحدید ۴:۵۹۹.

[۲۸] ابن أبی الحدید ۴:۶۰۷.

[۲۹] ابن أبی الحدید ۱:۶۳۲.

[۳۰] أی قومها وأظهرها.

[۳۱] ابن أبی الحدید ۱:۶۳۲.

[۳۲] أردیتهم:أهلکتهم.

[۳۳] جیلا من الناس:أی صنفا من الناس.

[۳۴] الغی:الضلال.

[۳۵] وجاروا:أی عدلوا عن القصد.

[۳۶] ووجهتهم:یقال: هذا وجهه الرأی، أی هو الرأی بنفسه.

[۳۷] أی لم یعتمدوا علی الدین وإنما أردتهم الحمیة ونخوة الجاهلیة فأخلدوا إلیها وترکوا الدین.

[۳۸] ابن أبی الحدید ۴:۷۶۷.

الاعلام العلوی

کان من نتائج التشکیک الأموی بروز أسئلة لا بد أن یجیب علیها الإمام

وحده ولیس أحدا غیره. سأله بعض أصحابه: کیف دفعکم قومکم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال: أما الاستبداد [۱] علینا بهذا

المقام. ونحن الأعلون نسبا والأشدون بالرسول صلى الله عليه وسلم نوطا [۲] فإنها كانت

[صفحه ۶۰]

أثرة [۳] شحت [۴] عليها نفوس قوم. وسخت [۵] عنها نفوس آخرين. والحكم الله والمعود إليه يوم القيامة.

ودع عنك نهبا صيح فى حجراته++

ولكن حديثا ما حديث الرواحل

وهلم الخطب فى ابن أبى سفيان. فلقد أضحكنى الدهر بعد إبكائه [۶] .

ولا غرر والله. فيا له خطبا يستفرغ العجب. ويكثر الأود [۷] حاول القوم إطفاء

نور الله من مصباحه. وسد فواره من ينبوعه. وجد جوا بينى وبينهم شربا وبيئا. فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى، أحملهم من الحق. وإن تكن الأخرى " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون [" ۸] .

وقال الإمام ردا على ما يشاع فى الساحة، وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا ابن أبى طالب لحريص. فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد. وأنا أخص وأقرب. وإنما طلبت حقا لى وأنتم تحولون بينى وبينه. وتضربون وجهى دونه. فلما قرعته بالحجة فى الملأ الحاضرين. هب كأنه بهت لا يدرى ما يجيبنى به. اللهم إنى أستعديك [۹] على قريش ومن أعانهم. فإنهم قطعوا رحمى [۱۰] وصغروا عظيم منزلتى [۱۱] ، وأجمعوا على منازعتى أمرا هو لى. ثم

قالوا: إلا إن فى الحق أن تأخذه. وفى الحق أن تتركه [" ۱۲] .

كان الإمام يجيب على أسئلة الحاضر بوقائع حدثت فى الماضى فبين أنهم

[صفحه ۶۱]

لم يقتصروا على أخذ حقه ساكتين عن الدعوى. ولكنهم أخذوه وادعوا أن الحق لهم وأنه يجب عليه أن يترك المنازعة فيه. فيا ليتهم أخذوه معترفين بأنه حقه. فكانت المصيبة به أخف وأهون [۱۳] .

ولقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن الساحة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كان بها العديد من التيارات التى تصد عن سبيل الله. وذكرنا أن الصحابة الكبار أرادوا أن يحيدوا هذه التيارات حتى لا تبطش بالدعوة فكان ما جرى فى السقيفة. والإمام هنا لا يخص إنسانا بعينه نازعه الأمر. وإنما يذكر قريشا إذ تحدث عن الذين قطعوا رحمه وصغروا منزلته وأجمعوا على منازعته. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه فى أن قريشا دبرت أمرا. وبعضى قريش هموا بعمل كان فى رأيهم إنقاذا للدعوة. وبعد السقيفة اعتزل الإمام على وكانت له مكانته بين القوم حتى كان يوم الشورى وفيه رفعت أعلام " إنك على هذا الأمر يا ابن أبى طالب لحريص. " وبعد أن وضع الإعلام العلوى النقاط فوق الحروف فى قضية طرحها الإعلام الأموى الذى يبتغى التشكيك والمتاجرة بكل شئ. طالب الإمام أتباعه إذا سألوا أن يسألوا تفقها فقال: سل تفقها. ولا تسأل تعنتا، فإن الجاهل المتعلم شبيه بالعالم. وإن العالم المتعنت شبيه بالجاهل [" ۱۴] .

وقال ": لا تجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكا. إذا علمتم فاعملوا. وإذا تيقنتم فأقدموا [" ۱۵] ، وقال ": اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية. لا عقل رواية. فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل [" ۱۶] ، ثم طالب الإمام بكتابة العلم ليكون حجة على امتداد الزمان فقال ": الق دواتك. وأطل جلفة قلمك. وفرج بين السطور. وقرمط بين الحروف فأن ذلك أجدر بصباحة

[صفحه ۶۲]

الخط [" ۱۷] ، وقال "، العلم علمان. مطبوع ومسموع. ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع [" ۱۸] وجبت الناس فى العلم فقال": كل وعاء يضيق بما جعل فيه: إلا وعاء العلم فإنه يتسع [" ۱۹] ، وساق الناس إلى طريق الفكر فقيل له: صف لنا العاقل، فقال: هو الذى يضع الشئ فى مواضعه فقيل: فصف لنا الجاهل، قال: قد فعلت [۲۰] وقيل له: ما هو الخير؟ فقال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك. ولكن الخير أن يكثر علمك. وأن يعظم حلمك [" ۲۱] .

لقد كان الإعلام العلوى يدق أوتاد العلم فى كل مكان ويعمل على دوام العلم ليكون حجه على كل زمان. قال الإمام حين سأله رجل أن يعرفه ما الإيمان قال له: إذا كان غدا فأتنى حتى أخبرك على أسماع الناس، فإن نسيت مقالتى حفظها عليك غيرك فإن الكلام كالشاردة يثقفها هذا ويخطئها هذا [" ۲۲] .

وبينما كان الإعلام الأموى يدق أوتاد البدعة والفرقة كان الإعلام العلوى يدق أوتاد السنة والجماعة. عن يحيى بن عبد الله بن الحسن عن أبيه، قال: كان على يخطب فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين. أخبرنى من أهل الجماعة ومن أهل الفرقة. ومن أهل السنة ومن أهل البدعة؟ فقال: ويحك أما إذا سألتنى فافهم عنى، ولا عليك أن تسأل عنها أحدا بعدى. فأما أهل الجماعة فأنا ومن تبعنى وإن قلوا. ذلك الحق من أمر الله وأمر رسوله. فأما أهل الفرقة فالمخالفون لى ومن اتبعنى وإن كثروا. وأما أهل السنة المتمسكون بما سنه الله لهم ورسوله وإن قلوا، وأما أهل البدعة. فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا. وقد مضى الفوج الأول وبقيت أفواج. وعلى الله

[صفحه ۶۳]

قصهما واستئصالها عن حدبة الأرض [" ۲۳] .

وقال له رجل: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة؟ فقال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ": كيف صبرك إذا خضبت هذه من هذا. وأهوى بيده إلى لحيتى ورأسى؟ فقلت: بأبى وأمى يا رسول الله ليس ذلك من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والكشر. فقال لى: أجل. ثم قال لى: يا على إنك باق بعدى ومبتلى بأمتى. ومخاصمهم يوم القيامة بين يدى الله تعالى. فأعدد جوابا فقلت: بأبى أنت وأمى. بين لى ما هذه الفتنة التى يبتلون بها، وعلى ما أجاهدهم بعدك؟ فقال: إنك ستقاتل بعدى الناكثة والقاسطة والمارقة. وجلاهم وسماهم رجلا رجلا!!. ثم قال لى: وتجاهد أمتى على كل من خالف القرآن ممن يعمل فى الدين بالرأى. ولا رأى فى الدين. إنما هو أمر من الرب ونهيه فقلت: يا رسول الله فأرشدنى إلى الفلج عند الخصومة يوم القيامة، فقال: نعم. إذا كان ذلك فاعتصر على الهدى. إذا قومك عطفوا الهدى على العمى. وعطفوا القرآن على الرأى فتأولوه برأيهم. تتبع الحجج من القرآن بمشتبهات الأشياء الكاذبة عند الطمأنينة إلى الدنيا والتهالك والتكاثر. فأعطف أنت الرأى على القرآن إذا قومك حرفوا الكلم عن مواضعه عند الأهواء الساهية والهرج الآثم والقادة الناكثة والفرقة القاسطة والأخرى المارقة. أهل الإفك المردى والهوى المطغى والشبهة الحالقة. فلا تتكلن عن فضل العاقبة فإن العاقبة للمتقين ["... ۲۴] ، والحديث طويل ويشهد بصحته فضلا عن أنه حديث صحيح ما رواه حذيفة وعمار وأبو أيوب الأنصارى حين تحدث عن قتال على للبغاة وسيأتى فى موضعه. ثم قال إمام المتقين. وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: وإياك يا على أن يكون خصمك أولى بالعدل والإحسان والتواضع لله والاقتداء بسنتى والعمل بالقرآن منك. فإن من فلج الرب على العبد يوم القيامة، أن يخالف

[صفحه ۶۴]

فرض الله أو سنة سنها نبى أو يعدل عن الحق ويعمل بالباطل. فعند ذلك يملى لهم فيزدادوا إثما قال تعالى: (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما)، يا على إن القوم سيفتنون ويفتخرون بأحسابهم وأموالهم ويزكون أنفسهم، ويمنون دينهم على ربهم. ويتمنون رحمته ويأمنون عقابه. ويستحلون حرامه بالمشتبهات الكاذبة. فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع ويمنعون الزكاة ويطلب البر. ويتخذون فيما بين ذلك أشياء من الفسق لا توصف صفتها. ويلى أمرهم السفهاء ويكثر تتبعهم على الجور والخطأ، فيصير الحق عندهم باطلا والباطل حقا. ويتعاونون عليه ويرمونه بألسنتهم، ويعيبون العلماء ويتخذونهم سخريا. قلت: يا رسول الله فبأية المنازل هم إذا فعلوا ذلك. بمنزلة فتنة أو بمنزلة ردة؟ قال: بمنزلة فتنة. ينقذهم الله بنا أهل البيت عند ظهورنا [۲۵] (يوجد

بياض فى المتن) ثم تحدث عن الفتن فبين أن الله فتح بأهل البيت وبهم يختم وبهم يقصم كل جبار وكل منافق. ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى: يا على إنما مثل هذه الأمة كمثل الغيث لا يدرى أوله خير أم أخره. وبين ذلك نهج أعوج لست منه وليس منى "

[۲۶] ، وهـذا حديث رواه أيضا الإمام أحمد والرامهرمزى. وفى الفترة بين موقعة الجمل وبين صـفين. كان الإعلام العلوى يسوق الناس إلى صـراط الله العزيز الحميد ولم يترك الإمام موقفا إلا وأقام عليه حجة. ولم يترك باطلا إلا وضـربه ليخرج الحق من جنبه. لقد كان الإمام يعرف المنافقين. نظرا لأن النبى صـلى الله عليه وسـلم وضع عنـده أصول الأحداث فى المسـتقبل. فوفقا لهذه الأصول ترى النفاق يشع بـدون تـدخل من أحـد. لـذا كان الإمام يسوق الناس إليه فى عالم ترك بنو أميـة بصـماتهم على امتـداد طريقه فكان يقول ": أنا يعسوب المؤمنين والمـال يعسوب الفجـار، " وقـال: معنى ذلـك أن المؤمنين يتبعونى. والفجار يتبعون المال. كما تتبع النحل يعسوبها. وهو

[صفحه ۶۵]

رئيسها [۲۷] ، وقال الإمام: لو ضـربت خيشوم المؤمن بسـيفى هذا على أن يبغضـنى ما أبغضـنى. ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبنى ما أحبنى وذلك أنه قضـى فانقضـى على لسان النبى الأمى صـلى الله عليه وسـلم أنه قال: يا على. لا يبغضك مؤمن ولا يحبـك منافق [۲۸] ، وفى وصـف المنـافقين يقـول الإمـام ": أوصـيكم عبـاد الله بتقوى الله. وأحـذركم أهـل النفـاق. فـإنهم الضـالون المضلون. والزالون المزلون. يتلونون ألوانا. ويفتنون افتنانا [۲۹] ويعمدونكم

بكل عماد [۳۰] ويرصدونكم بكل مرصاد [۳۱] قلوبهم دوية [۳۲] وصفاحهم

نقية [۳۳] يمشون الخفاء. ويدبون الضراء. وصفهم دواء. وقولهم شفاء وفعلهم

الداء العياء [۳۴] ، حسدة الرخاء [۳۵] وموكدو البلاء [۳۶] ، ومقنطوا الرجاء [۳۷] لهم

بكل طريق صريع. وإلى كل قلب شفيع [۳۸] ولكل شجو دموع [۳۹] يتقارضون

الثناء [۴۰] ويتراقبون الجزاء [۴۱] إن سألوا الحفوا [۴۲] وإن عذلوا

[صفحه ۶۶]

كشفوا [۴۳] ، وإن حكموا أسرفوا [۴۴] قد أعدوا لكل حق باطلا [۴۵] ، ولكل قائم

مائلا. ولكن حى قاتلا، ولكل باب مفتاحا [۴۶] ، ولكل ليل مصباحا [۴۷] .

يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم [۴۸] وينفقوا به أعلاقهم [۴۹] .

يقولون فيشبهون. ويصفون فيموهون. قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق [۵۰] .

فهم لمة الشيطان. وحمة النيران [۵۱] ، (أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون) [۵۲] .

وبعـد أن وصف أمير المؤمنين مربع النفـاق وصـفا جامعـا شاملاـ سـئل عن الإيمـان فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين. والعدل والجهاد. والصبر منها على أربع شـعب: على الشوق، والشـفق، والزهد، والترقب، فمن اشـتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشـفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهـد فى الـدنيا اسـتهان بالمصـيبات. ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات. واليقين منها على أربع شـعب: على تبصـرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسـنة الأولين، فمن تبصر فى الفطنة، تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمـة، عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان فى الأولين. والعـدل منها على أربع شـعب: على غائض الفهم. وغور العلم. وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم. ومن علم غور العلم صدر.

[صفحه ۶۷]

عن شـرائح الحلم. ومن حلم لم يفرط فى أمره. وعـاش فى النـاس حميـدا، والجهاد منها على أربع شـعب: على الأمر بالمعروف والنهى عـن المنكر، والصـدق فى المـواطن، وشـنآن الفاسـقين، فمن أمر بـالمعروف شـد ظهـور المـؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنـوف المنـافقين، ومن صـدق فى المواطن قضـى ما عليه. ومن شـنأ الفاسـقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامـة. والكفر على أربع دعـائم: على التعمق، والتنـازع، والزيغ، والشـقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهـل دام عمـاه عن الحق.. ومن زاغ

ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة. وسكر سكر الضلالة، ومن شاق وعرت عليه طرقه. وأعضل عليه أمره. وضاق عليه مخرجه. والشك على أربع شعب: على التمادى، والهول، والتردد والاستسلام، فمن جعل المراء ديدنا لم يصبح ليلة، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه. ومن تردد فى الريب. وطئته سنابك الشيطان. ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما [" ۵۳] .

وبعد أن تحدث الإمام عن النفاق والإيمان. تحدث عن الإسلام فقال ": لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلى. الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين. واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل [" ۵۴] ، وقال إمام المتقين ": غدا ترون أيامى ويكشف لكم عن سرائرى. وتعرفوننى بعد خلو مكانى وقيام غيرى مقامى [" ۵۵] ، وقال الإمام: إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان ولا يعى حديثنا إلا صدور أمينة، وأحلام رزينة، أيها الناس: سلونى قبل أن تفقدونى! [۵۶] ، الله أكبر

[صفحه ۶۸]

يا أمير المؤمنين!! إنه قول باب مدينة العلم الذى يجلس على ذروتها أحمد صلى الله عليه وسلم:. أيها الناس: سلونى قبل أن تفقدونى. فلأنا بطرق السماء أعلم منى بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ فى خطامها. وتذهب بأحلام قومها [" ۵۷] .

يقول ابن أبى الحديد: أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة، ولا أحد من العلماء " سلونى " غير على بن أبى طالب كرم الله وجهه ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث فى كتاب " الإستيعاب " والمراد بقوله ": فلأنا أعلم بطرق السماء منى بطرق الأرض ، "ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور. ولا سيما فى الملاحم والدول. وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الأخبار بالغيوب المتكررة. لا ـ مرة ولا ـ مائة مرة. حتى زال الشك والريب فى أنه إخبار عن علم. وأنه ليس عن طريق الاتفاق. وقد تأول قوم على وجه آخر قالوا: أراد أنا بالأحكام الشرعية والفتاوى الفقهية أعلم منى بالأمور الدنيوية، فعبر عن تلك بطرق السماء، لأنها أحكام إلهية، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضية [۵۸] .

وقال ابن أبى الحديد فيقول الإمام ": إن أمرنا هذا صعب مستصعب، ولا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان، " قال: هذه الكلمة قد قالها كرم الله وجهه مرارا. ووقفت فى بعض الكتب على خطب من جملتها: إن قريشا طلبت السعادة فشقيت، وطلب النجاة فهلكت. وطلبت الهدى فضلت، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى ": والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) [۵۹] ، فأين المعدل المنزع عن ذرية الرسول، الذين شيد الله بنيانهم فوق بنيانهم. وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختارهم عليهم، ألا إن الذرية أفنان

[صفحه ۶۹]

أنا شجرتها. ودوحة أنا ساقها. وإنى من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء... إن أمرنا صعب مستصعب. لا يعرف كنهه إلا ثلاثة: ملك مقرب. أو نبى مرسل. أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان. فإذا انكشف لكم سر. أو وضح لكم أمر فاقبلوه. وإلا فاسكتوا تسلموا وردوا علمنا إلى الله. فإنكم فى أوسع مما بين السماء والأرض [" ۶۰] .

ودائرة الملك المقرب أو النبى المرسل. هى دائرة الوحى حيث يوجد النبى صلى الله عليه وسلم ودائرة العبد الذى امتحن الله قلبه للإيمان هى دائرة أهل البيت. والدائرة الأولى تعطى الثانية، حيث طهر على طهر ويقول ابن أبى الحديد: إعلم أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه لو فخر بنفسه. وبالغ فى تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التى آتاه الله تعالى إياها. واختصه بها، وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه فى أمره. ولست أعنى بذلك الأخبار العامة الشائعة التى يحتج بها الإمامية على إمامته كخبر الغدير والمنزلة وقصة براءة، وخبر المناجاة وقصة خيبر وخبر الدار بمكة فى ابتداء الدعوة ونحو ذلك. بل الأخبار الخاصة التى رواها فيه أئمة الحديث التى لم يحصل أقل القليل منها لغيره [" ۶۱] .

ومما سبق علمنا أن أهل الشام رفضوا كل نصيحة وشككوا فى كل حقيقة، واستغلوا كل حادثة وكل حركة فشقوا طورا فيها. على أمل

أن يصلوا إلى غايتهم حيث كرسى الحكم. وعلمنا كيف واجه الإمام هذا الإعلام وهذه المخططات. وكيف أمر بالعلم وتدوينه نظرا لما سيترتب فيما بعد على هذه الأحداث. وما ترك الإمام دربا من الدروب إلا وأقام عليه الحجة وحدد الحركة فيه تحديدا دقيقا. ومما سبق يمكن بوضوح معرفة أى دائرة من الدوائر هى التى تقاتل لتكون كلمة الله هى العليا. وأبن يوجد لواء الضلالة والأمراء الذين سيتمنون يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا. يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا.

[صفحه ۷۰]

على شئ أو أنهم لم يولوا شيئا. كما ورد فى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا.

[۱] الاستبداد بالشئ:التفرد به.

[۲] النوط:الالتصاق.

[۳] أى استئثار بالأمر واستبدادا به.

[۴] شحت:نحلت.

[۵] سخت:جادت.

[۶] يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدم من سلف عليه، ثم جاء معاوية نظيرا له.

[۷] الأود:العوج.

[۸] ابن بى الحديد ۳:۳۰۳.

[۹] أى أطلب أن تساعدنى عليهم.

[۱۰] لم يرعوا قربه من النبى.

[۱۱] أى لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه.

[۱۲] ابن أبى الحديد ۳:۳۵۰.

[۱۳] ابن أبى الحديد ۳:۳۵۱.

[۱۴] ابن أبى الحديد ۵:۶۲۰.

[۱۵] ابن أبى الحديد ۵:۵۷۹.

[۱۶] ابن أبى الحديد ۵:۳۷۴.

[۱۷] ابن أبى الحديد ۵:۶۱۴.

[۱۸] المصدر السابق ۵:۶۳۱.

[۱۹] المصدر السابق ۵:۴۹۰.

[۲۰] المصدر السابق ۵:۵۱۷.

[۲۱] المصدر السابق ۵:۳۷۲.

[۲۲] المصدر السابق ۵:۵۷۲.

[۲۳] رواه وكيع (كنز العمال ۱۶:۱۸۳).

[۲۴] رواه وكيع فى الغرر (كنز العمال ۱۶:۱۸۳.

[۲۵] المصدر السابق.

[۲۶] المصدر السابق.

[۲۷] ابن أبى الحديد ۵:۶۱۴.

[۲۸] ابن أبی الحدید ۳۲۴:۵ والحدیث روی شطره الأخیر مسلم والترمذی وغیرهم.

[۲۹] أی یتشعبون فنونا أی ضروبا.

[۳۰] یعمدونکم:یهدونکم ویفدحونکم. عماد:بأمر فادح.

[۳۱] أی یعدون المکاید لکم.

[۳۲] قلب دو:أی فاسد.

[۳۳] جمع صفحة الوجه.

[۳۴] أی أقوالهم أقوال الزاهدین وأفعالهم أفعال الفاسقین الفاجرین.

[۳۵] أی یحسدون کل النعم.

[۳۶] أی إذا وقع واحد من الناس فی البلاء أکدوه علیه بالسعایات وإغراء السلطان علیه.

[۳۷] أی یبدلون بشرورهم رجاء الراجی قنوطا.

[۳۸] أی یستحوذوا علی قلوب الناس بالریاء والتصنع.

[۳۹] أی یبکون عند أهل کل حزن ومصاب.

[۴۰] أی یثنی زید علی عمرو، لیثنی عمرو علیه فی ذلک المجلس.

[۴۱] أی یرتقب کل واحد منهم علی ثنائه ومدحه لصاحبه جزاء منه إما بالمال أو بأمر آخر.

[۴۲] الالحاف فی السؤال: الاستقصاء فیه. وهو مذموم.

[۴۳] أی إذا عزلک أحدهم کشف عیوبک فی ذلک اللوم والعذل. وربما کشفها لک بمختصر ممن لا تحب ذکرها بحضرته.

[۴۴] إذا سأل أحدهم ففوضته فی مالک أسرف ولم یقنع بشئ.

[۴۵] یقیمون الباطل فی معارضة الحق.

[۴۶] أی ألسنتهم ذلقة قادرة علی فتح المغلقات.

[۴۷] أی کل أمر مظلم فقد أعدوا له کلاما ینیره ویضیئه.

[۴۸] أی لتنفق سلعتهم.

[۴۹] الإعلاق:السلعة الثمینة.

[۵۰] أضلعوا الطریق:أی أمالوه.

[۵۱] ابن أبی الحدید ۴۸۲:۳.

[۵۲] سورة المجادلة: الآیة ۱۹.

[۵۳] ابن أبی الحدید ۳۰۲:۵، ووکیع وابن عساکر وابن أبی الدنیا (کنز العمال ۱۸۳:۱۶، ۲۰۶:۹۶).

[۵۴] ابن أبی الحدید ۴۱۳:۵.

[۵۵] المصدر السابق ۲۱۲:۳۰.

[۵۶] ابن أبی الحدید ۱۳۵:۴، وروی ابن سعد " سلونی عن کتاب الله، "... الطبقات. ۳۳۸:۲.

[۵۷] ابن أبی الحدید ۱۳۵:۴.

[۵۸] ابن أبی الحدید ۱۳۸:۴.

[۵۹] سورة الطور: الآیة ۲۱.

[۶۰] ابن أبی الحدید ۱۳۸:۴.

[۶۱] ابن أبی الحدید ۳:۲۴۹.

الاصطفاف للقتال

علی أرض صفین رفعت رایتان لا ثالث لهما. رایة النبی صلی الله علیه وسلم
بمودة أهلها وأعلن أن حربهم حربه وسلمهم سلمة.. وبین أنهم یؤدون عنه وأنهم یدورون مع الکتاب ولن یفترقا حتی یردا علی الحوض. وأخبر أن الأمة ممتحنة بأصحاب هذه الرایة ولذلک أوصی بهم فی کل موضع من المواضع وقال ": أوصیکم الله فی أهل بیتی. " ورایة حذر النبی صلی الله علیه وسلم من فتح الطریق لها. وحدد أسماء وبین معالم للفتن. کیف یقف الصحابة عند الأبواب ویمنعوا الناس من الدخول فیها. لأن الدخول یعنی فتح طریق آخر علی امتداده ترفع رایات أکثر من سبعین فرقة ویری علی امتداده الأئمة المضلون وأمراء الجور الذین یقتتلون علی الملک ویحرصون علی الإمارة. وفی نهایة المطاف عندما تنهدم الدنیا یتمنوا أن یخروا من الثریا ولم یلوا من أمر الناس شیئا. وأخبر النبی أن التکالب علی الدنیا یعنی عدم الورود علی الحوض لأن الکتاب لا یأمر الناس بالحرص علی الإمارة واکتناز الذهب والفضة. لقد قال النبی صلی الله علیه وسلم ": ویل لبنی أمیة " ثلاث مرات [۱] ، ولقد وردت أحادیث صحیحة أن النبی صلی الله علیه وسلم ذکر أسماء قادة الفتن وحذر منهم. وکان حذیفة یقول: أنسی أصحابی أم تناسوا. والله ما ترک رسول الله صلی الله علیه وسلم من قائد فتنة إلی أن تنقضی الدنیا... ألا وقد سماه لنا باسمه واسم أبیه واسم قبیلته" [۲] ، وروی عن الإمام علی وعمار
[صفحه ۷۱]
بمثل ذلک. وإذا کان النبی قد أخبر بأسماء رؤوس الفتن. فإنه أخبر أیضا بأسماء. أعلام الهدی. ولقد ذکرنا ما ورد فی أهل البیت. وأخبر عنهم أیضا آخر الزمان ولکن یبدو أن الصحابة نسوا هذه الأسماء کما ذکر حذیفة. وهذا الإخبار جاء فی صحیح مسلم فی مواضع. منها عندما تحدث عن القیادة الإسلامیة التی ستفتح المدینة العظمی قبل خروج الدجال. یقول النبی صلی الله علیه وسلم عن هذا الفتح... " ویقبلون فیبعثون عشر فوارس إنی لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خیولهم هم خیر فوارس علی وجه الأرض" [۳] ، فهنا توجد أسماء وعند مسلم أیضا " لا یزال هذا الدین عزیزا منیعا إلی اثنی عشر خلیفة " ولکن الراوی لم یسمع کلمة قالها النبی بعد ذلک: فقال ": فقال کلمة أصمنیها الناس فقلت لأبی: ما قال؟ قال: کلهم من قریش [" ۴] .
هذه أحادیث ذکرت فیها أسماء. ولا یمکن لعاقل أن یقول إن النبی احتفظ بهذه الأسماء لنفسه ولم یبلغها لأمته. لأن النبی صلی الله علیه وسلم بعثه الله لیقیم حجة. ولیس معنی أن فی الصحابة من نسی أن جمیعهم تناسوا. فبنوا أمیة رایة رویت فیهم أحادیث تحذر الناس من طریقهم. فعند الباب أخبر النبی صلی الله علیه وسلم أن أشد قومه بغضا له قبائل منهم بنو أمیة [۵] ، وأخبر أن بنی أمیة إذا تقلدوا المناصب وبلغوا أربعین – وفی روایة – ثلاثین رجلا. فإنهم سیتخذون مال الله دولا أی یکون لقوم دون قوم. ودین الله دخلا أی یدخلوا فیه أمورا لم ترد فی کتاب أو سنة. وعباد الله خولا أی عبیدا یستخدمونهم ویستعبدونهم [" ۶] .
[صفحه ۷۲]
وأکثر الأحادیث التی ذکر فیها أسماء بعض الناس أو القبائل کی تحذرهم الأمة. استغلها کعب الأحبار. وکان من المتخصصین فی القص مستغلا أحادیث آخر الزمان والجنة والنار. فکعب علی مساحة اللا روایة. جاء بأحادیث من دائرة التخدیر ووضع علیها رداء التبشیر، ولقد استفاد من هذا خط بنی أمیة من بدایته إلی نهایته. ومن الثابت بل ومن المشهور أن کعبا کان من المنحرفین عن علی بن أبی طالب [۷] ، وکان أبو ذر یهاجمه فی وجود عثمان إذا رآه یتدخل فی توزیع الخراج. وبلغت المأساة ذروتها. عندما ألقی کعب فی نفس معاویة بأحادیثه المختلفة وقصصه الإسرائیلیة. وأخبره بأنه الخلیفة بعد عثمان. وبعد هذا البیان لا یستغرب أن نسمع أمیر المؤمنین علی یقول لأصحابه یوم صفین: انفروا إلی بقیة الأحزاب، امضوا بنا إلی ما قاله الله ورسوله. إنا نقول صدق الله ورسوله. ویقولون:

كـذب الله ورسوله [" ۸] ، وليس معنى أنهم يقولون هـذا. أنهم يسيرون بين النـاس ويرددونهـا. وإنما المعنى: أن لهم تأويلا خاصا فى مال الله. ودين الله وعباد الله. ولهم موقفهم الخاص من رسول الله والـذى يعلمه الله. وبينه رسوله عنـدما وضـعهم ضـمن الذين يبغضونه. ولا يسـتغرب أيضا أن نسـمع الإمام يقول بعـد أن رفع معسـكر معاويـة المصاحف ليعبر عن أهدافه من تحتها " إن معاوية وابن العاص وابن أبى معيط وحبيب بن سـلمة وابن أبى السـرح والضحاك، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم [" ۹] ، وقوله أيضا فى معاويـة وأبيه " طليق بن طليق، حزب من الأـحزاب. لم يزل حربـا لله ورسوله هو وأبوه. حـتى دخلاـ فى الإسـلام كـارهين [" ۱۰] ، وقوله ": والذى فلق الحبة وبرأ النسـمة ما أسـلموا. ولكن استسـلموا، وأسروا الكفر. فلما وجدوا عليه أعوانا. رجعوا إلى عداوتهم لنا. إلا أنهم لم يتركوا

[صفحه ۷۳]

الصلاة [" ۱۱] ، ولا يسـتغرب أن نرى عمار بن ياسر الذى ورد فيه أنه يدعو إلى الجنة وخصومه يدعون إلى النار - إلى غير ذلك من الأحـاديث التى ذكرناها - يقول يوم صـفين وهو يشـير إلى رايـة معاويـة: قاتلت صاحب هـذه الرايـة ثلاثا مع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم. وهذه الرابعة [" ۱۲] ، وروى أن رجلاـ سـأل عمـارا: يـا أبا اليقظان، ألم يقل رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: قاتلوا الناس حتى يسـلموا. فإذا أسـلموا عصـموا منى دماءهم وأموالهم؟ قال: بلى، ولكن والله ما أسـلموا ولكن استسـلموا وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعوانا [" ۱۳] ، ولا يسـتغرب أن نسـمع ابن مسـعود وهو يحدث بحديث فيه اسم من الأسماء التى حذر النبى صلى الله عليه وسلم منها، قال عبـد الله: قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: إذا رأيتم معاويـة بن أبى سـفيان يخطب على منبرى فاضـربوا عنقه، " وكان الحسـن يقول: فوالله مـا فعلوا ولاـ أفلحوا [" ۱۴] ، وليس معنى قتله لأـنه دخـل المسـجد، وإنما لأنه يخطب. لأن الخطبـة لا بـد أن تحمل فكره وثقافته فى معنى مال الله ودين الله وعباد الله، وخطورة هـذه الثقافـة تبلغ مـداها إذا كان معاويـة ورجاله هم حراس الأمـة، لهـذا وجـدنا الحسن بن على بعـد وفاة أمير المؤمنين. يقيم الحجـة على الناس فى كل ميـدان. فلقـد تجهز لقتال معاويـة ولكنه خذل، ثم حث الناس على الصـمود ولكنهم قالوا: البقية البقية!! وطلبوا الصـلح. ثم اشترط الحسن شـروطا. ولكن معاوية لم يف بها لسـبب بسيط هو أن الأمة كـانت تغط فى نوم عميق. والحجـة لا يأتى إلى الناس وإنما الناس هم الـذين يأتون إليه لأن قانون الاختيار يـدور على قوله تعالى: (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون [" ۱۵] .

[صفحه ۷۴]

فالرايات يوم صـفين، كان فيها من الله برهان. فالذى يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا معروف. وقتال بنى أمية من أجل الملك مشهور. وهـذا القتال له بذور غرست فى الفتن. وروى أنه قد قيل لسـفينة: إن بنى أمية يزعمون أن الخلافة فيهم. فقال: كذبوا بنو الزرقاء [۱۶] ، بل هم ملوك من شـر الملوك [" ۱۷] ، وبنو أمية ما زعموا هذا إلا على أساس. فلقد سـمعوا الأحاديث التى تخبر بأنهم سيصـلون إلى الملك [۱۸] ولأن هذه الأحاديث أحاديث تحذيرية. رفعوها من دائرة التحذير

إلى دائرة التبشير. وقاتلوا على ذلك. ساروا وسط الأمـة يتعوذون من الفتنة وهم فى الفتنة سـقطوا لأنهم الذين حفروا حفرتها. وسـنرى فيما بعد ماذا صـنعوا كى بخبرهم أمير المؤمنين بخبرهم فى المسـتقبل. وسـنرى أن حركتهم خلال أحداث صفين ما تركت بابا يساعد على تأصـيل هـذا الشـذوذ إلا فتحوه ليخلطوا الأمور على الناس فيما بعـد. فالـذى يبحث فى الخلافـة يجدهم. والذى يبحث فى الملك يجـدهم، وحسـبنا الله ونعم الوكيل. وإذا كنا قـد تحـدثنا عن الرايات على أرض الاصـطفاف. فلنتحـدث عن بعض الرجال الذين تحت هـذه الرايـات. أمـا معسـكر أمير المؤمنين. روى أنه كان فى جيش على ثمانون بـدريا ومائـة وخمسون ممن بايع تحت الشـجرة [۱۹] ، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة [۲۰] على رأس هؤلاء: عمار بن ياسر. الذى بشره النبى صلى الله عليه وسلم بأن الفئة الباغية تقتله وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ": من عادى عمارا عاداه الله ومن أبغض

[صفحه ۷۵]

عمارا أبغضه الله [" ۲۱] ، وقال ": ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار [" ۲۲] ، وتحت راية على نجد أيضا أويس بن عامر القرنى. الذى لم ير النبى صلى الله عليه وسلم. وأخبر النبى أن أويسا خير التابعين - وظهر أويس فى عهد عمر بن الخطاب واستغفر لعمر. وعندما طلب عمر أن يكون أويس بجانبه. فضل أويس أن يذهب إلى الكوفة. وعندما ود عمر أن يكتب للأمراء بشأنه. قال أويس إنه يفضل أن يعيش فى غبراء من الناس. وعاش أويس زاهدا حتى جاء عهد على فخرج مقاتلا يضرب بالسيف ويصيح: يا خيل الله اركبى! وهناك الكثير تحت راية الأمير كرم الله وجهه. أما راية بنى أمية، فتحتها التجار بجميع عناوينهم، روى أن معاوية بعث رجلا إلى أمير المؤمنين وقال له: أبلغ عليا أنى أقاتله بمائة ألف. ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل. وقد بلغ من أمرهم فى طاعته لهم. أنه صلى بهم عند سيرهم إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها [۲۳] إنهم العامة والغوغاء، الذين يمهدون الطريق لكل فتنة. أما قادة الألوية

الذين قاتلوا بجلد وقوة. فعلى رأسهم: أبو الأعور السلمى، وورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنه. وبسر بن أرطاة الذى فعل الأفاعيل فى مكة والمدينة واليمن. وأخباره مشهورة، ومنهم أيضا عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وحبيب بن مسلمة الفهرى، وعندما قطعوا الماء كان على الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص. وحابس بن سعيد. والضحاك بن قيس. وغير هؤلاء كثير [۲۴] وروى عن ابن إسحاق أنه قال:

اجتمع عند معاوية فى ليلة من ليالى صفين عمرو بن العاص. وعتبة بن أبى سفيان. والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر وابن طلحة الطلحات الخزاعى، فقال عتبة: إن أمرنا وأمر على بن أبى طالب لعجيب. ما

[صفحه ۷۶]

فينا إلا موتور محتاج. أما أنا فقتل جدى عتبة بن ربيعة. وأخى حنظلة، وشرك فى دم عمى شيبة يوم بدر، وأما أنت يا وليد، فقتل أباك صبرا، وأما أنت يا ابن عامر. فصرع أباك وسلب عمك، وأما أنت يا ابن طلحة، فقتل أباك يوم الجمل وأيتم إخوتك، وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر:

وأفلتهن عليا جريصا++

ولو أدركنه صفر الوطاب [۲۵] فقال معاوية: هذا الاقرار فأين الغير؟ قال مروان: وأى غير تريد؟ قال: أريد أن تشجروه بالرماح، قال: والله يا معاوية ما أراك إلا هاذيا أو هازئا. وما أرانا إلا ثقلنا عليك، فقال ابن عقبة:

يقول لنا معاوية بن حرب++

أما فيكم لواتركم طلوب

يشد على أبى حسن على++

بأسمر لا تهجنه الكعوب

إلى أن قال:

فقلت له: ألكعب يا بن هند++

كأنك بيننا رجل غريب

أتغرينا بحية بطن واد++

إذا نهشت فليس لها طبيب [۲۶] .

فهم يخافون لأنهم لا يستندون إلى حقيقة. وإنما إلى فتنة شقوا فيها طريقهم. ولأنهم خائفون كان لا بد لهم من جدر تحميهم وتحمى تاريخهم. ومن أجل إقامة هذه الجدر بعثروا المال على العقول والنفوس. وما تركوا خدعة إلا فعلوها ولا مصحفا إلا رفعوه. وهذا الأسلوب لا يقدم عليه أمير المؤمنين. أولا: لأنه حجة ويعلم أنه مقتول. وثانيا: لأن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة. ويظهر غدره على

رؤوس الأشهاد.

[۱] رواه ابن منده وأبو نعیم عن حمران بن جابر ورواه ابن قانع عن سالم الحضرمی (کنز العمال ۱۶۵:۱۱).

[۲] رواه أبو داود، وسبق تخریجه.

[۳] رواه مسلم کتاب الفتن (الصحیح ۱۷۸:۸).

[۴] رواه مسلم کتاب الإمارة (۴:۶).

[۵] رواه البیهقی عن عمران وقال ابن کثیر رجاله ثقات (البدایة ۲۶۸:۶) ورواه نعیم ابن حماد عن أبی سعید (کنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۶] الحدیث رواه الإمام أحمد والطبرانی والبزار والحاکم وأبو یعلی والبیهقی عن أبی سعید وأبی ذر وابن عباس وفی الحدیث تحذیر من بنی أمیة أو بنی الحکم، ولقد تحدثنا عنه فیما سبق.

[۷] قال ابن أبی الحدید: روی جماعة من أهل السیر أن علیا کان یقول عن کعب الأحبار: إنه لکذاب. وقال: وکان کعب منحرفا عن علی (ابن أبی الحدید ۷۹۲:۱).

[۸] رواه البزار بإسناده (الزوائد ۲۳۹:۷).

[۹] الطبری ۲۷:۶، الکامل ۱۶۱:۳، مروج الذهب ۴۳۳:۲، البدایة والنهایة ۲۹۸:۷.

[۱۰] الکامل ۱۴۸:۳.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۷۶۰:۱.

[۱۲] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷) وابن سعد (الطبقات ۲۵۷:۳) والطبری ۲۱:۶.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۷۶۰:۱.

[۱۴] المصدر السابق ۷۶۰:۱.

[۱۵] سورة یونس: الآیة ۱۴.

[۱۶] الزرقاء امرأة من أمهات بنی أمیة، رواه ابن حبان (تحفة الأحوذی ۴۷۹:۶).

[۱۷] رواه الترمذی وصححه وقال رواه غیر واحد (الجامع ۵۰۳:۴) وأبو داوود حدیث ۴۶۴۶.

[۱۸] الحدیث تحدث به أبو ذر فی وجود عثمان وکعب الأحبار، ومعاویة کانت یقرب مروان منه لمعرفته أن فی صلبه ملوکا. والإمام علی أخبر مروان بالأحادیث التحذیریة بعد الجمل.

[۱۹] الحاکم (المستدرک ۱۰۴:۳) البدایة ۲۵۵:۷.

[۲۰] مروج الذهب ۳۶۱:۲.

[۲۱] رواه أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الفتح ۳۲۹:۲۲) (الزوائد ۲۹۳:۹).

[۲۲] رواه أحمد (الفتح ۱۴۲:۲۳) والبخاری (کنز العمال ۷۲۲:۱۱).

[۲۳] مروج الذهب ۴۱:۳.

[۲۴] ابن أبی الحدید ۶۴۹:۱. والطبری أحداث سنة ۳۶.

[۲۵] لامرئ القیس، علیاء:قاتل والد امرئ القیس، الجریص:الذی یؤخذ بریقه، صفر الوطاب:کنایة عن القتل.

[۲۶] ابن أبی الحدید ۴۷۸:۲.

القتال

قبل أن یتوجه معاویة إلی صفین، کان قد صالح ملک الروم علی مال

[صفحه ۷۷]

يحمله إليه لشغله بعلى [۱] والذى أشار عليه بالتقريب إلى الروم لتفرغ لعلى هو

عمرو بن العاص [۲] ، وعندما توجه إلى صفين حاول السيطرة على مصادر المياه، ولكن خطته باءت بالفشل أمام قوات أمير المؤمنين عليه السلام. وعندما اصطف الفريقان قبل القتال يقول ابن عباس: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين على بن أبى طالب، والله ما رأيت ولا سمعت رئيسا يوزن به. رأيت فى هذا اليوم عليا وعليه عمامة بيضاء وكأن عينيه سراجا سليطا [۳] ، وهو يقف على طوائف الناس فى مراتبهم يحثهم ويحرضهم، حتى انتهى إلى وأنا فى كثيف [۴] من الناس. فقال: يا معشر المسلمين، عموا الأصوات، وأكملوا اللامة [۵] ، واستشعروا الخشية، وافلقوا السيوف فى الأجفان قبل السل، والحظوا الشزر [۶] ، واطعنوا الهبر [۷] ، ونافحوا [۸] بالظبأ [۹] ، وصلوا السيوف بالخطا [۱۰] ، والنبال بالرماح، وطيبوا عن أنفسكم، فإنكم بعين الله، ومع ابن عمر رسول الله، عاودوا الكر، واستقبحوا الفر، فإنه عار فى الأعقاب، ونار يوم الحساب، ودونكم هذا السواد الأعظم، والرواق [۱۱] المطنب [۱۲] ، فاضربوا نهجه، فإن الشيطان راكب صعيده، مفترض ذراعيه، قد قدم للوثبة يدا وأخر

[صفحه ۷۸]

للنكوص [۱۳] رجلا فصبر جميل حتى تنجلى عن وجه الحق، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم، وتقدم أمير المؤمنين على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء [" ۱۴] .

ومن آراء أمير المؤمنين قبل القتال روى أنه قال: لا تقتلوا القوم حتى يبدؤكم. فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لكم. فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل. فإذا وصلتم إلى رحال القوم، فلا تهتكوا سترا، ولا تدخلوا دارا إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم إلى ما وجدتم فى عسكرهم، ولا تهجوا امرأة بأذى - وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم فإنهم ضعاف القوى والأنفس [۱۵] .

وبعد هذه التعليمات الرفيعة المستوى، نادى أمير المؤمنين: يا كهيعص [۱۶] اللهم إليك رفعت الأبصار وبسطت الأيدى، ونقلت الأقدام، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتحوكم إليك فى الأعمال، فاحكم بيننا وبينهم بالحق، وأنت خير الفاتحين. اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وقلة عددنا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، وشدة الزمان، وظهور الفتن، فأعنا على ذلك بفتح منك تعجله، ونصر به سلطان الحق وتظهره [۱۷] .

وبعد أن فرغ أمير المؤمنين، روى عن الحارث أنه قال: رأيت بعيرا من أهل الشاء جاء وعليه راكبه وثقله [۱۸] فألقى ما عليه، وجعل يتخلل الصفوف إلى على بن أبى طالب. فجعل شفره فيما بين رأس على ومنكبه، وجعل يحركها

[صفحه ۷۹]

بجرانه، فقال أمير المؤمنين: والله إنها للعلامة بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم [۱۹] وروى كان درع على بن أبى طالب لا ظهر لها. فقيل له فى

ذلك، فقال: إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يبقى [۲۰] وروى إنه كان بعد

المعركة وفى نهاية كل يوم كان يظهر فى إزار ورداء. فقيل له: أتقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشى فى إزار ورداء؟! فقال: أبا لموت تخوفونى؟! فوالله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط على [۲۱] .

ولم يكن هدف الإمام القتل، وإنما إقامة الحجة، وفتح طريق الهداية أمام الذين وقعوا تحت تأثير الإعلام الأموى، وكان هذا الإعلام قد بث فى الناس أن عليا لا يصلى وأنه قتل عثمان، وإذا وقع فى يده أسير فإن عليا يقتله صبرا. ومن معالم إقامة الحجة أثناء المعركة على الذين سقطوا ضحية للإعلام الأموى. روى أن عليا أتى بأسير يوم صفين، فقال له الأسير: لا تقتلنى صبرا، فقال الإمام: لا أقتلك صبرا إنى أخاف الله رب العاملين، وخلى سبيله، ثم قال له: أفيك خير يتابع [۲۲] .

وروی أن شابا من معسکر معاویة أنشد:

أنا ابن أرباب الملوک غسان++

والدائن الیوم بدین عثمان

نبأنا قراؤنا بما کان++

أن علیا قتل ابن عفان

وظل الشاب یشتم ویلعن، فلقیه هاشم بن عتبة وکان من أصحاب علی فقال له: یا هذا إن الموقف وما أردت به. قال: فإنی أقاتلکم لأن صاحبکم لا یصلی کما ذکر لی، وأنتم لا تصلون أیضا. وأقاتلکم لأن صاحبکم قتل خلیفتنا وأنتم ساعدتموه علی قتله، فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان، إنما قتله أصحاب محمد وأبناء الصحابة وقراء الناس، حین أحدث الأحداث وخالف حکم

[صفحه ۸۰]

الکتاب!! وهم أهل الدین وأولی بالنظر فی أمور الناس منک ومن أصحابک... وأما قولک إن صاحبنا لا یصلی، فهو أول من صلی، وأفقه خلق الله فی دین الله، وأولی بالرسول، وأما کل من ترى معی فکلهم قارئ لکتاب الله، لا ینام اللیل تهجدا، فلا یغوینک عن دینک هؤلاء الأشقیاء المغرورون. فقال له الفتی: یا عبد الله إنی أظنک امرأ صالحا فتخبرنی، هل تجد لی من توبة؟ قال هاشم: نعم یا عبد الله تب إلی الله یتب علیک فإنه یقبل التوبة عن عباده ویعفو عن السیئات ویحب المتطهرین. فرجع الفتی. فقال له أهل الشام: خدعک العراقی، خدعک العراقی. قال: لا ولکن نصح لی [۲۳] .

وروی أن معاویة بعث وفدا لیستلم القتلی، فقابل الإمام علی هذا الوفد وقال لهم: معاویة الذی لم یجعل له سابقة فی الدین، ولا سلف صدق فی الإسلام، طلیق ابن طلیق، حزب من الأحزاب، لم یزل حربا لله ورسوله هو وأبوه، حتی دخلا فی الإسلام کارهین، ولا عجب إلا من انقیادکم له وترکون آل بیت نبیکم الذین لا ینبغی لکم شقاقهم ولا خلافهم. ألا إنی أدعوکم إلی کتاب الله وسنة نبیه وإماتة الباطل وإحیاء الحق ومعالم الدین. فقالوا: تشهد أن عثمان قتل مظلوما. قال: لا أقول أنه قتل مظلوما ولا ظالما. فقالوا: الذی لا یتبرأ من قتل عثمان نحن نتبرأ منه [۲۴] فتلی الإمام (فإنک لا تسمع الموتی ولا

تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرین. وما أنت بهاد العمی عن ضلالتهم أن تسمع إلا من یؤمن بآیاتنا فهم مسلمون) [۲۵] .

ولم یکتف الإعلام الأموی بهذه النتیجة، وهذا الحشد من الذین صلوا الجمعة یوم الأربعاء. وإنما جلسوا علی أرض صفین یشتمون الإمام، لیثبتوا الباطل داخل الجماجم الآدمیة، لیشق الباطل طریقه فی عالم الاحتناک، روی أن الإمام مر علی جماعة من أهل الشام فیها الولید بن عقبة وهم یشتمونه فخبر

[صفحه ۸۱]

بذلک، فوقف فیمن یلیهم من أصحابه. فقال: انهضوا إلیهم علیکم السکینة والوقار، وقار الإسلام وسیما الصالحین، فوالله لأقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنهم معاویة، وابن النابغة، وأبو الأعور السلمی، وابن أبی معیط شارب الخمر المجلود جلدا فی الإسلام. وهم أولی من یقومون فینتقصوننی ویجذبوننی. وقبل الیوم ما قاتلونی وأنا إذ ذاک أدعوهم إلی الإسلام، وهم یدعوننی إلی عبادة الأصنام، الحمد الله قدیما عادانی الفاسقون فعبدهم الله، ألم یفتحوا؟ إن هذا لهو الخطب الجلیل، إن فساقا کانوا غیر مرضیین وعلی الإسلام وأهله متخوفین. خدعوا شطر هذه الأمة. وأشربوا قلوبهم حب الفتنة ما استمالوا أهواءهم بالإفک والبهتان. قد نصبوا لنا الحرب فی إطفاء نور الله عز وجل، اللهم فافضض خدمتهم، وشتت کلمتهم، وأبسلهم بخطایاهم، فإنه لا یذل من والیت، ولا یعز من عادیت [۲۶] .

لقد جلسوا علی الطرقات یشتمون، فإذا أمیر المؤمنین یصدر أوامره لاتباعه: انهدوا إلیهم علیکم السکینة والوقار، وقار الإسلام وسیما الصالحین!! فأی فرق بین هذا وذاک!؟ لقد کان علیه السلام فی قتاله یقود الناس إلی صراط الله العزیز الحمید، رغم ضراوته فی القتال. کان یقیم الحجة أولا ثم یضرب بکل قوة أصحاب الرقاب الغلیظة الذین یشیدون الطرق نحو سنن الیهود والنصاری، حتی لا یقذفون

بالأمـة فى دروبها المظلمة، وبقدر صـمود الناس من حوله تكون قوة الضـربات. روى أنه كان فى صـفين لا يرجع حتى يخصب سـيفه، وأنه حمـل ذات يوم على أعـدائه فلم يرجع حـتى انثنى سـيفه، فألقـاه إليهم وقـال: لولاـ أنه انثنى مـا رجعت [۲۷] وذكر علمـاء التاريخ وغيرهم أنه بارز فى أيام

صفين، وقتل خلقا حتى ذكر بعضهم أنه قتل خمسمائة [۲۸] وكانت أقوى ضرباته

بعد أن قتل عمار بن ياسر. وروى أنه فى يوم من أيام صفين، قال الناس: إن

[صفحه ۸۲]

معاويـة قـد مات. فقال أمير المؤمنين: قـد أكثرتم من نعى معاويـة، والله ما مات، ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمى. وإنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك منى، فبعث من يشيع ذلك فيكم، ليعلم ويتيقن ما عندى فيه، وما يكون من أمره فى المسـتقبل من الزمان. ثم ذكر أمير المؤمنين ما يكون من أمر معاويـة وذكر الحجاج وما يسومهم من العـذاب. فارتفع الضـجيج. فقال رجل: إن ذلك كائن؟ قال الإمام: والله إن ذلك لكائن. فقال آخر: متى يكون؟ قال: إذا خضـبت هذه من هذه – ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه – وأكثر الناس من البكاء فقال: لا تبلوا فى وقتكم هـذا. فسـتبكون بعـدى طويلا. وبعد أن حدثهم الإمام، كاتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية سرا فى أمورهم. واتخذوا عنده الأيادى [۲۹] .

هنـا تكمن حقيقـة الابتلاء، وهنا ترى حركـة التاريـخ، فالإمام يقاتل بضـراوة وهو يعلم أنه مقتول وأن معاويـة سـيملك ما تحت قـدمه، والرسول صـلى الله عليه وسـلم كان يجاهد ويحذر وهو يعلم أن غلمان قريش سـينزون على منبره نزو القردة، وكان ينادى بوحدة الأمة وهو يعلم أنها سـتفترق إلى أكثر من سبعين شعبة، وكان يحذر من اتباع اليهود والنصارى وهو يعلم أن مساحة كبيرة من الأمة ستتبعهم شبرا بشبر وذراعـا بـذراع، والإمـام على من بـايعه الناس وهو يخوض حروبا فتحوها عليه من كل جانب. ومع ذلك لم يهمل الاصـلاح وإقامـة الحجة وحشد الحشود، وهو يعلم أن الحشود من حوله سـتنفض، ثم تأتيه ضـربة من أشـقى الناس فتخضب لحيته من رأسه، فما معنى هـذا؟ لقـد ذكرنا فى هـذا الكتاب أن كليات الـدين موجودة فى فطرة الإنسان نفسه، وهـذه الفطرة تهدى الإنسان إلى صـراط الله العزيز. ومعنى أنهـا تهـديه إلى طريق وإن هنـاك طريقـا آخر يحمل معالم أخرى لا تهـدى إلى صـراط الله العزيز. ودائرة الفطرة يسـهر عليها أنبياء الله ورسـله – فالله يبعثهم بالـدين، والـدين طريق خاصـة فى الحياة تؤمن صـلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروى. أما دائرة اللاهدى، فيسهر عليها

[صفحه ۸۳]

الشـيطان. وبرنامـج الشـيطان يعتمـد على التزيين والإغواء، ليصل بالإنسان إلى مرحلـة الاحتناك، وهى مرحلـة خدمة الأهواء والسياسـة الشيطانية، والإنسان بين برنامج الفطرة وبين برنامج الشيطان حر مختار، بمعنى أن الله تعالى حاصر الإنسان بجميع الحجج فى نفسه وفى الوجود حتى لاـ تكون له على الله حجـة. ثم أمر سـبحانه الجوارح أن تطيع صاحبهـا فيمـا يريـد، ويختار، وكلما اختار الإنسان شـيئا من دائرة الشـيطان، انطفأ نور من أنوار الفطرة بـداخله – فإذا اختار الكفر خرج الإيمان من قلبه، وفى كل إنسان قلب واحـد وهـذا القلب لا يحمـل إلا شـيئا واحـدا. قال تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) [۳۰] ، ولأـن الله تعالى يعلم أن وسائل الشـيطان لها بريقها، وأن هـذا البريق سـيكون عاملاـ مهما فى الصـد عن سبيل الله، بعث سـبحانه الرسل على فترات، ليبينوا للناس أسـباب الهـدى كى تطرد القلوب الكفر وتعمر بالإيمان. والرسالـة الخاتمـة جاءت لتدعو الناس إلى صـراط الله العزيز، وحذرت من دوائر الشـيطان أشد التحذير، وما تركت الرسالـة سبيلا إلى الهـدى إلا بينته. ومن فضل الله تعالى على الأمـة الخاتمـة أنه سـبحانه أوحى إلى رسوله بما سـيحدث فى أمته حتى قيام الساعة، وأخبره بخطوات الشيطان فى بعض القبائل وداخل بعض النفوس ليحذر أمته من هذا ومن ذاك، وأخبره سبحانه بعلمه المطلق أنه رغم تحذيره إياهم إلا أن الغالب الأعم من الأمة لن ينصت إلى هذا التحذير وأن الأمة ستختلف ثم ستفترق ثم ستتبع سنن الأولين شبرا بشبر وذراعا بـذراع، وعلى امتـداد هذا الطريق فإن الحجة فوق الرؤوس، وفى الكون وفى أعماق أعماق النفس حيث

الفطرة والموعـد الله. ومعنى أن الحجة فوق الرؤوس أن الحجة مستمرة وتسوق الناس إلى صـراط الله العزيز. ولا يضـرها من خالفها أو خـذلها أو ناوأها. ولا يضـرها قتل أو قطع رؤوس أو سـجن أو طرد أو نفى. فالملك لله، والموعـد الله. وفى عهد الإمام على كان الإمام يعلم نهايته. فلم يتألم لأنه سيضرب على

[صفحه ۸۴]

رأسه، وإنما كان يقول: فوالله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط على [" ۳۱] .

ولم يكن الإمام يتألم من هذا، وإنما كان يتألم أن يرى باطلا ولا يستطيع كسره. وذلك لأنه يعيش فى دائرة الإيمان الكامل. وأصحاب هذه الدائرة لا تشعر جوارحهم إلا بما فى مخزون الفطرة ودائرة العبادة الحق. لقد كان الإمام يعلم بأنه مقتول، ولكنه كان يأخذ بأسباب إقامـة المجتمع الصالـح. وليس معنى أن الله تعـالى كتب على كـل إنسـان الموت وأن يجلس الإنسان على سـريره لينتظر الموت، وإنما عليه أن يكـد ويحصـل العلوم ويأخـذ بأسـباب الحياة الكريمـة التى تؤمن صـلاح الـدنيا بما يوافق الكمال الأخروى. والإمام أعلن أمام الجميع إخبـار الرسول له بـأنه مقتول. وهنـاك فرق بين مقتول وميت. فـإذا كـانت الأمـة سـتقتل الإمام، فهل هـذا أخـذا بأسـباب الحياة الكريمـة؟ قد يقال إن الذى قتله إنسان واحد، فنقول إن الذى قتل الناقة كان إنسان واحد، ولكن الله عندما أخبرنا بقتلها قال ": فكذبوه فعقروها " ثم أخبرهم الإمام أن بعد القتل سيأتيهم العذاب. والعجيب أن الإمام عندما أخبرهم بأنه سيقتل وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه. سارع البعض بإرسال الرسائل إلى معاوية واتخذوا عنده الأيادى. فهل هذا أخذا بالأسباب الكريمة؟. فإذا جاء العذاب فهل يكون العـذاب إلا نتيجـة طبيعيـة لأعمالهم. لأن الله لا يظلم مثقال ذرة. إن الإنسان الـذى يفسـد دينه الفطرى لا تتعادل قواه الحسـية الداخليـة، وتصـبح معظم ملكات نفسه فى حالة جوع دائم. واليهود عندما فسد دينهم الفطرى جاعت نفوسـهم، وعندما جاء إليهم أنبياء الله ورسله لإطعـامهم الحلال، لم يجـدوا فى الحلال كفايـة، فقتلوا الأنبياء، ولما كان لا بـد أن يسـير اليهود وراء إمام لهم، بشـرط أن يكون هـذا الإمـام موافق لمـا يريـدون، بـدأوا ينقبون فى أحـاديث الغيب وأخبـار المسـتقبل التى تركتهـا رسـلهم. فوجـدوا أحاديث عليها علامات تحذيرية وأخرى عليها علامات تبشيرية، واختلط الأمر عليهم فهناك

[صفحه ۸۵]

أشـياء يريـدونها وعليها تحـذير وأخرى لا يريدونها وعليها تبشير. ووجدوا أن الغيب فيه مسيحان الأول يولد من عذراء والآخر دجال. ووجـدوا أن ابن العذراء لن يعطيهم إلا بميزان بينما الآخر سـيصب عليهم الدنيا صـبا، واختلط عليهم الأمر، وهنا تدخل أحبار السوء فى كـل زمان وكل مكان، الأحبار الـذين يسـعون فى الأرض فسادا، فقالوا أنهم أحباء الله والله لا يعطى أحباءه بميزان. وقـد يكون الأولون قـد أخطأوا فى تحديـد التحـذير والتبشـير. ثم اسـتقروا على المسـيح الثانى. وحاولوا قتل المسـيح الأول عندما بعثه الله إليهم، ولما كان المسيح الذى وقعوا عليه هو الدجال الذى وصفته الأحاديث بأنه يهودى أى أنه على هوى اليهود [۳۲] .

وعـالم ابتغـاء الفتنـة عـالم طويـل عريض، ويبحث أصـحابه دائمـا فى أصولهم التى فى صـدورهم، ثم يعملوا من أجـل إيجاد رداء لهم يسـيرون به فى الحيـاة، وكلمـا كـان الرداء له قداسـة كـانت العقبات فى طريقهم أقل. ولقـد اسـتغل تيار النفاق الجلباب الإسـلامى. بل اسـتغلوا فيما بعـد القرآن، قال تعالى: (فأما الـذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) [۳۳] ، ثم اسـتغلوه عندما رفعوه طلبا للتحكيم بينهم وبين أمير المؤمنين الـذى يقاتلهم أصـلا على التأويل. وكانوا يريـدون من وراء ذلك أولا: الخروج من المعركـة أحياء، وثانيا: إخراج الإمام من دائرة أنه الأعلم بالتأويل. كما حاولوا من قبل إخراجه من دائرة التطهير.

[۱] مروج الذهب ۴۱۸:۲.

[۲] الطبرى ۱۸۶:۶.

[۳] السراج السليط:المتقد بالزيت الجيد.

[۴] كثيف:أى حشد وجماعة.

[۵] اللامة:الدرع.

[۶] الشزر:النر بمؤخرة العين.

[۷] الهبر:اللحم الكثير.

[۸] نافخوا:دافعوا.

[۹] الظبأ:حد السيف.

[۱۰] الخطا:الرمی بالسهام.

[۱۱] الرواق:ما بين يدی البيت.

[۱۲] المطنب:المشدود.

[۱۳] النكوص:الفرار والهرب.

[۱۴] مروج الذهب ۲:۴۲۰، ابن عساكر (كنز العمال ۱۱:۳۴۷).

[۱۵] الطبری ۶:۶، ابن أبی الحديد ۱:۷۵۷.

[۱۶] ابن أبی الحديد ۲:۲۰۹.

[۱۷] ابن أبی الحديد ۲:۲۰۹.

[۱۸] ثقله:حملة.

[۱۹] رواه أبو نعيم وابن عساكر (كنز العمال ۱۱:۳۵۰)، (الخصائص الكبری ۲:۲۳۴).

[۲۰] العقد الفريد ۱:۲۰۹.

[۲۱] العقد الفريد ۱:۱۱۹. وابن كثير بلفظ آخر (البداية ۷:۲۶۵.

[۲۲] رواه الشافعی والبيهقی (كنز العمال ۱۰:۳۴۸).

[۲۳] الطبری ۶:۲۳، الكامل ۳:۱۵۹.

[۲۴] الكامل ۳:۱۴۸.

[۲۵] سورة الروم: الآية ۵۲، ۵۳.

[۲۶] الطبری ۶:۲۵.

[۲۷] البداية والنهاية ۷:۲۹۴.

[۲۸] البداية والنهاية ۷:۲۶۴.

[۲۹] مروج الذهب ۲:۴۶۵.

[۳۰] سورة الأحزاب: الآية ۴.

[۳۱] العقد الفريد ۱:۱۱۹.

[۳۲] راجع بحوثنا فی المسيح الدجال وصدر منها خمس بحوث.

[۳۳] سورة آل عمران: الآية ۷.

مشاهد من ميدان القتال

لقد كان هناك من خذل الإمام من البداية، عندما علموا أن الأمر سيكون

لمعاوية فی النهاية. وكان هناك أيضا الذين علموا بنهاية الإمام ولكنهم أخذوا بالأسباب نحو الحياة الكريمة. ومنهم من كان يعلم أن

الفئـة الباغیـة سـتقتله فی هذه المعرکة لا محالة، ولکن لم یمنعه ذلک من أن یسـیر وراء أمیر المؤمنین. باختصار: کان هناک من یأخذ بالأسباب لینظر الله إلی عمله وهو یسیر نحو

[صفحه ۸۶]

غایته. أما نتیجـة هـذا العمل فعنـد الله أمرها. - من هؤلاء (یزید بن قیس الأرجی): لقد حرض الناس فقال: إن المسـلم السـلیم من سـلم دینه ورأیه، وإن هؤلاء القوم والله إن یقاتلوننا علی إقامـة دین رأونا امتناه. وإن یقاتلوننا إلا علی هـذه الدنیا، لیکونوا جبابرة فیها ملوکا. فلو ظهروا علیکم لا أراهم الله ظهورا ولا سـرورا. ألزموکم بمثل سعید والولید وعبد الله بن عامر السفیه الضال. یجیز أحدهم فی مجلسه بمثل دیته ودیـة أبیه وجده، یقول هذا لی ولا إثم علی. کأنما أعطی تراثه عن أبیه وأمه، وإنما هو مال الله عز وجل، أفاءه علینا بأسـیافنا وأرماحنا. فقاتلوا عباد الله القوم الظالمین الحاکمین بغیر ما أنزل الله، ولا یأخذکم فی جهادهم لوم لائم. ثم فإنهم ما ازدادوا إلی یومهم إلا شرا [۱] .

- ومنهم (عبـد الله بن بـدیل): قال فی الناس: إلا أن معاویة ادعی ما لیس أهله، ونازع هذا الأمر من لیس مثله، وجادل بالباطل لیدحض به الحق، وصال علیکم بالأعراب والأحزاب قـد زین لهم الضـلالة وزرع فی قلوبهم حب الفتنـة. ولیس علیهم الأمر، وزادهم رجسا إلی رجسـهم، وأنتم علی نور من ربکم، وبرهان مبین. فقاتلوا الطغاة الجفاة ولا تخشوهم. فکیف تخشونهم وفی أیدیکم کتاب الله عز وجل طـاهرا مـبرورا "؟ أتخشونهم فـالله أحق أن تخشوه إن کنتم مؤمنین. قـاتلوهم یعـذبهم الله بأیـدیکم ویخزهم وینصـرکم علیهم ویشـف صدور قوم مؤمنین، " وقد قاتلناهم مع رسول الله صـلی الله علیه وسـلم مرة، وهذه ثانیة، والله ما هم فی هذه بأتقی ولا أزکی ولا أرشـد قوموا إلی عدوکم، بارک الله علیکم، فقاتل قتالا شدیدا هو وأصحابه [۲] .

وروی: کان علی عبد الله بن بدیل بصفین ومعه سیفان فکان یضرب

[صفحه ۸۷]

أهل الشام وهو یقول:

لم یبق إلا الصبر والتوکل++

ثم التمشی فی الرعیل الأول

مشی الجمال فی حیاض المنهل++

والله یقضی ما یشاء ویفعل [۳] .

وروی أن الصـحابی الجلیل عبد الله بن بدیل هو ونفر من أصحابه علی الموت، فاقتحم هو وأصحابه قبة معاویة وکان عدد أصحابه بین المائتین والثلثمائـة. وعنـدما أرسل إلیه الأشتر أن یقاتل بین الناس لأن فی هـذا بقاء له ولأصـحابه أبی. وانطلق نحو معاویـة وکان حول معاویة رجال کالجبال یقول الطبری: کان فی یده سیفان وخرج أمام أصحابه. فأخذ کلما دنا منه رجل ضربه فقتله حتی قتل سبعة، ودنا من معاویة فنهض إلیه الناس من کل جانب، وأحبط به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتی قتل وقتل ناس من أصحابه ورجعت طائفة [۴] .

- ومنهم (أویس بن عـامر القرنی): أخبر عنه النبی صـلی الله علیه وآله وسـلم لیکون حجـة علی التـابعین کی ینصـروا علیا، روی الإمام مسـلم قـال رسول الله صـلی الله علیه وسـلم ": إن خیر التابعین رجل یقال له أویس [" ۵] ، وقال الحاکم: أویس لم یصـحب رسول الله صلی الله علیه وسلم، وإنما ذکره رسول الله ودل علی فضله [۶] ، وقال النووی: هو من دلائل النبوة لأنه أخبر عن اسـمه واسم أبیه ونعته وقبیلته، وإنه یجتمع بعمر، وکـل ذلک غیب، فکان ذلک. ولفظ مسـلم " یأتی علیکم أویس بن عامر مع إمـداد أهل الیمن من مراد ثم من قرن، وکان به برص. فبرأ منه إلا موضع الدرهم. له والدة هو بها بر، لو أقسم علی الله لأبره، "... وقال لعمر:

[صفحه ۸۸]

"فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل [" ۷] .

وعندما التقى بعمر قال له عمر: لا تفارقنى. فأملس منه [۸] ، وكان عمر قد سأله: أين تريد؟ قال: الكوفة. فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصى بك. قال: لا. أكون فى غبراء الناس أحب إلى [۹] .

وعن الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى وأكثر من ربيعة ومضر. قال الحسن: إنه أويس. وقال أبو بكر بن عياش: قلت لرجل من قوم أويس بأى شئ بلغ هذا؟ قال: فضل الله يؤتيه من يشاء [۱۰] ، وظل أويس فى الكوفة زاهدا فى عالم اكتنز الذهب والفضة، وجارت فيه الولاة، وفى عهد على خرج الزاهد ليقف تحت لواء سيد الزاهدين، عن الأصبغ بن نباته قال: شهدت عليا يوم صفين وهو يقول: من يبايعنى على الموت! فبايعه تسع وتسعون. فقال على: أين التمام؟ أين الذى وعدت به؟ فجاء رجل عليه أطمار صوف. محلوق الرأس فبايعه على الموت والقتل. فقال: هذا أويس القرنى، فما زال يحارب بين يديه حتى قتل [۱۱] .

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: نادى رجل من أهل الشام يوم صفين: أفيكم أويس القرنى؟ قالوا: نعم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن من خير التابعين أويس القرنى [۱۲] وهكذا

كان أويس حجة على نهاية جيل وبداية جيل آخر. وروى الإمام الحاكم: لما كان يوم صفين. نادى مناد من أصحاب معاوية: أفيكم أويس القرنى؟ قالوا: نعم. فضرب دابته حتى دخل معهم. ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

[صفحه ۸۹]

وسلم يقول: خير التابعين أويس القرنى [۱۳] .

إن كان ورقة تسقط علمها عند الله، وكل خطوة فى حركة التاريخ عليها حجة من الله، وما من بصمة إلا ولها جذور، وما خلق الله شيئا إلا لهدف. وعلى امتداد أيام صفين ضرب الزاهد بسيفه فماذا كان يريد هذا الزاهد؟ وما معنى أن الله سبحانه يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الزاهد ومكانته؟ وما المقصود من وراء هذا؟ ولماذا قاتل مع على بالذات؟ وما هى أهدافهما؟ إن هذه أسئلة وغيرها يتركها الباحث دون إجابة لمن أراد أن يتفكر ويتدبر. والآن كيف كانت نهاية هذا المقاتل الزاهد؟ يقول ابن حجر فى حديث صحيح الإسناد، نادى منادى على: يا خيل الله اركبى وابشرى، قصف الناس، فانتضى أويس سيفه حتى كسر جفنه فألقاه، ثم جعل يقول: يا أيها الناس تموا تموا ليتمن وجوه، ثم ينصرف حتى يرى الجنة. فجعل يقول ذلك ويمشى. حتى إذا جاءته رمية فأصابت فؤاده فقتل [۱۴] ، وعن يحيى بن معين قال: قتل أويس القرنى بين يدى على بن أبى طالب يوم صفين [۱۵] .

ويبدو أن وجود أويس فى معسكر على بن أبى طالب لم يرق للبعض وفقا لأمور سياسة غير خافية. وكان العلماء يخافون من الحكام. يقول النووى فى حديث " خير التابعين أويس، " هذا صريح فى أنه خير التابعين. وقد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغيره. أفضل التابعين سعيد بن المسيب. والجواب: إن مرادهم أن سعيدا أفضل فى العلوم الشرعية. كالتفسير والحديث والفقه. لا فى الخير عند الله!!؟ [۱۶] وقال ابن الصلاح: حديث خير التابعين قاطع للنزاع.

ولكن فى رأى السخاوى. إن تفضيل أحمد لابن المسيب، لعله أراد الأفضلية فى

[صفحه ۹۰]

العلم لا الخيرية [۱۷] وهكذا اختلفوا مع وجود نص صريح، كما اختلفوا من قبل

فى مولى المؤمنين. وربما يعود ذلك إلى الخوف والله أعلم. أما اختيار سعيد بن المسيب. فإن لابن المسيب تاريخه الذى لا ينكره عليه باحث. ولكن هذا الاختيار يقتضى أن ننظر فى الأحداث بجملتها. وابن المسيب عندما سمع من عامر بن سعد حديث " أنت منى بمنزلة هارون من موسى " لم يطمئن وذهب بنفسه إلى سعد وراجعه فأقسم له سعد أنه سمعه من رسول الله [۱۸] ، وابن المسيب عندما يتأكد بنفسه من صحة حديث. فلا غبار على هذا، ولكن ابن أبى الحديد قال وهو يتحدث عن المنحرفين عن على بن أبى طالب"

وكان سعيد بن المسيب منحرفا عن على [" ۱۹] .

وقتل أويس بن عامر القرنى بين يدى على بن أبى طالب، وهو يأخذ. بأسباب الحياة الكريمة. وبعد قتل أويس ازدادت المعركة ضراوة، واقتتلوا كأشد القتال، وكثرت القتلى بينهم. وتحاجزوا عند الليل. - ومنهم (عمار بن ياسر): ولقد ذكرنا ما ورد فيه على امتداد هذا البحث، فعمار كان الميزان على امتداد معارك أمير المؤمنين. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى عندما ذكر عمار: أما أنه سيشهد معك مشاهد أجرها عظيم، وذكرها كثير، وثناؤها حسن [" ۲۰] ، وكان عمار حجة على الذين انحرفوا عن أمير المؤمنين أو اعتزلوه فى وقت لا يجب فيه الاعتزال. روى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود فقال: إن الله قد أمننا أن يظلمنا ولم يؤمنا أن يفتننا. أرأيت إذا نزلت فتنة كيف أصنع. قال: عليك بكتاب الله. فقال: أرأيت أن

[صفحه ۹۱]

جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق [۲۱] ومن قبل رأينا كيف

أوصى حذيفة بالتزام عمار. والنبى صلى الله عليه وسلم وضع حول عمار مناقب لهدف حتى لا يكون للناس حجة فى عدم التزام على والقتال تحت رايته. وعمار، كما ورد فى البخارى، أجاره الله من الشيطان [" ۲۲] ، وكما ورد عند الإمام أحمد ": ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما [" ۲۳] ، وأيضا ": من عادى عمار عاداه الله [" ۲۴] وكما ورد عند البزار

والطبرانى ": أبو اليقظان على الفطرة لا يدعها حتى يموت [" ۲۵] ، وكما ورد عن ابن عساكر: عمار خلط الله والإيمان ما بين قرنه إلى قدمه وخلط الإيمان بلحمه ودمه يزول مع الحق حيث زال. وليس ينبغى للنار أن تأكل منه شيئا [" ۲۶] .

وعمار عهد إليه النبى صلى الله عليه وسلم بعهد قال له: يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس واديا غيره فاسلك مع على ودع الناس. إنه لن يدلك على ردى ولن يخرجك من الهدى [۲۷] .

وعندما حدد النبى صلى الله عليه وسلم الراية والدليل قال: أبشر يا

[صفحه ۹۲]

عمار تقتلك الفئة الباغية [" ۲۸] .

والقتل لم يكن من أجل القتل، ولكن لكل قتل أسبابه، ويمكن ملاحظة هذه الأسباب فى قول النبى صلى الله عليه وسلم ": ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار [" ۲۹] ، ثم يتعدى التحذير أرض المعركة ويشمل مساحة أوسع وذلك فى قول النبى صلى الله عليه وسلم لعمار ": ستقتلك الفئة الباغية وأنت مع الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى [" ۳۰] .

هذا هو عمار، جندى على بن أبى طالب! فماذا قال عمار على أرض صفين؟ روى أن عمارا خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم إنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلته - اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم رضاك فى أن أضع ظبة سيفى فى صدرى، ثم انحنى عليها حتى تخرج من ظهرى لفعلت، وإنى لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته. وقال عمار: أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبتغون دم ابن عفان ويزعمون أنه قتل مظلوما. والله ما طلبتهم بدمه. ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم. ولم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم. فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوما. ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا. وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون. ولولا هى ما تبعهم من الناس رجلان. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت. وإن تجعل لهم الأمر. فادخر لهم بما

[صفحه ۹۳]

أحدثوا فى عبادك العذاب الأليم [۳۱] ، وروى أن عمارا شاهد عمرو بن العاص فى أرض المعركة فقال: يا أهل العراق أتريدون أن

تنظروا إلى من عادى الله ورسوله، وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين؟ فلما رأى الله عز وجل يعز دينه ويظهر رسوله أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم. وهو فيما نرى راهب غير راغب، ثم قبض الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فوالله إنه زال بعده معروفا بعداوة المسلم وهوادة المجرم، فاثبتوا له وقاتلوه، فإنه يطفئ نور الله ويظاهر أعداء عز وجل [۳۲] وعندما سمع ابن العاص هذا زال وذهب يبحث له عن خدعة يختفى ورائها من هذا العار. وروى أن قيسا بن عبادة قال لعمار: أرأيت قتالكم رأيا رأيتموه، فإن الرأى يخطئ ويصيب أو عهد عهده إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمار ": ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافة. " أى أن تعليمات النبى صلى الله عليه وسلم بخصوص قتال البغاة مع على بن أبى طالب لم تكن لفئة دون فئة، ولكن لأمر شمل الناس كافة. ثم انتقل وهو يجيب قيس إلى أمر آخر فقال ": إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن فى أمتى اثنى عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط. ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة [۳۳] سراج من نار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم فى صدورهم [" ۳۴] .

ولا ندرى ما هو الدافع الذى جعل عمار يذكر المنافقين فى هذا الموضع؟ ومن المعروف أن عمارا وحذيفة كانا مع النبى صلى الله عليه وسلم عند عودته من تبوك. يوم أن أرادت تيارات الهدم والتخريب أن يغتالوا النبى صلى الله عليه وسلم

[صفحه ۹۴]

فقيس حدث عمارا عن القتال. أهو من الرأى أم فيه عهد؟ فأجاب عمار على السؤال. ثم تحدث عن جماعة التخريب وهو لم يسأل عنها. فهل يا ترى سقط السؤال من الناسخ؟ أم أن عمارا له مقصود خفى علينا وظهر لقيس. أم أن عمارا كان يقصد شيئا لا يعلمه إلا الله عز وجل؟ وروى أن عمارا قال وهو يشير إلى راية معاوية: لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات. وهذه الرابعة [۳۵] ما

هى بأبر ولا أتقى [۳۶] وقال: فالذى نفسى بيده لو ضربونا حى يبلغوا بنا

سعفات هجر، لعرفت أن مصلحينا على الحق وأنهم على الضلالة - وفى رواية - لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل [۳۷] ، وروى أن رجلا جاء إلى معسكر عمار فقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم. قال: إن لى إليك حاجة. أفأنطق بها سرا أو علانية؟ قال: اختر لنفسك أيهما شئت. قال: لا بل علانية، قال: فانطق [۳۸] ثم بدأ الرجل

يتحدث عن حاله فى القتال، وأنه قد دخله الشك فى صحة هذا القتال. لأن الأطراف يصلون صلاة واحدة ويقرؤون كتابا واحدا، وإنه ذهب إلى على بن أبى طالب فذكر له ذلك فقال له: لقد لقيت عمار بن ياسر؟ فقال الرجل: لا، فقال له أمير المؤمنين: فألقه. فانظر ماذا يقول لك عمار فاتبعه. وأخبر الرجل عمارا بأنه جاءه لذلك ". فقال عمار: أتعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لى؟ فإنها راية عمرو بن العاص. قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات

[صفحه ۹۵]

وهذه الرابعة. فما هى بخيرهن ولا أبرهن، بل هى شرهن وأفجرهن. ثم قال عمار للرجل: أشهدت بدرا وأحدا ويوم حنين؟ أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا. قال: فإن مركزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين. وإن مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب. فهل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا. مفارقا للذى نحن عليه. كانوا خلقا واحدا فقطعته وذبحته. والله لدماؤهم جميعا أحل من دم عصفور. أفترى دم عصفور حراما؟ قال: لا. بل حلال. قال: فإنهم حلال كذلك. أترانى بينت لك؟ قال: قد بينت لى. قال فاختر أى ذلك أحببت. فانصرف الرجال. فدعاه عمار ثم قال: أما أنهم سيضربونكم بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولوا: لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا. والله ما هم من الحق على ما يقذى عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر. لعلمنا أنا على حق. وإنهم على باطل. وروى: جاء رجل إلى على فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء القوم الذى نقاتلهم، الدعوة واحدة، والرسول

واحـد، والصـلاة واحدة، والحج واحد فماذا نسـميهم؟ قال: سـمهم بما سـماهم الله فى كتابه. قال: ما كل ما فى الكتاب أعلمه. قال: أما سمعت الله تعـالى يقول: (تلـك الرسـل فضـلنا بعضـهم على بعض) - إلى قوله - (ولو شـاء الله مـا اقتتـل الـذين من بعـدهم من بعـد ما جاءتهم البينات، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) [۳۹] فلما وقع

الاختلاف. كنا نحن أولى بالله. وبالكتاب وبالنبى وبالحق. وهم الذين كفروا وشاء الله قتالهم. فقاتلهم بمشيئته وإرادته [۴۰] .

لقد كان عمار يقاتل وهو يعلم أن نتيجة القتال فى نهاية المعركة سـتكون لصالح معاوية، وكان يعلم أنه مقتول لا محالة بين صفين فى هذه المعركة.

[صفحه ۹۶]

وبالرغم من ذلك كان يأخذ بأسباب الحياة الكريمة. لينظر الله إلى عمله وماذا يفعل ابتغاء مرضاته تعالى. كان يقول: أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنى أقتل بين صفين [۴۱] وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يقول ": آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن [" ۴۲] وروى أن عمارا تقدم وقد

جنحت الشمس للغروب، ومعه ضح من لبن ينتظر غروب الشمس أن يفطر، فقال غربت الشمس وشرب الضح: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: آخر زادك من الدنيا ضح من اللبن [۴۳] ، وكان عمار يتذكر هذا على امتداد أيام صفين، وتقدم عمار فقاتل ثم رجع. وفى اليوم رجع عمار إلى موضعه فاستسقى. فأتته امرأة من نساء بنى شيبان من مصافهم بعس فيه لبن. فدفعته إليه. فقال: الله أكبر الله أكبر، اليوم ألقى الأحبـة تحت الأسـنة، صدق الصادق. وبذلك أخبرنى الناطق. وهو اليوم الذى وعدت فيه. ثم قال: أيها الناس. هل من رائح إلى الله تحت العوالى (أى تحت الرماح) والذى نفسى بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله. وتقدم وهو يقول:

نحن ضربناكم على تنزيله++

فاليوم نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهام عن مقيله [۴۴] .

ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله [۴۵] .

وروى أن الذى سقاه هو أبو المخاريق [۴۶] ، وأنه بعد أن شرب اللبن نادى:

[صفحه ۹۷]

إنى لقيت الخيار وتزوجت الحور العين. اليوم نلقى الأحبة محمدا وحزبه [۴۷] .

وروى عن سعيد بن عبد العزيز أن عمار بن ياسر أقسم يوم أحد فهزم المشركون، وأقسم يوم الجمل فغلبوا أهل البصرة، وقيل له يوم صفين لو أقسمت. فقال: لو ضربونا بأسيافهم حتى نبلغ سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وهم على الباطل، فلم يقسم. وروى أنه قال يوم أحد.

أقسمت يا جبريل ويا ميكائيل++

لا يغلبنا معشر الضلال

أنا على الحق وهم جهال ثم انطلق حتى خرق صف المشركين [۴۸] ، كان يعلم يوم صفين بأنهم سيتراجعوا عن مواقعهم وعبر عن ذلك بقوله ": لو ضربونا حتى نبلغ سعفات هجر، " ولكن النصر عند عمار لم يكن بامتلاك الأرض، وإنما بالمبادئ التى يحاربون عليها ومن أجلها، النصر بالأخلاق وفى الأخلاق، والباطل لا يمكث فى الأرض وإن طالت الليالى. لأن الباطل طارئ لا أصالة فيه، والباطل مطارد من الله، ولا بقاء لشئ يطارده الله. كان عمار يعلم أنه فى موقع المنتصر على الرغم من أن الموت قريب منه. فبالقرب من عمار وقف أبو الغادية قاتل عمار.. يقول أبو الغادية: كنا نعد عمارا من خيارنا، حتى سمعته يوما فى مسجد قباء يقع فى عثمان، فلو

خلصت إليه لوطئته برجلى، فما صليت بعد ذلك صلاة إلا قلت: اللهم لقنى عمارا [۴۹] كان أبو الغادية يراقب عمارا، وكان عمار ينادى

صاحبه هاشم بن عتبة: يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف، والموت فى أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه [۵۰] وتقدم عمار وهاشم، يقول أبو الغادية: فلما كان يوم صفين.

جعل عمار يحمل على الناس. فقيل: هذا عمار، فرأيت فرجة بين الرئتين وبين

[صفحه ۹۸]

الساقين. فحملت عليه فطعنته فى ركبته فوقع فقتلته [۵۱] ، وفى رواية الإمام أحمد: فاختلفت أنا وهو ضربتين، فبدرته فضربته فكبا لوجهه ثم قتلته [۵۲] .

وهكذا قتل عمار بن ياسر رضى الله عنه، وكان يوم صفين شيخا كبيرا، يقول عبد الله بن سلمة: رأيت عمارا يوم صفين شيخا كبيرا آدم طوالا. أخذ الحربة بيده ويده ترعد ويقول: والذى نفسى بيده لقد قاتلت هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات، وهذه الرابعة [۵۳] .

وبعد قتل عمار ظهر على الساحة لأول مرة " فقه البغاة " والعمود الفقرى لهذا الفقه، إن الأمير إذا أمر بالسرقة أو بالقتل. فعند ظهور الضحية فإن الفاعل لن يكون الأمير بأى حال ربما يكون أقل جندى فى قواته، وربما يكون بواب رواقه. وعلى سبيل المثال، لقد قتل النظام الحسين بن على، ولكن النظام لم يظهر على امتداد التاريخ، وإنما ظهر ذو الجوشن الذى نفذ الخطة. ومن قبل الحسين ارتكبت جرائم عديدة كقتل حجر بن عدى واجتياح المدينة، وكل هذا فعله جندى من الجنود، أما أمير القوم فلم يكن يدرى لأنه وقتئذ كان مشغولا بالصلاة. روى أن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان يقاتل يوم صفين ومعه سيفان [۵۴] ، روى أنه قال لأبيه: يا أبت قتلتم هذا الرجل فى يومكم، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال. ألم تكن معنا يوم أن آتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول ": ويحك تقتلك الفئة الباغية؟ " فدفع عمرو صدر فرسه. ثم جذب معاوية إليه. وأخبره بما يقول عبد الله فقال معاوية: إنك شيخ أخرق. ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض

[صفحه ۹۹]

فى بولك. أو نحن قتلنا عمارا. من جاء به؟ [۵۵] ، وفى رواية عند الإمام أحمد قال معاوية: أو نحن قتلناه. إنما قتله على وأصحابه. جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا [۵۶] ، ثم خرج عمرو بن العاص ليؤصل هذا الفقه العميق فقال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ": إن قاتله وسالبه فى النار. " فقيل لعمرو: فإنك هوذا تقاتله، فقال: إنما قال قاتله وسالبه) [۵۷] .

فقه واسع عميق. وروى أن ذا الكلاع سمع عمرو وهو يحدث معاوية بحديث: تقتله الفئة الباغية، فكان ذو الكلاع يقول: ويلك! ما هذا يا عمرو. وشاءت الأقدار أن يقتل ذو الكلاع فى المعركة. فقال عمرو لمعاوية: ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا. بقتل عمار أو ذى الكلاع. والله لو بقى ذو الكلاع بعد قتل عمار لأفسد علينا جندنا [۵۸] .

وروى أن عمارا لما قتل قال أمير المؤمنين على لربيعة وهمدان. أنتم درعى ورمحى، فانتدب له نحو من اثنى عشر ألفا، وتقدمهم على – فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه. ثم نادى أمير المؤمنين وقال: يا معاوية علام تقتل الناس بيننا؟ هلم أحاكمك إلى الله. فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور. فقال عمرو لمعاوية: أنصفك الرجل. فقال معاوية: ما أنصفت. وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله. قال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت فيها بعدى [۵۹] .

وعندما رفض معاوية مبارزة أمير المؤمنين، لأنه يعلم منه ما علم، ولأنه

[صفحه ۱۰۰]

علم أنه لا يجلس على أرضية الطمع وحده وإنما يشاركه فيها ابن العاص. اشتد القتال. وقتل فی ذلک اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان. وقد كان حذيفة قد قال لابنيه: كونا مع على، فستكون له حروب كثيرة، فيهلک فيها خلق من الناس. فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحق، ومن خالفه على الباطل [۶۰] وقتل فی هذا اليوم هاشم بن عتبة الذی كان عمار يناديه: يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف [۶۱] .

لقد قدمنا هنا بعض المشاهد على أرض صفين. يوم أن أخبر الإمام بأنه مقتول وأن معاوية سيملک ما تحت قدمه. ففی هذا اليوم أراد بعض الناس الدنيا فكاتبوا معاوية سرا. وأراد البعض الآخر الآخرة فقاتلوا وقتلوا رغم علمهم مقدما بما سيسفر عنه القتال فی النهاية.

[۱] الطبری ۶:۱۰، الكامل ۳:۱۵۲.

[۲] الطبری ۶:۹، الكامل ۳:۱۵۱، الإصابة ۴:۴۰.

[۳] الإصابة ۴:۴۰.

[۴] الطبری ۶:۱۳.

[۵] مسلم فی فضل أويس (الصحيح ۱۶:۹۵).

[۶] الحاكم (المستدرک ۳:۴۰۲).

[۷] مسلم (الصحيح ۱۶:۹۵)، (كنز العمال ۱۲:۷۵).

[۸] أی تخلص وأفلت (كنز العمال ۱۴:۴).

[۹] رواه مسلم وابن سعد وأبو عوانة وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقی والروبانی (كنز العمال ۱۴:۴).

[۱۰] الحاكم (المستدرک ۳:۴۰۵).

[۱۱] الحاكم (المستدرک ۳:۴۰۳).

[۱۲] رواه أحمد وقال الهيثمی إسناده جيد (الفتح ۲۲:۴۴۵).

[۱۳] الحاكم (المستدرک ۳:۴۰۲) وابن سعد (الخصائص الكبرى ۲:۲۲۰).

[۱۴] الإصابة ۱:۱۱۷.

[۱۵] الحاكم وأقره الذهبی (المستدرک ۳:۴۰۲).

[۱۶] النووی شرح مسلم (الصحيح ۱۶:۹۵).

[۱۷] تبسيط علوم الحديث:المطيعی ص ۲۰۳.

[۱۸] رواه مسلم (الصحيح ۱۵:۱۷۴).

[۱۹] ابن أبی الحديد ۱:۸۰۹.

[۲۰] رواه أبو نعيم (كنز العمال ۱۱:۷۲۳).

[۲۱] ابن كثير وقال رواه ديزيل (البداية ۷:۲۹۶)، والطبرانی (كنز العمال ۱۱:۷۲۱).

[۲۲] البخاری (الصحيح ۲:۳۰۵) فی فصل عمار.

[۲۳] أحمد والحاكم والترمذی وصححه (الفتح الربانی ۲۲:۳۳۰)، (الجامع ۵:۶۶۸). المستدرک ۳:۳۸۸).

[۲۴] أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصحيح (الفتح ۲۲:۳۲۹)، (الزوائد ۹:۲۹۳) وابن عساكر والطبرانی وابن حبان وابن أبی شيبة بلفظ آخر (كنز العمال ۱۳:۵۳۳، ۷۲۲، ۱۱:۷۲۶) والحاكم (المستدرک ۳:۳۸۹).

[۲۵] البزار والطبرانی ورجالهم ثقات (الزوائد ۹:۲۹۵).

[۲۶] ابن عساكر (كنز العمال ۱۱:۷۲).

[۲۷] الدیلمی (کنز العمال ۶۱۴:۱۱).

[۲۸] الترمذی وصححه (الجامع ۶۷۹:۵).

[۲۹] أحمد والبخاری وابن عساکر والطبرانی (الفتح الربانی ۳۳۱:۲۲)، (کنز العمال ۷۲۲، ۷۲۴:۱۱).

[۳۰] ابن عساکر (کنز العمال ۳۵۱:۱۱).

[۳۱] الطبری ۶:۲۱ ذ، الکامل ۱۵۷:۳، البدایة والنهایة ۲۶۷، ۲۹۲:۷.

[۳۲] الطبری ۶:۷، الکامل ۳:۱۵۰.

[۳۳] الدبیلة:نار تظهر فی أکتافهم.

[۳۴] مسلم کتاب صفات المنافقین (الصحیح ۱۲۴:۱۷) أحمد (الفتح الربانی ۱۴۰:۲۳) وابن عساکر (کنز العمال ۳۵۱:۱۱).

[۳۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷) وابن سعد (الطبقات ۲۵۳:۳).

[۳۶] الطبری ۶:۲۲.

[۳۷] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الربانی ۱۴۱:۲۳) والحاکم وصححه (المستدرک ۳۸۴:۳) البدایة والنهایة ۲۶۷:۷، الطبری ۶:۲۱، مروج الذهب ۴۲۲:۲، ابن أبی الحدید ۲:۲۶۰ الطبقات الکبری ۲۵۷:۳.

[۳۸] ابن أبی الحدید ۲:۲۶۰.

[۳۹] سورة البقرة: الآیة ۲۵۳.

[۴۰] ابن أبی الحدید ۲:۲۶۰.

[۴۱] رواه البزار وإسناده حسن (الزوائد ۳۶۵:۹) وابن عساکر عن مولاة عمار (کنز العمال ۵۳۱:۱۳).

[۴۲] رواه أحمد (الزوائد ۲۴۳:۷) والحاکم (المستدرک ۳۸۵:۳) والطبرانی (الزوائد ۲۹۶:۹)، البدایة والنهایة ۲۶۸:۷، ابن أبی الحدید ۸۱۰:۲.

[۴۳] الحاکم (۳۸۵:۳ المستدرک).

[۴۴] المقیل:الموضع ومکان القیلولة.

[۴۵] مروج الذهب ۴۲۲:۲، ابن أبی الحدید ۸۱۰:۲.

[۴۶] الطبری (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۴۷] رواه أحمد والطبرانی ورجالهما ثقات (الزوائد ۲۹۶:۹)، ابن أبی الحدید ۸۱۰:۲.

[۴۸] رواه الطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۳۹۵:۹).

[۴۹] رواه أحمد والطبرانی (الزوائد ۲۹۸:۹).

[۵۰] الطبری ۶:۲۳.

[۵۱] ابن سعد (الطبقات ۲۶۱:۳).

[۵۲] رواه الطبرانی وأحمد وقال الهیثمی رجال أحمد والطبرانی رجال الصحیح (الزوائد ۲۹۸:۹).

[۵۳] البدایة والنهایة ۲۹۲:۷.

[۵۴] أسد الغابة ۳۵۱:۳ وروی أنه ندم بعد ذلک وکان یقول: ما لی ولصفین.

[۵۵] الطبری ۶:۲۳.

[۵۶] رواه أحمد والحاکم وأقره الذهبی (الفتح الربانی ۱۴۳:۲۳) وقال الهیثمی رواه الطبرانی وأحمد وأبی یعلی والبزار ورجال أحمد وأبی یعلی ثقات (الزوائد ۲۴۱، ۲۴۲:۷).

[۵۷] رواه أحمد وقال الهيثمى رجاله ثقات (الفتح الربانى ۱۴۳:۲۳)، (الزوائد ۲۴۱:۷)، وابن عساكر (كنز العمال ۵۳۲:۱۳).

[۵۸] البداية والنهاية ۲۹۳:۷.

[۵۹] الطبرى ۲۳:۶، البداية ۲۷۲:۷، الكامل ۱۵۸:۳، مروج الذهب ۴۲۸:۲.

[۶۰] مروج الذهب ۴۲۵:۲.

[۶۱] البداية والنهاية ۲۷۰:۷.

عندما اتخذوا المصاحف جدارا

بعد قتل عمار اشتعلت المعركة اشتعالا. وكان عمار لا يأخذ واديا من

أو دية صفين إلا اتبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [۱] وروى عن محمد بن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: ما زال جدى -

يعنى خزيمة - كافا سلاحه يوم الجمل حتى قتل عمار بصفين، فسل سيفه فقاتل حتى قتل. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتل عمارا الفئة الباغية. فعندما قتل عمار بد أن ضربات الصحابة فيما سمى فى التاريخ ": ليلة الهرير " والهريز: صوت القوس. وصوت الكلب دون نباح. يقول المسعودى: اختلط الناس، وبطل النبل، واستعملت السيوف، وجنهم الليل، وتنادوا بالشعار (أى الكلمة السرية المتفق عليها) وتقصفت الرماح. وتكادم القوم (أى آثروا العص) وكان يعتنق الفارس الفارس ويقعان إلى

[صفحه ۱۰۱]

الأرض عن فرسيهما. وكان جملة من قتل على بن أبى طالب فى يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرون رجلا، أكثرهم فى هذا اليوم، وكان على إذا قتل رجل كبر إذا ضرب. ولم يكن يضرب إلا قتل [۲] .

وكان هذا اليوم للأشتر فيه نصيب كبير وروى أنه أنشد:

إن تقتلوا منا أبا++

اليقظان شيخا مسلما

فقد قتلنا منكم++

سبعين رأسا مجرما

أضحوا بصفين وقد++

لاقوا نكالا مؤلما [۳] .

وكان الأشتر يحرض الناس على امتداد أيام صفين ويقول: إن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة: ويحيوا البدعة، ويعيدوكم فى ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة. فطيبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم، فإن ثوابكم على الله والله عنده جنات النعيم. وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفئ وذل المحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة [۴] .

وفى ليلة الهرير كان الأشتر يضرب ضرباته بكل قوة حتى اخترق صفوف أهل الشام. وأجرى حولهم عمليات الالتفاف والتطويق. يقول ابن كثير: حمل الأشتر على أهل الشام وتبعه على. فتنقضت غالب صفوفهم، وكادوا ينهزمون، فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح [۵] .

وخدعة رفع المصاحف أرست فيما بعد قاعدة المتاجرة بالشعار والشراء به ثمنا قليلا، وإذا كان الخوارج قد تاجروا بالدين بعد ذلك، فلا يمكن لباحث أن يهمل أول باب تم عنده المتاجرة بالكتاب على نطاق واسع. فالخوارج دخلوا من باب صفين بصورة من الصور، وكان ابن العاص صاحب فكرة رفع الشعار. ولم تأت الفكرة عشوائيا دون تجهيز وإعداد. فالقوم كانوا يعرفون من يواجهون -

[صفحه ۱۰۲]

والروايات الكثيرة تثبت أنهم كانوا يتجنبون ملاقاة أمير المؤمنين فى المعركة. لهذا جرى الإعداد على قدم وساق لضرب القاعدة بعد أن قتل العديد من الصحابة الأجلاء الذين كانوا يمثلون العمود الفقرى لجيش الإمام. فشق الصف هو المنفذ الوحيد لخروجهم من المعركة والسعى بعد ذلك فى طريق الفتنة للوصول إلى الكرسى. وكان المصحف وسيلتهم الوحيدة فى ذلك. فرفع الكتاب وطلب التحكيم سيؤدى إلى وجود مؤيد ومعارض داخل معسكر الإمام. فالمؤيد سيكون من بين الذين يحكمون عواطفهم فى الأمور ولا يفهمون من الدين إلا القليل، أو من الذين يكاتبونهم سرا. وفى جميع الحالات فإن رفع المصاحف سيكون انتصار للإعلام الأموى أمام العامة الذين شربوا مقولة أن جيش الإمام لا يصلى فكيف بهم إذا أذيع عليهم أن الإمام رد المصحف. لقد كان فقه الرمز يعمل من أجل إيجاد فترة زمنية. إما أن يهلك جيش الإمام بعضه بعضا فيها. وإما أن يستدرج إلى فخ التحكيم. فإذا رفض الإمام قرارات هيئة التحكيم فهو أمام العامة والغوغاء خارج عن القانون. وإذا قبلها كان الكرسى لمعاوية ويسحب بساط العلم بالتأويل من تحت الإمام. وبسحب هذا البساط ضاع الدين. وابن العاص عندما عرض خطته على معاوية لم يجعل العمود الفقرى فيها النجاة من حصار الأشتر لمعسكر أهل الشام، وإنما كان العمود يقوم على اجتماع تيارهم وتشتيت معسكر الإمام. وروى أنه قال لمعاوية: هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة. قال: نعم، فقال: نرفع المصاحف. ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم. فإن أبى بعضهم أن يقبلها. وجدت فيهم من يقول: بل ينبغى أن نقبل. فتكون فرقة تقع بينهم. وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها. رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين [" ۶] .

وأقر معاوية الخطة. وخرج ابن العاص ليعلن سياسة الرمز، فقال: أيها الناس. من كان معه مصحفا فليرفعه على رمحه. ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم.

[صفحه ۱۰۳]

من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق. ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ [۷] .

يقول المسعودى: ورفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف، فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك، قالوا: نجيب إلى كتاب الله. وقيل لعلى: قد أعطاك معاوية الحق. ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه وكان أشدهم فى طلب التحكيم الأشعث بن قيس [۸] ، وكان أمير المؤمنين يعلم أن القوم يسيرون فى طريق أخبره به النبى صلى الله عليه وسلم. لقد تم ابتلاؤهم والنصر على الأعتاب. لقد خيروا بين الشعار والشعور بالشعار. فاختاروا الشعار بلا شعور. اختاروا الطريق الذى تسير فيه أكثر من سبعين فرقة وكل فرقة تدعى أنها على الشعار الحق. وهل الشعار إلا حقا محضا وأن الابتلاء لا يكون إلا فى الشعور. كان الإمام يعلم أن القوم قد اختاروا طريق اللا دعوة، واللا دعوة تعنى اللا ممارسة وهذا ينتهى إلى جحود الذين من قبلهم ليزاحموا أصحابها فيها، ويتبعونهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، ثم ينتهى بهم المطاف فيكونوا غثاء، رخيصا، تافها، لا قيمة له. فى علم تقرقع فيه أنياب الحيتان. وفى هذا العالم يذوقوا الذل، أى ذل. وأخذ الإمام بالأسباب كما علمه أستاذ البشرية محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم: عباد الله. امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبى السرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم. قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال. ويحكم أنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها. وما رفعوها لكم إلا خدعة ومكيدة. قالوا: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله. فقال: ويحكم. أنا أول من دعا إلى كتاب الله. وأول من أجاب إليه. وليس يحل لى، ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله. إنى أقاتلهم ليدينوا

[صفحه ۱۰۴]

بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه [۹] فقالوا: يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا

دعيت إليه. وهددوه

بالقتل إذا رفض إجابة الدعوة [۱۰] فقال لهم: احفظوا عنى نهى إياكم، واحفظوا مقالتكم لى. أما أنا فإن تطيعونى تقاتلوا، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم [۱۱] .

لقد كان أمير المؤمنين أول حاكم تظلمه رعيته. فالحكام على امتداد التاريخ ليس لهم إلا أن يأمروا وعلى الرعية أن تنفذ. أما الإمام لأن له مهمة محددة لا يجوز له أن يجبر فردا على عمل ما، فهو فقيه وعلى علم بالطريق، وعلى امتداد هذا الطريق يسير بمصباحه. فمن أراد أن يتجنب الحفر على سنة الله ورسوله - فعليه بحامل المصباح. وعلى امتداد هذا الطريق عهد إليه بعهود. ومع كل عهد شروط تنفيذه. وأهم هذه الشروط أن يجتمع الناس حوله ليضرب بهم من صد عن طريقه... فإذا فقد هذا الشرط فعليه أن يقيم الحجة وفقا لحركة الدعوة وحركة الواقع. وبعد رفع المصاحف ظلمت الرعية قائدها. وأصدرت إليه الأوامر: قالوا له: ابعث إلى الأشتر ليأتينك. وكان الأشتر صبيحة ليلة الهرير أشرف على عسكر معاوية ليدخله [۱۲] وتدخل القوم فى سير الأعمال العسكرية، يشير إلى أن عددهم وقوتهم ولم يكن من السهل تجاهلهم أو تجاهل خطرهم على باقى القوات فضلا على حركة الدعوة. ولقد روى أن الذين اعتزلوا بحروراء فقط كانوا اثنا عشر ألف مقاتل [۱۳] وروى أن الإمام عندما بعث للأشتر أن يأتيه. قال

الأشتر لمبعوث الإمام: ليس هذه الساعة، إنى قد رجوت أن يفتح لى فلا

[صفحه ۱۰۵]

تعجلنى. وعندما سمع القوم هذا ارتفع الهرج وعلت الأصوات، وقالوا للإمام: ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك. فبعث الإمام: أقبل إلى فإن الفتنة قد وقعت. وجاء الأشتر فقال لهم: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، حين علوتم القوم ظهرا، وظنوا أنكم لهم قاهرون. رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله عز وجل به فيها وسنة من أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم، فلا تجيبوهم امهلونى عدو الفرس، فإنى قد طمعت فى النصر. قالوا: إذا ندخل معك فى خطيئتك، ثم قالوا: لقد قاتلناهم فى الله عز وجل، وندع قتالهم لله سبحانه. إنا لسنا مطيعيك ولا صاحبك فاجتنبنا. فقال: خدعتم والله فانخدعتم. ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلواتكم زهادة فى الدنيا وشوقا إلى لقاء الله عز وجل، فلا أرى قراركم إلا إلى الدنيا من الموت إلا قبحا، يا أشباه النيب الجلالة. وما أنتم برائين بعدها عزا أبدا، فابعدوا كما بعد القوم الظالمين، فسبوه وسبهم. وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما [۱۴] .

وروى أن الإمام كان ساكتا لا يتكلم، ثم قام فسكت الناس كلهم. فقال: لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت منه، وأوهنت وأورثت وهنا وذلة، ولما كنتم الأعليين وخاف عدوكم الاجتياح واستحربهم القتل ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف، ودعوكم إلى ما فيها ليفثؤكم عنها ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم. ويتربصون ريب المنون خديعة ومكيدة. فأعطيتموهم ما سألوا. وأبيتم إلا أن تدهنوا وتجوزوا. وأيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا، ولا تصيبون باب خدم [۱۵] وقال: أيها الناس. إن أمرى لم يزل معكم على ما أحب. إلى أن أخذت منكم الحرب. وقد والله أخذت منكم وتركت. وأخذت من عدوكم فلم تترك. وإنها فيهم أنكى وأنهك. ألا إنى كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا. وقد أحببتم البقاء. وليس

[صفحه ۱۰۶]

لى أن أحملكم على ما تكرهون ثم قعد [۱۶] .

وعندئذ بدأ نجم الأشعث بن قيس فى الظهور. قال ابن أبى الحديد: كل فساد كان فى خلافة أمير المؤمنين على، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث [۱۷] جاء الأشعث إلى أمير المؤمنين فقال: ما أرى الناس إلا قد رضوا،

وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد. قال: آته إن شئت. فآتاه. فسأله: يا معاوية لأى شئ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فيها. فابعثوا رجلا منكم ترضونه، ونبعث منا رجلا،

ونأخذ عليهما أن يعملا- بما فى كتاب الله ولا- يعدواه، ثم نتبع ما اتفقنا عليه، فقال الأشعث: هذا هو الحق، وانصرف وأخبر أمير المؤمنين. واجتمع قراء الشام وقراء العراق. وقال أهل الشام: إنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص. وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: قد رضينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعرى. فقال الإمام: فإنى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أوليه. فقال الأشعث ومن معه: إنا لا نرضى إلا به. قال الإمام: إنه ليس لى برضا. وقد فارقنى وخذل الناس عنى وهرب منى حتى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك. قالوا: والله ما نبالى. أكنت أنت أو ابن عباس. ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، وليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر. فقال أمير المؤمنين: فإنى أجعل الأشتر. فقال الأشعث: وهل سعر الأرض علينا إلا الأشتر. وهل نحن إلا فى حكم الأشتر. قال أمير المؤمنين: وما الحكمة؟ قال: حكمة أن يضرب بعضنا بعضا بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد [۱۸] .

لقد كان الإمام يأخذ بأسباب الحياة الكريمة. فهو يعلم أن أبا موسى سيأتى لا محالة ليشارك فى تحكيم الإمام يرفضه من البداية. وكان الإمام قد قال لأبى

[صفحه ۱۰۷]

موسى قبل موقعة الجمل: اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموما مدحورا. فما هذا أول يومنا منك. وإن لك فينا لهنات وهنيات [۱۹] ، وروى أن عمار بن ياسر قال لأبى موسى: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل. فقال أبو موسى: إنه قد استغفر لى. قال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار [۲۰] ، وعندما هرب أبو موسى من على بن أبى طالب قيل لعمار: قد هاجر أبو موسى، فقال عمار: والله ليخذلن جنده، وليفرن جهده، ولينقضن عهده [۲۱] ثم أخبر عمار عن معركة صفين قبل وقوعها. فقال بعد أن سلط الضوء على أبى موسى ": والله إنى لأرى قوما ليضربنكم ضربا يرتاب له المبطلون، والله لو قاتلوا حتى بلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أن صاحبنا على الحق وهم على الباطل [۲۲] .

لقد قال لهم الإمام عندما قالوا: لا نرضى إلا بأبى موسى، قال، ويحكم هو ليس بثقة. قد فارقنى [۲۳] وقال لهم: قد عصيتمونى فى أول هذا الأمر. فلا تعصونى الآن. إنى لا أرى أن أولى أبا موسى الأشعرى. فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلا بأبى موسى الأشعرى [۲۴] .

وانتهت المواجهة العسكرية بصفين بعد رفع المصاحف، وكان جملة من قتل من الفريقين جميعا سبعين ألفا. من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا فيهم خمسة وعشرون بدريا. وقيل غير ذلك نظرا لأن فى قتلى الفريقين من غرق ومن قتل فى البر فأكله السباع. فروى أن عدد القتلى مائة ألف وعشرة آلاف من أهل الشام تسعون ألفا.

[صفحه ۱۰۸]

ومن أهل العراق عشرون ألفا [۲۵] وروى أن مدة المقام بصفين كانت مائة يوم

وعشرة أيام. وقال آخرون: كان سبعة أشهر. وقيل: تسعة أشهر. وكان بينهم فى هذه المدة تسعون زحفا [۲۶] .

وعندما جاء أبو موسى ودخل المعسكر، قال الأحنف للقوم: لقد أبيتم إلا أبا موسى فادفئوا ظهره بالرجال. وجاء عمرو بن العاص ومن معه. جلس الطرفان. فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه على أمير المؤمنين. فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه. هو أميركم. فأما أميرنا فلا. قال أمير المؤمنين: الله أكبر سنة بسنة ومثل بمثل. والله إنى لكاتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، إذ قالوا لست رسول الله ولا نشهد لك به. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبه. فقال عمرو: سبحان الله. أتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون؟ فقال على: يا ابن النابغة. ومتى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا؟ فقام عمرو وقال: والله لا يجمع بينى وبينك مجلس بعد اليوم، فقال على: وإنى لأرجو أن يطهر الله عز وجل مجلسى منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب [۲۷] .

ولقد تحدثنا فيما سبق أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية كان قد أنذر قريش بأن لهم فى المستقبل يوما يقاتلهم فيه رجلا- امتحن الله قلبه بالإيمان، وهو خاصف النعل. وظل هذا الأمر فى ذهن دائرة الاستكبار وتوارثوه وكانت حركتهم مرتبطة بما فى

دائرة ذهنهم. وروى ابن أبى الحديد عن أبى إسحاق الشيبانى قال: قرأت كتاب الصلح عند سعيد بن أبى بردة فى صحيفة صفراء. عليها خاتمان: خاتم من أسفلها. وخاتم من أعلاها. على خاتم على بن أبى طالب ": محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم " وعلى خاتم معاوية " محمد رسول الله " وقيل لعلى حين أراد أن

[صفحه ۱۰۹]

يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أتقر أنهم مؤمنون مسلمون! فقال على: ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون. ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء، ويقر بما شاء لنفسه ولأصحابه. ويسمى نفسه بما شاء وأصحابه [۲۸] .

وكان فيما كتب فى الصحيفة. أن يحيى الحكمان ما أحياء القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان [۲۹] فى شئ من ذلك. فإن فعلا فلا حكم لهما، والمسلمون فى حكمهما براء [۳۰] وقال أمير المؤمنين للحكمين:

على أن تحكما بما فى كتاب الله. وكتاب الله كله لى. فإن لم تحكما بما فى كتاب الله فلا حكومة لكما [۳۱] .

واتفقوا على موضع التحكيم بين الكوفة والشام. وخرج الأشعث ليقرأ الصحيفة على الناس. وجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل، وعندئذ قام عروة بن أذيه، وهو أخو بلال الخارجى، فقال: أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال؟ لا حكم إلا لله. فكان أول من قالها [۳۲] وما أن قال عروة هذا حتى تباغض القوم جميعا، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض. تبرأ الأخ من أخيه والابن من أبيه، وأمر على بن أبى طالب بالرحيل. لعلمه باختلاف الكلمة. وتفاوت الرأى. وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم. وكثر التحكيم فى جيش أهل العراق، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف وتسابوا. ولام كل فريق منهم الآخر فى رأيه. وسار على نحو الكوفة. ولحق معاوية بدمشق [۳۳] .

[صفحه ۱۱۰]

وروى عن علقمة والأسود أنهم قالا: أتينا أبا أيوب الأنصارى عند منصرفه من صفين. فقلنا له: يا أبا أيوب. إن الله أكرمك بنزول محمد صلى الله عليه وسلم وبمجئ ناقته تفضلا من الله وإكراما لك. حين أناخت ببابك دون الناس. ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلا الله! فقال لهما: يا هذا إن الرائد لا يكذب أهله، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا بقتال ثلاثة مع على: بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. فأما الناكثون فقد قاتلت. وهم أهل الجمل وطلحة والزبير، وأما القاسطون. فهذا منصرفنا من عندهم - يعنى معاوية وعمرو - وأما المارقون فهم أهل الطرقات وأهل السعيفات وأهل التخيلات وأهل النهروان. والله ما أدرى أين هم! ولكن لا بد من قتالهم إن شاء الله. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار: يا عمار تقتلك الفئة الباغية. وأنت مذ ذاك مع الحق والحق معك. يا عمار بن ياسر، إذا رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس غيره، فاسلك مع على، فإنه لن يدليك فى ردى ولن يخرج من هدى. يا عمار، من تقلد سيفا أعان به عليا على عدوه. قلده الله يوم القيامة وشاحين من در. ومن تقلد سيفا أعان به عدو على عليه، قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار. فقال علقمة والأسود لأبى أيوب: يا هذا حسبك! حسبك رحمك الله! حسبك رحمك الله [۳۴] وأنا أقول: حسبك رحمك الله.

[صفحه ۱۱۱]

[۱] رواه أحمد (الفتح الربانى ۱۴۲:۲۳).

[۲] مروج الذهب ۴۳۱:۲.

[۳] مروج الذهب ۴۳۲:۲.

[۴] الطبرى ۱۲:۶.

[۵] البداية والنهاية ۲۷۳:۷.

[۶] الطبرى ۲۶:۶، الكامل ۱۶۱:۳، البداية والنهاية ۲۷۳:۷.

[۷] مروج الذهب ۴۳۲:۲، الطبری ۲۶:۶، ابن أبی الحدید ۴۲۳:۱.

[۸] مروج الذهب ۴۳۲:۲.

[۹] ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱. الطبری ۲۷:۶، البدایة والنهایة ۲۹۸:۷، مروج الذهب ۴۳۳:۲، الکامل ۱۶۱:۳.

[۱۰] الطبری ۲۷:۶، البدایة والنهایة ۲۹۸:۷، مروج الذهب ۴۳۳:۲، ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱.

[۱۱] الطبری ۲۷:۶، البدایة والنهایة ۲۹۹:۷، ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱، الطبری ۲۷:۶، البدایة ۲۹۹:۷.

[۱۳] الطبری ۳۵:۶.

[۱۴] الطبری ۲۸:۶، الکامل ۱۶۱:۳، ابن أبی الحدید ۴۲۷:۱، البدایة ۳۰۰:۷.

[۱۵] الطبری ۳۱:۶.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۴۲۸:۱، مروج الذهب ۴۳۲:۲.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۴۶۸:۱.

[۱۸] الطبری ۲۸:۶، ابن أبی الحدید ۴۳۳:۱، الکامل ۱۶۲:۳، مروج الذهب ۴۳۴:۲.

[۱۹] مروج الذهب ۳۹۶:۲.

[۲۰] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۰۸:۱۳).

[۲۱] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۲۲] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۲۳] مروج الذهب ۴۳۴:۲، الطبری ۲۸:۶، ابن أبی الحدید ۴۳۳:۱، الکامل ۱۶۲:۳.

[۲۴] مروج الذهب ۴۳۴:۲، الطبری ۲۸:۶، ابن أبی الحدید ۴۳۳:۱، الکامل ۱۶۲:۳.

[۲۵] مروج الذهب ۴۳۶:۲.

[۲۶] البدایة والنهایة ۲۷۵:۷.

[۲۷] الطبری ۲۹:۶، أبی الحدید ۴۳۶:۱.

[۲۸] ابن أبی الحدید ۴۳۷:۱.

[۲۹] المداهنة:الخداع.

[۳۰] مروج الذهب ۴۳۵:۲، ابن أبی الحدید ۴۳۷:۱، الطبری ۲۹:۶.

[۳۱] ابن عساکر وابن أبی شیبة (کنز العمال ۳۱۹:۱۱)، مروج الذهب ۴۳۵:۲.

[۳۲] مروج الذهب ۴۳۶:۲، ابن أبی الحدید ۴۳۸:۱.

[۳۳] مروج الذهب ۴۳۷:۲.

[۳۴] رواه ابن عساکر عن أبی صادق (کنز العمال ۳۵۲:۱۱) والخطیب البغدادی (البدایة والنهایة ۳۰۷:۷)، وابن جریر عن مخنف باختصار (کنز العمال ۳۵۲:۱۱).

التخاذل و غیاب القمر

قال الإمام عند انصرافه من صفین:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدین المشهور، والعلم المأثور، والکتاب المسطور، والنور الساطع،

والضیاء اللامع، والأمر الصادع [۱] ، إزاحهٔ للشبهات، واحتجاجا بالبینات، وتحذیرا بالآیات وتخویفا بالمثلات، والناس فی فتن انجذم [۲] فیها حبل الدین، وتزعزعت سواری [۳] الدفین: واختلف الفجر [۴] ، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمی المصدر، فالهدی حامل، والعمی شامل، عصی الرحمن، ونصر الشیطان، وخذل الإیمان، فانهارت [۵] دعائمه، وتنکرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شرکه [۶] أطاعوا الشیطان فسلکوا

سالکه، ووردوا مناهله. بهم سارت أعلامه، وقام لواؤه فی فتن داستهم

[صفحه ۱۱۲]

بأخفافها [۷] ووطئتهم بأظلافها [۸] وأقامت علی سنابکها، فهم فیها تائهون

حائرون، جاهلون مفتونون، فی خیر دار [۹] وشر جیران [۱۰] نومهم سهود [۱۱] .

وکحلهم دموع [۱۲] بأرض عالمها ملجم [۱۳] وجاهلها مکرم [۱۴] [۱۵] .

ودخل أمیر المؤمنین إلی الکوفهٔ ولم یدخل معه الذین اختلفوا معه، ونزلوا بحروراء وکان عددهم یومئذ اثنی عشر ألفا، ونادی مناذیهم أن أمیر القتال شبث بن ربعی وأمیر الصلاهٔ عبد الله بن الکواء، والأمر شوری والبیعهٔ لله والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر [۱۶] .

لقد رفعوا صوتهم فوق صوت أمیر المؤمنین. أمروه بأن یقبل التحکیم، وأن یسحب قوات الأشتر إلی الخلف، وأن یقر أبا موسی. وبعد أن نالوا ما أرادوا اختلفوا فیما بینهم. وهذا لا یستغرب منه لأنه من شیمهٔ الذین یسلکون طریق الشیطان، فالاختلاف والبغی علی هذا الطریق أمر طبیعی ولا ینبغی البحث عن أسبابه.

[۱] الصادع:الظاهر الجلی.

[۲] انجذم:انقطع.

[۳] الساریهٔ:الدعامهٔ.

[۴] النحر:الأصل.

[۵] انهارت:تساقطت.

[۶] الشرک:الطرائق.

[۷] الخفاف:الإبل.

[۸] الأظلاف:للبقر والمعاعز.

[۹] خیر دار:قیل یقصد الکوفهٔ وقیل الشام.

[۱۰] شر جیران:أی أصحاب معاویهٔ.

[۱۱] نوفهم سهود:یعنی أصحاب معاویهٔ. لا ینامون اللیل ویرتبون أمره.

[۱۲] کحلهم دموع:أی نفاقا.

[۱۳] أی المؤمن فی تقیهٔ وخوف.

[۱۴] أی المکذب فی عز ومنعهٔ.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۱:۱۲۳.

[۱۶] الطبری ۶:۳۵.

خیمهٔ التحکیم

قبل التحکیم جاء المغیرهٔ بن شعبهٔ إلی معاویهٔ، فقال له معاویهٔ: یا مغیرهٔ

ما ترى؟ قال: يا معاوية لو وسعنى أن أنصرك لنصرتك، ولكن على أن آتيك بأمر

[صفحه ۱۱۳]

الرجلين - أى عمرو وأبو موسى - فرحل حتى دخل على أبى موسى كالزائر له. فقال: يا أبا موسى. ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء - وكان المغيرة مقيما بالطائف ولم يشهد الحرب - قال: أولئك خير الناس، خفت ظهورهم من دمائهم وخمصت بطونهم من أموالهم. ثم ذهب المغيرة إلى عمرو. فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء، قال: أولئك شرارة الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا. فرجع المغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرجلين. أما أبو موسى فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهواه فى عبد الله بن عمر، وأما عمرو بن العاص، فهو صاحبك الذى تعرف. وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه. وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه [۱] .

لم يكن ابن العاص يمثل أى مشكلة لمعاوية، وإنما الذى كان يهم معاوية هو معرفة خامات أبى موسى الأشعرى. وبعد أن تذوق المغيرة الخامات وأخبر بها معاوية، بدأت السياسة الأموية تعمل من أجل الوصول إلى أهدافها. وروى: لما أراد أبو موسى المسير إلى دومة الجندل وهو المكان الذى اتفق ليكون مقرا للتحكيم. قال له ابن عباس: إن عليا لم يرض بك حكما لفضل عندك، والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبوا غيرك، وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم. وقد ضم داهية العرب معك - يعنى عمرو - إن نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة. وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة [۲] وقال له: واعلم يا أبا موسى أن

معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعى الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملا فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالى عليه. بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهى ويوجره ما يكره. ثم استعمله عثمان برأى عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة. واعلم أن لعمرو مع كل شئ يسرك خبيئا يسؤوك. ومهما نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه.

[صفحه ۱۱۴]

القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين [۳] .

وانطلق أبو موسى إلى خيمة التحكيم. وروى أن معاوية وصى عمرا عندما فارقه وهو يريد الاجتماع بأبى موسى فقال له: يا أبا عبد الله. إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى. وأنا وأهل الشام راضون بك. وقد ضم إليك رجل - أى أبو موسى - طويل اللسان قصير الرأى، فأخر الخلا. وطبق المفصل. ولا تلقه برأيك كله [۴] .

وروى أن عمرا أعطى لأبى موسى صدر المجلس. وكان لا يتكلم قبله. وأعطاه التقدم فى الصلاة وفى الطعام. لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجمل الأسماء ويقول له: يا صاحب رسول الله، حتى أطمئن إليه، فظن أنه لا يغشه [۵] ودعا عمرو بصحيفة وكاتب، ثم قال لكاتبه: اكتب فإنك شاهد

علينا. ولا تكتب شيئا يأمر به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته، حتى يجتمع رأينا. ثم قال عمرو: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك أتقدمنى قبله كأنك جاهل بحقه؟ فكتب فبدأ باسم عبد الله بن قيس. وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه، قال أبو موسى موافقا: اكتب. ثم قال فى عمر بن الخطاب مثل ذلك. فقال أبو موسى اكتب. ثم قال عمرو: واكتب: وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم. ورضى منهم وأنه كان مؤمنا. فقال أبو موسى

[صفحه ۱۱۵]

الأشعری: لیس هذا مما قعدنا له. قال عمرو: والله لا بد من أن یکون مؤمنا أو کافرا. فقال أبو موسی: کان مؤمنا. قال عمرو: فمره یکتب، قال أبو موسی: اکتب. قال عمرو: فظالما قتل عثمان أو مظلوما؟ قال أبو موسی: بل قتل مظلوما، قال عمرو: أفلیس قد جعل الله لولی المظلوم سلطانا یطب بدمه؟ قال أبو موسی: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولیا أولی من معاویة؟ قال: أبو موسی: لا، قال عمرو: أفلیس لمعاویة أن یطلب قاتله حیثما کان حتی یقتله أو یعجز عنه؟ قال أبو موسی: بلی، قال عمرو للکاتب: اکتب وأمره أبو موسی فکتب، قال عمرو: فإنا نقیم البینة أن علیا قتل عثمان. فقال أبو موسی: هذا أمر قد حدث فی الإسلام. وإنما اجتمعنا لغیره. فهلم إلی أمر یصلح الله به أمر أمة محمد، قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسی: قد علمنا أن أهل العراق لا یحبون معاویة أبدا، وأن أهل الشام لا یحبون علیا أبدا. فهلم نخلعهما جمیعا ونستخلف عبد الله بن عمر. وکان عبد الله بن عمر علی بنت أبی موسی [۶] .

وروی عن أبی جناب أن أبا موسی قال غیر مرة: والله إن استطعت لأحیین اسم عمر بن الخطاب. فقال له عمرو: إن کنت إنما ترید أن تبایع ابن عمر لدینه. فما یمنعک من ابنی عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ قال: إن ابنک رجل صدق. ولکنک قد غمسته فی هذا الفتن [۷] .

وروی الطبری: أراد أبو موسی عبد الله بن عمر فأبی علیه عمرو، وأراد عمرو ابنه فأبی أبو موسی، فقال له عمرو: خبرنی ما رأیک؟ قال: رأیی أن نخلع هذین الرجلین ونجعل الأمر شوری بین المسلمین، فیختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: فإن الرأی ما رأیت. فأقبلا إلی الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: یا أبا موسی أعلمهم بأن رأینا قد اجتمع واتفق. فتکلم أبو موسی فقال: إن رأیی ورأی عمرو قد اتفق علی أن نرجو أن یصلح الله

[صفحه ۱۱۶]

عز وجل به أمر هذه الأمة فقال عمرو: صدق وبر أبو موسی. تقدم فتکلم. فتقدم أبو موسی لیتکلم فقال له ابن عباس: ویحک والله إنی لأظنه قد خدعک. إن کنتما قد اتفقتما علی أمر فقدمه فلیتکلم بذلک الأمر قبلک. ثم تکلم أنت بعده فإن عمرا رجل غادر ولا آمن أن یکون قد أعطاک الرضا فیما بینک وبینه. فإذا قمت فی الناس خالفک. وکان أبو موسی مغفلا فقال: إنا قد اتفقنا. فتقدم أبو موسی ثم قال: أیها الناس إنا قد نظرنا فی أمر هذه الأمة. فلو نر أصلح لأمرها. ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأیی ورأی عمرو علیه وهو أن تخلع علیا ومعاویة وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فیولوا منهم من أحبوا علیهم وإنی قد خلعت علیا ومعاویة... وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه کما خلعه وأثبت صاحبی معاویة. فإنه ولی عثمان بن عفان، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه [۸] - وفی روایة - وأن أبا موسی قد کتب فی الصحیفة أن عثمان قتل مظلوما وأن لولیه سلطانا أن یطلب بدمه حیث کان. وقد صحب معاویة رسول الله صلی الله علیه وسلم بنفسه. وصحب أبوه النبی صلی الله علیه وسلم. وأن معاویة هو الخلیفة علینا. وله طاعتنا وبیعتنا علی الطلب بدم عثمان. فقال أبو موسی: کذب عمرو. لم نستخلف معاویة. ولکنا خلعنا معاویة وعلیا معا، وقال عمرو: بل کذب عبد الله بن قیس، قد خلع علیا ولم أخلع معاویة [۹] فقال أبو موسی: ما لک لا وفقک الله غدرت وفجرت إنما مثلک

(کمثل الحمار یحمل أسفارا) [۱۰] ، فقال له عمرو: بل إیاک یلعن الله. کذبت وغدرت. إنما مثلک مثل (الکلب إن تحمل علیه یلهث أو تترکه یلهث) [۱۱] ، ثم

[صفحه ۱۱۷]

وکز أبا موسی فألقاه لجنبه [۱۲] وانطلق عمرو إلی معاویة وسلم علیه بالخلافة [۱۳] .

وهکذا انتهی التحکیم بین المسلمین. لقد اشترط أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علی الحکمین أن یحکما بکتاب الله ولا یتبعان الهوی ولا یداهنان. فلم یأخذا من کتاب الله إلا مثلین ضربهما الله. مثل الحمار ومثل الکلب، وضرب کل واحد منهما صاحبه بمثل. ومن أجمل ما قرأت فی هذا المقام. قول الأستاذ العقاد وهو یعلق علی التحکیم قال: کلب وحمار فیما حکم به علی نفسیهما غاضبین.

وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه. وانتهت المأساة بهذه المهزلة. أو انتهت المهزلة بهذه المأساة [۱۴] .

ومن أطرف الآراء التى قرأتها عن التحكيم ورأى ابن كثير، فلقد قال: فقال عمرو: إن هذا قد قال ما سمعتم وأنه قد خلع صاحبه، وإنى قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية، فإنه ولى عثمان وهو أحق الناس بمقامه. ثم يعلق ابن كثير على ما فعله ابن العاص فيقول: وكأن عمرو رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدى إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف. فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة. والاجتهاد يخطئ ويصيب [۱۵] ، فيا ترى هل فى هذا إقرار لفقه الكيد والمكر تحت عنوان: إن ابن العاص خاف على الأمة أن تنام ليلة واحدة بدون إمام؟ لأن من مات فى هذه الليلة فستكون ميتته ميتة جاهلية. فلهذا أسرع بتنصيب إمام الزمان معاوية. وهو من هو وأسرته لها فضل عظيم على الإسلام والمسلمين. وإذا كان ابن كثير يرى أن ابن العاص لو لم يفعل ذلك لوصل الأمر إلى مفسدة طويلة. فابن كثير كواحد من كتاب التاريخ يعلم قبل غيره، أن الاختلاف والافتراق على امتداد التاريخ بعد صفين يعود أصله

[صفحه ۱۱۸]

إلى ما فعله عمرو بن العاص يوم التحكيم. ويعلم قبل غيره أن هذا التحكيم الذى رضيه من عمرو بن العاص لم يقبله أمير المؤمنين على بن أبى طالب. الذى يعده ابن كثير من الخلفاء الراشدين. ولا ندرى كيف لا يقبل خليفة راشد التحكيم ثم تقبله أمه ملتمسة العذر لابن العاص، على اعتبار أنه متأول مجتهد له أجر على اجتهاده!! أى أجر والله ذم الاختلاف وابن العاص له عمود كبير فى دائرة الاختلاف. ومن أنصف ما قرأت فى هذا المقام. ما ذكره الدميرى فى حياة الحيوان. روى أن معاوية عندما صار خليفة قال لأبى الأسود الدؤلى: ما كنت تصنع لو جعلك أبو تراب حكما؟ فقال: كنت أجمع ألف رجل من المهاجرين وألفا من الأنصار وأولادهم. ثم أقول: يا معشر الحاضرين، أيما أحق بالخلافة رجل من المهاجرين أم رجل من الطلقاء؟ فلما سمع منه معاوية لعنه وطرده من مجلسه. صحيح أن هذا الرأى أغضب الحاكم. لكنه فيه إنصاف، وإدخال المهاجرين والأنصار طرفا فى القضية فيه روح الشورى وبعد النظر، أما أن تترك الساحة للثعالب ويلتمس لهم الأعذار فيما بعد. فهذا - فى رأينا - لا يجانبه الصواب. وقبل أن نلقى الضوء على أحداث ما بعد التحكيم، علينا أن ننظر فى الأحداث منذ أن رفعت المصاحف لنرى كيف كانت حركة أمير المؤمنين. ولقد ذكرنا أن الإمام كان يعلم أنه مقتول وأن معاوية سيمتلك ما تحت قدمه من تراب. وعلى الرغم من هذا فإن الإمام ومن معه كانوا يأخذون بأسباب الحياة الكريمة، وكانوا يواجهون الانحراف الذى أخبر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم، من أجل أن يتنفس المستقبل الحرية الحقيقية وهو يخطو فى اتجاه أهدافه. وحركة أمير المؤمنين فى مواجهة هذه الأحداث. كانت حركة الحجة على جيل الصحابة الأوائل. لأن الشذوذ إذا تسرب من أرضية الصحابة إلى المستقبل فلن يكون فى هذه الحالة شذوذا، وإنما سيكتسب الشذوذ رداء القداسة وعلى هذا لا يمكن نقده. ثم تعبر الفتن على هذه القواعد فى هدوء وسكينة

[صفحه ۱۱۹]

وعليها علامات التزيين والإغواء. لتدخل إلى عالم الاحتناك والاستسلام. وحركة الإمام بعد عملية رفع المصاحف كانت تدور حول الرفض. ولكن القوم هددوه إذ لم يقبل التحكيم فسيترتب على ذلك أمور. ثم اختار القوم أبو موسى الأشعرى، ورفض الإمام هذا الاختيار. ولكنهم أجاروا عليه. هذا كان الإمام حجة على معسكره. وبدخول عمرو بن العاص وكتابة صحيفة الاتفاق بين أهل الشام وأهل العراق كان الإمام حجة على المعسكرين. وبصدور قرارات التحكيم كان الإمام حجة على الأمة. وحجج الإمام على الجميع تستند على حقيقة واحدة هى أصل الحقائق كلها " إحياء ما أحيا القرآن وإماتة ما أمات القرآن، " فعندما خرج للقتال بعد بيعته تحرك على محور هذه الحقيقة. وعندما رفع أهل الشام المصاحف رفض خدعتهم لأنها تستهدف هذه الحقيقة، ووصف رؤوسهم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وعندما جاء عمرو وأبو موسى للاتفاق على التحكيم قال لهما ": فإن لم تحكما بما فى كتاب الله فلا حكومة لكما. " لقد كان يأخذ الجميع إلى ساحة القرآن ويضع فى أعناقهم أعظم حجة منذ ذرأ الله ذرية آدم. وهذا فى رأينا

أعظم انتصار لإمام المتقین. قد یکون خصومه قد بسطوا أیدیهم علی التراب. ولکن وبالتأکید لن یروا لهذا التراب أی فائدة. یوم یقف التابع والمتبوع أمام عظمة الله جل وعلا. وبعد التحکیم الذی کان الإمام یعلم نتیجته، وذلک وفقا لإخبار النبی صلی الله علیه وسلم. بدأ الإمام یحث الناس علی القتال. لم یحثهم علی قتال الحکمین، وإنما علی قتال البغاة، فالحکمین سقط حکمهما عند الإمام بمجرد إعلانه لأنه اشترط. إذا لم یحکما بکتاب الله فلا حکومة. لقد حث الجمیع علی قتال القاسطین بعد أن تمت مهمته فی إقامة حجته علی أفراد بعینهم وأقوام بعینهم. کان له رغبة فی أن یلتقی بهم أمام الله وحده. وعندما ساق الله إلیه الأحداث والتقی بهم، وضعهم فی دائرة القرآن وحده هو الحکم فیها. ثم جلس بعد ذلک ینادی معسکره کی یأخذ بالأسباب کما أخذ بها عمار وابن صوحان وابن بدیل وابن عامر القرنی وغیرهم. وکان یحذر إلاـ أن أخوف الفتن علیکم فتنة بنی أمیة. کان یرید منهم أن یطفئوا بریقها، ولکن تقاعس منهم من

[صفحه ۱۲۰]

تقاعس، وفی جمیع الحالات فالحجة علی رأس هذا وذاک.

[۱] ابن أبی الحدید ۲:۴۴۹.

[۲] مروج الذهب ۲:۴۳۹.

[۳] ابن أبی الحدید ۲:۴۴۵.

[۴] مروج الذهب ۲:۴۳۹، ابن أبی الحدید ۱:۴۴۴.

[۵] الکامل ۳:۱۶۸، وابن أبی الحدید ۳:۴۵۱، الطبری ۶:۳۹.

[۶] مروج الذهب ۲:۴۴۰.

[۷] الطبری ۶:۳۸، ابن أبی الحدید ۱:۴۵۰، البدایة والنهایة ۷:۲۸۳، مروج الذهب ۲:۴۴۱.

[۸] الطبری ۶:۴۰، مروج الذهب ۲:۴۴۲، الکامل ۳:۱۶۸، البدایة ۷:۲۴۸، ابن أبی الحدید ۱:۴۵۱.

[۹] مروج الذهب ۲:۴۴۲.

[۱۰] سورة الجمعة: الآیة ۵.

[۱۱] سورة الأعراف: الآیة ۱۷۶.

[۱۲] الطبری ۶:۴۰، مروج الذهب ۲:۴۴۳، الکامل ۳:۱۶۸، البدایة ۷:۲۴۸، ابن أبی الحدید ۱:۴۵۱.

[۱۳] الطبری ۶:۴۰.

[۱۴] عبقریة الإمام:العقاد ص ۸۵.

[۱۵] البدایة ۷:۲۸۴.

قتال المارقین

اشاره

روی أنه لما بلغ علیا ما کان من أمر أبی موسی وعمرو قال: إنی کنت

تقدمت إلیکم فی هذا الحکومة ونهیتکم عنها، فأبیتم إلاـ عصیانی، فکیف رأیتم عاقبة أمرکم إذ أبیتم علی؟ والله إنی لأـعرف من حملکم علی خلافی، والترک لأمری، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولکن الله من ورائه [۱] ، وکنت فیما أمرت به کما قال أخو بنی جشم [۲] .

أمرتهم أمرى بمتعرج اللوى [۳] .

فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

من دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قتله الله، ولو كان تحت عمامتى هذه. إلا أن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله، وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق معروف، فأماتا ما أحيا القرآن وأحيا ما أماته، واختلف فى حكمهما كلامهما، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. فتأهبوا للجهاد، واستعدوا للمسير، وأصبحوا فى عساكركم إن شاء الله تعالى [۴] .

ثم كتب أمير المؤمنين إلى الخوارج الذين اعتزلوه: من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أما بعد: فإن هذين الرجلين اللذين ارتغبنا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكما، فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابى هذا، فاقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا

[صفحه ۱۲۱]

وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه والسلام [۵] .

فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين [۶] ، وهكذا خاطب أتباع الشيطان أمير المؤمنين. لقد رموا إمام المتقين [۷] بالكفر. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أنهم لا يعلمون من الإسلام إلا اسمه، وتحت هذا الاسم ساروا وراء أمير المؤمنين، ليأكلوا باسم الشعار، وعندما رفع أهل الشام المصاحف وجدوا أنفسهم فى الشعار وليس فى الشعور، وطالبوا الإمام بوقف القتال. وعندما انتهى القتال بطلب التحكيم راح الذين يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم يوزعون الأخطاء. وها هم يرمون أمير المؤمنين بالكفر، وعندما نقول بأنهم أتباع الشيطان فإن هذا القول حق، لأن أمير عسكرهم كان عبد الله بن وهب الراسبى، وهو المعروف لهم اسما ونسبا، أما الأستاذ الذى يغذيهم بالعلوم فهو شيطان الردهة. وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته بقتله عندما شاهده أبو بكر، وقد ذهب كل من أبى بكر وعمر ليقتلاه ولكن خشوعه غرهما فلم يقتلاه، فأمر النبى صلى الله عليه وآله عليا أن يقتله وعندما ذهب على لم يجد هذا الشيطان. وأخبر النبى صلى الله عليه وآله عليا بأنه سيقتله عند قتال المارقين. ولقد تحدثنا عن ذو الثدية وأمر النبى بقتله من قبل. وأمير المؤمنين حاول بكل جهده أن يفصل الاتباع عن سيدهم، فكاتبهم وبعث إليهم بعبد الله بن عباس ثم ذهب إليهم بنفسه كى يعودوا إلى الحق، ولكنهم أبوا إلا الركون لما تلقيه الشياطين. وبعد أن يأس منهم تركهم، وكتب إلى أمراء الأنصار بالاستعداد لقتال أهل الشام. ومما جاء فى كتابه إليهم: أما بعد، فإن من ترك الجهاد فى الله وأدهن فى أمره، كان على شفا هلكة إلا أن

[صفحه ۱۲۲]

يتداركه الله بنعمة، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله. قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين، الذين ليسوا بقراء للقرآن، ولا فقهاء فى الدين، ولا علماء فى التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل فى سابقة الإسلام، والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل، تيسروا وتهيئوا للمسير إلى عدوكم [۸] .

وما أن بدأ الحشد لمواجهة أهل الشام، حتى بدأت قوات الخوارج تتحرك فى الداخل وتثير المتاعب فى العديد من المناطق. وكأن بينهم وبين أهل الشام عقد غير منظور يقضى بتشتيت قوات أمير المؤمنين. وهناك أدلة على ذلك تستشف من سير الحوادث، ونتيجة للعمليات التخريبية للخوارج قال الناس فى معسكر أمير المؤمنين: لو سار بنا أمير المؤمنين إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم ثم نسير بعد ذلك إلى الشام. وعندما علم أمير المؤمنين بما يقوله الناس خطب وحرضهم على الجهاد وقال: سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدما، فإنهم سعوا فى إطفاء نور الله، وحرضوا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. ألا إن رسول الله أمرنى بقتال

القاسطين، وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والمارقين ولم نلقهم بعد. فسيروا إلى القاسطين، فهم أهم علينا من الخوارج. سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أربابا، ويتخذون عباد الله خولا ومالهم دولا [۹] .

وفى الوقت الذى يحرض فيه أمير المؤمنين أتباعه على القتال، كان الخوارج قد اجتمعوا فى أربعة آلاف وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبى، وتحركوا حتى نزلوا المدائن، وجاؤوا بعبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وعامل على عليها، وضربوا عنقه وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا. وقتلوا

[صفحه ۱۲۳]

غيرها من النساء [۱۰] ، وعندما علم أمير المؤمنين بأخبار هذه المجزرة، بعث إليهم بالحارث بن مرة العبدى ليتحقق من صحة هذه الأخبار. وما أن وصل الحارث إليهم حتى قتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، فقام إليه الناس وقالوا: يا أمير المؤمنين. علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا. سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام [۱۱] .

ونادى مناد أمير المؤمنين بالذهاب إلى قتال الخوارج. ويبدو أن هناك إذاعة أخذت على عاتقها زعزعت النفوس من قتال الخوارج، على اعتبار أنهم قراء ويصلون ويصومون. وهذه الإذاعة وصلت حتى المدينة المنورة فعن أبى سعيد الرقاشى قال: دخلت على عائشة فقالت: ما بال أبى الحسن يقتل أصحابه القراء [۱۲] ، وعن أبى كثير قال: كنت مع سيدى على بن أبى طالب حتى قتل أهل النهروان. فكأن الناس وجدوا فى أنفسهم من قتلهم [۱۳] .

فهذا وغيره يدل على أن هناك إذاعة كانت تخذل الناس عن قتال الخوارج. وبعد القتال وعندما أعلنت إذاعة أمير المؤمنين أن عليا قتل ذو الثدية أو شيطان الردهة. بدأت أم المؤمنين عائشة تحدث بأحاديث النبى صلى الله عليه وآله فيما يختص بفضل العصابة التى تقتل شيطان الردهة. كما بدأ الذين وجدوا فى أنفسهم من قتلهم يستبشروا ويذهب عنهم ما كانوا يجدون. وروى أن أمير المؤمنين على عندما تحرك بقواته فى اتجاه الخوارج كان يسير بجانبه جندب الأزدى فقال أمير المؤمنين: يا جندب. أترى تلك الرابية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنى أنهم يقتلون عندها [۱۴] ، وكان طليق بن على اليمامى يقول: قال النبى

[صفحه ۱۲۴]

صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يجئ قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه، أما إنهم سيخرجون بأرض قومك يا يمامى يقاتلون بين الأنهار، قال قلت: بأبى أنت وأمى ما بها أنهار قال: إنها ستكون [۱۵] .

وهكذا أخبر النبى صلى الله عليه وآله بهذه الأنماط البشرية. أخبر بمجيئهم وقتالهم بين الأنهار فى وقت لم يكن هناك وجود للأنهار، ثم دل على بن أبى طالب على رابية فى هذه الأرض وأخبره بأنهم عندها يقتلون. إنه الإخبار بالغيب عن الله، الإخبار بخطوات الشيطان قبل أن تظهر آثارها على الأرض. إن الإخبار بالغيب حصار للشيطان وانتصار للإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعقلون. وروى أن أمير المؤمنين عندما أتى أهل النهروان وقف عليهم فقال: أيتها العصابة التى أخرجها عداوة المراء واللجاجة، وصدها عن الحق والهوى، وطمح بها النزق، وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم. إنى نذير لكم أن تصبحوا تلفيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، بغير بنية من ربكم ولا برهان بين. ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإنى أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالا ورجالا، فهم أهل المكر والغدر، وإنكم إن فارقتم رأيى جانبتم الحزم فعصيتمونى حتى إذا أقررت بأن حكمت، فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين إن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة. فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول. فما الذى بكم ومن أين أتيتم؟ قالوا: إننا حكمنا فلما حكمنا أثمنا وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا فإن تبت كما تبنا فنحن معك. وإن أبيت فاعتزلنا فإنا

منابذوک علی سواء إن الله لا یحب الخائنین. فقال أمیر المؤمنین: أصابکم حاصب ولا بقی منکم وابر. أبعد إیمانی برسول الله صلی الله علیه وسلم وهجرتی معه وجهادی فی سبیل الله. أشهد

[صفحه ۱۲۵]

علی نفسی بالکفر. لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدین. ثم انصرف عنهم [۱۶] .

واصطف الفریقان، ورفع أبو أیوب الأنصاری رایة الأمان ونادی: من جاء هذه الرایة منکم ممن لم یقتل ولم یستعرض فهو آمن. ومن انصرف منکم إلی الکوفة أو إلی المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن. وعندما سمعوا النداء انصرف بعضهم إلی الکوفة والبعض الآخر إلی الدسکرة وخرج منهم إلی علی نحو من مائة [۱۷] وأمر علی بأن یکفوا عنهم حتی یبدؤهم [۱۸] ، ورمی الخوارج

بالسهم الأول ونادوا الرواح الرواح إلی الجنة وشدوا علی الناس والخیل [۱۹] .

وبدأ الخوارج یتساقطون حول الرابیة التی أخبر النبی صلی الله علیه وآله بأنهم یقتلون عندها، وقتل قادتهم وعلی رأسهم عبد الله بن وهب الراسبی [۲۰] ، وفی نهایة المعرکة خرج علی بن أبی طالب یطلب من أصحابه أن یبحثوا له عن ذی الثدیة بین القتلی ووصفه لهم. فقال بعضهم: ما نجده. فقال أمیر المؤمنین: والله ما کذبت ولا کذبت اذهبوا فابحثوا عنه، فوجدوه علی الوصف الذی وصفه علی [۲۱] ، فی حفرة علی شاطئ النهر فی أربعین أو خمسین قتیلا، فلما استخرج نظر إلی عضده فإذا لحم مجتمع علی منکبه کثدی المرأة. له حلمة علیها شعیرات سود، فإذا مدت امتدت حتی تحاذی طول یده الأخری، ثم تترک فتعود إلی منکبه کثدی المرأة. فلما استخرج قال علی: الله أکبر والله ما کذبت ولا کذبت، أما والله لولا أن تنکلوا عن العمل. لأخبرتکم بما قضی الله علی لسان نبیه صلی الله علیه وآله لمن قاتلهم مستبصرا فی قتالهم. عارفا للحق الذی نحن

[صفحه ۱۲۶]

علیه. ثم مر أمیر المؤمنین علی خوارج وهم صرعی وقال: بؤس لکم، لقد ضرکم من غرکم!! فقال الناس: یا أمیر المؤمنین من غرهم؟ قال: الشیطان وأنفس بالسوء إمارة غرتهم بالأمانی وزینت لهم المعاصی. ونبأتهم أنهم ظاهرون [۲۲] ثم وقف أمیر المؤمنین علی ذی الثدیة وسأل الناس: من أبوه؟ فجعل الناس یقولون بعد أن اختاروا فی اسم أبیه ولم یعرفه أحد منهم: هذا ملک! هذا ملک، فقال علی: ابن من هو؟ فلم یجیبوه، فقال: أما إن خلیلی صلی الله علیه وآله أخبرنی بثلاثة إخوة من الجن هذا أکبرهم، والثانی له جمع کثیر، والثالث فیه ضعف [۲۳] وفی روایة – قال علی: أیکم یعرف هذا، فقال

رجل من القوم هذا حرقوص. أمه ههنا. فأرسل إلی أمه وقال لها: ممن هذا؟ قالت: ما أدری إنی کنت فی الجاهلیة أرعی غنما لی بالربذة، فغشینی شئ کهیئة الظلمة فحملت سنة فولدت هذا [۲۴] .

وعندما طار الخبر إلی الآفاق، قال سعد بن أبی وقاص: قتل علی بن أبی طالب شیطان الرهة [۲۵] وعن أبی سعید الرقاشی قال: دخلت علی عائشة

فقالت: ما بال أبی الحسن یقتل أصحابه القراء. قال قلت: یا أم المؤمنین إنا وجدنا فی القتلی ذا الثدیة. فشهقت أو تنفست ثم قالت: کاتم الشهادة مع شاهد الزور. سمعت رسول الله صلی الله علیه وآله یقول: یقتل هذه العصابة خیر أمتی [۲۶] – وفی روایة – هم شرار أمتی یقتلهم خیار أمتی [۲۷] – وفی روایة – هم شر الخلق والخلیقة یقتلهم خیر الخلق والخلیقة [۲۸] .

من هذا کله رأینا أن اتباع الشعار الذی لا شعور فیه، الذین یأکلون الدین

[صفحه ۱۲۷]

بالدین، ویقرؤون القرآن وتقف تلاوتهم عند أنیابهم ولا تعلم قلوبهم عنها شیئا. فهؤلاء اصطفوا وراء شیطان من شیاطین الجن. وأنفس أمارة بالسوء تمنطق أصحابها بجلود آدمیة. ولقد روی الإمام مسلم: إن الشیطان لیتمثل فی صورة الرجل فیأتی القوم فیحدثهم بالحدیث من الکذب فیتفرقون، فیقول الرجل منهم: سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدری ما اسمه یحدث [۲۹] وروی ابن عساکر:

سیکون بعدی أئمة لا یهتدون بهدیی ولا یستنون بسنتی، وسیقوم رجال قلوبهم قلوب شیاطین فی جثمان إنس [" ۳۰] .

إن أتباع اللا شعور واللا دعوة عبدوا کل شئ حتی ذواتهم. فاهتموا بصورهم واشتغلوا بها ولم یفقهوا قول النبی صلی الله علیه وآله": إن الله لا ینظر إلی أجسامکم ولا إلی صورکم ولکن ینظر إلی قلوبکم [" ۳۱] ولقد استهدف

الشیطان قلوبهم حتی أنهم لم یجدوا حرجا فی تکفیر أمیر المؤمنین الذی هو من النبی بمنزلة هارون من موسی إلی النبوة، ولم یترک الشیطان لهم إلا ما علی جلودهم وهی المساحة التی لا ینظر الله إلیها. وهذا الصنف من الناس لم یستأصل فی موقعة النهروان، وإنما توجد لهم بصمات علی امتداد التاریخ روی أنه لما قتل الخوارج قیل لأمیر المؤمنین: هلک القوم بأجمعهم، فقال: کلا والله إنهم نطف فی أصلاب الرجال وقرارات النساء، کلما نجم منهم قرن قطع، حتی یکون آخرهم لصوصا سلابین. وروی عن النبی صلی الله علیه وآله قال ": لا یزالوا یخرجون حتی یخرج آخرهم من الدجال [" ۳۲] ، وهکذا استقر بهم المطاف. لقد التقطهم الدجال أعظم الفتن منذ ذرأ الله ذریة آدم، وهذا عدل الله. إنهم رفضوا أمیر المؤمنین عند المقدمة. فرفضهم الطهر عند الخاتمة. لأنهم رجس لا ینبغی أن یناموا إلا عند دجال لیزیدهم الله رجسا

[صفحه ۱۲۸]

علی رجسهم. وبعد أن فرغ أمیر المؤمنین من قتال الخوارج، خطب فی الناس وحثهم علی العمل لیلتحم الشعار بالشعور. وروی أنه صعد المنبر بعد فراغه من النهروان، فحمد الله، وخنقته العبرة فبکی حتی اخضلت لحیته بدموعه وجرت، ثم نفض لحیته فوغ رشاشها علی ناس من أناس، فکانوا یقولون: إن من أصابه من دموعه فقد حرمه الله النار، ثم قال: یا أیها الناس. لا تکونوا ممن یرجوا الآخرة بغیر عمل، ویؤخر التوبة بطول أمل، یقول فی الدنیا قول الزاهدین، ویعمل فیها عمل الراغبین، إن أعطی منها لم یشبع، وإن منع منها لم یقنع، یعجز عن شکر ما أوتی، ویبتغی الزیادة فیما بقی، ویأمر ولا یأتی، وینهی ولا ینتهی، ویحب الصالحین ولا یعمل بأعمالهم، ویبغض الظالمین وهو منهم. تغلبه نفسه علی ما یظن، ولا یغلبها علی ما یستیقن، إن استغنی فتن، وإن مرض حزن، وإن افتقر قنط ودهن، فهو بین الذنب والنعمة یرتع، یعافی فلا یشکر، ویبتلی فلا یصبر. کأن المحذر من الموت سواه، وکأن من وعد وزجر غیره یا أغراض المنایا، یا رهائن الموت، یا وعاء الأسقام، یا نهبة الأیام، ویا ثقل الدهر، ویا فاکهة الزمان، ویا نور الحدثان، ویا خرس عند الحجج، ویا من غمرته الفتن وحیل بینه وبین معرفة العبر بحق، أقول: ما نجا من نجا إلا بمعرفة نفسه، وما هلک من هلک إلا من تحت یده. قال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا قوا أنفسکم وأهلیکم نارا) جعلنا الله وإیاکم ممن سمع الوعظ فقبل، ودعی إلی العمل فعمل [۳۳]

.

[۱] قال المسعودی: یرید بذلک الأشعث بن قیس والله أعلم.

[۲] عند أبی الحدید "، أخو هوزان " ۴۱۱:۱.

[۳] اللوی:ما النوی من الرمل.

[۴] مروج الذهب ۴۴۶:۲، ورواه باختصار: الکامل ۱۷۱:۳، البدایة والنهایة ۲۸۷:۷، ابن أبی الحدید ۴۵۴:۱، الطبری ۴۳:۶، الأغانی ۹:۵.

[۵] الطبری ۴۴:۶، الکامل ۱۷۱:۳.

[۶] الطبری ۴۴:۶، الکامل ۱۷۱:۳، البدایة والنهایة ۲۸۷:۷.

[۷] الطبری ۴۸:۶، الکامل ۱۷۱:۳.

[۸] الطبری ۴۴:۶.

[۹] مروج الذهب ۴۴۹:۲، الکامل ۱۷۴:۳.

[۱۰] الطبری ۴۶:۶، مروج الذهب ۴۴۹:۲، الکامل ۱۷۴:۳.

[۱۱] الطبری ۴۷:۲، الکامل ۱۷۴:۳.

[۱۲] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۵۹۹:۲).

[۱۳] رواه الإمام أحمد والحمیدی والعدنی (کنز العمال ۲۲۹:۱۱).

[۱۴] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۳۰۲:۱۱).

[۱۵] رواه الطبرانی (کنز العمال ۲۰۸:۱۱).

[۱۶] الطبری ۴۸:۶.

[۱۷] الطبری ۴۹:۶.

[۱۸] الطبری ۴۹:۶.

[۱۹] الطبری ۴۹:۶.

[۲۰] الطبری ۴۹:۶.

[۲۱] روی مسلم عن أبی سعید قال: أشهد أن علیا قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلک الرجل فالتمس فوجد فأتی به حتی نظرت إلیه علی نعت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم الذی نعت (صحیح مسلم ۱۶۷:۷).

[۲۲] الطبری ۶:۵۰، مروج الذهب ۴۵۲:۲.

[۲۳] رواه الإمام أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۱۵۶:۲۳).

[۲۴] أخرجه أبو یعلی (الخصائص الکبری ۲۵۰:۲).

[۲۵] البدایة والنهایة ۲۹۸:۷.

[۲۶] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۵۹۹:۲.

[۲۷] رواه البزار (فتح الباری ۲۸۶:۱۲).

[۲۸] رواه الطبرانی (فتح الباری ۲۸۶:۱۲).

[۲۹] رواه مسلم (صحیح ۹:۱).

[۳۰] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۲۳:۱۱).

[۳۱] رواه مسلم (کشف الخفاء ۲۸۲:۱).

[۳۲] رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۲۹۹:۶).

[۳۳] ابن النجار (کنز العمال ۲۰۶:۱۶).

التخاذل

بعد فراغ أمیر المؤمنین من أهل النهروان کانت قواته متماسکة، حیث إنه

لم یقتل من أصحابه إلا سبعة، وکان النبی صلی الله علیه وآله قد أخبره بعدد القتلی من قواته وقوات أهل النهروان. وقد أخبر أمیر المؤمنین قواته بهذا قبل

[صفحه ۱۲۹]

المعرکة. وبعد المعرکة، ونظرا لأن القوات متماسکة، تحدث أمیر المؤمنین فی معسکره وقال: إن الله قد أحسن بکم وأعز نصرکم، فتوجهوا من فورکم هذا إلی عدوکم. فقالوا: یا أمیر المؤمنین نفدت نبالنا، وکلت سیوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أکثرها قصدا. فأرجع إلی مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا. ولعلک تزید فی عدتنا عدة من هلک منا، فإنه أوفی لنا علی عدونا [۱] .

فسمع أمیر المؤمنین منهم وأقبل حتی نزل النخیلة، ثم أمر الناس أن یلزموا عسکرهم، ویوطنوا علی الجهاد أنفسهم، وأن یقلوا زیارة

نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم. فأقام الناس فى معسكرهم أياما، وكان أمير المؤمنين يجهز للمعركة فى هذه الأيام، ولكن الحال لم يدم على هذا طويلا فالناس بدؤوا يتسللون من معسكرهم حتى خلا المعسكر. وعندما رأى أمير المؤمنين ذلك، دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه فى المسير [۲] وخطب فى الناس تلك الخطبة

التى بكر فيها وهو يحثهم على العمل ليلتقى الشعار بالشعور، ثم خطب فيهم مرة أخرى فقال: أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدو فى جهاده القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده، حيارى فى الحق جفاة عن الكتاب، نكب عن الدين يعمهون فى الطغيان، ويعكسون فى غمرة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا، وكفى بالله نصيرا [۳] .

ولكن القوم لم ينفروا فتركهم أمير المؤمنين أياما، حتى إذا آيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ليسألهم عن رأيهم. فقام فيهم خطيبا فقال: عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من العز، أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من

[صفحه ۱۳۰]

الموت فى سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمة فأنتم لا تبصرون. لله أنتم، ما أنتم إلا أسود الشرى فى الدعة، وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس. ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى، ما أنتم بركب يصال بكم ولأذى عز يعتصم إليه. لعمر الله بئس حشاش الحرب أنتم. أنكم تكادون ولا تكيدون، وينتقص أطرافكم ولا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون. إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل وبات لذل من وادع وغلب المتجادلون، والمغلوب مقهور ومسلوب. ثم قال أمير المؤمنين: أما بعد، فإن لى عليكم حقا، وإن لكم على حقا، فأما حقكم على فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوقير فيئكم عليكم وتعليمكم فيما لا تجهلون وتأديبكم كى تعلموا، وأما حقى عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصح لى فى الغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، الطاعة حين آمركم. فإن يرد الله بكم خيرا انتزعوا عما أكره، وتراجعوا إلى ما أحب، تنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملون [۴] .

إن الخذلان شذوذ قديم ضرب بجذوره فى أعماق الأرض، والشيطان فى حركته لا يحب شيئا متماسكا. فإذا كان لا بد من التماسك فيجب أن يكون وفقا لبرنامجه. والشيطان عندما يقوم بتفكيك جسد ما فإن أدواته لا بد وأن تكون من صنع البيئة التى يريد أن يفكك جسدها. وأمير المؤمنين وجه إليهم الدعوة، كى يواجهوا حركات التفتيت والتفكيك التى يذيع دعاتها أنهم على قلب رجل واحد ويتوجهون نحو هدف واحد، ولكن القوم تلقوا دعوة الإمام، وهم بين المعتل أو المكره، وقيل منهم من نشط، وفيما بعد جاء التثاقل إلى الأرض بجميع أمراضه، لأن التثاقل فراش ممهد تتحرك فيه أجهزة ومؤسسات الصد بكل سهولة ويسر، فالمتثاقل لا يرد إلا الحياة الدنيا، والشيطان له أساليبه فى مخاطبته فى هذا الباب. وشاء الله تعالى أن من يتثاقل عن نصرة الحق، خوفا من الموت أو غيره أو طمعا فى مال أو غيره، أن يجعله ينفر ويهب عند سماعه بوقا للشيطان، فينتظم فى جيشه، ويصطف فى خيله ورجله، ويزين له الشيطان هناك أن قتاله

[صفحه ۱۳۱]

قتال حق، وأن المال الذى اكتسبه بمخالبه حلال، وأن حركته فى الحياة هى الحركة الصحيحة. فجيش الشيطان لا ينتظم فيه مخلوقات من الكواكب الأخرى، وإنما ينتظم فيه الذين يحملون بين ضلوعهم قلوبا ليست قلوب إنس، ويسيرون نحو أهداف ترفضها الفطرة. ويرفعون أعلام يعتمد مضمونها على الزينة من أجل إغواء الناس ثم السير بهم فى طريق التلجيم والاحتناك. لقد كان الإمام يحذر من التثاقل إلى الأرض، ويدعو الناس كى يأخذوا بالأسباب نحو الحياة الكريمة، وهو خير دليل على ذلك. فهو قد أخبركم بأنه مقتول، والمقتول هو الذى يدعو للقتال. ولكن ذهب نداء الإمام فى عالم. وكأنه عالم السكون، حيث لا ومض ولا نبض ولا صوت إلا من رحم الله، ويقابل هذا العالم عالم آخر يتحرك بالذهب والفضة والتمر، إنه عالم معاوية. ومعاوية لم يكن بعيدا عن الساحة بعد التحكيم، فلقد أصبح له حضور بعد أن سلم عليه ابن العاص بالخلافة. كانت له عيون فى كل مكان، وكان يتابع حركة جيش العراق

قبل النهروان وبعدها، لأنه كان على يقين أن عليا لن يتركه وسيأخذ بجميع الأسباب لكى يدمر قشرته. وتدمير القشرة يعنى أن الأيام به لن تطول، وهو يريد المزيد والمزيد، لهذا تحرك معاوية فى جميع الجبهات، وكانت مقدمته فى كل جبهة الذهب والفضة. وروى أن قوما من المدينة لحقوا بمعاوية. فكتب سهل بن حنيف الأنصارى [۵] إلى أمير المؤمنين بذلك، فرد عليه أمير المؤمنين بخطاب جاء فيه: أما بعد. فقد بلغنى أن رجالا ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف [۶] على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم. فكفى لهم غيا [۷] ولك منهم شافيا [۸] فرارهم من الهدى والحق،

[صفحه ۱۳۲]

وإيضاعهم [۹] إلى العمى والجهل. فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون [۱۰] إليها. قد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه. وعلموا أن الناس عندنا فى الحق أسوة، فهربوا إلى الآثرة [۱۱] فبعدا وسحقا [۱۲] إنهم والله لم

يفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل. وإنا لنطمع فى هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [۱۳] .

وروى أنه لما رأت طائفة من أصحابه ما يفعله معاوية من بذل الأموال لأصحابه والمنقطعين إليه، وتفضيل بعضهم على بعض فى العطاء قالوا: يا أمير المؤمنين. إن عامة الناس أصحاب دنيا لها يسعون وفيها يكدحون، فلو أعطيت من هذا المال، وفضلت الأشراف من العرب وقريشا على الموالى، ومن تخاف خلافه وفراقه، حتى إذا استتب لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من العدل فى الرعية والقسم بالسوية. فقال الإمام: أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا اطور به [۱۴] ما سمر سمير [۱۵] ، وما أم نجم فى السماء نجما [۱۶] ولو كان المال لى لسويت بينهم، فكيف وإنما لمال مال الله؟ ثم. قال:

ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير وإسراف. وهو يرفع صاحبه فى الدنيا، ويضعه فى الآخرة، ويكرمه فى الناس، ويهينه عند الله... [۱۷"] .

إن المقتول لا يجامل أحدا، المقتول حجة ومهمته هى مهمة الحجة، قال فيه النبى صلى الله عليه وآله ": من أحب عليا فقد أحبنى. ومن أحبنى فقد

[صفحه ۱۳۳]

أحب الله. ومن أبغض عليا فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله [" ۱۸] ، وقال صلى الله عليه وآله ": يا على من فارقنى فارق الله ومن فارقك يا على فارقنى [" ۱۹] وقال النبى صلى الله عليه وآله ": إن الله يغضب لغضبك ويرضى

لرضاك [" ۲۰] وقال صلى الله عليه وآله ": من آذى عليا فقد آذانى [" ۲۱] .

فهذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، تبين أن الإمام له مهمة واحدة، هى سوق الناس إلى صراط الله وفقا لمنهج الفطرة الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم. وهذه المهمة لا يشوبها تخاذل الناس عنه، فمن أراد أن يصطف وراء يعسوب المؤمنين فليصطف ومن أراد أن يبحث عن مكان له وراء يعسوب المال فليذهب. وكل طريق له أسبابه. والموعد الذى سيلتقى فيه الجميع (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا – ذلك اليوم الحق، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) [۲۲] .

ولم يترك الإمام بابا يحث الناس فيه على القتال إلا طرقه وحدثهم منه، لقد خوفهم من فتنة بنى أمية. فقال: ألا وإن أخوف الفتن عندى عليكم فتنة بنى أمية، فإنها عمياء مظلمة، عمت خطتها، وخصت بليتها. وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها. وأيم الله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء بعدى كالناب الضروس، تعدم بفيها. وتخبط بيدها، وتزين برجلها، وتمنع درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم، أو غير ضار بهم، ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه،

[صفحه ۱۳۴]

والصاحب من مستصحبه. ترد عليكم فتنتهم شوهاء فحشية، وقطعا جاهلية. ليس فيها منار هدى، ولا علم يرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة. ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفا، ويسوقهم عنفا. ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلا السيف. ولا يحلسهم إلا الخوف [۲۳] .

لقد خوفهم من مساحة مظلمة وبين لهم أن على رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. فقال: أما إنه سيظهر عليكم بعدى [۲۴] رجل رحب البلعوم [۲۵] ، مندحق البطن [۲۶] ، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه. ولن تقتلوه [۲۷] ، إلا وإنه سيأمركم بسبى والبراءة منى، فأما السب فسبونى فإنه لى زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا منى، فإنى ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة. لقد أخبرتكم بصاحب البطن التى لا تشبع، وأنه سيظهر عليكم لأن أتباعه يسيرون نحو غاية واحدة هى المال وهم لا يختلفون عليها. وأمرهم أن يقتلوه ولن يقتلوه. قال ابن أبى الحديد: إنه لا ينافى بين الأمر بالشئ والإخبار عن أنه لا يقع. كما أخبر الحكيم سبحانه عن أن أبا لهب لا يؤمن وأمره بالإيمان. وكما قال تعالى: (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) [۲۸] ، ثم قال: (ولا يتمنونه أبدا) [۲۹] وأكثر التكليفات على هذا المنهج [۳۰] ولقد تحدثنا على امتداد هذا

البحث أن الله سبحانه يهدى إلى صراط مستقيم. ويبين العقبات التى عليها

[صفحه ۱۳۵]

بصمات شيطانية كى يحذر الناس منها، وفى علمه تعالى أن من عباده من سيقف أمام هذه العقبات باختياره، وقد بهرته زينتها. وأخبرهم أنه واسع البلعوم سيدعو إلى سبه والبراءة منه، فأباح أمير المؤمنين لهم سبه، لأن الله تعالى قد أباح عند الاكراه التلفظ بكلمة الكفر. أما البراءة فأخبرهم بأنه لا يجوز التبرى منه، لأنه منذ ولد لم يواقع قبيحا، ولا كان كافرا طرفة عين قط. ولا مخطئا ولا غالطا فى شئ من الأشياء المتعلقة بالدين. ولقد ثبت أن الذى وجد الدعوة لسب أمير المؤمنين والبراءة منه هو معاوية ابن أبى سفيان، وثبت أيضا أنه المقصود بواسع البلعوم. وذلك لما رواه الإمام مسلم عن ابن عباس. قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب فادع معاوية. فلما ذهبت فدعوته له فقيل: إنه يأكل، فأخبرته، فقال فى الثالثة ": لا أشبع الله بطنه " قال: فما شبع بعدها [۳۱] وروى ابن أبى الحديد عن جلام قال:

كنت أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومى. فالتفت إليه فإذا رجل أسمر ضرب [۳۲] من الرجال، خفيف العارضين فى ظهره خبأ [۳۳] فأقبل على معاوية

وقال: ما أنا بعدو الله ولا لرسوله [۳۴] ، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله، ودعا عليك مرات ألا تشبع. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ": إذا ولى الأمة الواسع البلعوم، الذى يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرها منه، " فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل. قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل. بل أنت ذلك الرجل، أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله، وسمعته يقول وقد مررت به ": اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب " فكتب معاوية إلى عثمان فيه [۳۵] .

[صفحه ۱۳۶]

وروى البخارى " إن المؤمن يأكل فى معى واحد، وإن الكافر أو المنافق يأكل فى سبعة أمعاء [" ۳۶] ، وروى الإمام قال النبى صلى الله عليه وآله ": إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة [۳۷] ، وغنيمتهم غلول... [۳۸] [۳۹] .

ومن أطرف ما قرأت فى تفسير "، لا أشبع الله بطنه " ما قاله ابن كثير. قال: وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة فى دنياه وأخراه، أما فى دنياه فإنه لما صار إلى الشام أميرا، كان يأكل فى اليوم سبع مرات، يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل فيها، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا. ويقول: الله ما أشبع. وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك!! أما فى الآخرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم إنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة [۴۰]

، ولست أدرى إذا كان ابن كثير قد اعتبر أن هذا الدعاء ": لا أشبع الله له بطنا، " اعتبره من النعم فى الدنيا. فلماذا جعله فى الآخرة من السب الذى طلب النبى من ربه أن يجعله كفارة وقربة؟!. ثم نعود إلى ما كنا نحدث فيه، لقد أخبرهم أمير المؤمنين بمساحة فيها فتن مظلمة، وعلى رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. وهم كانوا يعرفون وقتئذ من هو، نظرا لأن أبى ذر كان قد كشف غطاءه. فضلا على أن أمير المؤمنين قد أخبرهم فى أكثر من موطن بأن معاوية وأهل الشام سيظهرون عليهم، وأن عليهم أن يأخذوا بالأسباب لينظر الله كيف يعملون، ولا يشغلوا أنفسهم بالنتائج لأن لله فى خلقه شؤون. وعندما لم يجد الإمام منهم الاستجابة

[صفحه ۱۳۷]

المناسبة قال لهم: أحمد الله على ما قضى من أمر، وقدر من فعل. وعلى ابتلائى بكم أيتها الفرقة التى إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب. إن أهملتم [۴۱] خضتم، وإن حوربتم خرتم [۴۲] ، وإن اجتمع أناس على إمام طعنتم، وإن اجئتم إلى شاقة نكصتم [۴۳] لا أبا لغيركم، ما تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم،

الموت أو الذل لكم [۴۴] فوالله لئن جاء يومى - وليأتينى - ليفرقن بينى وبينكم،

وأنا لصحبتكم قال: وبكم غير كثير. لله أنتم، أما دين يجمعكم، ولا حمية [۴۵] تشحذكم، أوليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء [۴۶] وأنا

أدعوكم - وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس - إلى المعونة أو طائفة من العطاء [۴۷] ، فتتفرقون عنى، وتختلفون على. إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضون، ولا سخط فتجتمعون عليه [۴۸] وإن أحب ما أنا لاق إلى

الموت. قد دارستكم الكتاب [۴۹] ، وفاتحتكم الحجاج [۵۰] ، وعرفتكم ما أنكرتم [۵۱] ، وسوغتكم ما حججتم [۵۲] ، لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم

[صفحه ۱۳۸]

يستيقظ [۵۳] ، وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة [۵۴] .

لقد أخبرهم بأنهم يتثاقلون إلى الأرض وهم تريكة الإسلام وبقية الناس. وبين لهم ما هم فيه حيث العدل فى العطاء، وتلقى العلم النافع من مصادره النقية، وكان من نتيجة ذلك ظهور ما كانت عقولهم وأذهانهم تنفر عنه من الأمور الدينية، وبعد معرفتهم هذا اعتقدوه، وأخبرهم أنه فعل معهم ما يقتضى حصول الاعتقادات الحقيقية. ولكن أفعالهم تدل على أن الهوى والعصبية والإصرار على اللجاج صفحات عليا فى ساحتهم. ومما لا شك فيه أن بذرة التخاذل وضعت عند رفع المصاحف. فبعد قتل عمار بن ياسر تلقى أهل الشام ضربات قوية ليلة الهرير. وكان الأشتر وقواته على أعتاب خيمة معاوية وفى هذا الوقت رفعت المصاحف ودخل التخاذل عن هذا الباب، وبعد ذلك رأينا الذين أضروا على التحكيم هم أنفسهم الذين قاتلوا عليا لسيره فى طريق التحكيم، والعجيب إنهم خرجوا بمقولة طالما روج لها معاوية، لقد أجازوا الخلافة لكل العرب ولكل مسلم ولو كان عبدا حبشيا، ما دامت شروط الإمامة متوفرة فيه. باختصار: بعد رفع المصاحف وضع البيض كله فى سلة معاوية. فالخوارج وإن كانت جرائمهم الظاهرة هى القتل والتخريب، إلا أن عقيدتهم قبل رفع المصاحف لم تكن بحال هى نفس العقيدة بعد ذلك. وأغلب الظن أنهم عندما خالفوا الإمام وهددوه بالقتل إذا لم يقبل التحكيم وأن ذى الثدية بدأ يعمل فى هذا الوقت بالذات. ثم وضع لمساته على اعتقاداتهم بعد ذلك. لتلتقى هذه اللمسات مع لمسات الذين سيتخذون دين الله دغلا تحت إذاعة واحدة وإعلام واحد، مما ساعد إلى حد كبير فى التخاذل عن أمير المؤمنين. إن علماء الأمة أقروا أحاديث تقول بأن ذى الثدية كان شيطان الردهة، وأقروا أحاديث تذم بنى أمية وأنهم ملوك من شر الملوك. وعقيدة الخوارج فى

[صفحه ۱۳۹]

الخلافة معروفة، وهى تنسجم إلى حد كبير مع الذين فرقوا دينهم شيعا. لهذا قلنا إن التخاذل وضعت بذرته عند رفع المصاحف، وإن

الإمام علم هذا منذ البداية ولهذا أمرهم بالقتال. فلما أبوا عليه بدأ يضع حجته على كل رأس وفى كل خيمة، وعندما تبين الجميع نتيجة الخدعة، دعاهم الإمام إلى أمرة الله، ولكن دعوته واجهت ساحة أوسع من التخاذل، نتيجة لإعلام لم يعد يتحدث عن رفع المصاحف، وإنما يتحدث عن تحكيم أعطى الخلافة لمعاوية، يقابله إعلام الخوارج الذى دق وتدا فيه أن الخلافة لكل العرب. وبذرة التخاذل عندما وضعت وجدت من يرعاها. وهناك دائرتان خرج منهما الماء لهذه البذرة: الأولى: أن الله تعالى جعل للشهادة فى سبيله مقاييس ومعايير، وجعل الجنة للمؤمنين من عباده، والطريق إلى الجنة يمر بابتلاءات وامتحانات عديدة. وكلما كانت الأجيال قريبة من عهد النبوة كانت الابتلاءات أقوى وأشد. وفى عهد الإمام على كان الإمام يحدث أتباعه بأن معاوية سيظهر عليهم وأن هذا أمرا لا مرد له. ثم يأمرهم الإمام بعد ذلك بأن يأخذوا بالأسباب لوقف هذه الفتنة التى هى نتيجة لمقدمة أوجدتها. فموقف كهذا لا يحتاج إلا إلى قلب مؤمن يعلم أن الغيب لله وأن الأخذ بالأسباب تكليف إلهى للإنسان. لهذا فلا بد أن يأخذ به، وأن معركته لن تكون بحال معركة خاسرة رغم ظهور عدوه فى نهايتها، وأنه قد لا يشهد انتصاره، ولكن بالتأكيد ستأتى أجيال تذكر أعلامه وخطاه. وعلى ذلك قاتل العديد حول الإمام، كانوا يقاتلون بأمر الله عدوا ما زال فى علم الله بهدف حماية الفطرة، للوصول إلى غاياتهم العليا بعد الموت، فهنا يكمن الإيمان الحق، إيمان الأحرار لا إيمان التجار. وفى عهد الإمام على، كان الاختيار عظيما. فعلى مدى سنتين تقريبا خاض الإمام ثلاث معارك، كان لكل معركة منهم حصيلتها من أحاديث الإخبار بالغيب. وعندما قتل أكثر الصحابة فى هذه المعارك أخذ أماكنهم رؤساء القبائل. ومنهم من أبلى وقاتل ابتغاء مرضاة الله، ومنهم من كتب إلى معاوية بعد أن علم أنه سيظهر والتمس عنده الأيادى. وأغلب الظن أن الخوارج خرجوا من بطن

[صفحه ۱۴۰]

واحد من هؤلاء. وباختصار: اتباع هذه الدائرة هم ضعاف الإيمان، الإيمان عندهم صورة وليس عمل. وجدوا أن المعركة لها تكاليف وهم ليسوا على استعداد لدفع هذه التكاليف. ثم أعد لهم منهجا للحكم يزاحموا به معاوية عندما يظهر، فهم بإيمانهم يكونوا فى دائرة الحكم أفضل من وجودهم خارجها. أما الدائرة الثانية التى ساعدت على التخاذل، فهى دائرة الذهب والفضة والزبيب. ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ": على يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين [" ۵۵] ، وكان على يقول ": أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجرة، " وفى رواية ": والمال يعسوب الظلمة [" ۵۶] ، ولقد ذكرنا فيما سبق كيف فر أقوام من المدينة فى اتجاه معاوية، وهناك العديد من الأمثلة فى تفضيل أكثر الناس للمال فى فترة التخاذل. وروى أن عليا قال لرجل: أآثرتم معاوية. فقال: ما آثرناه، ولكنا آثرنا القسب [۵۷] الأصفر والبر الأحمر والزيت الأخضر.

[۱] الطبرى ۶:۵۱.

[۲] الطبرى ۶:۵۱.

[۳] الطبرى ۶:۵۲.

[۴] الطبرى ۶:۵۲.

[۵] كان عاملا لعلى على المدينة.

[۶] أى لا تحزن.

[۷] الغى:الضلال.

[۸] أى يكفيك فى الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم أنهم يتسللون إلى معاوية.

[۹] الايضاع:الاسراع.

[۱۰] مهطعون:مسرعون أيضا.

[۱۱] الآثرة:الاستئثار.

[۱۲] فبعدا وسحقا:دعاء علیهم بالبعد والهلاک.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۲۳۴:۵.

[۱۴] ولا أطور به:لا أقربه.

[۱۵] ما سمر سمیر:أی ما أقام الدهر وما بقی.

[۱۶] ما أم نجم فی السما نجم:أی قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۳:۳.

[۱۸] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۳۲:۹) وذکره الألبانی فی سلسلة الأحادیث الصحیحة، وقال حدیث صحیح (الصحیحة ۲۹۸:۵).

[۱۹] رواه البزار (کشف الأستار ۲۰۱:۳) وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۵:۹) ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۲۱:۳).

[۲۰] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۲۰۳:۹).

[۲۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجال أحمد ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹) ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۲۲:۳) ورواه البزار بسند صحیح (کشف الأستار ۲۰۰:۳).

[۲۲] سورة النبأ: الآیة ۳۸:۳۹.

[۲۳] ابن أبی الحدید ۶۰۵:۲.

[۲۴] سیظهر:سیغلب.

[۲۵] رحب البلعوم:واسعه.

[۲۶] مندحق البطن:بارزها.

[۲۷] ابن أبی الحدید ۷۷۶:۱.

[۲۸] سورة البقرة: الآیة ۹۴.

[۲۹] سورة الجمعة: الآیة ۷.

[۳۰] ابن أبی الحدید ۷۷۷:۱.

[۳۱] رواه مسلم وذکره ابن کثیر فی البدایة ۱۱۹:۸.

[۳۲] الضرب:الخفیف اللحم.

[۳۳] خبأ:أی أشرف کاهله علی ظهره حدبا.

[۳۴] فی سیاق الأحداث کان معاویة قد اتهمه بذلک.

[۳۵] ابن أبی الحدید ۹۴:۳.

[۳۶] البخاری (الصحیح ۲۹۳:۳).

[۳۷] أی اغتصاب.

[۳۸] أی سرقه.

[۳۹] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۳۲:۱۹).

[۴۰] البدایة والنهایة ۱۲۰:۸.

[۴۱] أهملتم:خلیتم وترکم.

[۴۲] خرتم:ضعفتم.

[۴۳] نکصتم:أحجمتم.

[۴۴] الموت أو الذل لکم:دعاء علیهم بأن یصیبهم أحد الأمرین.

[۴۵] الحمیة:الآنفة.

[۴۶] معاویة لم یکن یعطی جنده علی وجه المعونة والعطاء وإنما کان یعطی رؤوساء الناس لیستعبدهم بها، ویدعو أولئک السادة أتباعهم فیطیعونهم. فمنهم من یطیعونهم حمیة. ولم یکن یصل إلی هؤلاء الأتباع من أموال معاویة قلیل أو کثیر.

[۴۷] أمیر المؤمنین کان یقسم بین الرؤساء والأتباع علی وجه العطاء والرزق.

[۴۸] والمعنی: أنکم لا تقبلون مما أقول لکم شیئا. سواء کان مما یرضیکم أو مما یسخطکم. بل لا بد لکم من المخالفة والافتراق عنه.

[۴۹] دراستکم الکتاب:أی درسته علیکم.

[۵۰] وفاتحتکم الحجاج:أی حاکمتکم بالمحاجة والمجادلة.

[۵۱] وعرفتکم ما أنکرتم:بصرنکم ما عمی عنکم.

[۵۲] وسوغتکم ما حججتم:أوضحت لکم الأمور الدینیة.

[۵۳] أی أنی قد فعلت معکم ما یقتضی حصول الاعتقادات الحقیقیة فی أذهانکم.

[۵۴] ابن أبی الحدید ۴۱۷:۳.

[۵۵] رواه ابن عدی (کنز العمال ۱۴:۱۱).

[۵۶] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۱۱۹:۱۳).

[۵۷] القسب:التمر الیابس.

غارات معاویة

بعد التحکیم بدأ معاویة فی ترتیب أوراقه، فوضع عینه علی مصر، وکان

علیها یومئذ محمد بن أبی بکر عاملا لعلی، وکان معاویة یرید مصر لیجرد أمیر المؤمنین من خراجها ویستعین به. وعندما علم معاویة أن علیا قد ولی الأشتر علی مصر بدلا من محمد بن أبی بکر عظم ذلک علیه، لمعرفته أن الأشتر إن قدمها کان أشد علیه من محمد بن أبی بکر، ومن هنا بدأ عمل معاویة للالتفاف حول أمیر المؤمنین، فبعث إلی رجل من أهل الخراج، وقال له: إن الأشتر قد ولی مصر، فإن أنت کفیتنیه لم آخذ منک خراجا ما بقیت فاحتل له بما قدرت علیه. وخرج الرجل حتی أتی القلزم وأقام به، وعندما انتهی الأشتر إلی القلزم

[صفحه ۱۴۱]

استقبله الجایستار، وهو المکلف من قبل معاویة بقتله، وقال للأشتر: هذا منزل وهذا طعام وعلف وأنا رجل من أهل الخراج، فنزل به الأشتر فجاء الرجل إلیه بطعام حتی إذا طعم آتاه بشربة من عسل قد جعل فیها سما. فسقاه إیاها فلما شربها مات [۱] .

ولم یخطط معاویة للجریمة فقط بل استثمرها، فقال لأهل الشام: إن علیا وجه الأشتر إلی مصر، فادعوا الله أن یکفیکموه، فکانوا کل یوم یدعون الله علی الأشتر. وعندما جاء الذی سقاه إلی معاویة وأخبره بمهلک الأشتر خطب معاویة وقال: أما بعد فإنه کانت لعلی بن أبی طالب یدان یمینان، قطعت إحداهما یوم صفین - یعنی عمار بن یاسر - وقطعت الأخری الیوم - یعنی الأشتر [۲] وبعد

ذلک بعث معاویة عمرو بن العاص، وکان قد صالحه علی أن تکون مصر طعمة له ما بقی، بعثه إلی مصر للاستیلاء علیها. وعندما نزل مصر اجتمعت إلیه العثمانیة من أهلها، وقاومهم محمد بن أبی بکر بمن معه، ولکن أهل الشام حاصروا قوات محمد بن أبی بکر، وخرج محمد یمشی فی الطریق حتی انتهی إلی مکان فی ناحیة الطریق. وظل معاویة بن خدیج یبحث عن ابن أبی بکر حتی وجده،

فقال له: لأقتلنك يا ابن أبى بكر، فقال: يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك إنما ذلك إلى الله عز وجل، أما والله لو كان سيفى فى يدى ما بلغتم منى هذا. فقال له معاوية بن خديج: أتدرى ما أصنع بك. أدخلك فى جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار. فقال محمد: إن فعلتم بى ذلك فطال ما فعل ذلك بأولياء الله... فقتله ثم ألقاه فى جيفة حمار ثم أحرقه بالنار [۳] وقال

المسعودى: فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما فجعلوه فى جلد حمار، وأضرموه بالنار، وذلك بموضع فى مصر يقال له: كوم شريك. وقيل: إنه فعل به ذلك، وبه شئ من الحياة [۴] وبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه،

[صفحه ۱۴۲]

فأظهر الفرح والسرور، وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية، فقال: جزعنا عليه على قدر سرورهم، فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحروب جزعى عليه كان لى ربيبا، وكنت أعده ولدا، وكان بى برا، وكان ابن أخى. فعلى مثل هذا نحزن وعند الله نحتسبه [۵] .

ومع بداية عام تسع وثلاثين هجرية، بدأ معاوية يبعث سرايا لتغير على أطراف أمير المؤمنين، وكذلك كان على يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس، ومن السرايا التى بعثها معاوية، سرية النعمان بن بشير التى أغارت على عين التمر، وسرية سفيان بن عوف أغارت على هيت والأنبار والمدائن، وحملوا ما كان فى الأنبار من الأموال وأموال أهلها ورجعوا إلى معاوية. وسرية عبد الله بن مسعدة أغارت على تيماء، فنهب الأموال وتصدى له أهل تيماء فخرج فى أصحابه ليلا إلى الشام، وسرية الضحاك بن قيس أمره معاوية أن يمر بأسفل واقصة وأن يغير على كل من مر به ممن هو فى طاعة على. فسار فأخذ أموال الناس وقتل من لقى من الأعراب [۶] .

كانت هذه السرايا مقدمات لسرية بسر بن أرطأة، وبسر كان من الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمرو بن العاص فى فتح مصر [۷] قال الدارقطنى:

بسر له صحبة ولم تكن له استقامة بعد النبى صلى الله عليه وآله، هو الذى قتل طفلين لعبيد الله بن عباس [۸] ، وقال يحيى بن معين: بسر رجل سوء. وقال أبو عمر: ذلك لأمور عظام ركبها فى الإسلام [۹] ، وروى أن معاوية عندما وجه بسر لقتل شيعة على، قام إليه نفر منهم زياد بن الأشهب الجعدى وقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين. نسألك بالله وبالرحم أن لا تجعل لبسر على قيس سلطانا. حتى لا

[صفحه ۱۴۳]

يقتل قيسا بما قتلت به بنو سليم من بنى فهر وكنانة يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة [۱۰] ، وروى أن أبا ذر كان يقول: يوم العوراء، وما يوم العوراء. فقيل له: ما يوم العوراء؟ قال: إن نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها، وإنى دعوت الله أن لا يدركنى هذا الزمان ولعلكما تدركانه. قال راوى الحديث: فأرسل معاوية بسر بن أرطأة إلى اليمن فسبى نساء مسلمات فأقمن فى السوق [۱۱] ، وقال فى الإستيعاب: أغار بسر على همدان وسبى نساءهم فكن أول نساء مسلمات سبين فى الإسلام، وقتل أحياء من بنى سعد [۱۲] .

وروى أن معاوية بعد تحكيم الحكمين أرسل بسر فى جيش، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة، ففر منهم أبو أيوب الأنصارى، وصعد بسر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى على المنبر: يا دينار ويا نجار شيخى شيخى عهدى به بالأمس فأين هو - يعنى عثمان - ثم قال: يا أهل المدينة والله لولا ما عهد إلى معاوية، ما تركت بها محتلما إلا قتلته. ثم بايع أهل المدينة، وأرسل إلى بنى مسلمة فقال: والله ما لكم عندى من أمان ولا مبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله، فانطلق جابر إلى أم المؤمنين أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: ماذا ترين؟ إنى خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة. قالت: أرى أن تبايع. فآتاه جابر فبايعه [۱۳] .

وهدم بسر دور بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى الأشعرى أن يقتله، فقال له بسر: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. ثم مضى بسر إلى اليمن وقتل عبد الله بن عبد المدان الحارثى وقتل ابنه. ووجد ابن عبيد الله بن عباس عند رجل من بنى كنانة من أهل

[صفحه ۱۴۴]

البادیة. فلما أراد قتلهما قال الکنانی: علی ما تقتل هذین ولا ذنب لهما، فإن کنت قاتلهما فاقتلنی. قال بسر افعل. فبدأ بالکنانی فقتله ثم قتلهما، وقتل بسر فی مسیره هذا جماعة کثیرة من شیعة علی بالیمن، وبلغ علیا خبر بسر فوجه جاریة بن قدامة فی ألفین ووهب بن مسعود فی ألفین، وهرب بسر وأصحابه [۱۴] .

کان هذا هو منهج معاویة فی القتال. تجنب ملاقاة علی فی المیدان، والإغارة وسلب ما یمکن سلبه ثم الارتداد للخلف نحو الشام، وقتل کل من فی الطریق، طفلا أو شیخا، وعرض النساء المسلمات فی الأسواق، ومن قبل وضع من فیه شئ من حیاة فی جلد حمار، ثم إشعال النار فیه. کانت هذه سیرته فی بدایة الطریق، وسنری فیما بعد کیف کانت سیرته علی امتداد الطریق. وینبغی فی هذا المقام أن نذکر تقدیم ابن کثیر لغارات معاویة، وهو تقدیم یجعل الباحث فی حیرة. فهو عندما تحدث عن التحکیم قدم الروایات التی أجمعت علیها الأمة وتفید بأن أبی موسی وعمرو اتفقا علی خلع علی ومعاویة. وعندما خلع أبو موسی صاحبه، وجاء الدور علی ابن العاص فعل ما فعل، وبرر ابن کثیر ما فعله عمرو بأنه رأی أن ترک الناس بلا إمام یؤدی إلی مفسدة طویلة!! [۱۵] ، هذا ما قاله هناک، ثم نراه یقول هنا، وهو یتحدث عن غارات معاویة، إن أبا موسی وعمرا کانا قد اتفقا علی خلع علی - ولم یشر إلی معاویة - وأن معاویة تحرک علی هذه الخلفیة حیث إنه کان یعتقد أنه الإمام الذی یجب طاعته. وإلیک ما قاله ابن کثیر بنصه: جهز معاویة جیوشا کثیرة فرقها فی أطراف معاملات علی. وذلک أن معاویة رأی بعد أن ولاه عمرو بن العاص بعد اتفاقه مع أبی موسی علی عزل علی. إن ولایته وقعت الموقع فهو الذی یجب طاعته فیما یعتقد. ولأن جیوش علی من أهل العراق لا تطیعه فی کثیر من الأمر ولا یأتمرون بأمره، فلا یحصل بمباشرته المقصود من الإمارة والحالة هذه، فهو

[صفحه ۱۴۵]

یزعم أنه أولی منه إذا کان الأمر کذلک [" ۱۶] .

إن هذا التحلیل یلتبس بعضه علی بعض، ولا یقود أی باحث إلی حقیقة. فلا یوجد نصا واحدا یقول أن عمروا خاف علی الأمة ففعل ما فعل، ولا یوجد نصا یقول أنه اتفق علی الأشعری علی عزل علی وحده. والإسلام لا یقر أن عدم طاعة مصر من الأمصار لأمیر المؤمنین ویعطی الحق لمن یطیعه رجاله فی مصر آخر بأن تغیر علی الأطراف لیقتل ویسرق، تحت لافتة أن هذا هو المقصود من الإمارة والحالة هذه. والإسلام لا یقر أیضا أن یقوم الأولی بقتل الأطفال وعرض النساء المسلمات فی الأسواق. علما بأن الأمة لم تعط لمعاویة لقب " الأولی " فی حیاة علی، والخلاصة: أننا نفهم أن بتر النصوص عند الحدیث عن أهم الأحداث التاریخیة دون توضیح لا یکون مفیدا للباحث فی جمیع الأحوال.

[۱] الطبری ۵۴:۶، مروج الذهب ۴۵۵:۲، الکامل ۱۷۸:۳، ابن أبی الحدید ۳۱۲:۲.

[۲] الطبری ۵۵:۶، الکامل ۱۷۸:۳، ابن أبی الحدید ۳۱۲:۲.

[۳] الطبری ۶۰:۶.

[۴] مروج الذهب ۴۵۴:۲.

[۵] مروج الذهب ۴۵۴:۲.

[۶] الطبری ۷۸:۶.

[۷] الإستیعاب ۱۵۵:۱.

[۸] الإستیعاب ۱۵۶:۱.

[۹] الإستیعاب ۱۵۵:۱.

[۱۰] الإستیعاب ۱۵۷:۱.

[۱۱] الإستیعاب ۱۵۷:۱.

[۱۲] الإستيعاب ۱۵۷:۱.

[۱۳] الطبرى ۶:۸۰، الكامل ۱۹۳:۳، البداية والنهاية ۳۲۲:۷.

[۱۴] الطبرى ۶:۸۱، الكامل ۱۹۳:۳، البداية والنهاية ۳۲۳:۷، ابن أبى الحديد ۲۷۳:۱.

[۱۵] البداية والنهاية ۲۸۴:۷.

[۱۶] البداية والنهاية ۳۲۰:۷.

ليلة بكى فيها القمر

روى أن عليا خطب الناس بعد أن تخاذلوا عنه فقال ": أيها الناس إنكم قد

أبيتم إلا أن أقولها، ورب السماوات والأرض. أن من عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى ": إن الأمة ستغدر بك بعدى [" ۱] لقد أعلنها الإمام واضحة جلية

على أسماعهم. إن أفعالهم التى بها يستحقون الثواب والعقاب. الله تعالى أعلم بها من أنفسهم، وأنهم اختبروا لينظر الله كيف يعملون. وأن نتيجة أعمالهم عهد بها النبى صلى الله عليه وسلم إلى على. وعلى هذا فإن الإمام كان يعلم أن الضربة التى ستأتيه، ستأتيه من طريق غدر طويل. وعلى الرغم من هذا فإنه على امتداد هذا الطريق لم يكن يعبأ بما سيفعله أهل الغدر. وإنما كان يدعو ويصحح الأخطاء فكان بذلك شاهد على جيل الصحابة، وكان السلف بذلك شاهد على الخلف. فالإمام هو الإنسان الوحيد الذى قاتل داخل سور الأمة على تأويل

[صفحه ۱۴۶]

القرآن. وبما أن حجية القرآن قائمة على امتداد التاريخ، فإن حجية الأحداث التى تعلقت بالقرآن قائمة أيضا. وعندما أعلن الإمام أمامهم أن طريق الغدر الذى يقفون عليه، أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم عليا. قال: أما والذى نفسى بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطلهم. وإبطائكم عن حقى. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتى. استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا. وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، شهود كغياب، وعبيد كأرباب [۲] اتلوا عليكم الحكم فتنفرون منها، وأوعظكم بالموعظة البالغة

فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغى فما آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين أيادى سبأ [۳] ، ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم [۴] .

أقومكم غدوة، وترجعون إلى عشية كظهر الخية [۵] عجز المقوم وأعضل

المقوم [۶] أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة

أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفنى بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشرة منكم وأعطانى رجلا منهم. يا أهل الكوفة.. منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذو أسماع، وبكم ذو كلام، وعمى ذو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء، تربت أيديكم [۷] يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها. كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر، والله لكأنى بكم فيما

[صفحه ۱۴۷]

أخاكم [۸] ألو حمى الوغى [۹] ، وحمى الضراب، قد انفرجتم عن على بن أبى طالب انفراج المرأة عن قبلها [۱۰] وإنى لعلى بينة من ربى، ومنهاج من نبى،

وإنى لعلى الطريق الواضح القطه لقطا [۱۱] [۱۲] .

یقول ابن أبی صالح الحنفی: رأیت علی بن أبی طالب أخذ المصحف، فوضعه علی رأسه، حتی إنی لأری ورقة یتقعقع ثم قال: اللهم إنهم منعونی أن أقوم فی الأمة بما فیه، فاعطنی ثواب ما فیه، اللهم إنی قد مللتهم وملونی، وأبغضتهم وأبغضونی، اللهم فأبدلنی بهم خیرا منهم، وأبدلهم بی شرا منی. اللهم أمت قلوبهم موت الملح فی الماء [۱۳].

وعندما بلغ أمیر المؤمنین غارة معاویة علی هیت والأنبار، قال بعد أن تثاقل أهل الکوفة: لا یدرک الحق إلا بالجد والصدق، فأی دار بعد داركم تمنعون، ومع أی إمام بعدی تقاتلون. المغرور من غررتموه، ومن فارقکم فاز بالسهم الأصیب. أصبحت والله لا أصدق قولکم، ولا أطمع فی نصرکم، فرق الله بینی وبینکم، وأعقبنی بکم من هو خیرا لی منکم، وأعقبکم من هو شر لکم منی. أما إنکم ستلقون بعدی ثلاثا: ذلا شاملا، وسیفا قاطعا، وآثره قبیحة یتخذها فیکم الظالمون سنة. فتبکی لذلک أعینکم، ویدخل الفقر بیوتکم، وستذکرون عند ذلک المواطن، فتودون أنکم رأیتمونی وهرقتم دماءکم دونی، فلا یبعد الله إلا من ظلم [۱۴].

[صفحه ۱۴۸]

وعندما بلغه أن سرایا معاویة تقتل شیعته ویعرضون النساء المسلمات فی الأسواق. خطب الناس فقال: أیها الناس. إنی قد بثت لکم المواعظ [۱۵] التی وعظ بها الأنبیاء أممهم، وأدیت إلیکم ما أدت الأوصیاء [۱۶] إلی من بعدهم، وأدبتکم بسوطی فلم تستقیموا. وحدوتکم [۱۷] بالزواجر فلم تستوسقوا [۱۸]، لله أنتم. أتتوقعون إماما غیری یطأ بکم الطریق [۱۹]، ویرشدکم السبیل؟ ألا إنه قد أدبر من الدنیا ما کان مقبلا، وأقبل منها ما کان مدبرا. وأزمع الترحال عباد الله الأخیار، وباعوا قلیلا من الدنیا لا یبقی بکثیر من الآخرة لا یفنی. ما ضر إخواننا الذین سفکت دماؤهم بصفین ألا یکونوا الیوم أحیاء، یسیغون الغصص، ویشربون الرنق. قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم، أین إخوانی الذین رکبوا الطریق، ومضوا علی الحق؟ أین عمار؟ وأین ابن التیهان؟ وأین ذو الشهادتین؟ وأین نظراؤهم من إخوانهم [۲۰] الذین تعاقدوا علی المنیة [۲۱] وأبرد برؤوسهم إلی الفجرة؟ [۲۲].

قال راوی الحدیث: ثم ضرب علیه السلام بیده علی لحیته الشریفة الکریمة. فأطال البکاء، ثم قال: أوه علی إخوانی الذین قرأوا القرآن فأحکموه، وتدبروا الفرض فأقاموه! أحیوا السنة وأماتوا البدعة. دعوا إلی الجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه [۲۳] ثم نادی بأعلی صوته: الجهاد الجهاد عباد الله. ألا

[صفحه ۱۴۹]

وإنی معسکر فی یومی هذا، فمن أراد الرواح إلی الله فلیخرج [۲۴] وروی أنه

ضرب برجله علی المنبر حتی سمع قدمه فی آخر المسجد، وقال: والله لتطأون هکذا هکذا. ثم لتستعملن علیکم الیهود والنصاری حتی تنفوا، ثم لا یرغم الله إلا بآنافکم [۲۵].

لقد أخبرهم أولا- بظهور أهل الشام علیهم، ثم أخبرهم ثانیا بأن الیهود والنصاری سیقودوهم إلی عالم النفی أی عالم التردیة، حیث تکون مهمتهم تقلید الیهود والنصاری فی کل شئ، ثم أخبرهم ثالثا بأنهم سیرکبون المرحلة الأخیرة معهم، وهی التی لا یرغم الله إلا بآنافهم، وهذه الأرضیة هی أرضیة الخنزیریة حیث یطبخون فی المادة حتی یأتیهم الدجال. وروی أن الإمام بعد أن خطبهم خرج بنفسه ماشیا إلی المعسکر. فأدرکه بعض الناس، وکان یرید أن یتوجه لقتال أهل الشام. ومن العجیب أنه بعد أن عزم علی ضرب أهل الشام جاءته الضربة القاتلة من أشقی الناس عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، وعندما جاءت الضربة تراجع العساکر فکانوا کأغنام فقدت راعیها، تخطفها الذئاب من کل مکان [۲۶].

[۱] ابن أبی الحدید ۸۱۳:۱ والحدیث رواه الحاکم والبیهقی بسند صحیح (البدایة والنهایة ۲۱۸:۶، کنز العمال ۲۹۷:۱۱).

[۲] عبید کأرباب:یصفهم بالکبر.

[۳] أیادی سبأ:مثل یضرب للمتفرقین.

[۴] تتخادعون عن مواعظکم:أی تمسکون من الاتعاظ والانزجار.

[۵] كظهر الخيئة:الخيئة القوس. يريد اعوجاجهم كما أن ظهر القوس معوج.

[۶] أعضل المقوم:أى أعضل داؤه.

[۷] تربت أيديكم:أى لا أصبتم خيرا.

[۸] فما أخالكم:أى فما أظنكم.

[۹] حمى الوغى:اشتد وعظهم. والوغى:الأصوات والجلبة.

[۱۰] انفراج المرأة عن قبلها:أى وقت الولادة.

[۱۱] القطه لقطا:أى أنا التقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لفظ من هاهنا وهاهنا. كما يسلك الإنسان طريقا دقيقة اكتنفها الشوك.

[۱۲] ابن أبى الحديد ۶۲۴:۲.

[۱۳] رواه ابن عساكر (كنز العمال ۱۹۵:۱۳) ابن كثير (البداية ۱۲:۸) المسعودى (مروج الذهب ۱۳۹:۳).

[۱۴] ابن عساكر (كنز العمال ۳۵۶:۱۱).

[۱۵] بثت لكم المواعظ:فرقتها ونشرتها.

[۱۶] الأوصياء:الذين يأتمنهم الأنبياء على الأسرار الإلهية أو الذين لهم الإمرة والولاية.

[۱۷] حدوتكم:سقتكم كما تحدى الإبل.

[۱۸] فلم تستوسقوا:أى لم تجتمعوا.

[۱۹] يطأ بكم الطريق:أى يحملكم على المنهاج الشرعى.

[۲۰] أين نظراؤهم:يعنى الذين قتلوا بصفين من الصحابة.

[۲۱] وتعاقدوا على المنية:جعلوا بينهم عقدا.

[۲۲] وابرد برؤوسهم:أى حملت رؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها. والفجرة هنا هم أمراء الشام.

[۲۳] وثقوا بالقائد:يعنى نفسه فاتبعوه فى حرب من حارب وسلم من سالم.

[۲۴] ابن أبى الحديد ۴۳۶:۳.

[۲۵] الدولابى فى الكنى والأسماء، ابن أبى شيبة (كنز العمال ۷۸۰:۵).

[۲۶] ابن أبى الحديد ۴۳۷:۳.

وغاب القمر

روى أن النبى صلى الله عليه وآله قال لعلى: ألا أحدثك بأشقى الناس.

رجلين: أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا على على هذه (يعنى رأسه) حتى تبتل منه هذه (يعنى لحيته) [۱] ، وقال له": إن الأمة ستغدر بك

[صفحه ۱۵۰]

بعدى، وأنت تعيش على ملتى وتقتل على سنتى. من أحبك أحبنى، ومن أبغضك أبغضنى، وإن هذه ستخضب من هذا (يعنى لحيته من رأسه) [۲] وروى

أن أنسا قال: دخلت مع النبى صلى الله عليه وسلم على على وهو مريض. وعنده أبو بكر وعمر. فقال أحدهما لصاحبه: ما أراه إلا هالكا. فقال النبى: إنه لن يموت إلا مقتولا. ولن يموت حتى يملأ غيظا [۳] .

وروى أن أبا فضالة الأنصارى خرج ليعود على فى مرض أصابه، وأثناء حديثه مع على قال على: عهد إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن لا أموت حتى تخضب هذه من هذه (يعنى لحيته من هامته) [۴] وعن أبى سنان أنه عاد عليا فى

شكوى اشتكاها، فقال لعلى: لقد تخوفنا عليك فى شكواك هذه. فقال: ما تخوفت على نفسى، عهد إلى أن لا أموت حتى تخضب هذه من هذه [۵] وروى

أن رجلا- من الخوارج يقال له الجعد بن بعجة قال لعلى: اتق الله يا على فإنك ميت، فقال: بل مقتول، ضربة على هذا تخضب هذه. عهد معهود وقضاء مقضى، وقد خاب من افترى [۶] ، وروى أن عليا كان يعرف قاتله وذلك لأن النبى وصفه له وسماه واسم أبيه، وعندما جاء ابن ملجم مع الناس ليبايع عليا قال على:

أريد حياته ويريد قتلى++

عذيرك [۷] من خليلك من مرادى [۸] .

[صفحه ۱۵۱]

وكان يقول هذا كلما رآه، وروى أنه لما دخل شهر رمضان، كان يفطر عند الحسن ليلة وعند الحسين ليلة، وليلة عند عبد الله بن جعفر، ولا يزيد على اللقمتين أو ثلاث. فقيل له فى ذلك فقال: إنما هى ليال قلائل، يأتى أمر الله وأنا خميص [۹] وفى اليوم الذى قتل فيه جاءه ابن النباح حين طلع الفجر يؤذنه

بالصلاة، فقام يمشى وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت++

فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت++

إذا حل بواديكا [۱۰] .

وقال: والله ما كذبت وكذبت، وإنها الليلة التى وعدت فيها [۱۱] وعندما

خرج، أقبل الوز والبط يصحن فى وجهه، فطردوهن عنه فقال: ذروهن فإنهن نوائح [۱۲] ، وكان ابن ملجم قد أتى الأشعث بن قيس فى هذه الليلة، فخلا به فى بعض نواحى المسجد، ومر بهما حجر بن عدى، فسمع الأشعث يقول لابن ملجم: النجاء النجاء بحاجتك فقد فضحك الصبح. فقال حجر: قتلته يا أعور، وخرج مبادرا إلى على ليخبره [۱۳] ، وقال أبو الفرج: وللأشعث بن قيس فى انحرافه عن أمير المؤمنين أخبار يطول شرحها [۱۴] ولم يلتق حجر بن عدى

بعلى، وسبقه ابن ملجم فضربه، فأقبل حجر والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين [۱۵] وعن أبى عبد الله بن محمد الأزدى قال: إنى لأصلى تلك الليلة

فى المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر، كانوا يصلون فى ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره. إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبا من السدة. قياما وقعودا وركوعا وسجودا ما يسأمون إذ يخرج عليهم على بن أبى طالب الفجر. فأقبل

[صفحه ۱۵۲]

ينادى: الصلاة الصلاة، فرأيت بريق السيف وسمعت قائلا يقول: الحكم لله يا على لا لك. ثم رأيت بريف سيف آخر وسمعت على عليه السلام يقول: لا يفوتنكم الرجل [۱۶] .

قال أبو الفرج: فأما بريق السيف الأول، فإنه كان شبيب بن بحير ضربه فأخطأه، ووقعت ضربته فى الطاق، وأما بريق السيف الثانى، فإنه ابن ملجم ضربه فأثبت الضربة فى وسط الرأس، وشد الناس عليهما من كل ناحية حتى أخذوهما [۱۷] ، وانصرف الناس من صلاة الصبح، فأحدقوا بابن ملجم ينهشون لحمه بأسنانهم ويقولون: يا عدو الله ماذا صنعت؟ أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس. وأنه

لصامت لا ينطق [۱۸] .

وأمر أمير المؤمنين على إذا مات من الضربة أن يفعلوا بقاتله كما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل برجل أراد قتله. وهو أن يقتل ويحرق بالنار [۱۹] وطريقة القصاص من قاتله تدل أيضا على منزلة أمير المؤمنين من

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وروى أن الناس أخذوا ابن ملجم وأدرجوه فى بوارى ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النيران فاحترق [۲۰] .

ورحل الإمام على عليه السلام من الدنيا. وروى أنه قال: إن خليلى صلى الله عليه وآله وسلم حدثنى أن أضرب لسبع عشر قضى من رمضان، وهى الليلة التى مات فيها موسى عليه السلام، وأموت لاثنين وعشرين من رمضان، وهى الليلة التى رفع فيها عيسى عليه السلام [۲۱] وبعد أن صعدت روح الإمام

[صفحه ۱۵۳]

إلى بارئها وقف الحسن بن على فى الناس خطيبا ثم قال ": أيها الناس. لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعثه بالراية جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا ينصرف حتى يفتح الله له، وزاد فى رواية – وما ترك من صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطاء، كان يرصدها لخادم لأهله، ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه [۲۲] .

وروى الطبرى: لما إنتهى إلى عائشة قتل على بن أبى طالب قالت:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى++

كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد. قالت:

فإن يک بک نائيا فلقد نعاه++

غلام ليس فى فيه التراب

فقالت لها زينب ابنة أبى سلمة: العلى تقولين هذا؟ فقالت: إنى أنسى فإذا نسيت فذكرونى [۲۳] ، وكانوا قد قالوا لعائشة أيام صفين: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلک؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر [۲۴] .

وبعد مقتل الإمام أنشد الخارجى عمران بن حطان [۲۵] شعرا يمدح فيه قاتل عليا فقال:

يا ضربة من تقى ما أراد بها++

ألا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يوما فأحسبه++

أوفى البرية عند الله ميزانا [۲۶] .

[صفحه ۱۵۴]

وعمران بن حطان هذا له رواية فى صحيح البخارى، الذى قيل فيه أنه أصح كتاب بعد كتاب الله، وممن عاب على البخارى إخراجه حديث عمران بن حطان الدارقطنى فقال: عمران متروک لسوء اعتقاده وسوء مذهبه [۲۷] وأخرج أبو

داوود أيضا حديث عمران عن عائشة. وقال: إن الخوارج أصح أهل الأهواء حديثا [۲۸] والخوارج هم الذين وصفهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم:

"يمرقون من الدين [" ۲۹] ، أى أن أهواءهم خارج نطاق الدين. وأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أيضا بأنهم " لن يعودوا إلى

الدین [" ۳۰] وبین أنهم " لا

یزالون یخرجون حتی یخرج آخرهم مع الدجال [" ۳۱] فالطریق واضح فکیف

یکونوا أصح أهل الأهواء حدیثا وهم الذین أرادوا هدم الدین من رأس؟ یقول شاعرهم ابن میاس المرادی فی قتل علی:

ونحن خلعنا ملکه من نظامه++

بضربهٔ سیف إذ علا وتجبرا

ونحن کرام فی الصباح أعزهٔ++

إذا الموت بالموت ارتدی وتأذرا

وقال أیضا:

فلا مهر أغلی من علی وإن غلا++

ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم [۳۲] .

ولقد رد القاضی أبو الطیب علی شعر عمران بن حطان فقال:

إنی لأبرأ مما أنت قائله++

عن ابن ملجم الملعون بهتانا

یا ضربهٔ من شقی ما أراد بها++

ألا لیهدم للإسلام أرکانا

إنی لأذکره یوما فألعنه++

دنیا وألعن عمران ابن حطانا

[صفحه ۱۵۵]

وقال:

أنتما من کلاب النار جاء به++

نص الشریعهٔ برهانا وتبیانا [۳۳] .

[۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ۱۳۶:۹)، والحاکم والبیهقی بسند صحیح (المستدرک ۱۴۱:۳)، (کنز ۱۳۶:۱۳) (البدایهٔ والنهایهٔ ۲۱۸:۶).

[۲] رواه أحمد وصححه (المستدرک ۱۴۲:۳) والدارقطنی والخطیب (کنز العمال ۶۱۷:۱۱).

[۳] قال السیوطی فی الخصائص الکبری رواه الحاکم (الخصائص ۲۱۰:۲).

[۴] قال ابن کثیر رواه الطبرانی (البدایهٔ والنهایهٔ ۲۱۸:۶).

[۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۳۷:۹) والحاکم وصححه (۱۱۳:۳).

[۶] رواه أحمد (الفتح الربانی ۱۶۳:۲۳) والطبرانی والبغوی والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۲۹۷:۱۱) والحاکم (المستدرک ۱۴۳:۳)، وقال ابن کثیر رواه الطیالسی (البدایهٔ ۲۱۸:۶).

[۷] أی هات من یعتذر منک.

[۸] رواه ابن سعد ووکیع (کنز العمال ۱۹۱:۱۳).

[۹] رواه ابن عساکر والعسکری (کنز ۱۳:۳۹۵:۱۹۰).

[۱۰] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۹۶:۱۳) وابن أبی الحدید ۳۳۹:۲.

[۱۱] مروج الذهب ۲:۴۵۹.

[۱۲] ابن کثیر (البدایة ۸:۱۴)، (مروج الذهب ۲:۴۵۹، ابن عساکر ۱۳:۱۹۵.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۲:۳۴۰، مقاتل الطالبین.

[۱۴] مقاتل الطالبین، ابن أبی الحدید ۲:۳۴۰.

[۱۵] مقاتل الطالبین، ابن أبی الحدید ۲:۳۴۰.

[۱۶] رواه الطبرانی (الزوائد ۹:۱۴۱)، الطبری ۶:۸۴، ابن أبی الحدید ۲:۳۴۰.

[۱۷] مقاتل الطالبین، ابن أبی الحدید ۲:۳۴۰.

[۱۸] مقاتل الطالبین، ابن أبی الحدید ۲:۳۴۱.

[۱۹] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۳:۱۶۳)، (الزوائد ۹:۱۴۲) والحاکم (المستدرک ۳:۱۴۴).

[۲۰] مروج الذهب ۲:۴۶۱.

[۲۱] کنز العمال ۱۳:۶۹۷. وهذا الحدیث اعترض علیه ابن الجوزی. وکم رد ابن الجوزی أحادیث صحیحة. ولقد تصدی له السیوطی وبین أنه لم یصب الحق فی الکثیر من اعتراضاته. والحدیث رواه أبو یعلی وابن جریر وابن عساکر (کنز ۱۳:۶۹۳).

[۲۲] رواه أحمد بسند صحیح (الفتح الربانی ۲۳:۱۶۴) وابن أبی شیبة وأبو نعیم وابن عساکر وابن جریر (کنز العمال ۱۳:۱۹۳)، مروج الذهب ۲:۴۶۱.

[۲۳] الطبری ۶:۶۷.

[۲۴] البدایة والنهایة ۸:۱۳۱.

[۲۵] قال فی الإصابة: کان من رؤوس الخوارج.

[۲۶] مروج الذهب ۲:۴۶۲، البدایة والنهایة ۷:۳۲۹.

[۲۷] الإصابة:ابن حجر ۳:۱۸۰.

[۲۸] الإصابة ۳:۱۱۹.

[۲۹] رواه أحمد (البدایة والنهایة ۳:۲۹۲).

[۳۰] رواه أحمد (البدایة والنهایة ۷:۲۹۷).

[۳۱] رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۶:۲۲۹). .

[۳۲] الطبری ۶:۸۷، البدایة والنهایة ۷:۳۲۹.

[۳۳] مروج الذهب ۲:۴۶۲.

لهیب اللیل

لم یر الناس إلا ابن ملجم وأصحابه عندما قتل أمیر المؤمنین، وفی الحقیقة کان هناک طابور طویل یقف وراء ابن ملجم ولا یراهم إلا الله وحده. لقد شارک الکثیر من الناس فی قتل علی بن أبی طالب، وفی کتاب الله الکریم. عقر ناقة صالح علیه السلام فردا واحدا قال تعالی: (إذ انبعث أشقاها)، وبعد إتمام عملیة القتل قال تعالی: (فکذبوه فعقروها) [۱] ، وفی هذا یقول الإمام علی: أیها الناس، إنما یجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، فقال سبحانه: (فعقروها فأصبحوا نادمین) [۲] فما کان ألا خارت أرضهم بالخسفة خوار السکة المحماة فی

الأرض الخوارة. أيها الناس: من سلك الطريق ورد الماء، ومن خالف وقع فى التيه [۳] ولا يخفى أن حديث قتل على بن أبى طالب فيه أحيمر ثمود قاتل

الناقة، والذى يضرب عليا على رأسه فتخضب لحيته من رأسه. فأشقى الناس هنا يقابله أشقى الناس هناك، وقتل على هنا يقابله قتل الناقة هناك. والعذاب الذى وقع هناك لا بد وأن يقابله عذاب هنا. ولذلك كان على بن أبى طالب يخبرهم بالذل الشامل الذى سيحل بهم بعد مقتله كما أخبره النبى صلى الله عليه وآله وسلم. والعذاب الذى يشق طريقه الظالمون من الأمة الخاتمة، يستقيم مع رسالة الأمة ودوامها حتى قيام الساعة. بمعنى أن ثمود ضربهم عذاب الاستئصال. أما الأمة الخاتمة فلها عذاب يستقيم مع الاستئصال بصورة من الصور حتى يأتى أمر الله.

[صفحه ۱۵۶]

ولما كان الدجال خارج لا محالة فى آخر الزمان. كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة [" ۴] ولما كانت جميع الفتن منذ كانت

الدنيا تصب شذوذها فى سلة لها موضع عند الدجال، كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ": وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة أو كبيرة إلا لفتنة الدجال [" ۵] ، فإن ملامح العذاب الذى يصيب الظالمين من الأمة ترى صورته على طريق الدجال. وطريق الدجال داخل مربع الأمة يبدأ كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم من عند دائرتين ": ثلاثة من نجا منها فقد نجى، من نجا عند موتى، ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوما وهو مصطبر يعطى الحق من نفسه فقد نجا، ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا [" ۶] فالدائرة الأولى حادث أو

موقف ينشأ عند موت النبى صلى الله عليه وسلم، والدائرة الثانية قتل خليفة يعمل بالحق ويسير بالحق وهدفه الحق. فالذى ينجو من الدائرة الأولى، ويدخل فى أمان الدائرة الثانية تسوقه أقدامه إلى أمان الدائرة الثالثة والتى يكون مركزها الدجال. فالأمان يدفع إلى أمان. ومن وقع فى فتنة الدجال، فإن لوقوعه أسباب سلك طريقها يقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندى من الدجال، ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها [" ۷] .

فهذا باختصار طريق العذاب وبعض ملامحه. والله تعالى لا يظلم الناس. والعذاب الذى يرونه ما هو إلا نتيجة طبيعية لأعمالهم. والله تعالى أخذ على نفسه الرحمة، وأنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. ولقد ساق النبى صلى الله عليه وسلم الأمة إلى طريق الهداية. وحذرهم من كل سبيل

[صفحه ۱۵۷]

ليس لله فيه راية. وبالغ فى التحذير فقال ": من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله [" ۸] ، وقال ": أول فرقة تسير إلى السلطان فى الأرض لتذله يذلهم الله تعالى يوم القيامة [" ۹] ، قال فى تحفة الأحوذى: أى من أهان من أعز الله أهانه الله. وفى الأرض متعلق بسلطان الله. قال تعالى لداوود عليه السلام ": إنا جعلناك فى الأرض خليفة " وإضافة السلطان إلى الله إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله [" ۱۰] .

فالنبى حذر من إهانة سلطان الله، وحذر أيضا من إهانة وليه الذى هو ولى الله فقال ": من أهان لى وليا فقد بارزنى بالعداوة [" ۱۱] ، وقال ": من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة [" ۱۲] ، وقال ": من عادى لى وليا فقد ناصبنى بالمحاربة [۱۳] ، وقال ": من آذى لى وليا فقد استحل محارمى [" ۱۴] ، وقال لعلى وفاطمة والحسن والحسين ": أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [" ۱۵] ، وقال: "من آذى عليا فقد آذانى [" ۱۶] ، وقال: من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وانصر من نصره واخذل من خذله [" ۱۷] ، وقال:

[صفحه ۱۵۸]

"سبعة لعنتهم ولعنهم الله " منهم " المتسلط على أمتى بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله. والمستحل من عترتى ما حرم الله ["۱۸] .

والنبى وهو يحذر كان يعلم أن الأمة ستقع فى الفتن، ولكن ما على الرسول إلا البلاغ، ولقد ساق الناس إلى الهدى آخذا بجميع الأسباب للوصول بهم إلى هذا الهدف. كان يعلم بأنهم سيكذبوه وأنه سيهاجر ويترك لهم الديار فى سبيل الله وأنهم سيقاتلونه وأن بنى أمية سيصعدون منبره فى نهاية المطاف، فلم يحول هذا العلم بينه وبين الدعوة، وإنما جاهد ونصح حتى لا يكون للناس على الله حجة يوم القيامة. ومما روى عن النبى وهو يخبر بالغيب عن ربه " والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ويرث دنياكم شراركم [" ۱۹] ففى الحديث بداية تسفر عن قتل إمام، ثم اجتلاد

بالسيوف، ثم يجلس الرويبضه والغلمان السفهاء على المقاعد الأولى وبين أيديهم دنيا فعلوا من أجلها الأفاعيل. وهكذا يستقيم البدء مع الختام. فالناس لم يروا سوى ابن ملجم وأصحابه عند قتل الإمام على، كما أن ثمود لم تر سوى عاقر الناقة وأصحابه. وروى أن الناقة عندما قتلت رفعت ببصرها إلى السماء. وروى أن جماعة تبعوا فصيلها لما هرب منهم فرماه أحدهم بسهم فأصاب قلبه، وأن فصيلها رغا ثلاث مرات إلى السماء [۲۰] ، وروى أن الإمام على قال ": إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى. فقلت: يا رسول الله. ما لقيت من أمتك من الأود واللدد. فقا: ادع عليهم. فقلت: اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم. وأبدلهم بى من هو شر منى [۲۱] ، وهذا الدعاء جهر به الإمام أمام القوم عندما خذلوه. ثم

[صفحه ۱۵۹]

رحل الإمام وأمامه البشرى. قال له النبى صلى الله عليه وسلم ": أبشر يا على حياتك معى وموتك معى [" ۲۲] ، وقال ": إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة على وعمار وسلمان [" ۲۳] ، وقال لفاطمة ": إنى وإياك وهذا النائم [۲۴] وهما [۲۵] لفى مكان واحد يوم القيامة" [۲۶] .

وإذا كانت البشرى دائرة عاش فيها الإمام على فى الدنيا، فإن البشرى يوم القيامة ستكون حقيقة يعيشها الإمام على بجانب الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وبما أن ساحة الأمة يوجد عليها إمام مقتول، فإننا نلقى الضوء هنا على الدماء يوم القيامة، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": أول ما يقضى بين الناس فى الدماء [" ۲۷] ، وفيما يتعلق بالأمة فى هذا الشأن يقول الإمام على ": أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة [" ۲۸] ، وروى أنه قال ": أنا حجيج المارقين وخصيم الناكثين المرتابين " أى: يوم القيامة [۲۹] .

وروى أنه عندما نزل قوله تعالى (": ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) [۳۰] قال الزبير يا رسول الله. أتكرر علينا الخصومة بعد الذى كان بيننا فى الدنيا؟ قال: نعم فقال الزبير: إن الأمر إذا لشديد [۳۱] .

وروى أن الإمام على قال: يؤتى بى وبمعاوية يوم القيامة فنختصم عند ذى

[صفحه ۱۶۰]

العرش. فأينا فلج فلج أصحابه [" ۳۲] ، وقال ": حزبنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوى بيننا وبين عدونا فليس منا" [۳۳] ، أما قول الإمام بأن حزبه هو حزب الله فإن هذا يستشف ويرى بوضوح فى آيات القرآن الكريم وفى الأحاديث الصحيحة وفى حركة التاريخ، وإما أن الفئة الباغية هى حزب الشيطان، فيكفى الفئة الباغية قتل عمار الذى يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فى عمار ": عمار خلط الله الإيمان ما بين قرنه إلى قدمه. وخلط الإيمان بلحمه ودمه [" ۳۴] ، وقال: روى عمار إيمانا إلى مشاشته [۳۵] ، فعمار الذى فى دائرة الإيمان قتل بيد الفئة الباغية، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول ": أبى الله أن يجعل لقاتل مؤمن توبة [" ۳۶] ، وقال ": لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار [" ۳۷] ، فالذى يقتل مؤمنا لأنه مؤمن، فهذا بلا جدال من حزب الشيطان. ولأن المؤمن كثير ما يقتل على طريق البغى، فلقد حذر رسول الله صلى الله عليه

وسلم من هذا الطريق فقال ": يا معشر المسلمين احذروا البغى، فإنه ليس من عقوبة هى أخطر من عقوبة البغى [" ۳۸] ، وقال ": لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما [" ۳۹] ، وقال: لا يبغى على الناس إلا ولد بغى أو فيه شئ منه [" ۴۰] ، وقال ": لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة [" ۴۱] .

[صفحه ۱۶۱]

فالأمير الذى يسلك طريق المكر والخديعة على امتداد طريق البغى هو أعظم الناس غدرا، وله لواء يوم القيامة يحمل اسمه. فإذا كان حزب الله وحزب الشيطان لهما معالمهما فى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم. فلا تسوية بين هذا وذاك لقول النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ": على بن أبى طالب باب حطة، من دخل فيه كان مؤمنا ومن خرج منه كان كافرا [" ۴۲] ، قال فى فيض القدير: والمعنى أن عليا طريق حط الخطايا [۴۳] ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم ": فلو أن رجلا صفن [۴۴] بين الركن والمقام وصلى وصام ثم مات وهو مبغض لآل محمد صلى الله عليه وسلم دخل النار [" ۴۵] ، وقال ": والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار ["۴۶] ، وقال ": النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف. فإذا خالفتها قبيلة من العرب، اختلفوا فصاروا حزب إبليس [" ۴۷] ، والتسوية لا تستقيم أيضا، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بأن طريق البغاة سيكون فيه مال الله دولا، ودين الله دخلا وعباد الله خولا. وعلى امتداد هذا الطريق تنبت الأشجار التى حذر منها النبى، أشجار الفتن التى يجلس فى ظلها الدجال وأتباعه آخر الزمان. ودائرة الدجال التى عليها رجس لا تستقيم مع دائرة المهدى الذى فيها من الله طهر. وكما حذر النبى من الدجال فى أحاديث، بشر أيضا بالمهدى فى أحاديث. ومن عدل الله أنه قابل الشر المخبوء بعدل مخبوء، وكما أن للشر أعلام كذلك للعدل أعلام.

[صفحه ۱۶۲]

وفى الختام نقول: لقد عمل التيار التخريبى على امتداد التاريخ لوقف حركة الأنبياء والرسل، ولكن كيدهم رد إلى نحورهم وخاب سعيهم وأصبحوا أحاديث. وعند الرسالة الخاتمة اجتمعت رايات الشذوذ التى تحمل بصمات الذين أصبحوا أحاديث، وأرادوا الكيد للدعوة، ولكن الله كشف خباياهم، وهتك سترهم وأخبر النبى بوقع أقدامهم فى المستقبل كى يحذر أمته. فكان النبى يتكلم مع الرجل منهم فى الوقت الذى يرى حقيقته فى الآخرة، بمعنى: يقول له أحدهم يا رسول الله أين مدخلى؟ فيقول له النبى: النار فالنبى هنا يراه على صورتين، والصورة الأخيرة هى الحقيقة، وعلى هذا المثال، كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتحدث مع فطاحل بنى أمية، وهو يراهم فى صورة أخرى على منبره بعد وفاته، ثم يرى حقيقتهم فى الآخرة. وفقا لهذا حذر النبى أشد التحذير من اليهود ومن النصارى، ومن المنافقين ومن الذين فى قلوبهم مرض، ولقد بينا هذا فى موضعه. وبعد النبى صلى الله عليه وسلم اجتهد بنى أمية، فكان العقد فيما بينهم، حتى أن أبى بن كعب كان يقول فى عهد عمر ": هلك أهل العقد ورب الكعبة، هلك أهل العقد ورب الكعبة، والله ما آسى عليهم إنما آسى على من أهلكوا من المسلمين [۴۸] ولقد ذكرنا فيما سبق أن أبى بن كعب عندما وعد الناس بأنه

سيتكلم يوم الجمعة. ما جاء يوم الجمعة إلا وأبى بن كعب فى عالم ما بعد الحياة الدنيا. ولا ندرى أهى مصادفة أن يموت أبو بكر مسموما، وعمر مقتولا ثم يأتى عثمان يضعه بنى أمية على طريق القتل، ثم يأتى أمير المؤمنين على فيقاتله معاوية، ثم يقتل أمير المؤمنين. ولقد اتهم أبو الأسود الدؤلى معاوية بهذا القتل عندما قال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب++

فلا قرت عيون الشامتينا

أفى شهر الصيام فجعتمونا++

بخير الناس طر أجمعينا

[صفحه ۱۶۳]

قتلتم خير من ركب المطايا++

وذللها ومن ركب السفينا [۴۹] .

وكان الإمام على يضع قريش فى دائرة الساعين لقتله وكان كثيرا ما يقول:

تلكم قريش تمنانى لتقتلنى++

فلا وربك ما بروا وما ظفروا

فإن هلكت فرهن ذمتى لهم++

بذات ودقين ولا يعفو لها أثر [۵۰] .

فبنى أميـة لـم تكـن بعيـدة عن دم الإمـام، ثم جـاء دور الحسن بن على وروى أن معاويـة أوصـى بنت الأشـعث لتسـمه، وقتـل الحسـن مسموما. ثم جاء الدور على الحسين قتيل الدولة الأموية. فهل جاء كل هذا مصادفة ليجلس بنى أمية على رؤوس الأمة؟ إن الذى قطف الثمرة لا بد أنه يراقب الشـجرة زمنا طويلا، وهذه المراقبة لا بد وأن تسـتقيم مع أحاديث اللعن التى لعن فيها النبى تيارات الهدم. بمعنى أنهم وهم يراقبون الأحـداث كانوا على درايـة بأن هـذه الأحداث سـتصب فى وعائهم فى نهاية المطاف، لأن وقودهم هو الذى يدفعها ويسـيرها. إن قيادة بنى أميـة للبغض لم تأت بعـد عهـد الإمام على، وإنما بدأت بعد نزول الوحى على رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، وهـذا نراه فى حـديث ": أبغض الناس إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: بنو أمية وثقيف وبنو حنيفة [" ۵۱] ، وقول النبى صـلى الله عليه وآله وسلم ": أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم [" ۵۲] ، إن البغض لطريق الهداية كان منذ زمن الرسول، وهذا البغض ارتـدى رداء الفتن البراقـة بعـد عهـد على بن أبى طالب. ولقـد كان فى بنى أمية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهؤلاء كان يعرفهم الإمام على، وكان فيهم أيضا رجال يتسـلقون ويشترون الـذمم للصـد عن سبيل الله وهؤلاء أيضا كان يعرفهم الإمام على، ويرى بصماتهم من اشتغل برصد التاريخ وأحداثه. فهم هناك عند دائرة الكبر، التى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم ": الكبر بطر الحق

[صفحه ۱۶۴]

وغمط الناس [" ۵۳] ، وبطر الحق: دفعه وإنكـاره ترفعـا وتجبرا [۵۴] ، وقيـل: هو أن يجعـل مـا جعله الله حقا باطلا، وقيل: هو أن يتكبر على الحق فلا يقبله، وغمط الناس: أى احتقارهم [۵۵] .

إن الإمـام على قتله الـذين يبغضونه، قتله تيار المسـجد الضـرار، وتيار العقبـة الـذين أرادوا يوما أن يغتالوا النبى عنـد عودته من تبوك. والتاريـخ لا يحاكم الناس، وإنما الـذى يحاكمهم الله وحـده. وروى أن الإمام على قال: لا تأمنن على خير هـذه الأمـة عـذاب الله لقوله تعالى ": فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرين) [۵۶] .

ولا تيأس لشر هذه الأمة من روح الله لقوله تعالى: (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) [۵۷] .

إن التاريـخ لا يحاكم أحـدا، إنما الـذى يحاكم الناس هو الله وحـده. ولقـد رحل الإمام، وفى الحديث الصـحيح يقول النبى لعلى: أنت أخى، وأبو ولـدى، تقاتل على سـنتى وتبرئ ذمتى، من مات فى عهدى فهو كنز الله، ومن مات فى عهدك فقد قضـى نحبه. ومن مات بحبك بعـد موتك ختم الله له بالأمن، والإيمان ما طلعت الشـمس أو غربت، ومن مات يبغضك مات ميتـة جاهليـة وحوسب بما عمل فى الإسلام [" ۵۸] .

[صفحه ۱۶۷]

[۱] سورة الشمس: الآية ۱۴.

[۲] سورة الشعراء: الآية ۱۵۷.

[۳] ابن أبى الحديد ۵۴۹:۳.

[۴] رواه مسلم (الصحيح ۵۵:۱۸) الترمذى (الجامع ۲۳۲:۴) وأحمد (الفتح الربانى ۷۶:۲۴) الحاكم (المستدرك ۵۳۶:۱).

[۵] رواه البزار ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۶] رواه أحمد والطبرانی والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۸۰:۱۱) والحاکم وصححه (المستدرک ۱۰۱:۳).

[۷] رواه أحمد والبزار وقال الهیثمی رجال أحمد رجال الصحیح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۸] رواه ابن أبی عاصم وصححه الألبانی (کتاب السنة ۴۸۹:۲) والترمذی (کنز العمال ۱۸۴:۱).

[۹] رواه الدیلمی عن حذیفة (کنز ۲۱۵:۱).

[۱۰] تحفة الأحوذی ۴۷۶:۶).

[۱۱] رواه الطبرانی وأبو نعیم عن أبی إمامة (کنز ۲۲۹:۱).

[۱۲] رواه ابن عساکر عن أنس (کنز ۲۲۹:۱۱).

[۱۳] رواه الطبرانی عن ابن عباس (کنز ۲۳۱:۱).

[۱۴] رواه أحمد وأبی یعلی والطبرانی وابن عساکر عن عائشة (کنز ۲۳۰:۱).

[۱۵] رواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۴۹:۳) والضیاء بسند ۶۴۰:۱۳) والترمذی (الجامع ۶۹۹:۵).

[۱۶] رواه أحمد وقال الهیثمی رجال أحمد ثقات، ورواه الطبرانی والبزار وابن حبان فی صحیحه (الزوائد ۱۲۹:۹) والحاکم صححه (المستدرک ۱۲۲:۳) وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹)، وابن سعد وابن أبی شیبة (کنز ۱۴۲:۱۳).

[۱۷] رواه البزار وابن جریر وقال الهیثمی رجاله ثقات (کنز العمال ۱۵۸:۱۳) والألبانی وصححه (الصحیحة ۳۴۳:۵).

[۱۸] رواه ابن أبی عاصم وحسنه الألبانی (کتاب السنة ۲۴:۱).

[۱۹] رواه الترمذی (الجامع ۴۶۸:۴) وقال فی تحفة الأحوذی، رواه ابن ماجة (التحفة ۳۹۱:۶).

[۲۰] ابن کثیر فی التفسیر (۲۲۹:۲) والمیزان (۳۱۵:۱۰).

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۲:۸، الطبقات الکبری ۳۶:۳، العقد الفرید ۲۸۹:۲، مقاتل الطالبین ص ۱۶.

[۲۲] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۱۲:۹).

[۲۳] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۶۶۷:۵) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۷:۳).

[۲۴] أی علیا.

[۲۵] أی الحسن والحسین.

[۲۶] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۷:۳).

[۲۷] رواه البخاری ومسلم والترمذی (کشف الخفاء ۸۲۶:۱)، (الجامع ۱۰:۴)، (کنز العمال ۲۰:۱۵).

[۲۸] رواه البخاری (الصحیح ۵:۳.

[۲۹] ابن أبی الحدید ۳۷۸:۲.

[۳۰] سورة الزمر: الآیة ۳۱.

[۳۱] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۳۷۱:۵).

[۳۲] رواه ابن عساکر والحارث (کنز العمال ۳۵۰:۱۱).

[۳۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۳۵۶:۱۱).

[۳۴] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۷۲۰:۱۱).

[۳۵] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۳۹۲:۳).

[۳۶] رواه الطبرانی والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۹:۱۵).

[۳۷] رواه الترمذی (الجامع ۱۱:۴).

[۳۸] رواه ابن أبی الدنیا وابن النجار (کنز العمال ۳۰۸:۳) وابن عدی (کنز ۴۴۶:۳).

[۳۹] (کنز العمال ۴۴۶:۳).

[۴۰] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۹:۱۱) والطبرانی (کنز ۴۴۶:۳).

[۴۱] رواه مسلم (کنز العمال ۵۱۸:۳) وأحادیث لواء الغدر رواه البخاری (الصحیح ۷۸:۴) والترمذی (الجامع ۱۴۴:۴).

[۴۲] رواه الدارقطنی فی الأفراد (کنز ۱۰۰:۵).

[۴۳] فیض القدیر ۴:۳۵۶.

[۴۴] أی وقف.

[۴۵] رواه الطبرانی. وقال الهیثمی روی هذا الحدیث عن سفیان الثوری وبقیة رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۷۱:۹)، ورواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجاه وواقعة الذهبی (المستدرک ۱۴۹:۳).

[۴۶] رواه الحاکم وقال حدیث صحیح علی شرط مسلم ولم یخرجاه (المستدرک ۱۵۰:۳).

[۴۷] رواه الحاکم وقال هذا حدیث صحیح الإسناد (المستدرک ۱۴۹:۳).

[۴۸] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۲۷:۴).

[۴۹] مروج الذهب ۴۶۳:۲.

[۵۰] مروج الذهب ۴۶۴:۲.

[۵۱] رواه البیهقی ورجاله ثقات (البدایة والنهایة ۲۶۸:۶).

[۵۲] رواه نعیم بن حماد والحاکم (کنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۵۳] رواه مسلم (الصحیح ۸۹:۲).

[۵۴] النووی شرح مسلم (الصحیح ۸۹:۲).

[۵۵] تحفة الأحوذی ۱۳۸:۶.

[۵۶] سورة الأعراف: الآیة ۹۹.

[۵۷] سورة یوسف: الآیة ۸۷.

[۵۸] رواه أبو یعلی وقال البوصیری رواته ثقات (کنز العمال ۱۵۹:۱۳).

جداول الدماء

عاصفة الأمطار الحمضیة

بیعة الحسن بن علی

کان الحسن بن علی علامة بارزة فی طریق الدعوة إلی الله. فإذا کان علی بن أبی طالب حجة علی عصر فیه أکابر الصحابة، فإن الحسن حجة علی جیله أو إن شئت فقل حجة علی مقدمة جیل التابعین، أو قل حجة علی الساحة الإسلامیة من بعد والده علیه السلام. ویکفی لکی ندلل علی ذلک قول النبی صلی الله علیه وسلم للحسن والحسین " من أحبهما فقد أحبنی ومن أبغضهما فقد أبغضنی [" ۱] ، وقوله ": هذان ابنای وابنا ابنتی، اللهم أحبهما فأحبهما وأحب من یحبهما [" ۲] ، یکفی أنهما من أصحاب الکساء، ولقد قال النبی لأصحاب الکساء " أنا حرب لمن حاربکم وسلم لمن سالمکم "

[۳] ، وعلاوة على هذا وذاك

[صفحه ۱۶۸]

فلقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": جاءنى جبريل أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة [" ۴] .

فهذه المناقب لم توضع إلا لحكمة ومن وراء هذه الحكمة هدف. والحسن خاض المعارك مع والده، وكان يعلم جيدا ما الذى عليه أهل الشام، وكان يعلم أن معاوية سيملك ما تحت قدمه. هكذا سمع من النبى صلى الله عليه وسلم ومن على بن أبى طالب عليه السلام. وعلى الرغم من أنه كان يعلم أن نهايته فى مربع الشهادة، وأنه سيقتل ويكون سيدا فى الجنة بهذه الشهادة. إلا ـ أنه أخذ بالأسباب لإقامة الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة. والبداية كانت بعد وفاة أمير المؤمنين. روى الطبرانى أن الحسن بن على خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر أمير المؤمنين عليا خاتم الأوصياء، ووصى النبى وأمين الصديقين والشهداء... ثم قال: أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى، فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وسلم. أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعى إلى الله عز وجل بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. والذين افترض الله مودتهم فى كتابه إذ يقول ": ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا [" ۵] ، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت [" ۶] .

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطة، قام عبد الله بن عباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته [۷] ، وقام رجل فقال: أشهد لقد رأيت رسول الله صلى الله

[صفحه ۱۶۹]

عليه وآله وسلم واضعه فى حبوته ويقول ": من أحبنى فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب [" ۸] ، ولولا كرامة رسول الله ما حدثت به أبدا [۹] وعندما قام الناس

ليبايعوه، قال: أبايعكم على أن تسمعوا وتطيعوا وتسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت [" ۱۰] ، فاستجابوا وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة [۱۱] .

وروى أن الحسن رضى الله عنه كتب إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة والجماعة وقال له... ": ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان نبينا، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب [۱۲] ، فى ذلك مغمزا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده. فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله ولا ـ بفضل فى الدين معروف، ولا أثر فى الإسلام محمود. وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتاب الله والله حسيبك، فسترد فتعلم لمن عقبى الدار. وبالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد. إن عليا لما مضى لسبيله - رحمة الله عليه يوم قبض، ويوم من الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيا - ولانى المسلمون الأمر بعده فأسأل الله أن يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة، ولك فى ذلك إن فعلته الحظ الجسيم، والصلاح للمسلمين، فدع التمادى فى الباطل، وأدخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى، فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل

[صفحه ۱۷۰]

أواب حفيظ، ومن له قلب منيب. واتق الله ودع البغى، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك خيرا فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه فيه. وادخل فى السلم والطاعة، ولا ـ تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك ليطفئ الله النائرة [۱۳] بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين. وإن أنت أبيت إلا التمادى فى غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ." وأرسل الحسن هذه الرسالة مع حرب بن عبد الله الأزدى [۱۴] .

فكتب معاوية إليه ومما جاء فى رسالته... ذكرت وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وتنازع الأمر بعده، وتغلبهم على أبيك، فصرحت بتهمة

أبی بکر وعمر الفاروق، وأبی عبیدة الأمین حواری رسول الله صلی الله علیه وسلم، وصلحاء المهاجرین والأنصار. فکرهت ذلک لک. إنک امرؤ عندنا وعند الناس غیر الظنین، ولا المسیء، ولا اللئیم وأنا أحب لک القول السدید، والذکر الجمیل. إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبیها لم تجهل فضلکم ولا سابقتکم ولا قرابتکم من نبیکم، ولا مکانکم فی الإسلام وأهله. فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقریش لمکانها من نبیها، ورأی صلحاء الناس من قریش والأنصار وغیرهم من سائر الناس وعوامهم أن یولوا هذا الأمر من قریش أقدمها إسلاما، وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها علی أمر الله، فاختاروا أبا بکر، وکان ذلک رأی ذوی الدین والفضل والناظرین للأمة. فأوقع ذلک فی صدورکم لهم التهمة، ولم یکونوا متهمین، ولا فیما أتوا بالمخطئین ولو رأی المسلمون أن فیکم من یغنی غناءه ویقوم مقامه، ویذب عن حریم الإسلام ذبه، ما عدلوا بالأمر إلی غیره رغبة عنه، ولکنهم عملوا فی ذلک بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، والله یجزیهم عن الإسلام وأهله خیرا. وقد فهمت الذی دعوتنی إلیه من الصلح، والحال فیما بینی وبینک الیوم، مثل الحال التی کنتم علیها أنتم وأبو بکر بعد وفاة النبی

[صفحه ۱۷۱]

صلی الله علیه وسلم فلو علمت أنک أضبط منی للرعیة، وأحوط علی هذه الأمة. وأحسن سیاسة، وأقوی علی جمع الأموال، وأکید للعدو لأجبتک إلی ما دعوتنی إلیه، ورأیتک لذلک أهلا، ولکن قد علمت أنی أطول منک ولایة، وأقدم منک بهذه الأمة تجربة، وأکبر منک سنا، فأنت أحق أن تجیبنی إلی هذه المنزلة التی سألتنی، فادخل فی طاعتی، ولک الأمر من بعدی. "... قال جندب: فلما أتیت الحسن بکتاب معاویة قلت له: إن الرجل سائر إلیک، فابدأه بالمسیر حتی تقاتله فی أرضه وبلاده وعماله. فإما أن تقدر أنه ینقاد لک، فلا والله حتی یری منا أعظم من یوم صفین [۱۵] .

وفی رسالة معاویة نری أن القوم بعد الرسول صلی الله علیه وسلم عملوا فی الخلافة بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، ونری أن معاویة فی زمن الحسن یحسبها بالأقدمیة، فهو الأطول ولایة والأقوی علی جمیع الأموال. ولا ندری لماذا لم یضع عنوان الأطول إسلاما أمام عینیه وهو یقاتل علیا؟ ولماذا رفع عنوان الأقدمیة هنا بینما کان هناک یرفع قمیص عثمان؟ إن معاویة وإعلامه یبدلون أعلامهم وفقا لمتطلبات کل ساحة. ویدخرون لکل زمان خدعة.

[۱] رواه أبو یعلی وقال البوصیری رواته ثقات (کنز العمال ۱۵۹:۱۳).

[۲] رواه ابن ماجة وقال البوصیری صحیح ورجاله ثقات. ورواه الإمام أحمد والبزار (الفتح الربانی ۱۴۰۶:۳)، (الزوائد ۱۷۹:۹)، (سنن ابن ماجة ۱:۵۱) ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۶۶:۳).

[۳] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۵۶:۵).

[۴] رواه الترمذی وابن ماجة وأحمد والطبرانی والحاکم - وتم تخریجه من قبل.

[۵] هذا الحدیث عده السیوطی من المتواترات (تحفة الأحوذی ۲۷۲:۳) ورواه البخاری والضیاء (کنز العمال ۱۲۰:۱۲) والترمذی وأحمد والحاکم وابن حبان وأبو یعلی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۰۱:۹)، (الجامع الترمذی ۶۵۶:۵)، (کنز العمال ۱۱۲:۱۲).

[۶] سورة الشوری: الآیة ۲۳.

[۷] قال الهیثمی رواه الطبرانی فی الأوسط وفی الکبیر باختصار وأبو یعلی والبزار وأحمد وإسناد أحمد وبعض طرق البزار والطبرانی فی الکبیر حسان (الزوائد ۱۴۶:۹) ورواه الحاکم (المستدرک ۱۴۳:۳. ۱۷۲:۴)، ورواه الطبری فی تاریخ الأمم ۹۵:۶، وابن أبی الحدید ۶۹۶:۴.

[۸] رواه أحمد وابن أبی شیبة وابن مندة والحاکم (کنز العمال ۶۵۱:۱۳)، (المستدرک ۱۷۴:۳).

[۹] روایة أخری للحاکم بها هذه الزیادة (المستدرک ۱۷۴:۳).

[۱۰] الحاكم (المستدرك ۱۷۳:۳) الطبرى ۹۳:۶.

[۱۱] ابن أبى الحديد ۶۹۷:۴.

[۱۲] الأحزاب هم الذين تحزبوا وتظاهروا على قتال النبى صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وغطفان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم وبنى أسد فى غزوة الخندق.

[۱۳] للنائرة:العداوة والشحناء.

[۱۴] ابن أبى الحديد ۶۹۸:۴.

[۱۵] ابن أبى الحديد ۶۹۹:۴.

القتال بالذهب والفضة

عندما بعث معاوية إلى الحسن أن الخلافة له من بعده، كان الحسن ينظر

إلى هذا الوعد من نافذة أحاديث الإخبار بالغيب التى وضعها النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى دائرة ذهن أهل البيت. ولم يكن الحسن يعبأ كثيرا بما يقوله معاوية، نظرا لوزنه بمعيار هذه الأحاديث التى تخبر عن المستقبل. وروى أن الحسن كتب إلى معاوية: أما بعد فقد وصل إلى كتابك، تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغى منى عليك، وبالله أعوذ من ذلك فاتبع الحق تعلم أنى من أهله، وعلى إثم أن أقول

[صفحه ۱۷۲]

فأكذب ["... ۱] .

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية كتب إلى عماله... " إن الله بلطفه وحسن صنعه، أتاح لعلى بن أبى طالب رجلا من عباده، فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم. فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابى هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغى والعدوان"... [۲] فلما اجتمعت العساكر إلى معاوية سار بها قاصدا العراق. وبلغ الحسن خبره ومسيره نحوه. وأنه قد بلغ جسر منبج، فتحرك عند ذلك، وبعث حجر بن عدى، فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير. ونادى المنادى: الصلاة جامعة. فخرج الحسن رضى الله عنه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله كتب الجهاد على خلقه. وسماه كرها، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إن الله مع الصابرين. فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا. ونرى وتروا [۳] .

وكان فى كلامه يتخوف خذلان الناس له. وبعد أن تكلم لم يتكلم أحد من الناس ولا أجابه بحرف. فلما رأى ذلك عدى بن حاتم قام فقال: أنا ابن حاتم، سبحان الله، ما أقبح هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء مضر؟ أين المسلمون؟ أين الخواضون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق [۴] فى الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب؟ أما تخافون مقت الله

[صفحه ۱۷۳]

ولا عيبها وعارها؟ ثم استقبل الحسن بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنبك المكاره، ووفقك لما تحمد ورده وصدره، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت. وهذا وجهى إلى معسكرى، فمن أحب أن يوافينى فليواف [۵] .

وكان عدى بن حاتم أول الناس عسكر، وقام قيس بن سعد بن عبادة، وزياد بن صعصعة وغيرهما فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم. وخرج الناس فعسكروا، ونشطوا للخروج، وسار الحسن فى عسكره [۶] ، وفى الوقت الذى كان الحسن يخاف فيه من خذلان الناس له،

كان معاويـة يتحرك ببيت ماله المملوء بالـذهب والفضـة. ولقد روى عن النبى صـلى الله عليه وسـلم " أن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى فى المال [" ۷] ، وقال ": إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم [" ۸] وكان معاوية يريد أن يشق صف الحسن قبل القتال بسـكين الدينار والدرهم. وروى الحاكم أن عبد الله بن جعفر كان على مقدمة الحسن فى عشرة آلاف، فراسله معاوية وضمن له ألف ألف درهم. إذا سار إلى الحجاز وخرج من الساحـة، فأجابه إلى ذلك. وتفرق الجنـد الـذين كانوا مع عبـد الله بن جعفر، وانضـم البعض منهم إلى قـوات قيس بن سـعد [۹] الـذى كان يعتبر القوة الضاربـة فى جيش الحسن. وبعـد أن فتت معاويـة جانب من جوانب الحسن، بدأ يتفرغ لقوات قيس بن سـعد. روى الطبرى: حين نزل الحسن عليه السـلام المدائن بعث قيس بن سعد على مقدمته فى اثنى عشر ألفا، وأقبل معاوية فى أهل الشام حتى نزل مسكن. فبينما الحسن فى المدائن إذا نادى مناد فى العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد

[صفحه ۱۷۴]

قتل، فانفروا فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه السلام، حتى نازعوه بساطا كان تحته [۱۰] وتفرق الناس من حول الحسن بعد إذاعة بيان يقول أن قيسا قد قتل،

وهذا باطل، ولم يقف الأمر بعد إذاعة البيان عند سرقة متاع الحسن. وإنما حدث ما لم يكن فى الحسبان، فهناك من أشار بأسر الحسن وتقديمه إلى معاوية ليأخذوا من معاوية الأمان [۱۱] وهناك من تقدم من الحسن وطعنه بالمعول فشق

فخذه [۱۲] .

فهذا الهياج داخل المعسكر كان هدفه إحداث أكبر الخسائر فى القيادة بواسطة الغوغاء، فالحسن كان الهدف. وأهل الشام لهم خبرات فى دس العيون. ولقـد روى أن معاوية دس رجلا من حمير إلى الكوفة، ورجلا من بنى القين إلى البصـرة. وأمرهما أن يكتبا إليه أخبار الحسن [۱۳] وليس ببعيـد أن تكون هـذه الإذاعـة التى أدت إلى خروج الحسن جريحا من أرض المعركـة من صـنع هؤلاء. وروى ابن أبى الحديد: أن الحسن عليه السـلام حمل على سـرير ودخل إلى المدائن، وبها سـعيد بن مسـعود واليا عليها من قبله، فأقام عنده يعالج جرحه [۱۴] ، وعندما جن الليل أرسل معاوية إلى القادة والجنود يخبرهم بأن الحسن راسـله فى الصـلح وهو مسـلم الأمر إليه. وأغراهم بالمال، فانسل بعضـهم ليلا ودخلوا معسـكر معاوية [۱۵] ، ولم يتبق داخـل معسـكر الحسن سوى قوات قيس بن سـعد وبعض الصـحابة والتابعين الذين انفض عنهم الناس، بينما على الجانب الآخر تقف قوات الشام التى كسبت معركة ليس بما يملكون من رجال وإنما بما يملكون من ذهب وفضة. ولم يظهر بريق الذهب فجأة، وإنما كانت له أرضـية قديمة دق فيها أوتاده، وحول هذه الأوتاد لا تسمع صوتا ترتعش خوفا ويقول:

[صفحه ۱۷۵]

قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ": إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى فى المال، " فما بالك إذا كانت الأيدى التى تدفع المال هى نفسها فتنة حذر الرسول منها! لم يتبين الناس الفتنة التى تعطى فتنة، ولم يضـعوا فى اعتبارهم ماذا سـيترتب على ذلك. والأهم من ذلك أنهم أحبوا مـا نهوا عنه، وبغضوا وانفضوا عن مـا أمروا به. ألم يقـل النبى فى الحسن والحسـين " من أحبهما فقـد أحبنى ومن أبغضـهما فقد أبغضنى [" ۱۶] وروى أن الحسن عنـدما تماثل للشـفاء كان يحث الناس كى يتصـدوا لمعاويـة، ومن خطب الحسن رضـى الله عنه فى بعض مقامـاته أنه قال ": نحن حزب الله المفلحون وعترة رسول الله صـلى الله عليه وسـلم الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والثانى كتاب الله فيه تفصيل كل شئ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول عليه فى كل شـئ، لا يخطئنا تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضـة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونـة "... فـإن تنازعتم فى شـئ فردوه إلى الله والرسول "، " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر لعلمه الـذين يسـتنبطونه منهم" [۱۷] ، وأحـذركم الاصـغاء لهتاف الشـيطان، إنه لكم عدو مبين، فتكونون كأوليائه قال لهم "، لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلمـا تراءت الفئتـان نكص على عقبيه وقـال إنى برئ منكم إنى أرى مـا لاـ ترون [" ۱۸] ، [۱۹] ، وظل صوت الحسن يـدوى فى

أعماق السكون، فى عالم لا نبض فيه ولا ومض ولا صوت. وبدأ معاوية يتحسس الساحة من قريب ومن بعيد. وروى أنه بعث إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط فى هذه

[صفحه ۱۷۶]

الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت [۲۰] وعلى أن تكون الخلافة للحسن من بعده. وعندما وصلت الرسالة، قام الحسن خطيبا وقال: إن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة. فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبأ السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا، فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية وإمضاء الصلح [۲۱] .

وهنا قال الحسن رضى الله عنه كلمته المشهورة: يا أهل العراق إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث قتلكم أبى، وطعنكم إياى وانتهابكم متاعى [۲۲] فالذين

تخاذلوا عن الإمام على وقتلوه، لا بد لهم من عقاب فى بطن الغيب. فلما جاء الحسن آخذا بأسباب النجاة، لم يتركوه وإنما طعنوه وسرقوا متاعه، فأى جنود هؤلاء الذين احترفوا ظلم أئمتهم؟ ثم إذا كانوا قد سرقوا متاعا بدراهم معدودة، فكيف يكون الحال إذا وضع الذهب فى طريقهم وأذن لهم أن يأخذوه نظير خدمة ما يقدمونها إلى جهاز ما. وبدأ الحسن يتركهم وما يريدون، فلقد اشترط عليهم عند البيعة أن يسمعوا، وأن يطيعوا وأن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. ولكنهم لم يسمعوا ولم يطيعوا وسالموا من حارب من قبل أن تبدأ الحرب، وروى أن الحسن رضى الله عنه كتب شروطا كثيرة على الصحيفة البيضاء المختوم على أسفلها، وهذه الشروط حجة بذاتها على أصحاب المقاعد الأولى، حتى لا يكون لهم على الله حجة. وبعث الحسن إلى معاوية يطلب الصلح، وكتب إلى قيس بن سعد وكان على مقدمته فى اثنى عشر ألفا، يأمره بالدخول فى طاعة معاوية، فقام قيس فى الناس فقال: يا أيها الناس اختاروا الدخول فى طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام. قالوا: لا بل نختار أن ندخل فى طاعة إمام ضلالة، فبايعوا لمعاوية، وانصرف عنهم قيس بن

[صفحه ۱۷۷]

سعد [۲۳] وروى: لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة، فقال: إنى حلفت ألا ألقاه إلا وبينى وبينه الرمح أو السيف، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبر يمينه، وقال له: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم. ووضع يده على فخذه ولم يمدها إلى معاوية، فجاء معاوية من سريره، وأكب على قيس حتى مسح يده على يده وما رفع إليه قيس يده [۲۴] ، ثم أمر معاوية الحسن أن يخطب. فقام فخطب فقال فى خطبته: إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور، ذاك رجل ملك ملكا تمتع به قليلا ثم تتخمه، تنقطع لذته، وتبقى تبعته (وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) [۲۵] [۲۶] .

[۱] ابن أبى الحديد ۴:۷۰۱.

[۲] ابن أبى الحديد ۴:۷۰۱.

[۳] المصدر السابق ۴:۷۰۱.

[۴] المصدر السابق ۴:۷۰۲.

[۵] المصدر السابق ۴:۷۰۲.

[۶] رواه الترمذى وصححه (الجامع ۴:۵۶۹).

[۷] رواه أبو داوود (كنز العمال ۴:۱۹۱).

[۸] الحاكم (المستدرك ۳:۶۷۴).

[۹] الطبرى ۶:۹۲، ابن أبى الحديد ۴:۷۰۲.

[۱۰] الطبرى ۶:۹۲.

[۱۱] الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۷۲:۹).

[۱۲] ابن أبی الحدید ۶۹۷:۴.

[۱۳] المصدر السابق ۷۰۳:۴.

[۱۴] المصدر السابق ۷۰۴:۴.

[۱۵] تم تخریجه من قبل.

[۱۶] تم تخریجه من قبل.

[۱۷] سورة النساء: الآیة ۵۹ – ۸۳.

[۱۸] سورة الأنفال: الآیة ۴۸.

[۱۹] مروج الذهب ۴۸۰:۲.

[۲۰] الطبری ۹۳:۶.

[۲۱] الانحرافات الکبری:للمؤلف ص ۴۷۸.

[۲۲] الطبری ۹۲:۶.

[۲۳] الطبری ۹۲:۶.

[۲۴] ابن أبی الحدید ۷۰۷:۴.

[۲۵] سورة الأنبیاء: الآیة ۱۱۱.

[۲۶] ابن أبی الحدید ۷۰۷:۴.

الغدر

قبل دخول معاویة الکوفة ظهر الغدر... روی أنه نزل النخیلة، وجمع

الناس بها فخطبهم وقال: ألا إن کل شئ أعطیته الحسن بن علی تحت قدمی هاتین لا أفی به. قال أبو إسحاق: وکان والله غادرا [۱] فمعاویة لم یدخل الکوفة عنوة، ولم یملک ما حولها قسرة، ولکن دخل بعهود ومواثیق. وما کان لمعاویة أن یلغی ما عاهد علیه إلا بعد أن تأکد أن المبایعة أصبحت فی عنق کثیر من العامة. وبعد أن تأکد أن الموقف العسکری فی صالحه. وفوق کل هذا فهو ألغی شروط الحسن لا- شروط العامة، وکان یعلم أن الحسن لو وقف أمام الناس یدعوهم للقتال من أجل أن یوفی معاویة بالشروط، فإن العامة ستفترق عن الحسن مع أول کیس من الذهب یلقیه معاویة علی رؤوسهم. وروی أن الحسن عندما التقی بمعاویة وسأله أن یعطیه الشروط التی شرط فی السجل الذی ختم

[صفحه ۱۷۸]

معاویة أسفله، لم یعط معاویة أی اهتمام لما تعاهد علیه وأبی أن ینفذ للحسن من الشروط شیئا [۲] .

ولم تکن هذه المفاجأة الوحیدة قبل دخول الکوفة، فلقد روی عن سعید بن سوید. قال: صلی بنا معاویة بالنخیلة الجمعة ثم خطبنا فقال: والله إنی ما قاتلتکم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزکوا، إنکم لتفعلون ذلک. وإنما قاتلتکم لأتأمر علیکم. وقد أعطانی الله ذلک وأنتم کارهون [۳] .

وکان عبد الرحمن بن شریک إذا حدث بذلک یقول: هذا والله هو التهتک [۴] ثم سار موکب معاویة ولم یعترض معترض علی أی بیان أذاعه،

وتوجه نحو الکوفة. وعن حبیب بن أبی ثابت قال: خطب معاویة بالکوفة حین دخلها، فذکر علیا علیه السلام فنال منه ومن الحسن. فقام

الحسن وقال: أيها الذاكر عليا، أنا الحسن وأبى على، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمى فاطمة وأمك هند، وجدى رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتى خديجة، وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرا، وألأمنا حسبا، وشرنا قديما وحديثا، وأقدمنا كفرا ونفاقا. فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين [۵] قال الفضل: قال يحيى بن

معين: وأنا أقول: آمين. وقال أبو الفرج: قال أبو عبيد: قال الفضل: وأنا أقول ": آمين " ويقول على بن الحسين الأصفهانى: آمين. وقال عبد الحميد بن أبى الحديد: آمين. قلت: ويقول سعيد أيوب مصنف هذا الكتاب: آمين. وقال ابن عبد ربه: قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من على بن أبى طالب [۶] فأين الشروط؟ أين الوفاء بالوعد؟ أين الأمانة؟ وهل كل من

[صفحه ۱۷۹]

خاصم فجر؟ وتوجد رواية فى البخارى يستشف منها أصحاب العقول والأفهام أفول معاوية فى الكوفة، فعن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن عمرو حين قدم معاوية إلى الكوفة، فذكر عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لم يكن فاحشا ولا متفحشا. وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ": إن من أخيركم أحسنكم خلقا، " ترى، ما الذى دعى عبد الله أن يقول ذلك؟ وهل لهذا القول علاقة بالإعلام الأموى وقتئذ؟ وروى أن الحسن رضى الله عنه خرج إلى مسجد الكوفة فقال: يا أهل الكوفة اتقوا الله فى جيرانكم وضيفانكم، وفى أهل البيت نبيكم صلى الله عليه وسلم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا [۷] .

وروى المدائنى أن أصحاب الحسن اجتمعوا عنده، فقال المسيب بن نجية للحسن رضى الله عنه: ما ينقضى عجبى منك أعطاك معاوية أمرا فيما بينك وبينه، ثم قال: ما قد سمعت، والله ما أراد بها غيرك. قال الحسن: فما ترى؟ قال: أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه، فقد نقض ما كان بينه وبينك. فقال: يا مسيب. إنى لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب منى، ولكنى أردت صلاحكم... فارضوا بقدر الله وقضائه، حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر [۸] .

وروى أن حجر بن عدى قال للحسن: لوددت أنك كنت من قبل هذا اليوم، ولم يكن ما كان. إنا رجعنا راغمين بما كرهنا، ورجعوا مسرورين بما أحبوا. فقال الحسن: يا حجر، ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك وما فعلت ما فعلت إلا إبقاء عليك، والله كل يوم فى شأن [۹] ، وروى أن سفيان بن أبى ليلى النهدى دخل عليه فقال: السلام عيك يا مذل المؤمنين. قال الحسن: اجلس يرحمك الله. إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفع له ملك

[صفحه ۱۸۰]

بنى أمية، فنظر إليه يعلون منبره واحدا فواحدا فشق ذلك عليه [۱۰] فأنزل الله فى

ذلك قرآنا قال له: (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن) [۱۱] ، وسمعت عليا أبى رحمه الله يقول سيلى أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم كبير البطن [۱۲] فسألته: من هو؟ فقال: معاوية، وقال لى:

إن القرآن قد نطق بملك بنى أمية ومدتهم. قال تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر) [۱۳] قال أبى: هذه ملك بنى أمية [۱۴] .

لقد أخذ الحسن رضى الله عنه بالأسباب، وليس معنى أن القرآن قد أخبر بأن أبا لهب لن يؤمن أن الدعوة لا تشمل أبا لهب، فكل حرف يسمعه وكل آية فى نفسه وفى الكون حجة عليه. وكذلك أهل الشام ليس معنى أنهم سيجلسون على المقاعد الأولى فى الدنيا، أن الدعوة لا تتوجه إليهم لتخبرهم بأحوال الدنيا وأخبار الآخرة. ولله فى عباده شؤون. وخرج الحسن رضى الله عنه من الكوفة فلما صار بدير هند نظر إلى الكوفة وقال:

ولا عن قلى فارقت دار معاشرى++

هم المانعون خوزتى وذمارى

ثم سار إلى المدينة [۱۵] بعد أن أنقذ الكوفة من مجزرة كانت ستؤكل فيها كثير من الأكباد، وروى أنه قال فى أهل العراق ": إنهم قوم لا يرجعون إلى الحق، ولا يقصرون عن باطل، أما إنى لست أخشاهم على نفسى، ولكن أخشاهم على ذاك - وأشار إلى الحسين

[۱۶].

[صفحه ۱۸۱]

[۱] المصدر السابق ۴:۷۰۶.

[۲] الطبری ۶:۹۵.

[۳] ابن أبی الحدید ۴:۷۰۶، البدایهٔ والنهایهٔ ۵:۹۰.

[۴] ابن أبی الحدید ۴:۷۰۶.

[۵] ابن أبی الحدید ۴:۷۰۶.

[۶] العقد الفرید ۱:۷۰.

[۷] الطبری ۶:۹۵.

[۸] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۶.

[۹] الحدیث روی بسند صحیح، رواه الحاکم والترمذی والبیهقی وقد خرجناه فیما سبق.

[۱۰] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۶.

[۱۱] سورهٔ الإسراء: الآیهٔ ۶۰.

[۱۲] الحدیث رواه غیر واحد منهم نعیم بن حماد عن الحسن (کنز العمال ۱۱:۳۴۹). والدیلمی (الخصائص الکبری ۲:۱۹۹).

[۱۳] الحدیث روی بسند صحیح کل من الحاکم والترمذی والبیهقی وابن جریر وغیرهم. وقد خرجناه فیما مضی.

[۱۴] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۶.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۷.

[۱۶] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۶:۲۴۴).

وفاء و حقائق علی الطریق

کان معاویهٔ فی الکوفهٔ، وعلی امتداد الطریق من الکوفهٔ إلی المدینهٔ یبعث
إلی کل من یعرفه ویسألهم عن علی بن أبی طالب. وکان یرید من وراء ذلک الوقوف علی أسباب حب الناس لعلی لیقوم بعد ذلک بوضع منهج ثقافی یتصدی لعلی بعد وفاته. ومن الذین التقی بهم معاویهٔ خالد بن المعمر. قال معاویهٔ له: کیف حبک لعلی؟ قال: أحبه لثلاث خصال: علی حلمه إذا غضب، وعلی صدقه إذا قال، وعلی وفائه إذا وعد [۱] وروی أنه بعث إلی امرأهٔ یقال لها دارمیهٔ الحجونیهٔ وقال لها: أتدری لم بعثت إلیک؟ قالت: لا یعلم الغیب إلا الله، قال: بعثت إلیک لأسألک علام أحببت علیا وأبغضتنی ووالیته وعادیتنی؟ قالت: أو تعفینی، قال: لا أعفیک. قالت: أما إذا أبیت، فإنی أحببت علیا علی عدله فی الرعیهٔ، وقسمه بالسویهٔ، وأبغضتک علی قتالک من هو أولی منک بالأمر، وطلبتک ما لیس لک بحق. ووالیت علیا علی ما عقد له رسول الله صلی الله علیه وسلم تشیر إلی قوله: من کنت مولاه... - وحبه المساکین وحکمک بالهوی. فقال لها: یا هذه، هل رأیت علیا؟ قالت: أی والله. فقال: فکیف رأیته قالت: رأیته والله لم یفتنه الملک الذی فتنک. ولم تشغله النعمهٔ التی شغلتک، فقال: فهل سمعت کلامه؟ قالت: نعم والله، فکان یجلو القلب من العمی کما یجلو الزیت صدأ الطست [۲].

وروی أنه بعث إلی امرأهٔ تدعی الزرقاء بنت عدی. فعندما دخلت علیه قال: مرحبا وأهلا. کیف کنت فی مسیرک؟ أتدرین فیم بعثت إلیک؟ قالت: إنی لی بعلم ما لم أعلم! قال: ألست الراکبهٔ الجمل والواقفهٔ بین الصفین یوم صفین تحضین علی القتال، وتوقدین الحرب، فما حملک علی ذلک؟ فقالت: یا معاویهٔ مات الرأس، وبتر الذنب، ولم یعد ما ذهب، ومن تفکر أبصر، والأمر یحدث

[صفحه ۱۸۲]

بعده الأمر. قال: صدقت. أتحفظين كلامك يوم صفين؟ فقالت: لا. قال: لكنى أحفظه. لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيا لها من فتنة عمياء صماء بكماء، لا تسمع لناعقها ولا تنساق لقائدها. إن المصباح لا يضئ فى الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغضض. فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، دفع الحق باطله، فلا تجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأنى ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير فى الأمور عواقبا... ثم قال معاوية: والله يا زرقاء لقد شركت عليا فى كل دم سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك،، فمثلك بشر بخير وسر جليسه. قال أو يسرك ذلك؟ فقالت: نعم والله. لقد سررت بالخبر فأنى لى بتصديق الفعل. قال معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته [۳] .

وروى أنه أمر بأن تحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة. وعندما حضرت قال معاوية: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل: أنا أحفظ بعض كلامها. كانت تقول: أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم. إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم فى عمياء مبهمة، ولا- سوداء - مدلهمة. فأين تريدون رحمكم الله. أفرارا عن أمير المؤمنين. أم فرارا من الزحف. أم رغبة عن الإسلام. أم ارتدادا عن الحق. أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم). ثم رفعت رأسها إلى السماء يومئذ وقالت: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، وأردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضى التقى، والصديق الأكبر،

[صفحه ۱۸۳]

إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية. وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بنى عبد شمس. ثم قالت يومئذ قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم. فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص. إنه من ضل والله عن الحق وقع فى الباطل. ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان. فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله صلى عليه وسلم، وصهره وأبى سبطيه، خلق من طينته وتفرع من نبعته [۴] ، وخصه بسره [۵] ، وجعله باب مدينته [۶] ، وأبان ببغضه المنافقين [۷] وها هو ذا مغلق السهام، ومكسر الأصنام [۸] ، صلى

والناس مشركون [۹] - وأطاع والناس كارهون،، وقتل مبارزى بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر [۱۰] ، مفرق به جمع هوزان، فيا لها

[صفحه ۱۸۴]

من وقائع زرعت فى قلوب نفاقا وردة وشقاقا - وزادت المؤمنين إيمانا. فقال معاوية: يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك. قالت: والله ما يسوءنى فى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه [۱۱] .

وروى أن عكرشة بنت الأطرش بن رواحة دخلت على معاوية متوكئة على عكازها، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست. فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين. قالت: نعم إذ لا على حى، فقال: ألست المتقلدة حمائل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصفين تقولين: أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا

یموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا یدوم نعیمها، ولا تنصرم همومها، وکونوا قوما مستبصرین فی دینهم، مستظهرین بالصبر علی طلب حقهم. إن معاویة دلف إلیکم العرب غلف القلوب. لا یفقهون الإیمان ولا یدرون ما الحکمة. دعاهم بالدنیا فأجابوه واستدعاهم إلی الباطل فلبوه. ثم قال: فکأنی أراک علی عصاک هذه، وقد انکفأ علیک العسکران یقولون: هذه عکرشة بنت الأطرش، فإن کدت لتقتلین أهل الشام لولا قدر الله، وکان أمر الله قدرا مقدورا، فما حملک علی ذلک؟ قالت: یا أمیر المؤمنین قال تعالی ": یا أیها الذین آمنوا لا- تسألوا عن أشیاء إن تبد لکم تسؤکم)، وإن اللبیب إذا کره أمرا لا- یحب إعادته. قال: صدقت فاذکری حاجتک. قالت: إنه کانت صدقاتنا تؤخذ من أغنیائنا فترد علی فقرائنا، وإنا فقدنا ذلک، فقال معاویة: هیهات یا أهل العراق نبهکم علی بن أبی طالب فلن تطاقوا [۱۲].

لم یکن سهلا علی معاویة أن یتلقی صفعات الحقائق من النساء المسلمات، ولکن معاویة عندما یستمع فإنما یستمع لهدف. ولقد اختار من النساء التی تشتهر بین قومها بالبلاغة، واختار أن یسمع من النساء، لأن الکلمات

[صفحه ۱۸۵]

ستخرج بلا- خوف من سیوف وقیود. وبعد أن استمع، تحرک رکبه إلی المدینة. وروی أنه لما قدم المدینة، تلقته رجال من وجوه قریش فقالوا: الحمد لله الذی أعز نصرک، وأعلا أمرک، فما رد علیهم جوابا حتی دخل المدینة. فقصد المسجد ثم قال: أما بعد فإنی والله ما ولیت أمرکم حین ولیته وأنا أعلم أنکم لا تسرون بولایتی ولا تحبونها، وإنی لعالم بما فی نفوسکم من ذلک، ولکنی خالستکم بسیفی هذا مخالسة، ولقد رمت نفسی علی عمل ابن أبی قحافة، فلم أجدها تقوم بذلک ولا- تقدر علیه. وأردتها علی عمل ابن الخطاب، فکانت أشد نفورا وأعظم هربا من ذلک. وحاولتها علی مثل سنیات عثمان فأبت علی. وأین مثل هؤلاء؟ ومن یقدر علی أعمالهم؟ هیهات أن یدرک فضلهم أحد ممن بعدهم. غیر أنی سلکت بها طریقا لی فیه منفعة، ولکم فیه مثل ذلک، ولکن فیه مواکلة حسنة، ما استقامت السیرة وحسنت الطاعة. فإن لم تجدونی خیرکم فأنا خیر لکم. والله لا أحمل السیف علی من لا سیف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنی، وإن لم تجدونی أقوم بحقکم کله فارضوا منی ببعضه... وإیاکم والفتنة فلا تهموا بها... [۱۳].

وأهم معالم الخطاب أن لکل خلیفة طریقة، وبما أن معاویة لا یدرک فضل الذین سبقوه رضوان الله علیهم، فإنه ستکون له سنة خاصة به فیها منفعة له ولهم. وفی جمیع الأحوال فهو قد وضع نفسه فی دائرة الخیر " فإن لم تجدونی خیرکم فأنا خیر لکم، " وفی جمیع الأحوال فهو فی دائرة الحق " وإن لم تجدونی أقوم بحقکم کله فارضوا منی ببعضه، " وفی جمیع الأحوال فإن هذا هو الدین الذین نزل به جبریل الأمین علی قلب محمد صلی الله علیه وسلم. وروی أن معاویة لقی أبا قتادة الأنصاری فی المدینة فقال له: تلقانی الناس کلهم غیرکم یا معشر الأنصار. فقال: لم یکن لنا دواب. قال: فأین النواضح؟ فقال: عقرناها فی طلبک وطلب أبیک یوم بدر. ثم قال: إن النبی صلی الله علیه

[صفحه ۱۸۶]

وآله وسلم قال لنا: إنکم سترون بعدی آثرة. فقال معاویة: فما أمرکم؟ قال: أمرنا أن نصبر. فقال معاویة: فاصبروا وعندما بلغ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ذلک قال:

ألا أبلغ معاویة بن حرب++

أمیر المؤمنین نبأ کلامی

فإنا صابرون ومنظروکم++

إلی یوم التغابن والخصام [۱۴].

وروی أنا أبا أیوب الأنصاری قال لمعاویة: أنبأنی رسول الله صلی الله علیه وسلم أنا سنری بعده أثرة. فقال معاویة: فیم أمرکم. قال:

أمرنا أن نصبر. فقال: اصبروا إذا [۱۵] ، وروی أن مروان أقبل فوجد أبا أیوب الأنصاری عند قبر النبی صلی الله علیه وسلم واضعا وجهه علی القبر ویبکی، فقال له مروان: أتدری ما تصنع، قال: سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: لا تبکوا علی الدین إذا ولیه أهله، ولکن ابکوا علی الدین إذا ولیه غیر أهله [۱۶] .

وروی أن أروی بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت علی معاویة، وهی عجوز کبیرة، فقالت: یا ابن أخی، لقد کفرت ید النعمة، وأسأت لابن عمک الصحبة، وتسمیت بغیر اسمک، وأخذت غیر حقک من غیر بلاء کان منک، ولا من آبائک ولا سابقة فی الإسلام، بعد أن کفرتم برسول الله صلی الله علیه وسلم. فأتعس الله منکم الجدود، وأضرع منکم الخدود، ورد الحق إلی أهله ولو کره المشرکون. وکانت کلمتنا هی العلیا ونبینا صلی الله علیه وسلم هو المنصور، فولیتم علینا بعده تحتجون بقرابتکم من رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم. ونحن أقرب إلیه منکم، وأولی بهذا الأمر، فکنا فیکم بمنزلة بنی إسرائیل فی آل فرعون. وکان علی بن أبی طالب رحمه الله بعد نبینا صلی الله علیه

[صفحه ۱۸۷]

وسلم بمنزلة هارون من موسی، فغایتنا الجنة، وغایتکم النار، فقال لها عمرو بن العاص: کفی أیتها العجوز الضالة، واقصری من قولک مع ذهاب عقلک. إذ لا تجوز شهادتک وحدک. فقالت له: وأنت یا ابن النابغة تتکلم، وأمک کانت أشهر امرأة تغنی بمکة وآخذهن الأجرة. ادعاک خمسة نفس من قریش، فسألت أمک عنهم فقالت: کلهم أتی فانظروا أشبههم به فالحقوه به، فغلب علیک شبه العاص بن وائل فلحقت به. فقال مروان: کفی أیتها العجوز واقصدی لما جئت له. فقالت: وأنت أیضا یا ابن الزرقاء تتکلم. ثم التفتت إلی معاویة فقالت: والله ما جرأ علی هؤلاء غیرک. فإن أمک القائلة فی قتل حمزة:

نحن جزیناکم بیوم بدر++

والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما کان لی عن عتبة من صبر++

وشکر وحشی علی دهری

حتی ترم أعظمی فی قبری فأجابتها بنت عمی وهی تقول:

خزیت فی بدر وبعد بدر++

یا بنة جبار عظیم الکفر

فقال معاویة: عفا الله عما سلف، هات حاجتک. قالت: ما لی إلیک حاجة وخرجت عنه [۱۷] ، وروی أن سعنة بن عریص قال لمعاویة: أنشدتک الله یا معاویة أما تذکر یا معاویة لما کنا جلوسا عند رسول الله صلی الله علیه وسلم فجاء علی بن أبی طالب، فاستقبله النبی صلی الله علیه وسلم وقال: قاتل الله من یقاتلک وعادی من یعادیک، فقطع علیه معاویة حدیثه وأخذ معه فی حدیث آخر [۱۸] .

ما زلنا نری الأحداث ومعاویة فی المدینة، ولم یبق أمامنا إلا أن نرصده عند بیت عثمان الذی کان قمیصه لافتة کبری عند بدایة الأحداث. روی أن واثلة صحابی رسول الله صلی الله علیه وسلم دخل علی معاویة. فقال له معاویة:

[صفحه ۱۸۸]

ألست من قتلة عثمان؟ قال: لا ولکنی ممن حضره فلم ینصره. فقال: وما منعک من نصره؟ قال: لم تنصره المهاجرون والأنصار. فقال معاویة: أما لقد کان حقه واجب علیهم أن ینصروه. قال: فما منعک یا أمیر المؤمنین من نصره ومعک أهل الشام؟ فقال: أما طلبی بدمه نصرة له؟ فضحک أبو الطفیل ثم قال: أنت وعثمان کما قال الشاعر:

لا ألفینک بعد الموت تندبنی++

وفی حیاتی ما زودتنی زادا [۱۹] .

وروى أن معاويـة عنـدما دنـا إلى باب دار عثمان بن عفان صاحت عائشـة بنت عثمان ونـدبت أباها. فقال لها معاويـة: يا بنت أخى، إن الناس أعطونا سـلطاننا، فأظهرنا لهم حلما تحته غضب. وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا، شـحوا علينا بحقنا وغمطناهم بحقهم. ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعته. فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا نـدرى أتكون لنا الـدائرة أم علينا. وأن تكونى ابنـة عثمان أمير المؤمنين. أحب إلى أن تكونى أمة من إماء المسـلمين. ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك [۲۰] .

وهكـذا انـدثرت لافتـة " قميص عثمان " بعـد أن حققت أهـدافها، وأصـبح معاويـة نعم الخلف لأبناء عثمان بعـد أبيهم. وعلى امتـداد الطريق من الكوفـة إلى المدينـة، وضع معاوية يده على حقائق منها أن حب على بن أبى طالب فى القلوب، وأن تعاليمه راسـخة رسوخ الجبـال، ولن يكون من السـهل انفراد الحكـام ببيوت المـال، وأن حقه واضـح ومنزلته من الرسول لا تحتاج إلى بيان طويل. وفوق كل هذا علم معاوية أن تاريخه الأموى تاريخ مكشوف أمام المهاجرين والأنصار، وأن كل ما ادعاه فى حربه مع على أصـبح مفضوحا على ساحـة المدينة وما حولها. وأما هذا وغيره، أقدم معاوية على سياسة يتم من خلالها التعتيم على دائرة الطهر، وفى الوقت نفسه تصـنع له تاريخ.

[صفحه ۱۸۹]

[۱] العقد الفريد ۲:۲۸۲.

[۲] العقد الفريد ۲:۱۱۵.

[۳] العقد الفريد ۲:۱۰۸.

[۴] تقصد قول النبى ": إن الله تعالى جعل ذريتى فى صلب على، " رواه الطبرانى عن جابر وابن عباس (كنز ۱۱:۶۰۰).

[۵] تقصد حديث النجوى وغيره فى حديث النجوى حديث صحيح رواه الترمذى (الجامع ۵:۶۳۹).

[۶] تقصد حديث " أنا مدينة العلم وعلى بابها " وهو حديث صحيح وله طرق ضعيفة. وركز القوم على طرقه الضعيفة.

[۷] تقصد حديث " لا يبغضه إلا منافق " ورواه مسلم وغيره.

[۸] تقصد حديث تكسيره الأصنام مع رسول الله. ورواه البخارى.

[۹] تقصـد حـديث " أنا أول من أسـلم " رواه الترمـذى وصـححه (الجامع ۵:۶۴۲) وحـديث " أنـا أول من صـلى " رواه الإمام أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۰۳).

[۱۰] تقصـد حديث " لأدفعن الراية غدا إلى رجل يحبه الله ورسوله " والحديث رواه البخارى وأحمد (البخارى ۲:۱۶۶) الفتح الربانى ۲۳:۱۲۲.

[۱۱] العقد الفريد ۲:۱۱۹.

[۱۲] العقد الفريد ۲:۱۱۲.

[۱۳] البداية والنهاية ۸:۱۳۲.

[۱۴] تاريخ الخلفاء ۱:۱۸۸.

[۱۵] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح (الزوائد ۹:۳۲۳).

[۱۶] رواه الطبرانى وقال الهيثمى فيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغيره (الزوائد ۵:۲۴۵) ورواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۴:۵۱۵) ورواه أحمد (الفتح الربانى ۲۳:۳۲).

[۱۷] العقد الفريد ۲:۱۲۱.

[۱۸] قال فى الإصابة رواه ابن شيبة (الإصابة ۳:۹۴).

[۱۹] تاریخ الخلفاء ۱۸۷:۱.

[۲۰] البدایه والنهایه ۱۳۳:۸.

نظرات فی مقعد جدید

من الشام بدأ معاویه فی إدارهٔ شؤون الخلافهٔ وروی أنه قال علی منبر

دمشق ": أیها الناس اعقلوا قولی. فلن تجدوا أعلم بأمور الدنیا والآخرهٔ منی ["... ۱] وکان قد أعلن فی المدینهٔ من قبل ": فإن لم تجدونی خیرکم فأنا

خیر لکم. " فمعاویه وضع نفسه فی دائرهٔ العلم ودائرهٔ الخیر، ولکن الباحث یجد أن الحقیقهٔ تخالف ذلک. أولا: لأن الأمهٔ علی أعتاب توجیه ضربهٔ إلهیه بما قدمت یداها وهذا ثابت فی أحادیث صحیحهٔ، کما أن فتح أبواب کل شئ علی الذین نسوا ما ذکروا به سنهٔ کونیهٔ وحقیقهٔ قرآنیهٔ. وقد تکون دوائر العلم والخیر الخاصهٔ بمعاویهٔ فی ظاهرها علم وخیر، ولکن الحقیقهٔ التی لا جدال فیها أن فی باطنها فتنهٔ لیس فیها علم یری. وثانیا: أن بنی أمیهٔ بالذات علی أیدیهم یأتی ما ذکرناه فی أولا. فمعاویهٔ وإن کان یعمل لصالح نفسه أو أسرته هو فی الحقیقهٔ صورهٔ من صور العذاب، کما أن الحجاج بن یوسف صورهٔ من صوره. وقتال الإمام علی لمعاویهٔ کان فی الحقیقهٔ أخذا بالأسباب لصد هذه الصورهٔ التی تحمل معالم العذاب، والتی هی نتیجهٔ طبیعیهٔ لأعمال الناس. وصد الإمام لهذه الصورهٔ لا یکون إلا بدفع الناس إلی الصراط المستقیم، لأن أعمالهم علی الصراط المستقیم ستفتح علیهم برکات من السماء، بینما أعمالهم علی أی خط آخر ستأتی بصور العذاب حیث تفتح علیهم أبواب کل شئ عدا البرکهٔ. فالدعوهٔ تعمل من أجل فتح أبواب وغلق أبواب، کی تصل القافلهٔ البشریهٔ سالمهٔ غانمهٔ إلی کمالها وأهدافها العلیا. فإذا وجدنا معاویهٔ یخطب علی المنابر، فیجب أن نضع نصب أعیننا أن النبی صلی الله علیه وسلم ساءه ذلک عندما أراه الله بنی أمیهٔ ینزون علی منبره نزو القردهٔ. وإذا قال معاویهٔ علی منبر دمشق ": لن تجدوا أعلم منی بأمور الدنیا والآخرهٔ " فیجب أن نعلم أن معاویهٔ باغی، وأن الناس تخاذلوا ولم یردوه عن

[صفحه ۱۹۰]

بغیه، لهذا عبر إلی المنبر، وأن للباغی عقوبهٔ عند الله، ومن رکب قطاره أصابته العقوبهٔ. أخرج ابن مردویه عن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال: ثلاث قد فرغ الله من القضاء فیهن. لا یبغین أحدکم. فإن الله تعالی یقول: (یا أیها الناس إنما بغیکم علی أنفسکم)، ولا یمکرن أحد، فإن الله تعالی یقول: (ولا یحیق المکر السئ إلا بأهله، " ولا ینکث أحد. فإن الله تعالی یقول: (من نکث فإنما ینکث علی نفسه) [۲] .

إنها محطات ثلاث، من رکب فی قطار واحدهٔ منهن فلا یلومن إلا نفسه قال النبی صلی الله علیه وسلم ": تعرض الفتن علی القلوب، فأی قلب أنکرها نکتت فی قلبه نکتهٔ بیضاء، وأی قلب لم ینکرها نکتت فی قلبه نکتهٔ سوداء. حتی یصیر القلب أبیض مثل الصفا لا تضره فتنهٔ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربدا کالکوز مجخیا لا یعرف معروفا ولا ینکر منکرا إلا ما أشرب من هواه" [۳] ، أو قال ": إذا عملت الخطیئهٔ فی الأرض کان من شهدها فکرهها کمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضیها کان کمن شهدها" [۴] .

إنها محطات ثلاث، ولا تخفی واحدهٔ علی أحد، أخرج ابن جریر عن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال: ما هلک قوم حتی یعذروا من أنفسهم. قیل: کیف؟ فقرأ قوله تعالی: (فما کان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا کنا ظالمین) [۵] ، یعنی أنهم لا یهلکون حتی تکثر ذنوبهم فیستوجبون العقوبهٔ، ویکون لمن یعذبهم عذر [۶] .

إن معاویهٔ نزل بالخلافهٔ إلی أرض الشام، بل وحاول أن ینقل منبر رسول الله صلی الله علیه وسلم إلی هناک. وإذا کان قد أعلن من هناک، أنه

[صفحه ۱۹۱]

أعلم الناس بأمور الدنيا والآخرة، فإن الباحث يرد عليه قوله، ويقول: إن هذا القول يعارض الحقيقة التى أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: يا ابن حولة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام ["... ۷]

.

وقال الأمين الصادق صلى الله عليه وسلم ": لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا- يظهر النفاق، وترفع الأمانة وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين، ويؤتمن الخائن [" ۸] .

[۱] البداية والنهاية ۱۳۲:۸.

[۲] الدر المنثور ۳۰۳:۳.

[۳] رواه أحمد والحاكم وصححه (كنز العمال ۱۱۹:۱۱)، (المستدرك ۴۶۸:۴).

[۴] رواه أبو داوود حديث ۴۳۴۵.

[۵] عون المعبود ۵۰۲:۱۱.

[۶] عون المعبود ۵۰۲:۱۱.

[۷] رواه الإمام أحمد وأبو داوود والحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى " الفتح الربانى ۲۹:۲۴. "

[۸] عند البخارى ضياع الأمانة. إذا أسند الأمر إلى غير أهله (الصحيح ۱۲۸:۴) ك الدعوات، ب رفع الأمانة.

اتهام الأمين

كان التعتيم على مناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب شيئا طبيعيا على

امتداد القرن الأول بصفة خاصة. فعمر بن الخطاب عندما خاف على الإسلام أمر بعدم الرواية، وهدد العديد من الصحابة الذين كانوا يروون الحديث. ولقد سجل البخارى منع عمر للرواية وعدم الأخذ بها من حديث أبى موسى عندما استأذن [۱] ولقد تحدثنا عن ذلك فى موضعه، وذكرنا أنه قد ترتب على ذلك

خفوت أصوات وظهور أصوات أخرى. وعندما جاء عهد على بن أبى طالب، كان القص قد غذى الساحة بعد أن خلت من الرواية. لهذا واجه الإمام صعوبات كثيرة ليبين للناس من هو، وشقت الرواية طريقها فى الصخور، وعلم الناس بعض مناقب الإمام. ولم يكن كل من علم راسخ العقيدة، وذلك لأن الإمام لم يسهر على تربيتهم، فالغالب الأعم منهم كان قريبا من ثقافة الوليد بن عقبة وأبو

[صفحه ۱۹۲]

زبيد الشاعر. وعندما رأى معالم العدل تحت راية الإمام ابتعد عن ثقافة الوليد وغيره، واقترب من ثقافة الإمام. وهؤلاء منهم من نصر الإمام، ومنهم من خذله. وكانت حركة الإمام تعتمد على الصحابة الأجلاء، وعلى الصادقين من التابعين. وعندما قتل هؤلاء لم تكن الخطورة قط على الجانب العسكرى، وإنما كانت أيضا على دوام الرواية. وإذا كان بين أيدينا حديث صحيح يقول: إذا نزلت الخلافة الأرض المقدسة فقد دنت البلايا، وإذا كان بين أيدينا أحاديث تحذر من البغى ومن بنى أمية، فلا عجب إذا رأينا بنى أمية يعملون من أجل تشويه الخط الرسالى، فإذا لم يشوهوا هذا الخط فأى خط يشوهون؟ وإذا كان تشويههم لغير الخط الرسالى فلماذا كان حزن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عندما أراه الله بنى أمية على منبره؟ إن معنى وجودهم على المنبر إشارة إلى اغتصابه، وإشارة إلى أنهم نازعوا الأمر أهله. ومعنى تشويه الخط الرسالى، أى العمل من أجل تزيين خط آخر يكون مشابها للخط الرسالى فى الصورة، بهدف أن يهرع أصحاب الأهواء إلى الخط المزخرف نظرا لوجود مطالب كل صاحب هوى على هذا الطريق. ونظرا لأن هذه المطالب تحميها فتاوى علماء الضلال الذين حذر النبى صلى الله عليه وسلم حذيفة منهم. قال حذيفة... ": قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة

إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرنى إن أدركت ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك [" ۲] .

فهؤلاء لا بد من وجود من يمهد إليهم، لا بد من وجود من يمهد لأكثر من سبعين فرقة وتنجوا واحدة. وإذا كان الحديث قد صرح بأنه سيكون زمان لا

[صفحه ۱۹۳]

جماعة فيه ولا إمام، فإن هناك حديث آخر صرح بأنه من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية [۳] لهذا لم يهمل الحديث الذى رواه حذيفة موضع الإمام فى

الزمان الذى لا يكون فيه جماعة ولا إمام، وهو قوله ": فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة. " لم يقل اعتزل وكفى ولا تحققت الموتة الجاهلية، وإنما قال ": ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك، " وفى رواية ": قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال: ثم يخرج الدجال [" ۴] ، فإذا كان الدجال شجرة رجس، فأى شجرة التى تقابل الرجس؟ فإذا قلنا إنها شجرة المهديين؟ فما هو الدليل على أنهم مهديين؟ ونحن لا نريد أن نطيل فى هذا البحث. وبالجملة فلن يكون معاوية صاحب هذه الشجرة، أعنى شجرة المهديين، وذلك لوجود أحاديث تقول خلاف هذا. وإذا أردنا أن نضع أيدينا على أصل الشجرة فإنى أسوق الحديث الصحيح الذى أورده السيوطى فى تاريخ الخلفاء، فقال: أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس من شجر شتى، وأنا وعلى من شجرة واحدة [۵] ، وروى الديلمى ": أنا وعلى من شجرة واحدة والناس من أشجار شتى [" ۶] وروى الحاكم ": يا على الناس من شجر شتى " وأنا وأنت من شجرة واحدة [" ۷] .

فالظالمين من بنى أمية هدفهم تشويه الخط الرسالى، وذلك بإنشاء خط جديد مشابه له. والنبى صلى الله عليه وسلم حذر من هذا، وأغلق الأبواب أمام هذه الأعمال، فقال... ": فإن للقرآن منار كمنار الطريق فما عرفتم فخذوه وما أنكرتم فردوه إلى

[صفحه ۱۹۴]

عالمه [" ۸] ولقد قتلوا عالمه، ونتيجة لذلك يمكن أن نفهم قوله النبى صلى الله

عليه وسلم ": كتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم [" ۹] ، فهم ضلوا لأن هناك أشياء لا يعلمونها فى كتاب الله. وبما أنهم قتلوا عالمه واعتزلوا أهل بيته لا يستبعد أن يتحقق الضلال، ويرتفع النفاق، ليتحقق قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم": أكثر منافقى أمتى قراؤها [" ۱۰] .

من هنا يمكن أن نعلم حقيقة الخط المشابه للخط الرسالى. الذى أخذ على عاتقه تمزيق الأمة ولكن تحت الراية المزخرفة التى تقول بالجماعة. لا يهم أن تتمزق الأمة ولكن المهم أن تكون الجماعة على رأس الحكم. وتيارات التشويه دائما ما تلجأ إلى التشويه الغير مباشر، فكتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل لإحداث تشويه فيه، فهذا من المحال. وإنما تمتد عقولهم إلى تفسيره وتأويله، فتفرغه من المحتوى السياسى الذى يتعارض مع أهداف جماعة الحكم. والقارئ للقرآن يعلم أنه يتعرض للأحداث الكبرى ويقدم لها الحلول، ولقد سلط الأضواء على الانحرافات الكبرى على امتداد التاريخ البشرى وبينها للأمة الخاتمة - وحذر من الوقوع على طريقها، وهذا كله عند تيارات التشويه لا يلتفت إليه إلا فى حدود. وفى الغالب الأعم يقرؤن القرآن قراءة لا تجاوز تراقيهم فى المآتم وحول الأضرحة، وفى أندية النفاق حيث المباخر والشعوذة والدجل. وكما أن كتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل للتشويه فيه، فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم. فتيار التشويه داخل الأمة لا يقترب من مكانة النبوة، وإلا سيفقد وجوده على الكرسى. ولكى يتجنب ذلك يفعل ما فعله مع القرآن، بمعنى أن يكذب على النبى فيحدث التباسا بين ما قيل وبين ما لم يقال. وهذا الطريق ينتج الإنسان المشوه. أو يقوم بضرب الخط الذى ينتسب إلى النبى

[صفحه ۱۹۵]

، أقصد الخط الرسالی، أو ینسب إلی کل ما هو برئ منه. فإذا حدث هذا فهو أمام العامة لم یقترب من ساحة النبوة، بمعنی روی فی حدیث صحیح أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": من آذی علیا فقد آذانی [" ۱۱] فخط التشویه یوجه الأذی إلی علی، ویمکن للعامة أن تتقبل ذلک.

ولکن الحقیقة أن علیا لم یکن هو الهدف، وهذا لا یفهمه إلا عاقل منصف. ولقد کان النبی یغضب عندما یؤذی أحد علیا. فعن سعد بن أبی وقاص قال: کنت جالسا فی المسجد أنا ورجلین معی، فنلنا من علی، فأقبل رسول الله صلی الله علیه وسلم غضبان یعرف فی وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه فقال: ما لکم وما لی!!؟ من آذی علیا فقد آذانی [۱۲] ، لم یقل: ما لکم وعلی، وإنما قال: ما لکم وما لی. وعلی هذا المقیاس نفهم قول النبی صلی الله علیه وسلم ": من سب علیا فقد سبنی [" ۱۳] .

وروی أن رجلا من أهل الشام جاء فسب علیا عند ابن عباس، فحصبه ابن عباس وقال: یا عدو الله أذیت رسول الله صلی الله علیه وسلم: "إن الذین یؤذون الله ورسوله لعنهم الله فی الدنیا والآخرة وأعد لهم عذابا مهینا [" ۱۴] .

وروی أن معاویة أصدر العدید من القرارات بعد عودته من المدینة إلی الشام. روی المدائنی: کتب معاویة نسخة واحدة إلی عماله بعد عام الجماعة: برأت الذمة ممن روی شیئا فی فضل أبی تراب وأهل بیته، فقام الخطباء من کل کورة، وعلی کل منبر، یلعنون علیا ویبرأون منه ویوقعون فیه وفی أهل بیته [" ۱۵] ، ثم کتب معاویة إلی عماله فی جمیع الآفاق ": لا تجیزوا لأحد من شیعة علی

[صفحه ۱۹۶]

وأهل بیته شهادة [" ۱۶] ، ثم کتب إلیهم: أن انظروا من قبلکم من شیعة عثمان ومحبیه وأهل ولایته، والذین یرون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأکرموهم، واکتبوا لی بکل ما یروی کل رجل منهم واسمه واسم أبیه وعشیرته [" ۱۷] وبعد أن کثر الحدیث فی فضائل عثمان ومناقبه کتب إلیهم: إن

الحدیث فی عثمان قد کثر وفشا فی کل مصر. فإذا جاءکم کتابی هذا فادعوا الناس إلی الروایة فی فضائل الصحابة والخلفاء الأولین، ولا تترکوا خبرا یرویه أحد من المسلمین فی أبی تراب إلا وتأتونی بمناقض له فی الصحابة. فإن هذا أحب إلی وأقر لعینی، وأدحض لحجة أبی تراب وشیعته [" ۱۸] ، ثم کتب إلی عماله نسخة واحدة: انظروا من قامت علیه البینة أنه یحب علیا وأهل بیته. فامحوه من الدیوان. وأسقطوا عطاءه ورزقه [" ۱۹] ، وشفع ذلک بنسخة أخری: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنکلوا به واهدموا داره [" ۲۰] .

وترتب علی هذه القرارات أن الکذابین والجاحدین وجدوا لکذبهم وجحودهم موضعا یتقربون به إلی أولیائهم وقضاة السوء وعمال السوء فی کل بلد، فحدثوهم بالأحادیث الموضوعة المکذوبة، ورووا ما لم یقله الخط الرسالی وما لم یفعلوه لیبغضوهم إلی الناس، وقرأت الکتب علی الناس، ورویت أخبار کثیرة فی مناقب الصحابة مفتعلة لا حقیقة لها. وترتب علی ذلک اشتداد البلاء ولا سیما بالکوفة، حتی أن الرجل من شیعة علی کان یخاف من خادمه ومملوکه. کان هذا فی زمن معاویة وتفاقم الأمر بعد قتل الحسین علیه السلام، وبعد أن ولی عبد الملک بن مروان وأتی بالحجاج بن یوسف. فلم یبق أحد إلا وهو خائف علی دمه أو طرید فی الأرض.

[صفحه ۱۹۷]

إن للصحابة فضائل ومناقب ولم یکونوا فی حاجة إلی إضافات جدیدة. ولکن هذه الإضافات لم یقصد بها الصحابة، لأن العدید منهم کانوا فی رحمة الله ولا تفیدهم زیادات، وإنما کان المقصود أن تزاحم مناقب الصحابة مناقب أهل البیت لیحدث الالتباس. ولکن أهل الحدیث الراسخین فی علم الحدیث. ذکروا کثیرا من الأحادیث الموضوعة، وبینوا وضعها وأن رواتها غیر موثوق بهم. إلا أن المحدثین إنما یطعنون فیما دون طبقة الصحابة، ولا یتجاسرون علی أحد من الصحابة لأن علیه لفظ (الصحبة) علی أنهم قد طعنوا فی قوم لهم صحبة کبسر بن أرطأة وغیره. ونحن لا نجحد فضل أحد من الصحابة، ولکننا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فیهم موضوع. وقرار سب علی بن أبی طالب علی المنابر وقف منه الصحابة فی دائرة الخوف. فمعاویة اهتم اهتماما ملحوظا بالأمن الداخلی، فبث

العيون وسلح الحاميات العسكرية، وأعطى للأمراء فى الأمصار حق التصرف فى هذه القضايا. وأمام الأسوار حول المدن التى تمثل أى خطر عليه حتى مكة، يقول ابن كثير ". كانت أبواب مكة لا أغلاق لها وأول من اتخذ لها الأبواب معاوية [" ۲۱] .

وليس معنى أن الصحابة كانوا فى دائرة الخوف أنهم قبلوا ثقافة السب. فمنهم من رفضها وقتل فى ذلك كحجر بن عدى وغيره، ومنهم من رفضها بحذر، ومنهم من رفض ووعظ، ومنهم الجهاز الذى أشرف على إتمام ثقافة السب، كعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وبسر بن أرطأة، ومعاوية بن خديج وغيرهم. ولقد سجل مسلم عملية السب فى صحيحه، وبهذا التسجيل لا يمكن أن يدعى مدعى أن السب كان خرافة أو لا أساس له من الصحة، وسجله غير مسلم فى روايات صحيحة. وبداية عملية السب روى أن معاوية استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة فلما أمره عليها دعاه وقال له: لست تاركا إيصاءك بخصلة. لا

[صفحه ۱۹۸]

تترك شتم على وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له. والعيب لأصحاب على والإقصاء لهم. والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم" [۲۲] فهذه الوصية التى رواها

صاحب الكامل هى إجمالى ما رواه ابن أبى الحديد من قبل. وبدأت عملية السب، روى الطبرانى بسند صحيح أن عمرو بن العاص صعد المنبر، فذكر عليا ووقع فيه، ثم صعد المغيرة بن شعبة، ووقع فى على، وكان الحسن بن على بالمسجد. فقيل له اصعد. فقال: لا أصعد ولا أتكلم حتى تعطونى إن قلت حقا أن تصدقونى، وإن قلت باطلا أن تكذبونى، فأعطوه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أنشدك بالله يا عمرو ويا مغيرة. ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله السابق والراكب أحدهما فلان، قالا اللهم بلى. قال: أنشدك الله يا معاوية ويا مغيرة، ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن عمرو بن العاص بكل قافية قالها لعنة، قالا: اللهم بلى. قال: أنشدك يا عمرو ويا معاوية، ألا تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن قوم هذا قالا: بلى، فقال الحسن: فإنى أحمد الله الذى وقعتم فيه تبرأ من هذا [۲۳] .

وهذا الحديث يحتاج إلى تفسير. فأما قوله ": لعن الله السابق والراكب. أحدهما فلان " فيقصد بذلك معاوية كما روى البغوى [۲۴] وقوله ": أن رسول الله لعن عمرو بن العاص بكل قافية قالها لعنة. " فلقد روى أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مشركى مكة: أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزبعرى، وعمر بن العاص، وضرار بن الخطاب [۲۵] ، وكان أشدهم عمرو بن العاص وروى أن رسول الله قال ": اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر، فاهجه والعنه عدد ما

[صفحه ۱۹۹]

هجانى [" ۲۶] وإن كان فى إسناد هذا الحديث مقال. فإن حديث الحسن يشهد بصحته. أما قوله ": إن رسول الله لعن قوم هذا " فإنه يقصد المغيرة بن شعبة، والمغيرة بن ثقيف [۲۷] ، وفى الحديث الصحيح. إن بنى أمية وثقيف وبنى حنيفة من أبغض الناس إلى رسول الله [۲۸] .

وهكذا رفع عنهم الحسن رضى الله عنه الغطاء الذى وضعه على جلودهم عالم اللارواية. لقد وقفوا ليلعنوا وهم فى الحقيقة عليهم من الله لعنة. قال تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله. لعنهم الله فى الدنيا والآخرة). ومن الذين سهروا من أجل انتشار ثقافة السب مروان بن الحكم الذى كان سببا رئيسيا فى محاصرة الثوار لعثمان، ومروان هو قاتل طلحة يوم الجمل، ومروان وأبيه عليهما لعنة من الله على لسان رسوله. وصرح بذلك روايات صحيحة. وأخرج ابن سعد أن مروان بن الحكم كان يسب عليا كل جمعة على المنبر [۲۹] ، وروى أنه قال للحسن: أهل بيت ملعونون. فقال الحسن: أقلت أهل بيت ملعونون. فوالله لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت فى صلب أبيك [۳۰] وروى عن أبى كثير قال: كنت جالسا عند الحسن بن على

فجاءه رجل فقال: لقد سب عند معاوية عليا سبا قبيحا رجل يقال له معاوية بن خديج. فلم يعرفه الحسن،، فقال: إذا رأيته فأتنى به، فرآه الرجل عند دار عمرو بن حريث، فأراه إياه، فقال الحسن: أنت معاوية بن خديج؟ فسكت فلم يجبه - ثلاثا - ثم قال: أنت الساب عليا

عنـد ابن أكلـة الأكبـاد؟ أمـا لئن وردت عليه الحوض، وما أراك ترد، لتجـدنه مشـمرا حاسـرا عن ذراعيه يـذود الكفار والمنافقين عن حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم. قول الصادق

[صفحه ۲۰۰]

المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم [۳۱] ومعاوية بن خديج ذكره ابن سعد

فيمن ولى مصـر من الصـحابة. أمره معاوية على الجيش الذى جهزه إلى مصر وبها محمد بن أبى بكر عاملا لعلى، فأخذوا ابن أبى بكر ووضـعوه فى بطن حمار وأشـعلوا فيه النار. أما الصـحابة الذين لم يقبلوا ثقافة السب، ما رواه مسلم عن سهل، قال: استعمل على المدينة رجـل من آل مروان، فـدعا سـهل بن سـعد فـأمره أن يشـتم عليا، فأبى سـهل. فقال له: أما إذا أبيت فقل لعن الله أبا تراب. فقال: ما كان لعلى اسم أحب إليه من أبى تراب، وإن كـان ليفرح إذا دعى بها [۳۲] ، وروى مسـلم أيضا أن معاوية أمر سعد بن أبى وقاص فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب [۳۳] فعـد عليه سـعد بعض مناقب على وقال: لو أن تكون لى واحدة منهن خيرا من أن تكون لى حمر النعم. وعن عبـد الرحمن بن البليمانى قال: كنا عنـد معاويـة. فقام رجل فسب عليا بن أبى طالب فقام سـعيد بن زيـد بن عمر بن نفيل فقال: يا معاوية إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هو منى بمنزلة هارون من موسى [" ۳۴] وعن أبى عمار قال: إنى لجالس عند واثلة بن الأسـقع، إذ ذكروا عليا فشـتموه فلما قاموا. قال: اجلس أخبرك عن الذى شـتموا. إنى عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم إذ جاء على وفاطمة وحسن وحسين فألقى عليهم كساءا ثم قال ": اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس

[صفحه ۲۰۱]

وطهرهم تطهيرا [" ۳۵] .

وعن خالد بن عرفطة قال: أتيت سـعد بن مالك فقلت: بلغنى أنكم تعرضون على سب على بالكوفة فهل سببته؟ قال ": معاذ الله والذى نفس سـعد بيده، لقد سـمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فى على شيئا لو وضع المنشار على مفرقى ما سببته أبدا [" ۳۶] ، ويقصد سعد يوم أن عاد من اليمن ودخل ليشـكوا عليا وكان معه أبو بكر. فبينما هو فى وسط كلامه قال له النبى ": سعد بن مالك بن الشهيد. مه بعض قولك لأخيك على. فوالله لقـد علمت أنه جيش فى سبيل الله، " فقال سـعد: فقلت فى نفسـى ثكلتك أمك سـعد بن مالك. ألا أرانى كنت فيما يكره منذ اليوم وما أدرى. لا جرم والله لا أذكره بسوء أبدا سرا ولا علانية [۳۷] .

وروى أن أبا الأسود الـدؤلى وكان من شـيعة على ينزل بالبصـرة فى بنى قشـير، وكان جيرانه يرجموه بالليل لمحبته عليا وأهل بيته. فإذا ذكر رجمهم له قالوا: إن الله يرجمك فيقول لهم: تكـذبون لو رجمنى الله لأصابنى، ثم باع الـدار، فقيل له: بعت دارك! فقال: بل بعت جارى [۳۸] وروى الزمخشرى فى

ربيع الأبرار: سأل زياد بن أبيه أبا الأسود عن حب على فقال: إن حب على يزداد فى قلبى كما يزداد حب معاوية فى قلبك، وإنى أريد الله والـدار الآخرة بحبى عليا، وأنت تريـد الدنيا وزينتها بحبك معاوية. ويقصد بذلك قول النبى صـلى الله عليه وسـلم ": على يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين [" ۳۹] .

وروى أن معاوية قال لصعصعة بن صوحان. اصعد المنبر فالعن عتيا.

[صفحه ۲۰۲]

فامتنع من ذلك وقال: أو تعفينى؟ قال: لا. فصـعد صعصـعة المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشـر الناس إن معاوية أمرنى أن ألعن عليا. فالعنوه لعنه الله [۴۰] .

وهكـذا مرت ثقافـة السب. ولقـد أخبر النبى صـلى الله عليه وسـلم عن هذه الثقافة وبين أهدافها الحقيقية. روى عن عبد الله الجدلى أنه قال: دخلت على أم سـلمة رضى الله عنها فقالت لى: أيسب رسول الله صلى الله عليه وسلم!؟ قلت: معاذ الله أو سبحان الله. قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من سب عليا فقد سبنى [۴۱] .

أنظر إلى قول أم المؤمنين: أيسب رسول الله فيكم؟ إنها لم تقل: أيسب على فيكم: لأن عليا درجة على طريق طاهر طويل. وفى مواجهة أخرى قالت أم المؤمنين أم سلمة: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سب عليا فقد سبنى، ومن سبنى فقد سب الله تعالى [۴۲] ولقد أخبر الإمام على

عن هذه الثقافة فقال ": إنكم ستعرضون على سبى فسبونى، فإن عرضت عليكم البراءة فلا تتبرأوا منى فإنى على الإسلام، " وفى رواية – فإنى على الفطرة [۴۳] .

وفى رواية: فإنى ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة [۴۴] .

وروى أن ابن عباس قال لمعاوية: ألا تكف عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يربوا عليه الصغير ويهرم فيه الكبير [۴۵] وهذه الاستمرارية التى

[صفحه ۲۰۳]

يصر عليها معاوية. أخبر عنها وعن غيرها النبى فقال: كيف أنتم إذا لبستم فتن يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير ويتخذها الناس سنة. فإذا غيرت قالوا: غيرت السنة [۴۶] إنها الفتن التى تنسف العبادة نسفا، وتترك الناس لا يعقلون فتن

اللسان فيها أوقع من السيف. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الفتنة تجئ فتنسف العبادة نسفا، وينجو العالم منها بعلمه [" ۴۷] ، وهل ثقافة السب تحافظ على عبادة أو تنفع معها عبادة، لقد ألقوا فى الساحة بأحاديث يزاحم بعضها بعضا. وتمهد لخروج أكثر من سبعين فرقة كل فرقة معها أحاديثها. وكل فرقة لها لسان يضرب كضرب السيف، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف [۴۸] قال فى عون المعبود: وصفت الفتنة بهذه الأوصاف

بأوصاف أصحابها. أى لا يسمع فيها الحق، ولا ينطق به، ولا يتضح الباطل عن الحق، وقيل المعنى: لا يميزون فيها بين الحق والباطل، ولا يسمعون النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل من تكلم بحق أوذى ووقع فى المحن، ومن أشرف لها: أى من اطلع عليها وقرب منها. استشرفت له. أى: اطلعت تلك الفتنة عليه وجذبته إليها. وإشراف اللسان. أى: إطلاقه وإطالته كوقوع السيف أى: فى التأثير [۴۹] .

وإذا كان إشراف اللسان فى هذه الفتنة كوقوع السيف، بمعنى إذا كانت الكلمة فى هذه الفتنة تعمل عمل السيف. فإن الذين سبوا عليا يكونوا فى منزلة الذين قتلوه. لقول النبى صلى الله عليه وسلم ": من لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله [" ۵۰] وبهذا تكون بنى أمية بثقافة السب قافلة

من القتلة ولا يعرف حقيقتهم إلا العالم. وشاء الله أن يكون على امتداد تاريخ

[صفحه ۲۰۴]

بنى أمية العديد من العلماء الأفاضل، فكانوا يحذرون من الحفرة قبل الوقوع فيها. حدث هذا فى جميع الأحداث الكبرى بل والصغرى التى جرت تحت أعلام بنى أمية. ولقد رأينا كيف كانوا ينهون عن السب فى كل زمان ومكان. لقد أنتجت ثقافة السب جيلا مشوها، كان من السهل عليه أن يقتل الحسين، ويجتاح المدينة، ويضرب الكعبة. ولقد ظلوا يسبون الإمام حتى ضاع ذكره عند الذين يقفون تحت رايات بنى أمية. يقول المسعودى: قيل لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأى والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذى يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصا من لصوص الفتن [۵۱] وروى أن فقيها آخر

ذهب ليشتكى جاره إلى الوالى فقال: إن جاره مرجئ قدرى ناصبى رافضى، يبغض معاوية بن الخطاب الذى قتل على بن العاص. فقال له الوالى: ما أدرى على أى شئ أحسدك. على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب [۵۲] .

وروى فى سنن أبى داوود أن فى عصر بنى مروان لم يكن فطاحل العلم وجهابذته يعدون عليا من الخلفاء، وعندما بلغ سفينة ذلك

قال: کذبت استاه بنی الزرقاء [۵۳] .

وظل الحال هکذا حتی جاء عمر بن عبد العزیز رضی الله عنه وسنتحدث عن ذلک فی حینه.

[۱] رواه الحاکم (کنز العمال ۱۲۷:۱۱) وروی صدر الحدیث أحمد والترمذی وابن ماجة وغیرهم.

[۲] رواه البخاری ک بدء الخلق (الصحیح ۲۸۰:۲) ورواه غیره ولقد تکلمنا عن الحدیث فیما سبق.

[۳] رواه ابن أبی عاصم وحسنه الألبانی (کتاب السنة ۵۰۳:۴) ورواه غیر واحد ولقد بینا ذلک فیما سبق.

[۴] رواه أبو داود حدیث ۴۲۴۴.

[۵] تاریخ الخلفاء ۱۶۰:۱.

[۶] الدیلمی (کنز العمال ۱۶۸:۱۱).

[۷] الحاکم (کنز العمال ۱۶۸:۱۱).

[۸] رواه الطبرانی (الزوائد ۱۸۷:۱).

[۹] رواه ابن أبی عاصم وفیه من ضعف (کتاب السنة ۱۳۲:۱).

[۱۰] رواه أحمد والطبرانی وقال الهیثمی أحد أسانید أحمد ثقات أثبات (الزوائد ۲۲۹:۶).

[۱۱] رواه أحمد وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹).

[۱۲] رواه أبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹).

[۱۳] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح ۱۳۰:۹) والحاکم وصححه (المستدرک ۱۲۱:۳).

[۱۴] رواه الحکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۵۲:۳).

[۱۵] ابن أبی الحدید ۵۹۵:۳.

[۱۶] المصدر السابق ۵۹۵:۳.

[۱۷] المصدر السابق ۵۹۵:۳.

[۱۸] المصدر السابق ۵۹۶:۳.

[۱۹] المصدر السابق ۵۹۶:۳.

[۲۰] المصدر السابق ۵۹۶:۳.

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۳۹:۸.

[۲۲] الکامل ۲۳۴:۳، الطبری ۱۰۸:۶.

[۲۳] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رواه عن شیخه زکریا بن یحیی وقال الذهبی: أحد الأثبات ما علمت فیه جرحا أصلا (الزوائد ۲۴۷:۷).

[۲۴] رواه الطبرانی والبغوی (الإصابة ۵:۴).

[۲۵] أسد الغابة ۵:۲.

[۲۶] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۵۴۸:۱۳).

[۲۷] الإصابة ۱۳۱:۶.

[۲۸] البیهقی (البدایة والنهایة ۲۶۸:۶.

[۲۹] البدایة والنهایة ۲۸۰:۸، تاریخ الخلفاء ۱۷۷:۱.

[۳۰] رواه أبو یعلی (الزوائد ۲۴۰:۵) وابن سعد وابن عساکر (کنز العمال ۳۵۷:۱۱) وذکره ابن کثیر (البدایة ۸:۲۸۰).

[۳۱] رواه الطبرانی بإسنادین (الزوائد ۱۳۱:۹)، والحاکم (المستدرک ۱۳۸:۳)، وابن أبی عاصم (کتاب السنة ۳۶۰:۲).

[۳۲] رواه مسلم (الصحیح ۱۸۲:۱۵) فی فضل علی.

[۳۳] رواه مسلم فی فضل علی (الصبح ۱۷۵:۱۵) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۰۹:۳).

[۳۴] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۶۰۲:۲).

[۳۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۶۱:۹).

[۳۶] رواه أبو یعلی وإسناده حسن (الزوائد ۱۳۰:۹) ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۶۰۴:۲).

[۳۷] رواه البیهقی (البدایة والنهایة ۳۴۶:۷) ولقد قدمنا الحدیث بطوله فی موضعه.

[۳۸] حیاة الحیوان:الدمیری فی آخر باب الدال.

[۳۹] رواه ابن عدی وغیره (کنز العمال ۴ - ۶:۱۱).

[۴۰] العقد الفرید ۴۶۶:۲، والحاکم (المستدرک ۳۵۸:۱).

[۴۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۰:۹) (الفتح الربانی ۱۲۱:۲۳)، ورواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۲۱:۳) وأورده السیوطی فی تاریخ الخلفاء ۱۶۲:۱.

[۴۲] رواه أحمد والحاکم (کنز العمال ۶۰۲:۱۱)، (المستدرک ۱۲۱:۳).

[۴۳] رواه الحاکم وصححه (المستدرک ۳۵۸:۱) والمحاملی وابن عساکر (کنز العمال ۳۰۲:۱۱) ورواه البلاذری (أنساب الأشراف ص ۱۱۹:۱) وابن أبی الحدید ۷۷۶:۱.

[۴۴] ابن أبی الحدید ۷۷۶:۱.

[۴۵] ابن أبی الحدید ۲۲۲:۴.

[۴۶] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۱۵:۴).

[۴۷] رواه أبو نعیم وأبو داوود والرافعی (کنز العمال ۱۵۰، ۱۷۸:۱۰).

[۴۸] رواه أبو داوود حدیث ۴۲۴۴.

[۴۹] عون المعبود ۳۴۶:۱۱.

[۵۰] رواه البخاری (الصحیح ۵۷:۴).

[۵۱] مروج الذهب ۴۲:۳.

[۵۲] مروج الذهب ۴۲:۳.

[۵۳] ذکره الألبانی فی تحقیقه کتاب السنة ۵۶۴:۲.

ائتمان الخائن

من قبل أن یحدث الاختلاف والافتراق أعلن النبی صلی الله علیه

وسلم علی الأمة أن " الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا یصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس [۱] ، والسلطان حارث. وما لا أس له یهدم، وما لا

[صفحه ۲۰۵]

حارث له ضائع [" ۲] ثم بین فضل أهل بیته ووجوب مودتهم فی أحادیث کثیرة

منها " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بیتی أمان لأمتی [" ۳] ، وقوله صلی الله علیه وسلم ": مثل أهل بیتی مثل سفینة نوح من رکبها نجا ومن تخلف عنها غرق [" ۴] ، وقوله ": إنی تارک فیکم الثقلین أحدهما أکبر من الآخر، کتاب الله حبل ممدود من السماء

والأرض، وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض [" ۵] ، وغير ذلك من الأحاديث التى أوردناها فى موضعها. فمن هذا نفهم أن معنى الإسلام والسلطان يكون أقرب للفهم إذا وضعنا أمامنا فى دائرة السلطان أهل البيت. بمعنى أن نقول: أن الإسلام وأهل البيت توأمان، وذلك لأن الروايات حددت معنى السلطان الذى يستقيم مع الكتاب. والنبى صلى الله عليه وسلم عندما وضع الأمة على الصراط المستقيم وعلم من ربه جل وعلا أن الأمة ستختلف من بعده، فأقام الحجة على الناس، وهم فى طريق الاختلاف، كما أقامها من قبل أن يتشعبوا فى دروب الاختلاف فقال..... ": إن رحى الإسلام دائرة. وإن الكتاب والسلطان سيفترقان فدوروا مع الكتاب حيث دار [" ۶] فإذا كان الكتاب كما فى الحديث الصحيح لن يفترق عن

أهل البيت. فإننا يمكن أن نفهم أن الدوران مع الكتاب يعنى فى مقدمته الدوران مع أهل البيت.

[صفحه ۲۰۶]

والنبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر عن الافتراق، أمر الجيل الأول بأن يأخذ بالأسباب لدفع الافتراق والاختلاف لأن من حكمة الوجود أن الله ينظر لعباده، ليرى كيف يعملون وفقا لمساحة الاختيار التى وهبها إياهم. فعن أنس أن معاذا قال: يا رسول الله. أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك، ولا يأخذون بأمرك، فما تأمرنى فى أمرهم؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: لا طاعة لمن لم يطع الله عز وجل [۷] ، وعن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ". لا طاعة فى معصية الله تبارك وتعالى [" ۸] ، وعلى هذا يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد ساق الناس إلى الصراط المستقيم أولا، ثم أخبرهم بالافتراق وماذا يفعلون ثانيا، ثم أمرهم بالأخذ بالأسباب ثالثا، ولا حجة لهم بعد ذلك كله. وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم تلى قوله تعالى: (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم...)، ثم قال: كلا- والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، لتأخذن على يدى الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا [۹] ، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم [" ۱۰] ، ولا حجة لهم بعد هذا. وجاء معاوية بن أبى سفيان، وجعل سب الإمام على سنة، جاء معاوية على طريق الاختلاف. ولو لم يكن الاختلاف قد وقع، ما جاء معاوية. ولكن الله

[صفحه ۲۰۷]

بعلمه المطلق علم أن عباده سيختلفون فعاقبهم ببنى أمية وكان قد حذرهم منهم. ويقول النبى صلى الله عليه وسلم ": ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها [" ۱۱] إن الله تعالى ذم الاختلاف فى كتابه وعلى لسان نبيه

صلى الله عليه وسلم، فإذا وقع الاختلاف فلا بد من عقوبة يتذوقها الغالب الأعم. وأهل الحق لا يضرهم من ناوأهم أو من خذلهم أو من عاداهم، فهذا قانون الوجود. ومن يقف تحت مظلة الاختلاف فعليه أن يستقبل أبواب كل شئ، وهذا أيضا من قانون الوجود. يقول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم ": إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بقوم بقاء أو نماء، رزقهم القصد والعفاف. وإذا أراد بقوم اقتطاعا، فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة " حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين [" ۱۲] .

لقد جاء معاوية بعد أن اختلف الناس، وليس صحيحا أن معاوية جاء نتيجة لاجتماع الناس، فهو نفسه القائل لابنة عثمان ": يا بنت أخى إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلما تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة. تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا... ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعته. فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندرى أتكون لنا الدائرة أم علينا [" ۱۳] ، ثم إن أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا، وأيضا حركة التاريخ. كل ذلك يثبت أن معاوية جاء على رقعة خلاف وليس على عصبة اجتماع. فمعاوية دخل من طريق كان الرجل فيه يلقى أخاه فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه

من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فى الوقت الذى يحذر فيه النبى صلى الله عليه وسلم ويقول ": يهلك أمتى هذا الحى من قريش. " قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله، قال: لو أن

[صفحه ۲۰۸]

الناس اعتزلوهم [۱۴] فأهل هذا الحى لا يجهلهم أحد من الصحابة، ولقد

حددتهم روايات صحيحة وشهدت حركة التاريخ على خطاهم. فالنبى حذر من طريق النقص الذى أصاب بنى إسرائيل فى الوقت الذى أشار فيه باعتزال بنى أمية ومن على شاكلتهم، وقوله: لو أن الناس اعتزلوهم وفيه إشارة بأنهم لن يأخذوا بالأسباب. وعندما جاء معاوية ووضع ثقافة السب، تراجع الدين عند الذين أكلوا من زاد هذه الثقافة. وهذا أمر طبيعى لساحة لم يدر أصحابها مع القرآن، واختاروا حارسا غير الذى حدده النبى صلى الله عليه وسلم لحفظ الإسلام، لأن من سنن الوجود أن ما لا أس له يهدم وما لا حارث له ضائع. ونحن هنا سنلقى ضوءا على معالم الضياع. وفى البداية نقول إن حذيفة سجل لنا معالم الخفوت قبل وفاته [۱۵] فقال: إنما كان النفاق على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان [۱۶] وقال: إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد

النبى صلى الله عليه وسلم. كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون [۱۷] ، وقال.... ": ابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلى إلا سرا [" ۱۸] ، وفى لفظ البخارى ": فابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف [" ۱۹] ، فإذا كان هذا قد حدث فى ساحة لم يكن معاوية على الكرسى الأول فيها، فما بالك إذا جلس معاوية ووصف نفسه بأنه أعلم الناس بشؤون الدنيا والآخرة. كانت الساحة بها خفوت، ثم جاء الضياع بعد ذلك. فعن زياد بن جارية أنه دخل مسجد دمشق وقد تأخرت صلاة الجمعة بالعصر. فقال: والله ما

[صفحه ۲۰۹]

بعث الله نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم أمركم بهذه الصلاة [۲۰] ، وعن أبى العالية قال: أخر ابن زياد الصلاة، فأتانى عبد الله بن الصامت فذكرت له صنيع ابن زياد، فعض على شفتيه وضرب فخذى وقال: إنى سألت أبا ذر كما سألتنى فضرب فخذى كما ضربت على فخذك وقال: إنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى، فضرب فخذى كما ضربت وقال: صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتك معهم فصل ولا تقل إنى قد صليت ولا أصلى [۲۱] وكان سفيان الثورى

يقول: يا؟ أظن الصلاة تقبل إلا أن الصلاة خير من تركها [۲۲] ، كان هذا فى مرحلة تأخير الصلاة. وهذه المرحلة تبعتها أخرى فى ساحة ترفع ثقافة السب وتحرص عليها. فعن أم الدرداء قالت: دخلت على أبى الدرداء وهو مغضب. فقلت: من أغضبك، قال: والله لا أعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا أنهم يصلون جميعا - يعنى صلاة الجماعة [۲۳] وروى البخارى: دخل الزهرى على أنس فوجده يبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت [۲۴] أما أبو الدرداء الذى شهد بأنه لا

يعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا صلاة الجماعة، فلقد مات قبل وفاة عثمان بن عفان بسنتين [۲۵] بمعنى: أنه شهد ما رآه فى خلافة

عثمان على أقل تقدير. أما أنس فلقد عاش إلى ما بعد زمن الحجاج بن يوسف، وروى أنه مات سنة إحدى وتسعين وكان عمره مائة سنة إلا سنة [۲۶] ، فأبى الدرداء شهد الصورة فقط. أما أنس فلقد شهد الضياع فى عهد بنى أمية. وإذا سألنا: كيف ضاعت الصلاة بعد وفاة النبى بمدة قليلة؟ نقول: ضاعت عندما

[صفحه ۲۱۰]

انفصل الإسلام عن السلطان. فإن قيل: وما الدليل؟ نقول: قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم " لينتقضن الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتى تليها، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة [" ۲۷] ، وعلى هذا يكون ضياع الصلاة كنتيجة سببه ضياع الحكم عند المقدمة. إن النبى صلى الله عليه وسلم ذم بنى أمية، فهل ينتظر أن يحافظ بنو أمية على الصلاة وغيرها، والنبى صلى

الله علیه وسلم لعن الحکم وما ولد فماذا ینتظر من مروان عندما یتقلد أمور المسلمین؟ ولقد اتفق العلماء علی أنه أول من شق عصا المسلمین بلا شبهة [۲۸] ، إن الصورة بهتت فی عهد عثمان، وعندما جاء علی بن أبی طالب قاتلوه، ثم جاء معاویة فکان أول من نقص التکبیر فی الصلاة [۲۹] ، فی الوقت الذی کان فیه أول من اتخذ الحرس لحمایته، وأول من اتخذ الخصیان لخاص خدمته [۳۰] وفی عام ستین دخل بالدولة نحو أعتاب

المبایعة لولده یزید. وفی الحدیث الصحیح قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم ": تعوذوا بالله من رأس الستین ومن إمارة الصبیان" [۳۱] ، وعندما وضع معاویة ابنه علی رقبة الأمة سار علی منهاج أبیه ورفع أعلام السب، فکان من نتیجة هذه الثقافة ظهور الإنسان المشوه الذی لا یمکن أن یحمل منهجا سماویا، ففی الحدیث الصحیح یقول البنی صلی الله علیه وسلم ": یکون خلف بعد الستین سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف یلقون غیا، ثم یکون خلف یقرؤون القرآن لا- یعدو تراقیهم. ویقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر [۳۲] ، المنافق

[صفحه ۲۱۱]

کافر به، والفاجر یتأکل منه، والمؤمن یؤمن به [۳۳] والمال هو الباب الوحید

الذی تخرج منه هذه الأجیال المنافقة الفاجرة، یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": مما أتخوف علی أمتی أن یکثر فیهم المال حتی یتنافسوا، فیقتتلوا علیه. وإن مما أتخوف علی أمتی أن یفتح لهم القرآن حتی یقرأه المؤمن والکافر والمنافق، فیحل حلاله المؤمن ابتغاء تأویله [" ۳۴] ومما هو محفوظ أن القرآن قد فتح

للصالح والطالح منذ زمن بعید، یوم أن قال الناس حسبنا کتاب الله، ولم یکن فی الساحة وقتئذ العالم بتأویله، الأمر الذی أدی إلی تشعبات کانت الأمة فی غنی عنها. وبعد عهد یزید سارت أعلام بنی أمیة علی الطریق الذی یضیعون فیه الصلاة، حتی جلس الولید بن عبد الملک علی رقبة الأمة. وروی أنه جلس یوم الجمعة علی المنبر حتی اصفرت الشمس، فقام إلیه رجل فقال: یا أمیر المؤمنین إن الوقت لا ینتظرک، وإن الرب لا یعذرک. قال: صدقت. ومن قال مثل مقالتک فلا ینبغی له أن یقوم مثل مقامک، ثم نادی: من هاهنا من أقرب الحرس یقوم إلیه فیضرب عنقه [۳۵] .

إنه طریق إضاعة الصلاة، حتی أن سفیان الثوری کان یقول فی الذین علی طریق السلطان: لولا أن تکون سبة ما صلیت علی من یأتی السلطان حتی یکونوا عبرة [۳۶] ، وقال وهیب: هؤلاء الذین یدخلون علی الملوک. إنهم لأضر علی الأمة من المقامرین [۳۷] ، وقال سفیان: القبول مما فی أیدیهم من استحلال المحارم، والتبسم فی وجوههم، علامة الرضا بفعالهم، وإدمان النظر إلیهم یمیت القلب [۳۸] وروی أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": إذا قال الرجل

[صفحه ۲۱۲]

للمنافق یا سیدنا فقد أغضب ربه [۳۹] وقال ": لا تقولوا للمنافق سیدنا، فإنه إن

یکن سیدکم فقد أسخطتم ربکم [" ۴۰] وفی هذا دلیل أن المنهج یظهر المنافق

وإلا فکیف سیعرفونه؟. لقد ضاعت الصلاة عندما تم التعتیم علی العلم وتشویه حملته، إن الله تعالی یقول: (یرفع الله الذین آمنوا منکم والذین أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبیر) [۴۱] ، قال المفسرون: تدل الآیة علی انقسام المؤمنین إلی طائفتین: مؤمن ومؤمن عالم ومن المحفوظ أن المؤمن العالم أفضل بقوله تعالی: (هل یستوی الذین یعلمون والذین لا یعلمون) [۴۲] ، وقالوا: وبما أن المؤمن العالم أفضل، فإن ما ذکر من رفع الدرجات فی الآیة مخصوص بالذین أوتوا العلم. ویبقی لسائر المؤمنین من الرفع، الرفع درجة واحدة، ویکون التقدیر أن الله یرفع الذین آمنوا درجة. ویرفع الذین أوتوا العلم درجات. فإذا کان طریق بنی أمیة قد أضاع الصلاة فهل تکون أعلامهم فی دائرة الذین أوتوا العلم؟ وإذا کان النبی صلی الله علیه وسلم قد قال ": لکل قوم سادة، حتی أن للنحل سادة [" ۴۳] ، فهل بنی أمیة سادة المؤمنین أو سادة الذین أوتوا العلم؟ وإذا کان النبی صلی الله علیه وسلم قد قال ": إن الله لا یقبض العلم انتزاعا

ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسألوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا [" ۴۴] فهل علماء بنى أمية

قبضوا؟ كيف وهم على سدة الحكم وأبواب المساجد مفتوحة لهم، ولهم المدارس والمعاهد والدواوين؟ فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا ضيعوا الصلاة واعتمدوا عقائد المرجئة، وسارت السياسة المالية تحت أعلامهم بالوقود البيزنطى؟

[صفحه ۲۱۳]

إن العلم قبض تحت هذه الأعلام عندما استبعدوا حملته. وعن زياد بن لبيد قال: قلنا يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ويقرئه أبنائنا، ونقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال النبى: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل لا ينتفعون بما فيها بشئ [۴۵] إنه عالم معاوية ويزيد

الذين سهروا على ثقافة تأتى بخلف يقرأون القرآن لا يعدوا تراقيهم وتحت أعلامهم يقرأ القرآن منافق كافر به وفاجر يتأكل منه. إنه العالم الذى قام بالتعتيم على الخط الرسالى. حتى جاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ولقد ركبوا بذلك سنن الذين من قبلهم. يقول تعالى بعد أن ذكر أنبياءه ورسله: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم - وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا - فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا - إلا من تاب وآمن وعمل صالحا، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) [۴۶] ، قال المفسرون: وقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبينا) معطوف على قوله ": من النبيين، " وهؤلاء غير النبيين من الذين أنعم الله عليهم، فإن هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحصرة فيهم، بدليل قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) [۴۷] ومن الدليل أيضا

أن الله تعالى قال: (واذكر فى الكتاب مريم) ومريم ليست من النبيين. وكانت من الصديقين لقوله تعالى: (وأمه صديقة) [۴۸] ، فالمراد بقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبينا) غير النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين لا محالة. فهل

[صفحه ۲۱۴]

بنى أمية يقفون تحت رايات الذين هداهم الله واجتباهم؟ أم أنهم عتموا على الخط الرسالى وشقوا طريقهم نحو سنن الأولين، حيث الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا؟ ويقول البعض: إن النبى قال ": أيما عبد دعوت عليه فاجعل اللهم ذلك له أو عليه رحمة " ونحن نشك فى هذا، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، ولكن هب أن النبى قال ذلك. مع تحفظنا الشديد، فهل يسر بنو أمية أن رسول الله لعنهم فكان ذلك لهم رحمة؟ وقال البعض: يكفى بنى أمية أنهم فتحوا الفتوح ومصروا الأمصار. ونحن نقول إن الفتوحات عمل عظيم، ولكن أى فتوحات؟ إن الإسلام جاء ليقول كلمة لا ليرفع سيفا. فإذا رفع السيف فإن هذا السيف لا يرفع إلا بإذن الله ووفقا لمنهج الله. والنبى صلى الله عليه وسلم قال ": لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه" [۴۹] ولقد ثبت

أن بنى أمية لا- يحيطون به. وثبت أنهم ليسوا أولى الناس بالأنبياء، وليسوا من الذين أوتوا العلم، لقد فتحوا الفتوح ومصروا الأمصار، ولكن لحساب من؟ إننا ما زلنا نعانى من مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف، والإسلام برى من هذه المقولة التى ألصقت به فى عالم الفتن. إن فتوحات بنى أمية وغيرهم أشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: ليفتحن لكم الشام والروم وفارس، حتى يكون لأحدكم من الإبل كذا وكذا، ومن البقر كذا وكذا، ومن الغنم، وحتى يعطى أحدهم مائة دينار فيسخطها. ثم وضع رسول الله يده على رأس بن حولة وقال: يا ابن حولة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام [۵۰] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إذا فتحت

عليكم فارس والروم، أى قوم أنتم. قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. فقال النبى: أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم

تتدابرون ثم

[صفحه ۲۱۵]

تتباغضون ["... ۵۱] .

إن أصحاب المقاعد الأولى أساءوا أبلغ إساءة إلى الفتوحات. ومن لطف الله تعالى أن عامة المسلمين من التجار وغيرهم، والعديد من العلماء الأفاضل، كانوا الصورة النقية التى عبرت عن الإسلام فى البلاد المفتوحة. أما أصحاب المقاعد الأولى الذين لا فقه لهم فيقول عنهم النبى صلى الله عليه وسلم ": إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة [" ۵۲] وللأمانة تعاريف طويلة وعريضة، وأما علماء السوء

الذين اتخذوا الفتوحات وغيرها تجارة يقول فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ": ويل لأمتى من علماء السوء، يتخذون هذا العلم تجارة، يبيعونها من أمراء زمانهم ربحا لأنفسهم، لا أربح الله تجارتهم [" ۵۳] .

إن الذين وضعوا بنى أمية فى دائرة مناقب الفتوحات، لم يصيبوا الحق فى رأينا، لأن بنى أمية دخلوا هذه الأبواب من طريق أضاعوا فيه الصلاة، واتبعوا الشهوات، فجاءت الفتن المقروءة والمسموعة وغير ذلك. ثم كيف يوضعوا فى دائرة المناقب هذه فى الوقت الذى ضاعت فيه الأمانة؟ يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة. وقيل: يا رسول الله: كيف أضاعتها؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة [۵۴] ولما كان إسناد

الأمر إلى غير أهله بهذه الأهمية، فكان لا بد أن يبين لهم من هم أهله هؤلاء، ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك فى أكثر من موضع [۵۵] ومن

[صفحه ۲۱۶]

العجيب أنه كان يبايعهم على ذلك، فعن عبادة قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ["... ۵۶] ومن الأعجب أن أبا أيوب الأنصارى

كان يبكى ويقول ": لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله [۵۷] .

وهكذا نعود إلى حيث بدأنا، ولقد بدأنا هذا الضوء بقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس والسلطان حارس، وما لا أس له يهدم، وما لا حارس له ضائع [" ۵۸] ثم إخباره ": إن رحى الإسلام دائرة وإن الكتاب والسلطان سيفترقان

فدوروا مع الكتاب حيث دار [" ۵۹] ولقد بينا كيف تم الافتراق، وكيف رفعت

أعلام الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

[صفحه ۲۱۷]

[۱] أس:أصل البناء.

[۲] رواه الديلمى (كنز العمال ۶:۱۰).

[۳] رواه الطبرانى وأبو يعلى وابن عساكر وابن أبى شيبة عن سلمة ابن الأكوع (كنز العمال ۹۶، ۱۰۲، ۱۲) ورواه أبو يعلى والبزار والحاكم عن أبى ذر (الخصائص الكبرى ۲:۴۶۶).

[۴] رواه البزار عن ابن عباس وعن الزبير (كنز العمال ۱۲:۹۵۵) ورواه الحاكم وابن جرير والطبرانى عن أبى ذر (كنز العمال ۹۵، ۱۲:۹۸) وطريق أبو ذر طريق ضعيف. وجميع من ساق هذا الحديث ساقه من طريقه الضعيف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[۵] رواه أحمد والترمذى وحسنه والطبرانى وقال المناوى رجاله موثقون (الفتح الربانى ۱:۱۸۶).

[۶] رواه الطبرانى عن معاذ وابن عساكر عن ابن مسعود (كنز العمال ۱:۲۱۶).

[۷] رواه عبد الله بن أحمد وقال فی الفتح الربانی الحدیث جید الإسناد (الفتح ۴۴:۲۳).

[۸] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (۲۶۹:۷ الزوائد).

[۹] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی: الحدیث صحیح رواه مسلم بلفظه والبخاری بلفظ: لا طاعة فی معصیة " الفتح ۴۲:۲۳. "

[۱۰] أی:لتردنه إلی الحق.

[۱۱] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۸۳:۱).

[۱۲] أخرجه ابن أبی حاتم وأبو الشیخ وابن مردویه (الدر المنثور ۱۲:۳).

[۱۳] البدایة والنهایة ۱۳۳:۸.

[۱۴] رواه أحمد وإسناده صحیح (الفتح الربانی ۳۹:۲۳) والبخاری الصحیح (ک الفتن ۲۸۰:۲) ومسلم (الصحیح ۴۱:۱۸).

[۱۵] من الثابت أن حذیفة مات بعد قتل عثمان بأیام معدودات.

[۱۶] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۳۰:۴).

[۱۷] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۳۰:۴).

[۱۸] رواه أحمد (الفتح الربانی ۴۰:۲۳) ومسلم (الصحیح ۱۷۹:۲).

[۱۹] البخاری (الصحیح ۱۸۰:۲) ک الجهاد.

[۲۰] ابن عساکر (کنز العمال ۳۷۱:۸).

[۲۱] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۱۸۳:۲۳).

[۲۲] مقاتل الطالبین ۳۲۹:۱.

[۲۳] رواه أحمد وإسناده جید ورواه الترمذی بطریق آخر (الفتح الربانی ۹۹، ۲۰۰:۱).

[۲۴] رواه البخاری (الصحیح ۱۳:۱).

[۲۵] الإصابة ۴۶:۵.

[۲۶] الإصابة ۷۲:۱.

[۲۷] رواه أحمد وابن حبان فی صحیحه والحاکم (کنز ۲۳۸:۱) وقال السیوطی. رواه أحمد والطبرانی والحاکم وصححه (الخصائص الکبری ۲۶۵:۱).

[۲۸] شذرات الذهب:ابن العماد الحنبلی ۶۹:۱.

[۲۹] تاریخ الخلفاء ۱۸۷:۱.

[۳۰] تاریخ الخلفاء ۱۸۷:۱.

[۳۱] رواه أحمد بسند صحیح وأبو یعلی (کنز العمال ۱۱۹:۱۱).

[۳۲] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۱:۶) وقال ابن کثیر تفرد به أحمد وإسناده علی شرط السنن (البدایة ۲۲۸:۶) ورواه ابن جریر (کنز ۳۱۴:۱۱) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۰۷:۴)، والبیهقی (الخصائص الکبری ۲۳۶:۲)، وابن حبان فی صحیحه (کنز العمال ۱۹۵:۱۱).

[۳۳] رواه الحاکم (المستدرک ۵۰۷:۴).

[۳۴] رواه الحاکم (کنز العمال ۲۰۰:۱۰).

[۳۵] العقد الفرید ۶۲:۱.

[۳۶] رواه أحمد فی الورع ۱۹۳:۱.

[۳۷] أحمد فی الورع ۸۲:۱.

[۳۸] أحمد فی الورع ۹۷:۱.

[۳۹] رواه الحاکم والبیهقی (کنز العمال ۱۷۰:۱).

[۴۰] رواه أحمد وأبو داود والنسائی (کنز العمال ۱۷۰:۱).

[۴۱] سورة المجادلة: الآیة ۱۱.

[۴۲] سورة الزمر: الآیة ۹.

[۴۳] أبو یعلی (کنز العمال ۸۸:۶).

[۴۴] رواه مسلم (الصحیح ۲۲۴:۱۶) وأحمد (الفتح الربانی ۱۸۱:۱).

[۴۵] رواه أحمد (الفتح الربانی ۱۸۲:۱)، والحاکم وأقره الذهبی وقال الهیثمی رواه الطبرانی والبزار (الزوائد ۲۰۰:۱).

[۴۶] سورة مریم: الآیة ۵۸، ۶۰.

[۴۷] سورة النساء: ۶۹.

[۴۸] سورة المائدة: ۷۵.

[۴۹] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۸۴:۳).

[۵۰] رواه أحمد وأبو داوود والحاکم وصححه (الفتح الربانی ۲۹:۲۴).

[۵۱] رواه مسلم (الصحیح ۹۷:۱۸).

[۵۲] رواه أحمد وقال فی الفتح إسناده حسن (الفتح الربانی ۲۵:۲۳).

[۵۳] رواه الحاکم فی تاریخه (کنز ۲۰۵:۱۰).

[۵۴] رواه البخاری (الصحیح ۱۲۸:۴).

[۵۵] کان علی فی دائرة أهل بمکة عندما نزل قوله تعالی: (وأنذر عشیرتک الأقربین) وکان فی دائرة أهله عندما نزل قوله تعالی: (... وأنفسنا وأنفسکم)، وکان فی دائرة أهل یوم تبوک عندما قال له ": أنت منی بمنزلة هارون من موسی، "..... وفی العام التاسع عندما بعثه بسورة براءة، ویوم الکساء (إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت...)، ویوم غدیر خم: (من کنت مولاه فعلی مولاه).

[۵۶] رواه البخاری (الصحیح ۲۲۲:۴)، ورواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی رجاله ثقات (کتاب السنة ۴۹۳:۲).

[۵۷] رواه أحمد والحاکم وأقره الذهبی الطبرانی (الفتح الربانی ۳۲:۲۳)، (المستدرک ۴۱۵:۲)، (الزوائد ۲۴۵:۵).

[۵۸] رواه الدیلمی (کنز العمال ۱۰:۶).

[۵۹] رواه الطبرانی عن معاذ. وابن عساکر عن ابن مسعود (کنز ۲۱۶:۱).

دماء حول کهف النفاق

احذروا إن القانون هنا یقوم علی أعمدة، قال معاویة ": إیاک والسلطان،

فإنه یغضب غضب الصبیان، ویأخذ أخذ الأسد، وإن قلیلة یغلب کثیر الناس [" ۱] وقال ": إنی لا أحول بین الناس وألسنتهم ما لم یحولوا بیننا وبین

ملکنا [" ۲] وکتب إلی نائبه زیاد ": إنه لا ینبغی أن نسوس الناس سیاسة واحدة

باللین فیمرحوا، ولا بالشدة فنحمل الناس علی المهالک، ولکن کنت أنت للشدة والفظاظة والغلظة. وأنا للین والألفة والرحمة ["... ۳] .

لقد وضع بنی أمیة بذرة الاضطهاد فی الإسلام، ومن هذه البذرة خرجت شجرة تحت ظلالها وضعت الأرائک للملک العضوض،

ونصبت الخيام للجبريـة والطواغيت. وعلى طرقها توجه التهم للشـرفاء فيتهموا بالعمالة تارة، وبالتحريض تارة، وبالسـعى للاستيلاء على السـلطة تارة أخرى، وبالتهمـة تقطع الرؤوس، ويطاف بها هنا وهناك، على هـدير هتاف يدعو للسـلطان بدوام البغاء. والقانون لا يجوز الطعن فيه، لأن الذى أملاه صحابى شاهد النبى وسمع منه. ومرحا للطلقاء وأبناء الطلقاء، مرحا لاثنى عشر رجلا كانوا يريدون أن يقتلوا النبى صلى الله عليه

[صفحه ۲۱۸]

وسـلم عند عودته من تبوك، ومرحا لأصـحاب المسـجد الضرار. ونحن هنا سنلقى الضوء على كيفية تعامل القانون مع المسلمين تحت ثقافة السب. بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم بما يقرب من ثلاثين عاما.

[۱] البداية والنهاية ۱۳۵:۸.

[۲] الطبرانى ۱۸۷:۶.

[۳] البداية والنهاية ۱۳۶:۸.

قلوب من نحاس

يوم غدير خم قال النبى صلى الله عليه وسلم ": من كنت مولاه فعلى

مولاه ".... الحديث، وفى نفس الخطبة أوصى الأمة بوصايا وحذرهم من أمور منها قوله ": لعن الله من ادعى إلى غير أبيه ولعن الله من تولى غير مواليه الولد للفراش وللعاهر الحجر [" ۱] ولقد اخترت هذه الرواية، لأنها لزيد بن أرقم

وفيهـا ": كنـا مع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم بغـدير خم، ونحن نرفع غصن شـجرة عن رأسه فقـال، ".... ثم سـاق الحـديث. وهـذا الحـديث رواه أحمد عن أمامة قال: قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ": الولد للفراش وللعاهر الحجر وحسابهم على الله، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة [" ۲] ورواه أحمد والشيخان عن أبى عثمان أنه لقى أبا

بكرة فقال له: ما هذا الذى صـنعتم؟ إنى سـمعت سـعد بن أبى وقاص يقول: سـمع أذنى من رسول الله صـلى الله عليه وسلم وهو يقول: من ادعى أبا فى الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام. فقال أبو بكرة: وأنا سمعت من رسول الله [۳] .

وإذا كان معاوية قد حارب الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم يوم الغدير ": من كنت مولاه فعلى مولاه، " فإن معاوية تتبع الخطبة إلى نهايتها، وألحق زياد بن أبيه بالخيمة الأموية، ضاربا بالتحذير عرض الحائط. وزياد هو

[صفحه ۲۱۹]

المعروف بزيـاد بن أبى سـفيان، ويقـال فيه زيـاد بن أبيه، ويقـال زيـاد بن أمه. وادعاه معاويـة وألحقه بأبيه أبى سـفيان وصار من جملة أصـحابه. وكـان أمير المؤمنين على بن أبى طالب قـد حـذر زياد من معاويـة فقال له ": إن معاويـة يأتى المرء من بين يـديه ومن خلفه فاحذره [" ۴] .

وكان معاويـة يريد أن يخترق جبهة على، فبعث إلى زياد يغريه بهذا الاسـتلحاق، وكان زياد وقتئذ عاملا لعلى. وبعد وفاة أمير المؤمنين راسل معاويـة زياد رغبـة منه فى أن يسـتعين به فى تأسـيس ملكه والقضاء على المعارضـة. وبـدخول زياد خيمـة معاويـة جرت الـدماء أنهارا، ولم تقف حتى بعـد وفاة زياد الذى خلفه ابنه فكان شـر خلف لشـر سـلف. وروى الطبرى: كان زياد أول من شد أمر السـلطان، وأكـد الملك لمعاويـة، وألزم الناس الطاعـة، وتقـدم فى العقوبـة، وجرر السـيف، وأخـذ بالظنة، وعاقب على الشـبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفا شديدا [۵] وكان زياد أول من سير

بين يديه بالحراب، ومشى بين يديه بالعمد [۶] وضم معاوية إلى زياد الكوفة،

فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة [۷] وقام زياد بتعيين سمرة بن جندب

عاملا له على البصرة، وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة [۸] .

وسمرة بن جندب شرب من إناء زياد كل معالم القسوة، يقول الطبرى: سئل أنس بن سيرين، هل كان سمرة قتل أحدا؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟، استخلفه زياد على البصرة، فقتل ثمانية آلاف من الناس، وعندما قيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحدا بريئا قال: لو قتلت إليهم ا

[صفحه ۲۲۰]

مثلهم ما خشيت [۹] وعن أبى سوار العدوى قال: قتل سمرة من قومى فى

غداة سبعة وأربعين رجلا قد جمع القرآن [۱۰] ، وروى أن سمرة دخل إلى المدينة، وعند مرور الخيل ظهر رجل فضربوه بالحربة، وقال سمرة: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا [۱۱] .

فهذه القوة الحديدية التى يتحرك بها رجال لهم قلوب من نحاس، حذر النبى صلى الله عليه وسلم من مقدماتها يوم غدير خم. وذلك لأن أصحاب العقول البرونزية، التى تقرقع أنيابهم كقرقعة أنياب الحيتان، لن يجدوا فريسة يغرسون فيها أنيابهم سوى الذين يحبون على بن أبى طالب، فيوم الغدير دثر النبى على بن أبى طالب بدثار " من كنت مولاه "... فى الوقت الذى كان النبى يقول فيه ": لعن الله من ادعى إلى غير أبيه. "....

[۱] رواه الطبرى (الزوائد ۱۵:۴).

[۲] رواه أحمد (الفتح الربانى ۲۱۸:۲۱) والترمذى وقال فى تحفة الأحوذى أخرجه الجماعة إلا أبو داود (التحفة ۳۲۱:۴).

[۳] رواه أحمد والشيخان (الفتح الربانى ۴۱:۱۷).

[۴] أسد الغابة ۲۷۲:۲.

[۵] الطبرى ۱۲۶:۶.

[۶] الطبرى ۱۲۷:۶.

[۷] الطبرى ۱۲۸:۶.

[۸] الطبرى ۱۳۱:۶.

[۹] الطبرى ۱۳۲:۶.

[۱۰] الطبرى ۱۳۲:۶.

[۱۱] الطبرى ۱۳۲:۶.

مقتل حجر بن عدى

قال النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا:

"سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء [" ۱] وروى عن الإمام على

أنه قال ": يا أهل العراق سيقتل منكم سبعة نفر بعذراء، مثلهم كمثل أصحاب الأخدود [" ۲] وحجر بن عدى هو الذى قام بفتح عذراء، قال: إنى لأول فارس

من المسلمين هلل فى واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها [۳] .

فمن الذى قتل فى عذراء؟ الإجابة: إنه حجر بن عدى. فماذا قتل؟

[صفحه ۲۲۱]

الإجابة: قتل فى مولاه على بن أبى طالب! [۴] .

يقول ابن كثير: كان المغيرة بن شعبة على الكوفة إذا ذكر عليا فى خطبته يتنقصه بعد مدح عثمان، فيغضب حجر... فلما توفى المغيرة وجمع معاوية لزياد الكوفة مع البصرة، فعل ما كان يفعله المغيرة، فكان حجر يغضب كغضبه أيام المغيرة [۵] وروى أن زياد خطب يوما فى الجمعة، فأطال الخطبة وأخر

الصلاة، فقال له حجر: الصلاة، فمضى زياد فى خطبته، وكما ذكرنا من قبل أن بنى أمية كانوا يتعاملون مع الصلاة بطريقة خاصة بهم. وعند ما مضى زياد فى الخطبة، خشى حجر فوات الصلاة فضرب بيده إلى الحصا. وثار إلى الصلاة وثار الناس معه [۶] فلما رأى زياد. نزل وصلى بالناس. ثم كتب إلى معاوية فى

أمر حجر. فكتب إليه معاوية: أن شده فى الحديد واحمله إلى [۷] وتم القبض

على حجر، وأحضر الشهود الذين يشهدون عليه أنه سب الخليفة، وحارب الأمير، وأنه قال: إن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل على بن أبى طالب [۸] .

وروى أنه لما أخذ فى قيوده سائرا إلى الشام، تلقته بناته فى الطريق وهن يبكين، فمال نحوهن وقال: اسكتن، فسكتن، فقال: اتقين الله عز وجل واصبرن، فإنى أرجو من ربى فى وجهى هذا إحدى الحسنيين، إما الشهادة وهى السعادة، وإما الانصراف إليكن فى عاقبة. وإن الذى كان يرزقكن ويكفينى مؤونتكن هو الله تعالى، وهو حى لا يموت، أرجو أن لا يضيعكن. وأن يحفظنى فيكن [۹] .

وروى أنه ذهب إلى معاوية أولا فى دمشق، ثم أمر معاوية بقتله فى

[صفحه ۲۲۲]

عذراء. وقيل: إن معاوية تحرك فى موكبه من دمشق وضرب خيمته فى عذراء، وجاء حجر إليه. ولا ندرى لماذا اختار معاوية عذراء بالذات! وكما ذكرنا أن حجرا هو أول فارس قال لا- إله إلا الله فيها. وروى أن معاوية عندما أمر بقتل حجر وأصحابه، جاء رسول معاوية فقال لهم: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من على بن أبى طالب واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم. وإن أمير المؤمنين معاوية يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم. غير أنه قد عفى عن ذلك، فابرؤوا من هذا الرجل نخلى سبيلكم. فقالوا: إنا لسنا فاعلى ذلك. فأمر بقبورهم فحفرت، وأدنيت أكفانهم، فقاموا الليل كله يصلون. فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء لقد رأيناكم البارحة قد أطلتم الصلاة، وأحسنتم الدعاء، فاخبرونا ما قولكم فى عثمان. قالوا: هو أول من جار فى الحكم وعمل بغير الحق. فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين معاوية أعلم منكم. ثم قالوا: تبرؤون من هذا الرجل؟ قالوا: بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه. فأخذ كل رجل من أصحاب معاوية رجلا منهم ليقتله. فقال لهم حجر: دعونى أتوضأ. قالوا: توضأ. فلما توضأ قال لهم: دعونى أصلى ركعتين، فأيمن الله ما توضأت قط إلا صليت ركعتين. فتركوه يصلى. فلما صلى قال: والله ما صليت صلاة قط أخف منها. ولولا أن تظنوا فى جزعا من الموت لاستكثرت فيها [۱۰] .

وروى أن بعض أصحاب حجر قالوا: ابعثوا بنا إلى معاوية، فلما دخلوا عليه دخل الخثعمى قال: الله الله يا معاوية! فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثم مسؤول عما أردت بسفك دمائنا. فقال له معاوية: ما تقول فى على؟ قال: أقول فيه قولك. أتبرأ من دين على الذى يدين الله به. فسكت معاوية ثم قال لعبد الرحمن العنزى: ما تقول فى على: فقال لمعاوية: دعنى ولا تسألنى فهو خير لك. قال: والله لا- أدعك حتى تخبرنى عنه، فقال: أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا، ومن الآمرين بالحق، والقائمين بالقسط،

[صفحه ۲۲۳]

والعافين عن الناس، فقال معاوية: فما قولك فى عثمان؟ قال: هو أول من فتح باب الظلم، وأرج أبواب الحق، فقال معاوية: قتلت نفسك، قال: بل إياك قتلت [۱۱] .

لم يأمر معاوية بقتل العنزى فى مرج عذراء، بل اختاره من بين أصحاب حجر ليرى أهل العراق قتله. روى أن معاوية بعث به إلى زياد

وکتب إلیه: إن هذا العنزی شر من بعث، فعاقبه عقوبته التی هو أهلها، واقتله شر قتلة [۱۲].

وروی أن العنزی قبل أن یغادر عذراء قال لحجر: نعم أخو الإسلام کنت. ثم حمل إلی العراق فلما قدم به علی زیاد، أمر بدفنه حیا [۱۳].

وروی أن حجرا لما مشی إلیه فیاض الأعور بالسیف، ارتعدت فرائصه، فقیل له: یا حجر ألیس زعمت أنک لا تجزع من الموت؟ فقال: وما لی لا أجزع، وأنا أری قبرا محفورا وکفنا منشورا وسیفا مشهورا [۱۴] وروی أنه قال:

اللهم إنا نستعدیک علی أمتنا، فإن أهل الکوفة شهدوا علینا، وإن أهل الشام یقتلوننا، أما والله لئن قتلتمونی بها، إنی لأول فارس من المسلمین هلل فی وادیها، وأول رجل من المسلمین نبحته کلابها. فمشی إلیه الأعور، هدیة بن فیاض بالسیف، فأرعدت خصائله، فقال لحجر: أنا أدعک فابرأ من صاحبک. فقال حجر: لا أقول ما یسخط الرب. فقتله، وأقبلوا یقتلونهم واحدا واحدا حتی قتلوا ستة [۱۵] روی الطبری: قال الحسن: حجوهم ورب الکعبة [۱۶]، وفی قتل

حجر قالت هند ابنة زیدان الأنصاریة:

ألا یا حجر بنی عدی++

تلقتک السلامة والسرور

[صفحه ۲۲۴]

أخاف علیک ما أروی عدیا++

وشیخا فی دمشق له زئیر

یری قتل الخیار علیه حقا++

له من شر أمته وزیر [۱۷].

وروی أن حجرا أوصی قبل قتله فقال: لا تغسلوا عنی دما، ولا تطلقوا عنی قیدا، وادفنونی فی ثیابی، فأنا سألقی معاویة غدا [۱۸] وفی روایة: فإنی لاق

معاویة بالحادة، وإنی مخاصم [۱۹].

وقتل أصحاب عذراء الذین وصفهم الحدیث بأن مثلهم کمثل أصحاب الأخدود. لقد لفت النبی صلی الله علیه وآله وسلم الأنظار إلیهم، لیعلم الذین عاصروا الحدث حقیقة الأحداث. فحجر لم یکن مجرد قتیل، ولکنه شاهد علی تاریخ مضی، وشاهد علی إمارة تقلدها رجل وقع فی دائرة اللعن یوم غدیر خم، یوم أن قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ": لعن الله من ادعی إلی غیر أبیه."...

وکان حجر شاهدا أیضا علی کرسی کبیر یجلس علیه شیخ فی دمشق له زئیر، وهذا أیضا مخالف لما قیل یوم الغدیر. تری هل فهم أحد یومئذ الحکمة التی رواء قتل حجر. إننی أمیل إلی القول بأن الکثرة لم تفهم المغزی بدلیل أن حجرا دعا ربه وقال: اللهم إنا نستعدیک علی أمتنا، فإن أهل الکوفة شهدوا علینا وإن أهل الشام یقتلوننا. وأغلب الظن أن أهل الشام ما کانوا فی حاجة إلی شهود، فالذی یضیع الصلاة علی أقل تقدیر لیس بعیدا علیه أن یضیع الشهود - وها هو سمرة بن جندب الذی قتل الآلاف وما خاف أن یکون فیهم بریئا واحدا. وبعد أن فرغ معاویة من قتل حجر ورفاقه ذهب إلی المدینة، وروی أنه دخل علی عائشة ولم یشهد کلامهما أحد إلا ذکوان مولی عائشة [۲۰]، فقالت: ما حملک علی قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ قال: یا أم المؤمنین، إنی رأیت

[صفحه ۲۲۵]

قتلهم صلاحا للأمة، وبقاءهم فسادا للأمة فقالت: سمعت النبی صلی الله علیه وسلم یقول ": سیقتل بعذراء ناس یغضب الله لهم وأهل السماء [" ۲۱]، وبعد أن عاتبته عائشة قال: أنت والله العالمة العاملة بأمر رسول الله صلی الله علیه وسلم، الناصحة المشفقة البلیغة الموعظة، حضضت علی الخیر وأمرت به، ولم تأمرینا إلا بالذی هو لنا مصلحة وأنت أهل أن تطاعی [۲۲] وروی أنها عاتبته

أيضا فى قتل أخيها فقالت: أما خفت أن أقعد لك رجلا فيقتلك؟ فقال: ما كنت لتفعليه، وأنا فى بيت أمان، وقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": الإيمان قيد الفتك. " ثم قال: كيف أنا فى الذى بينى وبينك وفى حوائجك؟ قالت: صالح، فقال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا [۲۳] وفى رواية قال: كيف

برى بك يا أمة، قالت: إنك محب لنا، فقال: يكفينى هذا عند الله [۲۴] .

ولقد كان معاوية برا بأم المؤمنين، فعن سعيد بن عبد العزيز قال: قضى معاوية عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدين الذى كانت تعطيه الناس [۲۵] وعن عطاء قال: بعث معاوية إلى عائشة وهى بمكة

بطوق قيمته مائة ألف فقبلته [۲۶] وروى أن زيد بن منبه، أخو يعلى بن منبه

صاحب حجل عائشة، ومتولى تلك الحرب دخل على معاوية وشكا إليه دينا لزمه فأمر معاوية له بثلاثين ألف، وعندما هم زيد بالانصراف قال معاوية: وليوم الجمل ثلاثين ألف أخرى [۲۷] .

وليس معنى هذا أن أم المؤمنين تبحث عن الثروة، معاذ الله. فلقد كانت تأخذ المال من معاوية لتعطى المحتاجين. ولقد روى عن عائشة قالت: جلست

[صفحه ۲۲۶]

أبكى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ما يبكيك. إن كنت تريدين اللحوق بى، فيكفيك من الدنيا مثل زاد الراكب، ولا تخالطين الأغنياء [۲۸] .

[۱] ابن عساكر ويعقوب بن سفيان (كنز العمال ۱۲۶:۱) ابن كثير (البداية ۵۵:۸).

[۲] البداية والنهاية ۵۵:۸.

[۳] الكامل ۲۴۱:۳، أسد الغابة ۴۱۲:۱، الطبرى ۱۵۴:۶.

[۴] الحاكم (المستدرك ۴۷۰:۳).

[۵] البداية والنهاية ۵۱:۸، الطبرى ۱۴۳:۶.

[۶] الطبرى ۱۴۳:۶، الكامل ۲۴۳:۳.

[۷] البداية ۵۱:۸، الطبرى ۱۴۳:۶، الكامل ۲۴۳:۳، كتاب المحن ۱۲۰:۱.

[۸] البداية ۵۱:۸.

[۹] الطبرى ۱۵۲:۶.

[۱۰] الطبرى ۱۵۴:۶، الكامل ۲۴۱:۳، أسد الغابة ۴۶۲:۱.

[۱۱] الطبرى ۱۵۵:۶، الكامل ۲۴۲:۳.

[۱۲] الطبرى ۱۵۵:۶، الكامل ۲۴۲:۳.

[۱۳] الطبرى ۱۵۵:۶، الكامل ۲۴۲:۳.

[۱۴] الطبرى ۱۵۴:۶، الكامل ۲۴۱:۱، الحاكم (المستدرك ۴۶۹:۳) كتاب المحن ۱۸۸:۱.

[۱۵] الطبرى ۱۵۵:۶، الكامل ۲۴۱:۳، كتاب المحن ۱۸۸:۱.

[۱۶] الطبرى ۱۵۵:۶.

[۱۷] الطبرى ۱۵۷:۶.

[۱۸] الحاكم (المستدرك ۴۶۹:۳).

[۱۹] الحاكم (المستدرك ۴۷۰:۳) ابن عساكر (كنز العمال ۳۵۳:۱۱) أسد الغابة ۴۶۲:۱.

[۲۰] البدایة ۱۴۳:۸.

[۲۱] ابن عساکر ویعقوب بن سفیان (کنزل العمال ۵۸۸:۱۳) کتاب المحن ۱۱۹:۱.

[۲۲] البدایة والنهایة ۱۴۳:۸.

[۲۳] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۳۴:۱۹) کتاب المحن ۱۲۰:۱.

[۲۴] البدایة والنهایة ۵۷:۸.

[۲۵] البدایة والنهایة ۱۳۶:۸.

[۲۶] البدایة والنهایة ۱۳۷:۸.

[۲۷] العقد الفرید ۶۸:۲.

[۲۸] أبو سعید الأعرابی فی الزهد (کنز العمال ۷۳۱:۳).

هل رأیت آیة النار

کان عمر بن الحمق من أتباع حجر بن عدی، وکان یعترض علی ما

یعترض علیه حجر، وکما کان حجر حجة علی جموع أحاط بها العذاب من کل مکان، ودعوة لهم کی یأخذوا بالأسباب لدفع هذا العذاب، کذلک کان عمرو بن الحمق أیضا. روی عن عمرو أنه قال: هاجرت إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم. فبینما أنا عنده ذات یوم قال لی: یا عمرو هل لک أن أریک آیة الجنة تأکل وتشرب الشراب، وتمشی فی الأسواق؟ قلت: بلی بأبی أنت. قال: هذا وأشار بیده إلی علی بن أبی طالب. ثم قال لی: یا عمرو هل لک أن أریک آیة النار، تأکل الطعام وتشرب الشراب وتمشی فی الأسواق؟ قلت: بلی بأبی أنت. قال: هذا وقومه آیة النار، وأشار إلی رجل! فلما وقعت الفتنة ذکرت قول النبی صلی الله علیه وسلم ففرت من آیة النار إلی آیة الجنة. ثم قال عمرو: ویری بنو أمیة قتلی بعد هذا. والله إن کنت فی حجر فی جوف حجر، لاستخرجنی بنو أمیة حتی یقتلونی، حدثنی به حبیبی رسول الله صلی الله علیه وسلم، وقال لی: إن رأسی أول رأس تحتز فی الإسلام وینقل من بلد إلی بلد [۱] .

وروی أن عمرو بن الحمق کان من جملة من أعان حجر بن عدی، فطلبه زیاد فهرب وکان مریضا، وخرجت الخیل فی طلبه. وفی الطریق سأله رجل: من

[صفحه ۲۲۷]

أنت؟ فقال: من إن ترکتموه کان أسلم لکم، وإن قتلتموه کان أضر بکم. وهرب عمرو إلی الموصل [۲] ، وروی أن عامل الموصول لما رأی عمرا عرفه، فکتب إلی معاویة فأمر معاویة بقتله، فهرب نحو الجزیرة ومعه رجل یقال له زاهر، وبینما هما مختبآن إذ رأیا نواصی الخیل فی طلبه، فأمر زاهر أن یتغیب، وقال له: فإذا قتلت فإنهم یأخذون رأسی، فارجع إلی جسدی فادفنه، فقال له زاهر: بل انثر نبلی ثم أرمیهم حتی إذا فنیت معک. قال عمرو: لا ولکنی سأزودک منی ما ینفعک الله به. فاسمع منی: آیة الجنة محمد رسول الله صلی الله علیه وسلم، وعلامتهم علی بن أبی طالب! وتواری زاهر، فأقبل القوم، وقتل عمرو، ونزل إلیه رجل منهم فقطع رأسه. فکان أول رأس فی الإسلام نصب فی الناس. وخرج زاهر إلیه فدفنه [۳] وفی روایة: أن حیة نهشته فمات فقطعوا رأسه [۴] .

وبعد أن رفعت رأس عمرو بن الحمق لیراها أهل العراق، کان لا بد أن یراها أهل الشام. یقول البخاری: أول رأس بعث فی الإسلام رأس عمرو بن الحمق. بعثه زیاد إلی معاویة [۵] لکی تشاهد الأمة الرأس المقطوع. یقول ابن کثیر: وبعث برأسه إلی معاویة فطیف به فی الشام وغیرها، فکان أول رأس طیف به [۶] .

وکان معاویة قد ألقی القبض علی زوجه عمرو بعد أن فشل فی القبض علی عمرو، وألقی بها فی سجونه. ورأی معاویة بعد أن أطمئن إلی أن الأمة قد شاهدت الرأس، أن یبعث برأس عمرو إلی زوجته فی السجن. یقول ابن کثیر: ثم بعث معاویة برأسه إلی زوجته آمنة

بنت الشريد، وكانت فى سجنه فألقى فى حجرها، فوضعت كفها على جبينه، ولثمت فمه وقالت: عيبتموه عنى طويلا،

[صفحه ۲۲۸]

ثم أهديتموه إلى قتيلا، فأهلا بها من هدية، غير قالية ولا مقلية [۷] .

إن بنى أمية سجلوا السطور الأولى فى قانون الاضطهاد الذى يحمل غلاف الدين، فمن هنا كانت خطورتهم. ولأجل ذلك حذرت الدعوة منهم، ولقد ميزهم الله بعلامات على امتداد تاريخهم فى الجاهلية حتى لا تجهلهم قريش. فبينما كان لبنى عبد شمس أنهار كان لبنى هاشم أنهار أخرى، وجاءت الدعوة الخاتمة على هذا الأساس من المعرفة، جاءت الدعوة لتنهى الأحقاد وتعلن: لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، وتحذر من أصحاب مستنقعات الحقد لأنهم لو بلغوا أربعون رجلا على آرائك السلطة فسيكون قانونهم: السواد بستان لقريش، وأن أبا سفيان لو ولد الناس فلن يلد إلا حازما. إن الدعوة أرشدت الجيل الأول إلى الطريق الذى إذا أخذوا به فلن يضلوا أبدا. وقتل حجر، وقطع رأس عمرو بن الحمق، ومن قبلهما عمار بن ياسر، وزيد بن صوحان، وغيرهم ما وقع إلا على طريق ينتهى بتمزيق الأمة. ومن فضل الله تعالى ورحمته، أنه غرس على امتداد طريق الأمة الخاتمة مبشرات وعلامات، تنير الطريق قبل وقوع الحدث كى يحذر الناس. فعمار كان علامة لأحداث محددة، وأبو ذر كان علامة لوقت محدد، وحجر بن عدى وأصحابه علامات إرشادية لها مهمة ما، وعند ثقافة ما، فى زمن ما. ومعنى أن جبريل عليه السلام يخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن عمارا تقتله الفئة الباغية، وأن الله يغضب لقتل أهل عذراء، معنى هذا أن من أراد طريق العصمة من الفتن فلا يقف ضد المبشرات والعلامات، بل يجب عليه أن يدور معهم ويسلك طريقهم. وهذه العلامات باختصار شديد. دعوة للدخول فى رحاب الرحمة، والخروج من باب الضنك والعذاب الذى نشأ من اختلافهم وارتفاع أصواتهم وخذلانهم للحق، فالله سبحانه يبين للناس ما يتقون ويكشف لهم طريق المحن. فإذا آمن أهل القرى فتح عليهم سبحانه أبواب البركات، وإذا اختلفوا

[صفحه ۲۲۹]

أنار الطريق بالمبشرات والعلامات ليرفع عنهم ما جلبوه لأنفسهم، وهذا من رحمته الواسعة. يقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم": ذهبت النبوات وبقيت المبشرات [" ۸] فإغلاق الطريق أمام المبشرات وعلاماتها يعنى أن الذى أغلق

الطريق يسير فى عالم الفتن، وعالم الفتن لا يدرى القاتل فيه فى أى شئ قتل، ولا يدرى المقتول فى أى شئ قتل. وفى عالم الفتن الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وعلى كل داخل فى الباطل إثمان: إثم العمل به وإثم الرضا به. وليس معنى أن الفتن فى الخارج أن يغلق رجال الجيل الأول على أنفسهم الأبواب، لأن الفتن على أيامهم كان عليها علامات وعلامات، وكان إمام الهدى لا يجهله أحد. إن إغلاق الباب عند المقدمة سيكون إغلاقا للحقيقة عند النتيجة. والله تعالى يجرى الأحداث لينظر كيف يعمل عباده. كما أن لكل فتنة فقه. فهناك فتنة يدور فقهها على رحى " لو أن الناس اعتزلوهم " فالاعتزال هنا المقصود منه تجريد جهات الاستعلاء على عباد الله من المال، والجنود والفقهاء، فالاعتزال سيجعلهم بلا سيف وبلا سجن. وهناك فتن يجب أن يبحث المسلم فيها عن سيف من خشب، وذلك عندما يجد أن الذين من حوله يقتتلون على المال، أو على شبر من الأرض. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا رأيت رجلين من أمتى يقتتلان على المال، فاعدد عند ذلك سيفا من خشب [" ۹] .

وقال ": إذا رأيت الأخوين المسلمين يختصمان فى شبر من الأرض فاخرج من تلك الأرض [" ۱۰] .

وفى الجيل الأول لم يكن الإمام على، ومن بعده الإمام الحسن، يقاتلان من أجل المال. ولم يخرج أبو ذر، أو عمار، وأويس، أو حجر من أجل المال. فاعتزال هذا الخط يكون اعتزال فى غير محله. ولقد رأينا فى حركة التاريخ أن الغالب الأعم لم يعتزل الذين أمروا باعتزالهم واعتزلوا الذين نهوا عن

[صفحه ۲۳۰]

اعتزالهم. ونتيجة لذلك، ركبوا الطريق الذى يؤدى إلى عذراء فقتل حجر. وغضب الله وأهل السماء. وفى الفتن يقول الإمام على ": لا

یقولن أحدکم: اللهم إنی أعوذ بک من الفتن، لأنه لیس أحد إلا وهو مشتمل علی فتنة. ولکن من استعاذ فلیستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه یقول ": واعلموا إنما أموالکم وأولادکم فتنة، " ومعنی ذلک أنه سبحانه یختبر عباده بالأموال والأولاد، لیتبین الساخط لرزقه والراضی بقسمه. وإن کان الله سبحانه أعلم بهم من أنفسهم. ولکن لتظهر الأفعال التی بها یستحق الثواب والعقاب، لأن بعضهم یحب الذکور ویکره الإناث. وبعضهم یحب تثمیر المال. ویکره انثلام الحال [" ۱۱] .

فمن هذا نعلم أن الأحداث عندما تجری لا ـ بد للأفعال أن تظهر. فإذا أغلقت الأبواب فی موضع، فلیس معنی هذا أنها تغلق فی کل موضع بالنسبة للجیل الأول. وإلا لو کان الاغلاق قاعدة، ما کنا قد علمنا حرکة الأحداث. ولکننا علمنا عندما شاهدنا حرکة أبو ذر وعمار وحجر وغیرهم. ومن الدلیل أیضا علی عدم جدیة إغلاق الأبواب فی وجه الإمام علی والإمام الحسن، أن من الصحابة من واجه حرکة الاستکبار الأموی وهی فی عنفوانها، آخذا بالأسباب فی اتجاه رحمة الله الواسعة. ولتکون بصماته شاهدة علی الأحداث. روی أن قیس بن خرشه وفد علی النبی صلی الله علیه وسلم فقال: یا رسول الله، أبایعک علی ما جاءک من الله، وعلی أن أقول بالحق. فقال له النبی: عسی أن یکون علیک من لا تقدر علی أن تقوم معه بالحق - (وفی روایة: یا قیس عسی إن مد بک الدهر أن یلیک بعدی ولاة لا تستطیع أن تقول بحق معهم) [۱۲] ، فقال قیس: والله لا أبایعک علی شئ إلا وفیت لک به. فقال له النبی: إذا لا یضرک شئ. فکان قیس یعیب زیاد بن أبیه، وابنه عبید الله، وکان یقول قال لی النبی: لا یضرک شئ. فأرسل إلیه عبید الله بن زیاد وقال له: أأنت الذی تزعم أنه لن

[صفحه ۲۳۱]

یضرک شئ. فقال: نعم، قال: کذبت أنت تفتری علی الله ورسوله. فقال: لا والله. ولکن إن شئت أخبرتک بمن یفتری. قال ابن زیاد: وما هو؟ فقال: من ترک العمل بکتاب الله وسنة رسوله. قال: ومن ذاک، فقال: أنت وأبوک ومن أمرکما. قال ابن زیاد: لتعلمن الیوم أنک قد کذبت. وصاح قائلا: ائتونی بصاحب العذاب. فمال قیس عند ذلک فمات [۱۳] .

لقد خذل کثیر من الناس علامات البشری. إن نزول جبریل علیه السلام، وإخباره بأن الله یغضب لمن یقتل فی عذراء، کان دعوة لیقف الجیل الأول بعد قتل حجر وقفة رجل واحد حول الإمام الحسن. بعد أن خذلوه وکشفوا خنادقه أمام خیل معاویة. کان دعوة لیأخذوا بالأسباب التی ترضی الله بعد غضبه، والله واسع المغفرة. ولکن حرکة التاریخ سارت علی خلاف ذلک. وإذا کان الستار قد نزل هنا علی قطع رأس عمرو بن الحمق، والطواف بها فی الأمصار، ثم إرسالها إلی زوجته فی السجن، فإن الستار سیفتح هناک علی رأس أبی عبد الله الحسین بن علی علیهما السلام لیطوف بها جند الباطل. فی عالم دق فیه الخذلان أوتاده، ونصب خیامه، وفتح فیه بنو أمیة أبواب الفتن التی لیس فیها علی یری علی مصارعها.

[۱] رواه الطبرانی فی الأوسط وقال الهیثمی فیه عبد الله بن عبد الملک وهو ضعیف (الزوائد ۴۰۶:۹) وله شاهد قوی عند الطبرانی فی الکبیر. (کنز العمال ۶۲۷:۱۱) ورواه ابن عساکر بلفظ آخر بسند صحیح (کنز العمال ۴۹۶:۱۳).

[۲] الطبری ۱۴۸:۶، البدایة ۴۸:۸.

[۳] رواه ابن عساکر وقال ابن حجر فی الإصابة سنده جید (الإصابة ۵۳۳:۲) (کنز العمال ۴۹۸:۱۳).

[۴] البدایة ۴۸:۸، ابن عساکر (کنز العمال ۴۹۸:۱۳).

[۵] التاریخ الصغیر للبخاری ۱۰۵:۱.

[۶] البدایة والنهایة ۴۸:۸.

[۷] البدایة والنهایة ۴۸:۸.

[۸] رواه ابن ماجة وابن حبان فی صحیحه (الإصابة ۲۷۲:۸).

[۹] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۴۸:۱۱).

[۱۰] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۱:۱۴۹).

[۱۱] ابن أبی الحدید ۵:۳۷۰.

[۱۲] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۱:۱۹۰).

[۱۳] قال السیوطی أخرجه الطبرانی والبیهقی (الخصائص الکبری ۲:۲۵۴) وأخرجه الحسن بن سفیان فی مسنده وقال ابن حجر رجاله ثقات (الإصابة ۵:۲۵۰).

مقتل أبی عبدالله الحسین

و جاء وفد أغیلمة قریش

عندما قتلت الدولة حجر ورفاقه فی عام ۵۱ ه تحت شعار حفظ الأمن

الداخلی، کان الجهاز السری لنظام حکم بنی أمیة یدبر الخطط لاغتیال بعض الشخصیات الذین لا یمکن قتلهم علی طریقة حجر وغیره، وذلک لإفساح المجال أمام النظام الوراثی الذی عزم علیه معاویة. ولقد ظهرت رغبة معاویة فی تنصیب ابنه یزید خلیفة علی المسلمین عندما قدم له المغیرة بن شعبة مفتاح هذا الأمر. روی أن المغیرة خشی أن یستغنی عنه معاویة بعد أن کبر سنه ورق

[صفحه ۲۳۲]

عظمه. فأتی معاویة وقال له: یا أمیر المؤمنین إن الأنفس لیغدی علیها ویراح، ولست فی زمن أبی بکر ولا عمر، فلو نصبت لنا علما بعدک نصیر إلیه، فإنی قد کنت دعوت أهل العراق إلی بیعة یزید. فقال له معاویة: یا أبا محمد انصرف إلی عملک ورم هذا الأمر لابن أخیک [۱] .

وهکذا من أجل أن یضمن المغیرة إفناء عمره فی ولایة الکوفة، فتح علی أمة محمد صلی الله علیه وسلم بابا یأت بخیر، حتی أن المغیرة نفسه قال لاتباعه عقب خروجه من عند معاویة: والله لقد وضعت رجله فی رکاب طویل ألقی علیه أمة محمد [۲] .

وروی أن معاویة بعد لقائه مع المغیرة خطب أهل الشام فقال: یا أهل الشام. کبرت سنی، وقرب أجلی، وقد أردت أن أعقد لرجل یکون نظاما لکم، وإنما أنا رجل منکم [۳] لقد أراد معاویة من هذا البیان أن یدخل إلیهم بلافتة

الشوری، ویترک الأمر إلیهم فی اختیارهم، ثم یتصرف مع هذا الاختیار حسب ما یحب. وروی أن أهل الشام أجمعوا واتفقوا علی عبد الرحمن بن خالد بن الولید، فشق ذلک علی معاویة وأسرها فی نفسه [۴] ، وروی أن عبد الرحمن بن خالد کان مریضا، فدخل علیه ابن أثال النصرانی فسقاه سما [۵] ، وروی الطبری وغیره: أمر معاویة ابن أثال أن یحتال فی قتله، وضمن له أن هو فعل ذلک أن یضع عنه خراجه ما عاش، وأن یولیه جبایة خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن بن خالد حمص، دس إلیه ابن أثال شربة مسمومة، فشربها فمات، وولاه معاویة خراج حمص، ووضع عنه خراجه [۶] وکان ذلک عام ۴۶ ه أی

بعد صلحه مع الحسن بخمس سنین تقریبا.

[صفحه ۲۳۳]

ومعاویة کان قد تصالح مع الحسن رضی الله عنه بشروط، ولکنه مزق صحیفة الشروط بعد أن علم أن الموقف العسکری فی صالحه، ونظرا لأن ترکیبته النفسیة لا تقوی علی الوفاء بالشروط. وکان من ضمن هذه الشروط رأی یکون للحسن الأمر من بعده، وکان الحسن یرید من وراء هذا أن تتذوق الأمة نظام معاویة الذی لن یکون بحال نظاما یحمل روح الإسلام وأسمی معانیه. فیکون هذا دعوة للفظه جماهیریا، أو دعوة للالتفات حول الحسن فیما بعد. وهذا کله من باب الأخذ بالأسباب، وفقا لحرکة الدعوة وحرکة الناس. ولم یکن معاویة یفکر بعیدا عن هذا التصور الذی یسیر علیه الحسن، لذا بادر من أجل تصفیة الحسن علیه السلام. روی أن جعدة بنت الأشعث

بن قيس امرأة الحسن سقته السم، وقد كان معاوية دس إليها: إنك إن احتلت فى قتل الحسن، وجهت إليك بمائة ألف درهم، وزوجتك من يزيد، فكان ذلك الذى بعثها على سمه. فلما مات، وفى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: إنا نحب حباة [۷] يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه [۸] .

وروى أن الحسن رضى الله عنه قام فدخل المخرج ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كبدى، أقلبها بهذا العود، ولقد سقيت السم مرارا، وما سقيت مرة هى أشر من هذه. ثم قال لرجل دخل عليه: سلنى قبل أن لا تسألنى فقال: ما أسألك شيئا يعافيك الله [۹] وروى أن الطبيب قال عندما جاؤوا به: هذا رجل

قطع السم أمعاءه [۱۰] .

وروى أبو الفرج الأصفهانى: أن الحسن أرسل إلى عائشة أن تأذن له أن يدفن مع النبى صلى الله عليه وسلم فقالت: نعم. فلما سمعت بنو أمية بذلك استلاموا فى السلاح. وتنادوا هم وبنو هاشم فى القتال. فبلغ ذلك

[صفحه ۲۳۴]

الحسن. فأرسل إلى بنى هاشم، أما إذا كان هذا فلا حاجة لى فيه، ادفنونى إلى جنب أمى. ودفن إلى جنب فاطمة عليها السلام [۱۱] .

لقد كان الجهاز السرى يعمل بكل قواه من أجل إفساح الطريق لعهود تتربع فيه الأغيلمة السفهاء الذين حذر منهم النبى صلى الله عليه وسلم. حتى سعد بن أبى وقاص لم ينج من ضربات هذا الجهاز، فروى أن معاوية حين أراد أن يعهد إلى يزيد دس لسعد السم فمات [۱۲] وبعد أن فرغت الساحة من الذين

يخشى معاوية أن يقتلهم على مسمع ومرأى من قريش، ولم يتبق إلا نفر يمكن أن يقوم العسكر بتصفيتهم، بدأ معاوية يبايع لابنه يزيد.

وروى أن سعيد بن عثمان بن عفان عندما سمع بمبايعة معاوية لابنه قال لمعاوية: لقد اصطنعك أبى ورفاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذى لا يجارى إليه ولا يسامى، فما شكرت بلاءه، ولا جازيته بآلائه، وقدمت على هذا - يعنى يزيد - وبايعت له، ووالله لأنا خير منه أبا وأما. فقال معاوية: أما بلاء أبيك فقد يحق على الجزاء به، وقد كان من شكرى لذلك أنى طلبت بدمه، حتى تكشفت الأمور، ولست بلائم نفسى فى التشمير. وأما فضل أبيك على أبيه، فأبوك والله خير منى، وأقرب برسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما فضل أمك على أمه، فما ينكر امرأة من قريش خير من امرأة من كلب. وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة دحست ليزيد رجالا- مثلك. فقال له يزيد وكان حاضر المجلس: يا أمير المؤمنين ابن عمك! وأنت أحق من نظر فى أمره، وقد عتب عليك لى فأعتبه، فعندئذ ولاه معاوية حرب خرسان [۱۳] وروى أن عمرو بن حزم وفد على معاوية وقال له: أذكرك الله

فى أمة محمد بمن تستخلف عليها. فقال: نصحت وقلت برأيك، وإنه لم يبق إلا ابنى وأبناؤهم، وابنى أحق [۱۴] .

[صفحه ۲۳۵]

ومن الطريف أن يقول ابن كثير فى هذه الكارثة: لما مات الحسن، قوى أمر يزيد عن معاوية، ورأى أنه لذلك أهلا، وذلك من شدة محبة الوالد لولده. ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك ومعرفته بالحروب، وترتيب الملك، والقيام بأبهته [۱۵] وروى ابن كثير أن معاوية قال:

إنى خفت أن أذر الرعية من بعدى كالغنم المطيرة ليس لها راع. ونحن نعجب: أخاف معاوية على الرعية من بعده فنصب لهم يزيد، ولم يخف النبى صلى الله عليه وسلم على أمته فلم ينصب لهم أحدا؟! أكان معاوية حريصا على الإسلام فأتى بأولاد الملوك للقيام بأبهة الحكم، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم حريصا عليه ولذلك لم يأت بأصحاب الطهر والعفاف؟! لا والله. لقد كان النبى يخاف على أمته، وكان حريصا على استمرار الدعوة. وروى أن معاوية وهو يعد المسرح لابنه أمر بإحضار رؤوس القبائل، وعندما حضروا قام رجل من الأزد فأشار إلى معاوية وقال: أنت أمير المؤمنين، فإذا مت فأمير المؤمنين يزيد، فمن أبى هذا فهذا. وأخذ بقائم سيفه فسله. فقال له معاوية: اقعد فأنت من أخطب الناس [۱۶] وفى سنة ست وخمسين هجرية دعا

معاویة الناس إلى بیعة ابنه یزید من بعده وجعله ولی العهد [۱۷] وروى ابن کثیر

أن معاویة قال لیزید: کیف تراک فاعلا إن ولیت. قال: کنت والله یا أبه عاملا فیهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاویة: سبحان الله یا بنی، والله لقد جهدت على سیرة عثمان، فما أطقتها فکیف بک وسیرة عمر [۱۸] وقال ابن کثیر

وهو یصف یزید: کان فیه خصال محمودة فی الکرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأی فی الملک، وکان فیه أیضا إقبال على الشهوات، وترک بعض الصلوات فی بعض الأوقات، وإماتتها فی غالب

[صفحه ۲۳۶]

الأوقات [۱۹] ولقد وصفه غیر واحد وسیأتی فی موضعه:

[۱] العقد الفرید ۹۸:۱، الطبری ۱۶۹:۶، البدایة والنهایة ۷۹:۸.

[۲] العقد الفرید ۹۸:۱.

[۳] أسد الغابة ۴۴۰:۳.

[۴] أسد الغابة ۴۴۰:۳.

[۵] أسد الغابة ۴۴۰:۳.

[۶] الطبری ۱۲۸:۶.

[۷] حباة:من حبابی بمعنی نصر ومال واختفی.

[۸] مروج الذهب ۴۷۶:۲، الحاکم (المستدرک ۱۷۶:۳)، ابن أبی الحدید ۷۰۸:۴.

[۹] البدایة والنهایة ۴۲:۸، الحاکم (المستدرک ۱۷۶:۳)، ابن أبی الحدید ۷۰۸:۴.

[۱۰] البدایة ۴۳:۸.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۷۰۸:۴.

[۱۲] مقاتل الطالبین ۶۰:۱.

[۱۳] الطبری ۱۷۱:۶، البدایة والنهایة ۸۰:۸.

[۱۴] تاریخ الخلفاء ۱۹۲:۱.

[۱۵] البدایة والنهایة ۸۰:۸.

[۱۶] البدایة والنهایة ۸۰:۸.

[۱۷] مروج الذهب ۳۷:۳.

[۱۸] الطبری ۱۶۸:۶.

[۱۹] البدایة والنهایة ۲۳۰:۸.

ابناؤنا خیر من أبنائهم

بینما کان الإعلام الأموی یشید بأبناء بنی أمیة ویردد قول معاویة ": إنه لم

یبق إلا ابنی وأبناؤهم وابنی أحق " کان النبی صلى الله علیه وسلم قد أقام. الحجة على هذا القول ومثله، وأودع هذه الحجة فی ذاکرة الجیل الأول، وقوله تعالى: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءکم) [۱] وقوله النبی صلى الله علیه وسلم للحسن والحسین ": هذان ابنای وابن ابنتی اللهم إنی أحبهما ["... ۲] .

وقوله ": إن الله تعالى جعل ذریة کل نبی فی صلبه. وإن الله تعالى جعل ذریتی فی صلب على بن أبی طالب [۳] ، وقوله ": إن لکل

نبى أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم [".. ۴] وقوله ": نحن خير من أبنائنا، وبنونا خير من أبنائهم، وأبناء بنينا خير من أبناء أبنائهم [" ۵] إلى آخر الأحاديث

التى ذكرت علاقتهم بالنبى صلى الله عليه وسلم. فجميع هذا يطيح بادعاءات معاوية وغيره. لأن محبة الوالد لوالده، وتوسم الوالد فى ولده النجابة الدنيوية، والقيام بأبهة الملك شئ، ومحبة النبى لأبنائه وتعليمهم للقيام بأمر الله شئ آخر، وهذا لا يلتقى مع هذا من أول الخط وحتى حوض النبى صلى الله عليه وسلم، لأن لكل مقدمة نتيجتها وفقا لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم. فهذا كله كان فى دائرة الذهن لدى الجيل الأول، ولأن النبى صلى الله عليه.

[صفحه ۲۳۷]

وسلم يحبهم، فلقد حصنهم وحذر من اقتحامهم بسوء، لأن حربهم حربه [۶] ، ومن آذى أهله فقد آذى الله [۷] ومن أبغض الحسن والحسين فقد

أبغض رسول الله [۸] ومعنى تحصين النبى لهم أن النبى رفعهم إلى مكانه لا

يضرهم فيها من خذلهم. وهذه المكانة هى نفسها مكانة الدعوة والدعوة هى الحق. والحق حق ولو قل اتباعه، والباطل باطل ولو كثر اتباعه. وبهذا التحصين يكون الاعتداء عليهم هو اعتداء على الدعوة، ومن اعتدى على الدعوة فقد اعتدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذا ما صرحت به الأحاديث ونرى أنه لا داعى لتكرارها هنا. إن السيدة فاطمة كانت لها مهمة فى حدث محدد، قد نراه صغيرا، ولكنه تحت المجهر يكون كبيرا، والإمام على كانت له مهمة محددة، وكذلك الإمام الحسن، والإمام الحسين جاء دوره فى الوقت المناسب. فهو حجة على عصر يتم فيه ترجيح الأبناء، فابن عثمان، وابن خالد، وابن سعد، وابن معاوية، وابن الزبير، وابن أبى بكر كل منهم يريد الملك. فشاء الله أن تبدأ حركة الحسين فى هذا الوقت، علما بأن فى ذاكرة الجيل الأول الأحاديث التى تضع أبناء أمية وأبناء الحكم فى دائرة التحذير منهم. فهم الذين رآهم النبى على منبره ينزون نزو القردة، وهم الذين سيتخذون مال الله دولا، ودين الله دخلا، وعباد الله خولا- وفى نفس الوقت تحتوى الذاكرة على أبناء دائرة الطهر، أبناء الكساء والمباهلة. ولقد علم الجميع أنهم أهل البيت ولا أحد غيرهم. فالنبى كان يمر ببيت فاطمة لمدة سبعة أشهر ويقول فى وقت الصلاة والناس فى المسجد ": الصلاة يا أهل

[صفحه ۲۳۸]

البيت [".. ۹] وعلى هذا فدائرة الاختيار لا إجبار فيها، والله تعالى ينظر إلى

عباده كيف يعملون. فإن ركبوا طريق الدعوة أنزل عليهم بركات، وإن لم يركبوا، فإن الدعوة سائرة فى عالميتها، ولن توقف حركتها قبيلة من القبائل، حتى ولو قامت بتجنيد عصر بالكامل للنيل من هذه الدعوة، ولمن صد عقوبة عند الله والله يطارده ولا بقاء لشئ يطارده الله. إن الحسين بن على جاء فى الوقت المناسب كى يسوق الناس إلى الطريق المستقيم، فهو فى هذا الوقت عنوان لدائرة المبشرات، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": ذهبت النبوات وبقيت المبشرات [" ۱۰] فالحسين يقف عند مرحلة من مراحل الإخبار بالغيب،

يقف كعلامة بارزة، فإذا بعث إليه الناس أو جاؤوه، فليس عليه إلا أن يلبى. وكذلك كان الإمام على. لقد عهد إليه النبى أن لا ينازع، فإذا بايعه الناس فعليه أن يلبى. فإن تركوه فعليه أن يأخذ بالأسباب ويدعوهم وفقا لحركة الدعوة، ووفقا لحركة الناس بحيث أن لا يكون هناك إكراه بأى صورة من الصور. فالإسلام لا يكره أحدا، والإسلام لا يقيم وزنا إلا للذين يفكرون بمفهوم الحلال والحرام، ويؤمنون بأن غدا حساب وما الدنيا إلا قنطرة للآخرة. فالإمام على شق الطريق معهم، وقاتل على التأويل آخذا بكل سبب من الأسباب. وعند ما وقفوا بالغ فى نصحهم، وهو يعلم أنه على طريق هو مقتول فيه لا محالة. وسنة الأخذ الأسباب سنة إلهية، فالله سبحانه يقول": ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين - أنهم لهم المنصورون [" ۱۱] أى: أنا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون. فالرسل عليهم السلام منصورون فى الحجة لأنهم على الحق، والحق غير مغلوب، وهم منصورون على أعدائهم، إما بإظهارهم عليهم، وإما

بالانتقام منهم. وهم منصورون فى الآخرة، وقال تعالى ": كتب الله لأغلبن أنا ورسلى [" ۱۲] فالنصر هنا واقع لا محالة ولكن طريقه هو

[صفحه ۲۳۹]

طريق الأخذ بالأسباب، يقول تعالى ": أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) [۱۳] ، فهذه الآية تدل على دوام أمر الابتلاء والامتحان وجريانه على امتداد التاريخ الإنسانى. والابتلاء والامتحان لا بد أن يكون له حركة، لينظر الله ماذا يفعل عباده وهو أعلم بحركاتهم وسكناتهم من أنفسهم. وأيضا فى قوله تعالى: (وإن جندنا لهم الغالبون) [۱۴] ، فالمؤمنين الذين يعملون بأمر الله ويجاهدون فى سبيله، ما داموا على هذا الطريق وهذه الصفة، فهم متصورون غالبون. ولكن لا بد لهم من الأخذ بالأسباب التى تحكمها الدعوة، وفى عالم الأسباب يكون الابتلاء والامتحان. يقول تعالى وهو يخاطب المؤمنين: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) [۱۵] ، إنه ضوء على الحركة لتستقيم المقدمات مع النتائج. والإمام الحسين ادخره الله سبحانه لوقت سارت فيه الأمة فى أعماق الفتن والابتلاء، وكان عليه السلام يعلم بأنه مقتول فى نهاية الطريق، والذين من حوله يعرفون هذا جيدا. ولكنه لم يجئ ليقتل، وإنما جاء ليخرج أهل عصره من كهف مظلم، وأهل عصره أحرار فى الاختيار، فمن أجابه ونصره يكون قد عبر قنطرة الدنيا بأمان - وركب معهم الذين جاؤوا من بعدهم، وفى الحديث ": المرء مع من أحب [" ۱۶] ، ومن قاتله وسفك دمه فله عند الله عقوبة، وركب معه من أحبه، حتى يصير الناس إلى فسطاطين، إيمان لا نفاق فيه، ونفاق لا إيمان فيه. حتى يأتى الله بأمره. فيركب المهدى فسطاط الأيمان. ويركب الدجال فسطاط النفاق ". وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة

[صفحه ۲۴۰]

الدجال [" ۱۷] .

ولدقة مهمة الحسين عليه السلام أحيط بدائرة تحذيرية من أخطر ما يكون فقال النبى صلى الله عليه وسلم ": حسين منى وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط [" ۱۸] قال فى تحفة الأحوذى: علم

الرسول ما سيحدث له، فخصه بالذكر، وبين أنهما كالشئ الواحد فى وجوب المحبة، وحرمة التعرض والمحاربة. وأكد ذلك بقوله": أحب الله من أحب حسينا، " فإن محبته محبة الرسول، ومحبة الرسول محبة الله، وقوله ": حسين سبط من الأسباط " أى: أمة من الأمم فى الخير، والأسباط فى أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل. وأحدهم سبط، فهو واقع على الأمة والأمة واقعة عليه [۱۹] وقال فى لسان العرب: إن الأسباط فى ولد إسحاق

من إبراهيم بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل عليهم السلام، فولد كل ولد من ولد إسماعيل قبيلة، وولد كل ولد من ولد إسحاق سبط. وإنما سمى هؤلاء بالأسباط وهؤلاء بالقبائل، ليفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق. وسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم معناه أى: طائفة وقطعة منه. ومن هذا الحديث يمكن القول. بأن الذى يقاتل الحسين فإنه سيدخل فى دائرة الذى يريد أن يقضى على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أى سيكون بمثابة الذى يريد أن يقضى على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أى سيكون بمثابة الذى يريد أن يخلع الشجرة بجذورها، وهذا قمة الفساد فى الأرض. فأى مكان لأولادهم هنا؟ وكيف يتم وضعهم على رقبة الأمة؟ أن لفظ سبط جاء ليكون مميزا عن لفظ القبيلة، فهم قبائل. وحتى لا تختلط عليهم الأمور، ويدخلون دهاليز الرأى والتأويل، جاءت الكلمة التى يعرفون أنهم ليسوا

[صفحه ۲۴۱]

من نسيجها. وبنفس الكلمة أقام النبى صلى الله عليه وسلم عليهم الحجة فقال: إن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلف نبى، وإنه لا نبى بعدى. إنه سيكون خلفاء فنكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذى جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم [" ۲۰] .

إنه طريق الحسن والحسين، ومن معالمه ": وأعطوهم حقهم الذى جعل الله لهم " ومن معالمه أن الله هو الذى استرعاهم. بمعنى أن معاوية، والمغيرة، وزياد، ومروان، وغيرهم ليس لهم يد فى عملية التنصيب وهذا باب كبير لا مجال لبحثه هنا. وكان الحسين يعلم أنه سبط من الأسباط، وأنه سيعتدى عليه كما اعتدت اليهود على أعلامها. فكان يقول ": والله لتعدن كما اعتدت بنو إسرائيل فى السبت" [۲۱] والذى يتدبر أحاديث الإخبار بالغيب، يجد أن النبى

صلى الله عليه وسلم كان يحذر من اتباع طريق الذين ضلوا وانحرفوا من بنى إسرائيل. وفى هذا إشارة إلى أن بعد الحسين الذى وصفه الحديث بسبط من الأسباط سيكون اختلاف وفرقة، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لتهوكن كما تهوكت اليهود والنصارى [" ۲۲] ، فالنبى حذر، وعلم من ربه أن هناك من لن يأخذ بالتحذير - فأخبر بما سيكونوا عليه فى بطن الغيب. إن الحسين لم يأت ليقتل، وإنما جاء لينظر الله عمل الأمة فيه، وهو سبحانه العليم المطلق، والأمة ستقتل الحسين، وهى فى هذا العمل مختارة، ولو شاء الله ما فعلوه. فهو سبحانه العزيز وغيره ذليل، فقول معاوية ": إنه لم يبق إلا ابنى وأبناءهم وابن أحق " قول يصلح للتجارة، وزينة يتزين بها الذين لا يشبعون حتى ولو جلسوا على آرائك الملك. إن أبناء النبى فى دائرة الطهر وعلى قمة الحجة. أما غيرهم فهم مبتلون بهم، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إن

[صفحه ۲۴۲]

أهل بيتى سيلقون بعدى من أمتى قتلا وتشريدا، وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم [" ۲۳] فإذا رفع واحد من أولادهم سيفا على أبى

عبد الله الحسين فسيكون بمثابة الذى رفع سيفه على طائفة هى من الرسول والرسول منها. عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرج ما بين فخذى الحسين وقبل زيبته [" ۲۴] .

[۱] سورة آل عمران: الآية ۶۱.

[۲] رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم وابن حبان (تحفة الأحوازى ۲۷۴:۱۰)، (الجامع ۶۵۶:۵).

[۳] رواه الطبرانى عن جابر والخطيب عن ابن عباس (كنز العمال ۶۰۰:۱۱).

[۴] رواه الحاكم وابن عساكر عن جابر (كنز العمال ۹۸:۱۲).

[۵] رواه الطبرانى عن معاذ (كنز العمال ۱۰۴:۱۲).

[۶] رواه أحمد والترمذى والحاكم والطبرانى وابن ماجة وابن أبى شيبة وابن حبان فى صحيحه والضياء (جامع الترمذى ۶۹۹:۵)، (الفتح الربانى ۱۰۶:۲۲)، (المستدرك ۱۴۹:۳)، (كنز العمال ۹۶:۹۷:۱۲ /، ۱۴۹، ۶۴۰:۱۳)، (البداية والنهاية ۳۸:۵).

[۷] أبو نعيم عن على (كنز العمال ۱۰۳:۱۲).

[۸] أحمد (الفتح الربانى ۷:۲۳) والحاكم وصححه (المستدرك ۱۶۶:۳)، وابن ماجة وصححه البوصيرى (كنز العمال ۱۱۶:۱۲).

[۹] رواه الترمذى (البداية والنهاية ۲۰۵:۸).

[۱۰] ابن ماجة وابن حبان فى صحيحه (الإصابة ۲۷۲:۸).

[۱۱] سورة الصافات: الآية ۱۷۱ - ۱۷۲.

[۱۲] سورة المجادلة: الآية ۲۱.

[۱۳] سورة البقرة: الآية ۲۱۴.

[۱۴] سورة الصافات: الآية ۱۷۳.

[۱۵] سورة آل عمران: الآية ۱۳۹.

[۱۶] البخارى (الصحيح ۷۷:۴).

[۱۷] رواه أحمد والبزار وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۱۸] رواه الترمذی وحسنه وقال رواه غیر واحد (الجامع ۶۵۸:۵) وقال فی تحفة الأحوازی رواه البخاری فی الأدب المفرد وابن ماجة والحاکم (تحفة الأحوازی ۲۸۰:۱۱)، ورواه أحمد (الفتح الربانی ۱۷۹:۲۳).

[۱۹] تحفة الأحوازی ۲۸۰:۱۰.

[۲۰] رواه عبد الله بن أحمد وقال فی الفتح إسناد صحیح (الفتح ۵۲:۲۳).

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۶۹:۸، الطبری ۲۱۷:۶.

[۲۲] رواه ابن حبان فی صحیحه (کنز العمال ۲۰۱:۱).

[۲۳] رواه نعیم ابن حماد والحاکم (کنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۲۴] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۸۶:۹).

النبی یبکی

کان النبی صلی الله علیه وسلم یری الرؤیا فی منامه، فإذا استیقظ

حدث الناس بحقیقة جاءت فی صورة رؤیا. وکان الله تعالی فی أحیان أخری یریه بعینه رؤیة فیراها رأی العین، أی یقع بصره علیها من دون خلق الله، فیحدث بها علی أنها حقیقة. فکان علیه الصلاة والسلام یجلس فی المسجد وأمامه الناس. فیقول ": من أحب أن یسأل عن شئ فلیسأل عنه، فوالله لا تسألون عن شئ إلا أخبرتکم به ما دمت فی مقامی هذا، والذی نفسی بیده لقد عرضت علی الجنة والنار آنفا فی عرض هذا الحائط وأنا أصلی ["... ۱] ، وروی أن أحد أصحابه قال له ": أین مدخلی یا رسول الله. قال: النار [۲] وروی أنه خطب فقال: أیها

الناس إن فیکم منافقین، فمن سمیت فلیقم، قم یا فلان، قم یا فلان، حتی عد، ستا وثلاثین [" ۳] .

فالنبی صلی الله علیه وسلم کان یری فردا ما أمامه، ثم یری حرکة هذا الفرد فی التاریخ، ثم یری مدخل هذا الفرد هل فی الجنة أم فی النار. ووفقا لهذا کان یخبر عن بنی أمیة ویقول ": أریت فی منامی بنی الحکم [" ۴ "] ، رأیت

[صفحه ۲۴۳]

بنی أمیة [".. ۵] ، ویخبر عن أحداث أخری فیقول ": إنی أری مواقع الفتن خلال بیوتکم [" ۶ "] ، رأیت الدجال أعور العین الیمنی... [۷"] ویخبر عن

أحداث أخری فیقول ": لیدخلن علیکم رجل لعین [" ۸] إلی غیر ذلک من

أحادیث الإخبار بالغیب. وکلما تکرر الحدث أکثر من مرة، کان أمره عظیما. کحدیث الکساء نزلت آیته فی بیت أم سلمة، ثم تکرر دعاء الرسول لأهل الکساء فی أکثر من موضع فسمعت به عائشة، وواثلة، وعمر بن أبی سلمة، وشداد بن أبی عمار، وزینب بنت أبی سلمة، وإسماعیل بن عبد الله. وکذلک مروره صلی الله علیه وسلم علی بیت فاطمة ستة أشهر، وفی روایة سبعة أشهر، ونداؤه الصلاة یا أهل البیت، وأیضا حدیث من کنت مولاه فعلی مولاه، سمعته جموع غفیرة ورواه غیر واحد. وأیضا حدیث الارتداد. وذلک عندما یقول النبی ": یا رب أصحابی فیقال إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک، " فلقد تکرر فی أکثر من موضع، ورواه أکثر من واحد. وهکذا فالأمور العظیمة والأحداث المصیریة تتکرر مشاهدتها أکثر من مرة ویخبر عنها الرسول فی أکثر من موضع ویرویها أکثر من واحد. وأحداث أبو عبد الله الحسین علیه السلام من هذا النوع، فلقد نزل بها جبریل علیه السلام، ونزل بها ملک لم یکن ینزل علی النبی صلی الله علیه وسلم من قبل، ونزل بها ملک المطر. وأخبر النبی صلی الله علیه وسلم بأحداثها: علی وعائشة وأبو بکر وعمر وأم سلمة وابن عباس وغیرهم، ووصف المکان الذی سیدور فیه القتال وسماه، بل وأحضر له جبریل من تربتها... حتی

[صفحه ۲۴۴]

أن الطبرى وغيره رووا: إن أهل ذلك الزمان يقولون ذلك الأمر وينتظرونه فى كل يوم وليلة [۹] وروى الحاكم عن ابن عباس قال: ما كنا نشك، وأهل البيت

متوافرون، أن الحسين يقتل بالطف [۱۰] ، وذكر ابن كثير عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها قالت: أشهد لقد سمعت عائشة تقول: إنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يقتل الحسين بأرض بابل [۱۱] .

وروى عن على أنه قال: ليقتلن الحسين قتلا، وإنى لأعرف تربة الأرض التى بها يقتل. قريبا من النهرين [۱۲] وروى أنه مر أيام صفين بكربلاء فنادى:

اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله بشط الفرات ["... ۱۳] ، ثم أخبر بقتل الحسين. وروى أنه جاء على الموضع الذى سيقتل فيه الحسين وقال: ههنا مناخ ركابهم، وموضع رحالهم، ومهراق دمائهم، فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة، تبكى عليهم السماء والأرض" [۱۴] ، وفى رواية قال: ها هنا، هاهنا، ثقل لآل محمد ينزل ها هنا فويل لهم منكم، وويل لكم منهم، فقال له رجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم، وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار [" ۱۵] ، والحسين كان يعرف كل ما يتعلق بتحركاته، كان يعرف أن جند الباطل سيقطع رأسه، وأنهم سيسرقون متاعه بعد ذلك، بل والأكثر من ذلك أن أمير القتلة عمر بن سعد بن أبى وقاص، كان يعرف موقفه من الحسين قبل أن يتحرك الحسين، روى أن على بن أبى طالب عليه السلام قال لعمر بن سعد: كيف أنت إذا قمت مقاما خير فيه بين الجنة والنار فتختار

[صفحه ۲۴۵]

النار [۱۶] تماما كما أخبر القرآن بأن أبا لهب لن يؤمن، فى الوقت الذى يدعو فيه القرآن الجميع إلى الإيمان، إن هناك أنماطا بشرية علم الله أن الرسول لو جاءهم بكل آية فسيكون لهم تفسيرهم الخاص. بل إن هناك أنماطا سيطلبون العودة إلى الدنيا يوم القيامة ليعملوا صالحا، والله يعلم أنهم لو عادوا فلن يفعلوا إلا ما كانوا يفعلون على الرغم من أنهم شاهدوا النار بأعينهم. يقول تعالى ": ولو ترى إذ وقفوا على النار، فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين - بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) [۱۷] .

فهؤلاء منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من أخذ بذيول الآباء، وعلى رؤوسهم جميعا حجة من الله، لأن الله تعالى لا يكذب أحدا، إلا بعد أن يقيم عليه الحجة، فإن أعرض عنها ولم يحدث نفسه بتوبة، كانت له عند ربه الأعلى عقوبة. وبعد أن بينا أن الناس كانوا يعرفون حقيقة الأحداث قبل وقوعها، كى يأخذوا بالأسباب التى تجعلهم يحققون سعادة الدنيا والآخرة، ولا يدفعون الأحداث دفعا حتى يسفك الدم الحرام. نقدم الآن بعض الأحاديث التى رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم عن منزلة الحسن والحسين، ولقد قدمنا بعضا على امتداد هذا البحث. ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم ": الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. " وهذا الحديث محفوظ ورواه ستة عشر صحابيا [۱۸] وقول النبى صلى الله عليه

وسلم ": هما ريحانتاى من الدنيا [" ۱۹] ، وقوله ": من أحبهما فقد

[صفحه ۲۴۶]

أحبنى [" ۲۰] فمنزلتهما فى الجنة لا خلاف عليها، وموقعهما فى الدنيا واضح،

وروى أن ابن عباس كان يأخذ الركاب للحسن والحسين إذ ركبا ويرى هذا من النعم عليه [۲۱] .

وما ورد فى أبى عبد الله كثير، ومنه عن أبى هريرة قال: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو حامل الحسين وهو يقول ": اللهم إنى أحبه فأحبه [" ۲۲] وعن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن على [۲۳] والأحداث الكبرى على امتداد الجيل الأول كان النبى صلى

الله عليه وسلم يحدد فيها المثل الأعلى المرتفع، والمثل الأعلى المنخفض، ويبين أن طريق المثل الأعلى المرتفع غايته الله ومكانه فى الجنة. أما المثل الأعلى المنخفض، فإن على طريقه تكون الفتن التى يغيب فيها العقل، وترقع فيه الحقائق، وتلتبس فيه الأمور، ولا ينجو إلا العالم بما يجرى. وبداية طريق المثل الأعلى والمرتدع أن يتذكر الإنسان أنه سيموت وسيبعث وسيعرض على الله الملك الحق، وأن هذه الدنيا صغيرة، وهى دار للامتحان عند دائرة فيها نقص فى الأنفس، ونقص فى الثمرات، وشئ من الخوف، وشئ من الجوع. ودار للامتحان عند دائرة زينها الشيطان وزخرفها رغبة منه فى الاغواء والاحتناك. وعلى امتداد طريق المثل الأعلى المرتفع، يواجه الإنسان المحن بزاد الصبر. أما طريق المثل الأعلى المنخفض، فدائما ما يشق خطاه فى ساحات الزينة والافتخار بالأموال والأولاد. وأصحابه يعز عليهم أن يغادروا الدنيا وليس لهم أعلام تأكل وتحلد وتسجن باسمهم. فطريق المثل الأعلى المنخفض هو نفسه الطريق الذى يتكالب فيه

[صفحه ۲۴۷]

أصحاب الأنياب على المستضعفين من أبناء هذه الأمة الجريحة ولقد كان أبو عبد الله الحسين علما من أعلام طريق المثل الأعلى المرتفع الذى غايته الله وحده. كان أبو عبد الله دعوة لرفض الظلم والاستكبار على عباد الله المساكين. فالسلطة الأموية تسير بالقافلة نحو طريق لا يورث الأمة إلا الذل والعار. ألم يقتل حجر بن عدى ويدعى معاوية زياد وتسير الصلاة فى طريق الضياع؟ ألم تنفق أموال المسلمين على تدبير المؤامرات وقتل من ترى الدولة أنهم معارضين لسياستها؟ ألم تتخذ الدولة بطانة لها من النصارى وعلى رأسهم سرجون الرومى موضع سر معاوية؟ ثم ألم يكن هذا كله مقدمة أو خطوة داخل مربع اتخاذ مال الله دولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا؟ وعلاوة على هذا، ألم تكن الساحة قد طفحت تحت ثقافة السب بأجيال سيكون لهم الأثر البالغ على مسيرة الأمة بعد عام ستين، ذلك العام الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون مقدمة للفجار والمنافقين الذين يتاجرون بالقرآن. وفوق هذا الطوفان يبحث المحترفين من أبناء الصحابة عن طريق لكى يصلوا به إلى سدة الحكم. إن هذا الطفح كان لا بد له من مثل أعلى مرتفع، فمن تذكر الموت وعلم أن لكل ذرة فى هذا الكون رسالة، وأن رسالته هى الوقوف فى خنادق الدعوة والسير على طريقها وفى اتجاه أهدافها. فمن علم ذلك فلن يجد مشقة فى الوقوف تحت مظلة المثل الأعلى المرتفع. ويكفيه عنوان " من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا - يعنى الحسين [۲۴] ، ويكفيه أيضا العنوان التحذيرى القاطع الباتر ": إن ابنى هذا يقتل بأرض من أرض العراق يقال لها: كربلاء، فمن شهد ذلك فلينصره - " وفى رواية ": فمن شهده فلينصره - " وفى رواية ": فمن شهد منكم ذلك فلينصره [" ۲۵] .

[صفحه ۲۴۸]

ولأن النبى صلى الله عليه وسلم علم من ربه ماذا ستكون عليه الأمور، كان يبكى بكاءا شديدا، كلما جاء إليه نعى أبى عبد الله الحسين. وكما ذكرنا فلقد جاء إليه النعى فى أكثر من موضع، وحمله أكثر من واحد. عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ذات يوم فى بيتى. فقال: لا يدخل على أحد، فانتظرت، فدخل الحسين، فسمعت نشيج (أى: صوت معه توجع وبكاء) رسول الله يبكى، فاطلعت فإذا حسين فى حجره، والنبى صلى الله عليه وسلم يمسح جبينه وهو يبكى. فقلت: والله ما علمت حين دخلت. فقال: إن جبريل كان معنا فى البيت. قال: أفتحبه؟ قلت: أما من الدنيا فنعم. فقال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها: كربلاء. فتناول جبريل من تربتها وأراها النبى ["... ۲۶] ، وفى رواية: فقلت لجبريل: أرينى تربة الأرض التى يقتل فيها - فجاءنى فهذه تربتها [۲۷] .

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لقد دخل على البيت ملك لم يدخل على قبلها. فقال لى: إن ابنك هذا حسين مقتول. وإن شئت أريتك من تربة الأرض التى يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء [۲۸] .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: استأذن ملك القطر أن يأتى النبى صلى الله عليه وسلم، فأذن له. فقال لأم سلمة: احفظى علينا الباب لا- يدخل علينا أحد، فجاء الحسين بن على، فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبى صلى الله عليه وسلم. فقال الملك:

أتحبه؟ قال: نعم، فقال:.

[صفحه ۲۴۹]

إن أمتک تقتله، وإن شئت أریتک المکان الذی یقتل فیه. قال: فضرب بیده فأراه ترابا أحمر. فأخذت أم سلمة ذلک التراب فصرته فی طرف ثوبها، قال أنس: فکنا نسمع أنه یقتل بکربلاء [۲۹] .

فماذا کان یفعل النبی صلی الله علیه وسلم عقب کل إخبار من ملک من الملائکة؟ لقد کان النبی یبلغ ویحذر، روی الطبرانی: فلما ذهب جبریل من عند رسول الله صلی الله علیه وسلم خرج والحسین فی یده یبکی، فقال: یا عائشة إن جبریل أخبرنی أن ابنی حسین مقتول فی أرض الطف، وإن أمتی ستفتن من بعدی، ثم خرج النبی صلی الله علیه وسلم إلی أصحابه منهم: علی، وأبو بکر، وعمر، وحذیفة، وعمار، وأبو ذر رضی الله عنهم وهو یبکی، فقالوا: ما یبکیک یا رسول الله. فقال: أخبرنی جبریل أن ابنی الحسین یقتل بعدی بأرض الطف، وجاءنی بهذه التربة، وأخبرنی أن فیها مضجعه [۳۰] .

وأخرج ابن سعد فی الطبقات عن عائشة قالت: بینما رسول الله صلی الله علیه وسلم راقد. إذ جاء الحسین یحبوا إلیه، فنحیته عنه، ثم قمت لبعض أمری، فدنا منه فاستیقظ یبکی، فقلت: ما یبکیک قال: إن جبریل أرانی التربة التی یقتل علیها الحسین، فاشتد غضب الله علی من یسفک دمه. وبسط یده فإذا فیها قبضة من بطحاء، فقال: یا عائشة والذی نفسی بیده إنه لیحزننی، فمن هذا من أمتی یقتل حسینا بعدی؟ [۳۱] .

أما عندما نزل الملک علی النبی وأخبره بمقتل الحسین. فلقد روی الطبرانی عن عائشة: أن الحسین بن علی دخل علی رسول الله صلی الله علیه وسلم، فقال النبی صلی الله علیه وسلم: یا عائشة ألا أعجبک؟! لقد دخل.

[صفحه ۲۵۰]

علی ملک آنفا ما دخل علی قط. فقال: إن ابنی هذا مقتول. وقال: إن شئت أریتک تربة یقتل فیها. فتناول الملک بیده. فأرانی تربة حمراء [۳۲] وروی عبد بن

حمید فی مسنده بسند صحیح أن النبی کان یبکی ویقول ": یا لیت شعری من یقتلک بعدی، " وروی الطبرانی أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": نعی إلی الحسین وأتیت بتربته وأخبرت بقاتله، والذی نفسی بیده، لا یقتلوه بین ظهرانی قوم لا یمنعونه، إلا خالف الله بین صدورهم وقلوبهم وسلط علیهم شرارهم وألبسهم شیعا [۳۳] وروی ابن عساکر أن النبی صلی الله علیه وسلم قال:

"حسین أتیت بتربته، ورأیت قاتله أما أنه لا یقتل بین ظهرانی قوم فلا ینصرونه. ألا عمهم الله بعقاب [" ۳۴] .

مما سبق علمنا أن العصر الأول کان علی علم بأحداث أبی عبد الله الحسین فی خطوطها العریضة، وأنهم کانوا یعلمون أیضا بما سیترتب علی قتل الحسین. فالطریق بعد القتل فیه عذاب من الله، وأمروا أن ینصروا الحسین. ومن الثابت والمحفوظ أن معاویة کان یسب أهل البیت علی منابر دمشق وغیرها. ولم تقف الأکثریة ضد هذه الثقافة التی لیس فیها نصر للحسین. لم یعملوا بسیاسة ": لو أن الناس اعتزلوهم [" ۳۵] ، ولم یأخذوا بقول النبی صلی الله علیه وسلم فی حجة الوداع " أیها الناس خذوا العطاء ما کان عطاء، فإذا تجاحفت قریش علی الملک، وکان عن دین أحدکم فدعوه [" ۳۶] وقال ": خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا کان إنما هو رشا فاترکوه، ولا أراکم تفعلون، یحملکم علی ذلک الفقر

[صفحه ۲۵۱]

والحاجة. ألا وإن رحی بنی مرج قد دارت، وإن رحی الإسلام دائرة، وإن الکتاب والسلطان سیفترقان. فدوروا مع الکتاب حیث دار"..

[۳۷] .

إن الأغلبیة بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم بأقل من خمسین سنة لم یعتزلوا بنی أمیة، علی الأقل عندما تبینوا أن معاویة یتجاحف علی الملک وهو من الطلقاء، ویبذر المال بذرا لوقف تقدم الذین یدورون مع الکتاب حیث دار. ولا یعنی هذا أن بنی أمیة شقوا

طریقهم بسهولة ویسر، لأن خیر أمیة أخرجت للناس ما نامت، إن کان أکثرهم قد قتل. ولو لم یکن هناک غیر هذه الفئة القلیلة لکان ذلک کفایة، لأن التاریخ قد سجل وعلم الشاهد والغائب أن خیر أمة أخرجت للناس وقفت بالمرصاد للظلم والاستکبار وبطر الحق، الذی اتخذ من الدین رداءا له. ولم یحدث علی امتداد التاریخ الإنسانی أن خرجت أمة علی أمة، أمة ترفع رایة الإسلام وهی ترید بطر الحق، وأخری علی بینة وترفع رایة القرآن والسنة، وتنادی بإقامة العدل. ولم یحدث فی أمة من الأمم أن خرج منهم رجال یحملون القرآن فی صدورهم، لیأمروا بالمعروف فی عالم مدجج بالسلاح، وأهله لا تجاوز القرآن تراقبهم. لم یحدث هذا من قبل، ولکنه حدث فی الأمة الخاتمة التی حمل أمانتها خیر أمة أخرجت للناس.

[۱] رواه أحمد والشیخان (کنز العمال ۴۲۱:۱۱).

[۲] البخاری ک الاعتصام (الصحیح ۲۵۹:۴).

[۳] رواه البیهقی بسند صحیح (الخصائص الکبری ۱۷۴:۲).

[۴] رواه الحاکم والبیهقی وابن عساکر وأبو یعلی ویعقوب بن سفیان (کنز العمال ۱۱۷، ۳۵۸:۱۱)، (الزوائد ۲۴۴:۵).

[۵] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۷۱:۳) والترمذی وابن جریر والبیهقی (البدایة والنهایة ۲۴۳:۶).

[۶] مسلم (الصحیح ۷:۱۸) ک الفتن.

[۷] مسلم (الصحیح ۶۰:۱۸) ک الفتن.

[۸] رواه أحمد والبزار إلا أنه قال دخل الحکم بن أبی العاص والطبرانی فی الأوسط (الزوائد ۲۴۱:۵).

[۹] الطبری ۲۱۹:۶.

[۱۰] رواه الحاکم وقال السیوطی سنده صحیح (الخصائص الکبری ۲۱۳:۲).

[۱۱] البدایة والنهایة ۱۷۷:۸.

[۱۲] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۶۷۳:۱۳).

[۱۳] رواه أحمد وأبو یعلی والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ۱۸۷:۹)، (الفتح الربانی ۱۷۵:۲۳).

[۱۴] رواه أبو نعیم (الخصائص الکبری ۲۱۴:۲) ابن أبی الحدید ۶۲۰:۱.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۶۲۰:۱.

[۱۶] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۷۴:۱۳).

[۱۷] سورة الأنعام: الآیة ۲۷ – ۲۸.

[۱۸] قال فی نظم المتناثر فی الحدیث المتواتر نقل عن السیوطی أنه متواتر رواه ستة عشر صحابیا (نظم المتناثر ۱۹۶:۱).

[۱۹] رواه البخاری (الصحیح ۳۰۶:۲) وأحمد والترمذی وابن عدی وابن عساکر والنسائی والبزار (کنز العمال ۱۱۳، ۱۱۴:۱۲)، (الزوائد ۱۸۱:۹)، (البدایة والنهایة ۲۰۵:۸).

[۲۰] رواه أحمد (البدایة والنهایة ۲۰۵:۸).

[۲۱] ابن کثیر (البدایة والنهایة ۴۰:۸).

[۲۲] رواه الحاکم وقال الذهبی صحیح (المستدرک ۱۷۷:۳).

[۲۳] رواه أبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۸۷:۹)، ورواه ابن کثیر فی البدایة بلفظ: من أحب أن ینظر إلی سید شباب أهل الجنة فلینظر إلی هذا، وقال تفرد به أحمد (البدایة والنهایة ۲۰۶:۸).

[۲۴] رواه الإمام أحمد (البدایة والنهایة ۲۰۶:۸).

[۲۵] رواه البغوی وابن السکن والبارودی وابن منده وابن عساکر وأبو نعیم (البدایة والنهایة ۱۹۹:۸)، (کنز العمال ۱۲۶:۱۲)،

(الخصائص الکبری ۲:۲۱۳)، (أسد الغابة ۱:۳۴۹)، (الإصابة ۱:۶۸).

[۲۶] قال الهیثمی رواه الطبرانی بأسانید ورجال أحدهما ثقات (الزوائد ۹:۱۸۹).

[۲۷] ابن سعد عن أم سلمة (کنز العمال ۱۲:۱۲۶).

[۲۸] رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل (۲۷:۱۷۶ الفتح الربانی) وقال فی الفتح: قال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (۹:۱۸۷)، وأورده ابن کثیر فی البدایة (البدایة ۸:۱۹۹)، وقال: روی هذا الحدیث من غیر وجه عن أم سلمة ورواه الطبرانی عن أبی إمامة وفیه قصة أم سلمة. ورواه ابن سعد عن عائشة بنحو روایة أم سلمة وروی ذلک من حدیث زینب بنت جحش ولبابة وأم الفضل امرأة العباس. وأرسله غیر واحد من المتابعین.

[۲۹] أورده ابن کثیر فی البدایة ۸:۱۹۹، وأخرجه أبو یعلی فی مسنده وأبو نعیم فی الدلائل (۳:۲۰۲)، ورجالهما ثقات. وأخرجه الطبرانی فی الکبیر ورجاله ثقات.

[۳۰] أخرجه الطبرانی فی الکبیر والأوسط باختصار (الزوائد ۹:۱۸۸)، وأخرجه الماوردی فی أعلام النبوة ص ۸۳، ورجاله ثقات.

[۳۱] رواه ابن سعد فی الطبقات وابن عساکر عن أم سلمة باختصار (کنز العمال ۱۲:۱۲۷).

[۳۲] رواه الطبرانی فی الکبیر (کنز ۱۲:۱۲۸) ورجاله ثقات وهم: محمد بن عبد الله الحضرمی قال الدارقطنی: ثقة والحسین بن حریث بن الحسن من رجال الصحاح غیر ابن ماجة، وثقه النسائی وابن حبان، والفضل بن موسی من رجال الصحاح الست وثقه ابن معین وابن سعد، وابن وکیع وغیرهم.

[۳۳] الطبرانی (الزوائد ۹:۱۹۰)، وإسناده جید (کنز العمال ۱۱:۱۶۷).

[۳۴] ابن عساکر (کنز العمال ۱۲:۱۲۸).

[۳۵] رواه البخاری (الصحیح ۲:۲۸۰) ک. بدء الخلق.

[۳۶] رواه أبو داوود حدیث ۲۹۵۸.

[۳۷] رواه الطبرانی عن معاذ، وابن عساکر عن ابن مسعود (کنز ۱:۲۱۶).

علی مفترق الطرق

قبل اشتعال الأحداث التی تنتهی بمقتل الحسین کان هناک تغیرات، ذهب معها قدیم وجاء علیها جدید منها: موت المغیرة بن شعبة أحد دهاة العرب، والذی یعود الفضل إلیه فی وضع بذرة الحکم الوراثی فی ساحة الملک، فی أمة رفضت الحکم الوراثی فی دائرة الطهر. وضع بذرة لا تنبت إلا بالسیف والدهاء والمکر. فی حین أن هذه البذرة کان یقابلها بذرة أخری شجرتها التقوی وفروعها الیقین وتسقی من حوض فیه ماء لذة للشاربین. مات المغیرة سنة خمسین بعد أن ضربه الطاعون [۱] وفی سنة اثنین وخمسین مات زیاد ابن أبیه، ذراع معاویة،

[صفحه ۲۵۲]

مات بالطاعون بعد أن فعل الأفاعیل بأمة النبی الأمی صلی الله علیه وسلم: ومات سمرة بن جندب الذی قتل من المسلمین ثمانیة آلاف، وعند ما قیل له: هل تخاف أن تکون قد قتلت بریئا قال: لو قتلت إلیهم مثلهم ما خشیت [۲] وروی أنه قال فی آخر أیام حیاته وبعد أن فقد منصبه: لعن الله معاویة، والله لو أطعت الله کما أطعت معاویة ما عذبنی أبدا [۳] ومات عمرو بن العاص الذی

نظر إلیه عمر بن الخطاب یوما وقال ": ما ینبغی لأبی عبد الله أن یمشی علی الأرض إلا أمیرا [۴] .

وروی أن ابن العاص عندما احتضر حول وجهه إلی الجدار وقال: اللهم أمرتنا فعصینا، ونهیتنا فما انتهینا ولا یسعنا إلا عفوک. وفی

روايـة أنه جزع جزعا شديـدا، فلما رأى ذلك ابنه عبـد الله قال: يا أبا عبـد الله ما هـذا الجزع، وقد كان رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يدنيك ويستعملك؟ قال: أى بنى: وسأخبرك عن ذلك، أما والله. ما أدرى أحبا كان ذلك أم تألفا يتألفنى [۵] .

ومات أيضا معاويـة بن أبى سـفيان بن حرب، كان عمر بن الخطاب يقول للناس ": أتـذكرون كسـرى وعنـدكم معاوية [" ۶] ، ويقول لهم ": دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب، ولا ينال منه إلا على الرضا [" ۷] ، وإذا قال له معاوية: مرنى يا أمير المؤمنين بما شئت. يقول له عمر: لا آمرك ولا أنهاك [۸] وعندما استعمله عمر كتبت هند بنت عتبة إلى معاوية: إن هذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت. وكتب إليه

[صفحه ۲۵۳]

أبوه: يـا بنى إن هؤلاء الرهـط من المهاجرين سـبقونا وتأخرنا، فرفعهم سـبقهم وقصـر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة وصـرنا أتباعا، قد ولوك جسيما من أمورهم، فلا تخالفهم، فإنك تجرى إلى أمد، فنافس فإن بلغته أورثته عقبك [۹] .

لقد ذهب جيل عاصـر حذيفة الذى كان يصلى سرا، وجاء جيل آخر على أكتافه تضيع الصلاة ويشق شعر الأديرة وشعر المجون طريقه على أيـدى الأقيشـر، وحنين الحيرى، والثرفوانى، وبكر بن خارجـة، وغيرهم من الذين سـلموا أعلامهم إلى خليفة ماجن متهتك خليع، نسـى أنه خليفـة للمسـلمين، وانـدفع فى حياة لاهية مسـتهترة، وهذا الخليفة هو الوليد بن يزيد، وهو فرع أخير من فروع شـجرة بنى أمية [۱۰] .

والجيل الـذى ذهب وضع على رقبـة الأمة من هو أشد. وروى أن يزيد بن معاوية عندما جلس على أريكة الملك وقام بأبهته، اسـتشار مستشاره النصرانى سرجون. ذكر ابن كثير: أن سرجون الرومى كان كاتبا لمعاوية وصاحبا لأمره [۱۱] وقال: عندما تولى يزيد أقر نواب أبيه ولم يعزل أحدا منهم وهذا

من ذكاء يزيد [۱۲] وقال ابن حجر فى الإصابة: سرجون مستشار يزيد

هو الذى أشار عليه بتولية عبيد الله بن زياد الكوفة ليتصدى لأتباع الحسين [۱۳] وذكر الطبرى: لما اجتمعت الكتب عند يزيد، دعا يزيد سرجون

وقال له: ما رأيك فإن حسينا قد توجه نحو الكوفة. فقال سرجون: أرأيت معاوية لو بعث لك كنت آخذا برأيه؟ قال يزيد: نعم. فأخرج سرجون عهد عبيد الله على الكوفة، وقال: هذا رأى معاوية وقد أمر بهذا

[صفحه ۲۵۴]

الكتاب [۱۴] ، فمعاويـة وسـرجون كتبـا الكتب وأودعوها الخزائن، فكل حـدث يحـدث له فى الخزينـة كتاب، وسـنرى فيما بعـد عهد معاوية ليزيد فى أحداث الحرة، حيث أوصـى معاوية لمسلم بن عقبة ليذل به الأنصار. وبينما كان سرجون يخطط فى دار الخلافة، كان مروان بن الحكم يخـدمه فى مكان آخر سواء أكان فى الحكم أو فى خارجه. فهو فى هـذه الآونة كبير بنى أمية، وبكر أبناء الحكم بن العاص الـذى لعنه النبى صـلى الله عليه وسـلم ومروان فى صـلبه. وبين هؤلاء وقف عبـد الله بن الزبير، وكان قـد تثاقل عن مبايعـة يزيد، وذهب إلى مكة ودعا الناس إليه، وعبد الله كان علما من أعلام يوم الجمل، وهو الذى أفسد أبيه، وكان الكرسى أملا من آماله. وبعيدا عن هؤلاء وقف عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولم يكن مصدر خطورة لأحد، فهو لم ينصـر على وبايع يزيد، ووقف فى وجه الخارجين عليه يوم الحرة، ثم بايع عبـد الملك بن مروان. وبعـد ضـرب الكعبـة طاف ابن عمر بها، وطاف معه الحجاج بن يوسف. وكان قد أمره عبد الملك أن يأخذ مناسـكه عن عبد الله وسـيأتى ذلك فى موضـعه. والخلاصة: كانت الأحداث على أبواب خروج الحسـين، يديرها سرجون ومعاويـة - وإن كان قد مات - ويزيد، وكان ربان السـفينة عبيد الله بن زياد، السـفاح الذى تتوارى أمامه خجلا أفعال بسـر بن أرطأة، وسـمرة بن جنـدب، وغيرهما رغم قسوتها. وكانت الأحـداث تبشـر بثقافـة لا تنتـج إلا جيلا متسـلقا يبحث عن السـلطة، أو جيلا حاملا ليس عنـده المقدرة ليميز بين الصالح وبين الطالح، وبين ما هو رجس وما هو طاهر. وبالجملة: كان الجيل الأول فى القرن الأول

أمام امتحان لا إجبار فيه، إما أن يختار يزيد ويقف معه لتصفية معارضيه، كابن الزبير والخوارج ليستقيم الملك للأسرة الأموية، وإما أن ينقبوا فيما حولهم ويقرؤون الأحداث على وجهها الفطرى، بعيدا عن زخرف أعلام المعارضة، وبريق

[صفحه ۲۵۵]

أهدافها التى ما هى إلا سراب. ويساعدهم فى ذلك مخزونهم الفطرى الذى هو حجة بذاته، وما حفر فى دائرة ذهنهم من أقوال النبى صلى الله عليه وسلم، ثم يختاروا لأنفسهم الدائرة التى لا ترى عندها زخرفا أو بريقا، وإنما أخبار بحياة كريمة من ورائها موت وبعث وحساب، يترتب عليه أما جنة وإما نار... لقد كانت الساحة تعج بأعلام الزينة والإغواء وعلى طرقها تسير قوافل الاحتناك، وكانت هناك حجة من الله على هذا الأعلام وهذه القوافل، حتى لا تكون لهم على الله حجة يوم القيامة. وحجة الله ظاهرة ولا تفرض نفسها على أحد، وإنما تأخذ الحجة بالأسباب فى مخاطبة الناس كى يساعدهم ذلك فى الالتفاف حول طوق النجاة.. وشاء الله أن يكون الحجة فى هذه الساحة مقتولا، وشاء الله أن يكون الناس على علم بأنه مقتول حتما، وشاء سبحانه أن يكون فى الخندق المقابل للحجة أهل دنيا معهم الأعلام التى يزينها البريق، وهنا يكون الابتلاء - فمن سيقف فى ساحة الدماء؟ ومن سيقف فى ساحة الدينار والدرهم؟ إن الجيل الأول فى القرن الأول كان فى مفترق طرق. لأن الحجة فى سنن الوجود يحب أن يهرع إليه الناس ما دام فيه من الله برهان. لأن الناس مطالبون بحركة لينظر الله كيف يعملون، قال تعالى ": والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا [" ۱۵] فالخطوة الأولى منهم، فإذا جاهدوا فيه عند المقدمة، ترتب على

ذلك عطاء الله إن كانوا صادقين. وقال تعالى ": ولينصرن الله من ينصره [" ۱۶] ، وقال ": إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى [" ۱۷] ، لقد آمنوا أولا فزادهم الله هدى، فإذا هرع الناس إلى الحجة، سلك بهم طرق الدنيا عن طريق الدين. فالدين طريقة خاصة فى الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروى، والحياة الدائمة الحقيقية. والسعادة الحقيقية يصل إليها الإنسان. أو يعمل فى الوصول إليها. عندما يكون مؤمنا بالله وكافرا بالطاغوت.

[صفحه ۲۵۶]

[۱] الطبرى ۶:۱۳۱.

[۲] الطبرى ۶:۱۳۲.

[۳] الطبرى ۶:۱۶۴.

[۴] الإصابة ۵:۳.

[۵] قال الهيثمى فى الصحيح طرف منه ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ۹:۳۵۳).

[۶] الطبرى ۶:۱۸۴.

[۷] البداية والنهاية ۸:۱۲۴، الديلمى (كنز العمال ۱۳:۵۸۷).

[۸] البداية والنهاية ۸:۱۲۵، الطبرى ۶:۱۸۴.

[۹] البداية والنهاية ۸:۱۱۸.

[۱۰] راجع سيرته وأخباره وأقوال العلماء فيه فى البداية والنهاية ۶، ۷، ۸، ۹، ۱۰، ۱۰:۱۱.

[۱۱] البداية والنهاية ۸:۲۱.

[۱۲] ابن كثير البداية والنهاية ۸:۱۴۶.

[۱۳] الإصابة ۲:۱۶.

[۱۴] الطبرى ۶:۲۰۰.

[۱۵] سورة العنكبوت: الآية ۶۹.

[۱۶] سورة الحج: الآية ۴۰.

[۱۷] سورة الكهف: الآية ۱۳.

الرسائل والحصار

بعد وفاة معاوية، حدث ما توقعه الحسن بن على، فلقد علم كثير من

أهل الحجاز واليمن والعراق أن بنى أمية ليسوا بأصحاب دين، بقدر ما هم أصحاب بغى ومكر - وكان الحسن بن على، بعد أن صالح معاوية، يريد أن ينطلق أهل البيت فيما بعد من هذه الأرضية. فالذين علموا أن حركة بنى أمية تدور حول توريث الكرسى وجمع الأموال، سيعيدون التفكير ويردون الحق إلى أصحابه لينالوا علما ونجاة. وأصحاب الحق لن يطمعوا فى ما بين أيدى الناس، لأنهم لا يأكلون الصدقة، ولا يريدون إلا نصيبهم الذى كتبه الله لهم من الخمس. فوفقا لهذا التفكير ينال الناس العلم والمال، ويفتح الله عليهم بركات من السماء، ولكن معاوية قطع طريق هذا الخط بعد أن فرض ابنه على العقل. وما يهمنا هنا هو إلقاء الضوء على حركة أهل العراق، كيف بدأت؟ وما هى القوة التى أدت إلى فشلها، ثم كيف كانت حركة أبى عبد الله الحسين مع البداية، وكيف كانت حركته مع القوة الغاشمة التى صدت عن سبيل الله؟ روى أن أبا عبد الله الحسين عليه السلام خرج إلى مكة، فى الوقت الذى كانت الشيعة مجتمعة فى العراق فى منزل سليمان بن صرد صحابى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - قال فى الإصابة: كان سليمان خيرا فاضلا شهد صفين مع على [۱] - فقال سليمان: إن معاوية قد هلك، وإن حسينا قد تقبضه على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون. أنكم ناصروه ومجاهدوا عدوه، فاكتبوا إليه. وإن خفتم الوهن والفشل، فلا تغروا الرجل من نفسه قالوا: بل نقاتل عدوه، ونقتل أنفسنا دونه. قال: فاكتبوا إليه. بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن على من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجية [۲] ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من

[صفحه ۲۵۷]

المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك. فإنا نحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو. أما بعد. فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد، الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيأها، وتآمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدا له كما بعدت ثمود. إنه ليس علينا إمام، فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق"... [۳].

ثم أرسلوا الكتاب مع عبد الله الهمدانى، وبعد يومين بعثوا إليه بنحو من ثلاثة وخمسين صحيفة موقعة من الرجل والاثنين والأربعة. ثم لبثوا يومين آخرين، وبعثوا إليه بكتاب قالوا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، لحسين بن على من شيعته من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فحى هلا- فإن الناس ينتظرونك ولا رأى لهم فى غيرك فالعجل العجل والسلام عليك [۴] ، ثم كتب إليه شبث بن ربعى ومن معه: أما بعد فقد أخضر الجناب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند. والسلام عليك [۵] .

وروى أن الرسل تلاقت كلها عند الحسين عليه السلام، فقرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس. ثم كتب مع هانئ بن هانئ السبيعى، وسعيد بن عبد الله. وكانا آخر الرسل: بسم الله الرحمن الرحيم. من حسين بن على إلى الملاء من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فإن هانئا وسعيدا أقدما على بكتبكم، وكانا آخر من قدم على من رسلكم. وقد فهمت كل الذى اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلكم، إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم،

[صفحه ۲۵۸]

أقدم عليكم وشيكا أن شاء الله. فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والأخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله. والسلام [۶] .

وبعث الحسين إليهم مسلم بن عقيل، وكان ذلك لثمان ليال ماضين من ذى الحجة سنة ۶۰. وكان الحسين قد خرج من المدينة إلى مكة لليلتين بقيتا من رجب سنة ۶۰. وأقام بمكة شعبان وشهر رمضان وشوال وذا القعدة، ثم خرج منها لثمان ماضين من ذى الحجة يوم التروية [۷] ، وكان مسلم بن عقيل قد بعث إليه من الكوفة ": أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا، فعجل الاقبال حين يأتيك كتابى، فإن الناس كلهم معك، ليس لهم فى آل معاوية رأى ولا هوى والسلام [۸] .

وروى أن الحسين بعد أن وصلت إليه رسائل أهل الكوفة، وعلم أن هوى أهل البصرة ليس مع آل معاوية، بعث مع مولى لهم يقال له سليمان بكتاب إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشراف قال فيه: أما بعد. فإن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته ثم قبضة الله إليه. وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وسلم وكنا أهله وأولياءه وورثته، وأحق الناس بمقامه فى الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية. ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثت رسولى إليكم بهذا الكتاب. وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى أهدكم سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله [۹] وروى أن أشراف أهل البصرة عندما قرؤا الكتاب كتم غير

[صفحه ۲۵۹]

واحد منهم يدعى المنذر بن الجارود. الذى خشى أن يكون الكتاب مدسوس من قبل عبيد الله بن زياد ولذا توجه إلى مقر الإمارة، وأعطى الكتاب لابن زياد. فأمر بإحضار سليمان حامل رسالة الحسين وضرب عنقه [۱۰] ثم صعد إلى المنبر

وقال: إنى لنكل لمن عادانى، وسم لمن حاربنى.. يا أهل البصرة. إن أمير المؤمنين يزيد ولانى الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبى سفيان. وإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذى لا إله غيره، لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف، لأقتلنه وعريفه ووليه. ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لى، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق. أنا ابن زياد. أشبهته من بين من وطئ الحصى. ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم [۱۱] ثم

خرج من البصرة، واستخلف أخاه عثمان وأقبل إلى الكوفة. كما أوصى معاوية بن أبى سفيان. وروى أنه عندما دخل الكوفة كانت عليه عمامة سوداء. وكان متلثما، فظن الناس حين قدم عبيد الله بن زياد أنه الحسين، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبا بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم. فرأى ابن زياد من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه. فلما دخل القصر وعلم الناس فى الكوفة أنه عبيد الله بن زياد، دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد [۱۲] ولما نزل ابن زياد القصر، نودى الصلاة جامعة. فاجتمع

الناس. فخرج وقال: إن أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم. وأمرنى بإنصاف مظلومكم.... وبالشدة على مريبكم وعاصيكم. وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده... [۱۳] .

مما سبق علمنا أن الجموع بعثت بالرسائل إلى أبى عبد الله الحسين، ولم يكن النظام الحاكم بعيدا عن ما يحدث. فلقد أغلق الأبواب على البصرة، وأعلن قانونه بصراحة " لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولآخذن

[صفحه ۲۶۰]

الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا ولا يكون فيكم مخالف، " إنه قانون له عند فقهاء السلطان والفتنة ألف تأويل. أما فى الكوفة فلقد أعلن الأمير بأنه متبع فيهم أمر أمير المؤمنين يزيد ومنفذ فيهم عهده. ولعل فى هذا كفاية لمن أراد أن يبرئ يزيد من دم الحسين أو أن يلتمسوا إليه الأعذار، وقيل أن نسلط الأضواء على أعمال ابن زياد فى الكوفة. فلننظر مجريات الأحداث فى مكة.

[۱] الإصابة ۱۲۷:۳.

[۲] قال فى الإصابة أدرك النبى وهو قول ابن سعد وقيل غير ذلك (الإصابة ۱۷۵:۶).

[۳] الطبرى ۱۹۷:۶.

[۴] الطبرى ۱۹۷:۶.

[۵] الطبرى ۱۹۷:۶.

[۶] الطبرى ۱۹۸:۶.

[۷] الطبرى ۳۱۵:۶.

[۸] الطبرى ۳۱۱:۶.

[۹] الطبرى ۲۰۰:۶.

[۱۰] الطبرى ۲۰۰:۶.

[۱۱] الطبرى ۲۰۰:۶.

[۱۲] الطبرى ۲۰۱:۶.

[۱۳] الطبرى ۲۰۱:۶.

العزيمة والإصرار

كان الحسين يقف كحجر عثرة فى طريق آمال عبد الله بن الزبير، الذى

وضع مكة فى اعتباره، لينطلق منها ويدعو إلى نفسه. روى أن ابن الزبير قال للحسين: ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسى بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلى شيعتى بها وأشراف أهلها، واستخير الله. فقال له ابن الزبير: أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت بها. وبعد أن قال ذلك، خشى أن يتهمه، فقال للحسين: أما إنك لو أقمت بالحجاز، ثم أردت هذا الأمر ههنا. ما خولف عليك إن شاء الله. وعندما خرج الحسين من عنده قال الحسين: ها إن هذا ليس شئ يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق. وقد علم أنه ليس له من الأمر معى شئ، وأن الناس لم يعدلوه بى فود أنى خرجت منها لتخلو له [۱] ولقد كان الحسين يعلم أن ابن الزبير سيقتل فى مكة

على طريق الفتن وذلك وفقا لإخبار النبى صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. وروى أن ابن الزبير الذى لزم الكعبة وقد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا ما دام حسين بالبلد، لأنه حسينا أعظم فى أعينهم وأنفسهم منه قال للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر... فقال الحسين: إن أبى حدثنى أن بها كبشا يستحل حرمتها. فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش [۲] .

فالحسين يتعامل مع الأحداث وفقا لمعايير دقيقة، فابن الزبير يريد الحكم

[صفحه ۲۶۱]

ويعمل من أجله. وهذا قد حدث. وبما أنه ليس وحده الذى يقاتل فى عالم القتن من أجل الحكم، فإن من يريد أن ينتزع منه هذا الحكم فسيقاتله. وفى جميع الأحوال ستكون مكة أرض الصراع، ومكة حرمها الله، لذا فالحسين تعامل مع الحدث من هذا الباب. فهو لا يريد أن يدخل فى صراع مع ابن الزبير أو غيره داخل الحرم، لأن للحرم عنده مكانة وقداسة، ولأنه يعرف طريقة جيدا. اختار الذهاب إلى الكوفة فهناك أو على طريقها يواجه أصول البغى والإرهاب والفتن التى اجتمعت كلها فى سلة واحدة. فهناك تكون الحركة لها معنى. أما فى مكة ما أدرانا ماذا كان سيحدث لو واجه الحسين خصومه فيها. ولذا قال الحسين لابن الزبير: والله لأن أقتل خارجا منها – أى مكة – بشبر أحب إلى من أن أقتل داخلا منها بشبر [۳] .

وبعد أن عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة، أشفق عليه الكثير من الناس، لأنهم كانوا يعلمون نتيجة هذا الخروج، وعندما كلموه فى ذلك قال: إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرت فيها بأمر. وأنا ماض له عله كان أولى. فقيل له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت أحدا بها وما أنا محدث بها حتى ألقى ربى [۴] وروى أنه قال لابن الزبير، وأيم الله لو كنت

فى جحر هامة من هذه الهوام، لاستخرجونى حتى يقضوا فى حاجتهم، ووالله ليعتدن على كما اعتدت اليهود فى السبت [۵] وإنى ماض فى أمر رسول الله

حيث أمرنى. وإنا لله وإنا إليه راجعون [۶] ثم قال عليه السلام: والله لا يدعونى

حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى، فإذا فعلوا، سلط الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا أذل من فرم الأمة [۷] .

[صفحه ۲۶۲]

ويبدو، والله أعلم، أن أجهزة التيار الأموى كانت تعد العدة من أجل القيام بعمل تخريبى للإضرار بالحسين فى موسم الحج. ولا قدر الله لو حدث هذا، لوضعت الدماء على وجه فريضة إسلامية يحتشد فيها الناس، ولترتب على ذلك أمور الأمة فى غنى عنها. ويبدو أن ابن عباس فطن لهذا الأمر عندما وجد الحسين طاف بالبيت، وبين الصفا والمروة، وقص شعره، وحل من عمرته بينما الناس يتوجهون إلى منى [۸] ففى هذا الوقت يقول ابن عباس: كلمنى حسين فى الخروج فقلت: لولا- أن يزرى ذلك بى أو بك لشبكت بيدى فى رأسك. فقال الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن يستحل بى حرم الله ورسوله. قال ابن عباس: فذلك الذى سلى بنفسى عنه [۹] .

وخرج الحسين ومعه أهل بيته، وروى أنه لما خرج من مكة، عترضه رسل عمرو بن سعيد ابن العاص عامل يزيد بن معاوية على مكة، فقالوا له: انصرف، أين تذهب؟ كانوا يريدون أن يعود إلى مكة، فأبى عليهم ومضى، وتدافع الفريقان، فاضطربوا بالسياط، ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا منهم امتناعا قويا. ومضى الحسين عليه السلام على وجهه. فنادوه: يا حسين ألا تتقى الله، تخرج من الجماعة وتفرق هذه الأمة. فتلى قوله تعالى: (لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل. وأنا برئ مما تعملون) [۱۰] .

وكان الحسين قد تلى قوله تعالى ": فخرج منها خائفا يترقب. قال: رب نجنى من القوم الظالمين)، وذلك عندما سار نحو مكة بعد أن رفض بيعة يزيد، فلما دخل مكة تلى قوله تعالى ": فلما توجه تلقاء مدين، قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) [۱۱] ، وعندما خرج من مكة تلى قوله تعالى: (لى عملى ولكم عملكم...) الآية.

[صفحه ۲۶۳]

وفى الطريق انتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مطيع، فلما رأى الحسين قام إليه وقال: بأبى أنت وأمى يا ابن رسول الله. ما أقدمك؟ فقال له الحسين: كان من موت معاوية ما قد بلغك. فكتب إلى أهل العراق يدعوننى إلى أنفسهم. فقال له ابن مطيع:... فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدا أبدا. والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك، وحرمة قريش، وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت الكوفة، ولا تعرض لبنى أمية. فأبى الحسين إلا أن يمضى [۱۲] وقال له آخر: إنى مشفق عليك من

مسيرك، إنك تأتى بلدا فيه عماله وأمراؤه، ومعهم بيوت الأموال. وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار. ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك بالنصر ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك [۱۳] فأبى الحسين إلا أن يمضى.

[۱] الطبرى ۶:۲۱۶.

[۲] الطبرى ۶:۲۱۷، البداية ۸:۱۶۶.

[۳] الطبرى ۶:۲۱۷.

[۴] الطبرى ۶:۲۱۹، أسد الغابة ۲:۲۱، البداية ۲۸:۱۶۷.

[۵] البدایة والنهایة ۱۶۹:۸، الطبری ۲۱۷:۶.

[۶] مقتل الحسین:الخوارزمی ۱۵۸:۱.

[۷] الطبری ۲۲۳:۶، البدایة والنهایة ۱۶۹:۸.

[۸] الطبری ۲۱۷:۶.

[۹] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۹۲:۹).

[۱۰] الطبری ۲۱۸:۶، البدایة والنهایة ۱۶۶:۸.

[۱۱] الطبری ۱۹۱:۶.

[۱۲] الطبری ۲۲۴:۶.

[۱۳] الطبری ۲۱۶:۶.

التخویف والإرهاب

کتب یزید بن معاویة إلی عبید الله بن زیاد: کتب إلی شیعتی من أهل
الکوفة یخبروننی أن ابن عقیل بالکوفة یجمع الجموع لشق عصا المسلمین، فسر حین تقرأ کتابی هذا، حتی تأتی أهل الکوفة فتطلب ابن عقیل کطلب الخرزة، حتی تثقفه فتوثقه أو تقتله والسلام [۱] ولقد بینا کیف دخل ابن زیاد الکوفة
وعلی رأسه عمامة سوداء، وماذا قال للناس عندما خطبهم وکان قد خطب فی أهل البصرة من قبل وهددهم. وروی أن ابن عقیل نزل فی الکوفة علی دار هانئ بن عروة، وکان الشیعة یتکتمون أخباره خوفا علیه من ابن زیاد. ولکی یصل ابن زیاد إلی ابن عقیل وأصحابه، دعا مولی له یقال له: معقل وقال له: خذ ثلاثة آلاف درهم ثم اطلب مسلم بن عقیل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف وقل لهم:

[صفحه ۲۶۴]

استعینوا بها علی حرب عدوکم، وأعلمهم أنک منهم. ففعل الرجل ذلک، فجاء إلی المسجد وسمع الناس یقولون: هذا یبایع للحسین، فتقدم وقال: یا عبد الله إنی أمرؤ من أهل الشام مولی لذی الکلاع. أنعم الله علی بحب هذا البیت وحب من أحبهم، فهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغنی أنه قدم الکوفة یبایع لابن بنت رسول الله صلی الله علیه وسلم. وکنت أرید لقاءه، فلم أجد أحدا یدلنی علیه ولا یعرف مکانه. وإنی لجالس آنفا فی المسجد. إذ سمعت نفرا من المسلمین یقولون. هذا رجل له علم بأهل البیت، وإنی أتیتک لتقبض هذا المال. وتدخلنی علی صاحبک فأبایعه. وإن شئت أخذت بیعتی له قبل لقائه... فشکره الرجل ودعا له وقال له: لقد ساءنی معرفتک إیای بهذا الأمر من قبل أن ینمی، مخافة هذا الطاغیة وسطوته.. وأخذ بیعته وأخذ علیه المواثیق المغلظة لیناصحن ولیکتمن. فأعطاه من ذلک ما رضی به [۲] ، ثم إن معقلا مولی ابن زیاد ذهب إلی واحد من أتباع ابن عقیل، وهو مسلم بن عوسجة لیدخله علی ابن عقیل. فأقبل به حتی أدخله علیه، وأصبح معقل أول داخل وآخر خارج یسمع أخبارهم ویعلم أسرارهم، ثم ینطلق بها حتی یقرها فی أذن ابن زیاد [۳] ، وروی أن ابن زیاد بعد أن أخذ جمیع احتیاطاته الأمنیة. بعث إلی هانئ بن عروة الذی ینزل فی داره ابن عقیل وقال له: إیه یا هانئ بن عروة، ما هذه الأمور التی تربض فی دورک لأمیر المؤمنین وعامة المسلمین؟ جئت بمسلم بن عقیل فأدخلته دارک، وجمعت له السلاح والرجال فی الدور حولک وظننت أن ذلک یخفی علی [۴] .

ثم دعا ابن زیاد معقلا ذلک العین، فجاء حتی وقف بین یدیه فقال لهانئ: أتعرف هذا، قال: نعم. وعلم هانئ عند ذلک إنه کان عینا علیهم، وأنه قد أتاه بأخبارهم [۵] فقال هانئ: آمره أن یخرج من داری إلی حیث شاء من الأرض.

[صفحه ۲۶۵]

فقال ابن زياد: لا والله لا تفارقنى أبدا حتى تأتينى به. قال: لا والله لا أجيئك به أبدا، أنا أجيئك بضيفى تقتله. فقال: والله لتأتينى به، قال: والله لا آتيك به [۶] .

فتدخل بينهما رجل فقال: أصلح الله الأمير خلنى وإياه أكلمه. فقال له: يا هانئ إنى أنشدك الله ألا تقتل نفسك، وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك... فادفع الرجل إليه، فإنه ليس عليك بذلك، مخزاه ولا منقصة. إنما تدفعه إلى السلطان قال: بلى والله إن على فى ذلك للخزى والعار. أنا أدفع جارى وضيفى وأنا حى صحيح أسمع وأرى، شديد الساعد كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلا واحدا ليس لى ناصر، لم أدفعه حتى أموت دونه. فسمع ابن زياد ذلك فقال: ادنوه منى فأدنوه فقال: والله لتأتيننى به أو لأضربن عنقك... ثم قال للعسكر: ادنوه منى فأدنوه فاستعرض وجهه بالقضيب. فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده، حتى كسر أنفه وسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته. ثم قال: خذوه فألقوه فى بيت من البيوت وأغلقوا عليه بابه واجعلوا عليه حرسا [۷] .

وعندما علم ابن عقيل بما حدث، أمر عبد الله بن حزم أن ينادى فى أصحابه، وقد ملأ منهم الدور حوله. وقد بايعه ثمانية عشر ألفا. وفى الدور أربعة آلاف رجل. وتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه وعقد ابن عقيل للرجال على القبائل. وسارت الخيل فى اتجاه القصر. فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز فى القصر وغلق الأبواب. وروى عن عباس الجدلى أنه قال: خرجنا مع ابن عقيل فى أربعة آلاف فما بلغنا القصر إلا ونحن ثلاثمائة [۸] .

وبينما كانت خيل ابن عقيل تتقدم نحو القصر، كانت أبواق السلطان تتجه نحو دور الكوفة. روى أن ابن زياد دعا كثير بن شهاب وأمره أن يخرج فيمن أطاعه، فيسير بالكوفة، ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم ويحذرهم عقوبة

[صفحه ۲۶۶]

السلطان [۹] ووقف كثير بن شهاب فقال: أيها الناس الحقوا بأهليكم، ولا

تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل. فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت. وقد أعطى الله الأمير عهدا، لئن أتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم. أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم فى مغازى أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية. إلا أذاقها وبال ما جرت أيديها [۱۰] .

يقول الطبرى: وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا. فلما سمع مقالتهم الناس أخذوا يتفرقون وأخذوا ينصرفون وروى أن المرأة كانت تأتى ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، ويجيئ الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غدا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف، فما زالوا يتفرقون ويتصدعون، حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفسا فى المسجد، فلما أمسى وليس معه إلا أولئك النفر. خرج متوجها نحو أبواب كنده. فما بلغ الأبواب وما معه منهم عشرة، ثم خرج من الباب. وإذا ليس معه إنسان، والتفت فإذا هو لا يحس أحدا يدله على الطريق، ولا يدله على منزل ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو. فمضى على وجهه يتلدد فى أزقة الكوفة لا يدرى أين يذهب، حتى خرج إلى دور بنى جبلة من كندة، فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها: طوعة كانت للأشعث بن قيس فأعتقها فتزوجها أسيد الحضرمى. فولدت له بلالا، وبعد أن عرفها بنفسه وأن القوم كذبوه، أدخلته بيتا فى دارها غير البيت الذى تكون فيه [۱۱] .

ومن قصر الإمارة أعلن ابن زياد على أهل الكوفة: إن برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره ومن جاء به فله ديته. وقال: اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا، ثم نادى على صاحب

[صفحه ۲۶۷]

الشرطة: يا حصين بن تميم ثكلتك أمك، إن صاح باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتنى به، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة، فابعث مراصدة على أفواه السكك، وأصبح غدا واستبر الدور وجس خلالها. حتى تأتينى بهذا الرجل [۱۲] ، وروى أن بلال بن أسيد الذى آوت أمه ابن عقيل أخبر الشرطة بمكان ابن عقيل وعندما علم ابن زياد بذلك أمر بإحضاره.. فلما سمع ابن

عقيل وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنه قد أتى، فخرج إليهم بسيفه، واقتحموا عليه الدار. فشد عليهم يضربهم بسيفه. حتى أخرجهم من الدار. وأشرفوا عليه من فوق ظهر البيت، وأخذوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار فى أطنان القصب. فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتا بسيفه فى السكة فقاتلهم فأقبل عليه محمد بن الأشعث فقال: يا فتى لك الأمان، لا تقتل نفسك فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتل إلا حرا++

وإن رأيت الموت شيئا نكرا

وظل يقاتلهم وفد أثخن بالحجارة، وعجز عن القتال. وأسند ظهره إلى جدار الدار، فقال ابن الأشعث: لك الأمان واجتمعوا حوله فقال ابن عقيل: أما لو لم تؤمنونى ما وضعت يدى فى أيديكم. وعندما انتزعوا سيفه، دمعت عيناه ثم قال: هذا أول الغدر... أين أمانكم أنا لله وإنا إليه راجعون... وبكى، فقيل له: إن من يطلب مثل الذى تطلب، إذ نزل به مثل الذى نزل بك لم يبك. فقال: والله ما لنفسى أبكى، ولا لها من القتل أرثى... ولكن أبكى لأهلى المقبلين إلى. أبكى الحسين وآل حسين. ثم أقبل على بن الأشعث فقال: يا عبد الله إنى أراك والله ستعجز عن أمانى فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلا على لسانى يبلغ حسينا؟ فإنى لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم مقبلا، أو هو خارج غدا هو وأهل بيته. فيقول: أن ابن عقيل بعثنى إليك، وهو فى أيدى القوم أسير، لا يرى أن تمشى حتى تقتل، وهو يقول لك ارجع بأهل بيتك، ولا يغرك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك، الذى كان يتمنى فراقهم

[صفحه ۲۶۸]

بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى وليس لمكذوب رأى. فقال ابن الأشعث: والله لأفعلن، ولأعلمن ابن زياد إنى قد أمنتك [۱۳] .

وروى أن ابن عقيل عندما دخل على ابن زياد دار بينهما حوار طويل، منه أن ابن زياد قال له: إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه ولم يرك أهله. فقال ابن عقيل: فمن أهله يا ابن زياد؟ قال: أمير المؤمنين يزيد. فقال: الحمد لله على كل حال، رضينا بالله حكما بيننا وبينكم. قال: كأنك تظن أن لكم فى الأمر شيئا. فقال ابن عقيل: ما هو بالظن ولكنه باليقين. قال: قتلنى الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد فى الإسلام. فقال: أما أنك أحق من أحدث فى الإسلام ما لم يكن فيه، أما أنك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السيرة، ولؤم الغلبة، ولا أحد من الناس أحق بها منك. فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسينا وعليا وعقيلا، وأخذ مسلم لا يكلمه [۱۴] وكان ابن عقيل قد عرى نظامه فقال

له: إن أباك قتل خيار الناس، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر [۱۵] ووصفهم بأنهم يلغون فى دماء المسلمين ولغا. ويقتلون النفس التى

حرم الله قتلها، ويقتلون النفس بغير النفس. ويسفكون الدم الحرام. ويقتلون على الغضب والعداوة وسوء الظن. وهم يلهون ويلعبون كأن لم يصنعوا شيئا [۱۶] .

وأمر ابن زياد بضرب عنق ابن عقيل فوق سطح القصر، فصعد به وهو يكبر ويستغفر ويصلى على ملائكة الله ورسله وهو يقول ": اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا وأذلونا وقتلونا " ثم ضرب عنقه [۱۷] وروى أنهم أحضروا هانئ بن عروة من السجن. حتى انتهوا به إلى مكان من السوق كان يباع فيه

[صفحه ۲۶۹]

الغنم وهو مكتوف. وعندما لم يجد أحدا من قبيلته يدافع عنه، جذب يده فنزعها. من الكتاف ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم. فوثبوا عليه، فضربه رجل بالسيف فلم يصنع سيفه شيئا، فقال هانئ: إلى الله المعاد اللهم إلى رحمتك ورضوانك. ثم ضربه الرجل أخرى فقتله [۱۸] .

وكتب ابن زياد إلى يزيد بن معاوية ": الحمد لله الذى أخذ لأمير المؤمنين بحقه وكفاه مؤنة عدوه، " ثم أخبره بما تم من لجوء ابن

عقیل إلی دار هانئ وإنه جعل علیهما العیون ودس إلیهما الرجال، إلی آخر القصة، ثم قال ": وقد بعثت إلیک برؤوسهما "... والسلام فکتب یزید بن معاویة، فأخبره بأنه عنده قد عمل عمل الحازم، وصال صولة الشجاع الرابط الجأش ثم قال له ": إنه قد بلغنی أن الحسین بن علی قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس علی الظن. وخذ علی التهمة غیر أن لا تقتل إلا من قاتلک واکتب إلی - فی کل ما یحدث من الخبر - والسلام [" ۱۹] وهکذا نزل الستار علی رسول الحسین، ومما سبق رأینا أن الجماهیر خذلت الحسین، لأن الدولة الأمویة أرهبت الجماهیر. أرهبتهم بصورة تأنف منها الفطرة. فإذا کان الخوف من الأمور الفطریة، فیجب أن یتم التعامل مع الإنسان بما لا یرعب الخوف الفطری، إن الإسلام نهی عن ترویع المسلم، بل ووضع أسس راقیة للتعامل مع الحیوان والطیر والنبات. فإذا جئت بقانون فیه ": أخذ البرئ بالسقیم، والشاهد بالغائب " و " لئن بلغنی عن رجل منکم خلافا لأقتلنه وعریفه ووالیه، ولآخذن الأدنی بالأقسی " و " احترس من السلطان فإنه یغضب غضب الصبیان، ویأخذ أخذ الأسد، وقلیلة یغلب کثیر من الناس "فمثل هذا القانون لا علاقة له بالإسلام. وقانون مثل هذا یکون حجر عثرة فی طریق الفطرة لأن الاختیار فیه لا یتم إلا بعقل السلطان وعینه. بمعنی أن الناس لا یرون إلا ما یری السلطان. وهذا فی حد ذاته ضد طبیعة الوجود لأنه ینتج إنسانا مشوها.

[صفحه ۲۷۰]

والإنسان لا بد له من حرکة لأن سنة الوجود أن ینظر الله إلی خلقه کیف یعملون. إن التخویف والإرهاب یضرب بصورة أو بأخری دائرة الاختیار، بل ویجتث شجرة الحریة الحقیقیة التی تتغذی بماء الفطرة، ولما کانت الدولة الأمویة قد عملت من أجل تنمیة شجرة الارهاب، ولما کانت هذه الشجرة قد وضعت علیها عباءة القداسة والدین، بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم بأقل من خمسین عاما، وهذا یمثل خطرا علی الأجیال وحتی قیام الساعة، فإن الحسین بن علی إذا کان له رأی فی الذین خذلوه، فإن حرکته ستکون نحو الجذور أی نحو صناع الارهاب. وهذه الحرکة لیست من أجل وقف الارهاب، وإنما لوضع لباس العار الذی ما بعده عار علی رؤوس صناع التخویف والإرهاب حتی یرث الله الأرض ومن علیها.

[۱] الطبری ۶:۲۰۰.

[۲] الطبری ۶:۲۰۴، البدایة والنهایة ۸:۱۵۳.

[۳] الطبری ۶:۲۰۴، البدایة والنهایة ۸:۱۵۳.

[۴] الطبری ۶:۲۰۵، البدایة ۸:۱۵۴.

[۵] الطبری ۶:۲۰۵، البدایة ۸:۱۵۴.

[۶] الطبری ۶:۲۰۵.

[۷] الطبری ۶:۲۰۶، البدایة ۸:۱۵۴.

[۸] الطبری ۶:۲۰۷، البدایة ۸:۱۵۴.

[۹] الطبری ۶:۲۰۷، البدایة ۸:۱۵۴.

[۱۰] الطبری ۶:۲۰۸.

[۱۱] الطبری ۶:۲۰۹، البدایة ۸:۱۵۵.

[۱۲] الطبری ۶:۲۱۰، البدایة ۸:۱۵۵.

[۱۳] الطبری ۶:۲۱۱.

[۱۴] الطبری ۶:۲۱۳، البدایة ۸:۱۵۶.

[۱۵] الطبری ۶:۲۱۳، البدایة ۸:۱۵۶.

[۱۶] الطبری ۶:۲۱۳، البدایة ۸:۱۵۶.

[۱۷] الطبرى ۲۱۳:۶، البداية ۱۵۶:۸.

[۱۸] الطبرى ۲۱۴:۶، البداية ۱۵۷:۸.

[۱۹] الطبرى ۲۱۵:۶، البداية والنهاية ۱۶۵:۸.

صمود على الطريق

كان الحسين عليه السلام فى الطريق إلى الكوفة، ولم يكن يعلم بالأحداث

التى جرت هناك، لذا بعث قيس بن مسهر إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليه: بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن على إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين. سلام عليكم. فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد. فإن كتاب مسلم بن عقبة قد جاءنى يخبرنى فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا... فإذا قدم عليكم رسول فاكمشوا أمركم وجدوا، فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله [" ۱] ، وأقبل قيس بن مسهر إلى الكوفة بكتاب الحسين، حتى إذا انتهى إلى القادسية. أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى ابن زياد، الذى كان قد شدد الرقابة على جميع المنافذ والأبواب. وعندما علم ابن زياد بأسباب قدوم قيس بن مسهر، أمر قيس أن يصعد القصر حتى يراه الناس وقال له: سب الكذاب ابن الكذاب... فصعد ثم قال: أيها الناس، إن

[صفحه ۲۷۱]

هذا الحسين بن على خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم. وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعلى بن أبى طالب. وعندئذ أمر ابن زياد أن يرمى به من فوق القصر فرمى به فتقطع فمات [۲] .

لقد كان بيان قيس بن مسهر فيه كفاية ليهب الناس هبة رجل واحد، ولكن القوى الطاغية كانت قد نشرت الذل فى الطرقات بما فيه كفاية، ولكى يطوقهم الحسين بطوق الحجة مرة أخرى، بعث إليهم عبد الله بن يقطر. وما حدث لقيس حدث لابن يقطر. فلقد تلقته خيل الحصين بن نمير بالقادسية، وبعث به إلى ابن زياد، فأمره أن يصعد القصر، وأن يلعن الكذاب ابن الكذاب. فصعد فلما أشرف الناس قال: أيها الناس إنى رسول الحسين بن فاطمة بن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لتنصروه وتوازروه على ابن مرجانة بن سمية الدعى. فأمر ابن زياد بأن يلقى من فوق القصر، فرمى به فكسرت عظامه وبقى به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير. [۳] فذبحه فما عيب ذلك عليه قال: إنما أردت أن أريحه [۴] .

فالطريق إلى الفطرة ودعوتها كان ابن زياد قد أغلقه تماما. فى أثناء ذلك كان الحسين لا يمر بأهل ماء إلا اتبعوه [۵] وبينما هو فى" ماء زبالة " سقط إليه

خبر قتل رسله بالكوفة فأخرج الحسين للناس كتابا فقرأ عليهم وفيه ": بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنه قد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة. وعبد الله بن يقطر. وقد خذلتنا شيعتنا. فمن أحب منكم الانصراف، فليس عليه منا ذمام [" ۶] فتفرق الناس عنه تفرقا، فأخذوا يمينا

[صفحه ۲۷۲]

وشمالا. حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة. وذكر الطبرى: وإنما فعل ذلك، لأنه ظن إنما اتبعه الأعراب، لأنهم ظنوا أنه يأتى بلدا قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون. وقد علم أنهم إذا بين لهم. لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه [۷] .

إلى هنا انتهت قصة الذين خذلوه فى أصولها العريضة. فأى خطوة سيخطوها الحسين بعد ذلك فلن تكون بحال من أجل الذهاب إلى الذين خذلوه، وإنما ستكون نحو القوة الباغية التى تعوق تقدم الأمر الفطرى بأحجار الكسروية وقيصرية وجاهلية. وانطلق الحسين حتى مر بطن العقبة فنزل بها، وبينما هو جالس جاءه أحد عمومته فسأله: أين تريد؟ فحدثه فقال للحسين: إنى أنشدك الله لما انصرفت،

فوالله لا تقدم إلا علی الأسنة وحد السیوف، فإن هؤلاء الذین بعثوا إلیک لو کانوا کفوک مؤنة القتال، ووطئوا لک الأشیاء فقدمت علیهم، کان ذلک رأیا. فأما علی هذه الحال التی تذکرها، فإنی لا أری لک أن تفعل. فقال الحسین: یا عبد الله إنه لیس یخفی علی الرأی ما رأیت، ولکن الله لا یغلب علی أمره [۸] أی والله یا أبا عبد الله ولکن أکثر الناس لا یعلمون. إن الناس لا یرون إلا أول الطریق أو وسطه أما نهایة الطریق فلا تری إلا بعد أن تجیء. والله غالب علی أمره. وروی أن ابن زیاد بعث إلی الحصین بن نمیر أن یبعث من القادسیة الحر بن یزید وبین یدیه ألف من الجنود لیستقبل الحسین، وانطلق الحر بقواته لاستقبال الحسین ومراقبته. وروی أن الحسین خرج فأمر مناذیه فنادی بالعصر، وکان الحر وقواته یصلون مع الحسین وأتباعه، وبعد الصلاة: قام الحسین فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: أیها الناس فإنکم أن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله یکن أرضی لله. ونحن أهل البیت أولی بولایة هذا الأمر علیکم من هؤلاء المدعین ما لیس لهم والسائرین.

[صفحه ۲۷۳]

فیکم بالجور والعدوان. وإن أنتم کرهتمونا وجهلتم حقنا. وکان رأیکم غیر ما أتتنی کتبکم وقدمت به علی رسلکم انصرفت عنکم" [۹] ، فالحسین یوضح هنا أن الدعوة إلیه کانت صادرة من صدور ماضیه، وعلی هذا الرضی جاءت الرسائل التی لم یجد أمامها إلا أن یتحرک، وإنه لو لم تأت هذه الرسائل ما کان له أن یتحرک. وکیف یتحرک نحو قوم کرهوه وجهلوا حقه. فالرسائل هی دلیل الرضا، والحر وقواته دلیلا علی کبت هذا الرضا. ولذا قال له الحر: إنا والله ما ندری ما هذه الکب؟ التی تذکر. فقال الحسین: یا عقبة بن سمعان أخرج الخرجین اللذین فیهما کتبهم إلی، فأخرج خرجین مملوءین صحفا. فنشرها بین أیدیهم. فقال الحر: فإنا لسنا من هؤلاء الذین کتبوا إلیک، وقد أمرنا إذا نحن لقیناک أن لا نفارقک حتی نقدمک علی عبید الله بن زیاد. فقال له الحسین: الموت أدنی إلیک من ذلک. قال الحر: لم أؤمر بقتالک وإنما أمرت أن لا أفارقک حتی أقدمک الکوفة، فإذا أبیت فخذ طریقا لا تدخلک الکوفة ولا تردک إلی المدینة، تکون بینی وبینک نصفا، حتی أکتب إلی ابن زیاد. وتکتب أنت إلی یزید بن معاویة إن أردت أن تکتب إلیه أو إلی عبید الله بن زیاد إن شئت فلعل الله إلی ذلک أن یأتی بأمر یرزقنی فیه العافیة من أن أبتلی بشئ من أمرک [۱۰] وسار الحسین فی طریق

والحر فی طریق آخر یسایره ویراقبه. وروی أن الحسین خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبیضة. فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: أیها الناس، إن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال: من رأی سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناکثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلی الله علیه وسلم، ویعمل فی عباد الله بالإثم والعدوان، فلم یغیر علیه بفعل ولا قول. کان حقا علی الله أن یدخله مدخله. إلا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشیطان، وترکوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفئ، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. وأنا أحق من غیر، وقد آتتنی

[صفحه ۲۷۴]

کتبکم، وقدمت علی رسلکم ببیعتکم إنکم لا تسلمونی ولا تخذلونی، فإن أتممتم علی بیعتکم تصیبوا رشدکم. فأنا الحسین بن علی وابن فاطمة بنت رسول الله صلی الله علیه وسلم، نفسی مع أنفسکم، وأهلی مع أهلیکم، فلکم فی أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدکم وخلعتم بیعتی من أعناقکم، فلعمری ما هی لکم بنکر. لقد فعلتموها بأبی وأخی وابن عمی مسلم، والمغرور من اغتر بکم، فحظکم أخطأتم، ونصیبکم ضیعتم، ومن نکث فإنما ینکث علی نفسه وسیغنی الله عنکم. والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته [۱۱] .

إن الحسین وهو یخاطب الجنود الذین لم یکتبوا إلیه، خاطبهم من علی أرضیه الحجة، فوضعهم مع الذین بعثوا إلیه فی مربع واحد. فالذین بعثوا إلیهم هم أشراف القوم ورؤوسهم، والجنود لا ینفصلوا عنهم بحال، لذا کان الخطاب واحدا وموجه إلی مربع واحد. وروی أنه خطب فیهم بمنطقة ذی حسم، فحمد الله وأثنی علیه، ثم قال: إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون. وإن الدنیا قد تغیرت وتنکرت، وأدبر معروفها، واستمرت جدا، فلم یبق منها إلا صبابة الإناء. وخسیس عیش کالمرعی الوبیل، ألا ترون أن الحق لا یعمل به،

وأن الباطل لا- يتناهى عنه، ليرغب المؤمن فى لقاء الله محقا. فإنى لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما. وعندئذ قام زهير بن القين فقال لأصحابه: تتكلمون أم أتكلم. قالوا: بل تكلم، فحمد الله فأثنى عليه ثم قال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك. والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، إلا أن فراقها فى نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها. فدعا له الحسين. فأقبل الحر وقال: يا حسين إنى أذكرك الله فى نفسك، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى، فقال له الحسين: أفبالموت تخوفنى؟ ما أدرى ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له: أين تذهب

[صفحه ۲۷۵]

فإنك مقتول فقال:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى++

إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه++

وفارق مثبورا وخالف مجرما

فلما سمع ذلك منه الحر تنحى عنه وسار، وكان يسير بأصحابه فى ناحية وحسين فى ناحية أخرى، وبينما هم على ذلك إذا بأربعة من الكوفة قد أقبلوا على رواحلهم، وعندما انتهوا إلى الحسين قال الحر بن يزيد: إن هؤلاء النفر الذى من أهل الكوفة، ليسوا ممن أقبل معك، وأنا حابسهم أو رادهم فقال الحسين: لأمنعنهم بما أمنع منه نفسى، إنما هؤلاء أنصارى وأعوانى. وقد كنت أعطيتنى أن لا تعرض لى بشئ حتى يأتيك كتاب من ابن زياد، فقال الحر: أجل ولكن لم يأتوا معك، قال: هم أصحابى وهم بمنزلة من جاء معى. فإن تممت على ما كان بينى وبينك وإلا ناجزتك، فكف عنهم الحر [۱۲].

وروى أن الحسين قال لهم: أخبرونى خبر الناس وراءكم، فقال له مجمع بن عبد الله، وهو أحد النفر الأربعة الذين جاؤوه: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحهم، فهم ألب واحد عليك. وأما سائر الناس بعد. فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك. قال أخبرنى فهل لكم برسولى إليكم؟ قالوا: من هو؟ قال: قيس بن مسهر. فقالوا: نعم. أخذه الحصين بن نمير، فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصلى عليك وعلى أبيك. ولعن ابن زياد وأباه. ودعا إلى نصرتك. وأخبرهم بقدومك، فأمر به ابن زياد فألقى من طمار القصر، فترقرقت علينا حسين عليه السلام، ولم يملك دمعه، ثم قال: منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. الله اجعل لنا ولهم الجنة نزلا، واجمع بيننا وبينهم فى مستقر من رحمتك ورغائب مذخور ثوابك [" ۱۳].

وكان الحسين قد علم بقتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر.

[صفحه ۲۷۶]

عندما نزل بزباله. ولم يكن يعلم بقتل قيس إلا هنا عندما قابل النفر الأربعة. ولأن الحسن حجة وخطواته من أجل هدف ومن وراء الهدف حكمة، لم يلجأ إلى أى قوة لتحميه من بنى أمية. فهو سائر على طريق، فمن شاء أن ينصره فلينصره، والموعد الله: لقد عرض عليه أن يلجأ إلى قرية أو إلى قبيلة من القبائل، ولكنه أبى إلا أن يسير نحو الهدف. روى أن الطرماح بن عدى قال له: إنى لأنظر فما أرى معك أحدا، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم - أى قوات الحر - وقد رأيت قبل خروجى من الكوفة إليك، ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عيناى فى صعيد واحد جمعا أكثر منه. فسألت عنهم. فقيل: إنهم اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرحون إلى الحسين. فأنشدك الله، إن قدرت على أن لا تقدم عليهم شبرا إلا فعلت، فإن أردت أن تنزل بلدا يمنعك الله به حتى ترى من رأيك، ويستبين لك ما أنت صانع. فسر حتى أنزلك مناع جبلنا، الذى يدعى أجا، امتنعنا والله به من ملوك غسان وحمير

ومن النعمان بن المنـذر ومن الأسود والأحمر. والله إن دخل علينا ذل قط فأسـير معك. حتى أنزلك القريـة. ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجا وسـلمى من طئ. فوالله لا يأتى عليك عشـرة أيام حتى يأتيك طئ رجالا وركبانا. ثم أقم فينا ما بـدا لك، فإن هاجاك هيـج، فأنا زعيم لك بعشرين ألف طئ يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك أبدا ومنهم عين تطرف [۱۴] .

إن هذا عرض سـخى، ولكنه لا يستقيم مع الحجة فى هذه الأحداث، لأن الهجرة إلى موطن آخر. تفرضها أحداث أخرى وإنسان آخر. أما الأحداث حول أبى عبد الله الحسين فتدور على ساحة يدعى تيار القوة أنه منار الهدى فيها، وأنه الجماعة التى أمر الله بالتزامها، لهذا فلا بـد من المفاصلة لا إلى الهجرة. لهـذا قال أبو عبـد الله الحسـين لمن عرض هذا العرض: جزاك الله وقومك خيرا. إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف [۱۵] .

[صفحه ۲۷۷]

إن المفاضـلة لا بد منها، والحق واضح وضوح الشـمس، والأربعة الذين فارقوا؟ أهل الكوفة هم فى حقيقة الأمر حجة على أهل الكوفة الـذين خذلوا الحسـين. فالحسـين كان فى حاجة إلى الناس، لأنه حجة ظاهرة فيه من الله برهان، ولم يكن فى حاجة لكى يقتحم بنفسـه على الناس، لأن الحركـة حركـة اختيار لينظر الله كيف يعملون. وفى هـذا المقام نسـلط الضوء على ثلاث حركات لها إيقاع واحدة فى دائرة الحجـة. أولها: أن الطرماح بن عـدى، الـذى عرض عليه العرض السابق ذكره، قال للحسـين بعـد أن سـمع منه: دفع الله عنك شـر الجن والإنس، إنى قـد امترت لأهلى من الكوفـة ميره ومعى نفقـة لهم. فأتيهم فأضع ذلك فيهم ثم أقبل إليك إن شاء الله فإن ألحقك فوالله لأـكونن من أنصـاركـ. فقـال له الحسـين: فـإن كنت فاعلا فعجل رحمك الله. يقول الطرماح: فعلمت أنه مسـتوحش إلى الرجال حتى يسألنى التعجيل [۱۶] فهو فى هذه الحركة وهذا الايقاع يطلب الرجال. الذين

يعلمون إلى أى هدف يسـيرون. ثانيها: ما رواه البغوى بسـند صـحيح أن أنس بن الحارث قال: سـمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول: إن ابنى - يعنى الحسـين - يقتـل بـأرض يقال لها كربلاء، فمن شـهد منكم ذلك فلينصـره. وخرج الحارث إلى كربلاء فقتل مع الحسين [۱۷] فالحارث عمل بما

سمع، ما سـمعه كان حجة ليس على الحارث وحده، وإنما حجة على طريق طويل. وعلى عصر ما الحارث فيه إلا فردا واحدا. ثالثها: ما رواه الطبرى من أن الحسـين دخل إلى فسـطاط عبيـد الله بن الحر الجعفى. وقال: ادعوه لى فلما أتاه الرسول قال لعبيد الله بن الحر: هذا الحسين بن على يدعوك. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والله ما خرجت من

[صفحه ۲۷۸]

الكوفة. إلا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها. والله ما أريد أن أراه ولا يرانى. فأخبر الرسول الحسين بذلك. فأخذ الحسين نعليه ثم قام فجاءه، فسـلم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه. فأعاد إليه ابن الحر تلك المقالة. فقال له الحسـين: فإلا تنصـرنا، فاتق الله فينا إن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسـمع وأعيتنا أحد، ثم لا ينصـرنا إلا هلك. فقال ابن الحر: أما هذا فلا يكون أبدا إن شاء الله [۱۸] ، فالحسين هنا دعا وذكر وأنـذر. ولم يلوح بـدينار ولا بـدرهم. فمما سبق نرى أنه طلب الرجال الذين يعرفون الموقف على حقيقته. ولقد أوردنا قبل ذلك أنه قال فى بيانه الـذى ألقاه بعد أن علم بقتل رسـله " فمن أحب منكم الانصـراف، فليس عليه منا ذمام " لأنه كره أن يسـير معه الأعراب وغيرهم، إلا وهم يعلمون حقيقة ما يقدمون عليه. أنه يريد الرجال الذين يسـيرون بوقود فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم برهان، لأن هؤلاء ذروة الذين يؤمنون بالغيب. فأحاديث الإخبار بالغيب. بما أنها تفصل بين الحق والباطل، وبين الظلام والنور وبما أنها تبين ماذا يترتب على الانحراف. وأين تقع بصمات التزيين والإغواء، التى أخذ الشيطان على عاتقه أن يضعها ليقع عليها أكثر الناس ولا يؤمن منهم إلا القليل. وبما أنها حجـة على الأكثريـة، لأن الله تعالى كشف لهم بهـذه الأحاديث أمورا حتى لا تكون لهم حجة على الله يوم القيامة. (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين - أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون - وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) [۱۹] وبما أن فى

أحاديث الإخبار بالغيب مبشرات بعد أن ذهبت النبوة وفيها محذرات، فكذلك هى فى عهد الحسين، إن فيها إخبار بالدم، ومن لبى النداء فهو إلى القتل أقرب. لهذا فمن يشهد الحسين ونصره، وهو على بينة من أمره، يكون فى ذروة دائرة الذين يؤمنون بالغيب. وفى عصر الحسين يدخل فى هذه الدائرة الذين كان هواهم فيه ولم يشهدوا خروجه، ويدخل فيها بنى هاشم الذين شهدوا خروجه ولم يخرجوا - وذلك لأن الحسين أذن لهم فى البقاء. ومنهم من كان يبعث إليه

[صفحه ۲۷۹]

بالرسائل ليحيطه علما بما وراءه من أحداث. وفى هذه الآونة كان بنى أمية يطلبونه ليقتلوه ومنهم من كان يشرح قضيته للأشراف الذين جاؤوا من الأمصار إلى موسم الحج.

[۱] الطبرى ۶:۲۲۳.

[۲] الطبرى ۶:۲۲۴، البداية ۸:۱۱۸.

[۳] وقيل إنه رجل غيره كان يشبهه.

[۴] الطبرى ۶:۲۲۶، البداية ۸:۱۶۸.

[۵] الطبرى ۶:۲۲۶، البداية ۸:۱۶۸.

[۶] الطبرى ۶:۲۲۶.

[۷] الطبرى ۶:۲۲۶، البداية ۸:۱۶۹.

[۸] الطبرى ۶:۲۲۶.

[۹] الطبرى ۶:۲۲۸، البداية ۸:۱۷۲.

[۱۰] الطبرى ۶:۲۲۹، البداية ۸:۱۷۳.

[۱۱] الطبرى ۶:۲۲۹، الكامل لابن الأثير ۳:۲۸۵، نهاية الإرب ۲۰:۴۱۹.

[۱۲] الطبرى ۶:۲۳۰، البداية ۸:۱۷۳.

[۱۳] الطبرى ۶:۲۳۰، البداية ۸:۱۷۳.

[۱۴] الطبرى ۶:۲۳۱.

[۱۵] الطبرى ۶:۲۳۱.

[۱۶] الطبرى ۶:۲۳۱.

[۱۷] البداية والنهاية (۸:۱۹۹).

[۱۸] الطبرى ۶:۲۳۱.

[۱۹] سورة الأعراف: الآية ۱۷۲ - ۱۷۴.

و جاء الطغاة

فى الكوفة بدأت القيادة العليا تعد العدة للقضاء على الحسين ومن معه،

وكانت الخطوة الأولى نحو هذا الهدف أمر القيادة الصادر إلى الحر بن يزيد، الذى يلازم الحسين ويسير معه كظله، وفيه: أما بعد، فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى، فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولى أن يلازمك ولا يفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى [" ۱] .

وبعد أن قرأ الحر البيان قال للحسين هذا كتاب الأمير عبيد الله بن زياد، وهذا رسوله. فنظر أحد أتباع الحسين إلى رسول ابن زياد فعرفه

فقال له: ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟ فقال له: وما جئت فيه أطعت إمامى ووفيت ببيعتى، فقال: عصيت ربك وأطعت إمامك فى هلاك نفسك، كسبت العار والنار، قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) فهو إمامك [۲] .

وسار الحسين والحر بن يزيد يرفض أن تنزل قافلة الحسين إلى أى مكان به ماء، وروى أن زهير بن القين قال للحسين: يا ابن رسول الله، إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم... فقال الحسين: ما كنت لأبدأهم بالقتال، فقال له زهير: سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها، فإنها حصينة، وهى على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم. فقال الحسين: وأية قرية هى قال: هى العقر، فقال: اللهم إنى أعوذ بك من العقر [۳] .

[صفحه ۲۸۰]

وبينما كان الحسين فى قرية العقر، كان ابن زياد قد بعث إليه بقوة عسكرية تحت قيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص. وكان ابن زياد قد كتب لعمر ولاية الرى إذا رجع من حرب الحسنين، فجد الرجل وشمر عن ساعده [۴] وعندما جاء

بعث إلى الحسين يسأله ما الذى جاء به، وماذا يريد؟ فأخبر الحسين رسوله: كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم، فأما إذ كرهونى فأنا انصرف عنهم [۵] وبهذا الرد طوق الحسين النظام بطوق الحجة، لقد أخبرهم أن الأشراف وغيرهم كتبوا إليه ومعه الدليل على ذلك. فإذا كانوا قد كرهوه فقد كان عليهم أن يبينوا له ذلك، وعندئذ ينصرف عنهم. ولكن الحال الآن أنه لا يراهم وإنما يرى جنودا مجندة تنتشر حوله فى كل مكان. فإذا كان الجند قد جاؤوا ليبلغوه رد الذين كتبوا إليه، فهو على استعداد أيضا للانصراف. ولقد كان فى هذا الرد ما أزاح الستار عن وجه السياسة الأموية، فعندما كتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد ": أما بعد فإنى حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولى، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلى أهل هذه البلاد، وآتتنى رسلهم فسألونى القدوم ففعلت، فأما إذ كرهونى فبدا لهم غير ما أتتنى به رسلهم. فأنا منصرف عنهم [" ۶] قال ابن زياد:

الآن إذا علقت مخالبنا به++

يرجو النجاة ولات حين مناص

وكتب إلى عمر بن سعد: أما بعد فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت. فأعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه. فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام [۷] فالتيار الأموى رفض تقديم أى دليل يثبت أن الناس

كرهوا الحسين، بل ورفض أن تقوم قواته المسلحة بإبلاغ الحسين أن الناس قد كرهوه، لأن تقديم ذلك إليه سيؤدى إلى نجاته، وهم لا يريدون ذلك.

[صفحه ۲۸۱]

باختصار: كان التيار الأموى قد سبح شوطا طويلا فى مستنقعات الأوحال. حيث البغى والنكث والفساد فى الأرض... لقد رفضوا إظهار بينة، وهذا من أمور الدين. وطالبوه بمبايعة يزيد بن معاوية، وهذا ليس من أمور الفطرة. وأوصاف يزيد التى اتفق عليها العلماء تثبت ذلك. والذين قالوا إن الحسين طلب أن يضع يده فى يد يزيد أو طلب منهم أن يسيروه إلى أى ثغر من ثغور المسلمين لم يصيبوا الحقيقة، لأن هذه الأقوال لا تستقيم مع المقدمات، وإذا كانت هناك أحاديث قد روت هذا، فإن هناك ما يعارضها فعن عقبة بن سمعان قال: صحبت حسينا فخرجت معه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل. وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة. ولا فى الطريق ولا بالعراق ولا فى عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتها. ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس. وما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسير إلى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال: دعونى فلأذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير من أمر الناس [۸] فهذا القول يستقيم مع المقدمة وفيه حجة

على القوم الذى يريدون قتله. وبعد وصول كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، صدر إليه الأمر التالى: من عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد. أما بعد، فخل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقى الزكى المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن

عفان. " فبعث عمر بن سعد خمسمائة فارس، على رأسهم عمرو بن الحجاج، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث. وبينما جنود بنى أمية عند الماء، نادى عبد الله بن أبى حصين على الحسين وقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا. فقال الحسين: اللهم اقتله عطشا ولا تغفر له أبدا. روى أن حميد بن مسلم قال: إنه شاهد ابن أبى حصين بعد ذلك فى

[صفحه ۲۸۲]

مرضه. فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى يغر، ثم يقئ، ثم يعود فيشرب حق يقر، فما زال ذلك دأبه حتى لفظ نفسه [۹] .

ورغم قرار منع الماء عن الحسين إلا أن فوارس الحسين كانوا يحصلون على الماء، بدفع الحراس عنها بين حين وآخر [۱۰] وروى أن عمر بن سعد كان

يريد أن يفتح بابا للسلامة والعافية، فكتب إلى ابن زياد بذلك، فبعث إليه ابن زياد كتاب مع شمر بن ذى الجوشن، وقال لشمر: أخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى، فإن فعلوا فليبعث بهم إلى سلما، وإن هم أبو فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلى برأسه [۱۱] وكانت الرسالة التى حملها شمر إلى عمر بن سعد، تحمل فى

مضمونها أمر القتال، وفيها: أما بعد، فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه، ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتقعد له عندى شافعا. انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبث بهم إلى سلما. وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم، إن أنت مضيت لأمرنا فيه، جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر فإنا قد أمرناه بأمرنا ["... ۱۲] .

وعندما حمل شمر الرسالة إلى عمر بن سعد واطلع عليها قال شمر: أخبرنى ما أنت صانع، أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه، وإلا فخل بينى وبين الجند والعسكر، فقال له: لا ولا كرامة لك، وأنا أتولى ذلك [۱۳] ونادى

[صفحه ۲۸۳]

عمر بن سعد: يا خيل الله اركبى وابشرى! فركب فى الناس، ثم زحف نحو الحسين بعد صلاة العصر وحسين جالس أمام بيته محتبيا بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت: يا أخى أما تسمع الأصوات قد اقتربت. فرفع الحسين رأسه وقال: إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى: إنك تروح إلينا [۱۴] .

وبينما كانت الخيل تتقدم، اتجه العباس بن على إليهم، وعندما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية، حتى ينظر فى هذا الأمر.... فإذا أصبحنا التقينا. وإنما أراد بذلك أن يردهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره، ويوصى أهله. فجاء رسول من قبل عمر بن سعد إلى معسكر الحسين وقال: إنا قد أجلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرحنا بكم إلى أميرنا عبيد الله بن زياد وإن أبيتم فلسنا تاركيكم [۱۵] وأثناء الليل جمع الحسين أصحابه وقال: إنى

لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابى. ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى، فجزاكم الله عنى جميعا خيرا. ألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا. إلا وإنى قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعا فى حل، ليس عليكم منى ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى، ثم تفرقوا فى سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبونى، ولو قد أصابونى لهوا عن طلب غير [۱۶] .

فقال له أخوته وأبناؤه، وبنو أخيه، وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبدا. وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: أنحن نخلى عنك، ولما نعذر إلى الله فى أداء حقك، أما والله حتى أكسر فى صدورهم رمحى، وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمة فى يدى، ولا أفارقك، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك. وتكلم جماعة

[صفحه ۲۸۴]

من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا فى وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا، وجباهنا، وأيدينا، فإذا نحن قتلنا، كنا وفينا وقضينا ما علينا [۱۷] .

وقام الحسين وأصحابه إلى الصلاة، فقاموا الليل كله، يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون. والحسين يقرأ قوله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خيرا لأنفسهم. إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) [۱۸] .

وفى الصباح، وكان يوم سبت، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، خرج الحسين فيمن معه من الناس. وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا- فعبأهم وصلى بهم صلاة الغداة، وجعل البيوت فى ظهورهم وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت تحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم [۱۹] وكل ذلك

من باب الأخذ بالأسباب. وروى أن الحسين رفع يده ودعا الله تعالى، فلما دنا منه القوم، دعا براحلته، فركبها ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس، اسمعوا قولى، ولا- تعجلونى حتى أعظكم بما هو حق لكم على، وحتى أعتذر إليكم من مقدمى عليكم، فإن قبلتم عذرى، وصدقتم قولى وأعطيتمونى النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم على سبيل. وإن لم تقبلوا منى العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم " فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة. ثم اقضوا إلى ولا تنظرون إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ". فلما سمع أخواته كلامه هذا، صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهن. فأرسل إليهن أخاه العباس بن على، وعليا ابنه، وقال لهما: أسكتاهن فلعمرى ليكثرن بكاؤهن. فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملائكته وأنبيائه، يقول الضحاك: فوالله ما

[صفحه ۲۸۵]

سمعت متكلما قط قبله ولا- بعده أبلغ فى منطق منه. ثم قال الحسين: أما بعد، فانسبونى، فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا أهل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم، وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه. أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبى. أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمى، أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ولأخى ": هذان سيدا شباب أهل الجنة، " فإن صدقتمونى بما أقول، وهو الحق والله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتمونى، فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصارى، أو أبا سعيد الخدرى، أو سهل بن سعد الساعدى، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ولأخى. أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى، فإن كنتم فى شك من هذا القول أفتشكون أثرا ما أنى ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى لا- منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة، أخبرونى أتطلبونى بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحه، ثم نادى: يا شبث بن ربعى، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلى أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند فأقبل؟ فقالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله، بل والله لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس إذ كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض. فقال له قيس بن الأشعث: أولا تنزل على حكم بنى عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، عباد الله " إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون"، " أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، " ثم أناخ فى راحلته، وأمر عقبة بن سمعان

[صفحه ۲۸۶]

فعقلها وأقبلوا يزحفون نحو [۲۰] .

قال كثير بن عبد الله الشعبى: لما زحفنا قبل الحسين، خرج إلينا زهير بن القين فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذران. حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة، إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما كله ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه. وعند ما قال لهم زهير ذلك، سبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما. فقال لهم: عباد الله إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية. فإن لم تنصروهم، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية... فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال: اسكت اسكت الله نأمتك أبرمتنا بكثرة كلامك. فأقبل زهير على الناس رافعا صوته: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم قوما هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم. فناداه رجل من معسكر الحسين: يا زهير، أن أبا عبد الله يقول لك أقبل، فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ فى الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ [۲۱] .

وهكذا قامت الحجة عليهم من كل اتجاه، ليقفوا عراة أمام التاريخ، ويقفوا فى الدائرة الأضيق عندما يعرضون على الله قاصم الجبارين.

وبينما كان أبناء

[صفحه ۲۸۷]

ثقافة السب وعبيد الدينار يستعدون لاجتياح معسكر الحسين، كان هناك رجل بين الرجال يراقب الأحداث ويسمع من هذا ومن ذاك، إنه الحر بن يزيد، الذى كانت مهمته، تنحصر فى مراقبة الحسين على طول الطريق إلى الكوفة. وروى أن الحر ركب فرسه ونظر إلى معسكر الحسين، فقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت. فقال له الرجل: يا ابن يزيد والله إن أمرك لمريب. فقال له: إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع، وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك فى هذا المكان.. وإنى جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لى توبة؟ قال: نعم يتوب الله عليك ويغفر لك [۲۲] .

[۱] الطبرى ۶:۲۳۲.

[۲] الطبرى ۶:۲۳۲.

[۳] الطبرى ۶:۲۳۲.

[۴] الإصابة ۲:۱۷، الطبرى ۶:۲۳۳.

[۵] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۶] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۷] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۸] الطبرى ۶:۳۳۵، البداية ۸:۱۷۵.

[۹] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۱۰] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۱۱] الطبری ۳۳۶:۶، البدایة ۱۷۲:۸.

[۱۲] الطبری ۳۳۶:۶، البدایة ۱۷۵:۸.

[۱۳] الطبری ۳۳۷:۶، البدایة ۱۷۵:۱.

[۱۴] الطبری ۳۳۷:۶.

[۱۵] الطبری ۲۳۸:۶.

[۱۶] البدایة ۱۷۶:۸، الطبری ۲۳۹:۶.

[۱۷] البدایة ۱۷۷:۸، الطبری ۲۳۹:۶.

[۱۸] الطبری ۲۴۰:۶، البدایة ۱۷۸:۸.

[۱۹] الطبری ۲۴۱:۶.

[۲۰] الطبری ۲۴۲:۶، البدایة ۱۷۹:۸.

[۲۱] الطبری ۲۴۴:۶، البدایة ۱۸۰:۸.

[۲۲] الطبری ۲۴۴:۶، البدایة ۱۸۰:۸.

القتلة واللصوص

بعد أن وقف الحر بن یزید فی معسکر الحسین، خاطب القوات الأمویة

فقال ": ویحکم منعتم الحسین ونساءه وبناته ماء الفرات الذی یشرب منه الیهود والنصاری، ویتمرغ فیه خنازیر السواد وکلابه، فهو کالأسیر فی أیدیکم لا یملک لنفسه ضرا ولا نفعا [۱] وبدأ الحسین بن علی علیه السلام، یتصرف وفقا لما

أخبره النبی الأعظم صلی الله علیه وآله وسلم بخصوص نهایته. فقال الحسین: إئتونی ثوبا لا یرغب فیه أحد، أجعله تحت ثیابی. فأتوه بتبان فقال: لا ذاک لباس من ضربت علیه الذلة، فأخذ ثوبا مخرقة، فجعله تحت ثیابه حتی إذ قتل وجردوه من ثیابه بقی علیه هذا الثوب [۲] .

وبدأت المعرکة، معرکة الطهر ضد الرجس، معرکة قتلت فیها القوات الأمویة الأطفال، واستعملت أسالیب فی القتال، یندی لها الجبین خجلا. لیس

[صفحه ۲۸۸]

لأنها لا تستقیم مع تعالیم الإسلام، ولکن لأنها لا تستقیم مع المروءة العربیة الجاهلیة. ولقد حدثنا التاریخ عن معارک قادها جنکیزخان، وهولاکو، والقیاصرة، والأکاسرة. وعلمنا سیرة قادتهم مع أبناء الملوک المهزومین، وکیف کانوا یتعاملون معهم وفقا لأعراف وقوانین متفق علیها. وعلمنا من تاریخهم أیضا أن الجبان لیس هو الإنسان الذی یفر من ساحة القتال وإنما هو ذلک الإنسان الذی إذا قدر کان أکثر جبنا أی أکثر قتلا. والتحرک الأموی فی کربلاء ضد أبناء النبی صلی الله علیه وسلم، هو فی کثیر من بنوده، لا یرتقی إلی مستوی تعامل الجبابرة مع أبناء الملوک المنهزمین. ویلتقی مع تعریف الإنسان الأکثر جبنا. وفیما سبق ألقینا الضوء علی تحرک الحسین نحو کربلاء من مصادر معتمدة ومعتبرة، ألا وهی: الطبری فی کتابه المسمی بتاریخ الأمم والملوک، والبدایة والنهایة لابن کثیر، ولقسوة بنی أمیة کقادة وأمراء، وأهل الکوفة کجنود لهذه السیاسة، سیکون مصدرنا الأساسی فی إلقاء الضوء علی ساحة المعرکة هو، البدایة والنهایة لابن کثیر. وما اتفق معه من مصادر سنبینه بالهامش. واختیارنا لهذا المصدر فی هذا الموضع بالذات له أسبابه. منها حتی لا یقال إن الأحداث مبالغ فیها. ومنها أن ابن کثیر فی کتابه یمیل میلا کبیرا نحو السیاسة الأمویة فی خطوطها العریضة، وإن کان ینتقدها فی بعض الأمور الثانویة، إلا أنه مؤید لرموزها بلا استثناء، وهذا یجعل تلقی أخبار القتال مقبولا ولا شبهة

فيه. ولقد أجاد ابن كثير عندما تحدث عن مقتل الحسين تحت عنوان " وهذه صفة مقتله مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن، لا كما يزعمه أهل التشيع من الكذب [" ۳] .

وقدم نخبة من المرويات تكفى لما نريد أن نبينه فى هذا المقام. وعن تحديد الذى بدأ القتال، يقول ابن كثير: فتقدم عمر بن سعد بن أبى وقاص وقال لمولاه: يا دريد ادن رأيتك، فأدناها، ثم شمر عمر بن سعد عن ساعده، ورمى بسهم وقال: اشهدوا، إنى أول من رمى القوم. فترامى الناس

[صفحه ۲۸۹]

بالنبال [۴] وبدأت المبارزة بين الفريقين، ووقف رجل وقال: يا حسين أبشر

بالنار. فقال له الحسين: كلا، ويحك إنى أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، بل أنت أولى بالنار، وكثرت المبارزة بين الفريقين والنصر فى ذلك لأصحاب الحسين، لقوة بأسهم، وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم. فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة [۵] وبعث عمر نحوا من خمسمائة رجل

فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها، حتى بقى جميعهم رجالة. وأمر ابن سعد بحرق الأبنية التى تحمى أجناب قوات الحسين. فقال الحسين: دعوهم يحرقونها فإنهم لا يستطيعون أن يجوزوا منها وقد أحرقت [۶] ونادى ابن

الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد: قاتلوا من مرق من الدين وفارق الجماعة. فقال له الحسين: يا عمر بن الحجاج أعلى تحرض الناس، أنحن مرقنا وأنتم ثبتم عليه؟ أما والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم، ومتم على أعمالكم، أينا مرق من الدين، ومن هو أولى بصلى النار . [۷]

إن المعركة تكشف فيما تكسف عن سياسة الترقيع والتشويه، وعن انتاج ثقافة السب حيث الجيل والعصر الذى ضيع الصلاة. واتهام الحسين بأنه من أهل النار، وأنه مارق من الدين، دليل قاطع على أن الرحلة الأموية كارثة كبرى فى بدايتها فما بالك بها عند نهاية الطريق، ففى أول الطريق ضاع الدين ورموز الدين، فبأى وقود تسير القاطرة بعد ذلك؟ ثم انظر إلى هذا الجندى الأموى الذى ضاعت الصلاة فى عهودهم، ماذا قال عندما سمع الحسين يقول: مروهم فليكفوا عن القتال حتى نصلى. لقد قال للحسين إن الصلاة لا تقبل منكم. فرد عليه أحد جنود الحسين قال له: ويحكم أتقبل منكم ولا تقبل من آل رسول

[صفحه ۲۹۰]

الله [۸] وفى رواية الطبرى قال له: زعمت الصلاة من آل رسول الله لا تقبل،

وتقبل منك يا حمار [۹] فهذا دليل على مدى السقوط الذى انحدرت إليه الأمة

بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأقل من خمسين عاما، وليس بعد ثلاثة قرون. وبعد أن قامت القوات الأموية برفض المبارزة، وهى قانون قتالى لا خلاف عليه. وبعد أن وجهت النبال إلى خيول الحسين، وحرقت الأبنية التى تحمى أجنابه. يقول ابن كثير: كان الرجل من أصحاب الحسين إذا قتل بان فيهم الخلل، وإذا قتل من أصحاب عبيد الله بن زياد الجماعة الكثيرة لم يتبين ذلك فيهم لكثرتهم [۱۰] فالقوات الأموية فى الأساس يتمتعون بكثرة عددهم، ولكنهم

كانوا أكثر جبنا، فهم خائفون ولكنهم بما لديهم من عتاد، يضربون فى كل مكان حتى أخبية النساء ما سلمت منهم. وروى أن حبيب بن مظاهر، قاتل بجانب الحسين قتالا شديدا، فضربه رجل بالسيف على رأسه فقتله. وحمل عليه آخر فطعنه فوقع، فنزل إليه الذى ضربه بالسيف فاحتز رأسه. فقال له الذى طعنه إنى لشريكك فى قتله. فقال الآخر: والله ما قتله غيرى. فقال الذى طعنه وهو من بنى تميم: أعطنيه أعلقه فى عنق فرسى كيما يرى الناس ويعلموا أنى شاركت فى قتله، ثم خذه أنت بعد ذلك فامض به إلى عبيد الله بن زياد، فلا حاجة لى فيما تعطاه على قتلك إياه. فأبى عليه فأصلح قومه فيما بينهما على هذا، فدفع إليه الرأس، فجال به فى العسكر وقد علقه فى عنق فرسه. وبعد المعركة أقبل به إلى ابن زياد فى القصر، وبينما هو يسير، شاهده ابن حبيب بن مظاهر فقال له: إن هذا الرأس الذى

معك رأس أبى، أفتعطينيه حتى أدفنه؟ فقال له: يا بنى لا يرضى الأمير أن يدفن، وأنا أريد أن يثيبنى الأمير على قتله ثوابا حسنا. فقال له الغلام: لكن الله لا يثيبك على ذلك إلا أسوأ الثواب، وبكى الغلام. وروى أن هذا الغلام لم يكن له همه إلا

[صفحه ۲۹۱]

اتباع أثر قاتل أبيه. فلما كان زمان مصعب بن الزبير، دخل الغلام معسكر مصعب فوجد الرجل فقتله [۱۱] .

وبدأت جحافل بنى أمية تتدفق على معسكر الحسين من كل ناحية، وقتل الحر بن يزيد. وبعد ذلك صلى الحسين صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعدها قتالا شديدا، فلما رأى أصحاب الحسين أنهم قد كثروا، وأنهم لا يقدرون عن أن يمنعوا حسينا ولا أنفسهم، تنافسوا فى أن يقتلوا بين يديه. فجاء عبد الله، وعبد الرحمن ابنا عزرة الغفار، فقالا: يا أبا عبد الله عليك السلام، حازنا العدو إليك، فأحببنا أن نقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك. قال: مرحبا بكما ادنوا منى. فدنوا منه، فجعلا يقاتلان. وجاء الفتيان الجابريان، سيف بن الحارث، ومالك بن عبد، فأتيا حسينا، فدنوا منه وهما يبكيان. فقال: ما يبكيكما، فوالله إنى لأرجو أن تكونا عن ساعة قريرى عين. فقالا للحسين: جعلنا الله فداك، لا- والله ما على أنفسنا نبكى ولكن نبكى عليك، نراك قد أحيط بك ولا- نقدر أن نمنعك. فقال: جزاكما الله بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياى بأنفسكما أحسن جزاء المتقين [۱۲] .

وجاء حنظلة بن أسعد، فقام بين يدى حسين، فأخذ ينادى: يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وما الله يريد ظلما للعباد. ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد. يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى. فقال له الحسين: يا ابن سعد رحمك الله. إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك. فكيف بهم الآن، وقد قتلوا إخوانك الصالحين. قال: صدقت جعلت فداك أنت أفقه منى. وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا. فقال له: رح إلى خير من الدنيا وما فيها..

[صفحه ۲۹۲]

وإلى ملك لا يبلى. فقال: السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى أهل بيتك، وعرف بيننا وبينك فى جنته. فقال: آمين آمين فاستقدم فقاتل حتى قتل [۱۳] .

ثم آتاه أصحابه مثنى، وفرادى يقاتلون بين يديه، وهو يدعو لهم ويقول: جزاكم الله جزاء المتقين. فجعلوا يسلمون على الحسين ويقاتلون حتى يقتلوا. ثم جاء حبس بن أبى شبيب، فقال: يا أبا عبد الله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز على منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشئ، أعز على من نفسى ودمى لفعلته. السلام عليك يا أبا عبد الله، اشهد لى أنى على هديك. ثم مشى بسيفه صلتا وبه ضربة على جبينه، فنادى: ألا رجل لرجل، ألا ابرزوا إلى. فعرفوه - وكان من أشجع الناس - فنكلوا عنه. ثم قال عمر بن سعد: أرضخوه بالحجارة، فرمى بالحجارة من كل جانب، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره، ثم شد على الناس، فكرد أكثر من مائتين بين يديه، ثم إنهم عطفوا عليه من كل جانب فقتل رحمه الله. وأخذ رأسه. عدد من الرجال، كل يدعى قتله، فأتوا به عمر بن سعد فقال لهم: لا تختصموا فيه فإنه لم يقتله إنسان واحد. ففرق بينهم بهذا القول [۱۴] .

وقاتل زهير بن القين بين يدى الحسين قتالا شديدا، فشد عليه كثير بن عبد الله، ومهاجر بن أوس فقتلاه [۱۵] وكان آخر من بقى مع الحسين من أصحابه

سويد بن عمر، وكان أول قتيل من بنى أبى طالب يومئذ، على الأكبر بن الحسين بن على. فلقد أخذ يشد على الناس وهو يقول:

أنا على بن حسين بن على++

نحن ورب البيت أولى بالنبى

تالله لا يحكم فينا ابن الدعى وبينما هو يقاتل، اعترضه مرة بن منقذ فطعنه، واجتمع عليه الناس فقطعوه بأسيافهم، فقال الحسين: قتل الله

قوما قتلوك يا بنى، ما أجرأهم على الرحمن.

[صفحه ۲۹۳]

وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفاء. وخرجت زينب، ابنة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنادى: يا أخياه ويا ابن أخاه، فجاءت حتى أكبت عليه. فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط. وأقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه، فقال: احملوا أخاكم. فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه [۱۶] ثم قتل عبد الله بن

مسلم بن عقيل، ثم قتل عون، ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر، ثم قتل عبد الرحمن وجعفر ابنا عقيل بن أبى طالب، ثم قتل القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب [۱۷] وعن حميد بن مسلم قال: وخرج غلام كأن وجهه شقة

قمر فى يده السيف. عليه قميص وإزار، ونعلاه قد انقطع " شسع أحدهما. فقال عمرو بن سعد بن نفيل: والله لأشدن عليه. فقيل له: سبحان الله وما تريد إلى ذلك، يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه، فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، وقال: يا عماه. فجلى الحسين كما يجلى الصقر، ثم شد شدة ليث أغضب، فضرب عمر بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق، فصاح ثم تنح عنه. وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمر من الحسين... فاستقبلت عمر بصدورها، وحركت حوافرها، وجلت الخيل بفرسانه عليه، فتوطأته حتى مات. وقام الحسين على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه. والحسين يقول: بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك. ثم قال: عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك، صوت والله كثر واتره وقل ناصره، ثم احتمله وكأنى أنظر إلى رجلى الغلام يخطان فى الأرض، وقد وضع الحسين صدره على صدره، ثم جاء به حتى ألقاه مع ابنه الأكبر ومع من قتل من أهل بيته فسألت عن الغلام فقيل: هو القاسم بن الحسين بن على بن أبى طالب [۱۸] .

[صفحه ۲۹۴]

وقال هانئ بن ثبيت: خرج غلام من آل الحسين، وهو ممسك بعود - أى عود قصب - من تلك الأبنية، وعليه إزار وقميص وهو مذعور يلتفت يمينا وشمالا. فكأنى أنظر إلى درتين فى أذنيه، تذبذبان كلما التفت. إذ أقبل رجل يركض فرسه. حتى إذا دنا من الغلام، مال عن فرسه ثم أخذ الغلام فقطعه بالسيف. قال هشام السكونى: هانئ بن ثبيت هو الذى قتل الغلام، خاف أن يعاب ذلك عليه فكنى عن نفسه [۱۹] .

ومكث الحسين نهارا طويلا وحده لا يأتيه أحد، حتى آتاه رجل من كنده يقال له مالك بن النسير. أتاه فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس له فقطع البرنس، وأصاب السيف رأسه فأدمى رأسه، فامتلأ البرنس دما. فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت، حشرك الله مع الظالمين، وألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتم. وقد أعيا. وجاء الكندى الذى ضربه حتى أخذ البرنس [۲۰] .

وأتى الحسين بصبى له فأجلسه فى حجره، ثم جعل يقبله ويودعه. فرماه رجل من بنى أسد بسهم فذبح ذلك الغلام. فتلقى الحسين دمه فى يده. وألقاه نحو السماء وقال: رب إن تك حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين [۲۱] وأحاطوا بالحسين، وأقبل إلى

الحسين غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة على لتحبسه. فقال لها الحسين: أحبسيه، فأبى الغلام، وجاء يشتد إلى الحسين فقام إلى جنبه، فأهوى بحر بن كعب إلى الحسين بالسيف. فقال الغلام: أتقتل عمى، فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها سوى الجلدة، فإذا يده معلقة. فنادى الغلام: يا أمتاه، فأخذه الحسين فضمه إلى صدره، وقال: يا ابن أخى اصبر على ما نزل بك، واحتسب فى ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله صلى الله عليه

[صفحه ۲۹۵]

وسلم، وعلى بن أبى طالب، وحمزة، وجعفر، والحسن صلى الله عليهم أجمعين [۲۲] .

وبعد أن فرغت القوات الأمويـة من الخيول، ثم من الرجال، ثم من الأطفال، بـدءوا يتفرغون للنساء، وكان هذا كله وفق خطة محكمة، هـدفها أن يرى الحسين كل شـئ قبل أن يقتلوه. يقول عبد الله بن عمار: فوالله ما رأيت مكسورا قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصـحابه أربط جأشا، ولا أمضـى جنانا منه، ولا أجرأ مقـدما. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله. إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشـماله. انكشاف المعزى إذ شد فيها الذئب، فوالله إنه لكذلك [۲۳] .

وتحرك شـمر بن الجوشن فی اتجاه منزل الحسين الـذی فيه ثقله وعياله، ثم قام بقواته فحالوا بين الحسـين وبين رحله. فقال الحسـين: ويلكـم إن لـم يكـن لكم دين، وكنتم لاـ تخـافون يـوم المعـاد فكونـوا فی أمر دنيـاكم أحرارا ذوی أحسـاب، منعـوا رحلی وأهلی من طغاتكم وجهالكم. فقال له شمر: ذلك لك يا ابن فاطمة [۲۴] .

[۱] البداية والنهاية ۸:۱۸۱.

[۲] سروال صغير يستر العورة المغلظة فقط، ويلبسه الفلاحون.

[۳] رواه الطبرانی وقال الهيثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۹۳).

[۴] البداية ۸:۱۸۱.

[۵] البداية ۸:۱۸۲.

[۶] البداية ۸:۱۸۲، الطبری ۶:۲۵۰.

[۷] الطبری ۶:۲۴۹، البداية ۸:۱۸۵.

[۸] البداية ۸:۱۸۳.

[۹] الطبری ۶:۲۵۱.

[۱۰] البداية ۸:۱۸۳.

[۱۱] الطبری ۶:۶۵۲، البداية ۸:۱۸۳.

[۱۲] الطبری ۶:۲۵۳، البداية ۸:۱۸۴.

[۱۳] الطبری ۶:۲۵۴.

[۱۴] البداية ۸:۱۸۵.

[۱۵] البداية ۸:۱۸۴.

[۱۶] البداية ۸:۱۸۵، الطبری ۶:۲۵۶.

[۱۷] البداية ۸:۱۸۵، الطبری ۶:۲۵۶.

[۱۸] البداية ۸:۱۸۶، الطبری ۶:۲۵۶.

[۱۹] البداية ۸:۱۸۶، الطبری ۶:۲۵۸.

[۲۰] البداية ۸:۱۸۶، الطبری ۶:۲۵۶.

[۲۱] البداية ۸:۱۸۶، الطبری ۶:۲۵۷.

[۲۲] البدية ۸:۱۸۷، الطبری ۶:۲۵۹.

[۲۳] الطبری ۶:۲۵۹، البداية ۸:۱۸۸.

[۲۴] الطبری ۶:۲۵۸، البداية ۸:۱۸۷.

سلام عليک أبا عبدالله

وقف الحسین فی ساحهٔ المعرکهٔ وحده. وکان النبی صلی الله علیه

وسلم، یراقب الحرکهٔ من عالم غیر العالم الذی یعیش فیه الناس. فأم سلمهٔ ستراه فی المنام بعد قتل الحسین، وعلی لحیته التراب، ویقول لها: لقد شهدت قتل الحسین آنفا، لقد وقف الحسین فی نهایهٔ عمل أحسن أدائه، فأقام الحجهٔ الدائمهٔ التی شاء الله أن یجعلها حجهٔ دامیهٔ لتقرع الذاکرهٔ علی امتداد التاریخ، وتدفع الذهن إلی طریق البحث عن الحقیقهٔ، کان فی مواجههٔ الحسین أنماط

[صفحه ۲۹۶]

بشریهٔ أقوالها غیر أفعالها، خرجت من خیام بها الکثیر من التقیح والفساد، الذی یسد أبواب الأمل. ولم یرفع الحسین یده استسلاما لهذه الأنماط، لأنه لیس من شیمهٔ الرجل الشریف أن یتردی فی هوهٔ هذا الخوف الذلیل، وأی شریف یکون غیر أسف علی ترک عالم الباطل هو الشیء الوحید الذی یسود فیه، لم یرفع الحسین یده، وإنما تصدی للخیام التی بها حشدا من الجرائم، ومکتظهٔ بالقتل والآثام، وواجه العدوان البهیمی البربری الذی لیس له نظیر، کان الحسین فی أحلک الأوقات یدعو لإقامهٔ الدین، وکان خصومه الذین ترعرعوا تحت ثقافهٔ السب وأمام بیوت المال، یعملون من أجل الدنیا، کانوا یعملون من أجل کیس نقود، وکانوا یضعون العقبات أمام الحسین، حتی یظل عاجزا عن نیل ما یشتهی بینما یبلغ کل منهم ما یرید.

صرخات الحسین

أمام المجموع التی تقرقع أنیابها کرقعهٔ أنیاب الحیتان، وقف الحسین

والدماء تغطی وجهه بعد أن ضربه رجل من کنده بالسیف علی رأسه، فقطع البرنس وأدمی الرأس. فقال لهم: أعلی قتلی تحاثون؟ أما والله ولا تقتلون بعدی عبدا من عباد الله، الله أسخط علیکم لقتله منی. وأیم الله، إنی لأرجو أن یکرمنی الله بهوانکم، ثم ینتقم لی منکم من حیث لا تشعرون. أما والله إن لو قد قتلتمونی لقد ألقی الله بأسکم بینکم وسفک دماءکم، ثم لا یرضی لکم بذلک حتی یضاعف لکم العذاب الألیم [۱] وکان قد قال: إنی لم أخرج أشرا ولا

بطرا، ولا مفسدا ولا ظالما، وإنما خرجت لطلب الاصلاح فی أمهٔ جدی، محمد صلی الله علیه وسلم، أرید أن آمر بالمعروف وأنهی عن المنکر، وأسیر بسیرهٔ جدی محمد صلی الله علیه وسلم، وأبی علی بن أبی طالب. فمن قبلنی بقبول الحق فالله أولی بالحق. ومن رد علی هذا، أصبر حتی یقضی الله بینی وبین القوم الظالمین [۲] .

[صفحه ۲۹۷]

کان الحسین یذکر ویقیم الحجهٔ علی امتداد الطریق، وکان الذین من حوله تلمع فی عقولهم دنانیر عبید الله بن زیاد. کما لمع العجل فی قلوب بنی إسرائیل، کان یلقی علیهم کلمات فیها حیاتهم، وبها بعیشوا أحرارا. وکانوا یبحثون عن حجارهٔ لیرجموه بها. هو یرید حیاتهم، وهم یریدون قتله. وصاح الحسین: ما لک یا ابن سعد قطع الله رحمک، ولا بارک الله لک فی أمرک، وسلط علیک بعدی من یذبحک علی فراشک، کما قطعت رحمی ولم تحفظ قرابتی من رسول الله صلی الله علیه وسلم، ثم رفع صوته وتلی قوله تعالی [۳] (إن الله اصطفی آدم ونوحا وآل إبراهیم وآل عمران علی العالمین - ذریهٔ بعضها من بعض والله سمیع علیم [" ۴] .

کان یذکرهم بما یعرفون وبما یخفون. وتعالت الأصوات: الحق مع آل معاویهٔ، وقطع ضجیجهم صوت الحسین: نعم الرب ربنا، وبئس العبید أنتم.... یا أمهٔ السوء بئسما خلفتم محمدا فی عترته. ثم قال: أما إنکم لن تقتلوا بعدی عبدا من عباد الله فتهابوا قتله. بل یهون علیکم ذلک، عند قتلکم إیای، وأیم الله، إنی لأرجو أن یکرمنی الله بالشهادهٔ، ثم ینتقم لی منکم من حیث لا تشعرون. فناداه الحصین بن مالک: وبماذا ینتقم لک منا یا ابن فاطمهٔ فقال: یلقی بأسکم بینکم ویسفک دماءکم، ثم یصب علیکم العذاب الألیم [۵] .

وبعد أن حذرهم الحسین التحذیر الأخیر، عطش الحسین حتی اشتد عطشه فدنا لیشرب من الماء، فرماه حصین بن تمیم بسهم فوقع فی فمه، فجعل یتلقی الدم من فمه، ویرمی به إلی السماء، ثم حمد الله وأثنی علیه، ثم جمع یدیه فقال: اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا،

ولا تذر على الأرض منهم أحدا [۶] .

[صفحه ۲۹۸]

[۱] البداية والنهاية ۱۸۸:۱، الطبرى ۲۶۰:۶، الكامل ۲۶۴:۳.

[۲] مقتل الحسين:الخوارزمى ۱۸۹:۱.

[۳] مقتل الحسين:الخوارزمى ۳۰:۲.

[۴] سورة آل عمران: الآية ۳۳ و ۳۴.

[۵] مقتل الحسين ۳۴:۲.

[۶] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۱۹۳:۹) والبداية والنهاية ۱۸۷:۸، الطبرى ۲۵۸:۶.

و الله إنه ليحزننى قتل الحسين

وقف الحسين أمام رحله الذى به، ما تكته السيوف من بقايا أجساد أبنائه.

مكث نهارا طويلا وحده، لا يأتيه أحد، حتى نزف دمه. وبعد أن ارتوت الأرض من دمائه، نادى شمر بن ذى الجوشن: ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ فاقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملت الرجال من كل جانب على الحسين. وضربه زرعه بن شريك على كتفه اليسرى، وضرب على عاتقه. ثم انصرفوا عنه، وهو ينوء ويكبو. ثم جاء إليه سنان بن أبى عمرو، فطعنه بالرمح فوقع [۱] يقول

عبد الله بن عمار: رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه، يحمل على من على يمينه حتى انذعروا عنه. فوالله ما رأيت مكثورا قط قد قتل أولاده وأصحابه أربط جأشا منه، ولا أمضى جنانا منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله [۲] وروى الطبرى: كان مع الحسين سكين، فعندما أخذ سيفه قاتلهم بسكينة ساعة [۳] .

وعندما جاء شمر بن ذى الجوشن، نظر إليه الحسين وقال: صدق الله ورسوله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": كأنى أنظر إلى كلب أبقع يلغ فى دماء أهل بيتى. " وكان شمر أبرص [۴] ثم قال: اللهم أحبس عنهم

القطر، وابعث عليهم سنين كسنى يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسا مصيرة، فإنهم كذبونا وخذلونا. اللهم إن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا واجعلهم طرائق قددا، ولا ترضى الولاة عنهم أبدا. فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا فقتلونا.. ثم أراد الحسين أن يقف، ولكن قضى الله أن تنتهى أعمال الحسين بالدعاء إليه سبحانه. وأن تنتهى حركته فى هذه البقعة من الأرض، لتبدأ الحركة بصورة أخرى على امتداد الزمان. وروى أن الحسين سأل عن هذه البقعة فقالوا: كربلاء، فقال: صدق الله ورسوله كرب وبلاء - وفى

[صفحه ۲۹۹]

راية - صدق رسول الله أرض كرب وبلاء [۵] .

وشاء الله أن تحفر فى ذاكرة المسلمين أحداث كربلاء، فالأحداث والأرض حزمة واحدة. داخل الذهنية الإسلامية، واسم كربلاء اسم مقصود له معنى، وللمعنى حكمة، ومن وراء الحكمة هدف. قال فى لسان العرب: الكرب: الحزن والغم، الذى يأخذ بالنفس. فإذا كان هذا وقودا لقاطرة، فإن هذه القاطرة ستدخل إلى دائرة البلاء، من مدخل الأمان. وقال فى المجمع: البلاء على ثلاثة أوجه: نعمة، واختبار، ومكروه. قال تعالى: (لتبلون فى أموالكم وفى أنفسكم) يريد توطين النفس على الصبر. وقال تعالى: (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات). أى اختبره، بما تعبده به من السنن. (فأتمهن) أى عمل بهن، ولم يدع منهن شيئا. والبلاء يكون حسنا وسيئا، وأصله المحنة. والله يبلوا العبد، بما يحبه ليمتحن شكره، وبما يكرهه ليمتحن صبره. قال تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة). وقال: (يوم تبلى السرائر)، أى تختبر السرائر فى القلوب، من العقائد والنيات وغيرها. وما أسر وأخفى من الأعمال. فيتميز منها ما طاب وما خبث. وقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا)، أى ليعاملكم، معاملة المختبرين لكم، وإلا فعالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شئ، وإنما يبلوا ويختبر من تخفى

عليه العواقب. وقوله: (أيكم أحسن عملا) ليس يعنى أكثركم عملا ولكن أصوبكم عملا وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة. وسنة البلاء لا يستثنى فيها المؤمن والكافر، والمحسن والمسئ. وفى الحديث القدسى ": إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك قومك، من يتبعك، ومن يتخلف عنك، ومن ينافق معك. وهكذا تكون دائرة الكرب، مدخلا إلى دائرة البلاء. وهكذا كان للحدث كله حكمة من ورائها هدف. لقد أراد الحسين، أن يقف فى وجه أعدائه، آخذا بكل سبب من الأسباب. ولكن الله قضى أن تقطع الأسباب، وأن يقع على أرض كربلاء. وروى أنهم تركوه نهارا طويلا وهو ينوء ويكبو، ثم التفوا حوله بعد أن

[صفحه ۳۰۰]

صعدت الروح إلى بارئها، ونزل أحدهم من على فرسه، قيل إنه شمر بن ذى الجوشن. وقيل إنه سنان بن أنس. فاحتز رأسه، ورؤوس بقية من قتل معه. يقول ابن كثير: كان معه رؤوس بقية أصحابه وهو المشهور، ومجموعها اثنان وسبعون رأسا. وذلك أنه ما قتل قتيل إلا احتزوا رأسه. وحملت هذه الرؤوس إلى ابن زياد. ثم بعث بها ابن زياد إلى يزيد بن معاوية إلى الشام [۶] .

وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سرواله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته، وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم. ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه. فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها، حتى تغلب عليه فيذهب به منها [۷] ووجد بالحسين عليه السلام، حين

قتل ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة [۸] وأمر عمر بن سعد عشرة

فرسان، أن يدوسوا الحسين، فداسوا الحسين بحوافر خيولهم، حتى ألصقوه بالأرض يوم المعركة [۹] وكان عمر الحسين يوم قتل، ثمان وخمسين سنة [۱۰] .

وقتل معه سبعة عشر كلهم، ارتكض فى رحم فاطمة عليها السلام [۱۱] وجميع

من قتل مع الحسن اثنان وسبعون رجلا [۱۲] .

وعن حميد بن مسلم قال: انتهيت إلى على بن الحسين بن على الأصغر، وهو منبسط على فراش له وهو مريض. وإذا شمر بن الجوشن فى رجاله معه يقولون: ألا تقتل هذا. فقال حميد: إنما هذا صبى، حتى جاء عمر بن سعد فقال: لا يعرضن لهذا الغلام المريض. فقال لى على بن الحسين: جزيت من رجل خيرا. فوالله

[صفحه ۳۰۱]

لقد دفع الله عنى، بمقالتك شرا. وقال حميد: فقال الناس، لسنان بن أنس: قتلت حسين بن على بن أبى طالب، وابن فاطمة ابنة رسول الله. قتلت أعظم رجال العرب خطرا، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيل ملكهم. فأت أمراءك فاطلب ثوابك منهم. وإنهم لو أعطوك، بيوت أموالهم فى قتل الحسين كان قليلا. فأقبل على فرسه، فأقبل حتى وقف، على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابى فضة وذهبا++

أنا قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا++

وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال عمر: أشهد أنك لمجنون، أدخلوه على. فلما أدخل قال: يا مجنون أتتكلم بهذا الكلام أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك [۱۳] .

[۱] البداية والنهاية ۸:۱۸۹، الطبرى ۲:۳۶۰.

[۲] البداية والنهاية ۸:۱۸۸.

[۳] الطبرى ۶:۳۶۰.

[۴] البدایه والنهایه ۱۸۸:۸، وابن عساکر (کنز العمال ۲۲۶:۱۲).

[۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۸۹:۹).

[۶] البدایه ۱۹۰:۸.

[۷] الطبری ۳۶۰:۶.

[۸] الطبری ۲۶۰:۶.

[۹] البدایه ۱۸۹:۸، الطبری ۲۶۱:۶.

[۱۰] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۹۸:۹).

[۱۱] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (۱۹۸:۹) البدایه ۱۸۹:۸.

[۱۲] الطبری ۲۶۱:۶، البدایه ۱۸۹:۸.

[۱۳] البدایه والنهایه ۱۸۹:۸، الطبری ۲۶۱:۱۶.

بکاء و أحداث

فی دار أم سلمه

عن سلمی قالت: دخلت علی أم سلمه، وهی تبکی، فقلت: ما یبکیک؟

قالت: رأیت رسول الله صلی الله علیه وسلم فی المنام، وعلی رأسه ولحیته التراب. فقلت: ما لک یا رسول الله. قال: شهدت قتل الحسین آنفا [۱] وکان

النبی صلی الله علیه وسلم، قد أعطی أم سلمه التربه التی أتی بها جبریل علیه السلام یوم أن أخبره، بأن أمته ستقتل حسینا، وقال لها": إذا تحولت هذه التربه دما فاعلمی أن ابنی قد قتل. فجعلتها فی قارورة [۲] - وفی روایه - فأخذتها أم سلمه، فصرتها فی خمارها [۳] وممکن أن تکون فعلت هذا وذاک، لأن

الإخبار بالحدث تکرر أکثر من مره.

[صفحه ۳۰۲]

وروی أن أم سلمه، عندما نظرت إلی التربه ووجدتها قد تحولت دما بکت، وقالت ": قد فعلوها ملأ الله قبورهم - أو - بیوتهم علیهم نارا. ووقعت مغشیا علیها [۴] وفی روایه - لعنت أهل العراق، وقالت: قتلوه قتلهم الله

عز وجل [۵] وتوفیت أم سلمه رضی الله عنها، فی نفس العام الذی قتل فیه

الحسین [۶] وکانت محبه لأهل بیت النبی صلی الله علیه وسلم. وإعطاء النبی

التربه لها فیه إشاره، أن الله تعالی أخبره بأن حیاتها، ممتده إلی أن تسمع بهذه الأحداث. فتبین الحقیقه فی عالم خیم علیه الظلام.

[۱] رواه الترمذی (البدایه ۲۱۷:۸) والحاکم والبیهقی (الخصائص الکبری ۲۱۴:۲) أسد الغابه ۲۳:۲.

[۲] أبو نعیم (الخصائص الکبری ۲۱۳:۲.

[۳] رواه أحمد وأبو یعلی وقال الهیثمی رجال أبو یعلی رجال الصحیح (الزوائد ۱۸۷:۹).

[۴] البدایه ۲۱۸:۸.

[۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۹۴:۹).

[۶] البدایه ۲۳۲:۸.

فی دار عبدالله بن عباس

عن ابن عباس قال: رأیت رسول الله صلی الله علیه وسلم، نصف
النهار أشعث أغبر، معه قارورة فیها دم. فقلت: بأبی وأمی یا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذا دم الحسین وأصحابه [۱] وهکذا أخبر النبی صلی الله علیه
وسلم، عن قتل الحسین. أخبر أثناء حیاته، وفی مماته. ولا یحدث شئ فی کون الله عبثا. إن جبریل علیه السلام، نزل وأخبر بأن الحسین سیقتل. ومعنی أنه یقتل، أن جریمة قد حدثت، ولکل جریمة عقوبة، بمعنی أن جبریل علیه السلام أخبر بجریمة، وعقوبتها. فمن دخل فی دائرة الجریمة، ضربته العقوبة. یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": إن جبریل أخبرنی أن ابنی هذا یقتل، وأنه اشتد غضب الله علی من یقتله [" ۲] وکان النبی یحذر ویقول ": من آذی شعرة منی فقد
آذانی ومن آذانی فقد آذی الله [" ۳] ولقد تحدثنا فیما سبق أن الله لا یجعل لقاتل
مؤمن توبة. لأن هذا النمط من بنی الإنسان، له ضربة لا بد أن ینالها فی الدنیا،
[صفحه ۳۰۳]
ولعذاب الآخرة أکبر. سئل ابن عباس عن رجل قتل مؤمنا، ثم تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدی. قال: ویحک وأنی له الهدی، سمعت نبیکم صلی الله علیه وسلم یقول: یجئ المقتول متعلقا بالقاتل یوم القیامة، یقول یا رب سل هذا فیم قتلنی. والله لقد أنزلها الله عز وجل علی نبیکم (ومن یقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فیها وغضب الله علیه ولعنه وأعد له عذابا عظیما)، وما نسخها بعد أن أنزلها [۴] .

وعن مرثد قال: سئل النبی صلی الله علیه وسلم، عن القاتل والآمر، قالا: قسمت النار، سبعین جزءا فللآمر تسع وتسعون، وللقاتل جزء، وحسبه. (أی یکفیه هذا المقدار من العذاب) [۵] إنه عدل الله، الذی تحت سلطانه لا یفر
الظالمین. إن العصفور سیبحث عن قاتله یوم القیامة. فما بالک بالمؤمن وقاتله. روی الطبرانی، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": ما من أحد یقتل عصفورا، إلا عج یوم القیامة، فقال: یا رب هذا قتلنی عبثا، فلا هو انتفع بقتلی ولا هو ترکنی أعیش فی أرضک [" ۶] .

[۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۹۴:۹) البدایة ۲۱۷:۸.

[۲] ابن عساکر (کنز العمال ۱۲۷:۱۲).

[۳] ابن عساکر (کنز العمال ۹۶:۱۲).

[۴] رواه أحمد والنسائی وابن ماجة بسند صحیح (الفتح الربانی ۴:۱۶).

[۵] رواه أحمد ورجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۵:۱۶).

[۶] رواه الطبرانی (الإصابة ۳۴۹:۶).

فی قصر الإمارة

عندما سارت القافلة الأمویة، ومعها الرؤوس ومن بقی من آل الحسین،
من کربلاء إلی الکوفة، کان لآل الحسین نداء، یقول قرة بن قیس: نظرت إلی تلک النسوة، لما مررن بحسین وأهله وولده، صحن ولطمن وجوههن. فما نسیت من الأشیاء لا أنسی قول زینب ابنة فاطمة، حین مرت بأخیها الحسین صریعا وهی تقول: یا محمداه، یا محمداه صلی علیک ملائکة السماء، هذا حسین بالعراء مرمل مقطع الأعضاء، یا محمد وبناتک سبایا وذریتک مقتلة تسفی علیها الصبا [" ۱] وبنی أمیة من قبل طافوا، برأس عمرو بن الحمق، وهی فی

[صفحه ۳۰۴]

أیدیهم. أما رأس الحسین علیه السلام، فهی أول رأس رفع علی خشبة [۲] .

ودخل الموکب إلی قصر الإمارة. فقام عبید الله بن زیاد، ونودی الصلاة جامعة فاجتمع الناس فی المسجد، فصعد المنبر ابن زیاد فقال: الحمد لله الذی أظهر الحق ونصر أهله ونصر أمیر المؤمنین یزید بن معاویة، وحزبه وقتل الکذاب بن الکذاب، الحسین بن علی وشیعته. فلم یفرغ ابن زیاد من مقالته، حتی وثب علیه عبد الله بن عفیف، وکان من شیعة علی علیه السلام، وکانت عینه الیسری ذهبت یوم الجمل مع علی، فلما کان یوم صفین، ضرب علی رأسه ضربة، وأخری علی حاجبه، فذهبت عینه الأخری، فکان لا یفارق المسجد یصلی فیه إلی اللیل، فلما سمع مقالة ابن زیاد قال: یا ابن مرجانة إن الکذاب ابن الکذاب، أنت وأبوک، والذی ولاک وأبوه، یا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبیین وتتکلمون بکلام الصدیقین! فقال ابن زیاد علی به. فوثب علیه الجلاوزة فأخذوه، ثم أمر بقتله، وأمر بصلبه فی السبخة، فصلب [۳] .

وفی القصر جلس ابن زیاد للناس، وجاءت الوفود فأدخلهم. یقول حمید بن مسلم: وأذن للناس، فدخلت معهم، فإذا رأس الحسین موضوع بین یدیه، وإذا هو ینکث بقضیب بین ثنیتیه. فما رآه زید بن أرقم، لا ینجم عن نکته بالقضیب قال له: أعل بهذا القضیب، عن هاتین الثنیتین، فوالذی لا إله غیره، لقد رأیت شفتی رسول الله صلی الله علیه وسلم، علی هاتین الشفتین یقبلهما، ثم بکی زید. فقال له ابن زیاد: أبکی الله عینیک، فوالله لولا أنک شیخ قد خرفت، وذهب عقلک لضربت عنقک. فنهض فخرج. فلما خرج قال الناس: والله لقد قال زید بن أرقم قولا لو سمعه ابن زیاد لقتله. فقلت: ما قال. قالوا: مر بنا وهو یقول: ملک عبد عبدا، فاتخذهم تلدا، أنتم یا معشر العرب العبید بعد الیوم، قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة، فهو یقتل خیارکم، ویستعبد شرارکم، فرضیتم بالذل فبعدا لمن رضی

[صفحه ۳۰۵]

بالذل [۴] .

وروی أنه لما دخل، برأس الحسین، وصبیانه، وأخوته، ونسائه، علی عبید الله بن زیاد، لبست زینب بنت فاطمة أرذل ثیابها، فلما دخلت جلست، فقال ابن زیاد: من هذه؟ فلم تکلمه. فقال ذلک ثلاث، کل ذلک لا تکلمه فقال بعض إمائها هذه زینب ابنة فاطمة. فقال لها ابن زیاد: الحمد الله الذی فضحکم وقتلکم، وأکذب أحدوثتکم. فقالت: الحمد لله، الذی أکرمنا بمحمد صلی الله علیه وسلم، وطهرنا تطهیرا، لا- کما تقول أنت، إنما یفتضح الفاسق، ویکذب الفاجر. فقال: فکیف رأیت صنع الله بأهل بیتک؟ قالت: کتب علیهم القتل، فبرزوا إلی مضاجعهم، وسیجمع الله بینک وبینهم فتحاجون إلیه، وتخاصمون عنده. فغضب ابن زیاد. فقال له عمرو بن حریث: أصلح الله الأمیر، إنما هی امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشئ من منطقها... فقال لها ابن زیاد: قد أشفی الله نفسی من طاغیتک، والعصاة المردة من أهل بیتک. فبکت، ثم قالت: لعمری: لقد قتلت کهلی، وأبرت أهلی، وقطعت فرعی، واجتثثت أصلی، فإن یشفک هذا، فقد اشتفیت. فقال لها: هذه شجاعة قد لعمری کان أبوک شاعرا شجاعا. قالت: ما للمرأة والشجاعة إن لی عن الشجاعة لشغلا، ولکنی نفثی ما أقول. ونظر ابن زیاد إلی علی بن الحسین، فقال له: ماسمک؟ قال: أنا علی بن الحسین. فقال: أولم یقتل الله علی بن الحسین؟ فسکت. فقال له: ما لک لا تتکلم؟ قال: قد کان لی أخ، یقال له أیضا علی فقتله الناس. فقال ابن زیاد: إن الله قد قتله. قال: الله یتوفی الأنفس حین موتها، وما کان لنفس أن تموت إلا بإذن الله. فقال: أنت والله منهم، انظروا هل أدرک، والله إنی لأحسبه رجلا. فقال مری بن معاذ: نعم قد أدرک. قال: اقتله. فتعلقت به زینب عمته، وقالت: حسبک منا أما رویت من دمائنا، وهل أبقیت منا أحدا، إن قتلته

[صفحه ۳۰۶]

اقتلنی معه فترکه [۵] .

ثم نصب ابن زیاد رأس الحسین بالکوفة، فجعل یدار به فیها، ثم دعا حر بن قیس. وأمره بحمل رأس الحسین، ورؤوس أصحابه إلی یزید بن معاویة [۶] .

[۱] الطبری ۶:۲۶۲.

[۲] البدایهٔ ۵۸:۱۹۳، الطبری ۶:۲۲۳.

[۳] الطبری ۶:۲۶۴، البدایهٔ والنهایهٔ ۸:۱۹۱.

[۴] رواه أبو داوود والطبرانی (البدایهٔ والنهایهٔ ۸:۱۹۰) الکامل ۳:۲۹۶.

[۵] الطبری ۶:۲۶۲.

[۶] الطبری ۶:۲۶۴.

فی قصر الخلافهٔ

لقد کانت سیاسهٔ معاویهٔ أن یکون الأمراء للشدهٔ وهو للین [۱] وکذلک

کان ابنه، لقد مزقوا الأمهٔ، وعندما تعرض قضایاها علیهم، تراهم یرفعون الحقائق، ویبررون المصائب، ویلقون جمیع الأخطاء علی جهات خارجیهٔ، أو معارضهٔ داخلیهٔ. ویزعمون أن هؤلاء سببا فی کل مشکلهٔ، نظرا لأنهم یحسدون بنی أمیهٔ علی ما آتاهم الله من فضله. وعندما قدمت القافلهٔ التی تحمل الرؤوس، وتأسر الأحیاء، وعلم یزید بن معاویهٔ بذلک. روی أنه قال: لعن الله ابن سمیهٔ أما والله، لو أنی صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسین [" ۲] فالذی یقول هذا، هو

نفسه الذی قام بتعیین ابن زیاد، وفقا لمشورهٔ سرجون الرومی، من أجل التصدی لأهل الکوفهٔ. وهو نفسه الذی أمر ابن زیاد بمراقبهٔ الحسین علی جمیع أبواب الکوفهٔ. وهو نفسه الذی کشف عن وجهه الحقیقی، عندما دخل علی بن الحسین، وصبیان الحسین، ونساؤه علیه، والناس ینظرون. روی أنه قال لعلی: یا علی أبوک الذی قطع رحمی، وجهل حقی، ونازعنی سلطانی، فصنع الله به ما قد رأیت. فقال علی: ما أصاب من مصیبهٔ فی الأرض ولا فی أنفسکم إلا فی کتاب من قبل أن نبرأها. فقال یزید لابنه خالد رد علیه. فما دری خالد ما یرد علیه، فقال یزید لابنه قل: ما أصابکم من مصیبهٔ فیما کسبت أیدیکم [۳] .

[صفحه ۳۰۷]

بل إن یزید کشف عن أعماقه، عندما دخل رجل من أهل الشام، ونظر إلی فاطمهٔ بنت علی، فقال لیزید، یا أمیر المؤمنین هب لی هذه. وعندما قال الرجل ذلک، خافت فاطمهٔ وأخذت بثیاب أختها زینب. فقالت زینب للرجل: کذبت، والله ولؤمت، ما ذلک لک وله. فعندئذ، غضب یزید بن معاویهٔ وقال لها: کذبت والله إن ذلک لی، وإن شئت أفعله، لفعلت. قالت: کلا والله، ما جعل الله ذلک لک، إلا أن تخرج من ملتنا وتدین بغیر دیننا. فقال یزید، إیای تستقبلین بهذا، إنما خرج من الدین أبوک وأخوک. فقالت: بدین الله، ودین أبی، ودین أخی، وجدی، اهتدیت أنت وأبوک وجدک. فقال یزید، کذبت یا عدوهٔ الله. قالت: أنت أمیر مسلط، تشتم ظالما، وتقهر بسلطانک [۴] .

إنها خبایا تعرف فی لحن القول. وروی عن مجاهد قال: لما جئ برأس الحسین فوضع بین یدی یزید، تمثل بهذه الأبیات:

لیت أشیاخی ببدر شهدوا++

جزع الخزرج فی وقع الأسل

فأهلوا واستهلوا فرحا++

ثم قالوا لی هنیا لا تسل

حین حکت بفناء برکها++

واستحر القتل فی عبد الأسل

قد قتلنا الضعف من أشرافکم++

وعد لنا ميل بدر فاعتدل

قال مجاهد: نافق فيها. والله ثم والله ما بقى فى جيشة، أحد إلا ذمه وعابه [۵] ، على هذا الشعر، وروى أن يزيد قال أيضا ورأس الحسين بين يديه، ينكتها بقضيب كان فى يده: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

يغلقن هاما من رجال أعزة++

علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمى: ارفع قضيبك، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمه [۶] وروى الطبرى أن يزيد، كان مسرورا بقتل

[صفحه ۳۰۸]

الحسين [۷] وعندما أمر بتجهيز أهل البيت، والذهاب بهم إلى المدينة قالت

السيدة سكينة: ما رأيت رجلا كافرا بالله، خير من يزيد بن معاوية [۸] وروى

عن الكلبى أنه قال: نشأت، وهم يقولون: ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين [۹] وقال اليافعى وأما حكم من قتل الحسين، أو أمر بقتله، ممن استحل

ذلك فهو كافر. [۱۰] وقال التفتازانى، فى شرح العقائد النفسية: والحق أن رضا يزيد بقتل الحسين، واستبشاره بذلك، وإهانته أهل بيت الرسول مما تواتر معناه، لعنة الله عليه، وعلى أنصاره، وأعوانه [۱۱] وقال الذهبى: كان ناصبيا، فظا،

غليظا، يتناول المسكر ويفعل المنكر، افتتح دولته بقتل الحسين، وختمها بوقعة الحرة [۱۲] وقال ابن كثير: كان فى يزيد خصال محمودة، من الكرم، والحلم

الفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأى فى الملك، وكان ذا جمال حسن، وكان حسن المعاشرة، وكان فيه أيضا إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات، فى بعض الأوقات، وإماتتها فى غالب الأوقات [۱۳] ، وابن كثير فى كتاباته التاريخية، يقدم فى كثير من الأحيان آراء، لو أراد الباحث أن يقيم عليها دليل واحد، ما وجد هذا الدليل فى كتب المسلمين المعتمدة. وذلك يعود إلى منهج ابن كثير الخاص به، فى رؤيته للأحداث التاريخية. فمن المعروف أن الحسين، وأهل الحرة وغيرهم خرجوا من أجل الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. فإذا عرضنا هذا الأمر، على تفكير ابن كثير نجد أنه لا يقره. بل ويوهن خروج الذين خرجوا، بجميع أسمائهم، فيقول: إن يزيد كان إماما فاسقا، والإمام الفاسق، لا يعزل بمجرد فسقه، ولا يجوز الخروج عليه، لما فى ذلك

[صفحه ۳۰۹]

من إثارة الفتنة [" ۱۴] فهذه رؤيته للمسار التاريخى. بمعنى: ليس فى الإمكان.

أبدع مما كان. لقد جاء يزيد، وعليه أن يستمر. وأن يورث الخلافة لولده ولولده أن يفعل من يشاء، فهذا حقه الذى كتبه الله له. ومن أراد أن ينهاه عن المنكر، فمن حق أبناء معاوية، أن يؤدبونه، حتى يرجع إلى الطاعة، ولزوم الجماعة [۱۵] .

[۱] البداية والنهاية ۱۳۶:۸.

[۲] البداية ۱۹۱:۸، الطبرى ۲۶۴:۶.

[۳] رواه الطبرانى ورجاله ثقات (الزوائد ۱۹۵:۹) الطبرى ۲۶۵:۶، البداية ۱۹۴:۸.

[۴] رواه الطبرانى (الزوائد ۱۹۵:۹) والبداية ۱۹۵:۸، الطبرى ۲۶۵:۶.

[۵] البداية ۱۹۲:۸.

[۶] البداية ۱۹۲:۸.

[۷] الطبرى ۱۹:۷.

[۸] الطبری ۶:۲۶۷.

[۹] تاریخ الخلفاء ۱:۲۲۹.

[۱۰] شذرات من ذهب:ابن العماد الحنبلی ص ۱:۶۸.

[۱۱] المصدر السابق ۱:۶۷.

[۱۲] المصدر السابق ۱:۶۷.

[۱۳] البدایهٔ ۸:۲۳۰.

[۱۴] البدایهٔ ۸:۲۲۳.

[۱۵] البدایهٔ ۸:۲۲۴.

الظهور والتشویه

تحرکت قافلهٔ أهل البیت إلی المدینهٔ. وفی المدینهٔ نادی المنادی: قتل
الحسین بن علی. یقول عبد الملک: لم أسمع والله واعیهٔ قط، مثل واعیهٔ نساء بنی هاشم فی دورهن علی الحسین. فقال عمر بن سعید بن العاص: هذه واعیهٔ، بواعیهٔ عثمان بن عفان [۱] وبکی ابن عباس. علی آل البیت، حتی فقد بصره فی
آخر عمره [۲] وروی أن رأس الحسین مکث فی خزائن السلاح حتی ولی
سلیمان، فبعث فجیء به، فکفنه ودفنه فی مقابر المسلمین. فلما دخل العباسیون سألوا عن موضع الرأس، وأخذوه. وقیل غیر ذلک، ولیس هذا مجال بحثنا وبعد قتل الحسین، بدأ الشعر یشق طریقه وهو یحمل معالم الألم علی هذه الجریمهٔ الشنعاء، ومن هذا قالت ابنهٔ عقیل بن أبی طالب:

ماذا تقولون إن قال النبی لکم++

ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم.

بعترتی وبأهلی بعد مفتقدی++

منهم أساری ومنهم ضرجوا بدم [۳] .

وأنشد الحاکم أبو عبد الله النیسابوری:

جاؤوا برأسک یا ابن بنت محمد++

متزملا بدمائه تزمیلا

وکأنما بک یا ابن بنت محمد++

قتلوا جهارا عامدین رسولا

[صفحه ۳۱۰]

قتلوک عطشانا ولم یتدبروا++

فی قتلک القرآن والتنزیلا

ویکبرون بأن قتلت وإنما++

قتلوا بک التکبیر والتهلیلا [۴] .

وفی دور أهل الإیمان بدأت أحادیث الحوض، تطفوا علی الساحهٔ، بجانب الشعر، ومن ذلک قوله صلی الله علیه وسلم ": إنی تارک فیکم ثقلین، أحدهما أکبر من الآخر کتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض وعترتی أهل بیتی وإنهما لن یفترقا حتی یردا علی

الحوض [" ۵] وقوله صلى الله عليه وسلم:

"أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ. وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى وبينهم [" ۶] وهذه الأحاديث، كانت تمثل صفعة قوية للتيار الأموى، الذين قتلوا أهل البيت فإذا كانت مهمتهم سهلة فى مواجهة الشعر، فإنها لم تكن كذلك مع أحاديث الحوض، التى أصبحت، كمنشور سرى يقره صحابة النبى صلى الله عليه وسلم الأوفياء. ويشق طريقه فى الساحة التى بدأت تشعر بالندم بعد قتل الحسين، وتبحث عن مدخلا تقدم توبتها منه، إلى الله جل وعلا. ولم يجد التيار الأموى، غير عبيد الله بن زياد ليتصدى، لما استجد فى الساحة بعد قتل الحسين. فبدأ ابن زياد صده بإنكار هذه الأحاديث، ثم مواجهة الذين يروونها بكل قسوة وكل عنف. روى أنه ذكر الحوض عند ابن زياد، فأنكر ذلك. فبلغ ذلك أنسا فقال: ما أنكرتم من الحوض؟ قالوا: سمعت النبى يذكره؟ قال: نعم. ولقد أدركت عجائز بالمدينة، لا يصلين صلاة، إلا سألن الله تعالى أن يوردهن حوض محمد صلى الله عليه

[صفحه ۳۱۱]

وسلم [۷] وفى رواية قال ابن زياد: ولمحمد حوض؟ قالوا: هذا أنس بن

مالك، يحدث أن له حوضا. فجاء أنس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ": إن لى حوضا وأنا فرطكم عليه [" ۸] .

وعن زيد بن أرقم قال: بعث إلى، عبيد الله بن زياد فأتيته. فقال: ما أحاديث تبلغنا وترووونها عن رسول الله لا نسمعها فى كتاب الله، وتحدث أن له حوضا. قال زيد: لقد حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوعدناه. فقال ابن زياد: كذلك ولكنك شيخ قد خرفت. قال زيد: إنى قد سمعته أذناى، ووعاه قلبى من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفى رواية - سمعته أول خطبة النبى فى غدير خم، فى الوصية بكتاب الله وأهل بيته [۹] وفى

رواية قال ابن زياد: أرأيتم الحوض الذى تذكرون، ما أراه شيئا. فقال له ناس من أصحابه: عندك رهط من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليهم فسلهم. فأرسل إلى زيد بن أرقم، فسأله عن الحوض. فحدثه حديثا موثقا. فقال: أنت سمعت هذا من رسول الله "... الحديث [۱۰] .

وعن أبى سبرة الهذلى قال: كان عبيد الله بن زياد، يكذب بالحوض، بعدما سأل عنه أبا برزة والبراء بن عازب، وعائذ بن عمرو، ورجلا آخر [۱۱] .

وكان تكذيب ابن زياد بالحوض تكذيبا له ثقافته الواسعة، على أرض اتخذت من قبل ثقافة سب أمير المؤمنين على عنوانا لها، وتحت خيام هذه الثقافات، نشأت أجيال يقرؤن القرآن، لا يجاوز تراقيبهم، وهذه الأجيال ما خرجت إلا من تحت

[صفحه ۳۱۲]

خيام بنى أمية. وثقافة إنكار الحوض، شقها ابن زياد بالسكين، وبالسيف وجلد عليها الظهور، ومنع العطايا عن كل من قال إن للنبى حوض. لأنه يعلم أن إثبات الحوض، سيترتب عليه أمور تدينه، وتدين ملك بنى أمية الطويل العريض، وإذا كان ابن زياد قد جمع من حوله، أتباع يقولون بقوله. فإن طائفة الحق، كان يدوى فى أسماعهم قول النبى صلى الله عليه وسلم ": اسمعوا " قالوا: سمعنا. فقال": اسمعوا " قالوا: سمعنا، فقال ": إنه سيكون عليكم أمراء فلا تعينوهم على ظلمهم. فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد على الحوض [" ۱۲] .

وكان فى ذاكرتهم أيضا قوله صلى الله عليه وسلم ": أنا فرطكم على الحوض، ولأنازعن أقواما، ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا رب أصحابى أصحابى. فيقول: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك [" ۱۳] وقوله ": إنى تارك فيكم الثقلين

أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، وإنهم لن يتفرقا حتى يردا على الحوض" .[۱۴]

لقد كان فى ذاكرة طائفة الحق، الذين لا يضرهم من خذلهم أو من ناوأهم أو من عاداهم، الكثير من أقوال النبى صلى الله عليه آله وسلم. وكانوا يعلمون أن فى الحبل الممدود من السماء إلى الأرض، عنوان أصيل للأخذ بأسباب المعرفة. لهذا هرولوا إلى دائرة

الطهر، فی وسط هـذا اللیل الـذی لا نجوم فیه. ولقـد صدق فی هؤلاء قول النبی صـلی الله علیه وسـلم لحذیفة ": یا حذیفة، إن فی کل طائفة من أمتی قوما شعثا غبرا. إیای یریدون، وإیای یتبعون، ویقیمون کتاب الله أولئک منی وأنا منهم وإن لم یرونی [" ۱۵] .

[صفحه ۳۱۳]

[۱] الطبری ۲۶۸:۸.

[۲] مروج الذهب ۱۲۱:۳.

[۳] رواه الطبرانی (الزوائد ۲۰۰:۹) الطبری ۲۶۸:۶، البدایة ۱۹۸:۸.

[۴] البدایة ۱۹۸:۸.

[۵] رواه أحمد والترمذی وحسنه والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون " الفتح الربانی ۱۸۶:۱. "

[۶] البخاری ک الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحیح ۱۴۱:۴) مسلم (الصحیح ۵۳:۱۵).

[۷] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده صحیح علی شرط مسلم وأخرجه أحمد (کتاب السنة ۳۲۱:۲.

[۸] قال الألبانی أخرجه الآجری فی الشریعة وإسناده صحیح رجاله کلهم ثقات (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۹] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده صحیح علی شرط مسلم (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۱۰] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی رجاله ثقات رجال الشیخین (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۱۱] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده ثقات (کتاب السنة ۳۲۳:۲).

[۱۲] رواه أحمد وابن أبی عاصم وابن حبان فی صحیحه (الفتح الربانی ۳۰:۲۳) (کتاب السنة ۳۵۲:۲).

[۱۳] رواه البخاری ک الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحیح ۱۴۱:۴) ومسلم (الصحیح ۵۹:۱۵).

[۱۴] رواه أحمد والترمذی وحسنه والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱۸۶:۱).

[۱۵] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۱۸۴:۱۲).

نظرات علی کربلاء

عندما خرج الحسین کان خروجه، من تحت مظلة المثل الأعلی المرتفع.

وکـان خصـومه قـد خرجـوا من کهـف المثـل الأـعلی المنخفض. ولم یکن خروج الحسـین، نتیجـة لوجود المجتمع الحر، وإنمـا کـان الخروج من أجل خلق المجتمع الحر، لأن المجتمع الحر هو الذی یقیم الحضارة الحق. والحضارة لا تقاس بسجونها وبریق ذهبها، وإنما تقاس بعـدلها. وعنـدما توجه الحسین إلی الکوفـة، وعلم بمقتل رسـله هناک، وبأن الـذین أرسـلوا إلیه قد خذلوه، لم یتراجع وسار فی اتجاه الطریق، الذی أخبر النبی صـلی الله علیه وسـلم بأن مقتله فیه. وذلک بعد أن حدد مصدر البلاء، الذی أکره الناس علی عدم إقامة الحق والعـدل. لقـد توجه الحسـین إلی کربلاء، لیس من أجل مقاومـة الجماهیر، وإنما من أجل مواجهـة السـلطة التی اتخـذت مال الله دولا، ودین الله دغلا، وعباد الله خولا، وأصبحت تفرخ الـذین یقرؤون القرآن، لا یجاوز تراقیهم. أی تفرخ خوارج جـدد، ولکن تحت مظلة بنی أمیة. لقد اتجه الحسـین نحو کربلاء، علی امتداد الطریق کان یعلم أنه یسـیر، بین حراب الذین یکرهون، ویخافون أن یفقدوا ما یحبون. ولکنه واصل المسـیر، وحوله نـداء خالد من الرسول الأعظم یقول فیه ": من حضـره فلینصـره، " وفیه أیضا ": أنا حرب لمن حـاربتم، "... کـان الحسـین فی خطـاه، یقیم الحجـة علی کـل صـامت، أو مـتراجع، أو متردد اعتلالاـ بفسـاد المنـاخ، وسـطوة القبائـل، وتقالیـدها وقوانینها، وتمادی الارهاب، وقطع الرؤوس وقتل الأطفال والنساء، کما فعل بسـر بن أرطاة وغیره وعلی أرض کربلاء، فاض الدم ألقانی، الذی أراد صاحبه، أن یخرج الأمة من خیام القبائل حیث الحقد والحسد والإرهاب، الذی رفع بنو أمیة أعلامه زمنا طویلا. وعلی مقربـة من الوادی الذی یفیض بالدم ألقانی، تربع قاضـی، علی کرسـی من الصـلب، والنحاس الأصـفر، وکأنه یصـرخ فی أتباعه:

اسلكوا هذا السبيل، فلن تجدوا أنفسكم إلا فيه، ومن أبى فإن له من خنجرى معولا ولأمزقن به أحشاء الأرض.

[صفحه ۳۱۴]

لقد كان القاضى يمسك بين أسنانه بقطعة من ذهب، وكأنها جمرة ملتهبة. ويتحدث عن العدل، ولم يكن يعلم أن من العدل أن يقتص الله من الظالم. ومن العدل، أن دم القتيل لا تضيع سدى.. إن ساعة الانتقام، ومكانه، وكيفيته، هى فى علم الله تعالى، الذى أخبر عن مقتل الحسين، وساعته، ومكانه، وكيفيته. لقد ركب أتباع بنى أمية بسفينة التى ربانها معاوية ويزيد ومروان. ولن يرى للسفينة شراع، إذا ما قلب البحر الهائج سطحه، وقد عبثت به الرياح والمد كيما تستمر حركة الأمواج. وعندئذ سيعلم ركاب السفينة وأن من العبث أن ينشد المرء العدالة على ظهرها. وسيعلمون، أن معنى نزول جبريل عليه السلام بخبر مقتل الحسين، يعنى فى مقدمته الأولى، أن هذه الجريمة عليها من الله عقوبة. وعلى الجميع أن يأخذوا بأسباب السلامة، حتى لا يدخلوا تحت العقوبة. وأسباب السلامة، أصل أصيل فى دائرة الاختيار. لكنهم صادروا السلامة وأسبابها، وصرخ فيهم صارخهم: لا- مناص من موت الحسين، إذا أردنا نحن أن نعيش. وبين الأمواج، سيعلمون أن السماء عادلة، وأن القتل لا يمكن إخفاؤه وسيخرج الزمان فعلتهم الغادرة إلى الضوء، لترى الأجيال أن الجراح ما زالت تتفجر منها الدماء. دماء تنادى بالحرية الحقيقية، تحت مظلة العبادة الحق. وتعلم الأجيال أن خروج الحسين، وضع على الجبابرة، والعتاة، وقواتهم الضاربة، لباس الذل والعار. ويا له من عار تخجل منه أى قوة ضاربة على امتداد الزمان.

الاستعباد

بعد قتل الحسين، فى إمكان كل رسام أن يرسم لك دمعة، أو جرحا، أو

آهة. فى إمكانه أن يرسم لك شجرة كهذه، أو يرسم لك شابا، اخترقت جسده سيوف المجرمين من كل جهة، وقد علقوه على هذه الشجرة، ومن حوله الغيوم تتلبد، والقمر معتما. يستطيع الرسام، أن يقوم بذلك، لتكرار الجرائم بعد الحسين. فلم يكن يمر يوما، إلا وترى فيه رجلا مصلوبا، أو رأس معلقة تتطوح

[صفحه ۳۱۵]

بعد أن هزت الرياح حبلها، ويستطيع الرسام أن يفهم ذلك، لذهاب الإنصاف من ساحة بنى أمية، حتى أنه لا يستطاع أن تشترى أوقية من العدالة داخل خيامهم بعد أن زرع بنو أمية شجرة، وتعهدوها برعايتهم، لتكون مشنقة لكل من طعن فى عدالتهم. ونحن هنا سنسلط الضوء على الأحداث التى تثبت ذلك.

يوم الحرة أو يوم الأنصار

حدر النبى صلى الله عليه وسلم من الكيد لأهل المدينة، أو من فعل

أى عمل يؤدى إلى خوفهم، فقال ": لا يكيد أهل المدينة أحد. إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء [" ۱] وقال ": لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله فى

النار ذوب الرصاص. [۲] وقال ": من أخاف أهل المدينة ظلما، أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا [" ۳] وبعد هذا التحذير أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أن الحرة

سيقتل بها خيار الناس من أصحابه الذين ساروا على هديه. فماذا حدث لأهل المدينة يوم الحرة؟ روى أن معاوية حين حضره الموت قال ليزيد: قد وطأت لك البلاد، وفرشت لك الناس، ولست أخاف عليكم إلا أهل الحجاز، فإن رابك منهم ريب، فوجه إليهم مسلم بن عقبة. فإنى قد جربته مرة، فلم أجد له مثلا لطاعته [۴] .

فمعاوية أوصى، وهو على فراش الموت بالكيد، ويضرب أهل المدينة إذا

[صفحه ۳۱۶]

هـددوا سـلطان ابنه يزيد. وعلى هذه الوصـية سار يزيد. يقول المسـعودى: كان يزيد صاحب طرب، وجوارح، وكلاب، وقرود، وفهود، ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد مقتل الحسين فأقبل على ساقيه فقال:

اسقنى شربة تروى مشاشى++

ثم مل فاسق مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندى++

ولتسديد مغنمى وجهادى

ثم أمر المغنيين فغنوا، وغلب على أصـحاب يزيـد وعماله، ما كان يفعله من الفسوق، وفى أيامه ظهر الغناء بمكـة والمدينة، واسـتعملت الملاـهى، وأظهر الناس شـرب الشـراب، وكان له قرد يكنى، بأبى قيس يحضـره مجلس منادمته، ويطرح له متكئا [۵] وقال المسعودى: ولما شمل الناس جور يزيد وعماله،

وعمهم ظلمه، وما ظهر من فسـقه، ومن قتله ابن بنت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وأنصاره، وما أظهر من شـرب الخمر، سـيره سـيرة فرعون، بل كان فرعون أعـدل منه فى رعيته، وأنصف منه لخاصـته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله عليهم، وهو: عثمان بن محمد بن أبى سفيان [۶] .

وروى أن عبـد الله بن حنظلـة الغسـيل قال: والله ما خرجنا على يزيد، حتى خفنا. أن نرمى بالحجارة من السـماء، إنه رجل ينكح أمهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة [۷] .

وبدأ يزيد فى تنفيذ وصـية والده معاوية، وأرسل إلى مسـلم بن عقبة، ووضـعه على رأس الجيش وقال له: إذا قدمت إلى المدينة، فمن عاقك عن دخولها أو نصب لك حربا، فالسـيف السـيف، ولا تبقى عليهم، وانتهبها عليهم ثلاثا، واجهز على جريحهم، واقتل مـدبرهم. وإن لم يعرضوا لك، فامض إلى مكة، فقاتل ابن الزبير، فأرجو أن يظفرك الله

[صفحه ۳۱۷]

به [۸] وسار مسلم بن عقبة إلى المدينة، وكان أهلها قد حفروا خندق رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذى كان حفره يوم الأحزاب، ووقف شاعر المدينة مخاطبا يزيد فقال:

أن بالخندق المكلل بالمجد++

لضربا بيدى عن النشوات

لست منا وليس خالك منا++

يا مضيع الصلوات للشهوات

فإذا ما قتلتنا فتنضر++

واشرب الخمر واترك الجمعات [۹] .

وتقـدم مسـلم بن عقبـة، واجتـاح أهـل المدينـة، وكـانت وقعـة عظيمـة. قتـل فيهـا خلق كثير من النـاس، من بنى هـاشم، وسـائر قريش، والأنصار، وغيرهم من سائر الناس [۱۰] وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام... وانتهبت أموالا كثيرة

منهـا، ووقع شـر عظيم، وفساد عريض، على ما ذكره غير واحـد [۱۱] وذكر ابن كـثير أن ابن عقبـة قتـل ألف بكر [۱۲] ، وقتل سبعمائة رجل من حملة القرآن [۱۳] .

وقـال المسـعودى: قتـل بضع وتسـعون رجلا، من سائر قريش ومثلهم من الأنصار، وأربعـة آلاف من سائر الناس، ممن أدركه الاحصاء دون من لم يعرف [۱۴] وقال

صاحب كتاب المحن: كان مسلم بن عقبة يقول: من جاء برأس فله كذا وكذا، ومن جاء بأسير فله كذا وكذا، وجعل يغرى قوما لا دين لهم، فقتلوا ما لا يحصى ولا يعد [۱۵] ، وقتل يوم الحرة، من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ثمانون، ولم يبق بعد ذلك بدرى [۱۶] وروى ابن كثير أن ألف امرأة من أهل

[صفحه ۳۱۸]

المدينة، ولدت بعد وقعة الحرة، من غير زوج [۱۷] ، وكان الناس يلبسون المصبوغ، من الثياب قبل الحرة. فلما قتل الناس بالحرة، استحيوا أن يفعلوا ذلك [۱۸] .

وهرب يوم الحرة إلى كهوف الجبال، العديد من الصحابة، منهم جابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى [۱۹] وأنشد شاعر الأنصار فقال:

فإن تقتلونا يوم حرة وأقم++

فنحن على الإسلام أول من قتل

ونحن تركناكم ببدر أذلة++

وأبنا بأسياف لنا منكم تفل [۲۰] .

وروى أن مسلم بن عقبة، أتى بعلى بن الحسين، فتبرأ منه ومن آبائه ثم أقعده وقال له: سلنى حوائجك، فلم يسأله فى أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلى: رأيناك تحرك شفتيك، فما الذى قلت؟ قال: قلت: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شره، وأدرأ بك من نحره، أسألك أن تؤتينى خبره، وتكفينى شره. وقيل لمسلم بن عقبة: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى رفعت منزلته. فقال: ما كان الرأى منى، لقد ملئ قلبى منه رعبا [۲۱] .

ولم تكن الكارثة فى قتل أهل المدينة فقط، وإنما كانت الكارثة أيضا فى أن الناس بايعوا يزيد على أنهم عبيد له [۲۲] روى الطبرى أن مسلم بن عقبة أتى

بقرشيان، ومعهم ناس من أهل المدينة، فقال لهم: بايعوا فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه. فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبدا، فقدمهما

[صفحه ۳۱۹]

فضرب أعناقهما [۲۳] وروى أن ابن عقبة قال لأهل المدينة: أتبايعون ليزيد أمير

المؤمنين، ولمن استخلف بعده على أن دماءكم، وأموالكم، وأنفسكم، خول له يقضى ما شاء فيها؟ فقال له يزيد بن عبد الله بن زمعة: إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. فقال مسلم: والله لأقتلنك، والله لا تشرب البارد أبدا فأمر به فضربت عنقه [۲۴] .

وهكذا اكتملت الدائرة، باتخاذ بنى أمية عبيد الله خولا، بعد أن اتخذوا دين الله دخلا، ومال الله دولا، ولم يكن هذا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بألف عام. لا. لأن هذه الأحداث جرت عام ۶۳ ه، ورواها أصحاب التواريخ والتراجم والسير، وأجمعوا على أن يزيد أباح المدينة ونهب الأموال، وهتك الأعراض، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، وبايعه الناس، على أنهم عبيد له!! وفى إجمالى أحداث يوم الحرة يقول ابن حزم ": قتل يزيد بجيوشه، بقايا المهاجرين، والأنصار، يوم الحرة، وهى أكبر مصائب الإسلام وخرومه. لأن أفاضل المسلمين، وبقية الصحابة، وخيار المسلمين من جلة التابعين، قتلوا جهرا، ظلما فى الحرب، وصبرا. وجالت الخيل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وراثت، وبالت فى الروضة بين القبر والمنبر، ولم تصل جماعة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم... وأكره الناس على أن يبايعوا، يزيد بن معاوية، على أنهم عبيد له، إن شاء باع وإن شاء أعتق، وذكر له بعضهم البيعة على حكم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر بقتله، فضرب عنقه صبرا. وهتك مسرف [۲۵] ، أو مجرم الإسلام هتكا، وأنهب المدينة ثلاثا، واستخف بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدت الأيادى إليهم، انتهبت دورهم. ثم انتقل الجيش بعد ذلك،

إلى مكة شرفها الله تعالى، فحوصرت، ورمى البيت بحجارة

[صفحه ۳۲۰]

المنجنيق [۲۶] .

مما سبق، يمكن القول إن عدم مناصرة الحسين، فتح أبواب، للابتلاء، والعقاب وأن الحسين الذى رفض يزيد، كان أبعد نظرا من الذين جمعوا حريمهم وأولادهم، وأمروهم بعدم الخروج على يزيد، لأن فى ذلك شق عصا الجماعة كما قالوا. لقد كان الحسين، أعلم بيزيد وبخطه منهم، لأنه كان يتحرك بعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أما الكثرة، فكانت حركتهم غير مضبوطة، لأن زيت حركتهم اختلطت به شوائب كثيرة. لقد رفع يزيد الحراب فى وجه الحسين، ثم قام بتوسيع الدائرة بعد ذلك، فرفعها ضد الرأى العام الذى يسير فى خط، معاكس للسلطة. وعندما قيل للحسين أن يذهب إلى يزيد ويبايعه. أقسم الحسين أنهم لن يتركوه. فهم لا يريدون البيعة، وإنما يريدون رأسه، ويوم الحرة علمنا أن البعض طلب البيعة على حكم القرآن وسنة رسول الله، فكان جزاؤهم أن ضربت أعناقهم صبرا. وبايع الناس على أنهم عبيد ليزيد، الذى كان عمره فى هذا الوقت، نيف وثلاثون سنة، إن شاء باع وإن شاء أعتق. وإذا كان يزيد قد أخاف الحسين، وأهله، يوم كربلاء، فلقد قام بتوسيع الدائرة يوم الحرة، فأخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى عن محمد وعبد الرحمن، ابن جابر بن عبد الله قالا: خرجنا مع أبينا يوم الحرة، وقد كف بصره، فقال: تعس من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: وهل يخيف أحد رسول الله؟ قال: سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أخاف أهل هذا الحى من الأنصار، فقد أخاف ما بين هذين، ووضع يده على جنبيه [۲۷] .

ثم قام يزيد، بتوسيع الدائرة، واقتحم الباب الأخير الذى يدخل من

[صفحه ۳۲۱]

اقتحمه، أو كاد له، أو رماه، فى دائرة الذين يؤذون الله. قال تعالى ": إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا [" ۲۸] فيزيد

سير الجيوش نحو مكة، ورمى جنوده بيت الله بالحجارة. وقبل ذلك، كانوا قد أخافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحرة. وقبل ذلك آذوه فى قتل الحسين، وهو من عترة رسول الله، من أصحاب الكساء والمباهلة، وابن فاطمة ريحانة رسول الله، التى يقول فيها النبى صلى الله عليه وسلم ": إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى من آذاها [" ۲۹] .

إن يزيد دخل إلى جميع الدوائر بعد قتله للحسين، فآذى الخط الذى يسوق الناس إلى الله، ووجه ضربات إلى الثقل، الذى لا ينفصل عن القرآن حتى يردا الحوض، ومن البديهى أن أحدا لن يستطيع أن يؤذى الله سبحانه ولكن صورة الأذى هنا، هى عرقلة الطريق، وعدم احترام المقدسات التى فيها نصوص من الله ورسوله. فأى أذى يصيب الخط الرسالى، المادى أو المعنوى، هو فى الحقيقة، موجه إلى المشرع. ويزيد أعلن، يوم أن نصبه والده، وليا للعهد. بأنه سيسير فى الناس بسيرة عمر بن الخطاب، وعمر رضى الله عنه كان له مفهومه الخاص، فى الكعبة والحجر، ولكنه كان يعظم أمرهما. فعن الحسن قال: ذكر عمر بن الخطاب الكعبة فقال: والله ما هى إلا حجارة نصبها الله قبلة لأحيائنا، وتوجه إليها موتانا [۳۰] ولكى لا يفتتن الناس بالكعبة، وفى نفس الوقت لكى يحافظ عليها

عمر. روى البخارى ": لم يكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم حول البيت حائط، فكانوا يصلون حول البيت، حتى كان عمر، فبنى حوله حائطا جدره قصير، فبناه ابن الزبير [" ۳۱] وروى البخارى أن عمر بن الخطاب قال

[صفحه ۳۲۲]

للركن ": أما والله إنى لأعلم أنك حجر، لا تضر، ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم استلمك، ما استلمتك. فاستلمه ."[۳۲]

فأين يزيد من سيرة عمر؟ وقد أخذ على عاتقه أن يقوم فى الناس بها. إن يزيد تعامل مع المقدسات. على أساس أنها حجارة، ولم ينظر

فی أعماق رؤیة عمر لهذه المقدسات. بل إنه لم یهتم بما روی عن رسول الله صلی الله علیه وسلم عن هذه المقدسات. فعن ابن عباس قال: قال النبی صلی الله علیه وسلم فی الحجر ": والله لیبعثنه الله یوم القیامة له عینان یبصر بهما ولسان ینطق به یشهد علی من استلمه بحق [" ۳۳] وروی الطبرانی أن النبی صلی الله علیه وسلم قال

فی الکعبة ": لا یزال الناس بخیر ما عظموا هذه الحرمة - یعنی الکعبة [۳۴] .

وقال ": إذا رأیتم قریشا قد هدموا البیت ثم بنوه، فزوقوه، فإن استطعت أن تموت فمت [" ۳۵] .

ولقد ضرب یزید المعول الأول، فی الکعبة، ثم قام ابن الزبیر بعملیة الهدم، والتعمیر. فجاء إلیه الحجاج بن یوسف حامل سیف عبد الملک بن مروان، فقام بهدم البیت علی رأس ابن الزبیر. وبعد ذلک، قام بعملیات الترمیم، والتعمیر، والتزویق. ولیس معنی قوله صلی الله علیه وسلم ": فإن استطعت أن تموت فمت " أن یسارع الناس إلی الانتحار، بأی طریقة من الطرق، وإنما المقصود أن تموت فی سبیل الله تحت رایة مبصرة. لقد تعاملوا مع عترة النبی، التعامل الذی لا یلیق بهم. ثم تعاملوا مع المقدسات، من منظور حمایة السلطة من الخارجین عنها، قد خلت خیولهم المسجد النبوی، وهدموا البیت العتیق، وفی جمیع الحالات لم یصب ابن

[صفحه ۳۲۳]

الزبیر، وغیره فی الاحتماء بالبیت، من أجل الملک، فعلی امتداد التاریخ، لم نسمع بواحد من أهل البیت الأطهار، قد احتمی بالمساجد. وإنما کانت حرکتهم مضبوطة، لأنها حرکة فی جمیع الحالات لا علاقة لها بالملک، وإنما بإقامة الحجة. وهل یسعی قتیل یعلم مکان قتله من أجل الملک؟

[۱] قال ابن کثیر رواه البخاری (البدایة ۲۲۳:۸) البخاری (الصحیح ۳۲۲:۱) ک الحجج ب إثم من کاد للمدینة.

[۲] قال ابن کثیر رواه مسلم (البدایة ۲۲۳:۸) مسلم (الصحیح ۱۲۱:۴).

[۳] قال ابن کثیر رواه أحمد (البدایة ۲۲۳:۸)، (کنز العمال ۲۳۸:۱۲).

[۴] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۲۵۰:۷) وابن کثیر (البدایة ۲۳۹:۸) والطبری ۱۷۹:۶، فتح الباری ۷۱:۱۳، الکامل ۳۱۱:۳.

[۵] مروج الذهب ۸۲:۳.

[۶] مروج الذهب ۸۳:۳، الکامل ۳۱۰:۳.

[۷] تاریخ الخلفاء ۱۹۵:۱.

[۸] التنبیه والإشراف:المسعودی ۲۸۰:۱، کتاب المحن ۱۴۹:۱، الکامل ۳۱۱:۳.

[۹] التنبیه والإشراف:المسعودی ۲۸۰:۱.

[۱۰] مروج الذهب ۸۴:۳.

[۱۱] البدایة والنهایة ۲۳۸:۸.

[۱۲] البدایة والنهایة ۲۶۵:۸.

[۱۳] البدایة والنهایة ۲۶۶:۸.

[۱۴] مروج الذهب ۸۵:۳.

[۱۵] کتاب المحن ۱۵۱:۱.

[۱۶] کتاب المحن ۱۵۸:۱.

[۱۷] البدایة ۲۳۹:۸، الخصائص الکبری ۲۴۰:۳.

[۱۸] کتاب المحن ۱۵۹:۱.

[۱۹] البدایة ۲۳۹:۸، الطبری ۱۱:۷.

[۲۰] مروج الذهب ۸۵:۳، شذرات الذهب:ابن المعاد ۷۱:۱.

[۲۱] مروج الذهب ۸۵:۳.

[۲۲] فتح البارى ۷۰:۱۳، مروج الذهب ۸۵:۳، کتاب المحن ۱۵۵:۱، والطبرى ۱۳:۷.

[۲۳] الطبرى ۱۱:۷.

[۲۴] کتاب المحن ۱۵۵:۱.

[۲۵] إشارهٔ إلى ابن عقبهٔ.

[۲۶] رسائل ابن حزم ۱۴۰:۲.

[۲۷] قال ابن کثیر رواه الدارقطنی (البدایهٔ ۲۲۳:۸).

[۲۸] سورهٔ الأحزاب الآیهٔ ۵۷.

[۲۹] رواه مسلم (الصحیح ۳:۱۶).

[۳۰] المروزی فی الجنائز (کنز العمال ۱۰۰:۱۴).

[۳۱] البخاری (کنز العمال ۱۰۰:۱۴).

[۳۲] قال فی تحفهٔ الأحوذی رواه البخاری. ورواه أحمد وأبو عوانهٔ (کنز ۱۷۵:۵).

[۳۳] رواه الترمذی وصححه ورواه ابن ماجهٔ والدارمی، وابن خزیمهٔ فی صحیحه (تحفهٔ الأحوذی ۳۰۵:۴).

[۳۴] ذکره ابن حجر فی ترجمهٔ عامر بن ربیعهٔ (الإصابهٔ ۸:۴) وابن ماجهٔ (کنز ۱۹۸:۱۴).

[۳۵] رواه ابن أبی شیبهٔ (کنز العمال ۲۵۱:۱۱).

الوحل

لقد بدأ یزید شق الطریق إلى مکهٔ التی کان ابن الزبیر فیها وفی هذا الحصار، احترقت الکعبهٔ، واحترق فیها قرنا الکبش، الذی فدی به إسماعیل بن إبراهیم. ودام الحصار إلى أن مات یزید [۱] وقال المسعودی فی حرق البیت:

نصب أهل الشام المجانیق، والعرادات [۲] ، على مکهٔ والمسجد من الجبال والفجاج... فتواردت أحجار المجانیق، والعرادات، على البیت ورمی مع الأحجار، بالنار، والنفط، ومشاقات الکتان، وغیر ذلک من المحرقات وانهدمت الکعبهٔ واحترقت البنیهٔ [۳] .

وبعد وفاهٔ یزید بن معاویهٔ، جلس على العرش معاویهٔ بن یزید بن معاویهٔ. فکانت أیامه أربعین یوما، إلى أن مات. ولما حضرته الوفاهٔ، اجتمعت إلیه بنو أمیهٔ فقالوا له: أعهد إلى من رأیت من أهل بیتک. فقال: والله ما ذقت حلاوهٔ خلافتکم، فکیف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إن برئ منها، متخل عنها. اللهم إنی لا أجد نفرا کأهل الشوری، فأجعلها إلیهم، ینصبون لها من یرونه أهلا لها [۴] .

وقد اختلفوا فی سبب وفاته، فمنهم من رأی أنه سقی شربهٔ، ومنهم من رأی أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأی أنه طعن. وقبض وهو ابن

[صفحه ۳۲۴]

اثنین وعشرین سنهٔ [۵] وبعد معاویهٔ بن یزید، بدأ نجم مروان بن الحکم طرید رسول الله صلى الله علیه وسلم فی الظهور. ومروان سبب من الأسباب الرئیسیهٔ فی قتل عثمان، وهو أیضا قاتل طلحهٔ یوم الجمل، وکان یعلم أن الخلافهٔ، ستکون له فی یوم من الأیام، وعلى هذا الأساس کان یتصرف، ویفسح الطریق لنفسه. کما کان معاویهٔ یصلح الطریق

لنفسه بعد أن ألقى إليه كعب الأحبار، بما كان يتمناه. ومروان هو إنتاج الفرع الثانى من بنى أمية، أما معاوية فكان إنتاج الفرع الأول. والنبى صلى الله عليه وسلم حذر من الفرعين. فقال ": إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلا... وفى رواية، ثلاثين رجلا - اتخذوا مال الله دولا ودين الله دخلا، وعباد الله خولا [" ۶] فهذا تحذير من الفرع الأول. وقال صلى الله عليه

وآله وسلم ": إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا، اتخذوا مال الله دولا ودين الله دخلا، وعباد الله خولا [" ۷] وهذا تحذير من الفرع الثانى. ولقد أخذ النبى

صلى الله عليه وسلم بالأسباب، فوضع أبا سفيان، عميد الفرع الأول، فى دائرة المؤلفة قلوبهم، ووضع الحكم بن العاص، عميد الفرع الثانى، على طريق النفى فنفاه، ليكون فى إبعاده علامة وإرشاده ولكن الذى حدث، أن سهم المؤلفة بعد النبى لم يكن لوجود. فظهر أبو سفيان ولمع ولده. ثم جاء الحكم بن العاص من منفاه، فظهر الحكم " ولمع ولده، ومروان أخبر النبى بأنه أبو الجبابرة الأربعة [۸] وروى أن على بن أبى طالب قال لمروان ": ويل لأمتك

منك، ومن بنيك، إذا شابت ذراعاك [" ۹] ، ومروان الذى كان يمهد الطريق

[صفحه ۳۲۵]

لنفسه، عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة. فلقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما ولد [۱۰] وروى أن الحسن بن على قال

لمروان: لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت فى صلب أبيك [۱۱] .

وكانت ولاية مروان، تسعة أشهر وأياما، دق فيها أوتادا لا يستهان بها. وروى أنه أول من أخذ البيعة بالسيف، كرها بغير رضا من الناس... وقد كان غيره ممن سلف، يأخذها بعدد وأعوان. إلا مروان [۱۲] وذكر ابن عبد البر

والذهبى وغيرهما مخازى مروان بأنه أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة [۱۳] .

وفى عهد مروان، خرج سليمان بن صرد، وهو صحابى على رأس جماعة عرفت فى التاريخ باسم " التوابين [" ۱۴] ولقد رأى بن صرد وأتباعه أنهم كانوا

سببا فى قدوم الحسين، وأنهم خذلوه حتى قتل هو، وأهل بيته، لذلك أقدموا على التوبة من هذا الذنب، بأخذ خطوة فى اتجاه السلطة، لأنهم رأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه [۱۵] وتوجه إليهم من الشام

لحربهم، عبيد الله بن زياد على رأس جيش من ثلاثين ألفا. ودارت بين الطرفين المعارك فى موقعة عين الوردة، فحمل سليمان وأتباعه على جيش الشام. واستشهد سليمان بن صرد. وروى أنه عندما وقع على الأرض قال: فزت ورب الكعبة. وكان عمره يوم قتل، ثلاث وتسعين سنة. وعندما قتل سليمان استقتل أتباعه وكسروا أجفان السيوف، وخاضوا معارك عظيمة، وقتل منهم خلق كثير. ولما علم من بقى من التوابين أن لا طاقة لهم بمن بإزائهم من أهل الشام،

[صفحه ۳۲۶]

انحازوا عنهم. وطلب منهم أهل الشام المكافة، والمتاركة، لما رأوا من بأسهم وصبرهم مع قلتهم. فلحق أهل الكوفة بمصرهم، وأهل المدائن والبصرة ببلادهم [۱۶] .

وحمل أهل الشام رأس ابن صرد إلى مروان بن الحكم، فجمع الناس وقال: أهلك الله رؤوس الضلال، ابن صرد وأتباعه. ثم أمر فعلقت الرؤوس بدمشق [۱۷] وكانت حركة ابن صرد فى عام ۶۵ ه، وهو نفس العام الذى مات

فيه مروان بن الحكم، واختلفوا فى سبب وفاته، فمنهم من رأى أنه مات مطعونا، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأى أن أم خالد بن يزيد بن معاوية هى التى قتلته [۱۸] .

لقد كانت حركة سليمان بن صرد، مقدمة صحيحة، لو تكاتف الناس فيها لأعطت نتائج أفضل. وأقوى. إنه الرأى العام داخل مربع

سليمان بن صرد، كان قد احتقن احتقانا شديدا، ما لبث أن عبر عن نفسه وأشهد الله على ذلك بينما كان الرأى العام فى مكان آخر، تقع عليه الضربات من كل جانب، ورغم هذا، لم يقم من نومه، وينشط ذاكرته، ويتحرك التحرك الذى يستقيم مع سنة الابتلاء، لينظر الله كيف يعمل عباده. فيصيبهم إما الثواب وإما العقاب. ولما كان الغالب الأعم من الرأى العام فى سبات عميق، مكبلين بنصوص ليس فيها من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برهان، تدعوهم للاستسلام، وترك الدنيا، وهذه النصوص لا يستفيد منها إلا الذين يتخذون مال الله دولا، ودين الله دخلا، وعباد الله خولا. ولما كان الغالب الأعم يتصرف على اعتبار أنه كحصى على الأرض تلهو بها كل ريح، ولا يملك لنفسه سببا من الأسباب ليدفع المخاطر عن نفسه، تاركا الساحة للذين يأخذون بالأسباب للوصول إلى أهداف أهوائهم، فى الوقت الذى يرى من حوله نجوم

[صفحه ۳۲۷]

الهدى يأخذون بالأسباب، وهم يعلمون نتائج حركتهم مسبقا، ولم يدعوهم هذا إلى الاستسلام والترهب. لما كان الغالب الأعم على هذا النحو فى القرن الأول الهجرى، توالت الابتلاءات من الله سبحانه لتكون حركة التاريخ، حركة صحيحة أمام كل باحث.... وفى هذه الامتحانات يضرب العذاب أقواما، ويقتل أقوام فى سبيل الله، وتسير طائفة الحق شامخة، لا يضرها من خذلها، أو من عاداه، أو من ناوأها. وبعد مروان، جاء ابنه عبد الملك، الذى وصف قبل أن يولد بأنه أحد الجبابرة الأربعة وعبد الملك اختار من بين الناس الحجاج ابن يوسف الثقفى الذى وصف قبل أن يولد بأنه فتى ثقيف الذيال الميال. وقبل أن يتقلد عبد الملك بن مروان السلطة، كان الناس يعلمون أنه سيصير خليفة [۱۹] وذلك بعد أن وضعوا أحاديث التحذير، فى دائرة التبشير. وروى أن

يزيد بن معاوية قال: إن الناس يزعمون أن هذا يصير خليفة، فإن صدقوا، فقد صانعناه. وإن كذبوا، فقد وصلناه، وكان يزيد قد أعطى لعبد الملك قطعة أرض [۲۰] .

وذكر ابن كثير، أنه لما سلم على عبد الملك بالخلافة، كان فى حجره مصحف فأطبقه، هذا فراق بينى وبينك [۲۱] وقال السيوطى: عبد الملك

هو أول خليفة بخل، وهو أول من غدر فى الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف [۲۲] وذكر ابن كثير: أن

عبد الملك كان له إقدام على سفك الدماء، وكان حازما، فطنا لأمور الدنيا لا يكل أمر دنياه إلى غيره [۲۳] وقال المسعودى: وكان له إقدام على الدماء وكان

عماله على مثل مذهبه [۲۴] وروى صاحب الفتح الربانى: أن عبد الملك منع

[صفحه ۳۲۸]

الناس من الحج، خوفا أن يبايعوا ابن الزبير [۲۵] .

وروى أن عبد الملك بن مروان، هادن ملك الروم، وبعث إليه بأموال وهدايا ليتفرغ للأمة. وكان عبيد الله بن زياد، أمير بنى أمية المطيع قد قتل، بعد موقعة عين الوردة وقتل معه أشراف أهل الشام، عندما التقى هو وإبراهيم بن الأشتر النخعى [۲۶] ، وبينما كان عبد الملك يعيد ترتيب أوراقه، وأوتاده، كانت الأحداث فى الحجاز والعراق تشتعل. فعبد الله بن الزبير كان قد بسط يده على رقعة كبيرة من الأرض، وكان يريد أن يضم الشام إلى سلطانه. وروى أن المختار بن أبى عبيد الثقفى، قال لابن الزبير: إنى لأعرف قوما، لو أن لهم رجل له رفق، وعلم مما يأتى، لاستخرج لك منهم جندا تغلب بهم أهل الشام. قال: من هم. فقال: شيعة بنى هاشم بالكوفة. فقال له: كن أنت ذلك الرجل. وبعثه إلى الكوفة. فنزل ناحية منها، وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم، ويظهر الحنين والجزع لهم، ويحث على أخذ الثأر لهم، المطالبة بدمائهم [۲۷] وبهذه

المقدمة سار إلى قصر الإمارة، وغلب على الكوفة، وابتنى لنفسه دارا، وفرق الأموال على الناس، وخلع طاعته لابن الزبير، وجحد بيعته،

وكان من قبل قد بايعه. وتتبع المختار قتلة الحسين فقتلهم. قتل عمر بن سعد بن أبى وقاص، وهو الذى تولى حرب الحسين يوم كربلاء. فزاد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له. ولقد حاول المختار أن يضع على حركته رداء أهل البيت، فكتب إلى على بن الحسين يريد أن يبايعه، ولكن على بن الحسين أبى أن يقبل ذلك منه، وأظهر كذبه وفجوره، ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبى طالب. فلما يئس المختار من على بن الحسين، كتب إلى عمه محمد بن الحنفية، يريده على

[صفحه ۳۲۹]

مثل ذلك، فأشار عليه على بن الحسين ألا يجيبه إلى شئ من ذلك، فإن الذى يحمله على ذلك، اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه إليهم بمحبتهم، وباطنة مخالف لظاهره، فى الميل إليهم والتولى لهم والبراءة من أعدائهم. بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم، والواجب عليه، أن يشهر أمره، ويظهر كذبه على حسب ما فعل هو، عندما أظهر للناس كذب المختار [۲۸] .

وأتى محمد بن الحنفية ابن عباس، يستشيره فى هذا الأمر. فأوصاه بالسكوت لأن تأييد حركة المختار التى لا تقوم على أرضية إيمانية لا قيمة لها، ثم إن إظهار حقيقة المختار، لن تأتى بفائدة من عند ابن الزبير، خصم المختار الأول. لأن ابن الزبير بايعه كل الناس إلا محمد بن الحنفية [۲۹] وابن الزبير من

المبغضين لأهل البيت. فكان ينال من على بن أبى طالب فى خطبه [۳۰] وكان

ينتقص بن عباس [۳۱] وبالجملة: كانت حركة المختار، وابن الزبير، حركة

هدفها الدنيا وليس لأهل البيت فيها أى نصيب اللهم إلا قتل أعدائهم، تحت راية المختار. ولقد جعل ابن حزم هذا القتل من مناقب المختار فقال: تتبع المختار بعض الذين شاركوا فى قتل ابن الزهراء الحسين، فقتل منهم ما أقدره الله عليهم، وفعل أفاعيل يعفى فيها على هذه الحسنة [۳۲] .

وحركة المختار، دليل عظيم على أن أهل البيت لا يركبون باطلا ليصلوا به إلى حق. فلو كانوا طلاب دنيا، لهرولوا إلى المختار، فى وقت كان البيت الأموى يعيد ترتيب أوراقه وأوتاده، بعد الخسائر التى منى بها فى موقعة مرج راهط بين مروان والضحاك بن قيس، ثم الخسائر التى أصابته فى موقعة عين الوردة، وما بعدها لكنهم لم يفعلوا ذلك، لأن الدين لا يخضع للتجارة، وحركة

[صفحه ۳۳۰]

أهل البيت حركة واحدة على امتداد التاريخ، فهم فى انتظار الناس، فإذا جاء الناس، على الإمام أن يتحرك بهذه الحركة التى تستقيم مع الواقع لإقامة الحجة بهم على من خالفهم. وفى عالم القتال على الدنيا، يكون التحرك خاضعا لقول النبى صلى الله عليه وسلم "": إذا رأيت رجلين من أمتى يقتتلان على المال، فأعدد عند ذلك سيفا من خشب [" ۳۳] ، وقوله "": إذا رأيت الأخوين المسلمين يختصمان فى شبر من أرض، فاخرج من تلك الأرض [" ۳۴] فكل حركة فى هذه

الأمور لا بد لها من فقه، وفقيه على بصيرة. والدليل على أن الدولة الأموية، وابن الزبير وغيرهما كانوا يقاتلون على الدنيا، ما رواه البخارى عن أبى المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة. انطلقت مع أبى، إلى أبى برزة الأسلمى حتى دخلنا عليه فى داره. فقال أبى: يا أبا برزة، ألا ترى ما وقع فيه الناس. فقال: إنى احتسبت عند الله كأنى أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذى علمتم من الذلة، والقلة، والضلالة، وأن الله أنقذكم بالإسلام، وبمحمد صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التى أفسدت بينكم. إن ذاك الذى بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا. وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذى بمكة، والله أن يقاتل إلا على الدنيا [۳۵] ورواه الحاكم بزيادة: فقيل

له: فما تأمرنا؟ قال: لا أرى خير الناس إلا عصابة ملبدة، خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم [" ۳۶] وفى هذه الدائرة ترى أعلام أهل

البيت، الذين لا يأخذون من أموال الناس إلا ما كتب الله لهم. ومن أجل المصالح دارت المعارك بين المختار، وبين ابن الزبير، سنة [صفحه ۳۳۱]

سبع وستين هجريـة. وانتهت المعـارك بقتـل المختـار، وقتل معه سـبعة آلاف رجل. وتتبعت قوات ابن الزبير الشـيعة، بالكوفـة وغيرها، وقتلت منهم خلقا كثيرا [۳۷] ، ولم يبق بالساحة سوى بنى أمية وابن الزبير. ودخلت سنة سبعين هجرية، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال عن فترة الستينيات " تعوذوا بالله من رأس الستين ومن إمارة الصبيان [" ۳۸] وكما علمنا أن الحسين قتل على رأس الستين، ثم اجتاح صبيان قريش الحرة، وحاصـروا مكـة، ثم وقعت معارك عديـدة من أجل الـدنيا، حتى دخل عام ۷۰ ه. وفى الاستفتاح يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": تعوذوا بالله من رأس السبعين ومن إمارة الصبيان [" ۳۹] .

وعلى رأس السبعين، قويت شوكة الروم يقول الطبرى: فى هذه السنة ثارت الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين، فصالح عبد الملـك بن مروان ملك الروم، على أن يؤدى إليه فى كل جمعـة ألف دينار، خوفا منه على المسـلمين [" ۴۰] وفى هذا الصلح، تسلل العديد من أهل الديانة النصرانية إلى

بلاد الشام، وتقربوا إلى أمراء الأمصار، وفى هـذا العام أيضا قتل عبد الملك، عمرو بن سـعيد الأشدق، وكان عبد الملك يظن بأن ابن الأشـدق يزاحمه على الخلافـة. وبدأ عبد الملك يعد العدة لبسط نفوذه على الأراضـى التى يسـيطر عليها ابن الزبير، فخرج متوجها إلى العراق وعلى مقدمته، الحجاج بن يوسف الثقفى، وقيل كان على ساقته [۴۱] واجتاحت خيل عبد الملك الكوفة، وقتل مصعب بن الزبير، وبايعه الناس. وغرس عبـد الملك ولاته على أرض العراق، وكان على رأسـهم الحجاج بن يوسف. وكانت وصـية عبـد الملك للحجاج: إن أردت أن يستقيم لك من قبلك، فخذهم بالجماعة، وأعطهم عطاء الفرقة وألصق بهم

[صفحه ۳۳۲]

الحاجة [۴۲] .

والحجـاج أخبر النبى صـلى الله عليه وسـلم بمجيئه، كعقـاب لأمـة، رفعت سـيوفها وألسـنتها على الحق. لينظر الله إلى أين يفر الناس من العـذاب، إلى الله، أم إلى بيوت المال؟ حيث الانحناء إلى السـلطان؟ إن العذاب ليس من أجل العذاب، ولكن العذاب امتحان تظهر فيه المعـادن، وهو فى خطوطه العريضـة رحمـة، لأـنه يـدعو النـاس إلى الشـكر لأن الشـكر نجاة من عـذاب يوم عظيم، فمن فر إلى الله من عـذاب الـدنيا، لم يجمع الله عليه عـذاب الآخرة. أما المنافقين والمنافقات، والمشـركين والمشـركات، فإنهم بعـذاب الـدنيا يعبرون إلى عـذاب القبر، إلى عـذاب يوم أليم، لأنهم يتعاملون مع العذاب، وفقا لأهوائهم، فتحت العذاب تراهم يصالحون ويحاربون، وليس لله فى أعمالهم نصيب. وفى سنة العذاب يقول تعالى: (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) [۴۳] وقال:

(ما يفعل الله بعذابكم إن شـكرتم وآمنتم) [۴۴] ، وقال: (وما كنا معـذبين حتى نبعث رسولا) [۴۵] ، والحجاج عذاب، ولقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسـلم عنه، لأن هوى الحجاج لن يكون على خط الهدى، وإنما سـيختار خط الكذب، وسـفك الدماء. وهذا إخبار بالغيب، ولقد شهدت حركة التاريخ بذلك. قال النبى صلى الله عليه وسلم " سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول. وهو مبير [" ۴۶] قيل إن الأول هو المختار الثقفى، الذى تتبع قتلة

الحسين. أما الثانى فهو الحجاج. وكان الإمام على، قد دعى على أهل العراق، بأن يبعث الله عليهم فتى ثقيف. وأخرج البيهقى. أن عليا قال لرجل: لا مت حتى تدرك فتى ثقيف. قال: وما فتى ثقيف؟ قال: ليقالن له يوم القيامة، أكفنا

[صفحه ۳۳۳]

زاوية من زوايا جهنم، رجل يملك عشـرين أو بضـعا وعشـرين، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها. حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة، وكان بينه وبينها باب مغلق، لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه [۴۷] وروى أن الإمام على قال

لأهـل الكوفـة، فيمـا أخرجه الإمام أحمـد عن الحسن ": اللهم كما ائتمنتهم فخانونى، ونصـحت لهم فغشونى، فسـلط عليهم فتى ثقيف

الذيال الميال، يأكل خضرتها ويلبس فروتها، ويحكم فيهم بحكم الجاهلية. قال الحسن: ما خلق الحجاج يومئذ [۴۸] وكان الإمام الحسين قد دعا عليهم يوم كربلاء فقال: اللهم

احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنين يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقهم كأسا مصبرة، فإنهم كذبونا وخذلونا [۴۹] فالحجاج عذاب دق

أوتاده نظام. وحكمة الوجود عمودها الفقرى، لينظر الله كيف تعملون. إن الحجاج بقعة حمراء جاهلية فى ثوب به جميع الألوان، كلها تحمل زخارف الدنيا، فإلى أين يكون الفرار؟ وكيف سيدون القرن الأول الهجرى تاريخه فى هذه الحقبة الزمنية، التى عليها تنبت عقائد، وعلى مساحتها تشق أكثر من سبعين فرقة طريقها. والحجاج وضع شذوذا، وارتكب جرائم من شأنها أن تحرك الناس، طلبا للتغيير على طريق العودة إلى الله. ويكفى أن يقول عمر بن عبد العزيز فى أعمال الحجاج ": لو جاءت كل أمة بخبثها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم [" ۵۰] وقال أبى النجود ": ما بقيت لله حرمة إلا وقد

ارتكبها الحجاج [" ۵۱] وسألوا مجاهد عن الحجاج فقال: تسألون عن الشيخ

الكافر [۵۲] وقال الشعبى: الحجاج يؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله

[صفحه ۳۳۴]

العظيم [۵۳] وقال الأوزاعى سمعت القاسم بن ضميرة يقول: كان الحجاج

ينقض عرى الإسلام [۵۴] .

فهذا هو الحجاج فى نظر علماء الإسلام. أما القيادة التى دقت وتد الحجاج فى جسد الأمة روى أنه قيل للوليد بن عبد الملك: ما تقول فى عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول فى رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه [۵۵] ونحن هنا سنسلط الضوء على أهم الأقوال والأفعال التى أتى بها

الحجاج، والتى تعتبر دعوة صريحة للخروج عليه، والالتفاف حول راية الهدى التى لم تكن خافية على أحد فى هذا الزمان. روى أبو داود عن جعفر بن عوف قال: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: إن مثل عثمان عبد الله كمثل عيسى بن مريم، ثم قرأ هذه الآية ويفسرها (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا)، يشير إلينا بيده، وإلى أهل الشام [۵۶] ثم قام الحجاج بتوسيع الدائرة، فروى عن

سليمان الأعمش، أن الحجاج قال ": اسمعوا وأطيعوا لخليفة الله، وصفيه عبد الملك بن مروان [" ۵۷] وقال ": اسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير

المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر، لحلت لى دماؤهم وأموالهم [۵۸"] .

وذكر الجاحظ أن الحجاج قال: والله لطاعتى أوجب من طاعة الله، لأن الله يقول: (اتقوا الله ما استطعتم)، فجعل منها مثنوية [۵۹] وقال الله ": واسمعوا

وأطيعوا)، ولم يجعل منها مثنوية ولو قلت لرجل: ادخل من هذا الباب فلم

[صفحه ۳۳۵]

يدخل لحل لى دمه [۶۰] قال الجاحظ: لقد فهم الحجاج أن المراد طاعة أولى

الأمر. وليس كما ظن. بل المراد: اسمعوا المواعظ وأطيعوا الأوامر الإلهية. أو اسمعوا لله ولرسوله وأطيعوا الله فيما يأمركم [۶۱] .

وروى أن سجون الحجاج كان يوجد فيها شئ يلجأ الناس إليه، من حر، أو برد، وأن المسجونين كانوا يسقون الماء مشوبا بالرماد [۶۲] وذكر أن

الحجاج مر فی یوم جمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا؟ فقیل له: أهل السجون یقولون، قتلنا الحر، قال: قولوا لهم اخسئوا فیها ولا تکلمون [۶۳] .

ولم تقف أعمال الحجاج عند هذا الحد. ففی عصره کان الصحابة یعایرون بالصحبة. وروی أنه کان یختم الصحابة بخاتم، حتی یعرفهم الناس، ویعایرونهم بصحبتهم للنبی صلی الله علیه وآله وسلم. یقول السیوطی: فی سنة أربع وسبعین. سار الحجاج إلی المدینة، وصار ینعت علی أهلها ویستخف ببقایا من فیها من صحابة رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم، وختم أعناقهم وأیدیهم یذلهم بذلک، کأنس، وجابر، وسهل بن سعد [۶۴] وقد قتل من الصحابة

والتابعین ما لا یحصی [۶۵] وهذه الأمور کانت دعوة فی حقیقة الأمر لیتحرک

الناس الحرکة التی یحبون أن ینظر الله إلیهم، وهم یقومون بها. کان هذا دعوة مفتوحة، للفراو إلی الله، موجه إلی جیل حدیث عهد برائحة النبوة الزکیة. ونحن هنا سنلقی الضوء علی صور محددة لحرکة الناس فی هذا الجیل.

[۱] أسد الغابة ۳:۲۴۳.

[۲] العرادات:آلة حربیة لدک الحصون.

[۳] مروج الذهب ۳:۸۶.

[۴] مروج الذهب ۳:۸۸.

[۵] مروج الذهب ۳:۸۹.

[۶] ذکره ابن کثیر فی البدایة (۶:۲۷۴، ۸:۲۷۹) ورواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۱۶۵).

[۷] ذکره ابن کثیر فی البدایة (۸:۲۷۹، ۸:۲۵۸) ورواه الطبرانی والبیهقی (کنز ۱۱:۱۶۲).

[۸] رواه البیهقی فی الدلائل وابن عساکر (کنز ۱۱:۳۶۱).

[۹] ابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۳۶۱).

[۱۰] رواه البزار وأحمد بلفظ: لعن رسول الله فلانا وما ولد من صلبه. وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۵:۲۴۱).

[۱۱] رواه أبو یعلی (الزوائد ۵:۲۴۰).

[۱۲] مروج الذهب ۳:۱۰۳.

[۱۳] شذرات الذهب:ابن العمال الحنبلی ۱:۶۹.

[۱۴] وعند المسعودی (الترابین) أی أصحاب أبی تراب علی بن أبی طالب.

[۱۵] مروج الذهب ۳:۱۱۱.

[۱۶] مروج الذهب ۳:۱۱۴.

[۱۷] البدایة والنهایة ۲۵۴، ۸:۲۵۵.

[۱۸] مروج الذهب ۳:۱۰۷.

[۱۹] مروج الذهب ۳:۸۲.

[۲۰] مروج الذهب ۳:۸۲.

[۲۱] البدایة والنهایة ۹:۶۳، تاریخ الخلفاء:السیوطی ۱:۲۰۲.

[۲۲] تاریخ الخلفاء:۱:۲۰۳.

[۲۳] البدایة والنهایة ۹:۶۳.

[۲۴] مروج الذهب ۳:۱۰۹.

[۲۵] الفتح الربانی ۱۷۱:۱۱.

[۲۶] مروج الذهب ۱۱۶:۳.

[۲۷] مروج الذهب ۸۹:۳.

[۲۸] مروج الذهب ۹۰:۳.

[۲۹] مروج الذهب ۹۳:۳.

[۳۰] مروج الذهب ۹۷:۳.

[۳۱] مروج الذهب ۹۷:۳.

[۳۲] رسائل ابن حزم ۱۴۱:۲.

[۳۳] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۴۸:۱۱).

[۳۴] رواه الطبرانی (کنز ۱۴۹:۱۱).

[۳۵] البخاری (الصحیح ۲۳۰:۴) ک الأحکام.

[۳۶] رواه الحاکم وصححه (المستدرک ۴۷۱:۴).

[۳۷] مروج الذهب ۱۱۹:۳.

[۳۸] رواه الإمام أحمد وأبو یعلی (کنز العمال ۱۱۹:۱۱).

[۳۹] رواه أحمد وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۲۲۰:۷) (الفتح الربانی ۳۴:۲۳)، (البدایة والنهایة ۲۳۴:۶)، (کنز العمال ۱۱۹:۱۱).

[۴۰] الطبری ۱۸۴:۷.

[۴۱] مروج الذهب ۱۲۵:۳.

[۴۲] مروج الذهب ۱۴۳:۳.

[۴۳] سورة الأنفال: الآیة ۳۳.

[۴۴] سورة النساء: الآیة ۱۴۷.

[۴۵] سورة الإسراء: الآیة ۱۵.

[۴۶] رواه ابن سعد ونعیم ابن حماد والحاکم والطبرانی (کنز العمال ۲۰۱، ۲۰۲:۲۱۴).

[۴۷] الخصائص الکبری ۲۲۶:۲، البدایة ۱۳۲:۹.

[۴۸] الخصائص الکبری ۲۲۵:۲، البدایة ۱۳۲:۹.

[۴۹] الطبری ۳۵۹:۶.

[۵۰] رواه البیهقی (البدایة والنهایة ۲۷۰:۶).

[۵۱] البدایة والنهایة ۲۷۰:۶.

[۵۲] البدایة والنهایة ۱۳۶:۹.

[۵۳] البدایة والنهایة ۱۳۶:۹.

[۵۴] البدایة والنهایة ۱۳۶:۹.

[۵۵] البدایة والنهایة ۱۳۵:۹.

[۵۶] أبو داوود حدیث رقم ۴۶۴۱ ص ۲۰۹:۴.

[۵۷] أبو داوود حدیث ۴۶۴۵ ص ۲۱۰:۴.

[۵۸] أبو داوود حديث ۴۶۴۳، ص ۴:۲۱۰.

[۵۹] المثنوية:الاستثناء.

[۶۰] حياة الحيوان ۳:۱۶.

[۶۱] أنظر تفسير الزمخشرى والرازى والبيضاوى.

[۶۲] التنبيه والإشراف:المسعودى ۱:۲۹۱.

[۶۳] البداية والنهاية ۹:۱۳۷.

[۶۴] تاريخ الخلفاء ۱:۲۰۰.

[۶۵] تاريخ الخلفاء ۱:۲۰۵.

حركة عبدالله بن عمر بن الخطاب

فعبد الله عند المقدمة، رفض القتال مع أمير المؤمنين على بن أبى

[صفحه ۳۳۶]

طالب [۱] وفى أكثر الأقوال رفض أن يبايع على. ويقول ابن حزم فى الذين لم

يبايعوا عليا: وتأخر عن بيعة على، قوم من الصحابة بغير عذر شرعى، إذ لا شك فى إمامته [۲] وعبد الله الذى لم يبايع عليا. بايع فيما بعد معاوية، ثم

يزيد بن معاوية، ثم عبد الملك بن مروان. وكان عنوان عبد الله بن عمر على امتداد هذه الأحداث، من عثمان إلى عبد الملك بن مروان هو ": لا أقاتل، وأصلى وراء من غلب [" ۳] وكان على امتداد هذا الزمان لا يأتى أمير إلا صلى

خلفه، وأدى إليه زكاة ماله [۴] .

روى أن عليا طلب من ابن عمر الخروج معه لقتال أهل الشام فقال: أنا رجل من أهل المدينة إن خرجت خرجوا، ولكن لا أخرج للقتال فى هذا العام [۵] والمعنى: هو مع أهل المدينة ما يجرى عليهم، جرى عليه، فإن خرج

أهل المدينة مع على، فإن ابن عمر لن يخرج هذا العام. وبعد مقتل الإمام على، لم يبايع ابن عمر الحسن بن على، فلما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بايع معاوية. وعندما أراد معاوية أن يبايع ليزيد من بعده، بعث إلى ابن عمر وقال: يا ابن عمر إنك كنت تحدثنى أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء، ليس عليك فيها أمير. وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين، أو تسعى فى فساد ذات بينهم.. فقال ابن عمر: إنك تحذرنى أن أشق عصا المسلمين، ولم أكن أفعل، وإنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فأنا رجل منهم. فقال له معاوية: يرحمك الله [۶] .

وذكر ابن كثير: حين قدم نعى معاوية، لم يكن ابن عمر بالمدينة. وعندما لقى الحسين وابن الزبير قال: ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية، والبيعة ليزيد.

[صفحه ۳۳۷]

فقال لهما: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين. وعندما قدم ابن عمر إلى المدينة، بايع يزيد [۷] وعن محمد بن المنكدر قال: لما بويع يزيد بن معاوية،

قال ابن عمر: إن كان خيرا رضينا، وإن كان بلاء صبرنا [۸] .

وعندما خلع أهل المدينة يزيد، روى أحمد، ومسلم، والترمذى، أن ابن عمر أنكر على أهل المدينة خلعهم ليزيد. وروى أنه دعا بنيه، وجمعهم وقال: أنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الغادر ينصب له لواء

يوم القيامة، فيقول هذه غدرة فلان.... فلا يخلعن أحد منكم يزيد، ولا يسرعن أحد منكم فى هذا الأمر فتكون الصيلم بينى وبينه [۹] .

وبعد مجزرة الحرة، وموت يزيد. وعندما جاءت دولة مروان التى لعن النبى صلى الله عليه وسلم رأسها فى أحاديث صحيحة، منها قول عائشة: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم، ومروان فى صلبه. فمروان قصص من لعنة الله عز وجل [۱۰] ، بعد أن جاءت هذه الدولة. روى البخارى عن عبد الله بن دينار قال: شهدت ابن عمر، حيث اجتمع الناس على عبد الملك كتب: إنى أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين، على سنة الله وسنة رسوله، ما استطعت، وإن بنى قد أقروا بذلك [۱۱] .

إن ما قدمناه ما هو إلا ضوء على حركة ابن عمر خلال هذه الأحداث، وللأسف الشديد، أن هذه الحركة أصبحت فيما بعد أصلا من أصول الدين، زرعه فقهاء السلاطين، والغائر الوحيد تحت شجرتهم هم الطلقاء، والملعونين، والمطرودين، وأعداء الفطرة، والإنسانية، إن فقهاء السوء التقطوا موقف ابن

[صفحه ۳۳۸]

عمر، وجعلوه كمامة فى عالم التلجيم والاحتناك، وعلى هذه الكمامة، تعددت الفرق، وافترقت الأمة إلى أكثر من سبعين شعبة، بعد أن أصبح للجدل أسواق. لقد سلطوا الأضواء على موقف ابن عمر، وعتموا على مواقف أبى ذر، وعمار، والمقداد، وحجر بن عدى، وزيد بن صوحان، وغيرهم، ولا تخفى الأسباب على أصحاب الضمائر والأفهام والأبصار. وفوق هذا التعتيم، وضعوا عباءة عبد الله بن سبأ. فقالوا: إن ابن سبأ هو السبب فى جميع الأحداث التى عصفت بالأمة. وأشهد أن ابن سبأ ما هو إلا أقصوصة، جاء بها عالم القص ليعتم بها على حركة التاريخ. لم ينظر أصحاب الاحتناك إلا فى مقدمة ابن عمر، ولم ينظروا إليه فى نهاية الطريق، حيث كان يعلوه الندم. فعن الزهرى عن حمزة بن عبد الله بن عمر. أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر، إذ جاءه رجل من أهل العراق فقال: يا أبا عبد الله، إنى والله لقد حرصت أن أتسم بسمتك، وأقتدى بك فى أمر فرقة الناس، واعتزال الشر ما استطعت، وإنى أقرأ آية من كتاب الله محكمة، قد أخذت بقلبى فأخبرنى عنها، أرأيت قوله عز وجل: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله)، أخبرنى عن هذه الآية. فقال ابن عمر: ما لك ولذلك. انصرف عنى. فانطلق الرجل حتى توارى عنا سواده. وعندما أقبل علينا عبد الله قال: ما وجدت فى نفسى شيئا من أمر هذه الآية، ما وجدت فى نفسى أنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى الله عز وجل [۱۲] وفى رواية قال: لم أجدنى آسى على شئ، إلا أنى، لم أقاتل

الفئة الباغية مع على [۱۳] .

[صفحه ۳۳۹]

لقد كان هذا آخر مواقف ابن عمر، بعد أن صلى وراء الحجاج، وأخذ عنه الحجاج مناسكه يوم أن كانت الكعبة تحترق، وهم يطوفون بها كما سيأتى.

[۱] البداية والنهاية ۷:۲۳۱.

[۲] رسائل ابن حزم الأندلسى ۲:۱۳۸.

[۳] الطبقات الكبرى ۴:۱۴۹.

[۴] الطبقات الكبرى ۴:۱۴۹.

[۵] البداية والنهاية ۷:۲۳۱.

[۶] تاريخ الخلفاء ۱:۱۱۳.

[۷] البداية والنهاية ۱۴۸:غير واضح فى المصدر (۵۴۱).

[۸] الطبقات الكبرى ۴:۱۸۴.

[۹] البداية والنهاية ۲۳۳، ۸:۲۵۱، الطبقات الكبرى ۴:۱۸۳.

[۱۰] رواه الحاكم وصححه (المستدرك ۴:۴۸۱).

[۱۱] البخارى (الصحيح ۴:۲۴۵) ك الأحكام.

[۱۲] رواه الحاكم وقال: هذا باب كبير، وقد رواه عن عبد الله بن عمر جماعة من كبار التابعين وإنما قدمت حديث شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى واقتصرت عليه لأنه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرك ۳:۱۱۶).

[۱۳] رواه الطبرانى بإسنادين ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ۷:۲۴۲)، ورواه ابن سعد فى الطبقات بإسنادين (الطبقات الكبرى ۱۸۵، ۴:۱۸۷).

حركة أنس بن مالك

كان أنس من الذين كتموا حديث الغدير، يوم أن قال على بن أبى طالب

فى الرحبة ": أنشد الله رجلا سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول يوم الغدير إلا قام " وقام الناس ولم يقم أنس. فدعا على بن أبى طالب على كل من كتم، ولم يشارك أنس فى معاركه على. لكنه تحدث بعد على عن مناقب أهل البيت، وذلك عندما علم أن مقدمته كانت مقدمة خطأ. روى ابن كثير أن أنس بن مالك جاء إلى الحجاج بن يوسف. فقال له الحجاج، هى يا خبيث، جوال فى الفتن، مرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الأشعث، أما والذى نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة، ولأجردنك كما تجرد الضب. فقال أنس: إياى يعنى الأمير، قال الحجاج: إياك أعنى أصم الله سمعك. فاسترجع أنس، وشغل الحجاج. فخرج أنس، فتتبعناه. فقال: لولا أنى ذكرت أولادى الصغار، وخفت عليهم، ما باليت أى قتل أقتل، وكلمته بكلام فى مقامى هذا لا يستخفنى بعده أبدا. وروى أن أنسا بعث إلى عبد الملك بن مروان يشكو إليه الحجاج. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يترضاه [۱] وروى ابن سعد: كان أنس بن مالك من أحرص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على المال [۲] .

وفقهاء السلطان وقفوا عند المقدمة، وعزلوا غزلهم، ونسجوا نسيجهم، ولم ينظروا فى الخاتمة، حيث كان أنس يبكى فى آخر أيام حياته، وهو آخر من مات من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم

[صفحه ۳۴۰]

بالبصرة [۳] وكان أنس يقول: ما بقى أحد صلى القبلتين كلتيهما غيرى [۴] .

ولو تدبر أصحاب الغزل والنسيج، فى أقوال أنس فى آخر حياته، لرؤا فيها الندم. ولعلموا أن غرسهم بعد الندم لا قيمة له إلا فى خزائن السلطان. فعن ابن عمران الجونى قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم، مما كنا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة؟ قال: أولم تصنعوا فى الصلاة، ما قد علمتم [۵] وروى البخارى أن الزهرى دخل

على أنس، فوجده يبكى. فقال ما يبكيك قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت [۶] ، إن معنى أن يضيع كل شئ عند النتيجة، أن المقدمة بعد وفاة الرسول يجب البحث فيها لنقف على الداء. وما نسجوه على موقف أنس وابن عمر، فعلوه أيضا فى حركة عائشة. تلك الحركة التى قام فقهاء السلطان بترقيعها، وتلوينها، حتى لا يصل أحد إلى حقيقة، وكان يكفيهم أن ينظروا إلى موقف عائشة فى المحطة الأخيرة، حيث التوبة والندم. فعائشة بعد قتل محمد بن أبى بكر وحجر بن عدى، تبينت الحقيقة، واعترفت بأنه لولا موافقها السابقة، لكان لها شأن آخر فى مقابل هذه الأحداث [۷] ثم بدأت فى نشر فضائل أهل البيت، وقيل أن حديثها ينشر

الفضائل، كان بعد وفاة الحسن بن على. وقيل غير ذلك. وروى أنها قالت عند وفاتها: إنى قد أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت: ليتنى لم أخلق. يا ليتنى كنت شجرة أسبح وأقضى ما على [۸] .

وإذا كنا قد ذكرنا أن الحجاج عقاب، وتحت هذا العقاب ينظر الله تعالى

[صفحه ۳۴۱]

إلی عباده، کیف یعملون وإلی أین یفرون. وإذا کنا قد ذکرنا أن العقاب، علی الجیل الأول، عموده الفقری أن یقوم هذا الجیل بتصحیح خطواته، وترتیب أوراقه، لأن علی أوراقه ستأتی أجیال سیأخذون من ممارستهم، وأعمالهم، وقودا، ویتخذونهم قدوة، فإذا لم یصحح الأوائل خطایاهم، حتما سیقع فیها الأواخر، یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": إذا عملت الخطیئة فی الأرض کان من شهدها فکرهها کم غاب عنها، ومن غاب عنها فرضیها کان کمن شهدها [" ۹] ، وقوله ": المرء مع من أحب [" ۱۰] وإذا کنا قد ذکرنا، أن العمود

الفقری لحرکة الإنسان العاقل فی هذا الکون، هو الأخذ بالأسباب، لأن فیها یظهر الإنسان الذی یخشی الله بالغیب، والإیمان بالغیب هو وعاء المؤمنین الوحید علی هذا الکون المنظور، وعلی طریق الإیمان سار علی بن أبی طالب، وعمار، والحسین، وکل منهم کان یعلم بأنه مقتول فی نهایة الطریق. فلم ینظروا إلی النتائج، لأن النتائج بید الله، والله تعالی لا یضیع عمل الصالحین، الذین یخشونه بالغیب. وهؤلاء وغیرهم، هم الذین اشتری الله منهم أنفسهم، وأخبرهم علی لسان رسول صلی الله علیه وآله وسلم، بمکان وکیفیة قتلهم. فلم یتکاسلوا، وأخذوا بأسباب الحیاة الأبدیة، حتی قتلوا وربح بیعهم. فإذا کنا قد ذکرنا ذلک فی أکثر من موضع فلم یبق إلا إلقاء ضوء یسیر علی رجل من الرجال، أخذ بأسباب النجاة، وکتمها فی نفسه، وذلک عندما خطب الحجاج وجعل مرتبة عبد الملک فوق مرتبة النبوة. روی أبو داوود عن الربیع بن خالد قال: سمعت الحجاج یخطب فقال فی خطبته: رسول أحدکم فی حاجته أکرم علیه، أم خلیفته فی أهله؟ قال الربیع: فقلت فی نفسی: لله علی ألا أصلی خلفک أبدا، وإن وجدت قوما یجاهدونک، لأجاهدنک معهم. وروی أنه قاتل بعد ذلک فی موقعة الجماجم حتی قتل [۱۱] .

[صفحه ۳۴۲]

لقد کانت أقوال الحجاج وأفعاله، تصطدم مع العقیدة، وهنا یکمن الامتحان الإلهی. وتحت هذا الامتحان، کان هناک من یدافع عن دینه، بیده، أو بلسانه، أو بقلبه، وکان هناک من فدی الحجاج بالمال والولد، وقاتل تحت راياته. وکان هناک أیضا من یرید أن یرکب موجة المعارضة، لیصل إلی کرسی الحکم، کالمختار مثلا الذی انطلق من عباءة قال أنها هاشمیة، وبتصریح من محمد بن الحنفیة. والحقیقة تخالف ذلک. باختصار: کانت هناک معارضة، ولکنها بلا رأس فیه من الله برهان. لقد کان علی بن الحسین، یعیش فی عالم الغربة، وکان فی هذا العالم کثیر البکاء. وقیل له فی ذلک فقال: أن یعقوب علیه السلام بکی حتی ابیضت عیناه علی یوسف، ولم یعلم أنه مات. وإنی رأیت بضعة عشر من أهل بیتی یذبحون فی غداة واحدة، فترون حزنهم یذهب من قلبی أبدا [۱۲] وفی روایة قال: إننی کلما شربت الماء تذکرت ابن فاطمة.

وعلی بن الحسین کان علما وحده فی هذه الساحة، ودلیلا ینیر لمن أراد أن یتوجه إلیه، روی أن الزهری قارف ذنبا فاستوحش منه وهام علی وجهه، وترک أهله وماله فلما اجتمع بعلی بن الحسین قال له علی: یا زهری قنوطک من رحمة الله التی وسعت کل شئ، أعظم من ذنبک. فقال الزهری ": والله أعلم حیث یجعل رسالاته، " وفی روایة: أنه کان أصاب دما حراما خطأ، فأمره بالتوبة والاستغفار، وأن یبعث الدیة إلی أهله. وعندما سمع منه الزهری قال ": والله أعلم حیث یجعل رسالاته [" ۱۳] لقد کان علی بن الحسین علما فی الساحة. روی أن

هشام بن عبد الملک حج فی خلافة أبیه، فطاف بالبیت، فلما أراد أن یستلم الحجر لم یتمکن حتی نصب له منبر، فاستلم وجلس علیه. وقام أهل الشام حوله، فبینما هو کذلک إذ أقبل علی بن الحسین، فلما دنا من الحجر لیستلمه. تنحی عنه الناس إجلالا له وهیبة واحتراما. فقال أهل الشام لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه استنقاصا به، واحتقارا، لئلا یرغب فیه أهل الشام. فقال

[صفحه ۳۴۳]

الفرزدق وکان حاضرا. أنا أعرفه. فقالوا: ومن هو؟ فأشار الفرزدق یقول:

هذا الذی تعرف البطحاء وطأته++

والبیت یعرفه والحل والحرم

هذا ابن خیر عباد الله کلهم++

هذا التقی النقی الطاهر العلم

إذا رأته قریش قال قائلها++

إلی مکارم هذا ینتهی الکرم

ینمی إلی ذروة العز التی قصرت++

عن نیلها عرب الإسلام والعجم

إلی أن قال:

هذا ابن فاطمة إن کنت تجهله++

بجده أنبیاء الله قد ختموا

من جده دان فضل الأنبیاء له++

وفضل أمته دانت لها الأمم

عم البریة بالإحسان فانقشعت++

عنها الغوایة والإملاق والظلم

إلی أن قال:

من معشر حبهم دین وبغضهم++

کفر وقربهم منجی ومعتصم

یستدفع السوء والبلوی بحبهم++

ویستزاد به الاحسان والنعم

مقدم بعد ذکر الله ذکرهم++

فی کل حکم ومختوم به الکلم

إن عد أهل التقی کانوا أئمتهم++

أو قیل من خیر أهل الأرض؟ قیل: هم

لا یستطیع جواد بعد غایتهم++

ولا یدانیهم قوم وإن کرموا

هم الغیوث إذا ما أزمة أزمت++

والأسد أسد الشری والبأس محتدم

یأبی لهم أن یحل الذم ساحتهم++

خیم کرام وأید بالندی هضم

لا ینقص العدم بسطا من أکفهم++

سیان ذلک أن آثروا وإن عدموا

أی الخلائق لیست فی رقابهم++

لأولية هذا أوله نعم

فليس قولك من هذا؟ بضائرة++

العرب تعرف من أنكرت والعجم

من يعرف الله أولية ذا++

فالدين من بيت هذا ناله الأمم

يقول ابن كثير: فغضب هشام من ذلك، وأمر بحبس الفرزدق بين مكة والمدينة، فلما بلغ ذلك على بن الحسين، بعث إلى الفرزدق باثنى عشر ألف درهم، فلم يقبلها، وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل، ونصرة للحق، وقياما بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذريته، ولست أعتاض عن ذلك بشئ. فأرسل إليه على بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيتك فى ذلك

[صفحه ۳۴۴]

وأقسمت عليك بالله لتقبلها. فقبلها منه [۱۴] .

لقد كانت هناك معارضة، للذين يقاتلون من أجل الدنيا، ولكن هذه المعارضة لم يكن لها رأس هدفها الآخرة، وتسوق الناس فى الدنيا إلى عالم البركات، وشرط عالم البركات أن يؤمن أهل القرى وأن يتقوا. أهل القرى كلهم، وليس قبيلة من القبائل، أو فردا من الأفراد، فالدعوة عالمية. وتتحرك بعالميتها تحركا واحدا، على امتداد العصور. وهذا التحرك على أرض إذا سقط عليها الماء، اهتزت وأنبتت نبات عالم البركات، وليس نبات عالم الضنك. فالإنسان مرتبط بالكون، فإن استقام على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، التقى مع فطرة الكون فى معزوفة واحدة. أما إذا شذ، فإنه بهذا الشذوذ يصطدم من فطره الله فى خلقه، فتضربه جميع الأسباب وفى عالم الفرية، وفى عالم القتال من أجل الدنيا، وفتح أبواب الفتن، ونشر ثقافة السب، روى أن يحيى بن سعيد قال: سمعت على بن الحسين، وهو أفضل هاشمى أدركته يقول: يا أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا. وفى رواية: حتى بغضونا إلى الناس [۱۵] .

وفى عالم البغض والحقد والكراهية. مارس الحجاج بن يوسف مهمته بكل ارتياح. فصد عن سبيل الله، وتتبع أصحاب الإمام على فى كل مكان، وشكك فى أهل البيت. روى أنه طلب كميل بن زياد ليقتله، وكان كميل صحابى أدرك من الحياة النبوية، ثمان عشرة سنة، وشهد صفين مع على [۱۶] ، وكان شجاعا، فاتكا، وزاهدا عابدا [۱۷] وعندما وقف كميل أمام الحجاج، نال

الحجاج من على، فصلى كميل عليه. فقال له الحجاج: والله لا بعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه، فأرسل إليه ابن أدهم، وكان من أهل

[صفحه ۳۴۵]

حمص [۱۸] وأمر الحجاج بقتله صبرا بين يديه. فقال كميل: فاقض من أنت

قاض، فإن الموعد الله، وقد أخبرنى أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنك قاتلى. فقال: اضربوا عنقه. فضربت عنقه [۱۹] .

وفى عالم البغض والكراهية، أنكر الحجاج أن يكون الحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم، لأنه ابن ابنته. فقال له يحيى بن معمر: كذبت. فقال الحجاج. لتأتينى على ما قتل ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك فقال: قال تعالى: (ومن ذريته داوود وسليمان) إلى قوله: (وزكريا ويحيى وعيسى) ثم قال للحجاج: فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينتسب إلى أمه مريم. والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الحجاج: صدقت، ونفاه إلى خرسان [۲۰] .

وعلى ساحة البغض والكراهية، كان الحجاج ينال من عبد الله بن مسعود ويقول: والله لو أدركت عبد هذيل، لأضربن عنقه [۲۱] وكان يمنع الناس من

القراءة فى المصحف بقراءة ابن مسعود. ويقول: لا أجد أحدا يقرأ على قراءة ابن عبد إلا ضربت عنقه. ولأحكنها من المصحف، ولو

بضلع خنزير!! [۲۲] ، وقال ابن كثير: وإنما نقم على قراءة ابن مسعود لكونه خالف القراءة، على المصحف الإمام الذى جمع الناس عليه عثمان [۲۳] وروى أن الحجاج قال على

المنبر: عبد الله بن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه [۲۴] وروى أنه تلا على المنبر هذه الآية: (هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من

بعدى)، وقال: والله إن كان سليمان لحسودا. قال ابن كثير: وهذا جراءة

[صفحه ۳۴۶]

عظيمة تقضى به إلى الكفر [۲۵] .

من كل ما سبق، نعلم أن الحجاج اقتحم على الناس من الباب الذى لا ينبغى للناس أن يسمحوا له بالدخول منه، ولكن الغالب الأعم تعامى عن حركة الحجاج، كما تعاموا من قبل، عن أعمال يزيد، ومن قبله عن أعمال معاوية. وتعامى الرأى العام وإن كان يعود إلى ثقافة السب، ورشوة النبلاء، إلا أنه عذر لا تقبله الفطرة التى هى حجة بذاتها على الإنسان. وفى عالم البغض والتعامى، تحركت جيوش الحجاج، بعد أن صدرت الأوامر إليها من عبد الملك بن مروان. وكان تحركها فى اتجاه مكة لقتل ابن الزبير، وابن الزبير لم يدع شيئا مقدسا، أو راية نقية، إلا تاجر بها لبسط نفوذه، وعبد الملك ما ترك سجنا، ولا سيفا، إلا واستعمله من أجل بسط نفوذه. لقد كانت المواجهة بين الطرفين فى مكة. وعلى مكة تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله حرم مكة. يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى، ولا تحل لى قط إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد [۲۶] وفى رواية قالوا: إلا الأذخر يا رسول

الله، فإنه لا بد منه للقين، والبيوت. قال: إلا الإذخر فإنه حلال. وفى رواية قال صلى الله عليه وسلم: وهى اليوم حرام كما حرمها الله عز وجل أول مرة، وإن أعتى الناس على الله عز وجل ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل [۲۷] الجاهلية [۲۸] .

ومن أجل هذا، تحرك أهل البيت بعيدا عن الدائرة الحرام، وكانت حركتهم من أجل أن يدخلوا بالناس إلى المنطقة الأمان. أما غيرهم فقد تسلق

[صفحه ۳۴۷]

على الدائرة الحرام طمعا فى الدنيا، حتى جاء يزيد وعبد الملك فى زمن القهر، واتخاذ عباد الله خولا، فوجهوا الجيوش إلى الدائرة الحرام، لينالوا الدنيا على دخان الكعبة. روى أن الحجاج زحف إلى مكة. فحاصر ابن الزبير بها وكتب إلى عبد الملك: أنى ظفرت بأبى قبيس. فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير، كبر عبد الملك، فكبر من معه فى داره، واتصل التكبير بمن فى جامع دمشق فكبروا، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم: إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة، وظفر بأبى قبيس [۲۹] منع ابن الزبير

الحجاج أن يطوف بالبيت. ووقف الحجاج بعرفة محرما فى درع مغفر [۳۰] ، وكانت مدة الحصار خمسين ليلة [۳۱] ثم بدأ الحجاج يصب الحجارة على مسكة

صبا، وابن الزبير متحصن بالكعبة، وتفرق عن ابن الزبير أصحابه، وخذله من معه خذلانا شديدا. وجعلوا يخرجون إلى الحجاج، حتى خرج إليه نحو من عشرة آلاف، وذكر أنه كان ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابنا الزبير، وخبيب، فأخذا منه لأنفسهما أمانا [۳۲] .

وروى أنه عندما رمى البيت بالحجارة والمنجنيق، أرسل الله تعالى الصواعق والبروق والرعود. فنزلت الصواعق على المنجنيق وأحرقته، فوقف أهل الشام عن الرمى، فقال لهم الحجاج، ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا. فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم. فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته. فعاد أهل الشام للضرب. وقتل ابن الزبير [۳۳] وأمر الحجاج

بصلب الزبير بمكة. وكان مقتله سنة ثلاث وسبعين. [۳۴] .

[صفحه ۳۴۸]

وأعطى عبد الملك للحجاج الجائزة، فأقامه واليا على مكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، واليمامة، ثم جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة [۳۵] وبدأ عبد الملك يعيد بناء البيت الذى قام برميه من فوق الجبال،

ولم يدخر عبد الملك جهدا فى تشييد البيت وزخرفته. وهذا كله شاهد صدق على حركة التاريخ. حيث يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا رأيتم قريشا قد هدموا البيت ثم بنوه فزوقوه. فإن استطعت أن تموت فمت [" ۳۶] ، والدعوة إلى الموت ليست دعوة إلى الانتحار، وإنما أن تختار الموتة، التى يكون لله فيها رضا. وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": كيف أنتم إذا مرج الدين، فظهرت الرغبة، واختلف الإخوان، وحرق البيت العتيق [" ۳۷] وكيف أنتم أى كيف تكون

حركتكم، التى تحبون. أن ينظر الله إليكم وأنتم عليها. إنه توجيه خاص، بأجيال القرن الأول، لأن على خيرتهم ستأتى أجيال وأجيال. وبعد أن شيد عبد الملك البيت وزوقه، أمر عبد الملك الحجاج أن يقتدى بعبد الله بن عمر فى مناسك الحج [۳۸] وروى أنه لما مات عبد الله بن عمر،

صلى عليه الحجاج بن يوسف [۳۹] ، وأن عبد الملك حج فى بعض أعوامه، فأمر للناس بالعطاء. فخرجت بدرة مكتوب عليها ": من الصدقة " فأبى أهل المدينة من قبولها. وقالوا: إنما كان عطاؤنا من الفئ. فقال عبد الملك: نعلم أنكم لا تحبوننا أبدا. وأنتم تذكرون يوم الحرة. نحن لا نحبكم أبدا، ونحن نذكر مقتل عثمان [۴۰] .

وعلى بساط البغض والحقد، دارت الأحداث. وفى نهايتها مات

[صفحه ۳۴۹]

عبد الملك بن مروان. وروى أنه وصى ابنه بالحجاج فقال له: انظر إلى الحجاج فإنه هو الذى وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناوأك، فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، وادع الناس إذا مت إلى البيعة. فمن قال برأسه هكذا. فقل بسيفك هكذا [۴۱] ولما احتضر عبد الملك

دخل عليه ابنه الوليد فبكى. فقال عبد الملك: أتحن حنين الجارية. إذا أنا مت فشمر وائتزر، والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه [۴۲] .

[صفحه ۳۵۳]

[۱] البداية والنهاية ۹:۹۱.

[۲] الطبقات الكبرى ۷:۱۸.

[۳] الطبقات الكبرى ۷:۲۶.

[۴] الطبقات الكبرى ۷:۲۰.

[۵] رواه أحمد والترمذى وحسنه وقال فى الفتح الربانى ۱:۱۹۹، روى من غير وجه عن أنس.

[۶] الفتح الربانى ۱:۲۰۰.

[۷] راجع الطبرى ۶:۱۵۶، ابن أبى الحديد ۳:۲۷۲.

[۸] رواه الطبرانى (الزوائد ۸:۷۴) وابن سعد (الطبقات ۷:۲۳۸).

[۹] رواه أبو داوود حديث ۴۳۴۵ ص ۴:۱۲۴.

[۱۰] البخارى (الصحيح ۴:۷۷) والترمذى وصححه (الجامع ۴:۵۹۶).

[۱۱] رواه أبو داوود حديث ۴۶۴۲ ص ۴:۲۰۹، البداية ۹:۱۳۱.

[۱۲] البداية والنهاية ۹:۱۰۷.

[۱۳] البدایة والنهایة ۱۰۷:۹.

[۱۴] البدایة والنهایة ۱۰۸:۹.

[۱۵] البدایة والنهایة ۱۰۴:۹.

[۱۶] الإصابة ۳۱۸:۳.

[۱۷] البدایة والنهایة ۴۶:۹.

[۱۸] البدایة والنهایة ۴۷:۹.

[۱۹] الإصابة ۳۱۸:۳.

[۲۰] البدایة والنهایة ۱۲۶:۹.

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۲۸:۹.

[۲۲] البدایة والنهایة ۱۲۸:۹، وقال ابن کثیر رواه غیر واحد.

[۲۳] البدایة ۱۲۸:۹.

[۲۴] البدایة والنهایة ۱۲۸:۹.

[۲۵] البدایة والنهایة ۱۲۹:۹.

[۲۶] رواه البخاری (کنز العمال ۱۹۸:۱۲).

[۲۷] ذحل:أی ثأر.

[۲۸] رواه الإمام أحمد والبیهقی (کنز العمال ۲۰۶:۱۲).

[۲۹] مروج الذهب ۱۳۵:۳.

[۳۰] المغفر:الدرع الذی یغطی به الرأس.

[۳۱] مروج الذهب ۱۳۵:۳.

[۳۲] الطبری ۲۰۲:۷.

[۳۳] البدایة والنهایة ۲۲۲، ۲۲۹:۸.

[۳۴] مروج الذهب ۱۳۸:۳.

[۳۵] مروج الذهب ۱۳۸:۳.

[۳۶] ابن أبی شیبة (کنز ۲۵۱:۱۱).

[۳۷] ابن أبی شیبة (کنز ۲۵۱:۱۱).

[۳۸] ثبت ذلک فی الصحیحین راجع: فتح الباری ۱۹۵:۱۳، البدایة والنهایة ۳۵۳:۸.

[۳۹] أسد الغابة ۳۴۴:۳.

[۴۰] مروج الذهب ۱۴۶:۱۴۷:۵.

[۴۱] تاریخ الخلفاء ۲۰۵:۱.

[۴۲] تاریخ الخلفاء ۲۰۵:۱.

ما أشبه اللیلة بالبارحة

ریاح الفرعونیة

لكل شئ فى الوجود مقدمة، ولم يعد من المقبول أن نقف عند النتيجة

ونقول: ما الذى جاء بهؤلاء؟ لأن الفطرة لا تسمح بهذا الشطط، ومعركة التاريخ تصرخ من حولنا وتقول: إن ثغرة صغيرة عند المقدمة، قد تؤدى إلى فيضان كبير عند النتيجة. ولم يعد مقبولا أن نمر على الأحداث التاريخية بفكر يقدم أسوا الحلول، لأن الحقيقة لا تقبل إلا أن تكون كلمة الله هى العليا. فعند مقدمة ما، قتل الحسين بن على، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول ": والذى نفسى بيده، لا تقتلوه بين ظهرانى قوم لا يمنعونه، إلا خالف الله بين صدروهم وقلوبهم. وسلط عليهم شرارهم وألبسهم شيعا [" ۱] ولقد جاؤوا

وجلسوا فوق الرقاب عذابا واختبارا، وفى دولتهم يقول الإمام على، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم... ": تطول دولتهم حتى لا يدعون لله محرما إلا استحلوه، ولا يبقى بيت ولا مدد ولا وبر، إلا دخله ظلمهم. وحتى يكون أحدكم تابعا لهم، وحتى تكون نصرة أحدكم منهم كنصرة العبد من سيده. إذا شهد أطاعه، وإذا غاب سبه، وحتى يكون أعظمكم فيها - أى فى دولتهم - غنا أحسنكم بالله ظنا، فإن آتاكم الله بالعافية فاقبلوا [۲] ، فإن ابتليتم فاصبروا، فإن.

[صفحه ۳۵۴]

العاقبة للمتقين [۳] وتحت أعلامهم أتى الله بالعافية، فلم يقبل عليها إلا القليل،

وتحت السيوف حبسوا وقتلوا وتأبى السماء أن تترك قتلهم بغير عقاب. وجاء الوليد بن عبد الملك كنتيجة لمقدمة، كما جاء فرعون موسى فى الدولة الحديثة (۱۵۷۵ - ۹۴۵ قبل الميلاد) هاضما للتجربة الفرعونية كلها، منذ بدأت فى العصور التاريخية (۲۷۸۰ قبل الميلاد). فكان تجسيدا حيا للشذوذ الذى دونه آباءه فى عالم الانحراف. وعلى امتداد تاريخ الفرعون، غرست بذور لم تمت شجرتها بموت الفرعون، وإنما امتدت ظلال الشجرة لتشمل عصور الدولة الفرعونية المتأخرة (۹۴۵ - ۳۴۳ ق. م). ثم تمتد بعد ذلك إلى دولة الإغريق، ودولة الرومان، بعد اندحار دولة الفراعنة أمام الغزاة الإغريق. فالفراعنة كانوا فى عالم الأموات، وشذوذهم له أعلام فى عالم الأحياء. وفيهم يقول تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون - وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) [۴] قال

المفسرون: الدعوة إلى النار، هى الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصى. ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار، تعييرهم سابقين فى النار، يقتدى بهم اللاحقون. وقوله تعالى: (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة....)، أى لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم فى الكفر والمعاصى، لا- يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصى، من مقتديهم ومتبعيهم، وعليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر، باستمرار الكفر والمعاصى بعدهم. فالآية فى معنى قوله تعالى: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) [۵] .

ففرعون امتص التجربة والوليد بن عبد الملك امتصها أيضا. يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": ليكونن فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشر

[صفحه ۳۵۵]

على هذه الأمة من فرعون لقومه [" ۶] وقال ابن حزم: الوليد بن عبد الملك، كان يركب حمارا ويمشى فى الأسواق، ويحتسب على البقالين وهو أحد الفراعنة [۷] .

والوليد ملأ الأمة رعبا، واعتمد لها بذرة فكرية ما زالت تعمل حتى زماننا هذا، أما كونه الأمة رعبا، فلقد عده ابن حزم فى المسرفين فى الدماء [۸] .

وذكر غير واحد أن الوليد كان جبارا عنيدا [۹] وكان شديد السطوة لا يتوقف

عند الغضب. ولا ينظر فى عاقبة، وتهون عليه الدماء [۱۰] وروى أن عمر بن

عبد العزيز قبل أن يتقلد الخلافة وكان الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حبارة بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر. قال: امتلأت الأرض والله جورا [۱۱] .

وعندما تقلد الوليد الخلافة قال: الحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا [۱۲] وقال: أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد. أيها الناس،، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه [" ۱۳] وعاصفة الدماء التى أقرها الوليد، أشرف على تنفيذها الحجاج بن يوسف. وروى أن الحجاج وفد على الوليد بن عبد الملك، فلما رأى الوليد ترجل له وقبل يده، وجعل يمشى وعليه درع، وكنانة، وقوس عربية. فقال له الوليد: إركب يا أبا محمد. فقال له الحجاج: دعنى يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى

[صفحه ۳۵۶]

عنك [۱۴] .

وسار الجلاد وراء رفيق لا يطمع فى أحسن منه، وفى هذا الوقت كان على بن الحسين يقيم الحجة على أرضية ثقافة السب، ويتحرك تحركا لا تمليه إلا الدعوة. وكان على بن الحسين كما ذكرنا من قبل، راية هدى يعرفها الخاص والعام. وروى أن هشام بن إسماعيل، كان أحد ولاة الوليد بن عبد الملك على المدينة، وعندما عزله الوليد. مر به على بن الحسين. فناداه هشام قائلا ": الله يعلم حيث يجعل رسالته [" ۱۵] فالحجة ظاهره. وفى نفس الوقت بيوت المال

مفتوحة، والسيوف مرفوعة، والله ينظر إلى عباده كيف يعملون. وفى الوقت الذى كانت فيه حجة الله ظاهرة، كان خدام الوليد، يرفعونه فوق مرتبة النبوة كما رفعوا والده من قبل. وروى عن نافع مولى بنى مخزوم قال: سمعت خالد بن عبد الله القسرى يقول: على منبر مكة، وهو يخاطب الناس: أيها الناس. أيهما أعظم، خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ والله لم تعلموا فضل الخليفة. إن إبراهيم خليل الرحمن استسقاه فسقاه ملحا أجاجا. واستسقى الخليفة فسقاه عذبا فراتا. قال ابن كثير: وهذا الكلام يتضمن كفرا إن صح عن قائله. قد قيل أن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام، من أنه جعل الخليفة أفضل من رسول الله الذى أرسله الله. وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها [۱۶] ويبدو أن الوليد قد انتفخ بهذه الأقوال، كما انتفخ فرعون بأقوال

الكهنة والرعاع من قبل. فروى أن الوليد قال لإبراهيم بن أبى زرعة: أيحاسب الخليفة؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أم داوود. إن الله جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده فى كتابه فقال: يا داوود [" ۱۷] .

لقد كان الفرعون يدعى أنه ابن آمون، وأبناء آمون فوق المسألة، لما قال

[صفحه ۳۵۷]

هامان، وكهنة الترقيع والتلجيم والاحتناك، على امتداد التاريخ الفرعونى الذين دونوا شذوذ الانحراف تحت أعلام، حور، ورع، وآمون رع، وغير هؤلاء من أعلام الشيطان والدجل [۱۸] وها نحن قد رأينا الوليد يجلس على أفخم كرسى،

وهو لا يعلم هل يحاسب الخليفة أم لا. وقد وصفه الذهبى فى دول الإسلام، بأنه: كان دميما، سائل الأنف، يختال فى مشيته، قليل العلم [۱۹] ، وقال ابن كثير: كان لا يحسن العربية، فجمع جماعة من أهل النحو فأقاموا عنده سنة. وقيل: ستة أشهر. فخرج يوم خرج أجهل مما كان [۲۰] وفرعون موسى كان أشد

جهلا، فهو الذى طلب من هامان أن يوقد له على الطين، وأن يجعل له صرحا كى يطلع إلى إله موسى. ولقد شهد الله بجهل فرعون فقال: (وأضل فرعون قومه وما هدى) [۲۱] ومن دائرة الجهل قاد فرعون المسيرة، ولكن بأعلام

الدين، فقال لقومه وهو يصد عن السبيل طمعا فى أن يبعدهم عن دعوة موسى عليه السلام: (إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) [۲۲] .

وقام بتنفير قومه من خط موسى، وهارون عليهما السلام فقال: (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) [۲۳] وعلى طريق فرعون سار الرعاع، (فاتبعوا أمر فرعون وما أمر

فرعون برشيد) [۲۴] ورفعت أعلام وصيحات الفرعونية (قالوا اقتلوا أبناء الذين

آمنوا معه واستحیوا نساءهم) [۲۵] وذهب فرعون وقومه. ثم جاءت الأیام علی

امتداد التاریخ لتحمل معالمهم، لأن الاستخلاف من سنهٔ الوجود لینظر الله کیف تعملون، وکما أن الأیام تتشابه، فکذلک تکون القلوب (کذلک قال الذین من

[صفحه ۳۵۸]

قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بینا الآیات لقوم یوقنون) [۲۶] وتحت

مظلهٔ الأیام تختبر القلوب علی امتداد التاریخ الإنسانی... (وتلک الأیام نداولها بین الناس ولیعلم الله الذین آمنوا ویتخذ منکم شهداء) [۲۷] ، وکما کان فی عالم الفرعون ابتلاء، کذلک کان فی عهد الولید بن عبد الملک امتحان، فالولید جلس علی کرسی الحکم أحد عشر سنهٔ تقریبا، وقبل وفاته بستهٔ أشهر، مات ذراعه الأیمن الحجاج بن یوسف الثقفی. وکان عد من قتله الحجاج صبرا، سوی من قتل فی زحوفه، وحروبه مائهٔ ألف وعشرین ألفا [۲۸] وروی أن الحجاج مات

وفی حبسه خمسین ألف رجل وثلاثین ألف امرأهٔ [۲۹] منهن ستهٔ عشر ألفا

مجردهٔ [۳۰] وکان یحبس النساء والرجال فی موضع واحد [۳۱] .

[۱] رواه الطبرانی (الزوائد ۹:۱۹۰).

[۲] فاقبلوا:أی تقدموا.

[۳] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۹۱).

[۴] سورهٔ القصص: الآیهٔ ۴۱ و ۴۲.

[۵] سورهٔ العنکبوت: الآیهٔ ۱۳.

[۶] رواه الإمام أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۵:۲۴۰، ۷:۳۱۳) ورواه البیهقی، (الخصائص الکبری ۲:۲۲۷).

[۷] رسائل ابن حزم ۲:۷۱.

[۸] رسائل ابن حزم ۲:۷۵.

[۹] مروج الذهب ۳:۱۹۲، البدایهٔ والنهایهٔ ۹:۱۶۴.

[۱۰] التنبیه والإشراف ۱:۲۹۰.

[۱۱] تاریخ الخلفاء ۱:۲۰۸.

[۱۲] البدایهٔ ۹:۷۰.

[۱۳] البدایهٔ ۹:۷۰.

[۱۴] مروج الذهب ۳:۱۹۴.

[۱۵] البدایهٔ ۹:۷۱.

[۱۶] البدایهٔ ۹:۷۶.

[۱۷] تاریخ الخلفاء ۱:۲۰۸.

[۱۸] الخوف والجوع:للمؤلف - تحت الطبع.

[۱۹] دول الإسلام:الذهبی ۱:۵۵.

[۲۰] البدایهٔ والنهایهٔ ۹:۱۶۱.

[۲۱] سورهٔ طه: الآیهٔ ۷۹.

[۲۲] سورهٔ غافر: الآیهٔ ۲۶.

[۲۳] سورهٔ طه: الآیهٔ ۶۳.

[۲۴] سورهٔ هود: الآیهٔ ۹۷.

[۲۵] سورهٔ غافر: الآیهٔ ۲۵.

[۲۶] سورهٔ البقرهٔ: الآیهٔ ۱۱۸.

[۲۷] سورهٔ آل عمران: الآیهٔ ۱۴۰.

[۲۸] التنبیه والإشراف ۱:۲۹۰.

[۲۹] المصدر السابق ۱:۲۹۱.

[۳۰] المجردهٔ:التی نزع شعرها.

[۳۱] مروج الذهب ۳:۲۰۴.

تشابه القلوب

إذا کان الولید قد ارتکب الجرائم، التی ارتکبها آبائه من قبل، وزادوا علیه

أنهم اقتحموا المساجد ورموا الکعبهٔ وقتلوا الذین اشتری الله أنفسهم. فماذا کان الولید من دونهم جمیعا الذی وضع فی دائرهٔ الفرعون، وکان خطره علی الأمهٔ أشد من خطر فرعون علی قومه؟ فی البدایهٔ نقول: إن القرآن الکریم أشار إلی أن الرسالهٔ الخاتمهٔ جاءت لتخاطب الجمیع، وعلی رأسهم الفراعنهٔ الجدد. ولعلمه سبحانه أن الفراعنهٔ الجدد سیسحقون شعوبهم، ویتخذون مال الله دولا، ودین الله دخلا، وعباد الله خولا جعل خطاب الرسالهٔ الخاتمهٔ موجه إلی الفراعنهٔ وشعوبهم بمعنی أنه خاطب الشعوب باعتبار أن منهم الفراعنهٔ، وخاطب الفراعنهٔ علی اعتبار أنهم یمسکون برقبهٔ شعوبهم. فالشعوب والفراعنهٔ جزء واحد فی

[صفحه ۳۵۹]

جسد واحد، قال تعالی: (إنا أرسلنا إلیکم رسولا شاهدا علیکم کما أرسلنا إلی فرعون رسولا - فعصی فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبیلا) [۱] .

فالخطاب لجبابرهٔ قریش، ولم یقل لهم مثلا: کما أرسلنا إلی مدین رسولا، أو إلی ثمود رسولا، وإنما قال: (کما أرسلنا إلی فرعون رسولا)، لقد وضعهم فی کفهٔ النمط البشری المستکبر الذی یتسلق من أجل العلو فی الأرض. ولیس معنی هذا أن المجتمع القرشی کله فی صدر الدعوهٔ کان یحمل البصمهٔ الفرعونیهٔ، لأن مجتمع فرعون موسی کان به مؤمن آل فرعون والسیدهٔ آسیهٔ وفی هذا کفایهٔ، لأن الدعوهٔ لا تقاس باللحوم وکثرهٔ العدد وإنما تقاس بالصدق والثبات علی المبدأ. فقریش کانت تقف فی الصدر الأول علی أرضیهٔ الفراعنهٔ. وهم علی نفس الأرضیهٔ خاطبهم القرآن، وذکرهم أن فرعون عصی الرسول وخطه المتمثل فی هارون. ولما کانت المقدمهٔ تحمل عصیان فإن النتیجهٔ جاءت بالأخذ الوبیل. والولید بن عبد الملک کما ذکرنا کان الشخص الذی امتص التجربهٔ کلها، داخل النفسیهٔ القرشیهٔ المتمثلهٔ فی الظالمین من بنی أمیهٔ. وإذا کنا قد علمنا أن أوتاد الخیمهٔ الفرعونیهٔ القدیمهٔ تقویم علی أرضیهٔ مصالح الفرعون. والتی هی نفسها مصالح الدائرهٔ الفرعونیهٔ من کهنهٔ وغوغاء ورعاع. وأن أهم هذه الأوتاد قول فرعون (یا أیها الملأ ما علمت لکم من إله غیری) [۲] وأن فرعون بقوله

هذا قام بتعطیل منهاج الفطرهٔ، وجعل من نفسه مصدرا للتشریع. ثم قوله: (ما أریکم إلا ما أری) [۳] ، قال المفسرون: أی ما أقول لکم وأشیر علیکم إلا ما أراه لنفسی. وإنه علی یقین مما یهدی إلیه قومه..... وأنه بهذا القول جعل من مقعده حیث الجهل والظلام منبرا للعلم، وأن هذه الأوتاد ما کان لها أن تقوم إلا علی أرضیهٔ ثقافیهٔ استخفت بالعقول علی دروب المتاجرهٔ بالدین. ألم یقل لهم:

[صفحه ۳۶۰]

(إنی أخاف أن یبدل دینکم أو أن یظهر فی الأرض الفساد) [۴] فطریقه إلی

عقولهم کی یستخفهم کان یحمل عنوان الدین الذی التقی مع أهوائهم. إذا کنا قد علمنا ذلک من سیرة الفرعون کما قصها القرآن الکریم، وعلمنا أیضا أن هذه الحرکة الفرعونیة کانت تجری علی أرضیة الفتنة، لقوله تعالی: (فما آمن لموسی إلا ذریة من قومه علی خوف من فرعون وملائهم أن یفتنهم) [۵] ، فإن الولید بن عبد الملک الذی امتص تجربة بنی أمیة وضع هو وقائمة المنتفعین والمتسلقین معه منهجا یلتقی فی خطوطه العریضة مع المنهج الفرعونی الذی یقوم علی قوله: (ما أریکم إلا ما أری) [۶] وهذا المنهج دخل

إلی الغالب الأعم فی الأمة کما دخل إلی قوم فرعون من قبل، وذلک لأنه دخل من باب قوله: (إنی أخاف أن یبدل دینکم أو أن یظهر فی الأرض الفساد) [۷] ، وکانت حرکة منهج الولید تستقیم مع حرکة المنهج الفرعونی فی اتجاه الفتنة یقول تعالی لرسوله صلی الله علیه وسلم: (هو الذی أنزل علیک الکتاب منه آیات محکمات هن أم الکتاب وأخر متشابهات فأما الذین فی قلوبهم زیغ فیتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأویله) [۸] .

ولقد ذکرنا من قبل أن القرآن الکریم کتاب طاهر ولا یمسه بتأویل إلا طاهر، وهذا الطاهر لا بد أن یکون بنص وإلا ادعی کل إنسان الطهارة. وذکرنا أن أجر الرسالة الخاتمة لا یصب إلا فی وعاء مودة ذی القربی، وأن دائرة ذی القربی دائرة لها رأس. وکما أن لکل قوم سادة حتی النحل له سادة، کذلک دائرة ذی القربی فإن لها سادة یرتبطون بالقرآن ولا ینفصلا حتی یردا علی الحوض. فهؤلاء رفعهم الله یعلمهم درجات، بمعنی أنهم یمتازون عن بقیة الأمة بعلمهم

[صفحه ۳۶۱]

الذی رفعهم به الله درجات، فإذا ذهبوا ذهب العلم، لأن ذهاب العلم ذهاب حملته ویترتب علی ذلک التیه قال النبی صلی الله علیه وسلم ": مثل العلماء فی الأرض، مثل النجوم فی السماء، إذا ظهرت ساروا بها وإذا توارت عنهم تاهوا [" ۹] فالعلماء تحت سقف الأمة شربوا من علوم دائرة ذی القربی وساروا

بمشاعلهم حتی لا یسقطوا فی حفر الفتن یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بیتی أمان لأمتی [" ۱۰] فتحت مشاعل أهل

البیت یکون الأمان من الفتن ومن کل مکروه، لأنهم مع کتاب الله الهادی ثقلین فی حبل واحد. یقول الزرقانی فی شرح المواهب: أما الکتاب فلأنه معدن العلوم الدینیة، والأسرار والحکم الشرعیة، وکنوز الحقائق، وخفایا الدقائق. وأما العترة، فلأن العنصر إذا طاب أعان علی فهم الدین، فطیب العنصر یؤدی إلی حسن الأخلاق، ومحاسنها یؤدی إلی صفاء القلب ونزاهته وطهارته [۱۱] .

وقال صاحب التاج الجامع للأصول: قال النبی صلی الله علیه وسلم ": أحسنوا خلافتی فیهما باحترامهما، والعمل بکتاب الله وما یراه أهل العلم من آل البیت أکثر من غیرهم [" ۱۲] .

فإذا کنا قد علمنا ذلک، وعلمنا کیف حورب أهل البیت حتی لا یقوموا فی الأمة بالعمل الذی یستقیم مع مرتبة العلم التی فضلهم الله بها وبغیرها، وکیف قتل أمیر المؤمنین الذی علیه نص بأنه یقاتل علی التأویل حتی لا تکون فتنة ویکون الدین کله لله، فإذا کنا قد علمنا هذا وغیره علی امتداد هذا الکتاب، فلم یبق إلا أن نقول إن ذهاب العلم، وذهاب حملته، یفتح الطریق أمام الذین یبتغون الفتنة. ولدینا العدید من النصوص التی تقول بأن حرکة بنی أمیة ما هی إلا حرکة فتنة علی طریقها ترفع أعلام أغیلمة وسفهاء قریش الذین یتخذون ما الله دولا، وعباد الله خولا، ودین الله دخلا. وفی عالمهم یقتل المتقین، وتضیع الصلاة،

[صفحه ۳۶۲]

ویقرأ القرآن خلف لا یجاوز تراقیهم، ویکون القتال فیه علی الملک. فعلوم الفتن إنتاج طبیعی لمقدمة ذهب فیها العلم. ومعنی: ذهب فیها العلم. أنه لا یوجد إلا فی المکان الذی ذهب إلیه. ومشاعله لا توجد إلا فی المکان الذی توارت فیه.

[۱] سورة المزمل: الآية ۱۵ - ۱۶.

[۲] سورة القصص: الآية ۳۸.

[۳] سورة غافر: الآية ۲۹.

[۴] سورة غافر: الآية ۲۶.

[۵] سورة يونس: الآية ۸۳.

[۶] سورة غافر: الآية ۲۹.

[۷] سورة غافر: الآية ۲۶.

[۸] سورة آل عمران: الآية ۷.

[۹] رواه الإمام أحمد (كشف الخفاء ۴۰۵:۲).

[۱۰] رواه أبو يعلى (كشف الخفاء ۴۳۶:۲)، (كنز العمال ۱۰۲:۱۲).

[۱۱] شرح المواهب ۲:۸.

[۱۲] التاج الجامع للأصول ۴۸:۱.

دائرة الرؤية الفرعونية

والوليد بن عبد الملك الذى وصف بأنه " قليل العلم [" ۱] ، وأنه كان " لا يحسن العربية، وجمع أهل النحو فأقاموا عنده فخرج يوم خرج أجهل مما كان [" ۲] ، الوليد هذا كان رأس دائرة تتأول كتاب الله على طريق الفتنة، كما تأول فرعون صفحة الوجود فنادى " ما أريكم إلا ما أرى، " وكما التقط الفرعون الزاد من تراث آبائه. كذلك فعل الوليد بن عبد الملك. لقد كانت دائرة القدر أهم دائرة تجول فيها بنى أمية والتقطوا منها كل ما يستقيم مع أعمالهم، ثم قذفوا بما التقطوه إلى علمائهم ليتأولوه، ويضعوا عليه رداء الدين ليعبر إلى الغالب الأعم من الأمة بكل سهولة وبكل يسر. والكلام فى القدر كلام قديم. قال تعالى: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون) [۳] يقول الآلوسى فى تفسيره: ولم

يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح... بل هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، وإن ما ارتكبوه حق ومشروع، ورضى الله عنه بناء على أن المشيئة والإرادة تساوى الأمر وتستلزم الرضا. فيكون حاصل كلامهم: إن ما ارتكبوه من الشرك والتحريم وغيرهما مما تعلقت به مشيئة الله وإرادته، وكل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فيه مشروع

[صفحه ۳۶۳]

مرضى عنه [۴] ولقد رد عليهم القرآن الكريم وبين أن الذين من قبلهم قالوا

مثل قولهم فذاقوا العذاب، والعذاب لا يكون نتيجة لفعل رضى الله عنه. ثم بين أن قولهم لا يستند إلا على الوهم والخيال. وتحداهم إن كان عندهم علم بهذا فليخرجوه. ولقد أراد طابور الشرك فى مكة أن ينسج من مسائل القدر عقبات أمام الرسالة الخاتمة، ولكن القرآن الكريم أطاح بنسيجهم فى آيات كثيرة ومنهم أيضا قوله تعالى: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه شئ)، ثم صرف الله تعالى الخطاب عنهم لسقوط فهمهم وقال لنبيه: (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين - ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [۵] ، قال المفسرون: فكأنهم يقولون: لو كانت النواهى التى جاءت بها الرسالة حقة، وإن النواهى لله سبحانه، كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئا غيره، وأن لا نحرم دونه شيئا، ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره ولا نحرم شيئا، لم تعبد ولم نحرم لاستحالة تخلف مراده عن إرادته، لكنا نعبد غيره، ونحرم أشياء،

فليس يشاء شيئا من ذلك، فلا نهى ولا أمر منه تعالى، ولا شريعة ولا رسالة من قبله. هذا تقرير حجتهم على ما يعطيه السياق ومغزى مرادهم. إن عبادتهم لغير الله وتحريمهم لما حرموه، وبالجملة عامة أعمالهم، لم تتعلق بها مشيئة من الله ينهى، ولو تعلقت لم يعملوها. ثم قال تعالى لنبيه: (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين)، خطاب للنبى يأمره تعالى أن يبلغ رسالته بلاغا مبينا، ولا يعتنى بما لفقوه من الحجة، فإنها داحضة والحجة التامة عليهم بالبلاغ. فالذين من قبلهم قالوا بهذا ولو كان قولهم صحيحا ما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم. وهؤلاء ركبوا سنن الذين من قبلهم وقالوا قولهم، ولقد أرسل الله لهم رسولا ليزيل من عقولهم بصمات سلفهم الضال. فالبلاغ حجة

[صفحه ۳۶۴]

عليهم بأن حركتهم نحو الأصنام والطاغوت حركة ليس لله فيها أى نصيب. لقد كان القول القدر يدور فى إحياء المشركين عند بعثة النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد النبى حمل تركه القول بالقدر طابور النفاق وجميع تيارات الهدم والصد عن سبيل الله. وظهر القول بالقدر فى عصر عمر بن الخطاب عندما دخل أحبار اليهود فى الإسلام، وعندما اتسعت دائرة الفتوحات وتسربت المفاهيم الغير إسلامية إلى ديار المسلمين، ولما جاء عصر الإمام على، واجه الإمام هذه التيارات... روى أن الإمام على عند مسيره إلى صفين قيل له: أخبرنا عن مسيرنا إلى صفين أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما وطأنا موطئا، ولا هبطنا واديا، إلا بقضاء الله وقدره. فقال السائل: فعند الله أحتسب عناى، ما أرى من الأجر شيئا. فقال الإمام: مه أيها الشيخ: لقد عظم الله أجركم فى سيركم وأنتم سائرون، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا فى شئ من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين، فقال الشيخ: وكيف القضاء والقدر ساقنا؟ فقال الإمام: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهى. ولم تأت لائمة من الله لمذنب. ولا محمدة لمحسن. ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسئ. ولا المسئ أولى بالذم من المحسن. تلك مقالة عباد الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور أهل العمى عن الصواب. وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا، وكلف تسييرا، ولم يعصه مقلوبا، ولم يطع كارها. ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. فقال الشيخ: فيما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال الإمام: هو الأمر من الله تعالى والحكم، ثم تلا قوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) [۶] .

وروى أن سائلا قال للإمام على: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر. فقال

[صفحه ۳۶۵]

الإمام: يا سائل. إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ قال: كما شاء فقال الإمام: إن الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء؟ قال: كما يشاء، فقال الإمام: يا سائل. ألك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته. أو دون مشيئته. فإن قلت مع مشيئته، أدعيت الشركة معه، وإن قلت دون مشيئته، استغنيت عن مشيئته وإن قلت فوق مشيئته كل مشيئتك غالبة على مشيئته. ثم قال الإمام: يا سائل. ألست تسأل العافية؟ قال السائل: نعم، فقال الإمام: عن ماذا تسأله العافية؟ أمن بلاء هو ابتلاك به، أو من بلاء غيره ابتلاك به؟ قال الرجل: من بلاء ابتلانى به. فقال الإمام: ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. قال السائل: بلى، فقال الإمام: أتعرف تفسيرها؟ قال: لا يا أمير المؤمنين علمنى مما علمك الله. فقال: تفسيره إن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته. يا سائل، إن الله يسقم ويداوى، منه الداء ومنه الدواء، ثم قال: لو وجدت رجلا من أهل القدر لأخذت بعنقه ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه، فإنهم يهود هذه الأمة [۷] وظلت تيارات القول بالقدر تحفر فى جدار الأمة حتى بعد وفاة الإمام على. روى أن الإمام الحسن بن على بعث برسالة إلى قوم من أهل البصرة ادعوا الجبر فقال: من لم يؤمن بقضاء الله وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه عليه ربه فقد كفر. إن الله لا يطاع استكراها، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه. فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا. فإن لم يفعلوا، فليس هو الذى أجبرهم على ذلك، فلو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط

عنهم الثواب. ولو أجبرهم على المعاصى، لأسقط عنهم العقاب [۸] .

فهذا الكلام صادر من عند سادة أهل البيت، فإذا ذهبوا ذهب العلم الذى إذا ضبط المرء حدوده خصم من خالفه. ومع بروز الدولة الأموية انشغل الأمراء

[صفحه ۳۶۶]

بالقتال على الدنيا، وتفرق المسلمون أثر السياسة التى اتبعتها الدولة، وضعف أمر الدين وتغلبت المطامع والأهواء على عقول المسلمين، وصدت الدولة كل دعوة تدعو المسلمين للاحتفاظ بعقيدتهم الحقة، ووقف العامة والغوغاء حاجزا أمام الدعاة المصلحين الذين دعوا الأمة للتمسك بسيرة السلف الصالح من المهاجرين والأنصار. وكان الرعاع دعاة سوء. وملتقى كل من يريد هدم الإسلام، وحولوا القوة التى حصنها الإسلام لصالحهم الخاص، وجردوا السيف على رقاب الأئمة والقادة والعلماء لأنهم لم يسيروا فى ركابهم. وعندما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية، وجانبوا تعاليم القرآن، اندس بين المسلمين رجال دخلوا فى الإسلام من فرس ونساطرة ويعاقبه ويهود، وتزينوا بزى العلماء وأظهروا المحافظة على تعاليم القرآن. ثم أدخلوا عقائدهم السابقة من القول بالحلول والقدر والجبر فى عقيدة المسلمين، وفسروا آيات كتاب الله حسب ما يؤيد ما يذهبون إليه. ففريق أخذ بظاهر تلك الآيات، وفريق آخر أولها، فنشأت القدرية فى ثوبها الجديد، وبالغ القدرى فى القدر، فجعل العبد خالقا لأفعاله، وبالغ الجبرى فى مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار، وبالغ المعطل فى التنزيه فسلب عن الله صفات الجلال ونعوت الكمال، وبالغ المشبه فى مقابلته، فجعله كواحد من البشر له وجه ويدين [۹] .

وهكذا عصفت رياح الفتن داخل الجماجم البشرية فى الدولة الأموية التى قاتلت أصحاب العلم وجاؤوا بما قاله المشركون عند البعثة النبوية ولكن فى ثوب جديد براق. ولقد اتفق العلماء كافة على أن القول بالقدر شاع فى الدولة الأموية، وأن الدولة احتضنت هذا التيار وتبنته حتى ترعرع على تربتها [۱۰] ، وفكرة القضاء والقدر التى طرحتها أجهزة الصد عن سبيل الله هدفها وضع العالم فى حيرة واضطراب فكرى، ينتج عن ذلك عدم تقديس الشرائع، وعدم التقيد

[صفحه ۳۶۷]

بنواميسها، وإلى ارتكاب المحظورات التى حظرتها الديانات السماوية بحجة أنها بقضاء الله تعالى. واحتضان الدولة الأموية لهذا التيار الهدف منه التعتيم على ما ورد فى شأنهم، وخضوع المسلمين لهم بحجة أن قيادتهم مفروضة عليهم بقضاء الله وقدره، وأن أى تمرد عليهم هو تمرد على قضاء الله وعن أول من قال بالجبر فى ثوبه الجديد يقول الشيخ محمد أبو زهرة: إننا نجزم بأن القول فى الجبر شاع فى أول العصر الأموى وكثر حتى صار مذهبا فى آخره... وقد قالوا إن أول من فعل ذلك بعض اليهود، فقد علموه بعض المسلمين وهؤلاء أخذوا ينشرونه. ويقال إن أول من دعا إلى هذه النحلة من المسلمين " الجعد بن درهم، " وقد تلقاه عن يهودى بالشام، ونشره بين الناس بالبصرة. ثم تلقاه منه " الجهم بن صفوان [" ۱۱] ، ولم يكن الجهم يقول بالجبر يقول بالجبر فقط بل إن جهما كان يدعو إلى آراء أخرى [۱۲] ، تتعلق بالجنة والنار، ورؤية الله يوم القيامة وغير ذلك. وهكذا تشابكت فروع الشجرة الأموية مع فروع شجرة أهل الكتاب. بعد أن التقطوا منهم فكرة الجبر فى ثوبها الجديد، لأنها تتلائم ومبدأهم السياسى. ومن المعلوم أن الشام عاصمة الخلافة الأموية كانت متبعا للديانات والآراء المختلفة. كان الأمويون يتسامحون مع رؤوساء الأديان، ويعقدون مع القياصرة معاهدات الصلح ليتفرغوا للمسلمين فى قتالهم على الملك. وفى أثناء هذه المعاهدات كان الأحبار الجدد يتسللون لتكملة بناء الأحبار الأوائل. وكان الأمويون يقربون الأحبار إليهم. ومن الثابت أيضا أن سرجون النصرانى كاتب معاوية ومن بعده يزيد ثم مروان بن الحكم [۱۳] ، وكاتم أسرار الدولة الأموية كان على رأس الجبرية [۱۴] .

فالدولة الأموية باتفاق جميع علماء الفرق تبنت تيار الجبرية، لأن تحت

[صفحه ۳۶۸]

خيمتهم لا- تظهر عورات بنى أميـة، وعلى منـابرهم يجـد فقهـاؤهم أبوابـا للخروج من كل مأزق. فإذا قيل لهم لماذا قاتلتم عليا ثم قمتم بسبه بعد ذلك؟ أو لماذا قتلتم حجر بن عدى واستلحقتم زياد وقتلتم الحسين؟ أو لماذا اجتحتم المدينة يوم الحرة ثم توجهتم إلى مكة لرميها بالحجارة، أو لماذا استخذتم مال الله دولا وعباد الله خولا ودين الله دخلا وضيعتم الصلاة؟. فإذا قيل لهم هذا أو غيره قالوا: كل هذا بقضاء الله وقدره. وعلى هذا أجمعت الأمة. فمن أبى فالسيف. ولما كانت الدولة الأموية قد أخذت الخطوة الرسمية فى اتجاه سنن الـذين خلو من قبـل، فإن أهل الكتاب قـد أخـذوا خطوة إضافيـة تتفق مع أهـدافهم التى يسارعون من أجل تنفيـذها فى الفساد، فقاموا بتغذية الساحة بتيار مضاد لتيار الجبرية لسبب رئيسى هو وضع المسلمين فى حلقة من الحيرة والاضطراب الفكرى حتى لا يصلوا إلى الحقيقـة التى تغـذى الفطرة. فى التيـار الـذى قـذفوا به هو تيار القدريـة وهـذا التيار يعمل تحت عنوان: إن كل فعل للإنسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى [۱۵] وهذا العنوان يعارض تيار الجبرية

معارضـة تامـة. فبينما تقوم الجبريـة على تحجر الإنسان والوقوف كحجر عثرة أمام سـعيه ونضاله وتـدعو الإنسان للخضوع والاستسـلام لأولياء الأمر، بدعوى أن الله قدر عليهم أزلا. أن يكونوا محكومين للطغاة، وكما قال الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون++

سيان منك التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق++

ويرزق فى غشاوته الجنين [۱۶] .

فإن تيار القدرية يعمل على الخط المقابل، والهدف من وراء ذلك العمل على اشتغال الساحة وفى جميع الحالات فالنتيجة لصالح أهل الكتاب. ويقول الشـيخ أبو زهرة عن أول من تكلم فى القدر ووضع وتد هذا التيار على أرض الواقع: أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا، فأسلم ثم تنصر. وأخذ عنه معيد الجهنى، وغيلان

[صفحه ۳۶۹]

الدمشقى [۱۷] وأخـذ بنى أميـة من هذا التيار كل ما يتفق مع طروحاتهم السياسـية فيما يتعلق بالخلافة والأسـماء والصـفات، ثم تصدوا بعد ذلك لأتباع هذا التيار فقتل منهم من قتل وهرب من هرب. ولكن المذهب لم يمت بل دام بعد ذلك فى البصـرة قرونا طويلة فرخ فيها، بل تحول عند طائفة منهم إلى ما يشبه مذهب الثنوية الذين جعلوا العالم محكوما بقوتين النور والظلمة [۱۸] .

وظلت طائفـة الجبريـة رافعـة لأعلامها التى لا- تطاولهـا أعلام، وظلت تتقـدم لجعل دين؟ الله دخلا ولاتخاذ عباد الله خولا، وكانت فى تقـدمها ترتـدى ثياب الـدين وفى يـدها سـيف فرعون. وفى هـذا الوقت الـذى تزاحمت فيه الأفكار ظهر بالساحة أسـئلة تبحث لها عن إجابات مثل: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضـر مع الإيمان ذنب؟ وكان مصدر هذه التساؤلات تلك الجرائم البشـعة التى ارتكبهـا الخلفاء والأمراء ابتـداء من مقتل الحسـين، ومرورا باجتياح المدينـة، وانتهاءا برمى الكعبـة. فجميع هـذه الجرائم تتم باسـم الـدين، والفطرة السويـة ترفض جميع التبريرات والترقيعات التى تـدافع هذه الأعمال الوحشـية. وأمام هذه الأسـئلة برز تيار " المرجئة" ليباشر عمليات التكميم والتعمية. وبذور المرجئة وضعت فى عهد عبد الملك بن مروان [۱۹] ثم احتضن الوليد بن

عبد الملك هذه البذور تحت إشراف أهل الكتاب، حتى ترعرع شجرها ثم أصبح غابة. وذهب العديد من العلماء إلى أن بذور وضعها الصحابة الذين اعتزلوا أحداث عثمان، ولم يشاركوا فى القتال بين أمير المؤمنين على ومعاوية أمثال: سعيد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو بكرة [۲۰] فهؤلاء الصحابة

يقول النووى فى موقفهم: إن القضايا كانت بين الصـحابة مشـبهة، حتى أن جماعـة منهم تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب [" ۲۱] .

[صفحه ۳۷۰]

وقالوا إن هؤلاء الصحابة الذين اعتزلوا الطائفتين، أرجئوا الحكم فى أى الطائفتين أحق، وفوضوا أمورهم إلى الله تعالى، وعلى هذا تكون هذه الطائفة من الصحابة أول من وضع بذرة الإرجاء. ومن وجهة نظرى فأنا لا أوافق على هذا التصور، لأن من الصحابة من تأول الأحداث بصورة خاطئة ثم ندم بعد ذلك. ومنهم من كان يخاف من سيوف الجلادين، ويعلم أنهم سيجلسون على الكراسى الأولى فى نهاية الأحداث كما أخبر النبى. فآثر الصمت والسكون ومنهم من اكتفى بمراقبة الأحداث من بعيد، خوفا على رأسه من سيف أبى الحسن فى الوقت الذى كان يحشد فيه الناس ليقفوا وراء معاوية. وبالجملة: لم يكن هناك إرجاء، وإنما كانت هناك مصالح. ولا يوجد صحابى اعتزل القتال إلا وهو يعلم أن عليا كان صاحب الحق فى جميع معاركه التى خاضها. ولا يوجد صحابى وضع عليا فى كفة ومعاوية فى كفة ليرى أيهما أرجح. فأين الإرجاء والنبى صلى الله عليه وسلم ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، والأحداث فى عهد الصحابة كان فيها من الله برهان يجذب العقل إليه ويدعوه إلى التمييز؟ والقول بأن الصحابة كانوا يخافون من الوقوع فى الفتن فأرجئوا الحكم فى الأحداث إلى الله تعالى، لا يتعادل من أصناف الفتن، يقول تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) [۲۲] فهل خافوا من الوقوع فى هذه الفتن؟ إن التاريخ لم يسجل ذلك للكثير منهم. فلماذا خافوا هناك ولم يخافوا هنا. ثم كيف يهربون من الفتن وتحت سقفها يختبر الله تعالى عباده، قال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون - ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) [۲۳] .

إن الله تعالى يبتلى ما فى الصدور، ويمحص ما فى القلوب بأحداث تجرى على صفحة الوجود. ومخاصمة الفتن فى القرن الأول لا يستقيم مع حركة هذا الوجود، لأن هناك أحداث لا بد فيها من القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين

[صفحه ۳۷۱]

كله الله، وهناك فتن يقذف بها تيارات الهدم، فلا بد من التصدى لها وكشف أوتاد النفاق فيها [۲۴] والمال والبنون لا يمكن مخاصمتهما وهما من الفتن، إنما

يتم التعامل معهما بميزان الله تعالى. إن المخاصمة لا يستقيم مع حركة الوجود، والذى يستقيم هو التعوذ من مضلات الفتن. وعلى ما سبق لا نوافق بأن توضع بذرة الإرجاء على أرضية اعتزال الصحابة أيام قتال أمير المؤمنين على ومعاوية، لأن التاريخ يشهد بأن هذه البذرة وضعت من أجل احتناك الكثير من عباد الله، ولتتعانق شجرتها مع شجرة الجبرية فى ليل واحد. وبذرة المرجئة أمام الناقد البصير شربت من نفس الماء الذى شرب منه الجبرية، وصبت ثمارها فى سلتهم بصورة أو بأخرى. لقد دخلوا من باب الفلسفة، والفلسفة عندما تكون أجوبتها عقلية أو منطقية، تولد عن الإنسان قناعة فكرية بما سمع. أما إذا جعلت الجمود لها مادة والمتاهات لها ديار، ثم دخلت من باب القضاء والقدر، فهنا تكمن الكارثة. لأن هناك الكثير من بنى الإنسان يؤثر عليهم الكلام فى القضاء والقدر، وينتهى بهم التفكير فى مسائله إلى عدة طرق: إما متشائمين، وإما مستسلمين، أو مضطربين فكرا أو سلوكا. وهذا التفكير يدفع بأصحابه فى أحد طريقين: إما طريق الاستسلام للقدر نتيجة لفهمهم الخاص، وإما أن ينسبوا إلى الله تعالى الظلم أو يكفروا به مطلقا، أو يكفروا به وهم لا يشعرون. وإذا كان بنو أمية وأهل الكتاب هم الذين يشرفون على مطبخ الفلسفة فلا خير يرجى من عندهم. لقد التقط الوليد بن عبد الملك بذرة الإرجاء التى تركها له والده [۲۵] ومن

الذين جهزوا وزودوا تيار الإرجاء يوحنا الدمشقى، الذى كان يتمتع بشهرة كبيرة فى عاصمة الأمويين، وكان يقوم ببحوث دينية فى الوقت الذى كان الناس يتحدثون فيه عن الإرجاء [۲۶] ، ولقد ذكر أكثر من واحد أن هناك صلة بين مبادئ

[صفحه ۳۷۲]

المرجئة، وبين تعاليم الكنيسة الشرقية التى ينتمى إليها يوحنا الدمشقى. [۲۷] هذا عن الأصابع التى وراء تيار المرجئة. أما عن ظروف ظهور التيار يقول د. خليف: إن نزعة الإرجاء اشتدت فى الفترة التى تبدأ من مصرع الحسين، وتمتد إلى خلافة عمر بن عبد العزيز - أى فترة يزيد، ومروان، وعبد الملك والوليد، وسليمان بن عبد الملك - ومن الطبيعى أن تشتد نزعة الإرجاء فى هذه الفترة. لأنها فترة

اضطراب سياسى وقلق نفسى. وأخذ الناس فيها بالشبهة والظنة [۲۸] ومن المعروف أن الأمور فى الكوفة ازدادت سوء وشدة فى أعقاب مصرع الحسين، وانتشرت الثورات فيها بشكل قوى.. وأدركت الدولة الأموية أن الأمر لا بد مفلت من يدها، إن لم تقابل هؤلاء المتمردين بمنتهى القسوة والعنف. فسلطت عليهم أشد ولاتها عتوا وجبروتا، عبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وترتب على هذا أن الكوفة عاشت فى ظلال حكم دكتاتورى رهيب [۲۹] .

وأمام هذا برزت التساؤلات، هل مرتكب الكبيرة مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ إن القوم قتلوا الحسين وكانوا يرفعون أعلاما إسلامية، والقوم فتحوا السجون وأخذ البرئ بذنب المذنب. ولم يعد الإنسان يأمن إذا أصبح أن يمسى، وإذا أمسى أن يصبح... كل هذا يتم باسم الإسلام، فأين الحقيقة؟ هل الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس يعتبروا فى دائرة الأمان؟ كيف والله قال فى كتابه (فبشرهم بعذاب أليم) [۳۰] هل من يقتل مؤمنا متعمدا لا يضره شئ، كيف والله تعالى قال: (فجزاؤه جهنم خالدا فيها) [۳۱] هل الذين يشهدون الزور ويقيمون كل يوم خيمة للهو، وإذا مروا بآية من آيات الله مروا عليها كأنهم صما وعميانا هل هؤلاء لا يضر مع إيمانهم ذنب؟

[صفحه ۳۷۳]

كيف وهؤلاء لا يجزون الفرقة ولا يلقون تحية ولا سلاما. وكانت هناك أسئلة عن قيمة العمل وقيمة حركة الإنسان فى عالم الابتلاء والاختبار. فالله تعالى قرن الإيمان والعمل فى حبل واحد فقال: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) [۳۲] وميز سبحانه بين عمل المؤمن وبين عمل المفسد،

فقال: (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض) [۳۳] ، وقال: (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ) [۳۴] فأين هذا من الذى يجرى فى الساحة؟ فهذه الأسئلة وغيرها كانت

تطرح على أرض الواقع، الذى اعتمد حكامه مذهب الجبرية إماما لهم، وأمام هذه الأسئلة تجرح القاضى وهو فى الوقت نفسه السياف، لإيجاد الدواء المناسب لهذه الأسئلة وغيرها. والضمير الآثم إذا بحث عن الدواء، جاء به من حركة أوزاره الماضية. يقول د. خليف: فى هذا الجو السياسى المضطرب، ظهرت المرجئة.. مذهبا سياسيا مسالما... والدولة الأموية كانت عاملا قويا على استقرار مذهب المرجئة... وسارع الناس إلى اعتناق المذهب الذى وجدوا فيه وسيلة للعيش فى سلام واطمئنان مع الحكومة الدكتاتورية. ووجد الأمويون فى هذا المذهب ضالتهم المنشودة، التى كانوا يتمنون أن يعثروا عليها وسط الاتجاهات والمذاهب المتعددة المعادية لهم [۳۵] ويقول

د. شوقى ضيف عن هذه الاتجاهات: إن أفكار المرجئة تخدم البيت الأموى، الذى كان فى رأى الشيعة وكثير من الأتقياء منحرفا عن الجادة الدينية، وينبغى أن يغيره المسلمون ويضعوا مكانه البيت العلوى. والمرجئة لم يكونوا يوافقونهم على هذا الرأى، لأنهم لا يريدون المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى وغير تقوى، فالمسلم يكفى أن يكون مسلما [" ۳۶] .

[صفحه ۳۷۴]

فالمذهب جاء لينضم إلى بقية المعاول التى عملت من أجل ضياع الحقيقة وتشويه الدين. جاء ليقف بالناس على أرضية واحدة. ولأن الناس ينظرون إلى أعمال بنى أمية نظرات ارتياب وشكوك. قام المذهب بذبح الأعمال التى تميز هذا عن ذاك. وليس معنى هذا أن بنى أمية وأصحاب المقاعد الأولى قد تساوت رؤوسهم مع بقية الناس، لأن مذهب الجبرية فصل بين الناس وجعلهم يستسلمون لبنى أمية وأصحاب مقاعدهم. يقول د. خليف: ومسألة الإيمان مسألة تتصل اتصالا وثيقا بمبادئ المرجئة السياسية، فقالت طائفة: إن الإيمان مصدره القلب، فيكفى إن يكون الإنسان مؤمنا فى قلبه، وليس الاقرار باللسان ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوهما جزء من الإيمان. وقالت طائفة أخرى: الإيمان ركنان: تصديق بالقلب، وإقرار باللسان. لا بد منهما معا ليكون المرء مؤمنا كامل الإيمان صحيح العقيدة. ومعنى هذا أن المرجئة جميعا يتفقون على أن العمل ليس ركنا من أركان الإيمان [۳۷] ويقول الشيخ أبو زهرة عن عقائدهم: قرروا أنه

لا يضر

مع الإيمان ذنب فقالوا: إن الإيمان إقرار وتصديق واعتقاد ومعرفة، ولا يضر مع هذه الحقائق معصية. فالإيمان منفصل عن العمل، بل منهم زعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان، أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب. وأعلن التثليث فى دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ومن أهل الجنة! بل إن بعضهم زعم أن لو قال قائل: اعلم أن الله قد حرم أكل الخنزير، ولا أدرى هل الخنزير الذى حرمه هو هذه الشاة أم غيرها كان مؤمنا. ولو قال: أعلم أنه قد فرض الحج إلى الكعبة. غير أنى لا أدرى أين الكعبة ولعلها بالهند كان مؤمنا.. ويظهر من هذا أنهم تجاوزوا الحد فى الاستهانة بالعمل، من حيث اتصاله بأصل الإيمان. ومن حيث أثره فى دخول الجنة إن كان صالحا، ودخول النار إن كان غير صالح. بل كان إثما منفيا. فاستهانوا أيضا بأصل الإيمان فحرفوا حقيقة، وجعلوه مجرد

[صفحه ۳۷۵]

الاذعان القلبى وإن خالفته الجوارح.... وفى وسط تلك الأقوال غير السليمة وجد من المتعقبين لهذا المذهب من يستهين بحقائق الإيمان وأعمال الطاعات. ومن يستهين بالفضائل، واتخذه مذهبا له كل مفسد مستهتر. حتى لقد ذكر فيه المفسدون واتخذوه ذريعة لمآثمهم ومنهلا لمفاسدهم، ومسايرا لنياتهم الخبيثة، وصادف هوى أكثر المفسدين [۳۸] .

وهكذا تعانقت الأشجار على سنن الأولين، وهكذا فرضت الدولة المذهب الذى تراه يستقيم مع مبادئها على طريق فرعون. لقد أعطت المرجئة للطغاة ثياب المؤمنين، وأعطت الجبرية لهم سيفا قاطعا. ويا له من عالم لم يمت فيه فرعون وهامان، عالم تخصص فى الاحتيال على الناس بالعنف أو بالحسنى لتحتفظ فيه الجبارين بالكراسى، ويا له من فقه بالخديعة يستلب الأرواح. وكأن صوت فرعون قد جاء من بعيد ويقول: كل هذا يلائم سياستنا المرسومة، هذا هو منطق التجربة الذى يتصرف بوحيه كل من سار على طريقى. فأنا أضع الخطة وأنتم تقومون بالتنفيذ. أنا أنصب الشرك وأنتم تحطمون الفروع الزائدة على الحاجة حتى يتم اقتناص الطائر.. وهكذا فإن على القائد الطموح إن أراد أن يحافظ على مركزه أن يتصرف كصائد مع شعبه. وكما حذر النبى صلى الله عليه وآله وسلم من بنى أمية، ووضع الوليد فى كفة الفراعنة. فإن صلى الله عليه وسلم ذم القدرية والمرجئة من قبل أن يعرف الناس عنهما شيئا. وذلك وهو يقيم الحجة على القرون من بعده بصفة عامة وعلى القرن الأول بصفة خاصة. فقال ": صنفان من أمتى ليس لهم من الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية [" ۳۹] وقال ": اتقوا القدر فإنه شعبة من

النصرانية [" ۴۰] ولقد رأينا بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب.. وقال

[صفحه ۳۷۶]

رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ينعق الشيطان بالشام نعقه يكذب ثلثاهم بالقدر [" ۴۱] وقال صلى الله عليه وسلم ": صنفان من أمتى لعنهم الله على

لسان سبعين نبيا، القدرية والمرجئة الذين يقولون الإيمان إقرار ليس فيه عمل [" ۴۲] وقال النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام ": الإيمان

بالقلب واللسان والهجرة بالنفس والمال [" ۴۳] وقال ": ليس الإيمان بالتمنى ولا

بالتحلى، ولكن: هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل [" ۴۴] وقال ": الإيمان

والعمل أخوان شريكان فى قرن لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه [" ۴۵] وقال " لا

يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين [" ۴۶] وقال:

"لا يقبل إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان [" ۴۷] وقال ": لا يستقيم إيمان عبد

حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة حتى يؤمن جاره بوائقه [" ۴۸] .

وهكذا أقام النبى صلى الله عليه وسلم الحجة، وفيها ظهرت بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب، وتم تعرية الذين ذبحوا العمل على طريق الاحتناك. وهذه المذاهب التى صنعت من أجل حماية الطغاة ما جاءت إلا من طريق الذين لعنهم الله، وعلى رأسهم الشيطان قال تعالى بعد أن رفض الشيطان السجود لآدم (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) [۴۹] ، وقال عن فرعون وقومه أصحاب طروحات الاستكبار والجهل (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) [۵۰] ، وقال

[صفحه ۳۷۷]

عن الظالمين من أهل الكتاب الذى يسعون فى الأرض فسادا (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) [۵۱] وقال عن المنافقين: (إن الذين يؤذون الله ورسوله

لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) [۵۲] ، إنه طريق واحد لأنماط متعددة (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) [۵۳] .

من علامات طريق اللعن القردية والخنزيرية، قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير...) [۵۴] والقردية هى التقليد للشئ دون

الوقوف على بدايته ونهايته ووسائله وأهدافه، والخنزيرية هى البحث عن المادة والتهامها من بين القاذورات، وعدم العفة، وعدم الطهارة، وبلادة الحس، وعدم التبصر فى الأمور للوقوف على حقيقة الأمور. والظالمين من أهل الكتاب لهم علامات على طريق اللعن فعندما نهاهم الله أن يعتدوا فى السبت، لم يلتزموا بما أمر الله به. فجاءهم العقاب قال تعالى: (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) [۵۵] ، وكما اعتدت اليهود فى السبت اعتدى بنى أمية أيضا فى السبت.. روى أن الحسين قال قبل كربلاء " لو كنت فى جحر لأخرجونى واعتدوا على كما اعتدت اليهود يوم السبت [" ۵۶] وعلى هذا فطريق القردية طريق

مفتوح. ولقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يمسخ قوم من أمتى آخر الزمان قردة وخنازير. قالوا: يا رسول الله ويشهدون أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: نعم [۵۷] .

وطريق اللعن فى نهايته يجلس المسيح الدجال ليستقبل القردة والخنازير،

[صفحه ۳۷۸]

وأصحاب القدر الذين ساروا على نهج بنى أمية. هم بلا شك فى مقدمة الطابور إلى الدجال، قال النبى صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء ": فإذا لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، وإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوا جنائزهم، فإنهم شيعة الدجال [" ۵۸]

وكشف النبى صلى الله عليه وسلم خطوات هؤلاء

وما سيترتب على هذه الخطوات داخل الأمة، وكيف ستنتهى الحلقات جميعا إلى الدجال فى حديث رواه البغوى قال: وقال النبى صلى الله عليه وسلم: يكون قوم من أمتى يكفرون بالقرآن وهم لا يشعرون، كما كفرت اليهود والنصارى. يقرون ببعض القدر ويكفرون ببعضه. يقولون: الخير من الله والشر من إبليس، فيقرؤن على ذلك كتاب الله، ويكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة. فما تلقى أمتى منهم إلا العداوة والبغضاء والجدل. أولئك زنادقة هذه الأمة، فى زمانهم يكون ظلم السلطان، فيا له من ظلم وحيف وآثره. ثم يبعث الله طاعونا فيفنى عامتهم، ثم يكون الخسف، فما أقل من ينجوا منهم. المؤمن يومئذ قليل فرحه شديد غمه، ثم يكون المسخ، فيمسخ الله هؤلاء قردة وخنازير، ثم يخرج المسيح الدجال على إثر ذلك قريبا. ثم بكى رسول الله، حتى بكينا لبكائه وقلنا: ما يبكيك؟ قال: رحمة لأولئك القوم، لأن فيهم المقتصد وفيهم المجتهد [" ۵۹] .

إن الدجال لن يستقبل قردة وخنازير، وإنما يستقبل أنماطا بشرية فيها من القردية والخنزيرية الكثير. وهؤلاء إنتاج لحلقات كثيرة [۶۰] على رأسها أصحاب

القدر الذين جلسوا على موائد أهل الكتاب، فأملوا عليهم من سننهم الكثير. وعلى هذه التصورات قرأوا كتاب الله، فى عالم العداوة والبغضاء والجدل وظلم السلطان. إنه طريق اللعن والجدل العقيم والبصيرة المطموسة. وفى نهاية هذا الطريق يجلس فى ليل احتجبت

نجومه وتوارى قمره. فاحتضن ظلامه

[صفحه ۳۷۹]

الذين تشابهت قلوبهم على امتداد التاريخ الإنسانى. فالدجال فتنة فى سلتها تقع جميع الفتن وذيولها منذ كانت الدنيا.

[۱] دول الإسلام:الذهب ۲۰۸:۱.

[۲] ابن كثير (البداية والنهاية ۱۶۱:۹).

[۳] سورة الأنعام: الآية ۱۴۸.

[۴] تاريخ المذاهب الإسلامية:محمد أبو زهرة ۹۹.

[۵] سورة النحل: الآية ۳۵ – ۳۶.

[۶] الصواعق:ابن حجر ص ۱۳۰.

[۷] تاريخ الفرق الإسلامية:محمد خليل الزين ص ۷۳.

[۸] تاريخ الفرق الإسلامية:محمد خليل الزين ۷۰.

[۹] المصدر السابق ۴۲.

[۱۰] راجع: تاريخ المذاهب الإسلامية:محمد أبو زهرة ص ۱۰۴ – ۱۱۱، وتاريخ الفرق الإسلامية:خليل الزين ص ۶۶.

[۱۱] تاريخ المذاهب الإسلامية ص ۱۰۲، تاريخ الفرق الإسلامية:محمد خليل ص ۶۸.

[۱۲] تاريخ المذاهب الإسلامية ۱۰۶.

[۱۳] التنبيه والإشراف:المسعودى ۲۸۵:۱.

[۱۴] تاريخ الفرق الإسلامية:الزين ص ۶۹.

[۱۵] تاريخ المذاهب الإسلامية ص ۱۱۱، تاريخ الفرق الإسلامية ص ۷۹.

[۱۶] تاريخ الفرق الإسلامية:الزين ص ۸۱.

[۱۷] تاريخ المذاهب الإسلامية ص ۱۱۲، تاريخ الفرق الإسلامية ص ۴۰.

[۱۸] تاريخ المذاهب الإسلامية ص ۱۱۷.

[۱۹] رسائل ابن حزم ص ۱۶۳.

[۲۰] تاريخ المذاهب الإسلامية ص ۱۲۰.

[۲۱] تاريخ المذاهب الإسلامية ص ۱۲۰.

[۲۲] سورة التغابن: الآية ۱۵.

[۲۳] سورة العنكبوت: الآية ۲ – ۳.

[۲۴] روى عن على أنه قال ": لا تكرهوا الفتنة فى آخر الزمان فإنها تبير المنافقين " رواه أبو نعيم كنز العمال ۱۸۹:۱۱.

[۲۵] رسائل ابن حزم ص ۱۶۳.

[۲۶] حياة الشعر فى الكوفة:د. يوسف خليف ص ۳۱۲.

[۲۷] المصدر السابق ص ۳۱۲.

[۲۸] المصدر السابق ۳۱۳.

[۲۹] المصدر السابق ۳۱۴.

[۳۰] سورة آل عمران: الآية ۲۱.

[۳۱] سورة النساء: الآیة ۹۳.

[۳۲] سورة الحج: الآیة ۱۴.

[۳۳] سورة ص: الآیة ۲۸.

[۳۴] سورة غافر: الآیة ۵۸.

[۳۵] المصدر السابق ۳۰۹.

[۳۶] التطور والتجدید فی الشعر الأموی ص ۵۰.

[۳۷] تاریخ الشعر فی الکوفة ۳۱۰.

[۳۸] تاریخ المذاهب الإسلامیة ص ۱۲۲.

[۳۹] رواه البخاری فی التاریخ والنسائی وابن ماجة والخطیب والطبرانی (کنز العمال ۱۱۸:۱).

[۴۰] رواه ابن أبی عاصم والطبرانی وابن عدی (کنز العمال ۱۱۹:۱).

[۴۱] رواه البیهقی وابن عساکر (کنز العمال ۱۴۰:۱).

[۴۲] رواه الدیلمی عن حذیفة، والحاکم عن أبی أمامة (کنز ۱۳۵:۴).

[۴۳] رواه عبد الخالق بن زاهر فی الأربعین (کنز ۲۴:۱).

[۴۴] ابن النجار (کنز ۲۵:۱).

[۴۵] ابن شاهین (کنز ۳۶:۱).

[۴۶] رواه أحمد والبیهقی والنسائی وابن ماجة (کنز ۳۷:۱).

[۴۷] رواه الطبرانی (کنز العمال ۶۸:۱).

[۴۸] رواه الإمام أحمد (الزوائد ۵۳:۱).

[۴۹] سورة ص: الآیة ۷۸.

[۵۰] سورة القصص: الآیة ۴۲.

[۵۱] سورة المائدة: الآیة ۱۴.

[۵۲] سورة الأحزاب: الآیة ۵۷.

[۵۳] سورة النساء: الآیة ۵۲.

[۵۴] سورة المائدة: الآیة ۶۰.

[۵۵] سورة الأعراف: الآیة ۱۶۶.

[۵۶] الطبری ۲۱۷:۶، البدایة والنهایة ۱۶۹:۸.

[۵۷] رواه نعیم ابن حماد (کنز العمال ۲۸۰:۱۴).

[۵۸] رواه الحاکم (کنز العمال ۱۳۸:۱).

[۵۹] رواه الطبرانی والبغوی کنز العمال حدیث ۳۸۸۲۸.

[۶۰] راجع شرح الحدیث فی کتابنا عقیدة المسیح الدجال، ط دار الهادی بیروت.

نظرات علی الأطلال

صدود وردود

لم يقف تيار الحق موقف الذليل على امتداد هذه الأحداث، فالاضطهاد لم

يقل عزيمة الذين يسيرون على طريق على بن أبى طالب، فكانوا يصرخون فى وجه الباطل ويضحون بالغالى والنفيس فى سبيل المحافظة على الإسلام والوقوف فى وجه أعداء الحق. وكانت ثورة الحسين وحجته قد علمت الناس التضحية، وعلم الناس أن بنى أمية يعاملون الذين يجهرون بمخالفتهم إما بالسيف، وإما على أنهم من المؤلفة قلوبهم، وعن طريق المال تتلاشى مقاومة خصومهم. ورفض اتباع الحق أن يقفوا داخل مربع المؤلفة قلوبهم لحساب بنى أمية، وجاءت الأيام بثورة زيد بن على بن الحسين عام ۱۲۲ ه، ذكر ابن الأثير: إن ثورة زيد بن على جاءت فى وقت بدت البغضاء للأمويين بنفوس الشعب [۱] .

ودعا زيد إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وجهاد الظالمين، وإعطاء المحرومين، وقسم الفئ بين أهل بالسوية، ورد المظالم. ووطد زيد ثورته ببث الدعاة والرسل، وضاعف اتصاله بزعماء البلاد والعلماء وزعماء العشائر وحملة القرآن والحديث، ومن كان له أثر فعال فى توجيه الرأى العام. ولم يقف الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بن مروان من هذه الثورة موقفا يختلف عن موقف آبائه وهم يدافعون عن دنياهم، فبعث جيشا جرارا لقتال زيد بن على يقول المسعودى: فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد... وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخنا بالجراح وقد أصابه سهم فى جبهته. فأتى بحجام من بعض القرى فأخرج النصل، ومات زيد، فدفنوه فى ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجرى الماء على ذلك. وذهب الحجام

[صفحه ۳۸۰]

فأخبر يوسف بن عمر الثقفى قائد جيش هشام بن عبد الملك، ودله على قبره، فاستخرجه يوسف وبعث برأسه إلى هشام. فكتب إليه هشام: أن اصلبه عريانا. - صلبه يوسف كذلك [۲] وظل مصلوبا حتى أيام الوليد بن يزيد الذى أمر بإنزاله

وحرق جثته ويقال إن زيدا مكث مصلوبا أربع سنين [۳] .

وعندما مضى عهد هشام بن عبد الملك وجاء من بعده عهد الوليد بن يزيد، الذى يقول فيه الذهبى: اشتهر الوليد بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك [۴] وقال فيه أيضا: كان الوليد فاسقا مهتكا [۵] ، فعندما جاء عهد هذا

الخليفة، قام يحيى بن زيد بن على بن الحسين بثورته. ولكن الخليفة الفاسق تصدى لها بعامته وغوغائه، وبعث جيشا جرارا فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، حتى قتل أصحاب يحيى كلهم، وقتل يحيى واحتزت رأسه، وصلب بالجوزجان من بلاد خرسان، وبعثت رأسه إلى نصر بن سيار، فبعث به نصر إلى الوليد بن يزيد [۶] ويقول المسعودى كان ظهور يحيى فى آخر سنة ۱۲۵ ه وقيل فى أول

سنة ۱۲۶ ه [۷] .

ويقول المسعودى عن الخليفة الأموى الوليد بن يزيد الذى ثار عليه يحيى بن زيد: كان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنيين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهى والعزف، وفى أيامه غلبت شهوة الغناء على الخاص والعام، واتخذ القيان وكان متهتكا ماجنا خليعا [۸] وذكر أن الوليد ألحد فى شعر له ذكر فيه

النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وإن الوحى لم يأته عن ربه. كذب أخزاه الله

[صفحه ۳۸۱]

ومن ذلك الشعر:

تلعب بالخلافة هاشمى++

بلا وحى أتاه ولا كتاب

فقل لله يمنعنى طعامى++

وقل لله يمنعنى شرابى

وقال ابن كثير: فى خلافة هشام أمر الوليد بن يزيد على الحج سنة ۱۱۶ ه، فأخذ معه كلاب الصيد خفية ولكن أمرها قد انكشف

واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة، وعزم أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك، واستصحب معه الخمور وآلات الملاهى وغير ذلك من المنكرات. فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه من الجلوس فوق ظهر الكعبة. خوفا من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك [۹] وقال ابن كثير:

وبعد موت هشام قصد الوليد دمشق، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق وجاءته الوفود، وكتب إليه نائب أرمنية يبارك له فى خلافة الله له على عباده والتمكين فى بلاده [۱۰] .

وقال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش مصرا عليها، منتهكا محارم الله عز وجل لا يتحاشى من معصية، وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين فالله أعلم. لكن الذى يظهر أنه كان عاصيا شاعرا ماجنا متعاطيا للمعاصى. لا يتحاشاها من أحد، ولا يستحى من أحد، قبل أن يلى الخلافة وبعد أن ولى [۱۱] ، وذكر ابن كثير أن الوليد كان يحب نصرانية، وكان يذهب متنكرا إلى بستان قريب من الكنيسة للقائها. وفى لقاء من اللقاءات قال الوليد شعرا منه:

أضحك فؤادك يا وليد عميدا++

صبا قديما للحسان صيودا

فى حب واضحة العوارض طفلة++

رزت لنا نحو الكنيسة عيدا

ما زلت أرمقها بعينى دامعة++

حتى بصرت بها تقبل عودا

[صفحه ۳۸۲]

عود الصليب فويح نفسى من رأى++

منكم صليبا مثله معبودا

فسألت ربى أن أكون مكانه++

وأكون فى لهيب الجحيم وقودا [۱۲] .

وقال ابن كثير: قال القاضى أبو الفرج: أخبار الوليد كثيرة، قد جمعها الإخباريون مجموعة ومفردة، وقد جمعت شيئا من سيرته وأخباره، ومن شعره الذى ضمنه ما فجر به من جرأته وسفاهته وحمقه وهزله ومجونه وسخافة دينه، وما صرح به من الالحاد فى القرآن العزيز، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه [۱۳] .

هذا هو الخليفة الذى يصدر القوانين، وقيل: الذى يقوم بأمر الدين، وقيل: صاحب الجماعة التى إذا خرج منها واحد مات ميتة جاهلية. فمن الذى يجرؤ أن يقيم الحد على الوليد أعلى سلطة فى الدولة؟ إن الوليد ما كان يرتعد إلا من صوت الحق. كانت دقات قلبه تقشعر من رعدة الخوف، لهذا كان يبعث بمن يأتيه بخبر أى تحرك. وما أن يخبروه، حتى يصدر أوامره للجلادين وقطاع الطرق والرقاب، وعلى الأعواد تصلب الأجساد، وبعد ذلك يخرج الوليد إلى مستنقع الرجل الذى لا يقام للقتل وإنما للهو الذى خرج من معطف المرجئة الذين فصلوا الإيمان عن العمل. وأفعال الوليد وأقواله لم تأت فجأة ولم تذهب سدى، فكما أن الوليد استلم مشاعلها فكذلك قام بتسليم مشاعلها وعلى امتداد هذا الطريق صلب أكثر من واحد من الذين عارضوا هذا العبث. وعن مشاعل الوليد يقول د. خليف: إننا أمام ظاهره اجتماعية شديدة الخطر لمن يسبق للمجتمع الإسلامى أن شهد مثلها، فلأول مرة فى تاريخ هذا المجتمع، نجد أنفسنا أمام خليفة ماجن متهتك خليع، نسى أنه أميرا للمؤمنين وأنه أمام المسلمين. فاندفع فى حياة لاهية مستهترة حتى أطلق عليه " الخليع " والناس على دين ملوكهم. وفعلا اندفع كثير من الناس يقلدون خليفتهم. دون أن يجدوا فى ذلك حرجا عليهم، أو يخشوا تنفيذ الحدود فيهم.. فإن الخليفة الوليد بن يزيد. لم يجد أحدا ينفذ فيه الحد،

[صفحه ۳۸۳]

لأنه هو نفسه صاحب الحق الشرعی فی تنفیذ الحدود، ولم یکن من المعقول أن ینفذ الحد فی نفسه، ولم یکن من المعقول أیضا أن ینفذه فیه غیره [۱۴] .

إن الناس لم یشعروا بالخجل بفضل عقیدهٔ المرجئهٔ، والولید لم یشعر بالخجل بفضل عقیدهٔ الجبریهٔ. وفی موجهٔ الغناء والشعر والمجون استجاب کثیر من الشباب إلی النداء، ومضوا یغرقون همومهم فی هذه الحیاهٔ الصاخبهٔ المعربدهٔ، یقول د. خلیف: وکثرت جماعات المجون، ودوت معزوفات ضخمهٔ اشترک فیها مجموعات هائلهٔ من العزاف. وعلی الجسر الذی یصل الشاطئین الأموی والعباسی أخذت جماعات من المجان والخلعاء تمر فوقه لتستقبل علی الشاطئ الآخر الرذیلهٔ. وقد تجردت من ثیابها جمیعا. وبسطت ذراعیها إلی أقصاها، لتضم إلی أحضانها هؤلاء الوافدین من طلابها، وتبلغ الغاویهٔ مداها، ویتساقط الشباب تساقط الفراش المتهافت علی النار. وکلما اشتدت ظلمهٔ الهاویهٔ، زاد عدد المتخبطین فیها، وفی أعماقها السحیقهٔ، مضت جماعات من الشعراء تضرب علی غیر هدی. وقد ألف اللهو بینهم، وربط المجون بین أسبابهم. کلهم فاسق، وکلهم خلیع، وکلهم سکیر. وهذه المدرسهٔ اللاهیهٔ، هی التی أرست قواعد غزل النساء، وغزل الغلمان. فالغزل فی هذه المدرسهٔ لم یکن حدیث العاطفهٔ، وإنما کان حدیث الغریزهٔ، ولم یکن نجوی الروح. وإنما کان نداء الجسد. وعلی بناء هذه المدرسهٔ کثرهٔ طائفهٔ الجواری والمغنیات فی المجتمع الإسلامی، وعلی أکتاف هذه المدرسهٔ انتشرت الزندقهٔ ودقت أوتادها، وراج شعر الأدیرهٔ [۱۵] وکان الولید بن عقبهٔ، وصاحبهٔ أو زبید النصرانی أول من

حفر الحفرهٔ لهذه البذرهٔ فی عهد عثمان بن عفان. فمع شعر الأدیرهٔ، ومع الجواری، سبحت الدولهٔ الأمویهٔ فی آخر أیامها، ثم قامت بتسلیم هذه الآفهٔ الاجتماعیهٔ إلی الدولهٔ العباسیهٔ، حیث کثر الرقیق فی هذه الدولهٔ. وکانن الجواری والغلمان والإیماء فیها من أجناس وثقافات ودیانات

[صفحه ۳۸۴]

وحضارات مختلفهٔ. فأثر هذا فی الحکام وأبنائهم. وکثر الجواری فی القصور وکان بینهن من یعلقن الصلبان [۱۶] .

وکانت هذه الحلقهٔ عضوا مهما فی اتباع سنن الأولین، وعلی امتداد المسیرهٔ التاریخیهٔ، ولم یقف خط علی بن أبی طالب من هذه الظاهرهٔ وغیرها موقف الصامت. فمع بدایهٔ الدولهٔ کان بنو العباس، وبنو علی کشئ واحد، وتکاتفوا سویا من أجل تقدیم الصورهٔ الأفضل لحرکهٔ المسلمین علی طریق الإسلام. وعندما جاء عهد أبی جعفر المنصور آخر عام ۱۳۶ ه وتغیر الحال. فلقد أحاط المنصور نفسه بهالهٔ کبیرهٔ من القداسهٔ، کان لها أسوأ الأثر فی خنوع الناس، وخضوعهم للظلم والفساد. وفی ظل حکمه الاستبدادی لم یحسب أی حساب للرعیهٔ. یقول الحافظ السیوطی: قتل المنصور خلقا کثیرا حتی استقام ملکه، وهو الذی ضرب أبا حنیفهٔ علی القضاء، ثم سجنه فمات بعد أیام، وقیل إنه قتله بالسم لکونه أفتی بالخروج علیه [۱۷] وإنه أول من أوقع الفتنهٔ بین

العباسیین والعلویین وکانوا قبل شیئا واحدا [۱۸] وقتل المنصور جماعهٔ کثیرهٔ من

آل البیت، فإن لله وإنا إلیه راجعون [۱۹] وکان یقول: لقد هجمت بالعقوبهٔ حتی

کأنک لم تسمع بالعفو، لأن بنی مروان لم تبل رمحهم. وآل أبی طالب لم تغمد سیوفهم، ونحن من قوم رأونا أمس سوقه والیوم خلفاء. فلیس تتمهد هیبتنا فی صدروهم إلا بنسیان العفو واستعمال العقوبهٔ [۲۰] وفی عهد المنصور خرجت العدید من الرایات العلویهٔ تطالب بأن تکون حرکهٔ المسلمین فی عالم الاختبار حرکهٔ إسلامیهٔ لیفوزوا بسعادهٔ الدنیا والآخرهٔ. وکان من هؤلاء محمد بن عبد الله بن الحسن (عام ۱۴۵ ه)، وکان یدعی بالنفس

[صفحه ۳۸۵]

الزکیهٔ لزهده ونسکه، وبویع له فی کثیر من الأمصار. وتصدت جیوش الدولهٔ لحرکهٔ محمد بن عبد الله، وانتهی الأمر بقتله لینضم إلی الشهداء الذین سبقوه وروی أن أبا جعفر المنصور جمع قادهٔ حرسه وجیوشه وقال لهم: والله ما رأیت رجلا أنصح من الحجاج بن

يوسف لبنى مروان، فقال له المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض [۲۱] خلقا أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلست [۲۲] .

وهكذا عاد الحجاج من جديد، ولكن فى عالم يغلب عليه حياة الجوارى تلك الحياة التى خرجت بذرتها من غابة بنى أمية ليستظل تحتها القادم الجديد. وسارت أحوال خط على بن أبى طالب فى النظام العباسى بين أذى الدولة المكشوف، وبين أذى الطرق الخفية المضمونة النتائج والتى تتدثر فى رداء من الطيبة الظاهرة. حتى جاء عهد المتوكل فأمر بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور. يقول السيوطى: وكان المتوكل معروفا بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك، وهجاه الشعراء، فمما قيل فى ذلك:

بالله إن كانت أمية قد أتت++

قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله++

هذا لعمرى قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا++

فى قتله فتتبعوه رميما [۲۳] .

وقال السيوطى: قتل المتوكل يعقوب بن السكيت، الإمام فى العربية، فإنه ندبه إلى تعليم أولاده، فنظر المتوكل يوما إلى ولديه. المعتز والمؤيد وقال لابن السكيت: من أحب إليك هما أو الحسن والحسين. فقال: قنبر مولى على بن أبى طالب خيرا منهما. وعندئذ أمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه حتى مات،

[صفحه ۳۸۶]

وقيل: أمر بسل لسانه فمات [۲۴] .

وهكذا جمع بنى العباس فى منتصف رحلتهم الهلع المروع إلى الخوف المرتجف وألقوه على خط الإمام على بن أبى طالب. وعلى الرغم من ذلك ظل هذا الخط يعمل على امتداد الثلاثة قرون الأولى يقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم ": سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أى الناس خير؟ قال: قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ["... ۲۵] ، وفى رواية عدد أربعة قرون [۲۶] وقال النووى: قال الحسن وغيره القرن عشر سنين، وقال قتادة:

سبعون، وقال النخعى أربعون، وقال زرارة: مائة وعشرون، وقال عبد الملك: مائة [۲۷] .

والخيرية هنا لا تقاس بالفتوحات أو بالهجوم على المدينة أو مكة من أجل الملك، وإنما الخيرية عمودها الفقرى هو دعوة الناس إلى الخير والعمل على إصلاح ما أفسدوه. والخيرية هى التى تعمل من أجل بناء الإنسان العابد الصالح أولا. لأن شرط التمكين فى الأرض أن يكون العابد صالحين. قال تعالى: (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون - إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) [۲۸] ، وشرط نزول البركات أن يكون الناس مؤمنين قال تعالى: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) [۲۹] فالخيرية تسوق الناس إلى الله وتذكرهم بما نسوه، كى يرفع الله

عنهم العذاب الذى تعددت أشكاله وألوانه، لأن من السنن الإلهية أن الذين نسوا ما ذكروا به، كان حقا على الله أن يفتح عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما

[صفحه ۳۸۷]

أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون - فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) [۳۰] .

والخيرية لها أعلام ومشاعل روى الترمذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": يكون بعدى اثنا عشر أميرا كلهم من قريش [" ۳۱]

وروى الطبرانى:

"لا يزال هذا الأمر ظاهرا على من ناوأه لا يضره مخالف ولا مفارق حتى يمضى اثنا عشر خليفة من قريش [" ۳۲] ، وروى ابن عساكر ": لا يزال أمر أمتى صالحا حتى يمضى منهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش [" ۳۳] .

وروى نعيم بن حماد ": يكون بعدى من الخلفاء عدة نقباء موسى [" ۳۴] .

والطريق إلى نقباء بنى إسرائيل لا بد وأن يأخذ فى حسابه منزلة هارون من موسى، ودائرة الخيرية لا يضرها من خذلها أو من عاداها أو من ناوأها. روى البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون. وهم أهل العلم [۳۵] ولقد علمنا من هم أهل العلم الذين قاتلوا، ولم يقاتل أحد من أهل العلم من أجل إقامة الدين، أو على تأويل القرآن إلا خط على بن أبى طالب. وروى مسلم ": لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى من الله أمر الله وهم كذلك [" ۳۶] وفى رواية ": لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا

يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على

[صفحه ۳۸۸]

الناس [" ۳۷] وفى رواية عند الإمام أحمد والحاكم وأبو داوود بزيادة " حتى يأتى

أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى بن مريم [" ۳۸] وكثير من الشراح ذكر أن

أمر الله هنا هو المهدى المنتظر الذى ينزل عيسى بن مريم فى زمانه. ومن المحفوظ أن المهدى من أبناء على بن أبى طالب وفاطمة ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا كان المهدى خاتمة فلا بد من البحث عن المقدمة لنعرف من هم أصحاب هذه الطائفة. إن دائرة الخيرية دائرة أصيلة فى الوجود، لم يكسرها ظلم بنى أمية وبنى العباس. ولا تعرف الدائرة بالكثرة، لأن الحق حق وإن قل أتباعه، والباطل باطل وإن كثر أتباعه. ولا يمكن لباحث أن يهمل الكثرة من هذه الأمة، وأن يحسبها ضمن مربع الحكام. فالتاريخ يشهد بأن الحكام كانوا فى واد والجماهير فى واد آخر. إن السواد الأعظم من الجماهير لم يلتف حول الحكام، وإنما انطلقوا فى ربوع الأرض ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة التى تحتضنها فطرة الباحثين عن الحقيقة. لقد التفت الجماهير حول الزهاد الأوائل الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئا، وبنوا لهم الأضرحة بينما لم يلتفوا حول الطغاة ولم يسألوا عنهم أين دفنوا. وبصرف النظر عن شرعية بنا الأضرحة إلا أن هذا العمل كان تعبيرا مقصودا أو غير مقصود للنفسية الإسلامية المحتقنة من دائرة الحكام الذين فرضوا أنفسهم فرضا على الجماهير وساقوهم إلى عالم الجبرية والطاغوت. إن الجماهير الإسلامية قامت بنشر الدعوة، وأقامت حضارة فطرية غير حضارة الملوك، وهذه الحضارة هى الباقية ولن تعلوا عليها حضارة حتى يأتى أمر الله.

[۱] راجع ابن الأثير ۹۲:۵، البداية والنهاية ۳۳۰:۹.

[۲] مروج الذهب ۲۵۱:۳، البداية والنهاية ۳۳۱:۹.

[۳] البداية والنهاية ۳۳۱:۹، مقاتل الطالبين ص ۱۳۹:۱.

[۴] تاريخ الخلفاء ۲۳۳.

[۵] دول الإسلام:الذهبى ۷۵:۱.

[۶] مقاتل الطالبين ۱۵۰:۱.

[۷] مروج الذهب ۲۵۹:۳.

[۸] مروج الذهب ۲۶۳:۳.

[۹] البداية والنهاية ۲:۱۰.

[۱۰] البداية والنهاية ۴:۱۰.

[۱۱] البدایة والنهایة ۶:۱۰.

[۱۲] البدایة والنهایة ۷:۱۰.

[۱۳] البدایة والنهایة ۷:۱۰.

[۱۴] حیاة الشعر فی الکوفة ص ۲۰۵.

[۱۵] المصدر السابق ۶۳۳، ۶۳۴.

[۱۶] العصر العباسی الأول:د. شوقی ضیف ص ۲۱.

[۱۷] تاریخ الخلفاء ۲۴۱.

[۱۸] تاریخ الخلفاء ۲۴۳.

[۱۹] تاریخ الخلفاء ۲۴۳.

[۲۰] تاریخ الخلفاء ۲۴۸.

[۲۱] جدید الأرض:وجهها.

[۲۲] موج الذهب ۳۶۴:۳.

[۲۳] تاریخ الخلفاء ۳۲۱.

[۲۴] راجع کتاب مقاتل الطالبین لأبی الفرج الأصفهانی (۲۸۴ – ۳۵۶ ه).

[۲۵] رواه مسلم (الصحیح ۸۵:۱۶).

[۲۶] مسلم (الصحیح ۸۷:۱۶).

[۲۷] النووی شرح مسلم ۸۵:۱۶.

[۲۸] سورة الأنبیاء: الآیة ۱۰۵ – ۱۰۶.

[۲۹] سورة الأعراف: الآیة ۹۶.

[۳۰] سورة الأنعام: الآیة ۴۴ و ۴۵.

[۳۱] رواه الترمذی وقال حدیث حسن صحیح (کنز العمال ۲۴:۱۲) والبخاری بلفظ: یکون اثنا عشر أمیرا فقال کلمة لم أسمعها. فقال أبی أنه قال: کلهم من قریش (الصحیح ۲۴۸:۴).

[۳۲] رواه الطبرانی (کنز العمال ۲۳:۱۲).

[۳۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۳۲:۱۲).

[۳۴] کنز العمال ۳۳:۱۲ ورواه أحمد والحاکم (کنز العمال ۳۳:۱۲).

[۳۵] البخاری (الصحیح ۲۶۳:۴) ک الاعتصام.

[۳۶] مسلم (الصحیح ۶۵:۱۳) ک البهاء.

[۳۷] مسلم (الصحیح ۶۷:۱۳) ک الجهاد.

[۳۸] (الفتح الربانی ۲۱۰:۲۳).

افرازات فکریة

ذکرنا فیما سبق المذاهب القدیمة التی قامت فی العصر الأموی، ونبتت

[صفحه ۳۸۹]

جذورها قبل ذلك. ونحن هنا سنلقى بعض من الضوء على مذاهب فكرية أخرى، كان لها الأثر البالغ بعد الدولة الأموية. ومن هذه المذاهب مذهب المعتزلة. يقول الشيخ أبو زهرة: نشأت هذه الفرقة فى أواخر العصر الأموى. وفى هذا الوقت دخل الإسلام طوائف من المجوس واليهود والنصارى وغير هؤلاء وأولئك، رؤوسهم ممتلئة بكل ما فى هذه الأديان من تعاليم جرت فى نفوسهم مجرى الدم. ومنهم من كان يظهر الإسلام ويبطن غيره. إما خوفا ورهبة، أو رجاء نفع دنيوى، وإما بقصد الفساد والإفساد وتضليل المسلمين. وقد أخذ ذلك الفريق ينشر بين المسلمين ما يشككهم فى عقائدهم. وظهرت ثمار غرسهم فى فرق هادمة للإسلام تحمل اسمه ظاهرا وهى معاول هدمه فى الحقيقة... وقد تصدى للدفاع عن الإسلام أمام هؤلاء، فرقة درست المعقول وفهمت المنقول فكانت المعتزلة [۱] ولم يجد المعتزلة من الأمويين معارضة.

لأنهم لم يثيروا شغبا عليهم ولا حربا. إذ أنهم كانوا فرقة لا عمل لها إلا الفكر وقرع الحجة، ووزن الأمور بمقاييسها الصحيحة. ومع أن الأمويين لم يعارضوهم فهم أيضا لم يعاونوهم [۲] .

ويختلف العلماء فى أساس بذرة المعتزلة. فبعضهم يرى أنها ابتدأت فى قوم من أصحاب على بن أبى طالب اعتزلوا السياسة، وانصرفوا إلى العقائد عندما صالح الحسن معاوية، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة. وبعضهم يرى أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء... والمعتزلة فى كتبهم يرون أن مذهبهم أقدم فى نشأته من " واصل " ويعدون من رجال مذهبهم كثيرين من آل البيت [۳] ويقول الشيخ أبو زهرة: والذى نراه أن المذهب أقدم

من " واصل " وأن كثيرين من آل البيت قد نهجوا منهجه، كزيد بن على الذى كان صديقا لواصل. ولكن واصلا من أبرز الدعاة، فكان عند الأكثرين رأسه لأنه أبرز

[صفحه ۳۹۰]

من دعا إليه [۴] .

ومذهب المعتزلة يقوم على أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والتوحيد، هو لب مذهبهم وأس نحلتهم، فقالوا: إن الله واحد أحد. ليس كمثله شئ، وهو السميع البصير. وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ودم، ولا شخص ولا جوهر ولا غرض. ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة. ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة. ولا طول ولا عرض ولا عمق. ولا اجتماع ولا افتراق. ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض. ولا بذى أبعاض وأجزاء. ولا جوارح وأعضاء. وليس ذى جهات. ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان. ولا يجرى عليه زمان. ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة. ولا الحلول فى الأماكن. ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بأنه متناه. ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات. وليس بمحدود ولا والد ولا مولود. لا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار. ولا تدركه الحواس. ولا- يقاس بالناس ولا- يشبه الخلق بوجه من الوجوه. ولا- تجرى عليه الأوقات. ولا تحل به العاهات، وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له. ولم يزل أولا سابقا. متقدما للمحدثات. موجودا قبل المخلوقات. ولم يزل عالما قادرا حيا. ولا يزال كذلك لا- تراه العيون. ولا- تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام. ولا يسمع بالأسماع. شئ لا كالأشياء عالم قادر حى. لا كالعلماء القادرين الأحياء. وأنه القديم وحده. ولا قديم غيره. ولا إله سواه ولا شريك له فى ملكه ولا وزير له فى سلطانه. ولا معين له على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سابق. وليس خلق شئ بأهون عليه من خلقه شئ آخر. ولا بأصعب عليه منه. ولا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات. ولا يصل إليه الأذى والآلام. ليس بذى غاية فيتناهى. ولا يجوز عليه

[صفحه ۳۹۱]

الفناء. ولا يلحقه العجز والنقص. تقدس عن ملامسة النساء. وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء. وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله

سبحانه وتعالى يوم القيامة، لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة [۵] أما قولهم فى العدل بينه المسعودى فى مروج الذهب فقال: هو أن الله لا يحب الفساد. ولا يخلق أفعال العباد. بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم. وأنه لا يأمر إلا بما أراد. ولم ينه إلا عما كره. وأنه ولى كل حسنة أمر بها. وبرئ عن كل سيئة نهى عنها [۶] لم يكلفهم ما لا يطيقون. ولا أراد لهم ما لا يقدرون. وأن أحدا

لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله تعالى التى أعطاهم إياها. وهو المالك لها دونهم يفنيها إذا شاء. ولو شاء لجبر الخلق على طاعته. ومنعهم اضطرارا عن معصيته. ولكنه لا يفعل. إذ كان فى ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى. وقد ردوا بهذا الأصل على الجبرية الذين قالوا: أن العبد فى أفعاله غير مختار. فعدوا العقاب على ذلك يكون ظلما، إذ لا معنى لأمر الشخص بأمر هو مضطر إلى مخالفته، ونهيه عن أمر هو مضطر إلى فعله [۷] .

وفيما يتعلق بالعدل يقول الشيخ محمد خليل الزين: قال المعتزلة: إن الله عادل لا يصدر منه الظلم ولا يجدر أن يتصف به. وقالوا: إن الأجسام تدل بما فيها من العقول والنعم التى أنعم الله بها على خلقه، تدل أن الله لا يصدر منه الظلم والعقول تدل بأنفسها على أن الله ليس بظالم. ولا يجوز أن يجامع الظلم ما دل بنفسه على أن الظلم لا يقع منه تعالى. والظلم والجور منفيان عنه، بدليل قوله تعالى: (وما ربك بظلام للعبيد). وقد فرعوا على العدل غايات ثلاث:

[صفحه ۳۹۲]

الأولى: أن الله يسير بالخلق إلى غاية ومصلحة، وهو حكيم ولا يصدر من الحكيم فعل لا تكون فيه مصلحة وغاية. وتلك المصلحة عائدة للمخلوقين. وسبحانه لا يفعل شيئا به غاية لنفسه. فالوجود ومن فيه يسير ويمشى وراء غاية ومصلحة. والغاية تختلف بحسب المعنى وأهميته، فتارة تكون ظاهرة المنفعة ففعلها صلاح، وتارة تكون خفية لا تدرك العقول مصلحتها، وهذه إما أن يقنع العقل بوجودها، أو يشككك، فإن شككك يجب تزن بالمقياس البرهانى، فإن توافقا وإلا وجب طرحها. الثانية: من لوازم العدل، أن الأوامر والنواهى الشرعية، ذات حسن وقبح ذاتى. وهى قبل أمر الشارع فيها حسن وقبح ذاتى - فالوديعة إذا ردت فيها حسن ذاتى قبل أمر الشارع فالحسن والقبح فى الموجودات من الأمور الذاتية. وقالوا: إن العقل هو المرجح، فما حكم بقبحه فلا بد أن يأتى به نهى من الشارع. فالحسن من مقومات الذات لأنه عرض يتحكم به الشارع. وقالوا: إنا نعلم بالضرورة حسن بعض الأشياء وقبح بعضها من غير نظر إلى أمر الشارع. فإن كل عاقل يجزم بحسن الاحسان ويمدح فاعله، ويعلم بقبح الإساءة والظلم. وهذا الحكم ضرورى لا يقبل الشك. وقالوا: لم نعلم حسن الأشياء وقبحها عقلا. وقالوا: إن الله داعيا لفعل الحسن وليس له صارف عنه. وله صارف عن فعل القبيح وليس له داع إليه، وهو قادر على كل مقدور، ومع وجود المقدرة والداعى يجب الفعل. لأنه تعالى غنى يستحيل عليه الحاجة وهو عالم بحسن الحسن وقبح القبيح. ومن المعلوم بالضرورة، أن العالم بالقبيح الغنى عنه لا يصدر عنه. وأن العالم بالحسن القادر عليه إذا خلا عن جهات المفسدة فإنه يوجد. وتحريره أن الفعل بالنظر لذاته ممكن وواجب النظر إلى علته، وكل ممكن مستند إلى قادر. وعلته تتم بواسطة القدرة والداعى، فإذا وجد ما تقدم تم السبب. وعند تمام السبب يجب وجود الفعل. ولو جاز فعل القبيح منه تعالى أو الاخلال بالواجب، لارتفع الوثوق بوعده ووعيده، وأمكن تطرف الكذب عليه تعالى. ولجاز منه إظهار المعجزة على يد الكاذب. وذلك يقتضى الشك فى صدق الأنبياء. وبطل الاستدلال بالمعجزة.

[صفحه ۳۹۳]

الثالثة: التى يتفرع على القول بالعدل مسألة الأفعال الصادرة منا، هل نفعلها باختيار أو نحن مسيرون إليها. فقد ذهبت المعتزلة إلى أن الإنسان مختار فى أفعاله. وأن أفعال العباد مخلوقة لهم وهى من كسب أنفهسم... وشبهوا أفعال الإنسان بالحركة الاختيارية، فإن الإنسان يفعلها على اختياره. وفرعوا على هذا القول أن الإنسان لو لم يكن مختارا فى أفعاله لما جاز عذابه على عدم امتثاله، لأن العذاب متفرع عن عدم امتثال الأوامر الممكن إثباتها بمطلق إرادة العبد. وقالوا: أن العقل لا يجوز أن يكلف الإنسان بالإتيان بشئ هو

مسلوب القدرة عنه، فإن قصر بالإتيان بشئ مسلوب القدرة عنه يعاقب ويعذب فإن هذا تكليف بالمحال. وقالوا: إن الإنسان المسلوب الاختيار لا يأتى الوعيد بحقه لأن الوعيد إنما يجئ فى المسائل المقدورة للإنسان. والمسائل التى لا قدرة للخلق على الإتيان بها يقبح العقل العقاب عليها. ولا معنى لأن يقال للعبد. افعل وهو مسلوب الاختيار.. إنما يصح لمن يكون له حرية الاختيار، هذا من الوجهة العقلية، وأما النقل فقد استدلوا على حجة دعواهم بالآيات القرآنية. مثل قوله تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله)، فهذه الآية من الآيات التى تذم عمل من الأعمال، وأما الآيات التى بها مدح للمؤمنين وذم للكافرين مثل قوله: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت اليوم تجزون بما كنتم تعملون) [۸] .

وقالوا فى الوعد والوعيد: إن الوعد والوعيد نازلان لا محالة. فوعد الله بالثواب واقع. ووعيده بالعقاب واقع أيضا. ووعده بقبول التوبة النصوح واقع أيضا. وهكذا فمن أحسن يجازى بالإحسان إحسانا، ومن أساء يجازى بالإساءة عذابا أليما. فلا عفو عن كبيرة من غير توبة، كما لا حرمان من ثواب لمن عمل خيرا. وإن هذا فيه رد على المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. إذ لو صح هذا، لكان وعيد الله فى مقام اللغو. قال

[صفحه ۳۹۴]

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا [۹] .

ومن قولهم فى المنزلة بين المنزلتين: إن الإيمان إقرار باللسان ومعرفة وعمل بالجوارح. وإن كل عمل فرضا أو نقلا هو إيمان، وكلما ازداد الإنسان خيرا ازداد إيمانا، وكلما عصى نقص إيمانه. فالإيمان مركب من أمور، فلو أخل المكلف بأحدها يسلب عنه اسم الإيمان. فلا يقال له مؤمن أو كافر. بل هو بمنزلة من المنزلتين. ومرتكب الكبيرة لا كافر ولا مؤمن. والكبيرة عندهم أنواع، منها ما تؤول إلى الكفر. ومنها ما يطلق على مرتكبها اسم الفسوق فقط [۱۰] ويقول الشيخ أبو زهرة: من

اعتقادهم، أن العاصى من أهل القبلة فى منزلة بين المنزلتين. يرون أنه لا مانع من أن يطلق عليه اسم المسلم تمييزا له عن الذميين لا مدحا ولا تكريما. وأنه فى الدنيا يعامل معاملة المسلمين، لأن التوبة له مطلوبة. والهداية مرجوة. وقد قال فى ذلك " ابن أبى الحديد" وهو من شيوخ المعتزلة: إنا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما. نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ. إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة وعابدى الأوثان، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء أو المدح [۱۱] .

ومن قولهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: أنهما واجبان عقلا ونقلا. ويذهبون إلى أنهما واجبان باللسان والقلب واليد، وقد فسر الزمخشرى صاحب الكشاف. إلى أن الأمر بهما من فروض الكفاية، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشره. وأن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وقد يغلط فى موضع اللين ويلين بموضع الغلظة. وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تحاديا. والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فندب، وأما النهى عن المنكر

[صفحه ۳۹۵]

كله لأن جميع المنكر تركه واجب، لاتصافه بالقبح وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية [۱۲] .

وقالوا فى النبوة يقول فيه ابن أبى الحديد: إن الذى عليه أصحابنا، أن النبى منزه قبل البعثة. عما فيه تنفير عن الحق الذى يدعو إليه. وعما فيه غضاضة وعيب. مثل: الكفر أو الفسق، لأنا نجد أن التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد منه السخف والمجون والفسق لا يقع بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه، إلا على السعد والصلاح. كما أنه لا يجوز أن يكون محترفا بحرفة يستخفون الناس بصاحبها. هذا قبل البعثة، أما بعد البعثة. فقد منع أصحابنا وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلا. ومنعوا أيضا وقوع الصغائر المستخفة منهم [۱۳] .

مما سبق نعلم أن المعتزلة لم يهضموا نظرية الجبر، ونفوا القول بالقدر. ورفضوا أن يكون الإنسان مجرد آلة صماء، لا رأى له ولا حرية

ولا اختيار، إنما تسيره يد القضاء من وراء ستار، فأثبتوا أنهم يحترمون الحرية الفردية. حرية الفكر والعمل. ويقدرون المواهب العقلية.

ويقول الشيخ:محمد خليل: وإنى لأعتقد أن المعتزلة بنفيهم القدر عن أفعال العباد الاختيارية المكتسبة، قد أصابوا هدفين فى وقت واحد، فإنهم لم ينفوا الظلم عن الله ودافعوا عن العدالة الإلهية فحسب، بل دافعوا أيضا عن الحرية الإنسانية. لأنهم اعتبروا الإنسان حرا فى أفعاله فرفعوا من شأنه. وجعلوه مخلوقا عاقلا حرا جديرا بتحمل المسؤولية [۱۴] .

والمعتزلة لم تظهر شجرتهم فى العهد الأموى على الرغم من أنهم بدؤوا فى هذا العهد، فما كانت الدولة لتسمح بهذه الأفكار. وهى التى تحارب كل فكر لا يتفق مع سياستها. ولكن الشجرة بدأت فى الظهور عندما شاخت الدولة الأموية، ثم تفرعت شجرتهم وأورقت عندما جاء العهد العباسى، ففى هذا العهد

[صفحه ۳۹۶]

طم سيل الالحاد والزندقة. فوجد الخلفاء فى المعتزلة سيفا مسلولا على الزنادقة لم يغلوه، بل شجعوهم على الاستمرار فى نهجهم.

ويقول الشيخ أبو زهرة: كان جدال المعتزلة بقوة وحسن دليل. وفصاحة وبيان وقدرة على الإقناع اكتسبوها من علومهم وممارستهم الجدال، حتى أن بعض خصومهم من غير المسلمين كانوا يسلمون بعد مناقشتهم، ولقد قال مؤرخو المعتزلة: أن أبا الهذيل العلاف أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل من من المجوس، لحذقه وبراعته فى المناظرة، وقوة ما يدعو إليه وضعف ما يدعون إليه [۱۵] وظل المعتزلة يحطمون أسوار

الجهل الذى ألقى على كاهل الأمة من كل مكان، فلما جاء المأمون وقد كان يعتبر نفسه من علماء المعتزلة شايعهم وقربهم وأدناهم وجعل منهم حجابه ووزراءه. وكان يعقد المناظرات بينهم وبين الفقهاء لينتهوا إلى رأى متفق. واستمر على ذلك حتى توفى سنة ۲۱۸ ه [۱۶] ومن أقوال المأمون: من علامة

الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من هو دونه. وقال أيضا: لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيى فى العفو، ليذهب عنهم الخوف. ويخلص السرور إلى قلوبهم [۱۷] وقال: أول العدل أن يعدل الرجل فى بطانته، ثم الذين يلونهم حتى

يبلغ إلى الطبقة السفلى. وقال: غلبة الحجة أحب إلى من غلبة القدرة، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها. وغلبة الحجة لا يزيلها شئ. وقال: لا نزهة ألذ من النظر فى عقول الرجال [۱۸] .

وكان المأمون يقرب آل البيت إليه، وعلى رأسهم الإمام أبى الحسن الرضا رضى الله عنه. وروى أن المأمون أراد أن يقلد الرضا ولاية العهد من بعده، لتكون الخلافة فى أفضل آل أبى طالب. ولكن الرضا أبى عليه إباءا شديدا لأسباب عديدة نراها. منها: أن قرار مثل هذا هو بمثابة قرار فوقى. وهذا لا يستقيم مع حركة أهل البيت التى لا تبحث عن الحكم وإنما تبحث عن الجماهير

[صفحه ۳۹۷]

الذين يتحركون الحركة التى يحبوا أن يراهم الله فيها، فالإمام إذا هتف باسمه أهل القرى عليه أن يلبى النداء، ويسير بهم نحو طريق البركات لأن الحركة فى أصولها العريضة حركة حجة فى عالم الابتلاء، لينظر الله إلى عباده كيف يعملون. ومنها أيضا لا يختلفوا عن بنى أمية من ناحية القتال على الملك. وروى أنه فى أيام المأمون أحصيت أولاد العباس، فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفا، ما بين ذكر وأنثى وذلك عام مأتين. الكثير منهم على رأس العسكر وعلى بيوت المال، وكل منهم ينتظر دوره فى الحكم. والإمام الرضا يرى أن لكل زمان حركة، ولكل أحداث فقه. وربما تتطلب هذه الحركة أن يجلس فى دائرة الضوء، بينما تتطلب الأحداث أن لا يكون له أى نشاط ملحوظ. وعندما أصر المأمون على أن يكون الرضا وليا للعهد، قال له الرضا: إنى أجيبك إلى ما تريد على أنى لا آمر ولا أنهى ولا أفتى ولا أقضى ولا أولى ولا أعزل. فأجابه المأمون إلى ذلك كله. وعلى الرغم من أن الرضا لم يباشر أى سلطة إلا أن هذا لم يلق قبولا من بنى العباس. يقول المسعودى: بايع المأمون للرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالعهد من بعده، فاضطرب من بمدينة السلام من الهاشميين. وعظم ذلك على أهل بغداد عامة، وعلى الهاشميين خاصة. لزوال

الملک عنهم ومصیره إلی ولد أبی طالب، فأخرجوا الحسن بن سهل وکان خلیفهٔ المأمون علی العراق. وبایعوا المنصور بن المهدی، فلم یتم له أمر، وکان مضعفا فبایعوا أخاه إبراهیم بن المهدی بالخلافهٔ لخمس من المحرم سنهٔ ۲۰۲ ه، ودعی له علی المنابر بمدینهٔ السلام وغیرها، فوجه الجیوش لمحاربهٔ الحسن بن سهل خلیفهٔ المأمون علی العراق، وهو یناجیه المدائن، فکانت الحروب بینهم سجالا سنهٔ ۲۰۱ ه [۱۹] ومات الإمام الرضا عام

۲۰۳ ه. وقیل قتل [۲۰] وبعد وفاهٔ المأمون عام ۲۱۸ ه. بدأت شجرهٔ المعتزلهٔ

[صفحه ۳۹۸]

تجف. وعندما جاء عهد المتوکل سنهٔ ۲۳۲ ه یقول المسعودی: أمر المتوکل یترک النظر والمباحثهٔ فی الجدال. والترک لما کان علیه الناس فی أیام المعتصم والواثق والمأمون وأمر الناس بالتسلیم والتقلید وأمر شیوخ المحدثین بالتحدیث وإظهار السنهٔ والجماعهٔ [۲۱] وبایع المتوکل لبنیه الثلاثهٔ: محمد المنتصر بالله،

وأبی عبد الله المعتز بالله، والمستعین بالله. وفی ذلک یقول ابن المدبر فی ذکره لهذه البیعهٔ:

یا بیعهٔ مثل بیعهٔ الشجرهٔ++

فیها لکل الخلائق الخیرهٔ

آلدها جعفر وصیرها++

إلی بنیه الثلاثهٔ البررهٔ [۲۲] .

وفی ذلک یقول علی بن الجهم:

قل للخلیفهٔ جعفر یا ذا الندی++

وابن الخلائف والأئمهٔ والهدی

لما أردت صلاح دین محمد++

ولیت عهد المسلمین محمدا

وثنیت بالمعتز بعد محمد++

وجعلت ثالثهم أعز مؤیدا [۲۳] .

وفی عام ۲۳۵ ه أمر المتوکل بهدم قبر الحسین وهدم ما حوله من الدور، وخرب وبقی صحراء. یقول السیوطی: وکان المتوکل معروفا بالتعصب [۲۴] .

وسارت الأمور بعد المتوکل إلی ما ذکرناه. یقول الدکتور أحمد أمین: إن السلطات الحکومیهٔ من عهد المتوکل. قد تخلت عن نصرهٔ المعتزلهٔ، وأغلب الناس یمالؤون السلطهٔ أینما کانت ویخافون أن یعتنقوا مذهبا لا ترضاه. فهربوا من الاعتزال إلی من یهاجم الاعتزال [۲۵] وفی أثناء ذلک، ظهر أبو الحسن

الأشعری، الذی ولد بالبصرهٔ عام ۲۶۰ ه. وکان قد التحق بالمعتزلهٔ مبکرا

[صفحه ۳۹۹]

ودرس مذهب الاعتزال علی الجبائی رئیس معتزلهٔ البصرهٔ أربعین سنهٔ [۲۶] وظل

الأشعری یؤمن بآراء أستاذه ویناضل عنها بحماس، ولکن الناس شاهدوا علیه تغییرا مفاجئا، حیث اعتکف فی منزله بضعهٔ أیام لا یری أحد. ثم خرج علی إثر ذلک فصعد المنبر فی وسط جموع حاشدهٔ من الناس ثم قال بعد أن نزع عباءته: إنی کما خرجت من هذه العباءهٔ، أعلن برائتی من کل أخطائی السابقهٔ، وأصرح بأن جمیع آرائی الماضیهٔ باطلهٔ [۲۷] ویقول الشیخ أبو زهرهٔ: إن الأشعری وجد من نفسه ما یبعده عن المعتزلهٔ، مع أنه تغذی من موائدهم. ونال من ثمرات تفکیرهم، ثم وجد میلا إلی آراء الفقهاء والمحدثین، مع

أنه لم يغش مجالسهم ولم يدرس العقائد على طريقتهم [۲۸] .

وبدأ الأشعرى يشن هجومه على المعتزلة. يقول الصعيدى فى كتاب المجد دون فى الإسلام: أنه كان الأجدر بالأشعرى ألا يتنكر لمذهب مكث معتنقا صوابه أربعين سنة، كل هذا التنكر، لأنه بلا شك كان مخلصا فى اعتقاده له كل هذه المدة، بل كان له وجهه من النظر يعتمد عليها فيه. ويرى معها أنه لا تنافى فى الإسلام إن لم يكن هو الإسلام، فلا يصح أن ينفى الإسلام عن المعتزلة أو يقال أنهم فساق مسلمون، وإنما هم يثابون على صوابهم ويعذرون فى خطأهم. وقد انتفع) بهم خلقا كثيرا.. لم يكن من اللائق أن يبالغ فى خصومتهم بعد مخالفته لهم لأنهم كانوا أساتذته [۲۹] ويقول الدكتور حمودة فى كتابه الأشعرى:

كثير من الباحثين تعرض لأسباب تحول الأشعرى. ويذكره ناقدوه تبعا لبعض الروايات عن معاصريه، أنه كان خاضعا فى ذلك لضغط من أفراد أسرته، كما يحاول البعض الآخر تعليل ذلك برغبة إلى الحسن أن يستغل كراهة الشعب للمعتزلة، وأن يظفر بالبطولة والمجد على حسابهم [۳۰] .

[صفحه ۴۰۰]

وإذا كانت هذه مقدمة الأشعرى، فيجب أن نلقى نظرة على النتيجة. يقول الشيخ أبو زهرة: وقد نال الأشعرى منزلة عظيمة. وصار له أنصار كثيرون ولقى من الحكام تأييدا ونصرة. فتعقب خصومه من المعتزلة وغيرهم. وبث أنصاره فى الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها. ولقبه أكثر علماء عصره بإمام أهل السنة والجماعة [۳۱] وقد استمرت عقيدة الأشعرى وكتب لها البقاء [۳۲] وإذا كنا قد عرفنا بداية الحركة ونتيجتها الخاصة بالأشعرى، فإننا نلقى هنا بعض الضوء على هذه العقيدة. يقول الشيخ أبو زهرة: إن الأشعرى جاء لإحياء آراء الإمام أحمد بن حنبل فى نظره إذ يعتبر منهاجه هو منهاجه [۳۳] وأنه يرى أن ما يعتقده هو رأى الإمام

أحمد. ويعتبره الإمام المقدم والعالم المفهم [۳۴] وأن الدارس لحياة الأشعرى

يجد أن الذى يتفق مع اطلاعه هو أن يختار مذهبا وسطا [۳۵] فرأيه فى الصفات

وسط بين المعتزلة ومعهم الجهمية، وبين الحشوية والمجسمة. فالأولون نفوا الصفات ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية، ونفوا السمع والبصر والكلام وغيرها من الأوصاف الذاتية، وقالوا: ليست شيئا غير الذات وإنها فى القرآن أسماء لله تعالى كالرحمن والرحيم. وجاء الأشعرى فأثبت الصفات التى وردت كلها فى القرآن والسنة، وقرر أنها صفات تليق بذات الله.. فسمع الله ليس كسمع الحوادث وبصره ليس كبصرهم وكلامه ليس ككلامهم. ويقول الشيخ خليل الزين فى هذا المجال: وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية. أن الأشعرى خالف المعتزلة بقوله: إن لله صفات أزلية مثل العلم والبصر والكلام. وأنه عالم بعلم بصير يبصر متكلم بكلام وينكر المعتزلة أن لله

[صفحه ۴۰۱]

صفات ويقولون: أنه عالم بذاته متكلم بذاته. وقالت المعتزلة إن ما جاء فى القرآن الكريم مثل: يد الله ووجهه يجب أن تفسر على أنها لطفه وذاته، أما الأشعرى فمع تسليمه بأنه ليس ذلك شئ من المفهوم التجسيدى فإنه يرى أن هذه الصفات حقيقة لا نعلم طبيعتها بدقة. وهو يرى مثل هذا الرأى مثل استواء الله على العرش. فهو يقول إن الاستواء على العرش ليس معناه الاستيلاء أو القهر أو الغلبة، بل المراد الاستواء حقيقة، وليس للمعتزلة أن ينكروا ذلك. إذ كيف يجوز لهم أن يسلموا بوجود الله فى كل مكان وينكرون أنه عليه العرش. ويقول: لو كان الاستواء على العرش هو القدرة والاستيلاء لما كان هناك فارق بين العرش والأرض [۳۶] .

أما عقيدته فى مرتكب الكبيرة، يقول الشيخ أبو زهرة: وبالنسبة لمرتكب الكبيرة قال المعتزلة: إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعته إذا لم يتب عن كبيرته لا ـ يخرج من النار. وقال المرجئة: من أخلص لله وآمن فلا تضره كبيرة مهما تكن. فسلك الأشعرى طريقا وسطا وقال: المؤمن الموحد الفاسق هو فى مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله النار [۳۷] .

وأما عقيدته فى قدرة الله يقول الشيخ أبو زهرة: ورأيه فى قدرة الله وأفعال الإنسان وسط بين الجبرية والمعتزلة. فالمعتزلة قالوا: أن العبد

هو الذى يخلق أفعال نفسه بقوة أودعها الله تعالى إياه. والجبرية قالوا: أن الإنسان لا يستطيع إحداث شئ ولا كسب شئ، بل هو كالريشة فى مهب الريح فقال الأشعرى: إن الإنسان لا يستطيع إحداث شئ ولكن يقدر على الكسب [۳۸] .

وبالنسبة لرؤية الله يوم القيامة يقول الشيخ أبو زهرة: قال المعتزلة: الله سبحانه وتعالى لا يرى... وقال الأشعرى، يرى من غير حلول ولا [صفحه ۴۰۲]

حدود [۳۹] ويقول الشيخ خليل الزين: نزه المعتزلة ذات البارى عن كل آفة.

وعرضوا واستدلوا على صحة دعواهم بالكثير من الأدلة. نفوا رؤية البارى تعالى بنفى الجسمية، فإذا انتفت الجسمية انتفت الجهة، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية، لأن المرئى له حيز وجهه وشكل، والجميع محال تحققها فى ذات الله. نفوا الجسمية بقولهم: أن كل جسم حادث ومحتاج إلى الإعراض، وأن الذى لا يتخلى عن الحوادث لا بد أن يكون حادثا. نفوا الرؤية بالدليل العقلى والنقلى بقول تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك) وقوله تعالى مخاطبا موسى عليه السلام: (لن ترانى) فأدلتهم فى التوحيد مركبة من العقلية والنقلية [۴۰] وذهب

الأشعرى إلى جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة، وقال: إن كل موجود يصح أن يرى. فإن المصحح للرؤية هى إنما هو الوجود. والبارى موجود فيصح أن يرى [۴۱] .

ويقول الشيخ أبو زهرة: وبالنسبة للألفاظ التى وردت موهمة للتشبه فى القرآن مثل... (يد الله فوق أيديهم)، وقال المعتزلة: المراد سلطان الله فوقهم. وقال الحشوية: يده يد جارحة. وقال الأشعرى: يده يد تليق بذاته [۴۲] .

كانت هذه أهم ملامح مذهب الأشعرى. ويقول الشيخ أبو زهرة: وجاء من بعد الأشعرى علماء يخالفونه. فابن حزم يعد الأشعرى من الجبرية، لأن رأيه فى أفعال الإنسان لا يثبت الاختيار للعبد [۴۳] ، وعن منهج الأشاعرة يقول الدكتور محمود قاسم فى كتاب مناهج الأدلة فى عقائد الملة: إنهم أنكروا ضرورة وجود الغاية والحكمة والصلاح فى العالم. وحقروا من شأن العقل فى التفرقة بين الحسن والقبيح. وزعموا أن الشرع لو مدح الكاذب لكان حسنا ولو ذم الصدق

[صفحه ۴۰۳]

لكان قبيحا، كذلك نفت هذه المدرسة أن يكون للفرد حرية واختيار وقدرة على خلق أفعاله. ومع ذلك فهى ترى أنه من الممكن أن المكلف الكافر بالإيمان مع عدم استطاعته له. بناء على إرادة الله ومشيئته [۴۴] ومما سبق يمكن القول أن الاختلاف بين المذاهب قد وقع. وأن هناك من أصاب الحقيقة أو اقترب منها. وأن هناك من ابتعد عنها وقطع شوطا كبيرا فى عالم الفتنة والتأويل. ذلك العالم الذى يدخله الذين فى قلوبهم زيغ. وأن العمود الفقرى لهذا الاختلاف، تلك الآراء التى تعارض بعضها بعضا فيما يختص بمعرفة الله عز وجل. بمعنى أن الاختلاف فى معرفة الله هو عمدة الاختلافات. والله تعالى لم يترك معرفته للعباد كى يقولوا فيها بآرائهم، وإنما بعث الأنبياء والرسل ليبينوا ذلك لأممهم، لأن الهدف من خلق الجن والإنس أن يعبدوا الله. ولا تصح عبادة لله إلا بمعرفة الله. فالمنحرفين من أهل الكتاب يعبدون الله، ولكنهم انحرفوا عن المعرفة الحقة. فأصبحت العبادة هباء ضائع فى خلاء.. فى رأينا أن أسباب هذا الاختلاف، يعود إلى إبعاد الراسخين فى العلم عن مزاولة عملهم الرسالى وسوق الناس إلى صراط العزيز الحميد، لينالوا سعادة الدنيا بما يتوافق مع الكمال الأخروى. وهذا الاختلاف يصرخ فى أعمال الوجود. إن الكتاب لو كان فى غير حاجة إلى الراسخين فى العلم أصحاب التأويل، لأجمع الناس على مدلوله ولم تفترق الأمة. ولكن الاختلاف قد وقع عندما جلس الذين يحتاجون إلى التعليم والإرشاد على المقاعد الأولى. ليصبحوا قرين القرآن الذى اشتمل تبيان كل شئ، وأول هذه الأشياء معرفة البارى جل وعلا. ولقد تحدثنا من قبل أن الله تعالى جعل المودة والرحمة بين الزوجين. لتكون أرضية إنشاء البيت المسلم وانتصارا للفطرة. وأخر مودة ذى القربى أجرا للرسالة الخاتمة. والفرق بين المودة بين الزوجين وبين مودة ذى القربى، أن الأولى مجعولة داخل النسيج الإنسانى. أما الثانية فمأمور بها لتكون حركة لينظر الله إلى عباده كيف يعملون. فالدائرة الأولى وقود للدائرة الثانية،

[صفحه ۴۰۴]

وکل دائرة هی حجة بذاتها علی الإنسان. وعندما أبعد أهل العلم الذین رفعهم الله درجات وجعلهم قرین الکتاب ولا ینفصلا حتی یردا علی الحوض. والله یزکی من یشاء. عندما أبعدوا وانتهی المطاف بعدم روایة الحدیث. وظهور الذین وضعهم الرسول فی دائرة التحذیر، بعد أن خمد التحذیر منهم فی عالم اللاروایة، بدأ هؤلاء یضعون الحدیث علی رسول الله. ومن هذه التربة خرجت القدریة والجبریة والمرجئة وغیرهم، فکل مذهب کان له وقوده من الحدیث والتأویل. ویشرف علی أکثرهم علماء أهل الکتاب الذین لا یترکون فتنة إلا سارعوا إلیها. ومن تربة الأحادیث الموضوعة جاء اختلاف الروایة والفتیا والسیرة والأخلاق وطریق الهدایة والإرشاد وکل شئ، ونحن نری أن الکثیر من الحدیث وضع الخدمة أصحاب المقاعد الأولی وتحقیق أهدافهم. وأن الکثیر من الحدیث الصحیح تم تأویله لخدمة نفس الأهداف، التی منها اتخاذ مال الله دولا ـ ودین الله دخلا وعباد الله خولا، وأول خطوة لتحقیق هذه الأهداف کانت فتح باب المواجهة مع أهل البیت ولا اختلاف ولا خلاف بین أهل العلم علی أن علیا کان مصیبا فی قتاله لأهل البغی وأن أهل البغی عندما رکبوا علی رقبة الأمة قاموا بسب الإمام علی منابرهم وقتلوا أتباعه، ثم فتحوا الأبواب أمام أغیلمة قریش الذین أقاموا لجعل الإمام علی المجازر. لقد کان أهل البیت حلقة وجهوا إلیها الضربات لیکون الطریق أمام الحلقة الثانیة مفتوحا فتوجه إلیها الضربات بما یستقیم معها، وبما یتقبله العامة فی هدوء. وذلک بطرح مجموعة من الأحادیث یکون الهدف منها التقلیل من شأن النبوة ومن تحت عباءة ثقافة التقلیل یحققون هدف التماس الأعذار. بمعنی إذا کان هذا هو شأن النبی فلا عصمة لأحد. ومن هذا الباب تلتقی هذه الأعذار مع العقائد التی تشرف علیها الدولة. بمعنی یکفی أن یکون قلبک عامرا بالإیمان وأنت علی طریق ضاعت فیه الصلاة. روی البخاری عن أبی هریرة قال: أقیمت الصلاة. وعدلت الصفوف قیاما. فخرج إلینا رسول الله صلی الله علیه وسلم، فلما قام فی مصلاه ذکر أنه جنب. فقال لنا: مکانکم. ثم رجع فاغتسل. ثم خرج إلینا ورأسه یقطر.

[صفحه ۴۰۵]

فکبر فصلینا معه [۴۵] وروی البخاری عن أبی هریرة قال: صلی بنا النبی

صلی الله علیه وسلم الظهر أو العصر. فسلم. فقال له ذو الیدین: أنسیت أم قصرت؟ قال النبی: لم أنس ولم أقصر. فقال ذو الیدین: بلی قد نسیت [۴۶] .

وفی روایة: فقال له ذو الیدین: أقصرت الصلاة أم نسیت یا رسول الله؟ قال النبی: أصدق ذو الیدین قال الناس: نعم. فقام رسول الله صلی الله علیه وسلم فصلی اثنتین أخریین ثم سلم... الحدیث [۴۷] .

وروی البخاری أن عمر بن الخطاب جاء یوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل یسب کفار قریش، وقال: یا رسول الله ما کدت أصلی العصر حتی کادت الشمس تغرب. فقال النبی: والله ما صلیتها... الحدیث [۴۸] وروی

البخاری عن قتادة قال: سرنا مع النبی صلی الله علیه وسلم لیلة فقال بعض القوم: لو عرست بنا یا رسول الله. قال: أخاف أن تناموا عن الصلاة. فقال بلال: أنا أوقظکم فاضطجعوا. وأسند بلال ظهره إلی راحلته فغلبته عیناه فنام. فاستیقظ النبی صلی الله علیه وسلم. وقد طلع حاجب الشمس. فقال: یا بلال أین ما قلت... الحدیث [۴۹] .

روی مسلم عن عائشة: اعتم رسول الله صلی الله علیه وسلم حتی رقد ناس واستیقظوا. ورقدوا واستیقظوا فقام عمر بن الخطاب فقال: الصلاة. وفی روایة: الصلاة نام النساء والصبیان. فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم: ما کان لکم أن تنزروا رسول الله علی الصلاة.. الحدیث [۵۰] معنی ما کان لکم أن تنزروا:

أی تلحوا علیه فیها.

[صفحه ۴۰۶]

ولم یقتصر نسیان النبی کما قالوا علی الطهارة وعدد الرکعات والصلاة فی وقتها، وإنما شمل النسیان أشیاء أخری. روی البخاری عن

عائشة قالت: سمع النبی صلی الله علیه وسلم رجلا یقرأ القرآن. فقال: یرحمه الله. لقد أذکرنی کذا وکذا آیة من سورة کذا [۵۱] وفی روایة یرحمها الله لقد اذکرنی کذا وکذا آیة کنت أنسیتها من سورة کذا وکذا [۵۲] .

لا حرج علی أصحاب المقاعد الأولی فی نسیان کل شئ ما دام القلب عامرا بالإیمان وهذا باب کبیر فی عقیدة المرجئة التی نسجت خیوطها علی حساب الدعوة. إن هذه الأحادیث وغیرها تم تأویلها لخدمة أهداف الذین ضیعوا الصلاة، ثم کیف یجری علی النبی صلی الله علیه وسلم النسیان وهو القائم بدعوة الناس إلی صراط العزیز الحمید. وما هی الحکمة من محافظة عمر بن الخطاب علی الصلاة بینما رسول الله إما ناسیا أو نائما. ولم یقفوا فی التأویل عند هذه الأحادیث وإنما ذهبوا إلی أبعد من هذا. روی البخاری عن عائشة قالت: سحر رسول الله صلی الله علیه وسلم رجل من بنی زریق یقال له: لبید بن الأعصم، حتی کان النبی صلی الله علیه وسلم یخیل إلیه أن یفعل الشئ وما فعله.. الحدیث [۵۳] کیف تکون هناک

قدرة للساحر علی نبی الله ورسوله؟ کیف والله تعالی نفی السحر عن رسوله فقال: (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا - انظر کیف ضربوا لک الأمثال فضلوا فلا یستطیعون سبیلا) [۵۴] .

ومن دائرة السحر هبطوا، فرفعوا بعض الصحابة علی مقام النبوة. لیعطوا لأنفسهم المبرر فی رکوب رقبة الأمة مع وجود السابقین علیهم والأفضل منهم. روی البخاری: استأذن عمر بن الخطاب علی رسول الله صلی الله علیه

[صفحه ۴۰۷]

وسلم. وعنده نسوة من قریش یکلمنه ویستکثرنه عالیة أصواتهن علی صوته، فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب [۵۵] ، فأذن له رسول الله صلی الله علیه وسلم. فدخل عمر ورسول الله یضحک!! فقال عمر: أضحک الله سنک یا رسول الله. قال النبی: عجبت من هؤلاء اللاتی کن عندی، فلما سمعن صوتک ابتدرن الحجاب. فقال عمر: فأنت أحق أن یهبن یا رسول الله.. فقال رسول الله: إیها یا ابن الخطاب. والذی نفسی بیده، ما لقیک الشیطان سالکا فجا إلا سلک فجا غیر فجک [۵۶] وروی الترمذی عن عائشة قالت: کان رسول الله

صلی الله علیه وسلم جالسا. فسمعنا لغطا وصوت صبیان. فقام رسول الله صلی الله علیه وسلم. فإذا حبشیة تزف والصبیان حولها. فقال النبی: یا عائشة تعالی فانظری. فجئت فوضعت لحیی علی منکب رسول الله صلی الله علیه وسلم. فجعلت أنظر إلی ما بین المنکب إلی رأسه فقال لی: أما شبعت. فقلت، لا. لأنظر منزلتی عنده. إذ طلع عمر بن الخطاب. فأرقص الناس عنها. فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم: إنی لأنظر إلی شیاطین الإنس والجن قد فروا من عمر.. الحدیث [۵۷] وروی البخاری عن عائشة قالت: دخل علی النبی

صلی الله علیه وسلم. وعندی جاریتان تغنیان بغناء بعاث فاضطجع النبی صلی الله علیه وسلم علی الفراش وحول وجهه. فدخل أبو بکر فانتهرنی وقال: مزمارة الشیطان عند رسول الله صلی الله علیه وسلم. فأقبل علیه النبی صلی الله علیه وسلم قال: دعهما... الحدیث [۵۸] .

وهکذا رأینا روایة یقول فیها النبی صلی الله علیه وسلم لعمر: والذی

[صفحه ۴۰۸]

نفسی بیده ما لقیک الشیطان سالکا فجا إلا سلک فجا غیر فجک. ورأینا فی روایة أن النبی نسی کم صلی، وعند البخاری قال النبی صلی الله علیه وسلم: إن أحدکم إذا قام یصلی جاء الشیطان فلبس علیه حتی لا یدری کم صلی. فإذا وجد ذلک أحدکم فلیسجد سجدتین وهو جالس [۵۹] ، وروی مسلم أن النبی صلی الله علیه وسلم قال: ما منکم من أحد إلا ومعه شیطان. قالوا: وأنت یا رسول الله. قال: وأنا إلا أن الله أعاننی علیه فأسلم [۶۰] - وفی روایة بزیادة: فلا یأمرنی إلا بخیر [۶۱] ویا للعجب عمر یفر الشیطان منه. بینما یأمر

النبی بخیر. کیف والله تعالی هو الآمر ولا آمر سواه. قال تعالی: (إن الحکم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إیاه) [۶۲] کیف ولیس للشیطان علی الرسول سبیلا. قال

تعالی: (وما ینطق عن الهوی). ومنذ متی والشیطان یأمر بالخیر والله تعالی یقول: (فإنه یأمر بالفحشاء والمنکر) [۶۳] وقال: (إن الشیطان کان للرحمن

عصیا) [۶۴] وقال: (وکان الشیطان للإنسان خذولا) [۶۵] وقال: (هل أنبئکم

علی من تنزل الشیاطین تنزل علی کل أفاک أثیم) [۶۶] أما خیر خلق الله محمد

صلی الله علیه وسلم، فیقول له الباری تبارک وتعالی: (وتوکل علی العزیز الرحیم الذی یراک حین تقوم - وتقلبک فی الساجدین - إنه هو السمیع العلیم) [۶۷] ویقول له: (فسبح بحمد ربک وکن من الساجدین - واعبد ربک

حتی یأتیک الیقین) [۶۸] .

[صفحه ۴۰۹]

ولم تقف الحرکة عند زمن البعثة حیث فضلوا علی النبی بعض صحابته. وإنما تتبعوا الحرکة قبل بعثة النبی صلی الله علیه وآله وسلم. وقدموا مواقف ترفع من شأن الباحثین عن الحقیقة أمثال زید بن عمرو بن نفیل. روی البخاری أن النبی صلی الله علیه وسلم لقی زید بن عمرو قبل أن ینزل الوحی علی النبی. فقدم إلیه النبی سفرة. فأبی زید أن یأکل منها وقال: إنی لست آکل ما تذبحون علی أنصابکم ولا آکل إلا ما ذکر اسم الله علیه [۶۹] .

وروی الدیلمی قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم ": سمعت زید بن عمرو، یعیب أکل ما ذبح لغیر الله فما ذقت شیئا ذبح علی النصب حتی أکرمنی الله تعالی بما أکرمنی به من رسالته [۷۰] وکما أظهروا فضل زید بن

عمرو. أظهروا فضل قس بن ساعدة الأیادی، فعن أبی هریرة قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": رحم الله قسا کأنی انظر إلیه علی جمل أورق تکلم بکلام له حلاوة ولا أحفظه\ " ۷۱] cf۱] .

کیف وهو النبی الأعظم الذی اصطفاه علی أرضیة الجذور الطاهرة. لقد قال النبی الأعظم: إن الله خلق الخلق فجعلنی فی خیرهم فرقة. ثم جعلهم فرقتین فجعلنی فی خیرهم فرقه. ثم جعلهم قبائل فجعلنی فی خیرهم قبیلة. ثم جعلهم بیوتا تجعلنی فی خیرهم بیتا وخیرهم نفسا\ ۷۲] cf۱] کیف وقد سألوه: یا

رسول الله هل أتیت فی الجاهلیة شیئا حراما؟ قال: لا\ ۷۳] cf۱] وقیل له: هل عبدت

وثنا قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمرا قط؟ قال: لا. وما زلت أعرف أن الذی هم علیه کفر، وما کنت أدری ما الکتاب\ ۷۴] cf۱] .

[صفحه ۴۱۰]

والخلاصة: أن الهدف کان من أجل نشر ثقافة لا تقود إلی حقیقة، ولا تدین الذین رکبوا رقبة الأمة.. بمعنی أن القامات متساویة. ولم یکن الهدف من وراء هذه الثقافة نشرها علی العامة فی الطرقات، وإنما دقها أمام الباحثین لیفوز المرجئة والجبریة وجمیع المذاهب التی تنادی بالمقامات المتساویة. ولقد رأینا علی أرضیة هذه الأحادیث أن هناک من یتقدم خطوة فیصلی بینما الرسول ینام. ویتذکر کم صلی بینما الرسول ینسی ویخاف منه النسوة بینما الرسول یضحک ویتعجب ویفر منه الشیطان بینما زماره فی بیت الرسول. ورأینا قبل البعثة کیف کان أصحاب الورع لا یأکلون إلا ما ذکر علیه اسم الله، وکیف أن المعصوم استفاد منهم الکثیر. وأنه سمع من قسا کلام له حلاوة وطلاوة. ورأینا کیف نسبوا إلیه أنه سحر فکان یخیل إلیه أنه یفعل الشئ وما یفعله. فإذا أضیف إلی هذا کله أنه کان ینسی آیات القرآن وأنه لم یأمر بجمعه ولا- بجمع السنة وأنه لم یعین نائبا له لیسوق الناس إلی صراط العزیز الحمید، فلنا أن نتوجه بسؤال إلی بنی أمیة ومن شایعهم ومن شربوا من إنائهم فنقول: ماذا أبقیتم من النبوة؟ بعد أن اتخذتم مال الله دولا ودین الله دخلا وعباد الله خولا- ومن دائرة النبی صلی الله علیه وسلم هبطوا إلی دائرة القرآن الکریم. روی البخاری عن عمر بن الخطاب قال: إن الله بعث محمدا صلی الله علیه وسلم بالحق. وأنزل علیه الکتاب، فکان مما أنزل الله آیة الرجم. فقرأناها وعقلناها ووعیناها. رجم رسول الله صلی الله علیه وسلم ورجمنا بعده، فأخشی إن طال بالناس زمان أن یقول قائل: والله ما نجد آیة الرجم فی کتاب الله. فیضلوا بترک

فريضة أنزلها الله. والرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء.. ثم إنا كنا نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم... الحديث\ ۷۵] cf۱] وأخرج مسلم عن

عائشة أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم

[صفحه ۴۱۱]

نسخن بخمس معلومات. فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى فيما يقرأ من القرآن\ ۷۶] cf۱] وروى البخارى عن علقمة. قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو

الدرداء فقال: أفيكم أحد يقرأ على قراءة عبد الله، فقلت: نعم أنا، قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية (والليل إذا يغشى)، قلت: (والليل إذا يغشى. والذكر والأنثى). فقال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها. ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ (وما خلق) فلا أتابعهم\ ۷۷] cf۱] فهذه

الأحاديث لها تأويلها، ولكن لتأويل الجبرية والمرجئة طرق أخرى ولبنى أمية ومن شايعهم أهداف أخرى. وبالإضافة إلى هذه الأحاديث، يوجد كم غير قليل من الأحاديث التى تدعو إلى التسليم بالأمر الواقع، الأمر الذى أدى إلى دخول الأمة إلى دائرة القهر التاريخى. أو إلى دائرة الاحتقان التاريخية. وهناك أحاديث كثيرة تدعو إلى ترك الدنيا والترهب وترتب على ذلك ظهور طبقات من الصوفية. منها ما هو قريب. ومنها ما هو بعيد، وعلى هذا تعمقت جذور الطاغوت الذى يرقع أعلام الجبرية، ويرتدى ملابس المرجئة وغيرهم. وعلى هذا تقدم الطابور الذى يتخذ تهويد الفطرة أو تنصيرها هدفا له. وبعد أن طرحت الأحاديث لينال كل طابور ما يتفق مع أهوائه، وبعد أن دقوا الأوتاد حول دائرة الطهر وحول كتاب الله وحول عباد الله. هبطوا درجات، ودخلوا من باب الأسماء والصفات، فتأولوا الأحاديث الخاصة بها. وترتب على ذلك حدوث التباس فى معرفة البارى جل وعلا، والتى على قوائمها تبنى العبادة الحق. ومن هذه الأحاديث التى تحدث الالتباس وتحير العقول كان ابن عباس ينتفض. فعن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال: حدث رجل بحديث أبى هريرة فانتفض ابن عباس وقال: ما بال أقوام يجدون\ ۷۸] cf۱] عند محكمة ويهلكون عند متشابهة\ " ۷۹] cf۱] قال الألبانى: لم أقف عن حديث أبى

[صفحه ۴۱۲]

هريرة... ويغلب الظن أنه حديث " إن الله خلق آدم على صورته " وهو حديث صحيح\ ۸۰] cf۱] .

وهذا النوع من الحديث قامت عليه مذاهب ومدارس وعلى قاعدتهم حدث الاختلاف والافتراق، وكما ذكرنا من قبل أن حزمة الأحاديث التى ذكرناها فى هذا الباب أحاديث صحيحة تم تأولها لخدمة أهداف سياسية. من هذه الأحاديث ما رواه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعونى فأستجيب له. من يسألنى فاعطيه. ومن يستغفر فأغفر له\ ۸۱] cf۱] وما رواه

البخارى عن رؤية الله تعالى يوم القيامة. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون فى رؤيته\ ۸۲] cf۱] وروى البخارى أن الله يجمع الناس يوم القيامة.

فيقول: (من كان يعبد شيئا فليتبعه " إلى أن قال ": وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها. فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفون. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. فإذا أتانا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه\ " ۸۳] cf۱] وروى

البخارى أن حديثا سيجرى بين الله وبين أحد عباده يقول فيه العبد ": إى رب أدخلنى الجنة " إلى أن يقول له الله ": ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقول إى " رب لأكونن أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه. فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة" \۸۴] cf۱] وما رواه البخارى أيضا يقال لجهنم يوم القيامة ": هل

امتلأت. تقول: هل من مزيد. فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط.

[صفحه ۴۱۳]

قط\ ۸۵] cf۱] وفی روایة: فلا تمتلئ حتی یضع رجله فتقول: قط قط قط. فهنالک تمتلئ ویزوی بعضها إلی بعض\ " ۸۶] cf۱] .

فهذه الروایات وأمثالها تم تأویلها علی رقعة کبیرة من أرض الاختلاف. واستغلها الذین لا یؤمنون بالعقل، فأثبتوا لله النزول إلی الناس فی ظلل من الغمام والاستقرار علی العرش. وأثبتوا لله الضحک والسرور والحزن وأثبتوا له الوجه والید والقدم. من غیر تأویل ولا تفسیر ومن أهم أعلام الذین لا یؤمنون بالعقل " ابن تیمیة " الذی زعم أن هذا هو مذهب السلف الصالح. یقول الشیخ أبو زهرة: وما أقره ابن تیمیة. أن مذهب السلف إثبات کل ما جاء فی القرآن الکریم من فوقیة وتحتیة واستواء علی العرش. ووجه ویدومحبة وبغض وما جاء فی السنة أیضا. من غیر تأویل. وبالظاهر الحرفی\ ۸۷] cf۱] ثم یتساءل الشیخ أبو زهرة:

هل هذا هو مذهب السلف حقا؟ ونقول فی الإجابة علی ذلک. لقد سبقه بهذا الحنابلة فی القرن الرابع الهجری وادعوا أن ذلک مذهب السلف، وناقشهم العلماء فی هذا الوقت. وأثبتوا إنه یؤدی إلی التشبیه والجسمیة لا- محالة. وکیف لا یؤدی إلیهما والإشارة الحسیة إلیه جائزة، لذا تصدی لهم الإمام الحنبلی ابن الجوزی. ونفی أن یکون ذلک مذهب السلف. ونفی أیضا أن یکون ذلک رأی الإمام أحمد. وقال: رأیت من أصحابنا من تکلم فی الأصول بما لا یصح. فصنفوا کتبا شانوا بها المذهب، ورأیتهم قد نزلوا إلی مرتبة العوام فحملوا الصفات علی مقتضی الحس. سمعوا حدیث أن الله خلق آدم علی صورته، فأثبتوا له صورة ووجها زائدا عن الذات. وفما ولهوات وأضراس وأضواء لوجهه. ویدین وأصبعین وکفا وخنصرا وإبهاما. وصدرا وفخذا وساقین ورجلین وقالوا: ما سمعنا بذکر الرأس! وقد أخذوا بالظاهر فی الأسماء والصفات... ویقولون: نحن أهل السنة. وکلامهم صریح فی التشبیه. وقد تبعهم خلق من

[صفحه ۴۱۴]

العوام. وقد نصحت التابع والمتبوع وقلت: یا أصحابنا أنتم أصحاب وأتباع. وإمامکم الأکبر أحمد بن حنبل یقول: کیف أقول ما لم یقل. فإیاکم أن تبتدعوا فی مذهبه ما لیس منه\ ۸۸] cf۱] .

کان هذا رد ابن الجوزی علیهم عندما خرجت شجرتهم. ویقول الشیخ أبو زهرة: ولقد قال فی ذلک القول الذی ینتقده ابن الجوزی. القاضی أبو یعلی الحنبلی المتوفی ۴۵۷ ه وابن الزاغونی المتوفی ۵۲۷ ه. وهکذا استنکر الحنابلة ذلک الاتجاه عندما شاع فی القرن الرابع والخامس الهجری، ولذلک استتر هذا المذاهب. حتی أعلنه ابن تیمیة المتوفی ۷۶۸ ه فی جرأة وقوة. وزاد آراءه انتشارا اضطهاده بسببها. فإن الاضطهاد یذیع الآراء وینشرها، ولذلک کثر أتباعه بسبب الاضطهاد وکسب الرأی ذیوعا وانتشارا. ونری هنا أنه یجب أن تذکر أن الادعاء بأن هذا مذهب السلف موضع نظر\ ۸۹] cf۱] .

ویقول ابن حجر الهیثمی المتوفی ۹۷۴ ه -: ابن تیمیة عبد خذله الله وأضله وأعماه وأصمه وأذله، وبذلک صرح الأئمة الذین بینوا فساد أحوال وکذب أقواله. ومن أراد ذلک فعلیه بمطالعة کلام أبی الحسن السبکی... والحاصل أن لا یقام لکلامه وزن. بل یرمی فی کل وعر وحزن. ویعتقد فیه أنه مبتدع ضال ومضل. جاهل غال. عامله الله بعدله وأجاره من مثل طریقته وعقیدته وفعله آمین\ ۹۰] cf۱]

وذکر ابن حجر عقیدة ابن تیمیة وفیها: أن ربنا محل الحوادث وأنه

مرکب تفتقر ذاته افتقار الکل للجزء. ویقول بالجسمیة والجهة والانتقال. وأن الله بقدر العرش لا أصغر ولا أکبر. ویقول: أن النار تفنی وأن الأنبیاء غیر معصومین. وأن رسول الله صلی الله علیه وسلم لا جاه له. ولا یتوسل به. وأن إنشاء السفر إلیه بسبب الزیارة معصیة. وأن التوراة والإنجیل لم تبدل

[صفحه ۴۱۵]

ألفاظهما وإنما بدلت معانیهما.. وبعد أن عد ابن حجر عقائد ابن تیمیة قال: أنه قال بالجهة وله فی إثباتها جزء، ویلزم أهل هذا المذهب الجسمیة والمحاذاة والاستقرار\ ۹۱] cf۱] وقال ابن حجر: وأدی اعتقاد ابن تیمیة إلی قیامه بتبدیع کل من

خالفه، ولا يزال يتتبع الأكابر حتى تمالأ عليه أهل عصره ففسقوه وبدعوه بل كفره كثير منهم\ ۹۲] cf۱] ولم يقف عداوته على أكابر أهل عصره. وأخبر عنه بعض

السلف إنه ذكر على بن أبى طالب فى مجلس فقال: إن عليا أخطأ فى أكثر من ثلاثمائة مكان، ويعلق ابن حجر على ذلك بقوله: فيا ليت شعرى من أين يحصل لك الصواب إذا أخطأ على بزعمك رضى الله عنه\ ۹۳] cf۱] .

وقال ابن حجر: عقيدة إمام السنة أحمد بن حنبل موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة.. وما اشتهر بين جهلة المنسوبين إلى هذا الإمام من أنه قائل بشئ من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه. ولقد بين الإمام ابن الجوزى من أئمة مذهبه أن كل ما نسب إليه من ذلك كذب عليه وافتراء... وإياك أن تصغى إلى ما فى كتب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهما ممن اتخذ إلهه هواه. وأضله الله على علم. وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة\ ۹۴] cf۱] .

وفيما يتعلق بعدم شرعية زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم، كما تقول عقيدة ابن تيمية يقول الشيخ أبو زهرة: ولقد خالف ابن تيمية بقوله هذا جمهور المسلمين، بل تحداهم فى عنف بالنسبة لزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم... ونحن نخالفه مخالفة تامة فى زيارة الروضة الشريفة، وذلك لأن الأساس الذى بنى عليه منع الزيارة هو خشية الوثنية. وأن ذلك خوف فى غير مخاف. فإنه إذا كان فى ذلك تقديس لرسول الله صلى الله عليه وسلم،

[صفحه ۴۱۶]

فهو تقديس لنبى الوحدانية وتقديس نبى الوحدانية إحياء لها. إذ هو تقديس للمعانى التى بعث بها.. وقد روى ابن تيمية نفسه أن السلف الصالح كانوا يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم كلما مروا على الروضة الشريفة، ونحن لنعجب من استذكاره لزيارة الروضة مع ما رواه عن الأئمة الأعلام من تسليمهم على النبى كلما مروا بقبره\ ۹۵] cf۱] .

[۱] تاريخ المذاهب الإسلامية ۱:۱۳۱.

[۲] المصدر السابق ۱:۱۳۲.

[۳] المصدر السابق ۱:۱۲۴.

[۴] المصدر السابق ۱:۱۲۴.

[۵] المصدر السابق ۱:۱۲۶.

[۶] استدلوا على هذا بقوله تعالى: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك).

[۷] المصدر السابق ۱:۱۲۷.

[۸] تاريخ الفرق ص ۱۳۷، ۱۳۸.

[۹] المصدر السابق ۱:۱۲۸.

[۱۰] تاريخ الفرق الإسلامية:الزين ص ۱۴۱.

[۱۱] تاريخ المذاهب الإسلامية ص ۱:۱۲۸.

[۱۲] تاريخ الفرق الإسلامية ۱۴۳.

[۱۳] المصدر السابق ۱۴۵.

[۱۴] المصدر السابق ۱۳۴.

[۱۵] تاريخ المذاهب الإسلامية ۱:۱۴۰.

[۱۶] المصدر السابق ۱:۱۳۲.

[۱۷] تاريخ الخلفاء ۲۹۷، ۱:۲۹۸.

[۱۸] المصدر السابق ۳۰۸:۱.

[۱۹] التنبیه والإشراف ۳۱۸:۱، دول الإسلام:الذهبی ۱۱۳.

[۲۰] قال المسعودی: قبض الرضا بطوس لعنب أکله وقیل أنه کان مسموما (مروج الذهب ۲۳۳:۴).

[۲۱] مروج الذهب ۹۸:۳، دول الإسلام ۱۲۶:۱.

[۲۲] المصدر السابق ۱۰۰:۴.

[۲۳] المصدر السابق ۱۰۰:۴.

[۲۴] تاریخ الخلفاء ۳۲۱:۱.

[۲۵] تاریخ الفرق الإسلامیة ص ۱۵۰.

[۲۶] تاریخ بغداد ۳۴۷:۱۱.

[۲۷] تاریخ الفرق الإسلامیة، ص ۱۵۱.

[۲۸] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۶۰:۱.

[۲۹] تاریخ الفرق الإسلامیة ص ۱۵۲.

[۳۰] المصدر السابق ۱۵۳:۱.

[۳۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۶۸.

[۳۲] تاریخ الفرق الإسلامیة ۱۶۴.

[۳۳] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۶۲.

[۳۴] المصدر السابق ۱۶۵.

[۳۵] المصدر السابق ۱۶۵.

[۳۶] تاریخ الفرق الإسلامیة ۱۵۸.

[۳۷] تاریخ المذاهب ص ۱۶۷.

[۳۸] المصدر السابق ۱۶۶.

[۳۹] المصدر السابق ۱۶۶.

[۴۰] تاریخ الفرق ۱۳۶.

[۴۱] المصدر السابق ۱۵۶.

[۴۲] تاریخ المذاهب ۱۶۶.

[۴۳] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۹.

[۴۴] تاریخ الفرق الإسلامیة ۱۵۷.

[۴۵] البخاری (الصحیح ۶۰:۱) ک الغسل.

[۴۶] البخاری (الصحیح ۲۱۲:۱) ک الکسوف باب ما جاء فی السهو.

[۴۷] البخاری (الصحیح ۲۱۲:۱) ب ما جاء فی السهو.

[۴۸] البخاری (الصحیح ۱۱۲:۱).

[۴۹] البخاری (الصحیح ۱۱۲:۱) ک الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت.

[۵۰] رواه مسلم (۱۳۷، ۱۳۸:۵ الصحیح)، فی کتاب المساجد وقت العشاء.

[۵۱] البخاری (الصحیح ۲۳۳:۳) فی فضائل القرآن باب نسیان القرآن.

[۵۲] البخاری (الصحیح ۲۳۳:۳).

[۵۳] البخاری ک الطب باب هل یستخرج السحر (الصحیح ۲۰:۴).

[۵۴] سورة الفرقان: الآیة ۷، ۸.

[۵۵] إن المبادرة بالحجاب لازمة عند دخول الأجنبی سواء کان عمر أولا. هذا إذا کانت هذه الواقعة بعد نزول آیة الحجاب، أما إذا کانت قبل نزول آیة الحجاب، فما الداعی لأن یقمن ویبادرن الحجاب. کان یکفی القیام ولا حاجة للحجاب (السندی شرح البخاری ۲۹۴:۱).

[۵۶] البخاری (الصحیح ۲۹۴:۲) ک بدء الخلق ب مناقب عمر.

[۵۷] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۶۲۲:۵).

[۵۸] البخاری ک الجهاد والسیر، باب الدرق (الصحیح ۱۵۴:۲).

[۵۹] البخاری ک الکسوف باب إذ لم یدر کم صلی (الصحیح ۲۱۳:۱).

[۶۰] رواه مسلم (کنز العمال ۲۴۷:۱).

[۶۱] رواه أحمد ومسلم (کنز العمال ۲۴۷:۱).

[۶۲] سورة یوسف: الآیة ۴۰.

[۶۳] سورة النور: الآیة ۲۱.

[۶۴] سورة مریم: الآیة ۴۴.

[۶۵] سورة الفرقان: الآیة ۲۹.

[۶۶] سورة الشعراء: الآیة ۲۲۱ – ۲۲۲.

[۶۷] سورة الشعراء: الآیة ۲۱۷ – ۲۲۰.

[۶۸] سورة الحجر: الآیة ۹۸ – ۹۹.

[۶۹] البخاری ک بدء الخلق ب حدیث زید بن عمرو (الصحیح ۳۱۶:۲).

[۷۰] الدیلمی (کنز ۷۹:۱۲\). ۷۱] cf۱] الأزدی (کنز ۷۷:۱۲\). ۷۲] cf۱] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵۸۴:۵\). ۷۳] cf۱] رواه ابن عساکر (کنز ۳۴۸:۱۲) وقال الهیثمی رواه الطبرانی فی الثلاثة (الزوائد ۲۲۶:۸\). ۷۴] cf۱] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۴۰۶:۳.). \۷۵] cf۱] البخاری ک الحدود ب رجم الحبلی (الصحیح ۱۷۹:۴\). ۷۶] cf۱] مسلم (الصحیح ۲۹:۱۰\). ۷۷] cf۱] رواه البخاری ک التفسیر (الصحیح ۲۱۵:۳\). ۷۸] cf۱] یجدون:أی یجتهدون\. ۷۹] cf۱] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۲۱۲:۱) وقال الألبانی إسناده صحیح\. ۸۰] cf۱] رواه البخاری (الصحیح ۸۵:۴\). ۸۱] cf۱] البخاری ک الدعوات ب الدعاء ونصف اللیل (الصحیح ۱۰۱:۴\). ۸۲] cf۱] البخاری ک التوحید ب وجوه یومئذ ناضرة (الصحیح ۲۴۳:۴\). ۸۳] cf۱] البخاری ک الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحیح ۱۴۰:۴\). ۸۴] cf۱] البخاری ک التوحید باب وجوه یومئذ ناضرة (الصحیح ۲۸۴:۴\). ۸۵] cf۱] البخاری فی تفسیر سورة ق (الصحیح ۱۹۲:۳\). ۸۶] cf۱] البخاری (الصحیح ۱۹۲:۳\). ۸۷] cf۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۳:۱، وراجع العقیدة الواسطیة لابن تیمیة:محمد خلیل هراس ص ۱۰۶\. ۸۸] cf۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۴:۱\. ۸۹] cf۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۴:۱\. ۹۰] cf۱] الفتاوی الحدیثیة:ابن حجر الهیثمی ص ۱۱۴ ط البابلی الحلبی القاهرة طبعة سنة ۱۹۷۰ م\. ۹۱] cf۱] المصدر السابق ۱۱۶، ۱۱۷\. ۹۲] cf۱] المصدر السابق ۱۱۵\. ۹۳] cf۱] المصدر السابق ۱۱۶\. ۹۴] cf۱] المصدر السابق ۲۰۳\. cf۱ ۹۵]] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۲۰۵:۱.

من مقدمات الإفرازات الفكرية

لقد سيطرت السياسة على جميع الشؤون حتى الدينية منها، وذلك لأن
للسياسة طابعها الديني. ومن أجل ذلك كان الحكام يشعرون بالحاجة الماسة إلى الدعم الديني لإغراء الجماهير بشرعية حكمهم، ومن غير الممكن أن يجدوا هم وأعوانهم بين النصوص الدينية من كتاب أو سنة. ما يشعر ولو من بعيد بشرعية حكم يقوم على الظلم والجور واغتصاب الحقوق والاستهتار بالمقدسات وحرية الفرد والجماعة، وليس أدل على ذلك من تحوير مفهوم الخلافة عمليا ونظريا إلى حكم فردي يستمد قوته وبقاءه من الاسراف في بذل الأموال. وإراقة الدماء لا من النصوص الإسلامية ولا من رغبة الشعب وإرادة الجماهير. وقد ظهرت بوادر هذا النظام في مطلع العهد الأموي. فهذا النظام بدأ في استمال أعوانه لتحوير الحقائق وخلق المبررات لتصرفاته وإعطائها صفة الشرعية، وكانت الدولة الأموية في أمس الحاجة لشراء الضمائر وتسخير المرتزقة والحاقدين لينسجوا لهم ثوبا من الفضائل والمكرمات ليستروا به ماضيهم الأسود وحاضرهم الملوث عن أعين الناس، الذين لا يملكون من الوعي والتفكير ما يفرقون بين الناقة والجمل. ومع وجود دائرة الحاقدين الذي عملوا من أجل تثبيت الحزب الأموي برزت دوائر أخرى، باشرت وضع الحديث لأهداف أخرى لا تختلف كثيرا عن أهداف بني أمية. وقد أوجز القاضي عياض الحالة التي وصل إليها الحديث في العصر الأموي والدوافع على

[صفحه ۴۱۷]

الكذب فيه بما حاصله: أن الوضاعين على حد تعبيره، كانوا أقساما. فمنهم من كان يضع على النبي ترفعا واستخفافا كالزنادقة وأشباههم. ومنهم من كان يضع خشية وتدينا كجهلة المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث في الرغائب. ومنهم من كان يضع الحديث إغرابا وسمعة وتعصبا كفسقة المحدثين ومتعصبي المذاهب. ومنهم من كان يضع الحديث تنفيذا لرغبة الحكام وطلب العذر لهم فيما ارتكبوه من الجرائم والمنكرات. ومنهم من كان يأخذ كلام العرب والصحابة وينسبه إلى الرسول لهوى في نفسه [۱] ولا يمكن إغفال دور القص الذي وضعه كعب
الأحبار، فالقصاصون كانت لهم مقدرة وبراعة في العرض، وخيالا واسعا في التصوير والإغراء. قل أن تجد أسطورة من أساطيرهم بدون سند يربطها بصحابي يسندها إلى النبي. وحتى لا يتسرب الشك إلى هذه الموضوعات، وتبقى عنصرا مؤثرا على العامة. ساعدت الدولة هذا الصنف وفتحت له المساجد والنوادي ووفرت لهم الهبات والعطاء. وبعد أن دق الوضاعون أوتاد الأحاديث الموضوعة. وظهرت الأحزاب السياسية والعقائدية، لتدلي بالدلو وتحرج ما يؤيد اتجاهها الذي يتفق بصورة أو بأخرى مع اتجاه الحزب الحاكم الذي يعارض الحاكم الشرعي علي بن أبي طالب، بعد كل هذا جاء الفقهاء ووضعوا خيمة على على هذا كله، تحت عنوان " تقديس الصحابة " ومنهم من تطرف في عنوانه فقال ": تقديس أصحاب القرون الثلاثة الأولى. " وعلى فكرة تقديس الصحابة درس العلماء الحديث ووضعوا أصوله وقواعده. وهذا الاسراف بالغلو في تنزيه جميع الصحابة عن الكذب ووضعهم في مستوى القديسين والملائكة الأبرار جاء بنتائج شوهت معالم السنة، وقامت بتحصين البغاة والقتلة والمجرمين في حصن منيع لا يجوز الاقتراب منه، لأن البغاة في خيمة القديسين والملائكة الأبرار. وأصحاب اللافتة المرفوعة. يعلمون جيدا، أن المعاصرين للنبي من الصحابة لم يكونوا في مستوى واحد، وكانوا كغيرهم من سائر الناس في مختلف العصور. فمنهم الصديقون الأبرار

[صفحه ۴۱۸]

الذين طهرت نفوسهم الصحبة من الفجور والآثام. ومنهم المسلم الذي لم يبلغ مرتبة هؤلاء، ومنهم المتستر بالإسلام الذي يستبيح كل شئ في سبيل تحقيق أهدافه ورغباته. وأصحاب اللافتة يعلمون أحاديث الارتداد التي اتفق عليها الشيخان البخاري ومسلم. والتي تنص على أن هناك من ارتد عن الدين بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينج منهم إلا مثل همل النعم كما جاء في بعض مرويات الشيخين

الجليلين. ويعلم أصحاب اللافتة أيضا أن بعض الصحابة أمثال معاوية، ومروان، والمغيرة، وابن العاص، وولده عبد الله، وطلحة، والزبير، اللذين تزعما حركة المعارضة لخلافة على بن أبى طالب. بقيادة السيدة عائشة، وكان من نتائجها أن استشهد ما يقرب من خمسين ألفا أكثرهم من المسلمين الأبرياء الذى غررتهم السيدة عائشة بوقوفها هذا الموقف الذى حذرها منه الرسول فى أكثر من مناسبة، يعلم أصحاب اللافتة أن الكثير من الصحابة كانوا مدخلا لتحريف السنة وتجاهل أحكام الدين، ونحن نسأل: إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم جعل أصحابه دون استثناء فوق البشر من حيث العدالة والصدق والإخلاص إلى غير ذلك. وإذا افترضنا أن الساحة لم يكن بها منافقون. وأن الجميع أطهار. فبأى من هؤلاء نقتدى. بالذين بايعوا أبو بكر أم بالذين تخلفوا عنه؟ بمن يمكن الاقتداء بالذين كانوا مع عثمان أم الذين أنكروا عليه أعماله؟ ومن المسؤول عن سفك الدماء يوم الجمل وبأى الفريقين نقتدى؟ وابن آكلة الأكباد وقرينة ابن العاص الذين نسبوا أنفسهم إلى الصحبة فخاضوا فى دماء المسلمين، فبمن نقتدى؟ نقتدى بأمير المؤمنين أم بالقاسطين وكلهم صحابة؟ بمن نقتدى بالحكم بن العاص وكعب الأحبار وأمثالهم من الذين بشروا بملك بنى أمية، أم بأبى ذر وحذيفة وغيرهم من الذين حذروا من ملك بنى أمية؟ بمن نقتدى بالمقتول حجر بن عدى، أم بالقاتل معاوية بن أبى سفيان؟ والخلاصة: لو صح حديث أصحابى كالنجوم. فلا شك أنه لم يرد به العموم. وإنما يرد به الذين كالنجوم فى ظلمة الليل يحذرون ويبشرون، لكى يعيد الناس ترتيب أوراقهم وتنظيم حركتهم، لأن الله ينظر إليهم كيف يعملون. إن لافتة القداسة جعلت للقرآن ثقلا آخر هو الصحابة. كيف؟ وفى حبل

[صفحه ۴۱۹]

هذا الثقل الذين أذلوا الأمة ودفعوها إلى دائرة المقهور. وفيه الذين كذبوا على الرسول ووضعوا مئات الأحاديث ليدعموا بها فريقا أو رأيا أو ليشوشوا على الإسلام ومبادئه والقرآن الكريم شن عليهم حملات عنيفة، ووصفهم بالنفاق والفسق. وفضح مؤامرتهم ودسائسهم التى كانوا يحيكونها فى الظلام للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته. فضلا إلى عشرات الأحاديث التى وصفتهم بالارتداد عن الدين والتمرد على أصوله ومبادئه. لقد وضع الحزب الأموى الصحابة داخل هالة من القداسة. ومنحهم صفة العداة. وأشاع ذلك بين الناس على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم. وجدوا فى تثبتها وتركيزها فى النفوس بالمال والسلاح وكل المغريات. وظلت هذه الفكرية تسير مع الأجيال جيلا بعد جيل. إلى أن جاء دور المؤلفين من الرجال وأحوال الرواة فى عصر يختلف عن أى عصر مضى. من حيث الصراع الفكرى والعقائدى الذى شاع وانتشر بين أوساط المسلمين خلال القرن الثانى من الهجرة، فوجد هؤلاء أن محاكمة الصحابة وتجريحهم كغيرهم يؤدى إلى الإطاحة بأكثر المرويات عن الرسول. لأن أكثرها مروى بواسطتهم، وفى ذلك انتصارا للعناصر الأخرى التى لم ترض للعقل بأن يبقى بعيدا عن المسرح. وأعطوا للعقل الحق فى أن يتدخل فى كل شئ، ما لم يكن من الضرورات التى لا- تقبل الشك والمراجعة، هذا بالإضافة إلى أن السياسيين وغيرهم يعلمون أن انتقاد الصحابة ومحاكمتهم كغيرهم، يؤدى بالنتيجة إلى انتقاد الخلافة الإسلامية بالنحو الذى سارت عليه، لأن عدالة الصحابة وعدم اجتماعهم على ضلال كما يزعمون. من أوفر الأدلة حظا على شرعيتها، فإذا التزموا بأنهم كغيرهم من سائر الناس وضعوهم فى قفص الاتهام، كان ذلك انتصارا للحزب المعارض لخلافة الثلاثة، وبالتالى تبطل خلافة الأمويين من أساسها حتى على منطقهم الذى ضللوا به الجماهير المغلوبة على أمرها. فبعد أن وضعت الأحاديث ونصبت خيمة القداسة وظهرت الفرق وجاء عصر التدوين، اهتم القائمين على هذا الأمر بأحاديث الأحكام. وتجاهلوا التيارات المتضاربة والآراء الغريبة عن تعاليم الإسلام، والافتراضات التى أيدتها

[صفحه ۴۲۰]

وروجتها بعض الفرق والأحزاب التى لبست المسوح ومضت تفلسف المعتقدات والمبادئ الإسلامية. إلى غير ذلك من الاتجاهات التى كان لها أكبر الأثر فى تحوير الحقائق والتلاعب فى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالإضافة إلى دور القصاصين والمرتزقة الذين اتخذوا القصص مهنة. فأخذ القائمين على هذا الأمر هذه المرويات ودونوها من غير تعديل أو تمحيص، ولهذا كثيرا

ما نجد بين الرواة الكثير من الذين ينتسبون إلى هذه التيارات من جبرية وقدرية ومرجئة وغيرهم، وعلى سبيل المثال فرغم الهالة التى للبخارى وجامعه فى نفوس آلاف العلماء والمحدثين، فقد تعرض للنقد وأبى الباحثون المنصفون إلا أن ينظروا إلى البخارى كمحدث اجتهد فى جمع الحديث وتدوينه يخطئ ويصيب، وإلى كتابه كغيره من مجاميع الحديث التى جمعت الغث والسمين والصحيح والفاسد. والبخارى روى عن مروان بن الحكم، وأبا سفيان، ومعاوية وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عمرو، والنعمان بن بشير. الذى لازم معاوية وولده يزيدا إلى اللحظة الأخيرة من حياته. واشترك معهما فى جميع الجرائم والفتن. ولم يذكر البخارى الحسن والحسين فى جملة من روى من الصحابة، مع العلم بأنهما يخضعان لقاعدة تعريف الصحابى. وأكثر ما روى عنه البخارى أبو هريرة، وعائشة، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر. وقد روى عن أبى هريرة أربعمائة وستة وأربعين حديثا، وعن عبد الله بن عمر مائتين وسبعين حديثا، وعن عائشة مائتين واثنين وأربعين حديثا. ولم يرو عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا حديثا واحدا. وروى عن على بن أبى طالب تسعة وعشرين حديثا. وروى عن أبى موسى الأشعرى سبعة وخمسين حديثا، وروى عن معاوية ثمانية أحاديث. وعن المغيرة بن شعبة أحد عشر حديثا، وعن النعمان بن بشير ستة أحاديث. ولم يرو عن المقداد بن الأسود إلا حديثا واحدا. ولا عن عمار بن ياسر إلا أربعة أحاديث ولا عن سليمان الفارسى إلا أربعة. وروى عن عبد الله بن عباس نحو من مائتين

[صفحه ۴۲۱]

وسبعة عشر حديثا [۲] وقد صحت عنده أحاديث عبد الله لأن أكثرها جاء عن

طريق عكرمة.. المتهم باعتناق فكرة الخوارج [۳] .

وذكر فى مقدمة فتح البارى أن أكثر من أربعمائة من رواة الصحيح تضاربت فيهم آراء المحدثين، من حيث وثاقتهم وجواز الاعتماد على مروياتهم، ونحن هنا سنلقى الضوء على البعض منهم من الذين لهم علاقة بالإفرازات الفكرية التى طفحت على الساحة. منهم: (حصن بن نمير أبو محصن الواسطى)، قال ابن معين ليس بشئ [۴] ، وقال فيه جماعة: أنه كان ناصبيا يشتم عليا [۵] (ومحمد بن زياد الالهانى الحمصى) قال الحاكم: وهو ممن اشتهر عنهم النصب [۶] (وعبد الله بن سالم الأشعرى) قال أبو داود: كان يذم على. يعنى أنه ناصبى [۷] .

ومنهم: (ثور بن زيد)، اتهمه محمد بن البرقى بالقدر [۸] ، (وثور بن يزيد الكلاعى) قال ابن معين: ما رأيت أحد يشك أنه قدرى. وقال أحمد بن حنبل: كان ثور يرى القدر [۹] وقد نهى ابن المبارك والأوزاعى عن كتابة حديثه

والاعتماد عليه [۱۰] (ووهب بن منبه) صاحب القصص قال الذهبى: من أحبار

علماء التابعين... كثير النقل من كتب الإسرائيليات. قال الجوزجانى: كتب كتابا فى القدر. وقال أحمد بن حنبل: كان يتهم بشئ من القدر.

[صفحه ۴۲۲]

ثم رجع [۱۱] .

ومنهم: (سالم بن عجلان الأفطس) قال أبو حاتم: صدوق مرجئ. وقال الفسوى: مرجئ معاند، وقال ابن حبان: تغرر بالمعضلات عن الثقات. ويقلب الأخبار [۱۲] (وعبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيى)، قال النسائى: ليس بالقوى. وضعفه أحمد وقال أبو داود: كان داعيا فى الأرجاء [۱۳] .

ومنهم: (داود بن الحصين أبو سليمان) قال ابن حبان كان يذهب مذهب الشراة - يعنى الخوارج كعكرمة.. تجب مجانبة حديثهم [۱۴] ، (والوليد بن كثير) قال أبو داود: كان أباضى [۱۵] وقيل: كان خارجيا [۱۶] (وعمران بن حطان

السدوسى البصرى الخارجى) قال العقيلى: كان خارجيا [۱۷] وعمران هذا هو

الذى قال شعرا يشيد فيه بابن ملجم قاتل على بن أبى طالب. فهؤلاء رواة اعتمد عليهم البخارى فى صحيحه. وغير هؤلاء كثير. وقد

ذكر ابن حجر فى مقدمة البخارى أكثر من أربعمائة من رواة الصحيح تضاربت فيهم آراء المحدثين. وهذا أمام الباحث المنصف ليس فيه ذم للبخارى. ولا لغيره من الذين جمعوا الحديث ودونوه. فهؤلاء قاموا بعمل لم يقم به الصحابة بعد وفاة الرسول. ولم يقل البخارى أو غيره عليكم بكتابى وقدسوه. ولم يفرضه على الذين جاؤوا من بعده. وهؤلاء المؤلفون كانوا يعتمدون على اجتهادهم حينا. وعلى غيرهم ممن يحسنون به الظن حينا آخر. فيخطئون ويصيبون ككل إنسان لم يعصمه الله من الخطأ والزلل. وعلى الرغم من أن مجاميع الحديث جمعت الغث والسمين والصحيح والفاسد. فإننا نعترف لأصحابها بالفضل

[صفحه ۴۲۳]

والعمل الطيب والجهد المثمر. لأنهم وضعوا أمام الباحثين عن الحقيقة مادة غنية يستطيعون بها أن يميزوا بين الغث والسمين وأن يحددوا الطريق إلى الصراط المستقيم. رحم الله البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وأبا داوود والحاكم وابن ماجة وابن عساكر وأبا نعيم والديلمى والبغوى ونعيم بن حماد والبيهقى وابن حبان وابن خزيمة والضياء والسيوطى وغيرهم من الذين جمعوا لنا الأحاديث كى ننظر فيها نظرة الدراية التى تقود إلى الحقيقة. د - مرايا عالم الدراية: لم يترك النبى صلى الله عليه وسلم أمته هملا. فالقرآن الذى بين يدى الناس فى يومنا هذا هو القرآن الذى جمع فى عهده صلى الله عليه وسلم. وليس صحيحا أن القرآن تم جمعة وترتيبه بعد وفاة الرسول. وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يبين تفسير كل آية ويأمر بكتابة ما يراه من هذا التفسير. لقد فسر صلى الله عليه وآله وسلم المعارف الإلهية والأحكام التشريعية وأظهر الفضائل الخلقية والمبادئ الإنسانية. وبما أن الكتاب وحى من الله تعالى فإن السنة هى أيضا وحى من الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم ": أوتيت القرآن ومثله معه " فسنة النبى وتفسيره لآيات الكتاب تبين بحمل القرآن وتخصص عامة وتقييد مطلقه. والكتاب والسنة ينظمان كل نواحى الحياة. ففيهما العقائد والعبادات والفضائل والنظم الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ونظام الحكم والسياسة. فالسنة لم تترك شيئا إلا وبينته. ونصوص الكتاب والسنة جاءت منفصلة وموضحة كل المسائل التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان. فليس لأحد أن يزيد عليها أو ينقص منها [۱۸] والكتاب والسنة لا يخاطبان جنسيا دون جنس ولا شعبا دون

شعب. وإنما يخاطبان الناس جميعا فى كل زمان ومكان. ومن الدليل أن القرآن جمع فى عهد النبى وأنه تم تفسيره للصحابة لإقامة الحجة عليهم، قوله تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه - فإذا قرأناه فاتبع قرآنه - ثم إن علينا بيانه) [۱۹] .

[صفحه ۴۲۴]

فالجمع والبيان وحى من الله ينطق على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى فى حركته. ومن الثابت أن بعض الصحابة كانوا يكتبون الوحى للنبى. كعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وأبى بن كعب، يقول الشيخ سيد سابق: فكان كلما نزلت آية دعاهم وأمرهم بكتابتها وأرشدهم إلى موضعها من السورة التى يريد أن يلحقها بها. وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن من تلقاء أنفسهم... وكان الغرض من الكتابة تقوية ما علق بالذاكرة، وكانوا يكتبون فى جريد النخل [۲۰] وصفائح الحجارة [۲۱] والرقاع والأقتاب [۲۲] والأكتاف [۲۳] .

وكان النبى يأمرهم بحفظ آيات القرآن وما بينه لهم من أحكام وتفسير قال تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) [۲۴] ، قال سيد سابق: أى بيانا. وفى الاصطلاح. علم يفهم به معانى كلام الله ويستخرج به أحكامه [۲۵] ، والبيان يقتضى أن يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خفى عليهم من ألفاظ القرآن ومعانيه. قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) [۲۶] ، يقول سيد سابق: وقد امتثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فبين للأمة ما هو فى حاجة إلى بيان. روى عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن. أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا [" ۲۷] .

مما سبق علمنا أن جمع القرآن وبيان ما خفى من ألفاظه كان بوحى

[صفحه ۴۲۵]

من الله. وأن النبی صلی الله علیه وسلم بین للناس ما أنزل إلیهم. وأمر بکتابة القرآن والعلم وأن الصحابة کانوا یتعلمون القرآن والسنة جنبا إلی جنب لأمر الله تعالی بأن یأخذوا بما أتی به الرسول وأن ینتهوا عما نهی عنه قال تعالی: (وما آتاکم الرسول فخذوه وما نهاکم عنه فانتهوا) [۲۸] ، وقال: (من یطع الرسول فقد أطاع الله) [۲۹] ، وقال: (لقد کان لکم فی رسول الله أسوة حسنة لمن کان یرجو الله والیوم الآخر...) [۳۰] .

وبعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم. تفرغ الإمام علی لجمع القرآن وتفسیره بعد أحداث السقیفة. وکان هناک من الصحابة من جمع القرآن کله ومنهم: علی، وزید بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبی بن کعب [۳۱] ورأی

عمر بن الخطاب فی خلافة أبی بکر أن یجمع القرآن لیکون فی خزینة الدولة. روی البخاری أن أبا بکر قال: أتانی عمر فقال: إن القتل قد استحر یوم الیمامة بقراء القرآن. وإنی أخشی أن یستحر القتل بالقراء فی المواطن فیذهب کثیر من القرآن. وإنی أرید أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر: کیف نفعل شیئا لم یفعله رسول الله صلی الله علیه وسلم؟ قال عمر: هو والله خیر. قال أبو بکر. فلم یزل یراجعنی حتی شرح الله صدری لذلک [" ۳۲] .

وبدأت عملیة الجمع. وأثناء هذه العملیة سقط الکثیر من تفسیر الآیات التی تحذر من الفتن. بل وسقط تفسیر بعض آیات الأحکام. ولذا وجدنا عمر بن الخطاب یقول أثناء خلافته فیما رواه البخاری: إن الله بعث محمدا صلی الله علیه وسلم بالحق وأنزل علیه الکتاب. فکان مما أنزل آیة الرجم. فقرأناها وعقلناها ووعیناها. رجم رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم. ورجمنا بعده

[صفحه ۴۲۶]

فأخشی إن طال الناس زمان أن یقول قائل: والله ما نجد آیة الرجم فی کتاب الله فیضلوا بترک فریضة أنزلها الله. ألا وإن الرجم حق علی من زنی وقد أحصن.... [۳۳] ، وما ذکره عمر کان من التفسیر ولیس من القرآن. ولم یجده عمر لأن عملیة الجمع سقط منها کثیر من التفسیر. وقول عمر هذا اشتهر علی أنه یقصد به القرآن الکریم. ولکن الحقیقة تخالف ذلک، فالآیة من مقام البیان والتفسیر. وهذا المقام کان قد استهدف بعد وفاة النبی صلی الله علیه وآله وسلم. عندما نقل الصحابة ما کان فی الرقاع والأکتاف والعسب وجمعوه فی مصحف واحد. ویقول الشیخ سید سابق عن هذا الجمع: کان الجمع مقتصرا علی ما لم تنسخ تلاوته [۳۴] وبینما کان الإمام علی متفرغا لجمع القرآن والتفسیر. کان ابن عباس یعلم تفسیر بعض الآیات فی المصحف الذی جمعه الصحابة فی عهد أبی بکر. بینما کان عمر یجهل هذا التفسیر. روی البیهقی بسند صحیح أن عمر بن الخطاب سأل ابن عباس فقال: أرأیت قول الله تعالی لأزواج النبی صلی الله علیه وآله وسلم ": ولا تبرجن تبرج الجاهلیة الأولی، " هل کانت جاهلیة غیر واحدة؟ فقال ابن عباس: ما سمعت بأولی إلا ولها آخره، قال عمر: فأتنی من کتاب الله مما یصدق ذلک، فقال ابن عباس: قوله تعالی: (وجاهدوا فی الله حق جهاده)، کما جاهدتم أول مرة. قال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟ فقال ابن عباس: مخزوم وعبد شمس [" ۳۵] ، فالجهاد آیة فی القرآن ومخزوم وعبد شمس تفسیر لهذه الآیة. وبعد أن استفسر عمر من ابن عباس عن الذین أمرهم الله بجهادهم. روی أن عمر قال لعبد الرحمن بن عوف: أما علمت أنا کنا نقرأ (وجاهدوا فی الله حق جهاده)، فی آخر الزمان کما جاهدتم فی أوله. فقال عبد الرحمن: ومتی ذلک؟ قال عمر: إذا کان بنو أمیة الأمراء وبنو المغیرة

[صفحه ۴۲۷]

الوزراء [" ۳۶] ، وما ذکره عمر ما هو إلا تفسیر للآیة المذکورة. وإذا کانت الآیة فی کتاب الله الذی تولی الله حفظه. وإذا کان التفسیر قد سقط عند جمع المصحف بعد ذلک. فإن السنة الشریفة بینت هذا التفسیر عند الحفاظ الذین احتفظوا بالتفسیر داخل عقولهم ولیس فی صنادیق بنی أمیة أو بنی المغیرة. فعن أبی سعید الخدری قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: إن أهل بیتی سیلقون بعدی من أمتی قتلا وتشریدا وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمیة وبنو المغیرة وبنو مخزوم [" ۳۷] ، فهذا تفسیر جامع بابه طویل وعریض. وروی أن

المصحف الذى جمعه أبو بكر كان عنده حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته. ثم عند حفصة بنت عمر [۳۸] ، وعندما جاء عهد عثمان سليل الأمويين. أرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك [۳۹] وروى البخارى أن حفصة أرسلت بها إلى عثمان.

فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث. فنسخوها فى المصاحف. ورد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا. وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق [" ۴۰] .

وقيل إن عثمان فعل ذلك عندما اختلف الناس فى تلاوته نظرا لأن القرآن يشمل على الأحرف السبعة. ولقد اختلف العلماء فيما هو المقصود بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا [۴۱] ، فمنهم من قال: الأحرف السبعة. سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد. واللغات السبع هى: لغات قريش

[صفحه ۴۲۸]

وهذيل وثقيف هوزان وكنانة وتميم واليمن [۴۲] ومنهم من قال: نزل بلغة قريش

وهذيل وتيم والأزد وربيعة وهوازن وسعد [۴۳] فاختلاف التلاوة كان باعثا لعثمان

لكى ينسخ من المصاحف مصحفه. ليقضى على أصول الخلاف. ولا ندرى إذا كان الله قد أمر بنزول كتابه على الأحرف السبعة فهل يجوز أن يلغى أى مخلوق هذا الأمر؟ وإذا اختلف الناس فهل يكون العيب إلا فى الناس. وهل يقتضى إزالة هذا العيب أن تمتد الأيدى إلى الأصول أم إلى تعليم الناس ووضعهم على طريق اللاخلاف. إن ربط الأحرف السبعة بألسنة القبائل عنوان لا يهضمه عالم التدبر.. والذى يمكن قبوله ما روى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان الكتاب الأول ينزل على حرف واحد. وأنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه وأمثال، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه. واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا [" ۴۴] .

أما ما قيل بأن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب. فإن القرآن يرده، قال تعالى فى كتابه: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين له)، ومعنى هذا أن الرسل إنما تبعث بألسنة قومها لا بألسنة من سواها. ولقد بين القرآن الكريم أن اللسان الذى بعث به النبى صلى الله عليه وآله وسلم، هو لسان قومه. أى لسان قريش لا من سواه من الألسنة العربية. وكان قومه المرادون بذلك هم قريشا لا من سواهم. ومن ذلك قوله تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك) يعنى قريشا لا سواهم.

[صفحه ۴۲۹]

فالقرآن نزل بلغه قريش، ومن هذه اللغة خرج العلم وتمدد على صفحة الأرض. وعثمان نفسه قال للذين نسخوا المصاحف ". اكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم [" ۴۵] ، ونحن لا ندرى إذا كان قد نزل بلسان قريش فكيف يكتب بلسان قريش؟ ومن الثابت والمحفوظ أن عبد الله بن مسعود تصدى لقرار عثمان فى هذا الشأن. يقول محب الدين الخطيب وهو من المتحمسين فى الدفاع عن الدولة الأموية: أن ابن مسعود كان يكتب ما يوحى من القرآن فى مصحفه كلما بلغه نزول آيات منه. وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حسن تلاوة ابن مسعود للقرآن. وقد تسارع أبو بكر وعمر ليوصلا لابن مسعود هذا الثناء النبوى [۴۶] وكانت تغلب على ابن مسعود لهجة قومه. والنبى صلى الله عليه

وسلم رخص له أن يقرأ بلهجاتهم [۴۷] وعندما صدر قرار عثمان بحرق

المصاحف يقول أبو بكر بن العربى وهو أيضا من المتحمسين للدولة الأموية: كان فى بقائها فساد. أو كان فيها ما ليس من القرآن. أو ما نسخ منه. أو على غير نظمه. إلا أنه روى عن ابن مسعود أنه خطب بالكوفة فقال: أما بعد فإن الله قال: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة)، وإنى غال مصحفى فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل. وأراد ابن مسعود أن يأخذ مصحفه فأكرهه عثمان على رفع مصحفه. ومحا رسومه فلم تثبت له قراءة أبدا. ونصر الله عثمان والحق يمحوها من الأرض [۴۸] وفى تعليق لمحب الدين الخطيب

يقول: إن عثمان كان

على حق فى غسل المصاحف كلها ومنها مصحف ابن مسعود لأن توحيد كتابة المصحف على أكمل وجه ما كان فى استطاعة البشر. وهو من أعظم أعمال عثمان [۴۹] ومن المعلوم أن عثمان ضرب ابن مسعود خلال هذه الأحداث.

وعلى أى حال فقد تم تفريغ القرآن من التفسير. أما المصاحف التى كانت عند

[صفحه ۴۳۰]

حفصة. فقد ظلت عندها حتى ماتت. ويقول الشيخ سيد سابق: ثم أخذت المصاحف بعد موتها وغسلت غسلا وقيل: إن مروان بن الحكم أخذها وأحرقها [۵۰] .

وهكذا أحرقت أحاديث عند المقدمة، ثم جاء مروان بن الحكم الذى لعنه الله على لسان رسوله وبدأ عملية حرق جديدة. والله غالب على أمره. يقول تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [۵۱] ، وقال جل شأنه (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) [۵۲] .

وعندما جاء عهد الإمام على كان يحتج على البغاة والمخالفين بالقرآن والسنة. وكان القوم قد تعمقوا فى عالم التأويل وتوغلوا فى عالم إطفاء السنة. وروى أنه قال لابن عباس حينما بعثه إلى الخوارج: لا تخاصمهم بالقرآن. فإنه حمال أوجه. ولكن حاججهم بالسنة. فإنهم لن يجدوا عنها محيصا [" ۵۳] ، ولكن عالم الحريق لم يفسح المجال الكافى لتلقى هذا الحوار. ولم ينصت لابن عباس إلا قليلا.

إن القرآن والسنة وحى من الله تعالى. فالقرآن محفوظ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والسنة ترجمان له وعلى طريقها يكون الامتحان ويترتب على الامتحان الثواب والعقاب كما نص القرآن وعلى طريق السنة يمكن أن تمتد الأيدى لتبدل أو تحرف ولكن الأيدى ليس لها أن تفعل ذلك مع القرآن. ولهذا ساق النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى القرآن فقال ": يا أيها الناس أنزل الله كتابه على لسان نبيه وأحل حلاله. وحرم حرامه.

[صفحه ۴۳۱]

فما أحل فى كتابه على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة. وما حرم فى كتابه على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة [" ۵۴] ، وقال: "لا يمكن الناس على شيئا، إنى لا أحل إلا ما أحل الله فى كتابه. ولا أحرم إلا ما حرم الله فى كتابه [" ۵۵] ، وقال ": ستكون عنى رواة يروون الحديث فاعرضوه على القرآن. فإن وافق القرآن فخذوه وإلا فدعوه [" ۵۶] ، وقال ": سئلت اليهود عن موسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا - وفى رواية - وسئلت النصارى عن عيسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا - وإنه ستفشو عنى أحاديث فما أتاكم من حديث فاقرأوا كتاب الله واعتبروه فما وافق كتاب الله فأنا قلته وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله [" ۵۷] .

فالقرآن هو العمود الفقرى لحركة السنة. والقرآن وحى يتحكم فى وحى السنة المتحركة. والقرآن والسنة نور. والنور لا يرى ولكن ترى به الأشياء. فلو لم يك حولنا ذرات وأجسام فى هذا الكون ما رأينا النور ولكننا نراه! إذا انعكست أشعة النور على هذه المواد. ولقد علمنا أن موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية فكان الجواب (قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا...) [۵۸] ، فنور الله له معالم تدل عليه. وكذلك نور السنة. ومن المعالم التى ينعكس عليها نور السنة دوائر الإيمان والعمل الصالح. فعلى هذه الدوائر فقط يمكن أن نرى نور السنة قال تعالى وهو يخاطب الذين آمنوا: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) [۵۹] ، وقال تعالى: (ومن

[صفحه ۴۳۲]

لم يجعل الله له نورا فما له من نور) [۶۰] .

إن النور فى دائرة العباد لن يتحقق إلا بتقوى الله والإيمان برسوله. فهنا فقط يعمل نور السنة ويكشف للعباد طريقهم الذى يمشون فيه. وكما أن الأنبياء والرسل عليهم السلام يهدون الناس إلى نور الله. فكذلك الأئمة والأوصياء الذين عينهم الله عليه لسان رسله يهدون

الناس إلى نور سنة الأنبياء. وهكذا كان لكل نور طريق يقود الناس إلى صراط العزيز الحميد. والذى حدث فى عهد الرسالة. أن الرسول اهتم بأهل بيته تربية وتثقيفا وتأهيلا وتفضيلا. ولم يكن هذا الاهتمام عاطفيا أو خاضعا لآصرة الدم أو العرق. وإنما كان تنفيذا لأمر إلهى أوحى به إليه. وما على الرسول إلا البلاغ المبين. وكان من المتوقع أن يعرف الرعيل الأول لتلك الصفوة قدرها. وأن يضع تلك الأوامر الإلهية الواردة بحقهم نصب عينيه. غير أنه من المؤسف أن يذهل عنها ويضرب بها عرض الجدار، وقد رأينا من التاريخ أن آل محمد صلى الله عليه وسلم قد لاقوا الكثير من البطش والاضطهاد وتجرعوا الكثير من المحن والويلات وفى خضم ذلك كله كانوا صابرين محتسبين مقدرين للدور الرسالى المنوط بهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بهذا كله وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا. وعلى إثر المذابح التى أقيمت لأهل البيت، رفعت رايات الأنظمة السياسية الفاسدة المستبدة التى تمثلت فى الدولة الأموية وتحت هذه الرايات ظهرت الفرق والمذاهب والتشرذم والتحزب. كل حزب بما لديهم فرحون. وكان الحكام يقومون بتغذية تلك النعرة داخل الأمة وإذكاء نيرانها. وفى هذه الموجات ظهر الغلاة والمتصوفة وأصحاب الشطحات. واجتاحت الأمة ثقافات غريبة دخيلة وفلسفات يونانية وهندية وفارسية قديمة. وذلك بعد أن تم ترجمة العديد منها إلى اللغة العربية مما أدى إلى تهيئة المناخ لظهور الدهريين والجدليين والملحدين والمشككين. فصار هناك من يتكلمون فى الذات الإلهية والأسماء والصفات والجوهر والعرض. وهل القرآن مخلوق أم غير

[صفحه ۴۳۳]

مخلوق إلى غير ذلك من قضايا منطقة الصفر. وعلى امتداد الثورات والانقلابات كان الغالب الأعم يتجه إلى العلماء ولم يجرؤ عالم على نقد معالم الشذوذ لأن هناك قاعدة تربطه تقول: القاتل والمقتول فى الجنة والمجتهد إن أخطأ له حسنة وإن أصاب فله عشرة، وإن العدالة ليست شرطا لقبول الحاكم المتغلب لأن الأصل: أطيعوا البر والفاجر. ولا شئ فى ركوب قطار الإمام الفاسق لأن كل القطارات تصل إلى أهداف الله. وفى داخل منطقة الصفر غرس فى نفوس العامة الكثير من الآراء والمقالات وصرف الناس عن الاجتماع حول كلمة واحدة ورأى واحد وعندما جاء القرن الرابع. تصدى للإفتاء فقهاء قادوا المسيرة نحو إغلاق باب الاجتهاد. نظرا لحالة الفوضى التى سادت القضاء والإفتاء فى ذلك الحين. وعلى هذا نرى أنهم عالجوا الفوضى والاستغلال والفساد. بالجمود لا بالتنظيم القويم. فكان الدواء شرا من الداء. ويقول الشيخ خلاف عن هذه الفترة: إن العلماء فشت فيهم أمراض خلقية. جالت بينهم وبين السمو إلى مرتبة الاجتهاد. فقد ظهر بينهم التحاسد والأنانية. فكانوا إذا طرق أحدهم باب الاجتهاد فتح على نفسه أبوابا من التشهير به وحط أقرانه من قدره، وإذا أفتى فى واقعة برأيه. تصدوا إلى تسفيه؟ رأيه وتفنيد ما أفتى به بالحق وبالباطل [۶۱] .

وكان من آثار الجمود لدى بعض العلماء أنهم تعصبوا لأئمتهم وأنزلوا أقوال إمامهم مكانا فوق ما للقرآن والسنة من مقام... وانصرفوا عن الأساس التشريعى الأول وهو القرآن والسنة بحيث أصبحوا لا يرجعون إلى نص قرآنى أو حديث إلا ليلتمسوا فيه ما يؤيد مذهبهم ولو بضرب من التعسف فى الفهم والتأويل [۶۲] ، والواقع أن الجمود يتعارض مع طبائع الأشياء ومع سنة التطور الذى يعد بمثابة قانون يخضع له كل ما فى الوجود حتى الصخور كما يقرر علماء

[صفحه ۴۳۴]

الجيولوجيا [۶۳] ، والجمود يؤدى دائما إلى الالتجاء للحيل التى توصف بالحيل الشرعية. للتخلص من اتباع أحكام الشريعة. بل وتعاليم الإسلام بوجه عام. بل والإقدام على ارتكاب بعض المحرمات وأنواع الفساد. وفى ذلك يقول ابن القيم: إن إقفال باب الاجتهاد أدى إلى التحايل. حتى وضعت الكتب فى الحيل والمخارج للهروب من كل التزام. حتى تحايل بعضهم فى إسقاط حد السرقة. وبعضهم لأخذ أموال الناس وظلمهم فى نفوسهم وسفك دمائهم وإبطال حقوقهم وإفساد ذات بينهم [" ۶۴] .

ومع الجمود الذى جاء نتيجة لجفاف نهر العلم فى مدرسة رفعت للرأى والأهواء أعلاما. ومع الحيل التى تزين كل شذوذ فى عالم الفقيه الفاسق والإمام الجائر وقف الجميع تحت مظلة العذاب وهذه المظلة تجمع من ضربهم الخسف فلا يستطيعون مضيا ولا يرجعون.

والخسف لا يضرب إلا الذين استقالوا من حركة الحياة وجلسوا فى منطقة الصفر يهتفون للسلطان أمام كل مصلوب ويضربون بالدف حول كل قرد يأتيهم الدجال وهم على هذا الحال. يقول أبو حامد الغزالى: إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها. فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة [" ۶۵] وفى هذا الوقت فى دولة بنى العباس كانت الكلمة قد تمزقت. وانقسمت ممالك الأرض. وحكم الناس بالعسف والظلم والجور [۶۶] ، وكان هذا كله مقدمة لمجئ التتار والسبب الرئيسى لهجوم التتار هو التعصب المذهبى بين الشافعية والحنفية [۶۷] وعندما جاء التتار أحاطوا بدار الخلافة

ورشقوها بالنبال من كل جانب وقتل هولاكو الخليفة العباسى رفسا بالأقدام [۶۸] .

[صفحه ۴۳۵]

وبدولة بنى العباس تفرقت الجماعة [۶۹] .

والنبى صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أخبر بالغيب عن ربه وذكر هذا الهجوم التتارى الذى يسلطه الله على الظالمين. فقال": يوشك خيل الترك مخرمة أن تربط بسعف نخل نجد [" ۷۰] ، وقال ": لتنزل طائفة من أمتى أرضا يقال لها البصرة، يكثر بها عددهم ويكثر بها نخلهم ثم يجئ بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار العيون حتى ينزلوا على جسر لهم يقال لها دجلة\ ۷۱] cf۱] ، وفى رواية: كأن وجوههم المجان المطرقة. ينتعلون الشعر ويتخذون الدرق حتى يربطوا خيولهم بالنخل\ " ۷۲] cf۱] .

ومن الطريف أن يقال إن الجماعة تفرقت بدولة بنى العباس. ووجه الطرافة أن الذين ضيعوا الصلاة واتبعوا الشهوات قد تفرقوا من زمن طويل حتى قبل مجئ دولة بنى العباس. وكيف تكون هناك جماعة تحت رايات الجبرية والمرجئة. وسلاطين الاستبداد والظلم! إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم رفض شريحة زمنية على امتداد تاريخ الأمة. فلقد قيل له: يا رسول الله: أى الناس خير؟ قال: أنا ومن معى. فقيل له: ثم من؟ قال: الذى على الأثر فقيل له: ثم من؟ فرفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم\ " ۷۳] cf۱] ، فهل معاوية وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعبد الله بن أبى السرح ومروان بن الحكم كانوا معه؟ وهل بسر بن أرطأة وسمرة بن جندب ويزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وعبد الملك بن مروان. كانوا على الأثر؟ هل الناكثون والقاسطون والمارقون كانوا معه أو كانوا على الأثر؟ كيف أمر بقتالهم إذن؟ هل أبناء عام ستين وما بعدها الذين ضيعوا لصلاة وأمر النبى بالاستعاذة بالله منهم

[صفحه ۴۳۶]

كانوا على الأثر؟ كيف أمر بالاستعاذة إذن؟ إن الجماعة لم يرفع أعلامها البغاة، ومن الطريف أيضا أن الإمام على بن الحسين بن على بن أبى طالب سأل ابن المبارك. من الجماعة؟ فقال ابن المبارك: أبو بكر وعمر. قال على بن الحسين: قد مات أبو بكر وعمر. فقال ابن المبارك: فلان وفلان، فقال له: قد مات فلان وفلان. فقال ابن المبارك: أبو حمزة السكرى جماعة! قال الترمذى: وأبو حمزة هو محمد بن ميمون وكان شيخا صالحا. وإنما قال هذا فى حياته\ " ۷۴] cf۱] .

إن النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": يد الله مع الجماعة\ " ۷۵] cf۱] ، فبيد من قتل عمار وحجر بن عدى والحسين ومن معه وعلى يد من تم اجتياح المدينة وحوصرت مكة ورمى البيت بالحجارة؟ إن الذين كانوا مع النبى هو الذين لم يرفعوا السلاح فى وجه حبل النبى وسبيله وساروا من بعده على الأثر وظهروا تحت شعاع نور السنة، فالنور لا يرى ولكن ترى به الأشياء. إن الأمة بجميع فرقها ومذاهبها متفقة على الكتاب والسنة. ورغم ذلك اختلفت الأمة ضروبا من الاختلاف فى الأصول والفروع. وتنازعوا فيها فنونا من التنازع فى الواضح والمشكل من الأحكام والحلال والحرام والتفسير والتأويل والعيان والخبر والعادة الاصطلاح. والعمود الفقرى لهذا الاختلاف ينحصر فى: ممن تأخذ السنة؟ فهناك مدرسة نأخذ السنة من الصحابة. والصحابة عند هذه المدرسة ثقات عدول. والقرآن يرد على هذه المدرسة قولها. قال تعالى فى نفر من الصحابة: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم\) ۷۶] cf۱] ، فالصحابة الذين رموا فراش رسول الله هل يستبعد عليهم أن يكذبوا على رسول الله؟ كيف يدخل دائرة العدول من أدخله الله فى دائرة الإثم

[صفحه ۴۳۷]

وأوعد من تولی کبره منهم عذابا عظیما؟ ویقول تعالی فی طائفة أخری منهم: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إلیها وترکوک قائما قل ما عند الله خیر من اللهو ومن التجارة والله خیر الرازقین\) ۷۷] cf۱] ، فهل یدخل دائرة العدول من ترک الصلاة وراء رسول الله یوم الجمعة وترکه قائما وانطلق إلی الطبل والتجارة؟ وروی البخاری حدیث الارتداد وقد ذکرناه فیما سبق وفیه ": فأقول یا رب أصحابی أصحابی فیقال إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک\ " ۷۸] cf۱] ، وروی أیضا ": إنک لا علم لک بما أحدثوا بعدک. إنهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری\ " ۷۹] cf۱] ، فهل المرتد ثقة؟ هل المرتد فی دائرة العدول؟ وقال تعالی: (یا أیها الذین آمنوا إن جاءکم فاسق بنبأ فتبینوا\) ۸۰] cf۱] ، فهل یجوز للذی لم یأتمنه الله علی نبأ. أن تأتمنه الأمة علی قیادتها؟ هل الفاسق یمکن أن یقود الناس إلی صراط الله؟ هل یجوز للفاسق أن یعلم الناس تأویل القرآن؟ وهناک مدرسة لا ترفع إلا أعلام النبی صلی الله علیه وسلم وتأخذ بسنته من الذین عینهم الله علی لسان نبیه، وتری علی طرف هذه المدرسة دموع أبی بن کعب وأبی ذر الغفاری والمقداد وسلمان الفارسی وتری علیها أیضا دماء عمار وحجر بن عدی، وتری أعلام الحسین ومن معه، وإذا کان هؤلاء جمیعا حججا علی الجیل الأول. وإذا کانت حرکتهم دعوة للنجاة لینظر الله تعالی إلی عباده فی القرن الأول کیف یعملون. فإنهم أیضا حجج علی الحاضر وعلی المستقبل. لأن التاریخ وحدة واحدة تنقسم إلی ماض وحاضر ومستقبل فإذا عملت الخطیئة فی الأرض کان من شهدها فکرهها کمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضیها کان کمن شهدها\ ۸۱] cf۱] ، فالحاضر یشارک الماضی فی الإثم وإن بعدت المسافة بینهما. ولهذا کان حجج الجیل الأول کمفتاح فی ید الحاضر یفتح به

[صفحه ۴۳۸]

خزانة الماضی لیبحث فیها عن الحقیقة، والحقیقة فی یدیه، وهذا من فضل الله علیه. وهناک مدرسة ولدت فی عالم الجمود وسهر علیها أساتذة التبشیر والصهیونیة. وهذه المدرسة تکتفی بإطلاق الأسماء الإسلامیة علی أبنائها فی أغلب الأحیان. الإسلام عندهم اسم والقرآن رسم إذا رتلوا القرآن فانظر حولهم. حتما ستجد أما قبرا أو سرادق عزاء أو حفلة من حفلات النفاق التی یلبسون بها علی شعوبهم. وتلامیذ هذه المدرسة عندهم جواب لکل سؤال. وکل جواب لبنة فی صرحهم العتیق الذی أقاموه للصد عن سبیل الله. ولا یطلقون إجاباتهم إلا إذا اعتمدت من أساتذة التعتیم الیهود والنصاری وإذا کان أساتذة التعتیم قدیما اعتمدوا مذهب الجبریة والمرجئة. فهم الیوم یتحرکون بملابس نظیفة ویحملون حقائب أنیقة فیها جمیع الأسئلة والأجوبة التی هدفها الصد عن سبیل الله ولکن تحت شعار حقوق الإنسان وتقدیم الخدمات الاجتماعیة. ونحن نطلق علی أتباع هذه المدرسة اسم " الرویبضة " لأن مجال عملهم هو ساحة الذین لا یعلمون. الذین قتلوا العلم فأصابهم الجمود. والذین ترکوا الطهر فوقعوا فی الرجس لیلتقطهم النجس ثم لیقودهم النجس بعد ذلک إلی المسیح الدجال الذی ما صنعت فتنة منذ خلقت الدنیا إلا ستصب فی إنائه آخر الزمان یقول النبی صلی الله علیه وآله وسلم: "إن أمام الدجال سنین خداعة یکذب فیها الصادق ویصدق فیها الکاذب. ویخون فیها الأمین ویؤتمن فیها الخائن. ویتکلم فیها الرویبضة، " قالوا: وما الرویبضة یا رسول الله؟ قال: التافه یتکلم فی شؤون العامة\ " ۸۲] cf۱] ، وفی روایة: الفاسق یتکلم فی شؤون العامة\ ۸۳] cf۱] ، وفی روایة: السفیه یتکلم فی شؤون العامة\ " ۸۴] cf۱] .

[صفحه ۴۳۹]

[۱] الموضوعات فی الآثار والأخبار:هاشم معروف ۱۴۷.

[۲] ضحی الإسلام ۱۱۱، ۱۱۲:۲، الباعث الحثیث ص ۲۵، مقدمة فتح الباری ۲۴۸، ۲۴۹:۳.

[۳] أنظر المعارف لابن قتیبة ص ۲۰۱.

[۴] میزان الاعتدال:الذهبی ص ۵۵۴:۱.

[۵] دراسات فی الحدیث والمحدثون:هاشم معروف ص ۱۷۸.

[۶] میزان الاعتدال ۵۵۱:۳، دراسات فی الحدیث ۱۸۴.

[۷] مزان الاعتدال ۴۲۶:۲، دراسات فی الحدیث ۱۸۶.

[۸] میزان الاعتدال ۳۷۳:۱.

[۹] میزان الاعتدال ۳۷۴:۱.

[۱۰] میزان الاعتدال ۲۷۴:۱.

[۱۱] میزان الاعتدال ۳۵۳:۴.

[۱۲] میزان الاعتدال ۱۱۲:۲.

[۱۳] میزان الاعتدال ۵۴۲:۲.

[۱۴] میزان الاعتدال ۶:۲.

[۱۵] میزان الاعتدال ۳۴۵:۴.

[۱۶] دراسات فی الحدیث ۱۹۰.

[۱۷] میزان الاعتدال ۲۳۵:۳.

[۱۸] سورة القیامة: الآیة ۱۷:۱۹.

[۱۹] أی العسب.

[۲۰] أی اللخاف.

[۲۱] أی الخشب الذی یوضع علی ظهر البعیر.

[۲۲] أی عظم البعیر أو الشاة.

[۲۳] سورة الفرقان: الآیة ۳۳.

[۲۴] مصادر التشریع ۳۹.

[۲۵] سورة النحل: الآیة ۴۴.

[۲۶] مصادر التشریع ۴۵.

[۲۷] سورة الحشر: الآیة ۷.

[۲۸] سورة النساء: الآیة ۸۰.

[۲۹] سورة الأحزاب: الآیة ۲۱.

[۳۰] مصادر التشریع الإسلامی:سید سابق ص ۳۵ ط دار الفتح للإعلام.

[۳۱] مصادر التشریع ۱۶.

[۳۲] البخاری باب جمع القرآن (الصحیح ۲۲۵:۳).

[۳۳] البخاری (الصحیح ۱۷۹:۴).

[۳۴] مصادر التشریع الإسلامی ص ۲۰.

[۳۵] رواه البیهقی وذکره ابن کثیر فی البدایة ۲۱۵:۶. ورواه الخطیب کنز العمال ۲۷۱:۱۱.

[۳۶] رواه أبو عبید وابن جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم وابن مردویه (کنز العمال ۴۸۰:۲).

[۳۷] رواه نعیم بن حماد والحاکم (کنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۳۸] البخاری باب مجمع القرآن (الصحیح ۲۲۵:۳).

[۳۹] البخاری (الصحیح ۲۲۵:۳).

[۴۰] البخاری باب جمع القرآن (الصحیح ۲۲۶:۳).

[۴۱] مصادر التشریع الإسلامی ۲۹.

[۴۲] مصادر التشریع الإسلامی ۲۹.

[۴۳] المصدر السابق ۲۹.

[۴۴] الطحاوی فی مشکل الآثار ۱۸۵:۴.

[۴۵] البخاری (الصحیح ۲۲۶:۳).

[۴۶] مسند أحمد ۱:۲۵، ۲۶.

[۴۷] العواصم من القواصم:ابن العربی تحقیق محب الخطیب ۷۱.

[۴۸] العواصم من القواصم:ابن العربی ص ۷۱.

[۴۹] المصدر السابق ص ۶۴.

[۵۰] مصادر التشریع ص ۲۵.

[۵۱] سورة النور: الآیة ۶۳.

[۵۲] سورة الأحزاب: الآیة ۳۶.

[۵۳] مصادر التشریع الإسلامی ۶۲.

[۵۴] أبو نصر السجزی فی الإبانة وحسنة (کنز العمال ۱۹۶:۱).

[۵۵] رواه الشافعی وابن سعد والبیهقی (کنز العمال ۱۹۵:۱).

[۵۶] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۹۷:۱).

[۵۷] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۹۶:۱).

[۵۸] سورة الأعراف: الآیة ۱۴۳.

[۵۹] سورة الحدید: الآیة ۲۸.

[۶۰] سورة النور: الآیة ۴۰.

[۶۱] علم أصول الفقه وتاریخ التشریع الإسلامی:عبد الوهاب خلاف ص ۳۲۷.

[۶۲] أزمة الفکر السیاسی الإسلامی:د. عبد الحمید متولی ۱۲۹.

[۶۳] المصدر السابق ۱۳۰.

[۶۴] أعلام الموقعین:ابن القیم ۲۵۴:۲.

[۶۵] إحیاء علوم الدین ۱۱۹۵:۸.

[۶۶] تاریخ الخلفاء ۲۴۰.

[۶۷] مجلة المنار عدد السنة ۱۳۱۸ ه، ۱۳۱۹ ه، بحثا بعنوان: القول الصحیح فی الرد علی الشبهات ص ۲۰۵ وما بعدها، أزمة الفکر السیاسی الإسلامی ص ۱۲۷.

[۶۸] تاریخ الخلفاء ۴۳۴.

[۶۹] المصدر السابق ۲۴۰.

[۷۰] رواه ابن قانع (کنز العمال ۲۳۹:۱۴\). ۷۱] cf۱] رواه أحمد (کنز ۲۳۹:۱۴\). ۷۲] cf۱] رواه أحمد وابن حبان وابن ماجة (کنز

العمال ۲۰۶:۱۴\). ۷۳] cf۱] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۲۱۹:۲۳\). ۷۴] cf۱] رواه الترمذی (الجامع ۴۶۷:۴\). ۷۵] cf۱] رواه الترمذی (الجامع ۴۶۶:۴\). ۷۶] cf۱] سورة النور: الآیة ۱۱\. ۷۷] cf۱] سورة الجمعة: الآیة ۱۱\. ۷۸] cf۱] البخاری (الصحیح ۱۴۱:۴) ومسلم (الصحیح ۵۹:۱۷\). ۷۹] cf۱] البخاری (الصحیح ۱۴۲:۴\). ۸۰] cf۱] سورة الحجرات: الآیة ۶\. ۸۱] cf۱] رواه أبو داوود حدیث ۴۳۴۵\. ۸۲] cf۱] رواه الحاکم دائرة الذهبی (المستدرک ۴۶۱:۴\). ۸۳] cf۱] رواه أحمد (کنز العمال ۲۲۹:۱۴\). ۸۴] cf۱] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۱۲:۴).

آراء و شهود

علی امتداد هذا الکتاب علمنا أن تاریخ الإسلام هو تاریخ الدفاع عن
الفطرة. ولم یترک النبی صلی الله علیه وسلم أمته إلا ـ وقد بین لهم حرکة الأمم الماضیة لیتدبروا فیها ولیعلموا أن الإسلام منصور منصور منصور، فإذا أرادوا أن یقفوا تحت رایات هذا النصر فما علیهم إلا أن یتحرکوا الحرکة التی تستقیم معه، أما إذا أرادوا غیر ذلک فما قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأیکة منهم ببعید، والدجال علی الطریق، وعلمنا أیضا أن تاریخ المسلمین کان کغیره من تاریخ بنی الإنسان فیه ضعف الإنسان وخوفه وفیه أیضا أصحاب النفس اللوامة الذین یتذکرون حرکتهم فیلومون أنفسهم ویودون أنهم تحرکوا الحرکة التی یحبون أن ینظر الله إلیهم وهم علی طریقها. ویخطئ من یظن أن حرکة المسلمین علی صفحة التاریخ لم تقدم جدیدا للبشریة، فلقد رأینا حرکة الذین دافعوا عن الفطرة وهذا فی حد ذاته دفاع عن البشریة، وعلمنا حرکة الذین نشروا الإسلام فی ربوع العالم بوسائلهم البسیطة، فبعملهم هذا أقاموا ینابیع الماء الطاهر الذی یوفر الارتواء ویدعو إلی البحث، وعالم البحث لا یکون فی دائرة مغلقة علی الإیجابیات والمناقب، وإنما وجد البحث لیفتش بین الإیجابیات وبین السلبیات، وهذا فی حد ذاته حرکة بین الماضی والحاضر والمستقبل حرکة تقرأ فی أصول الإسلام وتنظر فی حرکة المسلمین، ولیس هذا من أجل محاکمة التاریخ وإنما من أجل ضرب الباطل.

[صفحه ۴۴۰]

حتی یخرج الحق من جنبه، لأن الإسلام لا ـ یجامل أحدا وطریقه إما إلی جنة وإما إلی نار. وهناک فرق بین حرکة المسلمین عبر تاریخهم وبین حرکة أهل الکتاب علی امتداد تاریخهم. روی أن بعض الیهود قال للإمام علی بن أبی طالب: ما دفنتم نبیکم حتی اختلفتم فیه. فقال له الإمام: إنما اختلفنا عنه لا فیه، ولکنکم ما جفت أرجلکم من البحر حتی قلتم لنبیکم " اجعل لنا إلها کما لهم آلهة. قال: إنکم قوم تجهلون [" ۱] ، إن الفرق یکمن فی دائرة (عنه) ولیس فی دائرة (فیه) وهذا فرق جوهری عند المقارنة بین تاریخ المسلمین وبین تاریخ الیهود والنصاری. ونحن فی هذا الباب سنقدم بعض آراء علماء المسلمین حول الأحداث التی ذکرناها علی امتداد هذا الکتاب. ومنها نعلم کیف کانوا ینظرون إلی التاریخ. هل کانوا ینظرون إلیه بعیون السلطان وفقهائه؟ أم کانوا ینظرون إلیه من ثقوب الخوف أم نظروا إلیه من خلال تاریخ الإسلام وخفقات الفطرة؟ ثم نقدم بعد ذلک أقوال الشهود الذین عاصروا هذه الأحداث.

[۱] الکشاف:للزمخشری ۱۵۰:۲، نهج البلاغة خطبة ۳۱۷:۴.

آراء

- نلقی الضوء هنا علی رأی شیخ المسلمین أحمد بن تیمیة فی الأحداث
التی عصفت بالأمة بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم. ولقد بینا رأی الشیخ أبی زهرة فی ابن تیمیة حامل لواء مذهب السلفیة. وکذا رأی ابن حجر الهیثمی (۹۰۹ - ۹۷۴ ه) الذی ذکر أن ابن تیمیة قال: إن علیا أخطأ فی أکثر من ثلاثمائة مکان [" ۱] ، وقبل أن نقدم

رأى ابن تيمية فى الأحداث نرى من الضرورى أن نلقى بعض الضوء على حركته فى عصره. ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية: أن العلماء كان منهم من يحسده لتقدمه عند الدولة ومنهم من كان يبغضه لآرائه، وذكر أنه خلال اجتياح التتار لدمشق اجتمع ابن تيمية مع أعيان البلد واتفقوا على

[صفحه ۴۴۱]

المسير إلى القائد التتارى وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وأعطاه القائد الأمان، ونزلت خيول التتار إلى المدينة وطلبوا السلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وعندما قام التتار بالتخريب فى المدينة وما حولها ذهب ابن تيمية إلى ملك التتر وعاد بعد يومين، وفى هذه الفترة كان التتار قد قتلوا الكثير من الفقهاء والمشايخ وعلى وجه الخصوص فى دير الحنابلة [۲] ويقول ابن كثير:

وفى جمادى الأولى وقع بيد نائب سلطان المسلمين كتاب فيه: إن الشيخ تقى الدين بن تيمية والقاضى شمس الدين بن الحريرى. وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبجق على الشام. وأن الشيخ كمال الدين الزملكانى يعلمهم بأحوال الأمير. ثم ذكر ابن كثير أن هذا الكتاب مزور [۳] فزيارات ابن تيمية كلها للتتار كانت فى صالح الإسلام والمسلمين. وذكر ابن كثير: عندما حضر ابن تيمية إلى القاهرة، اشتكى منه الصوفية وردوا الأمر فى ذلك إلى القاضى الشافعى. فعقد له مجلسا. وفى أثناء ذلك قال ابن تيمية: لا يستغاث إلا بالله ولا يستغاث بالنبى. فرأى القاضى الشافعى أن هذا فيه قلة أدب، وحضرت رسالة إلى القاضى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة. فقال القاضى ": قد قلت له ما يقال لمثله [" ۴] .

ورأى ابن تيمية فى الأحداث نبدأه من عقيدته فى أهل البيت. يقول: آية التطهير ليس فيها إخبار بطهارة أهل البيت وذهاب الرجس عنهم [۵] ، وقال فى حديث الكساء: إن مضمون هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لهم بأن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا. وغاية ذلك أن يكون دعا لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. واجتناب الرجس واجب على المؤمنين والطهارة مأمور بها كل مؤمن [۶] ، والسابقون

[صفحه ۴۴۲]

الأولون لا بد وأن يكونوا قد فعلوا المأمور وتركوا المحظور. وحينئذ فيكون ذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم من الذنوب بعض صفاتهم [۷] ، ثم يقول فى آية المودة: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) [۸] ، قال: إيجاب المودة غلط [۹] ثم بدأ يفسر حتى استقر عند قوله: ثبت أن الصديق كان أتقى الأمة بالكتاب والسنة وتواتر عن النبى أنه قال: لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، وقال فى آية المباهلة: (قل تعالوا ندع أبناءنا) لا يقتضى أن يكون من باهل بهم الرسول أفضل من جميع الصحابة [۱۰] .

ثم يقول فى الأحداث مبررا لاقتحام أبى بكر لبيت فاطمة بعد أحداث السقيفة: غاية ما يقال: إنه كبس البيت لينظر هل فيه شئ من مال الله الذى يقسمه لكى يعطيه لمستحقه، ثم رأى أنه لو تركه لهم لجاز فإنه يجوز أن يعطيهم من مال الفئ [۱۱] لاحظ أن ابن تيمية لا يقول إلا رأيا ولا يستند فى ذلك على

حديث أو أثر وهذا من شأنه فى رؤيته للتاريخ. ثم يقول عن عهد عمر: كان عمر يسوغ التفضيل من الصحابة فى العطاء للمصلحة. فهو الذى ضرب الله الحق على لسانه وقبله [۱۲] ، ثم يقول فى قتل عمر: وما فعله أبو لؤلؤة كرامة فى حق عمر. وهو أعظم مما فعله ابن ملجم بعلى وما فعله قتلة الحسين به. فإن أبا لؤلؤة كافر قتل عمر. وهذه الشهادة أعظم من شهادة من يقتله مسلم [۱۳] وقال:

إن عمر لما فتح الأمصار بعث علماء الصحابة إليهم لبث العلم. واتصل العلم من أولئك إلى سائر المسلمين. ولم يكن ما بلغه على بن أبى طالب للمسلمين أعظم مما بلغه ابن مسعود ومعاذ وأمثالهما. ولو لم يحفظ الدين إلا بالنقل عن

[صفحه ۴۴۳]

على بن أبى طالب لبطل عامة الدين لأنه لم ينقل عن على إلا أمر قليل لا يحصل به المقصود [۱۴] .

وإذا كان ابن تيمية يعتقد بأن الله أذهب الرجس من الصحابة وطهرهم تطهيرا على الرغم من قول الله تعالى للذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) [۱۵] ، وقوله فى أئمة الكفر: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم) [۱۶] ، وعلى الرغم من أن بعض الصحابة رموا فراش رسول الله بحديث الإفك وعلى الرغم من حديث البخارى الذى يصرح بارتداد بعضهم بعد وفاة الرسول، فإن ابن تيمية فتح أبواب الجنة واعتبر أن جميع الجرائم التى حدثت بعد وفاة الرسول. كانت نابعة من الاجتهاد ولا عقاب على الذين ارتكبوها يوم القيامة، وهذا تطرف فى الرأى يفوق تطرف المرجئة فى رأينا على الأقل، يقول ابن تيمية: إن أهل السنة عندهم أن أهل بدر كلهم فى الجنة... وأهل السنة يقولون: إن أهل الجنة ليس من شرطهم سلامتهم عن الخطأ بل ولا عن الذنب. بل يجوز أن يذنب الرجل منهم ذنبا صغيرا أو كبيرا ويتوب منه، ولو لم يتب فالصغائر تمحى باجتناب الكبائر. بل أن الكبائر تحمى بالحسنات التى هى أعظم منها [۱۷] ، وقال: الواجب على كل مسلم أن يعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء الصحابة [۱۸] فإن الهدى

يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع الصحابة حيث داروا فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط [۱۹] .

ويقول على عهد عثمان: أما رد عثمان للحكم بن أبى العاص فغاية ذلك

[صفحه ۴۴۴]

أن يكون اجتهادا اجتهده عثمان، وفى رده لصاحبه أجر مغفور له، أو ذنب له أسباب كثيرة توجب غفرانه [۲۰] ويقول: عثمان ولى من يعلم أن غيره أصلح

منه، وهذا من الاجتهاد، أو يقال إن محبته لأقاربه ميلته إليهم حتى صار يظنهم أحق من غيرهم. وإن ما فعله كان ذنبا وإن ذنبه لا يعاقب عليه فى الآخرة!! [۲۱] .

ويقول: فى خلافة عثمان توسع الأغنياء حتى زاد كثير منهم على قدر المباح فى المقدار والنوع. وتوسع أبو ذر فى الانكار [۲۲] واحتج أبو ذر بما لا

حجة فيه من الكتاب والسنة [۲۳] وكان أبو ذر يريد أن يوجب على الناس ما لم

يوجب الله عليهم. ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه [۲۴] وليس معنى أن أبا ذر

أصدق الناس أنه أفضل من غيره... فأهل الشورى مؤمنون أقوياء وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء [۲۵] ثم يقول عن جريمة مروان بن الحكم التى أدت إلى

قتل عثمان: غاية ما قيل: إن مروان كتب كتابا بغير علم عثمان، وإن أهل مصر طالبوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فامتنع، فإن كان قتل مروان لا يجوز فقد فعل عثمان الواجب، وإن كان يجوز ولا يجب فقد فعل عثمان الجائز، وإن كان قتله واجبا فعدم تسليمه من موارد الاجتهاد [۲۶] وغاية الأمر أن يكون مروان قد أذنب

فى إرادته قتلهم، ولكن لم يتم غرضه، ومن سعى فى قتل إنسان ولم يقتله لم يجب قتله، فما كان يجب قتل مروان بمثل هذا [۲۷] .

ثم يقول عن دور عائشة فى الأحداث: هب أن عائشة قالت: اقتلوا نعثلا، فإن هذا القول لا نكارة فيه، فليس القول قدحا فلا إيمان القائل ولا المقول له،

[صفحه ۴۴۵]

بل كلاهما ولى الله من أهل الجنة [۲۸] وقال: إذا ثبت أن عائشة أو عمارا أو

غيرهما كفرا آخر من الصحابة عثمان أو غيره. أو أباح قتله على وجه التأويل. لم يقدح ذلك فلا إيمان واحد منهم ولا فى كونه من أهل الجنة [۲۹] .

ويقول ابن تيمية فى على بن أبى طالب: لم يكن لعلى فى الإسلام أثر حسن إلا ولغيره مثله ولبعضهم آثار أعظم من آثاره [۳۰] وقال:

کثیر من الصحابه

أشجع من علی وأبو بکر وعمر کانا أکثر جهادا منه [۳۱] وعلی تعلم من أبی بکر

السنه ولم یتعلم أبو بکر من علی شیئا [۳۲] وأبو بکر وعمر لا یضاهیهما أحد فی

الزهد وکانوا فوق علی فی ذلک [۳۳] وقال: إن الله أخبر أنه سیجعل للذین آمنوا

وعملوا الصالحات ودا وهذا وعد منه صادق ومعلوم. والله قد جعل للصحابه مودهٔ فی قلب کل مسلم لا سیما الخلفاء أبو بکر وعمر فإن عامهٔ الصحابه والتابعین کانوا یودونهم وکانوا خیر القرون، ولم یکن ذلک علی بن أبی طالب فإن کثیرا من الصحابه والتابعین کانوا یبغضونه ویسبونه ویقاتلونه [۳۴] ، وقال عن ثقافهٔ السب: فهذا کله سواء کان ذنبا أو اجتهادا أو مخطئا أو عاصیا، فإن مغفرهٔ الله ورحمته تتناول ذلک بالتوبهٔ والحسنات الماضیهٔ [۳۵] وقال: کان علی

صغیرا لیلهٔ المعراج لم یحصل له هجرهٔ ولا جهاد، والأنبیاء السابقون لم یذکروا علیا فی کتبهم، بل ذکر أن المقوقس کان عنده تابوت به صور الأنبیاء وصورهٔ أبی بکر وعمر مع صورهٔ النبی!! [۳۶] .

[صفحه ۴۴۶]

وقال عن یوم الجمل: لم یکن قتال علی یوم الجمل وصفین بأمر النبی [۳۷] وإنما کان رأیا رآه [۳۸] وعندما خرجت عائشهٔ یوم الجمل لم تتبرج تبرج

الجاهلیهٔ. والأمر بالاستقرار فی البیوت لا ینافی الخروج لمصلحهٔ مأمور بها [۳۹] .

ثم وصف القتال فقال: لم یکن یوم الجمل لهؤلاء قصد فی القتال، ولکن وقع الاقتتال بغیر اختیارهم، لقد خشی القتلهٔ أن یتفق علی مع عائشهٔ، فحملوا علی معسکر طلحهٔ والزبیر، فظن طلحهٔ أن علیا حمل علیهم، فحملوا دفعا عن أنفسهم، فظن علی أنهم حملوا علیه، فحمل دفعا عن نفسه، فوقعت الفتنهٔ بغیر اختیارهم وعائشهٔ راکبهٔ!! [۴۰] ، ثم یقول شیخ المسلمین: یوم الجمل إذا کان قد وقع خطأ أو ذنب من أحد الفریقین أو کلیهما، فقد عرفنا أن هذا لا یمنع ما دل علیه الکتاب والسنهٔ من أنهم خیار أولیاء الله المتقین وعباده الصالحین وأنهم من أهل الجنهٔ [۴۱] .

ثم یقول عن صفین: کان علی عاجزا عن الحق والعدل، ولیس لأهل الشام أن یبایعوا عاجزا عن العدل [۴۲] لقد بادر علی بعزل معاویهٔ ولم یکن یستحق

العزل [۴۳] إن أهل الشام خیر الناس للإسلام. ومعاویهٔ کان خیرا من کثیر: فلم

یکن یستحق أن یعزل ویولی من هو دونه [۴۴] وقال شیخ المسلمین: من قاتل علیا

إن کان باغیا فلیس ذلک بمخرجه من الإیمان ولا موجبا له النیران ولا مانعا له من

[صفحه ۴۴۷]

الجنان [۴۵] ، وقال: القول بأن أول من یدخل النار مبغض علی وأن أول من یدخل الجنهٔ محبه..، هل تعلق السعادهٔ والشقاوهٔ بمجرد حب علی دون حب الله ورسوله إلا کتعلقها بحب أبی بکر وعمر وعثمان ومعاویهٔ رضی الله عنهم [۴۶] .

وقال: إن علیا لیس قائدا لکل البررهٔ ولا- هو أیضا قاتلا- لکل الکفرهٔ، وکذلک القول: منصور من نصره فهو خلاف الواقع... فمن المعلوم أن الأمهٔ کانت منصورهٔ فی عصور الخلفاء الثلاثهٔ... فلما قتل عثمان... لم یکن الذین قاتلوا مع علی منصورین.. بل أولئک الذین انتصروا علیه عندما صار الأمر إلیهم لما تولی معاویهٔ انتصروا علی الکفار وفتحوا البلاد [۴۷] والعسکر الذین قاتلوا مع معاویهٔ ما خذلوه قط فی قتال علی. فکیف یکون النبی قال له: اللهم اخذل من خذله؟ [۴۸] ، ولو کان حرب علی حربا للرسول ولله تعالی لوجب أن یغلب محارب رسول الله، ولم یکن الأمر کذلک، فقد طالب علی مسالمهٔ معاویهٔ ومهادنته وأن یکف عنه [۴۹] إن علیا قاتل علی الخلافهٔ حتی غلب وسفک الدماء

بسبب المنازعة التى بينه وبين منازعه، ولم يحصل بالقتال لا مصلحة الدين ولا مصلحة الدنيا [۵۰] واجتهاد على فى سفك دماء المسلمين بعضهم بعضا ذل

المؤمنين [۵۱] إن الخلفاء الثلاثة اتفق المسلمون عليهم، وكان السيف فى زمانهم

مسلولا على الكفار أما على بن أبى طالب فلم يتفق المسلمون عليه وكان السيف فى مدته مكفوفا عن الكفار مسلولا على أهل الإسلام [۵۲] إن الله أظهر الدين

على أيدى الخلفاء الثلاثة وعلى لم يظهر الدين فى خلافته [۵۳] ولم يكن فى

[صفحه ۴۴۸]

خلافة على للمؤمنين الرحمة التى كانت فى زمن عمر وعثمان، بل كانوا يقتتلون ولم يكن لهم على الكفار سيف، فكيف يظن مع هذا تقدم على فى هذا الوصف على أبى بكر وعمر وعثمان [۵۴] ثم قال: وبعد على لم يعرف أحد إلا أهل السنة

الذين نصروا دين الله [۵۵] .

ثم يقول شيخ المسلمين عن قتل معاوية للحسن: إن كان معاوية دس السم للحسن فهو من باب قتال بعضهم بعضا، وقتال المسلمين بعضهم بعضا بتأويل باب عظيم - أى لا يمنعهم من دخول الجنة [۵۶] ثم يقول عن استخلاف يزيد:

أهل السنة يعتقدون أن يزيد ملك جمهور المسلمين وكان خليفتهم فى زمانهم [۵۷] ولقد كان كل واحد من الخلفاء إماما وخليفة وسلطانا [۵۸] وأهل

السنة إذا اعتقدوا إمامة واحد من هؤلاء يزيد أو عبد الملك أو المنصور كان بهذا الاعتبار، ومن نازع فى هذا فهو شبيه بمن نازع فى ولاية أبى بكر وعمر وعثمان [۵۹] وقال: إن يزيد رغم ما فيه من ظلم وقتل وفعل ما فعل يوم الحرة،

فإنه لا يخرج عليه لأن من لم يكن مطيعا لولاة الأمور مات ميتة جاهلية [۶۰] .

وقال شيخ المسلمين فى قتل الحسين: قالوا للحسين: لا تخرج. وهم بذلك قاصدون نصيحته ومصلحة المسلمين والله ورسوله يأمر بالصلاح لا بالفساد، فتبين أن الأمر على ما قاله هؤلاء، إذ لم يكن فى خروج الحسين مصلحة لا فى دين ولا فى دنيا [۶۱] ، وقال عن جهاد الحسن والحسين: جهاد

[صفحه ۴۴۹]

الحسنين فى سبيل الله كذب عليهما [۶۲] وقال عن قتل الحسين: قتل الحسين لم

يجلب فسادا على الأمة [۶۳] وقال: لم يعظم إنكار الأمة لقتل الحسين كما عظم

لقتل عثمان، ولا انتصر له جيوش كالجيوش التى انتصرت لعثمان، ولا انتقم أعوانه من أعدائه كما انتقم أعوان عثمان من أعدائه، ولا حصل بقتله من الفتن والشرور والفساد ما حصل بقتل عثمان ولا كان قتله أعظم إنكارا عند الله ورسوله وعند المؤمنين من قتل عثمان [۶۴] وقال ": إن عثمان أعظم أجرا. وقتلته أعظم

إثما ممن لم يكن متوليا فخرج يطلب الولاية ولم يتمكن حتى قتل، ولا ريب أن قتال الدافع عن نفسه وولايته أقرب من قتال الطالب لأن يأخذ الأمر من غيره، وعثمان ترك القتال دفعا عن نفسه وولايته أقرب من الحسين [۶۵] .

ثم يقول: من قال إن عثمان كان مباح الدم، لم يمكنه أن يجعل عليا معصوم الدم ولا الحسين، فإن عصمة دم عثمان أظهر من عصمة دم الحسين، وعثمان أبعد من موجبات القتل من على والحسين، وشبهة قتل عثمان أضعف بكثير من شبهة قتل على والحسين فإن عثمان لم يقتل مسلما ولا قاتل أحدا على ولايته [۶۶] ثم يقول: كان المنتصرون لعثمان معاوية وأهل الشام، والمنتصرون

من قتلة الحسين المختار، ولا يشك عاقل أن معاوية خير من المختار [۶۷] .

وعمر بن سعد قائد السرية التى قتلت الحسين لم يصل فى الجرم إلى ما وصل إليه المختار الذى تتبع قتلة الحسين [۶۸] وفى الختام

يقول: إن عثمان تاب توبة

ظاهرة من الأمور التى صاروا يذكرونها ويظهر له أنها منكرة. وكذلك عائشة ندمت على مسيرها إلى البصرة وكانت إذا ذكرته تبكى حتى تبل خمارها، وطلحة

[صفحه ۴۵۰]

والزبير ندما على مسير يوم الجمل [۶۹] ولم يقل لنا الشيخ لماذا كان الندم؟ هل

لأنهم كانوا على حق أم أن خصمهم هو صاحب الحق؟ كان هذا مجمل رأى ابن تيمية وفى إمكاننا أن نعارضه بالأدلة التى لا تدفع ولا ترد، ولقد ذكرنا على امتداد هذا الكتاب ما فيه كفاية للرد على هذا الكلام وغيره، ولقد حرصت على أن أعرض وجهة نظر الشيخ حتى يعلم الحاضر حقيقة الأمور من حوله وهو يأخذ بخيوط البحث عن الحقيقة، ولقد تبين لنا أن ابن تيمية يصادر الأصول ولا يقيم لها وزنا إذا تعارضت مع آرائه. وقد وصفه الشيخ ناصر الدين الألبانى بأنه " متسرع فى تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها [" ۷۰] ، وقال فى حديث استنكره ابن تيمية ": استنكره شيخ الإسلام ولو صحت عن رسول الله لم نعبأ باستنكاره\ " cf۱ ۷۱]] ، ويقول الشيخ محمد الكوثرى قاضى الدولة العثمانى عن تضعيف ابن تيمية للأحاديث وعن آرائه التى تخالف النصوص: فمثل هذا الشيخ الحرانى لا يمكن أن يوزن فى كفة وأئمة علوم شتى المذاهب فى كفة أخرى، إن ما ألفه ابن تيمية فى أواخر عمره متوغل فى الفساد\ " ۷۲] cf۱] .

ولقد أخذ ابن تيمية على عاتقه التشكيك فى كل حديث يتعلق بأهل البيت حتى ولو كان هذا الحديث فى الصحاح، وعلى سبيل المثال قال فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عن على " إنه لعهد النبى الأمى إلى أنه لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق،" قال: فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق (بغض الأنصار. وقال: لا يبغض الأنصار رجل مؤمن بالله واليوم الآخر. فإن هذه الأحاديث أصح مما يروى عن على أنه قال: لعهد النبى الأمى إلى، "... فإن هذا الحديث رواه مسلم.

[صفحه ۴۵۱]

والبخارى أعرض عنه بخلاف أحاديث الأنصار... وأهل العلم شكوا فى حديث على\ ۷۳] cf۱] ولم يذكر الشيخ من هم أهل العلم الذين شكوا فى أحاديث الإمام

مسلم؟ ولو صح هذا لانهدم جانب كبير من السنة، وقال الشيخ أيضا فى حديث الثقلين كتاب الله فذكر كتاب الله وحض عليه ثم قال: وعترتى أهل بيتى أذكركم الله – ثلاثا. قال الشيخ: هذا مما انفرد به مسلم ولم يروه البخارى، والحديث الذى رواه مسلم إذا كان النبى قد قاله، فليس فيه إلا الوصية باتباع كتاب الله، وهذا أمر قد تقدمت الوصية به فى حجة الوداع قبل ذلك، وهو لم يأمر باتباع العترة!! \۷۴] cf۱] .

وإذا كان ابن تيمية يرد كل شئ إلى البخارى ويشكك فى الحديث الذى يرويه مسلم ولم يروه البخارى، فإننا نجده يشكك فى البخارى نفسه عندما روى حديثا لم يصادف هوى ابن تيمية. روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ": ويح عمار. تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، " فقال الشيخ: حديث عمار " تقتلك الفئة الباغية، " رواه مسلم ورواه البخارى، ولكن البخارى فى كثير من النسخ لم يذكره تاما\ ۷۵] cf۱] وعندما لم يجد

مفرا قال: ولكن لا يختلف أهل العلم بالحديث أن هذه الزيادة " يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " هى فى الحديث\ ۷۶] cf۱] لقد وضع الشك أولا ليتأرجح

الباحث بين الحقيقة والخيال. وشكك أيضا فى أقوال أحمد بن حنبل فقال: وأحمد بن حنبل لم يقل إنه صح لعلى من الفضائل ما لم يصح لغيره، بل أحمد أجل من أن يقول مثل هذا الكذب\ ۷۷] cf۱] وشكك فى حديث " وأنذر

عشيرتك الأقربين " الذى رواه أحمد وغيره بسند صحيح كما ذكرنا من قبل، وطعن فى الترمذى والنسائى وقال: رويا أحاديث ضعيفة فى فضل

[صفحه ۴۵۲]

على\ ۷۸] cf۱] ، وطعن فى تفسير ابن جرير وابن أبى حاتم والثعلبى والبغوى\ ۷۹] cf۱] .

والواحدى وابن حميد وعبد الرزاق\ ۸۰] cf۱] ، وأبى نعيم\ ۸۱] cf۱] والكلبى\ ۸۲] cf۱] والديلمى\ ۸۳] cf۱] والحاكم وابن عبد ربه وابن عقدة\ ۸۴] cf۱] وابن خلويه\ ۸۵] cf۱] وابن عساكر\ ۸۶] cf۱] وابن إسحاق\ ۸۷] cf۱] وجريمة هؤلاء جميعا فى نظر ابن تيمية أنهم رووا أحاديث فى فضل أهل البيت. حتى أنه قال فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بسند صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد حسن وحسين وقال: من أحبنى وأحب هذين وآباهما وأمهما فهو معى فى درجتى يوم القيامة، " قال الشيخ: وبتقدير أن يكون أحمد روى الحديث فمجرد رواية أحمد لا توجب أن يكون صحيحا يجب العمل به، بل الإمام أحمد روى أحاديث كثيرة ليعرف ويبين للناس ضعفها\!! ۸۸] cf۱] مما سبق نعلم أن الشيخ لجم العقل ولم يجعل فيه نافذة مفتوحة إلا لاستقبال رأيه فقط، ونحن فيما سبق دعونا الله أن يرحم العلماء الذين جمعوا لنا الحديث لأنهم بهذا العمل وضعوا أمام العقل فى كل مستقبل المادة الغزيرة التى من خلالها يتم البحث عن الحقيقة، ولكن الأمر مختلف عن ابن تيمية. لقد جاهد من أجل أن يرى الناس ما يراه مبينا لهم أن أى حديث لا يعرفه هو فليس بحديث، وعلى أى حال إذا كانت هذه المحاولة قد حققت نجاحا فى فترة من

[صفحه ۴۵۳]

الزمان، ألا أنه بالتأكيد لن يكتب له الخلود. - ويقتضى الأمر أن نبين رأى المعتزلة فى الأحداث كما بينا الرأى السلفى الذى يمثله ابن تيمية. يقول ابن أبى الحديد المعتزلى. فأما على كرم الله وجهه فإنه عندنا بمنزلة الرسول فى تصويب قوله والاحتجاج بفعله ووجوب طاعته، ومتى صح عنه أنه قد برئ من أحد من الناس برئنا منه كائنا من كان، ولكن الشأن فى تصحيح ما يروى عنه فقد كثر الكذب عليه... وأما براءته كرم الله وجهه من المغيرة وعمرو بن العاص ومعاوية فهو عندنا معلوم جار مجرى الأخبار المتواترة، فلذلك لا يتولاهم أصحابنا، ولا يثنون عليهم، وهم عند المعتزلة فى مقام غير محمود\ ۸۹] cf۱] ، وقال ابن أبى الحديد: فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله فلو أنه أنكر إمامتهم وغضب عليهم وسخط فعلهم فضلا عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو إلى نفسه لقلنا: إنهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ": حربك حربى وسلمك سلمى " وقال ": اللهم والى من والاه وعادى من عاداه، " وقال ": لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق، " ولكنا رأيناه رضى إمامتهم فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه، إلا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه ولما لعنه لعناه، ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضا بضلالهم، والحاصل: أنا لم نجعل بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم إلا رتبة النبوة. وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل والمشترك، " ولم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم، وعاملناهم بما عاملهم به\ ۹۰] cf۱] .

قال ابن أبى الحديد: لو نازع عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسل سيفه لحكمنا بهلاك كل من خالفه وتقدم عليه، كما حكمنا بهلاك

[صفحه ۴۵۴]

من نازعه حين أظهر نفسه، ولكنه مالك الأمر وصاحب الخلافة، إذا طلبها وجب علينا القول تنسيق من ينازعه فيها، وإذا أمسك عنها وجب القول بعدالة من أغضى له عليها، وحكمه فى ذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه قد ثبت عنه فى الأخبار الصحيحة أنه قال ": على مع الحق والحق مع على يدور حيثما دار " وقال له غير مرة ": حربك حربى وسلمك سلمى " وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندى وبه أقول\ ۹۱] cf۱] .

وقال: ومذهب أصحابنا من البغداديين أنه الأفضل والأحق بالإمامة وأنه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أن الأصلح للمكلفين من تقديم المفضول عليه لكان من تقدم عليه هالكا، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أن الإمامة حقه، وأنه أولى بها من الناس أجمعين، وأعلمه أنه فى تقديم غيره وصبره على التأخر عنها مصلحة راجعة إلى المكلفين، وأنه يجب عليه أن يمسك عن طلبها ويغض عنها لمن هو دون مرتبته، فامتثل ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخرجه تقدم من تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحق .[cf۱ [۹۲\

ومعنى هذا أن قول النبى صلى الله عليه وسلم ": من كنت مولاه فعلى مولاه " فيه إشارة إلى مخاطبة دائرة الاختيار والإرادة عند الصحابة. بمعنى إذا أردتم سلوك طريقى والنجاة من الفتن التى حدثتكم عنها فهذا هو طريق ولا إجبار فى دين الله، وهذا أصل فى حكمة الوجود وخلافة الوجود وخلافة الإنسان فى الأرض، فحركة الإنسان تدور فى فلك عظيم لينظر الله كيف يعملون ويترتب على هذا العمل إما الثواب وإما العقاب وليس معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ": من كنت مولاه فعلى مولاه " أنه اكتفى بمخاطبة دائرة الاختيار عن الصحابة، لا فلقد روى فى أحاديث صحيحة قوله ": فإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى " فهناك خاطب ملكة الاختيار وهنا ثبت الأمر فى هذه الملكة. وقال ابن أبى الحديد فى حروب الإمام: كان لا يستعمل فى حربه إلا ما

[صفحه ۴۵۵]

وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة ويستعمل جميع المكايد حلالها وحرامها ويسير فى الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وعلى يقول: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ولا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا بابا مغلقا.. فعلى كان ملجما بالورع من جميع القول إلا ما هو لله عز وجل رضا، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة\ ۹۳] [cf۱ .

وبعد أن ألقينا شعاعا من الضوء على رأى المعتزلة فى الخطوط العريضة للأحداث نقدم هنا رأى الأستاذ سيد قطب صاحب " فى ظلال القرآن " ورأيه الذى سنقدمه جاء فى كتاب " كتب وشخصيات\ " ۹۴] [cf۱ ، وفى هذا الكتاب يعلق سيد قطب على بعض الكتب المختارة فيقول: حلقة من سلسلة (اقرأ) استعرض فيها الأستاذ شفيق جبرى بعض الواقف والمواقع من تاريخ صدر الإسلام وتاريخ بنى أمية مبرزا فيها العنصر النفسى الذى قامت عليه ليكشف عن درايه صاحب الموقف أو الموقعة بذلك العنصر النفسى أو عدم درايته وعن أثر العلم بهذا العنصر أو الجهل به فى هذا الموقف أو الموقعة، ويقول سيد قطب عن إحدى ملاحظات الكاتب ": أما الملاحظة الثانية فتبدو على أتمها فى الحكم على موقف عمر بن الخطاب من العهد بالخلافة، وندع المؤلف يبين رأيه فى هذه السطور ": مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذى قبض فيه، فأمر أبا بكر أن يصلى، بالناس... ثم كان أمر السقيفة ما كان... ثم مرض أبو بكر المرض الذى مات فيه، فاستخلف على المسلمين عمر بن الخطاب، ثم طعن عمر، فدخلوا عليه وهو فى البيت وسألوه أن يستخلف عليهم، فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين... وكل هذا يدل على الارتباك، ولقد كانت هذه

[صفحه ۴۵۶]

الطريقة سبيلا إلى المخاصمة، فقد تشاح أصحاب الشورى على الخلافة، وأخروا إبرام الأمر، ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة... وكاد يؤدى هذا الأمر إلى الفتنة، فقد تطلع الناس إلى معرفة خليفتهم وإمامهم، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم، ولسنا ندرى ما الذى حمل سيدنا عمر على الوقوع فى هذا الارتباك، وقد كان قادرا على أن يستخلف أصلح القوم، وهو يعرفهم واحدا واحدا، ويعرف عيوبهم وفضائلهم، ولكنه عدل عن ذلك، وإذا لجأت إلى الحرية فى الكلام قلت: خاف التبعة ففر منها، فإنه جعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالفا للقواعد النفسية فى السياسة، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى، وكانوا فى غنى عنها لو حزم عمر... ففكرة عمر فى أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة يتزاحمون على الخلافة غلطة نفسية، وقد أدرك معاوية هذه الغلطة، ومثله لا يكاد يفوته شئ من أسرار السياسة النفسية، فقد ذكروا أن زيادا أوفد

ابن حصين إلى معاوية، فأقام عنده ما أقام، ثم إن معاوية بعث إليه ليلا فخلا به، فقال له: يا ابن حصين قد بلغنى أن عندك ذهنا وعقلا فأخبرنا عن أى شئ أسألك عنه؟ قال: سلنى عما بدا لك، قال: أخبرنى ما الذى شتت أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم؟ قال ابن حصين: نعم، قتل الناس عثمان، فقال معاوية: ما صنعت شيئا. قال: فمسير على إليك وقتاله إياك. فقال: ما صنعت شيئا، قال ابن حصين: فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال على إياهم، فقال: ما صنعت شيئا. قال: ما عندى غير هذا يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: فأنا أخبرك، إنه لم يشتت بين المسلمين، ولا- فرق أهواءهم إلا- الشورى التى جعلها عمر إلى ستة نفر.... فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه وجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان فى ذلك خلاف... وعلى هذا فالشورى غلطة نفسية رحم الله من غلطها. ويعلق سيد قطب على هذا الكلام فيقول:... إن الشخصية التى يصدر عليها مثل هذا الحكم السريع شخصية جليلة ضخمة فذة فى تاريخ الإسلام... على أننى لست من أنصار القداسة المطلقة للشخصيات الإسلامية، ولست أعنى

[صفحه ۴۵۷]

مما تقدم أن أحرم المعاصرين حق الحكم على هذه الشخصيات، ولكنى أريد أن تتوافر أسباب الحكم كاملة... وليس ما نقله الأستاذ من أقوال معاوية حجة، فمعاوية كان يريد بهذا القول التمهيد لاستخلاف ابنه يزيد، وهنا عنصر نفسى فات الأستاذ جبرى ملاحظته، ولست أجزم الجزم القاطع برأيى هذا، كما فعل الأستاذ فى تخطئة عمر، ولكنى أريد فقط ألا نسارع إلى الحكم القاطع وبين أيدينا كفتا الميزان على الأقل تتأرجحان\ ۹۵] ۱cf] .

ثم يتطرق الكاتب إلى معركة صفين، فوصف الإمام بأنه كان يجهل العناصر النفسية فى صراعه مع معاوية فقال: لم تكن معرفته بالأمور النفسية على قدر صراحته، فإذا لم تنجح سياسته النجاح كله، فهذا سببه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثيرا من حسن الموارد والمصادر... ولم يدر الإمام أن الناس عامة إنما همهم حطام هذه الدنيا، فكان يعز عليه أن يعتقد أن الناس يدورون كيف دارت مصالحهم ومنافعهم، فلم يعاملهم كنا يجب أن يعاملهم رجل السياسة، وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق، فكان من عواقب هذه المعاملة شكوه منهم فى كل كلام وفى كل خطبة. ويعلق سيد قطب فيقول: وهكذا يحكم على على كرم الله وجهه بأنه كان يجهل النفس البشرية لمجرد أنه لم يستخدم الوسائل السياسية التى استخدمها خصماه معاوية وعمرو بن العاص، وأبسط نظرة تكشف أن هناك فرقا كبيرا بين معرفة السلاح واستخدام هذا السلاح، فلم يكن الفرق بين على وبين خصميه أنه يجهل النفس البشرية وأنهما يعرفانها، إنما كان الفرق فى حقيقته هو الرضى باستخدام كل سلاح يرضاه الخلق العالى أو يأباه، فعلى لم تكن تنقصه الخبرة بوسائل الغلبة ولا بنوازع النفوس البشرية وأهوائها، ولكنه لم يكن يتدنى لاستخدام الأسلحة القذرة جميعا، وفى رده على من أشاروا عليه بتوزيع المال لرشوة الضمائر ما يكفى " أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام. فوالله لا أفعل ذلك ما لاح فى السماء نجم "

[صفحه ۴۵۸]

فحين قالها لم يكن جاهلا- أن الناس عامة همهم حطام هذه الدنيا، ولكنه كان مترفعا عن استخدام سلاح تستقذره نفسه الكريمة ويستخدمه خصمه بلا تحرج وكذلك رده على ابن عباس. حينما استصوب إشارة المغيرة بن شعبة على على بأن يولى الزبير البصرة ويولى طلحة الكوفة يدل على هذا، فلقد قال: ولو كنت مستعملا أحدا لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام، " فهو إذن لم يكن بجهل ما يضر وما ينفع، ولكنه كان يأبى ويترفع. ثم يقول سيد قطب رحمه الله: إن معاوية وزميله عمرو لم يغلبا عليا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس وأخبر منه بالتصرف النافع فى الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان فى استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه فى اختيار وسائل الصراع، وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم. لا يملك على أن يتدنى إلى هذا الدرك الأسفل. فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح، على أن غلبة معاوية على على كانت

لأسباب أكبر من الرجلين، كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، واتجاه على اتجاه، كان مد الروح الإسلامى العالى قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذى رفعهم منه الإسلام، بينما بقى على بن أبى طالب فى القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار، من هنا كانت هزيمته، وهى هزيمة أشرف من كل انتصار ثم يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله. لقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الإسلام التى لم تتمكن بعد من النفوس، ولو قد قدر لعلى أن ينتصر، لكان انتصاره فوزا لروح الإسلام الحقيقية، الروح الخلقية العادلة المترفعة التى لا تستخدم الأسلحة القذرة فى النضال، ولكن انهزام هذه الروح ولما يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قضى عليها فلم تقم لها قائمة بعد - إلا سنوات على يد عمر بن عبد العزيز - ثم انطفأ ذلك السراج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية. قد تكون رقعة الإسلام قد امتدت على يدى معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت، وهزمت، بل انطفأت، فإن يهش إنسان لهزيمة الروح الإسلامية لحقيقية فى مهدها وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضوض، فتلك غلطة نفسية

[صفحه ۴۵۹]

وخلقية لا شك فيها. ثم يقول رحمه الله: على أننا لسنا فى حاجة يوما من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية، فهى جزء من طبائع الناس عامة، إنما نحن فى حاجة لأن ندعوهم إلى خطة على بن أبى طالب، فهى التى تحتاج إلى ارتفاع نفسى يجهد الكثيرون أن ينالوه، وإذا احتاج جيل لأن يرعى إلى خطة معاوية، فلن يكون هو الجيل الحاضر على وجه العموم، فروح " مكيافيلى " التى سيطرت على معاوية قبل مكيافيلى بقرون هى التى تسيطر على أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها، لأنها روح " النفعية" التى تظلل الأفراد والجماعات والأمم والمحكومات. ثم يقول رحمه الله: وبعد، فلست " شيعيا " لأقرر هذا الذى أقول، إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحى الخلقى، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعيا لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن الوصولية الهابطة المتدنية، ولينتصر لعلى بن أبى طالب على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة\..... ۹۶] ۱cf] .

[۱] الفتاوى الحديثية ۱۱۶.

[۲] البداية والنهاية ۷، ۸، ۹، ۲۲، ۴۵:۱۴.

[۳] وهذه التهمة ظلت لصيقة بابن تيمية وعالقة فى أذهان شيوخ عصره.

[۴] المصدر السابق ۴۹:۱۴.

[۵] منهاج السنة ۱۱۷:۲.

[۶] المصدر السابق ۴:۳.

[۷] المصدر السابق ۴:۳.

[۸] سورة الشورى: الآية ۲۳.

[۹] منهاج السنة ۸:۱.

[۱۰] منهاج السنة ۳۵:۴.

[۱۱] المصدر السابق ۲۲۰:۴.

[۱۲] المصدر السابق ۱۵۳:۳.

[۱۳] المصدر السابق ۱۳۷:۳.

[۱۴] منهاج السنة ۲۷۲:۳.

[۱۵] سورة الفتح: الآية ۱۰.

[۱۶] سورة التوبة: الآية ۱۲.

[۱۷] منهاج السنة ۱۸۴:۲.

[۱۸] المصدر السابق ۶۶:۳.

[۱۹] المصدر السابق ۶۶:۳.

[۲۰] المصدر السابق ۲۳۶:۳.

[۲۱] المصدر السابق ۱۸۷:۳.

[۲۲] منهاج السنة ۱۹۹:۳.

[۲۳] المصدر السابق ۱۹۸:۳.

[۲۴] المصدر السابق ۱۹۹:۳.

[۲۵] المصدر السابق ۱۹۹:۳.

[۲۶] المصدر السابق ۱۸۸:۳.

[۲۷] المصدر السابق ۱۹۰:۳.

[۲۸] المصدر السابق ۱۸۸:۲.

[۲۹] المصدر السابق ۱۸۹:۲.

[۳۰] المصدر السابق ۵۴:۴.

[۳۱] المصدر السابق ۱۶۶:۴.

[۳۲] المصدر السابق ۱۳۷:۴.

[۳۳] المصدر السابق ۱۳۰:۴.

[۳۴] المصدر السابق ۳۸:۴.

[۳۵] المصدر السابق ۲۲۴:۲.

[۳۶] المصدر السابق ۴۶:۴.

[۳۷] أخرج أحمد والحاکم بسند صحیح قول النبی لعلی ": إنک تقاتل علی القرآن کما قاتلت علی تنزیله. "

[۳۸] المصدر السابق ۲۳۱:۲.

[۳۹] المصدر السابق ۱۸۶:۲.

[۴۰] المصدر السابق ۱۸۵:۲.

[۴۱] المصدر السابق ۲۴۱:۳.

[۴۲] المصدر السابق ۲۰۳:۲.

[۴۳] المصدر السابق ۲۲۲:۲.

[۴۴] المصدر السابق ۲۲۳:۲.

[۴۵] المصدر السابق ۲۰۵:۲.

[۴۶] المصدر السابق ۱۰۷:۴.

[۴۷] المصدر السابق ۶:۴.

[۴۸] المصدر السابق ۱۷:۴.

[۴۹] السابق ۲۳۴:۲.

[۵۰] المصدر السابق ۴:۱۲۱.

[۵۱] المصدر السابق ۲:۲۲۳.

[۵۲] المصدر السابق ۲:۱۴۸.

[۵۳] المصدر السابق ۲:۱۳۸.

[۵۴] المصدر السابق ۲:۲۲۸.

[۵۵] المصدر السابق ۲:۱۳۸.

[۵۶] المصدر السابق ۲:۲۲۵.

[۵۷] المصدر السابق ۲:۲۳۹.

[۵۸] المصدر السابق ۲:۲۳۹.

[۵۹] المصدر السابق ۲:۲۴.

[۶۰] المصدر السابق ۱:۳۷.

[۶۱] المصدر السابق ۲:۲۴۱.

[۶۲] المصدر السابق ۲:۱۱۸.

[۶۳] المصدر السابق ۱:۱۶۴.

[۶۴] المصدر السابق ۲:۱۸۸.

[۶۵] المصدر السابق ۲:۱۸۸.

[۶۶] المصدر السابق ۳:۱۲۹.

[۶۷] المصدر السابق ۲:۱۸۸.

[۶۸] المصدر السابق ۱:۱۶۵.

[۶۹] المصدر السابق ۳:۱۸۱.

[۷۰] سلسلة الأحادیث الصحیحة ۴:۳۴۴ ط المکتب الإسلامی\. ۷۱] cf۱] المصدر السابق ۴:۴۰۰\. ۷۲] cf۱] صفات البرهان:الکوثری ص ۳۰\. ۷۳] cf۱] منهاج السنة ص ۴:۴۰\. ۷۴] cf۱] منهاج السنة ۴:۸۵\. ۷۵] cf۱] منهاج السنة ۲:۲۱۰\. cf۱ ۷۶]] المصدر السابق ۲:۲۱۱\. ۷۷] cf۱] المصدر السابق ۴:۹۹\. ۷۸] cf۱] المصدر السابق ۴:۴۸\. ۷۹] cf۱] المصدر السابق ۴:۸۰. ۸۰\] cf۱] المصدر السابق ۴:۴\. ۸۱] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۰\. ۸۲] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۸\. ۸۳] cf۱] المصدر السابق ۴:۳۸. ۸۴\] cf۱] المصدر السابق ۴:۹۹\. ۸۵] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۰۶\. ۸۶] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۱۱\. ۸۷] cf۱] المصدر السابق ۴:۴۸\. ۸۸] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۰۶\. ۸۹] cf۱] شرح نهج البلاغة:ابن أبی الحدید ۵:۷۶۴\. ۹۰] cf۱] المصدر السابق ۵:۸۸۱. ۹۱\] cf۱] المصدر السابق ۱:۴۸۰\. ۹۲] cf۱] المصدر السابق ۱:۴۸۰\. ۹۳] cf۱] المصدر السابق ۳:۵۲۹\. ۹۴] cf۱] کتب وشخصیات:سید قطب ط دار الشروق\. ۹۵] cf۱] أی کفة الغلطة النفسیة لعمر. وکفة الغلطة النفسیة لمعاویة\. ۹۶] cf۱] کتب وشخصیات:سید قطب ص ۲۳۵، ۲۳۶، ۲۳۷، ۲۳۸، ۲۴۰، ۲۴۱، ۲۴۲، ۲۴۳.

الشهود

بعد أن قدمنا الآراء حول الأحداث، نقدم الشهود علی هذه الأحداث

بمعنی أن کل مساحة تاریخیة بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم سنقدم شاهدا منها، وفی النهایة یمکن أن نحکم علی المسیرة بوجه

عام، وهؤلاء الشهود اعتبرهم من الموازين التى يوزن بها الأحداث التى رصدتها فى هذا الكتاب، فشهادة الشهود هنا تلتقى مع النتيجة التى انتهى إليها هذا البحث. وشهود الفترة من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلى مقتل عثمان هم

[صفحه ۴۶۰]

أبى بن كعب وحذيفة بن اليمان، فأما شهادة أبى بن كعب فلقد سجلت حب الناس للدنيا فى عهد عمر. روى مسلم عن عبد الله بن الحارث قال: كنت واقفا مع أبى بن كعب فقال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم فى طلب الدنيا [" ۱] ، وأما شهادة حذيفة فلقد سجلت ظهور النفاق، روى البخارى عنه أنه قال ": إنما كان النفاق على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان [" ۲] ، وقال فيما رواه البخارى أيضا ": إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون [" ۳] وروى البزار بسند صحيح عن أبى وائل قال: قلت لحذيفة النفاق اليوم شر أم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فضرب على جبهته وقال: أوه، هو اليوم ظاهر إنهم كانوا يستخفون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [" ۴] .

أما الحلقة الثانية من الشهود فتمتد حتى عهد الوليد بن عبد الملك. فأبو برزة الأسلمى سجلت شهادته القتال على الملك خلال هذه الفترة. عن أبى المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام ووثب ابن الزبير بمكة ووثب القراء بالبصرة، انطلقت مع أبى إلى أبى برزة الأسلمى فقال أبى: يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فقال: إنى احتسبت عند الله أنى أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذى علمتم من الذلة والقلة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم حتى بلغ ما ترون، وهذه الدنيا أفسدت بينكم، إن ذاك الذى بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذى بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا [" ۵] .

[صفحه ۴۶۱]

وبعد شهادة القتال على الدنيا تأتى شهادة جابر بن عبد الله التى سجل فيها خروج الناس من دين الله أفواجا بعد أن دخلوه أفواجا، فعن أبى عمار قال: حدثنى جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءنى جابر يسلم على، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكى ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا [۶] ، ومات جابر بن عبد الله فى عهد عبد الملك، وبعد شهادة جابر تأتى شهادة أنس بن مالك التى سجل فيها ضياع كل شئ، روى البخارى عن الزهرى أنه دخل على أنس فوجده يبكى فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت، " وعن ابن عمران الجوفى قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم مما كنا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة قال: أولم تصنعون فى الصلاة ما قد علمتم [" ۷] .

وقد يقول قائل: ما معنى ضياع الصلاة على الرغم من أن الناس يصلون؟ فنقول: إن معنى الضياع هو تفريغ الصلاة من الخشوع كما فرغ القرآن. من التفسير، والخشوع يبهت إذا ابتعد الإنسان عن المصدر الذى يعله الكتاب والحكمة، ومعنى الضياع أيضا أن يتقرب الإنسان بها إلى الله وهو يعتقد أن الإله يمكن أن يرى وأن له أعضاء ويضحك ويبكى إلى غير ذلك. فالصلاة هنا مصدرها الوحيد عالم الضياع الذى ينتهى إلى هباء ضائع فى خلاء، ومن معانى الضياع إدخال ما ليس من الصلاة فى الصلاة أو سرقتها، وأول من وضع وتد السرقة من الصلاة معاوية بن أبى سفيان وما زالت سرقته جارية إلى يومنا هذا، يقول الإمام فخر الدين الرازى فى تصنيف له فى سورة الفاتحة: روى الشافعى بإسناده أن معاوية قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " ولم يكبر عند الخفض إلى الركوع والسجود، فلما سلم ناداه

[صفحه ۴۶۲]

المهاجرين والأنصار: يا معاوية سرقت الصلاة. أين بسم الله الرحمن الرحيم؟ أين التكبير عند الركوع والسجود؟ فأعاد الصلاة مع للتسمية والتكبير. قال الإمام الشافعى لولا أمر الجهر بالبسملة كان كالأمر المتقرر عند الصحابة من المهاجرين والأنصار لما قدروا على

إظهار الانكار عليه بسبب تركه، وهو حديث حسن أخرجه الحاكم والدار قطنى وقال: إن رجاله ثقات. وقد بينا أن هذا يدل على أن الجهر بهذه الكلمة كالأمر المتواتر فيما بينهم [" ٨] .

وإذا كان معاوية قد أعاد الصلاة فى المدينة، إلا أنه بالشام كان يقودهم إلى عالم ضياع الصلاة، وما فعله معاوية كان خطوة أكمل مسيرتها يزيد وعبيد الله بن زياد، وعبد الملك والحجاج بن يوسف، وأصول خطوات الضياع نجدها فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد. عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ": لينقض الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها. فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة [" ٩] .

فبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بفترة قصيرة كان صحابته الأوفياء يصلون سرا. روى البخارى عن حذيفة أنه قال: ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف [" ١٠] ، وفى رواية عند أحمد ومسلم " فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلى إلا سرا [" ١١] ، وعندما جاء عصر الوليد لم يكن الأمر يحتاج إلى أى سر لأن كل شئ قد ضاع وأصبح كل إنسان خائف، ولله الأمر والحكم، إنه الطريق الذى ضاعت عليه الصلاة هو نفس الطريق الذى تم فيه. عزل الراسخون فى العلم عن القرآن، ثم تفريغ القرآن نفسه بعد ذلك من تفسير النبى صلى الله عليه وسلم، والطريق الذى ضاعت فيه الصلاة تم تفريغ القرآن فيه هو نفس الطريق الذى رفعت على أعلام اللارواية عن

[صفحه ۴۶۳]

رسول الله، فبعد كل هذا لا عجب إذا رأيت النتيجة بعد ستين سنة من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ": يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر [" ١٢] .

أنظر إلى قوله ": يكون خلف " ثم تدبر القول، وعندئذ سترى طابورا طويلا يعرف بعضهم بعضا وإن لم يلتقوا، ثم انظر إلى قوله": يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم " ثم إرجع وتدبر عملية العزل والتفريغ، وعندئذ ستعلم أن هؤلاء نتيجة لا غبار عليها لمقدمة لا غبار عليها، ثم انظر إلى قوله ": ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر، " ثم ارجع وتدبر المعارك من أجل إقامة الدين والمعارك من أجل طلب الدنيا. أنظر! إن الجميع هنا وهناك يقرأون القرآن، ولكن لكل قراءة قبله، فالمنافق كافر به، والفاجر يتأكل منه، والمؤمن يؤمن به. الجميع يقفون على أرض واحدة وتحت أعلام الإسلام، ولكن الأهداف تحت الأعلام ليست واحدة. نعم. إن الجميع يقرأون القرآن، ولكن هل القرآن شفاء للجميع؟ عليك أن تتدبر قوله تعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) [١٣] ، هل تدبرت؟ إن كل حركة فى هذا الكون تخضع لرواية، وكل ساكن فى هذا الكون منظور، وما تسقط من ورقة إلا ويعلمها الذى خلقها، وكذلك الذين تفرقوا لن يجدى عنهم قراءة القرآن الذى لا يجاوز تراقيهم، فهم تحت الرقابة ينظر الله كيف يعملون. وسبحانه يعلم من قبل أن يتفرقوا أنهم سيتفرقون وأن طريق الافتراق سيقودهم إلى سنن الذين من قبلهم، وهناك تراهم على منحدرات الأودية كالغثاء العفن قال النبى صلى الله عليه

[صفحه ۴۶۴]

وسلم ": إن بنى إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة، فهلك سبعون فرقة خلصت فرقة واحدة، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة تهلك إحدى وسبعون وتخلص فرقة. قيل يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة الجماعة [" ١۴] .

أنظر إلى قوله ": الجماعة الجماعة " ثم انظر إلى الساحة التى يقرأ القرآن فيها ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر، ثم تدبر الأحداث والدوائر هل رأيت الجماعة؟ دعنا نكرر النظر ونعيد البحث، وهيا ننظر من جديد. والقرآن وتفسير النبى أخبرا بأن بعد الاختلاف والافتراق يكون الطريق مفتوحا إلى سنن الأمم السابقة. قال تعالى: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم - كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم

كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) [۱۵] ، إن المنافقين والكفار فى صدر الآية، فافهم ذلك، أما تفسير النبى لهذه الآيات رواه ابن جرير عن الربيع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية: حذركم الله أن تحدثوا فى الإسلام حدثا، وقد علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة، إنما حسبوا أن لا يقع بهم من الفتنة ما وقع ببنى إسرائيل قبلهم، وأن الفتن عائدة كما بدأت. وروى ابن جرير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال": لتأخذن كما أخذ الأمم من قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر وباعا بباع. حتى لو أن أحد من أولئك دخل حجر ضب لدخلتموه [" ۱۶] ، وروى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: ما أشبه الليلة بالبارحة " كالذين من قبلكم " هؤلاء بنو إسرائيل

[صفحه ۴۶۵]

شبهنا بهم، والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه [" ۱۷] لقد شهد ابن عباس " ما أشبه الليلة بالبارحة " ويا لها من شهادة!. وإذا أردنا أن نرصد شهادة على المساحة الزمنية الممتدة حتى عام ۱۶۱ ه فلن نجد أفضل من شهادة سفيان الثورى، فلقد جاء فى زمن لا يدرى فيه القاتل فى أى شئ قتل ولا يدرى المقتول فى أى شئ قتل [۱۸] يقول ابن كثير: سفيان الثورى أحد أئمة الإسلام وعبادهم والمقتدى به، وقال يحيى بن معين وغير واحد: هو أمير المؤمنين فى الحديث وقال شعبة: ساد الناس بالورع فى زمانه وقال أحمد: لا يتقدمه فى قلبى أحد [۱۹] وكان سفيان كثير الحط على المنصور

لظلمه وأراد المنصور قتله مما أمهله الله [۲۰] وحاول المهدى إغراؤه بالمال

والمنصب وكتب له على قضاء الكوفة، فرمى سفيان الكتاب فى دجلة وهرب [۲۱] وكان يقول: من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فهو شريكهم فى كل

دم [۲۲] وعندما قرأ حديث " هلاك أمتى على أيدى غلمة من قريش سفهاء " قال:

ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال [۲۳] وكان يقول ليوسف بن أسباط: يا يوسف

لا- تكن من قراء الملوك، ولا- تكن فقيه السوق، وما أقبح قراءة ليس معها زهد، وأن دعاك الملوك على أن تقرأ عليهم (قل هو الله أحد) فلا تفعل [۲۴] وقال

له: ما رأينا الزهد فى شئ أقل منه فى الرآسة، ترى الرجل يزهد فى المال والثياب والمطعم، فإذا نوزع فى الرياسة، جابى عليها وعادى [۲۵] .

[صفحه ۴۶۶]

كانت هذه حركة سفيان حتى وفاته عام ۱۶۱ ه وإذا أردنا أن نقدم شهادة سفيان فإننا فى الوقت نفسه نقدم حركته. وفى شهادته على عصره سألوه معاملة الأمراء أحب إليك أم غيرهم؟ فقال: معاملة اليهود والنصارى أحب إلى من معاملة هؤلاء الأمراء [۲۶] وقال: القبول مما فى أيديهم من استحلال المحارم،

والتبسم فى وجوههم علامة الرضا بفعالهم، وإدمان النظر إليهم يميت القلب [۲۷] وقال: لا- تنظروا إلى الأئمة المضلين إلا بإنكار قلوبكم عليهم لئلا

تحبط أعمالكم [۲۸] .

هذا هو سفيان الثورى الذى وصف بأنه أمير المؤمنين فى الحديث، ولكن أين ذهب فقه هذا الشيخ؟ وقد قال عنه ابن العماد: ومات سفيان بالبصرة متواريا، وكان صاحب مذهب، وقال ابن رجب: وجد فى آخر القرن الرابع سفيانيون ومناقبه تحتمل مجلدات [" ۲۹] ، فى الحقيقة ما كان لفقه الباحث عن الحقيقة أن يبقى فى عالم طعامه أشبه بطعام الدجال. لقد رفسوا فقهه بعد مماته بعد أن رفسوه فى حياته، ولقد تتبعت رحلة البحث لهذا الشيخ فما وجدت عليها إلا التعتيم الشديد، الأمر الذى دعانى للبحث عنه فى مصادر عديدة كى أقف على ما وصل إليه، وفى بحار الأنوار قرأت أن سفيان الثورى سمع حديثا يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم: نعيت إلى نفسى....

نصـر الله امرءا سـمع مقالتی فوعاها وبلغها من لم یسـمعها، فرب حامل فقه غیر فقیه، ورب حامل فقه إلی من هو أفقه منه، ثلاث لا یغل علیهم قلب امرئ مسـلم: إخلاص العمل لله، والنصـیحهٔ لأئمهٔ المسـلمین واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محیطهٔ من ورائهم، أیها الناس إنی تارک فیکم ما إن تمسـکتم به لن تضـلوا ولن تزلوا کتاب الله وعترتی أهل بیتی، فإنه قد نبأنی اللطیف الخبیر أنهما لن یفترقا حتی یردا علی

[صفحه ۴۶۷]

الحوض [" ۳۰] ، وعندما سـمع سـفیان الثوری هذا الحدیث الذی جاءه عن طریق أهل البیت قال لصاحبه: کما أنت حتی أنظر فی هذا الحدیث. فقال صاحب سـفیان: ثلاث لا یغل علیهم قلب امرئ مسـلم: إخلاص العمل قد عرفناه والنصـیحهٔ لأئمهٔ المسـلمین، من هؤلاء الأئمـهٔ الذین یجب علینا نصـیحتهم؟ معاویهٔ بن أبی سـفیان ویزید معاویهٔ ومروان بن الحکم وکل من لا تجوز شـهادته عندنا ولا تجوز الصـلاهٔ خلفهم. وقوله: واللزوم لجماعتهم، فأی جماعـهٔ؟ مرجئ یقول: من لم یصل ولم یصم ولم یغتسل من جنابهٔ وهدم الکعبهٔ ونکح أمه فهو علی إیمـان جبریل ومیکائیل، أو قـدری یقول: لا یکون ما شاء الله عز وجل ویکون ما شاء إبلیس، أو حروری یبرأ من علی بن أبی طالب وشـهد علیه بالکفر، أو جهمی یقول: إنما هی معرفـهٔ الله وحـده لیس الإیمان شـئ غیرها [۳۱] فقال له سـفیان: ویحک وأی شئ یقولون قال: یقولون: إن علیا

والله الإمام الذی یجب علینا نصیحته ولزوم جماعهٔ أهل بیته [" ۳۲] .

وسمع سفیان حدیث " من قاتلنا آخر الزمان فکأنما قاتلنا مع الدجال [" ۳۳] .

عندئذ علم سفیان أن الأمراء ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال [۳۴] وبدأ یمسک

بخیط البحث عن الحقیقـهٔ. روی أبو الفرج الأصـفهانی عن أبی عوانـهٔ قال: فارقنی سـفیان علی أنه زیدی [۳۵] وانطلق الشیخ فی رحلهٔ البحث، واندثر فقهه ومذهبه،

وما عنـد الله خیر وأبقی. وفی دائرهٔ الشـهود أمامنا العدیـد من الرجال والکثیر من الأحادیث، وکل دائرهٔ فیها شـهادهٔ وکل شـهادهٔ حجهٔ بذاتها، وإلیک حدیثا جاء علی لسان أمراء

[صفحه ۴۶۸]

المؤمنین لیکون شاهـدا علیهم یوم لاـ ینفع مال ولا بنون إلا من أتی الله بقلب سلیم. عن إبراهیم بن سـعید الجوهری قال: حـدثنی أمیر المؤمنین المأمون حـدثنی أمیر المؤمنین الرشـید حـدثنی أمیر المؤمنین المهدی قال: دخل علی سـفیان الثوری، فقلت: حدثنی بأحسـن فضـیلهٔ عندک لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب، فقال سفیان: حدثنی سلمهٔ بن کهیل عن حجیهٔ عن علی بن أبی طالب قال رسول الله صلی الله علیه وسلم لعلی: أنت منی بمنزلهٔ هارون من موسی [۳۶] وعن موسی الجهنی قال: دخلت علی فاطمهٔ بنت علی، فقال لها رفیقی أبو سـهل: کم لک؟ قالت: ست وثمانون سـنهٔ. قال: ما سـمعت من أبیک شیئا؟ قالت: حدثتنی أسماء بنت عمیس أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال لعلی: أنت منی بمنزلهٔ هارون من موسی إلا أنه لیس بعدی نبی [" ۳۷] .

فهـذا الحـدیث فی هذه الأزمنهٔ حجهٔ علی الخاص والعام، وبین أیدینا أیضا حدیث رواه أبناء الصـحابی الجلیل عمار بن یاسـر، ونقدمه هنا فی دائرهٔ الشـهود فعن أبی عبیدهٔ بن محمد بن عمار بن یاسـر عن أبیه عن جده قال: قال النبی صلی الله علیه وسلم: أوصی من آمن بی وصـدقنی بولایـهٔ علی بن أبی طـالب، فمن تولاه فقـد تولانی، ومن تولانی فقـد تولی الله، ومن أحبه. فقـد أحبنی، ومن أحبنی فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضنی، ومن أبغضنی فقد أبغض الله عز وجل [" ۳۸] ، وعنه أیضا قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: اللهم من آمن بی وصدقتی فلیتول علی بن أبی طالب، فإن ولایته ولایتی وولایتی ولایهٔ الله [" ۳۹] .

وبین أیـدینا حدیث رواه أبناء الصـحابی أبی رافع، نقدمه أیضا فی دائرهٔ الشـهود، عن محمد بن عبد الله بن أبی رافع عن أبیه عن جده قال: قال رسول الله

[صفحه ۴۶۹]

صلى الله عليه وسلم ": من أحب عليا فقد أحبنى. ومن أحبنى فقد أحب الله. ومن أبغضه فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله" [۴۰].

وهكذا التقى البدء مع الختام وكل نتيجة سقطت على مقدمتها، وعلى امتداد الرحلة كانت النتائج تنطق بلسان فصيح وكانت المقدمات تشع لتراها العصور البعيدة، وعلى امتداد الزمان كان هناك رجال يتكلمون من كلامهم تنكشف حقائق أمام الباحثين الذى يبحثون عن المقدمات أو الذين يتأملون فى النتائج، ومن هذه الأقوال قول الحسن البصرى: أفسد أمر الناس اثنان عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف فحملت... فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، والمغيرة بن شعبة الذى بث فى معاوية البيعة ليزيد من بعده، ثم خرج يقول: وضعت رجل معاوية فى غرز نحس لا يزال فيه إلى يوم القيامة. ثم قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم [" ۴۱] ، وروى أن الحسن كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله عليا، وقتله حجر بن عدى واستلحاقه زياد بن أبيه ومبايعته ليزيد ابنه [" ۴۲] ، فهذه شهادة الحسن البصرى على بعض أحداث عصره ويمكن بتتبعها أن يصل الباحث إلى مقدماتها، وهناك أيضا شهادة عروة بن بلحة قال: أول ذل دخل على العرب قتل الحسين بن على وادعاء زياد [۴۳] وفى رواية عن أبى إسحاق بزيادة: وقتل حجر بن عدى [۴۴] وهذه كلها

مقدمات لفحص معاوية وفتح خزانته، أما التصنم أمام قول ابن كثير ": إن معاوية هو ستر الصحابة، فإذا كشف الستر اجترأ على ما وراءه [" ۴۵] ، فإنه لن يقيد باحثا، فالصحابة أجل من أن يندثروا برداء وستر معاوية وأتباعه. وفى دائرة الشهود نستمع إلى قول الحافظ الذهبى فى تاريخ الإسلام،

[صفحه ۴۷۰]

حيث يقرر أن علماء الجرح والتعديل ابتعدوا عن أى قول من الأمراء وأبناء الأمراء خوفا من السيف، وعلى هذا يمكن القول إن كلمة الحق كانت ترتعش على السطور فى تلك الأزمنة، ولم تفسح السطور إلا لما يريده النظام، فبينما لا تكتب كلمة واحدة فى الأمراء وأبنائهم، نجدهم يجرحون علماء الدراية الذين لا ينامون أمام خزائن السلطان، على سبيل المثال جاء فى ترجمة جعفر بن سليمان كما ذكر صاحب كتاب التقريب: جعفر بن سليمان الضبعى أبو سلمان البصرى صدوق زاهد لكنه كان يتشيع. وقال فى التهذيب: كان جعفر إذا ذكر معاوية شتمه وإذا ذكر عليا قعد يبكى [۴۶] وكان هذا البكاء كافيا لرفسه كما رفس سفيان

الثورى من قبل. وفى الختام أقول: هيا نتفق على أن الجميع خلفاء بما فيهم خلفاء الدولة الأموية والدولة العباسية ومن جاء بعدهم. الجميع بلا استثناء خلفاء ونحن نقر هنا بذلك، ولكن الأهم من هذا كله ممن نأخذ السنة؟ فهنا كما يقولون مربط الفرس. إن العمل بالسنة صفحته القرآن فأى حبل نأخذ به شرط أن يكون قرينا للقرآن؟ إننا هنا لانتصر للقبائل والأحزاب، ولكننا نريد دثار الإسلام وحده، نريد أن نسير فى ظلاله، وإذا كانت هناك كلمة، فإنى أوجهها للباحثين فأقول: أقدموا على الإسلام وهو ليس غائبا عنكم، هو فيكم ومعكم حجة عليكم، ولكى تنصهروا فيه فلا بد أن تنتقلوا من دائرة الشعار إلى دائرة الشعور، فدائرة الشعور هى نفسها دائرة الغرباء، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء [" ۴۷] ، قال النووى: أى أن الإسلام بدأ فى آحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر، ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا فى آحاد وقلة أيضا كما بدأ [۴۸] وقيل: ظهر فى الغربة وسيعود من

بلاد الغربة...

[صفحه ۴۷۱]

كونوا فى دائرة الغرباء. والغربى هو الذى يفر من مدينة إلى مدينة ومن قلة إلى قلة ومن بلد إلى بلد ومن بر إلى بحر ومن بحر إلى بر، ومن أوراق إلى أوراق حتى يسلم وأنى له بالسلامة مع هذه النيران التى طافت بالشرق والغرب وأتت على الحرث والنسل، فكممت

الأفواه وأسكتت كل ناطق وحيرت كل لبيب!! ومع هذا كله فالغريب يسير وهو قابض على الجمر، كونوا فى دائرة الغرباء لأن هذه الدائرة فيها إخوان النبى صلى الله عليه وسلم. قال السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام ": متى ألقى إخوانى. قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابى، وإخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى، أنا إليهم بالأشواق [" ۴۹] .

وفى الختام أقدم الشاهد الأخير. قال النبى صلى الله عليه وسلم: يجئ يوم القيامة المصحف والمسجد والعترة، فيقول المصحف: يا رب حرقونى ومزقونى، ويقول المسجد: يا رب خربونى وعطلونى وضيعونى، وتقول العترة: يا رب طردونا وقتلونا وشردونا. قال النبى: وأجثو بركبتى للخصومة، فيقول الله: ذلك إلى وأنا أولى بذلك [" ۵۰] .

وأصلى وأسلم على خاتم النبيين محمد النبى الأمى العربى القرشى الهاشمى المكى المدنى صلى الله عليه وسلم الطيبين الطاهرين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة ۱۹ صفر ۱۴۱۴ ه

۸ أغسطس ۱۹۹۳ م

[۱] رواه مسلم ك الفتن (الصحيح ۱۹:۱۸).

[۲] البخارى ك الفتن (الصحيح ۲۳۱:۴).

[۳] البخارى ك الفتن (الصحيح ۲۳۰:۴).

[۴] رواه البزار (فتح البارى ۷۴:۱۳).

[۵] رواه البخارى (الصحيح ۲۳۰:۴).

[۶] رواه أحمد والسيوطى فى الجامع ورمز له بالحسن (الفتح الربانى ۷:۲۴).

[۷] رواه أحمد والترمذى من غير وجه عن أنس (الفتح الربانى ۹۹:۱).

[۸] تبسيط علوم الحديث:نجيب المطيعى ص ۶۸.

[۹] رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم (كنز العمال ۲۳۸:۱).

[۱۰] رواه البخارى (الصحيح ۱۸۰:۲) ك الجهاد والسير.

[۱۱] رواه أحمد (الفتح الربانى ۴۰:۲۳) مسلم (الصحيح ۱۷۹:۲).

[۱۲] رواه أحمد وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۱:۶) وقال ابن كثير تفرد به أحمد وإسناده جيد قوى (البداية ۲۲۸:۶) ولم يتفرد به أحمد كما زعم ابن كثير. ورواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۵۰۷:۴) ورواه البيهقى (الخصائص الكبرى ۲۳۶:۲) ورواه ابن حبان فى صحيحه (كنز ۱۹۵:۱۱).

[۱۳] سورة الإسراء: الآية ۸۲.

[۱۴] رواه أحمد (الفتح الربانى ۶:۲۴) والترمذى وصححه (الجامع ۴۵:۴) وابن أبى عاصم وقال الألبانى صحيح وله ست طرق عن أنس وشواهد من جميع الصحابة (كتاب السنة ۳۲:۱).

[۱۵] سورة التوبة: الآية ۶۸ – ۶۹.

[۱۶] ابن جرير فى تفسيره ۱۲۲:۱۰.

[۱۷] ابن جرير فى تفسيره ۳۶۸:۲.

[۱۸] الحديث رواه مسلم (الصحيح ۳۴:۱۸).

[۱۹] البداية والنهاية ۱۳۴:۱۰، شذرات الذهب:ابن العماد ۲۵۰:۱.

[۲۰] شذرات الذهب ۲۵۰:۱.

[۲۱] شذرات الذهب ۱:۲۵۰.

[۲۲] کتاب الورع:أحمد بن حنبل ص ۹۳.

[۲۳] المصدر السابق ص ۹۴.

[۲۴] المصدر السابق ۹۵.

[۲۵] المصدر السابق ۹۶.

[۲۶] المصدر السابق ۹۶.

[۲۷] المصدر السابق ۹۶.

[۲۸] المصدر السابق ۹۶.

[۲۹] شذرات الذهب ۱:۲۵۱.

[۳۰] الرسول تحدث بهذا الحدیث فی غدیر خم. ثم حدث به فی مسجد الخیف قبل أن یلقی الرقیق الأعلی (بحار الأنوار ۶۹ – ۲۷).

[۳۱] أی إیمان بلا عمل.

[۳۲] بحار الأنوار ۲۷:۷۰.

[۳۳] بحار الأنوار ۲۷:۲۰۵.

[۳۴] الورع:أحمد بن حنبل ص ۹۴.

[۳۵] مقاتل الطالبین ص ۱۴۱.

[۳۶] رواه ابن النجار (کنز العمال ۱۳:۱۵۱).

[۳۷] رواه أحمد والطبرانی ورجال أحمد ثقات (الفتح الربانی ۲۷:۱۲۹).

[۳۸] رواه الطبرانی فی الکبیر وابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۶۱۰).

[۳۹] رواه الطبرانی فی الکبیر (کنز ۱۱:۶۱۱).

[۴۰] رواه الطبرانی عن ابن أبی رافع وعن أم سلمة (کنز ۱۱:۶۲۲).

[۴۱] تاریخ الخلفاء ۱۹۲.

[۴۲] البدایة والنهایة ۸:۱۳۰، الطبری ۶:۱۵۷.

[۴۳] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۹۶).

[۴۴] مقاتل الطالبین ۸۳، ابن أبی الحدید ۴:۱۸.

[۴۵] البدایة والنهایة ۸:۱۳۹.

[۴۶] تحفة الأحوذی ۱۰:۲۱۴.

[۴۷] رواه مسلم وابن ماجة والطبرانی (کنز العمال ۲:۱۷۷).

[۴۸] مسلم بشرح النووی ۲:۱۷۷.

[۴۹] رواه أبو یعلی عن أنس وابن عساکر عن البراء (کنز العمال ۱۲:۱۸۴) ورواه أحمد بلفظ: وددت أنی لقیت إخوانی الذین آمنوا بی ولم یرونی (کنز العمال ۱۲:۱۶۴).

[۵۰] رواه الدیلمی عن جابر. وأحمد والطبرانی عن أبی أمامة (کنز العمال ۱۱:۱۹۳).

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹